
مركز دلائل
Dala'il Centre
DALAIL
ردود علماء الغرب
على الإلحاد المُعاصر
(عرض ونقد)
(الجزء الأول)
د. جوهانس كلومنك
(د. عبدالله السويدي)

رُدودُ علماءِ الغربِ على الإلحادِ المُعاصر

(عرضٌ ونقد)

- الجزء الأول -

رسالةٌ علميَّة

لنيْل درجةِ العالميةِ العاليةِ؛ الدكتوراه

إعدادُ

د. جوهانس كلومنك

(د. عبدالله السويدي)

إشرافُ فضيلة الأستاذ الدّكتور

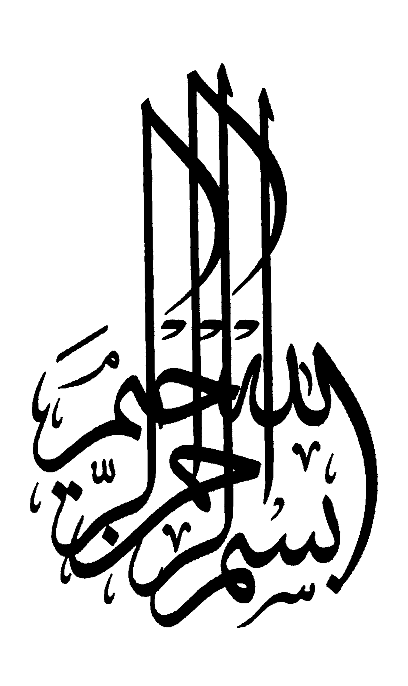
صالح بن عبد العزيز سندي

ح دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

ردود علماء الغرب على الإلحاد المعاصر - عرض ونقد
د. جوهانس كلومنك (د. عبدالله السويدي)
١١٨٠ صفحة، ١٧ × ٢٤ سم - (٣ أجزاء)
ترقيم دولي: ٠ - ٣ - ٨٦٢٠٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

DALAIL
مركز دلائل
Dala'il Centre
Dalailcentre@gmail.com
الرياض - المملكة العربية السعودية
Dalailcentre@
+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠



الملخّص

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلام على أشرفِ الأنبياء والمرسلين؛ نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبِه أجمعين. أمّا بعد:

فهذه رسالةٌ علمية لنيْل درجةِ الدكتوراه في الجامعة الإسلامية، بعنوان: «**ردودُ علماءِ الغرب على الإلحادِ المُعاصر - عرضٌ ونقد -**». والهدفُ منها: عرضُ ردود العلماءِ في العالم الغربي على الملاحدةِ المعاصرين، ثمّ تقييمُ هذه الردود في ميزانِ العقيدة الإسلامية. فلدَى علماءِ الغرب خبرةٌ طويلة في مناقشةِ الملاحدة في القضايا العلمية والعقلية، وقد صنّفوا في ذلك كثيرًا من الكتُب والأبحاث والمقالاتِ العلمية، إضافةً إلى قيامِهم بمناظرة الملاحِدة في مناظرات.

ويمكن للمسلِم أن يستفيدَ من هذه الردودِ في مناقشة المتأثّرين بالخطاب الإلحادي في العالم الإسلامي. ولكنّ ردودَ علماء الغرب تشتملُ على عددٍ من المخالفات العقديَّة؛ لأنَّها صادرةٌ من أتباع ديانات مُخالفة للإسلام. ولهذا كان لا بدَّ من دراستها دراسةً متأنِّية وناقدة.

وقد قسّمت الرسالةَ إلى مقدّمة وتمهيدٍ وثلاثة أبواب وخاتمة:

- **التَّمهيد**: يشتملُ على مقدّمات عن الإلحاد ونقدِه.
- **البابُ الأوّل**: يتضمّن ردودَ علماء الغرب على أسسِ الإلحاد، وأساليبهم، ووسائلهم.
- **البابُ الثّاني**: مخصَّصٌ لحجج علماءِ الغرب على وجودِ الله. وذكرتُ فيه حججَهم العقلية، والعلمية، والحسيَّة.
- **البابُ الثّالث**: يشملُ ردودَ علماء الغرب على شُبهات الملاحدة. وذكرتُ فيه ردودَهم على شُبهات الملاحدة العقلية، والعلمية، والعاطفية.
- **الخاتمة**: ذكرتُ فيها أهمَّ النَّتائج والتوصيات، إضافةً إلى الفهارس العلمية.

والحمدُ لله أوّلًا وآخرًا، وصلَّى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

Abstract

All praise is due to Allah the Lord of all worlds. May Allah exalt and send blessings to the most noble of all prophets and messengers: our prophet Muhammad, and all of his family and companions.

This is a scientific thesis for obtaining a doctorate degree at the Islamic University in Madinah, entitled: "Western Scholars' Responses to Contemporary Atheism-Presentation and Criticism-". It aims to present the responses of scientists, philosophers and theologians in the Western world to contemporary atheism, and then evaluate these responses in the light of the Islamic creed. Western scholars have a long experience of refuting atheists in scientific, rational and theological issues. They have compiled thousands of books, studies and articles on this subject. In addition to that, they have debated atheists hundreds of times.

These responses contain many benefits that a Muslim can benefit from in discussing those affected by the atheistic discourse in the Islamic world, and this is what a number of Muslims interested in this subject have done. However, the responses of Western scholars include a number of doctrinal mistakes, based on the religions they follow. That is why it was necessary to study their responses in a careful and critical way. The thesis was divided into an introduction, a preface, three chapters and a conclusion.

The introduction: it includes introductions to and criticism of atheism.

The first chapter: includes the responses of Western scholars to the foundations of atheism, and the methods and means of atheists.

The second chapter: is devoted to arguments of Western scholars for the existence of God. It mentioned their rational, scientific and sensory arguments.

The third chapter: includes the responses of Western scholars to the doubts spread by the atheists. I divided the chapter into their responses to the rational, scientific and emotional doubts.

The ending: I mentioned in it the most important conclusions from the thesis and recommendations to the readers, in addition to scientific indexes.

All praise is due to Allah in the beginning and the end. May Allah exalt our prophet Muhammad, his family and companions.

الافتتاحية

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسِنا، ومِن سيِّئات أعمالنا. مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له. وأشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله ﷺ.

أمّا بعد:

فإنَّ أهمَّ قضايا الدين وأعظمَها وأجلَّها: الإيمانُ بالله - عزَّ وجلَّ -، وإفرادُه بالعبودية. وإنَّ الإيمان بالله مركوزٌ في فِطَر الخلائق، وقد دلَّت عليه دلائلُ لا تعدُّ ولا تُحصى، حتَّى قالتِ الرسلُ لأقوامهم: أفي الله شكٌّ فاطر السماوات والأرض. وقال الشاعر:

فيا عجبًا كيف يُعصى الإله	**أم كيف يجحدُه الجاحدُ**
ولله في كلِّ تحريكة	**علينا وتسكينةٍ شاهدُ**
وفي كلِّ شيء له آية	**تدلُّ على أنَّه الواحد[1].**

ولهذا كان إنكارُ وجود الخالق غيرَ مُنتشر قديمًا، وكان يعدُّ أمرًا في غاية الشذوذ والقلَّة. ومعَ وضوحِ هذه المسألة وجلائها فإنَّه قد انتشرَ الإلحادُ في العالم بشكلٍ ملحوظ في الآونةِ الأخيرة. وحيث إنَّ العالم قد أصبح كقريةٍ واحدة، وسهل التواصل بين المجتمعات، والتنقُّلات بينَ الدول، وازدادَ ابتعاثُ شبابِ المسلمين إلى دولٍ يكثر فيها الإلحاد، فإنَّ الإلحاد بدأ ينتشرُ وينمو في بعضِ المجتمعات الإسلامية.

وقد كان لعلماءِ الغرب ردودٌ متميِّزة على الإلحادِ المعاصر، والنظريات العلمية والفلسفية التي يستندُ إليها الملاحدة. وقد ألّفوا في ذلك كثيرًا من المؤلَّفات، وعقدوا بسببِه المؤتمرات والندوات، وأفحموا الملاحدةَ في المجادلات والمناظرات، ونقدوا

---

(١) ديوان أبي العتاهية (١٠٤).

شبهاتهم عبرَ التِّلفاز والإذاعة، وغيرها من وسائلِ الإعلام والتَّواصل. فكان في كلامهم كثيرٌ من الحججِ القوية، والبراهين المفيدة، ونقد شُبهات الملاحدة الهزيلة. وذلك بسبب خبرتهم الطَّويلة في نقدِ الإلحاد. ولكن، حيث إنَّ علماء الغرب قد انطلقوا في ردودهم على الإلحادِ من عقائدَ فاسدةٍ ومذاهب منحرفة، فلا يسلم كلامُهم من النقص والخلل، فتنبغي الاستفادةُ مما عندهم من الصَّواب، ونقد وتقويم ما وقعوا فيه من الأخطاء.

وقد استخدمَ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله) هذه الطريقةَ في كثيرٍ من ردوده على أهل الباطل، ونصَّ على أنها طريقةٌ نافعة؛ إذ قال: «وهذا أعظمُ ما يُستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالُهم باطلة؛ فإنَّه يُستفاد من قول كلِّ طائفة بيانُ فساد قول الطَّائفة الأخرى؛ فيعرف الطالبُ فسادَ تلك الأقوال، ويكون ذلك داعيًا له إلى طلبِ الحق. ولا تجد الحقَّ إلّا موافقًا لما جاء به الرسول ﷺ ولا تجد ما جاءَ به الرسول ﷺ إلّا موافقًا لصريح المعقول»[1]. وقال (رحمه الله): «ومعَ هذا، فيُستفاد من كلامهم نقضُ بعضِهم على بعض، وبيانُ فساد قوله، فإنَّ المختلفين كلّ كلامهم فيه شيء من الباطل، وكلّ طائفة تقصد بيانَ بطلان قولِ الأخرى، فيبقى الإنسانُ عندَ دلائل كثيرة تدلُّ على فسادِ قولِ كلِّ طائفة من الطّوائف المختلفين في الكتاب»[2]. وهذه الطريقة ستكون نافعةً جدًّا في نقد الإلحاد كذلك في نظري.

ولذا، فإني قد رأيتُ بعدَ استشارة بعضِ المشايخ الفضلاء أن يكون موضوعُ رسالتي لنيْل درجة الدكتوراه بعنوان:

«ردودُ علماءِ الغرب على الإلحاد المعاصر - عرضٌ ونقد -»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١٤).

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٧٦).

(٣) مع التنبيه على أنّي أطلقتُ وصف «علماء» ومرادي الاصطلاح المعاصر الدارج الذي يطلق على المتخصِّصين في العلوم التجريبية والكونية والفلسفية ونحوها.
والمقصودُ بالغرب: الولايات المتحدة، وكندا، ودولُ الاتحاد الأوروبي مع بقية دول أوروبا الغربية الخارجة عن الاتحاد، إضافة إلى أستراليا ونيوزيلندا.

أهميةُ البحث وأسبابُ اختياره

اخترتُ هذا الموضوع لأسبابٍ كثيرة:

١) انتشارُ الإلحاد بشكلٍ ملحوظٍ في الآونة الأخيرة في أنحاء العالم، ونموُّه بنموٍّ متزايد في الدّول الإسلامية، ومعَ ذلك فإنَّ البحوث العلمية المتقنة حول هذا الموضوع قليلة، فالكتابةُ في الموضوع في غاية الأهمية.

٢) اهتمامُ علماء الغرب بالردِّ على الإلحاد منذُ قرون، وكثيرٌ من ردودهم قوية ومفيدة، ويُستفاد منها فوائدُ عظيمة، فينبغي إبرازُ هذه الردود باللغةِ العربية والاستفادة منها.

٣) وقوعُ كثيرٍ من الشباب المتأثرين بالأفكار الإلحادية في الدول العربية في هزيمة نفسية أمامَ الغرب، فإبرازُ أنَّ طائفة كبيرة من علماء الغرب أنفسهم نقدوا الإلحادَ والنَّظريات العلمية الإلحادية من الأهميةِ بمكان.

٤) ردودُ علماء الغرب مع أنَّها قوية في كثيرٍ من الجوانب، فإنها ضعيفةٌ من جوانب أخرى، وذلك أنَّ أصحابها انطلقوا من عقائدَ فاسدةٍ ومذاهبَ باطلة، فوقعوا في النَّقص والخلل. وهذا النقصُ بحاجةٍ إلى نقدٍ وتقويم من منظور إسلامي.

٥) الضَّعفُ الموجود في كثيرٍ من الكتب عن الإلحادِ باللغة العربية، إمّا من ناحية عقائد مؤلِّفيها، وإمّا من ناحية عدم الإتقان، لا سيَّما في جانب النظريات العلمية التَّجريبية التي للغربِ فيها تقدُّمٌ لا يجحَد. والمكتبة العربية بحاجةٍ عظيمة إلى إثرائها برسائلَ علمية تعالج هذا الموضوعَ الخطير.

الدراساتُ السابقة

لم أقفْ - فيما اطَّلعت عليه - على مؤلَّف في هذا الموضوع، فضلًا عن رسالة علميَّة أو بحث محكَّم. ولكنْ وقفت على بعضِ الرسائل العلمية والبحوث المحكَّمة حولَ موضوعِ الإلحاد، وكلُّها بحوث عامَّة، منها:

١) الفكرُ الإسلامي في مواجهة التيار الإلحادي، رسالة دكتوراه، لميصر سليمان محمد، ١٤٠٦هـ.

٢) الإلحادُ المعاصر: نشأته، وأسبابُه، ونقدُ أسسه، لأحمد محمد أحمد جلي، مركز البحوث التربوية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، ١٤١٣هـ.

٣) الإلحادُ وآثارُه في الحياةِ الأوروبية الحديثة، لصالح إسحاق بامبا إسحاق، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠١هـ.

٤) الإلحادُ وسببُ انتشاره، لمحمود يوسف محمد الشوبكي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، قسم العقيدة.

٥) جهودُ المفكِّرين المسلمين المحدثين في مقاومةِ التيار الإلحادي، للدكتور محمود عبد الحليم عثمان، رسالة ماجستير، ثمَّ طبعتْه مكتبة المعارف عام ١٤٠١هـ.

٦) الإلحادُ المعاصر في الذّات الإلهية عبرَ مواقع الشبكات العنكبوتية - عرضًا ودراسة -، رسالة ماجستير، بحثٌ تكميلي، لعبد العزيز بن محمد السريهيد، عام ١٤٣٤هـ.

٧) جهودُ ابن القيم - رحمَه الله - ومنهجُه في الرَّد على الملاحدة، وأثرُه على مَن بعده، رسالة الدكتوراه، الجامعة الإسلامية، لعبد الله بن حسين السعيد.

٨) منهجُ القرآن الكريم في دحْض شُبهات الملحدين، رسالة ماجستير في جامعة أمّ القرى، لأفنان حمد الغماس.

هذه البحوثُ وإنْ كانت تتعلّق بموضوع الإلحاد، إلّا أنّها لم تفردْ لمناقشة ردودِ علماء الغرب على الملاحدة.

خطَّةُ البحث

سرتُ - ولله الحمدُ والمنَّة - في هذه الرسالة وفقَ خطَّة اشتملت على: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، ثمَّ فهارس.

المقدِّمة:

اشتملتْ على الافتتاحية، وأهمية الموضوع، وأسبابِ اختياره، والدراسات السابقة، وخطَّة البحث، ومنهجه.

التَّمهيد في مقدِّمات حولَ الإلحاد ونقده، وفيه سبعةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل:** تعريفُ الإلحاد.
- **المبحثُ الثّاني:** أقسامُ الملاحدة.
- **المبحثُ الثّالث:** تاريخُ الإلحاد.
- **المبحثُ الرّابع:** خطورةُ الإلحاد.
- **المبحثُ الخامس:** أشهرُ دعاة الإلحاد الجديد.
- **المبحثُ السّادس:** وسائلُ نشر الإلحاد.
- **المبحثُ السّابع:** تاريخُ نقد الإلحاد.

البابُ الأوّل: ردودُ علماء الغرب على أسسِ الإلحاد، وأساليبهم ووسائلهم.

وفيه ثلاثةُ فصول:

الفصلُ الأوَّل: ردودُهم على أسسِ الإلحاد المعاصر، وفيه ستةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل:** المذهبُ المادي.

- **المبحث الثّاني**: تعظيمُ العلم التجريبي.
- **المبحثُ الثّالث**: تعظيمُ العقل.
- **المبحثُ الرّابع**: الشكُّ ونسبيةُ الحقائق.
- **المبحثُ الخامس**: تعظيمُ الصدفة.
- **المبحثُ السّادس**: نقدُ ردود علماء الغرب على أسس الإلحادِ المعاصر.

الفصلُ الثّاني: **أساليبُهم في الرُّدود على الملاحدة، وفيه سبعةُ مباحث**:

- **المبحثُ الأوَّل**: بيانُ مغالطات الملاحدة المنطقية.
- **المبحثُ الثّاني**: بيانُ شطحات الملاحدة.
- **المبحثُ الثّالث**: بيانُ تناقضات الملاحدة.
- **المبحثُ الرّابع**: بيانُ ضعف خطاب الملاحدة.
- **المبحثُ الخامس**: بيانُ مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي.
- **المبحثُ السّادس**: بيانُ الشرور المترتبة على الإلحاد.
- **المبحثُ السّابع**: نقدُ أساليب علماءِ الغرب في الردودِ على الملاحدة.

الفصلُ الثّالث: **وسائلُهم في الردودِ على الإلحاد، وفيه سبعةُ مباحث**:

- **المبحثُ الأوَّل**: تأليفُ الكتب.
- **المبحثُ الثّاني**: عقدُ المناظرات.
- **المبحثُ الثّالث**: البرامجُ والمقاطع المرئية.
- **المبحثُ الرّابع**: النشرُ في وسائل الإعلام.
- **المبحثُ الخامس**: النشرُ في وسائل التواصل الحديثة.
- **المبحثُ السّادس**: إصلاحُ العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية.
- **المبحثُ السّابع**: نقدُ وسائل علماء الغرب في الردود على الإلحاد.

البابُ الثّاني: حججُ علماءِ الغرب على إثبات وجود الله، وفيه ثلاثة فصول:

الفصلُ الأوَّل: حججُهم العقلية على إثباتِ وجود الله، وفيه عشرةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل:** حجةُ الفطرة.
- **المبحثُ الثّاني:** الحجةُ الكونية.
- **المبحثُ الثّالث:** الحجةُ الغائية.
- **المبحثُ الرّابع:** حجةُ التوافق الدقيق للكون.
- **المبحثُ الخامس:** حجةُ الجمال.
- **المبحثُ السّادس:** الحجةُ الوجودية.
- **المبحثُ السّابع:** الحجةُ الأخلاقية.
- **المبحثُ الثّامن:** حجةُ الوعي.
- **المبحثُ التّاسع:** الحجةُ البرغماتية.
- **المبحثُ العاشر:** نقدُ حججِ علماء الغرب العقلية على إثباتِ وجود الله.

الفصلُ الثّاني: حججُهم العلمية على وجودِ الله، وفيه سبعةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل:** الحججُ المتعلقة بعلم الكون.
- **المبحثُ الثّاني:** الحججُ المتعلقة بالفيزياء.
- **المبحثُ الثّالث:** الحججُ المتعلقة بعلم الأحياء.
- **المبحثُ الرّابع:** الحججُ المتعلقة بالكيمياء.
- **المبحثُ الخامس:** الحججُ المتعلقة بعلم النفس.
- **المبحثُ السّادس:** الحججُ المتعلقة بالرياضيات.
- **المبحثُ السّابع:** نقدُ حجج علماء الغرب العلمية على وجود الله.

الفصلُ الثّالث: حججُهم الحسيَّة على وجود الله، وفيه أربعةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل:** حجةُ إجابة الدعاء.
- **المبحثُ الثّاني:** حجةُ المعجزات والكرامات.
- **المبحثُ الثّالث:** حجةُ ثبوت الحقائق الدينية.
- **المبحثُ الرّابع:** نقدُ حجج علماء الغرب الحسيَّة على وجود الله.

البابُ الثّالث: ردودُ علماء الغرب على شُبهات الملاحدة، وفيه ثلاثةُ فصول:

الفصلُ الأوَّل: ردودُهم على شُبهات الملاحدة العقلية، وفيه أحدَ عشَر مبحثًا:

- **المبحثُ الأوَّل:** ردودُهم على شبهة الخصائص غير المتوافقة.
- **المبحثُ الثّاني:** ردودُهم على شبهة: من خلق الله؟
- **المبحثُ الثّالث:** ردودُهم على شبهة عدم إمكان رؤية الله.
- **المبحثُ الرّابع:** ردودُهم على شبهة تناقض القدرة المطلقة.
- **المبحثُ الخامس:** ردودُهم على شبهة الوحي غير المتناسق.
- **المبحثُ السّادس:** ردودُهم على شبهة عدم إدراك المراد بالإله.
- **المبحثُ السّابع:** ردودُهم على شبهة إبريق راسل.
- **المبحثُ الثّامن:** ردودُهم على شبهة عدم الإيمان.
- **المبحثُ التّاسع:** ردودُهم على شبهة رهان الملحد.
- **المبحثُ العاشر:** ردودُهم على شبهة ضعف التصميم.
- **المبحثُ الحادي عشر:** نقدُ ردود علماء الغرب على شبهات الملاحدة العقلية.

الفصلُ الثّاني: **ردودُهم على شُبهات الملاحدة العلمية، وفيه ثمانيةُ مباحث:**

- **المبحثُ الأوَّل**: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بنظرية الانفجار العظيم.
- **المبحثُ الثّاني**: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة.
- **المبحثُ الثّالث**: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بنظرية التطور.
- **المبحثُ الرّابع**: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بميكانيكية الكم.
- **المبحثُ الخامس**: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بالكيمياء.
- **المبحثُ السّادس**: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بعلم النفس.
- **المبحثُ السّابع**: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بالتاريخ.
- **المبحثُ الثّامن**: نقدُ ردودِ علماء الغرب على شبهات الملاحدة العلمية.

الفصلُ الثّالث: **ردودُهم على شُبهات الملاحدة العاطفية، وفيه ستةُ مباحث:**

- **المبحثُ الأوَّل**: ردودُهم على شبهة مشكلة الشر.
- **المبحثُ الثّاني**: ردودُهم على شبهة مشكلة جهنم.
- **المبحثُ الثّالث**: ردودُهم على شبهة سلب الإرادة.
- **المبحثُ الرّابع**: ردودُهم على شبهة الشرور المترتبة على وجود الأديان.
- **المبحثُ الخامس**: ردودُهم على شبهة مصير الجاهل.
- **المبحثُ السّادس**: نقدُ ردود علماء الغربِ على شبهات الملاحدة العاطفية.

الخاتمة:

وهي تشتملُ على نتائج البحث والتوصيات.

الفهارس: وهي تشتملُ على الآتي:

١) فهرس الآيات القرآنية.

٢) فهرس الأحاديث النبوية.

٣) فهرس الآثار.

٤) فهرس الأعلام.

٥) فهرس الفرق والأديان والمذاهب الفكرية.

٦) فهرس المصطلحات الغريبة.

٧) قائمة المصادر والمراجع.

٨) فهرس الموضوعات.

منهجُ البحث

المنهجُ العلمي المتّبع في هذا البحث هو المنهجُ التحليلي. وسرتُ في البحث على المنهج الآتي:

١) الرجوعُ إلى مصادرِ علماء الغرب الأصليَّة في نقد الإلحاد كالكتب، والصحف، والمجلات، والمناظرات، والمحاضرات.

٢) الرجوعُ إلى مصادرِ الملاحدة الأصلية عندَ إيراد شبهاتهم كالكتب، والصحف، والمجلات، والمناظرات، والمحاضرات.

٣) ترجمةُ كلامهم إلى اللغةِ العربية معَ كتابة كلامِهم بلغتِه الأصلية في الحاشية إذا لم يكنِ الكلامُ مترجمًا من قبل.

٤) تقويمُ كلامِ علماء الغرب بالأدلَّة من المنظور الإسلامي، وبيان ما يمكن الاستفادة منه، وما هو مَردود.

٥) الرجوعُ إلى المصادرِ الأصيلة لعلماء الإسلام في نقدِ الإلحاد حسبَ الإمكان.

٦) عزْو الآيات القرآنية، بذكْر اسمِ السّورة ورقمها، معَ كتابتها بالرسم العثماني.

٧) عزْو الأحاديث النبوية، فإنْ كان في الصحيحين أو أحدهما اكتفيتُ بعزْوه، وإلّا عزوتُه إلى مظانِّه من كُتب السنة، معَ ذكر حُكم أهل العلم عليه.

٨) التعريفُ بالفرق، والأديان، والمذاهب الفكرية، والأعلام، وكلّ ما يحتاج إلى تعريف.

٩) شرحُ المصطلحات العلمية والكلمات الغريبة.

١٠) الالتزامُ بعلامات الترقيم، وضبط ما يحتاج لضبط.

١١) تذييلُ البحث بفهارسَ فنّيَّة تسهّل الاستفادة منه، على النَّحو المبين في الخطة.

الشُّكر والتقدير

أشكرُ اللهَ تعالى على آلائه العظيمة، وعلى نعمِه التي لا تعدُّ ولا تحصى؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فأشكر جلَّ وعلا على أنْ هداني لهذا الدين، ثمَّ أنْ هداني إلى سنَّة نبيه ﷺ، ثمَّ أن يسّر لي طلبَ العلم في المدينة النبوية، وفي هذه الجامعة المباركة.

ثمَّ إنَّني عملًا بقولِ النبي ﷺ: «مَن لا يشكر الناس لا يشكر الله»[1] أتقدَّم بالشكر والتَّقدير للمملكة العربية السعودية، وعلى رأسها خادمُ الحرمين الشريفين حفظه الله ورعاه، الذي منحَ لي الدراسة في هذه الدولة المباركة.

كما أنَّني أشكرُ الجامعة الإسلامية المباركة؛ الجامعة التي لا تغيب عنها الشمس، ويتوافدُ إليها الطلبة من كلِّ فجٍّ عميق لطلبِ العلم الشرعي الأصيل. وأخصّ بالشكر كذلك كليةَ الدعوة وأصول الدين، وقسمَ العقيدة في هذه الجامعة المباركة.

كما أتقدَّم بالشكر والتقدير لمشايخي الذين درستُ عندهم في الجامعة وخارجها. وأخصُّ بالذكر مُشرفي فضيلة الأستاذ الدكتور / صالح بن عبد العزيز سندي؛ فإنَّه قد أفادني كثيرًا جدًّا بتوجيهاته الرَّشيدة، وتصحيحاته السديدة خلالَ كتابتي للرسالة.

وأشكرُ المناقشيْن الكريمين: الأستاذ الدكتور / بدر بن مقبل الظفيري، والأستاذ الدكتور الحبيب / إسماعيل عبد المحسن قطب؛ بتفضُّلهما بقبول مناقشة الرسالة.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٨١١)، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، (٧/ ١٨٨).
وأخرجَه الترمذي في جامعه (١٩٥٣)، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر إلى من أحسن إليك، (٤/ ٧١)، وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح». من حديث أبي هريرة ﷺ.
وصحَّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤١٧)، (١/ ٧٧٦).

وأشكرُ زوجتي - حفظَها الله - على صبرِها العظيم خلالَ طلبي للعلم، وكتابتي للرسالة، فأسألُ الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناتها.

وأشكرُ كلَّ مَن أعانني ماديًّا ومعنويًّا خلالَ كتابتي للرسالة؛ لأنَّ هذه المساعدة يسَّرت لي التفرغَ التام للرسالة، فأسألُ الله أن يتقبَّل ذلك منهم، وأن يرفعَ درجاتهم في العليّين.

وصلَّى اللهُ على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيدُ

في مقدِّمات حول الإلحاد ونقده

وفيه سبعةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: تعريفُ الإلحاد.

المبحثُ الثّاني: أقسامُ الملاحدة.

المبحثُ الثّالث: تاريخُ الإلحاد.

المبحثُ الرّابع: خطورةُ الإلحاد.

المبحثُ الخامس: أشهرُ دعاة الإلحاد الجديد.

المبحثُ السّادس: وسائلُ نشر الإلحاد.

المبحثُ السّابع: تاريخُ نقد الإلحاد.

المبحثُ الأوَّل

تعريفُ الإلحاد

الإلحادُ له معنى عامٌّ في اللغة، ومعنى خاصٌّ في الشرع، ثمَّ اصطلح المعاصرون على إعطائه معنى أخصَّ من المعنى الشَّرعي. وفيما يأتي توضيحُ معناه في اللغة والشرع والاصْطلاح المعاصر:

الإلحادُ لغة:

الإلحادُ – في لسان العرب – مِن: ألحد يُلحِد إلحادًا. والمراد به «مال، وعدل، وماري، وجادَل»[١]. فأصلُ الإلحاد: «الميلُ والعُدول عن الشيء»[٢]. ولهذا سمّي الظالمُ الجائر بالملحِد، كما في قول الشاعر:

قَدني من نصر الخبيبين قدي ليس الإمام بالشحيح الملحد[٣]

ومنه اللَّحْد، وهو «الشقُّ الذي يكون في عرضِ القبر موضعَ الميّت، لأنَّه قد أميل عنْ وسطه إلى جانبه»[٤]. والملتحدُ هو الملجأ، «لأنَّ اللاجئ يميل إليه»[٥]؛ فالإلحادُ في اللغة هو الميلُ مطلقًا.

---

(١) القاموس المحيط (مادة: لحد) (٣١٧)، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، (مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦).

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس (مادة: لحد) (٩/ ١٣٦)، لمحمد بن محمد الزبيدي، (دار الهداية، مجموعة من المحققين، لم تذكر الطبعة، ولا سنة الطباعة).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (مادة: لحد) (٢/ ٥٣٥)، لإسماعيل بن حماد الجوهري، (دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ ت. أحمد عبد الغفور عطّار). والبيت منسوب إلى حميد الأرقط.

(٤) تاج العروس (٩/ ١٣٥).

(٥) الصحاح تاج اللغة صحاح العربية (٢/ ٥٣٥).

الإلحادُ في نصوص الشَّرع:

المعنى الشرعي للإلحاد أخصُّ من المعنى اللغوي، فإنَّه لا يعني الميلَ مطلقًا، وإنَّما هو الميلُ عن الحقِّ إلى الباطل؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «الإلحادُ يقتضي ميلًا عنْ شيءٍ إلى شيءٍ باطل»[1]. وقد وردتْ كلمةُ الإلحاد في نصوصِ الشرع في عدَّة مواضِع، وكلّها تدور حولَ هذا المعنى. ومِن الأمثلة على ذلك:

١) قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]. ومعنى: ﴿ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾: «يميلون إليه ويهْوونه»[2]. «وذلك أنَّهم فيما ذُكر كانوا يزعمون أنَّ الذي يعلِّم محمدًا هذا القرآن عبدٌ روميّ»[3]. وهذا الميلُ ميلٌ عن الحقِّ والصِّدق إلى الباطل والكذب[4].

٢) وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصّلت: ٤٠]. «أي: يميلونَ عن الحقِّ في أدلَّتها.. وهذا يرجعُ إلى الذين قالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ [فصل: ٢٦] وهم الذين ألحدوا في آياتِه، ومالوا عن الحقِّ فقالوا: ليس القرآنُ من عند الله، أو هو شعرٌ أو سحْر»[5].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢ / ١٢٤)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦ هـ، جمعه: عبد الرحمن بن قاسم).

(٢) معاني القرآن (٢ / ١١٣)، ليحيى بن زياد الفراء، (دار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى، ت. أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي).

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن (١٤ / ٣٦٤)، لمحمد بن جرير الطبري، (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ).

(٤) انظر: أضواء البيان (٢ / ٤٥٤)، لمحمد الأمين الشنقيطي، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٥ / ٣٦٦)، لمحمد بن أحمد القرطبي، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ، ت. أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.

وقد ذكرَ العلامة ابنُ عثيمين (رحمه الله) أنَّ الإلحاد في آيات الله ينقسم إلى قسْمين: إلحادٍ في آيات الله الكونية، والإلحادِ في آيات الله الشرعية:

القسمُ الأوّل: الإلحادُ في آيات الله الكونية، وهي ثلاثةُ أنواع:

- **النوعُ الأوّل**: اعتقاد أنَّ أحدًا سوى الله منفردٌ بها أو ببعضها.
- **النوعُ الثّاني**: اعتقاد أنَّ أحدًا مشاركٌ لله فيها.
- **النوعُ الثّالث**: اعتقاد أنَّ لله فيها معينًا في إيجادها وخلقها وتدبيرها.

والقسمُ الثّاني: الإلحادُ في آيات الله الشرعية، وهو ثلاثة أنواع أيضًا:

- **النوعُ الأوَّل**: تكذيبُها فيما يتعلّق بالأخبار.
- **النوعُ الثّاني**: مخالفتُها فيما يتعلَّق بالأحكام.
- **النوعُ الثّالث**: التحريفُ في الأخبار والأحكام[1].

٣) وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٨٠]. وفسّر السلفُ الإلحادَ في الآية بالتكذيب والشِّرك[2]. وقال إمامُ المفسّرين ابن جريرٍ الطبري (رحمه الله): «وكان إلحادُهم في أسماء الله: أنَّهم عدَلوا بها عمّا هي عليه، فسمّوا بها آلهتَهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسمّوا بعضها «اللات» اشتقاقًا منهم لها مِن اسم الله الذي هو «الله»، وسمّوا بعضها «العُزَّى» اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو «العزيز»»[3]. والإلحادُ في أسماء الله وصفاتِه قد قسّمه الإمامُ ابن القيّم (رحمه الله) إلى خمسة أنواع:

- **الأوَّل**: أن يسمّى الأصنام بأسماءِ الله كتسميةِ المشركين اللات من الإلهية.

---

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣٢٠ - ٣٢١)، لمحمد بن صالح العثيمين، (دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ١٤٢٤ هـ).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل القرآن (١٠/ ٥٩٧ - ٥٩٨).

(٣) المصدر السابق (١٠/ ٥٩٦).

- **الثّاني**: تسميةُ الله بما لا يليقُ بجلاله كتسميةِ النصارى له أبًا.
- **الثّالث**: وصفُ الله بما يتعالى عنْه ويتقدّس من النقائص كقول أخبث اليهود إنَّه فقير.
- **الرّابع**: تعطيلُ الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول مَن يقول مِن الجهمية وأتباعهم إنَّها ألفاظ مجرَّدة لا تتضمّن صفاتٍ ولا معاني.
- **الخامس**: تشبيهُ صفات الله بصفاتِ خلقه، تعالى اللهُ عمّا يقول المشبّهون علوًّا كبيرًا[1].

٤) قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥]. وقد روي عنِ السَّلف تفسيرُ الإلحاد في هذه الآية بالشرك، والقتل، والمعاصي، واستحلال الحرم تعمُّدًا[2]، واستحلال محظورات الإحرام[3]. ورويَ عنِ السلف أنَّ ما هو دون المعاصي يُعتبر إلحادًا في الحرم؛ فعنِ ابن عباس ﷺ أنَّه قال: (تجارةُ الأمير بمكة إلحاد)[4]، وعنِ ابن عُمر ﷺ: (بيعُ الطعام بمكة إلحاد)[5].

وعنْ عبد الله بن عَمرو ﷺ: (كنّا نحدِّث إنَّ مِن الإلحاد فيه أنْ يقول الرجل: كلا والله، وبلى والله)[6]. «وهذه الآثار، وإن دلَّت على أنَّ هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هوَ أعمُّ من ذلك، بل فيها تنبيهٌ على ما هو أغلظُ منها»[7].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (١ / ٢٩٨ - ٢٩٩)، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ، ت. علي بن محمد العمران).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل القرآن (١٦ / ٥٠٦ - ٥١٠).

(٣) انظر: زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٢٣١)، لعبد الرحمن بن علي، المشهور بابن الجوزي، (دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ، ت. عبد الرزاق المهدي).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٨٤)، لعبد الرحمن بن محمد، المشهور بابن أبي حاتم الرازي، (مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الثالثة، ١٤١٩ هـ، ت. أسعد بن محمد الطيب).

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) تفسير القرآن العظيم (٥ / ٤١٢)، لإسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي، (دار طيبة للنشر، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ هـ، ت. سامي بن محمد سلامة).

٥) قال النبي ﷺ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ»[١]. والمراد بـ(ملحد في الحرم) «أي: ظالم أو عاصٍ فيه، فإنه عاصٍ لله تعالى، وهاتكٌ حُرمةَ الحرم»[٢].

فتبيّن أنَّ الإلحاد في نصوص الشرع ليس ميلًا من حيث الإطلاق، بل هو ميلٌ مخصوص. وقد فسّر السلفُ الإلحادَ في نصوص الشَّرع بالشرك، والكفر والانحرافات العقدية. وفسّروا الإلحادَ في الحرمِ بالمعاصي، وما دون ذلك كتجارةِ الأمير وبيع الطعام والحلف.

ولكن، هل يجوز إطلاقُ كلمة الإلحاد على جميع المعاصي في أيِّ مكانٍ كان؟ الجواب: الإلحادُ معناه الشرعي الميلُ عن الحقِّ إلى الباطل. وكلُّ ذنبٍ صغيرًا كان أو كبيرًا ميلٌ عن الحقّ إلى الباطل. فبهذا الاعتبار يجوز إطلاقُ الإلحاد على كلِّ ذنب؛ قال العلّامة ابنُ عثيمين (رحمه الله): «والإلحادُ في الآيات الكونية والشرعية حرام. ومنه ما يكونُ كفرًا؛ كتكذيبها، فمَن كذَّب شيئًا معَ اعتقاده أنَّ الله ورسوله أخبرًا به؛ فهو كافر. ومنْه ما يكون معصيةً من الكبائر؛ كقتل النَّفس والزنا. ومنه ما يكون معصية من الصَّغائر؛ كالنظرِ لأجنبية لشهوة. قال اللهُ تعالى في الحرم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] فسمّى الله المعاصي والظلم إلحادًا؛ لأنَّها ميلٌ عمّا يجب أن يكون عليه الإنسان؛ إذِ الواجب عليه السيرُ على صراط الله تعالى، ومَن خالف؛ فقد ألحد»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٨٨٢)، كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حقّ، (٩ / ٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١ / ٢٢٤)، لعلي بن سلطان محمد الهروي القاري، (دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ).

(٣) القول المفيد شرح كتاب التوحيد (٢ / ٣٢١ - ٣٢٢).

ومعَ ذلك يبقى سؤال: هل كان أئمةُ السَّلف ومَن بعدهم مِن العلماء يسمّون العصاةَ في غير الحرمِ بالملاحدة ؟ وهل كانوا يُطلقون على السارق والزاني والقاتل في غير الحرم أنه مُلحد؟ الظاهرُ أنَّ هذا ليس من عُرف العلماء المتقدّمين، وإنما يطلقونَ الإلحادَ على الانحرافاتِ العقدية الكبيرة، وإذا وُصف ذنبٌ بالإلحاد ففيه إشارةٌ إلى عِظَمِه؛ قال بدرُ الدين العيني (رحمه الله): «ملحدٌ بضمّ الميم، وهو المائلُ عن الحقِّ، العادل عن القصد؛ أي: الظالم. فإنْ قلت: مرتكبُ الصغيرة مائلٌ عن الحق؟ قلت: هذه الصيغة في العُرف تستعمَل للخارج عنِ الدين، فإذا وصف بها مَن ارتكبَ معصية كان في ذلك إشارةٌ إلى عِظمها»[1].

فهذا اللفظُ استعمله السلفُ لمن وقعَ في انحرافاتٍ عقدية خطيرة، ولمَن ارتكب ذنبًا مِن الذّنوب في الحرم المكي. وتخصيصُ الحرم المكّي بذلك - والله أعلم - هو لورودِ الآية في ذلك، ولعِظم شأن الذُّنوب في ذلك المكانِ الطاهر. ولكن ليس مِن عرفهم الشائع استعمالُ هذه الكلمة على كلِّ معصية وذنبٍ في غير الحرم.

فالغالبُ أنَّ أئمة السلف إذا أطلقوا على أشخاصٍ وطوائف أنَّهم ملاحدة فكانوا يعْنون أنَّهم وقعوا في انحرافاتٍ عقدية خطيرة. ومِن الأمثلة على ذلك:

المثالُ الأوَّل: قولُ الإمام الكناني[2] (رحمه الله) في مناظرته للمريسي[3]: «فلما أنزلَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - هذه الأربعة الأخبار، خصّ العرب بفهمها ومعرفة معانيها

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٤ / ٤٤)، لبدر الدين محمود بن أحمد العيني، (دار إحياء التراث العربي، بيروت).

(٢) الكناني: عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز المكي الكناني. فقيه مناظر. كان من تلاميذ الإمام الشافعيّ. له تصانيف عديدة، منها: الحيدة والاعتذار في الردّ على من قال بخلق القرآن. توفي عام ٢٤٠هـ. انظر: الأعلام (٤/ ٢٨ - ٢٩).

(٣) المريسي: هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم المريسي البغدادي. كان من كبار الفقهاء، ولكنَّه نظر في الكلام، فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرّد القول بخلق القرآن، ودعا إليه، حتَّى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم. أخذ عن: القاضي أبي يوسف. من مؤلفاته: الرد على الخوارج. توفي عام: ٢١٨ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٩٩ - ٢٠٢).

وألفاظها وخصوصها وعمومها والخطاب بها، ثمَّ لم يدعها اشتباهًا على خلقه فيجد **المُلحدون السبيلَ إلى الإلحاد** في صفاته والطعن على أخباره»[1].

المثالُ الثّاني: قولُ الإمام الدارمي (رحمه الله): «وفيما ذكرنا من ذلك بيانٌ بيِّن ودلالةٌ ظاهرة على **إلحاد هؤلاء الملحدين في أسمائه**، المبتدعين أنها محدثةٌ مخلوقة»[2].

المثالُ الثّالث: سمّى الإمامُ البخاري (رحمه الله) بابًا في صحيحه بـ«قتل الخوارج و**المُلحدين** بعدَ إقامة الحجة عليهم»[3].

المثالُ الرّابع: قال الإمامُ ابن بطة (رحمه الله) في الردِّ على القدرية: «مَن زعم أنَّ أحدًا من الخلق صائرٌ إلى غيرِ ما خلق له وعلمَه اللهُ منه؛ فقد نفى قدرةَ الله - عزَّ وجلَّ - عن خلقه، وجعل الخلق يقدرون لأنفسهم على ما لا يقدر اللهُ عليه منهم. **وهذا إلحادٌ** وتعطيل وإفكٌ على الله - عزَّ وجلَّ - وكذبٌ وبهتان»[4]. والأمثلة على ذلك عندَ السلف كثيرة[5].

المثالُ الخامس: ذكرَ العلّامةُ البهوتي[6] (رحمه الله) أنَّ الملحدَ مرادفٌ للزنديق إذ قال: «والمشهورُ على ألسنة الناس أنَّ الزنديق: هو الذي لا يتمسّك

---

(١) الحيدةُ والاعتذار في الرد على مَن قال بخلق القرآن (٥٦)، لعبد العزيز بن يحيى الكناني المكي، (مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية، ١٤٢٢ هـ، ت. علي بن ناصر الفقيهي).

(٢) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله - عزَّ وجلَّ - من التوحيد (١ / ١٨٤)، لعثمان بن سعيد الدارمي، (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ، ت. رشيد بن حسن الألمعي).

(٣) صحيح البخاري (٩ / ١٦).

(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢ / ٤٤)، لعبيد الله بن محمد المعروف بابن بطة العُكبري، (دار الراية للنشر، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ، ت. عثمان عبد الله آدم الأثيوبي).

(٥) انظر على سبيل المثال: الرد على الجهمية للدارمي (٣٢)، السنة للخلال (١، ٢٢٣)، الشريعة للآجري (١ / ٤١٢)، الكفاية في علم الرواية (٣٤)، شرح السنة للبغوي (٥ / ٢٦٨).

(٦) البهوتي: منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن البهوتي الحنبلي: شيخ الحنابلة بمصر في عصره. من مؤلفاته: الروض المربع شرح زاد المستقنع المختصر من المقنع، وكشاف القناع عن متن الإقناع للحجاوي. توفي عام: ١٠٥١ هـ. انظر: الأعلام (٧ / ٣٠٧ - ٣٠٨).

بشريعة، ويقول بدوام الدَّهر، والعرب تعبِّر عنْ هذا بقولهم: ملحد؛ أي طاعنٌ في الأديان»[1].

ففي هذه المواضع السابقة ذكرَ أئمةُ السلف وأتباعهم أنَّ الملحد هو مَن وقع في انحرافاتٍ عقدية غليظة.

وقد وجدت أنَّ بعضَ المتقدِّمين ذكرَ الإلحاد بمعنى قريبٍ من المفهوم المعاصر - الذي سيأتي ذكرُه - ؛ فمِن ذلك ما ذكره الإمامُ اللغوي الزجاج[2] (رحمه الله) أنَّ الإلحاد بمعنى: «الشكّ في الله»[3].

ذكرَ الحافظ البيهقي (رحمه لله) حديث: «الإيمانُ بضعٌ وستون، أو بضع وسبعون أفضلُها لا إله إلّا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[4]، ثمَّ ذكر مِن فوائده: «...والخامس: إثباتُ أنَّه مدبِّر ما أبدع، ومصرِّفه على ما يشاء ليقع به البراءة مِن قول القائلين بالطبائع، أو تدبير الكواكب أو تدبير الملائكة، فأمّا البراءة بإثباتِ البارئ - جلَّ ثناؤه -، والاعتراف له بالوجودِ من معاني التعطيل[5] **فلأنَّ قومًا ضلُّوا عن معرفة الله - جلَّ ثناؤه - فكفروا، وألحدوا، وزعموا أنَّه لا فاعل لهذا العالم، وأنه لم يزلْ على ما هوَ عليه، ولا موجود إلّا المحسوسات**، وليس وراءها شيء، وأنَّ

---

(١) انظر: كشاف القناع عن الإقناع (١٤ / ٢٥٢)، لمنصور بن يونس البهوتي الحنبلي، (دار النوادر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ).

(٢) الزجاج: هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الزجاج البغدادي. الإمام نحوي زمانه. أخذ عن: المبرد، وأخذ عنه العربية: أبو علي الفارسي. من مؤلفاته: معاني القرآن. توفي عام: ٣١١ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٦٠)، والوافي بالوفيات (٥ / ٢٢٨ - ٢٢٩).

(٣) تاج العروس (٩ / ١٣٥).

(٤) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٩)، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، (١ / ١١). وأخرجه مسلم في صحيحه (٥٨)، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، (١ / ٦٣)، واللفظ له من حديث أبي هريرة ﵁.

(٥) التعطيل: هو جحد الصفات وإنكار قيامها بذات الله تعالى ونفي ما دلّت عليه من صفات الكمال. انظر: التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية (٢٦).

الكوائن والحوادث إنَّما تكون وتحدث من قبل الطبائع التي في العناصر، وهي: الماء، والنار، والهواء، والأرض، ولا مدبِّر للعالم يكون ما يكون باختياره وصنعه»[1].

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله): «**الإلحادُ المحْض: نفي الصانع بالكلية**، وأنَّ هذا العالم الموجود ليس له صانع»[2].

فالعلماءُ المتقدِّمون استعملوا لفظَ الإلحاد والملاحدة في كثيرٍ من الأحيان بمعنى أخصّ من المعنى اللغوي، ولكنَّه في الوقت نفسه أعمُّ من المعنى الذي اصطلح عليه المعاصرون.

المصطلحُ المعاصر للإلحاد:

لقد وقعَ المنحرفون من بني آدم في أصناف من الإلحاد - الذي هو الميل عن الحقّ إلى الباطل - في مختلف العصور، ولكن كانوا شبه متّفقين على إثبات خالق لهذا الكون[3]. ولما انتشرت فكرةُ إنكار الخالق في العصور المتأخِّرة اصطلح أهلُ العصر على معنى خاصٍّ للإلحاد، وهو: إنكارُ وجود ربٍّ خالقٍ لهذا الكون[4]. وإذا أُطلق على شخصٍ في هذا الزمان أنَّه مُلحد، فإنَّه ينصرف إلى هذا المعنى المعاصر في الغالب. وسبقَ أنَّ المتقدِّمين إذا أطلقوا على شخصٍ أنَّه مُلحد فإنَّهم قصدوا أنه وقع في انحرافات عقديَّة أو غيرها، وفي بعضِ الأحيان قصدوا بالإلحاد: إنكار وجودِ الخالق، أو الشكّ في وجودِه. وسماتُ «الإلحاد المعاصر صناعة أوروبية»[5]، فقد تبلورَ الإلحاد

---

(١) شعب الإيمان (١/ ١٩٠)، لأبي بكر أحمد بن حسين البيهقي، (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ، أشرف على تحقيقه: مختار أحمد الندوي).

(٢) جامع المسائل (٤/ ٤٢٥).

(٣) سيأتي الكلام على هذه المسألة بتفصيل في المبحث الثالث.

(٤) كواشف زيوف: (٤٣٣)، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، (دار القلم، الطبعة الخامسة، ١٤٣٣ هـ). ذلك مع الاختلاف الوارد بين الباحثين في تحديد هذا التعريف كما سيأتي ذكره.

(٥) خرافة الإلحاد (٤٣)، للدكتور عمرو شريف، (مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، ١٤٣٥ هـ).

وأخذ سماته الخاصَّةَ في تلك القارة. وحيث إنَّ البحث يتناول ردودَ علماء الغرب على هذا الإلحاد فإنَّه مِن المناسب الرجوعُ إلى كتبهم لتحديدِ هذا المصطلح.

أصولُ المُصطلح المعاصر للإلحادِ في اللغات الأوروبية:

جُلُّ اللغاتِ الأوروبية الحديثة تعبِّر عن الإلحادِ بكلمات مُتشابهة: فهي باللغة الإنجليزية: Atheism والفرنسية: Athéisme والألمانية: Atheismus والإيطالية Ateismo والإسبانية Ateísmo والهولندية Atheïsme والسويدية Ateism وهلمَّ جرًّا. وكانت اللغة الإنجليزية أوّلَ لغة أوروبية حديثة استعملتْ هذا اللفظ، وذلك في عام ١٥٤٠، ثمَّ انتقلتْ إلى اللغة الفرنسية عام ١٥٤٩[١]. وقد انتقلتْ هذه الكلمة إلى هذه اللغات من كلمة Atheos باللُّغة اليونانية[٢]. وحرف a باللغة اليونانية يسمى alpha privatium وتشيرُ إلى الفقدانِ أو حالةِ الغياب[٣]. ولكنْ لا يلزم مِن الفقدان أو حالة الغياب النفيُ الخاصُّ أو الجحود أو المعاداة[٤].

وكلمة theos بمعنى الإله؛ فيكون المرادُ بـالملحدِ باللغة اليونانية: الشخص الذي ليس له إيمانٌ بالله، سواء أنفَى وجودَه أم لم ينْفِه[٥].

التَّعريفاتُ المُختلفة لكلمةِ الإلحاد باللغة الإنجليزية:

قدِ اختلفتْ تعريفاتُ الأكاديميّين في الغربِ لكلمة الإلحاد، وليس هناك إجماعٌ في المسألة[٦]. وهذه خمسةٌ من أهمِّ التَّعريفات لهذه الكلمة الواردة في كُتب الباحثين الغربيّين المعاصرين:

---

(1) Renaissance and Reformation, the Oxford Handbook of Atheism (190),(Oxford University Press, 2013, ed. Stephen Bullivant and Michael Ruse)

(2) Defining atheism, the Oxford Handbook of Atheism (11)

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: المصدر السابق (١٢).

(5) The Cambridge Companion to ATHEISM (1)

(6) Defining atheism, the Oxford Handbook of Atheism (11)

- **التعريفُ الأوَّل:** «الإلحاد: هو الإيمانُ أنَّه لا يوجد إله أو آلهة»[١].
- **التعريفُ الثّاني:** «الإلحادُ يمثِّل موقفًا (وليس إيمانًا) يشير إلى أنَّه لا يوجد إله أو آلهة»[٢].
- **التعريفُ الثّالث:** «الملحدُ هو الذي ليسَ له إيمانٌ بالإله؛ ولكنْ لا يعني ذلك أنه يؤمنُ أنَّ الإله غير موجود»[٣].
- **التعريفُ الرّابع:** «الملحدُ لا يؤمن بالإله الذي يفضِّله اللاهوتيون»[٤].
- **التعريفُ الخامس:** «بكلمةِ الملحد أعني ما يفهَم من الكلمة دائمًا وأبدًا، وهو الموقفُ بجحد الإيمان بالله»[٥].

قدْ يتبادرُ إلى الذهن أنَّ هذه التعريفات متَّفقة، أو أنَّ الخلاف يسير؛ فلا مشاحةَ في الاصْطلاح، ولكنَّ الأمرَ ليس كذلك. إنَّه لا ريب أنَّ هذه التعريفات تحمل سماتٍ معينةً كالموقف السلبي للإيمان بإله[٦]، ولكنْ ثمَّة فروق مؤثِّرة؛ فالتعريفُ الأوّل والثاني لا ينفيانِ الإيمانَ بالله فقط، بل الإيمان بآلهةٍ كذلك، بينما التعريفاتُ الثالث والرابع والخامس تنفي الإيمانَ بالله فقط. صاحبَا التعريف الثاني والثالث يريان أنَّ الإلحاد فقدان لإيمانٍ معيَّن بينما يرى أصحابُ التَّعريفات الأخرى أنَّ الإلحاد هو الإيمانُ بأنَّ الله غير موجود[٧].

---

(1) Atheism: A Very Short Introduction (3)

(2) What is Atheism? (Atheism and Secularity, Vol: 1, p. 1)

(3) Atheism: A Philosophical Justification (1)

(4) The Definition of Atheism, (Journal of Religion & Society, Vol. 11, p. 1)

(5) The Twilight of Atheism: The Rise and Fall of Disbelief in the Modern World (175)

(6) Defining atheism, the Oxford Handbook of Atheism (11)

(٧) انظر: المصدر السابق (١١ - ١٢).

قد يسأل سائل: هل لهذا الخلاف تأثيرٌ واقعي؟ أو هل هو خلافٌ اصطلاحي فقط؟ فالجواب: ثمَّة تأثيرٌ واقعي لهذا الخلاف؛ فمَن عرَّف الإلحاد بأنَّه جحدُ وجودِ الخالق فإنَّ تعريفه يخصُّ الإلحادَ الإيجابي الصُّلب فقط. ومَن عرَّف الإلحاد بأنَّه فقدان الإيمان بالله فإنه يشمل الإلحادَ الإيجابي الصُّلب والإلحادَ السلبي الضعيف أيضًا[١]. وذلك أنَّه بالنظر إلى نتيجة الموقفيْن فإنَّ الإلحاد الإيجابي يشمل الإلحادَ الضعيف ولا العكس؛ فكلُّ ملحدٍ إيجابي ملحدٌ سلبي، وليس كلُّ ملحدٍ سلبي ملحدًا إيجابيًّا[٢]. والسببُ أنَّ الإلحاد الإيجابي فقدانُ الإيمان بالله، وعلاوةً على ذلك يزعم هذا الملحد أنَّ لديه أدلة وحججًا على عدمِ وجود الله، وهذا لا يزعمه الملحد إلحادًا سلبيًّا.

وفي واقع البلدان اليوم، يُلحظ الفرقُ المؤثِّر بينَ التعريفين. ففي الجدول الآتي[٣] إحصاءٌ للحالة الدينية للشُّعوب في بعض البلدان الأوروبية، ويظهر فيه الفرقُ بين مَن يسمِّي نفسَه ملحدًا وهوَ الإلحاد الإيجابي، ومَن يقول إنَّه يفقد الإيمان بالله وهو الإلحادُ السلبي:

(١) الإلحادُ الضعيف هو الإلحادُ المبني على عدمِ الاقتناع بأدلَّة وجود الله، والإلحاد القوي الصلب هو الإلحادُ المبني على شبهات. وسيأتي الحديثُ عن نوعي الإلحاد في المبحث القادم بالتفصيل - إن شاء الله -.

(2) Atheism A Guide for the Perplexed (12)

(٣) اعتمدت على المقال Phil Zuckerman الأستاذ المساعد في Pitzer College, والمقال:
Atheism Contemporary Numbers and Patterns, in The Cambridge Companion to Atheism (49-50)
معَ ملاحظة الفروقِ الواسعة بين الإحصائيات المختلفة، ولكن المراد هنا بيان الفرق بين الإلحاد الإيجابي والإلحاد السلبي.

الدولة	الإلحاد السلبي	الإلحاد الإيجابي
بريطانيا	٣١٪	١٠٪
فرنسا	٤٨٪	١٩٪
السويد	٤٦٪	١٧٪
الدنمارك	٤٣٪	١٥٪
النرويج	٤١٪	١٠٪

فلا شكَّ أنَّ هناك فروقًا مؤثِّرة بين التَّعريفين من حيث الشمول، وأنَّ الإلحاد السلبي أكثرُ انتشارًا من الإلحاد الإيجابي.

تعريفُ الباحثين المُسلمين للإلحاد:

قدْ أسهم الباحثون من المسلمين في تعريفِ الإلحاد في العصر الراهن أيضًا. وهذه بعضُ تعريفاتهم:

التعريفُ الأوَّل: «يُراد من الإلحاد هنا المعنى المصطلح عليه في هذا العصر، وهو **إنكارُ وجود ربٍّ خالقٍ لهذا الكون**، متصرِّف فيه، يدبِّر أمرَه بعلمه وحكمته، ويُجري أحداثَه بإرادته وقدرته. واعتبارُ الكون أو مادَّته الأولى أزلية، واعتبار تغيُّراته قد تمتْ بالمصادفة، أو بمُقتضى طبيعةِ المادة وقوانينها، واعتبار ظاهرة الحياة وما تستتبع من شعور وفكرٍ حتَّى قمَّتها عند الإنسان؛ مِن أثر التطور الذاتي في المادة»[1].

التعريفُ الثّاني: «المرادُ بالإلحاد الذي نحنُ بصدد دراسته: **كلُّ فكرٍ يتعلق بإنكار وجودِ خالقِ هذا الكون** - سبحانه وتعالى... بمعنى أنَّ وصفَ الإلحاد يشمل كلَّ مَنْ لم يؤمنْ بالله تعالى، ويزعم أنَّ الكون وُجِدَ بذاته في الإزل نتيجةَ تفاعلات جاءت عن طريقِ الصُّدفة، ودون تحديدِ وقتٍ لها، واعتقاد أنَّ ما وصل إليه الإنسان منذ أن وُجِدَ

(١) كواشف زيوف: (٤٣٣).

وعلى امتدادِ التاريخ مِن أحوال في كلِّ شئونه إنَّما وُجِدَ عن طريق التطور، لا أنَّ هناك قوةً إلهية تدبِّره وتتصرَّف فيه»[1].

التعريفُ الثّالث: «مذهبٌ فلسفي يقوم على فكرةٍ عدميَّة أساسُها **إنكارُ وجود الله الخالق سبحانه وتعالى**»[2].

الوصفُ المشترك لهذه التعريفات الثلاثة أنَّ الإلحاد هو إنكارُ وجود الخالق. وهو تعريفٌ للإلحاد الإيجابي الصُّلب، دونَ الإلحاد السلبي الضعيف. والتعريفان الأوّلان مختصران، ثمَّ تبعهما كلامٌ مفسَّر. ففي التعريفِ الأوّل والثاني بيانٌ أنَّ الملحد يعتقد أنَّ الإنسان وُجِد عن طريق التطوُّر. وهذا هو اعتقادُ الملاحدة المعاصرين بعدَ ظهور نظرية التطوُّر. وأمّا قبلَ نظرية التطوُّر فلم يكن ذلك من اعتقاد الملاحدة.

وذُكر في التَّعريف الثالث للموسوعة الميسَّرة أنَّ الإلحاد مذهبٌ فلسفي. والأظهر أنه لا يُقال إنَّ الإلحاد مذهبٌ فلسفي. وذلك أنَّ الموسوعة نفسَها قد عرَّفت المذهب الفلسفيَّ بأنه: «مجموعةُ الآراء والأفكار التي يراها ويعتقدها إنسانٌ حولَ عددٍ من القضايا العلمية والسلوكية»[3]. والإلحادُ عدمُ الإيمان بالخالق فحسب، وهو قولٌ ضمن أقوالِ بعضِ المذاهب الفلسفية، مثل: الشيوعية[4]، والوضعية[5]

---

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات (٢ / ١٠٠٣)، للدكتور غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ.

(٢) الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢ / ٨٠٣)، (دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بإشراف: د. مانع بن حماد الجهني، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠ هـ).

(٣) المصدر السابق (٢ / ١١٤٢).

(٤) الشيوعية: مذهبٌ فكري يقوم على الإلحاد، وأنَّ المادة هي أساسُ كلِّ شيء، ويفسِّر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي. ظهرت في ألمانيا على يد ماركس وإنجلز، وتجسدت في الثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة ١٩١٧ م. انظر: الموسوعة الميسرة (٢ / ٩١٩ - ٩٢٤).

(٥) الوضعية: مذهبٌ فلسفي مُلحد، يرى أنَّ المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولا سيَّما تلك التي يتيحها العلم التجريبي. وينطوي المذهب على إنكار وجودِ معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولا سيَّما فيما يتعلق بما وراء الماد وأسباب وجودها. انظر: الموسوعة الميسرة (٢ / ٨١١ - ٨١٤).

وغيرهما. والملاحدة يذكرون شبهاتٍ فلسفية. وأمّا أنْ يقال: إنَّ الإلحاد نفسَه هو مذهبٌ فلسفي، فالذي يبدو أنه غيرُ صواب.

التَّعريفُ المختار:

قدِ اشترط العلماءُ للحدِّ أن يكون جامعًا مانعًا[1]؛ فالتعريفُ الجامع المانع الذي يرجِّحه الباحثُ ويعتمد عليه في الرسالة هو أنَّ الإلحاد هو: **فقدانُ الإيمان بوجود الخالق.** فيدخُل في هذا التعريف الملحدُ إلحادًا سلبيًّا وإيجابيًّا، كما أنَّه يمنع من دخول مَن عداه فيه، والله أعلم.

ولكنْ يُضاف إلى هذا التعريف أنَّ الإلحاد المعاصر إلحادٌ ماديٌّ بحْت، فينكر الملاحدةُ المعاصرون جميعَ الكائنات الخارقة للطبيعة والحياة الأخرويَّة، وغير ذلك. وهذا ما نبَّه عليه بعضُ مَن عرَّف الإلحاد، وسيأتي تفصيلُ ذلك في الباب الأوَّل - إن شاء الله -.

---

(١) الرد على المنطقيّين (٣٥٨ - ٣٥٩)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (دار المعرفة، بدون طبعة وسنة طباعة).

المبحثُ الثّاني

أقسامُ الملاحدة

قدِ اعتنى العلماءُ والباحثون بتقسيمِ العلوم ليسهلَ فهمُها وضبطها. وموضوعُ الإلحاد متشعِّب، والملاحدةُ يختلفون فيما بينهم في أمورٍ عديدة؛ فيحتاج مَن يدرس هذا الموضوعَ أن يضبطَ تقسيماته العامَّة، وما يندرج تحتَها من التفريعات. ويمكن تقسيمُ الملاحِدة إلى أقسام من حيثيات مختلفة؛ فينقسمونَ من حيث قناعتِهم بالإلحاد ونوعية أدلَّتهم، وحسب أسبابِ إلحادهم، وتشدّدهم وعدمِه:

- **التقسيمُ الأوَّل: أقسامُ الملاحدة حسبَ قناعتِهم بالإلحاد، ونوعية أدلَّتهم:**

قدْ قسَّم الباحثون الملاحدةُ حسبَ اقتناعهم بهذه العقيدة ونوعية أدلتِه إلى قسمين: الملاحدةُ الذين يتبنّون الإلحادَ الصُّلب الإيجابي، والملاحدةُ الذين يتبنّون الإلحاد الضعيف السَّلبي. ولم أرَ الباحثين يختلفونَ في هذا التقسيم، ولكنَّهم اختلفوا في تحديد كلٍّ من الإلحاد القوي والإلحاد الضعيف على قولَيْن:

القولُ الأوَّل: يرى البروفسور مايكل مارتن[1] أنَّ هناك ثلاثَ فئات يجب التفريقُ بينهم[2]:

الفئةُ الأولى: الملاحدةُ الذين يتبنّون الإلحادَ القويَّ الصلب. هؤلاء ينكرون وجودَ الله، وهذا الإنكارُ يتطلَّب منهم أمرين:

1) إنكار أدلة المؤمنين بوجود الله والرَّد عليها.

2) إقامة براهين على عدم وجود الله.

---

(1) مايكل مارتن (Michael Martin): بروفسور في الفلسفة، متقاعد من جامعة بوستن في الولايات المتَّحدة. وهو من أشهر فلاسفة الإلحاد المعاصرين. من مؤلفاته: Atheism: A Philosophical Justification. انظر: The Cambridge Companion to Atheism (X)

وهو ما يفهم من كلام الدكتور هشام عزمي في كتاب: الإلحاد للمبتدئين (١٧ – ١٨).

(2) The Cambridge Companion to Atheism (2)

فالملاحدةُ الذين يتبنّون الإلحادَ الصُّلب لا يكتفونَ بعدم الاقتناع بأدلة وجود الله، بل يردّون على هذه الأدلَّة، ثمَّ يحاولون أنْ يقيموا أدلةً على استحالةِ وجود الله. وفي هذه الفئة نجد دعاةَ الإلحاد الذين ينشرونَ هذا الفكر.

الفئةُ الثّانية: الملاحدةُ الذين يتبنّون الإلحادَ الضَّعيف السلبي. هؤلاء يقولون إنَّهم يفقدون الإيمانَ بالله، أو يروْن أنَّ إمكانية وجودِه ضعيفة الاحتمال. و«لا يقومون بدورٍ إيجابي في نشْر أفكارهم. ويمثِّله كذلك أولئك الذين لم يُعِيروا الأمرَ اهتمامًا كافيًا»[1]. فالملحدُ الذي يتبنَّى الإلحادَ الضعيف يتطلَّب منه أمرًا واحدًا فقط؛ وهو عدمُ الاقتناع بأدلَّة المؤمنين بوجودِ الله. وفي هذه الفئة نجدُ كثيرًا من العوام الملاحدة أو من تربَّى في أسرةٍ إلحادية ولم يفكِّر في سبب إلحاده.

الفئةُ الثّالثة: اللاأدْريون[2]. اللاأدري «هو المتوقِّف في مسألةِ وجود الله، ويرى أنَّ أدلةَ إثبات وجودِه تتكافأ معَ أدلَّة نفي وجوده، وبالتالي لا يمكن بلوغُ حكمٍ عقلي في هذه القضية»[3]. فاللاأدري يصرِّح بأمرين:

أ) هناك أدلةٌ قوية على وجود الله.

ب) هناك أدلةٌ قوية على عدم وجوده.

وخلاصةُ الأمر أنَّه يتوقَّف في المسألة. وحين يتوقَّف فإنه لا يثبت بوجود الله، فيكون ملحدًا بهذا الاعتبار. وذلك أنَّ تعريف الإلحاد كما سبق: عدم الإيمان بوجود الله. ولهذا البروفسور مايكل مارتن أنَّ اللاأدرية تتضمَّن الإلحاد الضعيف السلبي،

---

(١) خرافة الإلحاد (٢٧).

(٢) اللاأدرية: مذهبٌ فلسفي قديم نشأ في اليونان على يد بيرون بعد انهيار مملكة الإسكندر الأكبر، فانعزلَ من الحياة، وامتنعَ على الأشياء بالإيجاب أو النفي، على أنَّ الأشياء مظاهر لا يدري حقيقتها. وفي العصر الحديث عرف وانتشرَ هذا المذهب مع ظهور الثورة الصناعية والاكتشافات العلمية في القرنين الثامن والتاسع عشر في أوروبا. ويعدُّ المذهب الوضعي ومذهب كانط المعبِّرين الرئيسيين عن فلسفة اللاأدرية. الموسوعة الميسرة (٢/ ١١٣٥).

(٣) الإلحاد للمبتدئين (١٨).

ولكن الإلحاد الضعيف لا يتضمَّن اللاأدرية[1]. فكلاهما لا يثبت وجودَ الله، ولكن اللاأدري يقول إنَّه متوقِّف، والملحدُ الإلحاد الضعيف لا يتوقّف.

القولُ الثّاني: ذهب بعضُ الباحثين مِن المسلمين إلى أنَّ الإلحاد القوي هو: «الإلحادُ الذي يؤمن صاحبُه بعدم وجودِ الخالق، وبالتالي يتنكّر للوحي والنبوّات...»[2]. وساوَى بين الإلحاد السلبي واللاأدرية فعرَّفه بأنه: «الإلحادُ الذي لا يؤمن صاحبُه بوجود الخالق، لكنَّه أيضًا لا يؤمن بعدمِ وجوده، بلْ يقول: ليس عندي دليلٌ يدلُّ على وجوده فلستُ مؤمنًا بوجوده، ولا عندي دليلٌ أيضًا يدلُّ على عدمه، فلست مؤمنًا بعدمه، بل متوقِّف في شأنه لا أثبتُ ولا أنفي. وهو موقفٌ يجعل من سؤال وجودِ الخالق سؤالًا مفتوحًا دونَ تقديم جواب عليه»[3].

والذي يظهر - والله أعلم - أنَّ الرأي الأوّل أدقُّ من الرأي الثاني؛ فينبغي التفريق بين الإلحاد الضَّعيف السلبي واللاأدرية. وذلك أنَّ الملحدَ الذي يتبنَّى الإلحاد الضعيف مقتنع أنَّ الله غيرُ موجود، ولكنَّ اقتناعه دونَ اقتناع الملحد الإلحادَ القوي. وأمّا اللاأدري فهو متوقِّف في المسألةِ وغير مُقتنع. واللاأدري يعترف أنَّ هناك أدلة قوية على وجود الله مع قوله بأنَّ هناك أدلةً قوية على عدمِ وجوده. وأمّا الملحد الذي يتبنَّى الإلحاد الضعيف فلا يعترفُ بأنَّ هذه الأدلة قوية.

- **التَّقسيمُ الثّاني: أقسامُ الملاحدة حسبَ أسباب إلحادهم:**

إنَّ الإلحاد يخالف الفطرةَ السوية التي فطرَ اللهُ عليها عباده، كما أنَّه يخالف العقل السَّليم؛ فالإلحادُ شذوذ وخروجٌ عن الأصل. وإذا انحرفَ الإنسان عن هذا الأصل إلى الإلحادِ فإنَّه إمّا أن يكون مبنيًّا على ادِّعاء شبهات، أو غير مبنيٍّ على ادعاء شبهات:

---

(1) انظر: The Cambridge Companion to Atheism (2-3)

(2) مليشيا الإلحاد - مدخلٌ لفهم الإلحاد الجديد - (١٩)، لعبد الله بن صالح العجيري (تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ١٤٣٥ هـ).

(3) المصدر السابق (٢٠)

القسمُ الأوَّل: الإلحادُ غيرُ المبني على ادِّعاء شبهات: فهذا الملحدُ لم يقع في فخِّ الإلحاد بسبب شُبهات، وإنَّما كان لأسبابٍ أخرى. ومِن هذه الدوافع:

السببُ الأوَّل: النشأةُ في أسرةٍ إلحادية. كان الإلحادُ في القديم أمرًا شاذًّا لا يقول إلّا بعض الأفراد. وأمّا في عصرنا هذا فقدِ انتشرَ في بعض الدول، فتربَّى بعض الأجيال عليه تأثرًا بالوالدينِ والبيئة المحيطة بهم. وقد أشار رسولُ الله r إلى تأثير التربية في انحراف الطفل إذْ قال: «ما مِن مولود إلّا يولَد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه»(١). فإلحادُ هؤلاء ليس مبنيًّا على براهين مزْعومة، بل بسبب نشأتهم بدون إيمانٍ في أسرة غيرِ متديِّنة(٢). وهذا منتشرٌ بين الملاحدة الإلحاد الضعف السلبي، فإنهم في الغالب لا يفكِّرون في الدافع لإلحادهم، وإنَّما يقلِّدون الأبوين أو المجتمع.

السببُ الثّاني: الشَّهوات. «وهذا مِن أبرز أسباب الإلحاد بين المراهقين حيث يتعارضُ الاستمتاع بالشَّهوة معَ الشعور بالذَّنب، ووخْزِ الضمير، ويكون على المرء أن يختارَ بينَ طاعة الله والانخراطِ في الشهوات، فيكون قرارُه التخلّص من الله والدين وتكاليفه»(٣). هناك عبارةٌ شهيرة كتبَها الأديب الروسي فيودور دوستويفسكي: «إن كان اللهُ غيرَ موجود ولا حياةَ بعد القبر، ألَا يعني ذلك أنه يجوز للإنسان أن يفعل أي شيء يريد؟»(٤). فجميعُ الأديان - ولا سيَّما الإسلام - يقيِّد الإنسان بأحكام دينية تمنعه من الوقوعِ في شهواتٍ بهيمية، والرغبات الدنيئة. وبعضُ الناس يرى أَنَّ في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٥٨)، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلَّى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (٢ / ٩٤).
وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب معنى كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، وحكمُ موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، (٤ / ٢٠٤٧)، من حديث أبي هريرة t.

(2) انظر: Atheism: A Guide for the Perplexed (12)

(٣) الإلحاد للمبتدئين (٣٥)

(4) The Brothers Karamazov (788)
Fjodor Dostoyevsky, (trans. Andrew R. MacAndrew, Bantam Books, 1983)

الإلحاد فكًّا لهذه القيود وحريةً من الأغلال الدينية حسبَ زعمهم. وهذا الدافع للإلحاد يغلب على المراهقين ذوي الشهوات القوية.

القسمُ الثّاني: الإلحادُ المبني على ادِّعاء شُبهات: هذا النوع من الإلحاد يغلب على الملاحدة الإلحادَ الإيجابي. وهو حالُ أكثر دعاة الإلحاد حيث أنهم قد وقعوا في مستنقعِ الإلحاد بسبب شُبهات. والشيطان يأتي إلى الإنسان من نقطةِ ضعفه وميوله؛ فمَن كان عاطفيًّا يأتيه الشيطانُ بشُبهات عاطفية، ومَن كان معجبًا بالعلوم التجريبية يأتيه الشيطانُ بشُبهات علمية، ومَن كان متأثِّرًا بالفلسفة والعلوم العقلية يأتيه الشيطانُ بشبهاتٍ فلسفية عقلية. وعندَ النظر والتأمُّل يجد المرء أنَّ جميع الشبهات الإلحادية ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة. فيمكن تقسيمُ الإلحاد حسبَ الأسباب إلى ثلاثة أنواع:

النوعُ الأوّل: الإلحاد الفلسفي العقلي.

النوعُ الثّاني: الإلحاد العلمي التجريبي.

النوعُ الثّالث: الإلحاد العاطفي.

وقد قسّمت البابَ الثالث في هذه الرسالة إلى ثلاثةِ فصول حسب هذه الأسباب، وأوردتُ الشبهاتِ العقلية، والعلمية، والعاطفية في مباحث تحت كلِّ فصل.

- **الثّالث: أقسامُ الإلحاد حسبَ التَّشدد:**

قدْ قسَّم بعضُ الباحثين[1] الإلحاد حسب التشدّد وعدمِه إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: الإلحادُ المتشدِّد. وهو إلحادُ الشيوعيين ودعاة حركة الإلحاد الجديد. وسيأتي تفصيلُ ذلك في المباحث القادمة - إن شاء الله -.

القسمُ الثّاني: الإلحادُ غيرُ المتشدد:

ليس جميعُ الملاحدة متشدِّدين مثل الشيوعيّين ودعاة الإلحاد الجديد. فقد عارض كثيرٌ من الملاحدةِ المعاصرين اللهجةَ المتشدِّدة لدى دعاةِ الإلحاد الجديد. ومن الأمثلة على ذلك:

---

(١) انظر: Atheism: A Guide for the Perplexed (12)

المثالُ الأوَّل: جيف سباروف[١]. فقد كتب مقالاً سمّاه: «نحن نستطيع أن ننقذ الإلحادَ من الملاحدة الجدد، أمثال ريتشارد دوكينز وسام هاريس» (We can save atheism from New Atheists like Richard Dawkins and Sam Harris)[٢] في جريدة «الغارديان» (The Guardian) البريطانية الشهيرة، وهاجم فيه الملاحدةَ الجدد أنهم ينشرون الكراهية بين الناس.

المثالُ الثّاني: البروفسور مايكل روس[٣]. فقد عارض دعاةَ الإلحاد الجديد بقولِه، وكتبَ عن كتاب ريتشارد دوكينز الأشهر: «وهمُ الإله»: «جعلني أستحي أن أكون ملحِدًا وأنا أعني ذلك حقًّا»[٤].

وهذا الموقفُ هو الطابعُ العام في الدول الغربيَّة العلمانية الليبرالية[٥]، فإنها تسمحُ بشيءٍ من الحريات لجميع الأديان، ولا تحاربُها بالطريقة التي حاربها الشيوعيون ولا الملاحدةُ الجدد. ومعَ ذلك فإنَّ لهجةَ الكراهية ضدَّ الأديان عمومًا، والإسلام خصوصًا قدِ ازدادت بشكلٍ ملْحوظ في الآونة الأخيرة.

---

(١) جيف سباروف (Jeff Sparrow). كاتب ومحرّر وصحفي في جريدة الغارديان.
انظر: https: / /www.theguardian.com /profile /jeff – sparrow

(2) https://www.theguardian.com/commentisfree/2015/nov/30/we-can-save-atheism-from-the-new-atheists

(٣) مايكل روس (Michael Ruse): بروفسور الفلسفة الأمريكي، وصاحب مؤلفات عديدة. وهو أحد المحرّرين لدليل جامعة أكسفورد إلى الإلحاد. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (XV)

(4) https://www.theguardian.com/commentisfree/belief/2009/nov/02/atheism-dawkins-ruse

(٥) الليبرالية: مذهبٌ فكري يركِّز على الحرية الفردية، ويروْن وجوبَ احترام استقلال الأفراد، ويعتقد أنَّ الوظيفة الأساسية للدولة هي حمايةُ حريات المواطنين مثل حرية التفكير، والتعبير، والملكية الخاصَّة، والحرية الشخصية وغيرها. انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها (١٢)، والمعجم الفلسفي (١ / ٤٦١).

المبحثُ الثّالث

تاريخُ الإلحاد

موضوعُ الرسالة متعلِّق بالإلحادِ المعاصر في الغرب. ولكي نفهمَ هذا النوع من الإلحاد فلا بدَّ من الرجوع إلى جذورِه في تاريخ أوروبا[1].

الإلحادُ المعاصر وإنْ كان يتَّسم بسماتٍ خاصَّة، فإن له جذورًا في العصر اليوناني، والروماني، والعصور الوسطى، وعصر النهضة، وعصر التنوير، مرورًا على القرن التاسع عشر، والقرن العشرين إلى هذا القرن. بل هذه العصور كلّها لها آثارُها الخاصة في تكوين الفكرِ الإلحادي المعاصر، إمّا بشكل مباشر أو غيرِ مباشر. وفي كلِّ عصر من هذه العصور وُجِد ملاحدة، أو مَن اتُّهم بالإلحاد - وإن لم تصحّ النسبة إلى بعضهم -. ويمكن تقسيمُ هذا المبحث إلى مطالبَ حسبَ هذه العصور، والتركيزُ على دراسة أمريْن مهمَّين في كلِّ عصر:

١) أهميةُ هذا العصر في تكوين الفكر الإلحادي المعاصر.

٢) التعريفُ المختصر بالملاحدة أو من اتُّهم بالإلحاد.

---

(١) والبحثُ لا يتناول تاريخَ الإلحاد في أماكن أخرى كالإلحاد في بعض الأديان الوضعية مثل: البوذية والجانية. وأمّا الإلحادُ عند نمرود وفرعون فسيأتي الحديث عنه في مبحث: تاريخ نقد الإلحاد - إن شاء الله -.

المبحثُ الثّالث

تاريخُ الإلحاد

وفيه ثمانية مطالب:

المطلبُ الأوَّل: العصرُ اليوناني.

المطلبُ الثّاني: العصرُ الروماني.

المطلبُ الثّالث: العصورُ الوسطى.

المطلبُ الرّابع: عصرُ النهضة.

المطلبُ الخامس: عصرُ التنوير.

المطلبُ السّادس: القرنُ التاسع عشر.

المطلبُ السّابع: القرنُ العشرون.

المطلبُ الثّامن: القرنُ الحادي والعشرون.

المطلبُ الأوَّل

العصرُ اليوناني

أهميةُ العصر اليوناني في الفكر الإلحادي:

إنَّ الحضارة الغربية المعاصرة تُعتبر امتدادًا للحضارة اليونانية القديمة، ولهذا نجدُ المفكِّرين الغربيّين يهتمّون بهذه الحضارة غايةَ الاهتمام، ويعظِّمون فلاسفتها تعظيمًا كبيرًا. وتتمثَّل أهميةُ هذا العصر في تكوين الفكر الإلحادي في النقاط الآتية[١]:

١) **نشأةُ المذهب المادي**[٢]: الفلسفة المادية مستمدَّة من النظرية الذرية المنسوبة إلى الفيلسوف اليوناني ديموقراطيوس[٣]؛ وخلاصتُها: أنَّ «الوجود واحد، وهو ينقسم إلى عددٍ غير مُتناهٍ من الوحدات غيرِ المتجانسة وغيرِ المدرَكَة بالحسّ، والواحدُ منها هو الجوهرُ الفرد، أو الجزءُ الذي لا يتجزَّأ. وهذه الوحداتُ غير المتجانسة قديمة أزلية، نظرًا إلى أنَّ الوجود لا يمكن أن يخرجَ من العدم الكلي المحْض، وهي دائمةٌ أبدية، إذ لا ينتهي الوجودُ إلى العدم الكلي المحْض (اللاوجود مطلقًا)»[٤]. والإلحادُ المعاصر شديدُ الارتباط بالمذهب المادي، حتى إنَّ بعض الباحثين يقول:

---

(١) الغرضُ من إيراد هذه النقاط هو بيانُ استمداد الإلحاد المعاصر كثيرًا من هذه الأسس من الفلسفة اليونانية. أمّا الحديثُ التفصيلي عن هذه النقاط فسوف يأتي لاحقًا إن شاء الله.

(٢) المذهب المادي: الفكرُ الذي يقوم على اليقينِ المطلق بعالم الحسّ، والثقة المطلقة في المادة التي يتكوَّن منها هذا العالم، ثمَّ الإنكار المطلق لما وراء العالم المادي من عوالم الغيب، وعدم الإقرار بشيء منها. وهو معروفٌ بالمادية أيضًا. انظر: مذاهب فكرية معاصرة - عرض ونقد - (٢٩).

(٣) ديموقراطيوس (Democritus): فيلسوفٌ يوناني، ومِن أشهر روَّاد النظرية الذرية للكون، توفي عام ٣٧٠ ق.م. انظر: مشاهير الفلاسفة من طاليس إلى ديكارت (٩٤ - ٩٨)، لدوجين لايرتيوس، (العالمية للكتب والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١١ م. ت. عبد الله حسين).

(٤) كواشف زيوف (٤٤٤).

«ارتبطت نشأةُ الإلحاد المعاصر بظهور الفكْر المادي ارتباطًا وثيقًا، حتّى يمكن القول إنَّ الإلحاد هو الابنُ الشرعي لهذا الفكر»[1]. فالملاحدةُ المعاصرون يروْن أنَّه لا يوجد شيء سوى هذا الكون؛ فقد قال الملحدُ المشهور كارل ساغان[2]: «الكونُ هو كلُّ ما يوجد الآن، أو كان في السابق، أو سيكون في المستقبل»[3]. وقال زعيمُ الملاحدة المعاصرين ريتشارد دوكينز عن الكون: «الكونُ لا شيء سوى مجموعةٍ من الذرات المتحركة»[4]. وبذلك ظهر الارتباطُ بين النَّظرية الذرية التي أسَّسها الفيلسوف ديموقراطيوس في العصر اليوناني والإلحاد المعاصر.

٢) **دراسةُ العلم التجريبي وفقَ المذهب الطبيعي**[5]: كان كثيرٌ من فلاسفة اليونان يهتمّون بالعلم التجريبي، وظهرَ كثيرٌ من النظريات العلمية في عصرهم. وكان بعض هؤلاء الفلاسفة يبحثونَ في هذا العلم وفقَ المذهب المادي، ويستبعدونَ الحديث عن الميتافيزيقا[6]؛ وهذا المنهجُ ما يسمَّى بـالمذهب الطبيعي المنهجي[7]. وكان

---

(١) خرافة الإلحاد (٣٩).

(٢) كارل ساغان (Carl Sagan): عالمُ الفلك الأمريكي، ومِن أبرز المساهمين في تبسيط علوم الفلك لعامَّة الناس في الغرب. وكان له أثرٌ رائد في تعزيز البحث عن المخلوقات الذكية خارج الأرض. توفي عام: ١٩٩٦ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1663)

(3) Program: Cosmos is all that is
(https://www.youtube.com/watch?v=uLu1cTKBspI)

(4) (http://hyperphysics.phy-astr.gsu.edu/nave-html/faithpathh/dawkins.html)

(٥) المذهب الطبيعي (Naturalism): في الفلسفة العامة هو القول إن الطبيعة هي الوجود كله، وإنه لاوجود إلّا للطبيعة. انظر: http: / /arab – ency.com.sy /detail/ ٦٩٩٠

(٦) ميتافيزيقا: فرعٌ من الفلسفة يبحث في الموجود الذي خرج من عالم الواقع إلى عالم المعقول. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢١٤٢).

(٧) المذهب الطبيعي المنهجي (Methodological naturalism): أتباع هذا المذهب يدّعون أنه لا يمكنُ نيلُ العلم بحقيقة الوجود إلّا عن طريق التجارب العلمية. انظر:
Naturalism-A Critical Response (9)

الفيلسوف أناكساغوراس[1] من أشهرِ الأمثلة على ذلك في العصر اليوناني؛ فقد ادَّعى أنَّ الشمس حجرةٌ مشتعلة - أي أنَّه مخلوق طبيعي - وليس إلهًا من الآلهة كما زعمَ قومه، فرموه بالإلحاد والخروجِ عن دينهم[2]. والمنهجُ الطبيعي المنهجي يعتبر أساسًا مهمًّا في الفكر الإلحادي المعاصر حيث يحاربُ الملاحدة الجددُ النظريات العلمية المبنيَّة على وجود الخالق حربًا ضروسًا - كما سيأتي ذكره بالتفصيل إن شاء الله -.

٣) **الادِّعاءُ أنَّ الإيمان يتعارض مع العقل:** كان فلاسفة اليونان يعتنون بالعلوم العقلية والفلسفية عنايةً فائقة، بينما كان مجتمعُهم غارقًا في الوثنية وعبادة الآلهة وتقديسها. ولا شكَّ أنَّ الوثنية تتعارض مع علوم العقل أيَّما تعارض. فبدأ بعضُ فلاسفة اليونان يؤلِّفون أدلةً عقلية ومنطقية ضدَّ وجود الآلهة المحلية. وكان الفيلسوف كارنياديس[3] أشهرَ مَن صنَّف في هذه البراهين[4]. ولا يملُّ الملاحدة المعاصرون عن الحديث أنَّ الإيمان بالله والتديّن يخالف العقل، وسيأتي ذكرُ ذلك في مبحث خاص في الفصل الأوّل من الباب الأوّل - إن شاء الله -.

٤) **فلسفةُ الشكِّ ونسبيةُ الحقائق:** «ابتليتِ الإنسانيةُ بهذا النوع من الشكّ على يدِ مَن سمّوا بالسوفسطائيين في تاريخ الفكر اليوناني»[5]. وكان السوفسطائيون مجادلين، مُغالطين، مُتاجرين بالعلم. وقد أذاعوا التشكيكَ في الأديان

---

(١) أناكساغوراس (Anaxagoras): فيلسوفٌ يوناني اشتُهر بتقديمه لبعض النظريات العلمية لظواهر طبيعية. توفي عام ٤٢٨ ق.م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (67)

(٢) انظر: Västerlandets filosofi (٤٦)

(٣) كارنياديس (Carneades): فيلسوف في العصر اليوناني وُلد في ليبيا. وكان يشتهر باعتقاده أنه لا يوجد معيارٌ مطلق للحقيقة. توفي عام ١٢٩ ق.م. انظر
https://www.britannica.com/biography/Carneades

(٤) انظر: Atheism A Guide for the Perplexed (25)

(٥) نظريةُ المعرفة بين القرآن والفلسفة - المعرفة بين الشكِّ واليقين - (٨٣)، للدكتور راجح بن عبد الحميد الكردي، (دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣ م.).

المحلية وشعائرها[1]. وأكثر مَن ورثَ هذا المذهب عن السوفسطائيين هُم اللاأدريون. ولكن فلسفة الشكِّ ذات أهميةٍ بالغة في الفكر الإلحادي المعاصر، ولا سيَّما في تشكيك المؤمنين بأدلة وجود الله، أو بشيء يتعلَّق بدينهم، وسيأتي تفصيلُ ذلك في مبحثٍ خاصٍّ في الفصل الأوّل من الباب الأوّل - إن شاء الله -.

٥) **نقدُ الأديان:** حيث كانت الوثنيةُ الإغريقية تتعارضُ مع علوم العقل فكان كثيرٌ من الفلاسفة ينتقدونَ الديانة المحلية. ومِن أشهر الأمثلة على ذلك انتقاد الفيلسوف سقراط لديانةِ قومه، وحُكمَ عليه بالإعدام بسببه[2]. ونقدُ الأديان من أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر. وقد ورثَ الملاحدة المعاصرون هذا النقدَ من الفلاسفة اليونانيين.

فظهرَ من ذلك أنَّ العصر اليوناني يمثِّل دورًا مهمًّا في تكوين الفكر الإلحادي المعاصر.

المتَّهمون بالإلحاد في العصر اليوناني:

سبقَ بيانُ أنَّ هذا العصر أثّر تأثيرًا عظيمًا في تكوين الإلحاد المعاصر، واتُّهم بعض فلاسفتهم بالإلحاد. ولكنْ هل كانوا ملاحدةً بالمفهوم المعاصر؟ هذا يحتاج إلى شيء من البيان التفصيلي:

فقدْ كان بعضُ فلاسفة اليونان يعارضون تقديسَ وعبادة هذه الآلهة، ويسخرون منها. فأطلق المجتمعُ على هؤلاء المعارضين كلمة (Atheistos)، بمعنى: ملاحدة. فكان المرادُ بهذه الكلمة في ذلك الوقت معارضةَ الديانة اليونانية الوثنية، وليس المقصود بها المفهومَ المعاصر لكلمة الإلحاد[3]. قد كتبَ البروفسور ستيفن بوليوانت[4] بحثًا

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية (٤٥)، ليوسف كرم، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الخامسة).

(2) Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (19)

(٣) انظر: The Twilight of Atheism (8)

(٤) ستيفن بوليوانت (Stephen Bullivant): بروفسور علم اللاهوت والآداب وأستاذ في جامعة سانت ماري في بريطانيا. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (xii)

عميقًا عن الإلحاد في العصر اليوناني، وكانت خلاصة بحثِه أنَّه كتب: «في القرون الأربعة إلى بداية الإمبراطورية الرومانية عام ٣١ ق.م، كان عدمُ الإيمان بالآلهة موجودًا ولكنَّه نادر. ومع ذلكَ فلا يكاد يكون أحدُ المثقَّفين المشهورين في هذا العصر يتبنَّى هذا الرأي علانية»[1]. وهذا ما توصَّل إليه البروفسور جان بريمير[2] في بحثه عن الإلحاد في العصر اليوناني أيضًا[3].

قد اتُّهم عددٌ كثير من فلاسفة اليونان بأنَّهم ملاحدة، ويمكن تقسيمُ هؤلاء المتَّهمين إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: تهمةٌ غير صحيحة:

مِن أمثال الفلاسفة الذين اتُّهموا بأنهم ملاحدة، ولكنْ لم تثبت هذه النسبة:

١) **سقراط.** قد اتُّهم سقراط بالإلحاد، وحُكم عليه بالإعدام بسبب هذه التهمة، ونفِّذ الإعدام عنِ طريق شُرب السمِّ. ولكن سقراط لم يكنْ ملحدًا بالمفهوم المعاصر. فإنَّه القائل في محاكمته للَّذي اتّهمه بالإلحاد: «ما أستطيع أن أفهم: هل أنت تقول إنني أعلِّم الناس أنْ يعترفوا ببعض الآلهة - ومهما كان الأمرُ فإنني أعترف بوجود آلهة، ولست بأيِّ حال ملحدًا، ولا تصحُّ هذه التهمة عليّ -، ولكنَّ هذه الآلهة غير الآلهة التي يعترفُ بها أهلُ المدينة، فتكون هذه هي التُّهمة: أنني أعترف بآلهة مختلفة. أو هل تقول إنَّني أبيتُ أنْ أعترف بآلهة أصلًا، وأعلِّم الناس هذا الشيء؟»[4]. وهذا الخطابُ يعتبر المرةَ الأولى التي دوِّنت

---

(1) From the Pre-Socrates to the Hellenistic age, the Oxford Handbook of Atheism (150)

(٢) جان بريمير (Jan Bremmer): برفسور التاريخ العام للأديان في جامعة غرونينغن في هولندا. انظر: https: / /rug.academia.edu /JanBremmer

(٣) انظر: Atheism in Antiquity, the Cambridge Companion to Atheism (11, 19)

(4) From the Pre-Socratics to the Hellenistic age, The Oxford Handbook of Atheism (139)

كلمة الإلحاد في أيِّ لغة غربية[١]. ومن البيِّن أنَّ سقراط أبى أن يعترفَ بهذه التُّهمة التي وجِّهت إليه.

٢) **أناكساغوراس**: سبقَ أنَّ الفيلسوف أناكساغوراس قال إنَّ الشمس حجرة مُشتعلة وليستْ إلهًا من الآلهة، كما قال أتباعُ الديانة اليونانية. فاتَّهمه أهلُ بلده بالإلحاد بسببِ هذا القول، ولكنْ هل تصحُّ هذه النسبة إليه؟ الجواب: لا، لأنَّ هذا الفيلسوف كان يؤمنُ بأن هذا الكون قد أوجدَه ما سمَّاه بالذكاء الكوني. وهذا الذكاء متّصفٌ بالألوهية في زعمه[٢].

٣) **ديموقراطيوس**: مِن أشهر فلاسفة اليونان المتَّهمين بالإلحادِ هو الفيلسوف ديمقراطيوس، مؤسسُ نظرية الذرّات. كان يرى أنَّ كلَّ شيء في الكون مكوَّن من الذرّات كما سبق. فظنَّ بعضُ الناس أنه يؤمن بالمادية المحضَة، ولكنّه معَ ذلك اعتقد أن الآلهةَ كذلك متكوِّنة من هذه الذرّات، فلم يكنْ ينكر وجود الآلهة[٣].

٤) **إبيقور**[٤]: كان الفيلسوفُ إبيقور متأثّرًا بنظريةِ الذرّات لديمقراطيوس[٥]، واشتهرَ بنقدِه الحادّ للوثنيةِ الموجودة في اليونان، وألّف في نشأة الإيمان بتلك الآلهة. ومع ذلك فإنَّه لم يكنْ ملحدًا بالمفهوم المعاصر كما ذكر البروفسور جان بريمير[٦].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر:

From the Pre-Socratics to the Hellenistic age, The Oxford Handbook of Atheism (140)

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) إبيقور (Epicurus): فيلسوفٌ يوناني مشهور، ومؤسسٌ للفلسفة الإيبقورية المنتشرة في اليونان والروم. وتوفي عام ٢٧٠ ق.م. انظر: مشاهير الفلاسفة (١٩٣ - ٢٠٩).

(٥) انظر:

From the Pre-Socratics to the Hellenistic age, The Oxford Handbook of Atheism (145)

(٦) انظر: Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (١٩)

٥) **إكسينوفانيس**[١]: كان إكسينوفانيس مِن أشهر المنتقدينَ للديانة اليونانية الوثنية. وكان نقدُه منصبًّا على نحتِ هذه الآلهة والأصنام على أشكالِ الإنسان. ولكنه لم يكنْ إكسينوفانيس ملحدًا؛ بل هو القائل: «الإلهُ الوحيد، متعالٍ على الآلهة والبشر»[٢].

الثاني: اللاأدريون:

وُجِد في الحضارة اليونانية عددٌ من الفلاسفة اللاأدريين؛ منهم:

١) **بروتاغاراس**[٣]: كان الفيلسوفُ بروتاغاراس يتبنَّى الفلسفة السفسطائية[٤]، فقد اتُّهم بأنَّه ملحد، ولكنَّ الأرجح أنه لم يكنْ مُلحدًا؛ بل كان لاأدريًّا[٥]. ومِن الأدلة على ذلكَ أنه قال: «فيما يتعلَّق بالآلهة، لا أستطيعُ أن أعرف ما إذا كانت توجَد أو لا، فهناك عوائقُ كثيرة تحولُ دون ذلك، منها عُسر الموضوع وقِصَر العمر»[٦]. ويرجع ذلك إلى طبيعةِ التَّفكير السفسطائي بتمْويه الحقائق وادِّعاء عدم الحصول على اليقين. وقد لحقتْ هذه الفلسفة بالتَّحقير، بل بروتاغاراس نفسه نفيَ من أثينا وأحرقت كتبُه[٧].

---

(١) إكسينوفانيس (Xenophanes): فيلسوفٌ يوناني وناقد اجتماعي وديني وشاعر. توفِّي عام ٤٨٠ ق.م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (2085)

(٢) انظر: Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (13)

(٣) بروتاغاراس (Protagoras): زعيمُ السوفسطائيين في القرن الخامس. وكان يعتقد أن الإنسانَ مقياس كلِّ شيء، ويتبنَّى القول بنسبية الحقائق مما أدَّى به إلى القول باللاأدرية. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1555)

(٤) انظر: Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (13)

(٥) انظر: From the Pre-Socrates to the Hellenistic age, the Oxford Handbook of Atheism (141)

(6) Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (13)

(٧) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية (٤٦).

٢) **كارنياديس**: كان الفيلسوفُ كارنياديس شديدَ الهجوم على الوثنية اليونانية وصنَّف أدلة وبراهينَ على أنها غيرُ موجودة بطريقةٍ منطقية. حتى رأى بعضُ الباحثين أن نقدَه للأديان يشبه النقدَ المعاصر للأديان[١]. ومعَ ذلك فقد توصَّل البرفسور في الفلسفة القديمة في جامعة كامبردج دافيد سيدلي[٢] في بحثٍ له عنِ الإلحاد في العصر اليوناني إلى أنَّ كارنياديس لم يكنْ ملحدًا، بل كان لاأدريًّا[٣].

الثالث: مَجهولون:

لم نجدْ ممَّن اتُّهم بالإلحاد من الفلاسفة اليونانيّين المشهورين أنَّ هذه التهمة كانت صحيحة، بل إمّا أنهم كانوا ينتقدونَ الوثنية الموجودة في اليونان مع إيمانهم بإله واحد أو آلهةٍ أخرى، وإمّا أنهم كانوا لاأدريّين. ومع ذلك فقد أشار بعضُ الباحثين إلى أنَّ الإلحاد بالمفهوم المعاصر كان موجودًا في العصر اليوناني، وإن كان نادرًا جدًّا. ولكن لم يتبنّ هذا الرأيَ مفكّرٌ يوناني معروف. بل غاية ما وُجد أنَّ الفيلسوف أفلاطون (Plato) ذكر أن بعضَ الشباب في ذلك الوقت كانوا متأثّرين بأفكار إلحادية. وهاجم أفلاطون الملاحدة الموجودينَ في عصره، وردَّ عليهم ردًّا قويًّا في الكتاب العاشر من مجموعة رسائله: «القوانين» (Laws)[٤]. وقد وصل الأمرُ بأفلاطون أنه سنَّ قوانين ضدَّ الإلحاد تقتضي معاقبةَ مَن اعتنق هذا الفكر مذهبًا[٥].

فخلاصةُ الموضوع أنَّ الإلحاد بالمفهوم المعاصر لم يكن موجودًا بين الفلاسفة المشهورين في اليونان، وإنَّما كان الإلحاد موجودًا في أوساط بعض الشباب، بل كان بعضُ أكبر فلاسفتهم كأفلاطون ينتقد الإلحادَ ويسنُّ قوانين في معاقبة الملاحدة.

---

(١) انظر: Atheism A Guide for the Perplexed (25)

(٢) دافيد سيدلي (David Sedley): بروفسور الفلسفة القديمة في جامعة كامبردج المشهورة في بريطانيا. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (XV)

(٣) انظر:
From the Pre-Socrates to the Hellenistic age, the Oxford Handbook of Atheism (149)

(٤) انظر: المصدر السابق (١٤٠)

(٥) انظر: المصدر السابق (١٤٤)

المطلبُ الثّاني

العصرُ الروماني

إنَّ العصر الروماني من أهمِّ العصور وأطولِها في تاريخ أوروبا، وقد قسّم المؤرِّخون[١] هذا التاريخ إلى ثلاثِ مراحل:

١) **المملْكة الرومانية (٧٥٣ ق. م. إلى ٥٠٩ ق.م.)**. وكانت المملكة منحصرةً في مدينة روما[٢].

٢) **الجمهوريةُ الرومانية (٥٠٩ ق.م. إلى ٢٧ ق. م.)**. وامتدَّت الجمهورية في هذه المرحلة امتدادًا واسعًا، حتَّى شملت جنوب وغرب أوروبا، وشمال أفريقيا، واليونان وتركيا.

٣) **الإمبراطورية الرومانية (٢٧ ق.م. إلى ٢٨٥ ب. م.)**، ثمَّ انقسمت الإمبراطوريةُ إلى الإمبراطورية الغربية عاصمتها روما، واستمرَّت إلى عام ٤٧٦ م. والقسم الثاني: الإمبراطورية البيزنطية عاصمتُها قسطنطينية[٣]، واستمرَّت إلى ١٤٥٣ م[٤]. وامتدَّت هذه الإمبراطورية على مساحاتٍ

---

(١) انظر: Ancient Rome and the Roman Empire (27)

(٢) روما: مدينةٌ تاريخية يمتدُّ تاريخها أكثر من ٢٥٠٠ سنة، وهي عاصمة إيطاليا الحالية. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1638 - 1639)

(٣) قسطنطينية: مدينةٌ تاريخية تأسست في القرن السابع قبل الميلاد، وجعلها الإمبراطور قسطنطين «روما الجديدة»، وأصبحت عاصمةَ الدولة البيزنطينية. واسمها اليوم: إسطنبول، وهي أكبر مدن تركيا الحالية. انظر:
https://www.history.com/topics/middle-east/constantinople

(٤) انظر: Outlines of Roman History, chapter 29

واسعة جدًّا من إسبانيا غربًا إلى العراق شرقًا، ومن بريطانيا شمالًا إلى سيناء[1] جنوبًا.

أهميةُ العصر الروماني في الفكر الإلحادي:

كان أهلُ روما في عهد المملكة الرومانية والجمهورية الرومانية وبداية الإمبراطورية الرومانية وثنيِّين، ويؤمنونَ بآلهة متعدِّدة. وفي القرن الثاني قبل الميلاد استولتِ الجمهورية الرومانية على اليونان. وبعدَ ذلك انتشرتِ الفلسفات اليونانية في روما القديمة. وكان سيسيرو[2] أوَّل فيلسوف روماني، وقد درسَ الفلسفة اليونانية، ثمَّ وضع المصطلحات الفلسفية باللغة اللاتينية، ثمَّ ظهر عددٌ من الفلاسفة في الدول الرومانية بعده[3]؛ فكان لروما القديمة عددٌ من الفلاسفة، ولكنَّ فلسفتهم كانت في الغالب مبنية على الفلسفة اليونانية، حتَّى لا يكاد يوجَد فيلسوف في هذا العصر إلا وقد تبنَّى فلسفة من الفلسفات الموجودة في اليونان، وإنْ أضافوا إليها بعض الإضافات[4].

وكان أهلُ روما القديمة يهتمّون بالقانون، والصناعة، وبناء المدن، والغزوات العسكرية أكثرَ من اهتمامهم بالفلسفة. ولهذا نجد أنَّ الغربيين اليوم لا يهتمون بالفلاسفة الرومانيّين كما يهتمّون بالفلاسفة اليونانيين. من الأمثلة على ذلك أن

---

(١) سيناء: شبه جزيرة في شرق مصر بين خليج العقبة إلى خليج السويس. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (1756)

(٢) سيسيرو (Cicero): ماركوس توليوس. رجلُ دولة، وفيلسوفٌ وكاتب روماني. ألّف كثيرًا من الكتب والرسائل في الفلسفة والبلاغة. توفي عام ٧ ق.م. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (406)

(٣) انظر: Västerlandets filosofi (159 - 160)

(٤) انظر: الموسوعة الفلسفية في إنترنت (وهي موسوعة فلسفية أكاديمية بمراجعة الأقران، يشرف عليها عددٌ من الدكاترة في الفلسفة):
http://www.iep.utm.edu/romanphi/

الفيلسوفَ البريطاني أنطوني كيني[1] أَلَّف كتابه: «الكتاب المختصر في الفلسفة الغربية» (A Brief History of Western Philosophy) – وهو من الكتب المشهورة عن تاريخ الفلسفة الغربية –، فكتبَ أكثرَ من ١٥٠ صفحة عن الفلسفة اليونانية، ثمَّ صفحتين عن الفلسفة الرومانية، ثمَّ أكثر من ٤٠٠ صفحة عن الفلسفات بعد الفلسفة الرومانية إلى يومِنا هذا. فلم يكنْ لفلاسفة روما القديمة تأثيرٌ فكري يُذكر في الفلسفة الغربية المتأخرة؛ ومعَ ذلك، فقد حدثت بعضُ الحوادث المهمّة في العصر الروماني أَثَّرت في التاريخ الفكري لأوروبا؛ أهمُها أمران:

الأوَّل: نشرُ الفلسفات اليونانية: كان أهلُ اليونان القديمة يسيطرون على الجزيرة اليونانية وبعضِ المناطق الساحلية في أوروبا، وشمال أفريقيا، وآسيا. أمّا الإمبراطورية فكانتْ تسيطر في عزٍّ قوَّتها عام ١١٧ م على مساحاتٍ واسعة تقدّر بـخمسة ملايين كيلو مربَّع، ويسكنُ في هذه المناطق ٧٠ مليون نسمة، وتقدّر بـ٢١ ٪ من سكان العالم في ذلك الوقت[2]. ونشرتِ الإمبراطورية الرومانية الفلسفاتِ اليونانية في هذه المناطق. فإنْ كان الفلاسفة المشهورون من اليونان، فإنَّ نشرَ هذه الفلسفات في أنحاء أوروبا وغيرها تمَّ على أيدي الرومانيين. وقد سبقَ في المطلب السابق مدى تأثير الفلسفات اليونانية في الفكر الإلحادي المعاصر.

الثّاني: ظهورُ الديانة النَّصرانية: بعثَ اللهُ نبيّه عيسى عليه السلام بدعوة بني إسرائيل إلى التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] وكانت بعثةُ المسيح في منطقة فلسطين التي كانت تحت سيطرة الإمبراطوريةِ الرومانية. وتآمُر اليهود على نبيِّهم بمساعدة الرومانيّين على قتله، ولكنّ الله رفعَه إلى السماء،

---

(١) أنطوني كيني (Anthony Kenny)، فيلسوفٌ بريطاني، وأستاذ في جامعة أكسفورد، ورئيسُ الأكاديمية البريطانية سابقًا، وقد ألّف عددًا من الكتب في تاريخ الفلسفة. انظر:
https://www.britannica.com/contributor/Anthony-JP-Kenny/6155

(2) Size and Duration of Empires (125)

كما قال تعالى عن اليهود: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٨]. وبعد سنواتٍ من رفع عيسى ﷺ إلى السَّماء، تظاهر رجلٌ اسمه بولس[١] بأنه اتَّبع رسالة المسيح، ولكنَّه بدَّل دعوتَه وحرَّفها إلى ديانة وثنية؛ قال المؤرِّخ الأمريكي وليام ديورانت[٢]: «ولقد أنشأ بولس لاهوتًا لا نجدُ له إلاّ أسانيد غامضة أشدَّ الغموض في أقوالِ المسيح، أمّا هذه الأسس فأهمُّها أنَّ كلَّ ابن أنثى يرثُ خطيئة آدم، وأن لا شيء يُنجِّيه من العذاب الأبدي إلّا موتُ ابن الله ليكفِّر بموته عن خطيئته... وأضاف بولس إلى هذا اللاهوت بعضَ آراء صوفية غامضة كانت قد ذاعتْ بين الناس، من ذلك قول بولس: إنَّ المسيح (حكمة الله) و(ابن الله الأوَّل) (بكر كل خليقة)، فإنه فيه خلق الكل)، (الكلُّ به وله قد خلق)، (الذي هو قبل كلِّ شيء وفيه يقوم الكل)، وقد استطاعَ بولس بهذه التفسيرات كلها أن يغضَّ النظر عن حياة يسوع، وعن أقواله التي لم يسمعْها منه مباشرة»[٣]. وكانت دعوةُ المسيح خاصَّة ببني إسرائيل، ولكنَّ بولس حوَّلها إلى ديانةٍ عالمية، فدخلَ في هذا الدين عددٌ كبير من الوثنيين في أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وامتزجتِ العقائد الرومانية بعقيدةِ بولس المحرَّفة عند بعض فرق النصارى[٤].

---

(١) بولس (Paul): اسمه شاول، وُلد في مدينة طرسوس في أسرة يهودية، وتعلّم الديانة اليهودية والفلسفة اليونانية. ولما رأى انتشارَ رسالة المسيح بدأ يضطهدُ أتباعه، ثمَّ ادَّعى أنه رأى المسيح وهوَ في الطريق إلى دمشق. وتظاهر باعتناق دينه، ثمَّ حرَّفه إلى ديانة وثنية بادّعاء ألوهية المسيح، وألغى العملَ بشريعة التوراة. اختلف في عام وفاته فقيل ٦٤ وقيل ٦٧ م. انظر: النصرانية - دراسة عقدية تاريخية - (٤٧١ - ٤٨٧).

(٢) وليام ديورانت (William Durant): كاتب، وفيلسوف ومؤرّخ أمريكي. اشتهر بكتابة الموسوعة الضخمة عن تاريخ خضارات البشرية بعنوان: قصة الحضارة. توفي عام ١٩٨١ م. انظر:
https://www.thefamouspeople.com/profiles/will-durant-3178.php

(٣) قصة الحضارات (١١ / ٢٦٣ - ٢٦٥)، لويليام ديوارنت، (دار الجيل، ١٤٠ هـ، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرون معه).

(٤) وقد ألّف في ذلك مؤلّفات مستقلة، ومن أهمِّ هذه الكتب: (الوثنية في مسيحيتنا) (Paganism in Our Christianity) للمؤلف: أرثور فيغال (Arthur Weigall)

وقدْ لقي النصارى اضطهادًا شديدًا من قبَل حكّام الإمبراطورية خلال القرون الثلاثة الأولى من ظهور النصرانية. وفي عام ٣١٣ م. أصدر الإمبراطور الروماني قسطنطين[١] مرسومًا برفْع الاضطهاد عنِ النصارى ومنحهم حريةً دينية. ولكن قسطنطين لم يكتفِ بمنْح النَّصارى الحرية، بل تدخَّل بشكل مباشر في نصرة بعض الفرقِ النصرانية الممتزجة بالعقائد الوثنية. وذلك في الحادثة المشهورة في مجْمع نيقيه عام ٣٢٥ م. وقد اختلفتِ الفرقُ النصرانية في القول بالتثليث أو التوحيد، فانتهى المجمع بالقولِ بالتثليث بمباركة قسطنطين[٢].

وصارتِ النَّصرانية الديانةَ الرسمية للإمبراطورية الرومانية بعد ذلك. وهذا ساعد النصرانيةَ في الانتشار في أنحاء أوروبا، وشمال أفريقيا وغرب آسيا. وهذه النصرانية التي انتشرت في هذه الدول كانت ديانةً محرَّفة، وخليطًا بينَ بعض ما دعا إليه المسيح والعقائد الوثنية الموجودة في الإمبراطورية الرومانية.

وهذه الحادثة مهمَّة جدًّا في فهْم الفكر الإلحادي المعاصر، لأنَّ الإلحاد نشأ في أوروبا كردَّة فعلٍ للديانة النصرانية - كما سيأتي بيانُه في المطلب القادم -. وخطاب الملاحدة موجَّه إلى النصارى في الغالب؛ لأنَّهم يعيشون في أوسطاهم. ومفهوم الدين عندَ الملاحدة - الذي ينتقدونه في مؤلَّفاتهم - هو النصرانية دون بقية الأديان. وإذا كانوا ينتقدونَ الأدلة على إثباتِ وجود الله؛ فإنَّهم ينتقدون أدلة اللاهوتيين النصارى، كما فعل ريتشارد دوكينز في كتابه: وهم الإله[٣].

---

(١) قسطنطين (Constantine). وهو معروفٌ بقسطنطين الأوَّل، أو قسطنطين العظيم عند النَّصارى. حكمَ الإمبراطورية الرومانية وحوَّل عاصمتها من روما إلى قسطنطينية. واعتنق النَّصرانية، وتحت إمارته انتشرت الديانةُ النصرانية في أنحاء العالم. توفِّي عام ٣٣٧ م. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (454)

(٢) انظر: النصرانية دراسة عقدية تاريخية (٤٩٣ - ٤٩٨).

(٣) انظر: The God Delusion (100 - 135)

الملاحدةُ في العصر الروماني:

كتبَ المؤرخ الألماني البروفسور أنديرس دراخمان[١] بحثًا موسَّعًا عن الإلحاد في القديم سمّاه: «الإلحاد في الوثنية القديمة» (Atheism in Pagan Antiquity)، وتوصّل إلى أن الإلحاد لم يكنْ موجودًا في هذا العصر. وهذا ما مالَ إليه البروفسور مارك إيدواردس[٢] في بحث مطبوعٍ عن الإلحاد في القرن الأوّل من الميلاد[٣].

ومعَ ذلك ذكر إيدواردس أنَّ الاتِّهام بالإلحاد كان موجودًا في ذلك الوقت، كما أنه كان موجودًا في اليونان القديمة. وذكر أنَّ الإلحاد كان بمعنى: رفض عبادة بعض الآلهة التي عظَّمها المجتمع[٤]. ولهذا كان الرومانيون يتَّهمون اليهود بأنهم ملاحدة[٥]. ودُعِيَ النصارى إلى عبادةِ تماثيل الإمبراطور الروماني في عام ١١٢ م، فأبوا؛ فاتُّهموا بالإلحاد بسببه[٦].

فمِن الواضح أنَّ كلمة الإلحاد - التي اتَّهم بها اليهودُ النصارى - لم تحملِ المفهوم المعاصر لهذه الكلمة، وإنَّما كان مقصودُهم بإطلاقها: عدم الإيمان بالآلهة المحلّية. والظاهر أنَّه لم يكن هناك ملاحدةٌ في العصر الروماني كما أشار إليه الباحثون والمؤرّخون.

---

(١) أنديرس بيورن دراخمان (Anders Björn Drachman). بروفسور التاريخ في جامعة كوبنهاغن في الدنمارك. توفي عام ١٩٣٥ م. انظر:
https://data.bnf.fr/fr/12752094/anders_bj_rn_drachmann/

(٢) مارك إيدواردس (Mark Edwards): بروفسور في علم اللاهوت بجامعة أكسفورد في بريطانيا. وتخصَّص في دراسة النصرانية المبكّرة. انظر:
https://www.chch.ox.ac.uk/staff/professor-mark-edwards

(3) The Oxford Handbook of Atheism (152-163)

(٤) انظر: المصدر السابق (١٥٢).

(٥) انظر: المصدر السابق (١٥٥).

(٦) انظر: The Twilight of Atheism (9)

المطلبُ الثّالث

العصورُ الوسطى

العصورُ الوسطى كانت أطولَ العصور في التاريخ الأوروبي؛ فإنها بدأتْ بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٦ م، وانتهت ببداية عصر النهضة. وبدأ عصرُ النهضة في بعض البلدان، مثل: إيطاليا في القرن الثالث عشر، وتأخَّر في بلدان أخرى مثل: بريطانيا. وقد حدَّد بعضُ الباحثين أنَّ آخر تاريخ العصور الوسطى في بريطانيا كان في عام ١٥٤٧م[١]؛ فالعصورُ الوسطى استمرَّت أكثرَ من عشرة قرون في أوروبا.

قد سبقَ أنَّ المفكِّرين الغربيين المعاصرين يهتمّون بالعصرين اليوناني والروماني كثيرًا، ولكنَّهم في مقابل ذلك يتنكَّرون للعصور الوسطى ويسمّونها بـ«عصور الظلام»[٢]. ونجد بعضَ الباحثين في تاريخ الإلحاد يكتبونَ عن الإلحاد في العصر اليوناني، ثمَّ يقفزون إلى عصر النهضة والتنوير، ولا يهتمّون بالعصور الوسطى[٣].

أهميةُ العصور الوسطى في الفكر الإلحادي:

رغمَ أنَّ المفكِّرين الغربيين غالبًا يُهملون هذه العصور، فإنَّ هذا لا يعني أنها غير مهمَّة في تكوين الفكر الإلحادي المعاصر. وذلك أنَّ ما حصل في القرنين الثامن والتاسع عشر مِن ظهور الإلحاد في أوروبا هوَ في الغالب ردَّة فعلٍ لما

---

(١) انظر: البحث When did 'the Medieval' End? وهو في صفحة على الرابط: http://www.oxfordhandbooks.com/view/10.1093/oxfordhb/9780199229123.001.0001/oxfordhb-9780199229123-e-37.

(٢) انظر: Oxford English Dictionary (2ed)

(٣) انظر على سبيل المثال كيري والتيرس(Kerry Walters) في كتابه: Atheism A Guide for the Perplexed, مايكل مارتن (Michael Martin) في The Cambridge Companion to Atheism.

وقع في العصور الوسطى. وردَّة الفعل هذه تتمثَّل في أمرين مهمَّين وقعَا في تلك العصور، هما:

- **الأمرُ الأوَّل: طغيانُ الكنيسة:**

بعدَما سيطرَ النصارى على الحكم في الإمبراطورية الرومانية البيزنطية وغيرها من الممالِيك في أوروبا، أصبحت القوَّة والنفوذ بيدِ الكنيسة، وعلى رأسها البابا ورجال الدين. وبينما كان النَّصارى مُستضعفين في القرون الثلاثة الأولى بعدَ الميلاد أصبحوا هُم الطغاةَ والجبابرة. ومِن الأمثلة على هذا الطغيان:

١) **الطغيانُ السِّياسي**: فقد «بلغت سلطةُ البابا الدينية المهيمنة على ذوي السلطة الإدارية والسياسية أوْجَها. حتَّى كان باستطاعة البابا أن يتوِّج الملوكَ والأباطرة، وأن يخلع تيجانَهم إذا نازعوه ورفضوا أوامرَه، وأنْ يحرمهم من الدين، وأن يحرمَ شعوبهم الذين يوالونهم، ولا يستجيبون لأوامر الخلع البابوية»[١].

٢) **الطغيانُ الاقتصادي**: كانت الكنيسةُ تأكل أموالَ الناس بالباطل عن طريق الهبَات، والعُشور، والغصْب، والنهب، إضافةً إلى صكوك الغفران وغيرها من وسائل الاحتيال على الناس[٢].

٣) **الطغيانُ الدِّيني**: الديانة النصرانية مليئةٌ بالاعتقادات المصادمة للعقل والنقل، وعلى رأسها عقيدةُ التَّثليث[٣]، وغيرها من الخرافات. وهذه العقائد اختلفَ فيها أتباعُ الكنيسة اختلافًا كبيرًا، ولكنَّ الكنيسة الرومانية فرضتها عليهم، ولعن كلَّ مَن خالفها[٤].

---

(١) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة (٥٠).

(٢) دراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة - نشأتها، منطلقاتها الفكرية - (١٠٢)، للدكتور أحمد علي عبد العال، (دار الأوراق الثقافية، الطبعة الثانية، ١٤٣٤ هـ).

(٣) التَّثليث: مفهوم هذه العقيدة عند النصارى أنّهم يؤمنون بإله واحد كثلاثة أقانيم. والأقانيم مُتميِّزة بعضها عن بعض تميّزًا حقيقيًّا. انظر: النصرانية - دراسة عقدية تاريخية (٣٩٦).

(٤) انظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (١٧٨ - ١٨٦)، للدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف، (أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ).

والمجامع النصرانية ودورها في تحريف المسيحية (٨٥ - ١١٤)، للدكتور سلطان بن عبد الحميد سلطان، (مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ).

٤) **الطغيانُ العلمي**: وهو: «وقوفُ الكنيسة ورجالها ضدَّ التقدُّم والمكتشفات العلمية، ومنعها العلماء من مزاولة نشاطهم العلمي بجميع المستويات»[١].

٥) **الطغيانُ الفكري**: قد أقامتِ الكنيسةُ محاكمَ التفتيش[٢] لكلِّ مَن عارض آراء الكنيسة في تفسيرِ كتابها المقدَّس أو العلم الطبيعي؛ فقتل بعضُ أبرز العلماء في هذه المحاكم، وقامَ القساوسة أنفسهم بتعذيبهم، ومن ثمَّ قتلهم[٣].

٦) **الطغيانُ الأخلاقي**: ومِن ذلك: فضائحُ رجال الدين الأخلاقية في الأديرة كالاستغلال الجنسي للأطفال[٤].

ومِن طبيعة الإنسان أنه إذا شعرَ بالظلم والطغيان أنَّه يسعى لتحرير نفسه من هذه القيود[٥]. وإذا كان الطّاغي والظالم رجالَ الدين في الكنيسة فإنَّه بطبيعة الحال يريد أن يتخلَّص من الكنيسة نفسها. وهذا الأمرُ فتح بابَ الإلحاد في العصور المتأخّرة على الملوك الذين أرادوا أن يتحرَّروا من طغيان الكنيسة السياسي، وعلى العلماء لكي يواصلوا المكتشفاتِ العلمية، وعلى الفلاسفة ليعبِّروا على آرائهم الفكرية والفلسفية، وعلى عامَّة الناس لتجاوزاتِ رجال الكنيسة الأخلاقية والمالية. فالكنيسة النصرانية وضعتْ أسسَ الإلحاد في العصور الوسطى بطغيانها وتجبُّرها على الراعي والرعية.

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة عرض ونقد (٦٩).

(٢) محكمة التفتيش: محكمةٌ دينيَّة أُنشئت لمعاقبة المخالفين في العقيدة والاهتمام بحماية الأخلاق والدين في أوروبا في القرون الوسطى. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣ / ١٦٦٨).

(٣) الإلحاد وأسبابه - الصفحة السوداء للكنيسة - (٨١ - ٨٧)، للأستاذة الدكتورة زينب عبد العزيز، (دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤ هـ).

(٤) مذاهب فكرية معاصرة عرض ونقد (٥٦ - ٥٩).

(٥) هناك مسارٌ في علم النفس يسمَّى بعلم النفس التحرّري (Liberation Psychology)، ويهتمُّ بنفسية المظلومين وسعيهم للتحرُّر من هذا الظلم.

- **الثّاني: طريقةُ الاستدلال على وجود الله في العصور الوسطى:**

لم يقتصرْ تأثيرُ الكنيسة في العصور الوسطى في تكوين الفكر الإلحادي على الطُّغيان فقط؛ بل هناك مشكلةٌ أخرى، وهي طبيعة الفلسفة النصرانية في تلك العصور وطريقة استدلالهم على وجودِ الله. فاللاهوتيّون في العصور الوسطى قد تأثّروا بالفلسفة اليونانية وعلمِ الكلام في العالم الإسلامي، ولذا نجدُ في بعض الأحيان تشابهًا كبيرًا بين اللّاهوتيين والمتكلِّمين[١]. وقد وقعَ بين اللاهوتيين اختلافٌ كبير في طريقة الاستدلال على وجود الله. وهذه الأدلةُ الكلامية المنطقية في كثير من الأحيان ليست قوية ولا مؤدِّية للمقصود؛ قال الحافظُ القرطبي (رحمه الله) عنْ أدلة المتكلِّمين: «إنهم أعرضوا عن الطرقِ التي أرشدَ اللهُ تعالى إليها إلى طرقٍ مبتدعة ومناقشات لفظية، يردُ بسببها على الآخذِ فيها شبهٌ يعجز عنها، وأحسنهم انفصالًا عنها أجدلهم، فكمْ من عالم بفساد الشُّبهة لا يقوى على حلِّها، وكم من مُنفصل عنها لا يدرك حقيقة علمها»[٢]. وهذا الضعفُ في الأدلَّة أورثَهم شكًّا وحيرة كما قال شيخ الإسلام (رحمه الله) عنهم: «تجدُهم أعظمَ الناس شكًّا واضطرابًا، وأضعفَ الناس علمًا ويقينًا»[٣].

وهذا كان حالَ اللاهوتيين من النصارى كذلك؛ فقد كتبتِ البروفسورة دوروثيا ويلتيك[٤] عن أدلةِ المتكلِّمين واللاهوتيين: «هذه الأدلةُ لم توَصِّل لأصول الاعتقاد، سواء أكانتْ في الرسائل باللغة العربية أم باللغة اللاتينية. المعتقدُ كان موهبة بسبب الإيمان. المخالفونَ لعلم الكلام الإسلامي واللاتيني رأوا أنَّ هذه الأدلة غير مجديةٍ في أحْسن الأحوال، وزندقة في أسوأها»[٥].

---

(١) انظر: The Medieval Period,The Oxford Handbook of Atheism (171)

(٢) نقل ابن الوزير هذه العبارة في كتابه العواصم والقواصم (٤/ ١٠٢)، عن القرطبي في كتابه المفهم لما أشكلَ من تلخيص صحيح مسلم، ولم أجدِ العبارة في الأصل.

(٣) مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٧).

(٤) دوروثيا ويلتيك (Dorothea Weltecke): بروفسورة تاريخ الأديان في جامعة كونستانز في ألمانيا. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (xvi)

(٥) انظر: The Medieval Period, The Oxford Handbook of Atheism (172)

وقد انقسمَ اللاهوتيون في العصور الوسطى إلى طوائفَ متعارضة. واختلفوا فيما بينَهم في طريقة إثباتِ وجود الله. ووقعت معاركُ كلامية بينهم، وتتَّهم كلُّ واحدة الأخرى بأنَّ طريقتهم تؤدِّي إلى عدم إثبات وجود الله[١]. ورأى بعضُ الباحثين أنَّ هذا الاختلاف مهَّد لظهور الإلحاد في القرن الثامن عشر[٢].

وكان توما أكوينيا «Thomas Aquinas» أشهرُ اللاهوتيين المصنِّفين في إثبات وجود الله في العصور الوسطى. وكان متَّبعًا لطريقة أرسطو في الاستدلال. وقد ذكر خمسة أدلة مشهورةٍ على وجود الله، التي تعتبر أشهرَ الأدلة على وجود الله في علم اللاهوت النَّصراني[٣]. ولكن ذكر الدكتور غافين هيمان[٤] أنه ليس المرادُ من هذه الأدلة أن تكون براهينَ يقينية على وجود الخالق، بل غاية هذه الأدلة أنَّها كانت طرقًا مختلفة للفلاسفة توصِّلهم إلى معرفة الخالق[٥]. وكان توما يرى أنَّه لا يمكن الوصول إلى معرفة الخالق عن طريقِ العقل أو الحسِّ مباشرة، ولكنَّ العقل يمهِّد الطريق للإيمان بوجود الإله، ثمَّ يأتي دورُ الوحي لتكميل هذا الإيمان[٦]. وإلى نحْو هذا الرأي ذهب اللاهوتي وليم الأوكامي[٧]، وهو مِن أشهر اللاهوتيين النصارى في العصور الوسطى[٨].

---

(١) انظر: The Age of Enlightenment, The Oxford Handbook of Atheism (197 - 198)

(2) Renaissance and Reformation, The Oxford Handbook of Atheism (186)

(٣) وسوف يأتي الحديث عنها في مبحث: تاريخ نقد الإلحاد في هذا التمهيد.

(٤) غافين هيمان (Gavin Hyman): حامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة ومتخصّص في تاريخ الإلحاد. يعمل كمحاضرٍ أوّل في جامعة لانشيستير في بريطانيا. انظر: https: / /www. lancaster.ac.uk /ppr /people /gavin – hyman

(٥) انظر: A Short History of Atheism (٢١)

(٦) انظر: Med Tanke på Gud (٥٨)

(٧) وليم الأوكامي (William of Ockham): راهب وفيلسوف ولاهوتي بريطاني في القرون الوسطى. توفي عام ١٣٤٧ أو ١٣٤٩ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1397)

(٨) انظر: المصدر السابق (٦٣).

وقد شنَّع الملاحدةُ في العصور المتأخِّرة على ضعف هذه الأدلة، وأنها غير مفيدةٍ لليقين. ومِن الأمثلة على ذلك أنَّ داعي الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز كتب بابًا في كتابِه الشهير «وهمُ الإله» سمّاه: الأدلةُ على وجود الإله، وصدَّر هذا الباب بعنوان: «أدلة» توما أكوينيا. ثمَّ كتب: ««الأدلة» الخمسة التي قدَّمها توما أكوينيا في القرن الثالث عشر لا تدلُّ على شيء، ويمكن بسهولة - وإن كنتُ أتردَّد في قولي هذا لمكانته - أنْ نعتبرها أدلة هشّة»[1].

الملاحدةُ في العصور الوسطى:

بدأ الاهتمامُ بتاريخ الإلحاد في العصور الوسطى في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين؛ فكتب عددٌ من الباحثين عن تاريخ الإلحاد في تلك العصور. ولكنَّهم عرَّفوا الإلحاد بكلِّ ما يوصَف بأنه هرطقة[2]، ونقد الأديان، وحرية الفكر ومعارضة الكنيسة. وعليه، فإنَّهم حشدوا عددًا كبيرًا من المفكِّرين في عداد الملاحدة. ولكنَّ البروفسورة دوروثيا ويلتيك كتبتْ عقبَ استعراض هذه البحوث: «لا يوجد دليلٌ على أنَّ أحدًا ممن ذكرَ في هذه البحوث كانوا ينكرون وجود الله»[3].

وكان الهراطقة يُحاكَمون في المحاكم ويُحكم عليهم بالإعدام، فظنَّ بعضُ المؤرّخين المعاصرين أنَّ هذا دليلٌ على أنهم كانوا مَلاحدة. ولكن ذكر بعضُ المؤرخين أنه لا يوجد دليلٌ من السجلّات القضائية في ذلك الوقت أنَّ هذا صحيح[4].

وخلاصةُ ما توصَّل إليه الباحثون المتخصِّصون في تاريخ الإلحاد أنه لم يوجدْ ملاحدةٌ مشاهير بالمفهوم المعاصر في العصور الوسطى في أوروبا[5].

---

(1) The God Delusion (100)

(٢) هرطقة: بدعة في الدِّين عند النصارى. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٣٤٣).

(3) The Medieval Period, The Oxford Handbook of Atheism (165)

(٤) انظر:

Zungen wie Schwerter. Blasphemie in altereuropaischen Gesellschafen, 1200-1650 G. Schweroff, (Konstanz: Universisverlag Konstanz)

(5) Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (1)

ولذا اهتمَّ بعضُ المؤرخين الغربيّين لتاريخ الإلحاد بوجود الإلحاد في العالم الإسلامي؛ فذكروا أنه قد أطلقَ على بعضِ الناس في العالم الإسلامي في العصور الوسطى أنهم ملاحدةٌ أو زنادقة[١]. ولكنْ تنازع هؤلاء الباحثون إنْ كان المرادُ بهذه الكلمات أنهم كانوا مَلاحدة بالمفهوم المعاصر[٢].

وقد تحدَّث عالمُ الفرق الشهرستاني عنْ هذا الأمر قبل ٩٠٠ سنة حين قال: «أمّا تعطيلُ العالم عنِ الصانع العليم، القادر الحكيم، فلستُ أراها مقالة، ولا عرفت عليها صاحب مقالة، إلّا ما نقلَ عن شرذمة قليلة من الدهرية[٣] أَنَّهم قالوا: كان العالم في الأزلِ أجزاءًا مبثوثة، تتحرَّك على غير استقامة، فاصطكَّت اتفاقًا؛ فحصلَ العالم بشكله الذي تراه عليه، ولستُ أرى صاحبَ هذه المقالة ممن ينكر وجودَ الصانع؛ بل هو يعترفُ بالصانع ولكنَّه يُحيل سببَ وجود العالم على البحث والاتفاق؛ احترازًا عن التعليل»[٤].

ومعَ ذلك، فقد نُقلتْ هذه المقالة عن بعض الأشخاص، ولعلَّ ابن الراوندي هو أشهرُ مثالٍ لشخصية مشهورة في العالم الإسلامي في العصور الوسطى اتُّهم بإنكار الخالق؛ فقد «أَلَّف عدةَ كتب في تثبيت الإلحاد وإبطال التوحيد وجحد الرسالة وشتم

---

(١) زندقة: مذهبُ مَن يقول بأزليَّة العالم، وأطلق على الزّرادشتيّة والمانويّة وغيرهم من الثَّنَوية، وتُوُسِّع فيه فأطلقَ على كلِّ شاكٍّ أو ضالٍّ أو ملحد. انظر: معجم اللغة العربية (٢ / ١٠٠٠).

(٢) انظر: The Medieval Period, The Oxford Handbook of Atheism (165)

(٣) الدهرية: فرقةٌ ماديّة ظهرت في العهد العبَّاسي، جحدت الصانع المُدبِّر وقالت بقدم الدَّهر، وبأنَّ العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه، كما أنكرت أيَّ شيء لا يمكن إدراكُه بالحواس. انظر: معجم اللغة العربية (١ / ٧٧٦). ويلاحظ على هذا التعريف أن أصحاب المعجم عرّفوا الدهريةَ بأنها فرقة تنكرُ وجودَ الخالق، بينما ذهب الشهرستاني إلى أَنَّهم لم ينكروه. والظاهر أنَّ عددهم كان قليلًا جدًّا، ولم يتركوا مؤلفات، فصعبَ على علماء الفرق والأديان أن يحدِّدوا حقيقة معتقدهم.

(٤) نهايةُ الإقدام في علم الكلام (٧٤)، لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، (دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ، ت. أحمد فريد المزيدي).

النَّبيين عليهم السلام، والأئمة الهادين، وهي كتبٌ مشهورة معروفة. فمنها: كتاب يعرف «بكتاب التاج» أبطلَ فيه حدثَ الأجسام، ونفاه، وزعم أنَّه ليس في الأثر دلالة على مؤثِّر، ولا في الفعل دلالة على فاعل، وأنَّ العالم بما فيه...[1] وقمره وجميع نجومه قديم لم يزل ولا صانعَ له، ولا مدبِّر، ولا محدِث له ولا خالق، وأنَّ مَن ثبَّت للعالم خالقًا قديمًا ليسَ كمثله شيء فقد أحالَ وناقض»[2].

فهذا نصٌّ واضح أنَّ ابن الراوندي تبنّى الفكرَ الإلحادي بمفهومه المعاصر. ولكن الإشكال معَ ابن الراوندي بالذات أنه قد تنقَّل بين الأديان والمذاهب؛ فيقال إنه من أصلٍ يهودي، ثمَّ صار معتزليًّا، ثمَّ رافضيًّا، ثمّ ألّف لليهود في الطَّعن في النبوة، وقيل إنه تابَ قبلَ موته[3]. فهل يمكن أن نصنِّف ابن الراوندي أنه كان من الملاحدة بالمفهوم المعاصر؟ أو هل غايةُ ما نقول إنَّه ذهب إلى هذه المقولة في أحدِ مؤلفاته في إحدى مراحلِ حياته فقط؟ هذا ما يصعب تحديدُه، وقد ذهب بعضُ المؤرخين الغربيين إلى أنه قد ثبتَ أنَّه في الحقيقة كان يؤمن بالله[4]. ومهْما يكن من شيء؛ فإنه ثمّة قدرًا مؤكّدًا في حالته؛ وهو أنه توقَّف في وقتٍ ما من حياته عند محطّة الإلحاد.

ولكنْ يبقى هناك سؤال مهمٌّ في هذه القضية، ألا وهو: لماذا اهتمَّ المتكلمون من المسلمين واللاهوتيّين من النصارى في تلك العصور بنقدِ الإلحاد، وصنّفوا في أدلة إثبات الصانع؟ هذا السؤالُ قد طرحه الباحثون الغربيون، ورآه بعضهم دليلًا على أن الإلحاد كان موجودًا في تلك العصور؛ وإلّا، فلماذا يهتمّون بنقد قضية غير واقعية[5]؟

قد أجاب شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) عن هذا السؤال إذ قال: «الناسُ متَّفقون على إثبات وجودٍ واجب، اللهم إلّا ما يُحكى عن بعض الناس قال: إن هذا

---

(١) كتب المحقق: (خرم وطمس في الأصل).

(٢) الانتصار والردُّ على ابن الراوندي الملحد (٣٢)، لأبي الحسين عبد الرحيم بن محمد الخياط، (مكتبة الثقافة الدينية، تقديم ومراجعة: محمد حجازي، لم تذكر الطبعة ولا سنة النشر).

(٣) انظر: مقدمة المحقق لكتاب الانتصار (٢٢ - ٢٣)

(٤) انظر: The Medieval Period, The Oxford Handbook of Atheism (168)

(٥) المصدر السابق (١٧٠ - ١٧٢)

العالم حدثَ بنفسه، وكثيرٌ من الناس يقولون: إنَّ هذا لم تقله طائفة معروفة، وإنما يقدَّر تقديرًا كما تقدَّر الشبه السوفسطائية ليبحث عنها، وهذا مما يخطرُ في قلوب بعض الناس كما يخطرُ أمثاله من السفسطة[1]، لا أنَّه قول معروف لطائفة معروفة يذبّون عنه، فإنَّ ظهور فساده أبينُ من أن يحتاج إلى دليل»[2].

ويضاف إلى ذلك أنَّ المتكلِّمين الذين اعتنوا بإيراد الأدلة على وجود الخالق فعلوا ذلك بناءً على أصلٍ فاسد في علم الكلام؛ وهو أنَّ الإيمان لا يثبت إلّا بالنظر. قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «وقد ذهب كثيرٌ من أهل الكلام إلى أن اعترافَ النفس بالخالق وإثباتَها له لا يحصلُ إلا بالنظر»[3]. ثمَّ ردَّ على هذه المقولة بقوله: «والمقصود هنا أنَّ هؤلاء الذين قالوا: معرفة الرب لا تحصلُ إلّا بالنظر، ثمَّ قالوا: لا تحصلُ إلّا بهذا النظر هُم من أهل الكلام الجهمية القدرية ومَن تبعهم. وقد اتَّفق سلف الأمَّة وأئمتها وجمهورُ العلماء من المتكلمين وغيرهم؛ على خطأ هؤلاء في إيجابهم هذا النَّظر المعين، وفي دعواهم أنَّ المعرفة موقوفةٌ عليه. إذ قد علمَ بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنَّه لم يوجب هذا على الأمة ولا أمرهم به، بل ولا سلكَه هو، ولا أحدٌ من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة»[4].

ولعلَّ هذا هو الحال عند اليهود والنصارى أيضًا. فمَن طالع مؤلفات فلاسفة اليهود كموسى بن ميمون[5] - ولا سيَّما كتابا المعرفة ودلالة الحائرين - يجد النفسَ

---

(١) سفسطة: قياس مركَّب من الوهميات، والغرض منه: تغليط الخصم وإسكاته. انظر: التعريفات (٧١)، للسيد الشريف الجرجاني (مرسسة الحسن، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ اعتنى به: مصطفى أبو يعقوب).

(٢) منهاج السنة (٣ / ١٧٤)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (جامعة الإمامن محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، ت. الدكتور محمد رشاد سالم).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦ / ٣٢٨).

(٤) المصدر السابق (١٦ / ٣٣٠).

(٥) موسى بن ميمون: هو موسى بن ميمون الأندلسي، يهودي النحلة وكان رئيسًا عليهم بمصر. قرأ علم الأوائل بالأندلس وأحكم الرياضات وأخذ أشياء من المنطقيات وقرأ الطب. من مؤلفاته: دلالة الحائرين. توفي عام: ٦١٠ هـ. انظر: أخبار العلماء بأخيار الحكماء (٢٣٨ - ٢٤٠).

الفلسفي ظاهرًا[1]. وكبارُ المدافعين عن الديانة النصرانية في العصور الوسطى مثل: أغسطين[2] وتوما أكوينيا كانا متأثِّرين بالفلسفة اليونانية إلى حدٍّ كبير[3]. فموردُ المتكلِّمين المسلمين واللاهوتيّين من اليهود والنصارى واحد، وهو الفلسفة اليونانية. ولا يلزم ضرورة من اهتمامهم بأدلةِ إثبات وجود الخالق أنَّ الإلحاد كان منتشرًا في تلك العصور. ولا يُستبعد أنَّه ربما كان هناك بعضُ الأفراد أنكروا وجودَ الله – مثل ابن الراوندي في إحدى مراحل حياته –، ولكنه لم يتبلورْ كمذهب. وقد يكون سببُ ردود المتكلِّمين على الإلحاد أن الكتبَ الفلسفية اليونانية قد عرِّبت، وقد فهمَ المتكلّمون من كلام الفلاسفة في قدم العالم أنَّهم كانوا ملاحدة، فاشتغلوا بالردِّ عليهم من هذا الباب. ولكنَّه قد سبق أن بعضَ فلاسفة اليونان وقعَ في الإلحاد بالمفهوم العام، وإن لم يتبنّوا الإلحاد بالمفهوم المعاصر.

---

(١) انظر: موسى بن ميمون (١١ – ١٢)، لتمار رودافسكي، ترجمة: جمال الرفاعي، (المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م).

(٢) أغسطين (Augustine of Hippo): لاهوتي نصراني، وأحدُ الآباء اللاتينيين للكنسية. وُلد وتربى على الديانة المانوية، ثمَّ تنصَّر وناظرَ المانويين. وقد تأثّر بفلسفة الأفلاطونية الحديثة وخلطها باللاهوت النصراني. ألَّف عددًا من المؤلفات، ومِن أشهرها: مدينة الإله. توفي عام ٤٣٠م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (131)

(٣) انظر: الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (١٠٩ – ١١٦)، لإتين جلسون، ترجمة وتعليق: أ. د. إمام عبد الفتاح إمام، (التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٩).

المطلبُ الرّابع
عصرُ النهضة والإصلاح

إنَّ عصرَ النهضة هو العصرُ الذي تلا العصورَ الوسطى. وقد سبق في المطلب الماضي أنه يصعب تحديدُ نهاية العصور الوسطى وبدايةِ عصر النهضة، وأنَّ ذلك يختلف مِن بلدٍ إلى بلد. وقد ذكر بعضُ المؤرِّخين أنَّ عصر النهضة بدأ في إيطاليا في القرن الرابع عشرَ وانتهى في وسطِ القرن السابع عشر. وفي أثناءِ عصر النهضة حصل ما يسمَّى بعصرِ الإصلاح البروتستانتي[١]. وبدأ هذا الإصلاحُ في بداية القرن السادس عشر إلى وسطِ القرن السابع عشر. فيمكنُ أن يقال إنَّ عصرَ النهضة يتضمَّن عصر الإصلاح[٢].

أهميةُ عصر النَّهضة في الفكر الإلحادي:

بينما يتنكَّر المفكِّرون الغربيون للعصورِ الوسطى فإنَّهم يمجِّدون عصر النهضة. وكما أنَّ تسمية العصور الوسطى بعصور الظلام دليلٌ على هذا التنكُّر؛ فإنَّ تسمية هذا العصر بالنهضة دليلٌ على موقفهم الإيجابي تجاهَه.

---

(١) البروتستانت: أحدُ فروع النصرانية الرئيسة. ظهرتِ الحركة البروتستانتية في القرن السادس عشر معارضةً للكنيسة الكاثوليكية. وتوجد فرقٌ عديدة مُنتسبة إلى البروتستانتية، وبينها تباينٌ كبير في المعتقدات والطقوس، ولكن يجمعهم الإيمانُ بأنَّ كتابَ النصارى المقدَّس لديه أعلى سلطة في قضايا الإيمان والتنظيم - بخلاف الكاثوليك الذين يقدِّمون أقوال البابوات -، وكذلك يركِّزون على أنَّ الخلاص يأتي عن طريق نعمة إلهية وليس عن طريق عمل الإنسان. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1556)

(٢) انظر:
http://hubpages.com/education/The-European-Renaissance-14th-17thcen-turies-PartI

قدْ تسلَّطت الكنيسة الكاثوليكية[1] على الراعي والرعية بشتى أنواع الظلم في العصور الوسطى، واستطاعتْ أوروبا أن تتخلَّص من هذا الظلم إلى حدٍّ كبير في عصر النَّهضة. سبقَ في المطلب الماضي أنَّ طغيان الكنيسة الكاثوليكية وظلمَها ظهرَ في أمور عديدةٍ، مثل: الدين، والسياسة، والفكر، والاقتصاد، والعلم. وفي عصر النهضة حصلَ تغيُّرات كبيرة واهتزَّ عرشُ الكنيسة الكاثوليكية وضعفت سلطتُه على الناس.

وإنْ كان التخلُّص من طغيان وظلم الكنيسة الكاثوليكية أمرًا إيجابيًّا من ناحية، فإنَّ الغربيّين اقتربوا بهذا التخلُّص إلى العلمانية والإلحاد من ناحيةٍ أخرى؛ وبيان ذلك كما يلي:

- **الأوَّل: التخلُّص من الطغيان الديني:**

قد ظهر عددٌ من المحاولات لإصلاحِ الكنيسة في العصور الوسطى، ولكنها كلها باءتْ بالفشل حيث قمعتِ الكنيسةُ هذه المحاولات بقوة. وفي عصر النهضة ظهرتْ حركاتٌ نصرانية إصلاحية كثيرة. وكلُّها يطلق عليها المذهب البروتستانتي[2].

وعارضَ المذهب البروتستانتي احتكارَ البابا ومَن معه من رجال الدين لتفسير كتابهم المقدَّس. وبذلك ضعفتْ سلطة الكنيسة في روما، وفُتح بابُ نقدها، بعدما كان بابًا مغلَقًا فيما سبق. وكان لهذا الأمر آثارٌ نفسية كارثية على الديانة النصرانية؛

---

(١) الكاثوليك: أصلُ هذه الكلمة من (Katholikos) باليونانية بمعنى العام العالمي. وتتبع هذه الكنيسة النظامَ البابوي، يرى أتباعُها أنَّ البابا هو المشرّعِ بعد عيسى (عليه السلام)، فهو معصوم ولا يصدرُ عنه خطأ، وإرادته إرادةٌ إلهيَّة يجب اتِّباعها بدون المناقشة والجدل. ومن معتقداتها: أن روحَ القدس نشأ من الأب والابن معًا، وأنَّ للمسيح طبيعتين ومشيئتين، أي: اللاهوتية والناسوتية، وأنَّ صلوات كهنة الكنيسة ترفع العذاب عن النفوس المؤلمة. انظر: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند (٤٦٦ - ٤٧٥).

(٢) انظر: طوائف الكنيسة البروتستانتية وعقائدها (٥٦ - ٦٢)، للدكتورة إنعام بنت محمد عقيل، (مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٥ هـ).

فهذه الكنيسة الكاثوليكية تدَّعي أنَّ الحقَّ المطلق معها، والبابا هو خليفة المسيح في الأرض، وهو معصومٌ في تصريحاته وأوامره[١]. وكان للبابا حقٌّ في لعْن مخالفيه ورميهم بالهرطقة والزَّندقة. ولا يكاد يجرؤ أحدٌ على مخالفته إلّا واضمحلَّ ذكرُه. وفي هذا العصر ظهرت حركاتٌ كثيرة متعارضة - ولكلِّ حركة أتباعٌ كثيرون - وتدَّعي كل حركة أنَّ أتباع الكنيسة الأخرى زنادقة؛ فاهتزَّت ثقةُ الناس بسلطة الكنيسة على امتلاك الحق المطلق[٢].

- **الثّاني: التخلُّص من الطغيان السياسي:**

قدْ تفكَّكت أوروبا كثيرًا في نهاية العصور الوسطى إلى دولٍ مُتعادية؛ بل دولةٌ واحدة مثلَ إيطاليا قد انقسمتْ إلى دويلاتٍ كثيرة تسمَّى «دول - مدن إيطالية»، يعني المدن الكبيرة في إيطاليا وما حولها من القرى كانت دولًا مستقلَّة. وبعض هذه الدويلات كانت تابعةً لنفوذ البابا وتسمَّى الدول البابوية، وبعضُها لم تكنْ تابعة لنفوذ البابا. وقد ظهرتِ النهضةُ والمذهب الإنساني[٣] في الدول غير التابعة للبابا مثل: جمهورية فلورنسا[٤].

ولمّا ظهر المذهبُ البروتستانتي تبنَّاه بعض الملوك في شمال أوروبا كمذهب رسمي للدولة. ثمَّ وقعت حروبٌ طاحنة بين الدول البروتستانتية والدول الكاثوليكية. وأشهرُ هذه

---

(١) انظر: الطائفة الكاثوليكية وأثرها على العالم الإسلامي (١٢٩ - ١٣٠)، لمحمد بن علي آل عمر الزلعي، (مجلة البيان، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ).

(٢) انظر: Atheism in Modern History, The Cambridge Companion to Atheism (34)

(٣) المذهب الإنساني: النزعةُ الإنسانية هي اتجاهٌ فكري عامٌّ تشترك فيه العديد من المذاهب الفلسفية والأدبية والأخلاقية والعلمية، ظهرتِ النزعةُ الإنسانية في عصر النهضة. ومن فلسفاته: الثقة بطبيعة الإنسان وقابليته للكمال، وإمكان حدوث التقدم المستمر. ومن أسماء الرّواد الأوائل للمذهب الإنساني بوجيو وبروني، والمحامي البارز مونتبلشيانو. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والجماعات المعاصرة (٢/ ٧٩٩ - ٨٠٢).

(٤) انظر: Västerlandets filosofi (282 - 283)
فلورنسا: مدينةٌ في وسط إيطاليا، وكانت بين القرن الرابع عشر والسادس عشر من أعظم مدنِ أوروبا. كما أنها كانت جمهوريةً مستقلة. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (683)

الحروب هي «حربُ الثلاثين عامًا» بين ١٦١٨ - ١٦٤٨ م. ودخلت معظمُ الدول الأوروبية في هذه الحرب إمّا في معسكر الدول البروتستانتية وإمّا في معسكر الدول الكاثوليكية. وكانت نتيجةُ هذه الحروب كارثية، فقد هلكَ على سبيل المثال ما بين ٢٥ إلى ٤٠ ٪ من سكّان ألمانيا في هذه الفترة بسبب القتلِ والجوع والأمراض الوبائية الناتجة من الحرب[١]. وكان من أبرز نتائجِ هذه الحروب ضعفُ نفوذ الكنيسة الكاثوليكية على شمال أوروبا[٢].

- **الثّالث: التخلُّص من الطغيان الاقتصادي:**

بدأ مارتن لوثر[٣] معارضتَه للكنيسة الكاثوليكية بانتقاد طغيانها الاقتصادي؛ فكتب رسالة «القضايا الخمس والتسعين» (Disputatio pro declaratione vir-tutis indulgentiarum) إلى رئيس الأساقفة ألبريكت عام ١٥١٧م. وكانت هذه الرسالةُ تحتوي على النقد اللّاذع لصكوك الغفران المنْتشرة في الطائفة الكاثوليكية. وتؤرِّخ بدايةَ عصر الإصلاح بهذه الرسالة[٤].

ولمّا انتشرَ المذهب البروتستانتي تعالتْ أصوات الشعوب في نقد طغيان الكنيسة الاقتصادي. وفي عام ١٥٢٤م، انطلقت حربُ الفلّاحين الألمانية، وهي ثورة شعبية قام بها الفلّاحون الألمان ضدَّ أمراء مناطق جنوب ألمانيا. وكان سببُ اشتعال الثورة أن الكنيسةَ الكاثوليكية فرضت ضرائبَ خيالية على أمراء المناطق، ولكي يتمَّ الحصولُ على هذه المبالغ الطائلة فرضَ الأمراءُ ضرائبَ على عامة الناس، فانتفض الفلّاحون وحصلت الثورة. وقد هلكَ في هذه الثورة ما بين مائة إلى ثلاثمائة ألف فلّاح[٥].

---

(١) انظر: "The Demography of the Thirty Years War Re-revisited: Günther Franz and his Critics". German History. 15 (1): 1-21

(٢) انظر: http://www.articlemyriad.com/consequences-effects-thirty-years-war/

(٣) مارتن لوثر (Martin Luther): راهبٌ ألماني، وقسيس وأستاذ اللاهوت. وهو مؤسسُ المذهب البروتستانتي النصراني. توفي عام: ١٥٤٦ م. انظر:
http://www.newadvent.org/cathen/09438b.htm

(٤) انظر: Nordisk Familjebok (1487 - 1488)

(٥) انظر: The Revolution of ١٥٢٥: The German Peasants War from a New Perspective (165), by Peter Blickle, Hopkins University Press, 1981.

وكانت هذه الثورة حاضرةً في أذهان المعارضين للكنيسة قرونًا بعد وقوعها؛ فقد ألَّف فريدريك أنجلز[1] - أحدُ مؤسّسي المذهب الشيوعي الإلحادي - كتابًا خاصًّا عن الثورة سمَّاه: «حرب الفلّاحين في ألماني» (Der deutsche Bauernkrieg). وحلّل فيه أسبابَ وقوعِ هذه الثورة الشعبية، معَ المقارنة بثورات عام ١٨٤٨م في أوروبا. وقد خصَّص أنجلز بعضَ الفصول من الكتاب لنقدِ رجال الدين في الكنيسة واستغلالهم للطبقات العاملة والفقيرة.

- **الرّابع: التخلُّص من الطغيان العلمي:**

مِن أهمِّ قضايا عصر النهضة: الصراعُ القائم بين الكنيسة وعلماء العلوم الطبيعية، حيث كان العلمُ الطبيعي شبهَ حكْرٍ على رجال الدين في أديرتهم في العصور الوسطى. وكان كتابُ النصارى المقدَّس أهمَّ مصدر للعلوم الطبيعية حيث لا تجوز معارضتُه بأي حال. وأمّا في عصر النهضة فبدأ غيرُ رجال الدين بالاشتغال بهذه العلوم، وتوصَّلوا إلى نتائجَ مخالفةٍ لتعاليم الكنيسة في بعض الأحيان؛ فوقعَ صراع بين الكنيسة والعلماء. ومن أهمِّ مسائل الصراع بينهم في عصر النهضة هي مسألةُ مركزية الشمس أو الأرض. وقد تبنَّت الكنيسة الكاثوليكية نظريةَ مركزية الأرض. وذلك لأسبابٍ دينية كإشارةِ بعض الآيات في كتابِ النصارى المقدَّس تضيف الحركةَ إلى الشمس، وأنَّ الأرض ثابتة[2]. ولكنْ لم يكنْ هذا هو السببَ الوحيد، بل القول بمركزية الأرض هو ما قرَّر كبار الفلاسفة اليونان، مثل: أفلاطون وأرسطو، كما أنَّ دوران الشمس حول الأرض هو الظاهرُ عندما يشاهد الإنسانُ طلوع الشمس وغروبها.

وكان نيكولاس كوبيرنيكوس[3] أوَّلَ معارضٍ مشهور في عصر النهضة لهذه النظرية. وبدأ يؤسِّس لنظرية مركزية الشمس في بداية القرن السادس عشر، قرَّر

---

(١) فردريك أنجلز (Friedrich Engels): فيلسوفٌ اشتراكي ألماني. تأثّر بفلسفة هيجل في صغره، ثمَّ تعرَّف على كارل ماركس. وألَّف معه بيانَ الحزب الشيوعي. وبعد وفاة ماركس كان أنجلز أكثرَ مَن نشرَ أفكاره. توفي عام١٨٩٥م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (621 - 622)

(٢) انظر على سبيل المثال: أخبار الأيام الأوَّل (١٦: ٣٠)، والمزامير (٩٣: ١) و(٩٦: ١٠).

(٣) نيكولاس كوبيرنيكوس (Nicholas Copernicus): عالمٌ فلكي بولندي. اشتهرَ بآرائه عن مركزية الشمس، وأنَّ الأرض تدور. توفي عام ١٥٤٣ م. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (462-463)

ذلك في كتابه: «حول دوران الأجرام السماوية» (De revolutionibus orbium coelestium) الذي طبع في عام وفاته ١٥٤٣م. ولم يقصدْ كوبيرنيكوس معارضةَ الكنيسة، بل أهدى كتابه هذا للبابا في الفاتيكان. وكان يرى أنَّ مسألة دوران الشمس أو الأرض ليست مسألةً دينية تتلقّى من الكتاب المقدَّس؛ بل هي مسألةٌ تُبحث إلى علم الرياضيات والحساب[١]. ولم تثرْ نظريتُه ضجةً كبيرة في حينها.

وقد تأثَّر العالمُ الفلكي غاليليو غاليلي[٢] (Galileo Galilei) بآراء كوبيرنيكوس، وفي عام ١٦١٠م أصدرَ كتابه: «رسالة فلكية» (Sidereus Nuncius) وقرَّر فيه نظرية مركزية الشمس. وقد أدَّى هذا الكتاب إلى محاكمته عام ١٦١٦م في محاكم التفتيش، وحكمتِ المحكمة بأنَّ هذا الرأي يعتبر هرطقة، ومنعتْ غاليليو من نشره. وقد أقرَّ بذلك في بداية الأمر، ولكنْ سرعان ما نقض عهدَه وأصدر كتابًا جديدًا عام ١٦٣٢م سمّاه: «حوارٌ حول النظامين الرئيسين للكون» (Dialogo sopra i due massimi sistemi del mondo) مما أدَّى إلى محاكمته مرَّة ثانية في محاكم التفتيش عام ١٦٣٣م، وقضت المحكمةُ بحبسه في بيته إلى أنْ مات عام ١٦٤٢م[٣].

وانتشرت آراؤه كثيرًا بعدَ موته، حتى تلقّاه معظمُ الفلكيين بالقبول. ويقدِّم الملاحدة هذه المحاكمة باعتبارها رمزًا للصراع المزعوم بين العلم والدين.

وقد عارَض البروفسور جون لينوكس[٤] هذا الرأي. وذكر أنَّ الصراع الحقيقي في ذلك الوقت كان بين علماءِ الفلك أنفسهم، وليس بين الكنيسة والعلم. واستشهد بذلك أنَّ غاليليو قد ذكر أنَّ المعاصرين له من علماء الفلك المتبنِّين لنظرية مركزية

---

(١) انظر كتابه: Dedication of the Revolutions of the Heavenly Bodies to Pope Paul III, وهو منشورٌ إليكترونيًّا على الرابط: http: / /www.bartleby.com /39 / 12.html

(٢) غاليليو غاليلي (Galileo Galilei): عالم فلك ورياضيات وفيزياء إيطالي. وهو أوَّلُ مَن درس الأجرام السماوية عن طريق المنظار. توفي عام ١٦٤٢ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (728)

(٣) انظر: God’s Undertaker-Has Science buried God?-(23-26)

(٤) جون لينوكس (John Lennox): بروفسور الرياضيات في جامعة أكسفورد. وأحدُ أبرز علماء الغرب المعْتنين بنقدِ الإلحاد المعاصر. سيأتي تعريفٌ مفصَّل به في مطلب: تاريخُ نقد الإلحاد المعاصر.

الأرض هُمُ الذين وشوْا به عند الكنيسة، وليس العكس. وقد بقيَ غاليليو متديّنًا ومؤمنًا بالله إلى آخر حياته[1].

ومهْما كان من أمر، فإنَّ هذه المحاكمة قد تركت آثارًا سلبية كبيرة في أوروبا على الدين عمومًا، وعلى الكنيسة الكاثوليكية خصوصًا، حيث يرى كثيرٌ من الغربيين أن الدينَ مانعٌ من التقدُّم والتطوّر العلمي.

- **الخامس: التخلُّص من الطغيان الفكري:**

ظهرَ في هذا العصر ثلاثةُ مذاهب مهمَّة في الفكر الغربي:

الأوّل: المذهبُ الإنساني: نشأ هذا المذهبُ في جمهورية فلورسنا في إيطاليا في القرنِ الرابع عشر. وهو مذهبُ أعرض عنِ الديانة النصرانية وهيمنتها الفكرية إلى حدٍّ ما، واهتمَّ بالتراث الأوروبي القديم كالحضارة اليونانية والرومانية. واعتمد روّاد هذا المذهب على مؤلَّفات الفلاسفة والمفكِّرين اليونانيِّين والرومان، ولم يهتمّوا كثيرًا بتعليمات رجال الدين. وكذلك قاموا بعلْمنةِ الأخلاق غيرَ مُعتمدين على تعليمات الديانة النَّصرانية[2]. وقد ذكر بول كورتز[3] - المعروف بأبي المذهب الإنساني العلماني المعاصر - في بيانِهِ المشهور للمجمع الإنساني العلماني (Council of Secular Humanism) أن المذهب الإنساني في عهدِ النهضة تبنَّى رؤية مادية علمانية للكون التي أنهت الرؤية الدينية في عصور الظلام، وأنَّ هذه الرؤية الجديدة أثَّرت في عصر التنوير[4].

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(2) The Encyclopedia of Unbelief 692; 437
Tom Flynn, (Prometheus, 2007)

(٣) بول كورتز (Paul Kurtz): بروفسور الفلسفة في جامعة نيويورك بالولايات المتّحدة. وقد شاركَ في تأليف أكثرَ من أربعين كتابًا ومئات المقالات العلمية. ويعتبر أحدَ أشهر دعاة المذهب الإنساني في الولايات المتحدة. توفي عام ٢٠١٢ م. انظر: http: / /kurtz.pragmatism.org/

(4) A Secular Humanist Declaration
وهذا البيانُ موجود في موقع: www.secularhumanism.org

ولا يعني ذلك بطبيعة الحال أنَّ الإنسانيين في عصر النهضة كانوا ملاحدة، بل كان بعضُهم من رجال الدين النصراني - وإن قلَّ اهتمامُهم بالدين -. ومع ذلك فقد وقعت نفرةٌ بينهم وبينَ الكنيسة الكاثوليكية في كثيرٍ من الأحيان. ومن الأمثلة على ذلك محاكمةُ الفيلسوف الإنساني لوسيولو فانيني[1] في فرنسا عام ١٦١٩م. كان لوسيولو قد درسَ علمَ اللاهوت وبدأ يتبنَّى آراءً مخالفةً للكنيسة مثلَ القول بوحدة الوجود. فقضت المحكمةُ بأنَّه زنديق يجبُ قتله؛ فتمَّ تعذيبُه وقتله، وقطعُ لسانه وتحريقه[2]. وخلاصةُ الأمر أنَّ لوسيلو لم يكن ملحدًا بالمفهوم المعاصر، ولكنّه كان فيلسوفًا إنسانيًّا يدعو إلى آراء مخالفةٍ للكنيسة كالقول بوحدة الوجود.

وإنْ لم يكن الإنسانيون في عصر النهضة مَلاحدة، فقد اعتبر بعضُ الباحثين أنهم كانوا مسئولين عن ولادةِ العلمانية والإلحاد في عصورٍ متأخرّة[3]. وإلى يومنا هذا يفضِّل الملاحدة أنْ يتسمّون بالإنسانيّين، ويسمّون جمعياتِهم بالجمعيات الإنسانية. وذلك لكوْن هذا الاسم محبوبًا لدى النفوس ولا يلحقُه العار مثلَ لفظ الملحد. فإحدى أكبر المنظَّمات المظلية الإلحادية في العالم اسمُها: «الاتِّحاد الإنساني والأخلاقي الدولي» (International Humanist and Ethical Union)، وتضمُّ هذه المنظمة جمعياتٍ إلحادية في أنحاء العالم.

الثّاني: مذهبُ الشكّ النهضوي (Renaissance Skepticism): كان فلاسفةُ اليونان روّادَ مذهب الشكِّ في عصرهم. وقد تجدَّد هذا المذهب في عصر النهضة على يدِ بعض الفلاسفة. ويُعد من أشهرُ فلاسفة الشكِّ في عصر النهضة: ميشيل دي مينتن[4]

---

(١) لوسيولو فانيني (Lucilio Vanini): فيلسوفٌ وطبيب ومفكّر حرٌّ إيطالي. توفّي عام ١٦١٩م. انظر: http://dbpedia.org/page/Lucilio_Vanini

(٢) انظر: http://www.theodora.com/encyclopedia/v/lucilio_vanini.html

(٣) انظر: Renaissance and Reformation, The Oxford Handbook of Atheism (182)

(٤) ميشيل دي مينتن (Michel De Montaigne): أحدُ رجال الحاشية الملكية والكاتب الفرنسي. ألَّف عددًا من الرسائل والكتب. توفي عام ١٥٩٢ م. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (1286-1287)

وفرانسيسكو سانشيس[١]. كان ميشيل فيلسوفًا فرنسيًّا ملقَّبًا بأبي مذهب الشكِّ المعاصر. وقدْ زعم أنَّه لا يوجد أيُّ أمرٍ متيقَّن، بل يمكن التشكيكُ في كلِّ شيء. ولذا فإنَّه ينبغي للإنسان أنْ يبقى على الديانة التي تربَّى عليه، ولا يحيد عنه. وميشيل كان نصرانيًّا كاثوليكيًّا فبقيَ على هذه الديانة، معَ أنه رأى أنَّه إيمانه غيرُ مبنيٍّ على أدلة يقينية، وإنما هو مجرَّد تقليد الآباء[٢].

وأمّا فرانسيسكو فهوَ فيلسوفٌ يهودي برتغالي، وقد كتب كتابه: «لا يُعلم شيء» (Quod nihil scitur)، وطبعَه عام ١٥٧١م. وهذا الكتابُ من أهمِّ مصادر كتب مذهب الشكِّ في عصر النهضة. وقد طوَّر مذهب الشكِّ أكثرَ من سلفه حتى صدّر هذا الكتاب بقوله: «لا أدري حتَّى عن هذه المقولة: إنني لا أدري»[٣].

وفلسفةُ الشكِّ أثَّرت كثيرًا في بعض المشكِّكين في عصر التنوير مثل ديفيد هيوم[٤]، كما أنَّه أثَّر في كبار دعاةِ الإلحاد في القرن التاسع عشر مثل فريديك نيتشيه[٥].

---

(١) فرانسيسكو سانشيس (Francisco Sanches): يهودي من البرتغال، وأصبح بروفسور الفلسفة والطبِّ في جامعة تولو بفرنسا. واشتهر بأنَّه تبنَّى فلسفة الشكِّ، وألَّف في هذه الفلسفة بعضَ المؤلفات. توفي عام ١٦٢٣ م. انظر: /https: / /plato.stanford.edu /entries /francisco – sanches

(2) Med Tanke på Gud (63-64)

(3) That Nothing is Known (170), by Francisco Sánchez
Edited and translated by Elaine Limbrick, and Douglas F. S. Thomson, Cambridge 2008

(٤) ديفيد هيوم (David Hume): فيلسوفٌ ومؤرِّخ واقتصادي أسكتلندي. كان أحدَ أشهر فلاسفة الشكِّ في القرن الثامن عشر، وأثَّرت فلسفتُه تأثيرًا بالغًا في الفكر الغربي الحديث. من مؤلفاته: رسالة في الطبيعة البشرية، ومحاورات فلسفية في الفاهمة البشرية. توفي عام ١٧٧٦ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (908)

(5) Med Tanke på Gud (63)

فريدريك نيتشه (Freidrich Nietzsche): فيلسوفٌ وناقد ثقافي ولغوي ألماني. كان من أشهر فلاسفةِ الإلحاد في القرن التاسع عشر، وألَّف عددًا من المؤلفات المشهورة مثل: ما وراء الخير والشَّر، وهكذا تكلّم زرادشت. توفي عام ١٩٠٠ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1362)

وقد تركَ مذهبُ الشكِّ أثرًا في المذهب العقلاني الكلاسيكي في عصر النهضة كذلك كما سنقرأ الآن:

الثّالث: المذهبُ العقلاني الكلاسيكي: سبقَ في البحث أنَّ المذهب العقلاني نشأ في العصر اليوناني، ثمَّ امتزج بعلمِ اللاهوت النصراني في العصور الوسطى. أمّا في نهايةِ عصر النهضة نشأ ما يسمَّى بالمذهب العقلاني الكلاسيكي؛ وهو العقلانيةُ بثوبها الجديد. مؤسسُ هذا المذهب هو الفيلسوفُ الفرنسي رينيه ديكارت[١]. والطابع العامُّ لهذا المذهب هو مبدأ الشكِّ في كلِّ شيء لكي يوصِّل الإنسان إلى اليقين. «وهناك خطواتٌ للشكِّ عند ديكارت، وكيف قادتْه لليقين».

أوّلًا: الشكُّ في الحواس: يرى ديكارت أنَّ كلَّ ما تلقّاه وأدركه ووثقَ به كان عن طريقِ الحواس، ولكنَّه وجد الحواس خدَّاعة، ومن الحكمة أن لا نطمئنَّ لمن خدعونا ولو مرَّة واحدة...

ثانيًا: الشكُّ في الحياة الشعورية: إنَّنا كثيرًا ما ننام ونحلم ونعتقدُ أنّنا في الحقيقة ولكنَّا نستيقظ ونجدُه حلمًا، فما أدرانا أننا لسْنا نحلم الآن؟

ثالثًا: الشكُّ في العقل: شكَّ ديكارت في العقل على لسان الشيطان الماكر فيقول: إنَّ هناك شيطانًا ماكرًا يضلِّله ويجعل عقلَه يوقعه في الظنون؛ فشكَّ في المعرفة العقلية»[٢].

وبعدَ هذه الخطوات في الشكِّ توصَّل ديكارت إلى ثلاثةِ أنواع من اليقين:

١) **اليقينُ الأوَّل**: وجودُ النفس «الكوجيتو»: تحليلُ عملية الشكِّ في كلِّ الحقائق يؤدِّي بنا إلى ضرورةِ وجود فاعلٍ يشكُّ، أو ذات مفكِّرة تقوم بعملية الشكِّ؛

---

(١) رينيه ديكارت (Rene Descartes): فيلسوفٌ ورياضي وفيزيائي فرنسي، وملقَّب بأبي الفلسفة الحديثة. ألَّف عددًا من المؤلفات المشهورة مثل: تأمُّلات في الفلسفة الأولى، وتوفي عام ١٦٥٠ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (536)

(٢) ديكارت (٥١)، لمجدي كامل، (دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٣).

لأنه لا يمكن أن يحدثَ الشكُّ أو يظهرَ بدون تلك الذات المفكِّرة الشاكة، وإلّا فمَن يقوم بهذا الشك؟!

٢) **اليقينُ الثّاني: وجودُ الله:** استخدم ديكارت الحقيقةَ اليقينية السابقة «وجود النفس» ليجعلها ركيزةً ينطلق منها لإثباتِ حقيقة يقينية ثابتة مُرتبطة بها، هي وجود الله.

٣) **اليقينُ الثّالث: وجودُ العالم:** انتقلَ ديكارت من الحقيقةِ الثانية (وجود الله وكماله) إلى إثباتِ الحقيقة اليقينية الثالثة وهي (وجود العالم)... وهكذا استطاع ديكارت أن ينتقلَ من الشكِّ المؤقت إلى اليقين الدائم...»[١].

قد لُقِّب ديكارت بأبي الفلسفةِ الحديثة، وأكثرُ فلاسفة أوروبا في عصر التنوير عالةٌ عليه. كان ديكارت مؤمنًا بوجودِ الله، وانتسبَ إلى الكاثوليكية، ولكنَّ ميراثه الفلسفي كان كارثيًّا على الإيمان بالله في أوروبا. وذلك أنَّه كان يبني إيمانه على الشكّ. ثمَّ درج مِن هذا الشكِّ إلى اليقين المزعوم على وجودِ الله. وقد اعتمدَ في إيمانه على وجود الله على الدَّليل الأنطولوجي. وقد نقدَ فلاسفةُ عصر التنوير – مثل: إيمانويل كانت[٢] – هذا الدليلَ الضعيف؛ فديكارت وإنْ كان يريد أن يصلَ إلى اليقين بوجود الله بهذا الدليل، فإنَّه في الحقيقة قد أصَّل للشك في وجود الله[٣].

الملاحدةُ في عصر النهضة:

رغمَ هذه المعارضات للكنيسة التي بدأتْ في عصر النهضة، يبقى سؤال مهمٌّ: هل كانَ في هذا العصر مَلاحدة؟ لا شكَّ أنَّ أتباع المذهب البروتستانتي لم يكونوا

---

(١) المصدر السابق (٦٣ – ٦٥).

(٢) إيمانويل كانت (Imannuel Kant): فيلسوفٌ ألماني، ومهتمٌّ بالكتابة عن نظرية المعرفة. وفلسفته مؤثِّرة إلى حدٍّ كبير في الفكر الغربي المعاصر. وقد ألَّف عددًا من المؤلفات المشهورة مثل: نقد العقل المجرَّد، ونقد العقل العملي. توفي عام ١٨٠٤ م. انظر: Britanni-ca Concise Encyclopedia (1015)

(٣) انظر: ٢٥ filosofer (٣٨), Gunnar Fredriksson, (Nordstedts, 2009)

ملاحدة، بل كان الغرضُ الأساس لمؤسِّسي البروتستانتية مثل مارتن لوثر إصلاح الكنيسة وإرجاعها إلى أصل رسالة المسيح.

وأتباعُ المذهب الإنساني تبنَّوا رؤية مادية للعالم، ولكن لا يعني ذلك بطبيعة الحال أنَّهم نسبوا أنفسَهم إلى الإلحاد؛ بل كان بعضُهم من رجال الدين في الكنيسة. وكان غيرُهم من الدعاة إلى القولِ بوحدة الوجود، مثل: لوسيولو فانيني كما سبق؛ فلا يقال إنَّ الإنسانيين في ذلك الوقت كانوا ملاحدةً بالمفهوم المعاصر.

قدِ انتشرت الزندقةُ في هذا العصر، والآراءُ غير المتوافقة مع تعليمات الكنيسة الكاثوليكية، وكانوا يسمّون ذلك بالإلحاد؛ فعلى سبيل المثال ذكرَ الفيلسوف مرين ميرسين[١] عام ١٦٢٣م أنَّه يمكن أن يجدَ خمسين ألفَ ملحدٍ في باريس فقط[٢]. ولكن، هل كان هؤلاء ملاحدةً بالمفهوم المعاصر؟ الظاهر أنَّ الأمر لم يكن كذلك؛ فقد ذكر الفيلسوفُ الفرنسي المشهور فولتير[٣] أنَّ هؤلاء تبنّوا فلسفاتٍ مخالفةً لتعاليم الكنيسة ولم يكونوا ينكرون الخالق[٤].

---

(١) مرين ميرسين (Marin Mersenne): فيلسوفٌ ورياضي ولاهوتي فرنسي. اشتهر بنظرياته في الرياضيات. توفي عام ١٦٤٨ م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Marin-Mersenne

(٢) انظر:

Questions celebrrimae in genesim cols: 235-462, Marian Mersenne (Paris: S. Cramoisy)

(٣) فولتير (Voltaire): اسمه: فرانسو ماري آرooيه. كاتبٌ وفيلسوف فرنسي، وتبنَّى المذهب الربوبي. وعُرِف بنقده الساخر، ولا سيَّما للأديان والمتديّنين. ألَّف عددًا من المؤلفات، منها: الرسائل الفلسفية. توفي عام ١٧٧٨ م. انظر:

Britannica Concise Encyclopedia (2015-2016)

(٤) انظر:

Renaissance and Reformation, The Oxford Handbook (179-180)

وقد كتبَ دينيس روبيشود[1] بحثًا متعمِّقًا عنِ الإلحاد في عصري النهضة والإصلاح، وتوصَّل إلى أنَّه لم يكنْ في ذلك العصر مَن تبنَّى الفكر الإلحادي بوضوح، وأنه لا بدَّ أن نفرِّق بين مَن اتُّهم بالإلحاد، ومَن تبنّى الفكرَ الإلحادي لنفسه. ويمكن أن يقال إنَّه كان هناك عددٌ من الأشخاص أخفوا إلحادَهم، ولا ندري عنهم بالتفصيل[2].

---

(١) دينيس روبيشود (Denis Robichaud): أستاذٌ مساعد في جامعة نوتردام بالولايات المتّحدة، وهو متخصِّص في تاريخ الفلسفة. انظر:
https://pls.nd.edu/faculty-and-staff/denis-robichaud/

(٢) انظر: المصدر السابق (١٨٠).

المطلبُ الخامس
عصرُ التَّنوير

كما هو الحال معَ أكثر عصورِ التاريخ الأوروبي، فقد وقعَ الاختلافُ في تحديد عصرِ التنوير، وإنْ كان الاختلاف يسيرًا. ولكنْ مما ذكره كثيرٌ من المؤرِّخين أنَّ هذا العصر استمرَّ خلال القرنين السابع والثامن عشر[1]. وهذه الفترةُ كانت مليئةً بالأحداث المهمَّة في تاريخ أوروبا على الصَّعيد العلمي والسياسي والاقتصادي والفكري. وبيانُ ذلك كما يلي:

أهميةُ عصر التَّنوير في الفكر الإلحادي:

عصرُ التَّنوير من أهمِّ العصور في بروز الفكر الإلحادي، وقد وقعَ في هذا العصر عددٌ من الأمور ساهمتْ في بروز الإلحاد بين بعض المثقَّفين. ومن أهمِّ هذه الأمور:

الثورةُ الفرنسية:

كانت فرنسا من أهمِّ دول أوروبا في عصر التنوير، فكان لهذه الدولة تأثيرٌ كبير من ناحيةِ العلم والفلسفة والسياسة. وبين عام ١٧٨٩ إلى ١٧٩٩ وقعتِ الثورة الفرنسية وتبعاتها، وكان من أهمِّ الأحداث المساهمة في نشر الفكر العلماني ثمَّ الإلحادي في أوروبا. وقد وقعتْ هذه الثورة لأسبابٍ كثيرة، أهمها سببان:

الأوَّل: السببُ الاقتصادي: كانت فرنسا تمرُّ بأزماتٍ اقتصادية في القرن الثامن عشر؛ فبيْن ١٧٥٦ إلى ١٧٦٣ خاضتْ فرنسا في «حرب السنوات السبع» التي شاركتْ فيها أغلبُ دول أوروبا، وذهبت أموالٌ طائلة في هذه الحرب. كما أنَّ فرنسا تدخَّلت في

---

(١) انظر بحث: What was the Enlightenment?

http://www.livescience.com/55327-the-enlightenment.html

حربِ الاستقلال الأمريكية بين ١٧٧٥ - ١٧٨٣، وكانت حربًا مكلفة أيضًا[١]. ولم يجدِ الملك لويس السادس عشر طريقًا لجمْع الأموال سوى فرض ضرائب عالية على الطبقة الوسطى[٢]. كان عددُ سكان فرنسا عام ١٧٨٠م ٢٦ مليون نسمة، منهم ٢١ مليون يعيشونَ على الزراعة. وكانوا يدفعون ضرائبَ عالية لطبقة النبلاء المالكة للأراضي المتحالفة معَ الملك. كما أنَّ هؤلاء كلهم اضطرّوا إلى دفع ضرائب زائدة على ذلك للكنيسة ورجالِ الدين. فهذا ما جعل الطبقاتِ الوسطى والفقيرة يحقدون على الملك والطبقاتِ العليا والكنيسة[٣]. فكان الوضعُ متهيئًا لثورةِ هذه الطبقات الدنيا على الطبقات العليا.

الثّاني: السببُ الفكري: قد عدَّ بعضُ الباحثين أنَّ من أسباب الثورة أنه قد انتشرتْ فلسفاتٌ سياسية وعقلانية في فرنسا قبلَ الثورة[٤]. كانتْ أهمُّ الفلسفات الفكرية المهدِّدة للنظام في ذلك الوقت فلسفتيْن:

الفلسفةُ الأولى: نظريةُ العقد الاجتماعي: كان الفيلسوف جان جاك روسو[٥] مِن أكبر الدُّعاة إلى هذه النظرية التي تقلِّل من صلاحيات الحاكم. وكان روسو يجادل أنَّ حقَّ التشريع والتقنين يجب أن يكون بيدِ الشعب. وهذا مما يعارض النظامَ الحاكم في ذلك الوقت، إذْ كان ملكُ فرنسا ملكًا مستبدًّا بالحكم[٦].

---

(1) French Revolution 34, Peter McPhee, Melbourne U 2015

(2) Europe Since Napoleon (24-25),

(3) The French Revolution 29-30

(٤) انظر: The age of the Democratic Revolution: a political history of Europe and America, 1760 - 1800 (2nd ed. 2014) pp 177 - 213, by, R.R. Palmer

(٥) جان جاك روسو (Jean – Jacques Rousseau): فيلسوفٌ وأديبٌ وعالم نباتٍ سويسري وفرنسي. وكان مِن أشهر فلاسفة عصر التنوير. من مؤلفاته: العقد الاجتماعي. توفي عام: ١٧٧٨ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1647)

(٦) انظر المقال: The French Revolution: Ideas and Ideologies
http://www.historytoday.com/maurice-cranston/french-revolution-ideas-and-ideologies

الفلسفةُ الثّانية: المذهبُ الربوبي[1]: كان هذا المذهبُ يظهر كبديل للكنيسة المتحالفة معَ العائلة الملكية في فرنسا. والكلامُ على هذا المذهب بحاجةٍ إلى نوع ما من البسْط، وسيأتي الكلام عنه لاحقًا في هذا المطلب.

بدأتِ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وفي عام ١٧٩٢م أعلن الثوّارُ أن فرنسا جمهورية، ونزعوا آخرَ تاجٍ عن ملك في تاريخ فرنسا. وفي عام ١٧٩٣م أعدم الثوّار الملك، وتلَا هذا الإعدامَ ما يسمَّى بعهد الإرهاب الذي أعدم فيه عددٌ هائل من مُعارضي الثورة خلال سنةٍ واحدة. وقدَّر المؤرّخون هؤلاء القتلى في هذا العهد بتقديرات مُتفاوتة تصلُ إلى ٥٠٠ ألف قتيل[2]. وقد قُتل كثيرٌ من الرهبان والقساوسة في هذا العهد، مما يعبِّر بشدَّة عن حقد الثوّار على الكنيسة ورجال الدين؛ فقُمعت الكنيسة الكاثوليكية بحدِّ السيف الذي طالما استعملوه ضدَّ معارضيها في العصور الوسطى وعصرِ النهضة. وبعدَ الثورة الفرنسية - وإلى يومنا هذا - أصبحت فرنسا من أكثر الدول الدَّاعية إلى العلمانية.

وينبغي أن يُشار إلى أمرٍ ذي أهمية في هذا الباب، ألَا وهو دور الماسونية[3] في هذه الثورة ثمَّ في نشر العلمانية؛ حيث كان «غراند أورينت دي فرانس»

---

(١) المذهب الربوبي: الإيمانُ بالإله مبنيٌّ على العقل المجرَّد وليس بناءً على الوحي أو اعتناق دين معيَّن. ويعبّر عنه بالدين الطبيعي. قد ظهر المذهب الربوبي في بريطانيا في القرن السابع عشر لمعارضة المعتقدات النصرانية التقليدية. وكان هذا المذهب منتشرًا إلى حدٍّ كبير بين المفكّرين في القرن الثامن عشر، وقد تبنَّاه عددٌ من رؤساء الولايات المتحدة. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (527)

(٢) انظر البحث عن الإرهاب في الثورة الفرنسية:
The Terror in the French Revolution, by Dr Marisa Linton
وهو موجود في:
http://www.port.ac.uk/special/france1815to2003/chapter1/interviews/file-todownload,20545،en.pdf

(٣) الماسونية: أكبرُ منظَّمة سريَّة في العالم. تأسَّس أوَّلُ محفلٍ ماسوني عام ١٧١٧م في لندن، ولكن جذور الماسونية أقدمُ من ذلك. وقد انتشرتِ الماسونية في في أنحاء العالم وفتحت محافل ماسونية كثيرة في أوروبا والولايات المتّحدة. وتعاليمهم وطقوسهم محاطةٌ بكثير من السرية والغموض. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (710)

(Grand Orient de France) أهمَّ محفلٍ ماسوني شاركَ في الثورة الفرنسية. وكان هذا المحفلُ يدير اليعاقبة[1]، وهُم المسئولون عن عهدِ الإرهاب بما فيه من القتل والترويع[2]. وهذا المحفلُ لا يزال نشيطًا للغاية في فرنسا بالدَّعوة إلى العلمانية، وكان المسئولَ الأوَّل عن فصل الدين عن الدولة هناك[3].

انتشارُ المذهب الربوبي:

سبقَ في هذا المطلب أنَّ الربوبيين من أهمِّ المعارضين للكنيسة الكاثوليكية في عصر التنوير؛ فيحسُن الوقوف عند هذا المذهب قليلًا.

وقد ذكر الباحثون عددًا من التعريفات للمذهب الربوبي، ولكن من أدقِّها - والله أعلم - أنَّه: «نظام معتقدٍ يفترض أنَّ وجود الإله هو سببُ كلِّ شيء، ويقرُّ بكمال الإله، ولكنْ يجحد الوحي الإلهي وسلطته [في الكون]، مع الزعم أنَّ القوانين الطبيعية كافية»[4].

وقد ظهرَ هذا المذهب - بهذا المفهوم - في نهايةِ عصر النهضة، ولكن هذا المذهب لم ينتشرْ إلّا في عصر التنوير؛ فقدِ انتشرَ في هذا العصر انتشارًا كبيرًا بين الفلاسفة والمفكِّرين والساسة. ومِن فلاسفة المذهب الربوبي كبارُ مفكِّري فرنسا في عصر التنوير مثل: فولتير، وجان جاك روسو. كما أنه أثَّر في الطبقة السياسية في الولايات المتحدة[5].

---

(١) انظر: Paris, the Provinces and the French Revolution, By Alan Forrest, 2004, Oxford University Press, page 108

(٢) انظر:

Stephen J. Lee (2008). Aspects of European History 1789-1980. Routledge. pp. 22-23.

اليعاقبة: هُم أعضاء النادي اليعقوبي، وهو أشهرُ حركةٍ سياسية في الثورة الفرنسية، وقادوا الحكومة الثورية بينَ عامي ١٧٩٣ - ١٧٩٤م. ويقدّر عددُ أعضائه بحوالي ٥٠٠ ألف. وكانوا مسئولين على المجازر بعدَ الثورة. انظر: https: / /www.britannica.com /topic /Jacobin – Club

(٣) انظر: Page 162, Religion, Politics and Preferment in France Since 1890, Maurice Larkin, 1995, Cambridge University Press

(4) http://jewishencyclopedia.com/articles/5049-deism

(٥) انظر: http://www.adherents.com/largecom/fam_deist.html

فهذا المذهبُ كان له تأثيرٌ كبير على النُّخبة المثقَّفة في هذه الحقبة الزمنية. وكان لانتشار هذا المذهب أسبابٌ كثيرة، منها:

السببُ الأوَّل: أنه وقعت حروبٌ دينية طاحنة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية ممّا جعل بعضَ المفكِّرين يبتعدون عن الديانة النصرانية. وقد اشمئزَّ كثيرٌ من المفكِّرين من الجرائم الحربية التي وقعتْ باسْم الدين في تلك الحروب[١].

السببُ الثّاني: نشأ في عصر التنوير علمٌ يسمَّى بالنقد الكتابي[٢] «Biblical Criticism». وكان الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا[٣] «Baruch Spinoza» من أشهر نقّاد الكتاب المقدَّس في عصر التنوير؛ فألَّف: «رسالة في اللاهوت والسياسة» (Theological Political Essay)، وتوصّل فيها أنَّ للعهد القديم عددًا من المؤلِّفين بخلفيات مختلفة، وليس نبي الله موسى ﷺ هو المؤلِّف الحقيقي لهذا الكتاب[٤]. وكان هذا العلمُ له تأثير في تنكُّر الربوبيين للوحي الإلهي.

السببُ الثّالث: ظهرتْ نظرياتٌ جديدة مصْحوبة باكتشافات علمية حديثة في هذا العصر. وكان إسحاق نيوتن[٥] أهمَّ عالمٍ في هذا العصر. وقد اكتشف نيوتن أنَّ

---

(١) انظر: http://nationalhumanitiescenter.org/tserve/eighteen/ekeyinfo/deism.htm

(٢) النقد الكتابي: فرعٌ من المعرفة الذي يدرس الأسئلة النَّصية والتركيبية والتاريخية المحيطة بالعهدين القديم والجديد للكتاب المقدَّس. انظر:
https://www.britannica.com/topic/biblical-criticism

(٣) باروخ سبينوزا (Baruch Spinoza): فيلسوفٌ هولندي من أصولٍ يهودية. وكان من أشهرِ فلاسفة المذهبِ العقلاني في القرن السابع عشر، ولكنه خالفَ الفيلسوف العقلاني ديكارت في جُملة من المسائل الفلسفية. وتوفي في عام ١٦٧٧ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1802)

(٤) انظر المقال: Biblical Criticism by Bernard Spinoza في:
http://www.fsmitha.com/h3/spinoza-bible.htm

(٥) إسحاق نيوتن (Isaaq Newton): عالمُ الفيزياء والرياضيات من بريطانيا. وكان بروفسورًا في جامعة كامبردج، وكان رئيسَ الجمعية الملكية في لندن. ومِن أشهر مؤلفاته: الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية، وكتب فيه عنْ قوانين الحركة، ومن ذلك: قانون الجاذبية. توفي عام: ١٧٢٧م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1357)

الكون يسيرُ بنظام مُتقن يمكن تفسيرُه وفقَ الرياضيات. ومِن أبرز هذه الاكتشافات: اكتشافُ قانون الجاذبية. وظلَّ نيوتن مؤمنًا بالله، ومتديّنًا بالديانة النصرانية طوالَ حياته، وألَّف ٤٠٠ رسالة في علم اللاهوت[١]. ولكنْ وجد الربوبيون بغيتَهم في اكتشافات نيوتن، فاعتقدوا أنَّ الخالق خلقَ الكون وفقَ القوانين الطبيعية، ثمَّ أهمله بعد ذلك، ولا يتدخَّل في شئون خلقه[٢].

ومما يجدرُ ذكرُه أنَّ المذهب الربوبي ليس مذهبًا إلحاديًّا - بمفهوم الإلحاد المعاصر - ؛ فالربوبي يؤمن بوجودِ إله، وأنه خالقُ كلِّ شيء. ومعَ ذلك فقد اقترب الفكر الأوروبي خطوةً نحو الإلحاد بهذا المذهب. فكأنما المذهبُ الربوبي هو في منزلةٍ بين منزلتين؛ بين الإلحاد والإيمان بالله الخالق المدبِّر لهذا الكون، وإنْ اجتمعَا في الكفر بالرسالات والأديان والقدر.

ولكنْ أخذَ هذا المذهب يندثرُ في أواخر القرن الثامن عشر لعدَّة أسباب، ومن أهمّها سببان:

١) نقدُ أدلة وجود الله على يدِ ديفيد هيوم وإيمانويل كانت.

٢) انتشارُ المذهب الطبيعي والمادي، ومن ثمَّ الإلحاد.

وتفصيلُ الكلام عن هذيْن السببين كما يلي:

السببُ الأوَّل: نقدُ أدلة وجود الله:

اشتهرَ بعضُ الفلاسفة في عصر التنوير بنقدِ أدلة وجود الله، وأشهرهم:

الفيلسوفُ الأوَّل: ديفيد هيوم. وهو فيلسوفٌ إسكتلندي تبنَّى مذهب الشكّ. ولعلَّ هيوم من أهمِّ الفلاسفة المؤلِّفين في نقدِ أدلة الإيمان بوجود الله. وقد نقد هيوم

---

(١) انظر: (٦٠) Vetenskap och Tro

(٢) انظر:

http://www.encyclopedia.com/philosophy-and-religion/philosophy/philosophy-terms-and-concepts/deists

الدليلَ الكسمولوجي ودليلَ التصميم[1] في: «رسالة عن الطبيعة» (Treatise on Nature). كما أنه كتبَ في استحالة وقوع المعجزات في: «رسالة في الفهم البشري» (An Enquiry Concerning Human Understanding). ونظّر لمعضلة الشَّر في كتابه: «محاورات في الدين الطبيعي» (Dialogues Concerning Natural Religion). وقد زعزع هيوم المفاهيم الدينية في وقتِه، ويعتبرُ إلى يومنا هذا من أهمِّ المنتقدين لأدلةِ وجود الله؛ فقد استشهدَ ريتشارد دوكينز بكلامٍ وتنظيرات هيوم في خمسةِ مواضع من كتابه: وهمُ الإله[2]. اتُّهم هيوم بالإلحاد في زمانه، ولكنِ اختلفَ الباحثون المعاصرون في معتقده كثيرًا، وذلك لوجود أقوالٍ مُتضاربة من هيوم نفسِه في كتبه. ولكن توصَّل الباحثون في فلسفة هيوم الدينية أنَّه كان ربوبيًّا، ولم يكن ملحدًا[3].

الفيلسوفُ الثاني: إيمانويل كانت: وهو فيلسوفٌ ألماني مشهور. وقد نظَّر «كانت» لفلسفاتٍ عديدة، وقد اهتمَّ بنقد أدلةِ وجود الله على وجه الخصوص. فقد وجَّه نقدًا حادًّا للدليل الأنطولوجي[4] - الذي اعتمد عليه ديكارت - في رسالته: «نقد العقل المجرَّد» (Critique of Pure Reason)[5]. وقد استند الملاحدة المعاصرون على هذا النَّقد كما فعل ريتشارد دوكينز في كتابه «وهم الإله»[6]. ومعَ هذا الردِّ على دليل وجود الله فقد ترجَّح لدى الباحثين أنَّ «كانت» لم يكنْ ملحدًا

---

(١) سيأتي الحديثُ عن هذين الدليلين في الباب الثاني إن شاء الله.

(٢) انظر: The God Delusion (107, 110, 116, 139, 187)

(3) Routledge Philosophy Guide Book to Hume on Religion (11, 19), by David O'Connor, 2013

(٤) سيأتي الحديثُ عن هذا الدليل في الباب الثاني إن شاء الله.

(٥) انظر المقال: Kant's Philosophy of Religion في موسوعة ستانفورد الفلسفية:
https://plato.stanford.edu/entries/kant-religion/#KanPreCriDisGod

(٦) انظر: The God Delusion (107)

بالمفهوم المعاصر، بل إنَّه كان مؤمنًا بالله - ولكنّ إيمانَه ضعيف - أو أنه كان لاأدريًّا[1][2].

السببُ الثّاني: انتشارُ المذهب المادي والطبيعي:

المذهبُ المادي والمذهبُ الطبيعي من المذاهب الفكرية التي انتشرت في عصرِ التنوير، وتعريفُهما فيما يأتي:

المذهبُ الطبيعي (Naturalism): وهو نظرية تقول «إنَّ كلَّ شيء في العالم والحياة مبنيٌّ على أسباب وقوانين طبيعية، لا روحية أو ما وراء الطبيعة»[3].

المذهبُ المادي (Materialism): «الاعتقادُ أنه لا يوجد سوى الأشياء المادية»[4]. ومؤدَّى هذين التعريفين في الحقيقة واحد، وهو الإقرارُ بأنَّه لا يوجد سوى هذه الطبيعة أو المادة، ولا يوجد شيءٌ وراء ذلك، مثل: الخالق، أو الروح أو غير ذلك.

وقد قسَّم بعضُ الباحثين المذهبَ المادي والطبيعي إلى قسمين: الجانب الأنطولوجي والجانب المنهجي. والجانب الأنطولوجي يبحث في عالم الوجود، أي: هل يوجد شيء سوى هذه المادة أو الطبيعة؟ الجواب عندَ أتباع هذين المذهبين: لا.

أمّا الجانبُ المنهجي فمحلُّه في البحث العلمي ومنهجيته، ولا يتعلَّق بعالم الوجود؛ فلا يجوز تفسيرُ الظواهر المادية أو الطبيعية إلّا بالمادة أو الطبيعة وفقَ هذا المنهج. ولكن لا يعني ذلك أنَّه لا يوجد شيء وراء المادة أو الطبيعة؛ فالذي يتبنَّى المذهبَ المادي أو الطبيعي المنهجي قد يؤمنُ بالله والروح، ولكنَّه في مجال البحث العلمي لا يفسِّر

---

(١) انظر:
Atheism in Modern History, in The Cambridge Companion to Atheism (35-36)

(٢) سيأتي الكلامُ المفصَّل عن شبهات هيوم، وكانت لهذه الأدلةِ في الباب الثاني في الكلام عن أدلة وجود الله.

(3) Oxford English Dictionary (848)

(٤) المصدر السابق (٧٨٩)

الظواهر الطبيعية بذلك. وهذا الجانبُ المنهجي هو المتَّبع في جميع الدراسات العلمية في الأوساط الأكاديمية الغربيَّة اليوم تقريبًا. وذلك لا ينفي أنَّ كثيرًا من هؤلاء العلماء يؤمنون بالله والغيبيّات كما سيأتي الكلام عنه مفصَّلًا في الباب الثاني من هذه الرسالة.

وكان توماس هوبز[1] مِن أوائل مَن دعا إلى المذهب المادي في القرن السابع عشر، ووضعَ له الأسسَ والقواعد. لكن كان أهمُّ مَن نظَّر ودعا إلى المذهب المادي في عصر التَّنوير فلاسفة فرنسا[2] أمثال: دنيس ديدرو[3]، وجوليان أوفراي[4]، وبارون دي هولباخ[5]. وكان هؤلاء الثلاثة هُم روّادَ الإلحاد في عصر التنوير - كما سيأتي ذكره -. بذلك تتبيَّن الصلة الوثيقة بينَ المذهب المادي الطبيعي والفكر الإلحادي. والمذهب المادي أثَّر كثيرًا في تكوين الفكر الشيوعي في القرن التاسع عشر كذلك. وحسب التتبُّع والاستقراء ظهرَ أنَّ جلَّ الملاحدة المعاصرين يتبنّون المذهبَ الطبيعي المادي بلا استثناء.

---

(١) توماس هوبر (Thomas Hobbes): فيلسوفٌ ومنظِّر سياسي بريطاني. تخرَّج من جامعة أكسفورد المشهورة، وألَّف كتبًا في السياسة، ممّا جعلَ ملك بريطانيا يطلبه، فهربَ إلى فرنسا ولم يعدْ إلّا بعدَ وفاة الملك. توفي عام: ١٦٧٩. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (881)

(٢) انظر المقال: Materialism في موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https: / /www.britannica.com /topic /materialism – philosophy

(٣) دنيس ديدرو (Denis Diderot): فيلسوفٌ فرنسي تعلَّم على يد اليسوعيين الكاثوليك، ثمّ واصلَ دراسته في جامعة باريس. كان المحرِّر الأوَّل للموسوعة الفرنسية في ٣٥ مجلّدًا التي كان من أهمِّ الكتب في عصر التنوير في فرنسا. توفي عام: ١٧٨٤ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (543)

(٤) جوليان أوفراي (Julien Offray): طبيبٌ وفيلسوف فرنسي، وكان من أوائل الماديين، وينكر وجودَ الروح. توفي عام ١٧٥١ م. انظر:
https://www.newworldencyclopedia.org/entry/Julien_La_Mettrie

(٥) بارون دي هولباخ (Baron d’Holbach): واسمه الحقيقي: بول هنري ثيري. وكان فيلسوفًا ومترجمًا وناشطًا اجتماعيًّا مشهورًا في عصر التنوير في فرنسا. توفي عام ١٧٨٩ م. انظر:
https://plato.stanford.edu/entries/holbach/

الملاحدةُ في عصر التنوير:

وقد تبنَّى كثيرٌ من فلاسفة عصرِ التنوير المذهب الربوبي، وأعرضوا عن الديانة النَّصرانية، ثمَّ لمّا انتشرتْ فلسفات هيوم و"كانت" النقديةُ لأدلة وجود الله، والمذهب الطبيعي المادي فتح باب الإلحاد على مصراعيه. ومع ذلك بقيت ظاهرةُ الإلحاد قليلة ونادرة في عصرِ التنوير. وأشهر مَن عُرف بالإلحاد في هذا العصر أربعةُ مفكِّرين، كلهم من فرنسا:

الملحدُ الأوَّل: جان ميسلر[١]: كان ميسلر أوَّلَ ملحدٍ بالمفهوم المعاصر في تاريخ أوروبا. ومِن الغريب في الأمر أنَّه كان قسيسًا، وظلَّ كذلك إلى أن مات عام ١٧٢٩م. ولكن بعدَ وفاته اكتشفتْ في بيته مخطوطةٌ في ٦٣٣ صفحة. وهذه المخطوطة بمثابة وصيتِه، وأنكرَ فيها وجودَ الله كما يؤمن به النصارى والربوبيون معًا[٢]. وكانت معضلة الشَّر هي عمدةَ الشبهة لديه التي أوقعته في مستنقع الإلحاد[٣]. فميسلر لم يدعُ إلى الإلحاد في حياته، ووصيتُه لم تشتهر كما اشتهرتْ كتبُ الملاحدة الآخرين في عصر التنوير.

الملحدُ الثّاني: جوليان أوفراي: بدأ أوفراي حياتَه العلمية بدراسة علم اللاهوت، ثمَّ ملَّ منه، فاتَّجه نحو دراسة الطبّ، وبرزَ فيه حتى ألَّف عددًا من المؤلفات الطبّية. وصدرَ أشهر مؤلَّفاته: «الإنسان آلة» (L'homme Machine) عام ١٧٤٧م. وأنكر فيه أن الروحَ له طبيعة غيرُ مادية. كانت كتاباتُ أوفراي علمية ومبنيَّة على الفلسفة

---

(١) جان ميسلر (Jean Meslier): قسيسٌ كاثوليكي فرنسي، ألَّف وصية ظهرتْ بعد وفاته، وفيها أفكارٌ إلحادية وثورية، ومُعادية للديانة النصرانية. توفي عام: ١٧٢٩ م. انظر:
https://www.encyclopedia.com/humanities/encyclopedias-almanacs-transcripts-and-maps/meslier-jean-1664-1729

(2) انظر: "Arguments for the existence of God: the continental European debate", pp. 734-735, in Haakonssen, Knud. The Cambridge History of Eighteenth-Century Philosophy, vol. 2. Cambridge University Press

(3) "The problem of theodicy", pp. 766, in Haakonssen, Knud. The Cambridge History of Eighteenth-century Philosophy, vol. 2. Cambridge University Press.

المادية. وهذه الفلسفة هي أساسٌ مِن أسس الإلحاد، ويفهم مِن كلامه أنَّه يُنكر الخالقَ وإن لم يصرِّح به بوضوح[1].

الملحدُ الثّالث: دنيس ديدرو: تأثَّر ديدرو في أوّل حياته بفلسفة فولتير الربوبية، ثمَّ اتَّجه نحوَ الإلحاد وألَّف كتابه: «مشي الشكّاك» (La Promenade du sceptique) على طريقةِ مناظرة بين ربوبي ومُلحد وقائل بوحدةِ الوجود. ويظهر من كتابه أنه انتصرَ للإلحاد في نقدِ السّاخر من الإيمانِ بالله. ولهذا عدَّه بعضُ المؤرخين لظاهرة الإلحاد أوّلَ ملحدٍ صريح في إلحاده[2]. وذكرَ ديديرو أنَّه بنى إلحادَه على توصيل الفيزياء الرياضية لديكارت، والميكانيكية الكونية لنيوتن، إلى نهايته العقلانية بتجريدهما من الميتافيزيقية. وتوصَّل في الأخير إلى مبدأ أنَّ كلَّ شيء طبيعة خلَّاقة، وأنَّ المادة نفسها مبدعة لجميع التغيُّرات والتصميمات[3].

الملحدُ الرّابع: بارون دي هولباخ: كان الفيلسوف دي هولباخ من الطبقة الأرستقراطية، ولديْه صالون أدبي مفتوحٌ للمثقَّفين والفلاسفة في أوروبا لمناقشة القضايا الفلسفية[4]. ألَّف دي هولباخ كتابه: «نظام الطبيعة» (Systeme de la nature) عام ١٧٧٠م. وقرَّر فيه أنَّ الحياة نتيجة للطبيعة وخاضعة تمامًا لقوانينها، كما أنه أنكر وجودَ الله بوضوحٍ في

---

(١) انظر:

Atheism for Beginners: A Coursebook for Schools and Colleges (22), by Michael Palmer

(٢) انظر:

At the Origins of Modern Atheism (249), by: Michael J. Buckley, (Yale University Press, 2009)

(٣) انظر:

Atheism in Modern history, in The Cambridge Companion to Atheism (30)

(٤) انظر:

The Forgotten Radicalism of the European Enlightenment. Basic Books, New York, (2010), pp. xi, xii,

هذا الكتاب[1]. وكان لهذا الكتاب بالغُ التأثير فيمَن بعده حتى يسمَّى بـ«الكتاب المقدَّس للملاحدة»[2].

ومع ظهورِ الإلحاد بالمفهوم المعاصر في عصر التنوير فإنه لم يزلْ منحصرًا في أوساط بعضِ المثقَّفين والفلاسفة في فرنسا. ولم ينتشرِ الإلحادُ إلى طبقات متفاوتة من المجتمع، وفي بلدان أخرى، إلّا في القرن التاسع عشر.

---

(١) انظر:

The Age of Enlightenment, in The Oxford Handbook of Atheism (208)

(٢) انظر:

Atheism for Beginners (23)

المطلبُ السّادس
القرنُ التاسع عشر

أهميةُ القرن التاسع عشر في الفكر الإلحادي:

انتهى عصرُ التنوير في أوروبا معَ دخول القرن التاسع عشر. وهذا القرن من أهمِّ العصور في تنظير الفكر الإلحادي فلسفيًّا وعلميًّا. كما أنَّ أوروبا شهدت تغيّرًا جوهريًّا على الصَّعيد السياسي بظهور الديمقراطية[1] وحرية الرأي. كتب البروفسور ديفيد ناش[2] بحثًا عنِ الإلحاد في هذا القرن وسمَّاه: «القرن التاسع عشر (الطويل)» (The (Long) Nineteenth Century)[3] إشارة إلى وقوعِ أحداثٍ كثيرة ومهمَّة في الفكر الإلحادي في هذا القرن. وكانت فرنسا وبريطانيا، وألمانيا، أقوى الدول الأوروبية في هذا القرن من الناحية الفكرية، والعلمية والسياسية؛ بل بسطتْ هذه الدول الثلاث سيطرتها على معظمِ الدول الأوروبية، كما أنها استعمرتْ كثيرًا من الدول خارج أوروبا. وكبار فلاسفة الإلحاد ودعاته كانوا مِن هذه الدول الثلاث؛ ولذا سوف يتمُّ استعراضُ الإلحاد في هذه الدّول الثلاث في هذا القرن، معَ بيان أهمِّ دعاة الإلحاد والأحداث المساهمة في نشر الإلحاد وأخيه العلمانية:

---

(١) الديمقراطية: إحدى صورِ الحكم، تكون السِّيادةُ فيها للشعب، وتمارَس إمَّا مباشرة أو عن طريق نوَّاب عن الشعب. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ٧٩٥).

(٢) ديفيد ناش (David Nash): بروفسور التاريخ في جامعة أكسفورد المشهورة ببريطانيا، وألّف كتبًا عنِ العلمانية منذ أكثر من ٢٥ سنة. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (xic)

(٣) انظر: The Oxford Handbook of Atheism (212)

الإلحادُ في فرنسا:

سبقَ الحديث عن أثرِ فرنسا في نشْر الإلحاد ومحاربة الدين في عصر التنوير. وتبيّن أنَّ هذا الأمر يرجع إلى الفلسفة الفرنسية المعادية للدين، وحصول الثورة الفرنسية وعمل الماسونية الدؤوب في هذا المجال. والقرن التاسع عشر امتدادٌ لهذا العصر، وبيانُ ذلك ما يلي:

الأحداثُ السياسية في فرنسا في هذا القرن:

كان نابليون من أهمِّ رجال السياسة الذين حاربوا الدينَ، ونشروا العلمانية في القرن التاسع عشر. وُلد نابليون عام ١٧٦٩م، وانضمَّ إلى الجيش الفرنسي وأصبح ضابطًا ذا رتبةٍ رفيعة[١]. وكان نابليون يتبنَّى المذهب الربوبي، وهذا أدَّاه إلى صراع دائم مع الكنيسة الكاثوليكية. وقد اختلفَ الباحثون في انتمائه إلى الماسونية، والأظهر أنَّ الأمر كذلك لشدَّة تأييده لهم[٢]. علاَ شأْنه في الجيش الفرنسي في السنوات التي تلت الثورة الفرنسية وبدأ يغزو أعداء فرنسا؛ فقرَّر في عام ١٧٩٦م أنْ يغزو الدويلات الإيطالية واستطاع أن يهزمَ الجيش الموالي للبابا في الفاتيكان، وسعى بعدَ ذلك إلى علمنة إيطاليا. ثمَّ واصل غزواتِه إلى مصر فغزاها عام ١٧٩٨م، وسرعانَ ما أسَّس فيها محافلَ ماسونية، وسعى إلى نشْر العلمنة[٣].

استمرَّت غزواته في غرب وجنوب ووسط أوروبا، وسعى تدريجيًّا إلى الحكم في فرنسا حتَّى أصبح أوَّل إمبراطور للإمبراطورية الفرنسية عام ١٨٠٤م. وواصل الغزوات ونشْر العلمنة إلى أنْ أصيب بجنون العظمة، وحاول السيطرةَ على روسيا عام ١٨١٢م، ولكن باءتْ هذه المحاولة بالفشل، فاضطرَّ إلى ترك الحكم عام ١٨١٤م[٤]. تقوَّت

---

(١) انظر: http: / /www.history.com /topics /napoleon

(٢) انظر مثلاً: Napoleon & Empire Freemasonary under the French First Empire
http://www.napoleon-empire.com/freemason.php

(٣) انظر المقال السابق.

(4) http://www.history.com/topics/napoleon

الماسونية كثيرًا في عهده، وزادَ عددُ المحافل الماسونية من ٣٠٠ إلى ١٢٠٠ في هذه الفترة القصيرة[١].

هلكَ نابليون عام ١٨٢١م، واضطربتِ الأحداثُ السياسية في فرنسا بعده، ولكنها بقيتْ دولةً ذاتَ نفوذ واسع، كما أنَّ العلمانية بقيت قويةً طيلة هذا القرن. وكان لدى الإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية مستعمراتٌ في أنحاء العالم في هذا القرن، واستطاعت أنْ تنشر العلمانية بينَ تلك الدول. ويلاحظ - إلى يومنا هذا - أنَّ الدول التي عاشت تحتَ الاستعمار[٢] الفرنسي أكثرَ ميلاً إلى العلمانية من الدول التي استعمرتها دول أخرى.

الفلسفةُ الفرنسية في هذا القرن:

كان أكبرُ فلاسفة أوروبا في عصر التنوير من فرنسا. وأمّا في القرن التاسع عشر فقدْ قويت الفلسفةُ الألمانية على حساب الفلسفة الفرنسية كما سيأتي بيانه لاحقًا. ومع ذلك وُجد بعضُ الفلاسفة ذوو التأثير في هذا القرن. وأهمُّ فيلسوف فرنسي في هذه الحقبة الزمنية كان أوغست كونت[٣]. قد وُلدَ كونت في أسرةٍ كاثوليكية متديّنة عام ١٧٩٨م، ولكن تغيَّر فكرُه عند دراسته نحوَ الفكر المادي الإلحادي. وقد أسّس

---

(١) انظر المقال: Napoleon & Empire Freemasonary under the French First Empire
http://www.napoleon-empire.com/freemason.php

(٢) الاستعمار: ظاهرةٌ سياسية اقتصادية وعسكرية ظهرتْ بظهور الإمبرطوريات منذ العصر القديم. وظهرتْ في أوروبا في العصر الحديث بظهور القوميات وحركة الكشوف الجغرافية وقيام المذهب التجاري، متأثّرة في أصولها الفكرية برواسبِ الفلسفة الأرسطية في العقلية الأوروبية، حيث نبرةُ استعلاء الجنس الآري، وتميُّزه، ومَن عداه فهو عبدٌ، وله عقلية العبيد. انظر: الموسوعة الميسرة ٢ / ٩٥٣).

(٣) أوغست كونت (Auguste Comte): الفيلسوفُ الفرنسي، ومؤسِّسُ علم الاجتماع بأسس فيلسوفية، كما أنَّه أسَّس المذهبَ الوضعي. وقد أثَّرت فلسفته في عددٍ من الفلاسفة بعده. توفِّي عام ١٨٥٧ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (445)

كونت المذهبَ الوضعي[1] الذي يعتبر أحدَ أهمِّ المذاهب الفكرية في القرن التاسع عشر وأكثرها انتشارًا. خلاصةُ فكْر كونت هي أنَّ البشرية مرَّت بثلاثِ مراحل:

١) **المرحلةُ اللاهوتية:** «يرى «كونت» أنَّ هذه الحالة أو المرحلة كانت البشرية تحاول فيها التعرُّف على ما حولها. وكان العقلُ الإنساني يبحث في هذه المرحلة عن كنْه الأشياء وحقيقةِ الظواهر، وكان يحاول إرجاعَ كلِّ طائفة من الظواهر إلى علة أو مبدأ مشترك»[2]. وهذا المبدأ المشترك هوَ الإيمان بتعدُّد الآلهة أو إله واحد. وكانت هذه المرحلةُ فيما قبل عصر التنوير.

٢) **المرحلةُ الميتافيزيقية:** «وفي هذه الحالة يحاول العقلُ الإنساني - أيضًا - أن يكتشفَ حقائقَ الأشياء وأصولها ومصائرها، ولكنَّه في هذه الحالة بدلًا من أن يبحث عنْ علل مفارقة للظواهر كما فعلَ في الحالة الأولى، فإنه يرفض العللَ المفارقة، ويبحث عنْ علل وأهدافٍ في ذات الأشياء وبواطن الظواهر، ففي هذه الحالة لا يرجع العقلُ الإنساني حقائقَ الظواهر أو الأحداث إلى عللٍ مفارقة، وإنما يرجعها إلى نظم وقوانين وأسباب داخل الأشياء ذاتها»[3]. وكانت هذه المرحلة في عصر التنوير.

٣) **المرحلةُ الوضعية:** «يرى «كونت» أنَّ العقل الإنساني في المرحلتين السابقتين كان يعيش حالاتٍ من الأوهام الذاتية والخرافات المتوارثة التي لا صلة لها بالواقع. ولذلك كان يتخبَّط من الحالة اللاهوتية... ثمَّ الحالة الميتافيزيقية. لكنَّ الأمرَ لا يستمرُّ على ذلك؛ بل إنَّ العقل يتنقَّل من هذه الأوهام الذاتية

---

(١) المذهب الوضعي: مذهبٌ فلسفي مُلحد يرى أنَّ المعرفة اليقينية: معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولا سيَّما تلك التي يتيحها العلم التجريبي. وينطوي هذا المذهب على إنكار وجودِ معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولا سيَّما فيما يتعلق بما وراء المادة وأسباب وجودها. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والجماعات المعاصرة (٢/ ٨١١ - ٨١٤).

(٢) مذاهب فكرية معاصرة (٢٢١).

(٣) المصدر السابق (٢٢٣).

إلى حقائق الحالة «الوضعية». والعقلُ في هذه الحالة الثالثة التي أطلق عليها كونت «الوضعية» يتخلَّص نهائيًّا من أوهام اللاهوت والميتافيزيقا، ويدرك الأشياءَ على حقيقتها كما هي في الواقع والموضوع»[1].

وبعدَ تقريرِ كونت لهذه المراحل الثلاث أَسَّس ما سمَّاه بـ«دين الإنسانية»، وهي ديانةٌ إلحادية لا تؤمنُ بالخالق، وإنَّما تؤمن بالإنسان وتقدِّس العلم التجريبي. بل وصل به الأمرُ إلى تأسيس «كنائس الإنسانية». وقد أثَّر المذهبُ الوضعي في الطبقة المثقَّفة في أوروبا تأثيرًا عظيمًا[2]. ومازال الملاحدةُ المعاصرون ينتسبونَ إلى المذهب الإنساني ويقدِّسون العلمَ التجريبي أيَّما تقديس. وإن لم يكن «كونت» أوَّلَ مَن قرَّر المذهب الإنساني ولا أوَّل مَن دعا إلى المذهب التجريبي، ولكنَّه ساهم كثيرًا في تقرير وتطوير هذيْن المذهبين.

الإلحادُ في بريطانيا:

أوَّلُ كتابٍ إلحادي باللغة الإنجليزية:

بعدَ انتهاء الثورة الفرنسية انتقل الإلحادُ إلى بريطانيا. وحين كان بيرسي بيشي شيلي[3] كان طالبًا في جامعة أكسفورد كتب كتابًا سمّاه: «ضرورة الإلحاد» (Necessity of Atheism) عام ١٨١١م، أهدى شيلي هذا الكتابَ لجميع عُمداء كليات الجامعة، فأدَّى ذلك به إلى فصلِه من الجامعة. ولكن أصرَّ شيلي على دعوته إلى الإلحاد، وأعاد طباعةَ الكتاب عام ١٨١٣م[4]. وهذا أوّلُ كتابٍ في الدعوة إلى الإلحاد باللغة الإنجليزية. ثمَّ تلا هذا الكتاب مرحلة من الدعوة المتحمِّسة إلى الإلحاد واللادينية في بريطانيا.

---

(١) المصدر السابق (٢٢٤).

(٢) انظر: The (Long) Nineteenth Century, in The Oxford Handbook of Atheism (221)

(٣) بيرسي بيشي شيلي (Percy Bysshe Shelley): شاعرٌ إنجليزي رومانتيكي. وقد اشتهر شعرُه كثيرًا، واعتبِرَ من أفضل الأشعار باللغة الإنجليزية. وكان مِن أوائل الملاحدة في بريطانيا، وقام بنشْر الإلحاد. توفي عام ١٨٢٢ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Percy-Bysshe-Shelley

(4) http://www.feedbooks.com/book/6701/the-necessity-of-atheism

دعوةُ كارليل الإلحادية:

في عام ١٨١٧م، بدأتْ مجلَّة «القزامة السوداء» (The Black Dwarf) تصدر في بريطانيا. وكانت مجلة سخرية، وكانت تخصُّ الديانة النصرانية بهذه السخرية لتضعف قيمتَها في نفوس الناس. وصارَ لهذه المجلة رواجٌ كبير إلى أن أغلقت عام ١٨٢٤م. وكان مِن أنشط مَن يقوم بتصديرها وتوزيعها رجلٌ اسمُه: ريتشارد كارليل[١]. وكان كارليل يحمل حقدًا عجيبًا على التديُّن، حتَّى كان يردِّد عبارة ديدرو أنه يتمنَّى أن: «آخر ملك يخنق بأحشاء آخر قسيس»[٢].

في عام ١٨٢٩م، بدأ كارليل جولةً دعوية يدعو فيها إلى الإلحادِ والكفر مع صديقه روبيرت تايلر[٣] الملقَّب بـ(كاهن الشيطان). وكانت جامعة كامبردج مِن الأماكن التي زاراها في جولتهما. وكان تشارلز داروين طالبًا في تلك الجامعة خلالَ هذه الفترة، وتركت جولتهما أثرًا في نفسه بعد ذلك[٤].

أسّس كارليل دارًا في لندن عام ١٨٣٠، وكان ملاحدةُ عصره يجتمعون فيها ويستمعونَ إلى محاضراته عنِ الإلحاد، ثمَّ دوَّنت هذه المحاضرات ووُزِّعت على الناس بالآلاف[٥]. سُجنَ كارليل العديدَ من المرّات بسبب زندقته، ولكنَّه واصل

---

(١) ريتشارد كارليل (Richard Carlile): صحفي بريطاني، ومن دعاة حرية التعبير في الصحافة، إضافةً إلى دعوته للعلمانية وإلغاء الملكية في بريطانيا. توفي عام: ١٨٤٣ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Richard-Carlile

(2) The (Long) Nineteenth Century, in The Oxford Handbook of Atheism (215)

(٣) روبيرت تايلر (Robert Taylor): رجلُ دينٍ بريطاني، تحوَّل إلى متطرِّف في محاربة الدين، حتى لقِّب بكاهن الشيطان. توفي عام: ١٨٤٤ م. انظر:
https://www.geni.com/people/Robert-Taylor/6000000078518986056

(٤) انظر:
"Darwin Correspondence Project-Letter 1924-Darwin, C. R. to Hooker, J. D.,13 July (1856) (70-73)"

(٥) انظر: https: / /thethingsthatcatchmyeye.wordpress.com /tag /richard – carlile /

دعوته إلى وفاتِه عام ١٨٤٢م. وقد تركَ آثارًا كبيرة في الدعوة إلى الإلحاد في بريطانيا، حتى وصلت آثارُ دعوته إلى الولايات المتحدة[١].

نظريةُ تشارلز داروين:

وفي عام ١٨٥٩م، نشرَ تشارلز داروين كتابه: «أصل الأنواع» (Origins of Species). وإنْ كان الفكرُ التطوُّري وُجدَ قبلَ ذلك، إلّا أنَّ داروين كان أوّلَ مَن دلَّل على هذه النَّظرية بطريقةٍ علمية وفقَ آليات ماديةٍ محضَة. وقد خصَّصت مبحثًا في الفصل الثاني مِن الباب الثالث لهذه النظرية. وسردتُ تاريخها وأبرزَ ردود علماء الغرب عليها هناك؛ فلا حاجةَ للتفصيل هنا.

انتخابُ أوّلِ ملحدٍ في البرلمان البريطاني:

وصلَ الإلحاد إلى سُدَّة الحكم عام ١٨٨٠م؛ حيث تمَّ انتخاب النائب تشارلز برادلوغ[٢] في البرلمان البريطاني. وهذه أوّلُ مرَّة يحصل فيها ذلك في التاريخ البريطاني. ولكنَّ برادلوغ امتنعَ من الحلف بالله، فسُجن فترة[٣]، ثمَّ عاد إلى البرلمان عام ١٨٨٨م حينَ صدر قانونٌ بعدم إلزام الحلفِ عندَ دخول البرلمان. وبعد ذلك تتابع دخولُ الملاحدة إلى مناصبِ الحكومة في بريطانيا[٤]. وفي الفترة بين ١٨١٥ إلى ١٩١٤م، كانتِ الإمبراطورية البريطانية في عزِّ نفوذها، واعتبرت أقوى دولة في

---

(١) انظر: The (Long) Nineteenth Century, in The Oxford Handbook of Atheism (215)

(٢) تشارلز برادلوغ (Charles Bradlaugh): ملحدٌ بريطاني متطرِّف، ومتأثِّر بفلسفة فولتير، تمَّ انتخابُه إلى البرلمان البرطاني عام ١٨٨٠ م. وتوفي عام: ١٨٩١ م. انظر:
www.britannica.com/biography/Charles-Bradlaugh

(3) "Report from the Select Committee on the Parliamentary Oath" HCP 159 (1880) (76-77)

(٤) انظر:
http://www.parliament.uk/about/living-heritage/transformingsociety/private-lives/religion/overview/religionc19th-/

العالم؛ حيث امتدَّت مساحتها على ٢٦ مليون كيلو مربَّع، ويسكن فيها حوالي ٤٠٠ مليون نسمة[١]. وانتشرتِ الفلسفاتُ والنظريات العلمية الموجودة في بريطانيا إلى دول أخرى.

الإلحادُ في ألمانيا:

فلاسفةُ الإلحاد في ألمانيا: انتشرَ الإلحادُ في ألمانيا في بداية القرن التاسع عشر. وكان أهمُّ فلاسفة الإلحاد في هذا القرن مِن هذا البلد خاصَّة. وهؤلاء الفلاسفة تركوا آثارًا كبيرة في أوروبا، ومازالت فلسفاتُهم تؤثِّر في المذاهب الفكرية الإلحادية الموجودة في أوروبا إلى هذا العصر. وأخصُّ بالحديث خمسةً من هؤلاء الفلاسفة، وهُم أعظمُ المفكِّرين تأثيرًا في الفكر الإلحادي في القرن التاسع عشر، وهُم:

الفيلسوفُ الأوَّل: جورج فيلهلم فريدريش هيغل[٢]. وُلد هيغل عام ١٧٧٠م، في أسرةٍ ألمانية ثرية، وتوفِّيت أمُّه وهو صغير[٣]. واتَّجه إلى دراسة علم اللاهوت في بداية عمره، وكتب بعضَ الكتب عن النصرانية. ثمَّ بدأ يدرس الفلسفة، وبرع فيها، وأصبح بروفسورًا فيها عام ١٨١٦م[٤]. كانت فلسفةُ هيغل - المشتهرة بالفلسفة الهيغيلية - معقَّدة يصعب فهمُها، ولا سيَّما في القضايا الميتافيزيقية؛ فانقسمَ أتباعُه إلى قسمين: الأوَّل: اليمينيّون، وكانوا نصارى أصوليّين، وتمسَّكوا بكتب هيغل اللاهوتية القديمة.

---

(١) انظر:
The British Imperial Century 1815/1914: A World History Perspective (3), by: Timothy Parsons, (Rowman & Littlefield, 1999)

(٢) جورج فيلهلم فريدريش هيغل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel). فيلسوف ألماني متأثِّر بإيمانويل كانت، وعملَ كأستاذٍ في جامعة برلين. وكان أحدَ مؤسِّسي الفلسفة المثالية الألمانية. وأثَّرت فلسفته كثيرًا على الفلاسفة بعدَه. توفي عام: ١٨٣١ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (٨٥٥ - ٨٥٦)

(٣) انظر:
Hegel: A Biography (3), by: Terry Pinkard, (Cambridge University Press, 2001).

(٤) انظر: Västerlandets Filosofi (451)

والثّاني: اليساريّون الملاحدة، وتمسَّكوا بانتقادِ هيغل للنصرانية التقليدية[1]. وقد تأثّر كبارُ فلاسفة الألمان في القرن التاسع عشر - أمثال فيورباخ وماركس - بهذا القسم الثاني من الفلسفة كما سيأتي ذكره.

الفيلسوفُ الثاني: أرثور شوبينهاور[2]. وُلد شوبينهاور عام ١٧٨٨م، في أسرةٍ ألمانية ثرية. واتَّجه إلى دراسةِ الفلسفة في سنٍّ مبكِّر، ونالَ شهادة الدكتوراه عام ١٨١٤م، بعنوان: «العالم كإرادة وتمثيل» (Die Welt als Wille und Vorstellung) - وهو أشهرُ كتبه -، وقد تأثَّر شوبينهاور بفلسفةِ إيمانويل كانط، ولكنَّ شوبينهاور أعلن إلحاده صراحةً بخلاف كانط، كما أنَّه خالفَه في مسائل فلسفية أخرى. ومن أخطر الفلسفات التي نظَّر لها شوبينهاور: الفلسفة التشاؤمية. وبعضُ هذه الفلسفة أخذها من الفلسفة البوذية التشاؤمية. وخلاصةُ هذه النظرية أنَّ الحياة ليس فيها إلّا الألم والمرض والشرّ، وأنَّه يجب على الإنسان أن يقبلَ الحياة كما هي، ويخلِّص نفسَه من أوهام وتمنّيات غير عقلانية. وكان يرى أنَّ مِن أخطر الأوهامِ هو الدين[3]. وفلسفةُ شوبينهاور أثّرت كثيرًا في فلسفاتِ كبار الملاحدة في القرن التاسع عشر والعشرين أمثال: كارل ماركس، وفريدريش نيتشي، وسيغموند فرويد[4].

---

(١) انظر المقال: Was Hegel Christian or atheist? By: Paul E. Trejo
http://philosophy.eserver.org/hegel-christianity.html

(٢) أرثور شوبينهاور (Arthur Schopenhauer): فيلسوفٌ ألماني، حاصل على الدكتوراه في الفلسفة. وقد تأثَّر بالفلسفة الهندوسية، إضافةً إلى فلسفة أفلاطون وإيمانويل كانت. ولكثرة تشاؤمه اشتهرَ بفيلسوف التشاؤم. توفي عام ١٨٦٠ م. انظر: (Britannica Concise Encyclopedia (1701

(3) http://www.thecritique.com/articles/what-is-pessimism-the-philosophy-at-the-heart-of-true-detective/

(4) https://plato.stanford.edu/entries/schopenhauer/#8

سيغموند فرويد: هو طبيبٌ نمساوي من أصل يهودي، اختصَّ بدراسة الطب العصبي، ويعتبر مؤسِّس التحليل النفسي. توفي عام: ١٩٣٩ م. انظر: / http: / /www.iep.utm.edu /freud

الفيلسوفُ الثّالث: لودفيغ فيورباخ[1]. وُلِد فيورباخ عام ١٨٠٤م، في أسرة مشهورةٍ بالعلم والثقافة. أقبلَ على دراسة الفلسفة وتأثّر بفلسفة هيغل، وفي عام ١٨٤١م، أصدر كتابه: «جوهر المسيحية» (Das Wesen des Christentums). وهذا الكتاب من أهمِّ الكتب الإلحادية في القرن التاسع عشر حيث انتقدَ جوهر النصرانية في إيمانِهم بوجود الله. وقد أثَّرت فلسفتُه النقدية للدين في مؤسِّس المذهب الشيوعي كارل ماركس[2].

الفيلسوفُ الرابع: كارل ماركس: وُلِد ماركس في عائلة من أصل يهودي في ألمانيا عام ١٨١٨م، وبدأ يدرسُ الفلسفة في سنٍّ مبكِّر، وتأثَّر بالفلسفة الهيغلية اليسارية الإلحادية. ولمّا بلغ ماركس التاسع عشرة من عُمره التقى بفيورباخ، وتأثَّر بفلسفته المعادية للدين[3]؛ فأصبح من أشدِّ المنتقدين لجميع أشكال التديُّن. وفي عام ١٨٤٤م، كتب مقالًا ضمَّ فيه أحدَ أشهر العبارات المنتقدة للأديان في التاريخ وهو قوله: «الدين هو تنهُّد المخلوق المستضعف، القلب في عالم بلا قلوب، والروح في الأحوال التي لا روح فيها. **إنَّه أفيون الشعوب**»[4].

وفي عام ١٨٤٨م، أصدرَ «بيان الحزب الشيوعي» معَ صاحبه فريدريك أنجلز. وكان صدورُ هذا البيان بدايةَ انطلاق المذهب الشيوعي[5]. وقد نشأت عصاباتٌ شيوعية في بلدانٍ أوروبية مختلفة في أوروبا، ولكنْ لم ينتشر هذا الفكر بقوَّة إلّا في القرن العشرين حينَ تبنَّته

---

(١) لودفيغ فيورباخ (Ludwig Feuarbach): فيلسوفٌ ألماني، درس على يد هيغل، ولكن تركَ الفلسفة المثالية واعتنقَ المذهبَ المادي. واشتهرَ بنقده الشَّديد للديانة النصرانية. وأثّرت فلسفتُه في كارل ماركس وفريدريك إنجلز. توفي عام: ١٨٧٢ م. انظر:

Britannica Concise Encyclopedia (669)

(٢) انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /ludwig – feuerbach /

(٣) انظر:

Karl Marx: a biography (25-27), by David McLellan, Palgrave MacMillan (2006)

(4) Karl Marx: Selected Writings [1844] (64). (Oxford University Press 1990)

(٥) انظر:

https://www.marxists.org/archive/marx/works/1848/communist-manifesto/

دولٌ عظمى، وعلى رأسها الاتِّحاد السوفيتي. ولم يساهم مذهبٌ من المذاهب الفكرية في نشْر الإلحاد مثلَ الشيوعية، وسيأتي الحديثُ المفصَّل عن ذلك في المطلب القادم.

الفيلسوفُ الخامس: فريدريك نيتشي: وفي هذا الجوِّ الفلسفي وُلد فريدريك نيتشي عام ١٨٤٤م. واتَّجه إلى دراسة علم اللاهوت في أوّل عمره ليكون قسيسًا، ولكنَّه اكتشف العديدَ من الأخطاء التاريخية في الديانة النصرانية ففقدَ إيمانَه في وقت مبكِّر؛ حيث جاهرَ بذلك وعُمره ثمان عشرة سنة فقط[١]. اتَّجه إلى دراسة الفلسفة عام ١٨٦٥م، وتأثَّر كثيرًا بفلسفةِ شوبينهاور الإلحادية والتشاؤمية، وبدأ يصنِّف مصنَّفات عديدةً في الفلسفة الإلحادية. وقد اشتهرَ نيتشي بعبارة: «الإله قد مات»[٢] التي تعبّر عن الوقاحةِ التي وصلَ إليها الفلاسفة في آخر هذا القرن في مجاهرتهم بالإلحاد. وفلسفة نيتشي كانت لها أثرٌ بالغ في المذاهب الفكرية في آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ومِن الأمثلة على هذه المذاهب: الفاشية[٣]، والصهيونية[٤]. كما أنه أثّر في فكْر زعيم النازيين أدولف هتلر[٥]

---

(١) انظر: The Cambridge Companion to Nietzsche (99)

(2) 41 Thus Spoke Zarathustra

(٣) الفاشية: فلسفةٌ سياسية، أو حركة، ظهرتْ في إيطاليا في العشرينيّات من القرن المنصرم، وهي تمجِّد الحكومة، وتدعو إلى طاعةٍ عمياء للحاكم، معَ قمع قسري للمعارضة. وقد تبنَّت الحكومة الإيطالية، والإسبانية واليبانية الفاشية في فترة من القرن العشرين انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (659)

(٤) الصهيونية: هي حركةٌ سياسية عنصرية متطرِّفة، ترمي إلى إقامةِ دولة لليهود في فلسطين. ظهرت هذه الحركةُ على يدِ النمساوي تيودور هرتزل في القرن التاسع عشر. وهي الإيديولوجية التي تسودُ دولةَ إسرائيل اليوم. ولها مئاتُ الجمعيات في أمريكا وأوروبا في مختلف المجالات، وتعمل لمصلحةِ دولة إسرائيل. انظر الموسوعة الميسرة (١/ ٥١٨ - ٥٢٦).

(٥) أدولف هتلر (Adolf Hitler): زعيمُ الحزب النازي وحاكم ألمانيا بين ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥م. أشعلَ الحربَ العالمية الثانية التي راح ضحيتها عشرات الملايين من البشر. ولما قاربت الحربُ نهايتها انتحرَ عام ١٩٤٥ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Adolf-Hitler

ومؤسِّس التحليل النفسي[1] سيغموند فرويد[2]. ولا يشكُّ عاقلٌ فيما كان لهذه المذاهب، وهؤلاء الأفراد، مِن الأثر البالغ في نشر العلمانية والإلحاد في القرن التاسع عشر، كما أنَّ سجلَهم الإجرامي لا يخفَى على أولي الألباب.

الصِّراعُ الثقافي في ألمانيا:

كانت ألمانيا مقسَّمة إلى دويلاتٍ في فترة طويلة من تاريخها، ولكنِ استطاع أوتو فون بسمارك[3] أنْ يوحِّد هذه الدويلات إلى الإمبراطورية الألمانية عام ١٨٧١م. وامتدَّت هذه الإمبراطورية على مساحةٍ واسعة تشمل ألمانيا المعروفة اليومَ مع أجزاء من بولندا، وفرنسا، وروسيا، وهولندا، والدنمارك، وبلجيكا، والتشيك، وليتوانيا. كما أنه كان لهذه الإمبراطورية عددٌ من الدول المستعمرة في أفريقيا وغيرها[4].

وفي ظلِّ انتشار الإلحاد والفلسفات العلمانية تعالتِ الأصواتُ في هذه الإمبراطورية بفصْل الدين عن الدولة؛ فبدأ ما يسمَّى بالصراع الثقافي (Kulturkampf) عام ١٨٧١م. واستمرَّ إلى عام ١٨٧٧م. وكان الغرضُ من هذا الصراع إضعافَ الكنيسة الكاثوليكية وفصلَ الدين عن الدولة، وقد نجحَ بسمارك في ذلك إلى حدٍّ كبير[5]. كان للمحافل الماسونية الأثرُ الفعَّال في هذا الصراع[6].

---

(١) التحليل النفسي: فرعٌ من الطِّب النَّفسي الحديث، يبحث في العقل الباطن محاولاً إبرازَ ما فيه من عُقَدٍ ورغبات مكبوتة تمهيدًا لعلاجها. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٢٥٦).

(٢) انظر المقال: Influence and Reception of Friedrich Nietzsche

http://www.worldlibrary.org/articles/influence_and_reception_of_friedrich_nietzsche

(٣) أوتو فون بسمارك (Otto Von Bismarck): رئيسُ وزراء منطقة بروسيا في ألماني لما يقرب من ٣٠ سنة، ثمَّ حاكم الإمبراطورية الألمانية لما يقرُب من ٢٠ سنة. وفي عهده تقوَّى نفوذُ ألمانيا كثيرًا. توفي عام ١٨٩٨ م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Otto-von-Bismarck

(٤) انظر: http://www.allempires.com/article/index.php?q=german_empire

(٥) انظر: https://www.newworldencyclopedia.org/entry/Kulturkampf

(٦) انظر: New Catholic Encyclopedia, 1967 ed, Volume 6، p 135

والخلاصةُ بعدَ هذا الاستعراض المختصَر لتاريخ الإلحاد في القرن التاسع عشر أنَّ هذا القرن «كان طويلًا» كما عبَّر به الباحث ديفيد ناش. وخلاصتُه أنَّ الإلحاد ظهر في هذا القرن بقوَّة من الناحية الفكرية، كما أنَّ العلمانيين المعادين للدين وصلوا إلى سدَّة الحُكم؛ فانتقلَ الإلحاد من فكرةٍ مجرَّدة إلى مذهبٍ قد تدعمه سلطةٌ وقوّة.

المطلبُ السّابع

القرنُ العشرون

إذا كان القرنُ التّاسع عشر من أهمِّ القرون في تنظير الفكر الإلحادي، فإنَّ القرن العشرين أهمُّ قرنٍ في تطبيقه؛ فقد تطوَّرت الفلسفات الإلحادية في هذا القرن، ولكن أغلبُ هذه الفلسفات والمذاهب الفكرية كانت امتدادًا لفلسفات القرن المنصرم.

أحداثُ هذا القرن متشعِّبة وكثيرة، ولكن حيث إنَّ المقام لا يتَّسع الاستطراد في بيانِ هذه الأحداث، فيلخَّص بما يأتي:

الثورةُ الروسية وقيامُ الاتِّحاد السوفيتي:

لعلَّ الثورةَ الروسية وقيام الاتحاد السوفيتي أهمُّ حادثة في تاريخ الفكر الإلحادي على مرِّ العصور. وقد وُلد لينين[١] - زعيم هذه الثورة وقائدها - عام ١٨٧٠م، في أسرةٍ روسية ثريَّة. وقد توفِّي والدُه وعمرُه ستُّ عشرة سنة من نزفٍ دماغي، ممّا جعل هذا الشاب مضطربًا نفسيًّا، وأدَّاه هذا الاضطراب إلى إنكار وجود الخالق[٢]. كان أخو لينين اشتراكيًّا ثوريًّا، وخطَّط عام ١٨٨٧م لقتلِ قيصر الإمبراطورية الروسية، ولكن قبض عليه قبلَ التنفيذ، وحُكم عليه بالإعدام؛ فقُتل خنقًا[٣]. وقد تأثّر لينين بإعدامِ أخيه وتطرّف وانخرطَ في العمل الثوري عام ١٨٨٧م، وترقّى في المناصب إلى أنْ صار رئيس الحزب الشيوعي البولشفيكي. ولمّا بدأتِ الحرب العالمية الأولى ضعفتِ الدولة الروسية القيصرية واستغلَّ لينين والحزبُ الشيوعي هذا الضعفَ

---

(١) لنين (Lenin): اسمه الحقيق: فلاديمير أليتش أوليانوف (Vladimir Ilyich Ulyanov): زعيمُ الثورة البولشفيكية على القصير، ثمّ أصبح الحاكم الأوّل للاتحاد السوفيتي. توفي عام: ١٩٢٤م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1096)

(٢) انظر: Lenin: A Biography (50 - 51), Service, Robert London: Macmillan (2000)

(٣) انظر: المصدر السابق (٥٢ – ٥٨)

بالقيام بثورة ضدَّ القيصر، واستطاع الوصولَ إلى الحكم عام ١٩١٧م، وأقام أوّلَ وأقوى دولة شيوعية في التاريخ الإنساني[١].

وكان الاتحادُ السوفيتي أوّلَ دولةٍ في العالم أعلنت أنَّ من أهدافها الإستراتيجية: القضاءَ على الأديان واستبدالَها بالإلحاد العالمي[٢]. وطبّق الاتّحاد السوفيتي هذه الإستراتيجية بحذافيرها، ولا سيَّما في عهد ستالين[٣]. ونقص عددُ الكنائس من ٥٠ ألفٍ في بداية قيام الاتِّحاد إلى ٥٠٠ عام ١٩٣٩م[٤]. ومِن الأمثلة على إجرامه أنه قبض على أكثرَ من ١٦٠ ألف مِن رجال الدين النصراني بين عامي ١٩٣٧ - ١٩٣٨ وأعدم منهم ١٠٠ ألف[٥]. وأغلقتِ الحكومة السوفيتية ١٢ ألفَ مسجد بين ١٩١٧ إلى ١٩٣٠، ومنعوا بين ٩٠ - ٩٧ ٪ من أئمَّة المساجد والمؤذنين من ممارسة عملهم[٦].

ولم يتوقَّفْ مدُّ الشيوعية على حدود الاتِّحاد السوفيتي، بل انتشر في كثير من أقطار الأرض؛ فقدِ استولى الحزبُ الشيوعي بزعامة ماو تسي دونغ[٧] على الحكمِ في الصين

---

(١) انظر: http://www.biography.com/people/vladimir-lenin-9379007#the-revolution-of-1905-&-wwi

(٢) انظر: Religious Policy in the Soviet Union (٤)، Ramet, Sabrina Petra, Cambridge University Press

(٣) ستالين (Stalin): واسمه الحقيقي: جوزيف فيساريونوفيتش جوغاشفيلي (Iosif Vissarionovich Dzhugashvili). تربّى في أسرةٍ دينية، ولكنّه انضمَّ إلى مجموعات شيوعية قبل الثورة الشيوعية، وترقّى في المناصب بعدَ الثورة إلى أنْ صار الحاكم المستبدَّ بعد وفاة لينين. وحكم الاتّحادَ السوفيتي بقبضةٍ حديدية، وتوفي بسببِ سياسته الظالمة ملايين من البشر. توفي عام ١٩٥٣ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1096)

(٤) انظر: https: / /www.loc.gov /exhibits /archives /anti.html

(٥) انظر:- A Century of Violence in Soviet Russia (165), Alexander N. Yakovlev, Yale University Press (2002)

(٦) انظر: https://biblicalstudies.org.uk/pdf/rcl/18-3_196.pdf

(٧) ماو تسي دونغ (Mao Zedong): قائدُ الثورة الشيوعية في الصين، ثمَّ أصبح الحاكمَ المطلق بعد استيلائه على الحكم عام ١٩٤٩م. وحكم بلدَه بوحشية، وماتَ بسببه ملايين من البشر. توفي عام ١٩٧٦ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1189)

عام ١٩٤٩م[١]. وأعلنَّ أنَّ الإلحاد هو الديانة الرسمية للدولة. وبين ١٩٦٦ - ١٩٧٦ أعلنَ ماو الثورةَ الثقافية في الصين بنشْر الشيوعية عند جميع طبقات الشعب الصيني. وكان من أهداف هذه الثورة القضاءُ على جميع أشكال التدين، وطبَّقوا ذلك عمليًّا بإغلاق المعابد، واعتقال رجال الدين وقتلهم[٢].

ووصلَ الشيوعيون إلى الحكم، وحاربوا الأديان والتديُّن، ونشروا الإلحاد في عددٍ كبير من دول العالم؛ فالاتِّحاد السوفيتي كان يضمُّ ١٤ دولة، كما أن عشرات الدول الأخرى في العالم كانت تحتَ قبضة الشيوعية[٣]. وبهذه الطريقةِ الاستبدادية القمعية انتشر الإلحادُ في تلك الدول. كتبَ مجموعةٌ من الأكاديميين الغربيين كتابًا سمّوه: «الكتاب الأسود للشيوعية» (The Black Book of Communism) عن جرائم الشيوعيين في القرن العشرين، وتوصَّلوا إلى أنَّ عددَ مَن مات بسبب هذا المذهب الإلحادي الإجرامي وصل إلى ٩٤ مليون في القرن التاسع عشر؛ فهذا المذهبُ الإلحادي بلغ أقصى الحدود في الإجرام وسفْك الدماء، وإجبارِ الناس على هذا المذهب الإلحادي الخبيث.

الإلحادُ في الدول الغربية:

لم يقتصرِ انتشارُ الإلحاد على الدول الشيوعية في القرن العشرين، بل انتشر كثيرًا في الدّول الغربية المناهضة للشيوعية أيضًا. وقد كتب البروفسور كالوم برون[٤] بحثًا علميًّا محكَّمًا عن الإلحاد في القرن العشرين، وذكرَ عددًا من أسباب انتشار الإلحاد في هذا العصر ضمنيًّا، وخلاصتها كالآتي:

---

(١) انظر: http: / /www.biography.com/people/mao - tse - tung - 9398142

(٢) انظر:

Local Religion in North China in Twentieth Century (51), Daniel Overmyer, Handbook of Orientalist Studies, Volume 22, Brill 2009

(٣) انظر:

http://study.com/academy/lesson/communist-countries-past-present.html

(٤) كالوم برون (Callum Brown): بروفسور التاريخ الأوروبي الحديث في جامعة غلاسغوف في بريطانيا. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (xi – xii)

السببُ الأوَّل: ضعفُ مكانة الدين: ضعفتْ مكانةُ الدين والاهتمام به عند الغربيّين من عام ١٩٥٠م، فما بعد. بدأتْ هذه الظاهرة في بريطانيا بين ١٩٥٠ - ١٩٦٠م، ثمَّ انتشرت إلى هولندا، وبلجيكا، وألمانيا، وفرنسا، والسويد، والنرويج، والدنمارك. فقلَّ عددُ روَّاد الكنائس إلى حدٍّ كبير جدًّا في هذه الفترة. ومن الأمثلة على ذلك أنَّ عددَ روّاد الكنائس في مدينة كبيك[١] الكندية عام١٩٥٠م كانوا٩٠ ٪، وفي عام ١٩٧٥ كانوا ٣٠ ٪[٢]. وهناك تلازمٌ بينَ قلَّة الاهتمام بالشعائر الدينية وانتشار اللّادينية؛ فحسبَ الإحصائيات الكندية أجابَ ٠,٥٢ ٪ من المشاركين في الإحصاء بأنَّهم لادينيّون عام ١٩٦٠م، وأعيدَ الإحصاءُ عام٢٠٠٠م، فكان عددهم ١٥,٧٩ ٪[٣].

السببُ الثّاني: انتشارُ المذهب الليبرالي: انتشرَ المذهب الليبرالي في الدول الغربية انتشارًا كبيرًا في القرن العشرين، بل الطابع العام على السياسية الغربية هو الاتِّجاه الليبرالي. وذكر البروفسور كالوم برون أنَّ انتشار الليبرالية من أسباب ظهور الإلحاد؛ فالليبراليةُ من المذاهب العلمانية التي تعظِّم حرية الفرد، وتسعى للفصل بين الدين والدولة والاستقلال من السلطة الدينية[٤].

السببُ الثّالث: نفوذُ الاشتراكيين[٥] في الغرب: كانتِ الدول الغربية تتبنّى المذهبَ الرأسمالي في الغالب، ومع ذلك وُجد عددٌ غيرُ قليل من الاشتراكيين في

---

(١) كبيك (Quebeck): مدينة في جنوب شرق كندا، وهي إحدى أقدم المدن الكندية، وعاصمة مقاطعة كيوبيك. انظر: https: / /www.britannica.com /place /Quebec

(٢) انظر: Twentieth Century, The Oxford Handbook of Atheism (230)

(٣) انظر: المصدر السابق (٢٣٢).

(٤) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها (١٥٣ - ١٥٦)، للدكتور عبد الرحيم بن صمايل السلمي، (مركز التأصيل للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ).

(٥) الاشتراكية: مذهبٌ سياسي واقتصادي، يقوم على سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج وعدالة التَّوزيع والتَّخطيط الشَّامل. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٢ / ١١٩٤). هكذا يقال في تعريفِ هذا المذهب الفكري العلماني، إلّا أنَّ الواقع المشاهد في الدول الاشتراكية أنَّ الدولة لا تقومُ بالتوزيع العادل، بل وقع فيها من الظلم ما الله به عليم!

الغرب. وقد كانتِ الأحزابُ الشيوعية والاشتراكية نشطةً في جميع الدول الغربية الأوروبية، ولها نفوذٌ واسع بين الشعوب. وكان الاشتراكيون مِن أكثر ناشري الإلحاد في هذه الدول[١].

السببُ الرّابع: ردَّةُ رجال الدين الكاثوليك: طغتِ الموجة الإلحادية على الدول الأوروبية حتَّى تأثّر بها رجال الدين. وبين ١٩٦٠ - ١٩٧٠ م. ارتدّ كثير من رجال الدين، ولا سيَّما من الكاثوليك. وكان لهذا الأمر صدمةٌ في الغرب، وساهم في انتشار الإلحاد[٢].

السببُ الخامس: علمنةُ التَّعليم في الغرب: كان مؤسِّسو العلم التجريبي في الغرب متديِّنين، ويؤمنون بوجود الخالق[٣]، ولكن تغيَّر هذا الأمر في القرن العشرين وتبنَّتِ الحكومات الغربية المذهبَ الطبيعي المنهجي في تعليم العلم التجريبي. وهذا المنهجُ كما سبق ذكرُه لا يسمح بذكر الخالق كتفسيرٍ لأيِّ ظاهرة طبيعية. وكان هذا المنهجُ التجريبي العلماني من أسباب ظهور الإلحاد بين العلماء التجريبين[٤].

السببُ السّادس: الإلحادُ في الإعلام: ظهرَ الإلحاد في الإعلام بقوة في القرن العشرين. وكان ظهورُ الإلحاد بأشكالٍ مختلفة بشخصياتٍ ذوي توجّهات متفاوتة. كان للفيلسوف برتراند راسل[٥] حضورٌ قويٌّ في الإعلام البريطاني في الأربعينيّات من القرن المنصرم، واكتسب شهرةً وشعبية واسعةً بين الشعب البريطاني.

---

(١) انظر: Twentieth Century, The Oxford Handbook of Atheism (234)

(٢) انظر: المصدر السابق (٢٣٥).

(٣) انظر: God’s Undertaker (8)

(٤) انظر: Twentieth Century, The Oxford Handbook of Atheism (239)

(٥) برتراند راسل (Bertrand Russell): الفيلسوفُ وعالمُ المنطق والرياضيات والتاريخ البريطاني. ويعتبر أحدَ أشهر فلاسفة القرن العشرين. من مؤلفاته: تاريخ الفلسفة الغربية. توفي عام: ١٩٧٠ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Bertrand – Russell

وكانتْ مارغريت نيت[1] أوّلَ امرأةٍ إعلامية ملحدة في الإعلام البريطاني. وكانت تنشرُ نشراتٍ تدعو إلى الإلحاد في قناة بي بي سي المشهورة عام ١٩٥٥م[2].

وكان كارل ساغان - عالمُ الكون الأمريكي - يقدِّم برنامج: الكون - رحلة شخصية - (Cosmos: A Personal Voyage) عام ١٩٨٠ في ١٣ جزءًا. وهو برنامج شعبي يتحدَّث فيه عن الكون، وأصلِ الحياة من منظور إلحادي. وقد اشتهر هذا البرنامج اشتهارًا واسعًا حتَّى شاهده ٥٠٠ مليون شخص في ٦٠ دولة[3].

أشهرُ الملاحدة في القرن العشرين:

كان القرنُ التاسع عشر أكثرَ تنظيرًا للفكر الإلحادي، والقرن العشرين أكثر تطبيقًا له. ومعَ ذلك وُجد بعضُ منظِّري الفكر الإلحادي في القرن العشرين ذوي التأثير الكبير. ومِن أهمِّ هؤلاء الملاحدة:

المُلحدُ الأوَّل: سيغموند فرويد: كان فرويد مِن أشهر منظّري الإلحاد في بداية القرن العشرين. وقد وُلِد في عام ١٨٥٦م، في عائلةٍ يهودية، والتحق بالجامعة ودرس الطبّ. وكان أحدُ أساتذة فرويد في الجامعة من أنصار نظرية التطوّر ودعاته مما جعل فرويد يعتنقُ هذه النظرية في وقت مبكِّر[4]. وكان فرويد يقرأ كتبَ الفيلسوف الملحد نيتشي في

---

(١) مارغريت نيت (Margaret Knight): عالمة نفسٍ وصحفية بريطانية. عملت في محطة بي بي سي عدَّة عقود، وقدَّمت برامج إلحادية ومعادية للدين. توفيت عام ١٩٨٣ م. انظر:
https://archiveshub.jisc.ac.uk/search/archives/1465bf2e-72cd-3c00-88ad-ce10d9501640

(٢) انظر: Twentieth Century, The Oxford Handbook of Atheism (241)

(٣) انظر:
http://starchild.gsfc.nasa.gov/docs/StarChild/whos_who_level2/sagan.html

(٤) انظر:
Freud, Biologist of the Mind, beyond the Psychoanalytic Legend (160), by: Frank J. Sulloway, (Harvard Univesity Press 1979).

أيام دراسته[١]. وكانت هذه النظرياتُ والفلسفات الإلحادية تؤثّر في فكر فرويد، حتَّى أصبح من دعاة الإلحاد فيما بعْد. تخصَّص فرويد بعد تخرّجه في دراسة الطبِّ العصبي، وأسَّس نظريةَ التحليل النفسي، وهو منهجٌ وأسلوب في معالجة الأمراض النفسية. وفي عام ١٩٢٧م، كتبَ فرويد كتابه المشهور: «مستقبل الوهم» (Die Zukunft einer Illu-sion) وحلَّل في هذا الكتاب أصلَ ونشأة الأديان بتحليل نفسي، وما سيؤول إليه الأديان في المستقبل. كان فرويد يرى أنَّ الدين عبارة عن أوهام وأمنيات، وأن الإله هوَ مظهرٌ طفولي للإنسان يريد البقاءَ مع أبيه[٢]. ساهمتْ هذه النظرية في انتشار الإلحاد، ولا يزال فرويد يعدُّ أحدَ أشهر منظّري الإلحاد في القرن العشرين.

المُلحدُ الثّاني: برتراند راسل: وُلِد راسل عام ١٨٧٢م، في أسرةٍ بريطانية من الطبقة الأرستوقراطية؛ فجدُّه شغلَ منصبَ رئيس وزراء بريطانيا، وأبوه كان عضوًا في البرلمان البريطاني، ومناضلًا ضدَّ الديانة النصرانية. توفّيت أمُّه وعمرُه سنتان، ثمَّ أبوه وعمرُه أربع سنوات، فكان يشعرُ بالقلق في تربيته، وأرادَ أن ينتحر[٣]. وبسبب هذه الاضطراباتِ النفسية فقدَ إيمانَه بالنصرانية وعمرُه ١٥ سنة فقط، ثمَّ أعلن إلحادَه وعمرُه ١٨[٤]. درسَ راسل الرياضيات في جامعة كامبردج، وأمضى ثلاث سنوات في دراسته، ثمَّ بدأ يدرسُ الفلسفة، وبرعَ فيها حتَّى أصبح من أشهر الفلاسفة الغربيين في القرن العشرين؛ فقد أَلَّف راسل ٧١ كتابًا وكتيِّبًا، ومقالاتٍ لا تحصى في الفلسفة، وغيرها من العلوم[٥]. ومِن أشهر كتبِه في الدعوة إلى الإلحاد:

---

(١) انظر: Returns of the French Freud: Freud, Lacan, and Beyond (13), Paul Roazen, (Routledge Press, 1997)

(٢) انظر:
The Future of an Illusion (18), by: Sigmund Freud, (Norton and Company (1990)

(٣) انظر:
Bertrand Russell Autobiography (38), by: Bertrand Russell. (Psychology Press, 1998)

(٤) انظر: المصدر السابق (٣٦ – ٣٧).

(٥) انظر: برتراند راسل مقدِّمة قصيرة جدًّا (١٤ – ١٧)، لأي سي جرايلينج، ترجمة: إيمان جمال الدين الفرماوي، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤ م).

١) **مقالة: لماذا أنا لستُ مسيحيًّا؟** أصلُ هذه المقالة محاضرةٌ ألقاها راسل في «الجمعية العلمانية الوطنية: (National Secular Society) عام ١٩٢٧ م، ثمّ طبعت. احتوتْ أغلبُ هذه المقالة على نقدِ أدلة وجود الله، مثل: الحجة الكونية، ودلالة قوانين الطَّبيعة على الخالق، وحجَّة التصميم، والحجَّة الأخلاقية[١]. وإن كانت ردودُ راسل ضعيفةً وهزيلة فإنَّ هذه المقالة ترجمتْ إلى لغات مختلفة، وطُبعت كمطويَّة ووزِّعت بأعداد كبيرة.

٢) **مقالة: هل هناك إله؟** ألَّف راسل هذه المقالة عام ١٩٥٢م. ومِن أشهر ما حوتْه هذه الرسالة ما يسمَّى بإبريق راسل؛ وهو تشبيهٌ صاغه راسل هادفًا إلى دحْض فكرةِ أنَّ هناك عبءَ إثباتٍ فلسفي يقع على المشكِّكين لإثبات عدم صحة ادِّعاءات الأديان بأنَّها خاطئة. والتشبيهُ الذي ذكرَه خلاصتُه: أنَّه لو ادّعى أحد أنه يوجد إبريقٌ مصنوع من الخزف الصيني يدور حولَ الشمس فلا يمكن لأحدٍ أن يدحض هذا الافتراض. ولكنَّ عبء الإثبات على المدّعي، لا على مَن أنكر ذلك؛ فالخلاصة أنَّ الأصل أنه لا يوجد إله، وليس للمُلحد أنْ يثبت عدمَ وجوده؛ لأنَّ هذا هو الأصل. رغمَ سخافة هذا التشبيه فإنَّه مُنتشر بين الملاحدة المعاصرين اليوم، ويستخدمه زعيمُ الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز في كتبِهِ مثل «وهم الإله»[٢]، وفي مناظراته. وسيأتي النقدُ المفصَّل لهذه الشبهة في الباب الثالث - إن شاء الله -.

المُلحدُ الثّالث: جان بول سارتر[٣]: وُلِد سارتر عام ١٩٠٥م، في عاصمة فرنسا. ولمّا كان عمرُه ١٥ سنة بدأ يدرسُ الفلسفة، وبرعَ فيها حتى أصبح بروفسورًا في هذه

---

(١) انظر: ?Why I am not a Christian
http://www2.fiu.edu/~sabar/enc3311/Why%20I%20Am%20Not%20A%20Christian%20-%20Bertrand%20Russell.pdf

(٢) انظر: The God Delusion (٧٤, ٧٥, ٧٦, ٧٧, ٩٤)

(٣) جان بول سارتر (Jean - Paul Sartre): بروفسور الفلسفة الفرنسي، وأديب، وناشط سياسي. كان أحد روّاد الفلسفة الوجودية الإلحادية. توفي عام ١٩٨٠. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Jean - Paul - Sartre

المادَّة عام ١٩٣١، وعمرُه ٢٦ سنة فقط[١]. وفي عام ١٩٤٣، ألّف أحدَ أهمِّ كتبه، وهو: «الوجود والعدم» (L'Être et le néant)، ويعتبر هذا الكتابُ نقطةَ انطلاق الفلسفة الوجودية الإلحادية[٢]. المؤسسُ الحقيقي للفلسفة الوجودية في الغرب هو سورين كيركغور[٣]، وكان متأثِّرًا بالمبادئ النصرانية، ويؤمنُ بوجود الله[٤]. ولكنَّ سارتر طوَّر هذه الفلسفة إلى فلسفةٍ إلحادية إباحيَّة يتحلَّل فيها الإنسان من القيم وينطلق لتحقيق رغباته وشهواتِه بلا قيد[٥]. واشتهرتْ هذه الفلسفة كثيرًا في الغرب بعد الحرب العالمية الثانية ولم تؤثِّر في الفلسفة فحسب؛ بل كان لها بالغُ الأثر في الثقافة الغربية كالمسرحيات، والفنّ، والأدب[٦]. كما أنَّ كثيرًا من الأفلام الغربية مبنية على هذه الفلسفة الإلحادية الإباحية[٧].

---

(١) انظر:

http://www.nobelprize.org/nobel_prizes/literature/laureates/1964/sartre-bio.html

(٢) الوجودية (Existensialism): اتجاهٌ فلسفي يغلو في قيمة الإنسان، ويبالغ في التأكيد على تفرده، وأنَّه صاحبُ تفكير وحرية وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجِّه. وهي فلسفةٌ عن الذات أكثر منها فلسفةً عن الموضوع. ومِن أعلام هذه الفلسفة: سورن كيركجورد وجان بول سارتر. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢ / ٨١٨ - ٨٢١).

(٣) سورين كيركغور (Søren Kierkegaard): فيسلوفٌ ولاهوتي وشاعر دنماركي. يعتبر الأبَ الروحي للفلسفة الوجودية. وأثّرت فلسفته في الحداثة. توفي عام: ١٨٥٥ م. انظر:

https://plato.stanford.edu/entries/kierkegaard/

(٤) انظر: رسائل في مذاهب فكرية معاصرة (٢٤٦)

(٥) الموجَز في الأديان والمذاهب المعاصرة (١٢٤)، للدكتور ناصر بن عبد الله القفاري والدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل، (كنوز إشبيليا، ١٤٢٦ هـ).

(٦) انظر:

Existentialism: basic writings (p. Xiii)، Guignon and Pereboom, Derk, Charles B, Hackett Publishing (2001)

(٧) انظر المقال: ٢٠ Great Existential Films You Need to Watch

http://www.tasteofcinema.com/2014/20-great-existential-films-you-need-to-watch/

ومِن الأمور المهمَّة في حياة سارتر أنَّه كانت لديه علاقة ودِّية مع الكاتبة والناشطة السياسية النِّسوية[١] سيمون دي بوفوار[٢]. وكانت دي بوفوار تتبنّى الفلسفة الوجودية الإلحادية كصديقِها، كما أنَّها كانت من أشهر الدعاة إلى مساواة الرجل بالمرأة[٣]. وقد ارتبطتِ الحركةُ النسوية بالعلمانية والإلحاد في كثير من البلدان، ويرون أن الأديان بأجمعِها تتنافى مع حقوق المرأة[٤].

المُلحدُ الرّابع: أنطوني فلو[٥]: كان أبوه كاهنًا نصرانيًّا من الطائفة الميثودية، ويحمل شهادة الدكتوراه من جامعة أكسفورد، وكان رئيسَ كرسي لغات وأدبيات العهد الجديد في جامعة كامبردج. وُلِد له ابنٌ واحد، وهو أنطوني فلو عام ١٩٢٣م، ولكن حينَ بلغ أنطوني خمسَ عشرة سنة ألحدَ بسببِ شبهة مشكلة الشرّ. أخفى هذا الإلحاد عنْ أبيه إلى أنْ وصل له الخبرُ بإلحادِ ابنه بعدَ سبع سنوات. درس أنطوني الفلسفة إلى أنْ أصبح بروفسورًا وأستاذًا في عددٍ من الجامعات البريطانية المشهورة. وقد نذر حياته الفلسفية للدعوةِ إلى الإلحاد ونقدِ الأديان. وهناك «ثلاث دراسات تعتبر علاماتٍ بارزة وضعَها فلو في مسار الفلسفة الإلحادية، وهذه الدراسات هي:

---

(١) النسوية (Feminism): حركةٌ فكريَّة مُهتمَّة بحقوق المرأة، تنادي بتحسينِ وضعها وتأكيد دورها في المجتمع. انظر: معجم اللغة المعاصرة (٣/ ٢٢٠٧). وهكذا تعرَّف هذه الحركة في القواميس، إلّا أنَّها تهدمُ حقوق المرأة بمحاولة جعلها مثلَ الرجل في كلِّ شيء، مع مخالفة ذلك لفطرتها.

(٢) سيمون دي بوفوار (Simone De Beauvoir): فيلسوفةٌ وجودية وناشطة نِسَوية فرنسية. من مؤلَّفاتها: الجنس الآخر، وهو من أشهر الكتب النسوية على الإطلاق. توفيت عام ١٩٨٦ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Simone – de – Beauvoir

(3) http: / /www.biography.com/people/simone-de-beauvoir-9269063#synopsis

(٤) انظر المقال: Why Secularism Needs Feminism
http://www.instituteforscienceandhumanvalues.com/index_htm_files/Why_secularism_needs_feminism.htm

(٥) أنطوني فلو (Antony Flew): بروفسور الفلسفة البريطاني. كان من أشهر دعاة الإلحاد في القرن العشرين، ولكنَّه أعلن أنَّه ربوبي في نهاية حياته. توفي عام: ٢٠١٠ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Antony - Flew

١) **زيفُ علم اللاهوت (Theology and Falsification)**: هو بحثٌ قدَّمه أنتوني فلو عام ١٩٥٠، حاولَ فيه نسفَ قضية الإيمان من أساسها بأن أكَّد خواءَ المقولات الدينية من أيِّ مفاهيم وأفكارٍ ذات معنى. ودعَا في الوقت نفسِه إلى فتح باب الحوار بينَ الملاحدة والمتديِّنين. وقد صار هذا البحثُ من أكثر الدراسات الفلسفية انتشارًا في القرن العشرين.

٢) كتاب «**الإله والفلسفة** (God and Philosophy): يؤكّد فيه فلو أنه لا ينبغي إصدارُ الحكم في قضية «هل هناك إله؟» قبلَ أن يطرح المتديّنون تصوّرًا واضحًا لصفات هذا الإله (ما معنى أنْ يصفَ المتديّنون الخالقَ بأنه الروح، كلي الوجود، كلي العلم).

٣) كتاب **فرضية الإلحاد** (The Presumption of Atheism): وفيه يدير فلو الدفةَ تمامًا ليجعلَ الكرةَ في ملعب المتديِّنين، فيضعُ على عاتقهم مهمَّة إثبات وجود الإله، بعدَ أن كان التناولُ الفلسفي السابق يطالب الملاحدةَ بإثبات عدم وجود الإله»[1].

استمرَّ فلو بدعوتِه إلى الإلحاد حوالي خمسين سنة، وكان أبرزَ دعاة الإلحاد في النِّصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، ولكنَّه تحوَّل فجأة في عام ٢٠٠٤م، واعتنق المذهبَ الربوبي بناءً على أنَّ الأبحاث العلمية الحديثة - ولا سيَّما ما يتعلَّق بأصل الكون وأصل الحياة - تشير إلى ضرورة وجود الخالق. وفي عام ٢٠٠٧م، أصدر كتابه: «هناك إله» (There is a God)، وردّ فيه على الفكر الإلحادي، ولا سيَّما الإلحاد الجديد. ثمَّ توفِّي فلو عام ٢٠١٠م[2].

وهذا التحوُّل يعبِّر عن التحوُّل في الساحة العلمية والفلسفية في الغرب في بداية القرن العشرين؛ فكما أنَّ الإلحاد الجديد أخذَ في الانتشار فإنَّ رفضَ الإلحاد والردود عليه في تزايدٍ مستمرٍّ كما سيأتي بيانه في المطالب القادمة.

---

(١) رحلة عقل (٤٢ - ٤٣)، للدكتور عمرو شريف (مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠ م).

(٢) انظر المقال: Former leading atheist argues for the existence of God
http://creation.com/review-there-is-a-god-by-antony-flew

المطلبُ الثّامن
القرنُ الحادي والعشرون

مقدِّمة عن الإلحاد الجديد:

في نهايةِ القرن العشرين زالَ عرشُ الاتِّحاد السوفيتي[1]، ثمَّ تلا هذا الزوال سقوطُ أكثرِ الأنظمة الشيوعية الإلحادية في العالم. وعقبَ هذا السقوط رجع كثيرٌ من أهل تلك الدول إلى أدْيانهم الأصلية، وضعف نفوذ الإلحاد. ولكنْ في بداية القرن الواحد والعشرين حصلتْ حادثةٌ غيَّرت التاريخَ الحديث من جوانب مختلفة، وهي حادثة الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م؛ فقد كان لهذه الجريمة كثيرٌ من العواقب السيئة - ولا سيَّما على المسلمين -، ولكنْ من أخطر الآثار - من الناحية الدينية - أنَّ هذه الحادثة كانت بدايةَ انطلاق حركةِ الإلحاد الجديد. وقد صرَّح رموزُ هذه الحركة أن السببَ الأساس الذي دفعهم إلى الدَّعوة المتحمِّسة إلى الإلحاد هو حصولُ هذه العملية الإرهابية - كما سيأتي بيان ذلك -. بدأ سام هاريس يكتب كتابه: «نهاية الإيمان» (End of Faith) بعدَ هذه الحادثة، ولكن تأخَّرت طباعةُ الكتاب إلى عام ٢٠٠٤م. وبعد صدورِ هذا الكتاب تتابع بقيةُ رموز الإلحاد الجديد بكتابة كتبهم الداعية إلى الإلحاد؛ فأصدرَ دانيال دينيت[2] كتابه: «فكُّ السحر: الدين كظاهرة طبيعية» (Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon)، وريتشارد دوكينز كتابه: «وهم الإله» (The God Delusion) عام ٢٠٠٦م. وعندما كتبتْ مجلة «الناشر الأسبوعي» (Publishers Weekly) مراجعةً لكتاب دوكينز أطلقتْ على هذه الدعوة: «الإلحاد الجديد» (New Atheism)[3]، ثمّ تتابعت الصحفُ والمجلات على

---

(١) تفكّك الاتّحادُ السوفيتي عام ١٩٩١م.

(٢) دانيال دينيت (Daniel Dennett): بروفسور الفلسفة الأمريكي، وأحدُ دعاة حركة الإلحاد الجديد. سيأتي تعريفٌ مفصَّل عنه في مبحث: أشهر دعاة الإلحاد المعاصرين.

(٣) انظر: Publishers Weekly, 21 August, 2006

استخدام هذا المصطلح. وفي عام ٢٠٠٧م، عندما أصدر كريستوفير هيتشن[1] كتابه: «الإله ليس بعظيم: لماذا يسمّم الدين كلَّ شيء» (God is not Great: Why Religion Posions Everything)، انضمَّ إلى هؤلاء الدُّعاة الثلاثة، وأُطلق عليهم: الفرسان الأربعة[2]. ويعتبر هؤلاء الأربعة هُم أكبرَ دعاة الإلحاد في هذا العصر، وإنْ وُجد دعاةٌ آخرون يدعون إلى هذا الإلحاد الجديد.

للتعرُّف على الإلحاد الجديد ينبغي فهمُ السِّمات الخاصة التي يتميّز بها عن الإلحاد القديم، ومن ثمَّ ذكر أبرز رموز هذه الحركة مع التعريف المختصر بكتبهم الدعوية.

سماتُ الإلحاد الجديد:

الإلحادُ الجديد تميَّز بسماتٍ خاصَّة عن الإلحاد القديم في أوروبا الغربية – وإن كانت بعضُ هذه السمات موجودة في الدول الشيوعية – ؛ وهي كالتالي:

- **السِّمةُ الأولى: العداوةُ الشديدة لجميع أشكال التديُّن – ولا سيَّما الإسلام – :**

كان الملاحدةُ الشيوعيون يستخدمون العنفَ في نشر الإلحاد كما سبق ذكره. وأمّا الملاحدةُ الغربيون في القرن العشرين – مثل: راسل، وسارتر، وفرويد، وفلو – فكانوا يدْعون إلى الإلحاد، ولكنهم لا يعادون أصحابَ الديانات عداوة شديدة، ولا يدعون إلى استخدام العنف. ولكنَّ الملاحدة الجدد يبْدون عداوةً شرسة لجميع أشكال التديّن، ولا سيَّما الإسلام، حتَّى أُطلق عليهم في الدوائر الغربية: «مليشيات الإلحاد» (Militant Atheists)[3]. وتظهر هذه العداوة في كثير من كتاباتهم حتَّى وصل بهم الأمرُ إلى جنون الارتياب لكلِّ ما يتعلَّق بالأديان؛ فقد قال كريستوفير هيتشين في مقدّمة كتابه: «الإله ليس عظيمًا (God is Not Great) – تعالى اللهُ

---

(١) كريستوفير هيتشن (Christopher Hitchens)، صحفي ومؤلف بريطاني. سيأتي تعريفٌ مفصَّل عنه في مبحث: أشهر دعاة الإلحاد المعاصرين.

(٢) انظر: New Atheism, The Oxford Handbook of Atheism (251)

(٣) انظر على سبيل المثال هذا المقال:
http://www.telegraph.co.uk/comment/personal-view/3638990/Militant- atheists- too - clever - for - their - own - good.html

عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - : «وأنا أكتبُ هذه الكلمات، وأثناء قراءتك لها، فإنَّ أصحاب الإيمان يخطّطون لتدميرك وتدميري، وتدمير كلِّ المنجزات المستحقَّة للبشرية، والتي مرَّت عليها. الدين يسمِّم كلَّ شيء»[١]. وبالتالي فإنَّ مِن أمنياتهم الأساسية أنَّ الدين يزول بالكلية، كما قال ريتشارد دوكينز: «أتمنَّى حقًّا أنْ يزول الدين تمامًا»[٢]. وقد تجاوزَ الأمرُ مجرَّدَ التمنِّيات إلى الإرادةِ الجازمة أنَّهم لو مُكِّنوا من القضاء على الأديان لفعلوا ذلك، كما قال سام هاريس: «لو كان بإمكاني الحصولُ على عصًا سحرية، واستطعت القضاءَ إمّا على الاغتصاب أو الدين؛ لما تردَّدت أبدًا في القضاء على الدين»[٣]. ويرى هاريس أنَّه يمكن أن يبرِّر قتلَ بعض الناس بسبب معتقداتهم، إذْ قال: «بعضُ المسائل من الخطورة بمكانٍ حيث يمكن أن يكون قتلُ مَن يعتقدها أخلاقيًّا»[٤]، كما أنه يؤيِّد استخدام التَّعذيب[٥]. ويخصِّص الملاحدة الجدد - ولا سيَّما هاريس - الإسلام بمزيدٍ من الحقد والعداوة، فيصرِّح بأنَّ الدول الغربية اليوم في حالة حرب بالدين الإسلامي إذ قال: «حانَ الوقت أن نعترفَ أنَّنا لسنا في حالة حرب مع الإرهاب. نحن في حرب مع الإسلام. لا يعني ذلك أنَّنا في حرب معَ جميع المسلمين، ولكن لا شكّ أننا في حرب معَ منظور الحياة الذي هو مذكورٌ لجميع المسلمين في القرآن»[٦]. ولا يمانع من استخدام السلاح النووي ابتداءً إذا حصلت دولةٌ إسلامية على القنبلة النووية؛ فيقول: «في مثل هذه الحالة فإنَّ الخيار

---

(1) God is Not Great (13)

(2) https://newrepublic.com/article/115339/richard-dawkins-interview-archbishop-atheism

(3) http://thesunmagazine.org/issues/369/the_temple_of_reason?page=2

(4) The End of Faith (52)

(٥) انظر:
http://www.huffingtonpost.com/sam-harris/in-defense-of-torture_b_8993.html

(6) http://www.washingtontimes.com/news/2004/dec/1/20041201-090801-2582r

الوحيد لضمان بقائنا قد يكون أنْ نبدأ نحن بضربة نووية أوَّلًا. لا ريبَ أنَّ هذه جريمة غيرُ منطقية - لأنه يؤدِّي إلى قتل عشرات الملايين من المدنيِّين في يوم واحد - ولكن قد يكون الخيارُ الوحيد لنا إذا علمنا ما يعتقده الإسلاميون»[1]؛ فهذا يبيِّن أنَّ الإلحاد الجديد هو إلحادٌ متطرِّف وعدواني، يشبه الشيوعية في عدوانيَّتها، ولكنَّ الفرق أنَّ الشيوعيين تمكَّنوا من الحكم، وحمل الناس على مُعتقداتهم بقوَّة، وأمّا الملاحدة الجدد فلم يتمكَّنوا من السلطة.

- **السِّمةُ الثّانية: الحماسةُ في الدعوة إلى الإلحاد:**

الملاحدةُ الإلحادَ السلبي لا ينشطون في الدعوة إلى الإلحاد، بل يكتفون بعدم الاقتناع بوجود الله، بخلاف الملاحدة الإلحادَ الإيجابي يحاولون إقامةَ الأدلة على عدم وجود الله. وأمّا الملاحدة الجدد فإنَّهم يزيدون على ذلك بأنهم يتحمَّسون حماسةً شديدة في الدَّعوة إلى الإلحاد؛ وذلكم أن: «الإلحاد في سياقِه التاريخي إجمالًا يمثِّل خطابًا ميالًا نسبيًّا إلى قدرٍ من الحيادية من الموقف الديني، ولم يكنْ لديه تلك الحماسة الكبيرة لممارسةِ الدعوة والتَّبشير بقضية الإلحاد، بل كانت قضيةُ الإيمان في حسِّه قضيةً شخصية متعلِّقة بالأفراد، لا تستفزُّ الملاحدة كثيرًا، ولسانُ حال الواحد منهم أن قضيةَ الإيمان والكفر مسألةٌ شخصية، ومادام هذا المتديِّن لم يكسرْ لي رجْلًا أو يفقأ لي عينًا فليؤمن وليتديَّن كيف شاء. ولكنْ لحظة اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة العالمي تغيّرت المعادلة تمامًا، وترسَّخ في وعي كثيرٍ من الملاحدة أنَّ قضية الإيمان والتديّن باتت مهدّدًا حقيقيًّا للبشرية، وأنَّ التزام ذلك الهدوء والحيادية من الدين لم يعدْ خيارًا مقبولًا، وأن من المتعيّن على الملاحدةِ اليوم السعيَ جدِّيًّا في استئصال مبدأ التديُّن من الحياة البشرية، وإحلال قضية الإلحاد كخيارٍ مُنقذ»[2]. فنجدُ الملاحدة الجدد ينشطون نشاطًا عظيمًا في نشر الإلحاد بطرقٍ ووسائل مختلفة. وقد خُصِّص المبحث القادم لبيان هذه الطرق والوسائل.

---

(1) End of Faith (128 129)

(٢) مليشيا الإلحاد (٢١).

- **السِّمةُ الثّالثة: الخطابُ الجماهيري:**

كان دعاةُ الإلحاد في القرنين الثامن والتاسع عشر في الغالب من الفلاسفة، وكانوا ينظِّرون للإلحاد بكتابة كتبٍ فلسفية عميقة لا يكاد يفهمُها إلّا المتخصِّصُ في الفلسفة. وكانتِ الأمية منتشرة جدًّا في تلك القرون؛ فعلى سبيل المثال كانت نسبة الأمية في العالم عام ١٨٢٠م ٨٨٪[١]. ولذلك لم تصلْ دعوة الإلحاد إلى عامة الناس إلاّ في بدايةِ القرن العشرين على يدِ الشيوعيين تحت ظلِّ البندقية. وأمّا في النصف الثاني من القرن العشرين فإنَّ الإلحاد بدأ ينتشر بين عامَّة الناس في الدول الغربية كما سبق ذكره. ولكنْ كان الإلحادُ في هذا القرن في الغالب مرتبطًا بمذهب من المذاهب الفكرية مثل: الوجودية، أو الاشتراكية أو الشيوعية. وأمّا الملاحدة الجدد فإنهم يدعون إلى الإلحاد بدون ربطِه بمذهبٍ فكري معيَّن؛ فالمهمُّ عندهم أنَّ الناس يكفرون بالله والأديان كلها بغضِّ النظر عنِ انتقاله إلى مذهب فكري معيَّن. ومن أدلِّ الأدلة على ذلك أن كريستوفر هيتشن أصدر كتابًا باسْم: «الملحد المتنقّل: القراءات الأساسية لغير المؤمن» (The Portable Atheist: Essential Readings for the Non - Believer) وضمَّ فيه رسائل كثيرة للمَلاحدة في نقد الأديان. ومِن ضمن هؤلاء الملاحدة على سبيل المثال: كارل ماركس - وهو مؤسِّس الشيوعية -، وبرتراند راسل - وكان من دعاة الليبرالية-، وسام هاريس - وهو من أكبر المؤيِّدين لحرب الولايات المتحدة في العراق[٢] -، وستيفن هاوكينغ[٣] - وهو

---

(١) انظر: / https: / /ourworldindata.org /literacy

(٢) انظر:
http://mondoweiss.net/2012/09/sam - harris - in - full - court - intellectual - mystic - and - supporter - of - the - iraq - war/

(٣) ستيفن هاوكينغ (Stephen Hawking): بروفسور علمِ الكون في جامعة كامبردج سابقًا. وكان متردِّدًا في مواقفه تجاهَ الإيمان بالخالق، إلّا أنَّه أعلن إلحادَه الصريح في الأخير، ودعا الناسَ إلى ذلك في كتبه. توفي عام ٢٠١٨ م. وسيأتي تعريفٌ مفصَّل به في مبحث: أشهر دعاة الإلحاد المعاصرين.

يصفُ حربَ الولايات المتحدة في العراق بأنها جريمة حرب[1] -. فهؤلاء الكتَّابُ لم يجمعْهم مذهبٌ فكري أو موقف سياسي، وإنما جمعهم الكفرُ بالله والأديان. وهذا أهمُّ شيء عند هيتشن ودعاة الإلحاد الجديد.

ولعلَّ مِن أسباب انفتاحهم على مذاهبَ فكرية متباينة مع التركيز على الدعوة إلى الإلحاد أنَّهم يريدون إيصالَ أصواتهم إلى جميع فئات المجتمع بغضِّ النظر عن الانتماء السياسي. ويلاحظ أنَّهم يستخدمون وسائلَ متنوِّعة ومبسَّطة للوصول إلى عامة الناس. فهُم ينشطون كثيرًا في وسائل التواصل بكتابةِ تغريدات تشكيكية عن الإيمان بالله. كما أنَّهم يعلِّقون لوحاتٍ دعائية للإلحاد في الشوارع وعلى الباصات في الدول الغربية. فبينما كان الملاحدةُ المتقدِّمون يدْعون إلى الإلحاد بنوع من العمق الفلسفي مستهدفين المفكِّرين في المجتمع فإنَّ الملاحدة الجدد يحاولون مخاطبةَ الجماهير بدعوتهم الإلحادية.

- **السِّمةُ الرّابعة: المغالاةُ الشديدة في العلوم التجريبية:**

كان أغلبُ دعاة الإلحاد في القرن التاسع عشر فلاسفة - مثل: شوبينهاور، وفيورباخ، وماركس، ونيتشي -، وكان إلحادُهم مبنيًّا على شبهات فلسفية. وكذلك كان حالُ كثيرٍ من دعاةِ الإلحاد في القرن العشرين - مثل: راسل، وفلو، وسارتر -. ولكن بعضُ دعاة الإلحاد في القرن العشرين - ولا سيَّما في النصف الثاني - كانوا من علماء العلم التجريبي، مثل: عالم النفس سيغموند فرويد، وعالم الكون كارل ساغان. ومع ذلكَ فإنَّهم لم يكونوا يغالون في قدرة العلم التجريبي كما حصل عند المتأخرين.

وأمّا الملاحدةُ الجدد فإنَّهم يركّزون كثيرًا على جانب العلم التجريبي، ويغالون في قدراتِه أيَّما مُغالاة. ويطلق على هذا الغلو: العلموية[2]. وهي مبنيَّة على المذهب

---

(١) انظر:
http://usatoday30.usatoday.com/news/world/2004-11-03-hawking-iraq_x.htm

(٢) العلموية: ثقةٌ مبالَغ فيها في فعالية أساليب العلوم الطبيعية المطبَّقة في جميع مجالات البحث (كما في الفلسفة والعلوم الاجتماعية والإنسانيات. انظر: قاموس ماريام ويبستر على الرابط:
https://www.merriam-webster.com/dictionary/scientism

الطبيعي والمادي، ولكنَّها تفوقه بمحاولة تفسير غير العلوم الطبيعية بالمنهجي التجريبي العلمي؛ قال داعي الإلحاد الجديد بيتر أتكنز: «لا داعي أن يُزعم أنَّ العلم التجريبي لا يستطيع أن يتعاطَى معَ جميع قضايا الوجود»[1]. ولهذا نجد الملاحدة الجدد يحاولون تفسيرَ كلِّ شيء بالعلم التجريبي؛ فقد ألَّف دانيال دينيت كتابه: «فكّ السحر: الدين كظاهرة طبيعية» (Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon) وحاول تفسير التديُّن والإيمان بالله بالعلم التجريبي. وحاولَ سام هاريس أن يؤسِّس فلسفته الأخلاقية بالعلم التجريبي في كتابه: «المشهد الأخلاقي» (The Moral Landscape).

ويركِّز الملاحدة الجدد - ولا سيَّما ريتشارد دوكينز - كثيرًا على نظرية التطوّر، ويصف مَن لم يؤمنْ بها بأقبح الأوصاف؛ فقدْ قال: «إنه لمن الآمنِ تمامًا أنْ تقول إنَّ أي شخصٍ تقابله ممَّن يدَّعي عدم الإيمان بالتطوّر؛ أنَّ هذا الشخص إمّا أن يكون جاهلًا، أو غبيًّا، أو مجنونًا، أو شريرًا، لكنِّي أفضِّل عدمَ اعتبار الوصف الأخير»[2]. فدوكينز ومَن معه يروْن أنَّ معارضة هذه النظرية مساويةٌ للجنون والغباء والجهل؛ فهذا يدلُّ على شدَّة مغالاته في النظريات العلمية عمومًا، ونظرية التطوُّر خصوصًا.

---

(1) Nature’s Imagination: the Frontiers of Scientific Vision (125), ed. John Cornwell, Oxford University Press (1995)

(2) Book Review of Donald Johanson and Maitland Edey’s Blueprint. The New York Times. Section 7, 34

المبحثُ الرّابع
خطورةُ الإلحاد

أَلَّف داعي الإلحاد الجديد كريستوفير هيتشن كتابَه: «الإله ليس عظيمًا - كيف يسمِّم الدين كلَّ شيء -»، وحاول أن يبرهنَ على خطورة الأديان على البشرية. ولكن عندَ النظر والتأمُّل يفهم الإنسانُ أنه لا يوجد شيء أخطرُ على البشرية من الإلحاد. والإلحادُ هو الذي يسمِّم كلَّ شيء؛ فإنَّ الإلحاد يمثِّل خطورة على العقيدة، والفطرة، والعقل، والعلم، والأخلاق والإنسانية جمعاء. وبيان ذلك كالآتي:

خطورةُ الإلحاد على العقيدة:

الإلحادُ أسوأ درجاتِ الكفر وأخطرُه وشرُّه على الإطلاق؛ لأنَّ الملحد ينكر جميعَ أركان الإيمان؛ فالإيمانُ كما قال رسول الله (ﷺ): «أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيرِه وشرِّه»[1]، وأمّا الملحدُ فإنه ينكر وجودَ الله، وبالتالي يكفر بملائكةِ الله وكتبه ورسله، واليومِ الذي يحاسب اللهُ فيه العباد وقضائه وقدره.

إنَّ الله أخبرَ عن قومٍ يؤمنون بالله ولكن يكفرون ببعض الرسل، إذْ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٠] ولم ينفعهم إيمانهم بالله حيث حكمَ اللهُ عليهم بـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ١٥١] فكيف بمن ينكرُ الله وجميعَ الرسل، بل ينكر جميعَ أركان الإيمان؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١)، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، (١ / ٣٦)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقال اللهُ تعالى عمَّن نسب إليه الولد: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴾ [مريم:٨٨ - ٩١]، فكيف بمَن أنكرَ وجود الله، ونسبَ إليه أعظم الشتائم، وجعل ديدنَه السخرية بمن يؤمن به؟

إنَّ الشركَ الأكبر أعظمُ مِن جميع الذنوب في الدنيا، ويترتَّب على الشركُ بالله ما لا يترتَّب على غيره من الذنوب، مثل:

١) فيَحرم صاحبَه من الجنة، يخلِّده في النار إنْ مات عليه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة: ٧٢].

٢) ويُحبِط جميعَ الأعمال؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

٣) ولا يُغفَر إلَّا بالتوبة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

والإلحادُ تعطيلٌ محْض؛ فهو شرٌّ مِن الشرك كما قال الإمام ابن القيم: «والتعطيل شرٌّ من الشِّرك، فإنَّ المعطلَ جاحدٌ للذات أو لكمالها. وهو جحدٌ لحقيقة الإلهية»[١]. فكلُّ أحكامِ الشرك المذكورة تنطبقُ على الإلحاد من باب أولى. وذلك يدلُّ على شدَّة خطورة الإلحاد على العقيدة.

خطورةُ الإلحاد على الفطرة:

قد قال رسولُ الله ﷺ (كلُّ مولودٍ يولَد على الفطرة)[٢]، وهذه الفطرة قوةٌ تقتضي اعتقادَ الحقِّ والإقرار بوجود الخالق ومعرفته والإيمان به، كما أنَّها تقتضي محبَّته

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢ / ٢٣٨)، لمحمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيِّم الجوزية، (دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٨٥)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، (٢/ ١٠٠). وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، (٤ / ٢٠٤٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وإخلاصَ الدين له[1]. والدينُ الإسلامي موافقٌ لهذه الفطرة، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، والفطرةُ المذكورة في هذه الآية هي الإسلام[2]. وإذا كان الإسلامُ دينَ الفطرة، فإنَّ الإلحاد عكسُه تمامًا، بل لا يوجد معتقدٌ يخالف الفطرة أكثر من الإلحاد؛ لأنَّ الملحدَ لا يقرُّ بوجود الله ولا يعرفه ولا يؤمن به، وبالتالي لا يحبُّه ولا يخلص عمله له.

وكوْن الملحد بعيدًا عن فطرته يورِّث وحشة بين الروح والجسد والشعور بالكآبة والتعاسة. وقد صرَّح البروفسور الملحد بيتر أتكنز[3] بالحقيقة المرَّةِ لمنظور حياة الملحد إذْ قال: «نحن أبناءُ الفوضى، والمكوِّن الأصيل لكلِّ تغيُّر هو الفناء، في الجذر ليس ثمَّ إلا الفساد، وامتدادُ الفوضى الذي لا يمكن اقتلاعه، الغايةُ ضائعة وما تبقى هو الطريق، هذه هي الكآبةُ التي يجب أن نتقبَّلها حين نمعنُ النظرَ بعمق وعقلانية في قلب الكون!»[4]. فكيف يشعرُ الملحدُ بسعادةٍ بعد سماع هذا الكلام الذي تقشعر منه الجلود؟

وقد أجريت دراساتٌ علمية حديثة، وخلُصَت إلى أنَّ الإنسان المتديّن يشعر بسعادةٍ أكثر من الملحد[5].

والسببُ الحقيقي لشعورِ الملحد سعادة أقلَّ من المؤمن هو بعدُه من الفطرة والجفاف الروحي؛ قال الإمام ابنُ القيم (رحمه الله): «ففي القلب شعث، لا يلمُّه إلّا الإقبالُ على الله.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل: (٨ / ٤٥٨ - ٤٥٩)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ، ت. محمد رشاد سالم).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٨ / ٧٥)، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، (وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية في المغرب، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، عام النشر: ١٣٨٧ هـ).

(٣) بيتر أتكنز (Peter Atkins): بروفسور الكيمياء في جامعة أكسفرود المشهورة ببريطانيا، وهو أحد دعاة الإلحاد، وسيأتي التعريف المفصَّل به في مبحث: أشهر دعاة الإلحاد المعاصر.

(4) Unweaving the Rainbow (4)

(٥) البحث: Is Faith a Delusion? (٨), by: Andrew Sims وهو منشور على الرابط: https://www.rcpsych.ac.uk/docs/default-source/members/sigs/spirituality-spsig/is-faith-delusion-andrew-sims-editedx.pdf?sfvrsn=59a019c0_2

وفيه وحشةٌ لا يزيلها إلّا الأنسُ به في خلوته. وفيه حزن لا يُذهِبه إلّا السرور بمعرفته وصدق معاملته. وفيه قلقٌ لا يُسْكنه إلا الاجتماعُ عليه، والفرارُ منه إليه. وفيه نيران حسرات لا يُطفئها إلّا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه. وفيه طلبٌ شديد لا يقفُ دونَ أن يكون هو وحده مطلوبه. وفيه فاقةٌ لا يسدّها إلّا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له. ولو أعطيَ الدنيا وما فيها لم تسدّ تلك الفاقة منه أبدًا»[1].

ويحاول الملاحدةُ سدَّ هذا الخواء الروحي والبعد عن الفطرة فيقعُ في أعظم أنواع التَّناقض، فـ«إنَّ هذا الخواء الروحي الذي يبتلع الإلحاد، قد جعل منه مسخًا بأيدي أتباعِه، فالملحدُ الذي هربَ من الأديان ذهبَ فنحتَ بيديه صنمًا من الصلصال يعبده، ليشبعَ هذه الصرخة التي تزلزل كيانه، ويروي هذه الروحَ العطشى في داخله، فإذا به قد تركَ الإله وعبدَ الطبيعة، وعصى الله وأطاعَ البشر، وزعم أنَّ الطبيعة أمُّه ثمَّ دار عليها يعقُّها ويهجوها، وهجرَ الشرائع واتَّبع فلسفة العلم، وكره علماءَ الدين وقدَّس كهنة الإلحاد، ونعَى على المتديِّنين التقليد، وباتَ معلّقًا قلبَه بما يقوله له روّاد المعامل، واستنكرَ الولاء والبراء، وكره مُعتنقي الأديان، واستنكرَ في الدين مخاطبة العواطف وذهب حائرًا يبحث عمّا يخاطب عاطفته، وادَّعى الثقة والجزعُ يملؤه، وأظهر اليقينَ والحنينُ يغزوه، ولو انعتقت روحُه من إسارِ جسده لصرخت في الناس تطلب النجاة»[2].

خطورةُ الإلحاد على العقل:

يدندنُ الملاحدة حولَ كوْنهم يقدِّسون العقل، ويرفعون من شأنه، ويفضِّلون تسمية أنفسِهم بالعقلانيّين[3].

ولكنْ عندَ النظر والتدقيق يرى الإنسان أنَّ الإلحاد يشكِّل خطورة على العقل، وذلكَ من ثلاثة أوجه:

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٥٦).

(٢) الإلحاد وثوقية التوهّم وخواء العدم (٣٣)، لحسام الدين حامد، (مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠١٥ م).

(٣) انظر على سبيل المثال:

http://www.bbc.co.uk/religion/religions/atheism/types/rationalism.shtml

الوجهُ الأوَّل: عدمُ الثقة بالعقل: جميعُ الملاحدة الجدد يؤمنون أنَّ هذا الكون ظهر في الوجود مُصادفة، وأنَّ الإنسان وعقلَه نتيجة تطوُّر بالصدفة؛ فكيف يمكننا أن نثق بهذه العقول أصلًا؟! قال الدكتور جاسون ليزلي[١]: «حيث إنَّ الإله خلق الكون وخلق الذِّهن؛ فمِن المنطقي أنَّ عقولنا لديها القدرةُ على دراسة الكون وفهمه. لكن إذا كان الدماغُ مجرَّد نتيجةٍ لعملية تطوُّرية غير عاقلة تحمل نوعًا من قيمة البقاء على قيد الحياة في الماضي؛ فلماذا يجب أن نثقَ بنتيجتها؟ إذا كان الكونُ والعقول بكلِّ بساطة مجرّدَ نتائج للوقت والصدفة كما يؤكِّد الملحد؛ فلماذا نتوقَّع بأنَّ عقلنا يمكنه أن يجعل الكون ذا مغزًى؟ كيف ستكون العلوم والتقنية ممكنة؟»[٢].

وقد أدركَ تشارلز داروين - مؤسِّس نظرية التطوّر - هذه الخطورةَ حين كتب لأحد أصدقائه: «ينتابني دائمًا شكٌّ فظيع حولَ ما إذا كانت قناعاتُ عقل الإنسان - والذي بدوْره تطوَّر من عقول كائنات أدنى - تتمتَّع بأيِّ قيمة، أو تستحقّ أدنى ثقة»[٣]. فالملحدُ قد يتظاهر بأنَّه عقلاني، ولكن مذهبه ينقض الثقةَ بالعقل أصلًا.

الوجهُ الثّاني: مخالفةُ الملاحدة لبديهةِ العقل: قسَّم علماءُ المنطق علمَ التصديق إلى قسْمين: الضروري البديهي والنَّظري الكسبي[٤]. والعلمُ الضروري هو الأصل الذي يبنَى عليه العلمُ النظري؛ «وأمّا القضايا الضرورية والبديهية؛ فقد اتَّفق علماءُ المعقول أنها رأسُ مال العقل، وأنَّ النظر إنما يرجى منه حصولُ المقصود ببنائه عليها،

---

(١) جاسون ليزلي (Jason Lisle): عالم فلكي أمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء الفلكية من جامعة كولورادو بالولايات المتَّحدة. وهو أحد علماء الغرب البارزين في نقد الخطاب الإلحادي. انظر: https: / /answersingenesis.org /bios /jason – lisle/

(2) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 69

(3) Charles Darwin to W. Graham, the Life and Letters of Charles Darwin, vol.1, p.285

(٤) انظر: آداب البحث والمناظرة (٣ - ٤)، لمحمد الأمين الشنقيطي، (دار عالم الفوائد، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣ هـ).

وإسناده إليها»[١]. ودليلُ السَّببية من أوضح المسلَّمات العقلية، لأنَّ العقل «ليس هو شيء أكثر مِن إدراكه الموجودات بأسبابها، وبه يفترقُ عن سائر القوى المدركة، فمَن رفع الأسبابَ فقد رفعَ العقل...[و] المعرفة بتلك المسبِّبات لا تكون على التمام إلا بمعرفة أسبابها، فرفعُ هذه الأشياء هو مبطلٌ للعلم، ورفعٌ له، فإنه يلزمُ أن لا يكون ها هنا شيء معلوم أصلًا علمًا حقيقيًّا، بل إنْ كان فمَظنون، ولا يكون ها هنا برهان، ولا حدَّ أصلًا... ومَن يضع أنَّه ولا علمٌ واحد ضروري[٢]، يلزمُه أن لا يكون قولُه هذا ضروريًّا»[٣]. ودليل السَّببية إحدى المقدِّمات لعددٍ من الحجج على وجود الله - كما سيأتي ذكرُه في الفصل الأوَّل من الباب الثاني إن شاء الله -. ولهذا يحاول الملاحدةُ أن يشكّكوا في دليل السَّببية. وكان ديفيد هيوم مِن أشهر مَن نظَّر للتشكيك في هذا البرهان العقلي الضَّروري، حيث قال: «إنَّ معرفتنا بالأسباب لم تحصَّل ألبتَّة من خلال البداهة العقلية، وهي تأتي دائمًا من تجربتنا في اكتشاف أنَّ أشياء مخصوصة ترتبط دائمًا بأخرى»[٤].

وحين ظهرت نظريةُ التطوُّر، وسلَّم الملاحدة للحقيقة أن للكون بداية؛ فوقعوا في حرجٍ كبير، لأنَّه إذا كان للكون بدايةٌ فهوَ حادث، وكلُّ حادث لا بدَّ له من محدث. وللخروج مِن هذا المأزق شكَّكوا في دليل السببية؛ بل صنَّف البروفسور الملحد لورانس كراوس كتابه: «الكون من لا شيء» (Universe from Nothing) للتدليل على إمكانية حدوثِ الكون من العدم، مع أنه يخالف العقل الضروري.

---

(١) القائد إلى تصحيح الاعتقاد (٣٨).

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) تهافت التهافت (٧٨٥)، لأبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد القرطبي، (دار المعارف ١٩٧٣م، سليمان دنيا).

(4) An Enquiry Concerning Human Understanding (19), by David Hume, (Oxford University Press 2007).

وقد وصل الأمرُ بالملاحدة الجدُد إلى أنَّهم لا يشكِّكون في المسلّمات العقلية فحسْب، بل يشكِّكون في المسلَّمات الشعورية أيضًا مثل: الإرادة الحرّة والقدرة على الاختيار؛ فيروْن أنَّها مجرّدُ وهْم. وهذا ما ينظِّر لها سام هاريس في كتابه: «حرية الإرادة» (Free Will). وسيأتي مبحثٌ خاصٌّ عن هذه المسألة في الفصل الثالث من الباب الثالث بعنوان: سلب الإرادة.

والخلاصةُ أنَّ الإلحاد يشكِّل خطورة على البديهيات العقلية والشعورية.

الوجهُ الثّالث: المخدّرات: سبقَ الكلام عن أنَّ الإلحاد يخالف الفطرة، ويسبِّب فراغًا روحيًّا عظيمًا. ولملء هذا الفراغ الروحي يلجأ كثيرٌ من الملاحدة - بحسب بعض الدِّراسات العلمية - إلى استخدام المخدّرات لتخفيف الآلام النفسية؛ قال جون باسكيني[1] - الكاتب الأمريكي المشهور بنقد الإلحاد - : «قام التوجّه إلى النَّفس - الذي عزَّزته أداةُ الإلحاد التبشيرية المتمثِّلة في وسائل الإعلام - بخلق الذات الفارغة. ومع عدم وجودِ إلهٍ لملء ذلك الفراغ، أصبحت المخدّرات الاختيارَ الأكثر نشاطًا»[2].

وقامتْ دراساتٌ علمية عن استخدام المخدّرات؛ فوجد العلماءُ أنَّ الملاحدة أكثر استخدامًا لها مِن المؤمنين بالله. ومِن هذه الدراسات دراسةٌ علمية في سويسرا، وكانت خلاصةُ الدراسة كالآتي: «الشبابُ السويسريّون المؤمنون بالله أقلُّ عرضة لشرب الدخان وتعاطي حبوبِ إكستاسي[3] من الرجال السويسريين الملاحدة في السن نفسه. الإيمان عاملٌ حمائي للسلوك الإدماني»[4].

---

(١) جون باسكويني (John Pasquini): قسيس أمريكي كاثوليكي. قد ألّف عددًا من المؤلفات، ولكن من أبرزها كتاب: اضطراب شخصية الملحد. انظر التعريف به في الصفحة الخلفلية لكتاب: Atheist Personality Disorder.

(2) Atheist Personality Disorder (21)

(٣) إكستاسي (Ecstasy): مخدّر اصطناعي غير قانوني من نوع أمفيتامين، وينتج آثارًا بهيجة. انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definition /ecstasy

(4) http://www.news-medical.net/news/20131004/Men-who-believe-in-God-less-likely-to-take-drugs-than-atheists.aspx

خطورةُ الإلحاد على العلوم:

إنَّ الملاحدة الجدُد يتظاهرون بالاهتمام بالعلم مثلَما يتظاهرون بالاهتمام بالعقل؛ فقدْ سمَّى ريتشارد دوكينز مؤسستَه الدعوية بـ«مؤسسة ريتشارد دوكينز للعقلانية والعلم». ولكنْ كما أنَّ الإلحاد يخالف العقلَ الصريح ويشكِّل خطورة عليه، فإنه يخالف العلمَ ويشكِّل خطورةً عليه. وتتبيَّن خطورة الإلحاد على العلم من وجهين:

الوجهُ الأوَّل: إنكارُ أصل العلوم: الملحدُ ينكرُ وجود الله؛ والعلم بالله هو أعلى العلوم وأصلُها ومنتهاها؛ قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله) عن العلم بالله: «والعلم به أعلى العلوم، وغايةُ العلوم، ومنتهى العلوم، وتحقيقُ العلوم، وأصل العلوم. وإنْ كان العلمُ بغيره أسبقَ إلى بعضِ الأذهان من العلم به، أو يكون دليلًا على العلم به؛ فالعلمُ به معَ كونه أعلى وأكمل وأنْفع، فإنَّ الحاجة إليه ضرورية، وإنه لا صلاحَ للعبد إلّا به، ولا سعادة بدونه؛ فهو أصلٌ لتحقيق تلك العلوم التي به يستحقُّ أن تكون علومًا»[١].

ولذلك كان إنكارُ الخالق بمنزلة إنكار العلوم؛ قال الإمام ابن القيم (رحمه الله): «وتأمَّل حالَ العالم كله، علويِّه وسفليِّه، بجميع أجزائه: تجده شاهدًا بإثبات صانعه وفاطِره ومليكه، فإنكارُ صانعه وجحدُه في العقول والفطر بمنزلةِ إنكار العلم وجحده، لا فرقَ بينهما»[٢].

وقد تنبَّه بعضُ علماء الغرب إلى هذا الأمر، وذكروا أنَّ الإيمان بالله كان السببَ الرئيسَ للاكتشافات العلمية؛ قال البروفسور سي. أس. لويس[٣]: «أصبح الناس

---

(١) شرح الأصبهانية (١١٠)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (مكتبة دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ، ت. محمد بن عودة السعوي).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١ / ٨٢).

(٣) سي أس لويس (C. S. Lewis): بروفسور الأدب في جامعة كامردج ببريطانيا، وأحد أشهر أدباء في القرن العشرين، وبيعت منها أكثر من ١٠٠ مليون نسخة. كان ملحدًا، ثمَّ تنصَّر وألَّف كتبًا كثيرة في الدعوة إلى النصرانية ونقد الإلحاد. توفي عام ١٩٦٣ م. انظر:
https://www.cslewis.com/us/about-cs-lewis/

علماء لأنَّهم توقّعوا وجودَ قانون في الطبيعة، وسببُ توقُّعهم وجود القانون: إيمانُهم بوجود واضعٍ للقانون»[١].

وكان هذا هو الدافعَ الأساسي للنهضة العلمية التي شهدتها أوروبا؛ قال البروفسور جون لينوكس: «غليليو ومثله نيوتن وكذلك معظمُ آباء العلم الأوائل العظام الذين ساهموا بالنهضة الكبيرة للعلم وقتئذ؛ لم يجدْ أيٌّ منهم أنَّ الإيمان بالله خالقًا للكون يعيق عملَهم بأيِّ درجة من الدرجات، بل إنَّهم رأوا الإيمان محفِّزًا إيجابيًّا لعملهم العلمي. في الواقع اعتبر كثيرٌ منهم الإيمانَ بالله دافعَه الرئيسي للمضي في البحث العلمي»[٢]. فإنكارُ الخالق إنكارٌ لأصل العلوم وجحدُ الدافع الرئيس لتعلّمها.

الوجهُ الثّاني: محاربةُ الملاحدة للعلماء وبعض النظريات العلمية: الملاحدة يدَّعون محبَّة العلم التجريبي وتعظيمَه. ولا تفترُ ألسنتَهم من التذمُّر من محاربة الكنيسة للعلماء في العصور الوسطى. ولكنَّ محبَّة الملاحدة للنظريات العلمية تقتصر على النَّظريات المبنيةِ على المذهب المادي الطبيعي. وأمّا إذا كانت نظرية من نظريات العلم التَّجريبي تخالف المذهبَ المادي فإنَّهم يحاربونها بشدَّة، بل يحاربون العلماء بما تشبه محاربة محاكم التفتيش في العصور الوسطى.

وقد وقعَ ذلك في أيام الشيوعية، كما أنه واقعٌ الآن بين الملاحدة الجدد؛ فلما استولى لينين على الحكم بدأ يحاربُ المثقَّفين والمتعلِّمين حيث رآهم معادين للطبقة العاملة؛ فبدأ بتهجيرهم من الاتِّحاد السوفيتي إلى ألمانيا عبرَ البحر بما يسمَّى «بواخر الفلاسفة»[٣]. وكان الزعيمُ الملحدُ جوزيف ستالين يحرِّم جميعَ العلوم التي تتعارض مع الإلحاد؛ فقامَ بتحريم قوانين مندل للوراثة لأنَّها تتعارض مع الحتمية المادية الإلحادية[٤].

---

(1) God’s Undertaker: 21

(٢) المصدر السابق (١٠)

(٣) انظر: https://philosophynow.org/issues/٣١/The_Philosophers_Ship

(٤) انظر:

Science in Russia and the Soviet Union (130), by Loren R. Graham, (Cambridge University Press, 1993)

وكان الأمرُ أسوأ في الصين خلالَ الثورة الثقافية في أيام الزعيم الملحد ماو تسي تونغ؛ فماو هذا هو الذي افتخرَ بدفن ٤٦ ألف عالم وهُم أحياء. وكان يلزم أساتذةَ الجامعات بلبْس ملابس مُهينة وتغطية وجوههم بالحبْر. كما أنَّ بعضهم ضُرب حتى الموت، بل وأكلَ جنودُ ماو جثثهم بعد وفاتهم(١)!

وكان الملحدُ الشيوعي بول بوت يستهدفُ المثقَّفين والمتعلِّمين خاصَّة خلال حكمِه؛ فكان يمنعُهم من ممارسة العلم والتعليم، وهجَّر مليونين ونصف نسمة من عاصمة كامبوديا إلى الأرياف للعمل بالزراعة(٢).

ويواصل الملاحدةُ الجدُد محاربةَ العلماء المتبنِّين للنظريات العلمية المخالفة للمذْهب المادي الطبيعي - ولكنْ بأقلَّ وحشية من إخوانهم الشيوعيين -؛ فمحاربةُ الملاحدة الجدد للعلماء المتديِّنين محاربةٌ فكرية بفصلهم من وظائفهم الأكاديمية، ومنع مزاولةِ تدريس نظريات مخالفة لنظرية التطوُّر، والسخرية منهم، إلى غير ذلك. وقد ألَّف الدكتور جيري بيرغمان(٣) كتابَه: «ذبح المنشقِّين.. الحقيقة الصادمة عن حقيقةِ قتلِ مهن المتشكِّكين في الداروينية» (Slaughter of dissidents.. the shocking truth about killing the careers of Darwin Doubters) في ٤٢٢ صفحة واصفًا الإرهاب النفسي الذي يمارسه الملاحدةُ الجدد تجاهَ معارضيهم في الأوساط العلمية. وقد بنى هذا الكتاب على مقابلة ثلاثمائة عالم وأكاديمي وطالبٍ جامعي في دراسات العلوم، وما منهم أحدٌ إلّا واشتكى مِن الإقصاء في الجامعات الغربية بسبب عدم موافقتهم للمذهب الدارويني.

---

(١) انظر:
http://www.heritage.org/asia/commentary/the - legacy - mao - zedong - mass - murder

(٢) انظر: http: / /www.history.com /topics /pol – pot

(٣) جيري بيرغمان (Jerry Bergman): عالم أمريكي وحامل تسع شهادات جامعية، منها الدكتواه في علم الأحياء. وهو أحد علماء الغرب البارزين في نقد خطاب الإلحاد المعاصر.
وقد ألَّف في ذلك عددًا من الكتب والمقالات المهمة، منها: الكتابُ المشار إليه. انظر:
https://creation.com/dr - jerry - bergman

وعلاوةً على ذلك فقد أنتجَ أنصارُ نظرية التصميم الذكي الفيلم الوثائقي: «مطرودون – غير مسموح بالذكاء» – (Expelled: No Intelligence Allowed) عن الإقصاء في المجتمع العلمي الإلحادي في الغرب. وقد انتشرَ هذا الفيلم الوثائقي كثيرًا حتى تمَّ عرضُه في ١٠٥٢ مسرحًا في الولايات المتحدة، وهذا ما لم يحدث لأيِّ فيلم وثائقي قبلَه[١]؛ فدلَّ على الجوِّ المرعب الذي يعيشه المتعلِّمون المتديِّنون في الولايات المتحدة.

خطورةُ الإلحاد على الأخلاق:

يشكِّل الإلحاد خطورةً كبيرة على الأخلاق والقيم، لأنه « يمثِّل رؤية فلسفية مُتكاملة المعالم، ترفض الارتكانَ إلى أيَّة قوة غيبية، لكنَّها فقط تسلِّم بمعطيات العالم المادي! وفي هذا الإطار، تختفي القيمةُ والمعنى والمعيارية لكلِّ شيء في الوجود، وتسود الحتميَّة المادية الصارمة... وهنا لن يستوعبَ العقل المعنى ولا القيمة؛ لأنَّ العقل هو الآخرُ يتكوَّن من نفس الذرَّات التي يتكوَّن منها العالم المادي، وتحكمه نفسُ الحتميات المادية التي تحكم كلَّ ذرةٍ في هذا الوجود المادي الصّامت الخالي من الغاية والهدف والمعنى والقيمة»[٢]. وأيُّ قيمة تبقى للإنسان إذا كان يعتقدُ ما يقوله الملحدُ ستيفن هوكينج: «الجنسُ البشري هو مجرَّد وسخٍ كيميائي، موجودٌ على كوكب متوسِّط الحجم»[٣]؟

ولا يعترف الملاحدةُ الجدد بالأخلاق الموضوعية؛ فقد قال زعيمُ الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز: «الكونُ في حقيقته بلا تصميم، ولا غاية، **ولا شرٌّ ولا خير**، لا شيء سوى قسوة عمياء لا مبالية»[٤].

وهذا الأمرُ يفتح البابَ أمام شرٍّ لا أوّلَ له ولا آخر، وتكون الأخلاق اعتباطيةً

---

(١) انظر: https: / /ncse.com /book /export /html/ ٤٨٩٦

(٢) الإلحاد يسمّم كل شيء (١٦ – ١٧)، لهيثم طلعت علي سرور، (دار نيو بوك للنشر والتوزيع، ٢٠١٦ م).

(3) (1995) From the TV show Reality on the Rocks: Beyond Our Ken

(4) River Out of Eden (131-132)

ويكون كلُّ شيء مباحًا. وقد أدرك الأديبُ الروسي فيودر دوستويوفكسي هذا الأمرَ جيِّدًا فكتبَ في روايته الشهيرة الإخوة كارامازوف على لسانِ السجين (ميتا): «ولكن ما الذي سيصيرُ إليه الإنسان في هذا كلِّه بغير إله، وبغير حياةٍ آخرة؟ وإذًا، فمعنى هذا أنَّ كلَّ شيء سيكون مُباحًا بعد الآن، وأنَّ في وسْع الإنسان أن يفعل ما يشاء»[1]. ولا يعني ذلك أنَّ جميعَ الملاحدة ينكرونَ الأخلاق، بل بعضهم يهتمُّ بها ويعامل الآخرين بمعاملةٍ حسنة، وبعضُهم بعكس ذلك. ولكنْ لا يمكن في حقيقة الأمر أنْ ينكر أحدهما على الآخر بأنَّ هذا الأمر خطأ موضوعيًّا - وإنْ كان خطأً في نظر المنكر -. ونجد هذا الأمرَ واضحًا في تقريرات الملاحدة، فيقول البروفسور آرثر ألين ليف[2]: «لا توجد طريقةٌ لإثبات أنَّ حرق الأطفال بقنابل النابلم هو شيء سيِّئ»[3]. ويقول ريتشارد دوكينز: «اعتقادُك بأنَّ الاغتصاب خطأ أمر اعتباطي تمامًا»[4].

كثيرٌ من الملاحدة لا يروْن جوازَ حرق الأطفال بالنابلم، ولا أن الاغتصاب، ولكن لا يمكنُهم القول بأنَّه خطأ موضوعي، وإنما هو خطأ في رأيه وهو خطأ حسب قانون البلد. فإذا اختلفَ القانون والعرف في البلد، فما المانع من ممارسة هذه الجرائم؟ ومن الأمثلة على ذلك أنَّه لما استولى الاتِّحاد السوفيتي الشيوعي الملحد على ألمانيا في آخر الحرب العالمية الثانية اغتصبَ الجنودُ الروس مليوني امرأة ألمانية[5]. ولم يقمْ بهذا الاغتصاب ألفٌ ولا ألفا جندي، بل اشترك فيه أعدادٌ هائلة من ملاحدة

---

(1) The brothers Karamazov (788)

(٢) آرثر ألين ليف (Arthur Allen Leff): بروفسور القانون بجامعة ييل المشهورة بالولايات المتَّحدة، ودرَّس فيها ١٣ سنة إلى أن توفي عام ١٩٨١م. انظر:
https://www.nytimes.com/1981/11/04/obituaries/arthur - a - leff - is - dead - at - 46 - professor - at - yale - law - school.html

(3) Economic Analysis of Law Some Realism about Nominalism (454)

(4) http://www.anthonysmith.me.uk/2008/11/06/dawkins-on-rape/

(5) The Hour of the Woman: Memories of Germany's "Crisis Years" and West German National Identity". American Historical Review. 101 (2): 354-395

الروس. فحين وُجدَ التنظير الإلحادي بعدمِ وجود القيم والأخلاق الموضوعية، وفُتح بابُ الاغتصاب أمامَهم، واختفت المراقبةُ الأمنية قاموا بهذه الأفعال البشعة.

خطورةُ الإلحاد على الإنسانية:

إنَّ الإلحادَ لا يشكِّل خطورةً على عقيدة الإنسان، وفطرته، وعقله، وعلمه، وأخلاقه فحسب، بل إنَّه يشكِّل خطورةً على البشرية أجمع؛ فالتنظير الإلحادي بعدم وجود القيمِ والأخلاق الموضوعية معَ عدم الإيمان بمراقبة الله ومحاسبته للمجرمين في الآخرةِ يفتح البابَ على مصراعيه أمامَ القتلة والظالمين. وقد سبق في المبحث عن تاريخ الإلحاد أنَّ أوّلَ ما استولى الملاحدةُ واللادينيون على الحكم عقبَ الثورة الفرنسية أقاموا عهدَ الإرهاب الذي هلك فيه ما يقدّر بخمسمائة ألف من البشر.

وبعدَ صراعٍ طويل بين الدين والعلمانية في أوروبا نجحت الأخيرةُ في الوصول إلى الحكم في معظم دول العالم في القرن العشرين. وانقسمتِ العلمانية إلى ثلاثة مذاهب رئيسة في هذا القرن، وهي: الشيوعية، والنازية والرأسمالية[1]. وكلُّ هذه المذاهب تشترك في أصولٍ كلية مثل: فصل الدين عن مظاهر الحياة العامة - ولا سيَّما السياسة -، وتبنِّي المذهب المادي، والإيمان بنظرية التطوَّر[2]. وإن كانت هذه المذاهب تختلف في بعض القضايا السياسية كما أنها متفاوتةٌ في تطرُّفها تجاه الدين. وهذه المذاهب الثلاثة مسئولة عنْ أعظم المجازر التي عرفها البشرية؛ وبيان ذلك كالآتي:

النازية: وصلَ الزعيم النازي أدولف هيتلر إلى سدَّة الحكم عام ١٩٣٣، وانتحر عام ١٩٤٥. وخلالَ هذه الفترة استطاع أن يشعل الحربَ العالمية الثانية التي مات فيها حوالي ٤٨ مليون نسمة، منهم ٢٧ مليون مدني[3].

---

(١) ولا يعني ذلك أنَّ كلَّ مَن تبنّى هذه المذاهب الثلاثة ملاحدة، ولكنَّ هذه المذاهب الثلاثة اشتركت في أسسٍ إلحادية كثيرة، منها: أنها مبنية على المذهب المادي، ونظرية التطوّر، وفصل الدين من مظاهر الحياة العامة.

(٢) سيأتي مبحثٌ مستقلٌّ عن بيان علماء الغرب للشرور المترتبة على الإلحاد في الباب الأول، فلن أطيل هنا.

(٣) انظر: http: / /warchronicle.com /numbers /WWII /deaths.htm

الشيوعية: أقامَ لينين أوّلَ دولة شيوعية عام ١٩١٧م، ثمَّ توالت الدول الشيوعية في مشارق الأرض ومغاربها. وفي عام ١٩٩٧م، أصدر مجموعة من الباحثين «الكتاب الأسود للشيوعية» (The Black Book of Communism) وأحصوا عددَ مَن هلك تحت حُكم هذه الدول مبلغ ٩٤ مليون نسمة.

الرأسمالية(١): قد خاضتِ الدّول الرأسمالية - وعلى رأسها الولايات المتحدة - عددًا مِن الحروب، كما أنَّها تمارس السياسة الاستعمارية الاستغلالية للدول الفقيرة بناءً على القاعدة الداروينية: البقاءُ للأصلح. وقد أحصى بعضُ الباحثين عددَ القتلى بسبب سياساتِ الدول الرأسمالية الغربية بعد الحرب العالمية الثاني إلى عصرنا هذا أنه وصل ما بين ٥٠ - ٥٥ مليون نسمة(٢).

فكان مجموعُ مَن مات بسبب سياساتِ هذه المذاهب الفكرية العلمانية الثلاثة في القرن العشرين ما يُقارب مائتي مليون نسمة. ولمّا انقرض هذا القرن الدموي وقعت أحداثُ الحادي عشر من سبتمبر فكشَّرت حركة الإلحاد الجديد عن أنيابها مدّعين أنهم يريدون إنقاذَ البشرية مِن شرور الأديان. فكأنَّ هؤلاء نسوا أو تناسوا ما ترتّب على الإلحاد والعلمانية من الشُّرور في القرن المنصرم، وإلّا فكيف يقارن بين الألفين الذين ماتوا في تلك الأحداث الإرهابية والمائتي مليون الذين ماتوا بسبب الجرائم الإلحادية والعلمانية؟!

ولا يقف الأمرُ عند ذلك، بل سام هاريس الذي أشعلَ شرارةَ هذا المذهب يقترح إطلاقَ القنبلة النووية تجاه بلدٍ يستولى عليه إسلاميون نظرًا لخطورة ما يعتقدون، وإن ماتَ فيه عشرات الملايين في يوم واحد - كما سبق ذكره -.

فلا شكَّ ولا ريبَ إذًا أنَّ الإلحاد أعظم خطر على البشرية، لأنه يستهدف العقيدة، والفطرة، والعقل، والعلم، والأخلاق، بل الإنسانية بأجمعها.

---

(١) الرأسمالية: نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية، يقوم على أساس إشباع حاجات الإنسان الضرورية والكمالية، وتنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعًا في مفهوم الحرية، معتمدًا على سياسة فصل الدين نهائيًّا عن الحياة. انظر: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والجماعات المعاصرة (٢/ ٩١٠ - ٩١٨).

(٢) انظر: Noam Chomsky and Andre Vltchek on Western Terrorism from Hiroshima to Drone Warfare (1)

المبحثُ الخامس

أشهرُ دعاة الإلحاد الجديد

قد تقدَّم الحديثُ عن تاريخ الإلحاد في القرن الحادي والعشرين، وذكرت أنَّه يطلق على أشهرِ دعاة الإلحاد: فرسان الإلحاد الأربعة. ولهذا سأركِّز الحديثَ عنهم في هذا المبحث، ثمَّ أذكر بعضَ دعاة الإلحاد الآخرين غيرهم أيضًا.

فرسانُ الإلحاد الأربعة:

قدْ كثر دعاةُ الإلحاد في القرن الواحد والعشرين، ولكنِ اشتهرَ أربعة منهم أكثر من غيرهم بسببِ نشاطهم الدَّعوي المكثَّف، ويطلق عليهم الفرسان الأربعة (تشبيهًا بقصة فرسان رؤيا يوحنّا الأربعة المذكورة في العهد الجديد[1])[2]. وهؤلاء الأربعة هم: ريتشارد دوكينز، ودانيال دينيت، وكريستوفير هيتشن، وسام هاريس. وفيما يـأتي تعريف مختصرٌ بكلِّ واحد مِن هؤلاء الذين وُصفوا بالفرسان، معَ ذكر أهمِّ كتبهم في الدعوة إلى الإلحاد:

- **الأوَّل: ريتشارد دوكينز:**

ريتشارد دوكينز أكبرُ فرسان الإلحاد سنًّا، وأكثرهم شهرة، وأنشطهم دعوة. وُلد دوكينز عام ١٩٤١م في مدينة نيروبي[3] في دولةِ كينيا المستعمرة من قبل بريطانيا. انتقل دوكينز معَ والديه إلى بريطانيا وعمرُه ٨ سنوات. وقد تعرَّض لتحرُّش جنسي

---

(١) انظر: رؤيا يوحنا (٦: ١ – ٨).

(٢) انظر: New Atheism, The Oxford Handbook of Atheism (254)

(٣) نيروبي (Nairobi): عاصمة كينيا وأكبر مدنها. تقع هذه المدينة في جنوب وسط البلاد. انظر: https://www.britannica.com/place/Nairobi

من قبل المعلّم في أيام الدراسة، وهو أمرٌ لا يزال يذكرُه وهو في السبعينيّات من عمره مما يدلُّ على أنه تركَ أثرًا في نفسيته[1]. تربَّى دوكينز في أسرةٍ نصرانية متديِّنة، وذكر أنَّه كان يؤمن بالله وهوَ صغير، وكان إيمانه مبنيًّا على دليلِ التصميم. وحين وصلَ عمره حوالي ١٥ سنة بدأ يقرأ عنْ نظرية التطوُّر، ورأى أنَّ لهذه النظرية تفسيرًا أحسن للتصميم في الطبيعة مِن الإيمان بالله، فألحدَ بسبب ذلك[2]. التحقَ دوكينز بجامعة أكسفورد ودرس علم الحيوان، ونالَ شهادة الدكتوراه عام ١٩٦٦م[3]. وقد تخصَّص في نظرية التطوّر حتى أصبحَ أشهرَ مدافعٍ لها في النصف الثاني من القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين. وقد نشر دوكينز - حتَّى هذا الوقت - ثلاثة عشَر كتابًا؛ عشر منها عن نظرية التطوّر، واثنين عن سيرة حياته، وواحدًا عن إنكار وجود الخالق.

ألَّف دوكينز كتابه الأوّل: «الجين الأناني» (The Selfish Gene) عام ١٩٧٦م. وتحدَّث هذا الكتابُ عن التطوُّر الثقافي لدى الإنسان، وأحدث ما يسمَّى بـ(مصطلح الميم)، وهو وحدةُ المعلومات الثقافية التي تنتقل من إنسانٍ إلى آخر كما ينتقل الجينات. ومِن الأمثلة على الميم: المعتقدات، والموضة، وأنماط اللباس. ويرى أنَّ بعض المعتقدات الموروثة مثل: الإيمان بالله أشبهُ ما يكون بفايروس منتقلٍ بين الأجيال. واشتهر هذا الكتابُ بهذه النظرية كثيرًا حتَّى بيعَ منه أكثرُ من مليون نسخة وترجم إلى ٢٥ لغة.

ولكنْ ظهرت انتقاداتٌ شديدة لهذه النظرية معَ مرور السنين، وتراجع شعبيتُه، حتى لا يكاد يظهرُ هذا المصطلح في الأبحاثِ العلمية اليوم[4]. وقد كتب البروفسور

---

(١) انظر:
https://www.theatlantic.com/international/archive/2013/09/richard-dawkins-defends-mild-pedophilia-again-and-again/311230/

(٢) انظر:
https://www.theguardian.com/world/2003/feb/10/religion.scienceandnature

(٣) انظر: http: / /www.thefamouspeople.com /profiles /clinton – richard - dawkins - 2646.php

(٤) انظر:
http://science.jrank.org/pages/10160/Meme-Criticism-Memetic-Theory.html

أليستر ماكغراث[1] كتابًا في الردِّ على دوكينز، سمَّاه: «إله دوكينز - الجينيات، والميميات والهدف من الحياة -» (Dawkins' God, Genes, Memes, and the Meaning of Life) وخصّص بابًا من الكتاب لنقدِ هذه النظرية. وقد تلقِّيَ هذا الكتابُ بالقبول حتى أثنى عليه بعضُ كبار الملاحدة مثلَ مايكل روس[2].

واصلَ دوكينز مسيرةَ كتاباته، وأشهرُ هذه الكتب: «صانع الساعات الأعمى» (The Blind Watchmaker) عام ١٩٨٦م، و«صعود الجبل المستحيل» (Climbing Mount Improbable) عام ١٩٩٦م، و«كاهن الشيطان» (Devil's Chaplain) عام ٢٠٠٣م. كانت هذه الكتبُ تركِّز على الدعوة إلى الداروينية، والردِّ على القائلين بمذهب الخلق. وكانت لهجةُ النقاش هادئة نوعًا ما، ولكنَّه غيَّر هذه اللهجة عام ٢٠٠٦م حين أصدر كتابه: «وهمُ الإله» (The God Delusion). وقد خصَّص هذا الكتاب في الدعوة إلى الإلحاد، والردِّ على المعتقدات الدينية. وقد اهتمَّ بنقدِ أدلة وجود الله اهتمامًا كبيرًا كما أنَّه حاول أن يبيِّن للقارئ أنَّ الأديان خطيرة على البشرية؛ فلا بدَّ من الوقوف في وجهِها. ولذلك كانت لهجةُ دوكينز العدوانية في هذا الكتاب أشدَّ بكثير من لهجته في الكتب السابقة، وصُنِّف هذا الكتاب من ضمنِ كتب حركة الإلحاد الجديد. ولعل هذا الكتابَ أشهرُ كتابٍ داعٍ إلى الإلحاد في تاريخ البشرية؛ فقد تُرجم إلى ٣٥ لغة - منها اللغة العربية -، وقد بيعَ أكثرُ من ٣ مليون نسخة بلغته الأصلية. ولشهرة هذا الكتاب فقدْ تصدَّى له النصارى أكثرَ من أيِّ كتاب آخر؛ فقد كُتب عدد من الكتب في الردِّ عليه إضافة إلى عشرات المقالات.

ودوكينز لم يقتصرْ على كتابةِ الكتب فقط، بل هو نشيطٌ في مجالات أخرى مثل: عقد المناظرات مع النصارى؛ فقد ناظرَ البروفسور جون لينوكس مرّتين، والبروفسور أليستر ماكغراث، والبروفسور وليام لاين كرايغ، وغيرهم كثير.

---

(١) أليستر ماكغراث (Alister McGrath): عالم ولاهوتي بريطاني، بروفسور في تاريخ علم اللاهوت وحامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء الحيوية. وهو من علماء الغرب البارزين في نقد الخطاب الإلحادي. انظر: http: / /alistermcgrath.weebly.com /biography.html

(٢) انظر:
http://eu.wiley.com/WileyCDA/WileyTitle/productCd-1405125381.html

وهو مسئول عن «مؤسسة ريتشارد دوكينز للعقلانية والعلم» (The Richard Dawkins Foundation for Reason and Science) وهي مؤسسة تدعو إلى الإلحاد، ويدير موقعًا في إنترنت يعتبر أحدَ أشهر المواقع الإلحادية باللغة الإنجليزية.

شاركَ دوكينز في ١٤ فيلمًا وثائقيًّا، ولعلَّ أشهرها: أصلُ جميع الشرور؟ (The Root of All Evils?)، وهو فيلم وثائقي في جزئين كتبه وقدَّمه دوكينز نفسه. الجزء الأوّل كان في نقدِ الإيمان بالله، والجزءُ الثاني في التحذير من خطورة الإيمان والأديان.

- **الثاني: دانيال دينيت:**

دانيال دينيت أصغرُ مِن دوكينز بسنة، وأقلُّ منه شهرة ونشاطًا وكاريزما. وُلد دينيت عام ١٩٤٢م في الولايات المتّحدة، ولكنَّه انتقل إلى لبنان لأنَّ أباه كان عميلًا في الاسْتخبارات في السفارة الأمريكية هناك. لمّا بلغ دينيت خمس سنوات توفّي والده في حادثٍ غامض، فاضطرَّ أن يرجع إلى الولايات المتحدة مع أمِّه، ونشأ في ظلِّ حادث والده. بدأ يهتمُّ بالفلسفة وعمرُه ١١ سنة، ودرسها في جامعة هارفارد، ثمَّ أخذ شهادة الدكتوراه من جامعة أكسفورد[١].

قد ألَّف دينيت سبعةَ عشَر كتابًا في الفلسفة، أوَّلها: «العواصف الذهنية: مقالات فلسفيَّة عن العقل وعلم النفس» (Brainstorms: Philosophical Essays on Mind and Psychology) عام ١٩٨١م، ثمَّ تتابعت كتبُه إلى يومنا هذا[٢]. ومدارُ هذه الكتب على أربعة موضوعات: حرية الإرادة، وحقيقة الوعي وفقَ المذهب المادي، ونظرية التطوّر، ونقد الأديان.

وفي عام ٢٠٠٦م، انضمَّ إلى الفرسان الأربعة وألَّف كتابه: «فكُّ السحر: الدين كظاهرة طبيعية» (Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon)، وهو أشهر كتبِه في نقد الأديان. قسَّم دينيت هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) انظر: Daniel Dennett: Autobiography, part 1
https://philosophynow.org/issues/68/Daniel_Dennett_Autobiography_Part_1

(٢) انظر: http: / /ase.tufts.edu /cogstud /dennett/

الأوّل: جادلَ فيه أنه لا بدَّ أن تتمَّ دراسة الدين عن طريق العلم التجريبي.

الثّاني: استخدمَ فيه علم التطوُّر الثقافي (الميم) الذي أحدثه ريتشارد دوكينز لتفسير ظاهرة الدين.

الثّالث: حلَّل فيه آثارَ الأديان في العالم اليوم بطريقة نقدية؛ فهذا الكتاب يشبه كتابَ فرويد عن نشأة الأديان من بعض الوجوه. التحليلُ يختلف، ولكن يشتركان في تفسيرِ نشأة الأديان بطريقة مادية بحتة.

- **الثّالث: كريستوفير هيتشن:**

ثالثُ الفرسان الأربعة هوَ الصحفي البريطاني كريستوفر هيتشن. وُلد عام ١٩٤٩م، في بريطانيا مِن والديْن يهوديَّين[١]. وحينَ بلغ ١٨ من عمره بدأ يدرس في جامعة أكسفورد موضوعاتٍ مختلفة، مثل: الفلسفة، والسياسة والاقتصاد. وانضمَّ في هذه الفترة إلى جماعةٍ شيوعية؛ ففقدَ إيمانه وترك التديُّن مطلقًا[٢]. تخرَّج هيتشن في جامعة أكسفورد، وعملَ مراسلاً لجماعتِه الشوعية، ثمّ تنقَّل في العمل الصحفي بين الصحف والمجلات. وكان يهتمُّ بكتابة المقالات السياسية بمنظورٍ يساري اشتراكي. كما أنه ألَّف ثلاثةَ عشَر كتابًا في موضوعاتٍ مختلفة. تغيَّرت حياة هيتشن عندَ حادثة الحادي عشر من سبتمبر فغيَّر فكرَه السياسي وتركَ الاشتراكية - وإنْ كان محافظًا على تعظيم كارل ماركس[٣] - وأيَّد الاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق لأنَّه رأى أنَّ الإسلام «المتطرِّف» هو أكبرُ تحدٍّ للعالم الديمقراطي[٤].

---

(١) انظر:
http://www.slate.com/articles/news_and_politics/fighting_words/features/2010/hitch22/the_commander_my_father_eric_hitchens.html

(٢) انظر: http: / /www.nytimes.com/2011 / 12 / 16/arts/christopher - hitchens - is - dead - at - 62 - obituary.html

(٣) انظر: https: / /www.theatlantic.com/magazine/archive/2009 / 04/the - revenge - of - karl - marx/307317/

(٤) انظر:
http://www.salon.com/2016/02/14/christopher_hitchens_last_years_islam_the_iraq_war_and_how_a_man_of_the_left_found_his_moment_by_breaking_with_the_left/

وإذا كان هيتشن ملحدًا من أيامِ دراسته فإنَّه تطرَّف أكثر في إلحاده بعد أحداث ٢٠٠١م، حتَّى انضمَّ إلى ركب الفرسان الأربعة عام ٢٠٠٧م بإصدار كتابه: «الإله ليس عظيمًا: كيف يسمّم الدين كلَّ شيء» (God is not Great: How religion poisons everything). وقد عدَّد في هذا الكتاب ما رأى أنَّه من الآثار السيئة والخطيرة للأديان، ثمَّ ختمَه بخلاصة أنَّنا بحاجةٍ إلى عصر تنويري جديد تتخلَّص فيه البشرية من الأديان. وقد اشتهرَ هذا الكتاب كثيرًا حتى أصبح بعدَ أسبوع من إصداره ثاني أكثر الكتب مبيعًا على موقع أمازون[1] - وهو أكبرُ موقع تجاري في العالم -، وكان الأوّلَ في قائمة نيو يورك تايمز لأكثرِ الكتب مبيعًا - وهو يعتبر أشهرَ قائمة أكثر الكتب مبيعًا في الولايات المتَّحدة - ؛ فدلَّ ذلك على شدَّة انتشار هذا الكتاب ومدى رواجه في العالم عامة، وفي الولايات المتَّحدة خاصة.

وبعدَ إصدار هذا الكتاب بأشهرٍ صدرَ كتابه الثاني في الدعوة إلى الإلحاد، وهو: «الملحدُ المتنقِّل: قراءات أساسية لغير المؤمن» (The Portable Atheist: Essential Readings for the Non - Beliver). وهو كتابٌ جمع فيه هيتشن أشهر المقالات في الدعوة إلى الإلحاد، ونقدِ الأديان معَ كتابة مقدِّمة مختصرة لكلِّ مقال. ويعتبر هذا الكتاب من أخطرِ الكتب الإلحادية المعاصرة - حيث جمعَ فيه كلام الملاحدة السابقين واللاحقين - وإن كان أقلَّ رواجًا من كتابه السابق.

كان هيتشن كثيرَ التَّدخين وشرب الكحول وأصيب بالسرطان حتى هلك عام ٢٠١١م[2].

- **الرابع: سام هاريس:**

وُلِد سام هاريس عام ١٩٦٧م، في الولايات المتَّحدة من أب نصراني وأم يهودية. درسَ في جامعة ستانفورد وبدأ يتعاطى حبوبَ إكستاسي، وشعرَ بأنه يصل إلى بصيرة نفسيَّة قوية بهذه المخدِّرات. وهذا الأمرُ جعله يفكِّر في الروحانيات وكيف يصل إلى

---

(١) انظر: https: / /www.amazon.com/dp/0446579807

(٢) انظر: http://www.bbc.com/news/uk - 16214466

التبصُّر الروحاني بدون استخدام المخدِّرات؛ فسافرَ إلى الهند والنيبال لتعلّم طقوس التأمُّل. قضى هاريس عشرَ سنوات يدرسُ الدين والفلسفة، ثمَّ رجعَ إلى جامعة ستانفورد ليكملَ دراسة البكالوريوس في الفلسفة عام ٢٠٠٠، ثمَّ اتّجه إلى دراسة علم الأعصاب فحصلَ على شهادة الدكتوراه في هذا العلم عام ٢٠٠٩ من جامعة كاليفورنيا[١].

لمّا حصلت أحداثُ الحادي عشر سبتمبر تغيَّرت نظرة هاريس للأديان، واعتقد أن الدينَ يقف وراءَ الشرور في العالم ولا سيَّما الإرهاب، ولم يكتف بمهاجمة المتطرفين المتديِّنين، بل تجاوزَ ذلك إلى مهاجمة المعتدلين أيضًا حيث قال: «استطعت أنْ أقول إنَّ المشكلةَ تكمّن في التطرُّف الديني العاشر من سبتمبر، ولكنْ بعد الحادي عشر من سبتمبر فهمتُ أنَّ الاعتدال الديني يلعب دور التغطية للأصولية»[٢].

وقد ألَّف هاريس ستةَ كتبٍ في نقد الأديان والدعوة إلى الإلحاد؛ وهذا تعريف مُختصر بكلِّ كتاب:

كتابُه الأوَّل: «نهاية الإيمان» (End of Faith)، بدأ يؤلِّف هذا الكتابَ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ولكنَّه لم يصدر حتى عام ٢٠٠٤م، وتصدَّر هذا الكتاب قائمة نيويورك تايمز لأكثرِ الكتب مبيعًا لأكثر من ٣٣ أسبوعًا[٣]. وخلاصة هذا الكتاب تتمحورُ حولَ التصادم بين الاعتقاد الديني والتفكير العقلاني والشرور المترتبة على الأديان والتديُّن. ويعتبر صدورُ هذا الكتاب هو نقطةَ انطلاق حركة الإلحاد الجديد كما سبق.

الكتابُ الثّاني: «رسالة إلى أمَّة مسيحية» (Letter to a Christian Nation)، صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٦م، وكانَ الكتاب السابع في قائمة نيويورك تايمز لأكثر

---

(١) انظر: Atheist Evangelist
http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/10/25/AR2006102501998_pf.html

(٢) انظر المصدر السابق.

(3) Sunday Book Review, 2005-07. New York Times

الكتب مبيعًا[1]. وهذا الكتاب رسالةٌ مفتوحة إلى النصارى - ولا سيَّما المحافظين - في الولايات المتَّحدة للردِّ على المزاعم المنطقية والأخلاقية للنصارى على حدِّ تعبيره. ويركِّز في هذا الكتاب على نقدِ الأخلاق النصرانية، ونقدِ نظرية التصميم الذكي، ويقرِّر لشبهة معضلة الشَّر.

الكتابُ الثّالث: «المشهدُ الأخلاقي» (The Moral Landscape)، ألّف هاريس هذا الكتاب عام (٢٠١٠)، وكان الكتاب التاسع في قائمة نيويورك تايمز لأكثر الكتب مَبيعًا[2]. قدَّم هاريس رؤيته في الأخلاق خلالَ هذا الكتاب؛ فذكر أنَّ رؤيته وسط بين المتديِّنين الذين يروْن أنَّ الأخلاق محدَّدة من الله خلالَ الوحي، وبين العلمانيين المتبنِّين لفلسفة النسبية الأخلاقية.

الكتابُ الرّابع: «حرية الإرادة» (Free Will)، صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٢م، وقدَّم هاريس فيه نظريتَه عن حرية الإرادة. فهو يرى أنَّ حرية الإرادة مجرَّد وهْم، وليست حقيقيَّة. وذلك أنَّ الإنسان يتصرَّف حسبَ جينياته، وليسَ بإرادته الحرة. ومع ذلك يرى هاريس أنَّ نظريته في الإرادة الحرَّة لا تتنافى مع المسئوليات الأخلاقية.

الكتابُ الخامس: «الاستيقاظ: دليل إلى الروحانية بدون دين» (Waking Up: A Guide to Spirituality Without Religion). ألّف هاريس هذا الكتاب عام ٢٠١٤م، لتقديمِ رؤيته في الروحانية العلمانية (Secular Spirituality). وقد بنى نظريته الروحانية على طقوسِ البوذية، ولكنْ بدون الإيمان بالغيبيّات[3]. وبذلك يقرب هاريس من جعل الإلحاد الجديد دينًا ذا طقوس، ولكنْ بدون إيمان بالله، ولا الغيبيات.

---

(١) انظر:
http://www.nytimes.com/2006/10/08/books/bestseller/1008besthardnonfiction.html

(2) http://www.nytimes.com/books/best-sellers/2010/10/24/hardcover-non-fiction/

(3) https://www.amazon.com/Waking-Up-Spirituality-Without-Religion-ebook/dp/B00GEEB9YC

الكتابُ السّادس: «الإسلامُ ومستقبل التسامح» (Islam and The Future of Tolerance). صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٥م، وهوَ حوارٌ بينه وبين أحد دعاة الإسلام اللِّيبرالي». وهاريس شديدُ النقد للأديان عمومًا، وللإسلام خصوصًا؛ فيبيِّن في هذا الكتاب أنَّ عقائد الإسلام نفسَها تهدِّد المجتمعات اليوم، بينما يقول المسلم الليبرالي إنَّ الإسلام مفتوحٌ للتغيُّرات لكي يتناسب مع العالم العلماني الحديث(١).

تعريفٌ مُختصر بدعاةِ الإلحاد الجديد سوى الفرسانِ الأربعة:

ثمَّة عددٌ من دعاة الإلحاد الجديد غير هؤلاء الفرسانِ الأربعة، ومِن أشهرهم:

الأوَّل: لورانس كراوس: هوَ عالم كوْن أمريكي مشهور من أصل يهودي. ألّف أكثرَ من ثلاثمائة بحثٍ علمي وعشْرة كتب في علم الكون والفيزياء النظرية. وأحدُ هذه الكتب كتابُه: «الكون من لا شيء» (Universe from Nothing) الذي صدر عام ٢٠١٢م، وقدْ جادل فيه كراوس لإثباتِ أنَّ هذا الكون نشأ مِن لا شيء، وأنه لا حاجة لخالق لإيجادِه(٢). وينشط كراوس في مناظراتٍ معَ عدد من المؤمنين بالخالق.

الثّاني: أيان هرسي علي(٣): هي امرأةٌ وُلدت في الصومال عام ١٩٦٩م، ونشأت نشأةً إسلامية متديِّنة. سافرتْ إلى هولندا عام ١٩٩٢م، وبدأ يتزعزع إيمانها شيئًا فشيئًا في هذا البلد الجديد إلى أنْ حصلت أحداثُ الحادي عشر من سبتمبر واستمعت إلى مَن يستدلُّ على مشروعية العمليات الإرهابية بالقرآن والسنة، فارتدَّت عن الإسلام وألحَدَت(٤) وأصبحت أحدَ أكبر المناوئين لهذا الدين الحنيف. ألَّفت أيان خمسة

---

(1) https://www.goodreads.com/book/show/25151238-islam-and-the-future-of-tolerance

(٢) انظر: http: / /krauss.faculty.asu.edu /biography /

(٣) أيان هرسي علي: ناشطة سياسية هولندية أمريكية من أصل صومالي. وُلدت في أسرة مسلمة ثمَّ ارتدَّت ونشطت في نقد الإسلام، وألَّفت عددًا من الكتب في ذلك، وبيعت بنسخ كثيرة جدًّا. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Ayaan – Hirsi – Ali

(٤) انظر: https: / /thehumanist.com /magazine /january - february - 2008/ features /absolute – infidel – the – evolution – of – ayaan – hirsi – ali

كتب مُناهضة للإسلام، وشاركت في العديد من البرنامج التليفزيونية في هذا المجال. ولنشاطها الكبير في الدعوة إلى الإلحاد ونقدِ الإسلام لقِّبت بالفارسة، وحلَّت محلَّ هيتشن بعد وفاتِه بين الفرسان الأربعة[١].

الثّالث: ميشال أونفراي[٢]: هو فيلسوفٌ فرنسي، ويعتبر أحدَ أنشطِ دعاة الإلحاد في فرنسا. تربَّى في أسرة كاثوليكية ولكنَّه اعتنق المذهب الشيوعي وألحد. نال شهادةَ الدكتوراه في الفلسفة، وألَّف عشرات الكتب الفلسفية[٣]. من أهمِّ إسهاماته في الدعوة إلى الإلحاد: كتابه: «بيانٌ إلحادي» (Atheist Manifesto) الذي صدر عام ٢٠٠٥م، دعا أونفراي في هذا الكتاب إلى الإلحادِ ودافع عنه، وخصَّص الإسلام واليهودية والنصرانية بالنَّقد والردِّ من بين سائر الأديان. وقد انتشر الكتابُ كثيرًا وبيع منه ٢٠٠ ألف نسخة.

الرّابع: ستيفن هوكينغ: هو أحدُ أشهر علماء الفلك والفيزياء في هذا الزمان، وقد نظَّر للعديد من النظريات العلمية. وقد أصيبَ بمرض تصلَّب جانبي ضموري (Amyotrophic lateral sclerosis)، فكان مشلولًا تمامًا ولا يتكلَّم إلّا عبر مكينة صوتية[٤]. وقد مرَّ هوكينغ في مواقفه الدينية على مرحلتين:

---

(١) انظر:
www.quora.com/Who-can-replace-Christopher-Hitchens-if-Dawkins-Harris-and-Dennett-decide-to-do-another-Four-Horseman-Hangout

(٢) ميشال أونفراي: (Michel Onfray): فيلسوف فرنسي، درّس الفلسفة أكثر من ٢٠ سنة، وألَّف أكثر من ثمانين كتابًا، وقد ترجمت هذه الكتب إلى أكثر من ٣٠ لغة. انظر:
https://www.forum - avignon.org/en/who - is - michel - onfray

(٣) انظر: http: / /newpol.org /content /introductory – note – onfray

(٤) انظر:
http://www.independent.co.uk/news/science/mind-over-matter-how-stephen-hawking-defied-motor-neurone-disease-for-50-years-6286313.html

المرحلةُ الأولى: أَلَّف هوكينغ كتابه: تاريخ موجز للزمن (A Brief History of Time) عام ١٩٨٨م، وقد بيعَ منه أكثرُ من عشرة ملايين نسخة[١] وتُرجم إلى ٣٥ لغة[٢]. وفي هذا الكتاب يذكر الإله والخالق في عددٍ من المواضع[٣]، وإن كان يميل إلى عدم وجوده.

المرحلةُ الثّانية: في عام ٢٠١٠م، أصدرَ كتابًا آخر مع الفيزيائي ليوناردو ملودينو[٤]، وهو: «التصميمُ العظيم» (The Grand Design). وتصدّر قائمة أمازون لأكثرِ الكتب مبيعًا أيامًا بعد صدوره[٥]. وقد طرح في بداية الكتاب السؤال: «هل الكونُ بحاجة إلى خالق؟»[٦]، وحاولَ أن يدلِّل على عدم وجوده، وكتب في نهاية الكتاب: «لأنَّ هناك قانونًا مثل الجاذبية، فإن الكون يمكنه أن يخلق نفسه من لا شيء»[٧].

هوكينغ يوافق دعاةَ الإلحاد الجديد في إلحاده، ولكنَّه يخالفهم في عدم إبداء العداوة ضدَّ الأديان والمتديِّنين. ومعَ ذلك، فإنَّه يمثّل خطرًا كبيرًا في نشر الإلحاد حيث أنه يتبوأ منزلةً علمية مرموقة[٨] ويقبل كثيرٌ من الناس كلامه في المسائل الكونية والفيزيائية كحجة.

---

(١) انظر: http: //www.telegraph.co.uk/news/worldnews/1549770/Hawking - to - experience - zero - gravity.html

(٢) انظر: http://news.bbc.co.uk/2/hi/science/nature/1599719.stm

(٣) انظر: A Brief History of Time (8 - 9), (140 - 141), (193), by: Stephen Hawking, (Bantam, 1988)

(٤) ليوناردو ملودينو (Leonard Mlodinow): بروفسور الفيزياء الأمريكي من أصول بولندية يهودية. قد أَلَّف عددًا من الكتب والأبحاث العلمية في الفيزياء. انظر:
https://leonardmlodinow.com/leonard - mlodinow - biography/

(٥) انظر: http://observer.com/2010 / 09/hawkings - book - shoots – to – top /– of – amazon – sales – after – he – denies – gods – existence

(6) The Grand Design (5), by Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, (Bantam Press 2010)

(٧) المصدر السابق (١٨٠).

(٨) كان على سبيل المثال أستاذ الكرسي اللوكاسي للرياضيات في جامعة كامبردج بين ١٩٧٩ إلى ٢٠٠٩م. وهو الكرسي العلمي الذي شغله الفيزيائي إسحاق نيوتن في القرن السابع عشر.
http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/england/cambridgeshire/8282358.stm

المبحثُ السّادس

وسائلُ نشْر الإلحاد

ظهرتِ الدَّعوة إلى الإلحاد في القرن الثامن عشر في فرنسا. ولم يشتهر بهذه الدعوة سوى أربعة أشخاص في ذلك القرن كما سبقَ بيانه. وكانت وسائلُ دعوتهم منحصرة في أمريْن: الأوَّل: تأليف الكتب، والثّاني: المناقشات في الصالون الأدبي التابع لبارون دي هولباخ. دخلَ القرن التاسع عشر وتوسَّعت الدعوةُ إلى الإلحاد من ناحية الجغرافيا، ومِن ناحية الوسائل. فانتشرَ الإلحاد في بريطانيا وألمانيا ودول أوروبية أخرى وابتكرت وسائل جديدة للدعوة إلى الإلحاد – لا سيَّما في بريطانيا – ؛ فكانت مجلةُ القرامة السوداء السّاخرة من الأديان تصدَّر وتوزَّع في بريطانيا، كما أنَّ ريتشارد كارليل وصديقه روبيرت تايلر خرجَا لجولة دعوية يدعونَ فيها إلى الكفر والإلحاد في مدن بريطانيا وجامعاتها. وكان كارليل يلقي محاضراتٍ إلحادية في لندن، ودوَّنت محاضراته ووزِّعت بالآلاف – كما سبق ذكرُه –.

لمّا دخل القرن العشرون تمكَّن العلمانيون والملاحدة من الحكم في كثيرٍ من دول العالم، وإنْ كانوا متفاوتين في عَدائهم للدين؛ فكان الإلحاد يُفرض على الشعوب بالقوة في الدُّول الشيوعية؛ بينما فُتحَ المجال للدعوة إلى الإلحاد على مصراعيه في الدول الرأسمالية الليبرالية باسْم حرية الرأي والتعبير. والقرن العشرون هو قرن الاختراعات والابتكارات فظهرت وسائلُ جديدة لنشْر الأفكار مثل: التلفاز (وما فيه من وسائل النَّشر كالأفلام السنيمائية، والأفلام الوثائقية، ونشر الأخبار، إلخ)، والإذاعة، والإنترنت. وقد اغتنمَ الملاحدةُ هذه الوسائل في نشر الإلحاد بين عامة الناس بينما كادَ الإلحادُ أن يكون منحصرًا في الفئة المثقفة قبل ذلك.

ولمّا ظهرتْ حركة الإلحاد الجديد في بداية القرن الواحد والعشرين استغلَّ دعاتها جميعَ الوسائل القديمة والجديدة في نشْر الإلحاد والكفر. ولا تكاد تجدُ وسيلة من

وسائل النَّشر إلّا وقد استثمرها الملاحدةُ الجدد. ولا يمكن حصرُ هذه الوسائل في مبحث، وسأذكر هنا أهمَّ وسائل نشر الإلحاد في هذا الزمان مع بعض الأمثلة التوضيحية:

الوسيلةُ الأولى: تأسيسُ المؤسَّسات الإلحادية:

كانت الدعوةُ إلى الإلحاد في القرنين الثامن والتاسع عشر يعتمد على جهود فردية من قبَل بعض الفلاسفة والمفكِّرين في الغالب. ثمَّ تطوَّر الأمرُ في القرن العشرين حيث تبنَّت الدول الشيوعية - وعلى رأسها الاتّحاد السوفيتي - الدعوة إلى الشيوعية الإلحادية. ولا يصلُ حزبٌ شيوعي إلى السلطة في بلدٍ من البلدان إلّا بدعم من الاتّحاد السوفيتي، كما أنَّه كانت للاتِّحاد صلةٌ بثمانين حزبًا شيوعيًّا في الدول غير الشيوعية(١). ولكن مع زوالِ الاتِّحاد السوفيتي انتهى الدعمُ لهذه الأحزاب، وبالتالي ضعف نفوذها. ومع ضعفِ نفوذها ضعفتِ الدعوة إلى الإلحاد الشيوعي.

وأمّا في العالم الغربي، فكانت الدعوةُ إلى الإلحاد في الغالب تتسمَّى بالدعوة إلى الإنسانية(٢). وظهرَ في آخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين العديد من المؤسسات والجمعيات الإنسانية. وفي عام ١٩٥٢م، تكوَّن الاتِّحادُ العالمي الإنساني والأخلاقي (The International Humanist and Ethical Union)، وضمّ في هذا الاتّحاد هذه المؤسسات الموجودة في الدُّول الديمقراطية، ومقرُّها عاصمة بريطانيا(٣). والغرضُ الأساس من هذا الاتِّحاد هو الدعوةُ إلى الإلحاد والدفاع عن حقوق الملاحدة واللادينيين. وقد تقوّى نفوذه كثيرًا في القرن الواحد والعشرين. وفي عام ٢٠١٦م، ضمَّ هذا الاتِّحاد ١٢٥ مؤسسة في ٤٧ دولة(٤). وبعضُ هذه المؤسَّسات التابعة للاتِّحاد هي مؤسسات قوية ونشطة،

---

(١) انظر:

The Soviet Union and Non-Ruling Communist Parties (III), https://www.cia.gov/library/readingroom/docs/DOC_0000496805.pdf

(٢) وذلك لأنَّ الإنسانية كلمة محبوبة لدى الناس بخلافِ الإلحاد كما سبق ذكره.

(٣) انظر: http: / /www.iheu.org /about

(4) http:// iheu.org/ membership/ our-members/ ?page=CiviCRM&q=civicrm/ profile&page=CiviCRM&gid=4&force=1&crmSID=4_u&crmRowCount=25&crmPID=1

وتعمل بشكل منظَّم في الدَّعوة إلى الإلحاد، فعلى سبيل المثال: الرابطة البريطانية الإنسانية (British Humanist Association) لها ٧٠ فرعًا محليًّا في بريطانيا مع ٥٥ ألف عضو(١).

ومِن المؤسَّسات الإلحادية الكبرى: «الاتِّحاد الإنساني الأوروبي» (European Humanist Federation)، الذي أُسس عام ١٩٩١م؛ سعيًا للمزيد من علمنة أوروبا، ومقرُّها بروسل. وقد بلغ عددُ المؤسسات المنضمَّة تحتَ هذا الاتِّحاد ٦٣ مؤسسة في ٢٥ دولة أوروبية(٢).

ومِن المؤسَّسات الإلحادية الكبيرة: الاتّحاد العالمي الإلحادي، الذي أسّس عام ١٩٩١م، في الولايات المتَّحدة. ويهتمُّ هذا الاتِّحاد بحقوق الملاحدة في العالم.

وهذا يدلُّ على أنَّ الدعوة إلى الإلحاد ليست دعوة فردية، بل تقوم عليها مؤسساتٌ واتِّحادات ورابطات.

الوسيلةُ الثّانية: تأليفُ الكتب:

كان تأليفُ الكتب أوّلَ وسيلة دعوية إلى الإلحاد، ومازالت من الوسائل المنتشرة بينَ دعاة الإلحاد. والكتبُ الإلحادية تنقسم إلى قسميْن من حيث العموم:

الأوَّل: الكتبُ الإلحادية العلمية: وقد سبقَ بيان عددٍ من هذه الكتب في مبحث: تاريخ الإلحاد، ومبحث: دعاة الإلحاد الجديد. وهذه الكتبُ تدعو إلى الإلحاد، وتنتقدُ الأديان بشكل مباشر.

الثّاني: الرواياتُ الإلحادية: والروايات تختلفُ عن الكتب العلمية حيث تقدِّم الرسالة والهدف للقارئ بشكلٍ غير مباشر. وحيث أنَّ الإلحاد أمرٌ شاذٌّ ومرفوض لدى غالبية البشرية اهتمَّ الملاحدة بتأليف الروايات للترويج للإلحاد. من الأمثلة القديمة على ذلك أنَّ الفيلسوف الملحد نيتشي عبَّر عن فكرة (الإله قد مات) أوّلًا في كتابه الفلسفي العلمي: «علم السعادة» (Die fröhliche Wissenschaft)، ولكنّ

---

(1) https://humanism.org.uk/about/

(٢) انظر: http: / /www.humanistfederation.eu /membres.php

هذه الفكرة لم تنتشر إلا خلالَ روايته الفلسفية: هكذا تكلّم زرادشت (Also sprach Zarathustra) ويعبّر بها فيها على لسان بطل الرواية زرادشت[1].

ومازال الملاحدةُ ينشطون في تأليف الروايات الإلحادية المنتقدة للأديان بالله. من الأمثلة المعاصرة لهذه الروايات: كتاب «الاتّصال» (Contact) لكارل ساغان - عالم الكون وأحدُ أشهر دعاة الإلحاد المعاصرين -. وبطلةُ الرواية امرأة إليونور أروفاي، وهي مهتمَّة بالعلم وناقدةٌ للأديان، وتتناقشُ في الرواية مع اثنين من رجال الدين. وتُظهر القصة تعارضَ الدين مع العلم، معَ تفوُّق العلم عليه. وبهذا الطريقة استطاعَ ساغان أن يوصِّل رسالة إلحادية خفية للقراء.

الوسيلةُ الثّالثة: عقدُ المناظرات:

قد وقعتْ مناظرات كثيرة ومهمَّة بين دعاةِ الإلحاد الجديد ومُخالفيهم من اليهود والنَّصارى والمسلمين. والمناظراتُ تختلف كثيرًا عن تأليفِ الكتب وإلقاء المحاضرات حيث يسمح للطَّرفين بالكلام، وإبداءِ وجهات النظر. وسوف يتمُّ استعراضُ أهمِّ هذه المناظرات لاحقًا في الرسالة، ويتبيَّن خلال هذا الاستعراض أنَّ الغلبة كانت للمؤمنين بالله وليستْ للملاحدة. ولكنْ يبقى هناك إشكالٌ كبير في هذه المناظرات - وإن كانت الغلبةُ للمؤمنين بالله -، وهي أنَّ مهمَّة الملحد في المناظرات هي هدمُ العقائد، وإلقاءُ الشبهات والشَّك، وليست مهمَّته في الغالب الاستدلالَ على عقيدته. ومن القواعد المقرَّرة في المناظرات أنَّ الهدم أسهلُ من البناء؛ قال الراغب الأصفهاني: «واعلم أنَّ سبيلَ إنكار الحجة والسعي في إفسادها أسهلُ من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها، ولهذا يتحرَّى الجدِلُ الخصيم أبدًا بالدفاع لا المعارضة بمثلها، وذلك أنَّ الإفساد هدم وهو سهل، والإتيان بمثله بناء وهو صعب، فإنَّ الإنسان كما يمكنه قتلُ النفس الزكية وذبحُ الحيوانات وإحراقُ النبات، ولا يقدرُ على إيجاد شيء منها يمكنُه إفساد حجة قوية بضربٍ من الشُّبه المزخرفة، ولا يمكنه الإتيان بمثلها»[2].

---

(1) http://www.gradesaver.com/thus-spoke-zarathustra/study-guide/the-death-of-god-and-modern-theology

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة (١٨٨)، للحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، (دار السلام، ١٤٢٨ هـ، ت. الدكتور أبو اليزيد العجمي).

ولهذا يلجأ الملاحدةُ الجدد - ولا سيَّما كبيرُهم دوكينز - في كثيرٍ من المناظرات إلى التهكُّم والسخرية من الخصْم هادفًا إلى هدمِ عقائده أمام المستمعين. وقد أوصى دوكينز أتباعَه باستخدام السخرية والتهكُّم بالخصوم حين قال في إحدى محاضراته: «اسخروا منهم، واستهزؤوا بهِم علانية، إيّاكم أن تقعوا في العُرف الدارج أننا مؤدَّبون جدًّا لنتحدَّث عن الدين. الدينُ ليس مرفوعًا عن الطاولة، ولا هو خارجٌ عن حدود النقد، الدين يقدِّم تصوُّرات معيَّنة عن الكونِ والتي تحتاج إلى التثبُّت منها، ينبغي تحدِّيها والسُّخرية منها باحتقار»[1]. ومِن المعلوم أنَّ المؤمن بأيِّ دين كان لا يقرأ كتب الملاحدة أو يستمع لمحاضراتهم في الغالب، وبالتالي لا يتعرَّض لشبهاتهم. ولكن المتديِّن قد يرغب في الاستماع إلى مناظرةٍ حيث يشارك في هذه المناظرة أحدُ دعاة الإيمان بالله. ولكن بالإصغاءِ إلى هذه المناظرات يعرِّض نفسَه أن يسمعَ هذه السخرية والتهكُّم والاستهزاء؛ فقدْ يقع في شكٍّ أو ريب بسببِه. وبذلك تكون المناظراتُ وسيلة خطيرة وخبيثة للدعوة إلى الإلحاد.

الوسيلةُ الرّابعة: إنتاجُ الأفلام الوثائقية:

الإنسانُ بطبيعته يحبُّ المعرفة والاطِّلاع والثقافة. والأفلام الوثائقية أصبحت من أهمِّ وسائل نشْر الثقافة والمعرفة في هذا الزمان؛ فهذه الأفلام جذابةٌ ومثيرةٌ للانتباه. وقد انتشرتْ هذه الأفلام أوَّلًا عن طريق القنوات الفضائية، وازدادَ انتشارها كثيرًا مع تدشين موقع يوتيوب؛ فقد أصبح موقع يوتيوب ثاني أكبر محرِّك للبحث في الشبكة العنكبوتية بـ١٥,٧ ترليون زيارة عام ٢٠١٥م[2]. ويجتهدُ الملاحدة في نشر إلحادهم خلال هذه الأفلام الوثائقية؛ ويمكن تقسيمُها إلى قسمين:

---

(1) Transcript of Richard Dawkins' speech from Reason Rally 2012
https://ladydifadden.wordpress.com/2012/03/28/transcript - of - richard - dawkins - speech - from - reason - rally - 2012/

(2) http://www.telegraph.co.uk/technology/2016/02/01/youtube - is - now - more - popular - than - googlecom - on - desktop - computers/

١) **أفلام وثائقية تدْعو إلى الإلحاد بشكلٍ غير مباشر:** وهي كلُّ فيلم وثائقي يتحدَّث عن الطبيعة وفقَ المذهب الطبيعي المادي والنظريات الإلحادية مثل: نظرية التطوُّر. وهذه الأفلام تبَثُّ في الغالب من قبَل قناتين:

الأولى: قناة ناشيونال جيوغرافيك (National Geographic Channel). هذه القناة كبيرةٌ وواسعة الانتشار. فهي تبَثُّ لـ٤٤٠ مليون بيتٍ في ١٧١ دولة بـ٤٥ لغة (منها اللغة العربية)[١].

الثانية: ديسكفري كوميونيكيشنز (Discovery Communications). هي شركة أمريكية تبثُّ ١٠٠ قناة، منها ثلاثُ قنوات علميَّة؛ وهي: ديسكفري وورلد شانيل (Discovery World Channel) وهي تبثُّ لـ٤٣١ مليون بيتٍ في ١٧٠ دولة بـ٣٣ لغة (منها اللغة العربية). وديسكفري ساينس شانيل (Discovery Science Channel) وهي تبَثُّ لـ٧٥ مليون بيتٍ في الولايات المتَّحدة. أنيمال بلانيت شانيل (Animal Planet Channel) وهي تبثُّ لـ٩٤ مليون بيتٍ في الولايات المتَّحدة[٢].

فكثيرٌ من الأفلام الوثائقية في هذه القنوات تروِّج لنظرية التطوُّر مثلًا باعتبار أنها نظريةٌ علمية ثابتة لا تقبلُ الجدل[٣]. وبعدَ قبول هذه النظرية يفتح الباب أمام الإلحاد على مصراعيه.

---

(١) انظر: / http: / /press.nationalgeographic.com /boilerplates

(٢) انظر: http: / /tvbythenumbers.zap2it.com/reference/list - of - how - many - homes - each - cable - network - is - in - as - of - february - 2015 / 366230/

(٣) ومن الأمثلة على ذلك في قناة ناتشيونال جيوغرافيك:

Human Evolution: History of Humanity Documentary,

الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=hRltNBpLSX4

وفي قناة ديسكوفيري:

Human Evolution: Evidence of our Ancestors,

الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=gl-40H6d3Jl

٢) **الأفلامُ الوثائقية الداعية إلى الإلحاد بشكلٍ مباشر**: هذه الأفلام أقلُّ عددًا من القسم الأوَّل، ولكنَّها أشدُّ خطورة على العقيدة. وريتشارد دوكينز هو أنشط الملاحدة المنتجين لهذه الأفلام الوثائقية؛ فقد أنتجَ وشارك في ١٤ فيلمًا وثائقيًّا من عام ١٩٨٦ إلى ٢٠١٣، وكلُّها تدعو إلى الإلحاد بشكلٍ مباشر أو غير مباشر. ومن أخطر هذه الأفلام: «أصلُ جميع الشرور» (The Root of All Evil) ثمَّ سمّي بوهم الإله (The God Delusion) مطابقًا لاسْم كتابه. وقد حصلَ هذا الفيلم على أكثر من مليونين ونصف مشاهدة في يوتيوب. وتُرجِم إلى اللغة العربية، وحصلَ على أكثر من ٧٠ ألف مشاهدة معَ الأسف. وستيفن هوكينج من المنْتجين للأفلام الوثائقية الإلحادية أيضًا؛ ومن الأمثلة على هذه الأفلام: «هل خلق اللهُ الكون؟» (Did God Create Universe?)، و»الهدف من الحياة» (The Meaning of Life)، وهي أقلُّ انتشارًا من أفلام دوكينز الوثائقية حيث حصل الأوَّل على ٥٩ ألف مشاهدة، والثاني على ٢٤ ألف.

الوسيلةُ الخامسة: الأفلامُ السينمائية:

هناك نوعٌ آخر من الأفلام يستخدمها الملاحدةُ في ترويج الإلحاد - مما قد لا يتنّبه له بعضُ الناس - وهي الأفلام السينمائية. وكثيرٌ من هذه الأفلام تروِّج للإلحاد بشكل غيرِ مباشر. وهذه الأفلامُ خطيرة لأنها تخاطبُ اللاوعي عند الإنسان ويؤثّر فيه من حيث لا يشعر. وقد أحسنَ صاحبُ كتاب: (الميديا والإلحاد السينما واللاوعي الخطاب الشَّعبي للإلحاد) حيث استخرجَ من الأفلام السينمائية كثيرًا من الأمثلة على الدعوة إلى الإلحادِ بشكل غير مباشر. وقسَّم طرقَ التمرير للأفكار الإلحادية إلى ثمانية أقسام؛ وهي:

الأوَّل: استغلالُ ثغرات النفس والعقل والخيال. **الثاني**: الإغراقُ في عرض الشهوات والعُري وتحبيبِ الزنا والخيانة - «وهو بابٌ من أوسع الأبواب المؤدية إلى رفض الأديان

نفسيًّا - على المدى القريب أو البعيد - وبالتالي إنكار الخالق نفسه»[1]. **الثالث**: تصويرُ الوجود والحياة بمظهرِ العدميَّة والعبثية واللاغائية. **الرابع**: المغالاةُ في الخيال العلمي لتهميشِ قدرات الإله الخالق. **الخامس**: استغلالُ لامعقوليات النصرانية والأديان المحرَّفة كذريعةٍ للإلحاد. **السّادس**: تمثيلُ الإله بصورة غير مباشرة لخلع الرؤى الإلحادية عليه. **السّابع**: استغلالُ أكاذيب التطوُّر كبوَّابة للإلحاد. **الثامن**: خلعُ صفة العقل على الذكاء الاصْطناعي[2]. وقال مفسِّرًا للنقطة الأخيرة: «قابلنا بالفعل شبابًا مخْدوعين بمجال (الذَّكاء الاصطناعي) وبما يشيعُه الملحدون والتطوُّريون من أكاذيب عنه مستقبلًا، حيث بعدَ هذه الأكاذيب يعيدون إسقاطَ ذلك المستقبل (الذي لم يقع أصلًا بعد ولن يقع!) على أضعفِ نقاط الإلحاد والتطوُّر لتدعيمها أولًا، وهو: معضلةُ نشأة والوعي وحرية الاختيار»[3].

وبذلك يتبيَّن كثرةُ أساليبِ نشْر الأفكار الإلحادية عبر الأفلام السنيمائية، ودلَّ على أنَّه من أخطر وسائل نشْر الإلحاد نظرًا لمخاطبته اللاوعي، وكثرة إقبالِ الناس على هذه الأفلام.

الوسيلةُ السّادسة: إلقاءُ المحاضرات:

ينشطُ الملاحدةُ الجدد نشاطًا عظيمًا في إلقاء المحاضرات - ولا سيَّما على طلاب الجامعات وطالباتها -. وفرسانُ الإلحاد الأربعة عندهم عددٌ كبير من المحاضرات مصوَّرة في يوتيوب. وتكون موضوعاتُ محاضراتهم في الغالب في مجالات تخصصاتهم وموضوعات كتبهم. ومِن الأمثلة على هذه المحاضرات[4]:

ريتشارد دوكينز: قد ألقَى دوكينز عشرات المحاضرات المصوّرة في يوتيوب عن الإلحاد ونظرية التطوُّر، ومن أشهرها محاضرة «وهم الإله» (God Delusion)

---

(١) الميديا والإلحاد السينما واللاوعي، الخطاب الشعبي للإلحاد (٥٩)، لأحمد حسن، (مركز دلائل، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٥ - ١٢٤).

(٣) المصدر السابق (١١٩ - ١٢٠).

(٤) عدد المشاهدات المذكورة هو إلى ديسمبر عام ٢٠٢٠م.

في كلية راندولف (Randolph College). وقد حصل على أكثر من ١٦٧ ألف مشاهدة في يوتيوب[١].

دانيال دينيت: قد ألقى دينيت العديدَ من المحاضرات المصوّرة في يوتيوب عن نظرية التطوُّر، وحرية الإرادة، ونقدِ الأديان. ومِن هذه المحاضرات محاضراته في جامعة إدينبورغ (University of Edinburg) عن كتابه: فكُّ السحر. وقد حصلت على أكثر من ٨٢ ألف مشاهدة[٢].

كريستوفير هيتشن: اهتمَّ هيتشن بالمناظرات أكثر من المحاضرات. وأكثر محاضراته الموجودة في إنترنت تتعلَّق بالسياسية - وهو تخصُّصه الأساس - وليس بالإلحاد. ومع ذلك فقد ألقى بعضَ المحاضرات عن الإلحاد، منها: محاضرة: «الإله ليس عظيمًا» (God is not Great). وقد حصلت على أكثر من ٣,٨ مليون مشاهدة في يوتيوب[٣].

سام هاريس: لعلَّ هاريس أكثرَ الفرسان الأربعة نشاطًا في إلقاء المحاضرات. وهو يُلقي المحاضرات عن نقدِ الأديان، وحرية الإرادة، والموت، والذكاء الاصطناعي وغيرها من الموضوعات. وأشهرُ هذه المحاضرات هي محاضرته: «حريَّة الإرادة» (Free Will). وقد حصلتْ على أكثر من ١,٤ مليون مشاهدة في يوتيوب[٤].

---

(١) انظر:

https://www.youtube.com/watch?v=5sRBGGzdsl8

(٢) انظر:

https://www.youtube.com/watch?v=5WhQ8bSvcHQ

(٣) انظر:

https://www.youtube.com/watch?v=sD0B-X9LJjs

(٤) انظر:

https://www.youtube.com/watch?v=pCofmZlC72g

الوسيلةُ السّابعة: النشاطُ في وسائل التواصل:

قد انتشرت وسائلُ التواصل انتشارًا عظيمًا في القرن الواحد والعشرين، وأنواعها كثيرة جدًّا. ولهذا ينشط الملاحدةُ خلال هذه الصفحات ما لا ينشطون في غيرها.

هذه الصفحاتُ تتَّفق في كثير من الأمور مثل: إمكانية وضع مقاطع، وصور، وكتابة تعليقات، والحوار بين المشتركين، وإمكانية كتابة هاشتاك. وهي تختلف من جوانب؛ فتويتر يتميَّز بالكلام المختصر حيث لا يمكن أن تتعدَّى التغريدة ٢٨٠ حرفًا. وانستغرام تركِّز على الصور والمقاطع المختصرة نفسها، وأمّا الكلام المكتوب فهو أمر جانبي. وأمّا فيسبوك فهو أكبرُ هذه الصفحات من حيث المتابعين، وتتميَّز بإمكانية كتابة كلام مطوَّل، ووضع مقاطع مرئيَّة مطوّلة، وكذلك البثّ المباشر وغير ذلك.

والملاحدةُ ينشطون خلالَ هذه الصفحات الثلاث نشاطًا كبيرًا جدًّا، ولا يمكن حصرُ هذا النشاط في هذه الأسْطر القصيرة، ولكن يتبيَّن نشاطهم خلال هذه الأمثلة:

نشاطُ الملاحدة في فيسبوك:

للملاحدةِ في فيسبوك مئات الصفحات باللغة الإنجليزية تحمل اسمَ الإلحاد، منها إحدى عشرة صفحة يتعدَّى عددُ المتابعين فيها ١٠٠ ألف شخص[١]. أكبرُ هذه الصفحات صفحة (Atheist Republic) أكثر من ٢،٣ مليون متابع. كما أن هناك صفحاتٍ شخصيةً لرموز الإلحاد مثل: ريتشارد دوكينز، وسام هاريس، ودانيال دينيت.

أمّا الملاحدةُ العرب فيهتمُّون بفتح المجموعات المغلقة في فيسبوك أكثرَ من النشر في الصَّفحات. وفي هذه المجموعات المغلقة ينشرون إلحادَهم ويتناقشون فيما بينهم. وهناك أكثرُ من مائة مجموعةٍ باللغة العربية تنشر الإلحاد. بعضُ هذه المجموعات خاصة ببلدان عربية معيَّنة، وبعضها عامَّة. ويوجد تسعُ مجموعات إلحادية عربيَّة مغلقة بأكثر من ألف مشترك.

---

(١) انظر:

https://www.facebook.com/search/top/?init=quick&q=atheist&tas=0.9368660481446072

نشاطُ الملاحدة في تويتر:

للملاحدةِ صفحاتٌ تحمل اسمَ الإلحاد في تويتر أيضًا، ولكن المتابعين أقلُّ بكثير من فيسبوك. فصفحة: جمهورة الإلحاد (Atheist Republic) لديها ١٣٠ ألف متابع في تويتر، بينما عددُ متابعيها في فيسبوك ٢,٣ مليون كما سبق. ولكنْ لصفحات الملاحدة الشخصية أكثرُ متابعين في تويتر من فيسبوك؛ فبينما عندَ ريتشارد دوكينز أكثر من ٦٦٠ ألف متابع في فيسبوك عنده أكثر من ٢,٩ مليون في تويتر. ولسام هاريس أكثر من ٥٤٠ ألف متابع في فيسبوك، وأكثر من ١,٤ مليون في تويتر.

وطريقةُ الملاحدة في تويتر تختلف نوعًا ما عن طريقتهم في فيسبوك حيث يكتبون تغريداتٍ مختصرة ساخرة من الإيمان بالله أو الدين والمتديِّنين. وحيث تكون التغريدات لا تتعدَّى ٢٨٠ حرفًا، فيصعب الردُّ عليهم بكلام مفصَّل. وبذلك تكون دعوة الملاحدة في تويتر بمثابة بثِّ السُّم مع صعوبة علاجِه للمؤمنين. من الأمثلة على ذلك تغريدة في حساب (Think Atheist) حيث ينقل كلامًا لداعي الإلحاد كريستوفر هيتشن وهو يخاطب أحدَ المتيديِّنين قائلًا: «الدين يجعل الإنسانَ العادي الأخلاقي يفعل أفعالًا دنيئة وسيئة، وأنتَ قد بيِّنت لي ذلك الآن»[1]. هذا كلامٌ مختصر وخطير؛ فقد يبقى في نفوس بعض الناس إذا التقى بشخص متديِّن يتصرَّف بتصرُّفات خاطئة؛ فيلوم الدينَ بسببه. ومَن أرادَ أن يردَّ على هذا الكلام المختصر السيِّئ يحتاج أن يفصِّل كلامًا أطول هذا الكلام المختصر.

نشاطُ الملاحدة في انستغرام:

أكبرُ حساب إلحادي – حسب ما وجدت – هو حساب (Atheist republic)، ولديه أكثرُ من ١٢٥ ألف متابع، وهو عددٌ قليل مقارنة مع الصفحات الإلحادية في فيسبوك. ومعَ ذلك فإنَّ الدعوة إلى الإلحاد ظاهرة قويَّة في انستغرام من قبل الحسابات الفردية. وهُم ينشرون الصورَ الإلحادية والساخرة من الأديان عبر الهاشتاكات؛

---

(١) انظر: https: / /twitter.com/ThinkAtheist/status/834607429291753473

فقد نشر عبرَ هاشتاك (#Atheist) أكثر من ١,٣ مليون صورة. وهذا واحد ضمن هاشتاكات إلحاديةٍ كثيرة. والصورُ التي ينشرها الملاحدةُ قد تؤثِّر كثيرًا في نفس المؤمن فتهتزُّ مشاعرها الإيمانية. وأغلبُ الصور الإلحادية المنشورة في انستغرام هي صور ساخرة من الإله، أو الأنبياء، أو شعيرة من شعائر الدين أو المتديِّنين. وهذا مما يجعل دعوة الملاحدة في انستغرام في غاية الخطورة.

الوسيلةُ الثّامنة: صنعُ اللوحات الدعائية في الشوارع:

«مِن مظاهر الدعوة للإلحاد وتطبيع حضورِه في الواقع، الدعوة للإلحاد عبر اللوحات الدَّعائية في الشوارع، حيث يقوم الملاحدةُ في كثيرٍ من المدن باستئجار اللوحات الدعائية الصغيرة والكبيرة، وكتابة العبارات الدعوية الإلحادية عليها»[1]. فاستغلَّ الملاحدة حريةَ التعبير في الدول الديمقراطية لهذا الغرض. وتقوم المؤسسات الإلحادية بطباعةِ هذه اللوحات الدعائية بالدعوةِ للإلحاد في الولايات المتَّحدة، وينفقون عليها أموالًا ضخمة. وهذه اللوحاتُ الدعائية تتضمَّن في الغالب كلامًا مختصرًا، مع الإحالة إلى موقعِهم لمواصلة القراءة عن الإلحاد. ومن الأمثلة على هذه اللوحات أنهم يكتبون باللُّغتين الإنجليزية والعربية: «الله. تعرفون أنَّها خرافة.. ولكم أيضًا حرية الاختيار»[2]. ولا شكَّ أنَّ هذا الأمر يدلُّ على سفاهةِ ودناءة الملاحدة الجدد، ومع ذلك يخشى أن يتأثَّر له ضعاف النفوس.

الوسيلةُ التّاسعة: إنتاجُ الموسيقى الإلحادية:

الموسيقى من البلاء التي ابتلي بها كثيرٌ من البشر، وهي من أكبر وسائل الشيطان لنشْر الشرِّ والفساد؛ قال الإمام ابنُ القيم (رحمه الله): «والغناء أشدُّ لهوًا، وأعظم ضررًا مِن أحاديث الملوك وأخبارهم، فإنه رقيةُ الزنا، ومنبتُ النفاق، وشرك الشيطان، وخمرة العقل، وصدُّه عنِ القرآن أعظم من صدِّ غيره من الكلام الباطل؛ لشدَّة ميل النفوس إليه،

---

(١) مليشيا الإلحاد (٤٠).

(2) https://www.atheists.org/activism/billboards

ورغبتها فيه»[1]. ولرغبةِ النفوس في الغناء استغلَّها الملاحدة في ترويج أباطيلهم. ولعلَّه لا توجد وسيلةٌ من وسائل نشر الإلحاد أعظم من وسيلة الموسيقى الإلحادية. ومما يدلُّ على ذلك أنَّ الموقع الإلحادي (Common Sense Atheism) نشر أشهر الأغاني الإلحادية العشر، وكلُّها أغنية مشهورة ومتداولة. ومن ضمنِها أغنية: (تخيَّل)، وتعتبر من أشْهر الأغنية في التاريخ[2]. وقد وضعت هذه الأغنية في يوتيوب مرّات عديدة، ويتجاوز عددُ المشاهدين في مقطع واحد ٤٥ مليون[3]. ويقول المغنِّي جون لينون[4] في هذه الأغنية: «تخيَّل أن ليس هناك جنة، من السَّهل لو تجرب، ليس هناك جهنم تحتنا، وفوقنا فقط السماء، تخيَّل أن كلَّ الناس يعيشون من أجل اليوم، تخيّل أن ليس هناك بلدان، ليس من الصعب فعلُ هذا، لا شيء لتقتل أو تموتَ من أجله، ولا دين أيضًا، تخيَّل أنَّ كل الناس يعيشون في سلام، بإمكانك أنْ تقول إني حالم، ولكني لست الوحيدَ آمَل أن تنضمَّ إلينا يومًا، وسيصبح العالم كواحدٍ». فهذه الأغنية فيها كفرٌ صريح وإلحادٌ قبيح، ومع ذلك قد انتشرت في الآفاق.

وقد تبيَّن خلال هذا المبحث أنَّ الملاحدة يستخدمون كلَّ وسيلة ممكنة في نشر إلحادِهم وكفرهم وخبثهم. وهذا مما يستوجبُ على أهل الإيمان التصدِّي لهذه الظاهرة بكلِّ وسيلة مُباحة وممكنة.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١ / ٢٤٠).

(2) http://www.rollingstone.com/music/lists/the-500-greatest-songs-of-all-time-20110407/john-lennon-imagine-20110516

(3) https://www.youtube.com/watch?v=DVg2EJvvlF8

(٤) جون لينون (John Lennon): مغني ومؤلف بريطاني. كان مؤسِّس فرقة البيتلز، وهي من أشهر الفرق الموسيقية الغربية في القرن العشرين. توفي عام ١٩٨٠م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/John - Lennon

المبحثُ السّابع

تاريخُ نقدِ الإلحاد

تاريخُ نقد الإلحاد موضوعٌ واسع ومهمٌّ، وقد مرَّ على مراحل كثيرة ومهمَّة. ولا يمكن فهمُ الرُّدود المعاصرة على الإلحاد - وما يحصل فيها من الخلل أحيانًا - فهمًا دقيقًا إلّا بإعطاء هذا الموضوع حقَّه. وقد تبيَّن فيما مضى أنَّ الإلحاد بمفهومه الفلسفي المعاصر لم يظهرْ إلّا في القرن الثامن عشر في أوروبا. ولهذا كان جلُّ اهتمام المتقدِّمين مُنصبًّا في إقامةِ الأدلة على وجود الخالق، وليس في نقد الإلحاد كمذهب. ومع ذلك فقد وُجد مَن نسب الربوبية إلى أنفسِهم في أزمان متقدِّمة، فتصدَّى لهم بعضُ المرسلين؛ فهذا نوعٌ من أنواع نقد الإلحاد.

وكان فلاسفةُ اليونان والرومان يهتمُّون بإقامة أدلةٍ وبراهين فلسفية على وجود ذكاء وعلى لهذا الكون قبلَ أن يتبلور الفكر الإلحادي. ثمَّ لما ظهرت النصرانية المحرَّفة كان علماءُ اللاهوت عندهم يكتبون أدلةً وبراهين على وجود الله ضمن كتبهم اللاهوتية.

كما أنَّ تاريخَ المسلمين حافلٌ بنقد الإلحاد، والاهتمام بإقامة أدلةٍ على وجود الله من قِبَل طوائف مختلفة.

ولمّا ظهر الإلحادُ في أوروبا وتصدَّى له علماءُ الغرب استفادوا ممن سبقهم، ولكنَّهم طوَّروا هذه الأدلة والبراهينَ بصياغات جديدة، كما أنهم تأثَّروا بما كان عند السابقين من الانحرافاتِ العقدية. ولذلك يحسُن تقسيمُ هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب: تاريخ نقد الإلحاد في العصور المتقدِّمة، وتاريخ نقد الإلحاد عندَ النصارى المتقدِّمين، وتاريخ نقد الإلحاد المعاصر.

المبحثُ السّابع

تاريخُ نقد الإلحاد

وفيه ثلاثةُ مطالب:

المطلبُ الأوَّل: تاريخُ نقدِ الإلحاد في العصور المتقدِّمة.

المطلبُ الثّاني: تاريخُ نقدِ الإلحاد عند النصارى المتقدِّمين.

المطلبُ الثّالث: تاريخُ نقدِ الإلحاد المعاصر.

المطلبُ الأوَّل
تاريخُ نقدِ الإلحاد في القديم

دعوةُ الأنبياء والمرسلين:

كان آدم عليه السلام أوّلَ إنسانٍ على وجه الأرض، وكان مؤمنًا وموحّدًا ونبيًّا. وكانت ذريّته على التوحيد الخالص عشرةَ قرون؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، قال عبدُ الله بن عبّاس (رضي اللهُ عنهما): (كان بين نوح وآدم عشرةُ قرون، كلهم على شريعةٍ من الحق)[1]. وحدثَ أوّلُ انحراف عقدي في البشرية في قوم نوح حين عكفوا على قبور صالحين وعبدوهم؛ فبعث اللهُ رسوله - نوحًا عليه السلام - يدعوهم إلى التوحيد؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾[نوح: ٢٣]، (كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم، فلمّا ماتوا قال أصحابُهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوَّروهم، فلمّا ماتوا، وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنَّما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر؛ فعبدوهم)[2].

وبعدَ هلاك قوم نوح حصلَ ما أخبر اللهُ به: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٢ - ٤٤]. وكان الأنبياء والرسلُ يدعون أقوامَهم إلى توحيد الألوهية كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، ولم يحصلْ من أحدٍ منهم إنكارُ وجود الله أو نسبة الربوبية إلى غير الله.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣/ ٦٢١).

(٢) المصدر السابق (٢٣ / ٣٠٣)، والأثر لمحمد بن قيس (رحمه الله).

إبراهيمُ مع نمرود:

وأوَّلُ مرَّة ذكر الله أنَّ أحدًا نسبَ الربوبية لنفسه كانت في قصة الذي حاجَّ إبراهيم في ربّه حين قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقد ذُكر في كتب التَّفسير أنَّ هذا الملك كان ينسبُ الربوبية لنفسه؛ فقد قال التابعي الجليل زيدُ بن أسلمَ (رحمه الله): (هو نمرود، كان بالموصل والناس يأتونه، فإذا دخلوا عليه، قال: مَن ربكم؟ فيقولون: أنت! فيقول: أميروهم. فلمّا دخل إبراهيم، ومعه بعيرٌ خرج يمتار به لولده، قال: فعرضهم كلهم، فيقول: مَن ربكم؟ فيقولون: أنت! فيقول: أميروهم! حتى عرض إبراهيم مرَّتين، فقال: مَن ربك!؟ قال: ربيَ الذي يحيي ويميت! قال: أنا أحيي وأميت، إنْ شئت قتلتك فأمتُّك، وإن شئت استحييتك...)[1].

ولكنْ خليلُ الله إبراهيم أقام عليه أبلغَ الحجَّة إذ قال: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

موسى مع فرعون:

وقد تبعَ فرعون منهجَ نمرود في طغيانه وجبروته ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٤]. ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾[الزحرف: ٥٤]، وكلُّ ذلك مع أنَّ فرعون وقومه كانوا مقرِّين في قرارة أنفسِهم بأنَّ الله ربَّهم وخالقهم كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]. ولكنّ الله أرسلَ رسوله موسى عليه السلام وقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[الأعراف: ١٠٤ - ١٠٥]، فأقام موسى الحجة عليهم وألقى العصا ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٥٧٣).

مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٤]. إلى أنْ خرج موسى بقومه من أرض مصر، وقال اللهُ: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. فاعترف فرعون بما أضمر في نفسِه في آخر لحظات حياته بعد أن أقام موسى عليه السلام عليه الحجة البالغة؛ ولكنّ ذلك الاعتراف لم ينفعْه. فكان إبراهيم وموسى أوَّل مَن أقام الأدلة والبراهين على مَن نسب الربوبية إلى غير الله تعالى.

نقدُ الإلحاد في العصر اليوناني:

قدْ سبق البيان المفصَّل عن الإلحاد في العصر اليوناني، وتبيَّن خلالَ ذلك المطلب أن اليونانيّين وقعوا في أنواعٍ من الإلحاد بالمفهوم العام، ولكنَّه لا يُعرف عن أحد من فلاسفتهم أنَّه كان ملحدًا بالمفهوم الخاص. وظهرَ في العصر اليوناني أوَّلُ محاولاتٍ لإقامة أدلةٍ وبراهين فلسفية على وجود علَّة ومصمِّم لهذا الكون. وكان أشهرُ الحجج التي أوردَها فلاسفة اليونان: الحجة الغائية، المحرِّك غير المتحرِّك؛ وبيانُ ذلك كما يلي:

الحجَّة الغائية (Teleological argument):

هذه الحجةُ تعتمد على أنَّ النظام في الطبيعة يدلُّ على وجود غاية وتصميم، ووجود غايةٍ وتصميم يدلُّ على وجود مصمِّم(١). وكان الفلاسفة اليونانيون يهتمون بهذه الحجَّة غاية الاهتمام، وارتبطتْ هذه الحجة كثيرًا بفلسفتهم وأبحاثهم العلمية. ظهرت هذه الحجةُ في وقت مبكِّر في العصر اليوناني، حيث نسبَها أرسطو إلى الفيلسوف هيروموتيموس(٢) الذي عاشَ في القرن السادس قبلَ الميلاد، ثمَّ ذكره

---

(١) انظر:

https://en.oxforddictionaries.com/definition/teleological_argument

(٢) هيروموتيموس Hermotimus: فيلسوف يوناني عاش في القرن السادس قبل الميلادي، وقيل إنَّه أوَّل فيلسوفٍ يوناني اقترح استخدم الحجة الغائية. والمعلومات عن حياته شحيحة. انظر: https://peoplepill.com/people/hermotimus-of-clazomenae/

الفيلسوف أناكساغوراس[1]، ولكن أوَّل مَن اشتهر به هو الفيلسوف سقراط[2]. وكان سقراط يأخذ تلاميذَه إلى السوق، ويسألهم ما هي الأشياءُ التي تبدو مصمَّمة وما التي تبدو عشوائية، ثمَّ يقيس هذا على الطبيعة، وأنه لا يمكن أنها نتيجةٌ لعشوائية عمياء[3].

وكان الفيلسوف أرسطو يستخدمُ هذا الدليل كثيرًا في الردِّ على الماديين، ويبيِّن أن الطبيعةَ لا يمكن أن تفسِّر نفسَها بنفسها. وكان يهتمُّ بهذه الحجة في علم الأحياء بالذات، ودراسة الغائية في الكائنات الحية؛ فذكر أمثلةً كثيرة على الغائية الملاحظة في الحيوانات في كتابه: «تاريخ الحيوانات» (Τῶν περὶ τὰ ζῷα ἱστοριῶν)[4].

المحرِّكُ الذي لا يتحرَّك:

كان أفلاطون أوّلَ مَن ذكر هذه الحجة في كتابه: «القوانين» (Νόμοι)[5]، حيث ذكرَ أنَّ الكون بأكمله في حركة متنقِّلة، وهذه الحركةُ بحاجة إلى محرِّك يحرِّكُها ويحافظ على حركتها، وكان يسمِّيه: المحرِّك الأوَّل[6].

---

(١) انظر: Metaphysics I.4.984b
http://www.perseus.tufts.edu/hopper/text?doc=Aristot.+Met.+1.984b

(٢) انظر: A Companion to Socrates (45),by: Ahbel - Rappe, S. and Kamtekar, R, (John Wiley & Sons, 2009)

(3) (273-275), McPherran, Mark, (The Pennsylvania State University Press, 1996) The Religion of Socrates

(4) http://classics.mit.edu/Aristotle/history_anim.1.i.html#223

(٥) انظر: The Laws (X)
http://classics.mit.edu/Plato/laws.10.x.html

(٦) انظر: The Cosmological Argument from Plato to Leibniz (1), by: William Lane Craig, (Wipf & Stock Pub, 2001)

وأفاضَ تلميذه أرسطو الكلامَ على هذه الحجة، ودلَّل عليها في كتابه: «السماع الطبيعي» (Φυσικὴ ἀκρόασις)[1] وكتابه: «ما وراء الطبيعة» (τὰ μετὰ τὰ φυσικά)[2]. وكان يسمِّي هذا السبب والمحرِّك الأوّل بالمغيِّر الذي لا يتغيَّر؛ فكان يرى أنَّ هذا المحرّك هو كائنٌ سرمدي، لا يتغيّر، والمسئول الأساس للكمال والنِّظام في العالم المشاهد[3].

ولكنَّ مفهوم أرسطو للإله - الذي ذكرَه في هذا الكتاب - يختلف كثيرًا عن مفهوم الخالق الذي يؤمنُ به أتباعُ الأديان. وخلاصةُ مفهومه للمحرِّك الأوَّل أنه: علةٌ تامَّة قديمة أزليَّة، ومعلولُها معها قديم؛ يعني أنَّ العالم معه أزلي. وكان يصف المحرّك الأوّل بصفتيْن أساسيتين:

«**الصفةُ الأولى**: أنه لا يتحرَّك، فهوَ ثابت، ويحرِّك فقط، ومعنى هذا: أنَّ هذا المحرّك يتحرَّك بذاته، لأنه لو تحرَّك بغيره فمعنى هذا أنه يوجد شيء آخر يحرِّكه؛ فهو لا يمكن أن يكون محرِّكًا بغيره بل محركًا بذاته.

الصفةُ الثّانية: أنه أبديٌّ لا ينقسم، لأنَّه إذا انقسم تعدَّد، ولو تعدَّد لأصبح له أجزاء، وعندها لا نستطيع أن نعرفَ الحركة من أيِّ جزء، وهو لا ينقسم لأنَّه خالٍ من المادة»[4].

ففلاسفةُ اليونان أوَّل مَن تكلَّموا عمّا يشبه الحجة الكونية[5]، ولكن كان اعتقادُهم مبنيًّا على القول بقدم العالم، وأنَّ الإله علةٌ تامَّة قديمة، ومعلولُها قديم. وهذا الاعتقاد أثَّر كثيرًا في الفلاسفة المنتسبين إلى النصرانية والإسلام. كما أنَّ هذه العقيدة أثَّرت في عقيدة

---

(١) انظر: Physics VIII, 4 - 6 , by: Aristotle

http://classics.mit.edu/Aristotle/physics.8.viii.html

(٢) انظر: Metaphysics XII, 1 - 6

http://classics.mit.edu/Aristotle/metaphysics.12.xii.html

(3) Internet Encyclopedia of Philosphy
http://www.iep.utm.edu/aris-met/#H9

(٤) أرسطوطاليس ومعتقداته الفلسفية (٨ – ٩)، لمريم مصطفى علي برناوي. والبحث منشور في: http: / /www.alukah.net /library/ ٠ / ٤٩٩٦٠/

(٥) سيأتي الكلام المفصَّل عن هذه الحجة لاحقًا.

اللاهوتيين من النصارى والمتكلّمين من المسلمين الذين قالوا بحدوثِ العالم معَ التسليم لبعض مقدِّمات الفلاسفة - كما سيأتي بيانه مفصَّلًا -.

نقدُ الإلحاد في العصر الروماني:

كان أغلبُ سكّان الروم وثنيِّين، كما أنهم كانوا متأثِّرين بالفلسفة اليونانية إلى حدٍّ كبير. وكانت أشهرُ الفلسفات في الإمبراطورية الرومانية: الفلسفة الرّواقية والفلسفة الأفلاطونية المحدثة. ولكلٍّ من هاتين الفلسفتين تأثيرٌ كبير على اللاهوتيين النصارى فيما بعْد؛ وبيانُ ذلك كما يلي:

الفلسفةُ الرُّواقية[١]:

كانت الفلسفةُ الرُّواقية من أهمِّ المدارس الفلسفية في الإمبراطورية الرومانية. والفلسفةُ الرُّواقية مذهبٌ فلسفي ظهرَ في اليونان في القرن الثالث قبل الميلاد، ولكنَّ هذا المذهب ازدهرَ في الإمبراطورية الرومانية[٢]. وكان الفيلسوف سيسيرو أحدَ روَّاد هذه المدرسة، وكان يهتمُّ بإقامة الأدلةِ على وجود خالق؛ وقد استدلَّ على ذلك بالحجة الغائية قائلًا: «عندما ترى مزولة[٣] أو ساعة مائية تعرف أنَّها تذكر الوقت بسبب التَّصميم، وليس بسبب الصدفة. فكيف تتخيَّل أنَّ الكون بأكمله خالٍ عن الغائية والذكاء، عندما يشمل كلّ شيء، بما في ذلك هذه المصنوعات وصانعيها»[٤]. والاستدلالُ بهذا المثال انتقلَ إلى النصرانية فيما بعد، وسيأتي تفصيلُ ذلك في الفصل الأوَّل من الباب الثاني - إنْ شاء الله -.

---

(١) الرواقية: مذهبُ أتباع زينون الفيلسوف اليوناني؛ لأنَّه كان يعلِّمهم في رواق، ويُسمَّون أصحاب المظلَّة، وهُم يرون أنَّ السَّعادة في الفضيلة، وأنَّ الحكيم لا يبالي لذة ولا ألمًا. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٢ / ٩٦٢).

(٢) انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1825)

(٣) المزولة هي أداة توقيت نهاري، كانت تستخدَم في تحديد الوقت قديمًا.

(4) De Natura Deorum, ii. 34, M.T.CiceroDe natura Deorum(the nature of the gods),book II,XXIV

الأفلاطونيَّةُ المحدثة[1]:

الأفلاطونيةُ المحدثة من أهمِّ الفلسفات في العصر الروماني. وكان أفلوطين[2] يثبت واجبَ الوجود، مثل: أفلاطون وأرسطو، ولكنَّه لا يصفُه إلّا بالصفات السلبية، وتصدرُ الموجودات من واجبِ الوجود صدورًا ضروريًّا عن طريق الفيض[3] أو الإشعاع النوراني[4]. وغايةُ الفلسفة لديْهم الإرشاد إلى الطريق الذي يصلُ الإنسان إلى إفناء ذاته في هذه الوحدةِ الإلهية، ويكون هذا الإفناءُ بتصفية الروح[5]. فطريقةُ العلم بواجبِ الوجود يحصل عنْ طريق تصفية النفس، لا عنْ طريق إقامة براهين وأدلة علمية وفلسفية.

وهذه الفلسفةُ أثَّرت تأثيرًا عظيمًا في معتقدات بعض المنتسبين إلى النصرانية والإسلام - ولا سيَّما الصوفية -. ومِن ضمن هذا التأثير موقفُهم من أدلة وجود الله - كما سيأتي بيانه مفصَّلًا -.

---

(١) الأفلاطونية المحدثة: نظامٌ فلسفي وديني، نشأت على يدِ أتباع أفلوطين في القرن الثالث. وقد جمعَ بين آراء أفلاطون، وأرسطو، وبيتاغوراس، والفلسفة الرّواقية انظر:
http://www.oxfordreference.com/view/10.1093/oi/authority.20110803100228443

(٢) أفلوطين (Plotinus): فيلسوف يوناني عاش في مصر في القرن الثالث بعد الميلاد. وهو مؤسس الأفلاطونية المحدثة. توفي عام ٢٧٠ م. انظر: https: / /www.britannica. com /biography /Plotinus

(٣) الفيض: مذهبٌ يقول بأنَّ جميع الموجودات التي يتألّف منها العالم تفيض عن مبدأ واحد أو جوهرٍ واحد من دونِ أن يكون في فِعْل هذا المبدأ أو الجوهر تراخٍ أو انقطاع. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ١٧٦٠).

(٤) انظر: موسوعة الفلسفة (١ / ١٩٩)، للدكتور عبد الرحمن بدوي، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٨٤م).

(٥) انظر: المصدر السابق (١ / ١٩٦).

المطلبُ الثّاني

تاريخُ نقدِ الإلحاد عندَ النّصارى المتقدّمين

ظهورُ النّصرانية المحرَّفة:

قدِ اصطفى اللهُ بني إسرائيل على العالمين في فترةٍ من الزمن كما قال اللهُ تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة: ٤٧]. وكان من ضمن هذا التّفضيل أن الله خصَّهم بإرسال الأنبياء والرسل، وكان عيسى - عليه السلام - آخرَ الرسل من بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصفّ: ٦]. وبعدما رُفع عيسى إلى السماء حرَّف بعضُ المنتسبين إلى دينه - وعلى رأسهم بولس - دينَه، وتطوَّر هذا الدين المحرَّف إلى أنْ صارت النصرانية المعروفة اليوم. وقد تضمَّن كتابهم المقدَّس جزئين: العهد القديم والعهد الجديد. وكلا العهدين لا يتحدَّث كثيرًا عن أدلة وجود الله، بل كتاب النصارى المقدَّس يتحدَّث عن وجود الإله بديهة؛ فأوَّل آية في العهد القديم:)في البدء خلق الله السماوات والأرض)[1]. وكان الناسُ في زمن تدوينِ العهد القديم إمّا موحِّد وإمّا مُشرك. بينما يوجد تركيزٌ كبير على توحيدِ الألوهية - ولا سيَّما في العهد القديم، بل أوَّل وصايا بني إسرائيل: (أنا الرب إلهك الذي أخرجَك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكنْ لك آلهة أخرى أمامي)[2]. ولا تكادُ توجد أيُّ إشارة إلى ملاحدةٍ في كتابهم المقدَّس سوى النَّزر اليسير مثل الجملة: (يقول الجاهل في قلبه: ليس [هناك] إله)[3].

---

(١) سفر التكوين (١/ ١).

(٢) سفر الخروج (٢٠/ ٢ - ٣).

(٣) المزامير (١٤/ ١).

ونشأتِ النصرانية المحرَّفة في الإمبراطورية الرومانية، وهي بيئة وثنية تسود فيها الفلسفةُ اليونانية والأفلاطونية الحديثة. وقد أثَّرت الوثنية الرومانية والفلسفة الموجودة كثيرًا في تكوينِ عقيدة النصرانية المحرَّفة، كما أنَّ علماء اللاهوت كانوا يرجعون إلى هذه الفلسفات الوثنية لإقامةِ الأدلة على وجود الله - لشبه خلوِّ كتابهم المقدَّس من هذه الأدلة -. وفيما يأتي ذكرُ أهمِّ علماء اللاهوت من النصارى وتأثيرهم في العقائد النَّصرانية عمومًا، وأدلة وجود الله خصوصًا[١]:

القدِّيس أغسطين:

كان القدِّيس أغسطين أهمَّ لاهوتي نصراني في العصور المتقدّمة، وأثّر في التفكير النَّصراني تأثيرًا عظيمًا، وكانت فلسفتُه سائدة في تلك العصور[٢]. وكان أغسطين متأثرًا بالفلسفة الرُّواقية والأفلاطونية المحدثة؛ وظهرَ هذا التأثّر خلال كتاباته[٣]. وكان من آثار تأثُّره بهذه الفلسفات تأويلُه للنصوص الواردة في كتابهم المقدَّس، ومن ذلك أنه كان يؤول قصةَ الخلق؛ فكان يرى أنَّ الله لم يخلق الخلقَ في ستَّة أيام، وإنما خلقها دفعة واحدة. ورأى أنَّ فهمَ قصَّة الخلق حرفيًّا يتنافَى مع العقل، ويؤدِّي إلى السخرية بالخالق[٤].

ويستدلُّ القائلون بالأرض القديمة (Old – Earth Creationists)[٥] في هذا الزمان بآراء أغسطين في تأويل قصَّة الخلق في كتابهم المقدَّس[٦].

---

(١) وقد سبقَ أنَّ قرنَ الإلحاد لم يطلع في هذه العصور المتقدِّمة، ولذلك يكون جلُّ هذا المطلب عن أدلةِ وجود الله عند النصارى المتقدِّمين.

(٢) نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (١١).

(٣) انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /augustine/

(٤) انظر: The Literal Interpretation of Genesis 1:19 - 20، Chapt. 19

(٥) وهُم يستندونَ إلى النظريات العلمية السائدة مثل: نظرية الانفجار العظيم.

(٦) ممَّن استدلَّ بآراء أغسطين في تأويل قصة الخلق: جون لينوكس، وهو من أشهر المنتقدين الغربيين للإلحاد في هذا العصر. انظر:
Seven Days That Divide the World (31 - 32). By: John Lennox, Zondervan (2011)

وكان يرى أنَّ اللغة عاجزةٌ عن التعبير والإيصال، وإنما تصلح لمجرَّد تعبير عن مضْمون النفس[1]. و«لما كانت اللغةُ عاجزة عن إيصال الحقيقة وبالتالي استحالة التعلُّم عنْ طريق التلقين؛ لم يبقَ إذن إلّا أن تنكشف الحقائق في النفس بالتأمُّل والعكوف على الذات؛ وبذلك ينحصر دورُ اللغة في التَّنبيه على الأشياء التي يراها المتأمّل بعين بصيرته، ويدركُها بحدْسِه، ويلمسها بشعوره، ويحياها بنفسه»[2]. وهذا ما كان يسمّيه بالنظرية الإشراقية، وهي طريقُ الوصول إلى العلم بالله والسعادة. ويتمُّ هذا الإشراق عن طريق المعلِّم الداخلي، وهو المسيح الذي هو غيرُ محدود في مكان أو زمان، بل داخل الإنسان نفسِه[3]. فيتبيَّن بذلك أنَّ عقيدة أغسطين تشبه عقائد الصوفية الحلولية[4] وقولهم بالكشف الإلهي[5].

يوحنا النحوي:

وقعَ نقاشٌ حارٌّ بين فلاسفة الأفلاطونية المحدثة وبعض اللاهوتيين من النصارى في قضيةِ قِدم العالم. وكان فلاسفةُ الأفلاطونية المحدثة ينتصرون لآراء أفلاطون وأرسطو. وألَّف الفيلسوف برقلوس[6] كتابه: «عن قدم العالم» (De Aeternitate Mundi) وذكر ثماني عشْرة حجة على قدم العالم[7].

---

(١) نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (٢١).

(٢) المصدر السابق (٣٠).

(٣) المصدر السابق (٣٢ - ٣٤).

(٤) الحلولية: المرادُ بالحلول هو: حلولُ الله في مخلوقاته أو بعض مخلوقاته. ومِن القائلين بحلول الله في بعضِ مخلوقاته: النَّصارى، والنصيرية، وبعض فرق الصوفية. ومن القائلين بحلول الله في جميع الخلق: صوفية الجهمية. انظر: مصطلحات في كتب العقيدة - دراسة وتحليل - (٤٠ - ٤٢).

(٥) الكشف: هو في مصطلح الصوفية: الاطلاعُ على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقيَّة وجودًا وشهودًا. انظر: التعريفات (١٠٣) للجرجاني.

(٦) برقلس (Proclus): فيلسوفٌ يوناني من أتباع الأفلاطونية المحدثة. كان معارضًا للنصرانية، ولكنَّ فلسفته أثَّرت في لاهوتيّين نصارى، كما أنَّها أثَّرت في بعض المتفلسفة المنتسبين إلى الإسلام. توفي عام: ٤٨٥ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Proclus

(7) On the Eternity of the World, introduction by: Lang, Helen (2), University of California Press (2001)

وكان اللاهوتي النصراني يوحنّا النحوي يهتمُّ بفلسفة أرسطو في أوّلِ عُمره ويعلّق على كتبه، ولكنْ تغيَّر موقفه من الفلسفة اليونانية وردَّ على كتاب برقلس بكتاب سمَّاه: «عن قدم العالم ضدَّ برقلس» (On the Eternity of the World Against Proclus)[1]. وقد ذكرَ بعضُ الباحثين أنَّ يوحنا النحوي هو أوَّل مَن دوَّن الحجَّة الكونية على وجود الخالق، ولكنَّها أخذت صيغتها الكاملة على أيدي المتكلِّمين من المسلمين واليهود في العصور الوسطى[2]. وخلاصةُ الحجَّة الكونية تقول: «إنَّ جميعَ الأشياء في الطبيعة بحاجةٍ إلى شيء آخر لوجودها، وإنَّ الكون بأكمله يعتمد بنفسِه على كائنٍ لإيجاده بالاستقلال أو الضرورة»[3]. والحجة الكونية من أشهر الأدلة على وجود الله، ويستدلُّ بها المشتغلون بنقد الإلحاد كثيرًا في هذا الزمان - كما سيأتي بيانه -.

قف أنسلم كانتربري[4]:

كان الأسقف أنسلم كانتربري من المفكِّرين النصارى المشهورين في العصور الوسطى. ويعتبرُ أنسلم أحدَ مؤسسي المدرسية (Scholasticism)[5]، وهي مدرسة فلسفية مزجتْ بين العقائد النصرانية والفلسفة - ولا سيَّما فلسفة أرسطو والأفلاطونية المحدثة - وتقدِّم منهجًا علميًّا لإقامة العقائد النصرانية باستخدام القياس والجدل.

---

(1) https://plato.stanford.edu/entries/philoponus/

(٢) انظر:

Analytic philosophy of religion: its history since 1955 (165), by Stephen Duncan, Humanities EBook (2016)

(3) https://en.oxforddictionaries.com/definition/us/cosmological_argument

(٤) أنسلم كانتربري (Anselm of Canterbury): فيلسوف ولاهوتي نصراني، وُلد في إيطاليا، ثمَّ دخل دير في فرنسا، وتعلَّم اللاهوت النصراني وبرز فيه. أصبح رئيس الأساقفرة في كانتبري في بريطانيا. ويعتبر مؤسّس الطريقة المدرسية النصرانية. توفي عام ١١٠٩ م. انظر: https://www.britannica.com/biography/Saint-Anselm-of-Canterbury

(٥) انظر:

by: Rolf Toman, Tandem Verlag (2007) The Art of Gothic: Architecture, Sculpture, Painting

فهذه الفلسفة أقربُ ما يكون إلى علمِ الكلام عند بعض الطوائف المنتسبة إلى الإسلام[١].

كان أنسلم يريد أن يؤسِّس إيمانه على المعرفة والفهم، وكان شعاره: «الإيمان باحثٌ عن العقل» (Fides quaerens intellectum)[٢]. وقد ألّف عددًا من الكتب المتعلِّقة بهذا، ولكنْ أهمُّها كتابًا: «مونولوجيون» (Monologian)، و«بروسولوجيون» (Prosologion).

وذكرَ في الكتاب الأوَّل دليلًا على وجود الله من التفاضل؛ وخلاصتها: أن الخيرية في الأشياء تتفاضلُ في درجات، وهذه الأشياءُ تكسب خيريتها من غيرها، ولا بدَّ أن تستندَ إلى كائنٍ مُطلق الخير. وهذا الكائن لا بدَّ أن يكون مطلقًا في عظمته، وهذا الكائن هو الله[٣].

وقد أَلَّف كتابَه الثاني على طريقة مناجاةِ الله ومخاطبته، وأوردَ ضمن هذه المناجاة ماباتَ يُعرف بالحجَّة الوجودية على وجود الله (Ontological Evidence). وسيأتي مبحث خاصٌّ عن هذه الحجَّة بعنوان: الحجة الوجودية في الفصل الأوّل من الباب الثاني - إن شاء الله -.

توما الأكويني:

وكان توما أشهرَ لاهوتي نصراني في العصور الوسطى. وكان متأثّرًا إلى حدٍّ كبير بالفلسفة اليونانية، ولا سيَّما فلسفة أرسطو. كما أنه كان متأثِّرًا بشرّاح كتب أرسطو من المنتسبين إلى الإسلام مثل: ابن سينا وابن رشد.

وقد ذكرَ توما الأكويني خمسةَ أدلة على وجود الله في كتابه: «الخلاصة اللاهوتية» (Summa Theologica)؛ وهي كالتالي:

---

(١) انظر: http://www.philosophybasics.com/movements_scholasticism.html

(٢) انظر: / http: / /www.iep.utm.edu /anselm

(٣) انظر: https://plato.stanford.edu/entries/anselm/#ArgMon

- **الدَّليلُ الأوَّل: المحرِّك غيرُ المتحرِّك:**

خلاصةُ هذا الدليل: أننا نشاهدُ في العالم أنَّ الأشياء متحرِّكة. وكلُّ شيء متحرّك فلا بدَّ له من مُحرِّك. وهكذا ننتهي إلى محرِّك غير متحرِّك؛ وهو الله.

- **الدَّليلُ الثّاني: السببَ الأوَّل:**

خلاصةُ هذا الدليل: أنَّ الطبيعة تؤكِّد على وجود علَّة سببية للمعلولات. ويستحيل الرجوعُ إلى ما لا نهاية له من الأسباب؛ فلا بدَّ من التوقُّف عند العلة الأولى؛ وهو الله[١].

والطريقُ الأوَّل والثاني مأخوذان عن أرسطو في كتابيه: السماع الطبيعي، وما وراء الطبيعة كما سبق ذكره.

- **الدَّليلُ الثّالث: واجبُ الوجود وممكنُ الوجود:**

خلاصةُ هذا الدليل: أنَّ في العالم كائناتٍ معرَّضةً للزوال؛ فهي ممكنةُ الوجود لأنها قابلةٌ للزوال. فإذا تسلسلتِ الكائناتُ كلها من ممكناتٍ فقط لاستوجب هذا الأمرُ حدوثَ فراغ، أو عدم لم يكنْ فيه أيُّ موجود. ولهذا فلا بدَّ أن يكون هناك واجبُ الوجود ينتهي إليه ممكناتِ الوجود؛ وواجبُ الوجود هو الله[٢].

وهذا الدليلُ استفاده توما الأكويني من الفيلسوف ابن سينا؛ فقد ذكر ابن سينا هذا الدليلَ في كتابه: النَّجاة؛ حيث قال: «لا شكَّ أنَّ هناك وجودًا، وكل وجود: فإمّا واجبٌ وإمّا مُمكن، فإنْ كان واجبًا فقد صحَّ وجودُ الواجب، وإن كان ممكنًا فإنّا نوضِّح أنَّ الممكن ينتهي وجودُه إلى واجب الوجود»[٣]. والتشابهُ بين الدليلين واضح، وقد سبقَ أنَّ توما الأكويني كان متأثِّرًا بالفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام أمثال ابن سينا.

---

(1) Summa Teologica, Question 2. The Existence of God. Article 3. Whatever God exists?
http://www.newadvent.org/summa/1002.htm#article2

(٢) المصدر السابق.

(٣) النجاة (٢٣٥)، لحسين بن عبد الله بن الحسن، المعروف بابن سينا، (الطبعة الثانية، ١٩٣٨م).

- **الدَّليلُ الرابع: دليلُ التفاضل:**

خلاصةُ هذا الدليل: أنَّ الصفات العامَّة التي تحمل فيها إمكان أن تكون مطلقة، كالخير والجمال، أي: الصفات الروحية الملازمة لكثيرٍ من الكائنات بنسَبٍ متفاوتة تحملُ كلُّها صفةً خاصَّة؛ وهــي أنها تعني غايةً بعيدة تشدُّ بها نحو المطلق. هذه الغاية البعيدة هي غايةُ الغايات لكلِّ الصفات، أي كمالها المطلق. هـذا الكمالُ المطلق يكون علَّة لها. وهذه العلة هي الله[1].

وهذا الدليلُ أخذه توما الأكويني من القدِّيس أنسلم في كتابه: مونوجوجيا، كما سبق بيانه.

- **الدَّليلُ الخامس: قابليةُ الطبيعة للتوجيه:**

خلاصةُ هذا الدَّليل: أننا نشاهد أنَّ الأشياء الفاقدة للعقل مثل الأجسام الطبيعية تهدفُ إلى غايةٍ بدون أن تدركَ هذه الغاية بنفسِها. وهذه الغاية تضيفُ الأفضل للطَّبيعة، فتكون صادرةً عن قصدٍ وليس عن مجرَّد مصادفةٍ عمياء. وكلُّ ما ليس له عقل لا يمكن أن يهدفَ إلى نهايةٍ إلّا بموجِّه ذي عقلٍ وذكاء مثل السهم المرمى نحو الهدف مِن الرامي. ولهذا فلا بدَّ من وجودِ كائنٍ ذكي الذي يصوِّب الأشياء نحو الهدف؛ وهذا الكائنُ هو الله[2].

وهذا الدليلُ مُشابه للحجَّة الغائية، التي نشأت في العصر اليوناني كما سبق بيانه.

فقد جمعَ توما الأكويني أدلةَ مَن سبقه على وجود الله وصاغها بطريقته. وقد اشتهرَ توما الأكويني بهذه الأدلة أكثرَ من غيره، مع أنه لم يأتِ بها من نفسه. وقد سبق

---

(1) Summa Teologica, Question 2. The Existence of God. Article 3. Whatever God exists?

http://www.newadvent.org/summa/1002.htm#article2

(٢) هذه الطرق كلها مذكورة بالتفصيل في:

Summa Teologica, Question 2. The Existence of God. Article 3. Whatever God exists?

http://www.newadvent.org/summa/1002.htm#article2

في المبحثِ عن تاريخ الإلحاد أنَّ توما الأكويني لم يرَ أنَّ هذه الأدلة يقينية، بل هي أشبهُ بالطرق التي يتوصَّل بها الفلاسفةُ إلى معرفة الله. وهذه الأدلةُ بهذه الصياغة هي في الحقيقةِ ضعيفة، وليست موصِّلة لليقين. وقد اهتمَّ فلاسفةُ الشكِّ في القرن التاسع عشر أمثال: إيمانويل كانت وديفيد هيوم في نقدِ هذه الأدلة[1]، فاهتزَّت الأرضية التي قام عليها المؤمنون بالخالق في الدُّول النصرانية، وفُتح البابُ على الملاحدة في القرن التاسع عشَر على مصراعيه. ولكنَّ النصارى المعاصرين قاموا بإعادة صياغة الأدلة على وجودِ الله بطريقةٍ أقوى وأكثر إفادةً لليقين كما سيأتي بيانه.

---

(١) انظر:
http://www.catholicapologetics.info/catholicteaching/philosophy/kant.htm

المطلبُ الثّالث

تاريخُ نقدِ الإلحاد المُعاصر

هذا المبحثُ يتضمَّن نقدَ علماء الغرب للإلحاد في العصور المتأخِّرة، وهذه العصور تشمل: عصري النهضة والتنوير، والقرن التاسع عشر، والقرن العشرين، كما أنه يشملُ هذا القرن. وبيان ذلك كما يأتي:

نقدُ الإلحاد في عصر النهضة والتنوير:

لمّا انتهتِ العصور الوسطى، وبدأ عصرُ النهضة، ثمَّ عصر التنوير؛ ضعفتْ سلطة الكنيسة الكاثوليكية. ويتمثَّل هذا الضعف في التغيُّرات الكبرى التي وقعت في ثلاثة مجالاتٍ رئيسة، وهي: الفلسفة، والعلم التجريبي، والفكر السياسي.

وقد سبقَ في الكلام عن تاريخ الإلحاد أنَّ هذه التغيُّرات كانت من أسباب ظهور الإلحاد. ولكنْ في المقابل، فقد كان روَّاد هذه المجالات الثلاثة من أكبر المنتقدين للإلحاد. وبيانُ ذلك كما يلي:

المجالُ الأوَّل: الفلسفة:

انقسمتِ التَّيارات الفلسفية في عصري النهضة والتنوير إلى قسمين رئيسين: المذهب العقلاني، والمذهب التجريبي.

القسمُ الأوَّل: المذهبُ العقلاني: هذا المذهبُ يتَّخذُ من العقل والاستنباط معيارًا للحقيقة بدلًا من المعايير الحسِّية. وكان رينيه ديكارت مؤسِّس المذهب العقلاني الكلاسيكي وأكبرَ فلاسفته. وكان ديكارت يبني مذهبَه على الشَّك في الحواس والحياة الشُّعورية والعقل. وقد اتَّهمه بعضُ المعاصرين بأنه ملحدٌ بسبب هذه الشكوك[1].

ولكن ديكارت لم يكن ملحدًا، بل انتقدَ الإلحاد في كتابه: التأملات، وكان يرى أنَّه بعدَ هذه الشكوك يصلُ إلى اليقين بوجود الله، والنفس والعالم. كما أنه رأى أنه

---

(١) انظر: False Truths: The Error of Relying on Authority (16), by: Edward C. Mendler

لو لا وجودُ الله فلا يمكن اليقين بأيِّ شيء. فاللهُ هو أصلُ جميع العلوم حيث أنه قد غرسَ هذه المبادئ الفطرية في الإنسان، وتؤسِّس بقية العلوم عليها[1].

وقد انتشرتْ فلسفةُ ديكارت كثيرًا في دول أوروبا القارية مثل: فرنسا، وألمانيا، وهولندا، وإيطاليا، بينما لم تنتشر في بريطانيا[2].

ومِن فلاسفة المذهبِ العقلاني أيضًا: الفيلسوف الألماني غوتفريد ليبنز[3]، ولم يكن ملحِدًا أيضًا، بل كان مِن أكثر المدافعين عن الإيمان في عصر النهضة. وقد اشتهر بأنه أحيا الحجَّة الكونية بصياغتها صياغةً جديدة - كما سيأتي بيانه في الباب الثاني إن شاء الله -، كما أنه ألَّف رسائلَ مشهورة عن مشكلة الشَّر باللغة الفرنسية بعنوان: «رسائل ثيوديسيا عن خيريةِ الإله، وحريَّة الإنسان، وأصل الشر» (Essais de Théodicée sur la bonté de Dieu, la liberté de l'homme et l'origine du mal). فأكبر فلاسفة المذهب العقلاني كانوا مؤمنين بوجود الله، ويردُّون على الإلحاد.

القسمُ الثّاني: المذهبُ التجريبي[4]: بينما يعتمد المذهبُ العقلاني على العقل والمنطق، فإنَّ المذهب التجريبي يعتمدُ على الحواس والخبرة[5]. ورغم شدَّة اعتماد روَّاد هذا المذهب على الحواس لم يكونوا ملاحدة، بل كانوا ينتقدون الإلحادَ بقوَّة.

---

(١) انظر: ديكارت (٥١).

(٢) انظر:

Copleston, Frederick Charles (2003). A History of Philosophy, Volume 4. Continuum International. p. 174.

(٣) غوتفريد ليبنز (Gottfried Leibniz): الفيلسوف، واللاهوتي، وعالم الرياضيات والمنطق الألماني. يعتبر أحدَ أبرز المفكرين الغربيين في عصر التنوير. توفي عام ١٧١٦م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Gottfried – Wilhelm – Leibniz

(٤) المذهب التجريبي: مذهبُ مَن يُقيم المعرفة على ما تدركه الحواسُّ وحدها، وينكر وجود مبادئ فطريَّة في النفس وقوانين صادرة عن العقل، ويقابل المذهب العقلي. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ٣٥٧).

(٥) انظر: The Routledge Companion to Philosophy of Science (129 - 138), by a number of authors, (Routledge 2010)

ومِن هؤلاء المنتقدين: فرانسيس باكون[١] الذي لُقِّب بأبي المذهب التجريبي، وهو الذي وضع أساسَ المنهج العلمي لدراسة العلوم التجريبية، الذي اشتهر بالمنهج الباكوني (Baconian Method)[٢]. وكان باكون مِن أشدِّ المعارضين للإلحاد، وألَّف رسالة في نقد الإلحاد بعنوان: «عن الإلحاد» (On Atheism)، وبيَّن أنَّ الإلحاد جهلٌ مركَّب، هو القائل للمقولة الشهيرة: «في الحقيقة، فإنَّ قليلًا من الفلسفة يقود ذهنَ الإنسان نحو الإلحاد، ولكنَّ التعمُّق في الفلسفة يقود ذهنَ الإنسان نحو الدين»[٣].

ومِن روَّاد المذهب التجريبي أيضًا: جورج بيركلي[٤]، الذي كان أسقفًا في الكنيسة الأنجليكية، ومؤمنًا بالله. وقد خشي أنَّ المذهب التجريبي قد يقود إلى الإلحاد، فألَّف: «رسالة عن مبادئ العلم الإنساني» (A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge)، وردَّ فيه على الإلحاد، وكان مما قاله فيه: «لا يمكن أن يوجد شيء أظهر من وجود الله، لمنْ يستطيع أن يتأمَّل بأدنى أنواع التأمّل»[٥]. فبيركلي رأى أنَّ وجود الله أظهرُ مِن كونه يحتاج إلى الاستدلال.

فتبيَّن أنَّ روَّاد فلسفة المذهب التجريبي كانوا مؤمنين بوجود الله، ومُنتقدين للإلحاد[٦].

---

(١) فرانسيس باكون (Francis Bacon): الفيلسوف والمحامي والسياسي البريطاني. يعتبر أحدَ أبرز المفكِّرين الغربيين الذين وضعوا المنهجَ العلمي المتَّبع في العلوم التجريبية. توفي عام ١٦٢٦م. انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /francis – bacon/

(٢) انظر: https: / /www.britannica.com /science /Baconian – method

(3) The Essays of Lord Bacon (64), (Longman and Green, 1875)

(٤) جورج بيركلي(George Berkeley): الفيلسوف والأسقف والعالم البريطاني. يعتبر أحد أبرز رموز المذهب الحسِّي في الغرب. توفي عام ١٧٥٣م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /George – Berkeley

(5) (Section 149) A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge

(٦) ومن روَّاد المذهب التجريبي أيضًا: جون لوك، وقد أخَّرت الحديث عنه إلى الحديث عن المجال الثاني لأنه كان مؤسِّس المذهب الليبرالي أيضًا.

المجالُ الثّاني: السياسة:

انتشرَ مذهبان مشهوران في السياسية في عصر التنوير، وهما: الليبرالية والمحافظة[١]. وكان الذين أسَّسوا هذين المذهبين ينتقدون الإلحاد والملاحدة. وبيانُ ذلك كما يلي:

المذهبُ الأوَّل: الليبرالية: هذا المذهبُ مبنيٌّ على الحفاظ على حرّية الفرد[٢]. ورغمَ دعوة مؤسِّس هذا المذهب جون لوك[٣] إلى التسامح معَ الآخرين، فإنَّه رأى أنه لا يمكن التسامحُ مع الملاحدة إطلاقًا؛ حيث قال: «الوعودُ والعهود والأيْمان هي ما تربط المجتمعَ الإنساني، لا يمكن أن يقوم بها الملحدُ. إلغاء الإله، حتى ولو كان في الفكر، يحلِّل كلَّ شيء»[٤]. وحثَّ الحكوماتِ على عدم التسامح مع الملاحدة؛ لأنَّ إنكارَ وجود الإله يقوِّض الثوابتَ الاجتماعية، ويؤدِّي إلى فوضى[٥].

المذهبُ الثّاني: المحافظة: الذي وضعَ البذرات الأولى لهذا المذهب: ريتشارد هوكير[٦]، الذي كان من أشهرِ قساوسة بريطانيا من الكنيسة الإنجليكية. وكان هوكير يعارضُ الإلحادَ بشدَّة، ويلقِّب الملاحدة بـ«جماعة ملعونة»[٧].

---

(١) المحافظة: مذهبٌ فكري يقوم على المبدأ السياسي الذي يؤكِّد على قيمة المؤسسات والممارسات التَّقليدية. ظهر هذا المذهب في بريطانيا كردَّة فعل للأفكار الثورية في فرنسا. ويعتبر إيدمنود بورك وريتشارد هوكير من مؤسسي هذا المذهب في نهاية القرن الثامن عشر، وقد انتشر إلى حدٍّ كبير في القرن التاسع عشر والعشرين. انظر: https: / /www.britannica.com /topic /conservatism

(٢) انظر: https: / /www.britannica.com /topic /liberalism

(٣) جون لوك (John Locke): الفيلسوف البريطاني، واحد مؤسسي المذهب التجريبي، إضافةً إلى تأسيسِه لليبرالية. وقد ألَّف عددًا من المؤلفات المؤثرة في الفكر الغربي مثل: مقال خاص بالفهم البشري. توفي عام ١٧٠٤م. انظر: /https: / /plato.stanford.edu /entries /locke

(4) A Letter on Toleration (135), by: John Locke, (Clarendon Press: 1968)

(٥) انظر: God, Locke, and Equality: Christian Foundations in Locke's Political Thought (211), by: Jeremy Waldron, (Cambridge University Press, 2002)

(٦) ريتشارد هوكير (Richard Hooker): الأسقف والفيلسوف البريطاني، واشتهر بدفاعه عن المذهب الأنجليكاني ضدَّ الكاثوليكية. وقد وضع البذرات الأولى للمحافظة. توفي عام ١٦٠٠م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Richard – Hooker

(7) The Works of Mr. Richard Hooker in Eight Books of the Laws of Ecclesiastical Polity (1/68-69), (Printed for W. Clarke, 1821)

ومِن روَّاد هذا المذهب أيضًا: إيدموند بورك(١)، وكان مؤمنًا بوجود الله، ويردُّ على الإلحاد. وكتبَ عن الإنسان أنَّه: «بطبعه حيوانٌ متديِّن. ولذلك يكون الإلحاد ليس ضدَّ تفكيرنا المنطقي فحسب؛ بل ضدَّ غرائزنا أيضًا، ولهذا لا يمكن أن يبقى طويلًا»(٢).

والمحافظةُ من المذاهب السياسية المشهورة التي انتشرت كثيرًا في بريطانيا بعد الثورة الفرنسية كردَّة فعلٍ للأفكار الثورية، ومازالت منتشرةً في الدول الغربية إلى هذا اليوم(٣).

المجالُ الثّالث: العلمُ التجريبي:

كان معظمُ العلماء التجريبيّين في هذه العصور مؤمنين بالله، ويرون أن العلمَ التجريبي هو مِن أعظم دوافع اهتمامِهم بهذا العلم. ومِن الأمثلة على هؤلاء العلماء: غاليليو غاليلي - العالم الفلكي الإيطالي - وإسحاق نيوتن - العالم الفيزيائي البريطاني المشهور، وغيرهما كثير(٤).

وهؤلاء العلماء كانوا روَّادَ العلم التجريبي في تلك الحقبة الزمنية، ولم يكونوا مؤمنين بالله ومُتديِّنين فحسب؛ بل ردُّوا على الإلحاد، واعتبروه مِن أبطل الأباطيل؛ فقال إسحاق نيوتن على سبيل المثال: «حيث أنَّ الإلحاد أخرقُ وبغيضٌ إلى البشرية فلم يكن له أتباعٌ كثر [عبر التاريخ]»(٥).

---

(١) إيدموند بورك (Edmund Burke): رجلُ دولة بريطاني، ومفكِّر سياسي مؤثِّر في تكوين الأفكار السياسية في بريطانيا. وهو أحدُ مؤسِّسي المحافظة بعد الثورة الفرنسية. توفي عام ١٧٩٧م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Edmund - Burke - British - philosopher - and - statesman

(2) Reflections on the French Revolution (152), by: Edmund Burke, (The Harvard Classics. 1909-14)

(٣) انظر: https: / /www.britannica.com /topic /conservatism

(٤) انظر: God's Undertaker (8)

(٥) مقال: A Short Shem of true Religion
http://www.newtonproject.ox.ac.uk/view/texts/normalized/THEM00007

فانتهتْ هذه العصور، وكان كبارُ العلماء والمفكِّرين مؤمنين بوجود الله، ويردُّون على الفكر الإلحادي.

نقدُ الإلحاد في القرن التاسع عشر:

كان القرنُ التاسع عشر قرنَ تنظيرِ الفكر الإلحادي في الدول الغربية على صعيديْن: الفلسفة والعلم التجريبي. فعلى صعيدِ الفلسفة نظَّر كبار فلاسفة الإلحاد كماركس، وفيورباخ، وشوبينهاور، ونيتشي للإلحاد، بينما ظهرتْ نظريةُ التطوُّر في العلم التجريبي. ومعَ ذلك فقد تصدَّى علماءُ الغرب للفكر الإلحادي على هذين الصعيدين في هذا القرن أيضًا. وبيانُ ذلك كما يلي:

الفلسفة:

قدِ اشتهرت بعضُ المذاهب الفكرية الفلسفية بأنها مذاهبُ إلحادية؛ لأنَّ بعض المتأخِّرين من دُعاتها كانوا مَلاحدة. ومِن الأمثلة على ذلك: الوجودية والبراغماتية[1]. وعلى الرغْم من ذلك، فإنَّ روَّاد هذه المذاهب في القرن التاسع عشر كانوا مؤمنين بوجودِ الله ومتديِّنين. وبيانُ ذلك كما يلي:

الأوَّل: البراغماتية: كان شارلز ساندرز بيرس[2] من مؤسِّسي هذا المذهب، وكان متديِّنًا يؤمنُ بوجود الله، ولم يرفع للفكر الإلحادي رأسًا[3].

---

(١) البراغماتية: مذهبٌ فلسفي انتشر كثيرًا في الولايات المتَّحدة في القرن التاسع عشر، وهو مبني على أنَّ نجاح العمل أو الفكرة هو معيار حقيقة. انظر:

https://en.oxforddictionaries.com/definition/pragmatism

An approach that evaluates theories or beliefs in terms of the success of their practical application.

(٢) شارلز ساندرز بيرس (Charles Sanders Peirce): الفيلسوف والعالم الأمريكي، ومؤسس البراغماتية. كان مكثرًا من التأليف حيث بلغت المخطوطات التي كتبها بيده أكثر من ٨٠ ألف صفحة. توفي عام: ١٩١٤م. انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /peirce /

(٣) انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Charles – Sanders – Peirce

الثّانية: الوجودية: قد تقدَّم الحديثُ عن هذا المذهب، وأنه تيارٌ فلسفي ذو توجُّهات متعدِّدة يجمعها التركيزُ على الإنسان، وأنَّه الذي يسيِّر اتِّجاهات نفسه في الحياة. وقد اتَّخذت الوجوديةُ طابعًا إلحاديًّا في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ولهذا اشتهرَ بأنَّه من المذاهب الإلحادية[١]، ولكنَّ مؤسِّسَ هذا التيار في القرن التاسع عشَر هو الفيلسوف الدنماركي سورين كيركينغارد، ولم يكن ملحدًا، بل كان لاهوتيًّا بروتستانتيًّا[٢].

وكان فيودور دوستويفسكي من أعلامِ الوجودية أيضًا في القرن التاسع عشر، وهو مِن أشهر فلاسفة وأدباء روسيا في القرن التاسع عشر، بل انتشرتْ كتبُه في أنحاء العالم حتَّى تُرجمت إلى ١٧٠ لغة[٣]. وكان دوستويفسكي ينتقدُ الإلحاد في رواياته، ويحذِّر من أنَّه يؤدِّي إلى فقدان القيم والأخلاق كما سبق.

فتبيَّن أنَّ مؤسِّسي هذين المذهبين لم يكونوا ملاحدة، بل كانوا مؤمنين بوجود الله ومتدينين.

العلمُ التَّجريبي:

تطوَّر العلم التجريبي تطوُّرًا هائلًا في القرن التاسع عشر بسبب تطورات التكنولوجيا التي تساعد على البحث العلمي. وكان كبارُ علماء العلم الطبيعي مؤمنين بوجود الله ومتديِّنين. وأمّا دعاةُ الإلحاد في ذلك القرن، فكانوا فلاسفةً كما سبقَ التنبيه عليه. ومن الأمثلة على هؤلاء العلماء المتديِّنين: جريجور ميندل، ولويس باستور[٤]، ومايكل فراداي، وغيرهم كثير.

---

(١) انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /existentialism /

(٢) انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Soren – Kierkegaard

(٣) انظر:
https://www.thefamouspeople.com/profiles/fyodor-mikhaylovich-dostoyevsky-1441.php

(٤) لويس باستور (Louis Pasteur): عالم الكيمياء وعلم الأحياء الدقيقة الفرنسي. وقد كانت آثاره العلمية في العلوم والتكنولوجيا والطبّ كبيرةً جدًّا في الغرب. توفي عام ١٨٩٥. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Louis – Pasteur

وفي هذا القرن، ظهرتْ نظرياتٌ علمية جديدة، وارتبطت بعض هذه النظريات بالمذهب المادي ارتباطًا وثيقًا، وعلى رأس تلك النظريات: نظرية التطوُّر. وقد أدرك بعضُ علماء الغرب ارتباطَ هذه النظرية بالمذهب المادي، وأنَّها في الحقيقة نظرية تحاول تفسيرَ الإتقان في المخلوقات الحيَّة ماديًّا، وأنَّه لا داعي لوجود خالق لتفسير هذا الإتقان. وقد عارض العلماءُ التجريبيون الكبار هذه النظرية أوَّلَ ما ظهرت؛ بل عارض بعضُ أقرب الناس إلى داروين نظريتَه، ومن الأمثلة على ذلك: معارضة البروفسور آدم سيدجويك[1] للنظرية؛ فسيدجويك كان أستاذَ داروين في الجيولوجيا عام ١٨٣١م[2]، ثمّ لمّا قدَّم داروين نظريته عارضَه سيدجويك بقوَّة في مسألة الانتخاب الطبيعي. وقد أعطاه داروين كتابه، فكتب له رسالة وقالَ فيها: «قرأت كتابك بتألّم أكثر من سرور. أحترم جدًّا أجزاء منه، وأضحكُ من أجزاء حتَّى تقارب خاصرتي على التقرُّح من الضحك، وأجزاء أخرى أقرؤها بأسًى شديد؛ لأنّي أعتقد أنها زائفة تمامًا، وللأسف عابثة جدًّا... إنَّ كثيرًا من استنتاجاتك الواسعة مبنيَّة على افتراضات مجرَّدة...»[3]. فآدم سيدجويك بروفسور ومتخصِّص، وداروين عالمٌ هاوٍ وتلميذٌ لسيدجويك، ورغم ذلك لم يسمع داروين لانتقادات أستاذه.

وهكذا عارضَ كبارُ العلماء التجريبيين نظريةَ التطوُّر في القرن التاسع عشر، وكان كثيرٌ منهم متديِّنين، ولم يكونوا ملاحدة.

نقدُ الإلحاد في القرن العشرين:

استمرَّ السِّجال بينَ الملاحدة والمتديِّنين في القرن العشرين، وتمكّن التطوّريون من تدريس نظريتِهم في الولايات المتَّحدة بعدَ صدور القرار بمنع تدريسها؛ بل

---

(١) آدم سيدجويك (Adam Sedgwick): بروفسور الجيولوجيا البريطاني، وأوّل من وضع مصطلح الانفجار الكامبري المشهور في هذا العلم. وكان رئيس الجمعية الجيولوجية في بريطانيا. توفي عام ١٨٧٣م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography / Adam – Sedgwick – British – geologist

(٢) انظر: http: / /www.victorianweb.org /science /geology /sedgwick.html

(3) https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP - LETT - 2548.xml

استطاعوا أن يجعلوها عمدةً في علم الأحياء[1]. وتقوَّت شوكةُ الملاحدة عند قيام الدول الشيوعية الملحدة التي نشرتَ الإلحاد بقوَّة السيف - كما سبق ذكره -. ولكنَّ العلماء في الدول الغربية - ولا سيَّما الولايات المتَّحدة وبريطانيا - واصلوا جهودهم في نقد الإلحاد في هذا القرن. وكانت هذه الجهودُ في صعيدين: الأوَّل: العلم التجريبي، والثاني: الفلسفة والأدب والخطابة.

الصَّعيدُ الأوَّل: العلمُ التجريبي:

كانت نظريةُ التطوُّر أهمَّ موضع النقاش بين الملاحدة والمتديّنين في العلم التجريبي. وكانت أقوى معارضة المتديِّنين لهذه النظرية في الولايات المتَّحدة في بداية القرن العشرين. واستطاع المتديِّنون منعَ تدريس هذه النظرية في ثلاثِ ولايات، ونوقش قرارُ منع تدريس النَّظرية في ٣٢ ولاية أخرى. ولكنَّ هؤلاء المتديّنين لم يستطيعوا تقديم نظرية علمية مُتكاملة معارضةً لنظرية التطوُّر، فقبلت النظرية أكثر فأكثر مع مرور الوقت[2].

ولكنْ في الجزء الثاني من القرن العشرين ظهرت نظرية الخلق (Creationism)، ونظرية التَّصميم الذكي (Intelligent Design)[3]. وأشهرُ علماء نظرية الخلق في القرن العشرين[4]:

العالمُ الأوَّل: هنري موريس (Henry Morris): عالم أمريكي، حصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة الهيدروليكية، ثمَّ أصبح رئيس قسم الهندسة المدنية في إحدى الجامعات الأمريكية عام ١٩٥٧م. أصدر كتابه الأوَّل: «طوفان سفر التكوين» (The Genesis Flood) عام ١٩٦١م، عن الأدلة العلمية التي تؤيّد حدوثَ طوفان

---

(١) انظر: http: / /www.counterbalance.org /history/creat1920 – frame.html

(٢) انظر: http: / /www.counterbalance.org /history /creat1920 – frame.html

(٣) سيأتي التفصيلُ عن هذين المذهبين في مبحث: إصلاح العلوم التجريبية، إن شاء الله.

(٤) هؤلاء أشهرُ علمائهم في القرن العشرين، وإلاّ فإنَّه يوجد أكثرُ من مائة جمعية علمية في الولايات المتَّحدة تتبنّى نظريةَ الخلق، وينضمُّ إليها أعدادٌ كبيرة من العلماء كما سيأتي بيانه - إن شاء الله -.

نوح. ثمّ كان مِن ضمن مؤسِّسي جمعية الأبحاث المختصَّة بالخلق عام ١٩٦٣م، وواصل كتاباته في مجالِ نقد الإلحاد، ومحاولة التوفيق بين العلم التجريبي والكتاب المقدَّس؛ فألَّف أكثر من ٦٠ كتابًا في هذا المجال، وتوفّي عام ٢٠٠٦م[١].

العالِمُ الثّاني: جون موريس (John Morris): عالم أمريكي، وابنُ هنري موريس. حصلَ على شهادة الدكتوراه في الهندسة الجيولوجية، ثمّ أصبح بروفسورًا في الجيولوجيا. ألَّف عددًا من الكتب في بيانِ أنَّ الأرض فتية من الناحية العلمية، وليس كما يقوله التطوُّريون إنَّها أكثرُ من أربعة مليار سنة. وهذه النقطة مهمَّة في نقد نظرية التطوُّر، وكوْنه بروفسورًا في الجيولوجيا يساعده في نقد كلام التطوُّريين[٢].

العالِمُ الثّالث: راسل هومفري (Russel Humphrey): عالم أمريكي، حصل على شهادةِ الدكتوراه في الفيزياء عام ١٩٧٦م، ثمَّ تخصَّص في الفيزياء النووية. وألّف العديدَ من الكتب والأبحاث العلمية في البيان أنَّ الكون ليس حوالي ١٣,٧ مليار سنة كما يقولُه القائلون بنظرية الانفجار العظيم، وإنما هو بضعة آلاف سنة كما يدلُّ عليه كتابهم المقدَّس[٣].

العالِمُ الرّابع: دوان كيش (Duane Gish): عالم أمريكي، حصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من جامعة كاليفورنيا عام ١٩٥٣م، وألَّف عشرات الكتب في نقدِ نظرية التطوُّر من داخل التطوُّر. وأصبحت بعضُ هذه الكتب مرجعًا أساسيًّا للخلقيّين بعده، كما أنه شاركَ في عدد من المناظرات المشهورة مع التطوّريين[٤].

---

(١) انظر:
http://www.notablebiographies.com/newsmakers2/2007-Li-Pr/Morris-Henry-M.html

(٢) انظر: http://www.icr.org/john_morris/

(٣) انظر: https://creation.com/d-russell-humphreys-cv

(٤) انظر https://upclosed.com/people/duane-gish/

الصَّعيدُ الثَّاني: الفلسفةُ والأدب والخطابة:

لم يهتم علماءُ الغرب بنقد الإلحاد في القرن العشرين عبر العلم التجريبي فحسب، بل كان من أقوى ردودِهم على الملاحدة ما قرَّروه عبر الكتب الأدبية والفلسفية، وكذلك الخطابة. وبيانُ ذلك كما يلي:

كان مِن أشهر المدافعين عن الإيمان في بداية القرن العشرين هو الأديب البريطاني غلبرت كايث تشيسترتون[١]. وقد ألَّف تشيسترتون حوالي ٨٠ كتابًا، و٤٠٠ قصيدة، و٤٠٠٠ مقالة أدبية. وألَّف عددًا من الكتاب في الدفاع عن الإيمان بالله والنصرانية مثل: «الأرثوذكسية» (Orthodoxy) عام ١٩٠٥م، و»الرجل الأبدي: (The Everlasting Man) عام ١٩٢٥م. وقد أثَّرت كتب تشيسترتون في أكبر أدباء بريطانيا والمدافعين عن الإيمان في القرن العشرين.

وأشهرُ مَن تأثَّر بتشيسترتون هو الأديب سي أس لويس. وكان مؤلِّفًا مشهورًا، حتى ألَّف ٣٢ وبيعَ منها ١٠٠ مليون نسخة، وتُرجم إلى ٣٠ لغة[٢].واستعمل قلمه السيَّال في نقد الإلحاد عبرَ مؤلَّفاته. وكان يركِّز على قضيتين أصبحتا محلَّ جدلٍ كبير في القرن العشرين، وهمَا: مُعضلة الشرِّ وإمكانية حدوث المعجزات؛ فألَّف كتابه: «مشكلة الألم» (The Problem of Pain) عن مُعضلة الشَّر[٣]، وكتابه: «المعجزات» (Miracles)، عن إمكانية حدوث المعجزات[٤]. كما أنَّه ألَّف كتابًا في

---

(١) غلبرت كايث تشيسترتون (Gilbert Keith Chesterton): المؤلف والناقد البريطاني. وقد ألَّف بعضَ أشْهر الروايات في التاريخ البريطاني. تحوَّل من المذهب الأنجليكاني إلى الكاثوليكي، وصنَّف بعضَ الكتب في الدعوة إلى النصرانية. توفي عام: ١٩٣٦م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/G - K - Chesterton

(٢) انظر: https://www.bethinking.org/apologetics/the-relevance-of-cs-lewis

(٣) انظر: http: / /www.cslewis.com /the – problem – of – pain /

(٤) انظر:
http://www.cslewis.com/us/books/paperback/miracles/9780060653019/

الدعوة إلى النصرانية بعنوان: «المسيحية المجرَّدة» (Mere Christianity)، وبيع منها ١١ مليون نسخة. وكان من الأسباب القويَّة في انتعاش النصرانية وتراجع الإلحاد في الغرب[١]. وعملت مجلة «المسيحية اليوم» (Christianity Today) استبيانًا بين المؤسّسات النصرانية عن أكثر الكتب النصرانية تأثيرًا في القرن العشرين، فكان كتاب لويس أوّلَها بلا منازعة[٢]. توفّي لويس عام ١٩٦٣، وترك أثرًا كبيرًا بين المفكِّرين الغربيين في بداية عودتهم للإيمان بوجود الخالق سبحانه[٣].

وبينما اشتهرَ لويس بالتأليف، اشتهر المبشِّر الأمريكي بيلي غراهام[٤] بالخطابة. وبدأ حملاتِه الصليبية - كما كان يسمِّيها - في الثلاثينيّات، وواصلَ هذه الحملات في ١٨٥ دولة، وحضرَ خطاباته الجماهيرية ما يقارب ٢١٠ مليون شخص في تلك الدول، بينما استمعَ لها مئاتُ الملايين الآخرين عبرَ التلفاز والإذاعة، وكان من أكبر أسباب عودةِ الناس إلى النصرانية وتركِ الإلحاد[٥].

وفي السِّتينيات بدأ الاهتمامُ بين الفلاسفة الغربيين تجاه الدين، وازداد في السَّعبينيات ثمّ الثمانينيَّات أكثرَ فأكثر[٦].

وكان أشهرُ الفلاسفة النَّصارى المدافعين عن الإيمان بالله في تلك الحقبة الزمنية: البروفسور ألفن بلانتنغا، والبروفسور ريتشارد سوينبورن، والبروفسور وليام

---

(١) انظر: https: / /www.bethinking.org /apologetics /the – relevance – of – cs – lewis

(٢) انظر: http://www.cslewisinstitute.org/Impact_of_Mere_Christianity

(٣) انظر: https: / /www.britannica.com /biography /C – S – Lewis

(٤) بيلي غراهام (Billy Graham): منصّر أمريكي، عمل في التنصير بإلقاء محاضرات ومشاركة في برامج تلفزيونية وإذاعية لأكثر من ٤٠ سنة. وتوفي عام ٢٠١٨م. انظر:
https://www.biography.com/religious - figure/billy - graham

(٥) انظر:
https://web.archive.org/web/20070131004400/http://www.billygraham.org/mediaRelations/bios.asp?p=1

(٦) انظر: https: / /www.bethinking.org /god /the – resurrection – of – theism

لاين كرايغ، ولا يزالُ هؤلاء الفلاسفة نشيطين في نقدِ الإلحاد إلى هذا العصر، وبيانُ ذلك كما يلي:

البروفسور الأوَّل: ألفن بلانتنغا (Alvin Plantinga). بدأ بلانتنغا بدراسة الفلسفة في جامعةِ هارفارد المرموقة، ثمَّ انتقلَ إلى جامعة يايل المرموقة وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٥٨م. ثمّ أصبحَ بروفسورًا في الفلسفة بعد ذلك. وكان له اهتمام كبيرٌ بلفلسفة الدين، وألَّف كتابَه المشهور: «الإله وأذهان أخرى» (God and other minds) عام ١٩٦٧ م وذكر الأدلةَ العقلية على وجود الله، وردَّ على شبهات الملاحدة. وقد وُصِف هذا الكتاب بأنه أحدُ أهمِّ المؤلفات في الفلسفة اللاهوتية في القرن العشرين[١]. ثمَّ ألَّف عشراتِ الكتب الأخرى في بيان أدلة وجود الله ونقد الشبهات الإلحادية. ومازال نشيطًا في هذا المجال في هذا العصر، حيث ألَّف كتابه المشهور: «أين يقع الصراعُ الحقيقي، العلم التجريبي، الدين والمذهب الطبيعي» (Where the Conflict Really Lies: Science, Religion and Naturalism) عام ٢٠١١م[٢].

البروفسور الثّاني: وريتشارد سوينبورن (Richard Swinburne). بدأ سوينبورن بدراسةِ الفلسفة في جامعة أكسفورد عام ١٩٥٤م، واصلَ الدراسة إلى أن حصل على شهادةِ الدكتوراه. واتَّجه نحوَ دراسة فلسفة العلم التجريبي، وتخصَّص فيها، وألَّف فيها بعضَ الكتب. وأصبح بروفسورًا في الجامعات البريطانية مثل: جامعة أكسفورد المرموقة، وغيرها من الجامعات. وألَّف ثلاثة كتبٍ متتالية عن وجود الله ونقد الإلحاد، وهي: «تماسك اللاهوت» (The Coherence of Theism) عام ١٩٧٧م، و«وجود الله» (The Existence of God) عام ١٩٧٩م، و«الإيمان والمنطق» (Faith and Reason)

---

(١) انظر: The Journal of Philosophy, Vol. 67, No. 2 (Jan. 29، 1970)، pp 39 - 45

(٢) انظر: http://theor.jinr.ru/~kuzemsky/plantingabio.html

عام ١٩٨١م[١]. ووصفتْ هذه الكتب الثلاثة بأنّها من أهمِّ الكتب في الدفاع عن الإيمان في الأزمان المتأخرة[٢].

البروفسور الثّالث: وليام لاين كرايغ (William Lane Craig). بدأ كرايغ مسيرته الأكاديميةَ بدراسة علم اللاهوت، وحصل فيه على شهادة باكلوريوس، والماجستير والدكتوراه من جامعات مختلفة، ثمّ حصلَ على شهادة الدكتوراه في الفلسفة أيضًا من جامعة برمنغهام في بريطانيا، إلى أن أصبح بروفسورًا في الفلسفة. وألَّف كتابه الأوَّل: «الحجَّة الكونية الكلامية» (The Kalam Cosmological Argument) عام ١٩٧٩م، ثمّ واصلَ الكتابة إلى يومنا هذا بكتابة نحو ثلاثين كتابًا في الدفاع عن الإيمان ونقد الإلحاد، كما أنه ناظرَ رؤوسَ الإلحاد[٣]. ويشتهر كرايغ بقوّة الحجّة في مؤلّفاته ومناظراته، وإن كان يغلبُ عليه العمق الفلسفي غير المحمود في بعض الأحيان، وسيأتي التنبيهُ على ذلك في الرسالة - إنْ شاء الله -.

نقدُ الإلحاد في القرن الواحد والعشرين:

انطلقتْ شرارةُ حركة الإلحاد الجديد في بداية القرن الواحد والعشرين بعد الأحداث الإرهابية ٢٠٠١ في الولايات المتَّحدة. ولكن كما تحمَّس الملاحدة الجدد في نشر الإلحاد، فإنَّ علماء الغرب ازداد نشاطهم في نقده أيضًا. فإن كانت المؤلَّفات في نقد الإلحاد كثيرةً في القرن العشرين؛ فإنها تضاعفت في القرن الواحد والعشرين.

---

(١) انظر: /http://users.ox.ac.uk/~orie0087

(٢) انظر:
William Hasker, "Is Christianity Probable? Swinburne's Apologetic Programme," Religious Studies 38 (2002), 253

(٣) انظر: /http: / /www.famousphilosophers.org /william – lane – craig

وقد تنوَّعت اهتماماتُ علماء الغرب في نقد الإلحاد تنوّعًا كبيرًا حسب مجالات اختصاصِهم. وهذه قائمة على أبرز المهتمّين بنقد الإلحاد في القرن العشرين غير الذين سبقَ ذكرهم، حسب تخصّصاتهم(١):

نقدُ خطاب الإلحاد الجديد:

الإلحادُ الجديد لديه جاذبيةٌ أقوى من خطاب الإلحاد القديم، حيث أنه يخاطب عامَّة الناس، وهو أكثرُ جرأة في نقد الدين. ومع ذلك فإن هذا الخطاب مليء بالمغالطات المنطقية والتناقضات، كما أنه يتَّسم بالسطحية والضعف. ولخطورة هذا الخطاب – معَ ضعفه – فإنَّ بعض علماء الغرب اهتمُّوا بنقده وبيان عواره. ومن أبرز هؤلاء العلماء:

العالمُ الأوَّل: ألستر ماكغراث (Alister McGrath): عالم بريطاني، درس علم الأحياء في جامعة أكسفورد حتَّى حاز على شهادة الدكتوراه، ثمّ تخصّص في دراسة علمِ اللاهوت حتَّى حاز على شهادة الدكتوراه في علم تاريخ اللاهوت، ثمّ درَّس في العديد من الجامعات البريطانية، إلى أنْ صار بروفسورًا في التوافق بين العلم التجريبي والدين في جامعة أكسفورد(٢). ويهتمُّ كثيرًا بنقد خطاب الإلحاد الجديد، وألَّف كثيرًا من الكتب في هذا المجال، وشارك في عددٍ من المناظرات مع كبار الملاحدة.

العالمُ الثّاني: سكوت هون (Scott Hahn): لاهوتي كاثوليكي أمريكي. حصل على شهادةِ الباكالوريوس في ثلاث مواد: علم اللاهوت، والفلسفة والاقتصاد، ثمّ حصلَ على الماجستير والدكتوراه في علم اللاهوت. وقد ألَّف بعض الكتب عن الإيمان، ونقدِ خطاب الإلحاد الجديد(٣).

---

(١) وسيأتي فصلٌ خاصٌّ عن وسائل علماءِ الغرب في نقد الإلحاد، مثل: تأليف الكتب، وعقد المناظرات، والبرامج المرئية.

(٢) انظر: http: / /alistermcgrath.weebly.com /biography.html

(٣) انظر: http: / /www.scotthahn.com /about – dr – hahn/

العالمُ الثّالث: بنيامين ويكر (Benjamin Wiker): لاهوتي كاثوليكي أمريكي، حصلَ على شهادة الباكالوريوس في فلسفة السياسة، ثمَّ الماجستير في الدراسات الدينية، ثمَّ الدكتوراه في الآداب اللاهوتية. ويعمل ويكر حاليًا كبروفسور في علم السياسة في جامعة فرانسيسكان[١]. وقد ألَّف مع الدكتور سكوت هون كتاب: الردُّ على الإلحاد الجديد، وهو مِن أفضل الكتب في نقدِ أطروحات ريتشارد دوكينز الإلحادية.

النَّقدُ الفلسفي للإلحاد:

الفيلسوفُ الأوَّل: جي بي مورلاند (J.P. Moreland): فيلسوف ولاهوتي أمريكي. حصلَ على شهادة الباكالوريوس في الكيمياء، وشهادتين في الماجستير، إحداهما في علم اللاهوت والثانية في الفلسفة. ثمَّ حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة. وهو نشيطٌ في نقد الإلحاد من الناحية الفلسفية، فقد ألقى محاضرات، وشارك في مناظرات في ١٧٥ جامعة في الولايات المتَّحدة، كما أنه ألَّف العديد من الكتب الفلسفية النقدية للمذهب المادي والإلحاد[٢].

الفيلسوفُ الثّاني: بول كوبان (Paul Copan): فيلسوف ولاهوتي أمريكي. حصل على شهادة الباكالوريوس في دراساتِ الكتاب المقدَّس، وشهادتين في الماجسيتر، إحداهما في فلسفة الدين، والثانية في علم اللاهوت. ثمّ حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة. يعمل كوبان حاليًا كأستاذٍ زائر في جامعة أكسفورد، وقد ألّف وشارك في تأليفِ أكثر من ثلاثين كتابًا، وكثيرٌ منها في نقدِ أطروحات الملاحدة فلسفيًّا[٣].

الفيلسوفُ الثّالث: شاد ميستر (Chad Meister): فيلسوف ولاهوتي أمريكي. حصلَ على شهادة الماجستير في فلسفة الدين، ثمّ شهادة الدكتوراه في الفلسفة. يعمل حاليًا كأستاذٍ زائر في جامعة أكسفورد المرموقة. وقد ألَّف وشارك في تأليف

---

(١) انظر: http: / /www.benjaminwiker.com /benjamin – wiker.html

(٢) انظر: / http: / /www.jpmoreland.com /about /bio

(٣) انظر:

https://www.pba.edu/index.cfm?fuseaction=faculty.detail&contactID=795

العديد من الكتب، وتخصَّص في نقد معضلة الشَّر[١]، ويعتبر المرجعَ الأساس في نقد هذه الشبهة في الغرب في هذا الزمان.

توافقُ العلم التجريبي والدين:

مِن أعظم شُبهات الملاحدة الجدد التي يردِّدونها في كلِّ وقت وحين أنَّ الدين يعارضُ العلمَ التجريبي. وقد بنوا هذه الشُّبهة على عددٍ من المغالطات وتحريف التاريخ. وحيث إنَّ هذا العصر هو عصرُ العلم التجريبي ويتبوَّأ مكانة مرموقة لدى عامة الناس؛ تصدّى بعضُ علماء الغرب لهذه الشبهة، وكشفوا مغالطاتِ الملاحدة وتحريفهم للتاريخ، ومِن أبرز هؤلاء:

العالمُ الأوَّل: جون لينوكس (John Lennox): عالم من شمال إيرلندا، حصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في الرياضيات من جامعة كامبردج المرموقة، ثمّ حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أكسفورد المرموقة أيضًا، إضافة إلى شهادة الماجستير في أخلاقيَّة علم الأحياء (Bioethics) من جامعة سرّي. وهو بروفسور متقاعد في الرياضيات مِن جامعة أكسفورد. وقد ألَّف العديد من الكتب في نقد الإلحاد، وبيان التوافق بين العلم التجريبي والدين، كما أنه ناظرَ كبارَ الملاحدة في هذا الموضوع[٢].

العالمُ الثّاني: وليام ديمبسكي (William Dembsky): عالم أمريكي، حصل على شهادةِ الباكالوريوس في علم النفس أوّلًا، ثمّ تخصَّص في الرياضيات والفلسفة، وحصل على شهادة الدكتوراه في هذيْن العلمين، إضافةً إلى دراسته علم اللاهوت في الدراسات العليا. وهو من روَّاد نظرية التصميم الذكي، وقد ألَّف عددًا من الكتب المفيدة عن هذه النظرية، كما أنَّه بيَّن التوافق بين العلم التجريبي والدين[٣].

---

(١) انظر:
http://chadmeister.org/wp - content/uploads/2017/09/Chad - Meister - CV.pdf

(٢) انظر: http: / /www.johnlennox.org /about /

(٣) انظر: https: / /www.imdb.com /name/nm1745037 /bio

العالمُ الثّالث: ستيفن ماير (Stephen Myer): عالم أمريكي، درس الجيوفيزياء، ثمّ تخصَّص في تاريخ العلم التجريبي وفلسفته، وحصل على شهادة الدكتوراه في هذا العلم من جامعة كامبردج. وهو من روّاد نظرية التصميم الذكي، وصنَّف بعض المصنّفات في هذه النظرية. ويساعدُه في ذلك تخصُّصه في تاريخ العلم التجريبي وفلسفته، حيث أنه يُعطيه تصوّرًا عامًّا على نقاط القوّة والضعف في النظريات العلمية المعاصرة[١].

علمُ الكون والفيزياء الفلكية:

توجَد أدلةٌ كثيرة وبراهينُ واضحة على وجود الخالق في علم الكون والفيزياء الفلكية. كما أنَّ الملاحدة يوردون بعضَ الشُّبهات العلمية الإلحادية في هذا الباب. وأبرز العلماء المهتمين بهذه القضية:

العالمُ الأوَّل: جاسون ليزلي (Jason Lisle): عالم أمريكي، حصل على شهادة الباكالوريوس في الفيزياء وعلم الفلك، ثمَّ تخصَّص في الفيزياء الفلكية بعد ذلك وحصل على شهادة الماجستير والدكتوراه في هذا العلم من جامعة كولورادو. ويهتمُّ ليزلي بإبراز الأدلة الكونية على وجود الخالق، ويردُّ على نظرية الانفجار العظيم بتفسيره الإلحادي، وصنَّف فيه مصنَّفات ومقالات. كما أنه ألَّف بعضَ الكتب في بيان المغالطات المنطقية عند الملاحدة بطريقة مبسَّطة وجيِّدة[٢].

العالمُ الثّاني: هيو روس (Hugh Ross): عالم كندي، حصل على شهادة الباكالوريوس في الفيزياء، ثمَّ حصل على شهادة الدكتوراه في علم الفلك من جامعة تورونتو المرموقة. ويهتمُّ كثيرًا بإبراز الأدلةِ على وجود الخالق خلال علم الفلك، وألقى محاضراتٍ في أكثر من ٣٠٠ جامعة في العالم. كما أنه ألَّف عددًا كبيرًا من الكتب في بيانِ أدلة وجود الله من علم الفلك[٣].

---

(١) انظر: http: / /www.stephencmeyer.org /biography.php

(٢) انظر: http: / /www.jasonlisle.com /about - lisle/

(٣) انظر: http: / /www.reasons.org /about /hugh - ross

علمُ الأحياء:

علمُ الأحياء مليء بأدلةٍ علمية مؤيِّدة لدليل الإتقان في المخلوقات الحيّة. كما أن الملاحدةَ التطوّريين أوردوا شبهاتٍ كثيرةً مؤيِّدة لنظرية التطوّر. ولهذا اهتمَّ علماء الغرب كثيرًا بهذا العلم، وبيَّنوا الأدلة العلمية على وجود الخالق، ردّوا على شبهات الملاحدة التطوُّريين. ومِن أبرز هؤلاء العلماء:

العالمُ الأوَّل: مايكل بيهي (Michael Behe): عالم أمريكي، حصل على شهادة الدكتوراه في علم الأحياء الجزيئي، ويعمل حاليًا بروفسورًا في جامعة ليغ. وقد ألَّف بعضَ الكتب المفيدة في نقدِ نظرية التطوّر من وجهة نظر علم الأحياء الجزيئي. وهو مؤيِّد لنظرية التصميم الذكي[١].

العالمُ الثّاني: جونثان ويلز (Jonathan Wells): عالم أمريكي، حصل على شهادة الدكتوراه مرَّتين: مرَّة في علم الأحياء الجزيئي من جامعة كاليفورنيا، ومرّة أخرى في الدراسات الدينية من جامعة يايل المرموقة. وهو مِن روَّاد نظرية التصميم الذكي، وصنَّف العديدَ من المصنَّفات المشهورة في نقد نظرية التطوُّر بطريقة علمية[٢].

العالمُ الثّالث: جونثان سارفاتي (Jonathan Sarfati): عالم نيوزيلندي. حصل على شهادةِ البكالوريوس ثمَّ شهادة الدكتوراه في الكيمياء. وكتبَ عددًا من الأبحاث العلمية المشْهورة، منها مشاركتُه في كتابة بحثٍ علمي محكَّم في مجلة نيتشر المرموقة. ثمّ بدأ يفرِّغ وقتَه لنقد نظرية التطوُّر، وألَّف عددًا من الكتب المهمَّة في نقد هذه النظرية. وهو يتبنّى نظريةَ الخلق[٣].

---

(١) انظر:
https://www.encyclopedia.com/arts/educational- magazines/behe - michael - j - 1952

(٢) انظر: /http: / /www.jonathanwells.org

(٣) انظر: https: / /creation.com /dr – jonathan – d – sarfati

العالمُ الرّابع: مايكل دينتون (Michael Denton): عالم بريطاني وأسترالي. حصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من الكلية الملكية في بريطانيا. وقد نشرَ أبحاثًا علمية في بعض أشهر الدوريات والمجلات العلمية. وقد صنَّف عددًا من الكتب المهمَّة في نقد نظرية التطوُّر، مثل: التطوُّر - نظرية في أزمة (Evolution: A Theory in Crisis). وقد أثَّر هذا الكتابُ في عددٍ من رموز التصميم الذكي للتخلّي عن نظرية التطوُّر[1].

فهؤلاء مِن أشهر علماء الغرب المهتمِّين بنقد الإلحاد من جوانب متعدّدة. وإن كان عددُ المشتغلين بهذا الباب من علماء الغرب أكبرَ من ذلك بكثير.

خلاصةُ المبحث:

يتبيَّن في هذا المبحث أنَّه كما أنَّ الإلحاد انتشر كثيرًا في الدول الغربية، فإن علماء الغرب ردُّوا على الإلحاد. وكان أكبرُ العلماء في تلك العصور متديِّنين وينتقدون الإلحاد.

---

(١) انظر: https: / /www.discovery.org /p /denton /

البابُ الأوَّل

ردودُ علماءِ الغرب على أسسِ الإلحاد، وأساليبهم ووسائلهم

وفيه ثلاثةُ فصول:

الفصلُ الأوَّل: ردودُهم على أسسِ الإلحاد المُعاصر.

الفصلُ الثّاني: أساليبُهم في الرُّدودِ على الملاحدة.

الفصلُ الثّالث: وسائلهم في الرُّدودِ على الإلحاد.

الفصلُ الأوَّل

ردودُهـــم
على أسسِ الإلحاد المُعاصر

وفيه ستَّةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: المذهبُ المادي.

المبحثُ الثّاني: تعظيمُ العلم التجريبي.

المبحثُ الثّالث: تعظيمُ العقل.

المبحثُ الرّابع: الشكُّ ونسبيةُ الحقائق.

المبحثُ الخامس: تعظيمُ الصدفة.

المبحثُ السّادس: نقدُ ردودِ علماء الغرب على أسس الإلحاد المعاصر.

المبحثُ الأوَّل

المذهبُ المادي

قدْ سبق الكلامُ على المذهب المادي (Materialism) عندَ الحديث عن تاريخ الإلحاد في العصر اليوناني وعصر التنوير. وتبيَّن أنَّ المذهب المادي والمذهب الطبيعي مؤدّاهما واحد. وذكر الباحثون أنَّ المذهب الطبيعي (Naturalism) ينقسم إلى قسمين رئيسين:

١) المذهبُ الطبيعي المنهجي (Methodological Naturalism): وخلاصته أنه لا يمكن نيْل العلم بحقيقة الوجود إلّا عن طريق التجارب العلمية[١].

٢) المذهبُ الطبيعي الوجودي (Ontological Naturalism): وخلاصته: أن حقيقة الوجود ليست سوى ما يمكن إدراكُه بالتجارب العلمية[٢].

فالمذهبُ الأوَّل هو منهجٌ علمي متَّبع عندَ كثير من العلماء في العلم التجريبي، ولا يتحدَّث عن حقيقة الوجود، وإنما يتحدَّث عن طريقة الوصول إلى العلم بالطبيعة.

وأمّا المذهبُ الطبيعي الوجودي فهو مذهبٌ فلسفي يتحدَّث عن حقيقة الوجود. وأتباعُ هذا المذهب يستندونَ إلى العلم التجريبي، ويحصرون المعرفة بحقيقة الوجود في هذا العلم؛ فما لم يتمّ رصدُه عن طريق العلم التجريبي فليس بحقيقة. ويرون أنه لا مجال للفلسفة - على سبيل المثال - للإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى - فضلًا عن الوحي الإلهي -. وهذا ما صرَّح به كبارُ دعاة الإلحاد المعاصرين مثل: ستيفن هوكينغ وليونارد مولدينوو في بداية كتابيهما: التصميم العظيم، حيث قالا: «يُوجدُ كلٌّ منَّا لفترة وجيزة، نستكشف خلالها جزءًا ضئيلًا من الكون وحسب. لكنَّنا كبشرٍ كائناتٌ فضولية؛ نحن

---

(١) انظر: Naturalism – A Critical Response (9)

(٢) انظر: المصدر السابق (٤).

نتساءل ونُفتِّش عن الأجوبة. نحيا في هذا الكون الهائل الذي يُعدُّ بدوره رحيمًا وقاسيًا في الوقت نفسه، ونُحدِّق للأعلى باتِّجاه السماوات الشاسعة. وعادةً ما يسأل الناس عددًا من الأسئلة مثل: كيف يمكنُنا فَهمُ العالم الذي وَجَدْنَا أنفسنا فيه؟ كيف يتصرَّف الكون؟ ما حقيقةُ الواقع؟ مِن أين أتى كُلُّ ذلك؟ هل الكون كان بحاجةٍ لخالق؟ معظمنا يمضي وقتَه في قلقٍ بشأن تلك الأسئلة، لكنَّنا جميعًا قلقون بشأنها بعضَ الوقت. كانت تلك هي الأسئلة التقليدية للفلسفة، لكنَّ الفلسفة قد ماتت ولم تحافظ على صمودهما أمام تطوُّرات العلم الحديثة، وخصوصًا في مجال الفيزياء. وأضحى العلماء هم مَن يحملون مصابيح الاكتشاف في رحلة التنقيب وراء المعرفة[(١)]».

هذا النصُّ يدلُّ على أنَّ هذه التساؤلات الفطرية حاضرة حتى عند الملاحدة المعاصرين، ولكنَّهم يحاولون الإجابة عليها وفق مذهبهم المادي فقط.

فهذا المذهبُ أحدُ أهمِّ أسس وركائز الإلحاد المعاصر، وذلك أن هذا المذهب يستبعد وجودَ خالق للمادة، ويرى أتباعُ هذا المذهب قديمًا وحديثًا أن «أصل الوجود كلّه مادة لها طاقة، أو طاقة تشكَّلت مادة. وهذه المادة عديمة الوعي والإرادة والتدبير، ليس وراءها عقلٌ يدبِّرها، ولا إرادة تهيمنُ عليها وتسيِّرها، ولا قصد يوجّه مسيرتها، ولا علمٌ يحيط بكلِّ ذرةٍ من ذرَّاتها، وكل حركة من حركاتها، وليس لها علةٌ من قبَل عليم حكيم مريد قد أبدعَها، ونظّم حركاتها، ووضع قوانينها»[(٢)].

وقد صرَّح دعاةُ الإلحاد المعاصرون بذلك؛ فقال كارل ساغان - عالم الكون وملحد مشهور - على سبيل المثال: إن «الكون هو كلُّ ما يوجد الآن، أو كان في السابق، أو سيكون في المستقبل»[(٣)]. فلا يوجد سوى هذا الكون، وهذا الكون لا

---

(١) التصميم العظيم - إجاباتٌ جديدة على أسئلة الكون الكبرى (١٣)، لستيفن هوكنغ وليونارد مولدينوو، (دار التنوير للطباعة النشر، ٢٠١٠ م، ترجمة: أيمن أحمد عياد).

(٢) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة (٥١٤).

(3) Program: Cosmos is all that is (https://www.youtube.com/watch?v=uLu1cTKBspI)

شيء سوى الذرَّات، كما قال زعيمُ الملاحدة ريتشارد دوكينز: «الكون لا شيء سوى مجموعة من الذرات المتحركة»[1].

كما أنَّ المذهب المادي الوجودي ينكر جميع أنواع الغيبيات، حيث إن الماديين يعرِّفون مذهبهم بأنه: «الفكرُ الذي يقوم على اليقين المطلق بعالم الحسّ، والثقة المطلقة في المادة التي يتكوَّن منها هذا العالم، ثمَّ الإنكار المطلق لما وراء العالم المادي من عوالم الغيب، وعدم الإقرار بشيء منها»[2]. فلهذا لا يكتفي الماديُّون بإنكار وجود الله، بل ينكرونَ جميعَ الغيبيات مثل: الملائكة، والجنّ، بل يفسِّرون الوعي الإنساني بتفسيرات ماديَّة بحتة، وينكرون الحديثَ عن الروح؛ قال الملحد فرانسيس كريك[3]: «أنت وسرورك، وحزنك، وذكرياتك، وطموحاتك، وشعورك بهويتك الشخصية، وإرادتك الحرة، ليس بالواقع سوى سلوك لتجمُّع شاسع من الخلايا العصبية وجزئياتها المرافقة»[4].

خلاصةُ المذهب الطبيعي الوجودي:

حصرُ الوجود فيما يتمُّ رصدُه بالحسّ والعلم التجريبي، ونتج عن ذلك:

١) أنَّ أتباعه لا يؤمنون بخالق لهذا الكون.

٢) أنَّهم لا يؤمنون بأيِّ شيء من الغيبيات كالجن، والملائكة والروح، لأن الإيمان بها غيرُ خاضع للحسِّ والتجارب العلمية.

وقد تصدَّى علماءُ الغرب للمذهب المادي، وفنَّدوه تفنيدًا من جوانب عديدة، لكنْ يمكن تلخيصها في هذه النقاط الثلاث:

---

(1) (http://hyperphysics.phy-astr.gsu.edu/nave-html/faithpathh/dawkins.html)“

(٢) مذاهب فكرية معاصرة - عرض ونقد - (٢٩).

(٣) فرانسيس كريك (Francis Crick): عالم الفيزياء الحيوية البريطاني، والحاصلُ على جائزة نوبل بسببِ اكتشافه الحمض النووي. وكان ملحدًا يجاهر بإلحاده. توفي عام: ٢٠٠٤م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Francis – Crick

(4) The Astonishing Hypothesis: 3

النقطةُ الأولى: حصرُ الوجود فيما يتمُّ رصدُه بالعلم التجريبي:

قد ردَّ علماءُ الغرب على هذه النقطة من ثلاثة أوجه:

- **الوجهُ الأوَّل: المذهبُ الطبيعي المنهجي ليس المنهج العلمي الوحيد:**

أتباعُ المذهب الطبيعي الوجودي يستدلُّون بالمذهب الطبيعي المنهجي على نفي الحقائق الغيبية. ولكنَّ غايةَ المذهب الطبيعي المنهجي أنه أحدُ المناهج العلمية لدراسة العلوم، وليس هو المنهجَ العلمي الوحيد. بل هناك كثيرٌ من علماء الغرب الذين لا يعتمدونَ على هذا المذهب، بل يتبنَّون إمّا مذهبَ الخلق وإمّا مذهب التصميم الذكي. وهذان المذهبان يُثبتان وجودَ الغيبيات. وتبنِّي هذين المذهبين ليس عائقًا أمام البحث العلمي، بل نجد أنَّ علماء في أرقى الجامعات الغربية ويحملون شهادات عليا يتبنّون هذين المذهبين[1]. وقد قال البروفسور جون لينوكس مبيّنًا لهذه النقطة: «الصراع الحقيقي ليس صراعًا بين العلم والإيمان أبدًا، ولو كان كذلك فالمنطق البسيط يقتضي أن يكون العلماء كلُّهم ملحدين، وغيرُ العلماء فقط هم المؤمنون بالله، ولكن كما شاهدنا ليس هذا واقع الحال، بل إنَّ الصراع الحقيقي يوجد بين رؤيتين متعاكستين تمامًا للعالم؛ المذهب الطبيعي والمذهب اللاهوتي، ولا بدَّ لهما أن يتصادما»[2].

بل آباءُ العلم التجريبي كانوا يروْن أنَّ المنهج العلمي الصحيح يستند إلى الإيمان بالخالق؛ قال البروفسور جون لينوكس: «غليليو ومثله نيوتن وكذلك معظم العلماء الأوائل العظام الذين ساهموا ببناء النهضة الكبيرة للعلم وقتئذ؛ لم يجد أيٌّ منهم أن الإيمانَ بالله خالقًا للكون يعيقُ عملهم بأيِّ درجة من الدرجات، بل إنهم رأوا الإيمان محفِّزًا إيجابيًّا لعملهم العلمي. في الواقع اعتبر كثيرٌ منهم الإيمان بالله دافعه الرئيسي للمضي في البحث العلمي»[3].

---

(١) وسيأتي المزيدُ من التفصيل عن ذلك عندَ الحديث عن محاولة علماء الغرب لإصلاح العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية.

(2) God's Undertaker (28-29)

(٣) المصدر السابق (١٠)

وقد يوردُ الملاحدة مغالطةً منطقية في هذا المقام قائلين: إن أكثر المجتمع العلمي اليوم قد تبنَّى المذهب الطبيعي المنهجي. وهذه المغالطة المنطقية تسمّى الاحتكام إلى الأغلبية، وقد بيَّن علماءُ الغرب فسادَ هذه المغالطة؛ فقال سكوت هوس - المتخصِّص في نقد نظرية التطوُّر - : «اعتقادُ أكثر الناس بصحة شيء معين لا يجعل منه صحيحًا، وتسمَّى هذه المغالطة مغالطة الاحتكام إلى الأكثرية، وهي خاطئة تمامًا لأن الحقائق العلميَّة لا تُبنى على التصويت، فيمكن أن تكون الأكثرية خاطئة تمامًا، بل لقد كانت هذه هي الحال في أحيانٍ كثيرة»[1].

فكوْن أغلب المجتمع العلمي اليوم يتبنَّى هذا المذهب ليس بحجَّة في حال من الأحوال، بل كان غالبُ المجتمع العلمي في السابق يؤمنون بالخالق ويبنون منهجهم العلمي على هذا الإيمان. وفي هذا الزمان بدأت حركةُ التصميم الذكي تتقوّى كثيرًا كما سيتجلَّى في البحث. فيجبُ على المادي أن يستدلَّ على صحة المذهب الطبيعي المنهجي قبل أن يبني عليه المذهب الطبيعي الوجودي، وأنّى له ذلك!

- **الوجهُ الثّاني: نطاقُ العلم التجريبي ضيق:**

على فرْض صحَّة المذهب الطبيعي المنهجي، وأنه المنهج العلمي الصحيح في دراسة العلوم؛ فإنَّ هذا المنهج له حدودٌ ومجالات ضيقة، ولا يمكنه الإجابة عن جميع أسئلة الحياة؛ قال البروفسور بيتر ميداوار[2]: «لا يوجد شيء أسرعُ في التسبب بالعار للعالم نفسه أو لمهنته مِن أن يعلن بطريقةٍ شاملة - وبالأخص عندما لا يوجد أي داع لهذا الإعلان - بأنَّ العلم يعرف، وسيعرف قريبًا، أجوبةَ كلِّ الأسئلة التي تستحق أن تسأل... إنَّ وجود حدود للعلم التجريبي شيء واضح من عجزه عن الإجابة على أسئلة من مستوى ما يسأله الطلابِ الابتدائي مما يتعلّق بأوّل الأشياء - أسئلة من نوع: كيف بدأ كلُّ شيء؟ لماذا نحن كلُّنا هنا؟ ما الغاية من الحياة؟»[3].

---

(1) The Collapse of Evolution (21)

(٢) بيتر ميدوار (Peter Medawar): بروفسور علم الحيوان البريطاني، وقد حصل على جائزة نوبل في الطب عام ١٩٦٠. توفي عام: ١٩٨٧م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Peter - Medawar

(3) Advice to a Young Scientist (31)

وسيأتي مزيدٌ من البيان لحدود العلم التجريبي في المبحث القادم. فالعلم التجريبي علمٌ مفيد في مجاله، ولكنَّ المشكلة تحدث عندما يتخطّى علم من العلوم حدوده، فيخوضُ في مجالات العلوم الأخرى.

- **الوجهُ الثّالث: لا تلازم بينَ المذهب الطبيعي المنهجي والمذهب الطبيعي الوجودي:**

قد خلطَ دعاةُ الإلحاد بين المذهب الطبيعي المنهجي والمذهب الطبيعي الوجودي، وجعلوا الأوَّل مستلزمًا للآخر. وهذا غيرُ صحيح؛ فقد ردَّ البروفسور ألفن بلاتينغا على هذه الفرْية بقوله: «لا يجوز الخلطُ بين المذهب الطبيعي المنهجي مع الفلسفة أو المذهب الطَّبيعي الوجودي، حيث أنَّ الأخير يرى أنه لا يوجد شيء مثل الإله أو ما يشبه الإله، وأنَّه لا يوجد أيُّ شيء وراء الطبيعة. وأمّا مَن يتبنَّى المذهب الطبيعي المنهجي فلا يلزم أنَّه يتبنّى المذهبَ الطبيعي الوجودي... فإنَّ المذهب الطبيعي المنهجي لا يحصر دراسة الطبيعة؛ وإنما يذكر نوعيةَ البحوث التي تعدُّ علمية. إن كان أحد يريد أن يسلك طريقًا آخرَ إلى دراسة الطبيعية - وهناك طرق كثيرة - فلا يعارضه مَن يتبنَّى المذهب الطبيعي المنهجي...»»[1].

فعلى فرضِ صحَّة أن المذهب الطبيعي المنهجي هو منهج علمي صحيح، فليس هناكَ تلازم بينه وبينَ المذهب الطبيعي الوجودي الإلحادي. فالمذهب الطبيعي المنهجي منهجٌ ووسيلة إلى معرفة الطبيعة، ولا يتحدَّث أصلًا عما وراء الطبيعة (Metaphysics). وكوْن الإنسان يستعمل وسيلةً ما للوصول إلى الحقِّ في شيء ما لا يعني أنه لا توجد وسائل أخرى لمعرفة الحقائق عن أشياء أخرى.

وبذلك يبطل هذا المذهبُ من أصله، لأنَّ غاية ما يستدلّون به على مذهبهم هو أنَّ المنهج العلمي المبني على المذهب الطبيعي المنهجي - وهو أحدُ المناهج العلمية ضمن مناهج علمية أخرى - لم ترصدِ الغيبيّات، فإذا هي غير موجودة. ولكن العلم التجريبي المبني على هذا المذهب في الوقت نفسه يسكت عنْ وجود الغيبيات، ولا ينفيها.

---

(1) Where the conflict really lies-Science, Religion & Naturalism (169-170)

النقطةُ الثّانيـة: الكونُ شاهدٌ على وجود خالق:

المذهبُ المادي قائمٌ على إنكار وجود الخالق، وصاحب هذا المذهب يعلم جيّدًا أنَّه لو ثبت لديه أنَّ الخالق موجود فيسقط مذهبه من الأساس. وبذلك يمكن أن نقرِّر قاعدةً عامَّة، وهي أن: كلّ دليلٍ صحيح يدلُّ على وجود الخالق فإنه يبطل المذهب المادي الوجودي.

وقدْ خصَّصت البابَ الثاني من هذه الرسالة في استدلالات علماء الغرب على وجودِ الله. وجميعُ هذه الأدلة التي يوردونها تصلح براهينَ علمية في نقد المذهب المادي، ولا حاجة إلى ذكرها هنا.

ولكنَّ علماء الغرب قد خصَّصوا دليلين من أدلة وجود الله بمزيد من العناية في نقد المذهب المادي؛ فقد كتب جمعٌ مِن علماء الغرب كتابًا مستقلًّا في نقد المذهب الطبيعي وسمّوه: «المذهب الطبيعي: تحليل نقدي» (Naturalism: A critical analysis) وهذا الكتاب حوَى عشرةَ أبحاث علمية في نقد هذا المذهب. ومن ضمن هذه الأبحاث بحثان مخصَّصان في نقد هذا المذهب باثنين من أدلة وجود الله، وهما: الدليل الكوني، ودليل التَّصميم. ولكونهم خصّوا هذيْن الدليلين في بحثين مستقلَّين في نقد هذا المذهب، يحسن الوقوفُ عندهما في هذا المقام:

البحثُ الأوَّل: المذهب الطبيعي وعلم الكون (Naturalism and cosmology)، الذي ألَّفه البروفسور وليام لاين كرايغ. وخلاصة هذا البحث: أن كرايغ ذكر النظريات المعاصرة لأصلِ الكون، وردَّ على النظريات القائلة بأنه ليس للكون بداية، ورجَّح للكون بداية، وأنَّ أحسنَ نظرية في تفسير ذلك هي نظرية الانفجار العظيم. وبعدما توصّل إلى ذلك استدلَّ بهذه النظرية على وجود خالق للكون. وقد استدلَّ بالدليل الكوني الكلامي على وجود الخالق ما قال في آخر البحث: «يمكننا تلخيصُ حجَّتنا بالتالي:

كلُّ شيء له بداية فلا بدَّ له من سبب.

الكونُ له بداية.

بالتالي فلا بدَّ للكون من سبب لإيجاده»(1).

---

(1) Naturalism and cosmology, Naturalism a critical analysis (244)

واستدلَّ بعددٍ من الأدلة العقلية على أنَّ هذا السبب هو الرب الخالق. وسيأتي كلامُه بالتفصيل في موضعه من هذا البحث، ولكنَّ محلَّ الشاهد أن علم الكون المعاصر يشير إلى أنَّ للكون بداية، وكلُّ ما له بداية فلا بدَّ له من سببٍ خارج عن هذا الكون لإيجاده. وهذا ما يبطل المذهبَ المادي من أصله.

البحثُ الثّاني: المذهبُ الطبيعي والتصميم (Naturalism and design)، الذي ألّفه الدكتور وليام ديمبسكي. والغرضُ من هذا البحث هو إبطالُ المذهب الطبيعي بدليل التَّصميم. وصاحبُ البحث من روَّاد مذهب التصميم الذكي، وقد ألَّف عددًا من الكتبِ عن هذا المذهب. وتوصَّل في هذا البحث إلى أنَّ أي شيء يلاحظ فيه التعقيد المخصَّص (Complexity – specification) فلا بدَّ أن يكون مصمّمًا. وكل مصمَّم فلا بدَّ له من مُصمِّم. وذكر أنَّ هذا الأمر ملاحَظ بقوَّة في الكائنات الحيّة، وذكر العديد من الأمثلة على ذلك مِن علم الأحياء[1]. وذكر في خلاصة بحثه أن المذهب الطبيعي لا يستطيع تفسيرَ التعقيد المخصَّص الموجود في علم الأحياء مع أنه ملاحظ بقوة، فدلَّ ذلك على إبطال هذا المذهب[2].

النقطةُ الثّالثة: العلمُ التجريبي قد دلَّ على وجود غيبيات:

ذكرَ البروفسور بول كي موسير[3] والدكتور دافيد يندل[4] في بحث لهما أن الدافع الأساسَ لشعبية المذهب الطبيعي هو ازدهارُ العلم التجريبي، ولكنَّه قد ظهر أن هذا المذهب يُعرضُ عن الأدلة العلمية التي تبطله[5].

---

(١) وسيأتي الكلامُ المفصَّل عن هذه المسألة في الباب الثاني، إن شاء الله.

(2) Naturalism and design, Naturalism a critical analysis (277)

(٣) بول كي موسير (Paul K. Moser): بروفسور الفلسفة في جامعة ليولا بالولايات المتَّحدة، والمتخصِّص في نظرية المعرفة. وقد ألَّف مئات الكتب والأبحاث والمقالات العلمية، وكثير منها في الردِّ على المذهب الطبيعي. انظر: https: / /pmoser.sites.luc.edu /cv.html

(٤) دافيد يندل (David Yandell): حامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، ويعمل كأستاذ مساعد في الفلسفة في جامعة ليولا بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في فلسفة الدين. انظر: https: / /www.luc.edu /philosophy /kdavidyandellphd.shtml

(٥) انظر:

Farwell to philosophical naturalism, a part of Naturalism a critical analysis (3)

وهذه الأدلة كثيرةٌ جدًّا لا تعدُّ ولا تحصى، بل يمكن صياغةُ قاعدة عامة كما سبق في النقطة الثانية، وهي أن: كلّ دليلٍ يدلُّ على وجود شيء غيْبي فإنَّه دليل على إبطال المذهب الطبيعي الوجودي.

وقد اهتمَّ الباحثون الغربيون كثيرًا بإجراء تجاربَ علمية في إثبات أشياء غير مادية. ولكنْ يمكن تلخيص ذلك في أمرين:

الأمرُ الأوَّل: المذهبُ المادي لا يفسِّر الوعي:

تفسيرُ الوعي من أعقد القضايا أمامَ المذهب الطبيعي؛ لأنَّ هذا المذهب يقول إنه لا يوجد سوى المادة الصَّماء، والمادةُ ليست لديها قدرة على الوعي والإدراك. ومع ذلك يقولون إنَّ الإنسان مكوَّن من هذه المادة، والإنسان لديه وعي وعقل وفهم. ولفهْم صعوبة هذه المسألة على الماديِّين فقد ذكرَ روي فرغيز[1] - الكاتب الأمريكي المتخصِّص في علاقة الدين بالعلم - المثالَ التالي:

«فكِّر لدقيقة في طاولةِ رخام موضوعة أمامك. هل تظنُّ أن هذه الطاولة ولو بعد مرورِ تريليونات السنين، بل وإلى الأبد ستصبح فجأة أو تدريجيًّا واعية بما يحيط بها وبهويَّتها؟ مِن البساطة أن يكون مِن غير المتصوَّر أن يحدث هذا. ونفس الأمر يسري على أيِّ نوع آخر من المواد. ما إن تفهمَ طبيعة المادة، والكتلة - طاقة حتى يتحقّق لك بالطبيعة الأساسية لهذه الأشياء أنَّها لن تصبح أبدًا واعية ولا قادرة على التفكير أو التعبير. لكنَّ الوضع الإلحادي في لحظة ما من تاريخ الكون يقتضي أن يكون المستحيل وغيرُ القابل للتصوُّر واقعًا. فتصبح المادة (بما فيها الطاقة هنا) التي لا يتميّز بعضها عن بعضٍ في لحظة ما «حيَّة»، ثمَّ واعية، ثمَّ ماهرة من حيث الفهم، ثمَّ معبِّرة عن ذاتها. لكن بالعودة إلى طاولتنا، نرى لَمَ الأمرُ مثيرٌ للضحك ببساطة. فليس لها أيٌّ من خصائص الكائن الواعي، ولو استمرَّت إلى الأبد لن «تكتسب» مثل هذه الخصائص»[2].

---

(١) روي فرغيز (Roy Varghese): كاتب أمريكي كاثوليكي متخصِّص في علاقة الدين بالعلوم التجريبية. وقد ألَّف عددًا من الكتب في ذلك، منه كتاب اشترك معه ٢٤ عالم حائز على جائزة نوبل. انظر: https: / /www.catholic.com /profile /roy – varghese

(2) Roy Varghese, There is a God, appendix I, 163

فالوعي لا يمكن تفسيرُه عبرَ المذهب المادي، لأنَّ الوعي ليس أمرًا ماديًّا، بل هو روحي. وقد اعتنى الدكتور ماركو بياغيني[1] بهذه المسألة كثيرًا، لا سيَّما وهو يدير «مركز الإفشاء العلمي عن الوعي» (Center of Scientific Divulgation about Consciousness) - وهو أحدُ المراكز العلمية المهتمَّة بنقد تفسيرات الماديّين للوعي -. وقد كتب الدكتور بياغيني في صفحة المركز: «مِن أين تأتي النفس (الوعي)؟ تثبت ظاهرة الوعي أنه في وقت معيَّن، تبدأ نفسنا حتمًا في الوجود فينا. وتثبت قوانين الفيزياء أنَّ النفس (الوعي) لا يمكن أن تكون نتاجَ عمليات فيزيائية أو كيميائية أو بيولوجية. لذلك، فأصل النفس سامٍ على الحقيقة الفيزيائية. فتَعَيَّن أنَّ الإله هو السبب الرئيس لوجود النفس، باعتباره سببًا ساميًا على هذه الحقيقة»[2].

ولا يقف الأمرُ عند عدم قدرة الماديّين على تفسير الوعي، بل لا يمكنهم تفسيرُ وجودِ قوانين المنطق؛ لأنَّ هذه القوانين غير محسوسة؛ الدكتور جاسون ليزلي: «لا يمكن لبعضِ رؤى العالم أن تكون صحيحة كليًّا لأنَّها في داخلها غير متوافقة. خذ مثلًا ما يعتقدُه المادي. فشخص مثله يؤمن أنَّ كلَّ الأشياء مادية، ولا وجود لشيء غير مادي. يستخدم المادي العقلَ وقوانين المنطق ليدعم ما يؤمن به، لكنه يقوم بذلك بشكل غير متوافقٍ للغاية. ففي رؤياه، لا وجودَ لقوانين منطقية لأنها ليس لها وجود مادي. فلا يوجد مكانٌ في الكون يمكن أن «ترى» فيه قوانينَ المنطق. إنها مجرَّدة، ولذا فلا يمكن لها أن توجَد [في الخارج] بالنسبة إلى معتقدات الماديين المعترف بها عندهم. إنَّ استدلال المادي يردُّ نفسه بنفسه»[3].

فكما أنَّه لا يمكن تفسير الوعي بالنظريات المادية، فلا يمكن في الحقيقة الاعتمادُ على قوانين المنطق وفقَ هذا المذهب، حيث أن هذه القوانين ليست حسيّة.

(١) ماركو بياغيني (Marco Biagini): حامل شهادة الدكتوراه في فيزياء الجوامد. وقد ألّف عددًا من الأبحاث العلمية في ميكانيكا الكم. وهو مهتمٌّ بنقد المذهب المادي فيما يتعلَّق بظاهرة الوعي. انظر: http: / /xoomer.virgilio.it /fedeescienza /biaginien.html

(2) http://xoomer.virgilio.it/fedeescienza/mindandbrain.html

(3) Taking Back Astronomy (103-104)

الأمرُ الثّاني: علمُ النفس الموازي ينقد المذهب المادي:

عرَّف قاموس أكسفورد علم النفس الموازي (Parapsychology)[1] بأنه: «دراسة الظَّواهر الروحية المستبعدة من علم النفس التقليدي»[2]. فهذا العلم يبحث عن ظواهر خارجة عن العلم المادي مثل: التخاطر (Telepathy)، وتجربة الاقتراب من الموت (Near Death Experience)، والرؤية عن البعد (Clairvoyance). وقد بدأ الاهتمام بدراسة هذه الظواهر بتجارب علمية في وسط القرن التاسع عشر[3]، ولكنَّه تقوَّى كثيرًا في عام ١٨٨٢م. حيث أسَّست أوّل مؤسسة علمية في دراسة هذا العلم في بريطانيا، وهي: «جمعية للدراسات الروحية» (Society for Physical Research). وقد انضمَّ إلى هذه الجمعية بعضُ أشهر العلماء البريطانيين، منهم حملة جائزة نوبل[4]. ومازالت هذه الجمعية نشطة إلى يومِنا هذا، وتحوي العديدَ من العلماء المرموقين في العلم التجريبي، وتصدر مجلة علمية شهرية[5].

وهذه الجمعية أوَّلُ الجمعيات العلمية المهتمَّة بهذا الموضوع وأكبرها، ولكنّها ليست الوحيدة، بل توجد جمعياتٌ علمية مماثلة في كثير من الدول الغربية مثل: «الجمعية الأمريكية للدراسات الروحية» (The American Society for Physical Research) في الولايات المتَّحدة، و«جمعية علم النفس الروحي»

---

(١) سيأتي تعريفه لاحقًا.

(2) https://en.oxforddictionaries.com/definition/parapsychology

(٣) انظر:

Pseudoscience and the Paranormal (50 - 52), by: Terence Hines, Prometheus Books (2003)

(٤) انظر:

Science and Psychic Phenomena (60), by: Chris Carter, Inner Traditions 2012

(٥) انظر:

https://www.spr.ac.uk/publications/journal - society - psychical - research

(Société de Psychologie Physiologique) في فرنسا، و«جمعية دراسة علم النفس الموازي» (Sällskapet för Parapsykologisk Forskning) في السويد، و«الجمعية النمساوية لدراسة علم النفس الموازي» (Austrian Society for Parapsychology) وغيرها من الجمعيات العلمية المهتمَّة بهذا الموضوع. وقد عدَّدت جمعية الدراسات الروحية في بريطانيا في موقعها العلماء الذين اهتمّوا بهذا العلم في العصر الحديث، فذكروا المئات من العلماء، منهم ٢٨ حائز على جائزة نوبل[١]. فلا شكَّ أنَّ هذا العلم له قبول واسع بين بعض الأوساط العلمية وبعض العلماء، وإن كان العلماءُ الماديون يرفضون هذا العلم رفضًا قاطعًا لتعارضه مع مذهبهم[٢].

وليس الغرضُ هنا التعمُّقَ في هذا العلم، وتصحيح كلِّ ما ورد فيه. ولكن، لا يمكن إنكارُ أنَّ بعض هذه الظواهر الروحية قد ثبتت بالحسّ، وأن ذلك يبطل المذهب المادي. وهذا هو محلُّ الشاهد. والمسلم يستطيع أن يفسِّر بعض هذه الظواهر بوجود الجنّ، أو الملائكة أو الروح. فلو أخذنا ظاهرةً من هذه الظواهر مثل: مواجهة الأشباح، فإن هذا أمرٌ قد وقع لأعدادٍ هائلة من الناس، فكان متواترًا مستندًا إلى الحسّ، ولا يمكن ألبتَّة للمادي تفسيرُ ذلك إلّا بأنها تخيُّلات لا حقيقة لها. ولكن المسلم يستطيع أن يفسِّر ذلك بوجود الجن، وأن الجنَّ قد يتشكَّل ويخوِّف الإنسان بهذه المناظر. وأما المادي فإنه يضطرُّ إلى إنكار ما قد ثبتَ بالحسِّ والتواتر. وهذا من الأدلة القوية في نقد هذا المذهب الفاسد الذي طالما حصرَ المعرفة بالمحسوسات.

ولا شكَّ أنَّ لعلم النفس الموازي خطورة؛ لأنَّ بعض العلماء المهتمّين بهذا العلم يدرسون ظواهرَ روحيةً تتعارض مع العقيدة الإسلامية مثل: تناسخ

---

(١) انظر:

https://psi - encyclopedia.spr.ac.uk/articles/eminent - people - interested - psi

(٢) انظر: Science and Psychic Phenomena (٢٨ – ٢٤)

الأرواح[1]. وهي عقيدةٌ هندوسية بوذية تخالف النصوصَ القطعية في الكتاب والسنة. فلا ينبغي للمسلم أن يتعمَّق في هذا العلم، ولكنَّ الاستشهاد بوجود هذا العلم وأنه قد ثبت بالحسّ ما يتعارضُ مع المذهب المادي يبقى سلاحًا قويًّا في مواجهة الماديين.

---

(١) انظر:

End of Materialism (277 - 288), by: Dr. Charles T. Hart, (New Harbinger Publication Inc.2009)

المبحثُ الثّاني

تعظيمُ العلم التجريبي

قد تقدَّم في المبحث الأوَّل أنَّ المذهب المادي من أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر. والمذهبُ المادي يستندُ إلى العلم التجريبي، ويرى أنَّه الطريق الوحيد إلى معرفة حقائق الوجود. ولهذا يعظِّم الملاحدةُ الجدد الماديون العلمَ التجريبي تعظيمًا كبيرًا، ويبالغون في قدرات هذا العلم، حتَّى جاوزوا حدوده؛ «فإن كانت الطبيعة هي إلهَ الملحد، فإنَّ العلم الطبيعي هو كتابُه المقدَّس، الذي تُصدَّق أخباره، وتُطاع أوامرُه، وتُجتنب نواهيه، وعلى أساسه يُعقَد الولاء والبراء عند الملحدين، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وطريقة نقله أصدقُ من التواتر، وأهله هُم أصحاب الولاية الذين ترسم كلماتهم معالم الطريق!»[1]. وقد أُطلقَ على هذا الغلوِّ في قدرات العلم التجريبي تسمية خاصة، وهي العلموية (Scientism)[2].

ومظاهرُ هذا الغلوِّ كثيرةٌ لدى الملاحدة، ولكنَّ الذي يهمُّنا في هذا البحث هو أنَّ هذا الغلو أدَّى بهم إلى إنكار الخالق. ويلخَّص هذا الموقف في مقدِّمتين ونتيجة:

المقدِّمة الأولى: لا سبيلَ إلى معرفة حقائق الموجودات إلّا عن طريق العلم التجريبي.

المقدِّمة الثانية: العلمُ التجريبي يعارض الإيمانَ بالخالق.

النَّتيجة: إذًا، الخالق غيرُ موجود.

---

(١) الإلحاد وثوقية التوهّم وخواء العدم (٣٩ - ٤٠).

(٢) العلموية: عرَّفه قاموس أكسفورد بأنَّه (الغلو الاعتقادي في قدرات العلم التجريبي وتقنياته).
Excessive belief in the power of scientific knowledge and techniques”.»
https://en.oxforddictionaries.com/definition/scientism

المقدِّمة الأولى: أنَّ المعرفة منحصرة في العلم التجريبي؛ فما لم يتوصّل إليه العلم التجريبي فلا يعدُّ علمًا عندهم؛ قال الفيلسوف الملحد برتراند راسل: «أي معرفة ممكن الحصولُ عليها يجب أن تتحصَّل عبرَ الطرق العلمية، وما لا يمكن للعلم اكتشافه لا يمكنُ للإنسان معرفته»[1]. وقال البروفسور الملحد بيتر أتكنز: «لا يوجد مبررٌ أن نظنَّ أنَّ العلم التجريبي لا يجيب على جميع أنحاء الوجود»[2]. فالعلم التجريبي يجيب عن جميعِ ألغاز الحياة، ولا يمكن الاعتمادُ على الفلسفة - فضلًا عن الدين - في معرفة حقائق الوجود. قال ستيفن هوكينغ ووليونارد مولدينوو في كتابيهما: التصميم العظيم: «وعادة ما يسأل الناسُ عددًا من الأسئلة مثل: كيف يمكننا فهمُ العالم الذي وجدنا أنفسَنا فيه؟ كيف يتصرَّف الكون؟ ما حقيقة الواقع؟ مِن أين أتى كلُّ هذا؟ هل الكون بحاجةٍ لخالق؟ معظمُنا يمضي وقته في قلقٍ بشأن تلك الأسئلة، لكنّنا جميعًا قلقون بشأنها بعض الوقت. كانت تلك الأسئلة التقليدية للفلسفة، لكنَّ الفلسفة قد ماتت ولم تحافظ على صمودها أمامَ تطوُّرات العلم الحديثة، وخصوصًا مجال الفيزياء. وأضحى العلماء هُم يحملون مصابيح الاكتشاف في رحلة التنقيب وراء المعرفة»[3].

المقدِّمة الثّانية: أنَّ العلم التجريبي ألغى جميعَ مبررات الإيمان بوجود الخالق؛ قال البروفسور الملحد بيتر أتكنز: «لا يمكن أن يتصالح العلمُ والإيمان، وعلى البشرية أن تبدأ بتقديرِ قوَّة ابنها، وترفض كلَّ محاولات التسوية، فلقد فشلَ الدين، ويجب كشف حالاتِ فشله للناس على الملأ، أمّا العلم فلنجاح مسيرته ووصوله إلى الكفاءة العالمية بمعرفة الحد الأدنى فيشكِّل متعة الفكر العليا، ويجب تتويجه ملكًا»[4]. وقال أيضًا: «على البشر أن يقبلوا بحقيقة أنَّ العلم قد ألغى كلَّ مُبررٍ للإيمان بوجود الغاية في الكون، وبقاء

---

(1) Religion and Science (243)

(2) Nature's Imagination: the Frontiers of Scientific Vision (125), Oxford University Press 1995

(٣) التصميم العظيم (١٣).

(4) Nature's Imagination-The Frontiers of Scientific Vision (132), ed. John Cornwell, (Oxford University Press, 1995)

أيِّ علة غائية للكون شيء ناتج عن الشعور فقط»[1]. وهذا مبني على أنَّ الملاحدة الجدد حصروا البراهينَ في الأدلة العلمية التجريبية، وما لم يكن مبنيًّا على البراهين العلمية الخاضعة للتجارب فليسَ بعلم. وحيث أنَّ الدين ليس مبنيًّا على التَّجارب العلمية فهو مجرَّد وهْم؛ قال زعيم الإلحاد المعاصر ريتشارد دوكينز: «العلم التجريبي مبنيٌّ على الدليل القابل للفحص بشكلٍ عمومي، وأمّا الإيمان الديني فإنه يفتقد الدليلَ المؤيِّد له، بل يُبدي رضاه لاستقلاله عن الدليل بكلِّ صراحة»[2].

ردودُ علماء الغرب على موقفِ الملاحدة من العلم التجريبي:

قدْ تصدَّى علماءُ الغرب لموقف الملاحدة الجدد مِن العلم التجريبي، وبيَّنوا ما عندهم مِن الأخطاء والمغالطات والخلل؛ وبيانُ ذلك بما يلي:

- **الردُّ على المقدِّمة الأولى:**

ادَّعى الملاحدةُ الجدد أنَّ المعرفة منحصرةٌ في العلم التجريبي، وأنه الطريق الوحيد الموصِّل إلى العلم اليقيني. ويُجاب عن هذه الشبهة من خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: قد صرَّح كثيرٌ من علماء الغرب أنَّ العلم التجريبي له حدود واضحة لا يمكن أن يتخطّاها، وأنَّ العلم التجريبي لا يجيب عن جميع ألغاز الحياة. وبعض هؤلاء العلماء أكثرُ علمًا بكثيرٍ من دعاة الإلحاد الجديد. ومن الأمثلة على ذلك أنَّ البروفسور فرنسيس كولينز[3] ذكر أنَّ العلم التجريبي لا حيلة له في الإجابة على أسئلة من نوع: «لماذا جاء الكونُ إلى الوجود؟»، «ما معنى الوجود الإنساني؟»، «ما الذي سيحدث بعد أنْ نموت؟»[4].

---

(1) Will Science ever fail? New Scientist, 8 August 1992, 32-35

(2) Daily Telegraph, Science Extra, Sept 11, 1989

(٣) فرانسيس كولنز (Francis Collins): بروفسور علم الوراثة الأمريكي. شغل منصبَ مدير معاهدِ الصحة الوطنية الأمريكية، كما أنَّه كان مدير مشروع الجينوم - وهو من أضخم المشاريع العلمية في اكتشاف الجينوم البشري -. وقد ألَّف بعضَ المؤلفات في نقد الإلحاد مثل كتابه: لغة الإله.
انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Francis – Collins

(٤) انظر: The Language of God (٦)

وقد حكى البروفسور نيجل بروش[١] أنَّ هذا الأمر يدركه العلماء الذين يعملون بالعلم التجريبي يوميًّا: «رغمَ أنَّ الطريقة العلمية تقدِّم أسلوبًا قويًّا للبحث عن الحقيقة إلّا أنَّ لها حدودًا، وأولئك الذين يعملون بالعلم التجريبي يوميًّا يعرفون تمامًا الكثير من هذه الحدود في أثناءِ مسيرتهم للوصول إلى فهْم الطبيعة»[٢]. فالعلم التجريبي لا يجيب عنْ جميع أسئلة الوجود، وكذلك فإنَّ له حدودًا في مجال تخصصه كذلك.

ولذلك نجد أنَّ أكثرَ الملاحدة تحمُّسًا لقدرات العلم التجريبي هم من عوامهم؛ فـ«إنَّ التباين الفجَّ المتكرر بين الموقف المتشكِّك للمتخصصين في العلم الطبيعي وموقف عامَّة الملحدين المتيقّن؛ يورثك يقينًا أنَّ الرافد الأساسي في إلحاد هؤلاء هو العاطفة، تلك العاطفة التي أعمتْه عن ملاحظة التشكُّك الملازم لحديث علماء الطبيعة، وحجبت عنْه رؤية الفلسفة الكامنة في ثنايا العلم الطبيعي وأصوله، ومنعتْه من متابعة مواطن قوة النظريات وضعفها، وأورثته يقينًا جازمًا بالإلحاد بناءً على نظريات لا يملك واضعوها أنفسُهم هذا اليقينَ تجاهها! هذا التباين الفجُّ يجعل من دعوى وجود إلحاد علميّ خالص طرحًا غيرَ مقبول!»[٣].

وإنْ كان هذا الحماس في كثيرٍ من الأحيان من قِبَل عوامِّهم إلّا أنَّ أئمة الملاحدة المضلِّين قد سوَّقوا لهذه المبالغات في بعض الأحيان، ويتكلَّمون خارج تخصُّصاتهم -؛ قال الدكتور نورمان كامبل[٤]: «يستحق رجالُ العلم الطبيعي القدر الأكبر من اللوم إزاء

---

(١) نيجل بروش (Nigel Brush): بروفسور الجيولوجيا في جامعة أشلاند بالولايات المتَّحدة. وهو مهتمٌّ ببيانِ حدود العلم التجريبي، وقد ألَّف كتابًا مميَّزًا في ذلك بعنوان: حدود الحقيقة العلمية. انظر: https: / /news.ashland.edu /profile /dr – nigel – brush

(2) The Limitations of Scientific Truth (8)

(٣) الإلحاد وثوقية التوهم وخواء العدم (٥٨ – ٥٩).

(٤) نورمان كامبل (Norman Campbell): عالم الفيزياء فيلسوف العلوم البريطاني. حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كامدرج المشهورة في الفيزياء، وألّف عددًا من الكتب في فلسفة العلوم. توفي عام: ١٩٤٩م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Norman-Robert-Campbell

التخليطِ الذي نعترضُ عليه، لقد اعتادوا إلى حدٍّ بعيد فرضَ استنتاجاتهم على مجتمع العوام والمتردِّدين، إلى درجة أنَّهم مُعرَّضون لتخطّي حدود ميدانهم الخاص، إنهم ينسون أحيانًا أنهم لم يعودوا خبراءَ فورَ مغادرتهم لمختبراتهم، وأنهم فيما يتعلّق بالأسئلة الأجنبية على العلم لا يستحقّون أنْ يحظوا باهتمام يفوق ذلك القدر الذي يستحقه غيرهم»[1].

فكوْن العالم متخصِّصًا في الطبِّ مثلًا، لا يجعله متخصِّصًا في العلوم الدينية أو الفلسفية. ومعَ ذلك ينظر عوامُّ الملاحدة إلى علمائهم باعتبارهم متخصّصين في جميع المجالات. ومن الأمثلة على ذلك: زعيمُ الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز؛ فهو رجلٌ متخصِّص في علم الحيوان، ولكنَّ كتابه: (وهم الإله) كتاب ديني فلسفي. وهذا الرجل لا يُحسن الفلسفة، فضلًا عن العلوم الدينية - كما سبق بيانه -. فهو حينما يكتب هذا الكتابَ وغيره فإنه يتكلَّم خارجَ مجال تخصُّصه.

الوجهُ الثّاني: ادِّعاء أنَّ المعرفة منحصرة في العلم التجريبي ينقض نفسه بنفسه، لأن هذا الزعمَ مبنيٌّ على موقف فلسفي وليسَ على العلم التجريبي؛ قال البروفسور جون لينوكس: «الرأيُ الذي نسمِّيه «العلموية»، وهو أنَّ العلم التجريبي هو الوسيلة الوحيدة للحقيقة؛ باطلٌ منطقيًا؛ لأنَّ قول «إنَّ العلم التجريبي هو الوسيلة الوحيدة للحقيقة» ليس تقريرًا علميًّا، فإنْ كان هذا التقرير صحيحًا فهو باطل»[2]. فـ«القول بأن العلم التجريبي ميزانُ كلِّ علم صحيح ليسَ حقيقةً علمية، بل هو زعمٌ فلسفي عن العلم التجريبي. هي العلموية التي تتظاهر بأنها العلم التجريبي»[3]. فالعلموية مذهبٌ فلسفي، وحين دعا ستفين هوكينج إلى هذا المذهب قال قبله: «الفلسفة ماتت»، فإنْ ماتتِ الفلسفة فإنَّ العلموية ستموت معها حتمًا.

---

(1) Norman Campbell, “What is Science?”, Kessinger Publishing, LLC (November 3, 2007), p.163

نقلته بواسطة عن كتاب: العودة إلى الإيمان (١٦٣)، للدكتور هيثم طلعت.

(٢) انظر https: / /www.goodreads.com /quotes /tag /scientism

(٣) المصدر السابق.

الوجهُ الثّالث: الملاحدةُ أنفسهم اعترفوا أنَّ العلم التجريبي لا يتحلّى بتلك القوة التي يتظاهرون بها أحيانًا، حتَّى قال البروفسور الملحد ريتشارد فاينمان[(١)]: «فمن الضَّروري والحقيقي أن كلَّ ما نقوله عن العلم التجريبي، كل الاستنتاجات، هي غير أكيدة؛ لأنَّها استنتاجات... وبالتالي فإن العلماء اعتادوا العملَ بالشَّك؛ لأنَّ كل معرفة علميَّة (Scientific knowledge) غير أكيدة... ما نسمّيه اليوم بالمعرفة العلمية هو مجموعة من المقالات بدرجاتٍ متفاوتة من اليقين؛ بعضها أقربُ إلى غير مؤكَّدة، وبعضها قريبة من التأكُّد، ولكن لا شيء منها يقيني»[(٢)].

وستيفن هوكينج الذي ادَّعى أنَّ الفلسفة ماتت والعلماء «يحملون مصابيح الاكتشاف في رحلة التنقيب وراء المعرفة» قال في مواطن أخرى: «أي نظرية فيزيائية هي دائمًا مؤقَّتة، بمعنى أنها فرضٌ وحسب: فأنت لا تستطيع أن تبرهن عليها، ومهما بلغت كثرةُ مرَّات اتِّفاق نتائج التجارب مع نظرية ما؛ فإنَّك لا تستطيع قط أن تتيقَّن من أنه المرَّة التالية لن تتناقض النتيجةُ مع النظرية، ومن الناحية الأخرى فإنك تستطيع تفنيد إحدى النظريات بأن تعثرَ حتَّى على مشاهدة واحدة تتعارض وتنبؤات النظرية»[(٣)].

وقال هوكينج أيضًا: «لن يكون في إمكاننا قطّ التأكُّدُ من أننا قد عثرنا حقًّا على النَّظرية الصحيحة، لأنَّ النظريات لا يمكن البرهنة عليها، ولكن إن كانت النظرية مُتماسكة رياضيًّا، وتُعطي دائمًا تنبؤاتٍ تتَّفق مع المشاهدات فإننا يمكننا أن نثق إلى

---

(١) ريتشارد فاينمان (Richard Feynman): بروفسور الفيزياء النظرية الأمريكي، وحائز على جائزة نوبل في الفيزياء. وكان مُلحدًا مجاهرًا بإلحاده. توفي: ١٩٨٨م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Richard-Feynman

(2) The meaning of it all (13)

والمقال موجود في:

http://www.inf.fu-berlin.de/lehre/pmo/eng/Feynman-Uncertainty.pdf

(٣) تاريخٌ موجَز للزمان من الانفجار الكبير حتَّى الثقوب السوداء (٢١)، لستيفن هوكينغ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦ م. ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي).

حدٍّ معقول في أنها النظرية الصحيحة»[1]. وقال أيضًا: «علينا أن نحذرَ من الإفراط في الثِّقة، فقد ظهرَ لنا أكثرُ من فجْرٍ كاذب من قبْل»[2]. فالادِّعاء أن النظريات العلمية يقينية باعتراف أئمتهم غيرُ صحيح.

الوجهُ الرّابع: ممّا يزيدنا بيانًا أنَّ النظريات العلمية ليست يقينية هي أنها متغيّرة دائمًا؛ فكيف ندَّعي أن النظريات العلمية السائدة اليوم يقينية، وقد تصبح متروكةً بعد سنةٍ أو سنتين؟ قد بيَّن البروفسور نيجل بروش ذلك بجلاءٍ إذ قال: «إن أوَّلَ - وربما أعظم - حدودِ المعرفة العلمية هو تغيُّرها الدائم، وقليلة هي الأمور الأكثر يقينية من هذا: **فالمعرفةُ العلمية المستعملة اليوم ستصبح غدًا معرفة علمية منتهية الصَّلاحية. والكتبُ العلمية القديمة لا فائدة لها تقريبًا**، وقيمتها الوحيدة عند محبي الاستطلاع التاريخي وهواة جمْع الأشياء، وحتى مخازن الكتب المستعملة تحاول أن تتجنَّب بيعَ أو شراء الكتب العلمية المستعملة، وتحاول الكثيرُ من دور نشر الكتب الجامعية الآن أن تُخرج إصدارًا جديدًا محدَّثًا لكلِّ نصٍّ علمي كل ثلاثة أعوام، ويمكن لهذا التسارع في وتيرةِ الاكتشاف العلمي أن يغيِّر فهمنا وتفسيرنا للعالم الطبيعي جذريًّا خلالَ بضعة أيام أو شهور أو سنين»[3].

فهذه كانت الكتب العلمية القديمة لا قيمة لها اليوم، فلا شكَّ أنَّ الكتب العلمية الحديثة لا قيمة لها في المستقبل، بل يتخيَّل كلُّ جيل أنَّهم وصلوا إلى الحقيقة النهائية، ولكنَّ الأمر ليس كذلك. فالعلومُ التجريبية في تقدُّم مُستقر، وهذا دليلٌ على أنَّ كثيرًا مِن النظريات ليست بيقينية؛ قال الدكتور نيجل بروش: «يعتقد كلُّ جيلٍ أن الحقيقة العلمية التي وصلَ إليها هي الحقيقة القطعية النهائية. ولا يتضمَّن هذا الاعتقاد الفخر فقط، وإنما أيضًا خداع الذات، إذْ كما في علم الفلك، تُظهر نظرة مختصرة على تاريخ أيِّ مجال علمي كم اتَّسع كلُّ مجال، لكنَّنا نستطيع أن نخمِّن فقط البعد المتبقّي لنصل

---

(١) المصدر السابق (١٤٥).

(٢) المصدر السابق (١٣٤).

(3) The Limitations of Scientific Truth (270)

إلى نهاية كلٍّ منها. كم ستكون المسافةُ ليصل العلم إلى الحقيقة الكلية الكاملة؟ هل تلوحُ النهاية في الأفق، أم أنّنا نتعامل مع درجاتٍ لا متناهية للعلم؟ هل تطرح كل إجابة العديدَ من الأسئلة الأخرى؟ نحن بكل بساطة لا نعلم»[١].

الوجهُ الخامس: العلومُ ليست على درجةٍ واحدة، بل بعضها أقوى من بعض. يقسِّم العلماءُ عادةً العلومَ إلى قسمين: العلوم الصلبة القوية والعلوم اللينة الضعيفة. ويقصدون بالعلوم الصلبة: العلوم الطبيعية، وبالعلوم اللينة: العلوم الإنسانية. ولكن العلوم الطبيعية نفسها تنقسمُ إلى صلبة وليِّنة. وقد بيَّن البروفسور نيجل بروش هذا الأمر إذْ قال: «نقسم العلومَ بشكل عامٍّ إلى علوم صلبة وعلوم لينة، أي العلوم الطبيعية مقابل العلوم الإنسانية. توصَف العلوم الطبيعية (كعلوم الفلك والجيولوجيا والبيولوجيا) عادة بأنَّها «علوم صلبة» لأنها كما تذكر تتعاملُ مع أجسام مادية، النجوم والصخور والنباتات والحيوانات، والتي يمكن دراستها بالتجاربِ أو القياس الكمي. ومن جهة أخرى، تتعامل العلومُ الإنسانية (كالأنثروبولوجيا، والتاريخ، وعلم النفس) مع سلوك الإنسان. وتعتبر بعضُ أنواع التجارب على البشرِ لا أخلاقية، كما أنَّ السلوك الإنساني معقّد بما يكفي لدحْض إمكانية قياسِه كميًّا كما هو حال العلوم الصلبة، مما يحبط محاولات توقُّع السُّلوك المستقبلي. لكن ما يُغفل عنه عادةً هو أنَّ العديد من العلوم الطبيعية لديها جانبٌ سفلي ليِّن، ألا وهو تاريخيَّتها؛ فالنظريات التي طرحتها العلوم الطبيعية لتفسير نشوءِ الظواهر الطبيعية (مثل الديناصورات، القارات، الكواكب) تاريخية في جانب كبير منها وليست تجريبية، وذلك في تركيزها على حدثٍ فريد لم يتكرَّر، ولا يمكن محاكاته في المختبر»[٢].

وسوفَ يظهر في الباب الثاني أنَّ كثيرًا من النظريات العلمية التي يزعم الملاحدة أنها تعارضُ الإيمان بالخالق أو الدين هي مِن هذا القبيل، مثل: نظرية الانفجار العظيم، ونظرية التطوُّر.

---

(١) المصدر السابق (٣٤).

(2) The Limitations of Scientific Truth (93-94)

وبهذه الأوْجه الخمسة يظهر أن المقدِّمة الأولى لهذه الشبهة ضعيفة جدًّا؛ فالعلم التجريبي أحدُ طرق الوصول إلى المعرفة، وليس الطريق الوحيدة. ولا يمكن وصفُ النظريات العلمية التجريبية كلِّها بأنها يقينية، بل كثير منها ظنية أو وهمية.

- **الردُّ على المقدِّمة الثانية:**

يدَّعي الملاحدة أنَّ العلم التجريبي يتعارض مع الإيمان بالخالق، وقد ردّ عليهم علماءُ الغرب من خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: عندما يقول الملاحدة إنَّ العلم التجريبي يتعارض مع الإيمان بالخالق، فإنَّهم يرتكبون مغالطة منطقية تسمّى «مغالطة تجسيد المجرّدات»[١] (Fallacy of Reification). وذلك أنَّ العلم التجريبي لا يتكلَّم، وإنما يتكلّم العلماءُ باسم العلم التَّجريبي وفقَ استنتاجاتهم. وقد بيَّن ذلك الدكتور جاسون ليزلي إذ قال: «تجسيد المجرَّدات هو أن تنسبَ صفةً واقعية لشيء مجرَّد... استعمال تجسيد المجرّدات كجزء من حجَّة منطقية يعدُّ مغالطة، وسببُ اعتباره مغالطة هو أنَّ استعمال مثل هذا التعبير البلاغي غالبًا ما يؤدّي إلى التباس المعنى، وقد يخفي نقاطًا مهمَّة في مناظرة ما. فمن الشائع جدًّا لمناصري مذهب التطوُّر أن يرتكبوا هذه المغالطة. ولننظر في بعض الأمثلة عنْ مغالطة تجسيد المجرّدات... «يقول الخلقيون إنَّ العالم خُلق بشكل خارق للطبيعة، لكنَّ **العلم** يقول غير ذلك». لقد نسبَ الشخص الذي كتب هذه الجملة أوصافًا شخصيَّة واقعية لمفهومٍ مجرَّد، وهو **العلم**. وقد تجاهل بذلك الحقيقةَ الهامَّة؛ أنَّ **العلماء** يأخذونَ الاستنتاجات من الدليل، ويصفون هذه الاستنتاجات لغويًّا، وليس «العلم» مَن يقوم بهذا. العلمُ أداة معرفية يمكن استعمالُها بطريقة صحيحة أو خاطئة، فهو لا يقول شيئًا، ولا يتَّخذ موقفًا في القضايا المطروحة. وهكذا نجد أنَّ هذا المثال الشائع من تجسيد المجرَّدات هو مغالطةٌ منطقية»[٢].

---

(١) سيأتي التفصيلُ عن هذه المغالطة في مبحث: المغالطات المنطقية.

(2) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 12

الوجهُ الثّاني: العلماء أنفسُهم بَشَر، وليسوا موضوعيّين، بل يتأثّرون بالبيئة المحيطة بهم كما سبقَ بيانه. والادِّعاء أنَّ العلماء موضوعيون يعدُّ مغالطة أيضًا؛ قال البروفسور نيجل بروش: «إنَّ الاعتقاد الشائع بأنَّ العلماء يمكن أن يكونوا موضوعيين كليًّا أثناء دراستهم للماضي مغالطة واضحة. فلا يمكنهم إنكارُ تأثير الثقافة على العلم بالقدر ذاتِه الذي لا يمكِّنهم من إنكار حدودِ أجسادهم المادية»[١].: فـ«العلماء الأذكياء يفهمونَ أنَّ التحيُّزات السياسية والثقافية لا بدَّ أن تؤثر في أفكارهم ويجهَدون ليميّزوا هذه التأثيرات الحتمية»[٢].

والثقافةُ المحيطة بالعالم تؤثّر بشدَّة في استنتاجات علماء هذه النظريات العلمية التاريخية؛ قال البروفسور نيجل بروش: «إذن، فحينَ يحاول العلماء تفسير الحاضر بالنظر إلى الماضي فإنَّهم يدخلون مجالَ التاريخ. وحين يحاولون إعادةَ تصوُّر ما كان عليه العالَم أو الكونُ في فترات مضت؛ فإنَّهم لا يُجرون التجارب ولا يقيسون الكميّات، بل هم في الواقع يكتبون التاريخ. ولكن، يا لَه من حظٍّ عاثر؛ فإنَّ كتابة التاريخ تتأثّر بشدة بثقافة كاتبِه. فقد رأينا في القرن العشرين جماعاتٍ تحاول إعادةَ كتابة التاريخ بناء على توجُّهاتها السياسية أو العرقية أو الجنسية»[٣].

والثقافةُ المحيطة بكثير من العلماء اليوم هي ثقافة علمانية إلحادية توجب قبولَ النظريات العلمية المعارضة للدين - مثل نظرية التطوُّر كما سبق -. فكوْن كثير من العلماء تلقَّوا هذه النظريات وتظاهروا بأنها صحيحة ترجعُ إلى أسباب نفسية أكثر من كونها علمية؛ قال البروفسور فريد هويل[٤]: «بالفعل إنَّ أمثال هذه النظرية (أنَّ ذكاءً قد

---

(1) The Limitations of Scientific Truth (102)

(2) Literary Bias on the Slipperly Slope. In Bully for Brontosaurus: Reflections in Natural History (241), W.W. Norton (1991)

(٣) المصدر السابق (٩٦).

(٤) فريد هويل (Fred Hoyle): عالم الفلك والرياضيات البريطاني. وكان يعمل كبروفسور في جامعة كامبردج المشهورة، وقد ألَّف عددًا من المؤلفات في تبسيط العلوم لعامة الناس. توفي عام ٢٠٠١م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Fred – Hoyle

ركّب أجزاء الحياة) واضحة جدًّا، لدرجةٍ يتعجَّب المرء عن سبب عدم قبولها على نطاقٍ واسع باعتبارها مسلَّمة، الأسباب نفسية أكثر منها علمية»[1].

فهذه النظرياتُ العلمية المعارضة للإيمان بالخالق – وعلى رأسها نظرية التطوّر – ليست قوية علميًّا؛ بل هي باطلة، وسببُ قبولها لدى بعض العلماء هو عواملُ نفسية. وقد اعترفَ بذلك البروفسور الملحد ديفيد واطسون[2]: «نظريةُ التطور نظرية مقبولة بشكلٍ عام، ليس لأنَّه يمكن إثباتُ صحَّتها بالأدلة المحكمة منطقيًّا، بل لأنها البديلُ الوحيد، فمِن الواضح أنَّ الخلق الخاص لا يمكن تصديقه»[3].

الوجهُ الثّالث: ليس العلماءُ المتخصِّصون في العلوم التجريبية كلهم ملاحدة، بل بالعكس، هناك كثيرٌ من العلماء يؤمنون بوجود خالق؛ قال البروفسور جون لينوكس: «الصراعُ الحقيقي ليس صراعًا بين العلم والإيمان أبدًا، ولو كان كذلك فالمنطق البسيط يقتضي أن يكون العلماءُ كلُّهم ملحدين، وغيرُ العلماء فقط هم المؤمنون. ولكن كما شاهدْنا ليس هذا واقع الحال»[4]. وهذه الرسالة العلمية أكبرُ شاهد على ذلك، فإنها مبنيَّة على ردود علماء الغرب أنفسهم على الإلحاد.

الوجهُ الرّابع: ويحاول الملاحدةُ أن يقدِّموا للناس أنَّ العلم التجريبي كان في حرب ضَروسٍ مع الدين عبرَ التاريخ، وفي الأخير انتصر العلمُ التجريبي على الدين. ولكن هذا

---

(1) Fred Hoyle, Chandra Wickramasinghe, Evolution from Space, New York: Simon & Schuster, 1984, p. 130

(٢) ديفيد واطسون (David Watson): بروفسور علم الحيوان البريطاني، ويعتبر أحدَ أبرز علماء الاستحاثة في القرن العشرين. وكان زميلًا للجمعية الملكية المرموقة في بريطانيا. توفي عام: ١٩٧٣م. انظر:

https://www.geosociety.org/documents/gsa/memorials/v05/Watson - DMS.pdf

(3) D.M.S. Watson, “Adaptation,” Nature, Vol. 123 [sic Vol. 124] (1929), p. 233

(4) God’s undertaker (28)

الزعمُ غيرُ صحيح؛ فقد ذكر البروفسور كولن روسل [(١)] أنَّ الاعتقاد الشائع أن العلاقات الحقيقية بينَ العلم والدين عبرَ القرون الأخيرة تميَّزت بالعداء العميق والمستمر؛ ليست دقيقة تاريخيًّا، بل هو في الواقع كاريكاتورية بشكل مبالغ جدًا، لدرجة أننا نحتاجُ أنْ نبحثَ عنْ تفسيرٍ كيف يصلُ هذا الاعتقاد إلى أيِّ درجة من التقدير العام[(٢)].

فلا شكَّ أنَّ بعضَ العلماء التجريبيين ملاحدةٌ ويحاربون الأديان، ولكن لا يعني ذلك أنَّ العلم التجريبي نفسَه مُعادٍ للإيمان؛ قال البروفسور جون لينوكس: «إن محاربة بعضِ العلماء للإيمانِ بالله لا يعني تمامًا أنَّ العلم نفسَه في حرب مع الإيمان بالله»[(٣)].

ومعَ ذلك فإنَّ كبارَ علماء العلم التجريبي عبرَ القرون كانوا يؤمنون بالخالق كما تقدَّم بيانه. وكذلك يقال: إنْ كانت هذه نقطةً سوداء في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في فترةٍ تاريخية معيَّنة فإنه لا يصدق على التاريخ الإسلامي؛ لأنَّ الله يحثُّ على التفكُّر والتدبُّر في ملكوت السماوات والأرض، واستخدام العقل في مواضع كثيرة من القرآن، وكان المسلمون في القرون الأولى مِن ظهور الإسلام يولونَ العلمَ التجريبي عناية فائقة، بدون أنْ يعارضه علماء الدين.

الوجهُ الخامس: الحقُّ أنَّ العلم التجريبي يدلُّ على وجود الخالق وليس على الإلحاد؛ فالعلمُ التجريبي يهتمُّ بدراسة الطبيعة، والطبيعة على صيغة فعيلة، بمعنى مخلوق. فالطبيعة مخلوقة، وكلُّ مخلوق لا بدَّ له من خالق؛ قال الإمام ابن القيم (رحمه الله): «لو تأمَّلت قولك: طبيعة ومعنى هذه اللفظة، لدلَّك على الخالق البارئ

---

(١) كولن روسل (Collin Russel): بروفسور في تاريخ العلم في جامعة كامبردج سابقًا، وقد تخصّص في علاقة الدين بالعلوم التجريبية وألَّف في هذا الموضوع كتبًا وأبحاثًا. توفي عام: ٢٠١٣م. انظر:

https://web.archive.org/web/20070827090416/http://www.hps.cam.ac.uk/dept/russell.html

(2) The Conflict and its Social Origins, Science and Christian Belief (1/3),1989

(3) God's Undertaker (19)

لفظها كما دلَّ العقول عليه معناها، لأنَّ طبيعة: فعيلة، بمعنى: مفعولة أي: مطبوعة. ولا يحتمل غير هذا ألبتة؛ لأنَّها على بناء الغرائز التي رُكِّبت في الجسم، ووُضِعت فيه كالسجية، والغريزة، والبحيرة، والسليقة، والطبيعة هي التي طُبع عليها الحيوان، وطُبعت فيه. ومعلوم أن طبيعةً مِن غير طابع لها مُحال، فقد دلَّ لفظُ الطبيعة على البارئ تعالى، كما دلَّ معناها عليه. والمسلمون يقولون إنَّ الطبيعة خلقٌ من خلق الله، مسخَّر مربوب، وهي سنته في خليقتِه التي أجراها عليه، ثمَّ إنه يتصرَّف فيها كيف شاء، وكما شاء، فيسلبها تأثيرها إذا أراد، ويقلبُ تأثيرها إلى ضدِّه إذا شاء، ليرى عبادُه أنَّه وحده الخالق البارئ المصوّر، وأنه يخلقُ ما يشاء كما يشاء، وإنَّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون»[1].

ومِن أقوى الحجج على وجود الله: الحجة الكونية، والحجة الغائية، وكلتاهما تعتمد على العلم التجريبي. وسيأتي بيانُه مفصَّلًا في الباب الثاني، معَ ذكر عددٍ كبير من الأمثلة - إن شاء الله -.

فخلاصةُ هذا المبحث أنَّ الملاحدة يدَّعون أنَّ السبيل الوحيد إلى المعرفة اليقينية هو العلمُ التجريبي، والعلمُ التجريبي يعارض الإيمان بالخالق، ولكن هذه الحجة لا أساس لها في الواقع، وهي شبهةٌ واهية من أوْجه كثيرة. والحقُّ أنَّ هذه الحجة تنقلب عليهم حيث أنَّ العلم التجريبي يدلُّ على وجود الخالق، لا العكس.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٦٢).

المبحثُ الثّالث

تعظيمُ العقل

كما أنَّ الملاحدة الجدد يتظاهرونَ بتعظيم العلم التجريبي فإنهم يدَّعون أنهم يعظِّمون العقل أيَّما تعظيم، ولا تفترُ ألسنتهم عن إطلاق الألفاظ الرنَّانة على أنفسهم، مثل أنهم: عقلانيون، وأذكياء، ومنطقيون. كما أنَّ دعاتهم يكررون الحديثَ على مسامع مُريديهم أنَّ الأديان تخالف العقل والمنطق، وأن المتديّنين غير عقلانيين.

ويتلخَّص موقفُهم من العقل في أمريْن:

الأمرُ الأوَّل: ادِّعاؤهم أنَّهم عقلانيون دون غيرهم:

مِن مظاهر هذا الأمر أنَّ الملاحدة يفضِّلون تسميةَ جمعياتهم ومنظّماتهم بأسماء مرتبطة بالعقلانية. فمِن المنظَّمات والجمعيات الإلحادية: «منظَّمة العقلانية العالمية» (Rationalist International)[1]، «حركة الأذكياء العالمية» (International Brights Movement)[2]، و«الجمعية العقلانية» (Rationalist Association) في بريطانيا[3]، و«الجمعية العقلانية الأسترالية» (Rationalist Society of Australia)[4]، و«اتّحاد الجمعيات العقلانية الهندية» (Federation of Indian Rationalist Associations) وهي تضمّ خمسين جمعية إلحادية في الهند[5]، و«مؤسسة ريتشارد دوكينز للعقلانية والعلم»

---

(١) انظر: https: / /www.rationalists.net /about – us

(٢) انظر: http: / /www.the – brights.net /vision /faq.html

(٣) انظر: https: / /newhumanist.org.uk /history

(٤) انظر: https: / /www.rationalist.com.au /about – us /

(٥) انظر: http: / /www.indiansceptic.in /fira.htm

التي يرأسها (The Richard Dawkins Foundation for Reason and Science) ريتشارد دوكينز[1].

ويروْن أنَّ الدين للعامَّة، والإلحاد للأذكياء؛ فقد نقلَ زعيمُ الملاحدة الجدد ريتشارد دوكينز مقالةَ الفيلسوف الرومي سنيكا[2]: «الدين يعتبر صحيحًا عند العامَّة، وباطلًا عندَ الأذكياء، نافعًا عند الحكَّام»[3]. وفي ذلك إشارة إلى احتقارهم للمتديّنين، ووصفِهم بأنهم غير حكماء.

وقال كريستوفير هيتشين معدِّدًا مفاسدَ الدين - في زعمِه - : «الدينُ عدواني، وغير عقلاني، ومتعصِّب...»[4]. وقد نقلَ سام هاريس هذه الجملة في مقالٍ كتبه بعنوان: «الدّين كالسوق السوداء للاعقلانية» (Religion as a Black Market for Irrationality) إقرارًا له[5].

وذكرَ الفيلسوف الملحدُ الفرنسي ميشال أنفراي أنَّ الله لا يحبُّ العقلانية - تعالى اللهُ عن ذلك -، حيث قال: «إنَّ الله يميت أيَّ شيء يقف في طريقه، ابتداءًا من المنطق، والعقل والتفكير النقدي»[6].

ويكثرُ من الملاحدة الاستهزاءُ من المتديِّنين في وسائل التواصل أنهم أغبياء وغير عقلانيّين؛ فعلى سبيل المثال: فتحَ الملاحدة رابطًا في منتدى «جمهورية الإلحاد»

---

(١) انظر: http: / /www.richarddawkins.net /aboutus

(٢) سنيكا (Seneca): فيلسوفٌ وسياسي روماني، ويعتبر أحدَ أكثر المفكِّرين تأثيرًا في القرن الأوّل بعد المبلاد. توفي عام ٦٥ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Lucius – Annaeus – Seneca – Roman – philosopher – and – statesman

(3) The God Delusion (313)

(4) God is not Great (56)

(٥) انظر: https: / /www.samharris.org /blog /item /religion – as – a – black – market – for – irrationality

(6) In Defense of Atheism: The Case Against Judaism, Christianity and Islam (13)

(Atheist Republic) - وهو أحدُ أشهر المنتديات الإلحاديَّة في الشبكة - عن: الأشياء الغبية التي يقولها المتديِّنون (Stupid things religious people say)[1]، وأكثروا فيها من الاستهزاء بحماقة المتديِّنين - في زعمهم -.

فهذا يدلُّ على النَّظرة الاستعلائية الموجودة عند الملاحدة الجدد، وأنهم يعتبرونَ أنفسَهم عقلاء وأذكياء، وغيرهم أغبياء وحمقى.

الأمرُ الثّاني: زعمُهم أنَّ الإيمان يخالف العقل:

هذا الأمرُ يركِّز عليه الملاحدةُ كثيرًا في مناظراتهم وكتبهم، ومِن الأمثلة على هذا: قولُ البروفسور الملحد أليكس روسينبيرغ - على سبيل المثال - في مناظرته مع البروفسور وليام لاين كرايغ: «موضوعُنا هو: هل الإيمانُ بالله عقلاني؟ ولكن بالطبع، فإن الإيمان حسبَ تعريفه هو معتقدٌ خالٍ من الأدلة»[2]. وقال ريتشارد دوكينز: «بيتُ القصيد من الإيمان الديني، وقوَّته ومجده الأساسي أنَّه لا يعتمد على مبرر عقلاني»[3]. ولهذا يساوي دوكينز بينَ الإيمان والوهم، حيث قال: «الإيمان معتقدٌ بلا حجة ولا منطق. وبنفس الوقت، فإنَّ هذا هو تعريف الوهم»[4].

فالإيمانُ بالله عندهم لا يعتمد على حججٍ عقلانية، وكذلك الإيمان بسائر الغيبيات كالبعثِ والنشور؛ قال جوليان هوكسلي[5]: «ينبغي أن نكون لاأدريين عن

---

(١) انظر:
http://www.atheistrepublic.com/forums/atheist-hub/stupid-things-religious-people-say?page=

(2) http://www.reasonablefaith.org/debate-transcript-is-faith-in-god-reasonable#ixzz4uGbMof9n

(3) Gods delusion (45)

(٤) انظر: https: / /www.nobeliefs.com /belief – quotes.htm.

(٥) جوليان هوكسلي (Julian Huxley): بروفسور علم الحيوان البريطاني، وشغل منصبَ رئيس يونيسكو في الأمم المتحدة، كما أنه كان رئيسَ الاتّحاد الإنساني البريطاني. توفي عام: ١٩٧٥م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Julian – Huxley

الأمور التي لا تعتمدُ على أدلة. لا ينبغي أن نعتقدَ أشياء لنشبع غرائزنا مثل: الإيمان بالآخرة، والخلود، والجنة والنار، إلخ»[١].

ويروْن أنَّ الذي يؤمنُ بالمعجزات غيرُ عقلاني؛ فقد استهزأ ريتشارد دوكينز في مقابلتِه مع مذيع مسلمٍ يؤمن بانشقاق القمر والإسراء والمعراج، لأنه كلامٌ فارغ من الناحية العقلانية، وأنَّ ذلك لا يليق بصحفي ذكي في القرن الواحد والعشرين[٢].

ردودُ علماء الغرب على المَلاحدة في موقفهم من العقل:

بما أنَّ كلامَ الملاحدة عن العقلانية والمنطق حاضرٌ بقوة في خطابهم فإن علماء الغربِ قد اعتنوا بهذا الجانبِ كثيرًا، وأفردوا فيه المؤلفات والمقالات؛ فقد اشترك ثلاثة عشَر من فلاسفة الغرب[٣] في كتابةِ مقالات عن هذا الموضوع، وضمّوها في كتاب: «عقلانيَّة اللاهوت» (The Rationality of Theism). وألّف البروفسور كيث وارد[٤] كتابًا مستقلاً في هذا الموضوع سمَّاه: «هل الدين غير عقلاني؟» (Is religion Irrational?). ويهتمُّ البروفسور وليام لاين كرايغ بهذا الموضوع كثيرًا، فقد سمَّى موقعه: «الإيمان العقلاني» (Reasonable Faith)[٥]، كما أنه ألَّف كتابًا بهذا الاسم. وقد ناظرَ ملاحدة في مناظرات عديدةٍ عن هذا الموضوع، مثل: مناظرته مع أليكس رويسنبيرغ باسْم: «هل الإيمانُ بالله عقلاني؟» كما تمَّت الإشارة إليها.

وهذا غيضٌ من فيض مِن جهودهم في الردِّ على موقف الملاحدة من العقل. وبعض هذه الرُّدود قوية وجيِّدة. وتلخيصُ هذه الردود فيما يأتي:

---

(١) المصدر السابق

(٢) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=bHvxiQbQ37I

(٣) تسعة منهم يحملون درجة بروفسور في الفلسفة في جامعات الولايات المتَّحدة.

(٤) كيث وارد (Keith Ward): بروفسور الفلسفة في جامعة أكسفورد المشهورة. وهو متخصِّص في فلسفة الدين، مهتمٌّ بنقد الإلحاد. وقد صنَّف عددًا من الكتب في ذلك. انظر: https://www.keithward.org.uk/about/

(٥) انظر: http: / /www.reasonablefaith.org /

- **الردُّ على النقطة الأولى:**

ادَّعى الملاحدةُ أنَّهم عقلاء وأذكياء، وأنَّ المتديِّنين حمقى وأغبياء. وهذا الادِّعاء مشتملٌ على أمرين:

الأمرُ الأوَّل: يزكّي الملاحدةُ أنفسَهم بأنهم عقلانيون ومنطقيون. ولكن هذا الادِّعاء لا يستندُ إلى أسسٍ ثابتة وأصول راسخة، بل زعمَ الملحدُ أنه عقلاني متناقض. وبيانُ ذلك من أربعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: رغمَ أنَّ الملاحدة يتظاهرون بأنهم عقلانيون، ومع ذلك فإنهم لا يستطيعون - وفقَ المنهج الطبيعي الذي يتبنّونه - تفسيرَ وجود هذا التفكير المنطقي لدى الإنسان؛ قال البروفسور بيتر غيتش[1]: «عندما نسمعُ عن محاولة جديدة لتفسير التَّفكير المنطقي من ناحية طبيعية، فإنَّه ينبغي أن تكون ردَّة فعلنا كما لو أننا أخبرنا بأن شخصًا ما قد استطاعَ أن يجعل الدائرة مربّعًا»[2]. هناك محاولاتٌ كثيرة من الملاحدة في تفسيرِ الوعي الإنساني والتفكير المنطقي بطريقة علمية، ولكن كلُّها باءت بالفشل. وسيأتي تفصيلُ هذا الأمر عندَ الحديث عن حجّة الوعي في الباب الثاني إن شاء الله.

الوجهُ الثّاني: بما أنَّ الملاحدة لا يؤمنون بالخالق، فلا بدَّ أن يقولوا إنَّ الكون وكلَّ ما فيه - ومِن ذلك العقل الإنساني وتفكيره المنطقي - وُجِد نتيجة للصدفة. وقد لخّص ريتشارد دوكينز اعتقادَ الملاحدة في الكون والبشر بقوله: «الكونُ لا شيء سوى مجموعة مِن الذَّرات المتحرّكة، والبشرُ هُم ببساطة: آلات لتكاثر الحمض النووي.

---

(١) بيتر غيتش (Peter Geach): بروفسور علم المنطق البريطاني. وقد تحوَّل إلى الكاثوليكية وهو طالبٌ في جامعة أكسفورد. وألّف عددًا من الكتب في فلسفة الدين. توفي عام ٢٠١٣م. انظر: https://www.theguardian.com/education/2013/dec/26/peter - geach

(٢) The Virtues (52), Peter Geach, Cambridge University Press (1977)، نقلته بواسطة كتاب: الحقيقة الإلهية.. والإسلام.. وسراب الإلحاد (١٠٢).، لحمزة أندرياس تزورتزس، (مركز دلائل، الطبعة الأولى، ٢٠١٧ م. ترجمة: نايف الملا).

وتكاثر الحمض النووي عمليةٌ ذاتية الاستدامة»[1]. وكلُّ ذلك نتيجة للصدفة، فلا يوجد خالق، ولا غاية من الكون ولا البشر.

وحينذاك يبقى سؤال: كيف نثقُ في هذا العقل المتكوِّن من ذرَّات متحرِّكة وُجدت نتيجةً للصدفة بدون خلقٍ ولا غاية؟ قد بيَّن دين أوفرمان[2] تناقضَ الملاحدة في هذا الباب إذْ قال: «الاقتراح بأنَّ الكون يكون محتملًا للحياة، وأنَّ الشكل الأوّل من الحياة قدْ تطوَّر بالصدفة وليس بالتصميم؛ يثير المعضلةَ التالية: لو أنَّ التفكير المنطقي كان مجرَّد صدفة، فهل سيكون جديرًا بالثقة؟ أو لنعدِّل هذا الغموض فنقول: هل من الممكن أنَّ ما نتجَ صدفة يصفُ بدقة الصدفَ التي سبقته؟... لكنْ لو أن كلًّا من تفكيري وتفكيركَ صُدفٌ فقط (أليس نتاجُ الصدفة صدفة أيضًا؟) فلماذا أعتبر تفكيري صحيحًا أو منطقيًّا؟ أليس هو صدفةً فحسب؟ كيف نثقُ بالفكر لو كان نتاجًا للصدفة؟»[3].

وإنْ كان الأمرُ كذلك، فلا ينبغي للملاحدة أنْ يتظاهروا بالتفكير العقلاني، بل يجبُ عليهم أن يشكُّوا في نتائج تفكيرهم، وبالتالي في إلحادهم؛ قال البروفسور ألفين بلانتينغا: «إن كان دوكينز محقًّا أنَّنا نتيجة عمليات طبيعية غير موجَّهة، فإنه يعطينا سببًا قويًّا أن نشكَّ في قدرات المعرفة البشرية؟ وعليه، فإنه لا بدَّ أن نشكَّ في نتائج معتقداته، ويدخُل في ذلك: علمُ دوكينز التجريبي وإلحادُه. يظهر أنَّ علمه بالبيولوجيا وإيمانه بمنهج المذهب الطبيعي في حربٍ مع بعض. وهذا الصراعُ لا علاقة له بالإله أصلًا»[4].

---

(1) BBC Christmas Letter Study Guide (1991)

(٢) دين أوفرمان (Dean Overman): محامي أمريكي، ومهتمٌّ بنقد الإلحاد، وقد صنَّف عددًا من الكتب في ذلك، مثل: قضية ضدَّ العشوائية والتنظيم الذاتي، وهو كتاب متميّز في هذا الباب، وسيتمُّ النقل منه كثيرًا في الرسالة. انظر: http: / /www.deanoverman.com / about – dean – overman.html

(3) A Case Against Accident and Self-organization (4)

(4) (54) Gunning for God-Why the Atheists are missing the target

الوجهُ الثّالث: الملحدُ المؤمن بنظرية التطوُّر يعتقد أنَّ الإنسان قد تطوَّر من حيواناتٍ أدنى، وقد استدعَى هذا الأمر شكَّ تشارلز داروين - مؤسس نظرية التطوُّر - في قدرات الإنسان العقلية، فكتب لأحدِ أصدقائه: «ينتابني دائمًا شكٌّ فظيع حول ما إذا كانت قناعاتُ عقل الإنسان - والذي بدوْره تطوّر من عقول كائنات أدنى - تتمتع بأيِّ قيمة، أو تستحقُّ أدنى ثقة. هل أحدٌ يثق في قناعاتِ عقل القردة، إن كانت فيها قناعات أصلًا؟»[1].

ووفقَ نظرية التطوُّر فإنَّ الانتخاب الطبيعي يسعى لبقاء الأصلح فقط، وهذا لا ينتج عقلًا يبحث عن الحقيقة؛ قال البروفسور الملحد جون غراي[2]: «المذهب الإنساني المعاصر هوَ الإيمان أنَّ الإنسانية تستطيع معرفة الحقِّ والتحرُّر بوساطة العلم التجريبي. ولكنْ إن كانت نظريةُ داروين عن الانتخاب الطبيعي صحيحة فإنَّ ذلك مستحيل. العقلُ الإنساني يخدم التقدَّم التطوُّري ولا يخدم الحقّ»[3].

الوجهُ الرّابع: الملحدُ المؤمن بالمذهبِ المادي يحتكمُ إلى قوانين المنطق، مع أن هذه القوانينَ ليست مادية، وهذا تناقض؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: «لا يمكن لبعض رؤى العالم أن تكونَ صحيحة كليًّا، خذْ مثلًا ما: فشخصٌ مثله يؤمن أن كل الأشياء مادية، ولا وجودَ لشيء غيرِ مادي. يستخدم المؤمنُ بالمذهب المادي العقل وقوانين المنطق ليدعمَ ما يؤمن به، لكنَّه يقوم بذلك بشكلٍ غير متوافق للغاية. ففي رؤياه، لا وجود لقوانين منطقية، لأنَّها ليست بذات وجودٍ مادي. فلا يوجد مكان في الكون يمكن أن «ترى» فيه قوانينَ المنطق. إنها مجرَّدة، ولذا فلا يمكن لها أنْ توجد [في الخارج] بالنسبة إلى مُعتقدات الماديين المعترَف بها عندهم. إنَّ استدلال المؤمن بالمذهب المادي يرد نفسه بنفسه»[4].

---

(1) Charles Darwin to W. Graham, the Life and Letters of Charles Darwin, vol.1, p.285

(٢) جون غراي (John Gray): بروفسور الفلسفة البريطاني. وهو متخصّص في الفلسفة التحليلية وتايخ الأفكار. انظر:
https://www.goodreads.com/author/show/3312074.John_N_Gray

(3) Straw Dogs, 26, Granta Books (2007)

(4) Taking back astronomy (103-104)

قدْ يعترض الملحدُ المادي ويقول: قوانينُ المنطق اصطلاحات اخترعها الإنسان. وقد أجابَ الدكتور جاسون ليزلي على هذا الاعتراض بقوله: «الاصطلاحات (بالتعريف) عرفيَّة. أي أنَّنا نتَّفق كلُّنا عليها، وكذلك على العمل بها؛ مثل القيادة على الجانب الأيمن من الطريق. لكنْ إن كانت قوانينُ المنطق عرفية، فإنَّ الحضارات المختلفة ستأخذ قوانينَ منطق مختلفة (مثلَ القيادة على الجانب الأيسر من الطريق). إذًا من الممكن في بعضِ الحضارات أن تناقضَ نفسَك دون أي بأس، ولذا يمكن أن تكون الحقيقة في بعضِ المجتمعات مناقضةً لنفسها! مِن الواضح بأن ذلك مخالفٌ للواقع. إذا كانت قوانين المنطق مجرَّد اصطلاحات، فإنَّها ليست قوانين كونية. سيكون الجدال العقلاني مستحيلًا إنْ كانت قوانينُ المنطق عرفية، لإمكانية انتقاءِ الخصمين لمعايير مختلفة للاستدلال ببساطة، وكلٌّ منهما سيكون على حقٍّ وفقًا لمعياره الاعتباطي»[1].

فعقلانيةُ الملحد المزعومة لا تستندُ إلى شيء، بل هي عقلانية متناقضة؛ فالملحد آخرُ مَن ينبغي أن يتحدَّث عن التفكير المنطقي والعقلاني.

وأمّا المؤمن فإنه يستطيع أن يفسِّر وجود التفكير المنطقي بأن الله خلق العقل في الإنسان؛ «... فإنَّ الملحدين في الواقع يحتاجون للإله ليتمكّنوا من تفسير امتلاكهم لقدراتٍ عقلانية. ولذلك، فإنَّ وجودَ موجود متَّصف بكمال العلم والحكمة هو أفضل تفسيرٍ لكونٍ يشتمل على كائناتٍ مدركة لها قدرة على التفكير بعقلانية. الألوهية الإسلامية تقدِّم جوابًا بسيطًا وجميلًا، وهو أنَّ الإله خلقنا وأعطانا عقولًا ورغبة في الاستكشاف لمساعدتِنا على إكمال غايتنا. وأحدُ الطرق التي اختارها الإله لنا لنحقّق هذه الغاية هي بتوجيهِنا إلى خلقه، وحثِّنا على النظر في هذا الخلق الذي تكمن فيه علاماتُه. فعنْ طريق التأمُّل والتفكُّر في هذه العلامات نستطيع معرفة عظمته وقدرته على الخلق حقَّ المعرفة، وهذا يقودنا بطبيعة الحال إلى عبادته... فالإله بقدرته وإرادته خلقَ الكون وخلقَ عقولنا، وهذا يفسِّر قدرتَنا على التفكير العقلاني وعلى اكتشاف المبادئ المترابطة في الطبيعة»[2].

---

(1) A Pocket Guide to Logic & Faith (67)

(٢) الحقيقة الإلهية (١٠٤ – ١٠٥).

الأمرُ الثّاني: يصفُ الملاحدة المتديِّنين بأنَّهم حمقى وغير عقلاء، وهذا يدلُّ على كبرياء الملاحدة واحتقارهم للآخرين؛ قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي: «فهؤلاء الملاحدة - ومَن قلَّدهم - : علومهم نفختْ فيهم روح الكبرياء، وصيَّرتهم بطور غيرِ طورهم، ورأوا بها العباد أخسَّ من الحيوان البهيم، وهُم في الحقيقة الأرذلون»(١). والكبرُ من أبرز سمات الملاحدة في القديم والحديث، فها هو فرعون يقول: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢]، ومع أن الكبر واحتقار الآخرين من الصفات المذْمومة لدى أغلبِ العقلاء، فإنَّ احتقار الملاحدة للمتديّنين متناقض. ويبرز هذا التناقض في ثلاثة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: الملاحدةُ الجدد يحترمون الفلاسفة الغربيين، ويرفعون من شأنهم في كتبِهم، مع أنَّه لم يكن أحد - تقريبًا - منهم ملحدًا؛ قال البروفسور كيث وارد: «كلُّ الفلاسفة العظماء تقريبًا - ومنهم بالتأكيد أفلاطون، وأرسطو، وديكارت، وليبنز، وكانت، وهيغل، ولوك، وبيركلي - رأوا أنَّ أصل الكون يكمن في حقيقة فوق المادة، ويتباينُ هؤلاء الفلاسفة بأفكارهم الخاصَّة بخصوص هذه الحقيقة، واتخذوا طرقًا مختلفة لمقاربتِها، لكنَّهم اتفقوا على أمرٍ ظاهر نسبيًّا؛ وهو أنَّ الكون غير مفسَّر ذاتيًا، وأنه يحتاج إلى تفسير من خارجه»(٢).

وها هو دوكينز نفسُه يقول عن أرسطو: «وحسبَ ما أعرف فإن أرسطو هو الأكثر ذكاءًا ممَّن عاش من الناسِ»(٣). وأرسطو لم يكن ملحدًا، بل كان يعارض الإلحاد، وشيخُه أفلاطون سنَّ قوانين في معاقبة الملاحدة - كما سبق ذكرُه -.

---

(١) البراهين العقلية على وحدانية الربّ ووجوه كماله (٥١)، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، (دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ).

(2) God, Chance and Necessity (7), by: Keith Ward, (One World Publications, 2009)

(٣) قال ذلك في الفيلم الوثائقي:
The Enemies of Reason (https://www.youtube.com/watch?v=Daqofc-PXtY).

ودوكينز هو الذي قال عنْ إسحاق نيوتن: «إنه كان أحدَ أكبر العلماء عبر التاريخ»[1]. ونيوتن هو القائل: «حيث الإلحادُ أخرقُ وبغيضٌ للإنسانية لم يكن له أتباع إلّا القليل»[2]. فأكثرُ الناس ذكاءًا، وأكبرُ العلماء في التاريخ - فضلاً عن علماء وفلاسفة آخرين - لم يكونوا ملاحدة، بل عارضوه أشدَّ المعارضة. فدلَّ ذلك على وهن اتِّهام الملاحدة لغيرهم بأنهم غير عقلانيّين.

الوجهُ الثّاني: تتحلَّى كلمة الفلسفة بمكانةٍ مرموقة في العرف الغربي، والفيلسوف ذو الحكمة والتفكير المنطقي المستقيم. والتفكير العقلاني - الذي يدّعيه الملاحدة - مستمدٌّ من علوم الفلسفة[3]. ومعَ ذلك فإنَّ الملاحدة الجدد يتناقضون في هذا الباب. وذلك لأنَّ كثيرًا منهم لا يجيدون الفلسفة والتفكير المنطقي أصلًا. وقد سبق ما قال البروفسور ألفين بلانتينغا عن كتاب دوكينز: وهم الإله - وهو أشهرُ كتاب إلحادي في هذا الزمان على الإطلاق - : «مناوشات دوكينز في الفلسفة هي في أحسن الأحوال تعادلُ نقاشاتِ طلبة السنة الجامعية الثانية، ولكن ذلك سيكون غير عادل بالنسبة لهؤلاء الطلبة؛ الحقيقة أنَّه (معَ وضع ضخامة الدرجة جانبًا)، فإنَّ العديد من نقاشاته سوف تستحقُّ علامةَ الرسوب في صفِّ الفلسفة لطلاب السنة الجامعية الثانية»[4]. فدوكينز يسمِّي مؤسسته: مؤسسة ريشارد دوكينز للعلوم والعقلانية. وهذه شهادة بروفسور في الفلسفة أنه يستحقُّ علامة الرسوب في الفلسفة - وبالتالي في العقلانية -، ففرقٌ بين ما يدَّعيه لنفسه وما عليه الأمر في الواقع.

وعلاوةً على ذلك فإنَّه يظهر على ألسنة الملاحدة الجدد من حين إلى آخر أنهم

---

(1) The Magic of Reality (105), by: Richard Dawkins, Bantam Press (2011)

(2) Newton's Philosophy of Nature: Selections from his writings, p. 65, ed. H.S. Thayer, Hafner Library of Classics (1953)

(٣) وإن كان هناك لازمٌ بين الفلسفة والتفكير المنطقي في العرف الغربي فإنه لا تلازم بين الفلسفة والعلوم العقلية عند المسلمين؛ فقد وردت آياتٌ عديدة في القرآن تحثُّ على استخدام العقل، ولا يسمَّى ذلك بالفلسفة.

(4) The Dawkins Confusion (http://www.booksandculture.com/articles/2007/marapr/1.21.html)

يعادونَ الفلسفة، ولا يقيمون لها وزنًا. ومِن الأمثلة على ذلك قول ستيفن هوكينغ: «الفلسفة ماتت»، كما سبق ذكرُه مرارًا. وفي المقابل نجد أنَّ كثيرًا من علماء الغرب الذين يناظرونَ الملاحدة الجدد متعمِّقين في الفلسفة والمنطق إلى حدٍّ كبير. وقد سبق أنه اشتركَ ثلاثة عشَر فيلسوفًا في كتابٍ نقدي للإلحاد اسمه: عقلانية اللاهوت، وتسعة منهم بروفسور في الفلسفة. فهؤلاء أولى بالتفكير العقلاني من هؤلاء الملاحدةِ الجدد.

ومعَ ذلك، فإنَّ كلًّا من الإلحاد والنصرانية فيه أشياء كثيرة مخالفة للمنطق. ولا توجد عقيدة تتوافق معَ العقل السليم سوى الإسلام. وليس هذا محلَّ بسطه.

- **الردُّ على النقطة الثانية:**

وأمّا زعمُ الملاحدة أنَّ الإيمان يخالف العقل لأنَّه معتقد غير مبني على الحجج والبراهين، فيردُّ عليهم من ثلاثة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ هذا الكلام متناقض؛ لأنَّ هذا الادِّعاء نفسه لا أساس له، وهو غيرُ مبنيٍّ على أدلة؛ قال البروفسور جون لينوكس في ردِّه على تعريف دوكينز للإيمان: «وهكذا نجدُ في تعريف دوكنز الخاصّ للإيمان مثالًا صارخًا على نوعية التفكير التي ادَّعى مقتَها، أي الاعتقاد بلا دليل. وذلك لأنَّه في استعراضه الكبير الغارق بفقد الاتِّساق يغيبُ تمامًا وجودُ الدليل على ادِّعائه أن التحرُّر من الدليل هو ما يرضاه الإيمان. وعجزه عنْ تقديم دليلٍ ليس بسبب صعوبة وجوده، بل لعدم وجودِ دليل على هذا. ولا نحتاج لكثيرِ عناءٍ في البحث لندرك عدمَ وجود دارس أو مفكِّر متديّن يؤيد تعريفَ دوكنز للإيمان»[1].

وقال البروفسور فرانسيس كولنز: إنَّ تعريف دوكنز «بالتأكيد لا يصف إيمان معظمِ المؤمنين واقعيًّا في التاريخ، كما لا يصف إيمانَ معظم من أعرفهم شخصيًّا من المؤمنين»[2]. لا ينكر أنه يوجد في المتديِّنين مقلِّدةٌ لا يبنونَ إيمانهم على الأدلة

---

(1) God's Undertaker (17)

(2) The Language of God (164)

والحجج، وإنَّما وِلِدوا في أسرة متديِّنة فاتَّبعوا والديهم. ولكنَّ هذا هو الشأن عند بعض الملاحدة أيضًا، فكثيرٌ من الملاحدة اليومَ وُلدوا في أسرٍ إلحادية فألحدوا بسببِ تأثير الأسرة.

وأمّا المسلم فهو مأمورٌ ببناء إيمانه على أدلَّة، واللهُ تعالى أرسل رسله بالأدلة والبراهين؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، والقرآن يشتمل على أمثالٍ مضروبة كثيرة؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤]، والمراد بالأمثال في هذه الآية: «براهين وحجج تفيد تصورًا أو تصديقًا»[١]. فالحجج والبراهين الإيمانية كثيرة جدًّا في القرآن الكريم، حتى «قال العلماء: قد اشتمل القرآن العظيم على جميعِ أنواع البراهين والأدلة، وما من برهانٍ ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلّا وكتابُ الله قد نطقَ به»[٢]. ولكنْ ما يدري دوكنيز عن هذا، وهو القائلُ في تغريدةٍ له: «لم أقرأ القرآنَ فلا أستطيع أن أنقلَ منه بذكر السورة والآية كما أستطيعُه في الكتاب المقدَّس»[٣].

الوجهُ الثّاني: قد تبيَّن أنَّ إيمان المتديِّنين - ولا سيَّما المسلمون - مبنيٌّ على أدلة وبراهين. ولكن هل إيمانُ الملحد بإلحادِه مبنيٌّ على أدلة وبراهين؟ قد يجيب الملحدُ أنه غيرُ مُطالب بأدلَّة على إلحادِه، ولكنَّ هذا غيرُ صحيح؛ قال البروفسور وليام لاين كرايغ: «الجزمُ بأنه «لا يوجد إله» هو ادِّعاءُ علمٍ بشيء مثل الجزم بأنه «يوجد إله». وهذا الجزم الأوَّل بحاجةٍ إلى دليل مثل الثاني. هو اللاأدري الذي يقول إنه ليس عنده علمٌ بوجود الله أم لا. هو يعترفُ أنه لا يعرف هل يوجد إلهٌ أم لا»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٦٦).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٤ / ٦٠).

(3) https://twitter.com/richarddawkins/status/307369895031603200?lang=en

(٤) مقال:

Definition of Atheism, http://www.reasonablefaith.org/definition-of-atheism

والخلاصةُ أنَّه ليس للعقل أنْ «ينفي شيئًا إلّا بعلم، ولا يثبته إلا بعلم، ولهذا كان عامَّة العلماء على أنَّ النافي للشيء عليه الدليل على ما ينْفيه، كما أن المثبت عليه الدليل على ثبوته»[1].

والملحدُ بحاجةٍ إلى إقامة أدلةٍ كثيرة على معتقداته، وهو من أكثر ما يكرهه الملاحدة، ويحاولون دائمًا التهرُّب منه[2]. وذلك لأنَّ الملاحدة اعتادوا القيام بهدم عقائد الآخرين، وليس إقامة أدلةٍ على معتقداتهم. وعندما يحاولون إقامةَ الأدلة على الإلحاد يضعفُ موقفهم جدًّا؛ «فالتيارُ الإلحادي تيارٌ هدمي، يسعى أفراده إلى هدم التصوّرات الدِّينية دون أن يقدِّموا فلسفتهم الخاصَّة للوجود، ومتى سعوا في ذلك فمن السهل ملاحظةُ حالة التعجُّل والسطحية والحيْدة عن مواطن الإشكال، وهو ما يكشف عن مشكلاتٍ كثيرة تعصفُ بهذا الخطاب»[3]. وهذا ديدنُ أهل الباطل، وقريب منه ما ذكرَه القاضي أبو بكر ابن العربي عن أهلِ البدع إذ قال: «فإنَّ المبتدع إذا استدللت عليه شغَّب عليك، وإذا دعوتَه إلى الاستدلال لم يجد إلى ذلك سبيلًا»[4].

وسيتبيَّن في مبحثٍ عن «تعظيم الملاحدة للصدفة» مدى الخزعبلات والتناقضات التي بنوا عليها إيمانَهم، وأنَّ إيمانَ الملاحدة في غاية المخالفة للعلم التجريبي والعقل الرَّشيد؛ فآخر مَن ينبغي يتحدَّث عن الإيمان غير المبني على أدلة هو الملحد.

الوجهُ الثّالث: مِن أكثر ما يشغّب عليه الملاحدة الجدد في هذا الباب: قضية الإيمان بالغيب والمعجزات. ولا شكَّ أنَّ الإيمان بذلك قد يحيِّر العقل، ولكنه ليس محالًا عقلًا؛ فالأنبياءُ «صلواتُ الله وسلامُه عليهم يخبرون بما تعجز عقولُ الناس

---

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (٦/ ٤٥٨ - ٤٥٩).

(٢) وسيأتي مبحث خاصٌّ عن هذا الموضوع في الباب الثالث عن الكلام عن شبهة: عدم الإيمان.

(٣) مليشيا الإلحاد (١٤٨).

(٤) العواصم من القواصم (٢٥١)، للقاضي محمد بن عبد الله القاضي أبو بكر بن العربي، (مكتبة دار التراث،لم تذكر سنة الطباعة ت. الدكتور عمار طالبي)

عن معرفته لا بما يعرف الناسُ بعقولهم أنه ممتنع، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول»[1].

وكلامُ الأنبياء عنِ الغيبيات قسمان؛ قال الإمام ابنُ القيم (رحمه الله): «الرسل - صلواتُ الله وسلامه عليهم - لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطَع باستحالته، بل أخبارهم قسمان: أحدهما ما تشهد به العقولُ والفِطَر. الثاني: مالا تدركه العقول بمجرّدها، كالغيوبِ التي أخبروا بها عنْ تفاصيل البرزخ، واليوم الآخر، وتفاصيل الثواب والعقاب. ولا يكون خبرهم محالًا في العقول أصلًا»[2].

وإذا أخذنا قضيةَ المعجزات على سبيل المثال، فإنَّ المعجزة أمرٌ خارق للطبيعة، ولا يحدُث إلّا بمشيئة الله. ومَن آمن بأنَّ الله هو الخالق المدبِّر لهذا الكون، فلا يمكنه أنْ يقول إنَّ المعجزات مستحيلة عقلًا، بل هي مُمكنة. وذكر البروفسور جون لينوكس إنِ اعترفَ المرء بوجود الخالق يفتح الباب تلقائيًّا لإمكانية حدوث المعجزة التي يتدخّل بها نفس الخالق في مسار الطبيعة، لأنَّه لا يوجد شيء اسمه: الخالق المجبَر الذي لا يمكنه أو يجبُ عليه ألّا يتدخَّل في كوْن قد خلقه هو من قبْل، فلذلك: المعجزات قد تحدث[3].

وكما أنَّه لا يوجد اعتراضٌ عقلي، فليس هناك اعتراضٌ علمي صحيح على المعجزات؛ قال البروفسور جون لينوكس: «لا يوجد - مبدئيًّا - اعتراضٌ علمي على إمكانية حدوث معجزات، بالتأكيد إنَّ موقف الذهن المنفتح الذي يفرضه المنطق الآن هوَ الاستعداد لمتابعة العملية حيث تقود»[4].

فالعقلُ والعلم التجريبي لا يحكمان باستحالة المعجزات، ولكن يحكمان بإمكانيتها. ومعَ ذلك، فإنَّ المؤمن لا يصدِّق بكلِّ ما يُقال إنه معجزة أو كرامة، بل لا

---

(١) مجموع الفتاوى (١١ / ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٢) كتاب الروح (١ / ١٨٢)، لمحمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية، (دار عالم الفوائد، ت. محمد أجمل الإصلاحي).

(٣) انظر: God's Undertaker: (206)

(٤) المصدر السابق

بدَّ من توفُّر دليلٍ قوي على حدوثها؛ قال البروفسور جون لينوكس: «وأوافق بالطبع على أن المعجزاتِ بطبيعتها لا تحصُل إلّا في النادر، ويجب علينا بالتأكيد أن نطالب بدليل قوي لإثباتِ حدوثها في أي حالة»[1].

فالمعجزاتُ ليست مستحيلة من الناحية العقلية ولا العلمية. ولكنّها لا تعلم من جهةِ العقل ولا العلم التجريبي، وإنما تعرَف عن طريق الخبر. فإذا أخبر الثقة العدل الصادقُ بوقوع معجزة أو كرامة وجبَ تصديقُه في خبره.

فكيف إذا أخبرَ بالمعجزات عالم الغيب والشهادة الذي أحاطَ بكلِّ شيء علمًا وأحصى كلَّ شيء عددًا؟ واللهُ - تبارك وتعالى - قد أخبر بمعجزة انشقاق القمر؛ قال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[القمر: ١]. وقال تعالى عن المعراج: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ [الإسراء: ١]. فنحن المسلمين نصدّق ما جاء عن الله ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧].

ومِن الطريف في هذا الباب أنَّ ريتشارد دوكينز بعدما استهزأ بالمذيع المسلم لكونه يؤمنُ بانشقاق القمر والإسراء والمعراج، سأله المذيع: إنْ كان دوكينز يستطيع أن يقيم دليلًا على أنَّ هذه المعجزات لم تحدث، فاعترف أنَّه لا يستطيع ذلك[2]. فالإنكار يحتاج إلى دليلٍ كما أنَّ الإثبات يحتاج إلى دليل. والمسلم يستطيع أن يورد أدلة كثيرة على حصولِ المعجزات، بينما لا يستطيع الملحدُ أن يأتي بأدلة في إنكارها.

فالزَّعم أنَّ المعجزات والغيبيات تخالف العقل زعمٌ باطل، فليس في العقل ما يكذِّب هذه المعجزات أصلًا.

وخلاصةُ هذا المبحث أنَّ الملاحدة يدَّعون أنهم عقلاء وحكماء وغيرهم أغبياء وحمْقى، ولكنْ قد تبيَّن أنَّهم أبعدُ الناس عن التفكير المنطقي السليم، وصدق عليهم المثل: رمتني بدائها وانسلَّت!

---

(١) المصدر السابق (٢٠٥)

(2) https://www.youtube.com/watch?v=bHvxiQbQ37I

المبحث الرّابع
الشكُّ ونسبيةُ الحقائق

قد تبيَّن في هذا الفصل أنَّ مِن أسس الملاحدة التي يستندون إليها، ومن أصولهم التي يبْنون عليها مذهبَهم: المادية والعقلانية. وهذه الأصول مستمدَّة من فلسفة اليونانيّين القدامى. ومِن الفلسفات الموجودة لدى الملاحدة المعاصرين التي ترجع جذورُها إلى العصر اليوناني: مذهب الشكِّ (Skepticism). فكانت هذه الفلسفة منتشرة لدى كثيرٍ من فلاسفة اليونان، وكان السفسطائيون مِن أوائل مَن اشتهر بهذه الفلسفة[١].

تعريفُ مذهب الشكِّ أو الشكوكية:

قد عرَّف قاموس وريام ويبستير (Mariam – Webster Dictionary) – وهو من أشهر القواميس الأمريكية للتعريفات – الشكوكية بتعريفاتٍ مختلفة، منها:

١) الاعتقادُ أنَّ المعرفة الحقيقية أو المعرفة في مجال معيَّن غير يقينية.

٢) المنهجيةُ في تأخير الحكم والشكِّ المنظَّم، أو النقد الذي يمتاز به الشكوكيون[٢].

وبذلك يتبيَّن أنَّ كلمة الشكوكية تطلق على معتقد وعلى منهج. وكلٌّ من هذين الأمرين موجودان عندَ الملاحدة المعاصرين كما سيأتي بيانُه. كما أنَّ الشكوكية تصاحب القولَ بنسبية الحقائق، حيث لا يرى الشكوكيّون أنه يمكن الحصول على العلم المطلق.

---

(١) انظر المقال: The Skepticism of the Greek Sophists
https://campus.aynrand.org/campus/globals/transcripts/the-skepticism-of-the-greek-sophists

(2) https://www.merriam-webster.com/dictionary/skepticism

الشكوكيةُ عند الملاحدة الجدد:

الشكوكيونَ على درجات؛ فمنهم مَن يشكُّ في جميع مصادر المعرفة كما اشتهر به السفسطائيةُ حيث شكُّوا في قدرة الحواس والعقل على الوصول إلى الحقيقة، وبالتالي تبنَّوا ما يسمَّى بنسبية الحقائق[١]، وهي: «المبدأ أنَّ المعرفة، والحقَّ، والأخلاق موجودة نسبيًّا إلى الثقافة، أو المجتمع، أو السياق التاريخي، وليست مطلقة»[٢]. وفي الأزمان المتأخِّرة وُجِد مذهب شكوكي غالٍ باسْم: الشكوكية المتطرّفة (Radical Skepticism)، وهي: «المبدأ الفلسفي أن المعرفة تكاد تكون مستحيلة»[٣]. وكان على رأسه الفيلسوف ديفيد هيوم[٤].

ومنهم مَن هو دونَ ذلك في شكوكه. وهذا ما ذهبَ إليه الملاحدةُ الجدد، فإنهم لا يشكُّون في العقل ولا الحواس، بل يسمُّون أنفسهم عقلانيّين - إشارة إلى تعظيمهم لقدرات العقل -، ويتبَّنون مذهبَ العلموية لغلوِّهم في مكانة العلم التجريبي.

ولا يتبنَّون الشكوكية الأخلاقية (Moral Skepticism)، وهي: «الاعتقاد أن العلم بالأخلاق لا يوجد، أو لا يمكن الوصول إليه»[٥][٦].

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/relativism

(٢) انظر المقال: The Skepticism of the Greek Sophists
https://campus.aynrand.org/campus/globals/transcripts/the-skepticism-of-the-greek-sophists

(3) For and Against Method (395)، by: Paul Feyerabend, (University of Chicago Press, 1999)

(٤) انظر: المصدر السابق.

(5) http://www.philosophybasics.com/branch_moral_skepticism.html

(٦) وهذا النوع من الشكوكية تبنَّاه فريدريش نيتشي - الفيلسوف الملحد المشهور في القرن التاسع عشر -، ومايكل روس - بروفسور الفلسفة الملحد -.

إلّا أنَّهم يتبنَّون نوعًا آخرَ من الشكوكية تسمَّى الشكوكية الدينية، وهي: «التشكيكُ في مبادئ دينية أساسيةٍ مثل: الخلود، والعناية الإلهية أو الوحي»[1]. فالملاحدةُ الجدد ينكرونَ وجود الله، وبالتالي يشكُّون في جميع المبادئ الدينية ويشكّكون غيرهم فيها.

وقد امتلأتْ كتبهم بهذا النَّوع من الشكوكية. وإذا نظرنا إلى اثنين من أشهر كتب الملاحدةِ الجدد، وهي: وهمُ الإله (The God Delusion) لريتشارد دوكينز، والإلهُ ليس بعظيم (God is Not Great) لكريتسوفر هيتشن، نجد أنَّ أكثر هذين الكتابين يتضمَّن التشكيكَ في الأمور الآتية: أدلة وجود الله[٢]، نشأة الأديان[٣]، وأخلاقياتها[٤]، والآثار المترتّبة عليها[٥].

كما أنَّ شغل الملاحدة الشاغل في وسائل التواصل: إلقاءُ الشكوك في المبادئ الدينية والسخرية منها. فالشكوكيةُ الدينية والتشكيك في الأديان من أهمّ أسس الإلحاد الجديد.

ولكوْن الملاحدة الجدد يبنونَ العلم التجريبي على المذهب الطبيعي فإنهم ينتهجون الشُّكوكية العلمية (Scientific Skepticism) في موقفهم من كلِّ ما يخالف هذا المذهب. والشكوكيةُ العلمية حسبَ تعريفهم هي: «عملية – أو مشروع – دراسة الظواهر الخارقة أو الدَّعاوى من العلم الزائف بعدسة العلم التجريبي أو الدراسة النقدية، ثمَّ بيانها للجمهور»[٦].

---

(1) https://www.merriam-webster.com/dictionary/skepticism

(٢) انظر: The God's Delusion (100-190), God is not great (97-108)

(٣) انظر: The God's Delusion (190-240), God is not great (155-168), (123-138)

(٤) انظر: The God's Delusion (268-308), (349-387) God is not great (97-122)

(٥) انظر:

The God's Delusion (317-348), God is not great (15 36), (43-62), (173-194), (217-228)

(6) Why is there a Skeptical Movement (2), by: Daniel Luxton https://www.skeptic.com/downloads/Why-Is-There-a-Skeptical-Movement.pdf

وقد أسَّس الملاحدة عددًا من المراكز والجمعيات والمؤسسات من أجل هذا النوع مِن الشكوكية؛ منها: «مركز التحقيق» (Center of Inquiry) الذي اندمج مع مؤسسة ريتشارد دوكينز للعلوم والعقلانية[1]. وكذلك: «الجمعية الشكوكية» (The Skeptics Society) التي يرأسها: الملحدُ مايكل شريمير التي تحارب جميعَ النظريات العلمية التي تتعارضُ مع المذهب الطبيعي، وعلى رأسها: نظرية التصميم الذكي ومذهب الخلق.

وهذا له صلةٌ واضحة بالشكوكية الدينية وتشكيكهم المتديِّنين في أديانهم، واستبعاد جميعِ النظريات الدينية المؤيّدة للأديان.

وممّا يدلُّ على قوة صلةِ الشكوك بالإلحاد ما وردَ في سؤال في موقع ريتشارد دوكينز بعنوان: «هل شككتَ في إلحادك قط؟» فبدأ السؤال بـ«أعرف أنَّ هذا السؤال غريب لأنَّه الإلحاد كلُّه يتعلَّق بالشكوك...»[2]. فالإلحادُ بطبيعته مذهبٌ شكِّي، ودعاته يسعون جادِّين إلى تشكيك المتديِّنين في معتقداتهم.

ردودُ علماءِ الغرب على شكوكية الملاحدة الجدد:

حيث إنَّ شوكة الملاحدة قد قويتْ في الآونة الأخيرة، وكثرت كتاباتهم ومجادلاتهم تأثَّر كثيرٌ من النصارى الغربيين بهذه الشُّكوكية الدينية؛ فألحدَ عددٌ منهم ووقع غيرهم في الشُّكوك. وقد شعرَ علماءُ الغرب بسَريان هذه الشكوك إلى صفوف أتباعهم، وأحسُّوا بخطورةِ تشكيكات الملاحدة. ومِن الأمثلة على شعورهم بذلك ما كتب البروفسور سكوت هان والبروفسور وبنيامين ويكير في مقدِّمة كتابيهما: «الردُّ على الإلحاد الجديد» (Answering the New Atheism) - وهو مِن أشهر الردود على الإلحاد المعاصر - أنَّ سببَ كتابتِهما لهذا الكتاب هو وقوعُ طالبٍ جامعي في قسم علم اللاهوت في الشكِّ بسبب كتاب: وهم الإله، لدوكينز. وبعدَ ذلك عرفَا أنَّ

---

(١) انظر:
http://www.centerforinquiry.net/news/an_important_announcement_from_cfi_president_ronald_a._lindsay/

(٢) انظر:
https://www.richarddawkins.net/2013/01/have-you-ever-doubted-your-atheism/

الأمر جدٌّ حيث أن الشبهات الإلحادية تسرَّبت إلى طلابِ علم اللاهوت في أحدِ أرقى الأقسام اللاهوتية، فما بالُ الطلاب الآخرين[١]؟

والمواقعُ النصرانية مليئةٌ بالأجوبة على أسئلة نصارى حائرين بسبب شبهات الملاحدة الجدد[٢].

وهذا الأمرُ يرجع إلى أسباب؛ منها أنَّ النصرانية المحرَّفة - كما نعرفه معشر المسلمين - ديانة باطلة، يشتمل على كثيرٍ من الخزعبلات ومخالفات للعقل الرشيد والمنطق السليم؛ فلا غرابة أن يتسرَّب الشكُّ إلى ما هو باطل، لأن الحقَّ أبلج والباطل لجلج.

واللاهوتُ النصراني بطبيعته متشكِّك، ولا يكاد يوجد نصراني إلا ويقع في الشُّكوك؛ قال البروفسور وليام لاين كرايغ - ويعدُّ من أكبر المدافعين عن النصرانية أمام الملاحدة الجدد - : «لا بدَّ لكلِّ مسيحي يمارس دينَه بطريقة عقلانية ويتدبَّر في إيمانه أن يقعَ في شكٍّ»[٣]. وكتبَ القسيس مارك ليتيلتون[٤]: «الشكُّ يصاحب جميع المسيحيين، ولا يمكن أنَّ أحدًا فعلًا نجا منه»[٥].

---

(١) انظر: (٣ - ٢) Answering the New Atheism

(٢) ويكفي أن يكتب عن الشبهات في الإيمان باللغة الإنجليزية في محرّك بحثي مثل غوغل فيجد أسئلةً كثيرة من هذا القبيل، مما يدلُّ على الموجة الشكوكية الإلحادية التي أصابت المجتمعات الغربية.

(3) Hard Questions Real Answers (31)

(٤) مارك ليتيلتون (Mark Littleton) قسيس أمريكي سابق ولاهوتي، متخصِّص في الدفاع عن النصرانية. وقد ألَّف ٩٨ كتابًا، وقد بيع مجموعها أكثر من مليون نسخة. انظر:
https://www.marklittleton.com/

(5) Doubt Can Be a Good Thing (1)

وفعلًا، لا يكاد يسلمُ نصرانيٌّ من هذه الشكوك. فهذا هو البابا فرانسيس[1] - وهو البابا الحالي القائم على الكنيسة الكاثوليكية بأجمعها - سئل: «بابا، لديَّ شكوك في إيماني، فما العمل؟ وهل تقع في شكوكٍ أنت؟»، فأجاب: «لديَّ شكوك كثيرة، هناك أوقات يقع فيها كلُّ إنسان في شكٍّ»[2]. فإذا كان البابا - وهو خليفة المسيح في الأرض حسبَ زعمهم - يقع في الشُّكوك كثيرًا، فكيف بالأتباع المقلِّدين؟ وكيف إذا اشتدَّ هجومُ الملاحدة على النصارى بإيرادِ شبهة تلو الأخرى؟ إنَّ أرضية انتشار الإلحاد في صفوف النصارى خصبة!

وهذا الأمرُ يرجع إلى طبيعة الكتاب المقدَّس لدى النصارى، فقد ذكر هذا الكتاب أنَّ كثيرًا من المؤمنين وقعوا في أنواعٍ من الشبهات والشكوك[3]. وهؤلاء عندهم هم القدوةُ وصفوة الخلق، فكيف بمن دونهم؟!

وأمّا المسلمون فيختلف وضعُهم، وحيث يجد المؤمنُ في أوائل المصحف: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

ومعَ ذلك، فإنَّ علماء الغرب أهلُ تجربة طويلة وخبرة عميقة بالخطاب الإلحادي. واستطاعوا أن يصدُّوا هذه الظاهرة الخطيرة عن ملايين من أتباعهم، وسكّنوا شكوكهم المسترسلة. فالحقُّ يقال، إنَّ علماء الغرب قد تصدَّوا للخطاب الإلحادي بإيراد ردود قوية ومُفْحمة بذكر قواعدَ عامَّة في التعامل مع الشبهات

---

(١) البابا فرانسيس (Pope Francis): واسمه الحقيقي: خورخي ماريو بيرجوليو. عضو في الرهبنة اليسوعية، وكان رئيس أساقفة بوينوس أيرس، ثمّ انتخب ليكون بابا الفاتيكان عام ٢٠١٣ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Francis – I – pope

(2) http://catholicherald.co.uk/news/2016/11/23/pope-francis-weve-all-had-doubts-about-our-faith/

(٣) انظر: Dealing with Doubts (5 - 6)

وبردود تفصيلية مقنعة. أما الردودُ التفصيلية فليس هذا المبحثُ محلَّ بحثها، وسيأتي كثيرٌ من هذه الردود في الباب الثالث.

وأمّا القواعدُ العامة في التعامل مع الشبهات فقد أَلَّفوا فيها بعض الكتب النافعة مثلَ كتاب: «التعامل مع شبهات» (Dealing with Doubts) لغاري هابيرماس[١]. وقد أفرد وليام لاين كرايغ بابًا نفيسًا من كتابه: «أسئلة صعبة وأجوبة حقيقية» «Hard Questions Real Answers» في قواعد التعامل مع الشبهات[٢]. كما أن غيرهما كتبوا عن هذا الموضوع المهمّ. وكثيرٌ من هذه القواعد مفيدة وجيِّدة، يستفيد منها المسلمُ لخبرة علماء الغرب بنقدِ الخطاب الإلحادي؛ وأكتفي بإيراد سبعٍ من أهمِّ هذه القواعد هنا:

القاعدةُ الأولى: بتحديدِ الشُّبهة يسهل ردُّها:

ينبغي لمَن يتعامل مع مَن وقع في شبهات أن يحدِّد نوعَ الشبهة التي وقع فيها لكي يستطيع أن يردَّها؛ قال غاري هابيرماس: «من المهمِّ أن يحدِّد الشبهة التي يعاني منها الشخصُ لكي يستطيع أن يتعامل معها. والسببُ الرئيس لذلك هو أنه يوجد أنواع مختلفةٌ من الشكوك؛ فهي تشبه الأدوية التي تناسب علاجات مختلفة»[٣].

ثمَّ قسَّم الشبهات إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الشبهاتُ الواقعية: وهي الشبهاتُ المتعلِّقة بأصول العقائد، مثل: الإيمان بالله، وحقيقة الوحي، والمبادئ الدينية[٤].

القسمُ الثّاني: الشُّبهاتُ العاطفية: وهذه الشبهات تنشأ بسبب عوارض نفسية مثل: الأمراض النفسية، والمشاكل في التربية، والرغبة في الشهرة، وقلة النوم، ضغط البيئة التي يعيش فيها إلى غير ذلك[٥]

---

(١) غاري هابيرماس (Gary Habermas): مدافع عن النصرانية أمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في تاريخ الأديان من جامعة ميشيغان في الولايات المتّحدة. انظر:
https://www.garyhabermas.com/vitainnuce.htm

(٢) انظر: Hard Questions Real Answers (31 - 42)

(3) Dealing with Doubts (9)

(٤) المصدر السابق (١٢ – ١٣).

(٥) المصدر السابق (١٣ – ١٤).

القسمُ الثّالث: الشُّبهاتُ الإرادية: وهي الشبهاتُ المتعلّقة بضعف الإيمان، أو أنه يكتفي بنفسِه ولا يتوكَّل على الله[١]. أو أنه يعرف الحق، ولكنَّه غير مستعدٍّ أن ينقاد له ويأخذ الخطوات المؤدِّية للتخلُّص من الشكوك[٢].

وسيأتي الحديثُ عن التعامل مع الشبهات بأقسامها الثلاثة ضمن بعض القواعد. ولكنَّ المهمَّ في هذه القاعدة أنَّ الذي يعالج من وقع في الشبهات يحتاج أن يحدِّد الشبهة أولًا كي يضعَها في إطارها الصحيح، ويعرف كيفية التخلُّص منها. تحديد الشبهة أولًا قبلَ التخلُّص منها أسلوبٌ صحيح، وقد نبَّه عليه علماء الإسلام أيضًا[٣].

القاعدةُ الثّانية: بمعرفةِ أصل الشُّبهة يسهل التعاملُ معها:

وذلك أنَّ الشبهات أصلها الذنوب، والسيئات بريدُ الشُّكوك. وقد الدكتور ذكر إرفين لوتزير[٤] أنَّ الإنسان إذا عرف أنَّ أصل الشبهات من الذنوب فإنه بحاجة إلى ثلاثِ خطوات: التوبة من ذنبه، ومقاومة الشيطان الذي زيَّن له الذنب، والصبر في علاج الشبهة[٥]. وذلك في حدِّ ذاته لا يقلُّ أهمية عن نقد الشبهة نفسها.

ولا شكَّ أنَّ هذا الأمر معلوم لدى المسلمين، فكان العلماء يقولون: «المعاصي بريد الكفر»[٦]، وقد نبَّه الرسول ﷺ على علاقة الذنوب برين القلوب وأهمية الاستغفار

---

(١) المصدر السابق (١٦ - ١٧).

(٢) المصدر السابق (٥٤).

(٣) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (١ / ٩٤)، ليحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي، (أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ، ت. الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف).

(٤) إرفين لوتزير (Erwin Lutzer): قسيس أمريكي وحامل شهادة الدكتوراه في اللاهوت والماجستير في الفلسفة. انظر: www.moodychurch.org /erwin – lutzer

(٥) انظر:

You're Richer Than You Think, Chapter 9, by: Erwin Lutzer, (Victor Books 1978)

(٦) مدارج السالكين (٢ / ٢٧).

للتخلُّص منها، إذ قال: «إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هوَ نزعَ واستغفر وتاب صقلَ قلبه، وإن عادَ زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكرَ الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]»[1]. والآيات التي تبيّن أن الشيطان هو الذي يزيِّن هذه الذنوب كثيرة، كما أنَّ الآيات التي تحثُّ الإنسان على الصبر كثيرة جدًّا. ولكن قد يغفلُ الداعي الذي يعالج المتشكِّك عن هذه القاعدة، ويهاجم الشبهة بغضِّ النظر إلى أصلها. فلو تابَ الإنسان من ذنبه، وقاوم الشيطان مصابرًا على ذلك؛ لربّما زال عنه الشكُّ بدون حاجة إلى نقضها تفصيليًّا.

القاعدةُ الثّالثة: الشكُّ ليس مشكلة عقلانية فقط:

قال البروفسور وليام لاين كرايغ عن القاعدة: «اعرف أنَّ الشكَّ لا يكون مشكلة عقلانية فحسب، بل هناك بُعدٌ روحاني للمشكلة وهو ما يجب الاعتراف به. لا تنس الحقيقة أنَّك متورِّط في حرب روحانية، وأنَّ عدوَّ روحك يبغضك بغضًا شديدًا، وهدفه هو تدميرُك، ولا ينتهي من حربه حتى ينهيك... الشكُّ ليس قضية متعلّقة بمناظرات أكاديمية أو مناقشات بلا مبالاة؛ إنَّها معركة متعلّقة بروحك، وإن كان الشيطان يستطيع أن يشلَّ حركاتك أو يدمِّرك فإنه سيفعل ذلك»[2].

وهذه القاعدة كسابقِها من الوضوح بمكان للمسلم، فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تبيِّن أننا في معركةٍ مستمرَّة مع الشيطان متكاثرة. فالشيطان يسعى سعيًا حثيثًا من أجل إضلال بني آدم من جوانب الجوانب. ومَن وقع في شبهات وشكوك بحاجةٍ إلى تذكير بهذه القاعدة، حتى يتَّخذ الأسباب الشرعية من أجل التخلُّص من وساوس الشيطان وطرقه لإضلال الإنسان.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣٣٣٤)، أبواب تفسير القرآن، باب سورة المطففين، (٥/ ٤٣٤). وأخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢٤٤)، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، (٢ / ١٤١٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.
وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح)، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٤١)، (٣/ ١٢٢).

(2) Hard Questions Real Answers (33)

القاعدةُ الرّابعة: الشبهاتُ الواقعية تُدفَع بالأدلة والبراهين:

سبقَ البيان أنَّ الشبهات تنقسم إلى أقسام، منها الشبهات الواقعية المتعلّقة بأصل الاعتقاد. وهذه الشبهاتُ في الغالب تكون مدعَّمة بشيء من الأدلة - وإن كانت أدلة باطلة وغير صحيحة -. فعلى سبيل المثال يستدلُّ الملحد بنظرية التطوّر للقدح في دليل التَّصميم. هذا الاستدلال في حدِّ ذاته باطل - كما سيأتي تفصيله في الباب الثالث إن شاء الله -، ولكنَّها شبهة في ظاهرها مدعَّمة بدليل. ففي هذه الحالة يحتاج مَن يعالج الشُّبهة أن يردَّها بالأدلة والبراهين كما نبَّه عليه غاري هابيرماس في كتابه التعامل مع الشبهات[1].

ومِن الأخطاء الشائعة اليوم عندَ بعض مَن يحاول أن يعالج المتشكّك الذي لديه شبهاتٌ واقعية أنه يأمرُه بالإعراض عنها فقط، أو أنَّه يردُّها بأدلة ضعيفة لا تدفع الشُّبهة. ومَن فعل ذلك فلم يعطِ الموضوع حقَّه؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «فكلُّ مَن لم يناظر أهلَ الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقَّه، ولا وفَّى بموجبِ العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفادَ كلامه العلم واليقين»[2].

القاعدةُ الخامسة: الشُّبهاتُ العاطفية والإرادية لا تعالَج بتقديم الأدلة فقط:

الشبهاتُ العاطفية والإرادية تختلفُ عن الشبهات الواقعية، لأنها تحمل بُعدًا آخر غير الشُّبهة المذكورة بدليلها، وهو البُعد النفسي في الإنسان. فالشخصُ الذي وقع في الشُّبهات العاطفية لا تهمُّه الأدلة والحقائق بقدر ما يهمُّه التعامل مع هذه المشاكل النَّفسية. ومن الخطأ أن يحاولَ الذي يعالج الشُّبهة أن ينقض بأدلة علمية وعقلية ويظنّها كافية؛ قال الدكتور غاري هابيرماس: «التعاملُ مع الشكِّ هو مشروع متعدّد التخصُّصات. وفي حال الشبهات الواقعية يحتاجُ إلى شخص متخصِّص

(١) انظر: Dealing with Doubts (26)

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٦٤ - ١٦٥).

في الدفاع عن الدين أو الفلسفة، فإنَّ الشبهات العاطفية والمزاجية بأكثر حاجةً إلى الطبيب النفسي، وطبيب الأمراض العقلية أو مستشار»[1].

وإنْ كانت هذه الشبهاتُ عاطفية فإنها تتنكَّر في كثير من الأحيان بلباس الحجج العقلية؛ قال الدكتور غاري هابيرماس: «هذه الشبهاتُ في الغالب تتنكَّر بلباس الشُّبهات العقلانية، ولا تُظهر في أوَّل وهلة أساسَها العاطفي المقنَّع. وقد يظهر ذلك بالسؤالِ الدَّقيق عن معتقدات ذلك الشخص... وحسب تجربتي، فإنه قد يُظهر الانحرافات عندَه بسرعة وهي تبيِّن حقيقة الشبهة، وأن الشبهات العقلية ليست هي الأساسية عنده»[2].

ومما يدلُّ على أنَّ الإنسان عنده شكوك عاطفية أو إرادية هو أنه لا يقتنع مهما بلغتْ قوَّة الرَّد، بل يسترسل في الشبهات؛ قال الدكتور غاري هابيرماس: «إذا كان لا يوجد أيُّ حجم من الأدلة المقنعة (التي يعترف المشكِّك أنها قوية) التي يمكن أن يجعله يطمئن، حتَّى إذا كانت الحجج تقدَّم بطريقة صحيحة، بل يستمرُّ في الكلام عن المشاكل التّافهة، ويُظهرها مرةً تلو الأخرى فإنَّ هذا يظهر في الغالب أن الشكَّ أساسه عاطفي أو إرادي»[3].

فالمصابُ بشُبهات عاطفية بحاجةٍ إلى معرفة أصل المشكلة قبل نقض الشبهة. وقد ذكرَ الدكتور أوس غينيس[4] أنَّ الإنسان إذا شعر بأنَّ المشاكل النفسية المسبّبة للشبهات هي قلَّة النوم مثلًا فلا بدَّ من علاج هذه المشكلة من جهتين:

الجهةُ الأولى: أن يشبع نفسَه من النوم.

الجهةُ الثّانية: تقوية إيمانه وتدريبه حتَّى لا يكون عرضة للعواطف[5].

---

(1) Dealing with Doubts (3)

(٢) المصدر السابق (٣٦)

(٣) المصدر السابق (٣٦ – ٣٧)

(٤) أوس غينيس (Os Guiness): – حاملُ شهادة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية –، كاتب وناقد اجتماعي بريطاني، وقد صنَّف أكثر من ثلاثين كتابًا. انظر:
https://www.rzim.org/speakers/os-guinness

(٥) انظر: In Two Minds: The Dilemma of Doubt & How to Resolve It (163-167)

بينما الذي وقعَ في شبهات إرادية بحاجةٍ إلى تقوية إرادته وإيمانه قبل الدخول معه في نقد الشبهات بالتفصيل[1].

القاعدةُ السّادسة: الاعترافُ بقصور العقل والمعرفة:

المشكلةُ مع بعض مَن يقع في الشبهات أنه مصابٌ بداء الكبر والعجب بالنفس، فيقعُ فيما ذكره الله: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس: ٣٩]. فينبغي أن يذكّر من يقع في الشبهات بقصورِ علم الإنسان كما قال تعال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وذكر البروفسور وليام ألستون[2] أن العقل الإنساني أسير ستة معوّقات:

المعوِّقُ الأوَّل: قصورُ المعلومات (Lack of data): وهي تبدأ من أسرار القلب البَشري إلى عناصر الكون وتكوينه، وتشمل الماضي السحيق والمستقبل الآتي.

المعوِّقُ الثّاني: تعقيدُ أكبر من إدراكنا (Complexity greater than we can handle): الموضوع متداخلُ العناصر على صورةٍ أعظم من طاقتنا على التفكيك والإدراك.

المعوِّقُ الثّالث: صعوبةُ تحديد ما هو مُمكن أو ضروري ميتافيزيقيًّا (Difficulty of determining what is metaphysically possible of necessary): عالم الماورائيات هو عالم يقعُ خارج دائرة إدراك التفكير البشري، ونحن لا نعرف عنه غيرَ القليل، مما تدلُّ عليه قرائنُ الوجود المادي، ولا يبقى بعدَ المعارف المتلقّاة من الوحي مصدر آخر لفهم هذا الوجود المتنائي عن إدراكنا.

---

(١) انظر: Dealing with Doubts (64 - 65)

(٢) وليام ألستون (William Alston): بروفسور الفلسفة في جامعة ميشيغان بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في فلسفة اللغة ونظرية المعرفة، ويعتبر أحدَ أبرز الفلاسفة النصارى في العصر الحاضر. انظر:

http://faculty.wwu.edu/~howardd/alston/alstonforthoemmes.pdf

المعوِّقُ الرّابع: جهلُنا بالقائمة التامَّة للممكنات (Ignorance of the full range of possibilities): تواجهنا هذه المشكلة عندما نبحثُ عن نتيجة سلبية (للنفي لا للإثبات)؛ فنحنُ مطالبون هنا باستحضار جميع الممكنات لاستنباط نتيجة من نفيها.

المعوِّقُ الخامس: جهلُنا بالقائمة التامَّة للقيم (Ignorance of the full range of values): استخلاص دلالة إيجابية من الفعل البشري أو الحدث الكوني لنفي أنه شرٌّ أو النَّظر إليه سلبًا على أنَّه شرٌّ يقتضي إدراكًا لجميع القيم الإيجابية أو السلبية التي من الممكن أنه تتّصل بهذا الفعل.

المعوِّقُ السّادس: حدودُ ملكاتنا في شأن تقديم أحكامٍ قيمية كاملة (Limits to our capacity to make well considered value judgments): تظهر أساسًا في صعوبة إصدار أحكامٍ مقارنةً بشأن قضايا كبرى معقَّدة[1].

وذكرُ هذه المعوقات الستة للمُلحد المتكبِّر طريقة جيِّدة؛ لأنَّه قد يؤدّي إلى كونه يتواضع أمامَ الحجج والبراهين التي يذكرها المؤمن.

القاعدةُ السّابعة: إذا عملَ العقلُ في إطاره الصحيح فيسهل التعاملُ مع الشَّك:

هذه القاعدةُ لها صلةٌ بما قبلها؛ فإذا اعترف الإنسانُ بقصور عقله فإنه ينبغي أن يضعَه في إطاره الصحيح، وبذلك ينجو من كثيرٍ من الشبهات؛ قال البروفسور وليام لاين كرايغ عنْ هذه القاعدة: «مادام العقلُ يعمل في وظيفته الحقيقية فإنَّ الثقة الروحانية لإيماننا لا تتزعزع»[2].

وهذا الكلامُ صحيح، والمشكلة إذا أقحمَ المرءُ نفسه فيما لا مجال للعقل فيه مثل الخوض في تفاصيل الغيبيات بالعقل المجرَّد؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية

---

(١) انظر: The Inductive Problem of Evil, in Philosophical Perspectives 5, 59 - 60
وانظر كتاب: مشكلة الشرّ ووجود الله (١٥٤ – ١٥٥)، للدكتور سامي عامري، (مكتبة تكوين، الطبعة الثانية، ١٤٣٧ هـ).

(2) Hard Questions, Real Answers (38)

(رحمه الله): «فما أخبرت به الرسلُ من تفاصيل اليوم الآخر، وأمرت به من تفاصيل الشرائع لا يعلمُه الناس بعقولهم، كما أنَّ ما أخبرت به الرسل من تفصيل أسماء الله وصفاته لا يعلمُه الناس بعقولهم، وإن كانوا قد يعلمون بعقولهم جُمل ذلك»[1].

وقد سبق أنَّ الرسل يخبرون بمحارات العقول ولا يخبرون بمحالات العقول؛ قال شيخُ الإسلام (رحمه الله): «والعقلُ الصريح دائمًا موافقٌ للرسول ﷺ لا يخالفه قط فإنَّ الميزان مع الكتاب، واللهُ أنزل الكتاب بالحقِّ والميزان؛ لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفةِ تفصيل ما جاء به، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه، لا بما يعلمونَ بعقولهم بطلانه؛ فالرسل - صلواتُ الله وسلامه عليهم - تخبر بمحارات العقول لا تخبر بمحالات العقول»[2].

وخلاصةُ الباب أنَّ الإلحاد مذهب مبنيٌّ على الشكوكية، ويسعى دعاته إلى تشكيك الآخرين في معتقداتهم. وقد أصابَ النصارى كثيرٌ من هذه الشكوك، ولكنَّ علماءهم تصدُّوا لشبهات الملاحدة، وذكروا بعضَ القواعد النافعة التي يمكن أن يستفيد منها المسلم في هذا الباب.

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١١٥).

(٢) المصدر السابق (١٧/ ٤٤٤).

المبحثُ الخامس

تعظيمُ الصُّدفة

إنَّ الملاحدةَ الجدد يقعون في مشكلة كبرى عندما يتظاهرون بمحبَّة العلم التجريبي والعقلانية، معَ إنكارهم لوجود الله. وذلك أنَّ العلم التجريبي يدلُّ على أن الكون قد ظهرَ بعد أنْ لم يكن موجودًا وفقَ قوانين فيزيائية دقيقة جدًّا، كما أنه يدلُّ على التعقيد الشَّديد للحياة. والمنطقُ السليم يقتضي أنه لا يمكن ظهورُ مخلوق معقَّد إلّا بخالق. ومن هنا يلجأ الملاحدةُ إلى تعظيم الصدفة، وأنَّ المستحيل عقلًا يمكن أن يحدث صدفة[١].

والملاحدةُ يجعلون الصدفة مسئولًا عن ظهور جميع المخلوقات؛ قال البروفسور الملحِد جاك مونو[٢]: «الصدفةُ وحدها هي مصدرُ كلِّ هذا الابتكار في جميع المخلوقات»[٣].

وقد استبدلوا الحديثَ عن العناية الإلهية بالصدفة، وبالغوا في قدراتها حتى قاربوا عبادتها؛ قال البروفسور بيير بول غراسي[٤]: «تصبح الصدفة نوعًا من

---

(١) الصدفة (Chance): حدوثُ وقائع بدون إرادة أو سبب ظاهر. انظر:
https://en.oxforddictionaries.com/definition/chance

(٢) جاك مونو (Jacques Monod): بروفسور الكيمياء الحيوية الفرنسي، والحائز على جائزة نوبل في الطبّ عام ١٩٦٥م. مع زميل له. توفي عام: ١٩٧٦م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Jacques-Monod

(3) Chance and Necessity,(110) (Collins, 1972)

(٤) بيير بول غراسي (Pierre – Paul Grassé): بروفسور علم الحيوان، فرنسي، والرئيس السابق لأكاديمية العلوم الفرنسية. وقد ألَّف أكثر من ٣٠٠ إصدار، منها موسوعة حيوانية في ٥٢ مجلدًا. توفي عام: ١٩٨٥م. انظر:
https://www.goodreads.com/author/show/2424183.Pierre_P_Grasse

العناية الإلهية التي لا يتمُّ استدعاؤها فقط تحتَ غطاء الإلحاد، بل وعبادتها سرًّا أيضًا»[1].

وداعي الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز مِن أكثر مَن يعظِّم الصدفة ويتحدَّث عنها، ولا سيَّما في كتابه: «صانع الساعات الأعمى» (The Blind Watchmaker)، عند حديثه عنْ لغز أصل الحياة. ولا يخفى على دوكينز - وهو بروفسور في علم الأحياء - مدى استحالةِ ظهور الحياة مُصادفة؛ فأخذ يقرِّر في هذا الكتاب أن ظهور الحياة صدفة كان مُعجزة، ولكنَّ المعجزات قد تحصل في بعض الأوقات، وإن كانت نادرة الحدوث؛ فقال: «المعجزة عبارة عنْ شيء مُمكن الحدوث، ولكنَّ حدوثه مفاجئ جدًّا. فإذا لوّح تمثالٌ رخامي لمريم العذراء بيدِه تجاهنا فعلينا اعتبارُ ذلك معجزة، لأنَّ كلَّ خبراتنا ومعارفنا تؤكِّد لنا عجزَ الرخام عن هذه الحركة»[2]. لكنَّه يتابع ليطمئن القارئ بأنّ العلم التجريبي لن يحكمَ على هذه الحادثة كـ«مستحيلة تمامًا»، ولكنها فقط «غير محتملة الحدوث للغاية»[3].

ثمَّ قال بعد ذلك: «فيما يتعلَّق بالتمثال الرخامي، فإن الجزيئات تتدافع في الرخام الصُّلب فيما بينها باتجاهاتٍ غير محدَّدة باستمرار: ويلغي التدافع بين الجزيئات المختلفة بعضها بعضًا، فتبقى يدُ التمثال ثابتة. ولكن، لو حدث - بصدفة مطلقة - أنَّ جميع الجزيئيّات تتدافع إلى اتِّجاه واحد في اللحظة نفسِها فستتحرَّك اليد. ففي هذه الحالة يمكن أن يلوِّح التمثال الرخامي. من الممكن أنْ يحدث هذا الأمر، ولكن الاحتمالات المعاكسة لمثلِ هذه المصادفة يصعب تخيُّلها، ومع ذلك فإنه يمكن عدُّها. قام زميلٌ فيزيائي بحسابِ ذلك لي، ووجد أنّ عددَ الاحتمالات كبيرٌ جدًّا بحيث أنَّ عمر الكون حتَّى يومنا هذا صغير جدًّا لا يكفي لكتابة كلِّ الأصفار! من الممكن نظريًّا أن بقرة تقفزُ فوق القمر بمثل هذه الاحتمالات الضعيفة. إنَّ خلاصة

---

(1) Evolution of Living Organisms (107), by: Pierre P. Grasse, (Academic Press, 1977)

(2) The Blind Watchmaker (159), by: Richard Dawkins, (Norton, 1996)

(٣) المصدر السابق.

هذا الجزء من النقاش أنه يمكن أن نستعملَ الحساب للوصول إلى مناطقَ من ضآلة الاحتمال بشكل أكبر بكثير ممّا نستطيع أن نتخيله معقولًا»[1].

وذكرَ أيضًا أنّ فرضيته بأنّ الأحداث التي يشيع ذكرها بأنها معجزات ليست أمورًا خارقةً للطبيعة، لكنَّها جزءٌ من سلسلة الأحداث الطبيعية الأكثر أو الأقلّ احتمالية. فالمعجزةُ في نظرِه مجرّدُ ضربة حظٍّ مُبهرة. فيرى أنَّ الأحداث في الحقيقة لا تنقسم إلى طبيعيَّة ومعجزات، وقال: «بمجرَّد إعطاء وقتٍ أو فرصٍ غيرِ محدودة، فإنّ أيَّ شيءٍ يمكن أن يحدث»[2]. وبمثْل هذه التقريرات يفتح البابَ أمامَ نفسه وأتباعه أنَّ الأحداث التي تبدو مُستحيلة في العلم التجريبي ممكنة الوقوع في حالات نادرة.

وفي كتابِه «وهم الإله» ذكر أنَّ عددَ الكواكب في الكون تعدُّ مليارات المليارات،،إذا كانت احتمالات تولُّد الحياة مصادفةً على كوكبٍ ما واحد إلى مليار؛ فإنَّه يمكن أنه يحصُل في مليار كوكب[3].

ويذكرُ الملاحدة - ومنهم دوكينز[4] - نظريةً مشهورة في بيان أنَّ الصدفة قد تنتج النظام والتَّعقيد، وهي: «نظرية القرد اللامحدودة» (Infinite Monkey Theorem). وخلاصتها: إنَّ قردًا يطبع على آلة كاتبة بشكلٍ عشوائي، ولمدَّة غير محدودة، سينتج وبشكل شبه مؤكَّد نصًّا معينًا مثل الأعمال الكاملة لشكسبير[5].

فالوقائعُ التي تبدو مستحيلة - مثل ظهور الحياة على كوكب الأرض وغيره - قد تحدُث مصادفةً حسب هذه التقريرات الإلحادية، وليس هناك أيُّ حاجة لوجود خالق.

---

(١) المصدر السابق (١٥٩ - ١٦٠)

(٢) المصدر السابق (١٣٩)

(٣) انظر: The God Delusion (137 - 138)

(٤) انظر: The Blind Watchmaker (45 - 50)

(٥) وليام شكسبير (William Shakespeare): شاعر ومسرحي بريطاني، ويعتبر أحد أشهر أدباء التاريخ. توفي عام: ١٦١٦م. انظر: Brittanica Concise Encyclopedia (1731)

ردودُ علماءِ الغرب على تعظيم المَلاحدة للصُّدفة:

حيث إنَّ قضية تعظيم الصَّدفة قد تبوَّأت منزلة رفيعة عند الملاحدة فإن علماءَ الغرب اعتنوا بهذا البابِ عناية كبيرة، وردُّوا عليهم بردودٍ قوية مفحمة. وتتلخَّص ردودهم في ثلاثٍ نقاط:

النُّقطةُ الأولى: الردُّ على تأليه الملاحدة للصدفة.

النُّقطةُ الثّانية: الردُّ على مُبالغات الملاحدة في موقفهم من الصدفة.

النُقطةُ الثالثة: الردُّ على نظرية القرد اللامحدودة.

وبيانُ ذلك كما يلي:

- **النُّقطةُ الأولى: الردُّ على تأليه المَلاحدة للصُّدفة:**

مَن تأمَّل كلامَ الملاحدة في الصدفة تأمُّلًا دقيقًا يجد أنَّهم يقدِّسونها ويعطونها صفات إلهيَّة. وقد ناقش البروفسور بنيامين ويكر والبروفسور سكوت هون هذه القضيةَ بكلام وافٍ إذْ قالا في كتابيْهما: «الردُّ على الإلحاد الجديد» (Answering New Atheism)[١]: «كما رأينا، نمتِ الصدفةُ لدرجة فظيعة عندَ دوكينز بمحاولته تفسير إمكانية حدوث أيِّ شيء بها. السببُ، كما رأينا، هو أنَّ دوكينز يريد استخدامَ الصدفة كبديل للرب فيما يتعلَّق بأصل الحياة؛ ولذلك فلا بدَّ أن تكون الصدفةُ تمتلك قوى الرب وتحلُّ محلَّه، وأصبحتِ الصُّدفة ربًّا يستطيع القيام بأيِّ شيء»[٢].

والصدفةُ ليست بكائنٍ حتى تستطيع أن تخلق شيئًا، وقد بيَّنَا ذلك إذْ قالا: «ما هو هذا الربُّ المدعو بالصدفة؟ كيف يستطيع أن تكون علَّة قوية يملك قوَّة بحيث تستطيع استبدالَ الحاجة لربٍّ خالق ذكي[٣] قادرٍ حي؟ كما أشارَ أرسطو منذ زمن بعيد للماديّين في عصره

---

(١) وهما أكثرُ مَن أرجع إليهما في نقدِ أطروحات دوكينز في الصدفة، فقد قامَا بردودٍ ساحقة وقوية تستحقُّ الرجوع إليها رغم طولها في بعض المواطن.

(2) Answering the New Atheism (22)

(٣) هكذا قالا، وأما المسلمون فليس من منهجهم أن يصفوا الله تعالى بما لم يثبت في الوحي، ومن ذلك: صفة الذكاء.

- الذين بجَّلوا تغيراتِ الصدفة بشكل مماثل لدوكينز - بأنَّ الصدفة ليستْ سببًا لحدوث شيء لأنَّها ليست بشيء في الحقيقة. قد يحدث شيء صدفة، ولكنْ ما يهمُّنا هنا هو: ما هو هذا الأمرُ الذي حدثَ صدفة؟ لأنّه يخبرك عن الشيء الموجود في الحقيقة ويحدِّد ما تعنيه بالصُّدفة. ولكن حتَّى هنا، فإنَّ الصدفة ليست بشيء موجود في الحقيقة»[1].

ومعَ أنَّ الصدفة ليست بكائن فاعل، فإنَّ دوكينز - ومَن معه من الملاحدة - عندهم إيمانٌ راسخ بقواها؛ قال بنيامين ويكر وسكوت هون: «نعتقدُ أنَّه من العدل أن نقول: إنَّ قوَّة إيمان دوكينز بقوى الصُّدفة مماثلة لقوَّة إيمان معظم البشر بوجود الرب، وإن لم يكنْ إيمانه أقوى»[2].

وخلاصةُ الأمر أنَّ الملاحدة - وعلى رأسهم دوكينز - قد هربوا من الإيمان بالإله إلى الإيمانِ بالصدفة كما قال بنيامين ويكر وسكوت هون: «فلماذا إذن هذا الإخلاص لهذا الإلهِ العظيم المتقلِّب، الصدفة؟ بكلِّ بساطة، يفضِّل دوكينز الإيمان بأيِّ شيءٍ عدا الإله»[3].

- **النُّقطةُ الثّانية: الردُّ على مُبالغات الملاحدة في الصدفة:**

تتلخَّص ردودُ علماء الغرب على مُبالغات الملاحدة في الصدفة في خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: الملاحدةُ يبالغون كثيرًا في أثرِ الصُّدفة في إنتاج الأشياء؛ فمجالات الصُّدفة العمياء محدودة جدًّا؛ لأنَّ الأمرَ الذي يحصل صدفة يكون عشوائيًّا، ولا يكون منظَّمًا؛ فالتعقيدُ والنظام يتناقضان معَ الصدفة والعشوائية. وقد ذكر هذا الأمر أحدُ أشهرِ الباحثين في أصل الحياة، وهو البروفسور ألكسندر غراهام كارنس سميث[4] إذ قال: «إنَّ

---

(١) المصدر السابق (٢١)

(٢) المصدر السابق (١٩)

(٣) المصدر السابق (٢١)

(٤) ألكسندر غراهام كارنس (Alexander Graham Cairns Smith) بروفسور الكيمياء الحيوية في جامعة غلاسغوف في إسكتلندا. كان أحدَ أبرز العلماء المتخصِّصين في أصل الحياة. توفي عام ٢٠١٦ م. انظر: https: / /www.scotsman.com /news /obituary - alexander - cairns - smith - scientist - 1466822

الصدفة العمياء... محدودة جدًّا. فبإمكانك أن تنتجَ بسهولة كبيرة الحروفَ والكلماتِ الصغيرة المكافئة، لكنها ستصبح عاجزة سريعًا جدًّا كلما ازداد مقدار التَّنظيم. وبشكلٍ سريع جدًّا تصبح فتراتُ الانتظار الطويلة والموادّ المادية الضخمة غير مفيدة»[١].

الوجهُ الثّاني: قد لبَّس دوكينز على قرّائه حين عرَّف المستحيل بأنه «غير محتمل للغاية، معَ إمكان ضئيل جدًّا لوقوعه». وقد ردَّ عليه البروفسور بنيامين ويكر والبروفسور وسكوت هون على هذا التَّلبيس عندما ذكرَا أنه يجب علينا تبيانُ الفرق بين المستحيل وغيرِ المحتمل بشكل أوضح، وهو فرقٌ فَقَدَ دوكينز القدرةَ على شرحه. هذا توضيح بسيطٌ على شكل سؤالين:

ما هو احتمالُ «الحصول على توزيعة مثالية للأوراق في لعبة البريدج، حيث يستقبل كلٌّ مِن اللاعبين الأربعة مجموعة كاملة من الأوراق؟[٢]»

ما هو احتمالُ الحصول على بيتٍ ورقي مؤلَّف من أربعة طوابق، كلُّ طابق يحوي أوراقَ مجموعة كاملة من الورق، بعدَ رميها في الهواء أثناء إعصار؟

وذكرَا أنَّنا نستطيع حسابَ الاحتمال الأوَّل، وقد قام دوكينز بذلك حين ذكر أنّ: «الاحتمالات مقابلَ حصول ذلك هي: ١ إلى ٢٢٣٥١٩٧٤٠٦٨٩٥٣٦٦٣٦٨٣٠١٥٥٩٩٩٩»[٣].

أمّا ترتيبُ مجموعات الورق ضمنَ الإعصار، فاحتمالاتُ الحدوث ليست بذاك القدر، أو حتَّى ليست أقلَّ من ذلك بكثير، ليس هناك احتمال لها على الإطلاق، فهي غيرُ ممكنة الحدوث، بل مستحيلة فيزيائيًّا. وكذلك التدافع العشوائي للذرات في يد التمثال الرخامي أو قفز البقرةِ إلى القمر. فالقسمُ الأخير يعدُّ مستحيلًا. وأما توزيع موزِّع ورق البوكر لخمسة أص من مجموعة ورق

---

(1) The Life Puzzle (95)

(٢) مثال استخدمه دوكينز نفسه، لذلك لا يمكن اتهامنا بالغش بمجموعة الورق في:
The Blind Watchmaker (161)

(٣) انظر: المصدر السابق.

نظامية حيث لا تحتوي إلّا على أربعة أص؛ فهي غيرُ محتملة الحدوث (إلّا إذا قبلنا الإمكانية المملَّة التي اقترحها دوكينز بحدوث إعادةِ ترتيب ذري لورقةِ جوكر وتحوّلها لورقة أص خامسة)[1].

الوجهُ الثّالث: يعتقد الملاحدةُ المعاصرون أنَّ الكون وكلَّ ما فيه له بداية محدّدة؛ فكما أنَّ للكون بداية، فكذلك للأرض بداية، وبالتالي فإنَّ ظهور الحياة على هذه الأرض لها بداية أيضًا. إذًا، الوقتُ لظهور الحياة في الأرض محدَّد في فترة زمنية معيّنة، ولا يمكن إعطاؤه وقتًا لامحدودًا؛ قال البروفسور بنيامين ويكر والبروفسور سكوت هون في بيانِ هذه النقطة: «يقدِّم التاريخ الفعلي للحياة على كوكب الأرض معضلةً أكبر بكثير: فالوقت قصيرٌ جدًّا لتكون الصُّدفة هي المسبِّب الحقيقي. المشكلة كما نستذكر ليستْ فقط أنَّ الكون له عمرٌ محدد، بل إنَّ الخلايا الأولى قد ظهرت على كوكب الأرض بمجرَّد أن أصبحت ظروفُ تواجدها مناسبة. وكما نعلم فإنَّ دوكينز سيقول: «يا له من حَظ!» ولكنَّ ذلك حظٌّ مشابه لقيام تمثال مريم العذراء بالتلويح بيديه (إذا أسميناه حظًّا أساسًا ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2].

وكوْن الزمن غيرَ أزلي هو أمرٌ لا يأخذه الملاحدةُ في الحسبان عند ضربهم الأمثلة للصُّدفة. ويتبيَّن ذلك من قول دوكينز - الذي سبق ذكرُه - : «فبمجرَّد إعطاء وقتٍ أو فرصٍ غير محدودة، فإنَّ أيَّ شيءٍ يمكن أن يحدث». فليس هناك شيء اسمه: وقت غير محدودٍ أو فرص غير محدودة؛ فقولهم بأنَّ ظهور الحياة على الأرض له بداية زمنية يشكِّل معضلة كبرى لهم.

الوجهُ الرّابع: إنَّ دوكينز - ومَن معه من الملاحدة التطوُّريين - يعتقد أنَّ الاصطفاء الطبيعي عمليةٌ عمياء غير واعية؛ فإنَّه قد قال: «الاصطفاءُ الطبيعي: هو العملية العمياء والأوتوماتيكية وغيرُ الواعية... ونعلم الآن أنَّه التفسير الجليُّ لوجود جميع أشكال

---

(١) انظر: Answering the New Atheism (16)

(2) Answering the New Atheism

الحياة الهادفة. هذا الاصطفاءُ ليس له هدفٌ يعقله، بل ليس له عقل أصلًا... وهو لا يخطط للمستقبل، وليس له رؤية ولا بصيرة، ولا بصرٌ على الإطلاق»[1].

وهذا الأمرُ يضيف مشكلة إلى المشكلة السابقة، وهي أنَّ هذه الصدفة لا تعمل بإرادةٍ واعية أصلًا، وهذا الأمرُ لا بدَّ أن يبقى في الحسبان عند ضرب الأمثلة على قدرة الصُّدفة. وقد بيَّن البروفسور بنيامين ويكير والبرفوسور سكوت هون هذا الأمر بأنه بينما يقدرُ الرب أن يخلقَ بشكل مباشر أو بأيِّ فترة زمنية يريدها، فإنَّ الصدفة تحتاج وقتًا طويلًا جدًّا جدًّا جدًّا لإنجاز أبسط النواتج. وسببُ ذلك هو استطاعة الكائنات الذكية الاختيارَ بذكاء. وأمّا الصدفة فهي الغيابُ التّام للذكاء والاختيار. وذكرا أنهما يستطيعان توضيحَ هذه النقطة بإعادة طرحِ مثال دوكينز المتعلّق «بالحصول على أوراق كاملة بلعبة البريدج، حيث يستقبل كلُّ لاعبٍ من اللاعبين الأربعة مجموعة مناسبة كاملة من الأوراق». وإذا أردنا التأكُّد بأنّنا وزَّعنا أوراقًا كاملة من المرة الأولى، نستطيع ببساطةٍ «ترتيب الورق»، ونختار أن نضعَ الأوراق التي نريدها في المقدمة بكلِّ ذكاء. لكن إذا أردنا تركَ ذلك للصدفة دون تدخُّل عقولنا في الاختيار سنقوم بخلط الأوراق، ونراقب كمْ سنستغرق وقتًا للحصولِ على مجموعة أوراق كاملة عند اللاعبين الأربعة. (في الواقع، إذا أردنا تركَ ذلك للصدفة المحْضة، سنترك مجموعةَ الورق هناك ببساطة، ونرجو أنْ تخلطها الريحُ أو يحدث لها أمرٌ مفاجئ). فالمشكلة هي، كما أقرَّ دوكينز، بأنَّ احتمالات حدوث هذا الشيء هي ١ إلى ٢٢٣٥١٩٧٤٠٦٨٩٥٣٦٦٣٦٨٣٠١٥٥٩٩٩٩. ماذا تعني اللااحتمالية الهائلة هذه إذا ربطناها معَ الزمن؟ حسنًا، هناك ٣١٥٧٠٥٦٠ ثانية في السَّنة. وعُمر الكون في نظر دوكينز ٤٢٦٢٠٢٥٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ثانية. وإذا استطاع الحاسوب حسابَ جميع التوليفات الممكنة للأوراق للاعبين الأربعة خلال دور واحدٍ بكلِّ ثانية بطريقة ما، سيأخذ ذلك أكثرَ من خمس مليارات ضعف من عمر الكون حسبَ نظره للمضي في هذا الاحتمال![2].

---

(1) The Blind Watchmaker (5)

(٢) انظر: Answering New Atheism (25)

الوجهُ الخامس: يذكرُ دوكينز احتمالاتٍ ضئيلة جدًّا عند حساباته المتعلّقة بالصُّدفة، مع أنَّ علماء الرياضيات في العادة يروْن أنَّ الشيء ذا الاحتمالية الأقل من ١ / ١٠^٥٠ يعتبر استحالةً رياضية[١]. وهذا الرقمُ مبنيٌّ على ما يسمَّى بقانون بوريل (Borel's law) نسبةً إلى البروفسور إيميل بوريل[٢] وإليه ينسب كثيرٌ من قوانين الرياضيات[٣].

وعلى فرضِ التسليم بأنَّ قانون بوريل قانون أغلبي، ويمكن أن يستثنى من هذا الأصل بعضُ الأمور، فقد حسبَ الدكتور وليام ديمبسكي أن أقصى الاحتمالات الممْكنة قطعًا هو ١٠^١٥٠. وقد ذكر أنَّ هذا الرقم مبني على ثلاثة أمور[٤]:

١) عددُ الجسيمات الأوَّلية في الكون المشاهد هو ١٠^٨٠.

٢) أقصى معدَّل في الثانية التي يمكن أن تحصل التحوّلات في الحالات المادية هو ٤٥ – ١٠.

٣) عمرُ الكون في الثواني المضاعف بليون مرَّة هو ١٠^٢٥.

وسمَّى هذه النظرية للاحتمالات: «نظرية الاحتمالات الكونية المقيّدة» (Universal Probability Bound)[٥]. والحديث عن الاحتمالات في الصدفة فوق هذا الرقم ضربٌ

---

(١) انظر: (١) A Case Against Accident and Self – Organization

(٢) إيميل بوريل (Emile Borel): بروفسور الرياضيات الفرنسي، وقد صاغ عددًا من القوانين الرياضية المشهورة. توفي عام ١٩٥٦ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Emile – Borel

(٣) انظر:
Elements of the Theory of Probability (translated by John Freund), Prentice Hall, 1965, Chapter 6

(٤) هذا الرقم هائل جدًّا، حيث أنه ١٠ وخلفه ١٥٠ صفرًا!

(5) The Design Inference (213), by: William Dembski (Cambridge Studies in Probability, 1998)

من السَّفسطة. ومع ذلك، فإننا نجد أنَّ الملاحدة يتجاوزون هذه الاحتمالات بمراحل عند حديثِهم عن الصدفة - كما سيأتي بيانه قريبًا إن شاء الله -.

وبهذه الأوجهِ الخمسة يتبيَّن أنَّ التأصيلات التي بنى عليها الملاحدة - وعلى رأسهم دوكينز - موقفَهم من الصدفة في غاية البطلان والفساد.

- **النُّقطةُ الثّالثة: الردُّ على نظرية القرد اللامحدودة:**

نظريةُ القرد اللامحدودة مبرهنةٌ رياضيات يستخدمها علماءُ الرياضيات في قياس الاحتمالات الضئيلة. وقد ذكرها البروفسور إيميل بوريل في مقال عام ١٩١٣م[١]، ثمَّ تتابع بعضُ العلماء في استخدامها بصيغ متنوّعة[٢].

وخلاصةُ هذه النظرية: أنَّه إذا قعد كثيرٌ من القرود أمامَ آلات كتابية وتضرب عليها بطريقةٍ عشوائية في وقت لامحدود، فإنَّها في النهاية تستطيع أن تكتب نصًّا معيّنًا مثل: أعمال شيكسبير.

وهذه النظريةُ في الأصل نظريةٌ مجرَّدة لحساب الاحتمالات الضئيلة، ولكنَّ الملاحدة يتداولونها بكثرةٍ في محادثاتهم للتدليل على أنَّ الصدفة العمياء قد تنتج الانتظام. وقد استخدمَها ريتشارد دوكينز في كتابه: «صانع الساعات الأعمى» للدلالة على أن الانتخابَ الطبيعي قد ينتج التعقيدَ البيولوجي من طفرات عشوائية[٣].

هذه النظريةُ ليست غريبة في أصلها فحسب، بل هي باطلةٌ قطعًا عندما يستخدمها الملاحدةُ مثل ريتشارد دوكينز. وقد بيَّن علماءُ الغرب ذلك من أوجه كثيرة، أكتفي بذكر ثلاثة منها:

الوجهُ الأوَّل: الملاحدةُ يتناقلون هذه النظرية كأنها مسلَّمة، وأنه يمكن نظريًّا أن يحصلَ هذا الشيء. ولكنَّ دين أوفرمان قد تصدَّى لبيان أن هذه النظرية لا تتعامل مع

---

(١) انظر: Mecanique Statistique et Irreversibilite (3 / 189 - 196)

(٢) انظر: https: / /whatis.techtarget.com /definition /Infinite – Monkey – Theorem

(٣) انظر: The Blind Watchmaker (46 - 50)

الاحتمال الضئيل، بل تتعامل مع المستحيل؛ فطرحَ سؤالًا: ما هو احتمالُ كتابة عفوية لأعمال شكسبير؟ وأجابَ بالنظر إلى هذه القطعة التي تحتوي على ٣٧٩ حرفًا عبارة عن تنوُّع من الحروف الأبجدية الـ ٢٦:

She should have died hereafter;
There would have been a time for such a word.
To-morrow, and to-morrow, and to-morrow
Creeps in this petty pace from day to day
To the last syllable of recorded time;
And all our yesterdays have lighted fools
The way to dusty death. Out, out, brief candle!
Life's but a walking shadow, a poor player,
That struts and frets his hour upon the stage
And then is heard no more. It is a tale
Told by an idiot, full of sound and fury,
Signifying nothing
William Shakespeare, Macbeth, Act V, Scene V

بتجاهل المسافات بينَ الكلمات والفواصل، فاحتمالية إنتاج النصِّ صغيرٌ جدًّا، وهو ٢٦ ^٣٧٩^. وبالمعادلةِ التالية سنرفعُ هذا الرقم إلى أس ١٠:

$10^x = 26^{379}$

$\log 10x = \log 26^{379}$

$x \log 10 = 379 \log 26$

$\log 26 = 1.414973348$

$X = 536.275$

وبناءً على ذلك فإنَّ الاحتمال يكون ١ في ١٣٦^٥٠٠^. وفرصة وجود هذا الرقم تتجاوزُ كثيرًا فكرة كوْنه: غير محتملٍ للغاية. وذكر أوفيرمان أنَّه يمكن أن يضع هذا

الرقم في سياقٍ واضح، وذلك أنَّ العلماء حسبوا أنَّ عددَ الذرّات في الكون المعلوم ١٠^٨٠. وقد ذكرَ البروفسور بول ديفيس[١] أنَّ احتمال إصابة هدفٍ حجمُه بوصة عن بعد ٢٠ مليار سنة ضوئية برمي رصاصة عشوائيًّا هو ١٠^٦٠![٢].

وحسابُ دين أوفيرمان يتعلَّق بنصٍّ قصير جدًّا لشكسبير، فكيف بأعماله كلّها؟ هذه النظرية ضربٌ من السفسطة، لا سيَّما عندما يستخدمها الملاحدة تأييدًا لعقائدهم الفاسدة!

الوجهُ الثّاني: هذه النظريةُ مبنيَّة على أنَّ للقرود زمنًا لامحدود في كتابة هذا النصّ، ولكنْ حيث أنَّ للكون بداية؛ فليس هناك شيء في الواقع اسمه: زمن لامحدود؛ ذكر دين أوفرمان أنَّه لو كانت نظريةُ أزلية الكون صحيحة لكان يمكن أن تحصل هذه النظرية، «لكن الكون ليس قديمًا بالدرجة التي تكفي لذلك، كما أنَّ عدد القرود المتاح غيرُ كافٍ لكي تكتب قطعة صغيرة من أعمال شكسبير؛ فالوقت ليس هو بطل القصة، والقرود لن تجدَ الوقت الكافي»[٣]، ثمَّ ذكر أنها لو افترضنا أنَّ الانفجار العظيم حدثَ منذ ١٥ مليار سنة، وأنَّ هناك مليون قرد بدأت بالطباعة منذ اللحظة الأولى وأنَّ كلَّ قرد يطبع حرفًا في الثانية؛ سيتطلَّب أكثر من مليون مليار سنة للحصول على كلِّ النتائج الممكنة. ولو وضعْنا الوقت بشكل أسس فكلُّ الوقت هو ١٠^١٨ ثانية، ومثلما أنَّ الوقت المتاح للتولُّد غيرُ كاف فالقرود لن تجد وقتًا كافيًا لكتابة أعمال شكسبير[٤].

الوجهُ الثّالث: قد تمَّت تجربة هذه النظرية واقعيًّا عام ٢٠٠٢م، وكانت النتيجة مخيِّبة لآمال الملاحدة؛ قال البروفسور بنيامين ويكير والبروفسور سكوت هون:

---

(١) بول ديفيس (Paul Davies): عالم الفيزياء والفلك الأمريكي، وبروفسور في جامعة أريزونا. وقد ألّف أكثرَ من ثلاثين كتابًا، وحاز على عدد من الجوائز. انظر:
https://physics.asu.edu/content/paul-davies

(٢) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (54 - 55)

(٣) المصدر السابق (٥٤)

(٤) انظر: المصدر السابق (٥٥).

«وبالمناسبة فقد تبيَّن الأمرُ عندما حاول باحثون اختبارَ مصداقية القول المأثور السابق في قفصٍ مملوء بقرودٍ في حديقة حيوانات بمدينة بينتون في إنكلترا في ٢٠٠٢ م، فإنَّهم قدْ وجدوا أنَّ القرود قامت بطباعة القليلِ القليل من الحروف (كان نتاجها على مدى عدَّة أشهر مجرَّد صفحات قليلة كتبت في معظمها مئات من s's)، تاركة فهمًا واضحًا لخطأ استخدام الحاسب في مثل هذه التجربة (سوف نوفِّر على القارئ التفاصيل المتعلّقة بالبراز)، وفي معظمِ الأوقات تجاهلوا لوحة المفاتيح بالكامل. لم تنتج القرودُ الحقيقية نصًّا أدبيًّا، فما بالك بنصٍّ مثل كتابات شكسبير»[1].

وبهذه النقاط تتبيَّن أنَّ نظريةَ القرود اللامحدودة لا يمكن الاستنادُ إليها ألبتَّة، واستدلالُ الملاحدة بها يدلُّ على هزالةِ خطابهم، وضعف حججهم، وسفاهة عقولهم، وإلّا لم يلجؤوا إلى مثلِ هذه النظريات.

---

(1) Answering The New Atheism (45)

المبحثُ السّادس
نقدُ ردودِ علماءِ الغرب
على أسسِ الإلحاد المُعاصر[1]

هذا الفصل يتناول ردودَ علماءِ الغرب على أسس الإلحاد المعاصر. وتبيَّن أنَّ أهمَّ أسسِ الملاحدة هي: المذهبُ المادي، وتعظيمُ العلم التجريبي (العلموية)، وتعظيمُ العقل، والشكُّ ونسبيةُ الحقائق، إضافةً إلى تعظيم الصدفة. وردودُهم في هذا الباب من حيث العموم جيِّدة ومفيدة، وهي مبنيَّةٌ على حججٍ عقلية متينة. وعليه، فإنَّه يمكن الاستفادةُ منها إلى حدٍّ كبير. ولكنَّ المشكلة تكمُّن في الأمور الآتية:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ علماءَ الغرب لما رأوا أنَّ الملاحدة تبنَّوا المذهب المادي وأنكروا الغيبياتِ؛ حصلت لديهم ردَّةُ فعْل، فحاولوا إثباتَ الغيبيات بأيِّ وسيلة. ومن ذلك أنَّ بعضَهم خاضوا في علم النفس الموازي. وهذا العلم يشتمل على عددٍ من المحاذير الشَّرعية، ولا يستبعد أنَّ بعضَ الظواهر التي تتمُّ ملاحظتها في هذا العلم من قبيل خوارق شيطانية. ولهذا يجب على المسلِم أن يحذرَ من الخوض في هذا العلم ويبتعد عن ذلك كليًّا، وإنَّما نكتفي بالقول إنَّ جميع الخوارق للعادة - ومنها ما يتمُّ رصدُه في هذا العلم - دليلٌ على بطلان المذهب المادي، ولكن لا يجوز للمسلم أن يخوض فيه لأنَّه يخشى أن يتلاعب به الشيطان.

الأمرُ الثّاني: أنَّ النصارى لديهم تاريخٌ أسود في التعامل مع العلوم التجريبية في العصور الوسطى. وذلك بسبب مخالفات كتابهم المقدَّس الكثيرة للحقائق العلمية،

---

(١) الغرض من إيراد المبحث النقدي في نهاية كلِّ فصل هو تلخيصُ ما سبق في الفصل، مع ذكر أبرزِ أوْجه نقد كلام علماء الغرب. ولهذا ستكون هذه المباحث مختصرة بدون إطناب أو تفصيل.

فكانوا يحاكمون العلماء في محاكم التفتيش. وبسبب هذا التاريخ الأسود في معارضة الحقائق العلمية فإنَّ بعضَ الناس لا يقبلون ردودَ النصارى - وإن كانت صحيحة - على الملاحدةِ في موقفهم من العلم التجريبي. وذلك لأنَّهم متَّهمون بإنكار الحقائق العلمية الثابتة. وأمَّا المسلمون فليست لديهم هذه المشكلة، وذلك أنَّ القرآن والسنة لا يتعارضانِ مع الحقائق العلمية الثابتة، كما أنَّ علماء الإسلام لم يحاكموا العلماء التَّجريبيين في محاكم التفتيش.

الأمرُ الثّالث: قد ردَّ علماءُ الغرب على تعظيم الملاحدة للعقل بردود جيِّدة ومتميِّزة. ولكن كما أنَّ موقف النصارى من العلم التجريبي يتّسم بالضعف، فكذلك موقفُهم من العقل. وذلك أنَّ عقيدة التثليث هي أصل الأصول عند النصارى. وهذه العقيدة الفاسدة تتعارضُ مع بديهيات العقل، حيث يدَّعون أنهم يؤمنون بإله واحد، ولكنَّه في آنٍ واحد ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، والروح القدس. إضافةً إلى كثير من العقائد والطقوس الأخرى المخالفة للعقل الرصين والمنطق السليم في هذه الديانة. وهذا يجعل ردودَ النصارى في القضايا العقلية والمنطقية في حالة ريبة، وقد تكون سببًا لعدم قبولها.

الأمرُ الرّابع: أنَّ علماء الغرب قد ذكروا عددًا من القواعد الجيِّدة في التعامل مع الشُّبهات والشكوك، ولكنْ في الوقت نفسه صرَّح كبارُهم أنَّهم يقعون في الشكوك مرارًا وتكرارًا. وهذا دليلٌ على أنَّ النصارى أنفسهم ليسوا على بيِّنة من أمرهم، وغيرُ متيقنين مِن عقيدتهم. كما أنه يدلُّ على أنَّ هذه القواعد التي أصَّلوا لها لم تكنْ مُجدية. فإذا كثرتِ الشُّكوك في صفوف علمائهم، فماذا نتوقَّع بين عوامهم؟! وهذه المشكلة ليست موجودةً بين المسلمين لأنَّ دينهم وحيٌ من الله - تبارك وتعالى -، وهو موافقٌ للفطرة والعقل والعلم. وإنْ كان بعض المسلمين يقعون في الوساوس والشبهات، إلا أنَّها ليست مُنتشرة بالصورة الموجودة لدى النصارى، ولله الحمد.

الفصلُ الثّاني

أســـاليــبُــهــم في الرُّدود على المَلاحدة

وفيه ستَّة مباحث:

المبحثُ الأوَّل: بيانُ مُغالطاتِ الملاحدة المنطقية.

المبحثُ الثّاني: بيانُ شَطحاتِ الملاحدة.

المبحثُ الثّالث: بيانُ تَناقضاتِ الملاحدة.

المبحثُ الرّابع: بيانُ ضعفِ خطابِ الملاحدة.

المبحثُ الخامس: بيانُ مخالفة الملاحدةِ للمنهج العلمي.

المبحثُ السّادس: بيانُ الشُّرور المترتِّبة على الإلحاد.

المبحث السّابع: نقد أساليب علماء الغرب في الردود على الملاحدة

قدْ تنوَّعت أساليبُ علماء الغرب في كشف عَوار الخطاب الإلحادي الفاسد. وفي هذا الفصل سوف يتمُّ استعراضُ ستةٍ من أبرز أساليبهم في الردِّ على الملاحدة. وهذه الأساليبُ تبيِّن أنَّ الخطاب الإلحادي المعاصر ضعيفٌ وهزيل، كما أنَّه مليء بمغالطات منطقيَّة، وشطحات، وتناقضات. وأنَّ الملاحدة وإنِ ادَّعوا تبنِّي مذهبَ العلموية فهُم من أبعدِ النّاس عن المنهج العلمي الرَّصين. وختامًا في هذا الفصل، ستتبيَّن الشرور الكثيرة والعظيمة من الإلحاد وآثاره المدمِّرة على البشرية. ومَن تأمَّل هذه الأساليب الستّة حقَّ التأمُّل علمَ أنَّ الإلحاد فكرة شاذَّة، ونبْتة خبيثةٌ يجب اجتثاثُها من جذورها.

المبحثُ الأوَّل
بيانُ مُغالطات الملاحدةِ المنطقية

قدْ سبق أنه لا يملُّ حديثُ الملاحدة عن العقلانية والتفكير المنطقي مع رميهم المتديِّنين بالغباء والحماقة. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه التُّهم كما سلفَ في الفصل الماضي. ومما ركَّز عليه علماءُ الغرب في هذا الجانب: أنَّ الخطابَ الإلحادي يشتمل على كثيرٍ من المغالطات المنطقية. والمغالطةُ المنطقية هي «تلك الأنماطُ من الحجج الباطلة التي تتَّخذ مظهرَ الحجج الصحيحة»[1]. فهي حججٌ مُشتملة على مقدِّمات شبيهة بالحقِّ، ولكنَّها ليست كذلك. فإذا تبيَّن أنَّ الحجة مشتملة على مغالطة منطقية فإنها تسقطُ ولا يُرفَع بها رأس، وكان نوعًا من السفسطة[2]. وهذا هو شأنُ الحجج التي يستدلُّ بها الملاحدة. وليس المقصود من هذا الفصل بيانَ كلِّ مرة وقعَ دعاة الإلحاد في مُغالطة منطقية لأنَّه لا حصر لها؛ وإنَّما المقصود بيانُ أهمِّ المغالطات التي تردُ في كلام الملاحدة معَ ذكر بعض الأمثلة على ذلك.

وأكثرُ مَن رأيت أنه يهتمُّ بهذا الموضوع من علماء الغرب هو الدكتور جاسون ليزلي، فقدْ صنَّف كتابيْن متميِّزين عن هذا الموضوع، وهمَا: «دليل الجيب للمنطق والإيمان» (A POCKET GUIDE TO Logic & Faith)، و: «تمييز الحقِّ: بيان الأخطاء في الحجج التطوّرية» (Discerning Truth – Exposing Errors in Evolutionary Arguments). ولكون دكتور ليزلي أكثر مَن كتب عن هذا الموضوع فسيكون جلُّ النقول في هذا المبحث عنه، معَ ذكر بعض النُّقول الأخرى

(١) المغالطات المنطقية (١٧)، لعادل مصطفى، (المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م).

(٢) انظر: موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب (٩٤٠ - ٩٤١)، لمجموعة من المؤلفين، (مكتبة لبنان ناشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ م).

النافعة أيضًا. وسأذكر ثماني مُغالطات منطقيَّة يقع فيها الملاحدة في هذا المبحث، وهي كالتالي:

المغالطةُ الأولى: مغالطةُ تجسيد المجرَّدات (The Fallacy of Reification):

تجسيدُ المجرَّدات: معاملة شيء مجرَّد كشيء مادي أو محدَّد[١]. وهو أسلوب من أساليب اللغة المعروفة، ويكثُر استخدامُه في الشعر، ولكن عندَ استخدامه في الحجج فإنَّه يعدُّ مغالطةً منطقية. وذلك أنَّ الحجج العلمية المنطقية لا بدَّ أن تكون واضحة وبيِّنة، وأمّا تجسيدُ المجرَّدات ففيه غموضٌ والتباس حتى قدْ يفهم صاحبُ الحجَّة غير ما يفهمه السامع.

ويستخدمُ الملاحدة هذه المغالطة في كثيرٍ من الأحيان[٢]، ولكن أكتفي في هذا المقام بمثالٍ واحد، وهو عندما يتحدَّث الملاحدة عن الطبيعة والاصطفاء الطبيعي والتطوّر، فإنهم يصفونَ هذه الأمور المجرَّدة بصفات كائنات حيَّة ذات إرادة وذكاء. فالطبيعة كما عرَّفها قاموس أكسفورد هي: «ظاهرة العالم الفيزيائي بأجمعها، ويشمل ذلك: النباتات، والحيوانات، والمناظر الطبيعية، وغيرها من الخصوصيات ومنتجات الأرض. وهو في مقابل للبَشر والكائنات البشرية»[٣]. فالطبيعةُ بهذا المعنى مفهوم مجرَّد، ولا يمكن أن ينسبَ إليه الخلق والتصميم والإرادة.

وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي هذه النقطة فذكر أنَّه قد يقول التطوّري في حواره شيئًا يُشبه عبارة: «لقد صمَّمت الطبيعة بعضَ المخلوقات المذهلة». وهذه الجملة ترتكبُ مغالطةَ تجسيد المجرَّدات؛ لأنَّ الطبيعة ليس لها عقل، ولا يمكنها تصميم أي شيءٍ بالمعنى الحرفي للكلمة. وباستخدام مغالطةِ تجسيد المجرَّدات يحجب التطوّري حقيقة أنَّ رؤية العالم في نظرية التطوُّر تعجز عنْ تفسير وجود التصميم في

---

(١) انظر: https: / /www.britannica.com /topic /reification

(٢) سبق في مبحث: تعظيم العلم التجريبي أنَّ الملاحدة يستخدمون هذه المغالطة عندما يتحدَّثون عن العلم التجريبي.

(3) https://dictionary.cambridge.org/us/dictionary/english/nature

الكائنات الحية (ضعْ في ذهنك أنَّه قد يقوم بذلك عن غير قصد). وأمّا الخالق فإنه يقدرُ على تصميم الكائنات لأنَّ له ذاتًا، وأمّا الطبيعةُ فهي مفهوم مجرَّد، ولا يمكنها تصميم أي شيء[1].

وذكرَ الدكتور ليزلي أنَّ الملاحدة يستخدمونَ هذه المغالطة عند حديثهم عن التطوُّر والاصطفاء الطبيعي، فيقولون على سبيل المثال: «ابتكرَ التطوُّر سبيلًا لتجنُّب هذه المشاكل». في محاولةٍ لتفسير وجودِ بعض النظم البيولوجية فائقة التصميم. ولكن من المؤكد أنَّ التطوُّر مفهومٌ ليس له عقل، ولا يمكنه أن يحلَّ أيَّ مشكلة. وهذا المثال أيضًا يخفي صعوبةَ تفسير وجود التصميم في الكون دونَ اعتمادٍ على العقل كوسيلة. فهذا استعمالُ مغالطة التجسيد لمفهوم مجرَّد. بل عبارة الاصطفاء الطبيعي نموذج عن تجسيد المجرَّدات، ويمكن اعتبارُها مغالطة إنِ استعملت في حوار، إذْ ليس بمقدور الطبيعة أن تصطفي بالمعنى الحرفي. وينتشر استعمالُ هذا التعبير لدرجة أن لا نسمِّيها مغالطة بشرط أنْ يفهم المعنى من قبَل الجميع. نحن نؤمن بالمفهوم الذي اسمه «الاصطفاء الطبيعي». هذا المفهومُ صحيح؛ فالكائنات جيِّدة التلاؤم معَ بيئة ما لها احتمالٌ أكبر للبقاء من تلك غير المتلائمة جيِّدًا؛ وهذا صحيح، ولكنْ لو طرحنا سؤالًا: «لماذا تتلاءم الحيواناتُ تمامًا مع بيئتها؟». فإنْ أجاب التطوُّري بقوله: «الاصطفاء الطبيعي»، فهذه مغالطة تجسيد المجرَّدات. فإنه يحجب السببَ الحقيقي لكون الحيوانات مصمَّمة للبقاء – وهو الله. إن تأمَّلَ المرء في هذا الأمر سيجد أنَّ الاصطفاء الطبيعي لا يفسّر حقيقة سبب وجود كائناتٍ متلائمة مع بيئتها. فهو يفسِّر فقط: لماذا لا نجد كائنات غير متلائمة مع بيئتها (السبب أنَّها ستموت). فالله – وليست «الطبيعة» – هو الذي أعطى الكائنات الحيَّة القدرات التي تحتاجها للبقاء[2].

---

(١) انظر: A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 12

(٢) المصدر السابق: (١٢ – ١٣)

المغالطةُ الثانية: مغالطة المراوغة (The Fallacy of Equivocation):

مغالطةُ المراوغة تشبه مغالطةَ تجسيد المجرَّدات بعضَ الشيء، فهي: استعمال كلمة غامضةٍ تحتمل معنيْن؛ فتجعل الحجَّة مخادعة[١]. ويستخدم الملاحدةُ هذه المغالطة في موضعين:

الموْضعُ الأوَّل: عندما يتكلَّمون عن التطوُّر؛ فالتطوُّر قد يُراد به التطوُّر المجهريُّ (Microevolution)، وخلاصته: التغيُّر في تكرار الجينات في داخل التجمّع السكاني[٢]. وهذا النوعُ من التطوُّر والتغيّر ثابت، وقدْ يلاحظ في المجهر. وقد يطلق التطوُّر على نظريةِ التطوُّر بأكملها - بما في ذلك أنَّ الإنسان والقرد من سلف مُشترك -، وهذا النوع مِن التطوُّر لا يمكن ملاحظتُه في المجهر أبدًا، بل هي نظرية مبنيَّة على فرضيات واستنتاجات باطلة - كما سيأتي بيانه مفصَّلًا لاحقًا إن شاء الله -.

وقد ذكرَ الدكتور جونثان سارفات أنَّ الملاحدة التطوُّريين يخلطون بين هذا المعنيين، وبالتالي يرتكبون مغالطةَ المراوغة؛ فقال: «كثيرٌ من مروِّجي التطور يستخدمون مغالطة المراوغة بطريقةٍ مخادعة، يحوِّلون المعنى لكلمة واحدة (التطور) في أثناء الحجَّة. الطريقة المعتادة عندهم هي «الإغراءُ والتبديل»، فيذكرون أمثلةً على حصول بعض التغيّرات عبر الزمن، ثمَّ يقدِّمون ذلك على أنَّ نظرية التطور العامة (General Theory of Evolution) قد تمَّ إثباتُها كحقيقة علمية، وأنَّ نظرية الخلق دحضت. برنامج التطوُّر التلفازي (PBS Evolution) ومجلَّة ساينتيفك أمريكان (Scientific American) مليئة بهذه الطريقة»[٣].

---

(١) انظر:

https://www.logicallyfallacious.com/tools/lp/Bo/LogicalFallacies/81/Equivocation,

(٢) انظر:

https://evolution.berkeley.edu/evolibrary/article/_0_0/evoscales_02

(3) https://creation.com/refuting-evolution-2-chapter-3-argument-evolution-is-true-science-not-just-a-theory

الموْضعُ الثّاني: يستخدمُ الملاحدةُ هذه المغالطة عندما يتحدَّثون عن العلم التَّجريبي كجزءٍ لا يتجزّأ، رغم أنَّ العلم التجريبي يطلق على أنواع مختلفة من العلم. وهذه الأنواعُ متفاوتة في القوة. وذكر الدكتور جاسون ليزلي أنَّ الناس يراوغون أحيانًا بكلمةِ العلم التجريبي، إذ تدلُّ هذه الكلمة غالبًا على الإجراءات التي نستكشف بها السلوكَ المنتظم والمتوقَّع للكون حاليًا - أي: بالطريقة العلمية. هذا هو العلم العملي، لكنْ كلمة العلم التجريبي قد تدلُّ أيضًا على كيان معيَّن من المعرفة (مثلًا، علم الوراثة). كما أنَّ العلم التجريبي قد يدلُّ كذلك على نماذج لأحداث سابقة؛ مثل: علم البدايات، أو قد يدلُّ على نموذج معيَّن منها. وعندَ استبدال أيٍّ من تلك المعاني ضمن حجَّة ما، فقد وقعوا في مغالطة المراوغة.

فعندما يقولُ الملحد: «قد أعطانا العلم الحواسيب، والطبَّ، وبرنامج الفضاء، وأشياء كثيرة أخرى، فلمَ تنكر إذًا علم التطوُّر؟» فإنَّه يخلط بين العلم العملي مع نموذج خاصٍّ من علم البدايات. وعلمُ البدايات يفتقرُ إلى ميزات إمكانية الاختبار، أو إمكانية التّكرار الموجودة في العلم العملي؛ لأنَّ الماضي من المستحيل اختباره مباشرة، أو أنْ يتكرَّر حدوثه. أمّا الحواسيب والطبّ وغيرها فجميعُها من نتاج العلم العملي.

وبخلطِ العلم العملي مع التطوُّر، يأملُ المحاورُ أن يعطي التطوُّر مصداقية لا يستحقُّها في الحقيقة. وقال الدكتور ليزلي بعدَ هذا التقرير: «لا شكَّ أننا نؤمن بالعلم العملي، ولدينا بعضُ التقدير لعلم البدايات أيضًا، لكن هذا لا يعني أنَّه يجب علينا أن نؤمنَ بالتطوُّر - الذي هو مجرَّد نموذج محدَّد من علم البدايات»[1].

المغالطةُ الثّالثة: مغالطةُ المصادرة على المطلوب

(Fallacy of begging the question):

مغالطةُ المصادرة على المطلوب، بمعنى: وجودُ النتيجة في إحدى مقدِّمات الحجة[2]. وهذه المغالطةُ قد يصعب اكتشافُها؛ لأنَّ الحجة في ظاهرها سليمة،

---

(1) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: (16-17)

(٢) انظر:
https://www.logicallyfallacious.com/tools/lp/Bo/LogicalFallacies/53/Begging-the-Question

ولكنّها في الحقيقة حجَّة دائرية (circular argument)، فلا يخرج صاحبُ الحجة بنتيجة غير ما افترض من المقدِّمات في الحجة.

وتتكرَّر هذه المغالطة في كلامِ الملاحدة التطوُّريين؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: معظمُ أمثلة الاستدلال الدائري التي يستخدمها التطوُّريون هي مغالطات من نوع المصادرةِ على المطلوب»[١]. وضربَ مثالاً على هذا النوع من المغالطة بقول الملاحدة: «لا بدَّ أن التطوُّر صحيحٌ لأنه حقيقة»، فإنَّ هذه الجملة سليمة منطقيًّا. ولكن إن كانتْ سليمة منطقيًّا فلماذا نعتبرها مغالطة؟ الجواب هو أنَّ المصادرة على المطلوب مغالطةٌ لأنها اعتباطية؛ فالحججُ الدائرية مثلها غيرُ مفيدة، لأن أيَّ شخص ينكر النتيجة سوفَ ينكر المقدمةَ المفترضة أيضًا؛ لأنَّ النتيجة هي نفسُ المقدمة. فحجة «لا بدَّ أن التطوُّر صحيح لأنَّه حقيقة» رغم أنها سليمة منطقيًّا إلّا أنها مغالطة، لأن المجادل افترض فقط ما يحاول أن يثبتَه. فلا يجوز استعمالُ الافتراضات الاعتباطية في الاستدلال المنطقي، لأنَّه يمكننا بالمقابل أن نفترض العكسَ تمامًا، فمِن الجائز تمامًا أن يقال: «لا يمكن أن يكون التطوُّر حقيقيًّا لأنه باطل»[٢].

المغالطةُ الرّابعة: مغالطةُ السؤال المشحون المركَّب (Complex Question Fallacy):

مغالطةُ السؤال المشحون المركَّب هي: «تكتيك يعمدُ إلى دسِّ فروض مسبقة (presumptions)، غير مبرَّرة، وغير داخلةٍ في التزامات الخصم، داخل سؤال واحد، بحيث إنَّ أيَّ جواب مباشر يُعطيه المجيب يوقعه في الاعتراف بهذه الفروض. والمثال التقليدي لهذه المغالطة: هل توقَّفت عن ضرب زوجتك؟[٣]. والملاحدةُ التطوّريون يستخدمون هذه الأسئلة المركَّبة المشحونة كثيرًا في مناظراتهم. وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي ذلك مع كيفية الردِّ عليهم بقوله: ««لماذا يقفُ الخلقيون ضدَّ العلم؟». يفترض هذا السؤال المشحونُ مسبقًا أنَّ الخلقيّين ضدَّ العلم. وهذا غيرُ صحيح، ولذا وجب تحليلُ السؤال إلى:

---

(1) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith 21

(٢) انظر: المصدر السابق (٢١).

(٣) انظر: المغالطات المنطقية (١٤٩).

١ - هل الخلقيون ضدَّ العلم؟

٢ - إنْ كان كذلك، فلماذا هُم كذلك؟

بما أنَّ الجواب على السؤال الأوَّل بالنفي، فلا ضرورة لطرح السؤال الثاني»[١].

المغالطةُ الخامسة: مغالطةُ القسمة الثنائية الزائفة (Bifurcation Fallacy):

مغالطةُ القسمة الثُّنائية الزائفة ترتكب عندَ تُقدّم معضلة زائفة، يعني عندما يُسأل شخصٌ أن يختار بينَ خيارين معَ أنه يوجد على الأقلِّ خيارٌ واحد آخر[٢]. ويستخدم الملاحدةُ هذه المغالطة عندَ مواضع عديدة، أكتفي بذكر اثنين منها:

الموْضعُ الأوَّل: التخييرُ بين الإيمان والعقلانية؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: ««إما أن تكون مؤمنًا أو عقلانيًّا». يرتكب هذا التعبير مغالطة القسمة الثنائية الزائفة بسبب وجودِ إمكانية ثالثة: إذْ يمكننا أن نتحلَّى بالإيمان ونكون عقلانيين. وفي الواقع فإن الإيمانَ شيءٌ أساسي للوصول إلى العقلانية (مثلًا يجعل الإيمان قوانين المنطق ذات معنى[٣].

الموْضعُ الثّاني: عندَ الحديث عن أنَّ المعجزات خارقة لقوانين الطبيعة؛ ضرب الدكتور جاسون ليزلي مثالًا على ذلك، وردَّ عليه بقوله: ««إمّا أنَّ الكون يسير وفق القوانين، أو أنَّ الله يقوم بالمعجزات دومًا». وهذه مغالطةٌ أيضًا بسبب وجود إمكانية ثالثة: الكونُ يسير وفقَ القوانين معظمَ الوقت، ويجري الله معجزة أحيانًا»[٤].

المغالطةُ السّادسة: مغالطةُ الحجَّة الشخصية (الشخصنة) (Ad Hominem):

المرادُ بهذه المغالطة: أنْ يعمد المغالطُ إلى الطعن في «شخص» القائل بدلًا من تفنيد «قوله». وذلك يكون في الغالب بالسبِّ والشَّتم، واحتقار الخصم، وتصغيره..

---

(1) Discerning Truth (39-40)

(٢) انظر: http: / /www.logicalfallacies.info /presumption /false – dilemma /

(3) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 35

(4) Discerning Truth (43-44)

إلخ. وهذه مغالطةٌ لأنَّ الحقَّ يُقبل من القريب والبعيد، والعدوِّ والصديق؛ قال الإمام ابن القيم (رحمه الله): «فمَن هداه الله - سبحانه - إلى الأخذِ بالحقِّ حيث كان ومع من كان، ولو كان مع مَن يبغضه ويعاديه، وردَّ الباطل مع مَن كان ولو كان مع من يحبُّه ويواليه؛ فهو ممَّن هدَى اللهُ لما اختُلف فيه من الحقِّ»[1]. وأمّا الملاحدة فليس لديهم مثل هذا الإنصاف، بل هُم من أكثر الناس استعمالًا لهذه المغالطة عند مناظراتهم، وهم أكثرُ الناس سبًّا وشتمًا لخصومهم في وسائل التواصل - كما سبقت نبذةٌ منه -.

وذكرَ الدكتور جاسون ليزلي أنَّ هذه المغالطة تطرح على شكلين:

الشَّكلُ الأوَّل: القدحُ الشخصي.

الشَّكلُ الثّاني: التعريضُ بالظروفِ الشخصية.

وفي الحال الأوَّل يهاجم المناظرُ شخصيةَ خصمِه، أو يهينه في محاولةٍ لإسقاطه من أعينِ الجمهور، وقد ينجح باستمالة رأيِ الجمهور نفسيًّا، ولكنَّه أسلوب مغالط منطقيًّا لأنَّ شخصيةَ الخصم أو انتقاصَ هذه الشخصية لا تتعلَّق منطقيًّا بصواب حججه. والتَّنابزُ بالألقاب مِن أكثر أنواع مغالطةِ الشَّخصنة بالسبِّ استعمالًا. وذكر الدكتور ليزلي أنَّ الأطفال يستخدمونَ هذا الأسلوب، والمفروض أنَّ الكبار لا يفعلون ذلك، وأنْ يكونوا عقلانيِّين، وأنْ يتعلَّموا كيفية استعمال الحجج العقلانية. ولكن بسبب غياب الحجج المنطقية المقبولة التي تدعم نظريةَ التطوُّر يلجأ التطوُّريون إلى مغالطة الشخصنة بالسَّب. وهذا يذكِّرنا بأنَّ النظرة التطورية للعالم مفلسة للغاية فكريًّا[2].

المغالطةُ السّابعة: مغالطةُ الاحتكام الخاطئ إلى المرجعية

(Faulty Appeal to Authority):

هذه المغالطةُ عكس المغالطة السابقة، فحينما يحاول المغالطُ بالشخصنة التنقُّصَ من قدْر الخصوم، فإنَّ المغالط بالاحتكام الخاطئ إلى المرجعية يجعل قولَ

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٥١٦).

(٢) انظر: A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 39-40

مَن يستدلُّ به حجَّة يجب قبوله. وهذه مغالطةٌ مرفوضة في المنطق؛ لأنَّ الحقَّ لا يُعرف بالرجال، وإنما الرجالُ يُعرفون بالحقّ.

والملاحدة التطوُّريون يستخدمون هذه المغالطةَ كثيرًا جدًّا في مناقشاتهم؛ وقد بيّن الدكتور جاسون ليزلي هذا الأمرَ بقوله: «تستخدم مغالطةُ الاحتكام إلى المرجعية في مناظراتِ علوم البدايات بالاحتكامِ المغلوط إلى خبيرٍ في موضوع معين... فعلى سبيل المثال: «الدكتور بيل حائزٌ على درجة بروفيسور في علم الأحياء وهو يؤمن بالتطور». النتيجةُ غير المعلنة تقتضي أنَّ التطوُّر حقيقة، أو أنَّه أقرب ما يكون إلى الحقيقة، لكن هذا الاحتجاج مُغالط. وأيضًا يمكن استخدامُ المغالطة من الطرف المقابل كأن نقول: «إنَّ الدكتور ديف حائزٌ على درجة بروفيسور في علم الأحياء وهو يؤمن بالخلق...» إنَّ وجودَ خبراء في موضوعٍ ما في كلا طرفي النقاش يبيِّن الطبيعة الجوفاء لاحتجاج التطوريين بهذه المغالطة...»[1].

وهذا لا يعني أنَّ الاحتكام إلى المتخصِّصين والرجوع إلى أقوالهم دائمًا خطأ، بل نحن بحاجةٍ إلى الرجوع إليهم في كثيرٍ من الأحيان. ولكن يكمُن الخطأ في هذه المغالطة في ثلاثة مواضع:

١) الاحتكامُ إلى مرجعية في غير مجالِ تخصُّصه.

٢) عدمُ الأخذِ في الاعتبار أنَّ رؤية العالم للمتخصِّص تؤثِّر في استنتاجه من الحقائق العلمية.

٣) معاملةُ المتخصِّص غير المعصوم كالمعصوم[2].

وهذه المواضعُ الثلاثة مِن أكثر ما تزلُّ فيه أقدامُ الملاحدة عند المناظرة. وهناك أمرٌ آخرُ له علاقة بهذه المغالطة؛ وهو الاحتكامُ إلى الأغلبية. وهذه مغالطة يرجع إليها الملاحدةُ كثيرًا في استدلالهم بنظرية التطوُّر. وذلك أنَّ أغلب العلماء

---

(1) Discern Truth (54)

(٢) انظر: المصدر السابق (٥٤ – ٥٥).

في الجامعات الغربية اليوم يتلقَّون هذه النظريةَ بالقبول. وقد ردَّ سكوت هيوس[١] على مغالطة الاحتكام إلى الأغلبية بقوله: «وهنا، يجب تذكُّر أمرٍ هامٍّ وهو أنَّ اعتقاد أكثرية الناس بصحة شيء معيَّن لا يجعل منه صحيحًا، وتسمَّى هذه المغالطة مغالطة الاحتكام إلى الأكثرية، وهي خاطئةٌ تمامًا لأنَّ الحقائق العلمية لا تُبنى على التصويت، فيمكن أن تكون الأكثريةُ خاطئة تمامًا، بل لقد كانتْ هذه هي الحال في أحيانٍ كثيرة»[٢].

وفي النفس ميلٌ للرجوع إلى الأغلبية - وإنْ كانوا على الخطأ -، ولهذا حذَّرنا الله تعالى في كثيرٍ من الآيات من اتِّباع الأغلبية، بغضِّ النظر عن صحة المقولة. ومن الأمثلة على هذه الآيات قولُه تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِى ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقد أوردَ الحافظ ابنُ حزم (رحمه الله) كلامًا جميلًا في هذا الموضع إذْ قال: «ولا تستوحش معَ الحقِّ أحدًا، فمَن كان معه الحقُّ فالخالقُ (تعالى) معه، ولا تبالِ بكثرة خصومِك، ولا بِقِدَم أزمانهم، ولا بتعظيمِ الناس إيّاهم، ولا بعدَّتهم؛ فالحقُّ أكثرُ منهم، وأقدمُ وأعزُّ وأعظمُ عند كلِّ أحد، وأولى بالتعظيم»[٣].

المغالطةُ الثّامنة: مغالطةُ رجل القش (Straw – Man Fallacy):

مغالطةُ رجل القشِّ «هي تلك المغالطةُ العتيدة التي يعمدُ فيها المرءُ إلى مهاجمة نظريةٍ أخرى غير حصينة بدلًا مِن نظرية الخصم الحقيقية. وذلك تحتَ تعميةٍ من تشابه الأسماء، أو عنْ طريق إفقار دم النظرية الأصلية وتغيير خصائصها ببترِها عن

---

(١) سكوت هيوس (Scott Huse): عالم أمريكي وحامل شهادة الدكتوراه. يهتمُّ بنقد نظرية التطوّر وألَّف كتابه: انهيار التطوُّر في ذلك، وهو جيِّد في بابه. انظر: الغلاف الخلفي لكتاب: The Collapse of Evolution

(2) The Collapse of Evolution (21)

(٣) التقريب لحدِّ المنطق (١٩٣ - ١٩٤).

سياقها الحقيقي، بإزاحتها إلى ركنٍ قصيٍّ متطرِّف»[1]. ولهذا شبَّهه المناطقة بأنه يهاجم رجلَ القشِّ، وليس رجلًا حقيقيًّا.

ويستعملُ الملاحدةُ هذه المغالطة في كثيرٍ من الأحيان، وذلك بنسبة الأقوال والمعتقدات إلى المتديِّنين - ولا تصحُّ نسبتُها إليهم -، ومن ثمَّ يردُّون على هذه الأقوال المزيَّفة. وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي خطورةَ هذه المغالطة وكيف يستخدمها الملاحدة التطوُّريون. ومِن ذلك أنَّهم يقولون: «لا يؤمن أنصارُ الخلق بأنَّ الحيوانات تتغيَّر. لكن مِن الواضح أنَّ الحيوانات تتغير؛ لذا فإنَّ أنصار الخلق على خطأ».

وذكرَ الدكتور ليزلي أنَّ هذه مغالطةُ رجل القشِّ؛ لأنَّ أنصار الخلق يؤمنون بأن الحيوانات تتغيَّر، ولكنها لا تتغيَّر من صنفٍ أساسي إلى صنف آخر. وذكر أنه قد يكونُ هذا التحريف غيرَ مقصود، وإنَّما قد يكون منشؤه فهمًا سقيمًا من أحد أنصار التطوُّر لما يدرِّسه أنصارُ الخلق في الحقيقة، وقد يكون التحريفُ مدروسًا ومقصودًا، عندَها يكون التحريفُ خدعة. ورغم أنه فعلٌ غيرُ نزيه إلّا أنَّه واسع الانتشار في المناظرات حولَ بداية الحياة والكون[2].

---

(١) المغالطات المنطقية (١٦٣).

(٢) انظر: A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 51

المبحثُ الثّاني
بيانُ شطحاتِ الملاحدة

إنَّ المذهبَ الإلحادي هو أبطلُ الباطل؛ لأنَّه ينكر أوضحَ الواضحات، وهو وجودُ الخالق سبحانه وتعالى. وقد قال الشاعر:

وليس يصحُّ في الأفهام شيءٌ إذا احتاج النهارُ إلى الدليل[1]

فقد مُسخت عقولُ الملاحدة، وطمستْ بصائرهم، وتشوَّهت أسماعهم؛ ولهذا يتوقَّع منهم كلُّ قبيح وشنيع، وأن يتفوَّهوا من الأقوال بالبذيء والرديء. وهذا فعلًا ما يلاحظ على أقوال أئمتِهم المضلِّين ودعاتهم الزائغين. فما أكثرَ شطحات دعاة الإلحاد الجديد وسقطاتهم، وما أغربَ بعض مقالاتهم وتناقضاتهم. وهذه الشطحاتُ الكثيرة من الأدلة الدَّالة على فسادِ المذهب الإلحادي؛ لأنَّها بمثابة ثمراتٍ خبيثة من شجرة نَتِنة. وفي هذا المبحث سبعةُ أمثلة على بيانِ علماء الغرب لهذه الشطحات:

المثالُ الأوَّل: حقيقةُ الإنسان عند الملاحدة:

قد أخبر اللهُ تعالى أنه كرّم بني آدم إذ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

فالمسلمُ يؤمن أنَّ الله كرَّم بني آدم، وخلقهم في أحسن تقويم، وأمّا الملاحدة فلا يؤمنون أنَّ الله كرّم بني آدم، ولا أنَّه خلقهم في أحسن تقويم، بل لا يؤمنون أن البشرَ من بني آدم أصلًا.

---

(١) ديوان المتنبي (٣٤٣)، لأبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، (دار بيروت، ١٤٠٣ هـ).

ومِن أساليب علماء الغرب في نقد الإلحاد أنهم يبيِّنون غلوَّ الملاحدة في المذهب المادي، وأنَّهم حصروا حقيقة الكون في مجرَّد ذرَّات، وحقيقة البشر في كونهم آلات لتكاثرِ الحمض النووي؛ فعلى سبيل المثال: قد أورد جون لينوكس عددًا من أقوال الملاحدة في هذا الشأن في كتابه: «حانوتي الإيمان بالله» (God's Undertaker)، فأورد قولَ ريتشارد دوكنز: «الكونُ لا شيء سوى مجموعة من الذرات المتحرّكة، والبشر هم ببساطة: آلاتٌ لتكاثر الحمض النووي. وتكاثر الحمض النووي عملية ذاتية الاستدامة»[1]. ثمَّ قال البروفسور جون لينوكس مستنكرًا عقب ذلك: «هل هنالك بالفعلِ لا شيء إضافي للكون والحياة عن ذلك؟»[2]. ثمَّ أورد قول الملحد فرانسيس كريك: «أنتَ وسرورك، وحزنك، وذكرياتك، وطموحاتك، وشعورك بهويتك الشخصية، وإرادتك الحرة، ليس بالواقع سوى سلوك لتجمُّع شاسع من الخلايا العصبية وجزئياتها المرافقة»[3]. وقال لينوكس بعدَه: «كيف سنفكِّر حينما نفكِّر في الحب والخوف عندَ البشر؟ هل هي نماذجُ سلوكية عصبية عديمة المعنى؟ أو ماذا نصنع بمفاهيم الجَمال والحقيقة؟ هل لوحة... لا شيء سوى جزيئات دهان مُبعثرة على القماش؟ يبدو أنَّ كريك يعتقد أنَّها كذلك»[4]. وهذه الاختزاليةُ عند الملاحدة في حصر الكون في ذرَّات، وجعل الإنسان آلاتٍ لتكاثر الحمض النووي، وشعوره تجمُّع للخلايا العصبية من الشطحات المستنكرة.

المثالُ الثّاني: قيمةُ الإنسان عند الملاحدة:

لما ضعفتْ كرامةُ الإنسان عند الملاحدة، وحصروا الجنسَ البشري في ذرَّات، وشعوره وأفكاره في الخلايا العصبية، فإنَّ قيمة الإنسان تضعف عندهم كذلك. فما حقيقةُ قيمة الإنسان إذا اعتقدَ المرء ما يعتقده الملحد ستيفن هوكينج

---

(1) BBC Christmas Letter Study Guide (1991)

(2) Gods Undertaker (56)

(3) The Astonishing Hypothesis: 3

(4) Gods Undertaker (56)

إذْ يقول: «الجنس البَشري هو مجرَّد وسخٍ كيميائي، موجود على كوكب متوسّط الحجم»[١]؟

وجميعُ الملاحدة الجدد يتبنَّون نظرية التطوُّر، وهذه النظرية جعلتهم يقلبون موازين قيمة الإنسان رأسًا على عقب، كما قال الدكتور مايكل دينتون: «رؤية [داروين] الجديدة الثورية غيَّرت العالم... هي تتضمَّن أنَّ كلَّ التنوّعُ للحياة في الأرض كانت نتيجة عمليات طبيعية وعشوائية، وليست - كما كان يُعتقد قبل ذلك - نتيجة لخلق الإله. قبولُ هذا الادِّعاء الكبير، وما ترتَّب عليه من إزالة الإله من الطبيعة لعبَا دورًا حاسمًا في علمنة المجتمع الغربي»[٢].

ثمَّ قال في موطنٍ آخر: «النظريةُ الداروينية هي التي قطعت علاقة الإنسان بالإله، ووضعه على قدمٍ وساق في الكون بلا هدفٍ ولا نهاية. وهذا الأمرُ هو الذي جعل تأثير النَّظرية أساسيًّا. لا توجد ثورةٌ عقلانية في الأزمان الحديثة... أثَّرت بهذا التأثير الكبير على نظرة الإنسان إلى أنفسهم ومكانتهم في الكون».[٣]

وهذه النظرةُ الداروينية الإلحادية قلَّلت من قيمة الإنسان، وجعلته حيوانًا من ضمن الحيوانات، كما عبَّر عنه البروفسور جورج جايلورد سيمبسون[٤]: «في عالم داروين فإنه لا مكانة خاصَّة للإنسان غير تحديدِه بأنه نوعٌ خاصّ من الحيوان. هو بمعنى الكلمة جزء من الطبيعة، وليس مستقلًّا عنها. هو مجانس - حقيقة لا مجازًا - لجميع الكائنات الحيّة سواء أكانت أميبة، أم دودة شريطية، أم عشبًا بحريًّا، أم شجرة البلوط، أم قردة - وإن كانت درجة العلاقة بينها متفاوتة»[٥].

---

(1) (1995) From the TV show Reality on the Rocks: Beyond Our Ken

(2) Evolution: A Theory in Crisis (17)

(٣) المصدر السابق (٦٧)

(٤) جورج جايلورد سيمبسون (George Gaylord Simpson): بروفسور علم الحيوان الأمريكي، ويعتبر أحدَ أشهر علماء الإحاثة في الولايات المتَّحدة في القرن العشرين. توفي عام: ١٩٨٤م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /George – Gaylord – Simpson

(5) The World into Which Darwin Led Us," Science 131 (1960), p. 970

وهذه النظرةُ الغريبة للإنسان عند الملاحدة أدَّت بهم إلى تبنّي الفلسفة العدمية[١] - سواء أقرُّوا بذلك أم لا - كما قال البروفسور فريد هويل: «تطاردني القناعة أن الفلسفة العدميَّة التي يتبنَّاها الرأي المتعلِّم بعدَ صدور كتاب: أصلُ الأنواع، جعلت البشرية تقترف سيرًا إلى التَّدمير الذاتي الأوتوماتيكي. يوم الحساب يقترب»[٢].

وهذا ما جعلَ الملاحدة التطوُّريين يتفوَّهون بشطحات خطيرة عن قيمة الإنسان. وقد أورد علماءُ الغرب هذه الشطحات، وردُّوا عليهم. ومن الأمثلة على ذلك ردُّ جون هينري ويستين[٣] على البروفسور الملحد بيتر سينغر: في مقال بعنوان: «بروفسور جامعة برنستون بيتر سينغر: «وأكرِّر، أنا مستعدٌّ أن أقتل الصبيان المعاقين»

(Princeton Professor: And I repeat: I would kill Disabled Infants)

وفي هذا المقال أوردَ جون هينري ويستين بعضَ شطحات البروفسور سينغر، فقال: «سُئل سينغر أنه إذا خُيِّر بين قتل عشْر من البقر أو إنسانٍ واحد، فقال إنه يفضِّل أن يقتلَ البقر، لا أنَّها أقلُّ قيمة من الإنسان، وإنما لأنَّ البشر يحزنون بسبب الموت أكثر»[٤].

وهذا الكلامُ ليس سبْق لسان من هذا الفيلسوف المشهور، بل هو جزءٌ من مشكلة فلسفيَّة عميقة لدى الملاحدة التطوُّريين. وقد أورد فرانسيس فوكوياما[٥] هذه المشكلة الإلحاديةَ التطوُّرية إذْ قال في كتابه: «نهاية التاريخ» (The End of History): «حقوق

---

(١) الفلسفة العدمية: نظرية تنكر القيم الأخلاقية. انظر: المعجم الفلسفي (٤١٥).

(2) The Intelligent Universe, 1983, p. 9

(٣) جون هينري ويستين (John Henry Westen): طبيب نفساني للأطفال من كندا، وهو كاثوليكي يهتمُّ بكتابة مقالات. انظر: https: / /www.catholic.com /profile /john – henry – westen

(4) https://www.lifesitenews.com/news/princeton-professor-singer-and-i-repeat-i-would-kill-disabled-infants

(٥) فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama): بروفسور فلسفة السياسة في جامعة جون هوبكنز بالولايات المتَّحدة من أصول يبانية، ويعتبر أحدَ أبرز المفكّرين السياسيين في الولايات المتَّحدة اليوم. انظر: https: / /fukuyama.stanford.edu/

الإنسان لها مشكلةٌ فلسفية عميقة إذْ لا بدَّ أولًا أن نفهمَ الإنسان قبل أن نبحث في حقوقه، نفهمَ طبيعة الإنسان؛ فالعلومُ الطبيعية الحديثة تشير إلى أنه ليس ثمة فارقٌ بين الإنسان والطبيعة، وعندما نوسِّع في المساواة التي تنكر وجودَ أيِّ اختلافات بين البشر، فيمكنُ أن يشمل ذلك إنكارَ وجود اختلافات هامَّة بين الإنسان والقردة العليا، وتنشأ عنْ ذلك أسئلة لا حصرَ لها، إذ كيف يكون قتلُ البشر غيرَ مشروع، في حين قتل هذه الحيوانات ليس كذلك، وسنصلُ حتمًا في مرحلةٍ ما إلى السؤال التالي: ولماذا لا تتمتع الطفيلياتُ المعوية والفيروسات بحقوق مساوية لحقوق الإنسان؟»[1].

المثالُ الثّالث: الملاحدةُ والأخلاق:

الملاحدةُ لديهم شطحاتٌ كثيرة عن الأخلاق، وذلك أنَّ الإلحاد لا يوفِّر أرضية صلبةً للأخلاق بخلاف مَن يؤمن بالله ويعتنق دينًا. وقد اعترف ريتشارد دوكينز بهذا الأمرِ بقوله: «من الصعوبة بمكانٍ الدفاعُ عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين»[2].

نظريةُ التطوُّر هي النظرية المحبَّبة لدى الملاحدة، ولهذا يحاولون أنْ يستندوا إليها في كلِّ شيء، حتى في تفسير الأخلاق. ولكنَّه يسبِّب لهم مشكلة حيث أن البشر - حسبَ التفسير الداروينى - هو كما قال ريتشارد دوكينز: «آلات نجاة، أجهزة آلية مبرمجة بشكلٍ أعمى للحفاظِ على الجزيئات الأنانيَّة المعروفة باسم الجينات»[3]. فأيُّ أخلاقٍ حسنة تُنتظر مِن آلة نجاة، وجهاز مبرمج للحفاظ على الجزيئات الأنانية؟

وهذه مشكلةٌ أساسية عند الملاحدة، وجعلتهم ينطقونَ بكثير من الشطحات. وقد كتبَ البروفسور شاد ميستير مقالًا باسْم: «الإله، الشرُّ والأخلاق» (God, Evil and Morality)، وألزمَ الملاحدة في هذا الباب بإلزاماتٍ قوية. وقد أورد بعض

---

(١) نهاية التاريخ وخاتم البشر (٢٥٩)، فرانسيس فوكيما، (مركز الأهرام للترجمة والنشر، ترجمة حسين أحمد أمين، الطبعة الأولى ١٩٩٣م).

(2) The God Delusion (232)

(3) The Selfish Gene (p. v.)

شطحاتهم في هذا المقال. ومِن ضمن هذه الشطحات قولُ ريتشارد دوكينز في محاولة تفسير الأخلاق عنْ طريق التطوُّر:

«في الظاهر، تُبدي الفكرةُ الداروينية أنَّ انقياد التطوُّر بالاصطفاء الطبيعي غير ملائمة لشرح بعضِ الأمور، مثل: الخير الذي نملكه، أو مشاعرنا الأخلاقية، والحشمة، والتَّعاطف والشفقة فينا. يمكن للاصطفاءِ الطبيعي بسهولة شرحُ الجوع، والخوف، والشَّهوة الجنسية، وجميع ما يُسهم في بقائنا أحياء، أو يحافظ على جيناتنا. لكن ماذا عنِ الرَّحمة الموجعة التي نشعرُ بها عندما نرى بكاءَ طفل يتيم، أو أرملة يائسة لشعورها بالوحدة، أو حيوان يئنُّ من الألم؟ ما الذي يُعطينا الدافعَ القوي لإرسال هدية مجهولة مِن المال، أو الملابس لضحايا تسونامي على الجانبِ الآخر من العالم لأناس لن نلتقيهم أبدًا، ومِن المستبعد جدًّا أن يُردُّ لنا ذلك المعروف؟ مِن أين أتى ذلك الخلُق الصالح فينا؟ ألَا يتعارض الخيرُ مع نظرية «الجين الأناني»؟ لا. في الحقيقة هذا فهمٌ خاطئ شائع للنَّظرية؛ إنه سوءُ فهْم مؤلم (وهو منظورٌ بشكل متأخِّر). من الضروري التشدُّد على الكلمة الصحيحة. الجينُ الأناني هو التركيز الصحيح، لأنه يسبِّب مقارنة مع كائن أناني (كما يقول) أو أنواع أنانية. دعني أشرحُ ذلك. يخلص منطق الداروينية إلى أن الوحدة الواحدة التي تنْجو في هرميَّة الحياة، وتنتقل خلالَ مراشح الاصطفاء الطبيعي ستميل لتكون أنانية. ستكونُ هذه الوحدات التي تنجو في العالم نفسها التي تنجح في البقاء على حسابِ مُنافسيها من نفْس المستوى في الهرم. وهذا بالضبط ما تعْنيه الأنانية في ذلك السياق»[1].

ثمَّ علَّق شاد ميستير على هذا النقلِ بما مَفاده أنه يبدو أنَّ دوكينز يريد أن يقول إنَّ جيناتنا مُبرمجة مسبقًا لمضاعفة نفسها بأنانية. وإنْ كان الأفراد لا يتصرَّفون دائمًا بأنانية، لأنَّ عملَ جيناتنا على مستوى العضوية يأخذ أحيانًا صفةَ الإيثار وطريقة أخلاقية، حيث يوفِّر ذلك انتشارًا أفضلَ للجين. تظهر نتيجة لهذا الأمر مشكلة واضحة وصارخة هي وجودُ القليل مما يمكننا القيامُ به في إطار ما نفهمه عمومًا على أنَّه

---

(1) Richard Dawkins, The God Delusion (214-15)

أخلاق، مع الصَّواب الصحيح والخطأ الصحيح، معَ الخير الصحيح والشَّر الصحيح. فيكون المرء على مخطَّط دوكينز لطيفًا مع جيرانه لأنَّ جيناته برمجته على ذلك، وبُرمجوا على ذلك لأنَّ التصرَّف بتلك الطريقة يمنحهم فائدةً تطوُّرية. وليس اللطفُ قيمة أخلاقية ملزمة عالميًّا. ندعو ذلك ببساطة «جيِّد أخلاقيًّا» لأنَّ جيناتنا - وعبرَ دهور من الكفاح التطوّري - دفعتْنا للاعتقاد بذلك. وعلاوةً على ذلك فعلى هذا الأساس لا يوجد شيء خاطئ حقًّا، أو موضوعيٌّ بأنْ يكون الشخص أنانيًّا على مستوى العضوية مثلًا، أو شخص يؤذي غيرَه ليكسب هو، أو حتى شخص يغتصب غيرَه ليحصل على المتعة. إن الأمرَ فقط أن التصرُّف بهذه الطرق لا يمنح عادةً فائدةً تطورية عامة على الجينات العضوية، وبذلك أصبحت محظورة اجتماعيًّا بمرور الوقت[١].

ولهذا فعلًا نرى أنَّ دوكينز تفوَّه بهذا الأمر الخطير، ألا وهو أنَّ تحريم الاغتصاب هو أمرٌ اعتباطي إذ قال: «اعتقادك بأنَّ الاغتصاب خطأ أمر اعتباطي[٢] تمامًا»[٣].

وذكر شاد ميستر أنَّ بعض الملاحدة الآخرين ذهبوا إلى أنَّ الأخلاق مجرَّدُ وهمٍ وخدعة، مثل: الملحد مايكل روس الذي يرى الأخلاق - أو إيمانَنا بالأخلاق - مجرَّد تكيُّف أخذَ مكانه لتعزيز تكاثرنا في النهاية. وبالتالي فإنَّ الأساس الأخلاقي لا يكمن في مشيئةِ الإله، ولا في الجذور المجازية للتطوُّر، أو أيِّ جزء آخر من إطار عمل الكون. فيرَى أنَّ الأخلاق وهمٌ خدعتنا به جيناتُنا لإجبارنا على التعاون فيما بيننا، وليس لها أرضيةٌ خارجية تستندُ عليها. فالأخلاقُ في نظره نتاجُ التطوُّر، لكن لا يمكن للتطوُّر أن يبرِّرها[٤].

---

(١) انظر:

God, Evil and Morality in the Book: God is Good, God is Great (114-115)

(٢) الاعتباطي(Arbitrary): القرار المبني على اختيار عشوائي أو هوى شخصي وليس على نظام أو منطق. انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definition /arbitrary

(3) http://www.anthonysmith.me.uk/2008/11/06/dawkins-on-rape/

(4) Michael Ruse and Edward O. Wilson, “The Evolution of Ethics,” in Philosophy of Biology, ed. Michael Ruse (New York: Macmillan, 1989), p. 316.

فعلَّق البروفسور شاد ميتر على تقرير الملحدِ روس بأنَّ خلاصة كلامه أنَّ الأخلاق شيءٌ يؤمن به معظمُنا، لكنَّها ليست موجودةً في الحقيقة. وهذا منتهى الموقف الأخلاقي للمُلحدين الجدد، سواءً أدركوا ذلك أم لا[١].

فحقيقةُ قول الملاحدة إنَّه لا يوجد أخلاقٌ موضوعية، وأنَّ الأخلاق مجرَّد وهْم. وهذا القولُ من شطحاتهم التي أفرزته نظريةُ التطوّر.

المثالُ الرّابع: الهدفُ من الحياة عندَ الملاحدة:

ممّا سبقَ قد تبيَّن أنَّ حقيقة الإنسان عندَ الملاحدة مجموعة من الذرّات وشعوره مُنحصر في الخلايا العصبية، والإنسان حيوانٌ من الحيوانات المتطوِّرة، كما أنه ليس لديْهم أرضية صلبة لبناءِ الأخلاق. فماذا ينتظر منهم في أحد أهمِّ الأسئلة التي يدور في ذهْن الإنسان، ألَا وهو: «ما الهدفُ من الحياة؟» هذا السؤالُ الجوهري في حياة البشر الذي يفكِّر فيه الناس في أنحاءِ المعمورة. ما هو جوابُ الملاحدة على هذا السؤال؟ قد كتبَ البروفسور جيمس أندرسون[٢] مقالاً بعنوان: «هل يمكن أن يكون للحياة معنى بدونِ الإله» (Can Life have Meaning without God?)، وأورد فيه بعضَ شطحات الملاحدة، منها:

قولُ ريتشارد دوكينز: «الكونُ الذي نشاهده توجد فيه الخصائص التي نتوقَّعها. هو في الحقيقة بلا تصميم، **ولا هدف**، ولا شرٌّ ولا خير، ولا شيء سوى اللامبالاة القاسية»[٣].

---

(١) انظر: "God, Evil and Morality" in: "God is Good, God is Great" (115-116)

(٢) جيمس أنديرسون (James Anderson): بروفسور الفلسفة واللاهوت بالولايات المتَّحدة. وهو مهتمٌّ بنقد الإلحاد المعاصر. انظر: https: / /www.thegospelcoalition.org / profile /james – n – anderson /

(3) River out of Eden (133)

وقولُ البروفسور الملحد وليام بروفين[1]: «دعني ألخِّص آرائي فيما يعلِّمنا علمُ الأحياء التطوُّرية بصراحة وشفافية، وهي في الأصل آراءُ داروين: لا يوجد آلهة، ولا غايات، ولا قوى موجَّهة بهدف... ولا أساسٌ نهائي للأخلاق، **ولا هدف للحياة**، ولا إرادة حرَّة للإنسان كذلك»[2].

وقولُ البروفسور الملحد أليكس روسينبيرغ: «**ما الهدفُ من الكون؟ لا شيء. ما الهدفُ من الحياة؟ الشيء نفسه**. هل التاريخُ له هدف أو غاية؟ هو مليء بصوت وغضب، مما لا يدلُّ على شيء»[3].

ثمَّ علَّق البروفسور أنديرسون على هذه الأقوال بأنَّه يمكن مضاعفة الأمثلة على هذه الأقوال. ومِن العدل أنْ يُقال: إنَّ الملاحدة والمؤمنين يتَّفقون على أنه إذا كان الإله غير موجودٍ فلا يوجد هدفٌ موضوعي للحياة. ولكن هل للملحد خيار آخر؟

أجابَ البروفسور أندرسون بأنَّ كثيرًا من الملاحدة يقرُّون بأنَّه لو كان الإله غيرَ موجودٍ فليسَ للكون ولا حياةِ الإنسان أيُّ هدف موضوعي. ولكنَّهم يضيفون بسرعة أنَّه لا ينبغي لنا أن نستنتجَ من ذلك أنَّ حياتنا نحن ليس لها هدف. فيقولون إننا نستطيعُ أن نعطي حياتَنا غاية، ونضع هدفًا لأنفسنا. وحيث إنه لا يوجد شيء خارج عنّا يعطي حياتَنا غاية، فلا بدَّ أن تأتي هذه الغاية من قرارة أنفسنا، إمّا كأفراد أو كمُجتمع. ثمَّ ذكر الدكتور أنَّه توجد مشكلتان في هذا الطرح:

المُشكلةُ الأولى: هذا الطرحُ يُعاني من مشكلة: الاعتباطية. فإنْ كان يمكن أنْ نحدِّد الهدف من الحياةِ بطريقة ذاتية، فيمكن أن يكون أيُّ شيء هو الهدف من الحياة

---

(١) وليام بروفين (William Provine): بروفسور علوم الأحياء بجامعة كورنيل في الولايات المتَّحدة. توفي عام ٢٠١٥ م. انظر:

https://evolutionnews.org/2015/09/william_provine/

(2) Darwinism: Science or Naturalistic Philosophy?” Origins Research 16:1

(3) The Atheist’s Guide to Reality (2-3), by: Alex Rosenberg, (W. W. Norton & Company, 2012)

حسبَ تفضيلاته الشخصية وافتراضاته. أنْ يجلس الإنسانُ طول اليوم ويأكل الكعك ويلعبَ الألعاب الإليكترونية قد يكون الهدفُ من الحياة الذي يشعر الإنسان بأنه يشفي معاناته. الرجلُ الذي يريد أن ينتحرَ قد يرى أنَّ الهدف من حياته هو تدميرها. وأسوأ مِن ذلك فقدْ يكون هذا الشخصُ الذي يريد أن ينتحرَ يشعر بأنه يريد أن يدمِّر حياة الآخرين أيضًا.

المشكلةُ الثّانية: تنشأ ممّا تسمى بـ»مشكلة إلباس الحذاء« (Bootstrapping Problem). هذا التحدِّي يواجه أيَّ نظام يتوقَّع منه أن يبدأ ويستمرَّ بدون مساعدة من الخارج. كما أنَّه مستحيل أنك ترفع نفسَك من الأرض بإمساك حزام الحذاء، فإنه من المستحيل أنْ تعطي معنًى لحياتك إنْ كانت الحياة بدون معنى في الأصل – سواء أكان المعنى من الخارج أو الداخل –. فإنْ كانت حياتُك بلا معنى في الأصل فكيف تكون اختياراتُك ذات معنى أو تنتج معنى؟ كيف تحدُث اختيارات ذات معنى من حياة بلا معنى؟ هل يمكن أن تبدأ بشيء بمجرَّد أنَّك تريد أن تكون اختياراتك ذات معنى؟[١].

ويعلمُ الملاحدة الجدد جيِّدًا الأثرَ السلبي لهذه الفلسفة على أتباعهم، حتى كتب ريتشارد دوكينز في مقدِّمة كتابه: «تفكيك قوس القزح» (Unweaving the Rainbow) أنَّ ناشرًا أجنبيًّا لكتابِه الأوَّل اعترف أنَّه لم يستطع أن ينام ثلاثة أيام متتالية بعد قراءته، نتيجةَ قلقِه من رسالتِه القاسية والكئيبة. وقد سأله كيف يستطيع دوكينز أن يستيقظَ في الصباح. وكتب معلِّم من بلدٍ بعيد موبِّخًا أنَّ طالبة جاءت تبكي بعد قراءةِ الكتاب نفسه؛ لأنَّه يبيِّن أنَّ الحياة فارغة وليس لها معنى. وهو نصحها ألّا تُري الكتابَ لصديقاتها خشيةَ أن تتلوَّث أفكارهم بهذا التشاؤم العدمي[٢].

---

(١) انظر:

https://www.thegospelcoalition.org/article/can-life-have-meaning-without-god/

(٢) انظر: Unweaving the Rainbow (preface: 1)

المثالُ الخامس: تعريفُ الملاحدة للاشيء:

الملاحدةُ الجدد يؤمنون أنَّ الكون قد ظهرَ من لا شيء، بل صنَّف لورانس كراوس - داعي الإلحاد وعالم الكون - كتابًا سمَّاه: «الكون من لا شيء» (Universe from Nothing)، وحيث إنَّ ظهورَ شيء مِن لا شيء من المستحيلات العقلية، فقد أعاد كراوس تعريفَ «لا شيء» إلى «الفراغ الكمِّي» (Vacuum State)، وهي مستوى الطاقة الأدنى الممكن[1]. إذًا، الفراغُ الكمِّي شيء - ولكنَّه قليلُ الطاقة -، ولا يمكن وصفُه بأنه لا شيء. وإنما تلاعبَ كراوس باللغة حتَّى يخرج من الإشكالية الحقيقية، وهي: من أين جاء هذا الفراغُ الكمّي - الذي هو شيء في الحقيقة وليس «لا شيء»-؟!

وقدْ أعجب ريتشارد دوكينز بهذا الكتاب، حتى قدَّم له بمقدِّمة، ودافع عنه في مناظرتِه معَ الأسقف جورج بيل[2]. وقد ألزم الأسقف دوكينز بهذه المسألة، وأنَّ كراوس إنَّما تلاعب باللغة ليخرجَ من الإشكال؛ فقال دوكينز: «يمكنك أن تعارض ما هو المقصودُ من لا شيء، ولكنْ مهْما يكن فإنَّه بسيط جدًّا جدًّا»، فبدأ الأسقف والحضور يضحكون، فقال دوكينز: «لماذا ترونَ أنَّ هذا مضحك؟»، فزادوا في الضحك، وقال الأسقف: «حسنًا، أنا أرى أنَّه مضحك قليلًا أنك تحاول أن تعرِّف لا شيء»، فانهار الناسُ ضحكًا وصفَّقوا[3]. فهذا التلاعبُ بالألفاظ والمعاني من شطحات الملاحدة المضحكة.

---

(١) انظر:

The Structured Vacuum: Thinking about Nothing (14)، Rafelski, J,. & Muller, B.

(٢) جورج بيل (George Pell): رئيس أساقفة الكاثوليك في مدينة سيدني بأستراليا. وهو مهتمٌّ بنقد الإلحاد، وناظرَ ريتشاد دوكينز في برنامج تلفزيوني. انظر:

https://www.britannica.com/biography/George-Cardinal-Pell

(3) https://www.youtube.com/watch?v=X1_rKWGoHiQ

المثالُ السّادس: موقفُ الملاحدة من الصدفة والمعجزات:

قدْ سبق في الفصل الأوَّل من هذا الباب أنَّ الملاحدة يبالغون في الصدفة أيما مُبالغة، ويرفعون من قدْرها أيّما رفع. ولا شكَّ أنَّ بعض أقوالهم في هذا الباب من الشَّطحات، مثل: قول البروفسور بيير بول غراسي: «تصبح الصدفة نوعًا من العناية الإلهية التي لا يتمُّ استدعاؤها فقط تحتَ غطاء الإلحاد، بل وعبادتها سرًّا أيضًا» [١].

ومِن أساليب علماء الغرب أنهم بيَّنوا مبالغاتِ الملاحدة في الصدفة، ومن ذلك ما ذكرَ بنيامين ويكير وسكوت هون أنَّ ريتشارد دوكينز قال مبالغًا في قدرات الصدفة: «فبمجرَّد إعطاءِ وقتٍ أو فرصٍ غيرِ محدودة، فإنَّ أيَّ شيءٍ يمكن أن يحدث»[٢].

وقد ربطًا بين موقف دوكينز من الصدفة وشطحاته في المعجزات؛ فأوردًا قوله في المعجزات: «المعجزةُ عبارة عن شيء ممكنِ الحدوث، ولكنَّ حدوثه مفاجئ جدًّا. فإذا لوَّح تمثالٌ رخامي لمريم العذراء بيدِه تجاهنا فعلينا اعتبارُ ذلك معجزة، لأنَّ كلَّ خبراتنا ومَعارفنا تؤكِّد لنا عجزَ الرخام عن هذه الحركة»[٣]. ثمَّ قال بعدَ ذلك: «فيما يتعلَّق بالتمثالِ الرخامي، فإنَّ الجزيئات تتدافع في الرخام الصلب فيما بينها باتجاهات غير محدَّدة باستمرار: ويلغي التدافع بين الجزيئات المختلفة بعضها بعضًا، فتبقى يدُ التمثال ثابتة. ولكن، لو حدث - بصدفةٍ مطلقة - أنَّ جميع الجزيئيات تتدافع إلى اتِّجاه واحد في اللَّحظة نفسها فستتحرَّك اليد. ففي هذه الحالة يمكن أن يلوِّح التمثال الرخامي. من الممكن أن يحدثَ هذا الأمر، ولكنَّ الاحتمالات المعاكسة لمثل هذه المصادفة يصعب تخيُّلها، ومعَ ذلك فإنه يمكن عدُّها. قام زميلٌ فيزيائي بحسابِ ذلك لي، ووجد أنَّ عدد الاحتمالات كبيرٌ جدًّا بحيث أنَّ عُمر الكون حتَّى يومنا هذا صغير جدًّا لا يكفي لكتابةِ كلِّ الأصفار! من الممكن نظريًّا أنَّ بقرة تقفز فوق القمر، بمثل هذه الاحتمالات الضَّعيفة. إنَّ خلاصة هذا الجزء من النقاش أنه يمكن أن نستعملَ

---

(1) Evolution of Living Organisms (107), by:Pierre P. Grasse, (Academic Press, 1977)

(٢) المصدر السابق (١٣٩)

(3) The Blind Watchmaker (159), by: Richard Dawkins, (Norton, 1996)

الحساب للوصول إلى مناطقَ مِن ضآلة الاحتمال بشكلٍ أكبر بكثير مما نستطيع أن نتخيله معقولًا»[١].

وبيَّن البروفسور ويكير والبروفسور هون أنَّ مبالغات دويكنز في الصدفة وشطحاته في المعجزات له سببٌ؛ إذْ قالا: «فلماذا إذًا هذا الإخلاصُ لهذا الإله العظيم المتقلِّب، الصُّدفة؟ بكلِّ بساطة، يفضِّل دوكينز الإيمانَ بأيِّ شيءٍ عدا الإله»[٢]. وقالا أيضًا: «نعتقد أنَّه من العدل أنْ نقول: إن قوَّة إيمان دوكينز بقوى الصدفة مماثلة لقوَّة إيمان معظمِ البَشر بوجود الرب، إنْ لم يكن إيمانه أقوى!»[٣].

المثالُ السّابع: شطحاتُ الملاحدة في وجود كائنات فضائية:

مِن أغرب شطحاتِ الملاحدة التي يُختَم بها هذا الباب هوَ ما سبق الكلام عنه من أنَّهم هربوا من الإيمان بخلقِ الخالق لأصل الحياة إلى الإيمان بخلقِ كائنات فضائية لأصل الحياة. وذكرت فيما مضى أنَّ هذا هو ما ذهبَ إليه كلٌّ من فريد هويل وفرانسيس كريك. وهذا أيضًا ما مالَ إليه ريتشارد دوكينز في مقابلته مع الإعلامي بين ستين. وقد أدرجَ بين ستين هذه المقابلةَ في فيلمه الوثائقي: المطرودون (Expelled) بأنه من شطحات دوكينز، ودليل على أنه مستعدٌّ أنْ يؤمن بخرافات ككائنات فضائية - التي لا دليل عليها مِن العلم التجريبي -، وهو في المقابل غيرُ مستعدٌّ أنْ يؤمن بالخالق الذي له في كلِّ شيء آية تدلُّ على أنه واحد.

والمقابلة كالآتي:

قال بين ستين: «مَن خلق السماوات والأرض؟»

قال دوكينز: «لماذا تستعمل كلمة: «من»؟ أنتَ تبدأ مباشرة باستعمال كلمة من».

قال بين ستين: «طيب، كيف خُلق إذًا؟».

---

(١) المصدر السابق (١٥٩ - ١٦٠)، وسبق إيراد الكلام باللغة الإنجليزية.

(٢) المصدر السابق (٢١)

(٣) المصدر السابق (١٩)

قال دوكينز: «عن طريق عملية بطيئة جدًّا».

قال بين ستين: «طيب، ولكن كيف بدأ؟».

قال دوكينز: «لا أحد يعلم كيف بدأ، نعلم نوعية الحادث لظهور الحياة».

قال بين ستين: «وما هو؟».

قال دوكينز: «هو بداية أوّل جزيء متكاثر ذاتيًّا».

قال بين ستين: «طيب، وكيف حصل ذلك؟».

قال دوكينز: «قلت لك: لا نعلم».

قال بين ستين: «فإذًا، أنت لا تدري كيف بدأ؟».

قال دوكينز: «لا، ولا يعلم ذلك أحد».

قال بين ستين: «فماذا تظنُّ في إمكانية أن تصميمًا ذكيًّا هو الجواب عن بعض المسائل في علم الوراثة أو في التطوّر الدارويني؟».

قال دوكينز: «حسنًا، قد يكون بهذه الطريقة، أنه في زمن سابق، في مكان ما من الكون، كانت هناك حضارة، تطوّرت عن طريق الداروينية إلى درجة عالية جدًّا من التكنولوجيا، وصمَّموا النوع من الحياة التي زرعوها ربما على هذا الكوكب. يعني، هذا هو احتمال، وهو احتمالٌ مثير للاهتمام. وأظنُّ أنه من الممكن أن تجد أدلة عليه، بالنَّظر إلى التعقيد في الكيمياء الحيوية، فقد تجد توقيعًا من مصمِّم ما».

فعندَ ذلك يقول بين ستين للبرنامج - وليس في المقابلة نفسها - : «توقّف هنا ثانية، ريتشارد دوكينز يعتقد أنَّ التصميم الذكي هنا قد يكون سعيًا مشروعًا»، ثمَّ استمرَّ دوكينز قليلًا في الكلام، ثمَّ قال ستين من جديد: «يعني، البروفسور دوكينز لا يعارض فكرةَ التصميم الذكي، وإنما يعارض نوعًا معيّنًا من المصمِّمين، مثل: الإله»[1].

(1) https://www.youtube.com/watch?v=BoncJBrrdQ8

فشطحاتُ الملاحدة كثيرة، لا تعدُّ ولا تحصى، وهذه بعض النماذج منها فقط التي بيَّنها علماءُ الغرب في ردودِهم على الملاحدة. ومَن تدبَّر هذه الشطحات جيّدًا وجدها كافيةً في إسقاط المذهب الإلحادي من أصله، مع ذلك يبقى دعاة الإلحاد متمسّكين بهذا الباطل. والأمرُ كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

المبحثُ الثّالث

بيانُ تناقضاتِ الملاحدة

الإلحادُ مذهبٌ مبنيٌّ على بطلان وفساد، ومن أبرزِ سمات المذهب الباطل الفاسد أنَّه متناقض؛ وقد أوردَ شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) قاعدةً عامَّة في هذا الباب إذ قال: «وكلُّ مَن خالف الرسول ﷺ فلا بدَّ أنه يتناقض؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾[1]. وقال شيخُ الإسلام (رحمه الله) أيضًا: «فما أعلم أحدًا من الخارجين عن الكتاب والسنة مِن جميع فرسان الكلام والفلسفة إلّا ولا بدَّ أن يتناقض، فيحيل ما أوجبَ نظيره، ويوجبُ ما أحال نظيره، إذْ كلامهم من عندِ غير الله، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[2].

والمقصودُ بالتناقض في هذا المبحث هو: «الجمعُ بين مقالات، وأفكار وميزات تعارض بعضها بعضًا»[3].

والملحدُ يعيش حياةً مليئة بتناقضات وفوضى فكرية. وهذا ما اعترف به الملحدُ السابق الأديبُ والبروفسور سي أي لويس، إذْ قال: «كانت حياتي مليئة بتناقضات، وكنتُ أعيش في ذلك الوقتِ ككثيرٍ من الملحدين ومكافحي الألوهية «Anti – theists», في دوران من التناقضات»[4].

---

(١) بغية المرتاد: (٣٩٥)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة، ١٤١٥ هـ ت. موسى الدويش).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣ / ٣٠٥).

(3) https://en.oxforddictionaries.com/definition/contradiction

(4) http://www1.cbn.com/700club/meet-creator-narnia-cs-lewis

وقدْ يكون من أسباب كثرةِ تناقضات الملاحدة أنَّ استعمال قوانين المنطق - ومنها منعُ التناقض - غيرُ متوافق مع عقيدتهم؛ وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي ذلك بقوله: «يشمل التفكيرُ العقلاني استعمالَ قوانين المنطق، ومنها: قانون عدم التناقض، الذي ينصُّ على أنَّك لا تستطيع جمع النقيضين (أ) و (لا أ) بنفس الوقت وبنفس العلاقة. الكلام التالي، مثلًا: «سيارتي في الموقف وليست سيارتي في الموقف». هذا الكلام باطل بالضَّرورة بسبب قانون عدم التناقض. كلُّ شخصٍ عاقل يقبل هذا القانون، لكن لماذا يكون هذا القانون حقيقة؟ ولماذا ينبغي أن يكون هناك قانونُ عدم التناقض، أو لماذا توجَد أَيَّة قوانين للتفكير العقلاني؟... ليس قانون عدم التناقض ببساطة رأيًا شخصيًّا عنْ كيفية التفكير... قوانينُ المنطق هي معيارُ الله للعلم... بعبارة أخرى ليست مصنوعة من المادة - بل تنطبق على كلِّ مكان وزمان... لا يمكن الملحدُ المادي أن يكونَ عنده قوانين المنطق، إذ أنه يعتقد بأنَّ كلَّ شيء موجود عبارة عن مادة - جزء من العالم الفيزيائي، لكن قوانين المنطق غير فيزيائية (غير مادية)... ولا يمكن أن توجد قوانينُ المنطق في عالم الملحد، ورغمَ ذلك فهو يستعملها ليحاول أن يستنتج، ويعدُّ هذا عدم اتِّساق عنده»[1].

والملاحدةُ الجدد - وعلى رأسهم لورانس كراوس - يتبنَّى العلموية بشدَّة، ويرى أنه لا بدَّ أن نبني جميعَ معتقداتنا على العلم التجريبي، حتى ولو خالف التفكير المنطقي المعروف. وفي مناظرةِ كراوس المشهورة معَ البروفسور وليام لاين كرايغ أظهر تحتَ قميصه قميصًا قصيرَ الكمَّين مكتوب عليه: «٢ + ٢ = ٥ لقيم كبيرة جدًّا لـ٢» ثمَّ قال: «هذا يستحقُّ ألفَ كلمة. لأنَّه، طيب، طيب،٢ + ٢ = ٥، قميصه يقول: لقيم كبيرة جدًّا لـ٢. فهذا مهمٌّ جدًّا، لأنَّ الحقيقة أن المنطق الكلاسيكي يقول إن ٢ + ٢ لا يمكن أن يكون ٥. وهذا خطأ. علماءُ الرياضيات والفيزياء يعلمون أنه يمكن تغيير هذه القوانين للقيم الكبيرة للأعداد»[2].

---

(1) A Pocket Guide to Logic & Faith (66)

(2) https://www.reasonablefaith.org/media/debates/the-craig-krauss-debate-at-north-carolina-state-university/

وهذا التقريرُ يفتح بابًا خطيرًا لجواز الوقوع في التناقضات، لأنَّ كراوس - ومَن معه مِن الملاحدة - يروْن أنَّه يجوز بناءُ الاعتقادات على ما يخالف المنطق السليم إن دلَّ عليه العملُ التجريبي. وقد سبقَ ما يعتري العلم التجريبي من التغيّرات والنقص، ولا سيَّما العلم التجريبي ذا الطابع التاريخي مثل: علم الكون - الذي هو تخصُّص كراوس -.

فمثلُ هذه التقريرات تبيِّن لنا أحدَ أسباب كثرة وقوع الملاحدة في المغالطات المنطقية والشطحات - كما سبَق -، وكذلك الوقوع في التناقضات كما سيأتي بيانه هنا.

وبيانُ التناقضات هو مِن أساليب علماء الغرب في نقد الإلحاد المعاصر، فقد بيَّنوا في مواضعَ كثيرةٍ التناقضات الكثيرة الموجودة في الفكر الإلحادي المعاصر:

- **التناقضُ الأوَّل: الكونُ خلقَ نفسَه من العدم - العدم كان موجودًا قبل الخلق:**

اكتشف علماءُ الفلك في القرن العشرين أنَّ للكون بداية، وقد أشكل ذلك كثيرًا على الملاحدة؛ لأنَّ المنطق السليم يقتضي أن كلَّ حادث لا بدَّ له من محدث. وللخروج مِن هذا الإشكال تسفسطَ الملاحدةُ كثيرًا في هذا الباب. وقد سبق الحديث عن شطحاتِ الملاحدة كلوارنس كراوس وريتشارد دوكينز في تعريفهما للاشيء.

وأمّا الملحدُ ستيفن هوكينغ فكتبَ مع زميله لوراند مليدينوف في كتابيهما: التصميم العظيم عنْ هذه القضية الجملة المتناقضة: «وحيث إنَّه وُجد قانون مثل الجاذبية، فإنَّ الكون يستطيع وسوفَ يخلق نفسَه من العدم»[1]. وهذه الجملة القصيرة - وهي الحجة الأساسية عنده للخلق الذاتي للكون - في غاية التناقض؛ قال البروفسور جون لينوكس رادًّا على هوكينغ: «لاحظ الادِّعاء الأوَّل من قوله: «وحيث إنه وُجد قانون مثل الجاذبية...» يزعم هوكينغ أنَّ قانون الجاذبية موجود. ولهذا يفترض أن الجاذبية نفسها موجودة، للسَّبب البسيط أنَّ قانونًا رياضيًّا مجرّدًا يكون فارغًا بنفسه إذا لا يستطيع أن يصف شيئًا... وعلى كلِّ حال، القضيةُ الرئيسة الآن هي أنَّ قانون الجاذبية والجاذبية ليست لاشيء، إن كان يستعمل الكلمةَ بطريقته الفلسفية

---

(1) Grand Design (180)

الصحيحة بمعنى عدم الوجود. وإن لم يكنِ الأمرُ كذلك فينبغي له أن يبيِّن مرادَه لنا. وعلاوة على ذلك، فإنه يبدو أنَّ هوكينغ يزعم أنَّ الكون خُلِق من العدم، ومِن شيء في الوقت نفسه، وهذه بداية غير موفَّقة...

والأمرُ لا يزداد حسنًا عندما ننطلق إلى منطقِ هوكين في الجزء الثاني من قوله: «فإن الكونَ يستطيع وسوفَ يخلق نفسه من العدم». هذا الادِّعاء متناقض ذاتيًّا. لو قلنا: «إنَّ X خلق Y » فإنَّنا نفترض وجود X في البداية قبل إيجاده Y. هذا ما يُفهم بسهولة من جملة «X خلق Y». وإن كنَّا نقول: «X خلق X» فإننا نزعم وجود X لكي يكون سببًا في وجود X. لا شكَّ أنَّ هذا متناقض، بالتالي غير مقبول منطقيًّا، حتى ولو كان X هو الكون!»[١].

- **التناقضُ الثّاني: الكونُ ليس بحاجةٍ إلى سبب - الإله بحاجة إلى سبب:**

الحقيقةُ العلمية الثابتة أنَّ للكون بداية تقودُ إلى السؤال الحتمي: مَن أخرج الكون مِن العدم إلى الوجود. والملاحدةُ ينزعجون من هذا السؤال كثيرًا؛ ففي مقابلة الإعلامي بين ستين معَ ريتشارد دوكينز - على سبيل المثال - قال ستين: «من خلق السماوات والأرض؟». فبادرَه دوكينز منزعجًا بالجواب: «لماذا تستعمل كلمة: «من»؟ أنت تبدأ مباشرةً باستعمال كلمة من!»[٢]. وكما أنَّهم ينزعجون من سؤال: «من» فإنهم لا يحبّون سؤال: «لماذا». ويرى الملحدُ لوارنس كراوس أنه يجب الحذر من سؤال مثل: (لماذا)[٣]. وذلك أنَّ هذين السؤالين: من خلق الكون؟ ولماذا وُجد الكون؟ من الأسئلة التي تطرح على أذهانِ أكثر الناس، ولا يجد الملاحدة لهما جوابًا.

ثمَّ بعدَ انزعاج الملاحدة من سؤالي: (من)، و(لماذا)، فإنهم يتناقضون ويكونون أوّلَ مَن يسأل هذا السؤال عن الخالق؟ فيقولون: إن كان اللهُ خلقَ كلَّ شيء، فمن خلق الخالق؟ وقد جعلَ ريتشارد دوكينز هذا السؤال حجتَه الرئيسة في كتابه المشهور: وهم الإله[٤].

---

(1) God and Stephen Hawking (29-31)

(2) https://www.youtube.com/watch?v=BoncJBrrdQ8

(٣) انظر: Universe from Nothing (146), by: Lawrence M. Krauss, (Free Press, 2012)

(٤) انظر: The God Delusion (188 - 189)

فالملحدُ يرى أنَّ الحقيقة المطلقة هي الكون، ولذلك لا ينبغي السؤالُ عمَّن أوجده ولا لماذا وُجِد، والمؤمن يرى أنَّ الحقيقة المطلقة النهائية هي الله، ويمنع سؤال: من خلق الله؟؛ قال أوستين فارير[1]: «القضيةُ بين الملحد والمؤمن لا تتجلَّى في السؤال عن الحقيقة النهائية، بل هو السؤال: ما هي الحقيقةُ النهائية؟ الملحد يرى أنَّه الكون، والمؤمن يرى أنَّ الحقيقة النهائية هي الإله»[2].

ولكنْ هناك فرقٌ عظيم بينَ سؤال: «مَن خلق الكون؟»، وسؤال: «مَن خلق الله؟»؛ فالسؤالُ الأوَّل مشروع؛ لأنَّ الملحد يعترف أنَّ الكون له بداية. وأمّا السؤال الثاني فإنه غيرُ مشروع؛ لأنَّ المؤمن يعتقد أنَّ الله هو الأوَّل بلا بداية. وقد بيَّن البروفسور جون لينوكس الفرقَ بين السؤالين بقوله: «إن كان أحدٌ يرجع إلى الإله كالجواب عن سؤال: لماذا، كما أفعله أنا بدون استحياء، فإنَّ هوكينغ يقول: «من المعقول أن تسأل: من أو ماذا خلق الكون، ولكن إنْ كان الجواب هو الإله، فإنَّ السؤال فقط ينحرف إلى مَن خلق الإله؟»[3]... إنْ كان الجواب هو: قانون الجاذبية حسب حجة هوكينغ، فإنَّ السؤال ينحرف إلى: مَن خلق قانون الجاذبية؟ وهوَ لا يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال. حجَّة هوكينغ إنما تدلُّ على أنَّه قاصر الفهم للمراد بالإله. السؤال: مَن خلق الله يفترض أنَّ الإله كائن مخلوق. وهذا ليس هو مفهوم المسيحيّين - وليس اليهود والمسلمين كذلك -. الإله أزلي، الحقيقةُ المطلقة. السؤال عمَّن خلقه يدلُّ على عدم فهم حقيقته»[4].

---

(١) أوستين فارير (Austin Farrer): فيلسوف ولاهوتي بريطاني، وكان عميد إحدى الكليات في جامعة أكسفورد ثمان سنوات. وقد ألَّف عشرات الكتب اللاهوتية. توفي عام: ١٩٦٨م. انظر: https: / /www.giffordlectures.org /lecturers /austin – marsden – farrer

(2) A Science of God (33-34)

(٣) انظر: The Grand Design (١٧٢)

(4) God and Stephen Hawking (68)

- **التناقضُ الثّالث: لا دليلَ إلّا من العلم التجريبي - هذا الادّعاء غيرُ مبنيٍّ على دليل من العلم التجريبي:**

سبقَ أنَّ العلموية من أهمِّ أسس الملاحدة المعاصرين، وأنهم يرون أنه لا يمكن الاعتمادُ إلّا على الدليل العلمي. وأمّا الدليل الفلسفي، فليس له اعتبار حيث أنهم يروْن أنَّ الفلسفة قد ماتت. وأمّا الدليلُ النقلي من كتاب ديني - مثل: الكتاب المقدَّس أو القرآن الكريم - فهُم أشدُّ المحاربين له.

وقد بيَّن علماءُ الغرب أنَّ تقرير مذهب العلموية متناقض ذاتيًّا؛ فقال البروفسور وليام لاين كرايغ: «العلموية متناقض ذاتيًّا. العلموية تقول لنا ألّا نؤمن بأي قضية إلا ما يمكن إثباتُه عن طريق العلم التجريبي. ولكن، ماذا عنْ هذه المقولة نفسها؟ لا يمكن إثباتُها عن طريق العلم التجريبي. العلموية توقع نفسها في الهزيمة»[(١)].

وقد فصَّل البروفسور جون لينوكس في ذلك أكثرَ، إذْ قال: «وما يدمِّر العلموية تمامًا هو الخطأ القاتلُ من التناقض الذاتي اللازم فيها، فلا حاجة لنقد العلموية بحجة من خارجها: فهي تدمِّر نفسَها ذاتيًّا... عبارة «العلمُ فقط يمكنه استنتاج الحقيقة» ليست عبارة مُستنتجة من العلم، فهي ليست عبارة علمية، ولكنها عبارة تتحدَّث عن العلم، فهي عبارة فوقَ علمية (Metascientific). وهكذا، فإنْ كان مبدأ العلموية الأساسي حقيقيًّا فالعبارةُ التي تعبِّر عنها خاطئة، فمذهبُ العلموية ينقد ذاته، وهو غير متماسك»[(٢)].

- **التناقضُ الرّابع: ولا يوجد معيارٌ أخلاقي موضوعي للخير والشَّر - الدين شرٌّ:**

لا يمكنُ في عالم الملحد أنْ يكون هناك معيارٌ أخلاقي موضوعي يحتكم إليه جميعُ الناس. فالكون مجرَّد ذرَّات وُجِد بلا تصميم ولا غاية، فلا يمكن أن يكون فيه خير وشرٌّ موضوعيَّان، كما كتبَ ريتشارد دوكينز: «الكون الذي نشاهده توجد فيه

---

(1) https://www.reasonablefaith.org/writings/question-answer/is-scientism-self-refuting

(2) God’s Undertaker (42)

الخصائص التي نتوقَّعها. هو في الحقيقة بلا تصميم، ولا هدف، **ولا شرٌّ ولا خير**، ولا شيء سوى اللامبالاة القاسية»[1].

والإنسانُ حيوان متطوِّر، وكما هو معلوم، فليس الحيوان مسئولًا من الناحية الأخلاقية؛ فلا يُقال للأسد: أخطأتَ في قتل الغزال وأكله. ومعَ ذلك يتناقض ريتشارد دوكينز في هذا الباب فيصف الكثير من أعمال الخير والشَّر بطريقةٍ موضوعية - بعيدًا عن أن تكون آراءه الشخصية فقط -.

وقد ألزمَه بذلك البروفسور وليام لاين كرايغ باستخراج مواضع مِن كتبه وهو يتحدَّث عن الأخلاق الحسنة يذمُّ تصرُّفات المتديّنين - كما هي عادته -. ثمَّ ذكر أنه من الصَّعب التصديقُ بأنَّ جميع الإثباتات والاستنكارات الأخلاقية الساخنة لدوكينز ليست معدَّة فعلًا لأنْ تكون أكثرَ من رأيه الشخصي. فالتأكيد على الواجبات والقيم الموضوعية لا يتوافق مع إلحادِه، وحسبَ المذهب الطبيعي فنحن مجرَّد حيوانات، قرود متقدمة نسبيًّا، والحيوانات ليست مسئولة أخلاقيًّا[2].

- **التناقضُ الخامس: مشكلةُ الشَّر دليلٌ على الإلحاد - لا يوجد خيرٌ ولا شرّ:**

مشكلةُ الشَّر من الحجج الأساسية للملاحدة. وهذه الشبهة مبنية على مقدِّمتين ونتيجة:

المقدِّمةُ الأولى: إذا كان يوجد إلهٌ كاملُ القدرة والمعرفة والخير بالعالم، إذًا، لن يوجَد الشر..

المقدِّمة الثّانية: يوجد شرٌّ في العالم.

النَّتيجة: إذًا، فإنَّه لا يوجد إلهٌ كاملُ القدرة والمعرفة والخير في الآنِ ذاته.

فالمقدِّمة الثانية مبنيَّة على وجود شرٍّ في الكون. ولا يمكن وجود الشَّر الموضوعي في عالم الملحد، كما اعترف به ريتشارد دوكينز نفسه. ولا شكَّ أنَّ

---

(1) River out of Eden (133)

(٢) انظر: God is Good God is Great (18 - 19)

هذا من تناقضات الملاحدة. وقد بيَّن البروفسور وليام لاين كرايغ هذه القضيةَ بقوله: «رغم أنَّ المعاناة تشكِّك على المستوى السطحي في وجود الله، إلّا أنها على مستوى أعمق تثبت وجودَ الله. إذ إنَّه في غياب الله لا تمثِّل المعاناةُ شيئًا قبيحًا. إذا آمنَ الملحد أن المعاناة شيء سيِّئ أو أنَّها أمر يجب ألّا يكون، فهو بذلك يقدِّم أحكامًا أخلاقية لا يمكن أن توجد إلّا إذا وُجد الله»[1]. «بعبارة أوضح، وأفصح، لا يمكنُ للملحد أن يستدلَّ بالشَّر الموجود في العالم لنفي وجود الله حتى يقرَّ بوجود الخير والشَّر، ولا سبيل للإقرار بقيمتي الخير والشَّر حتَّى يقرَّ الملحد بوجود المعيار الموضوعي، ووجودُ المعيار الموضوعي الأخلاقي غيرُ ممكن دون مشرِّع أخلاقي غيرِ مادي، وهذا المشرِّع هو الله الذي تسعى الحجةُ الأخلاقية المعتمدة على الشَّر لنفيه! فلا سبيل لاعتماد حجة الشَّر لإثبات الإلحاد حتى يُنقض الإلحاد بإثباتِ وجود الله، فغايةُ الملحد ووسيلته لذلك تتنافيان (Mutually Exclusive)[٢].

وقد أعادَ وليام لاين كرايغ شبهةَ الملاحدة في وجود الشَّر إلى دليل على وجود الله بصياغة الحجة التالية:

١) إذا كان اللهُ غير موجود، فالقيمُ الأخلاقية الموضوعية غير موجودة.

٢) الشرُّ موجود.

٣) إذًا، المعاييرُ الأخلاقية الموضوعية موجودة.

٤) إذًا، اللهُ موجود»[٣].

---

(1) On Guard: Defending Your Faith with Reason and Persuasion (162)

(٢) مشكلة الشَّر ووجود الله (٦٢ - ٦٣).

(3) Hard Questions, Real Answers (107)

- **التناقضُ السّادس: الدينُ يدْعو إلى العنف - الملاحدة أكثرُ الناس دعوةً للعنف:**

كان سام هاريس مَن أشعلَ شرارة مذهب الإلحاد الجديد بكتابه: نهاية الإيمان. وهو مِن أشدِّ الفرسان الأربعة هجومًا على الأديان - ولا سيَّما الإسلام - بتهمةِ أنه يدْعو إلى الإرهابِ والقتل. وهذا هو ديندنُ الملاحدة الجدد في كتبهم. ومن حججهم الرئيسة أنَّ الأديان شرٌّ يجب التخلُّص منها[١]. وهذا التَّضخيم كلّه، وكأنهم نسوا أو تَناسوا أنَّ مِن أكثر الناس قتلًا عبر التاريخ، هُم الملاحدة! كتب البروفسور جون لينوكس: «أوَلم يقرأ دوكينز، وهيتشن وهاريس الكتاب الأسود للشيوعية (Black Book of Communism) الذي نجد فيه: «الأنظمة الشيوعية... حوَّلت الإجرام الجماعي إلى نظام الحكومات» وماتَ بسببه ٩٤ مليون نسمة، منهم ٨٥ مليون في الصين وروسيا فقط؟»[٢].

ودوكينز يُكثر من انتقاد الأديان بسبب أفعال بعض المنتسبين إليها، ولكن عندما يأتي إلى جرائم الملاحدة واللادينيّين كستالين وهتلر فإنَّه يقول: «ليس من المهمِّ ما إذا كان هتلر وستالين من الملاحدة، بل المهمُّ ما إذا كان الإلحاد يؤثِّر في الإنسان بطريقة منظَّمة أنْ يفعل أشياء سيئة. ولا يوجد أدنى دليلٍ على أنه يفعل ذلك»[٣]. فيحمِّل الأديان مسئوليةَ أفعال بعض المنتسبين إليها، ولا يحمِّل الإلحاد مسئولية أفعال بعض المنتسبين إليها. وكتبَ البروفسور سكوت هون والبروفسور بنيامين ويكير في الردِّ على هذه الانحيازية المتناقضة: «ينبغي أن نحكمَ على الإلحاد بالإلحاد، والمسيحية بالمسيحية، كلٌّ بمبادئه. وفي ذلك الوقت فقط نستطيعُ أن نحكم على المنتسبين بالأخلاقية أم لا. فيحكمُ على الملاحدة إذا كانوا يمتثلون الإلحاد، وعلى المسيحيين ما إذا كانوا يمتثلون المسيحية»[٤].

وهذه النقطة مهمَّة جدًّا في هذه المسألة؛ لأنَّ الإلحاد يقود حتمًا إلى الفلسفة العدمية والنسبوية الأخلاقية - كما سبق بيانُه -، وبذلك يفتح الباب على مصراعيه للقَتلة الشيوعيين.

---

(١) انظر على سبيل المثال: God is Not Great (15 - 37), The God Delusion (268 - 297)

(2) Gunning for God (88)

(3) The God Delusion (309)

(4) Answering the New Atheism (94)

ولا يمكن للملحد - وإن تظاهرَ بعكسه - أنْ يقول إنَّ الإبادة الجماعية الشيوعية كانت خطأً من الناحية الموضوعية، بل لا يعدو في النهاية إلى أنْ يكون آراء دوكينز الشخصية أنَّ هذه الأفعال كانت قبيحة وسيئة. ويقول الشيوعي إنه لا يرى ذلك، وإنما كانت ضرورية لقيام دولهم المجرمة. فالإلحادُ قد أثَّر في الملاحدة القتلة تأثيرًا سلبيًّا كبيرًا بالطريقة المنظَّمة، وهو الأساس لهذه الإبادة الجماعية رغم أنف دوكينز ومَن معه.

وقد خرجَ من أفواه الملاحدة الجدد التقريراتِ المؤصِّلة للقتل والعدوان. فالشيوعيون أرادوا القضاءَ على الأديان بأيِّ وسيلة من الوسائل. وسام هاريس يقول: «لو كان بإمكاني الحصولُ على عصا سحرية، واستطعت القضاءَ إمّا على الاغتصاب أو الدين، لما تردَّدت أبدًا في القضاء على الدين»[1]. وقرَّر في كتابه: نهاية الإيمان - الذي اتّهم الأديان بأنها تدْعو إلى العنف - التقرير الآتي: «بعضُ المسائل من الخطورة بمكان بحيث يمكنُ أن يكون قتلُ مَن يعتقدها أخلاقيًّا»[2]. فهو يريد القضاءَ على الأديان، ويبرِّر لنفسه ولأتباعه القتلَ في سبيل ذلك. وقد قال البروفسور جون لينوكس معلّقًا على هذه العبارة: «ونحتاج أن نسألَ السؤال: هل ستكون عند الملاحدة الجدد السلطة في نهاية الأمر أنْ يختاروا ما هي هذه المسائل التي يبرِّر القتل، ومَن سينفِّذ هذا الحكم؟»[3].

وهاريس الذي يلوم الإسلامَ بأنه وراء القتل والعدوان يقول إنَّ الدول الغربية في الحرب مع الإسلام: «حان الوقتُ أن نعترف أنَّنا لسنا في حالة حرب مع الإرهاب. نحنُ في حربٍ مع الإسلام. لا يعني ذلك أنَّنا في حرب مع جميع المسلمين، ولكن لا شكَّ أنَّنا في حرب مع منظور الحياة الذي هو مذكور لجميع المسلمين في القرآن»[4].

---

(1) Sun Magazine

http://thesunmagazine.org/issues/369/the_temple_of_reason?page=2

(2) The End of Faith (52)

(3) Gunning for God (94)

(4) http://www.washingtontimes.com/news/2004/dec/1/20041201-090801-2582r

ولا يمانع مِن استخدام السلاح النووي ابتداءً إذا حصلت دولة إسلامية على القنبلة النَّووية؛ فيقول: «في مثل هذه الحالة فإنَّ الخيار الوحيد لضمان بقائنا قد يكون أن نبدأ نحن بضربةٍ نووية أولًا. لا ريبَ أن هذه جريمة غير منطقية - لأنه يؤدّي إلى قتل عشرات الملايين من المدنيّين في يوم واحد -، ولكن قد يكون الخيارَ الوحيد لنا إذا علمنا ما يعتقده الإسلاميون»[1].

فأيُّ تناقض أعظم مِن هذا التناقض؟ العملية الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر راحَ ضحيتها أقلّ من ثلاثة آلاف شخص. وكانت هذه العملية الحادث الذي قاده إلى هجومِه اللاذع للأديان، ثمَّ يبرِّر قتل عشرات الملايين من الناس بعد ذلك بالقنبلة النووية!

- **التناقضُ السّابع: الأديانُ تحارب النظرياتِ العلمية المخالفة لعقائدها - الملاحدةُ مِن أكثر الناسِ محاربة للنظريات العلمية المخالفة لعقيدتهم:**

يصوِّر الملاحدةُ أنَّ الدين في صراعٍ دائم مع العلم التجريبي، وأنَّ العلم التجريبي قد ألغى مبرراتِ الإيمان؛ فقال البروفسور الملحدُ بيتر أتكنز على سبيل المثال: «لا يمكن أن يتصالح العلمُ والإيمان، وعلى البشرية أن تبدأ بتقديرِ قوة ابنها، وترفض كلَّ محاولات التَّسوية، فلقد فشلَ الدين، ويجب كشفُ حالات فشله للناس على الملأ، أما العلم فلنجاحِ مسيرته ووصوله إلى الكفاءة العالمية بمعرفة الحدِّ الأدنى فيشكِّل متعة الفكر العليا ويجب تتويجه ملكًا»[2].

ويقدِّم الملاحدةُ فرضية تسمَّى: «فرضية المعارضة» (Conflict Thesis)، بأن الأديان كانتْ في صراع مستمرٍّ مع العلم التجريبي[3]. فإذا خالف العلم التجريبي معتقدًا من المعتقدات الدينية عارضه رجالُ الدين وحاربوه، وكلَّ مَن تبنَّاه.

هذه الفرضيةُ في أصلها غيرُ صحيحة؛ لأنَّ الصراع لم يكن بين العلم التجريبي

---

(1) End of Faith (128-129)

(2) Nature’s Imagination-The Frontiers of Scientific Vision (132)

(٣) انظر: God’s Undertaker (23-24)

والإيمان، وإنَّما كان بين رؤيتين مختلفتين للعالم، هما: المذهب الإلهي (Theism) والمذهب الطبيعي (Naturalism)؛ قال البروفسور دون لينوكس: «هناك صراع حقيقي، ولكنّه ليس صراعًا بينَ العلم والإيمان أبدًا، ولو كان كذلك فالمنطقُ البسيط يقتضي أن يكون العلماء كلهم ملحدين، وغير العلماء فقط هم المؤمنون بالله، ولكن كما شاهدنا ليس هذا واقعَ الحال، بل إنَّ الصراع الحقيقي يوجد بين رؤيتين متعاكستين تمامًا للعالم؛ المذهب الطبيعي والمذهب الإلهي، ولا بدَّ لهما أن يتصادما»[1].

فالصراعُ ليس بينَ العلم التجريبي والإيمان، وإنما الصراع بين العلم التجريبي المبني على المذهبِ الإلهي، والعلم التجريبي المبني على المذهب الطبيعي. وكما أن المتديِّنين يعارضون العلمَ التجريبي المبني على المذهبِ الطبيعي، فإنَّ الملاحدة يعارضون العلم التجريبي المبني على المذهب الإلهي.

والملاحدةُ يذكرون أمثلةً من التاريخ على معارضة رجال الدين من الكنيسة - وكانوا في ذلك الوقت في كثيرٍ من الأحيان من العلماء التجريبيّين -، وفي الوقت نفسه هُم من أشدِّ الناس محاربةً لكلِّ عالم يعارض النظريات العلمية المبنية على المذهب الطبيعي.

وقد سبق أنَّ الدكتور جيري بيرغمان ألَّف كتابه: ذبح المنشقِّين.. الحقيقة الصادمة عنْ حقيقة قتل مهن المتشكِّكين في الداروينية (Slaughter of dissidents.. the shocking truth about killing the careers of Darwin Doubters) واصفًا الإرهاب النفسي الذي يمارسه الملاحدةُ الجدد تجاه معارضيهم في الأوساط العلمية. وقد بنى هذا الكتاب على مقابلة ثلاثمائة عالم وأكاديمي وطالب جامعي في دراسات العلوم، وما منهم أحدٌ إلّا واشتكى مِن الإقصاء في الجامعات الغربية بسبب عدم موافقتهم للمذهب الدارويني.

فهذه بعضُ تناقضات الملاحدة العجيبة التي بيَّنها علماءُ الغرب، وإن كانت التناقضاتُ أكثر من ذلك. إذًا، الإلحادُ أعظم باطل. وكلَّما بعدت عقيدة عن نور النبوّة فإنها تكون أكثر تناقضًا!

---

(١) المصدر السابق (٢٨ - ٢٩)

المبحثُ الرّابع
بيانُ ضعفِ خطابِ الملاحدة

الدعوةُ إلى الإلحاد في هذا الزمان تكاد تكون منحصرةً في دائرة دعاة الإلحاد الجديد. ولا يكاد يتأثَّر الناسُ بالملاحدة غير المتبنِّين لهذا المنهج الحماسي العدواني. لا شكَّ أنه توجد كتبٌ لملاحدة غير متطرِّفين، ولكنَّها لا تتلقَّى قبولًا بين الملاحدة مثل كتبِ الملاحدة الجدد، ولا تشكِّل خطورة كبيرة على المتديّنين.

ولذلك، فإنَّ علماء الغرب يركِّزون على نقدِ خطاب الإلحاد الجديد، ويردُّون على رموزِه وكبتهم، ولا يتطرَّقون لبقية الملاحدة إلّا قليلًا. فبنقدِ خطاب الإلحاد الجديد يكاد يسقط الخطابُ الإلحادي المعاصر برمَّته، ولا يبقى لسائر الملاحدة ذكرٌ.

ومِن أساليب علماء الغرب[1] في نقدِ الإلحاد: بيانُ ضعف خطاب الإلحاد الجديد، وهزالته ووهنِه. وقد فعلوا ذلك مِن أوجهٍ متعدِّدة؛ وهذه سبعة منها:

الوجهُ الأوَّل: ضعفُ الحجج العقلية:

الملاحدةُ الجدد يبالغون كثيرًا في العلم التجريبي، ويرفعونَ من شأنه، ويهتمون به اهتمامًا كبيرًا. ولكنَّ كتبهم الدعوية إلى الإلحاد ليست كتبًا متعلّقة بتخصّصاتهم في العلم التجريبي، بل هي كتبٌ تتناول قضايا فلسفية ودينية، وهو علمٌ لا يجيده الملاحدة الجدد. فريتشارد دوكينز مثلًا - الذي هو زعيم الملاحدة الجدد وأشهرُ دعاتهم - هو عالم الأحياء، وليس عندَه خلفية دينية فلسفية. ومعَ ذلك، فكتابُه الأشهر: وهم الإله؛

---

(١) سيتمُّ النقلُ عن بعض الملاحدة في نقدِ خطاب الإلحاد الجديد في هذا الفصل أيضًا لبيان أنَّ هذا الخطاب ليس منبوذًا بين المتديِّنين فقط؛ بل هو منبوذ حتى بين الملاحدة أنفسهم.

كتابٌ ديني فلسفي[1]، فدوكينز يناقش قضايا لاهوتيةً دينية ومسائلَ فلسفية عقلية بجهل مركَّب. وحتَّى لما ناقش القضايا العلمية مثل: نظرية التطوُّر، في هذا الكتاب وغيره، فإنه يخرجُ عن طريقة كتابة الأبحاث العلمية التجريبية إلى الاستدلال بهذه النظرية على قضايا دينية فلسفية - وهذا ليس مِن اختصاص العالم التجريبي أيضًا -. ولهذا، فإن كتاب: وهم الإله، كتابٌ لرجل متخصِّص في علم معيَّن، يكتب في غير تخصُّصه في علم هو مجرَّد هاوٍ فيه. وإذا تكلّم المرءُ في غير فنِّه أتى بالعجائب.

وقد بيَّن البروفسور ألفن بلانتنغا ضعفَ خطاب دويكنز الفلسفي بقوله: «مناوشاتُ دوكينز في الفلسفة هي في أحسن الأحوال تعادل نقاشاتِ طلبة السنة الجامعية الثانية، ولكنَّه سيكون غيرَ عادل بالنسبة لهؤلاء الطلبة؛ الحقيقة أن (مع وضع ضخامةِ الدرجة جانبًا)، فإنَّ العديد من نقاشاته سوف تستحقُّ علامةَ الرسوب في صفِّ الفلسفة لطلاب السنة الجامعية الثانية»[2].

ويشاركه ستيفن هوكينغ في معرفة العلم التجريبي مع الضَّعف الشديد في الاستدلال العقلي. فهوكينغ يعتبر مِن أشهر علماء الفيزياء والكون في هذا العصر، ولكنّه ضعيفٌ في الاستدلال العقلي والفلسفة - بل يعتبر أنَّ الفلسفة قد ماتت -. فعندما يتحدَّث عن الجانب العلمي، فإنه يبهرُ القارئ لغزارة علمه، ولكن، عندما يخرج عن هذا الموضوع إلى القضايا الدينية الفلسفية فإنَّه يأتي بمضحكات مُبْكيات؛ فكتابه: التصميم العظيم، يتناول بعضَ الجوانب العلمية، ثمَّ لما يأتي إلى زبدةِ كتابه، ويحاول أن يستدلَّ بالنظريات العلمية على إنكار وجود الله فإنَّه يقول: «وحيث إنَّه وُجد قانون مثل الجاذبية، فإن الكونَ يستطيع وسوف يخلق نفسَه من العدم»[3]. وهذه الجملة ليست جملةً علمية، بل هي استدلالٌ عقلي بالعلم التجريبي على قضيةٍ دينية.

---

(١) وقد أشار إلى ذلك البروفسور ألفن بلانتغا في مقاله: The Dawkins Confusion (http://www.booksandculture.com/articles/2007/marapr/1.21.html).,

(٢) المصدر السابق

(3) Grand Design (180)

وهي جملة في غاية التناقض. وقد بيَّن البروفسور جون لينوكس ذلك بقوله: «يندرُ أنَّ أحدًا يجد جملة واحدة تشتمل على درجتيْن مختلفتين من التناقض، ولكنْ يبدو أنَّ هوكينغ استطاع أن يكتبها. هو يقول: إن الكونَ يخرج من لاشيء الذي ظهرَ أنه شيء (وهو التناقض الأوَّل)، ثمَّ يقول إن الكون يخلقُ نفسه (وهو التناقض الثاني[١]». والوقوع في التناقض مرَّتين في جملة واحدة يندر في كلامِ الجهَّال، ومعَ ذلك فقد فعله هذا العالمُ الذي يُشار إليه بالبنان في العلم التجريبي. فدلَّ ذلك على ضعفه في الاستدلال العقلي وتخبّطه فيه.

ومثالٌ آخر على هذا الأمر هوَ لوارنس كرواس؛ فهو عالم متخصِّص في علم الكون، وله أكثرُ من ثلاثمائة بحثٍ علمي منشور عن هذا العلم المعقّد، ومع ذلك فقدرتُه على المناظرة واستدلاله العقلي في غايةِ الضعف. ومما يبيِّن ذلك: ما وقع في مناظرته معَ وليام لاين كرايغ - وهو بروفسور في الفلسفة -، فكان كرايغ من بدأ الحوار، ثمَّ لما انتقل الدورُ إلى كراوس قال: «الدكتور كرايغ مناظرٌ محترف، وأنا لست كذلك. في الحقيقة، أنا لا أحبُّ المناظرات»[٢]. ثمَّ قال: «هذه المناظرة بعنوان: (هل هناك أدلة على وجودِ الله)... هي ليست مناظرةً عن الفلسفة، التي هي مجالُ تخصُّص كرايغ. وأنا لا آتي لكي أتكلَّم عن علم العلامات (Semiotics) أو استحالة الشكلية (Transubstantiation)، لأنِّي أعرف أنني ربَّما غيرُ مختصٍّ للكلام عن هذا الأمر»[٣]. ومع هذه الإقرارات المهمَّة فإنَّه يستطرد بعدَ ذلك مباشرة في المناظرة محاولًا أن يستدلَّ على إلحاده بالفلسفة. فهذا الرجل يعترف بضعفِه في المناظرات، وعدم تخصُّصه في الفلسفة، ومع ذلك يناظر فيلسوفًا بحججٍ فلسفية. وهذا ديدنُ الملاحدة الجدد في كتبهم ومناظراتهم. اغترّوا بما عندهم من العلم في بعض الجوانب فدخلوا فيما لا علمَ لهم به. وهذا مما يُضعف خطابَ الإلحاد الجديد كثيرًا.

---

(1) God and Stephen Hawking (31)

(2) https://www.reasonablefaith.org/media/debates/the-craig-krauss-debate-at-north-carolina-state-university/

(٣) المصدر السابق

الوجهُ الثّاني: كثرةُ المغالطات المنطقية:

حينما ضَعُف التفكيرُ المنطقي والاستدلالُ العقلي عند الملاحدة الجدد تميَّز خطابهم بكثرةِ المغالطات المنطقية. وقد كتبَ البروفسور سكت هون والبروفسور بنيامين ويكير في مقدِّمة ردِّهما على ريتشارد دوكينز عن ضعف خطابِ الإلحاد الجديد، حتى استغربَا كثيرًا أنه يوجد أناسٌ تأثَّروا بأمثال دوكينز بسبب هذا الضعف[1]. وقد ذكرَا عدَّة نقاط هامَّة عنْ هزالة هذا الخطاب، ومنها: كثرةُ المغالطات المنطقية؛ فقالا: «إضافة إلى نغمته السَّاخرة، فإنَّ لدى دوكينز ميلًا إلى الوقوع في مغالطات منطقية وأخطاء حقيقية بطريقة محيّرة»[2].

وقد سبق أنَّ بعضَ علماء الغرب أفردوا مصنَّفات لبيان مغالطات الملاحدة المنطقية لكثرتِها. ولا يكاد يقدِّم الملاحدة الجدد حجّةً من الحجج إلّا وهي مشتملة على مغالطة مِن المغالطات المنطقية. فالذي لم يدرسْ هذا الفنَّ ولم يطَّلع على خباياه ربَّما يغترُّ بهذه الحجج الهزيلة، ولكنْ مَن كان لديه إلمام - ولو يسيرًا - بهذا الأمر فإنَّه يدرك مدى كثرة هذه المغالطات في كلامِهم، ومن ثمَّ يأمن التأثُّر بشبهاتهم إلى حدٍّ كبير.

الوجهُ الثّالث: السطحيةُ وعدمُ العمق:

خطابُ الإلحاد الجديد ليس ضعيفًا من ناحية الاستدلال العقلي فقط، بل مضمون الخطاب سطحيٌّ وغير متعمِّق. كتب البروفسور سكت هون والبروفسور بنيامين ويكير في تقييمِهما لكتاب: وهْم الإله: «مَن قرأ كتبه الأخرى، فإنَّ وهمَ الإله خيبة أمل. هو تهكُّمي وشرس، بدلًا من أنْ يكون ذكيًّا وذا بصيرة. ويظهر أنه كتابٌ أسرع فيه المؤلِّف لكوْنه غضبانَ على خصومه، فيفضِّل التخلُّص منهم. والنتيجة أنَّ وهمَ الإله مليء بالثَّناء على النفس، ويشبه أن يكون حفل عشاء لدائرة ضيِّقة من

---

(١) انظر: Answering the New Atheism (2)

(٢) المصدر السابق (٦)

المثقّفين، وبعدما تناولوا أكثرَ ممّا ينبغي من الخمر، يتبادلون التهكُّمات الساخرة عن شخص في غاية البَلادة ممَّن لا يشاركهم في الرأي»[١].

ووافقَ البروفسور الملحد هارولد آلن أور[٢] هذا الرأي، وقال في مراجعته لكتاب: وهم الإله: «بالتأكيد يبدو لي أنَّ كتاب (وهم الإله) مَعيب بشدَّة. مع أني كنت أصفُ دوكينز بأنه ملحدٌ محترف، لكنِّي مُجبر بعدَ قراءة كتابه الجديد لاستنتاج أنه في الحقيقة مجرَّد هاو»[٣].

حتَّى بلغ الأمر أنَّ بعض زملاء دوكينز في جامعة أكسفورد من الملاحدة استحيا من ضعفِ خطاب دوكينز، وقال البروفسور ألستر ماكغراث: «لا تحاكموا بقيَّتنا وفقَ هذا الزيف الفكري الصبياني»[٤].

والسطحيةُ لا تطغى على كتبِ دوكينز فقط، بل تشمل بقيةَ دعاة الإلحاد الجديد أيضًا؛ فقد كتبَ البروفسور ألستر ماكغراث عن نقد سام هاريس للدين؛ فقال: «هو يقدِّم حكاية بسيطة جدًّا تُصوِّر الدين كأنه سببٌ لآلام العالم (وأضعف جزء من الكتاب هو فصلٌ غير مُقنع تمامًا، يحاول أن يدعونا إلى الاعتقاد بأنَّ الدين وراء مشكلة المخدِّرات في الولايات المتَّحدة). ولكن تحليله متحاملٌ ومُهمل للأدلة، مما جعل كثيرًا من الناس في حيرةٍ من أمرهم، ويفكِّرون ما إذا كان هناك انفصال فتَّاك بين كلامه المزخرف والواقع الحقيقي»[٥].

وقال البروفسور ماكغراث عن داعي الإلحاد الجديد دانيال دينيت: «دينيت فيلسوفٌ محترف. وكان من الممكن أن يكون كتابه: (فكُّ السحر) نقدًا فلسفيًّا قويًّا لحججِ الإيمان

---

(١) المصدر السابق (٤ – ٥)

(٢) هارولد آلن أور (Harold Allen Orr): بروفسور علم الأحياء في جامعة روشيستر بالولايات المتَّحدة. انظر: https: / /www.nybooks.com /contributors /h – allen – orr /

(3) http://www.nybooks.com/articles/2007/01/11/a-mission-to-convert/

(4) The Dawkins Delusion (51)

(5) Why God won’t go away? (5-6)

بالله. كنت أنتظرُ دفاعًا عن الإلحاد بقوَّة الدفاع عن المذهب الإلهي الذي قدَّمه أخيرًا الفلاسفة اللاهوتيّون المتميِّزون مثل: ريتشارد سوينبورن ووليام لاين كرايغ. ولكنْ حين كنَّا نتوقَّع حفلة فلسفية بقينًا فقط ببعض القطع المتبذِّلة من الفُتات. يعطينا دينيت ستَّ صفحات فقط من التأمُّلات ما إذا كان هناك أسباب جيّدة للإيمان بالله»[1].

الوجهُ الرّابع: الاهتمامُ بالزخرفة الكلامية دون المضمون:

الواقع المشاهَد أنَّ كثيرًا من الناس يغترُّون ببلاغة المتكلِّم وقدرته على زخرفة كلامه أكثرَ من النظر إلى مضمونِ كلامه. وهذا الأمرُ متحقِّق مع دعاة الإلحاد الجديد. فالملاحظُ أنَّ كثيرًا من الناس اغترُّوا بدعوتهم رغمَ ما فيها من الضعف والوهن. ومن أكبرِ أسبابه أنَّ لديهم مقدرة متفوِّقة في البلاغة وحسن الكتابة والأداء. والرسول ﷺ قد قال: «إنَّ من البيان لسحرًا»[2] «يعني أنَّ بعض البيان يعمل عمل السحر. ومعنى السِّحر: إظهارُ الباطل في صورة الحق، والبيان: اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب معَ اللسان. وإنَّما شبَّه بالسحر لحدَّة عمله في سامعه، وسرعة قبول القلب له»[3]. ولكن العاقل لا يغترُّ بهذه الزخرفة الكلامية، وإنَّما ينظر إلى مضمون الكلام والأدلة والبراهين.

وقد أشارَ البروفسور سكت هون والبروفسور بنيامين ويكير إلى هذا اهتمام الملاحدة الجدد بالبلاغة دونَ المضمون بقولهما: «سوف نختبر مدى قوَّة مقالات دوكينز وحججِه بناءً على ماهيتها. وكما قال الفيلسوف اليوناني العظيم أفلاطون مرة: أحسنُ طريقة لتقييم لبِّ الحجج في خطابات مزخرفة بالبلاغة، هي تعريتُها من البلاغة كلّها ثمَّ تحليل الحجج نفسها. نحن نعتقد أنَّه إذا استطعنا أنْ نفعل ذلك بوزن عيار حججه، فإنَّ الضعف الشديد في وهم الإله لدوكينز سوف يظهر»[4].

---

(١) المصدر السابق (١٥)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥١٤٦)، كتاب النكاح، باب الخطبة (٧ / ١٩)، من حديث عبد الله بن عمر.

(٣) مجمع الأمثال (١ / ٧)، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني.

(4) Answering the New Atheism (7)

قال البروفسور ألتسر ماكغراث عن كريستوفر هيتشن: «هو متميِّز باستخدام الكلمات، ولكنْ في الوقت نفسه، هو دونَ ذلك في تقديم الحقائق»[1].

وإذا كان الخطابُ الإلحادي يعتمد على البلاغة والزخرفة الكلامية أكثر من المضمون، فإنَّه دليلٌ واضح على إفلاسه، وافتقاره وعَوَزه. فينبغي أن تزيِّن البلاغة الحجج العلمية العقلية الصحيحة. وأمّا استخدامُ البلاغة دون إقامة الحجج الصحيحة فإنه لا تجدي.

الوجهُ الخامس: استعمالُ القدح الشخصي والسخرية، وهو دليلُ الإفلاس:

تميَّز خطابُ الإلحاد الجديد بكثرة السخرية، والاستهزاء، والتهكُّم بالمتديِّنين والقدح فيهم، والتَّشنيع عليهم، وذمِّهم. وهذا الأمرُ يعود إلى شدَّة كراهيتهم للأديان والمتديّنين. ورموزُ الإلحاد يستخدمون هذه الطريقة كثيرًا، بل ينظِّرون ويؤصِّلون لها في دعوتهم. و«هذه النفسيةُ شديدة العدائية تظهر في طبيعة اللغة المستخدمة عند كثير من رموز الإلحادِ الجديد وأتباعهم، فالبجاحةُ والوقاحة والتحقير والكبر كلها سماتٌ شديدة الحضور في كثيرٍ من الخطابات الإلحادية الجديدة، وليس من المستغرب أن يتمَّ شرعنة مثلِ هذه الممارسات عبرَ تأصيل - ليس مبدأ نقد الدين فقط -، بل شرعنة السخرية والهزء من الدين والتديُّن، وهو ما يؤصِّل له نظريًّا ويمارسه عمليًّا رموزُ الإلحاد الجديد، خصوصًا كريستوفر هيتشن، ولوارنس كراوس... وغيرهما. ويكفي أن تشاهد شيئًا من محاضراتهم أو مناظراتهم لتعلم عن ماذا أتكلَّم»[2].

وقد أوصى دوكينز أتباعَه باستخدام هذا الأسلوب الصبياني في إحدى محاضراته حينَ قال عن المتديِّنين: «اسخروا منهم، واستهزؤوا بِهِم علانية، إيَّاكم أن تقعوا في العُرف الدارج أننا مؤدَّبون جدًّا لنتحدَّث عن الدين. الدين ليس مرفوعًا عن الطاولة، ولا هوَ خارج عن حدود النقد، الدين يقدِّم تصوُّرات معيَّنة عن الكون، والتي تحتاج إلى التثبُّت منها، ينبغي تحدِّيها والسخرية منها باحتقار»[3].

---

(1) Why God won't go away? (21)

(٢) مليشيا الإلحاد (٤٧ - ٤٨).

(3) Transcript of Richard Dawkins' speech from Reason Rally 2012 https://ladydifadden.wordpress.com/2012/03/28/transcript-of-richard-dawkins-speech-from-reason-rally-2012/

وقد سبقَ أنَّ هذه الطريقة في الردود تعدُّ من المغالطات المنطقية تسمَّى: مغالطة الشَّخصنة. فبدلًا من أن ينظر في حجج المؤمنين بالله والمتديِّنين يغضُّون عنها الطرف ويكتفون بالاستهزاء بهم والسخرية منهم.

وقد بيَّن علماءُ الغرب أنَّ هذه السخرية عوض الملاحدة الجدد عن تقديم حجج حقيقيَّة؛ فقال البروفسور ألفن بلانتنغا في نقدِه لكتاب: وهم الإله: «لا ينبغي أن ينظر إلى هذا الكتاب لمضمون منصفٍ ومتعمِّق. ففي الحقيقة، إنَّ حجم القدح، والتهكّم، والسخرية، والنقد اللادغ فيه محيِّر»[١].

الوجهُ السّادس: عدمُ فهم قول المخالف:

مِن القواعد المقرَّرة لدى أهل العلم أنَّ الحكم على الشيء فرع عن تصوّره؛ قال الإمام ابن القيم في نونيته:

إنَّ البـدار بـردِّ شـيء لـم تحـط ... علمًـا بـه سـبب إلـى الحرمـان[٢]

وكما أنَّ البدار بالردِّ على قول الخصم سببٌ إلى الحرمان، فإنه دليل على حماقة صاحبه. ومِن لطيف ما يُذكر في هذا المقام: وصيةُ أحد السلف لابنه إذ قال: «لا تردّ على أحدٍ جوابًا حتَّى تفهم كلامه؛ فإنَّ ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره، ويؤكِّد الجهلَ عليك، ولكنِ افْهم عنه، فإذا فهمته فأجبْه. ولا تتعجَّل بالجواب قبل الاستفهام، ولا تستحِ أن تستفهم إذا لم تفهم؛ فإنَّ الجواب قبل الفهم حمق»[٣].

---

(1) The Dawkins Confusion
(http://www.booksandculture.com/articles/2007/marapr/1.21.html)

(٢) متن القصيدة النونية (٣٠٥)، المعروفة بـ(الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية)، لمحمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيّم الجوزية، (مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١ / ٥٨٣)، ليوسف بن عبد الله ابن عبد البرّ القرطبي، (دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ، ت. أبي الأشبال الزهيري). والوصية ليحيى بن خالد - وزير هارون الرشيد - لابنه جعفر.

وِمِن المغالطات المنطقية المشهورة: مغالطة رجل القشِّ - كما سبق بيانه -. وقد امتلأتْ كتبُ الملاحدة الجدد بهذا النَّوع من المغالطة. فهُم يستعجلون بالردِّ على المتديِّنين بدون فهْم حقيقة مقالاتهم ولا حججهم.

وهذه العجلةُ جعلت البروفسور الملحد مايكل روس يخجلُ من كتاب: وهم الإله لدوكينز، وكتبَ مقالًا في الصحيفة البريطانية المشهورة «الغارديان» (The Guardian) في الردِّ عليه. ومما قاله في هذا المقال: «بخلاف الملاحدة الجدد فإنني آخذُ مسألة التحصيل العلمي بجدِّية. لقد كتبتُ بأنَّ كتاب (وهم الإله) جعلني أخجل من كوني ملحدًا، وكنتُ أعني ذلك. ومحاولة فهم أنَّ الإله لا يحتاج إلى سبب مثلًا، كما يعتقده النصارى باعتقادهم أنَّ وجود الله ضروري. ولقد بذلت جهدًا كبيرًا لمحاولة فهم ماذا يعني هذا الكلام. أمّا دوكينز وجماعته فهُم جَهلة في هذه المسائل بل يزدرون من يحاول أن يفهمَها، دعْ عنك الإيمان بها. وهكذا فهم كطالبٍ في سنته الجامعية الأولى يدور يفرح ويسأل بصوتٍ عال: «ما الذي تسبَّب في إيجاد الله» وكأنه اكتشف مسألة فلسفية خطيرة»[1].

واشتكى البروفسور الملحد هارولد آلن أور من هذه القضية أيضًا بقوله: «أكثر شيء مثيرٍ للإحباط في (وهم الإله) هو فشلُ دوكينز من مناقشة الأفكار الدينية بطريقة جادَّة. وهذا بالتأكيد شيء غريب أنْ يقال عن كتاب مطوَّل يبحث في موضوع الإله... النتيجة أنَّ (وهم الإله)، لا يواجه خصومَه بشكل مباشر. لن تجد فحصًا جادًّا لمعتقدات اليهود والنصارى في كتاب دوكينز»[2].

وإذا لم يفحص دوكينز معتقدات اليهود والنصارى - وهو يعيش بين أظهرهم ويناظرهم كثيرًا - فماذا نظنُّ بفحصه لمعتقدات المسلمين وهو القائل: «لم أقرأ القرآن

---

(1) Dawkins et al bring us into disrepute, https://www.theguardian.com/commentisfree/belief/2009/nov/02/atheism-dawkins-ruse

(2) http://www.nybooks.com/articles/2007/01/11/a-mission-to-convert

فلا أستطيعُ أن أنقل منه بذكر السورة والآية، كما أستطيعه مع الكتاب المقدَّس»[1]؟! ومع جهلِه الشديدِ بعقيدة المسلمين فإنَّ ذلك لا يمنعه من الوقيعة في هذه العقيدة المطهَّرة، ونقدها، والردّ عليها.

وقد بيَّن علماءُ الغرب أنَّ هذا يدلُّ على ضعف خطاب الإلحاد الجديد؛ فقد كتب البروفسور تيري إيغيلتون[2] نقدًا قويًّا في مراجعته لكتاب (وهم الإله)، عن جهل دوكينز بعلمِ اللاهوت؛ فكان مما قاله: «تخيَّل شخصًا يتكلم بالتوسُّع عن علم الأحياء، وليس عندَه مِن المعرفة بهذا العلم سوى: «كتاب الطيور البريطانية» (Book of British Birds). هذا يُعطيك فكرة تقريبية عن الشعور بقراءة كلام ريتشارد دوكينز عن علم اللاهوت... الذي يظهر أنَّه بقدر ما يكرهون [أي: الملاحدة الجدد] الدين يكون ردُّهم عليه بالجهل أكثر. وإنْ طُلب منهم الحكمُ على علم الظواهر[3] أو الجيوسياسية[4] في جنوبِ آسيا لرأيتهم يحاولون فهمَ القضية قبل الجواب باجتهاد كبير. وأما فيما يتعلّق بعلم اللاهوت فإنهم يقدِّمون أيَّ جواب بغضِّ النظر عن مضمونه»[5].

فدعاةُ الإلحاد الجديد عندهم جهلٌ مُفرط بمعرفة الأديان والحجج الدينية، ومع ذلك فإنَّهم أكثرُ الناس كلامًا عن الدين. وهذا يدلُّ على مدى هزالة هذا الخطاب السخيف.

---

(1) https://twitter.com/richarddawkins/status/307369895031603200?lang=en

(٢) تيري إيغيلتون (Terry Eagleton) بروفسور الأدب الإنجليزي في جامعة أكسفورد سابقًا. وقد ألّف عددًا من المؤلفات في النقد الأدبي. انظر:

https://literature.britishcouncil.org/writer/terry-eagleton

(٣) علم الظواهر (Phenomenology): العلم بالظاهرة المنفصلة عن حقيقة الشيء.
انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definition /phenomenology,

(٤) الجيوسياسية (Geopolitics): دراسة التأثير للعوامل مثل: جيوغرافيا، والاقتصاد، والديمغرافية في السياسة، ولا سيَّما السياسة الخارجية لدولة. انظر:

https://www.merriam-webster.com/dictionary/geopolitics

(5) https://www.lrb.co.uk/v28/n20/terry-eagleton/lunging-flailing-mispunching

الوجهُ السّابع: التطرُّفُ والغلوُّ وعدم الإنصاف دليلُ الضعف والتناقض:

الغلو، والتطرُّف والتعصُّب مع الجهل المركَّب من أسوأ صفات المناظر، وأما الإنصافُ فهو من أجمل ما يتحلَّى به؛ قال الإمام ابن القيم (رحمه الله):

وتعـرَّ مـن ثوبيـن مَـن يلبسـهما	**يلقـى الـردى بمذمـة وهـوان**
ثـوب مِـن الجهـل المركَّـب فوقـه	**ثـوب التعصّـب بئسـت الثـوبان**
وتحـلَّ بالإنصـاف أفخـر حلـة	**زيّنـت بها الأعطـاف والكتفـان**[١]

وأمّا الملاحدة الجدد، فهُم من أشدِّ الناس تعصّبًا لمقالتهم - ولا سيَّما نظرية التطوُّر - ومِن أقلِّ الناس إنصافًا لخصومهم. وهذا ما شهد به القاصي والداني، حتى بعض الملاحدة؛ فقال بيتر هيجز[٢] - الحائز على جائزة نوبل - على سبيل المثال عن ريتشارد دوكينز: «دوكينز بطريقةٍ ما يكاد يكون متطرّفًا، ولكن من نوع مختلف»[٣].

وقد لقِّب البروفسور الملحد باول كورتز الإلحادَ الجديد بالإلحاد المحارب (Militant Atheism) وذمَّهم في قوله: «ما أعترض عليه هو الملحدين المحاربين الذين هم ضيقو الأفق بشأن الأشخاص المتدينين ولا علاقة لهم باللاأدريين أو المتشككين أو أولئك الذين لا يبالون بالدين، وينبذونهم باعتبارهم جبناء»[٤].

---

(١) متن نونية ابن القيم (١٧).

(٢) بيتر هيجز (Peter Higgs): بروفسور الفيزياء النظرية بجامعة إيدينبورغ في إسكتلندا، وقد حاز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ٢٠١٣ م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Peter - Higgs

(3) https://www.theguardian.com/science/2012/dec/26/peter-higgs-richard-dawkins-fundamentalism

(4) https://www.huffingtonpost.com/2010/03/24/secular-humanist-takes-on_n_512153.html

وقد استدلَّ البروفسور تيري إيغيلتون بعدمِ إنصاف دوكينز على ضعف خطابه إذ قال: «هكذا تحيَّز دوكينز العلمي الصامد أنَّه في كتاب في مقاربة أربعمائة صفحة، لا يكادُ يستطيع أن يأتي بأيِّ فائدة للإنسان قد جاءت من الدين. وهو رأيٌ بالبداهة مستبعَد وباطل»[1].

وقارنَ البروفسور سكت هون والبروفسور بنيامين ويكير بين تطرُّف دوكينز وتطرُّف بعضِ الوعَّاظ المتطرِّفين بقولهما: «بشكل ساخر، يتذكَّر الإنسان عندما يقرأ دوكينز بالشِدَّة الموجودة لدى بعض الوعَّاظ الأصوليين الذين يغمرون مخالفيهم بالازدراء، ويستفزونهم بالزخرفةِ الكلامية لكي يقدِّم مسرحية بوجود حريق أمام المستمعين... دوكينز يعظُ المستمعين له بالطريقة نفسها. هو مليء بالحقد على مَن خالفه، فلا يستطيع أن يفهمَ كيف يمكن أنَّ أحدًا خالفَه بطريقة عقلانية. وبالتالي فلا بدَّ أن يكون خصومُه غيرَ عقلانيّين، وبعد ذلك يناسبهم فقط إحراقهم بالبلاغة حتى لا يبقى منهم سوى رماد تافه»[2].

وبهذه الأوْجه السبعة يظهر أنَّ خطاب الإلحاد الجديد في غاية الضعف، وطريقة دعاتِه طريقة هزيلة متطفِّلة، لا تصمدُ أمام الحجج العلمية العقلية القوية التي يقدِّمها المؤمنون بالله تعالى.

---

(1) https://www.lrb.co.uk/v28/n20/terry-eagleton/lunging-flailing-mispunching

(2) Answering the New Atheism (7)

المبحثُ الخامس
بيانُ مُخالفة الملاحدة للمنهج العلمي

المذهبُ المادي من أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر، ويبني الملاحدةُ نظيراتهم العلمية عليه. ولكنَّ هذا المذهب دخيلٌ على العلم التجريبي، لأنَّ هذا العلم مؤسّس على الإيمان بأنَّ الكون منظَّم ويمكن دراسته. وهذا الاعتقادُ يرجع إلى الإيمان بخالق منظِّم للكون؛ قال البروفسور ميلفن كلفن[1] عن هذا الاعتقاد: «خلال محاولتي لمعرفة أصلِ هذا الاعتقاد بدَا لي وجودُه في المفهوم الذي ظهر قبل ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ عام، وقد كانَ ظهوره الصريحُ لأوَّل مرَّة في العالم الغربي عبرَ العبرانيين القدامى، وخلاصته أن الكونَ يسيطر عليه إلهٌ واحد، وليس إرادات آلهة متعدِّدة، كلٌّ يحكم قطعته وفقًا لقوانينه الخاصَّة. إنَّ هذه الرؤية التوحيدية تبدو الأساس التاريخي للعلم الحديث»[2].

ثمَّ حمل المسلمون التقدُّم العلمي على عواتقهم برهةً من الدهر، ولم يروا أيَّ تعارض بينَ العلم التجريبي والإيمان بالخالق والغيبيات، بل كان هذا الإيمان الدافعَ الرئيس لكثير من علمائهم.

ثمَّ رجع التقدُّم العلمي إلى العالم الغربي، ولم يكنِ المؤسسون الجدد لهذا العلم في ذلكَ الزمن يتبنَّون هذا المذهب، بل كانوا مؤمنينَ بالله، ويروْن أنَّ الإيمان به هو الدافع الرئيس للاكتشاف العلمي؛ قال البروفسور سي. أس. لويس: «أصبح الناسُ علماء لأنَّهم توقَّعوا وجود قانون في الطبيعة، وسبب توقُّعهم وجود القانون:

---

(١) ميلفن كلفن (Melvin Calvin): بروفسور الكيمياء الحيوية الأمريكية، وحاز على جائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٦١م. توفي عام: ١٩٩٧م.

https://www.britannica.com/biography/Melvin - Calvin

(2) Chemical Evolution (258), by: Melvin Calvin, (Clarendon Press, 1969)

إيمانهم بوجود واضع للقانون»[1]. وقال البروفسور جون لينوكس معلّقًا على هذا الكلام: «وبسبب هذا الاعتقاد قام فرنسيس بيكون... - الذي يعتبر مؤسِّس العلم التجريبي الحديث - بتعليم الناس أنَّ الله قدَّم لنا كتابين: كتاب الطبيعة، والكتاب المقدَّس، وعلينا حقيقة أن ندرس كلا الكتابين بطريقةٍ ملائمة، وأنْ نُعمل عقولنا في دراستهما معًا. وكثير من رجالات العلم التجريبي يوافقون على هذا الطرح [وذكر بعض الأسماء] فكلُّهم مؤمنون بوجود الله، ومعظمُهم مسيحيون، ولم يعقْهُم إيمانهم عن عملهم في العلم التجريبي، بل كان الدافعَ الرئيس للاكتشافات العلمية غالبًا، ولم يكونوا يخجلون من التصريح بهذا»[2].

فخلاصةُ هذه النقول أنَّ العلم التجريبي مؤسَّس على الإيمان بالله، ولم يرَ كبارُ العلماء التجريبيّين عبر التاريخ أنَّ هناك تنافيًا بين العلم التجريبي والإيمان بالخالق والغيبيات. ولكنَّ المنهج العلمي قد اختُطف من قبل الملاحدة الماديين حيث جعلوا المذهبَ المادي شرطًا أساسيًّا في الاكتشاف العلمي.

ومهْما تظاهر الملاحدةُ الماديون بالانتساب إلى العلم التجريبي وتعظيمه، فإنَّ المذهب المادي يتناقض معَ الواقع والحقيقة؛ فهناك أدلة كثيرةٌ لا تعدُّ ولا تحصى تشير إلى وجودِ موجودات وراءَ هذا العالم المادي. وأعظمُ ما تشير إليه الطبيعة المخلوقة أن هناك خالقًا خلقَها. وفي البابِ الثاني مِن هذه الرسالة ستأتي - إنْ شاء الله - عدَّة مباحث متعلِّقة بذلك. والمقصودُ من هذا المبحث أنَّ الأدلة العلمية التجريبية تبطل المذهبَ المادي، وتدلُّ على وجود غيبيّات لا يمكن تفسيرُها بالمنهج العلمي المبني على هذا المذهب. وقد بيَّن علماءُ الغرب هذه المسألة بوضوح، وذكروا أنَّ الأسس والمبادئ التي قامَ عليها المذهب المادي مخالفة للواقع والحقيقة. ويريد هؤلاء العلماء أن يُرجعوا العلم التجريبي إلى أصلِه الذي كان عليه قبل أن يختطفه الملاحدة الماديون.

---

(1) Miracles: a preliminary study (110)

(2) God's Undertaker (21)

وأفضلُ مَن رأيته يهتمُّ بهذه القضية هو الدكتور روبيرت شيلدرايك[1]؛ فقد اهتمَّ شيلدرايك اهتمامًا كبيرًا بالتجارب التي تنقضُ المذهب المادي، وألَّف عددًا من الكتب والأبحاث والمقالات العلمية في هذا المجال، ومن أهمّها كتابه: «وهم العلم التجريبي» (The Science Delusion)، وذكرَ أنَّ العلماء الماديين المعاصرين لديهم عدد من المبادئ قد دلَّت التجاربُ العلمية على بطلانها، منها:

المبدأ الأوَّل: أنَّ جميعَ الكائنات الحيَّة في الأصل آليات؛ فالحيوانات مثل: الكلاب آليات معقَّدة، وليست عضويات لها أهدافٌ في حياتها. والناس آليات ذات أدمغة تشبه حواسبَ مبرمجة وراثيًّا.

المبدأ الثّاني: أنَّ المقدار الكلِّي للمادة والطاقة لم يتغيَّر (إلّا في حالة الانفجار العظيم، حينما ظهرت جميع المادة والطاقة فجأة).

المبدأ الثّالث: أنَّ قوانين الطبيعة ثابتة؛ فهي اليوم كما كانت في الأزل.

المبدأ الرّابع: أنَّ كلَّ مادة غيرُ واعية، وحتى وعي الإنسان وهمٌ أنتجته العمليات المادية في الدماغ.

المبدأ الخامس: أنَّ الطبيعة ليست ذات هدف، والتطوُّر لا يسير نحو غاية.

المبدأ السّادس: أنَّ الذاكرة مخزَّنة في آثار مادية في الدماغ، وتمحى عند الموت.

المبدأ السّابع: أنَّ الظواهر غيرَ المفسّرة علميًّا: مجرَّد وهم.

وحيث إنَّه أفضل مَن كتب عن هذه القضية - من وجهة نظري - فسوف تكون أكثرُ النقول عنه في هذا المبحث.

---

(١) روبيرت شيلدرايك (Rupert Sheldrake) عالم الأحياء من بريطانيا، وحامل شهادة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من جامعة كامبردج. ويهتمُّ بدراسة علم النفس الموازي. انظر: https://www.sheldrake.org/

- **المبدأ الأوَّل: كلُّ شيء في الأصل آليات:**

الفطرةُ والبداهة العقلية تدلَّان على أنَّ المخلوق لا بدَّ له من خالق، وهذا الأمر مستقرٌّ في نفوس بني آدم، وهو أمرٌ لا يخفى على الملاحدة. وللخروج عن هذه المعضلة يلجأ الملاحدة إلى حيلتين:

١) مغالطة تجسيد المجرَّدات لنسبة الخلق إلى مجرَّدات كالطبيعة.

٢) استخدام المجازات المضلِّلة كتسمية ما في الطبيعة بالآليات.

وكان إراسموس داروين(١) - جدّ مؤسِّس نظرية التطوُّر - ربوبيًّا، ويسعى للتقليل من شأنِ الخالق، ورفعَ مِن شأن الطبيعة في دراساته العلمية. وكان يعتقد أن الطبيعة قادرة على إيجاد أشكالٍ جديدة من الحياة(٢). وقد تأثَّر حفيده تشارلز داروين كثيرًا بهذه العقيدة في نسبةِ الخلق والإيجاد إلى الانتخاب الطبيعي؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك معلِّقًا على هذا الأمر: «العنوانُ الفرعي لكتاب: (أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي) لداروين هو: (بقاءُ الأعراق المفضلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة). وهذا مصدرُ الاختراع في داخل الحيوانات والنباتات، وقد تنوَّعت بنفسها وتأقلمت لأوضاعٍ جديدة. ولم يقدِّم داروين تفسيرًا لهذه القدرة الاختراعية. وفي الواقع، فإنه كان ينكر الإله المصمِّم للّاهوت الآلي (Mechanistic Theology)، وكان ينسب جميع أنواع الاختراع إلى الطبيعة، كما كان يفعله جدُّه. وكان داروين يرى أنَّ الطبيعة نفسها أقامت شجرةَ الحياة؛ فعنْ طريق خصوبتها المعجزة، وتنوُّعها

---

(١) إراسموس داروين (Erasmus Darwin): طبيب، وعالم نبات، وشاعر بريطاني. وقد وضع الأسسَ المادية لنظرية التطوُّر التي أظهرها حفيدُه تشارلز داروين. توفي عام: ١٨٠٢م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Erasmus - Darwin

(٢) انظر:

The Science Delusion (40 - 41)

المفاجئ، وقدرتها على الاختيار؛ استطاعت أن تفعل كلَّ شيء ظنَّ [وليام] بالي[١] أن الإله يقدر عليها»[٢].

قدْ نسب داريون قدرةَ الخلق إلى الطبيعة بتسميتها الانتخاب الطبيعي. وذلك مع أنَّه لم يلحظ أنَّ الانتخاب الطبيعي قد خلق شيئًا قط؛ قال الدكتور الملحد كولين باترسون[٣]: «لم يُنتج أيُّ أحدٍ نوعًا بواسطة الانتخاب الطبيعي، بل لم يقترب أحدٌ منه، ويدور معظمُ الجدال الحالي في إطار الداروينية الجديدة حول هذه المسألة»[٤]. فكيفَ ينسب إليه خلق جميع الكائنات الحيّة؟!

يعتقدُ الملاحدةُ الماديون أيضًا أنَّ ما في هذه الطبيعة – ومنها الإنسان – آليات؛ قال ريتشارد دوكينز: «نحن آلياتُ بقاء (Survival machines)، ولكن كلمة «نحن» لا تشمل البشرَ فقط. هي تشمل جميعَ الحيوانات، والنباتات، والبكتيريات، والفيروسات... نحن كلُّنا آلياتُ بقاء من أجل مكرّر (Replicator) واحد – وهي الجزيئات المسمّاة بـ«دي أن أي» – ولكنْ هناك طرقٌ مختلفة للعيش في هذا العالم، والمكرّرات قد صنعت ماكينات مختلفة لاستغلالها. القردة آلة تحافظ على الجزيئات في الأشجار، والسمكة آلة تحافظ على الجزيئات في الماء»[٥].

---

(١) وليام بالي (William Paley): قسيس أنجليكاني وفيلسوف بريطاني. اشتهر باهتمامه بدليل التصميم على وجود الله، وصنَّف فيه كتابًا بعنوان: اللاهوت الطبيعي. وقد قرأ داروين هذا الكتاب وتأثَّر به في أيام شبابه، ثمَّ رفضَ محتواه مع تبنيه نظرية التطوُّر. توفي بالي عام ١٨٠٥م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/William - Paley

(٢) المصدر السابق (٤٢)

(٣) كولين باترسون (Collin Patterson): عالم الإحاثة البريطاني، وحامل شهادة الدكتوراه في علم الحيوان، وعمل في متحف التاريخ الطبيعي في لندن. توفي عام: ١٩٩٨م. انظر:

https://www.nature.com/articles/29192

(4) Colin Patterson (Cladistics), Interview with Brian Leek, Peter Franz, March 4, 1982, BBC

(5) The Selfish Gene (22)

هذا الكلامُ يجري على ألسنة الملاحدة، ولكن ليس عليه دليلٌ تجريبي، بل هذه التَّسمية مجرَّد مجاز كما بيَّنه الدكتور روبيرت شيلدرايك بقوله: «إنْ جوبهوا، فإنَّ معظم الأحيائيين يعترفون أنَّ الجينيات إنما تحدِّد تسلسل الأحماض الأمينية في البروتينات، أو أنَّها متورِّطة في التحكُّم لتركيب البروتين. هي ليست برنامج، وليست أنانية، وهي لا تفسد المادة، أو تُكوِّن البنية، ولا تسعى للخلود... نظرية الحياة الميكانيكية تنحلُّ في مجازات وبلاغيات مضلّلة فقط»[1].

فهذه النقطةُ الأولى، وإن عُدَّت من الأساسيات في المذهب المادي، فإنه لا يعدو مِن كونها مِن المغالطات المنطقية والمجازات المضلِّلة عند الملاحدة، ولا تمتُّ للعلم التجريبي بِصِلة.

المبدأ الثّاني: المقدارُ الكلّي للمادة والطاقة لم تتغيَّر:

مِن العبارات المتداوَلة في دراسة العلوم: أنَّ المادة لا تُستحدَث ولا تفنى. وهذه العبارةُ في غاية الخطورة، وتؤيِّد المذهب المادي؛ و«إنَّ كثيرًا من الأساتذة يردِّدون هذه العبارة تقليدًا، وعنْ حُسن نيَّة، ولا يعرفون أنها إذا صحَّت بهذا الإطلاق تهدم الأساسَ الذي يقوم عليه الدينُ كلُّه، وتعتبر أكثرَ نصرٍ للفكر المادي. والطلاب بدورهم يحفظون العبارة ويردِّدونها ولا يفكِّرون في نتائجها الخطيرة. ما معنى هذه العبارة؟ إذا كانت لا تُستحدَث، أي لا تخلق، كما هو مصرَّح به في الصياغة الإنجليزية، فمعنى ذلك أنه لم يحدثها - لم يخلقها - أحد، أي إنَّ الله لم يخلقْها. ولكن هذا يتناقض مع إيماننا بأن: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الزمر:٦٢]. وإذا كانت لا تفنى فمعنى ذلك أنَّ أحدًا لا يستطيع إفناءها، وهذا يعني أنَّ الله - تعالى - لا يقدر على إفنائها؛ فكيف نوفِّق بين هذا وبين إيماننا بأنَّ الله على كلِّ شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء؟

---

(1) The Science Delusion (48)

المسألة إذًا واضحة، فإمّا أن تكون هذه العبارة المشهورة صحيحةً فيكون الدين باطلًا، وإمّا أن يكون الدينُ صحيحًا فتكون هي باطلة، ولا يمكن الجمعُ بين الإيمان بصوابها وبصواب القول بأنَّ للكون خالقًا»[1].

فهذه العبارةُ أخطرُ من النقطة السابقة لما تحمله من الأخطار العقدية. وهي مأخوذةٌ من الفلسفة المادية، وليس من التجارب العلمية؛ فهي باطلة من الناحية العلمية ومُقحمة في العلم من قبَل الماديين الملاحدة. وقد بيَّن علماءُ الغرب هذه القضية من أوجهٍ كثيرة، هذه ثلاثة منها:

الوجهُ الأوَّل: على فرْض التسليم لهذا المبدأ فهو ليس مبدأً كليًّا. وذلك أنَّ معظم علماءِ الكونيات المعاصرين يعترفون أنَّ للكون بداية، وأنَّ المادة ظهرت من لا شيء. وإنْ كانت المادة ظهرتْ من لا شيء فمعنى ذلك أنها حدثت بعدَ أنْ لم تكن موجودة؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «معنى نظرية الانفجار العظيم أنَّ جميع المعادلات انتهكتْ في المفردةِ الأوَّلية للانفجار العظيم. لا يمكن أن يكون هناك حفاظٌ على المادة والطاقة إنْ ظهر الكونُ من لا شيء»[2]. فهذه القاعدةُ العامَّة لديهم لا بدَّ لها من استثناء، وبداية الكون من المفرَدة الأولية تخالف هذه القاعدة تمامًا.

الوجهُ الثّاني: قد وجدَ علماءُ الفيزياء الفضائية أنَّ المادة إنما تشكِّل ٤ ٪ من هذا الكون المشاهَد. وما يسمَّى بالمادة المظلمة[3] (Dark Matter) تشكِّل ٢٣ ٪ من الكون، والطاقة المظلمة[4] تشكِّل ٧٣ ٪ منه. والإشكالية أنَّ العلماء لا يعرفون

---

(١) الفيزياء ووجود الخالق (٧٧ – ٧٨)، للدكتور جعفر شيخ إدريس.

(2) The Science Delusion (65)

(٣) المادة المظلمة (Dark matter): مادة مراوغة تتخلل أرجاء الكون، وتتسبَّب في تأثيرات تجاذبية عديدة قابلة للرصد، لكنها تستعصي على عمليات الرصد المباشر. انظر:
https://www.scientificamerican.com/arabic/articles/from-the-magazine/what-is-dark-matter1/

(٤) الطاقة المظلمة (Dark Energy): أحد مكونات الكون التي يتمُّ تمييزُ وجودها من خلال جاذبيتها بدلًا من لمعانها. انظر: https: / /www.britannica.com /science /dark – matter

في الحقيقة ما هي المادة المظلمة ولا الطاقة المظلمة. ومعنى ذلك أنَّ العلماء لا يعرفون ما يتشكَّل منه الكونُ سوى جزءٍ ضئيل جدًّا[1]. وهذه المعلومات عن مكوِّنات الكون لم تظهر إلا متأخِّرًا، وذلك بعدَما صيغ قانونُ حفظ المادة والطاقة؛ قال الدكتور ريبيرت شيلدرايك: «ما هي علاقةُ المادة المظلمة والطاقة المظلمة بالمادة والطاقة العادية؟ وما حقل الطاقة عندَ نقطة الصفر المعروف بالفراغ الكمِّي؟ هل يمكن استغلال الطاقة عند نقطة الصفر؟ قد تمَّت صياغةُ قانون حفظ المادة والطاقة قبلَ أن تطرح هذه الأسئلة، وليس عنده إمكانيةُ الإجابة عليها. هذا القانون مبنيٌّ على نظريات فلسفية ولاهوتية»[2].

فهذا القانونُ بهذا الإطلاق مبنيٌّ على مواقف فلسفية ولاهوتية، وليست مبنية على العلمِ التجريبي، وبذلك يخالف الملاحدةُ المنهجَ العلمي الصحيح. وإذا كان الأمرُ كذلك فلا يمكن الجزمُ بهذا القانون؛ قال الدكتور ريبيرت شيلدرايك: «كيف يمكن لأي أحدٍ أنْ يجزم بأنَّ المقدار الكلي للمادة والطاقة لم يتغيَّر في ضوء علم الكون الحديث؟ كما رأينا، فإنَّ النوع المقياسي من المادة والطاقة الذي يفترض أن ينطبق عليه قوانين الحفظ إنَّما يمثِّل جزءًا ضئيلًا للمقدار الكلي من المادة والطاقة. أكثرُ الكون يتكوَّن من المادة والطاقة المظلمة الافتراضية التي تبقى علاقتهما بينهما وبين المادة والطاقة المعروفة غامضة»[3].

الوجهُ الثّالث: قد اكتشفَ علماءُ الكون في القرن العشرين أنَّ الكون يتوسَّع، وأن المجرَّات يبتعد بعضُها عن بعض. وإن كان الكون يتوسَّع فلا بدَّ أنْ تستحدث مادةٌ وطاقة جديدة في كلِّ حين، ولا يمكن أن تكون المادة والطاقة ثابتة في الأزل؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «في أكثر النماذج النظرية يفترض أنْ تكون الطاقة المظلمة في الكون ثابتة؛ وبتعبيرٍ آخر، مقدارُ الطاقة المظلمة باقٍ على حاله. ولكنَّ الكون يتوسَّع، وتزداد كمِّيته. وبالتالي فإنَّ المقدار الكلِّي للطاقة المظلمة في الكون

---

(١) انظر: The Science Delusion (56, 67 - 68)

(٢) المصدر السابق (٥٦)

(٣) المصدر السابق (٦٩)

يزداد. المقدار الكلِّي للطاقة المظلمة لم يبقَ على حاله في الأزل. بخلاف الزَّعم أن الكون تنفذ منه طاقته، فإنَّه الآن أشبهُ ما يكون بآلية دائمة الحركة، ويتوسَّع بسبب الطاقة المظلمة، وتُخلق طاقة مظلمة جديدة بتوسُّعه»[1].

فيتبيَّن من هذه الأوجهِ الثلاثة أنَّ قانون حفظ المادة والطاقة ليس على إطلاقه، ولهذا لا يمكن أن يستدلَّ به الملاحدة على أزلية المادة.

المبدأ الثّالث: قوانينُ الطبيعة ثابتة:

أكثرُ العلماء اليوم يعتقدون أنَّ قوانين الطبيعة ثابتة، فهي اليوم كما كان في الأزل، ولم يطرأ عليها أيُّ تغيير.

ورغمَ ما يتظاهر الملاحدةُ الماديون من إنكار الغيبيات، فإنَّ هذا المبدأ في الحقيقة مبدأ غيبي؛ فلا «تخلو الممارسةُ في فرعٍ من فروع العلم الطبيعي، أو حتى جزئية من أصغر جزئياته من فرضٍ غيبي أو أكثر، بدون هذه الفروض لا يمكن أن تسير عجلةُ العلم الطبيعي، في كثيرٍ من العلوم التطبيقية تكون تلك الفروض مسلَّمة من الجميع دون إشكالٍ داخلي في نفس الافتراضات... لكنَّ العلوم التي يكون فيها شقٌّ تاريخي مثل: علوم الأحياء (Biology) والكونيات (Cosmology) ودراسة طبقات الأرض (Geology) وما شابه، أحيانًا تكون هذه العلوم مبنيَّة على افتراضات مُشكلة وغير مسلّمة في ذاتها، وبالتالي تغْدو هذه الافتراضات ملزمةً للمادي الملحد الذي يزعم عدمَ وجود مصادرات في العلم الطبيعي، يكون العلمُ بها مفيدًا للموحِّد حتى لا ينساق وراء استنتاجات الملحد ناسيًا الافتراضاتِ المشكلة غير المسلّمة التي ينطلق منها الملحد ولا يستطيع إثباتها.

على سبيل المثال، خذْ مبدأ التماثلية (Uniformitarianism) والذي من خلاله يدرس العلم لطبيعي الكونَ بناءً على ثباتِ قوانين عمل الطبيعة زمانيًّا ومكانيًّا، فقوانينُ الطبيعة تعمل على نفْس الشكل في الماضي والحاضر والمستقبل، والإنسان لم يوجد

---

(١) المصدر السابق (٧١)

بالخلق المباشر، وإنما يجبُ دراسة وجوده الأوَّل وفقَ قوانين الطبيعة، التي أنتجت الإنسان تطوّرًا مِن كائنات سابقة عليه. وهذه الجبالُ والبحار والقارات وما شابه، ليس للأمر الإلهي دخلٌ في تكوُّنها، وإنما هي نتيجةُ عملٍ دائم لقوانين الطبيعة منذ قديم الأزمان. هذا مبدأ حاكم على العلوم التي تدرس الطبيعة والإنسان في التاريخ»[(١)].

فهذا المبدأ في غايةِ الأهمية للملاحدة الماديين، ولا يمكنهم الوصول إلى نتائجهم العلميَّة في العلوم ذات شقٍّ تاريخي إلّا بناء على هذا المبدأ. وقد ردَّ الدكتور ريبيرت شيلدرايك على هذا المبدأ من عدَّة أوجه، هذه ثلاثة منها:

الوجهُ الأوَّل: وهذا المبدأ نظريٌّ فلسفي، وليس مبنيًّا على التجار العلمية؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «بالطبع، فإنه مبدأ نظري، وليس ملاحظة تجريبية. بناءً على دراساتٍ راسخة خلال مائتين أو ثلاثمائة سنة، كيف يمكننا التأكُّد أنَّ القوانين كانت سوف تكون ثابتة في كلِّ مكان؟»[(٢)]. فمهْما أوهمَ الملاحدة أنهم يتبَّنون المنهج العلمي فإنَّ هذا المبدأ - الذي هو من أساسيات منهجهم العلمي - ليس مبنيًّا على تجاربَ علمية، بل هو مبني على فلسفة.

الوجهُ الثّاني: اعتقادُ وجود قوانين الطبيعة يتناقض مع عقيدة الملاحدة؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «أصلُ الفكرة أنه يوجد قوانين للطبيعة مبنية على المركزية البشرية (Anthropocentric)؛ فلا يوجد قوانين إلّا عند البشر. وعند المؤسِّسين للعلم الحديث كان القانون مجازًا مناسبًا لأنهم اعتقدوا أنَّ الإله كان حاكمًا على الكون، ويسْري أمرُه في كلِّ مكان، وكان علمُه المحيط يعدُّ المصدرَ للقوانين في الكون، وأن قوانينَ الطبيعة كانت خططًا خالدة في عقل الإله الرياضي (Mathematical God)»[(٣)]. ولكنْ عند الماديين فلا يوجد إلهٌ ولا ذكاء فائق، الذي يمكن أن يستمدَّ منه هذه القوانين.

---

(١) الإلحاد وثوقية التوهّم وخواء العدم (٤٨ - ٤٩).

(2) The Science Delusion (84)

(٣) هذه العبارة من العبارات المجملة التي يستخدمها بعض الغربيين في حقّ الله، ولا ينبغي للمسلمين استعمالها.

فأيْنها إذن؟ ولماذا لا تزال عندها الصفاتُ التقليدية للإله؟ لماذا هي شاملة، ثابتة، ولديها القدرة الكلِّية؟ ولماذا هي فائقة على المكان والزمان؟»(١).

كلُّ هذه الأسئلة لا يستطيع الملاحدةُ الإجابة عنها. فهي تقدحُ في أصل العقيدة الإلحادية، وتدلُّ على تناقضها.

الوجهُ الثّالث: قد أثبتتِ التجارب أنَّ قوانين الطبيعة متغيّرة وليست ثابتة. العلماء يتحدَّثون عن عددٍ من الثوابت الفيزيائية (Physical Constants)، وأهمُّ وأشهر هذه الثوابت: ثابتُ الجاذبية العالمية (Universal Gravational Constant) لنيوتن. وقد أثبتت التجاربُ العلمية أنَّ هذا الثابت متغيِّر؛ فخلالَ التجارب بين عام ١٩٧٣ و٢٠١٠ م. ثبتَ أنَّ أصغر قيمة له هو ٦,٦٦٥٩ وأكبرها كانت ٦,٧٣٤، والفرق بين القيمتين: ١,١ ٪(٢)، وهو عددٌ ليس بقليل. فإذا تبيَّن أنَّ الفرق في هذه الفترة القصيرة - ٣٧ عامًا -، فكيف نعرف أنَّ الفروق ليست أكبر خلال آلاف السنين التي لم تتمّ ملاحظة هذا الثابت؟!

ومثالٌ آخر هو سرعةُ الضوء، فقد تمّت ملاحظتُه عام ١٩٢٧م، أنها: ٢٩٩,٧٩٦ كيلو في الثانية، ثمَّ نقصت السرعة بـ ٢٠ كيلو بين ١٩٢٨ إلى ١٩٤٥، ثمّ زادت من جديد ٢٠ كيلو في الأربعينيات من القرن المنصرم(٣).

وهذان المثالان مِن الأمثلة الكثيرة في هذا المجال، وهذا يبطل مبدأ التماثلية من أصلِه، ولا يمكن الاعتمادُ عليه باليقين في العلوم التجريبية ذات الطابع التاريخي.

المبدأ الرّابع: الطبيعةُ ليست ذات هدف:

إنَّ الله - سبحانه وتعالى - خلقَ هذا الكون وما فيه لحكمةٍ وهدف وغاية؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الحجر:٨٥]. ونفى - سبحانه وتعالى - أنَّه خلق شيئًا عبثًا بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[سورة ص:٢٧]. وهذا ما يعتقده جلُّ

---

(1) The Science Delusion (84)

(٢) انظر: المصدر السابق (٩٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (٩٢).

العلماء المتديّنين، سواء أكانوا مسلمين أم غير المسلمين، مثل: كثير من فلاسفة اليونان والنصارى. ويسمَّى هذا الاعتقاد في الفلسفة بالغائية (Teleology).

وكان العلماءُ المؤسِّسون للعلم الحديث يقرُّون بوجود هذه العلل في المخلوقات، ويروْن أنَّها من أعظم الأدلة على إبطال الإلحاد؛ قال اللورد كالفن[١]: «نجد أدلة دامغةً وقويَّة على وجود التصميم الذكي والهادف حولنا... وعلى هذا، فالفكرة الإلحادية سخيفةٌ لدرجة لا يمكنني التعبيرُ عنها بالكلمات»[٢].

وأمّا الملاحدةُ الماديون المعاصرون فإنَّهم ينكرون أنَّ الكون مخلوق، وبالتالي ينكرون الغائية؛ قال ريتشارد دوكينز - على سبيل المثال: «الكون الذي نشاهده توجد فيه الخصائصُ التي نتوقَّعها. هو في الحقيقة **بلا تصميم، ولا هدف**، ولا شرٌّ ولا خير، ولا شيء سوى اللامبالاة القاسية»[٣]. فربطَ بينَ إنكاره للتصميم وإنكاره أنَّ للكون غاية وهدفًا.

وهذا الإنكارُ مبنيٌّ على تبنِّيهم للإلحاد ونظرية التطوُّر؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «الفلسفة الآلية (Mechanistic Philosophy) ألغت العلل الغائية، وأصبحت الطبيعةُ خالية من أيِّ هدف. وطلاب الأحياء يتعلَّمون أن يؤوِّلوا الأهداف بتفسيرات مِن نظرية التطوُّر الحديثة؛ فليس الهدفُ من العين أن تبصر؛ وإنما هي نتيجة للصدفة، والطفرات الجينية، والانتخاب الطبيعي. وقد تطوَّرت الأعين لتمكين الحيوانات من الرؤية للنَّجاة والتوالد أكثرَ من العضويات التي لم تتمكَّن من ذلك»[٤].

---

(١) اللورد كلفن (Lord Kelvin): واسمه الحقيق: وليام توماس. المهندس، وعالم الرياضيات والفيزياء البريطاني. وقد صاغ بعض القوانين العلمية المشهورة وأثّر كثيرًا في العلماء بعده. توفي عام: ١٩٠٧م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/William - Thomson - Baron - Kelvin

(2) ()Journal of Victoria Institute, vol. 124, p. 267

(3) River out of Eden (133)

(4) The Science Delusion (131)

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا الموقف من عدَّة أوجه، هذه ثلاثة منها:

الوجهُ الأوَّل: هذا الموقف ليس مبنيًّا على براهين علمية، وإنما تبنّى الملاحدةُ هذا الموقف لإبقاء مذهبهم المادي على قيْد الحياة؛ فهو موقفٌ فلسفي، وليس موقفًا مبنيًّا على المنهج العلمي والتجارب العلمية؛ قال الدكتور سيلدرايك: «هل العملية التطوّرية بأكملِها لها أهدافٌ وتجاذبات؟ الماديون يقولون: لا، بناءً على مبدئهم. هذا النفي نتيجةٌ حتمية تاريخية لفلسفتهم المادية. إنكارُ الماديين لغايات في التطوُّر ليست مبنية على أدلَّة، وإنما هي فرضية. الماديون يضطرُّون إلى نسبة الابتكار التطوُّري إلى الصدفة بناءً على أسس أيديولوجية»[١].

الوجهُ الثّاني: الملاحدةُ الأحيائيون يتناقضونَ في هذا الباب، حيث أنَّهم من أشدِّ الناس بحثًا عنِ العلل في المخلوقات في عملهم معَ تظاهرهم بإنكارها بسبب فلسفتهم المادية؛ قال الدكتور سيلدرايك: «أكثرُ الأحيائيّين متحيِّرون بين قبولهم العملي للغائية وبقاء النّافع[٢] من جهة، وردِّهم لها في سبيل أيديولوجيتهم الآلية. ففي أكثرِ علم الأحياء الحديث يبقى الموضوعُ مُتشابكًا في خلطة محيِّرة بين خطاب غائي وإنكار وَرع»[٣]. يعني أنَّهم يعترفون بالغائية في عملهم التطبيقي في العلم التجريبي، ولكنَّهم يتظاهرونَ بالورع أمامَ زملائهم بإنكارها ليتناسبَ مع عقيدتهم المادية. فهذا دليلٌ على مخالفةِ الملاحدة لما يدلُّ عليه الأدلة العلمية، وأنَّهم ينساقون وراء فلسفتهم المادية الإلحادية.

الوجهُ الثّالث: رغمَ ما يتظاهر به الملاحدةُ الماديون من إنكار التصميم والغائية، فإنَّ المخلوقات كلَّها تصرخ أنها مصمَّمة وذات هدف. والأدلةُ على ذلك كثيرة.

---

(١) المصدر السابق (١٤٨)

(٢) بقاء النافع (Teleonomy): مصطلح في علم الأحياء، وهو مبدأ يقول إن هياكل ووظائف الجسم تخدم غرضًا شاملًا، مثل ضمان بقاء الكائن الحي. انظر:
https://www.dictionary.com/browse/teleonomy

(٣) المصدر السابق (١٣٢)

وأقوال علماء الغرب عن هذه المسألة لا تعدُّ ولا تحصى. ولكن، لوضوحِ هذه المسألة للقاصي والدّاني تزل ألسنةُ الملاحدة في بعض الأحيان باعترافاتٍ عن دلالة المخلوقات على التَّصميم والغائية. ومِن الأمثلة على ذلك قول ريتشارد دوكينز: «الكائنات الحية تبدو مصمّمة، إنَّها تبدو بشكل غامر كما لو أنَّها مصممة»(١). ويعرِّف علم الأحياء بأنه: «دراسة الأشياء المعقَّدة التي تعطي انطباعًا بأنها صممت من أجل هدف»(٢). فسبحان مَن طبع على قلوب أعدائه فهُم لا يعقلون!

المبدأ الخامس: كلُّ مادة غير واعية:

المذهبُ المادي الوجودي مبنيٌّ على أنَّه لا يوجد شيء سوى المادة. والمادة في الأصل غيرُ واعية، ومع ذلك فإنَّ الإنسان ذو عقل واعٍ. وهذا الأمر من أكبرِ التَّحديات للمذهب المادي الوجودي على الإطلاق، ألا وهو تفسيرُ الوعي وفق هذا المذهب.

كان العلماء التجريبيون في السابق يعتقدونَ أنَّ الإنسان مكوَّن من الروح والجسد، وهوَ ما يسمَّى بمذهب الثنائية (Dualism). ولكنْ معَ إقحام المذهب المادي في العلوم أبعدَ الملاحدة الماديون الحديثَ عن الروح، وحاولوا تفسيرَ الوعي كلّه عن طريق المادة. ومِن الأمثلة على أقوالهم في هذا الباب، ما سبقَ من قول الملحد المادي فرانسيس كريك: «أنتَ وسرورك، وحزنك، وذكرياتك، وطموحاتك، وشعورك بهويتك الشخصية، وإرادتك الحرة، ليس بالواقع سوى سلوك لتجمُّع شاسع من الخلايا العصبية وجزئياتها المرافقة»(٣). وقد ردَّ علماءُ الغرب على موقف الملاحدة الماديين من الوعي ردودًا عديدة، منها الأوجه الثلاثة الآتية:

الوجهُ الأوَّل: موقفُ الملاحدة الماديين من المذهب الثنائي ليس مبنيًّا على التجارب العلمية، بل هو موقفٌ فلسفي لاهوتي محض؛ قال داعي الإلحاد دانيال

---

(1) Royal Institution Christmas Lectures, 1991

(2) The Blind Watchmaker (1)

(3) The Astonishing Hypothesis: (3)

دينيت: «أنا أتبنَّى ما يظهر أنه موقفٌ دوغماتي: أنه لا بدَّ من اجتناب مذهب الثنائية بأي ثمن. وليس الأمرُ أنَّني أظنُّ بأنني أستطيع أنْ آتي بأدلةٍ دامغة في دحض هذا المذهب بجميع أشكاله، وبيان أنَّه باطل ومتناقض. ولكن مذهب الثنائية محاطٌ بالغموض، فتبنّي هذا المذهب أشبه ما يكون بالتنازل لهم»[1].

إذًا، رفضُ الثنائية ووجودُ الروح موقف دوغماتي متزمِّت عقائديًّا، وليس مبنيًّا على التجارب العلمية.

ومِن حجج الماديين في هذا الباب، أنه لا يمكن إجراءُ تجارب علمية على الروح، كما يمكنُه على الدماغ مثلًا. ولا غضاضةَ في ذلك؛ لأنَّ الله أخبرنا أن الروح من أمره إذ قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[سورة الإسراء:٨٥]. فالروح ليست مِن العالم المادي المعتاد الذي يمكنه إجراء التجارب عليه. ومع ذلك، فإنه لا يمكن إنكارُ وجود الروح بالعلم التجريبي؛ لأنَّ القاعدة العقلية تقول: النفي يحتاج إلى دليل كما أنَّ الإثبات بحاجةٍ إلى دليل. ولا دليل علميًّا على إنكار الروح. ولكنّه قد ثبت بالعلم التجريبي أنَّ المذهب المادي قاصر عن تفسير وجود الوعي بمفرده. فالمادة غير واعية، والإنسانُ لديه وعي؛ فلا يمكن أن نستمدَّ تفسيرَ الوعي من المذهب المادي، بل لا بدَّ من تفسيره بما هو غير مادي كالروح.

الوجهُ الثّاني: المذهب المادي آيسٌ من تفسير الوعي في الإنسان، وجميع محاولاتهم باءتْ بالفشل، حتى قال البروفسور يتر غيتش: «عندما نسمع عن محاولة جديدة لتفسيرِ التفكير المنطقي من ناحية طبيعية، فإنه ينبغي أن تكون ردَّة فعلنا كما لو أننا أخبرنا بأنَّ شخصًا ما قد استطاع أن يجعل الدائرة مربّعًا»[2].

وأمّا القائلُ بالثنائية فإنه يستطيع أن يفسِّر الوعي، لأنَّه يعتقد أن الإنسان مكوّن من الروح والجسد، وإذا خرجتِ الروح من جسد الإنسان عندَ الموت فلا يبقى له وعي

---

(1) Consciousness Explained (37), by: Daniel Dennett, (Little, Brown, 1991)

(٢) The Virtues (52)، نقلته بواسطة كتاب: الحقيقة الإلهية (١٠٢).، لحمزة أندرياس تزورتزس.

- الذي كان عنده في الحياة الدنيا - وإنْ كان الجسد موجودًا وسليمًا. ولا يعاب القائل بالثنائية أنَّ مذهبه محاطٌ بالغموض من الناحية العلمية كما عبَّر عنه دانيل دينيت، لأنْ يقصد الغموض من الناحية العلمية المبنية على المذهب المادي. وقد تبيَّن مِن عجز المذهبِ المادي في تفسير الوعي أنَّه لا مجال لهذا المذهب في تفسير الوعي أصلًا. فمسألةُ الوعي نفسها فيها غموض، سواء للقائل بالمذهب المادي أو مذهب الثنائية. ولكن حيث بطلَ المذهب المادي لم يبقَ مجالٌ إلّا القول بمذهب الثنائية، فثبت أنَّه الصحيح، والمذهب المادي باطل.

الوجهُ الثّالث: قد دلَّتِ التجاربُ العلمية على إبطال التفسير المادي للوعي وحصرِه في الدماغ. والأمثلة على هذه التجارب كثيرة، ولكن أشهرها ما يسمّى بـالكشف عن التحديق (The Detection of Stares). خلاصة هذه المسألة أن الإنسان يشعرُ في نفسه بأنَّ إنسانًا آخر يحدِّق البصر فيه، ولو كان عنْ بُعد. وخلال الاستبانات في أوروبا وشمال أمريكا تبيَّن أنَّ بين ٧٠ ٪ و٩٧ ٪ من الكبار والصغار أحسّوا بهذا الشُّعور[١]. وفي مقابلات مع ضبَّاط المراقبة في الشرطة والقنّاصة في الجيش أخبروا أنهم يلاحظونَ هذا الشعور فيمَن يراقبونه أو يريدون قنصَه. وهكذا الأمر عند المشاهير أيضًا، فقدْ يحاول الإعلاميون التقاطَ صورهم عن بُعد، فيلتفتُ المشاهير إلى الكاميرات وينظرونَ إليها كأنَّهم يشعرون بأنَّ الإعلاميين يريدون التقاط هذه الصور[٢].

وهذا الشعورُ وموافقته للحقيقة لا يمكن تفسيرُه أبدًا عن طريق المذهب المادي الذي يحصرُ مقدرةَ الإنسان العقلية في الدماغ فقط. فكيف يشعر دماغُ الإنسان بأنَّ آخر يحدِّق البصر فيه عن بُعد، ويكون مصيبًا في هذا الشعور، وليست هناك صلة مادية بين الاثنين؟

(١) انظر: The Science Delusion (222)

(٢) المصدر السابق (٢٢٣).

المبدأ السّادس: الذاكرةُ مخزَّنة في آثار مادية في الدماغ:

مبدأ الماديّين أنَّ وعي الإنسان منحصرٌ في الدماغ يوصل إلى مبدأ آخر، وهو أن ذاكرةَ الإنسان مخزَّنة في جينيات الدماغ فقط؛ قال البروفسور الملحد المادي ستيفن روس[١]: «الذاكرةُ تكون بطريقةٍ ما في الوعي، وبالتالي فلا بدَّ أن يكون في الدماغ حسبَ ما يراه الأحيائي. ولكن، كيف ذلك؟ لا بدَّ أن يشمل لفظ الذاكرة عمليتين مستقلَّتين: لا بدَّ من ناحية أن يشمل كلّ شيء جديد نتعلَّمه عن العالم حولنا. ومن ناحية أخرى، يشمل بعدَ ذلك استرجاع أو تذكُّر هذا الشيء. نحن نستنتج أن ما يبقى بينَ التعلُّم والتذكُّر لا بدَّ أن يكون في سجلٍّ دائم، وهو أثر تذكّري (Memory Trace)، في داخل الدماغ»[٢].

هذا المبدأ مهمٌّ للملاحدة الماديين؛ لأنَّهم يستدلُّون به على إنكار الحياة بعد الموت. وذلك أنَّهم يقولون: إنَّ الإنسان إذا مات وتعفَّن دماغه لا يبقى شيء من ذاكرته؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «نظريةُ الماديين سهلة. الذاكرة تكون داخل الدماغ؛ والدماغُ يضمحلُّ عندَ الموت؛ فبالتالي تمحى الذاكرة للأبد. فهل هناك دليلٌ أقوى للمُلحد على حماقةِ الاعتقاد الديني مِن هذا الدليل؟ جميعُ النظريات الدينية للحياة بعد الموت تكون مستحيلة، لأنَّها تعتمد على بقاء الذاكرة الخاصة للإنسان بعد الموت، وهي تمحى عندما يتعفَّن الدماغ»[٣].

---

(١) ستيفن روس (Steven Ross) بروفسور علم الأحياء البريطاني والمتخصِّص في علم الأعصاب. انظر:

https://www.npg.org.uk/collections/search/person/mp93737/steven-peter-russell-rose

(2) Memories and Molecules, New Scientist, (112/40), by: Stephen Rose, (1986, 27:th November)

(3) The Science Delusion (210)

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا المبدأ من عدَّة أوجه، أهمها ثلاثة:

الوجهُ الأوَّل: الاعتقادُ أنَّ الآثار التذكُّرية موجودة مجرَّد فرضية، وليست هناك أدلة حسِّية تثبت ذلك رغمَ البحث الطويل عنها؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «المحاولاتُ في البحث عن الآثار التذكُّرية قد باءت بالفشل رغم أنها استمرّت لقرن، وكلَّف البحثُ عنها مليارات الدولارات. يرى الماديون التعهديون أنَّ هذا الفشل ليس دليلًا على أنَّ نظرية الآثار التذكّرية خاطئة، وإنما يدلُّ على أننا بحاجة إلى بذل مزيدٍ من الوقت والمال للبحث عن هذه الآثار التذكُّرية المتهرّبة»[1].

الوجهُ الثّاني: ليستْ مشكلة نظرية الآثار التذكُّرية أنَّ العلماء لم يعثروا على هذه الآثار إلى الآن فحسب، بل هناك مشكلةٌ منطقية لهذه النظرية؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «كثيرٌ من الفلاسفة المعاصرين قد أشاروا إلى أن نظرية الآثار التذكّرية تصطدمُ بمشكلة منطقية غير قابلة للحلِّ بعيدة عن المحاولات الفاشلة في العثور عنها. لكي يمكن أن تحصلَ مراجعة واسترجاع الآثار التذكّرية، فإنه لا بدَّ أن يكون هناك نظام الاسترجاع، وهذا النظامُ بحاجة إلى تحديد الذاكرة المخزَّنة الذي يبحث عنه. ولكي يتمكَّن من ذلك فإنه لا بدَّ أن يتعرَّف عليه. وهذا يعني أنه لا بدّ أن يكون لنظام الاسترجاع ذاكرة بنفسه. وبسببه يكون هناك تقهقرٌ فاسد: فإن كان نظامُ الاسترجاع بحاجةٍ إلى خزانة ذاكرة، فهو أيضًا بحاجةٍ إلى نظام الاسترجاع، وهكذا إلى ما لا نهاية»[2].

الوجهُ الثّالث: هناك مشكلة علمية لهذه النظرية أيضًا، وهي أنَّ الذاكرة تبقى لفترة طويلة، معَ أنَّ النظام العصبي مع جزيئيّاته متغيِّر. فكيف تبقى هذه الذاكرة لفترة طويلة معَ تغيُّر النظام العصبي؟ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «هناك مشكلة هيكلية أيضًا. الذاكرة قد تبقى لعشرات السنوات، ولكنَّ النظام العصبي ديناميكي دائم التغيّر، وكذلك الجزيئاتُ في داخله. وكما قال فرانسيس كريك: «تقريبًا جميع الجزيئات في

(١) المصدر السابق (١٨٨)

(٢) المصدر السابق (١٨٩)

أبدانها باستثناءِ الحمض النووي والموادّ الجينية تنقلب خلال أيام، أو أسابيع، وفي أقصى ما يمكنُ خلال أشهر. فكيف تخزِّن الذاكرة في الدماغ بحيث تبقى آثارها ذات مناعة من الانقلاب الجزيئي؟». وقد اقترح كريك آليةً معقَّدة بأن تستبدل الجزيئيات واحدًا تلو الآخر لكي يحافظَ على بنية خزانة الذاكرة عمومًا. ولكن لم يعثرْ على مثل هذه الآلية. وخلالَ عقود كانت النظريةُ السائدة أنه لا بدَّ أن الذاكرة تعتمد على تغيّرات في العلاقة بينَ الخلايا العصبية، وهو التشابك العصبي[1]. ولكن محاولة العثور على خزانات الذاكرة باءتْ بالفشل مرّة تلو أخرى»[2].

فهٰذه الأوجهُ الثلاثة تدلُّ على بطلان تفسير الملاحدة الماديين لحصر الذاكرة في الدماغ، وأنَّهم يخالفون المنهجَ العلمي في استنتاجاتهم. الذاكرة لها صلة بالوعي، وقد سبقَ أنه لا يمكن تفسيرُ الوعي وفقَ المذهب المادي، لأنه متعلِّق بالروح الذي ينكره الماديون.

وقد دلَّتِ النصوص الشرعية على أنَّ ذاكرة الإنسان تبقى بعد وفاته؛ فالإنسان يحاسبُ على أعماله في الآخرة، ويقرُّ بما فعل من الخير والشَّر. وهذه الأمور الغيبية لا يمكنُ تفسيرها وفقَ المنهج العلمي المادي إذ لا دخل له فيها.

المبدأ السّابع: الظواهرُ غير المفسَّرة علميًا: مجرَّد وهْم:

قد سبقَ في المبحث عنِ ردود علماء الغرب على المذهب المادي أن كثيرًا من علماءِ الغرب يهتمُّون بعلم النفس الموازي، وأنَّ هناك أبحاثًا علمية كثيرة تشير إلى أن هناك ظواهرَ روحية لا يمكن تفسيرُها بالمذهب المادي. وبالطبع، فإن الماديين يُقصون هذا النوعَ من العلم، ويسمُّونه: بالعلم الزائف[3]، وذلك لمخالفته منهجهم المادي.

---

(١) التشابك العصبي (Synapse): موقع انتقال النبضات العصبية الكهربائية بين خليتين عصبيتين (عصبونات) أو بينَ خلية عصبيةٍ وغدَّة أو خلية عضلية (المستجيب). انظر:

https://www.britannica.com/science/synapse

(2) The Science Delusion (189)

(٣) العلم الزائف (Pseudoscience): نظام من النظريات والافتراضات والأساليب يعتبر خطأً علميًّا.
انظر: https: / /www.merriam – webster.com /dictionary /pseudoscience

ولا شكَّ أنَّ هذا العلم له خطورته، وأنه أحيانًا يدخل في مسائل خطيرة مثل: مخاطبة أرواح الأموات. ولكن، الذي يهمُّنا مِن هذا العلم ما أثبته خلال التجارب من إبطالِ المذهب المادي. فالمسلمون يعتقدون أنَّ السحر له حقيقة وأنه مؤثّر. وذلك مع اعتقادهم الراسخ أنَّ السِّحر كفر، ولا يجوز عمله ولا تعلُّمه[1]. ولكن، كل حادثة من حوادثِ السِّحر دليلٌ واضح على إبطال المذهب المادي؛ لأنَّه لا يمكن تفسير السحر بهذا المذهب أبدًا. وكذلك لا يمكن للمذهب المادي تفسيرُ فكِّ السحر، وشفاء المسْحور بالرقية الشرعية، وغير ذلك. والشواهدُ من الواقع على أنَّ السحر قد أثَّر في أناس، وأنَّ كثيرًا منهم فكَّ عنهم السحر، وشُفوا بالرقية الشرعية؛ لا تعدُّ ولا تحصى.

والملاحدةُ لا ينكرون هذه الأمورَ في الغالب إلّا بناءً على عقيدتهم المادية. فهم لا ينظرونَ إلى الأدلة والشواهد أصلًا، بل يعدُّونها من الخرافة والعلم الزائف لمجرّد مخالفته لأيديولوجيَّتهم. والمفترض من العالم أنْ ينقاد للدليل، وما دلَّت عليه التجارب العلمية. ولهذا، فإنه قد يكونُ من النافع أن نستفيدَ من بعض ما دلَّت عليه التجارب العلمية في علمِ النَّفس الموازي لإبطال المذهب المادي. وذلك لهيمنةِ المذهب المادي على العلوم في هذا العصر، واغترار كثيرٍ من الناس بالمحسوسات، معَ ضعف يقينهم بالغيبيات. فإذا بُيِّن لهؤلاء المغترين أنَّ هناك علماء كثيرين أجروا تجاربَ علمية كثيرة تدلُّ على إبطال المذهب المادي؛ فإنَّه قد يكون دافعًا قويًّا على تخلّيهم عن هذا المذهب الفاسد.

وأنواعُ العلوم المندرجة تحت علم النفس الموازي كثيرة، أكتفي بمثالٍ واحد منها هنا، وهو: التخاطر[2]. وعلماءُ النفس الموازي يرجعون هذه الظاهرة إلى تفسيرات مختلفة. وهذا الأمرُ لا يهمُّنا كثيرًا، لأنَّ المسلم يعلم أن فكرة لدى

---

(١) انظر: المغني (٩/ ٣٤)، لموفّق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة (دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ).

(٢) التخاطر (Telepathy): التواصل المفترض بالأفكار والآراء عن غير طريق الحواس المعروفة. انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definitions /telepathy

الإنسان قد تنتقل إلى شخصٍ آخر عن غيرِ الطرق المعروفة لدى الإنسان. وقد يكون ذلك عن طريق الجنّ أو نوعًا من أنواع الكرامات، وغير ذلك. ومن الأمثلة على ذلك: القصة المشهور أن: «عمر بن الخطاب ﷺ بعث جيشًا، وأمَّر عليهم رجلًا يدعَى سارية. قال: فبينا عمر بن الخطاب يخطب الناسَ يومًا فأقبل يصيح، وهو على المنبر: «يا سارية الجبل! يا سارية الجبل!» فقدمَ رسولُ الجيش فسأله؛ فقال: يا أمير المؤمنين! لقينا عدوَّنا، فهزمونا، فإذا صائحٌ يصيح: يا سارية الجبل! يا سارية الجبل! فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزمهم اللهُ. فقيل لعمر: إنَّك كنت تصيح بذلك»[1].

وقد علَّق العلامة الألباني[2] (رحمه الله) على هذه القصة بقوله: «ومما لا شكَّ فيه أنَّ النداء المذكور إنما كان إلهامًا من الله تعالى لعمر، وليس ذلك بغريب عنه، فإنه «محدِّث» كما ثبتَ عن النبي ﷺ، ولكن ليس فيه أنَّ عمر كشف له حال الجيش، وأنه رآهم رأيَ العين، فاستدلالُ بعض المتصوفة بذلك على ما يزعمونه من الكشف للأولياء وعلى إمكان اطِّلاعهم على ما في القلوب؛ مِن أبطل الباطل، كيف لا وذلك من صفاتِ ربِّ العالمين المنفرد بعلم الغيب والاطِّلاع على ما في الصدور... على أنه لو صحَّ تسمية ما وقع لعمر (رضي الله عنه) كشفًا، فهوَ من الأمور الخارقة للعادة التي قد تقعُ من الكافر أيضًا، فليس مجرَّد صدور مثله بالذي يدلُّ على إيمان الذي

---

(١) تاريخ دمشق (٢٠ / ٢٥)، لعلي بن الحسن، المعروف بابن عساكر، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ ت. عمرو بن غرامة العمري)، وقد حسَّنه العلامة الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١١٠)، لمحمد ناصر الدين الألباني، (مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٥ - ١٤٢٢ هـ).

(٢) الألباني: هو أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي الألباني. العلامة، محدِّث العصر. تعلَّم على يد والده الفقهَ الحنفي. قد ألَّف مؤلفات كثيرة لا سيَّما في خدمة السنة؛ منها: سلسلة الأحاديث الصحيحة، وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة. توفي عام: ١٤٢٠ هـ. انظر: الكتاب المستقلّ عن سيرته: الإمام الألباني دروس ومواقف وعبر للدكتور عبد العزيز السدحان.

صدر منه، فضلًا على أنه يدلُّ على ولايته. ولذلك يقول العلماء إنَّ الخارق للعادة إن صدر من مسلمٍ فهو كرامة، وإلّا فهو استدراج»[1].

وهذا هو محلُّ الشاهد هنا. لا يهمُّنا كثيرًا تفسير هذه الظواهر الروحية، وإنما يهمّنا ثبوتُها، وأنها واقعةٌ للمسلم والكافر. وبين عام ١٨٨٠ م و ١٩٣٩م، قد قدّم علماءُ النفس الموازي ١٨٦ بحثًا علميًّا عن التخاطر، وتبيَّن خلال هذه الأبحاث أن حصوله فعلًا قد ثبت علميًّا. وبعد ذلك توالت الأبحاث العلمية في هذا المجال بالنتائج ذاتها[2]. وقد اهتمَّ أحدُ الصحفيين بهذا الأمر، وسمع أنه موجود بين شعب بوشمن في جنوب أفريقيا فسكنَ معهم فترة، فلاحظَ خلال فترة سكناه معهم أنهم كانوا يصطادون الحيوانات عن بُعد ٥٠ ميلًا من مخيَّمهم، وعندما رجعوا عرفَ قومهم بما اصطادوا عن طريق التخاطر[3].

ولا يستبعد أن يكون هذا الاتِّصالُ بينهم عن طريق الجنِّ؛ حيث يكثر ذلك بينهم[4]، ولكنَّ هذه الملاحظة التي قام بها هذا الصحفي وكتب عنها لا يمكن تفسيرها عنْ طريق المذهب المادي. وهذا هو المقصود في هذا الأمر.

وخلاصةُ هذا المبحث أنَّ المنهج العلمي المبني على المذهب المادي المتّبع لدى الملاحدة منهجٌ مخالف للواقع والبراهين العلمية. والمذهب المادي هو الأساس الذي لا يمكن أن يقوم الإلحادُ المعاصر إلّا عليه. وبسقوط هذا المذهب الفاسد يسقط الإلحادُ من أصله. وإن كان الملاحدةُ حقًّا يعظِّمون العلم التجريبي فعليهم أن يرجعوا إلى ما أسِّس عليه هذا العلم في الأوَّل من التوافق بين العلم التجريبي والإيمان بالخالق والغيبيات، وإلّا وقعوا في التناقض.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ١٠٢ - ١٠٣).

(٢) انظر: The Science Delusion (236)

(٣) المصدر السابق (٢٤٢).

(٤) انظر:
https://kwekudee-tripdownmemorylane.blogspot.com/2013/06/san-bush-men-people-world-most-ancient.html

المبحثُ السّادس
بيانُ الشُّرور المترتِّبة على الإلحاد

قد سبقَ في التَّمهيد مبحثٌ كامل عن خطورة الإلحاد، وتبيَّن أن الإلحاد يشكِّل خطورةً على العقيدة، والفطرة، والعقل، والعلوم، والأخلاق؛ بل على الإنسانية بأكملها. ولا داعيَ لإعادة الحديث عن ذلك هنا. والغرض من هذا المبحث هو بيانُ الشرورِ المترتِّبة على المجتمع من الإلحاد. والكتابة في هذا المبحث بحاجةٍ إلى دقَّة؛ لأنَّ الإلحادَ في الأصل فكرةٌ عدمية، وقلَّ ما يفعل الإنسان فعلًا - سواء أكان من الخير أم من الشَّر - باسْم فكرةٍ عدمية. وريتشارد دوكينز يركِّز على هذه القضية بعناية لأنَّه يتكلَّم كثيرًا عنِ الشرور المترتِّبة على الأديان، ثمَّ إذا وُجِّه إليه السؤال عن الشرور المترتِّبة على الإلحاد؛ فإنَّه يحاول تبرئته منها بهذه الحجة؛ فقد كتبَ بابًا في كتابه: وهم الإله بعنوان: «وما بالُ هتلر وستالين؟ ألم يكونَا من الملاحدة؟»[1]. وكتب فيه: «المهمُّ ليس في كون هتلر أو ستالين من الملاحدة، ولكن إذا كان الإلحادُ يؤثِّر في الناس بطريقة ممنهجة أن يفعلوا الشُّرور. وليس هناك أدنى دليلٍ على أنَّ ذلك قد وقع»[2]. وكتب أيضًا: «الحروب الدينية قامتْ باسْم الدين، وقد تكرَّر ذلك مرَّات عديدة في التاريخ بطريقةٍ مُخيفة. ولا أستحضرُ حربًا قامت باسْم الإلحاد. ولماذا يكون كذلك أصلًا؟... لماذا يخوض أحدٌ حربًا بسبب فقدانه للإيمان؟»[3].

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه التَّلبيسات وبيَّنوا العلاقة الحقيقية بين الإلحاد والشُّرور التي قامَ بها الملاحدة، بل أفردَ بعضُهم مؤلَّفات في هذه القضية. ومن أفضل الكتب في

---

(1) The God Delusion (308)

(٢) المصدر السابق (٣٠٩).

(٣) المصدر السابق (٣١٦).

هذا المجال هو كتاب: «اضطراب شخصية الملحد» (Atheist Personality Disorder) لجون جي باسكويني. فقد تميَّز هذا الكتاب بالتحليل النفسي والفلسفي لشخصيةِ الملحد، وربطَ هذا التحليل بالشرور الواقعة في المجتمعات التي يكثر فيها الإلحادُ واللادينية. وبيَّن هذه الشرور بالإحصائيات والأرقام بطريقة مُقنعة. وبسبب تميُّز هذا الكتاب سوف تكون أكثرُ النُّقول في هذا المبحث عن هذا الكتاب.

وبيانُ هذه المسألة يكون في قسمين:

القسمُ الأوَّل: تقريرُ علاقة الإلحاد بالشرور.

القسمُ الثّاني: بيانُ أمثلة على الشرور المترتِّبة على الإلحاد.

القسمُ الأوَّل: تقريرُ علاقة الإلحاد بالشرور:

كان الناسُ عبرَ التاريخ يتديَّنون بديانات متعدِّدة، وهذه الأديانُ تحمل منظومات أخلاقيَّة مختلفة. وأغلبُ أتباع الأديان يعتقدون أنَّ الإله الخالق هو الذي شرع هذه الأخلاق، ويحاسبُ الإنسان على عدم القيام بها. وأمّا الإلحاد، فهي فكرة عدمية تقوم على نفي وجودِ الخالق المشرِّع للأخلاق. وعليه، فإنَّ الملاحدة ينكرون محاسبة الخالق للإنسان بسبب تفريطه في التحلِّي بالأخلاق.

وقد سبقَ ما كتبه الأديب الروسي فيودر دوستويوفكسي عن هذا الأمر في روايته الشَّهيرة الأخوة كارامازوف على لسان السَّجين (ميتا) الذي قال: «ولكن ما الذي سيصيرُ إليه الإنسان في هذا كلِّه بغير إله، وبغير حياة آخرة؟ وإذًا، فمعنى هذا أن كلَّ شيء سيكون مباحًا بعدَ الآن، وأنَّ في وسع الإنسان أن يفعل ما يشاء»[1].

وحيثُ إنه لا يمكن أن تعيشَ طائفة من طوائف البشر بدون منظومة أخلاقية يحتكمونَ إليها؛ شرعَ الفلاسفة الملاحدة واللادينيون في إقامة مذاهب فكرية. وهذه المذاهبُ قد يغلب عليها الطابعُ السياسي، ولكن لا يخلو مذهبٌ من المذاهب مِن الحديث عنِ الأخلاق والآداب. وكلَّما وافقت هذه الأخلاق والآداب ما جاء به

---

(1) The Brothers Karamazov (788)

الأنبياء والمرسلون فإنَّهم قد أصابوا بعضَ الحقّ، ولكن كلَّما بعدتْ هذه الأخلاق عن نورِ الوحي كانت أدْعى لإشعالِ الفتن والقلاقل والحروب والشرور؛ قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله): «قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفوا ما جاءَ به الرسول ﷺ. إمّا أن لا يعرفوا اللفظ، وإمّا أن يعرفوا اللفظَ ولا يعرفوا معناه، فحينئذٍ يصيرونَ في جاهلية بسبب عدم نور النبوَّة، ومن ها هنا يقع الشرك، وتفريق الدين شيعًا، كالفتن التي تحدث السيف فالفتنُ القولية والعملية هي من الجاهلية بسببِ خفاء نور النبوة... فالهدى الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة»[1].

وهذه المذاهبُ الفكرية تشتملُ على بعض المنظومات الأخلاقية الخطيرة، التي أصبحتِ الأساسَ للشُّرور الواقعة في المجتمعات الإلحادية واللادينية. ومن هذه الفلسفات الأخلاقية:

الفلسفةُ الأولى: النفعيةُ التلذُّذية (Hedonistic Utilitarianism). وخلاصتها أنَّ الإنسانَ يهدف إلى الوصول إلى المتعةِ الكبرى، أو إنتاج المتعة الكبرى فقط لا غير. وفي حالةِ التلذُّذية العامة، فالمعتدُّ به هو المتعة الكبرى المتحققة للأغلبية[2].

الفلسفةُ الثانية: التطورية / التقدمية (Evolutionism / Progressivism). وقد سعى التطوُّريون إلى تطبيقِ نظرية داروين في فهْم الأخلاق. لقد أكَّدوا أنَّ الفرد / أو المجتمع كائنات ليوجّهَا تجاه ما هو مؤكَّد البقاء أو ما فيه الخير والسعادة. أكّد هذا فردريك نيتشه إلى أقصى حد. وذلك بقوله: إنَّ ما يتأكَّد بقاؤه فهو أخلاقي، بغضِّ النظر عن مدى وحشيته أو كراهته[3].

الفلسفةُ الثّالثة: النِّسبوية الأخلاقية (Ethical Relativity). استنادًا إلى هذه الرؤية، فالصحيحُ والخطأ مصطلحان نسبيّان، وهمَا يصفان أو يعبِّران عن رغبات أو

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧ / ٣٠٧ - ٣٠٨).

(٢) انظر: Atheist Personality Disorder (9)

(٣) انظر: المصدر السابق (١٠ - ١١).

مشاعر الفرد أو تفضيلاته تجاهَ الأفعال التي يتأمَّلها. فالتجربة الأخلاقية يعبَّر عنها بطرق مختلفة. ولا وجود لحقائق أو افتراضات بدهية(١).

الفلسفةُ الرّابعة: النفعية / الحلولية (Pragmatism / Immanentism). وتؤكّد هذه النظريةُ على أنَّ التفكير آلةٌ يمارس بها المرءُ تشكيلَ محيطه ليلبّي احتياجاته، واحتياجات أولئك الذين يتأثّرون بسلوكه ورغباتهم. لذلك، فإنَّ الحق ليس ما يطابق الواقع، لكنّه ما يلبِّي احتياجات ورغبات المرء، ورغبات الآخرين(٢).

وهذه الفلسفاتُ هي الأسسُ الأخلاقية للملاحدة المعاصرين، وقد فتحت الباب أمامَ كثيرٍ من الشرور التي وقعت في مجتمعاتهم - كما سيأتي ذكره إن شاء الله -. فالإلحاد فكرةٌ عدمية متعلِّقة بإنكار وجود الخالق فقط، ولا تتحدَّث في أصلها عن الأخلاق. ولكنَّ إنكار وجود الخالق يؤدِّي إلى إنكار وجود معيار أخلاقي موضوعي؛ قال المحامي دين أوفرمان: «مسألة: إذا كانت بدايةُ الزمان والمكان بدون كائن [خالق] ونتيجة للعشوائية والصدفة هي مسألةٌ ضرورية في سؤال الأخلاق؛ فلو تنبّى أحدهم وجهة نظر أنَّه لا خالقَ للكون، فلا يمكن أن يكون هناك معيارٌ للصواب والخطأ. إن وُجد الكون عشوائيًّا، فلا يوجد أيُّ ثوابت»(٣).

وبالتالي، فقد اضطرَّ الفلاسفة الملحدون إلى اختراع هذه الفلسفات الأخلاقية الهدَّامة من بناتِ أفكارهم. وهذه الفلسفات أدَّت إلى شرور عديدة؛ وبيان ذلك في القسم الثاني من هذا المبحث.

القسمُ الثّاني: بيانُ أمثلةٍ على الشرور المترتِّبة على الإلحاد:

الشُّرور المترتِّبة على الإلحاد لا تعدُّ ولا تحصى، بل يمكن كتابة رسالة علمية مستقلَّة عنْ هذه المسألة. ولكنْ تكفي الإشارة إلى بعضٍ منها في هذا المبحث، وهي:

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٢).

(٢) () انظر: المصدر السابق (١٣).

(3) A Case Against Accident and Self-organization (177)

إشعال الحروب والإبادة الجماعية، والعنف في المجتمعات، وانتشار المخدِّرات، والهوس الجنسي.

- **أوَّلًا: إشعالُ الحروب والإبادة الجماعية:**

قد سبقَ في مبحث: وسائل نشر الإلحاد في التمهيد، أنَّ المغنِّي البريطاني جون لينون له أغنيةٌ مشهورة في نقد الأديان، وهي قوله: «تخيَّل أن ليس هناك جنة، من السهل لو تجرِّب، ليس هناك جهنَّم تحتنا، وفوقنا فقط السماء، تخيَّل أنَّ كلَّ الناس يعيشون من أجل اليوم، تخيَّل أنْ ليس هناك بلدان، ليس مِن الصعب فعل هذا، لا شيء لتقتل أو تموتَ من أجله، ولا دين أيضًا، تخيَّل أنَّ كلَّ الناس يعيشون في سلام، بإمكانك أن تقولَ إني حالم، ولكني لست الوحيدَ آمَل أن تنضمَّ إلينا يومًا، وسيصبح العالم كواحدٍ».

ويريد بذلك تقديمَ الأديان كالسبب الرئيس في إشعال الحروب والمشاكل. وقد ردَّ البروفسور جون لينوكس على هذه الأغنية بقوله: «إنه ليس رائعًا أن نتخيَّل عالمَ جون لينون بدون الشُّرور التي نسبَها للدين - كما دعونا إليه ريتشارد دوكينز -، بل إنه رائع أن نعيشَ في مثل هذا العالم أيضًا. جميعُ البشر العقلاء يوافقون الملاحدة الجدد في هذه النُّقطة. ولكن، أرجو أن أبيِّن لك ما هو واضحٌ هنا، وهو أنني لست جون لينون، أنا جون لينوكس، وأتمنَّى منك أن تتخيَّل عالمًا بلا إلحاد؛ لا ستالين، ولا ماو، ولا بول بوت، وهُم فقط ثلاثة من رؤساء الدول التي تبنَّت الإلحاد رسميًّا. وقد فعلت هذه الدول بعضَ أبشع الجرائم الجماعية في القرن العشرين. تخيَّل عالما بلا غولاغ، ولا الثورة الثقافية، ولا حقول القتل، ولا انفصال الأولاد عن الآباء بسبب تعليمهم الدين، ولا منع الناس من التعليم العالي بسبب إيمانهم بالله، ولا تمييز ضدَّ المؤمنين في العمل. ولا يوجد نهب، ولا هدمٌ ولا حرق لأماكن العبادة. ألا ينبغي للإنسان أن يتمنَّى مثل هذا العالم أيضًا؟»[1].

ومِن الغريب في الأمر أنَّ الملاحدةَ الجدد يذكرون أنَّ الأديان هي السبب الرئيس في إشعالِ الحروب والإبادة الجماعية، معَ تبجيلهم الشديدِ لنظرية التطوُّر، وكأنهم نسوا أو تَناسوا أنَّ نظرية التطوُّر كانت الأساسَ لثلاثة مذاهب

(1) Gunning for God (83)

فكرية، وهي مِن أكثر المذاهب دمويَّة عبرَ التاريخ البشري؛ وهي الاستعمار العنصري، والشيوعية، والنازية. وقد أدرك البروفسور آدم سيدجويك - صديق داروين المقرَّب - هذا الأمر عندما قرأ كتاب: أصل الأنواع، فكتب لداروين: «إن كان الجمهورُ يتلقّون هذا الكتاب بالقبول فإنه سيوقع الجنسَ البشري في وحشيةٍ غير مسبوقة عبر التاريخ»[1].

وقد وقعَ ما ظنَّه البروفسور سيدجويك حيث كانت هذه النظرية أساسًا مهمًّا لبعضِ أكثر المذاهب الفكرية دمويةً في التاريخ؛ وهي: الاستعمار العنصري، والشيوعية والنازية. وبيانُ ذلك كالآتي:

الاستعمارُ العنصري: بدأ الاستعمارُ في القرن السادس عشر تقريبًا، ولكنّه ازداد نشاطًا كثيرًا في آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وكان الهدفُ الأساس للمُستعمرين الأوائل: السعيُ لتنصير الشعوب المستعمرة والحصول على خيرات بلدانهم. وأمَّا المستعمرون المتأخِّرون فكانوا متأثِّرين بنظرية التطوُّر أكثر من تأثُّرهم بالدين النصراني.

وكان داروين يرى أنَّ الإنسان قد تطوَّر من القرد، وأن أقرب الأجناس البشرية إلى القرد هُم أصحابُ البشرة السوداء، وأكثرَ الأجناس تطوُّرًا هم الأوروبيون البيض. وحيث إنَّ القاعدة الأساسية لنظرية التطوُّر هي: الصراع من أجل البقاء للأصلح، فكان داروين يرى أنَّ الأجناس المتطوِّرة سوف يقضونَ على الأجناس أقلّ تطوّرًا؛ فقال: «في فترة مستقبلة - ليست ببعيدة حيث تعدُّ بقرون - سوف تقضي وتستبدل الأجناسُ المتحضِّرة الأجناسَ المتوحِّشة في أنحاء العالم. وفي الوقت نفسه فإنَّ القرود الإنسانية (Anthropomorphous apes) سوف تمحى من الوجود. وبعد ذلك يزداد الفاصل أكثر، حيث نتمنَّى أن يكون الفاصلُ ما بين الإنسان في حالته المتحضِّرة [- وهو الجنس الأبيض -] وبينَ قردة متدنِّية مثل قرد الرباح، بدلًا من أن

---

(1) Man's Origin Man's Destiny (166), by: A.E. Wilder Smith, (Word for Today Publishing, 1993)

يكون الفاصل صغيرًا - كما هو الآن - بين الزنجي أو السكان الأصليين في أستراليا وبين غوريلا»[1].

وبذلك دعا داروين ضمنيًّا إلى صراع بين الأجناس حيث يمحي الأوروبيون سكّان القارات الأخرى، وأنَّ في ذلك صراعًا من أجل بقاء الأصلح.

وكتبَ داروين أيضًا لأحدِ أصدقائه عن الصراع بين الأجناس قائلًا: «أستطيع أن أريَكَ أنَّ القتال بسبب الانتخاب الطبيعي قد حصلَ وأدَّى إلى تطوُّر الحضارة أكثر مما تريدُ أن تعترف به أنت. تذكَّر فكرة المخاطرات على الدول الأوروبية قبل قرون قليلة عندما أحاطَ بهم الأتراك، بينما تعتبر مثل هذه الفكرة سخيفة الآن. الأجناس البيض المتحضِّرة قد هزمت الأجناسَ التركية حتى أصبحت جوفاء للصراع من أجل البقاء. وبالنَّظر إلى العالم في مدَّة ليست ببعيدة، فإنَّ أعدادًا بلا حصر من الأجناس المتدنِّية سوف تمحى عنِ الوجود من قبَل الأجناس المتحضِّرة العليا في أنحاء العالم»[2].

وقد بحثَ البروفسور جايمس جول[3]في الأسس الأيديولوجية للاستعمار العنصري الأوروبي، فوجد أنَّ أكثرَ الأفكار المؤثِّرة في الاستعمار هي الداروينية الاجتماعية المستقاة مِن أفكار داروين العنصرية في كتابيه: «أصل الأنواع» و«أصل الإنسان»[4].

---

(1) The Descent of Man (178), by: Charles Darwin, (A.L. Burt Cc, 1874)

(2) C. Darwin's letter to W. Graham, The life and letters of Charles Darwin, Volume 1, p.316

(٣) جايمس جول (James Joll): بروفسور التاريخ العالمي في جامعة أكسفورد المشهورة في بريطانيا. قد توفي عام: ١٩٩٤م. انظر:

https://archives.history.ac.uk/makinghistory/historians/joll_james.html

(٤) انظر: Europe Since 1870 (102 - 103), by: James Joll, (Penguin Books, 1990)

وقد ذكرَ الدكتور لاليتا ويديارتي[١] أنَّ أغلب العلماء الغربيين تلقّوا العنصرية بقبول في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسبب نظرية التطوُّر[٢].

فكانَ المستعمرون يروْن أنَّ لديهم أساسًا علميًّا لعنصريتهم، وأنه يحقُّ لهم استعمار بلدان الأجناس المتدنِّية - حسبَ زعمهم -، وأنه ينبغي أن تمحى هذه الأجناس من الأرض. وهذا الاستعمارُ العنصري - المدعوم علميًّا كما ادَّعوا - كانت له نتائج كارثية على السُّكان الأصليِّين في كثير من القارات. ومن الأمثلة على ذلك أن السكان الأصليِّين في أستراليا كان عددُهم حوالي مليون قبلَ قدوم الإنجليز، ونزل العددُ إلى ١٠٠ ألف خلالَ القرنين التاسع عشر والعشرين بسببِ الإبادة الجماعية وسياسة التَّجويع[٣]. ويعني ذلك أنَّ ٩٠ ٪ منهم قد ماتوا بسبب الإنجليز.

وكان الإنجليزُ يستندون في هذه الإبادة إلى نظرية التطوُّر، وأنَّها متوافقة مع العلم؛ فقد كتب هينري روسدين[٤] - العالم التطوُّري الأسترالي - عام ١٨٧٦م: «الصراع من أجلِ بقاء الأصلح يعني أنَّ ذا القوّة هو المحقّ. وبذلك فإننا نناشد وننفِّذ

---

(١) لاليتا ويديارتي (Lalita Vidyarthi): بروفسور الأنتروبولوجيا الهندي، حصل على شهادة الدكتوراه في هذا العلم من جامعة شيكاغو في الولايات المتّحدة. ويعتبر أحد أبرز علماء الأنتروبولوجيا من الهند. توفي عام ١٩٨٥:

https://www.yourarticlelibrary.com/essay/short-biography-of-lalita-prasad-vidyarthi/41681

(٢) انظر:

Racism, Science and Pseudo-Science (54), by: Lalita Prasad Vidvarthi, (Vendme, 1983)

(٣) انظر:

https://sites.google.com/site/aboriginalgenocide/

(٤) هنري رودسين (Henry Rusden): موظّف حكومي من بريطانيا، سافر إلى أستراليا في زمن الاستعمار البريطاني، وفتح عدّة جمعيات سياسية، ثمَّ أصبح نائب رئيس الجمعية الملكية في فيكتوريا. وكان ملحدًا تطوّريًّا. توفي عام: ١٩١٠م. انظر:

http://adb.anu.edu.au/biography/rusden-henry-keylock-4524

قانون الانتخاب الطبيعي العنيد بلا رحمة حين نبيد الأجناس الأسترالية والماورية المتدنِّية، ونحن نستولي على تراثهم ببرودة»[1].

والاستعمارُ في أستراليا مثالٌ بسيط على إجرام الاستعمار الأوروبي العنصري التطوُّري، وإلّا فالأمثلة يصعب حصرُها. ومن الأمثلة عليها سياسةُ التجويع لبريطانيا في الهندِ في القرنين التاسع عشر والعشرين أدَّت إلى موت ٢٩ مليون هندي[٢].

وعملتْ دولة بلجيكا إبادةً جماعية رهيبة في دولة كونغو بين ١٨٨٥ - ١٩٠٨، وراحَ ضحيتُها حوالي ١٠ مليون من سكَّان كونغو[٣]. وكانوا يستندون في هذه الإبادة الجماعية المخيفة إلى نظرية التطوّر[٤].

فكانت نتيجةُ الاستعمار العنصري التطوُّري اللاديني كارثيةً بمعنى الكلمة، وعددُ القتلى يعدُّون بالملايين.

الشيوعية: قدْ تأثَّر مؤسسُ الشيوعية كارل ماركس إلى حدٍّ كبير بداروين؛ فكتب على سبيل المثال: «أعمالُ داروين مهمَّة للغاية، وتتناسب مع هدفي؛ حيث إنه يضع الأساسَ في العلوم الطبيعية لصراع الطبقات الاجتماعية عبر التاريخ»[٥]. ولما أصدر كارل ماركس النسخةَ الثانية لكتابه: «رأس المال» (Das Kapital)، أرسلها إلى

---

(1) Education in Australia, New Zealand and the Pacific (94), by: Michael Crossley, Greg Hancock, Terra Sprague, (Bloomsbury Publishing, 2015)

(٢) انظر:

\http://www.independent.co.uk/voices/commentators/johann-hari/johann-hari-the-truth-our-empire-killed-millions-404631.html

(٣) انظر:

King Leopold's Ghost: A Story of Greed, Terror and Heroism in Colonial Africa (225-233), by: Adam Hochschild, (Mariner Books: 1999)

(٤) انظر البحث: Whithaker R. Birt (3) The Congo: From Leopold to Lumumba

(5) Marx Letter to Ferdinand Lassalle, 16:th January, 1861

داروين وكتب: «إلى السيِّد تشارلز داروين، من مُعجبٍ مُخلص، كارل ماركس»[1]. وقد ردَّ داروين على هذه الرسالة وشكرَه، وقال: «أعتقد أنَّ كلانا نريد صدقًا أن نوسّع نطاق المعرفة»[2].

وهذا الودُّ المتبادَل انتقل إلى القادة الشيوعيين، وكان تفكيرُ حكّام الاتّحاد السوفيتي متجذِّرًا بالعمق في الرؤية التطوُّرية؛ فكان الملاحدة الشيوعيون يرون أن الحروب التي أشعلوها والإبادةَ الجماعية التي قاموا بها كان جزءًا من الصِّراع بين الطبقات. وهذا الصراعُ كان متجذِّرًا في نظرية التطوُّر.

وقد ألَّف مجموعةٌ من المؤرِّخين الأوروبيين الكتابَ الأسود للشيوعية (The Black Book of Communism) عنْ جرائم الدول الشيوعية، وقدَّروا عدد القتلى على أيدي الشُّيوعيين الملاحدة بـ٩٤ مليون! فنظريةُ التطوُّر كانت ذات أثرٍ كبير في هذا المذهب الإلحادي الإجرامي.

النّازية: الحزبُ النازي حكمَ ألمانيا بين عامي ١٩٣٣ - ١٩٤٥، وكان من أكثر الأحزاب دمويَّةً عبر التاريخ. وكان هذا الحزب يُبدي عداوة شديدة للأديان والمتديّنين - ولا سيَّما اليهود وبعض فرق النصارى -. ولكنْ كان بعض النازيين يؤمنون بوجود الله، فلا يعتبر الحزب النازي حزبًا إلحاديًّا، ولكنَّه كان حزبًا معارضًا للأديان التقليدية الموجودة في ألمانيا حينذاك. وكان أدلف هتلر - زعيم الحزب النازي - «أسيرًا للتعليمات التطوّرية، والظاهرُ أنَّه كان كذلك منذُ أن كان صغيرًا. الأفكارُ التطوُّرية هي الأساس - بطريقة شبه مكشوفة - لما هو أسوأ من كتابه: كفاحي، وكذلك خطاباته الجماهيرية... وكان هتلر يرى... أنه يجبُ على الأعراق العليا أن تقهر الأعراق الدنيا دائمًا»[3].

---

(1) Darwin in man: a psychological study of scientific creativity (72), by: Howard E.Gruber, Wildwood House (1974)

(2) Marx's Ecology: Materialism and Nature (207)

(3) Darwin: before andirafter (115), by: Robert Clark

وقد أَلَّف ريتشارد فايكارت[1] كتابه المشهور: «من داروين إلى هتلر» (From Darwin to Hitler) عن علاقةِ الداروينية بالمذهب النازي، وتوصَّل إلى أنه كان مؤسّسًا على تلك النظرية، وأنَّها جعلتهم ينظرون إلى جرائمهم البشعة بأنها فضائل عظيمة[2].

وقد قدَّر المؤرخون أنَّ النازيين قتلوا أكثر من ٢٠ مليون شخصًا في غير حالة الحرب[3]. وكانت نظريةُ التطوُّر الأساسَ لهذه الجرائم البشعة.

فهذه ثلاثةٌ من أشهر المذاهب الفكرية المعاصرة العلمانية المبنية على نظرية التطوّر، وقد بلغَ ضحاياها أكثر من ١٠٠ مليون نسمة منذ ظهور هذه النظرية. ولا يعني ذلك أنَّ كلَّ مَن شارك في هذه الجرائم كانوا ملاحدة، ولكنَّ مذاهبهم كانت مبنية على نظرية التطوُّر المعارضة للدين. وهذه النظرية هي الركنُ الركين للملاحدة الجدد الذين يهاجمون الأديانَ بأنها وراء الحروب والإرهاب. فأيُّ إرهاب أسوأ من إرهاب المستعمرين العنصرين والشيوعين والنازيين؟

- **ثانيًا: العنفُ والإجرام في المجتمعات:**

العنفُ موجودٌ في جميع المجتمعات، سواء أكان الشعب متديّنًا أم غير متديِّن، ولكن العنف أكثر انتشارًا بين الملاحدة واللادينيين من انتشاره بين المتديّنين. ومن أسباب ذلك: تبجيل العنف والمجرمين عبرَ أفلام آكشن (Action Films). وهذه الأفلام لها صلة ظاهرة باللادينية والفلسفات الإلحادية؛ قال جون باسكينو: «أظهر عدد هائل من الدراسات الاجتماعية والنفسية أنَّ لدى الأطفال والبالغين المتابعين لأفلام العنف ميلًا لتطوير حسٍّ عالٍ من العدوانية. ويتفاقم هذا الحسُّ العالي من العدوانية عند الأطفال والكبار الذين يعانون من عدمِ الاستقرار النفسي. أشارت

---

(١) ريتشارد فايكارت (Richard Weikart): بروفسور التاريخ في جامعة إوفا بالولايات المتّحدة، وتخصّصه في التاريخ الفكري الأوروبي المعاصر. انظر:
https://www.csustan.edu/history/Weikart

(٢) انظر: From Darwin to Hitler (215) (Palgrave Macmillan 2006)

(٣) انظر: http: / /www.scottmanning.com /content /nazi – body – count /

الجمعية الأمريكية لعلم النَّفس باستمرارٍ خلال أبحاثها إلى أنَّ الذين يشاهدون العنف على التلفاز لديهم ميلٌ ليصبحوا أقلَّ تأثُّرًا وحساسيةً لألم ومعاناةِ الآخرين، ويزداد استعدادهم للتصرّف بعدوانية تجاهَ غيرهم. أمّا الأطفال فميولهم تتَّجه ليصبحوا أكثر عدوانية في سنِّ المراهقة، وأكثر عرضةً للانخراط في أعمال إجرامية في سنِّ البلوغ. وقد أفسدَ هوس العلمانية بالسيطرة، والأفضلية الشخصية و«البقاء للأصلح»؛ عقولَ الأجيال. فأضحى لدينا أجيال من عَديمي الإحساس تجاه العنف»[١].

وقال أيضًا عنْ تزايد العنف والإجرام في بلده: الولايات المتَّحدة: «مع محاولات ضبطِ النمو السكاني، يؤكِّد تقريرُ الجريمة الموحَّد لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي (FBI) أنَّ أربعة عقود من تطبيق العلمانية، والبراغماتية، والاسمية، والأنانية، والنفعية، والتلذُّذية، والتطوّرية، والوضعية والنِّسبوية، واتباع مبدأ البقاء للأصلح [أو الأقوى]، قد أوصلتْ مجتمعنا إلى حافَّة الانهيار. في سنة ١٩٦٠؛ سُجلت ٣,٠٩٥,٧٠٠ جريمة اعتداء على الأملاك، و٩,١١٠ جريمة قتل، و١٧,١٩٠ حادثة اغتصاب، و١٠٧,٨٤٠ سرقة، و١٥٤,٣٢٠ اعتداء بالغ الخطورة، و٩١٢,١٠٠ حادثة سطو، و٣٢٨,٢٠٠ حادثة سرقة سيارات. ما الذي حدث في الأربعة عقود التي سادت فيها ديانة العلمانية؟ في سنة ٢٠٠٧ سجلت ٩,٨٤٣,٤٨١ جريمة اعتداء على الأملاك، و١٦,٩٢٩ جريمة قتل، و٩٠,٤٢٧ حادثة اغتصاب، و٤٤٥,١٢٥ سرقة، و٩١٠,٧٤٤ اعتداء بالغ الخطورة، و٢,١٧٩,١٤٠ حادثة سطو، و١,٠٩٥,٧٦٩ حادثة سرقة سيارات. هذه هي المثالية العظيمة التي جلبها لنا دين الإنسانية والإلحاد! وكلَّما تغلغلتِ الفلسفات الإلحادية أكثر فأكثر إلى عقول الناس وقلوبهم، كلما كان من المحتملِ أن يتمَّ اللجوءُ إلى مبدأ البقاء للأقوى، وغرائز الإنسان الأساسية. وكل ما قيل مِن إحصاءاتٍ في الولايات المتحدة ما هو إلّا انعكاسٌ لجميع المجتمعات العلمانية»[٢]. فالمذاهبُ والفلسفات العلمانية

---

(1) Atheist Personality Disorder (19)

(٢) المصدر السابق (٨٥ – ٨٦).

والإلحادية قد أثَّرت تأثيرًا مباشرًا في عقول الناس، وجعلتهم أكثرَ ميلًا للعنف من غيرهم. وذلك أنَّ هذه المذاهب تحمل طابع: البقاء للأصلح، والنِّسبية الأخلاقية، وعدم الإيمان بمحاسبة الإله للإنسان. وجميع هذه الأفكار العلمانية الإلحادية تمهِّد للعنف والإجرام في المجتمعات.

- **ثالثًا: انتشارُ المخدرات:**

المخدِّرات داءٌ مُنتشر في كثيرٍ من المجتمعات، ويقتل آلافًا من البشر سنويًّا في أنحاء العالم. والأديانُ المشهورة كاليهودية[١]، والنصرانية[٢]، والإسلام[٣] تحرّم استخدامَ المخدِّرات. وأمّا الملاحدة فلا يوجد لديهم محرَّمات. قد يمتنع الملحد عنْ تعاطي المخدِّرات لكونها مضرَّة، أو لأنَّ قانون الدولة يمنع من ذلك، ولكنَّ المخدِّرات ليست محرَّمة عندهم كما هي محرَّمة عند المتديِّنين. وليست هناك مراقبة لله في عدم تعاطيها. ولهذا أظهرتِ الأبحاثُ العلمية أنَّ الملاحدة واللادينيين يتعاطون المخدّرات أكثر من المتديِّنين[٤]، وأنَّ التديُّن من أعظم موانع تعاطي المخدِّرات[٥].

وقد ذكر جون باسكينو الارتباطَ بين الإلحاد والمخدِّرات بقوله: «قام التوجُّه إلى النَّفس - الذي عززته أداةُ الإلحاد التبشيرية المتمثِّلة في وسائل الإعلام - بخلق

---

(١) انظر: https: / /www.myjewishlearning.com /article /smoking - alcohol - /and - drugs

(٢) انظر: https://www.gospelway.com/morality/drug_abuse.php

(٣) انظر فتوى اللجنة الدائمة حيث نقلوا الإجماع على تحريم تعاطي المخدّرات:
http:// www.alifta.net/ fatawa/ FatawaDetails.aspx?languagename=ar&View=Page&PageID=3225&PageNo=1&BookID=2#P11

(٤) انظر:
https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S1516444613000238
وانظر أيضًا:
https://www.sciencedaily.com/releases/2013 / 10 / 131003093041.htm

(٥) انظر: https: / /www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3043382 /

الذات الفارغة. ومعَ عدم وجود إلهٍ لملء ذلك الفراغ أصبحتِ المخدِّرات الاختيارَ الأكثر نشاطًا. إنَّ الإحصائيات المتعلِّقة بتعاطي المخدِّرات المشروع وغير المشروع في الولايات المتَّحدة مدهشةٌ، معَ وجود اتجاهٍ متزايدٍ دائمًا في مشاكل الصحة العقليّة - المغذّاة بالتوجُّه نحو الذات -، وسيستمرُّ تعاطي المخدِّرات والرعاية الصحية العقلية في تزايد، واصلًا لنسبٍ وبائية»[1].

- **رابعًا: الهوسُ الجنسي:**

الزِّنا محرَّم في اليهودية، والنصرانية والإسلام؛ فالوصيةُ السابعة من الوصايا العشر - التي يقدِّسها اليهود والنصارى معًا - هي: «لا تزنِ!»[2]. واللهُ تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة الإسراء:٣٢].

وليس الزنا محرَّمًا فحسب، بل النظرُ إلى النساء بشهوة محرَّم أيضًا؛ يُنسب إلى المسيح في إنجيل متَّى أنَّه قال: «إنَّ كلَّ مَن ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه»[3].

واللهُ تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة النور: ٣٠].

وأمّا الملاحدة فليس الزنا محرَّمًا عندهم، ومِن باب أولى فليس النظرُ إلى النساء بالشَّهوة محرَّمًا أيضًا. بل دعاةُ النِّسوية من الملاحدة واللادينين يدعون إلى تحرُّر جنسي شامل. ومِن الأمثلة على ذلك ما قالته الناشطةُ النسوية الملحدة مارغرت سانغر[4]: «هدفُنا هو إشباعٌ جنسيٌّ غيرُ محدود دون عبء الأطفال غير المرغوب

---

(1) Atheist Personality Disorder (21)

(٢) سفر الخروج (٢٠/ ١٤).

(٣) إنجيل متى (٥/ ٢٨).

(٤) مارغرت سانغر (Margaret Sanger): ناشطة نسوية أمريكية متطرّفة، سَعَت من أجل التحرّر الجنسي ومساواة المرأة بالرجل، وتحديد النسل. وكانت تتبنّى المذهبَ الإنساني الإلحادي. توفيت عام ١٩٦٦م. انظر:
https://www.pbs.org/wgbh/americanexperience/features/pill-margaret-sanger-1879-1966/

بهم... يجب أن تحظَى النساء بحقِّ الحياة... الحبّ... والكسل... بأن تكون أمًّا غير متزوجةٍ... بأن تنشئ... بأن تدمّر... فراش الزوجية هو أكثرُ تأثيرٍ منحطٍّ في النظام الاجتماعي... أفضل فعلٍ رحيمٍ تفعله العائلة لأحد أعضائها الرُّضَّع هو أن تقتله»[١].

قال جون باسكينو: «إنَّ الإباحية ولدت من رحم الإلحاد، كما تعين أيضًا على صعودِهِ أكثر. ألا يستغرب أن يصل الزنا والخيانة الزوجية إلى مستويات وبائية؟ ألا يستغرب أن تصلَ الفوضى الجنسيَّة إلى مستويات لم يُسمَع بها منذ نشأة الوثنية؟ ألا يستغرب أنَّ الدعارة منتشرة، وأنَّها ربحت حتَّى نوعًا من الشرعية؟ ألا يستغرب أن تذكر الدراسة التي أجراها نيل مالاموث من جامعة كاليفورنيا أنَّ ٥٠ بالمائة من الرجال لا إشكالَ لديهم في أنْ يغتصبوا النساء إنْ تيقَّنوا أنَّ ذلك لن يجلب لهم أية مشكلة؟[٢] ألا يستغرب أنَّ أبناءَ العاشرة نشطون جنسيًّا، وأنَّ بنات الثانية عشرة يقعن في الحمل والإجهاض؟ ألا يستغرب أنه بمجرَّد ما يفقد «تابل الجنس» نكهته في الزواج يعني ذلك نهايته؟ ألا يستغرب أنْ يبلغ الاغتصاب والاعتداءات الجنسية واغتصاب الأطفال نسبًا وبائية؟ عندما ينزل المرءُ نفسَه إلى مرتبة حيوان متوحِّش فلن يستطيع أن يتصرَّف إلّا مثل حيوان متوحِّش! والإلحاد هو دين التوحّش»[٣].

وهذا العالَم العلماني الإلحادي المهووس بالجنس انتشرتْ فيه الأفلام الإباحية بطريقة مقزِّزة؛ قال جون باسكينو: «عندما يكون جوهرُ الشخص أو طبيعته الفطرية ذات قيمة ضئيلة، لا يعود المرء حينها إلّا مجرَّد أداة للاستخدام. يشاهد الأمريكي العادي حوالي ١٥,٠٠٠ صورة جنسية موجَّهة سنويًّا. و٦٥ ٪ من التلفزيون الأمريكي محشوٌّ بالمحتوى الجنسي. ويبلغ متوسِّط المشاهد الجنسية المعروضة في حصة الأسرة التلفازية ثمانية مشاهد أو أكثر يوميًّا. والتلفاز اليومي له أكثر من ١٥٦ مشهد جماع، حيث تفوق نسبةُ ممارسيه من غير المتزوجين ثلاثَ مرات نسبتهم من

---

(1) The Woman rebel, vol. 1, N. 1 reprinted in Woman in the New Race

(٢) انظر: Philadelphia Inquirer, Jan. 9، 1987

(3) Atheist Personality Disorder (56-57)

المتزوجين[1]... إننا نعيش في مجتمعٍ يشكِّل فيه الإدمان الجنسي والإباحية جزءًا من الحياة اليومية. مما أدّى إلى مجتمعٍ مُتساهلٍ ومنحرف جنسيًّا. ومن الجدير بالذكر أنَّ صناعة المواد الإباحية هي صناعة كبرى في العالم!»[2].

وهذه الدعوةُ الإلحادية إلى التحرُّر الجنسي وانتشار الأفلام الإباحية لها آثار سلبية عظيمة على المجتمع؛ ذكر جون باسكينو بعض الإحصائيات منذ عام ١٩٦٠ م:

- رغمَ انتشار موانع الحمل، ارتفعت عمليات الإجهاض من ٢٠٠,٠٠٠ إلى ١,٤ مليون عملية في السنة.

- استقرارُ الرجل والمرأة في سكن واحد بلا زواج يجمعهما ارتفع من ٥٠٠,٠٠٠ زوج [بمعنى المرأة وخدنها] إلى ٤ ملايين. وهذا النوعُ من السكن أشهرُ وأكثر شيوعًا من الزواج الشرعي في الولايات المتحدة.

- ارتفعَ الطلاق من ٤٠٠,٠٠٠ حالة إلى ١,٢ مليون حالة في السنة.

- ارتفعَ عددُ الأسر ذوات الأب أو الأم غير المتزوجين من ٩ إلى ٣٢ ٪.

- ارتفعَ عددُ أبناء الزنا من ٢٠٠,٠٠٠ إلى ١,٥ مليون مولود في السنة.

- ارتفعَ معدَّلُ حمل المراهقات من ٣٠ إلى ١١٠ لكل ١٠٠٠ فتاةٍ سنويًّا.

- ارتفع معدَّلُ حدوث الأمراض المنقولة جنسيًّا إلى ٢٤٥ ٪.

- ارتفع معدَّلُ الاستغلال الجنسي للأطفال إلى ٢٨٦ ٪.

- ارتفع معدَّلُ الجريمة إلى ٥١٠ ٪[3].

فهذه صرخةُ نذير من العالم الغربي عن الآثار المدمِّرة والشرور المتفاقمة المترتبة على الإلحاد واللادينية. ولا شكَّ أنَّ هذه النقاط مجتمعة تدلُّ على أنه لا يوجد شيء أسوأ ولا أخطر من الإلحاد، وأنَّ شروره لا تعدُّ ولا تحصى.

---

(١) انظر: Pediatrics 107 (January 2001): 191 - 194

(2) Atheist Personality Disorder (21-22)

(٣) انظر: المصدر السابق (٥٣ – ٥٤).

المبحثُ السّابع
نقدُ أساليب علماءِ الغرب
في الرُّدود على المَلاحدة

تناول هذا الفصلُ أساليبَ علماء الغرب في الردود على الملاحدة. وقد تقدّم أنَّ من أبرزِ أساليبهم في ذلك: بيانَ مغالطاتهم المنطقية، وشطحاتهم، وتناقضاتهم، وضعف خطابهم، ومخالفتهم للمنهج العلمي والشرور المترتّبة على الإلحاد.

وهذه الأساليبُ جيِّدة ومتميِّزة في كشفِ عَوار الملاحدة وبيان هزالة فكرهم. ومع ذلك فإنَّ كلامَ علماء الغرب في هذا الفصل لم يخلُ من بعض الخلل. ويتلخَّص ذلك في أربع نقاط:

النُّقطةُ الأولى: قد تقدَّم أنَّ نقد النصارى للملاحدة في المسائل العقلية فيها شيء من الإشكال، وذلك لأنَّ عقيدتهم مبنيَّة على مخالفة بديهيات العقل. فكذلك ردودهم على المغالطاتِ المنطقية والتناقضات والشطحات عند الملاحدة فيها هذا الإشكال. فالعقيدةُ النصرانية نفسُها مخالفةٌ لأبجديات المنطق وهي متناقضة، وقساوستهم ينطقونَ بأنواعٍ من الشَّطحات. وليس ذلك في مسألةٍ فرعية فقط، بل في أصل الأصول، وأهمِّ القضايا على الإطلاق؛ ألَا وهي عقيدةُ التثليث. فمهْما حاول النصارى بيان المغالطات المنطقية عندَ الملاحدة وتناقضاتهم فإنَّهم واقعون في ذلك أيضًا. فكان المفروض أنَّ النصارى يراجعون أنفسَهم عندما بيَّنوا هذه المغالطات والتناقضات والشطحات، وينظرونَ بجديَّة في عقائدهم. ولا توجد عقيدةٌ موافقة للمنطق السليم، وبعيدةٌ عن التناقضات والشطحات إلّا العقيدة الإسلامية.

النُّقطةُ الثّانية: اعتنى علماءُ الغرب ببيانِ ضعف الخطاب عند الملاحدة الجدد، وذكروا نقاطًا مهمَّة في ذلك. ولا شكَّ أنَّ خطاب الملاحدة الجدد ضعيف وهزيل. ولكنَّ هذا النقد يمكن توجيهُه إلى خطاب كثيرٍ من النصارى أيضًا. وإن كان لديهم بعضُ الحجج والردود القوية والمتينة إلّا أنَّ بعض حججهم وردودهم ليست كذلك. وسيتمُّ الوقوفُ على مسائل كثيرة من ذلك خلال هذه الرسالة. فلو اعتنى النصارى بتسديدِ الضعف في خطابهم كما اعتنوا ببيانِ ضعف الخطاب الإلحادي لانتفعوا من ذلك.

النُّقطةُ الثّالثة: عندما ردَّ علماءُ الغرب على مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي أدخلوا في كلامهم الحديثَ عنْ بعض الظواهر الغريبة مثل التخاطر. ويقال في ذلك ما قيل في موقفِهم من علم النَّفس الموازي. وهو أنَّ تحمُّسَهم في بيان مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي قد يدخلهم في شَرَك الشياطين والجنّ. فلا بدَّ أن يكون المسلم على حذر من الانخراطِ في هذه القضايا، ويكتفي بأنَّ هذه الظواهر تبيِّن قصورَ المنهج العلمي المبني على المذهب الطبيعي الذي يعتمد عليه الملاحدة.

النُّقطةُ الرّابعة: قد أجادَ علماءُ الغرب في بيان الشرور المترتبة على الإلحاد. ولكن الإلحاد نفسه قد نشأ في أوروبا كردَّة فعلٍ للشرور التي قام بها النصارى. فالكنيسة الكاثوليكية قد طغتْ وبغتْ، وحرَّضت على حروب صليبية، وأكلت أموال الناس بالباطل، وصدَّت عن سبيل الله. فالشرورُ التي قام بها النصارى لا تعدُّ ولا تحصى. وسيأتي في مبحث: ردودهم على شبهة الشُّرور المترتبة على الأديان أنَّ الكتاب المقدَّس لدى اليهود والنصارى قد حثَّ على ارتكاب إبادة جماعية للرجال والنساء والأولاد. فالشرورُ التي قام بها النصارى ليست مبنيَّة على تصرُّفات أفراد، بل هي منبثقة من كتابهم المقدَّس. وأمّا المسلمون كأفرادٍ فقد يفعلون الشُّرور، ولكن لا يكون ذلك مبنيًّا على دينهم الذي يحثُّ على كلِّ خير، ويمنع عن كلِّ شرّ.

الفصلُ الثّالث

وسائلُهم في الرُّدود على الإلحاد

وفيه سبعةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: تأليفُ الكتب.

المبحثُ الثّاني: عقدُ المناظرات.

المبحثُ الثّالث: البرامجُ والمقاطع المرئية.

المبحثُ الرّابع: النشرُ في وسائل الإعلام.

المبحثُ الخامس: النشرُ في وسائل التواصل.

المبحثُ السّادس: إصلاحُ العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية.

المبحثُ السّابع: نقدُ وسائل علماء الغرب في الردود على الإلحاد.

المبحثُ الأوَّل
تأليفُ الكتب

الدعوةُ إلى الإلحاد قد تقوَّت كثيرًا بعدَ انطلاق حركة الإلحاد الجديد، وأصدر روَّادُها عددًا مِن الكتب الإلحادية. ولكنَّ الحركة المضادَّة للإلحاد في الغرب نشطت كثيرًا كذلك، والكتب في نقدِ الإلحاد تفوق الكتب الإلحادية بمراحل، بحيث يصعب حصرُها. ومما يدلُّ على ذلك أنَّ أشهرَ كتاب إلحادي في هذا العصر هو كتاب: وهْم الإله لريتشارد دوكينز. وقد ألَّف علماءُ الغرب سبعين مؤلَّفًا في الردِّ على هذا الكتاب فقط[1]! وأمّا الكتبُ الأخرى في الردِّ على الإلحاد الجديد وما يتعلَّق به؛ فتفوق المئات.

وليس الغرضُ من هذا المبحث تعدادَ جميع كتب علماء الغرب في هذا المجال، وإنما المراد: إبراز أهمِّ هذه الجهود، وبيان أفضلِ الكتب التي يمكن الاستفادةُ منها في نقد الإلحاد.

ويمكن تقسيمُ المؤلَّفات في نقد الإلحاد، وما يدور في فلكِها، إلى الأقسام التالية:

١) الأدلةُ العقلية على وجود الله.

٢) الأدلةُ العلمية على وجود الله.

٣) إثباتُ المعجزات.

٤) نقدُ خطاب الإلحاد الجديد.

٥) نقدُ المذهب المادي.

---

(١) هذه القائمة تتضمّن سبعين ردًّا على كتاب دوكينز:

https://www.goodreads.com/list/show/92978.The_God_Delusion_and_its_fleas_\

ولا يستبعد أن الكتب أكثر من ذلك.

٦) درءُ التعارض بين الإيمان والعلم التجريبي والعقل.

٧) نقدُ النظريات العلمية التي يتبنّاها الملاحدة.

أوّلًا: كتبٌ في بيان الأدلة العقلية على وجود الله:

كان أكثرُ اللاهوتيين المتقدِّمين يردُّون على الإلحاد بإقامة أدلة عقلية على وجودِ الله. وكانت هذه الأدلة تتَّسم بالصُّعوبة والتعقيد وكثرة المقدِّمات. وأمّا علماءُ الغرب المعاصرون فقد نقَّحوا هذه الأدلة وصاغوها بصياغات جديدة مدعومة بأدلة من العلم التجريبي. والمؤلِّفون في هذا المجال كثيرون، ولكنْ لعلَّ أبرزهم مؤلِّفان:

المؤلِّفُ الأوَّل: البروفسور ريتشارد سوينبورن؛ فقد أَلَّف ثلاثية مشهورة عن الأدلة العقليَّة الفلسفية على وجود الله؛ وهي: «تماسك علم اللاهوت» (The Coherence of Theism)، الذي صدر عام ١٩٧٧م. و»الوجود الإلهي» (The Existence of God)، الذي صدر عام ١٩٧٩م. و»الإيمان والعقل» (Faith and Reason)، الذي صدر عام ١٩٨٤م. ثمَّ أَلَّف بعدَ هذه الثلاثية كتابه: «هل هناك إله؟» (Is there a God?) عام ١٩٩٦م في الموضوع نفسه.

والبروفسور سوينبورن يعتبر أحدَ أشهر الفلاسفة اللاهوتيين الغربيين في هذا الزمان، وقد قضى خمسينَ سنة من عُمره في نقدِ الإلحاد والدفاع عن النصرانية[1]. وكتبه موجَّهة للمتخصِّصين في الفلسفة والمنطق، وفيها عمق شديد، ولكنَّها نافعة.

المؤلِّف الثّاني: البروفسور وليام لاين كرايغ. يعتبر وليام لاين كرايغ أحدَ أشهر مُنتقدي الإلحاد على الإطلاق في هذا الزَّمان. وذلك في كثير من المجالات؛ كمناظرة الملحدين، وكتابة المقالات، وصناعة المقاطع، ومع ذلك كلِّه فقد أَلَّف كتبًا كثيرة في نقد الإلحاد، ولذلك يتكرَّر اسمُه كثيرًا في هذا البحث. وقد أَلَّف البروفسور كرايغ

---

(١) انظر:
http://www.philosophyofreligion.info/whos-who/modern-authors/richard-swinburne/

عددًا من الكتبِ في الأدلة العقلية على وجود الله. وبدأ مسيرتَه التأليفية بكتابة كتابيْن عن الدليل الكوني؛ وهمَا: «الحجة الكونية الكلامية» (The Kalam Cosmologi-cal Argument)، و»الحجة الكونية من أفلاطون إلى ليبنز» (The Cosmological Argument from Platon to Leibniz). وخصَّص الكتابين لحجَّة واحدة على وجود الله، وهي الحجة الكونية. ولعلَّه لا يوجد في الغرب مَن يُحسن صياغة هذه الحجة مع الردِّ على الاعتراضات عليها مثل البروفسور كرايغ. كما أنه اشتركَ مع مجموعة من علماء الغرب في تأليف كتاب: «الله طيب الله كبير» (God is Good God is Great) بكتابة فصل: «ريتشارد دوكينز عن الحجج على وجود الله» (Richard Dawkins on Arguments for God) وتحدّث فيه عن الحجَّة الكونية، والحجَّة الأخلاقية، والحجَّة الغائية، والحجَّة الوجودية بكلام متميِّز.

ومما يتميَّز به البروفسور وليام لاين كرياغ أنه صاحبُ تجربة طويلة مع الملاحدة. وسوفَ يظهر في المبحث القادم - إن شاء الله - أنَّه من أكثر علماء الغرب مناظرةً مع الملاحدة؛ فهو خبيرٌ بكلامهم واعتراضاتهم. ولهذا، فإنه يعرف الاعتراضات التي يذكرها الملاحدةُ على الأدلة العقلية على وجود الله فيحترزُ في كلامه كثيرًا حتى لا يفتح لهم بابَ الانتقاد بصياغاتٍ غير دقيقة. ولهذا كان حريًّا بالاستفادة منه في هذا المجال.

ثانيًا: كتبٌ في بيان الأدلة العلمية على وجود الله:

بينما كان المتقدِّمون يوردونَ الأدلة العقلية المحْضة على وجود الله، فإنه يكثر عندَ المعاصرين إيرادُ الأدلة العلمية على وجودِه سبحانه وتعالى. وذلك أن العلم التجريبي يتبوأ مكانةً رفيعة في العصر الحديث، والناس يتأثَّرون به أكثر من الأدلة العقلية المحضة.

والكتبُ في هذا المجال كثيرة جدًّا، وهي تتنوَّع حسب مجالات العلم التجريبي. وأكثرُ المجالات التي يكتب فيها علماءُ الغرب هي: علم الكون، والفيزياء وعلم الأحياء. وبيانُ ذلك كما يلي:

علمُ الكون: بعضُ علماء الغرب يركِّزون على الأدلة العلمية المشاهدة في الكون على وجودِ الله، وأبرزُ هؤلاء العلماء - فيما أرى - : الدكتور هيو روس - عالم الفيزياء

الكونية الكندي -. وقد ألَّف الدكتور روس عددًا من الكتب في هذا الموضوع؛ منها: «لماذا الكون بهذه الطريقة» (Why the universe is the way it is)، و«الخالق والكون» (The Creator and the Cosmos)، و«ما وراء الكون» (Beyond the Cosmos). وهذه الكتب جيِّدة ومفيدة، ويلاحظ أنَّ الدكتور روس متخصِّص في علم الكون مع حسن صياغة دلالة هذا العلم على الخالق.

الفيزياء: قد ألَّف علماء الغرب عددًا من الكتب عن الأدلة الفيزيائية على وجودِ الله، ومِن أبرز هؤلاء المؤلِّفين هو جون بولكنغهورن[1]، وهو عالمُ فيزياء مرموق، حيث كان بروفسور الفيزياء الرياضية في جامعة كامبردج فترةً طويلة، والحاصل على زمالة الجمعية الملكية البريطانية. قد ألَّف البروفسور بولكنغهورن خمسة كتب في الفيزياء وستة وعشرين كتابًا عنِ العلاقة بين العلم التجريبي والدين[2]. ومن ضمن هذه الكتب: كتب كثيرةٌ عن الأدلة الفيزيائية على وجود الله، مثل: «إيمان الفيزيائي» (The Faith of a Physicist)، «الفيزياء الكمّية وعلم اللاهوت» (Quantum Physics and Theology). كما أنه اشتركَ في تأليف كتاب: «الله طيب، الله عظيم» (God is Good God is Great)، بكتابة فصل: «الله والفيزياء» (God and Physics) وهو نافعٌ ومفيد. ولكونه أحد أشهر الفيزيائيين في هذا العصر فإنَّ لكلامه وزنه حتَّى عند غير المتديِّنين.

علمُ الأحياء: الأدلةُ على أنَّ المخلوقات الحيَّة مخلوقة بإتقان كثيرة، حتى إنّ الملحدَ العنيدَ ريتشارد دوكينز قد اضطرَّ أن يقول: «الكائنات الحية تبدو مصمَّمة، إنها تبدو بشكلٍ غامر كما لو أنها مصمَّمة»[3]. ورغم ذلك استكبرَ وأعرض وتولّى وأنكر ذلك. ولكنَّ

---

(١) جون بولكنغهورن (John Polkinghorne): قسيس أنجليكاني، وبروفسور الفيزياء الرياضية في جامعة أكسفورد لمدّة ١١ سنة. وقد ألّف بعض الكتب المهمّة والأساسية في ميكانيكا الكم. انظر: https://www.closertotruth.com/contributor/john-polkinghorne/profile

(٢) انظر: https://mottod.com/authors/john-polkinghorne

(3) Royal Institution Christmas Lectures, 1991

علماءَ الغرب قد ألَّفوا كتبًا عديدة، وبيَّنوا الأدلةَ الواضحة البيِّنة على التصميم والإتقان في المخلوقات الحيَّة الدالَّة على خالقها. ومن الأمثلة على هذه الكتب كتاب: «تصميم الحياة: اكتشاف علامات الذكاء في النظم البيولوجية» (The Design of Life: Discovering Signs of Intelligence in Biological Systems)[١] الذي اشترك في تأليفه: الدكتور وليام ديمبسكي، والدكتور جونتان ويلز. ويركّز هذا الكتاب على بيان دلالة النُّظم البيولوجية على التصميم.

ومِن الكتب المتميِّزة في هذا المجال كتاب: «توقيع في الخليّة: الدنا وأدلة التصميم الذَّكي» (Signature in the Cell: DNA and the Evidence for Intelligent Design)[٢] للدكتور ستيفن ماير.

ثالثًا: كتبٌ في إثبات المعجزات:

قد وردَ في كلٍّ مِن كتابهم المقدَّس والقرآن الكريم ذكر عددٍ من المعجزات للأنبياء. وكما أنَّ هذه المعجزات دليلٌ على صدق الأنبياء، فإنها دليل على وجود الله وربوبيته أيضًا. وهو دليلٌ حسِّي قوي يشاهده مَن حضر، يتناقله الشهود للغائبين. وحيث إن الملاحدةَ استطالوا على دليلِ المعجزات وشكَّكوا في وقوعها بزعمهم أنها تتناقض مع قوانينِ الطبيعة، فقد ألَّف علماءُ الغرب عددًا من الكتب في إثبات هذه المعجزات، وردُّوا على شبهات الملاحدة في ذلك. مِن أشهر الكتب في هذا المجال كتاب: «المعجزات» (Miracles) للبروفسور سي أس لويس الذي صدر عام ١٩٤٧ م. وكان البروفسور لويس يجيدُ الكتابة؛ حيث إنَّه كان أديبًا مشهورًا في بريطانيا، حتى وُضع في قائمة: «أعظم خمسين كاتبًا في بريطانيا منذ١٩٤٥م.» (The ٥٠ Greatest British Writers Since ١٩٤٥)[٣]. فكانت لغتُه مؤثِّرة مع قوّة الحجج والأدلة.

---

(١) وقد ترجمت مؤسسة تكوين للدراسات والأبحاث هذا الكتاب إلى العربية، وطبع عام ٢٠١٤م.

(٢) وقد ترجم مركز براهين لدراسات الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية هذا الكتاب إلى اللغة العربية عام ٢٠١٧.

(٣) انظر:
https://www.thetimes.co.uk/article/the-50-greatest-british-writers-since-1945-ws3g69xrf90

وممَّن تميَّز في هذا الباب: البروفسور جون لينوكس؛ فقد خصّص فصلًا في كتابه: «حانوتي الإيمان بالله» (God's Undertaker) للكلام عن المعجزات وعدم تعارضها مع قوانين الطبيعة، فأفاد وأجاد.

ومِن الكتب الأكاديمية الجيِّدة في مجال المعجزات: «المعجزات والعقل الناقد» (Miracles and the Critical Mind) للبروفسور كولن براون[١]؛ فقد سرد المؤلّف تاريخَ علم اللاهوت المتعلِّق بالمعجزات، والاعتراضات عليها مع الردود. وهذا الكتاب عميق جدًّا، ومفيدٌ في نقد الاعتراضات على المعجزات.

رابعًا: كتبٌ في نقدِ خطاب الإلحاد الجديد:

قد سبقَ في أوَّل هذا المبحث أنَّ علماء الغرب قد ألَّفوا أكثر من سبعين كتابًا في الردِّ على كتاب: وهْم الإله، لريتشارد دوكينز. وهذه الكتبُ أمثلة على الكتب النقدية لخطابِ الإلحاد الجديد المتطرِّف وشبهاته. ومِن أشهر الكتب في نقد خطاب الإلحاد الجديد: «الردُّ على الإلحاد الجديد: تفكيك قضية دوكينز ضدّ الإله» (Answering the New Atheism: Dismantling Dawkin's Case against God) للبروفسور سكوت هون، والبروفسور بنيامين ويكر. فقد تميَّز هذا الكتاب بقوَّة حججه في نقد خطاب دوكينز والردِّ على خزعبلاته، حتَّى قال البروفسور أنطوني فلو - الملحد المشهور الذي ترك الإلحاد قبلَ وفاته - عنْ حجج هذا الكتاب: «نادرًا، وربما لم يحصل قط، أنني في سنواتي العديدة كبروفسور في الفلسفة حصلتُ على الفرصة أن أقرأ حجَّة مقنعة مثل هذه»[٢]. ومِن الكتب المتميِّزة في نقدِ خطاب الإلحاد الجديد كتاب: «وهم الشيطان: الإلحاد ومزاعمه العلمية»

---

(١) كولن بـراون(Colin Brown): بروفسور اللاهوت النظامي في معهد فولير اللاهوتي بالولايات المتّحدة. توفي عام ٢٠١٩م. انظر:

https://www.fuller.edu/posts/in-memoriam-colin-brown/

(٢) هذا الكلام مثبت على الغلاف الخلفي لكتاب: Answering the New Atheism

(The Devil's Delusion: Atheism and its Scientific Pretensions)[1] للدكتور ديفيد برلينسكي[2]. وقد تميَّز هذا الكتاب بأن الدكتور برلينسكي نفسه ليس بمتديِّن، ولهذا كان لكتابه وقعٌ أقوى مما لو ألَّف أحد المتديِّنين، إضافة إلى ما فيه من قوّة الحجَّة وتفكيك خطاب الإلحاد الجديد.

خامسًا: كتبٌ في نقد المذهب المادي:

قدْ سبق أنَّ المذهب المادي من أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر الذي يقوم عليها. ولأهميةِ هذا المذهب اهتمَّ علماءُ الغرب بنقده، حيث إذا سقط الأساس انهار بقية المذهب. ومِن أبرز المؤلَّفات في نقد المذهب المادي كتاب: وهْم العلم التجريبي، للدكتور ريبيرت شيلدرايك الذي سبقتِ الإشارةُ إليه في مبحث: بيان مخالفة المنهج العلمي المادي للواقع، في الفصل الماضي. ولعلَّه أمتع كتاب في هذا الباب.

ومِن الكتب المتميِّزة في هذا الباب كتاب: «المذهب الطبيعي: تحليل نقدي» (Naturalism: A Critical Analyses)، الذي اشترك في تأليفه ١١ فيلسوفًا غربيًّا، كلُّهم يحملون شهادةَ الدكتوراه في الفلسفة. وهذا الكتاب، وإن كان مفيدًا، فإنه عميق جدًّا بحيث لا يستفيد منه إلا المتخصِّص في الفلسفة.

وقد أسهمَ البروفسور جون لينوكس إسهامًا جيِّدًا في نقد المذهب المادي في كتابه النافع: «حانوتي الإيمان بالله» (God's Undertaker) حيث تكلّم عن هذه المسألة في بابين مِن أبواب الكتاب الاثني عشر.

---

(١) وقد ترجم مركز دلائل هذا الكتاب إلى اللغة العربية عام ١٤٣٧.

(٢) ديفيد برلينسكي (David Berlinski): فيلسوف وعالم أمريكي من أصل يهودي. يحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برينستون المشهورة بالولايات المتّحدة، كما أنه تخصّص في الرياضيات وعلم الأحياء. انظر: https: / /davidberlinski.org /biography/

سادسًا: كتبٌ في درْءِ التَّعارض بين الإيمان والعلم التجريبي:

الملاحدةُ الجدد يركّزون كثيرًا على مسألةِ تعارض الإيمان مع العلم التجريبي. وذلك لجهلِهم أو تجاهلهم لحدودِ هذا العلم، فيعطونه منزلة لا يستحقُّها. وقد تصدَّى علماء الغرب لدعوى التعارضِ ببيان حقيقة حدود العلم التجريبي ومجالاته المعيَّنة التي لا يجوز أن يتعدَّاها. ولعلَّ أبرزَ كتاب في هذا المجال هو كتاب: «حدود الحقيقة العلمية» (The Limitations of Scientific Truth) للبروفسور نيجل بروش. وهذا الكتاب يتميَّز بسهولة أسلوبِه وقوَّة حججه، مدعومًا بكثيرٍ من النقول المفيدة في هذا الباب. كما أنه بيَّن أن العلمَ التجريبي إذا وُضِع في إطاره الصحيح لا يتعارض مع الإيمان.

ومِن الكتب المفيدة في هذا الباب: وهم العلم (The Science Delusion) للدكتور روبيرت شيلدراك. وقد سبق أن نقلتُ من هذا الكتاب كثيرًا في مبحث: بيان مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي.

وقد أفادَ البروفسور جون لينوكس في هذا الموضوع في كتابه: «الرماية نحو الإله: لماذا لا يصيب الملاحدة الجدد الهدف» (Gunning for God: Why the New Atheists are Missing the Target)، حيث أفرد فصلًا كاملًا عن موضوع: عدم تعارض العلم التجريبي والعقل للإيمان.

سابعًا: كتبٌ في نقد النظريات العلمية التي يتبنّاها الملاحدة:

الملاحدةُ لا يذكرون أنَّ العلم التجريبي يخالف الإيمان من حيث العموم فحسب، بل يذكرون عدَّة أمثلة على نظريات علمية مخالفة للمعتقدات الدينية. وأكثر ما يركّزون عليه: النظريات العلمية المتعلِّقة بأصْل الكون، ونظرية التطوُّر. وذلك أنَّهم يرون أن النظرياتِ العلمية المتعلِّقة بأصل الكون تنقض الحجةَ الكونية على وجود الله، وأن نظرية التطوُّر تنقض الحجة الغائية.

وقد ألَّف علماءُ الغرب مؤلَّفات كثيرة جدًّا في نقد نظرية التطوُّر. وبالتتبُّع والاستقراء يظهر أنَّ عددَ الكتب التي أُلِّفَت في نقد نظرية التطوُّر فقط قد تزيد عن

مائة كتاب. وبعضُ هذه الكتب اشترك عددٌ من العلماء في تأليفها مثل كتاب: «التطوّر الإلهي» (Theistic Evolution)، فقد اشتركَ في تأليفه ستة وعشرون عالمًا من علماء الغرب. وكتاب «عقب أخيل للتطوّر» (Evolution's Achilles' Heel)، ألّفه تسعة من علماء الغرب، كلُّهم يحملون شهادة الدكتوراه في العلوم التجريبية.

وبعضُ هذه الكتب النقدية لنظرية التطوُّر أَلَّفها علماء غيرُ متديِّنين مثل: الدكتور مايكل دينتون، فإنه يصنِّف نفسَه بأنه لاأدري، ولكنَّه ردَّ على النظرية بناء على مخالفتها للأدلَّة العلمية. وقد ردَّ على النظرية في كتابين متميِّزين همَا: «التطوّر: نظرية في أزمة» (Evolution: A Theory in Crisis) الذي صدر عام ١٩٨٥م، وكتاب: «التطوّر ما تزال نظرية في أزمة» (Evolution: Still a Theory in Crisis)، الذي صدر عام٢٠١٦[(١)]م.

وهناك عددٌ من الكتب في نقدِ شبهات الملاحدة في علم الكون. ومن هذه الكتب، كتاب: «استعادة علم الفضاء» (Taking Back Astronomy) للدكتور جاسون ليزلي، فقد ردَّ في هذا الكتاب على نظريةِ الانفجار العظيم، وذكر عددًا من الاعتراضات القويَّة على هذه النظرية.

ومِن الكتب الجيِّدة في هذا المجال كتاب: «الإله وستيفن هوكينغ» (God and Stephen Hawking)، للبروفسور جون لينوكس. وردَّ في هذا الكتاب على ستيفن هوكينغ، وما سطَّره في كتابه: التصميم العظيم مِن استغناء الكون عن الخالق. كما أنه تطرّق إلى الردِّ على نظرية الأكوان المتعدِّدة[(٢)]. وهو كتابٌ رغمَ صغر حجمه نافعٌ ومفيد في بابه.

فيتبيَّن خلالَ هذا الباب أنَّ علماء الغرب قد أَلَّفوا مؤلَّفات كثيرة جدًّا في نقد الإلحاد، ولعلَّها مِن أبرز وسائلهم في سبيل مكافحة هذا الداء العُضال.

---

(١) وقد ترجم مركز براهين الكتابين إلى اللغة العربية، وصدرَا عام ٢٠١٧.

(٢) الأكوان المتعدّدة (Multiverse): مفهوم نظري يشير إلى مجموعة من الأكوان المنفصلة سببيًّا، وأي شيء قد يكون موجودًا خارج حدود هذه الأكوان أو بينها. انظر:
https://oxfordre.com/religion/view/10.1093/acrefore/9780199340378.001.0001/acrefore-9780199340378-e-157

المبحثُ الثّاني
عقدُ المناظرات

حيث إنَّ النقاش بينَ الملاحدة والمتديِّنين قد اشتدَّ كثيرًا في الآونة الأخيرة، فإن الطرفين قد اتَّفقَا على عقد مناظرات بينهما. وهذه المناظرات كثيرة جدًّا ومنتشرة في الغرب. وقد اهتمَّت إحدى قنوات يوتيوب بعرض هذه المناظرات، فبلغ عددها ٣١٤ مناظرة[١]!

وليست كلُّ مناظرة لها تلك القيمة العلمية، ولكن بعض المناظرات مفيدة وجيِّدة، وكان لها صدًى كبيرٌ في النقاش الديني. وأشهرُ المناظرين من المتديِّنين بالتتبُّع والاستقراء هُم: البروفسور وليام لاين كرايغ، والبروفسور جون لينوكس، والبروفسور ألستر ماكغراث. وهذه أشهرُ المناظرات التي أقاموها، معَ تعريف مختصر لكلِّ مناظرة:

مناظراتُ البروفسور وليام لاين كرايغ:

حسبَ اطِّلاع الباحث فلا يوجد أحدٌ من علماء الغرب ناظرَ الملاحدة أكثر من البروفسور كرايغ؛ فلديْه مناظراتٌ كثيرة جدًّا في موضوع الإلحاد. ووليام لاين كرياغ بروفسور في الفلسفة، ومتخصِّص في المنطق والجدل، فيعرف كيف يقيم الأدلة، وينتقد الخصوم. وبسببِ خبرته الطويلة وعلمِه في هذا المجال تميَّز كثيرًا في مناظراته، حتى خاف ريتشارد دوكينز من مُناظراته، وتهرَّب عدَّة مرَّات إلى أنْ وافق على مناظرته مع صديقه مايكل شيرمر[٢] في مناظرةٍ بعنوان: «ما المشكلة إذا لا يوجد

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com /user /AtheistTheistDebates /videos

(٢) مايكل شيرمر (Michael Shermer): حامل شهادة الدكتوراه في تاريخ العلوم من جامعة كليرمونت في الولايات المتّحدة، ومؤسّس الجمعية الشكوكية. وهو أحد دعاة الإلحاد المشاهير. انظر: https: / /michaelshermer.com /bio /

إله؟» (What's the Problem if there is no God?)، وقد ظهر البروفسور كرايغ عليهما بحججٍ قويَّة مقنعة[1].

والبروفسور كرايغ قد ناظرَ كثيرًا من رؤوس الملاحدة في هذا العصر في موضوعات متعدِّدة، وإن كان التركيزُ الأكبر على إثباتِ وجود الله. وهذه أمثلة على هذه الموضوعات:

الموضوعُ الأوَّل: «هل الله موجود؟» (Does God exist?) قد ناظر البروفسور كرايغ كلًّا من: كريستوفير هيتشن والبروفسور بيتر أتكنز مرّتين[2]، ولورانس كراوس[3] عن هذا الموضوع. ومضمونُ هذه المناظرات متقارب، وهو أنَّ البروفسور كرايغ يبيِّن في أوّل المناظرة الحججَ على وجود الله؛ والحججُ التي يذكرها في مناظراته هي:

١) الحجَّة الوجودية. ٢) الحجَّة الكونية.

٣) حجَّة التوافق الدقيق للكون. ٤) الحجَّة الأخلاقية.

٥) الخبرة الشخصية الحسِّية بوجود الله - مثل: إجابة الدعاء -[4].

---

(١) انظر:

https://www.youtube.com/watch?v=J2CAAf2CmOg

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=kYkfSd4i0sI

وانظر: https://www.youtube.com/watch?v=sTJ4m5fhLJg

(٣) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=CBGWFB2W1O8

(٤) ثمّة دليل سادس يذكره البروفسور كرايغ تبعًا للعقيدة النصرانية، وهو قيامة المسيح بعد الموت. هذا الدليل مَفاده أنَّ المسيح u قد مات، وقام بعد الموت. وهذه القيامة تكون بقدرة الله، فيكون دليلًا على وجوده، وكذلك أنّه دليلٌ مؤيّد للديانة النصرانية. ولكنّ هذا الدليل مبني على شهادات في الأناجيل الأربعة، وهذه الكتب لا يوثق بها - كما هو مبسوط في غير هذا الموضع -. وقد دلَّ القرآن على أن المسيح لم يمت إذ يقول الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [سورة النساء:١٥٧].

والحديثُ عن هذه الحجج سيأتي في الباب الثاني - إنْ شاء الله - مفصَّلًا.

ثمَّ تستمرُّ المناظرات بإيرادِ الملاحدة بعض الشبهات على وجود الله، مثل: مشكلة الشَّر، نظرية التطوُّر، وحجَّة عدم الإيمان، وبعض الشرور المترتِّبة على الأديان. ثمَّ ينتقدُها البروفسور كرايغ ويبيِّن وهنَها. والحديثُ عن هذه الشبهات والردُّ عليها سيأتي في الباب الثالث - إن شاء الله - مفصَّلًا.

الموضوعُ الثّاني: «هل أساسُ الأخلاق طبيعي أو فوق طبيعي؟» (Is the FoundationMorality Natural or Supernatural?). وقد ناظر البروفسور كرايغ الملحد سام هاريس في هذه المسألة[1]. والبروفسور كرايغ يوردُ الأدلة في هذه المناظرة على أنَّ الإلحاد لا يؤسِّس لأخلاقٍ موضوعية، وأنَّه لا يمكن للملحد أن يقول: إن الإبادة الجماعية والاغتصاب - على سبيل المثال - ليست أفعالًا شنيعة بطريقة موضوعية. يمكن للملحدِ أنْ يستنكر هذه الأفعال، ولكنَّه لا يستطيع أن يقيمَ أساسًا سليمًا لهذا الاستنكار، لأنَّ الإلحاد قرينُ العدمية والنِّسبية الأخلاقية. وهذه حججٌ نقدية قويَّة للإلحاد، وأنه غير قادر على شرح أصول الأخلاق.

الموضوعُ الثّالث: «لماذا يوجد شيء وليس لاشيء؟» (Why is there something rather than nothing?). وقد ناظرَ البروفسور كرايغ الملحد لوارنس كراوس في هذا الموضوع[2]. وكراوس يعتبر أحدَ أشهر علماء الكون في هذا العصر، ولكنّه ضعيف جدًّا في إيراد الأدلةِ العقلية والفلسفية. فالبروفسور كرايغ يوردُ الأدلةَ العقلية الفلسفية عن هذه القضية، والبروفسور كراوس يناظرُ بناءً على نظرياته الإلحادية في علم الكون. ولكنَّ البروفسور كراوس يقوم بتلبيس مشهور في هذه القضية، وهو أنَّه يزعم أنه يمكن أن يأتي شيء من لاشيء، إذ يعيدُ تعريفَ لاشيء بأنه فراغ كمِّي. وما يذكره غير صحيح؛ لأنَّ الفراغَ الكمِّي لا يعتبر لاشيء، وإنَّما حالة كمومية بأدنى طاقةٍ ممكنة. وهذا الفراغ الكمّي في الحقيقة شيء، ولكنْ بطاقةٍ ضئيلة.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=5VmLQjdT7IA

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=U4M4ZUAcyV8

فأصلُ دليل البروفسور كراوس غلط، ومبني على تلبيسٍ وتدليس. وبذلك استطاع البروفسور كرايغ أن يهزمَه في المناظرة.

الموضوعُ الرّابع: «هل دفن العلمُ التجريبي الإله؟» (Has Science Buried God?)[1]. قدْ ناظر البروفسور كرايغ البروفسور كراوس في هذه المسألة. وبدأ كراوس المناظرة بإيراد شُبهات متعلِّقة بـ(إله الفراغات)، أي أنه كلَّما يتقدَّم العلم التجريبي بتفسير الظواهر الكونية وفقَ قوانين الطبيعة تقلُّ الحاجة إلى إلهٍ متصرِّف في الكون. وقد ردَّ البروفسور كرايغ على هذه الشبهة بأنه سوءُ فهمٍ للاعتقاد بوجود الخالق. الإله الخالق هو الذي يفسِّر وجودَ قوانين الطبيعة أصلًا. وأقام البروفسور كرايغ ثلاث حجج أخرى:

١) أنَّ الإيمان بالله يضع الأسسَ الصحيحة لوجود العلم التجريبي أصلًا، لأنّه يفسِّر انتظامَ الكون، وأنَّه يمكن فهمه وإدراكه.

٢) أنَّ العلمَ التجريبي قد جاء مؤيِّدًا للمعتقد الديني أنَّ الكون غير أزلي، وله بداية.

٣) أنَّ العلمَ التجريبي المبنيَّ على المذهب الطبيعي قاصرٌ عن تفسير جميع الظواهر الفيزيائية، ولكنَّه يمكن لعلم اللاهوت تفسيرُ هذه الظواهر حيث أنَّ المتديِّنين يؤمنون بوجود عالم غيبي أيضًا.

وكلُّها حجج قويَّة ومقنعة، ولم يستطعِ البروفسور كراوس أن يجيب عليها بإجابات مقنعة.

مناظراتُ البروفسور جون لينوكس:

جون لينوكس بروفسور في الرياضيات في جامعة أكسفورد، كما أنه متخصِّص في فلسفة العلوم وتاريخها. وهذا يعطيه ميْزتين في المناظرات، وهما: إيراد الحجج المنطقية القويَّة، وكذلك اطِّلاع واسعٌ على العلوم التجريبية. فهو ليس عالما متخصصًا في علم تجريبي معيَّن

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=Qb1-F_UEtS4

مثل: علم الأحياء أو علم الكون، ولكنَّه درسَ الأسس الفلسفية للعلم التجريبي، وتاريخَ هذه العلوم كلِّها من حيث العموم. وهذا يجعله يتفوَّق على مَن يناظره مِن الملاحدة، ويستطيع أن يلزمَه بإلزامات قويَّة. إضافة إلى ما يتمتَّع به من الاحترام في الكلام، وأسلوب حواريٍّ هادئ، بخلاف الملاحدة الذين يغلب عليهم الأسلوبُ الاستهزائي والتهكُّمي.

وقد ناظرَ البروفسور لينوكس في مناظراتٍ عديدة رؤوسَ الإلحاد المعاصر وأفحمهم، وقدَّم حججًا قويَّة مُقنعة بخلاف خصومِه. ومِن أشهر مَن ناظره البروفسور لينوكس:

المناظرُ الأوَّل: ريتشارد دوكينز. وقد ناظره البروفسور لينوكس مرّتين:

المرَّةُ الأولى: «مناظرة وهم الإله؟» (The God Delusion Debate)[١] عام ٢٠٠٧، أيْ بعدَ سنة من صدور كتاب: وهم الإله، لدوكينز. وقد شاهد أكثرُ من مليون شخص هذه المناظرة عبرَ البثِّ المباشر[٢]، ثمَّ فرّغت المناظرةُ في كتاب متداول في الأسواق[٣]. وقد بيَّن البروفسور لينوكس في هذه المناظرة الأخطاءَ العلمية في كتاب دوكينز.

المرَّة الثّانية: «هل العلم التجريبي دفن الإله؟» (Has Science Buried God?)[٤] عام ٢٠٠٨، وهي مِن أشهر المناظرات بين ملحدٍ ونصراني في هذا العصر، حيث أنها أقيمتْ في المتحف الطبيعي في جامعة أكسفورد. وهو المتحف الذي أقيمت فيه مناظرة عنْ نظرية التطوّر عام١٨٦٠م بينَ أحدِ أنصار داروين وبين قسيس. وقد اشتهر بين الناس أنَّ التطوُّر غلبَ القسيس في المناظرة، فكان الناس يرونَه دليلًا على صحة نظرية التطوُّر، وهزيمة الدين - وسيأتي الحديثُ المفصَّل عنه في المبحث المتعلّق بنظرية التطوّر إنْ شاء الله.

---

(١) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=zF5bPI92 - 5o

(٢) انظر: https: / /www.namb.net /apologetics /resources /debate – john – lennox – and – richard – dawkins

(٣) انظر: https: / /www.amazon.com /Delusion – Debate – Richard – Dawkins - Lennox/dp/B001C19HNM

(٤) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=J0UIbd0eLxw

فإعادةُ هذه المناظرة في ذلك المكان كان له تأثيرٌ رمزي كبير. ولكنَّ البروفسور لينوكس كان أقوى حجَّةً من دوكينز، وأفحمَه في كثيرٍ من النقاط المهمَّة. وقد شاهد أكثرُ من ١,٢ مليون هذه المناظرة، ويظهر مِن تتبُّع التعليقات أنَّ كثيرًا من الناس رأوا أن الغلبةَ كانت للينوكس، وليس لدوكينز.

المُناظر الثّاني: لورينس كراوس. وعنوانُ المناظرة: «هل الكون يترك مكانًا للوجود الإلهي؟» (Does Cosmos Leave Space for God?)[1]. قد ناظره البروفسور لينوكس عن موضوعِ الأدلة العلميةِ الكونية على وجود الله. والبروفسور كراوس كعادته ضعيفٌ في حججِه، ولكنَّه كثيرُ التهكُّم والسخرية؛ فمَن شاهد المناظرة متحلِّيًا بالإنصاف وجد أنَّ كلامَ البروفسور لينوكس أكثرَ منطقية وأقوى حججًا من سخريات كراوس.

المُناظرُ الثّالث: الدكتور مايكل شيرمير. والمناظرةُ بعنوان: «طبيعة الشرِّ والألم» (The Nature of Evil and Suffering)[2]. وهذا الموضوع خطيرٌ وحسَّاس، وذلك أنه يشتمل على جانبيْن: الجانب المنطقي، والجانب العاطفي. وأمّا الجانب المنطقي، فيمكن الإجابةُ عنْ مشكلة الشرِّ بذكر الحِكَم مِن وجود هذه الشرور، وقد فعل البروفسور لينوكس ذلك. وأمَّا الجانب العاطفي، فقد اعترفَ البروفسور لينوكس أنَّ الإجابة عليه أصعب، ولا سيَّما لمن حصلَ له الألم، أو إذا أصيب أحدُ الأقرباء بالسرطان على سبيل المثال. ولكنْ مع ذلك، فإنَّ الإجابة على مشكلة الشرِّ أصعبُ على الملحد، حيث أنه لا يمكن أن يفسِّر وجود الخير والشرِّ، وكذلك الإلحاد لا يعطي صاحبَه الأمل والرجاء للآخرة. وأمّا مايكل شيرمير فكان ضعيفَ الحجَّة، مع أنه يعتبر من رموز الإلحاد في هذا الزَّمان. فلم يستطعْ أن يفسِّر طبيعة الشر أصلًا، وإنما قفزَ لذكر بعض الأمثلة العاطفية على وجود الشرور، واستهزأ بالمعتقدات الدينية.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=o7CKDLKP4ek

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=w6QSmwwGR50

المناظرُ الرّابع: البروفسور بيتر أتكنز. وعنوانُ المناظرة: «العلم التجريبي والإله» (Science and God)[1]. ولم تكنْ مناظرة بطريقة تقليدية، وإنما هي أشبه ما يكون بحوار عنْ مسائل متعلِّقة بالعلم التجريبي والإيمان بالله. والبروفسور أتكنز حاولَ خلال الحوار أن يقدِّم خياريْن: إمّا أن تؤمن بالله، وإمّا أن تؤمن بالعلم التجريبي. وقد ردّ البروفسور جون لينوكس على هذا الخيارِ الثُّنائي بذكر عددٍ من الأدلة المقنعة على أنه لا تعارض بينَ العلم التجريبي والإيمان بالله، بل كان مِن أكبر العلماء التجريبيين عبرَ التاريخ يؤمنون بالله، ورأوا أنَّ هذا الإيمان كان الحافزَ الأكبر لعملهم البحثي العلمي. وكان البروفسور لينوكس أقوى حجَّة من البروفسور أتكنز في هذا الحوار.

المناظرُ الخامس: كريستوفر هيتشن. والمناظرة بعنوان: «هل الإله عظيم؟» (Is God Great?). كانت هذه المناظرة عن كتاب هيتسن: «الإله ليس عظيمًا» (God is not Great). كان هيتشن مَن بدأ هذه المناظرة بإلقاءِ كلمة، ولكنَّه لا يكاد يبين في كلامه، فيصعبُ فهمُ ما يريد أن يصلَ إليه، غيرَ أن يستهزئ ويتهكَّم بالأديان والمتديّنين. ولكن زبدة كلامه أنَّه يرى أنَّ العلمَ التجريبي بديلٌ للإيمان بالله، وأنَّ الأديان لم تأت بشيء سوى الشُّرور والمشاكل. وأمَّا البروفسور لينوكس، فقد أفحمَه بقوَّة بذكر الأدلة المقنعة على أنَّه لا تعارضَ بين العلم التجريبي والإيمان بالله، وهي مسألة قد ألَّف فيها كتابه المشهور: حانوتي الإله (God's Undertaker). كما أنه ردَّ عليه في مسألة الشرور المترتِّبة على الأديان، بأنَّ ذلك لا يدلُّ على شيء، بل بهذا المنطق لا بدَّ أن ننكر الإلحاد لأنه كان وراءَ بعض أسوأ الشُّرور عبر التاريخ. وهذا المنطقُ يلزمنا إنكار العلم التجريبي قد قدَّم لنا القنبلة النووية، وكثيرًا من الأسلحة، ولكنَّنا لا نفعل ذلك لأنها حجة واهية.

فكان البروفسور لينوكس أقوى حجَّة من هيتشن. وقد اعترف هيتشن في مقابلة بينَه وبينَ البروفسور لينوكس بعدَ المناظرة أنه قد ظهرتِ استبانة بعد المناظرة أن الناسَ صوَّتوا على أن لينوكس فازَ في المناظرة، وكان أقوى حجَّة منه[2].

---

(١) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=LkayCWHzrz4

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=jB6BTb8Dinw

مناظرات ألستر ماكغراث:

ألستر ماكغراث بروفسور في تاريخ علم اللاهوت، ويحمل شهادة الدكتوراه في علم الأحياء الجزيئي أيضًا. وهذا يجعله قويًّا في إقامة الأدلة اللاهوتية على وجود الله، مع تخصُّصه في العلوم التجريبية. وكان البروفسور ماكغراث ملحدًا، ثمَّ ترك الإلحاد وتنصَّر. وهذا يُعطيه قوَّة في المناظرة أيضًا، حيث أنه خبيرٌ بالإلحاد من داخل المذهب. وقد ناظر البروفسور ماكغراث رؤوسَ الإلحاد في هذا الزمان، ومن هؤلاء:

المناظرُ الأوَّل: ريتشارد دوكينز. والمناظرةُ بعنوان: «مناظرة وهم الإله» (The God Delusion Debate)[1]. هذه المناظرة مسجَّلة بالصوتِ دون الصورة. وكان دوكينز يتحدَّث عنْ كتابه: «وهم الإله» (The God Delusion)، والبروفسور ماكغراث تحدّث عن كتاب: «وهم دوكينز» (Dawkins Delusion). وقد اعتادَ الملاحدة أن يهاجموا الأديان والمتديِّنين، ولكنَّ هذه المناظرة كانت بالعكس؛ وهو أنَّ البروفسور ماكغراث ينتقد أفكار دوكينز. وتركَّزت المناظرةُ على قضية الشُّرور المترتِّبة على الأديان، وقد ألزمه البروفسور ماكغراث بالخيرِ المترتِّب على الأديان والتديُّن، وأنَّ الخير أكثرُ من الشَّر. كما أنهما تحدَّثَا عن قضايا أخرى كالعلاقة بين العلم التجريبي والإيمان، والأسس الأخلاقية.

المناظرُ الثّاني: دانيال دينيت، عن موضوع: «الإله والدين» (God and Religion)[2]. كانت المناظرة عن كتابِ دنيال دينيت: «فكّ السحر» (Breaking the Spell)، الذي قدَّم فيه دينيت نظريتَه عن نشأة الأديان. وخلاصة كلامه أنه يحاول أن يفسِّر وجودَ التديُّن لدى الإنسان بنظرية التطوُّر، وبالأخصِّ بنظرية الميم التي اخترعها ريتشارد دوكينز. ولكنَّ تخصُّصَ دانيال دينيت في الفلسفة، وليس في تاريخ الأديان وعلم الأحياء اللَّذيْن هما من تخصُّصات البروفسور ماكغراث؛ فقد غلبه البروفسور ماكغراث في المناظرة، وبيَّن أنَّ هذه النظرية فرضية غير مبنية على أدلة علمية صحيحة. ومن المضْحِك أنَّ الملاحدة

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=qpCz7622Cp4

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=DiOXkO1tRbA

يتَّهمون المتديِّنين أنَّ الإيمان فرضية غير مبنيَّة على أدلة علمية، فبيَّن البروفسور ماكغراث شدَّةَ تناقضهم في هذا الباب، وانهزم دينيت في المناظرة.

المناظرُ الثّالث: كريستوفر هيتشن. والمناظرةُ بعنوان: «سمّ أو دواء: الإيمان الديني في العالم الحديث» (Poison or Cure: Religious Belief in the Modern World)[1]. كانت هذه المناظرة عنِ الشُّرور المترتِّبة على الأديان. وهيتشن لا يقدِّم أدلة عقلانية في الغالب، بل يتهكَّم ويستهزئ، ويستخدم العواطفَ عند المستمعين ليقلِّل من شأن الدين. وأما البروفسور ماكغراث فهوَ أكثرُ أدبًا منه بكثير، وهذا مما نبَّه عليه بعض المعلِّقين في يوتيوب. وهو أيضًا أقوى حجَّة من هيتشن حيث أنه بدأ كلامه بمعارضة هيتشن بذكر بعضِ الشُّرور المترتِّبة على الإلحاد، ثمَّ ذكر أنَّ الشرور قد يفعلها الإنسان سواء أكان متديِّنًا أو ملحدًا، ولا يمكن أن نجعلَ هذه الشرور الصادرة من بعض الناس ميزانًا لتقييم دينٍ أو مذهب فكري، وإنَّما ينظر إلى ما يدعو إليه الدين أو المذهب نفسه. ثمّ بدأ ينتقدُ الأسسَ الأخلاقية لدى الملاحدة، وأنه لا يمكن أن يقيمَ منظومة أخلاقية متكاملة إلّا بالإيمان والدين. وهذا أمرُ لا يستطيعه الملاحدة، وعلى رأسهم هيتشن، فانهزم في هذه المناظرة لقلَّة أدبه، وضعفِ حججه.

فهذا استعراضٌ مختصَر لبعض أهمِّ المناظرات الدائرة بين الملاحدة والمتديِّنين. وقد تبيَّن أنَّ هذه المناظرات كثيرة ومتنوِّعة، وأنَّ الغلبة في المناظرات الكبرى كانت للمتديِّنين، وليس للملاحدة. وما مِن موضوع يطرحه الملاحدةُ الجدد إلّا وقد أبانَ علماءُ الغرب ضعفَه وعَوَاره.

ولكنَّ الملاحَظ في هذه المناظرات أنَّ علماءَ الغرب يحسنون هدمَ المذهب الإلحادي والردَّ عليه بقوَّة، ولكنَّ أغلبهم لا يكتفون بنقدِ الإلحاد، بل ينتقلون بعد ذلك إلى الدَّعوة إلى النصرانية. وهذه الديانةُ مبنيَّة على عقائدَ باطلة وخرافات وخزعبلات. فعندما يحاولون إقامةَ الحجج على صحَّة ديانتهم يضعف موقفهم كثيرًا أمام الملاحدة ويتبين ضعفهم. فكلَا الطرفين يحسن هدمَ عقائد الآخر، ولكن لا

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=fKdZT7r2 – RY

يحسن إقامةَ الحججِ على صحَّة مذهبه وديانته. وذلك لأنَّ الحقَّ المبين لا يكون إلّا في الإسلام، وما عداه فمتفاوتٌ في مدى انحرافه وضلاله.

حكمُ مشاهدة هذه المناظرات:

ما موقفُ المسلم من مشاهدةِ هذه المناظرات؟ لا شكَّ أن المتخصِّص في نقد الإلحاد يستفيدُ من هذه المناظرات في بعض الأمور، من أهمّها:

الأمرُ الأوَّل: حججُ علماء الغرب وإلزاماتهم للملاحدة.

الأمرُ الثّاني: مواطنُ الضَّعف في الخطاب الإلحادي.

الأمرُ الثّالث: الأخطاءُ التي يقع فيها المتديِّن في بعض الأحيان، وماذا يتعقَّب الملاحدةُ على هذه الأخطاء حتى لا يكرِّرها الداعية.

وعقدُ المناظرات معَ أهل الباطل قد تحدَّث عنه العلماء والباحثون، ووضعوا لها شروطًا وضوابط، وليس هذا محلَّ بسطها[1]. ولكنَّ الذي يتبيَّن من مشاهدة مناظرات علماء الغرب معَ الملاحدة أنه لا تجوز مشاهدتها إلّا للمتخصِّصين. وذلك فيما أرى لأربعة أسباب:

السببُ الأوَّل: استخدامُ الملاحدة للسُّخرية والاستهزاء من الدين، ولا يجوز للمسلم أن يجلسَ معهم إذا كان الأمرُ كذلك، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [سورة النساء: ١٤٠].

السببُ الثّاني: قلّما خرجتْ هذه المناظرات بهدايةِ الآخرين، بل يكون الشرُّ فيها أغلَب، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [سورة الأعلى:٩]، وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «ومفهومُ الآية أنَّه إن لم تنفع الذكرى بأنْ كان التذكير يزيد في الشَّر أو ينقصُ من الخير لم تكنْ مأمورًا بها، بل هي منهيٌّ عنها»[2].

---

(١) لخَّص الدكتور عثمان علي حسن آراء العلماء في مناظرة أهل البدع بشتى أصنافهم في رسالته المتميِّزة: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد (١ / ٢٧٧ - ٣٥٦)، (دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٩٢٠)، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، (مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ).

السببُ الثّالث: الملاحدةُ يُكثرون من ذكْر الشبهات في مناظراتهم. والاستماع للشُّبهات خطير جدًّا على المرء، فـ«القلوب ضعيفة، والشبَهُ خطَّافة»[1]. و«تحصل بكثرةِ الإصغاء إلى الشُّبه شكوك تشبه شكوكَ الموسوسين في الطهارة»[2].

وهذه الشبهُ التي يستمعُ إليها العامي في المناظرات قد تثبتُ في قلبه حتى لا يستطيع أنْ يستخرجها، وتتعاظَم حتى قد يقع في الكفر - والعياذ بالله -.

السببُ الرّابع: أنَّ علماءَ الغرب لا يكتفونَ بالردِّ على الإلحاد في هذه المناظرات في الغالب، بل يضيفونَ إلى ذلك الدعوةَ إلى الديانة النصرانية، فقد يتأثَّر مَن يستمع إليهم بشبهات نصرانية.

فخلاصةُ التقييم لمناظرةِ علماء الغرب للملاحدة أنَّ هذه المناظرات تفيد المتخصِّصين في تقويةِ حججهم وأسلوبهم الدَّعوي للملاحدة، ولكن لا تجوز مشاهدتها إلا للمتخصِّص.

---

(١) سيَر أعلام النبلاء (٧/ ٢٦١)، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ، ت. مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط).

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١/ ٢٠٨)، لمحمد بن إبراهيم القاسمي المعروف بابن الوزير، (مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٥ هـ، ت. شعيب الأرناؤوط).

الفهرس

الملخّص	٥
الافتتاحية	٩
أهميةُ البحث وأسبابُ اختياره	١١
الدراساتُ السابقة	١٢
خطَّةُ البحث	١٤
منهجُ البحث	٢١
الشُّكر والتقدير	٢٣
التمهيدُ: في مقدِّمات حول الإلحاد ونقده	٢٥
المبحثُ الأوَّل: تعريفُ الإلحاد	٢٧
المبحثُ الثّاني : أقسامُ الملاحدة	٤٢
المبحثُ الثّالث: تاريخُ الإلحاد	٤٩
المطلبُ الأوَّل: العصرُ اليوناني	٥١
المطلبُ الثّاني: العصرُ الروماني	٥٩
المطلبُ الثّالث: العصورُ الوسطى	٦٥
المطلبُ الرّابع: عصرُ النهضة والإصلاح	٧٥
المطلبُ الخامس: عصرُ التَّنوير	٨٨
المطلبُ السّادس: القرنُ التاسع عشر	١٠٠
المطلبُ السّابع: القرنُ العشرون	١١٣
المطلبُ الثّامن: القرنُ الحادي والعشرون	١٢٤
المبحثُ الرّابع: خطورةُ الإلحاد	١٣١
المبحثُ الخامس: أشهرُ دعاة الإلحاد الجديد	١٤٥

المبحثُ السّادس: وسائلُ نشْر الإلحاد ١٥٦
المبحثُ السّابع: تاريخُ نقد الإلحاد ١٧١
المطلبُ الأوَّل: تاريخُ نقدِ الإلحاد في القديم ١٧٣
المطلبُ الثّاني: تاريخُ نقدِ الإلحاد عندَ النَّصارى المتقدِّمين ١٨٠
المطلبُ الثّالث: تاريخُ نقدِ الإلحاد المُعاصر ١٨٨
البابُ الأوَّل
ردودُ علماءِ الغرب على أسسِ الإلحاد، وأساليبهم ووسائلهم ٢٠٩
الفصلُ الأوَّل: ردودُهم على أسسِ الإلحاد المُعاصر ٢١١
المبحثُ الأوَّل: المذهبُ المادي ٢١٣
المبحثُ الثّاني: تعظيمُ العلم التجريبي ٢٢٦
المبحثُ الثّالث: تعظيمُ العقل ٢٣٩
المبحثُ الرّابع: الشكُّ ونسبيةُ الحقائق ٢٥٤
المبحثُ الخامس: تعظيمُ الصُّدفة ٢٦٨
المبحثُ السّادس: نقدُ ردودِ علماء الغرب على أسسِ الإلحاد المُعاصر ٢٨١
الفصلُ الثّاني: أساليبُهم في الرُّدود على المَلاحدة ٢٨٣
المبحثُ الأوَّل: بيانُ مُغالطات الملاحدةِ المنطقية ٢٨٧
المبحثُ الثّاني: بيانُ شطحاتِ الملاحدة ٢٩٨
المبحثُ الثّالث: بيانُ تناقضاتِ الملاحدة ٣١٣
المبحثُ الرّابع: بيانُ ضعفِ خطابِ الملاحدة ٣٢٥
المبحثُ الخامس: بيانُ مُخالفة الملاحدة للمنهج العلمي ٣٣٧
المبحثُ السّادس: بيانُ الشُّرور المترتِّبة على الإلحاد ٣٥٩
المبحثُ السّابع: نقدُ أساليب علماءِ الغرب في الرُّدود على المَلاحدة ٣٧٥
الفصلُ الثّالث: وسائلُهم في الرُّدود على الإلحاد ٣٧٧
المبحثُ الأوَّل: تأليفُ الكتب ٣٧٩
المبحثُ الثّاني : عقدُ المناظرات ٣٨٨


مركز دلائل
Dala'il Centre
DALAIL
ردود علماء الغرب
على الإلحاد المُعاصر
(عرض ونقد)
(الجزء الثاني)
د. جوهانس كلومنك
(د. عبدالله السويدي)

ردودُ علماءِ الغرب على الإلحادِ المُعاصر

(عرضٌ ونقد)

- الجزء الثاني -

رسالةٌ علميَّة

لنيْل درجةِ العالمية العالية؛ الدكتوراه

إعدادُ

د. جوهانس كلومنك

(د. عبدالله السويدي)

إشرافُ فضيلة الأستاذ الدّكتور

صالح بن عبد العزيز سندي

 دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

ردود علماء الغرب على الإلحاد المعاصر - عرض ونقد

د. جوهانس كلومنك (د. عبدالله السويدي)

١١٨٠ صفحة، ١٧ × ٢٤ سم - (٣ أجزاء)

ترقيم دولي: ٠ - ٣ - ٨٦٢٠٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

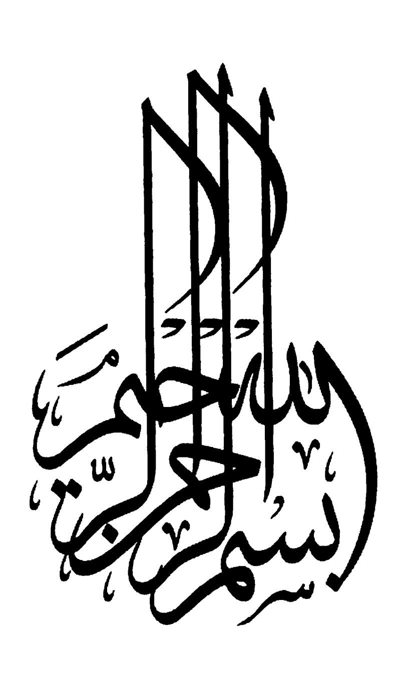
مركز دلائل
Dala'il Centre

Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

Dalailcentre@     

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠


بسم الله الرحمن الرحيم

المبحثُ الثّالث

البرامجُ والمقاطع المرئية

اشتهرَ الإعلامُ المرئي في هذا العصر بشكلٍ هائل. وإذا كان هذا النوع من الإعلام موجودًا في كلِّ بيت في القرن المنصرم تقريبًا، فإنَّه يكاد أن يكون موجودًا في كل جوَّال في هذا القرن. والمقاطعُ المرئية تنتشر بسرعةٍ شديدة في وسائل التواصل مثل: يوتيوب، وفيسبوك، وتويتر، وانستغرام، وتزيد سرعةُ انتشارها تطبيقات المحادثات مثل: الواتس وغيره.

وقد سبقَ أنَّ الملاحدة ينشطون كثيرًا في نشر إلحادهم عبر البرامج، والأفلام الوثائقية والمقاطع المرئية، فاستلزمَ ذلك أن ينشطَ مَن يردُّ عليهم في هذا المجال أيضًا. وقدْ أدرك علماءُ الغرب هذه المسألة جيّدًا فصنعوا مقاطعَ مرئية كثيرة جدًّا في بيان الأدلة على وجود الله ونقدِ الإلحاد. وهذه المقاطعُ كثيرة يصعب حصرُها، والغرض من هذا المبحثِ الوقوفُ على أهمِّ هذه المقاطع، معَ ذكر شيء من مضامينها. وسيتمُّ في هذا المبحث تقسيمُ هذه المقاطع المرئية إلى الأقسام الآتية:

١) الأفلام الوثائقية.

٢) مقتطفات من المناظرات والمحاضرات.

٣) موشن غرافيك.

٤) مقاطع مرئية قصيرة وهادفة في نقد الإلحاد.

أوَّلًا: الأفلامُ الوثائقية:

هناك أفلامٌ وثائقية كثيرة في نقد الإلحاد، وهي تتناول موضوعاتٍ مختلفة. ومن أشهرِ هذه الأفلام:

- **الفيلم الأوَّل: العلمُ التجريبي قد وجد الأدلة على وجود الله**

(Science has found proof of the existence of God)(١).

عددُ المشاهدات: أكثر من ١٣ مليون مشاهدة في يوتيوب.

مدَّةُ الفيلم: هذا الفيلم مختصَرٌ في ٢٥ دقيقة فقط، ولكنّه جيّد ومؤثِّر.

مضمونُ الفيلم: طريقةُ عرضه أنَّ شخصًا يتكلَّم عن الأدلة العلمية على وجود الخالق، وتظهر صورُ ومقاطع على الطبيعة. والأدلةُ العلمية التي ذكرها ثلاثة: الأوّل: أنَّ الأدلة العلمية تشير إلى أنَّ للكون بداية. أنَّ الأدلة العلمية تدلُّ على الضبط الدقيق لقوانين الطبيعة. والثّالث: الأدلةُ العلمية في الخليَّة. وكلُّها أدلة جيِّدة وقوّية. ولكن في نهايةِ الفيلم توجَد دعوةٌ صريحة إلى النَّصرانية مع الأسف، وهذا مما يضعف قيمته.

- **الفيلمُ الثّاني: إلهُ العجائب - العلماء يجدون الأدلة على وجود الله عن طريق العلم التجريبي**

(God of Wonders: Scientists prove Almighty God's existence through Science)(٢).

عددُ المشاهدات: أكثر من مليوني مشاهدة في يوتيوب.

مدَّةُ الفيلم: حوالي ساعة ونصف.

مضمونُ الفيلم: هذا الفيلم فيه مقابلاتٌ معَ علماء من الغرب وهُم يتحدّثون عن الأدلَّة العلمية على عظمةِ الخالق، معَ لقطات عظيمة من المخلوقات. الفيلم مؤثِّر جدًّا، ولكنَّ المشكلة فيه أنه يكثر الاستشهاد بكتاب النصارى المقدَّس.

---

(١) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=Er9D00DXQQs

(٢) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=vvVt4lDSPeY

- **الفيلمُ الثّالث: وهم الملحد** (Atheist Delusion)[1].

عددُ المشاهدات: أكثر من ٣,٤ مليون مشاهدة في يوتيوب.

مدَّة الفيلم: ساعة واحدة.

مضمونُ الفيلم: وهو فيلم لأحدِ المنصِّرين -. وأسلوبُه في أفلامه الوثائقية أنه يعمل مقابلاتٍ مع ملاحدة، ويسألهم أسئلةً عنْ معتقداتهم ونظرياتهم الإلحادية، ثمَّ يلزمهم بإلزاماتٍ قويَّة ومُقنعة. وفي جزءٍ من هذا الفيلم أفحمَ وأسكت بعضَ كبار الملاحدة التطوُّريين في أنَّه لا توجد أدلةٌ علمية مشاهدة مؤيِّدة لنظرية التطوُّر. وأسلوب المقابلات في عرض الفيلم الوثائقي جيِّد ومؤثِّر؛ لأنَّه يُظهر للناس عجزَ الملاحدة عن الدفاع عن مُعتقداتهم، ويبرز تناقضاتهم. ولكنَّ الإشكالية معَ راي كومفورت بالذات أنه منصِّر متعصِّب، فيدخل الدعوة إلى النصرانية في كثيرٍ من الأحيان، ولا يلتزم بمجرّد نقد الإلحاد.

- **الفيلمُ الرّابع: الدليلُ المدهش على وجود الله**

(Amazing Proof that God exists)[2].

عددُ المشاهدات: أكثر من ١,٢ مليون مشاهدة في يوتيوب.

مدَّةُ الفيلم: ٢٨ دقيقة.

مضمونُ الفيلم: يذكر المقدِّم أدلةً علمية قوية ومُقنعة على وجود الله، ويردُّ على نظريةِ الانفجار العظيم ونظرية التطوُّر، وتظهر مقاطعُ جميلة على الطبيعة خلال كلامه. ولكنَّ الإشكال أنه يستشهد بكتابِ النصارى المقدَّس، ويدعو إلى النصرانية.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=ChWiZ3iXWwM

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=qz77atYHTOA&t=1512s

- **الفيلمُ الخامس: المطرودون: غير مسموح بالذكاء**

(Expelled: No Design allowed)[1].

عددُ المشاهدات: قد ظهرَ هذا الفيلم الوثائقي عام ٢٠٠٨ في الولايات المتَّحدة، وعُرِض على ١٠٥٢ مسرح سينما. وهو رقمٌ قياسي في الأفلام الوثائقية في الولايات المتَّحدة[2]. وهو معروضٌ في يوتيوب بأكثر من ٣٥٠ ألف مشاهدة.

مدَّةُ الفيلم: أكثر من ساعة ونصف.

مضمونُ الفيلم: مقدِّم الفيلم هو بين ستين - إعلامي يهودي، معروفٌ بالدفاع عن التصميم الذَّكي -، وهو يبحث عنْ قضية اضطهاد المجتمع العلمي للعلماء المتبنِّين لنظريةِ التصميم الذَّكي، والمخالفين لنظرية التطوُّر. والإعلامي بين ستين يعمل مقابلات معَ المتبنِّين لنظرية التَّصميم الذكي عن الاضطهاد الذي حصل لهم من قبَل التطوُّريين. كما أنَّ بين ستين عمل مقابلاتٍ مع المعارضين لنظرية التصميم الذكي مثل: مايكل شيرمير وريتشارد دوكينز. والفيلم مهمٌّ ومفيد في بيانِ حالة الضغط التي يعيشها العلماء المتديِّنون في الغرب، لا سيَّما والملاحدةُ من أكثر الناس حديثًا عن اضطهاد المتديّنين للعلماء. كما أنَّ بين ستين ألزمَ ريتشارد دوكينز بإلزاماتٍ قويَّة في مقابلته معه، وظهر دوكينز بصورةٍ غبية جدًّا، حيث أنَّه ينكر وجودَ الخالق زاعمًا أنه لا دليل على وجوده، ثمَّ يقول إنه قد يكون ثمَّة كائناتٌ فضائية زرعتِ الحياة على كوكب الأرض - رغم أنه لا دليلَ على وجودهم -. وقد انتشرتْ هذه المقابلة المأخوذة من الفيلم كثيرًا في يوتيوب أيضًا.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=V5EPymcWp - g

(٢) انظر: http://www.boxofficemojo.com/genres/watch?v=documentary.htm

- **الفيلمُ السّادس: التطوُّر مردود نهائيًّا**

(Evolution is Debunked once and for all)[1].

عددُ المشاهدات: أكثر من ١٣٠ ألف مشاهدة في يوتيوب.

مدَّةُ الفيلم: ما يقارب ساعتين.

مضمونُ الفيلم: هذا الفيلم ينقد نظريةَ التطوُّر من أساسها. وذلك خلال ذكر اعترافاتِ التطوُّريين بفشل نظريتهم، وأقوال علماء الغرب في نقدها. والفيلم يتعرَّض لجوانبَ كثيرةٍ ومتعدِّدة في نقد هذه النظرية الباطلة.

فيظهرُ من خلال عرض هذه الأفلام الوثائقية أنها كثيرةٌ ومتنوِّعة في موضوعات مختلفة، وأنَّ لها شعبية كبيرة، وعدد المشاهدات كثير. فالأفلامُ الوثائقية من الوسائل المفيدة في نقد الإلحاد ونظرياته.

ثانيًا: مقتطفاتُ المناظرات:

مِن المقاطع المرئية في نقد الإلحاد: مقتطفاتٌ من المناظرات بين علماء الغرب والملاحدة. وهذه المقتطفاتُ مأخوذةٌ من اللحظات التي يفحم علماءُ الغرب الملاحدةَ بإلزاماتٍ قويَّة. وهذه طريقةٌ جيِّدة ومُفيدة ومُقنعة للمشاهدين. فقد سبق أن مشاهدةَ المناظرات من أوَّلها إلى آخرها فيها خطورةٌ كبيرة. ولكنَّ مشاهدة هذه المقتطفات تقنع المشاهدَ أنَّ غلبة الحجَّة لعلماء الغرب، وأنَّ الملاحدة لا قبَل لهم بمناظراتهم. وأكتفي بذكْر اثنين منها:

المقتطفُ الأوَّل: «لينوكس يقمع أتكنز» (Lennox puts down Atkins)[2]، وقد شاهدَ أكثرُ من ٤٧٠ ألف هذا المقطع، مع أنه أقصرُ من دقيقتين. والمقطع مأخوذ من مناظرةِ البروفسور جون لينوكس للبروفسور بيتر أتكنز عنْ وجود الله. وفي هذا

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=8jvZSosYh4M

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=lecFYZHXEqY

المقطع يلزم لينوكس أتكنز بقوَّةٍ في ادِّعاء الملاحدة أنَّ قوانين الطبيعة خلقت الكون، حيث أنه يبيِّن أنَّ القوانين مجرَّد وصف، وليست قادرة على خلق أي شيء.

المقتطفُ الثّاني: «ريتشارد دوكينز يُقمع» (Richard Dawkins gets owned)[1]. قد حازَ هذا المقطع على أكثر من ١٠٠ ألف مشاهدة في يوتيوب. وهو مأخوذٌ من مناظرة القسيس جورج بيل. والقسيس يذكر أنَّ هناك أشياء كثيرة لا تستطيع نظرية التطوُّر تفسيرَها، وبسببه كان شارلز داروين مؤمنًا بوجود الله. فقال ريتشارد دوكينز: «إنَّ ما تقوله غيرُ صحيح»، فعارضَه القسيس بقوله: «بل هو صحيح، لأنه في صفحة ٩٢ من سيرتِه الذاتية [أنه قال ذلك عنْ نفسه]»، فبدأ المشاهدون يضحكونَ ويصفِّقون للقسيس. وبذلك ظهرَ دوكينز أمامَ الجمهور أنه جاهلٌ عن مؤسِّس نظريته المحبّبة - نظرية التطوُّر -.

وهذه بعضُ الأمثلة على هذه المقتطفات، وإلّا فهي كثيرة جدًّا في يوتيوب.

ثالثًا: مقاطعُ موشن غرافيك:

موشن غرافيك هي طريقةٌ جديدة في عرض المقاطع كرسومات متحرِّكة هادفة. وقد اهتمَّت مؤسسة البروفسور وليام لاين كرايغ: «الإيمان العقلاني» (Rational Belief) بإنتاج سبعةِ مقاطع موشنِ غرافيك في بيانِ الأدلة على وجود الله، ونقد أهمِّ الشبهات المتعلِّقة بهذا الباب، وكلُّها قصيرة لا تتجاوز عشر دقائق:

- **الفيلمُ الأوَّل:** «**الحجة الكلامية الكونية**» (The Kalam Cosmological Argument)[2].

حازَ على أكثر من ٦٠٠ ألف مشاهدة في يوتيوب. والفيلم يتحدَّث عن الحجة الكلامية الكونية - وهي أحدُ أشهرِ الأدلة على وجود الله -، وهي مبنيَّة على مقدِّمتين ونتيجة: المقدِّمةُ الأولى: كلُّ ما له بداية فلا بدَّ له من سبب. المقدِّمة الثانية: الكون له

---

(١) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=LJDQPx1v5ZU

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=6CulBuMCLg0

بداية. النَّتيجة: الكون لا بدَّ له من سبب. ثمَّ يشرح الفيلم أن هذا السبب لا بدَّ أن يكونَ خارج الكون، وذا قدرةٍ عظيمة. وهذا هو الإله الخالق.

- **الفيلمُ الثّاني: «الحجَّة الأخلاقية» (The Moral Argument)**(١)

وقد حاز على أكثر من ٨٠٠ ألف مشاهدة في يوتيوب، ويتحدَّث عن الحجة الأخلاقية. والحجَّة مبنية على مقدِّمتين ونتيجة: المقدِّمة الأولى: إن كان اللهُ غير موجود فلا يوجد أخلاق موضوعية. المقدِّمة الثانية: الأخلاقُ الموضوعية موجودة. النتيجة: اللهُ موجود. كما أن الفيلم ينتقد الأسسَ الأخلاقية لدى الملاحدة. وهذه الحجَّة جيِّدة من حيث إلزام الملاحدة في باب الأخلاق، وبيان خطورة الإلحاد على الأخلاق والقيم.

- **الفيلمُ الثّالث: «الحجة الكونية لليبنز» (Leibniz' Contingency Argument)**(٢)

هذه الحجَّة تشبه الحجَّة الكلامية الكونية إلّا أنها مبنيَّة على ثلاث مقدِّمات ونتيجة؛ فهي كالآتي: المقدِّمة الأولى: كلُّ ما في الوجود لا بدَّ له من تفسير. المقدِّمة الثانية: إن كان للكون بداية فلا بدَّ أن يكون تفسيرُ وجوده هو الله. المقدِّمة الثالثة: الكون له بداية. النَّتيجة: التفسيرُ لإيجاد الكون هو الله. وهذه الحجَّة، مع أنها في الأساس قويَّة إلّا أنها أضعفُ من الحجَّة الكونية الكلامية حيث أنه كلَّما كانت المقدِّمات أقلَّ فيكون فهم الحجة أسهلَ وأقوى - في الغالب -.

- **الفيلمُ الرّابع: «الضبط الدقيق للكون» (The Fine - tuning of the Universe)**(٣).

هذا الفيلم حازَ على ٢٤٠ ألف مشاهدة في يوتيوب، ويذكر أمثلة علمية على الضَّبط الدقيق للثوابت الفيزيائية في الكون. ومن الأمثلة على الثوابت الفيزيائية التي ذكرها:

١) ثابتُ الجاذبية الذي هو مضبوط بـ١ إلى ١٠٦٠.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=OxiAikEk2vU

(٢) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=FPCzEP0oD7I&t=64s

(٣) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=EE76nwimuT0&t=263s

٢) الثابتُ الكوني الذي هو مضبوط ب،١ إلى ١٠١٢٠.

٣) والتوزيعُ بين المادة والطاقة في بداية الكون كان مضبوطًا بـ ١ إلى ١٠١٠١٢٣.

ثمَّ ذكرَ أنَّ سبب هذا الضبط الدقيق لا بدَّ أن حصل عن طريق إحدى الطرق الثلاث:

١) الضرورة الفزيائية. ٢) الصدفة. ٣) التصميم (الخلق).

وبعدَ ذلك ذكر أنه لا يمكنُ أن يكون بسبب الضرورة الفيزيائية، ولا الصدفة، فلا يبقى إلّا الخيار الثالث، وهو التَّصميم والخلق، وأنه خالقٌ خلقَ هذا الكون بهذا الضبط الدقيق.

- **الفيلمُ الخامس: «الحجة الوجودية» (The Ontological Argument)**[1].

والحجة الوجودية قد صاغَها القسيس أنسلم في القرون الوسطى، ثمَّ طوَّرها بعض الفلاسفة اللاهوتيِّين المعاصرين كألفن بلانتنغا. وهذه الحجَّة مبنية على خمس مقدِّمات ونتيجة:

المقدِّمة الأولى: هناك إمكانية أنْ يوجد كائن في غاية العظمة.

المقدِّمة الثَّانية: كائنٌ في غاية العظمة يوجد في بعض العوالم الممكنة.

المقدِّمة الثَّالثة: إنْ كان كائنٌ في غاية العظمة يوجد في بعض العوالم الممكنة فإنه يوجَد في جميع العوالم الممكنة.

المقدِّمة الرابعة: إن كان كائنٌ في غاية العظمة يوجد في جميع العوالم الممكنة فإنه يوجَد في العالم الحقيقي.

المقدِّمة الخامسة: كائنٌ في غاية العظمة يوجد في العالم الحقيقي.

النتيجة: بالتالي، فإنَّ الكائن في غاية العظمة موجود.

وهذه الحجَّة يستعملها الفلاسفة النصارى إلى يومنا هذا، حتى أنتجوا هذا الفيلم، معَ أنَّ هذه الحجة ضعيفة، ومُنتقَدَة من أوجه كثيرة، كما سيأتي الحديث عن ذلك في الباب الثاني.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=xBmAKCvWl74&t=164s

- الفيلمُ السّادس: «**الألم والشَّر: المشكلة المنطقية**» (**Suffering and Evil: The Logical Problem**)[1].

هذا الفيلم حازَ على أكثر من ١٤٠ ألف مشاهدة في يوتيوب، ويعرض مشكلةَ الشَّر كما صاغها الفيلسوف إبيقور، ثمَّ ينتقدها بطريقة منطقية عقلية. والفيلم جيِّد ومُفيد، حيث يبيِّن الأخطاءَ المنطقية في مشكلة الشَّرِّ بذكر الحِكم من وجود الشَّر. ومِن ذلك أنَّ للإنسان حرِّية الإرادة. وحرِّيةُ الإرادة تستلزم أن بعض الناس يختارون فعلَ الشَّر. وذكرَ أقوالًا عن عددٍ من الفلاسفة الملاحدة أن مشكلة الشرِّ بصياغتها المنطقية لا تمنع من وجود الله.

- الفيلمُ السّابع: «**الألم والشَّر: نسخة الاحتمالات**» (Suffering and Evil: The Probability Version)[2].

وهذا الفيلم حازَ على أكثر من ٩٠ مشاهدة في يوتيوب، ويتحدَّث عن عرضِ مشكلة الشَّر بطريقةٍ أخرى. وهي أنَّ الملاحدة يقولون: إن مشكلة الشرِّ لا تجعل وجودَ الله مستحيلًا، ولكنَّها تجعل وجوده غير مرجّح للغاية.

وقد ردَّ على هذه الشبهة من عدَّة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: ليس بقدرةِ الإنسان أن يقول: إنَّه لا يوجد أسباب جيّدة للإله أن يسمحَ بوجود الشرور؛ لأنَّ الإنسان محدودٌ في الزمان والمكان والعقل والبصيرة. وأمّا الإله، فإنَّه يعلم كلَّ شيء عبرَ التاريخ والمستقبل. ولذلك فإنه لا بدَّ أن يكون هناك بعضُ الشُّرور - التي قد يبدو أنْ تكون بلا فائدة -، ولكن فيها حِكمٌ عظيمة، ولا يعلمُها إلّا مَن علم كلَّ شيء.

الوجهُ الثّاني: القول بأنَّ وجود الله غير مرجَّح للغاية مبنيٌّ على معرفة كلِّ ما هو مرجَّح وغير مرجَّح. والملاحدةُ ينظرون إلى زاوية واحدة فقط خلال مشكلة الشرّ، ولا ينظرونَ إلى الأدلة القويَّة المقنعة على وجود الله. فلو غُضَّ الطرفُ عن الأدلة

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=k64YJYBUFLM

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=cxj8ag8Ntd4

على وجود الله، وينظر إلى وجود الشَّر في العالم، فقد يقال: إنَّ وجودَ إله سمح بهذه الشرور غير مرجَّح، ولكنْ بالنظر إلى الصورة الكاملة فإنَّ هذا القول باطل.

الوجهُ الثّالث: ليستِ الغايةُ مِن وجود الإنسان الحصول على المتعة والسعادة، بل مِن أسباب وجود الإنسان هو معرفةُ الإله وعبادته. وقد تبيَّن خلالَ التاريخ أنه إذا ازدادتِ الشرورُ فإنَّ الإنسان يرجع إلى ربِّه.

الوجهُ الرّابع: ليستِ الحياة منحصرةً في الدنيا، بل هناك حياةٌ بعد هذه الحياة، التي هي دارُ الجزاء. ومما يجازى عليه الإنسان: الصبر على الآلام والشرور.

هذا الفيلم جيِّد وقوي، ويردُّ على إحدى الشبهات المنتشرة بقوَّة عند الناس اليوم، ولكنَّ الإشكال في هذا المقطع بالذات أنه مشحونٌ بالدعوة إلى النصرانية.

رابعًا: مقاطعُ قصيرة في نقد الإلحاد:

هناك بعضُ المقاطع في نقدِ الإلحاد التي ليست بأفلام وثائقية، ولا موشن غرافيك، ولا مقتطفات من المناظرات. ولكنَّها مقاطع قصيرة هادفة في بيان الأدلة على وجود الله ونقدِ الإلحاد. وهذه المقاطعُ كثيرة جدًّا، ولكن أكثرها مشاهدة هي ما يأتي:

المقطعُ الأوَّل: آمن بالله في خمس دقائق (الأدلة العلمية) Believe in God in 5 minutes (Scientific Proof)[1]. في هذا المقطع يتحدّث الدكتور جيرالد شرودير[2] عن الأدلةِ العلمية على وجودِ الله خلالَ خمس دقائق فقط. والأدلة التي ذكرها. وقد حاز هذا المقطعُ على أكثر ٣,٤ مليون مشاهدة في يوتيوب. وقد ذكرَ الدكتور شرودير في هذا المقطع الأدلةَ العلمية على وجود الله، وركَّز على قضية

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=eQVm8RokoBA

(٢) جيرالد شرودير (Gerald Schroeder): عالم الفيزياء الأمريكي. وقد حصل على شهادة الدكتوراه في كلّ من الفيزياء والجيولوجيا. وهو يهودي متديّن، درس التوراة والتلمود لمدّة ١٥ سنة. وقد ألّف بعض الكتب عن أدلة وجود الله، وترجمت إلى تسع لغات. انظر: http: / /www.geraldschroeder.com /About.aspx

أن للكون بداية، وأن كلَّ ما له بداية فلا بدَّ له من خالق. والمقطعُ له رواجٌ كبير لأنَّ الدكتور شرودير من أشهر علماء الفيزياء في هذا الزمان، وهو الذي أقنع أنطوني فلو - الأب الروحي للإلحاد المعاصر - بأنْ يؤمن بالله؛ لما ذكر له الأدلة العلمية على ذلك في مناظرتهما المشهورة عن الإيمان بالخالق[1].

المقطعُ الثاني: «الأسئلة العشرة الأهمُّ التي لا يستطيع العلم التجريبي الإجابة عنها» (Top 10 Questions SCIENCE Can't Answer)[2]. هذا المقطع في ١١ دقيقة قد حازَ على أكثر من ٢,٢ مليون مشاهدة في يوتيوب. المقطع نفسه ليس في نقد الإلحاد أو إثبات وجود الله، ولكنَّه يتحدَّث عن حدود العلم التجريبي، والمبالغة في تعظيم العلم التَّجريبي من أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر.

يذكرُ هذا الفيلم أنَّ هناك عشْرة أسئلة لم يستطعِ العلم التجريبي الإجابة عنها. والأسئلةُ التي ذكر المقطع أنَّ العلم التجريبي عاجزٌ عن الإجابة عنها هي:

١) كيف وُجدت المادة، ولماذا كانت المادةُ أكثر من المادة المضادَّة بعد بداية الكون؟

٢) ماذا يوجَد في عمق الثقوب السوداء؟

٣) ماذا يوجد وراء البُعد الرابع؟ حيث يعتقد العلماء أنَّ الكون مكوَّن من عشرة أبعاد.

٤) ماذا تدفع الصفائح التكتونية في الأرض للتحرّك؟

٥) كيف وُجِدت الجاذبية؟ نحن نعرف كيف تعمل الجاذبية، ولكن لا نعرف لماذا وُجِدت أصلًا؟

٦) ماذا يحصل بعد الموت؟

٧) ما هو الهدفُ من الحياة

٨) هل يوجد أشباح، وكلُّ ما أشار إليه علم النفس الموازي في الحقيقة؟

٩) هل نستطيع أن نسافر عبرَ الزمن؟

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=SJoOhbf3_Ts

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=ZvQCVtD - zac

١٠) هل يوجد إله، وهل يستطيع العلم التجريبي إثباتَ وجوده أو نفيه؟

وبالطبع، فليس السؤالُ الأخير موجَّهًا بالطريقة الصحيحة. لا يمكن أن ينكر العلم التَّجريبي وجودَ الخالق، ولكنَّ العلم التجريبي مليء بالأدلة على وجوده - كما سيأتي بيانه في الباب الثاني إن شاء الله -. ولكنْ بقية الأسئلة جيِّدة، حيث أنها تدلُّ على عجز العلمِ التجريبي عن الإجابة على كثيرٍ من الأسئلة الأساسية التي يسألها الإنسان. وذلك خيرُ دليل على إفلاس المذهب العلموي.

فهذه أبرزُ أنواع البرامج والمقاطع المرئية التي يستخدمها علماءُ الغرب في بيان الأدلة على وجود الله، ونقدِ الإلحاد ونظرياته الباطلة. كما هو واضحٌ فإنَّ هذه المقاطع متنوّعة وتتناول موضوعاتٍ مختلفة. ولكنَّ هذه الوسيلة من أنفع الوسائل الدعوية في هذا العصر الذي شغف كثيرٌ من الناس بالمرئيات أكثرَ من الكتب، فينبغي للمسلمين أن يستخدموا هذه الوسيلةَ في نقد الإلحاد أيضًا - علمًا أنه يوجد مقاطع مرئية عديدة أنتجَها مسلمون في نقد الإلحاد أيضًا -.

المبحثُ الرّابع
النَّشرُ في وسائل الإعلام

الإعلامُ من أهمِّ وسائل النَّشر في هذا الزمان بلا شكّ. ووسائلُ الإعلام متنوِّعة ومتعدِّدة، منها: الوسائلُ التقليدية كالإذاعة والتلفاز والصحف، ومنها: وسائلُ حديثة مثل: مواقع الإنترنت. وحيث إنَّ الإلحاد ينتشر في الدول الغربية، وإنَّ الملاحدة يستغلُّون وسائلَ الإعلام في نشر إلحادهم - كما سبق في التمهيد - ؛ فإنَّ علماء الغرب قد تصدّوا لهذه الظاهرة الخطيرة في أنواعٍ مختلفة من الإعلام. وأهمُّ وسائل الإعلام التي استخدمها علماءُ الغرب في نقد الإلحاد هي: الإذاعة، والإنترنت[1].

أوّلًا: الإذاعة:

هناك برامجُ إذاعية كثيرةٌ في نقد الإلحاد، وبيان الأدلة على وجود الله في الغرب - ولا سيَّما الولايات المتَّحدة -. مِن الأمثلة على هذه البرنامج:

البرنامجُ الأوَّل: «برنامج لحظات الخلق» (Creation Moments)، ولعلَّ هذا البرنامج هو أشهرُ البرامج النَّقدية للإلحاد على الإطلاق. فقد استمرَّ هذا البرنامجُ منذ عام ١٩٨٧، ويبثُّ الآن عبر ١٣٠٠ محطة إذاعية في العالم يوميًّا! وكلُّ حلقة مخصَّصة لبيان الأدلَّة العلمية على وجود الله، والردّ على الإلحاد[2].

البرنامجُ الثّاني: «إذاعة معهد الأبحاث المختصة بالخلق» (Institute of Creation Research Radio)، ولها أكثرُ من مائة حلقةٍ مبثوثة، وأغلب هذه الحلقات ردودٌ علمية

---

(١) وحيث أنَّ المبحث السابق تناول الحديثَ عن المقاطع المرئية فلن يعاد الكلامُ عنه هنا.

(٢) انظر: http: / /www.creationmoments.com /radio

على الإلحاد، وبيان الأدلَّة على وجود الخالق[١]. ومعهد الأبحاث المختصة بالخلق من المعاهِدِ العريقة في نقدِ الإلحاد، فقد أسِّس المعهد عام ١٩٧٠م، ولا يزال نشيطًا إلى الآن[٢].

البرنامجُ الثّالث: «إذاعة شبكة العلم الخلقي» (**Creation Science Network Radio**). هذه الإذاعة تبثُّ برامجه النقدية للإلحاد ٢٤ ساعة في اليوم، في جميع أيام الأسبوع. وموضوعُ الحلقات: الأدلة العلمية على الخلق ونقد الإلحاد[٣].

ثانيًا: الإنترنت:

الإنترنت هو أهمُّ وسيلة من وسائل الإعلام التي يستخدمها علماء الغرب للتصدِّي لظاهرةِ الإلحاد؛ فهناك نشاطٌ قوي جدًّا في نقد الإلحاد من خلاله. وينشر علماء الغرب الكتب، والمقاطع المرئية، والمناظرات، والمقالات في مواقعهم في الإنترنت. ولكن حيث إنَّه سبقَ الكلام عن الكتب، والمقاطع المرئية والمناظرات، فيختصُّ الحديث هنا عن نشْرهم للمقالات في مواقعهم الإلكترونية.

والمواقعُ المتخصِّصة في نقد الإلحاد يصعب حصرُها. ولكن مِن حيث العموم يمكن تقسيمُها إلى مواقع تنشُر مقالات في نقد الإلحاد علميًّا، ومواقع تنشر مقالات في نقد الإلحاد عقليًّا:

المواقعُ التي تنشُر مقالاتٍ في نقد الإلحاد علميًّا: توجد ١٢٢ منظّمة تتبنّى مذهبَ الخلق في الولايات المتَّحدة - فقط -، وكلُّها تهتمُّ بنقد الإلحاد علميًّا. وأغلب هذه المنظَّمات لها مواقعُ تنشر فيها الردود العلمية على الإلحاد والملاحدة[٤]. ولكن، هناك منظَّمتان تهتمّان كثيرًا بكتابة المقالات في نقد الإلحاد، وهما:

المنظَّمةُ الأولى: «كهنوت الخلق العالمي» (Creation Ministries International). أسِّست هذه الجمعية عام ١٩٧٣ في أستراليا، ثمَّ فُتحت لها مكاتب في نيوزيلندا، وكندا،

---

(١) انظر: /http: / /www.icr.org /radio

(٢) انظر: http: / /www.icr.org /who - we - are

(٣) انظر: http: / /www.creationproof.com/id15.html

(٤) انظر: https: / /creation.com /creationist - organizations - in - the - usa

والولايات المتَّحدة، والمملكة المتَّحدة، وجنوب أفريقيا[1]. ولها موقع ضخمٌ متخصِّص في بيان الأدلة العلمية على وجود الله ونقد الإلحاد[2]. يعمل ٤٦ عالمًا من هذه الجمعية في كتابةِ المقالات العلمية في نقد الإلحاد، والموقع لديه آلاف المقالات في نقد الإلحاد.

المنظَّمةُ الثّانية: «الأجوبة في سفر التكوين» (Answers in Genesis)، أسّست هذه المنظَّمة عام ١٩٩٤، ولديْها ٩٠٠ موظَّف، وهذا يجعلها أكبرَ منظَّمة في نقد الإلحاد والدِّفاع عن النصرانية في العالم[3]، ولديها إيراداتٌ سنوية تفوق ٢٠ مليون دولار[4]. وهذه المنظَّمة لها موقعٌ كبير، وفيه مقالات كثيرة في نقد الإلحاد، ويعمل العلماء العاملون في هذه المنظَّمة في كتابة الأجوبة عن استفسارات الملاحدة والمتشكّكين[5].

والمقالاتُ في هذين الموقعين كثيرةٌ ومتنوِّعة، ولا تكاد تأتي شبهة إلحادية متعلِّقة بالعلم التجريبي، إلّا وفي هذين الموقعين ردودٌ عليها. ويتميَّز هذان الموقعان بأنه يعمل فيهما فريقٌ كبير من المتخصِّصين في جميع أنواع العلوم تقريبًا.

وهذا بيان لبعض أكبر علماءِ الغرب الذين يكتبون مقالات، ويردُّون على شبهات إلحادية في هذين الموقعين حسب تخصُّصاتهم:

المواقعُ التي تنشرُ مقالاتٍ في نقد الإلحاد عقليًّا: هناك مواقعُ لها اتِّجاه آخر في نقدِ الإلحاد، وهي المواقعُ التي تنقد الإلحاد بحجج عقلية. وأفضل هذه المواقع - فيما أرى - هو موقع: «الإيمان العقلاني» (Reasonable Faith)، الذي يديره البروفسور وليام لاين كرايغ.

---

(١) انظر: https: / /creation.com /about – us

(٢) انظر: https: / /creation.com/

(٣) انظر: https: / /answersingenesis.org /about /history/

(٤) انظر:
https://www.charitynavigator.org/index.cfm?bay=search.summary&orgid=5214

(٥) انظر: https: / /answersingenesis.org/

هذا الموقع له عددٌ من المقالات المفيدة في الموضوعات المتنوّعة، ولكن أهمّها ثلاثونَ مقالًا عن الأدلة العقلية على وجود الله[1]. وهي مقالات طويلة وعميقة ومفيدة في بابها.

كما أنَّ الموقع يستقبل الأسئلةَ المتعلِّقة بالإلحاد وغيرها، ثمَّ ينشر الأجوبة في الموقع. وقد بلغ عددُ أجوبة البروفسور كرياغ أكثر من خمسمائة جواب[2]. والأجوبة في الغالب تكون مُختصرة، ولكنَّها مُفيدة في نقد الإلحاد. ويستفيد المسلم المتخصِّص في نقدِ الإلحاد من قراءة هذه الأسئلة والأجوبة بمعرفة الشبهات المثارة عن الإيمان بالله وكيفية الردِّ عليها. مع أنه لا بدَّ من توقِّي الأغلاط التي يقع فيها البروفسور كرايغ حيث إنَّه نصراني، فلا ينبغي لغير المتخصِّص الدخولُ في صفحته.

---

(١) انظر:
https://www.reasonablefaith.org/writings/scholarly - writings/the - existence - of - god/

(٢) انظر: https: / /www.reasonablefaith.org /writings /question – answer/

المبحثُ الخامس

النَّشرُ في وسائل التواصل

قدِ انتشرت وسائلُ التَّواصل بشكلٍ هائل في الآونةِ الأخيرة، وقد استغلَّ الملاحدةُ هذه الوسائلَ في نشْر إلحادهم. ولذلك قام علماءُ الغرب بالتصدِّي للموجةِ الإلحادية في وسائلِ التواصل أيضًا. ولكنَّه يلاحظ أنَّ دعوة الملاحدة في وسائل التواصل أقوى من ردودِ علماء الغرب. فإنْ كان علماءُ الغرب أكثرَ كتابة للكتب، وأقوى في مناظرات؛ فإنَّ نشاطَهم في وسائل لا يقارن بنشاط الملاحدة.

وقد يكون سببُ ذلك أنَّ الإلحاد الجديد مبنيٌّ على السخرية والاستهزاء والتهكُّم بالآخرين. وكثيرٌ من روَّاد وسائل التواصل من الشباب يحبُّون مثل هذا الأسلوب الساخر، بينما يكون كلامُ علماء الغرب يتَّسم بالعقلانية والعمق. ومثلُ هذا الخطاب، ربَّما لا يناسب كثيرًا من الشباب المشتغلين بوسائل التواصل - واللهُ أعلم -.

وهناك أمرٌ آخر، وهو أنه توجَد حسابات كثيرة في الدعوة إلى النصرانية من حيث العموم، وهي حساباتٌ كبيرة ونَشطة، ولكنَّ الحسابات المختصَّة في نقد الإلحاد وبيان الأدلَّة على وجود الله ليست كثيرة.

ورغمَ ذلك، فإنَّ لعلماء الغرب نشاطًا في وسائل التواصل لا بأسَ به. ونشاطهم أقوى في موقعيْن من وسائل التواصل، وهما: فيسبوك وتويتر. وبيانُ ذلك كالآتي:

فيسبوك:

أكبرُ حسابات منظَّمات علماء الغرب في فيسبوك هي:

١) حساب منظمة «الإيمان العقلاني» (Reasonable Faith)، ولديهم أكثر من ٨١٢ ألف متابع[١].

٢) حسابُ منظَّمة: «الأجوبة في سفر التكوين» (Answer in Genesis)، وله أكثر من ٤٦٧ ألف متابع[٢].

٣) حسابُ منظَّمة: «كهنوت الخلق العالمي» (Creation Ministries International)، لديه أكثر من ٨٥ ألف متابع[٣].

وهذا العدد أقلُّ من الحسابات الإلحادية - التي سبقتِ الإشارة إليها - من حيث عدد الحسابات وعدد المتابعين لهذه الحسابات.

وأمّا الحساباتُ الشخصية لعلماءِ الغرب المعْتنين بنقدِ الإلحاد في فيسبوك فأشهرُها كالآتي:

١) حسابُ البروفسور جون لينوكس الشخصي، له أكثر من ٦٨ ألف متابع، ويهتمُّ بنقد الخطابِ الإلحادي للملاحدة الجدد في مسائل علمية[٤].

٢) حسابُ البروفسور وليام لاين كرايغ الشخصي، له أكثر من ٤٦ ألف متابع، يعتني بإيرادِ الحجج العقلية على وجود الله، والرَّد على شبهات الملاحدة الفلسفية[٥].

---

(١) انظر: https: / /www.facebook.com /reasonablefaithorg/

(٢) انظر: https: / /www.facebook.com /AnswersInGenesis

(٣) انظر: https: / /www.facebook.com /creationministries/

(٤) انظر: https: / /www.facebook.com /profjohnlennox

(٥) انظر: https: / /www.facebook.com /WilliamLaneCraig

٣) حسابُ الدكتور ستيفن ماير، عنده أكثر من ٣٥ ألف متابع، ويركّز على التَّصميم الذكي، ونقد نظرية التطوّر[١].

٤) حسابُ البروفسور ألستر ماكغراث الشخصي، له أكثر من ٢٠ ألف متابع، ويهتمُّ بنقد خطاب الملاحدة الجدد في مسائل دينية[٢].

تويتر:

أمّا دعوةُ الملاحدة المؤسَّسية في تويتر، وردُّ علماء الغرب عليهم، فهي أضعف من فيسبوك. ويتبيَّن ذلك خلالَ المقارنة بالمنظّمات الموجودة في فيسبوك وتويتر:

١) حسابُ منظمة: «الإيمان العقلاني» (Reasonable Faith) عنده ٩٠ ألف متابع[٣].

٢) حسابُ منظَّمة: «الأجوبة في سفر التكوين» (Answer in Genesis) عنده ٦٣ ألف متابع[٤].

٣) حسابُ منظَّمة كهنوت الخلق العالمي (Creation Ministries International)، لديه أكثر من ٦٧ ألف متابع[٥].

وأمّا الحساباتُ الشخصية لعلماء الغرب في تويتر فأشهرُها كالآتي:

١) حسابُ البروفسور جون لينوكس الشخصي، عنده أكثر من ٤٧ ألف متابع[٦].

---

(١) انظر: https: / /www.facebook.com /drstephencmeyer

(٢) انظر: /https: / /www.facebook.com /AlisterMcGrath

(٣) انظر: https: / /twitter.com /RFupdates

(٤) انظر: https: / /twitter.com /aig

(٥) انظر: https: / /twitter.com /creationnews

(٦) انظر: https: / /twitter.com /profjohnlennox

٢) حسابُ البروفسور ألستر ماكغراث الشخصي، له أكثر من ٢٣ ألف متابع[١].

٣) حسابُ الدكتور هيو روس الشخصي، عنده أكثر من ١٤ ألف متابع، وهو يعتني بإيرادِ الحجج من علم الفلك على وجودِ الله، ويردُّ على شبهات الملاحدة الفلكية[٢].

٤) حسابُ البروفسور بول كوبان الشخصي، عنده أكثر من ١٠ آلاف متابع، وهوَ يعتني بنقد الإلحاد من الناحية العقلية الفلسفية[٣].

وهذا أيضًا أقلُّ من الحسابات الإلحادية التي سبق ذكرُها. فهذا دليلٌ واضح على أنَّ الملاحدة لديهم نشاطٌ قويّ في وسائل التواصل، وأنَّ شعبيتهم هناك تفوق شعبية علماء الغرب بمراحل.

ويتبيَّن من خلال هذا المبحث البونُ الشاسع بين جهود علماء الغرب في نقد الإلحادِ في الإذاعةِ وكتابة المقالات والردِّ على الشبهات، وبين نشاطهم في وسائل التواصل. وينبغي للمسلمين أن يتَّعظوا من هذه التجربة لأنَّنا نعيش في عصر تتجدَّد فيه وسائل التواصل، وليستِ العبرة لدى كثيرِ الناس بمَن هو أقوى حجة، وإنما العبرة بمن يوصِّل رسالته إلى الناس أكثر. فلا بدَّ من الجمع بين قوَّة الحجَّة والاستفادة من الوسائل الحديثة لنشْر الحقِّ وردِّ الباطل، وإلّا لانتشرت ظلمات الباطل والزيغ، واندثر نور الحقِّ لدى أكثر الناس.

---

(١) انظر: https: / /twitter.com /alisteremcgrath

(٢) انظر: https: / /twitter.com /RTB_HRoss

(٣) انظر: https: / /twitter.com /PaulCopan

المبحثُ السادس
إصلاحُ العلوم التجريبية لتتوافقَ مع الحقائق الدينية

المناهجُ التعليمية في الدول الغربية تُبنى على المذهب الطبيعي في هذا العصر. المؤسساتُ التعليمية تدرِّس العلوم وفقَ هذا المذهب، والدوريات والمجلات العلمية المشهورة تنشرُ الأبحاث العلمية المبنيَّة عليه كذلك، كما سبق بيانه.

ولكنْ لم يكنِ الأمر بهذا الشكلِ في الدول الغربية في السابق، بل كانت جامعاتهم مؤسَّسة على الإيمان بالله. ومما يدلُّ على ذلك: شعاراتُ بعض أشهر الجامعات في الدول الغربية:

المثالُ الأوَّل: جامعة أكسفورد هي أوَّلُ جامعة أسِّست في بريطانيا، وكان ذلك عام ١٠٩٦م. وشعارُ هذه الجامعة إلى يومنا هذا هو: «الربّ نوري» (Dominus Illuminatio Mea)[١].

المثالُ الثّاني: جامعة أوبسالا في السويد، من أقدم الجامعات وأشهرها في العالم، حيث أسِّست عام ١٤٧٧م. وشعارها: «الحقُّ عن طريق رحمة الله وعن طريق الطبيعة» (Gratiae Veritas Naturae)[٢].

---

(١) انظر:
https://uni-of-oxford.custhelp.com/app/answers/detail/a_id/121/~/what-does-the-universitys-motto-dominus-illuminatio-mea-mean%3F

(٢) انظر: http: / /latinphrases.me /gratiae – veritas – naturae.html

المثالُ الثّالث: جامعة برينستون، مِن أعرق الجامعات وأفضلها في الولايات المتَّحدة، وشعارُها إلى يومنا هذا: «الازدهار تحت قدرة الله» (Dei Sub Numine Viget)[١].

والأمثلةُ على هذا الأمرِ كثيرة. وهذا يدلُّ على أن الجامعات الغربية العريقة أسّست على الإيمان بالله ودراسة مخلوقات الله.

وكان هذا هو الهدفَ الرئيس لدراسة الطبيعة في السابق لدى العلماء؛ قال البروفسور سي. أس. لويس: «أصبح الناس علماء لأنهم توقَّعوا وجود قانون في الطبيعة، وسببُ توقُّعهم وجود القانون: إيمانهم بوجود واضع للقانون»[٢]. وقال البروفسور جون لينوكس معلّقًا على هذا الكلام: «وبسبب هذا الاعتقاد قام فرنسيس بيكون... - الذي يعتبرُ مؤسس العلم التجريبي الحديث - بتعليم الناس أنَّ الله قدَّم لنا كتابين: كتاب الطبيعة، والكتاب المقدَّس، وعلينا حقيقة أن ندرسَ كلا الكتابين بطريقة ملائمة، وأن نُعملَ عقولنا في دراستهما معًا. وكثيرٌ من رجالات العلم التجريبي يوافقون على هذا الطرح... فكلُّهم مؤمنون بالله، ومعظمُهم مسيحيون، ولم يعقْهم إيمانُهم عن عملهم في العلم التجريبي؛ بل كان الدافع الرئيس للاكتشافات العلمية غالبًا، ولم يكونوا يخجلون من التصريح بهذا»[٣].

علمنةُ العلوم:

وهكذا كانت دراسةُ العلوم في أوروبا طيلةَ قرون غديدة إلى أن طلع قرن الإلحاد والعلمانية في القرن الثامن عشر؛ فألَّف جوليان أوفراي كتابه الطبّي: «الإنسان آلة» (L’homme Machine) عام ١٧٤٧م وفقَ المذهب الطبيعي. وألّف بارون دي هولباخ كتابَه: «نظام الطبيعة» (Systeme de la nature) عام ١٧٧٠ م، وصرّح فيه بالإلحاد[٤].

---

(١) انظر:

https://www.princeton.edu/~oktour/virtualtour/korean/Info09-Flag.htm

(2) Miracles: a preliminary study (110)

(3) God’s Undertaker (21)

(٤) وقد سبقتِ الإشارةُ إلى هذين الكتابين في التمهيد.

ولكنْ لم تحصل علمنةُ العلوم بقوَّة إلّا بعد ظهور نظرية التطوّر على يد داروين. وذلك أنَّ أنصار هذه النظرية يدَّعون أنهم توصَّلوا إلى طريقة علمية في تفسير التعقيد والإتقان في المخلوقات الحيَّة. ودليلُ الإتقان من أقوى الأدلة على وجود الخالق. فلما رأوا أنَّ العلم التجريبي استطاع أن يفسِّر ظواهر التصميم والإتقان في المخلوقات الحيّة اعتقدوا أنَّهم وجدوا دليلًا قويًّا على صحَّة المذهب الطبيعي والاستغناء عن الإيمان بالخالق. ولهذا يدافع الماديون عن نظرية التطوّر بما لا يدافعون عن أي نظرية أخرى. ويعرفون أنه إذا سقطت هذه النظرية فذاك يستلزم حتمًا سقوط المذهب الطبيعي، وبالتالي: ينهار الإلحاد.

معارضةُ الخلقيين لنظرية التطوّر:

لمّا صدر كتاب داروين: أصل الأنواع، بدأ المتديِّنون يعارضون نظريته بقوة حيث أدركوا خطورةَ هذه النظرية على الإيمان بالخالق؛ فأطلق داروين على خصومه لفظة: الخلقيّين (Creationists)[1]. وأصبحت هذه الكلمة لقبًا على كلّ مَن عارض تفسير العلوم عن طريق المذهب الطبيعي من حيث العموم، ونظرية التطوّر على وجه الخصوص.

ومنذُ ظهور نظرية التطوّر كانت معارضة علماء الغرب شديدة لهذه النظرية، وكانت المعارضة أقوى في الولايات المتَّحدة منها في بقية البلدان الغربية. وكانت الغلبة في بعض الأحيان للخلقيين، مثل ما حصل في عشرينيّات القرن العشرين حين منعت ثلاث ولايات في الولايات المتَّحدة تدريسَ نظرية التطوّر، وناقشت ٣٢ ولاية نحو هذا القرار. ولكنْ مع مرور الوقت تقوَّى التطوّريون، وصارت لهم الغلبة، ففرضوا بتدريس نظريتهم، بل جعلوها العمدة في علم الأحياء[2].

بعد انتهاءِ الحرب العالمية الثانية ظهرَ النقاش عن نظرية التطوّر بقوَّة من جديد، حين عرف الناس أنَّ هذه النظرية كانت أساس أيديولوجية الحزب النازي الألماني. ولما بدأتِ

---

(١) انظر: Charles Darwin’s letter to J.D. Hooker, 5:th July 1856
http://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-1919.xml

(٢) انظر: http: / /www.counterbalance.org /history/creat1920 – frame.html

الحرب الباردة تشتدُّ زاد النقاش؛ حيث إنَّ هذه النظرية كانت مقرونة بالإلحاد، والشيوعية - العدوّ اللدود للولايات المتَّحدة - هي مذهب إلحادي مبنيٌّ على نظرية التطوّر. ورغمَ ذلك استطاع العلمانيون الماديون إبقاءَ نظريتهم في المؤسسات التعليمية(١).

وفي عام ١٩٦١م، صدرَ كتاب: «الطوفان في سفر التكوين» (The Genesis Flood) للعالميْن: البروفسور هينري موريس وجون ويتكومب(٢). وكان موضوعُ الكتاب عن التفسير العلمي لطوفان نوح u. وصارَ له صدى كبيرٌ في الأوساط العلمية، ولقي قبولًا واسعًا، وكان سببًا في انتعاش مذهب الخلق. ففي عام ١٩٦٣م، أسَّس هنري موريس جمعيةَ الأبحاث المختصة بالخلق، واجتمع العلماء الخلقيون في هذه الجمعية لإعادة المنهج العلمي إلى أصله، وهو دراسة خلق الله تعالى.

ثمَّ توالى فتحُ الجمعيات والمؤسسات المختصة بمذهب الخلق، حتى بلغت المئات في الولايات المتَّحدة فقط(٣)، إضافةً إلى جمعيات في بريطانيا، وكندا، وأستراليا، وغيرها من البلدان(٤).

وفي عام ١٩٨٧م، قضتِ المحكمة العليا الأمريكية بوجوب تدريس نظرية التطوّر في المدارس، ومنع تدريس مذهب الخلق. والسببُ أن مذهب الخلق مبنيٌّ على الديانة النصرانية، ويفضِّل هذه الديانة على بقية الأديان، بينما ينصُّ التعديل الأوّل لدستور الولايات المتَّحدة الأمريكية على عدم تفضيل ديانة على ديانة أخرى(٥). فكانت ضربة قوية ضدَّ مذهب الخلق.

---

(١) انظر: http: / /creationwiki.org /History_of_creationism

(٢) جون ويتكومب (John Whitcomb): لاهوتي أمريكي وحامل شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت. وقد تخصَّص في علم الإحاثة وتفسير الظواهر التاريخية وفقَ الكتاب المقدَّس، وألّف عددًا من الكتب في ذلك. توفي عام: ٢٠٢٠م. انظر:
https://answersingenesis.org/bios/john - whitcomb/

(٣) انظر هذه الصفحة التي ذكرت أسماء ١٢٤ جمعية ومؤسسة تتبنّى مذهب الخلق في الولايات المتَّحدة: https://creation.com/creationist-organizations-in-the-usa

(٤) انظر: http: / /creationwiki.org /Creationist_group

(٥) انظر: / / https: / /supreme.justia.com /cases

ظهورُ حركة التَّصميم الذكي:

لمّا قضتِ المحكمة العليا بمنع تدريس مذهب الخلق في المدارس ظهرت حركة علمية جديدة، وهي «حركة التصميم الذكي» (Intelligence Design Movement). وكان سببُ انطلاق هذه الحركة: صدورَ كتاب في عام ١٩٨٩م بعنوان: «من الباندا والناس» (Of Pandas and People). وقُدِّم الكتاب كمقرَّر دراسي للأطفال. والكتاب يشير إلى أنه لا بدَّ أن يكون هناك خالق لتفسير التعقيد والإتقان في المخلوقات الحيَّة بدون ذكر كتاب النصارى المقدَّس[1]. فأعيدَ الجدلُ مرَّة أخرى عن نظرية التطوُّر والمذهب الطبيعي في الأوساط العلمية والسياسية.

وبعدَ صدور هذا الكتاب بعامين أُسِّس «معهد ديسكفري» (Discovery Institute)، وهو أشهرُ معهدٍ علمي لحركة التصميم الذكي يروِّج لنظرية التصميم الذَّكي[2]. وفي وقت قصير انضمَّ عددٌ كبير من العلماء والسياسيين والقانونيين إلى هذا المعهد. وعندما شعر علماء حركة التصميم الذَّكي بأنَّ شوكتهم قويت طالب القانونيون المنضمون إلى الحركة بتدريس نظريتهم في مدارس الولايات المتَّحدة، ولكن قضت المحكمة الفيدرالية الأمريكية بمنْعهم من ذلك في قضية دوفر المشهورة[3].

وقضيةُ تدريس مذهب الخلق ونظرية التصميم الذَّكي هي مسألة سياسية حساسة في الولايات المتَّحدة؛ حيث يؤيِّد كثيرٌ من سياسيّي الحزب الجمهوري تدريس هذه النظريات بخلاف الحزب الديمقراطي، ونوقشت هذه المسألة في الانتخابات الرئاسية[4].

---

(١) انظر: https: / /ncse.com /library – resource /design – trial

(٢) انظر: https: / /www.discovery.org /about/

(٣) انظر:
https://law.justia.com/cases/federal/district-courts/FSupp2/400/707/2414073/

(٤) انظر:
https://www.salon.com/2016/02/02/make_them_talk_about_evolution_why_wont_a_single_republican_presidential_candidate_admit_that_darwins_right/

الفروقُ بين مذهب الخلق ونظرية التصميم الذَّكي:

قد ذُكر خلالَ هذا المبحث كلٌّ من مذهب الخلق ونظرية التصميم الذَّكي؛ يجدر التنبيهُ على الفرق بينهما، ويمكن أن يلخَّص ذلك في ثلاثِ نقاط رئيسة[1]:

النُّقطةُ الأولى: مذهبُ الخلق مبنيٌّ على كتاب النصارى المقدَّس؛ فهو مذهب ديني علمي. وأمّا نظرية التصميم الذكي فإنها تختلفُ عن مذهب الخلق من كونها لا تفضِّل دينًا على دين آخر؛ ولا تبني تفسيراتِها العلمية على كتابهم المقدَّس؛ فهي حركة علمية محضة - وإن كان أغلب علمائها من النصارى -.

النُّقطةُ الثّانية: الخلقيون يتبنَّون ما يسمَّى بنظرية الأرض الفتية، بمعنى أن الكون خُلِق في ستة أيام حقيقية، وحصلَ ذلك قبل حوالي ٦٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ سنة. ولهذا تكون الأرضُ فتية وحديثة، وليست مليارات السنوات كما يقوله القائلون بنظريتي الانفجار العظيم والتطوُّر. وسببُ أخذهم لهذا الموقف هو أن كتابهم المقدَّس ينصُّ على أنَّ الكون خُلق في ستة أيام، ويذكر تاريخ البشرية بعدَ ذلك من آدم عليه السلام إلى المسيح عليه السلام بسنوات محدَّدة. وهؤلاء العلماء يئوِّلون أيامَ الخلق بأنها مثل أيام الأسبوع العادية. وبتتبّع السنوات المذكورة في الكتاب المقدَّس من آدم إلى المسيح استنتجوا هذا العمر للأرض. وأمّا علماء التصميم الذَّكي، فإنهم يتبنّون مذهب الأرض القديمة، وهو أن الكون وُجد قبلَ ١٣,٧ مليار سنة، والأرض قبل ٤,٥ مليار سنة.

النُّقطةُ الثّالثة: الخلقيون يروْن أنَّ الله خلق الحيوانات والإنسان خلقًا مباشرًا، وأن آدم عليه السلام هو أوّلُ بشرٍ على الأرض. وأمّا علماءُ التصميم الذَّكي، فقد يوافقون نظرية التطوّر على بعض القضايا المتعلِّقة بالتطوّر، ولكنَّهم ينتقدون آليات التطوّر

---

(١) انظر هذه الفروق في:
http://www.nj.com/hunterdon-county-democrat/index.ssf/2011/04/the_difference_between_creatio.html
و: http://www.slate.com/articles/news_and_politics/explainer/2005 / 05/ creationism_vs_intelligent_design.html

كالطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي، ويروْن أنَّه لا بدَّ أن يكون هناك خالق خلق هذه المخلوقات الحيّة.

- **أيُّهما أقربُ إلى الصواب؟**

وتتبيَّن خلالَ هذه النقاط الثلاث أنَّ مذهب الخلق ونظرية التصميم الذكي يتّفقان في إثبات وجود الخالق ونقد المذهب الطبيعي، ويفترقان في ثلاث مسائل مهمَّة. ولكن أيُّهما أقرب إلى الصواب والحقِّ؟ سيأتي الحديث مفصَّلًا عن هذه القضية في الفصل الثّاني من البابِ الثاني عندَ الحديث عن شُبهات الملاحدة العلمية، إن شاء الله.

وسائلُ إصلاح العلوم التَّجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية:

قدْ تبيَّن خلالَ الاستعراض التاريخي للصراع بين أنصار المذهب الطبيعي وأنصار مذهب الخلق ونظرية التصميم الذَّكي، أنَّه ليس صراعًا علميًا محضًا، بل يحمل بُعدًا سياسيًّا وقانونيًّا أيضًا. فتنقسم جهودُ علماء الغرب في إصلاح العلوم التجريبية إلى جانبيْن رئيسين:

الأوَّل: الجانبُ العلمي. ولديهم أربعُ وسائل رئيسة في ذلك:

١) تأليفُ الكتب. ٢) عقدُ المناظرات.

٣) إنتاجُ الأفلام الوثائقية. ٤) المجلّات والدوريات العلمية.

وقد سبقتِ الإشارة إلى الوسائل الثلاث الأولى في هذا الفصل، وهي وسائل مُشتركة بين نقد الإلحاد من حيث العموم وإصلاح العلوم التجريبية على وجه الخصوص.

ولكنْ تبقى الوسيلةُ الرابعة، وهي المجلَّات والدوريات العلمية، وهي وسيلة خاصة بإصلاحِ العلوم التجريبية. وهي وسيلة مهمَّة جدًّا، لأنَّ أغلب المجلَّات والدوريات العلمية الموجودة اليوم تمنع نشرَ أبحاث علمية غير مبنية على المذهب الطبيعي. ويدّعي التطوُّريون أنَّه لم ينشر بحث علمي مبنيٌّ على نظرية التصميم الذَّكي

في دورية علمية بمراجعة أقران (Peer Reviewed Journal)[١] سوى مرّة واحدة. وقد سحب الناشر البحث من مجلّته بعد انتقادات حادّة من قبَل التطوّرين[٢]. ويستعمل التطوّريون عدم نشر الأبحاث العلمية المبنيَّة على نظرية التصميم الذكي كحجة في نقد النظرية، وأنها لا تتلقّى قبولًا لدى المجتمع العلمي.

ولكن أنصار التصميم الذَّكي ردّوا على هذا الادِّعاء في موقع معهد دسكفري بذكر ٢٥ بحثًا علميًّا منشورًا في مجلّات ودوريات علمية[٣]. ورغم ذلك، فإنه عدد قليل مقارنة معَ عدد الأبحاث العلمية المنشورة. ولهذا سعى علماءُ الغرب إلى إنشاء مجلات ودوريات علمية خاصَّة بهم. وتنقسم هذه المجلات والدوريات إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: مجلّات ودوريات نظرية التصميم الذَّكي. قد أنشأ علماء التصميم الذَّكي «مختبر معلومات التطوّر» (The Evolutionary Information Lab)، و«معهد علم الأحياء» (Biological Institute)، وكلاهما ينشر أبحاث علمية بمراجعة أقران[٤].

القسمُ الثّاني: مجلّات ودوريات مذهب الخلق. مؤسَّسات مذهب الخلق اهتمّت بموضوع المجلات والدوريات العلمية أيضًا. ومن الأمثلة على هذه المجلات والدوريات:

١) مؤسسة كهنوت الخلق العالمي (Creation Ministries International) لديها: «مجلة الخلق» (Creation Magazine)[٥] و«دورية الخلق» (Journal of Creation)[٦].

---

(١) دورية علمية بمراجعة أقران: دورية علمية تنشر أبحاث علمية بعد مراجعةِ متخصِّصين أنَّ البحث يتوافق مع المعايير العلمية المتّبعة.

انظر المقال: How to recognize peer – reviewed (refereed) journals, على الرابط: https://www.angelo.edu/services/library/handouts/peerrev.php

(٢) انظر: http: / /biostor.org /reference/81375

(٣) انظر: https: / /www.discovery.org /id /peer – review/

(٤) انظر: http: / /www.evoinfo.org /index.html

وانظر: http: / /www.biologicinstitute.org /research

(٥) انظر: https: / /creation.com /creation – magazine

(٦) انظر: https: / /creation.com /journal – of – creation

٢) مؤسسة الأجوبة في سفر التكوين لديها «دورية أبحاث الأجوبة» (Answers Research Journal)[١]، ومجلة الأجوبة (Answers Magazine)[٢].

٣) ومعهد الأبحاث المختصة بالخلق لديه «مجلة الأعمال والحقائق» (Acts and Facts Magazine)[٣].

والقائمون على هذه الدوريات والمجلات متخصّصون في العلوم الطبيعية، ويراجعون الأبحاثَ قبل النشر مثل بقية الدوريات والمجلات العلمية. ولا شكَّ أن هذه الخطوة جيِّدة وموفَّقة في سبيل إصلاح العلوم التجريبية، مع التنبيه على ما في هذه المذاهب من الأخطاء. ولكن، ينبغي للمسلمين أن يستفيدوا من هذه التجارب ويسعوا لإنشاء مجلاتٍ ودوريات مماثلة، ولكن موافقة للدين الإسلامي الحنيف. فكون العلماء التجريبيين المسلمين ينشرون أبحاثهم العلمية في المجلات والدوريات المبنية على المذهب الطبيعي المنهجي فيه خطورةٌ كبيرة؛ لأنَّ المذهب الطبيعي المنهجي قد يؤدّي إلى المذهب الطبيعي الوجودي - كما سبقتِ الإشارة إليه -، وهو انسلاخ تامٌّ من الدين - والعياذ بالله -.

الثّاني: الجانبُ القانوني السياسي: وهذا الجانب من الأهمية بمكان، ولا سيَّما في الدول الديمقراطية مثل: الولايات المتَّحدة، حيث إنَّ سياسة التعليم تقع على عاتق السياسيين المنتخبين من قبَل الجمهور. والسياسيون يقرِّرون أي نظريات تدرَّس في المدارس. فإذا وافق السياسيون على السماح بتدريس مذهب الخلق ونظرية التصميم الذَّكي؛ فإنَّ مثلَ هذا القرار يعطيهما دفعة قويَّة للانتشار في الأوساط العلمية.

وقد تبيَّن في هذا المبحث أنَّ قضية تدريس نظرية التطوّر هي قضية سياسية تناقش في الانتخابات السياسية، وتنتهي في المحاكم. ولهذا نجد أنَّ بعض كبار الشخصيات في حركة التصميم الذَّكي سياسيون ومحامون.

---

(١) انظر: https: / /answersingenesis.org /answers /research – journal /about/

(٢) انظر: https: / /answersingenesis.org /answers /magazine /about/

(٣) انظر: http: / /www.icr.org /aaf

وهؤلاء - ومَن معهم مِن العلماء التجريبيين - قد وضعوا إستراتيجية تسمَّى: «إستراتيجية إسفين» (Wedge Strategy)، وهي خطة عمل سياسية واجتماعية وأكاديمية تسعَى إلى هزيمة المذهب المادي والطبيعي ونظرية التطوُّر وإثبات وجود الله بشكل متكامل[1]. وقد قسَّموا الإستراتيجية إلى ثلاثة محاور:

١) الأبحاث العلمية وتأليف الكتب والنشر.

٢) التأثير على الرأي العام (ويشمل الحملات السياسية والإعلامية).

٣) المواجهة الثقافية (وتشمل الإجراءات القانونية).

وقد طبَّق معهد دسكفري هذه الإستراتيجية بنجاح كبير، وأقاموا عددًا من الحملات في هزيمةِ المذهب المادي ونظرية التطوُّر، من أشهرها: «تعليم المتنازع فيه» (Teach the Controversy). وهذه الحملةُ تسعى على الصعيد الإعلامي والسياسي والقانوني لموافقة تسمح الحكومة الأمريكية على تدريس نظرية التصميم الذَّكي في المدارس والجامعات الأمريكية.

وإنْ لم تنجح هذه الحملاتُ في السماح بتدريس النظريات المخالفة حتى الآن، إلا إنَّ لها تأثيرًا كبيرًا على الرأي العام في الولايات المتَّحدة. فقد تبيَّن خلال استبيان عن مدى القبول لنظرية التطوّر قام به مركز بيو للأبحاث - وهو من مراكز الإحصاء المشهورة في الولايات المتَّحدة - عام ٢٠٠٩ النتائج التالية[2]:

١) المؤيّدون لمذهب الخلق: ٣١ ٪.

٢) المؤيّدون للتطوّر الموجَّه (وهو يشمل نظرية التصميم الذَّكي): ٢٢ ٪.

٣) المؤيّدون لنظرية التطوّر بآليات طبيعية: ٣٢ ٪.

وحيث إنَّ القائمين على هذه الحملات لهم خلفية في الحزب الجمهوري فإن

---

(١) انظر خطة العمل هنا: http: / /www.antievolution.org /features /wedge.pdf

(٢) انظر: http: / /www.people - press.org/2009 / 07 / 09/section - 5 - evolu- /tion - climate – change – and – other – issues

تأثيرهم أقوى في أتباع هذا الحزب من التأثير على الحزب الديمقراطي. ففي استبيان قامَ به معهد غالوب - وهو مِن أشهر معاهد الإحصاء - تبيَّن أنَّ ٦٨٪ من أتباع الحزب الجمهوري لا يؤمنون بنظرية التطوُّر في مقابل ٣٠٪ يؤمنون بها. وأمّا في الحزب الديمقراطي، فإن ٤٠ ٪ لا يؤمنون بنظرية التطوُّر في مقابل ٥٧ ٪ يؤمنون بها[1].

وهذه الحملات موجَّهة في المقام الأوَّل إلى الأمريكان، ولهذا كان تأثيرها أقوى من الدول الأوروبية. ومن الأمثلة على ذلك ما تبيِّنه الإحصاءات في بريطانيا، فقد قام مركز إبسوس موري (Ipsos Mori) - من أشهر مراكز الإحصاء في بريطانيا - باستبيان في هذه القضية، وتبيَّن أنَّ ٢٢ ٪ من البريطانيين يؤمنون بمذهب الخلق، و١٧ ٪ يؤمنون بنظرية التصميم الذَّكي، و٤٨ ٪ يؤمنون بنظرية التطوّر[2].

والخلاصةُ أنَّ الخلقيين وأنصار نظرية التصميم الذَّكي يقومون بعمل قوي في سبيل إصلاح العلوم التجريبية لتتوافقَ مع الحقائق الدينية، وينبغي للمسلمين أن يستفيدوا من هذا العمل، وأن يعملوا وفقَ خطط عمل مدروسة وإستراتيجيات محكمة في مكافحة الإلحاد ومزاعمه العلمية.

---

(١) انظر: http: / /news.gallup.com/poll/27847/majority - republicans - doubt - theory - evolution.aspx

(٢) انظر: https: / /www.ipsos.com /ipsos – mori /en – uk /bbc – survey – origins – life

المبحثُ السّابع
نقدُ وسائل علماءِ الغربِ
في الردود على الإلحاد

قدْ بيَّن هذا الفصل أبرزَ وسائل علماء الغرب في الردود على الإلحاد، وهي: تأليف الكتب، وعقد المناظرات، وإنتاج البرامج والمقاطع المرئية والنشر في وسائل الإعلام والنشر في وسائل التواصل الحديثة، إضافة إلى محاولة إصلاح العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية.

وهذه الوسائل التي استعملها علماءُ الغرب في هذا الرد على الملاحدة هي وسائل جيِّدة ومفيدة. ويستعملها المسلمون المتخصِّصون في نقد الإلحاد أيضًا. وينبغي للمسلمين أن يأخذوا بكلِّ وسيلة مباحة لمقاومة هذه العقيدة الفاسدة. ومع ذلك فينبغي التنبيهُ على أربعة أمور فيما يتعلَّق بوسائل علماء الغرب في الردود على الإلحاد، وهي:

الأمرُ الأوَّل: الكتبُ وغيرها من الوسائل في نقد الإلحاد تشتمل على فوائد كثيرة، ولكنَّها أيضًا تشتمل على عددٍ من الأباطيل. فقلَّ ما يوجد لديهم كتاب في الردِّ على الإلحاد إلّا وأنَّه يشتمل على الدعوة إلى ديانتهم المحرّفة. ولهذا يصعب على المسلم أن يوصي بهذه الكتب إلّا للمتخصِّص في نقد الإلحاد الذي يستطيع أن يميِّز الغثَّ من السَّمين. ولو أوصى بهذه الكتب لعامَّة المسلمين لخشي لتحذيرهم من الإلحاد فقد يكون سببًا في دعوتهم إلى النصرانية. وكما أنَّ الإلحاد كفر فإنَّ النصرانية كفر أيضًا، وفي نهاية الأمر فإنَّ الكفر ملّة واحدة، وإن كانت دركات؛ بعضها أسفل من بعض.

الأمرُ الثّاني: قد سبق أنَّ علماء الغرب عقدوا أكثر من ثلاثمائة مناظرة مع الملاحدة. وهذا دليلٌ على عنايتهم الكبيرة بالمناظرات. وقد حرَّرت في آخر

المبحث المتعلق بهذا الموضوع خطورةَ عقد المناظرات العلنية، وخطورةَ الاستماع إليها إلا للمتخصِّص. فالملاحدةُ يبثُّون سمومهم في هذه المناظرات بكثرة، ويكثرون من الاستهزاء والسُّخرية بالله وبالمتديِّنين. وإنْ كان علماء الغرب في الغالب أقوى منهم من الناحية العقلية والجدلية في هذه المناظرات إلا أنَّ طريقة السخرية مؤثّرة في النفس. ولهذا قد يبدو للمستمع غيرِ الفاهم للحجج والبراهين أنَّ الملاحدة ينتصرون في هذه المناظرات. فينبغي للمسلمين أن يكونوا على حذرٍ شديد من هذه المناظرات، وإن كان المتخصِّص يستطيع أن يستفيد منها.

الأمرُ الثّالث: أنَّ تأثير علماء الغرب على عامَّة الناس يبدو أقل من تأثير الملاحدة. فكتبُ الملاحدة الجدد قد وصلتْ لأعلى المبيعات في الدول الغربية - كما تقدّم ذكره -، بينما ليس الأمرُ كذلك لأغلبِ الردود على هذه الكتب. وقد ذكرت أنّ علماء الغرب ألَّفوا أكثرَ من سبعين ردًّا على كتاب: وهم الإله لريتشارد دوكينز. ومع ذلك لم تؤثّر تلك الردودُ كما أثَّر كتابه هذا. كما أنَّ تأثير الملاحدة أقوى بكثير في وسائل التواصل، والمتابعون لهم أكثرُ من المتابعين لعلماء الغرب. وقد يكون من أسباب ذلك أنَّ الملاحدة الجدد يخاطبون عامَّة الناس بطرق جماهيرية بينما يكون خطاب علماء الغرب فيه شيء من العمق. ولا شكَّ أنَّ الحجج والبراهين والردود لا بدَّ أن يكون فيها عمق، إلا أنّه من المهمِّ كذلك في هذا الزمان أن يبسِّط الإنسان خطابَه للجماهير حتى يستطيع الوصول إليهم. والظاهر أنَّ علماء الغرب لم يوفّقوا في هذا الجانب.

الأمرُ الرّابع: قد سعى علماءُ الغرب إلى إصلاح العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية عندهم. ولكنَّ هذه الحقائق الدينية نفسها قد تكون صحيحة أحيانًا، مثل: إيمانهم بوجود الخالق، وقد تكون باطلة أيضًا مثل: عقائدهم الفاسدة والنصوص المحرَّفة في كتابهم المقدَّس. ولهذا، فإنهم استطاعوا القيام بإصلاح هذه العلوم من نواحٍ وإفسادها من نواحٍ أخرى. ولهذا ينبغي للمسلمين القيام بهذه المهمة بأتمِّ وجه وطريقة. ولا يمكن أن يوجد الحقُّ الخالص إلّا عند أهل الإسلام والسنة.

البابُ الثّاني

حججُ علماءِ الغرب على إثباتِ وجود الله

وفيه ثلاثةُ فصول:

الفصلُ الأوَّل: حججُ علماءِ الغرب العقلية على إثبات وجود الله.

الفصلُ الثّاني: حججُ علماءِ الغرب العلمية على وجود الله.

الفصلُ الثّالث: حججُ علماءِ الغرب الحسية على وجود الله.

الفصلُ الأوَّل

حججُ علماء الغرب العقليَّة على إثبات وجود الله

وفيه عشرةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: حجةُ الفطرة.

المبحثُ الثّاني: الحجَّة الكونية.

المبحثُ الثّالث: الحجَّة الغائية.

المبحثُ الرّابع: حجةُ التوافق الدقيق للكون.

المبحثُ الخامس: حجةُ الجمال.

المبحثُ السّادس: الحجَّة الوجودية.

المبحثُ السّابع: الحجَّة الأخلاقية.

المبحثُ الثّامن: حجةُ الوعي.

المبحثُ التّاسع: الحجَّة البرغماتية.

المبحثُ العاشر: نقدُ حجج علماء الغرب العقلية على وجود الله.

المبحثُ الأوَّل
حجَّةُ الفطرة

المرادُ بالفطرة:

قد وردتْ كلمة الفطرة في كثيرٍ من نصوص القرآن والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [سورة الروم: ٣٠]، وهي مذكورة في قول الرسول ﷺ: «كلُّ مولود يولَد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّراه أو يمجِّسانه»[١]. والمرادُ بالفطرة في هذه النصوص عند عامَّة علماء السلف هي: الإسلام[٢].

ولكن، ليس المرادُ بهذا الحديث أنَّ الطفل يعرف الإسلام عقائده وشرائعه، ولكنّ الفطرة تقتضي الإسلام؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «وإذا قيل: إنه وُلد على فطرة الإسلام، أو خلق حنيفًا ونحو ذلك. فليس المراد به أنَّه حين خرج من بطن أمِّه يعلم هذا الدينَ ويريده. فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [سورة النحل:٧٨]. ولكنَّ فطرته مقتضيةٌ موجبة لدين الإسلام، لمعرفته ومحبَّته. فنفس الفطرة تستلزم الإقرارَ بخالقِه ومحبَّته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئًا بعد شيء، بحسب كمال الفطرة، إذا سلمت عن المعارض»[٣].

---

(١) متَّفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٩)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١ / ٤٦٥). وأخرجَه مسلم في صحيحه (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب ما معنى كلِّ مولود يولَد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤ / ٢٠٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٨ / ٧٢).

(٣) درءُ تعارض العقل والنقل: (٨ / ٣٨٣).

وقال (رحمه الله) أيضًا: «إذا ثبتَ أنَّ نفس الفطرة مقتضية لمعرفته ومحبته، حصل المقصودُ بذلك، وإن لم تكن فطرة كلِّ أحد مستقلَّة بتحصيل ذلك، بل يحتاج كثير منهم في حصولِ ذلك إلى سببٍ معيَّن للفطرة: كالتعليم والتخصيص.

فإنَّ الله قد بعث الرسل، وأنزل الكتب، ودعوا الناسَ إلى موجب الفطرة: من معرفة الله وتوحيده، فإذا لم يحصل مانعٌ يمنع الفطرة، وإلّا استجابت لله ورسله، لما فيها مِن المقتضى لذلك. ومعلومٌ أنَّ قوله: كلّ مولود يولَد على الفطرة، ليس المراد به أنه حينَ ولدته أمُّه يكون عارفًا بالله موحِّدًا له، بحيث يعقل ذلك. فإن الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل:٧٨]. ونحن نعلم بالاضطرار أنَّ الطفل ليس عنده معرفة بهذا الأمر، ولكنْ ولادته على الفطرة تقتضي أنَّ الفطرة تقتضي ذلك، وتستوجبه بحسبها.

فكلَّما حصل فيه قوة العلم والإرادة، حصلَ من معرفتها بربها، ومحبتها له، ما يناسبُ ذلك،كما أنه ولِد على أنه يحب جلبَ المنافع ودفع المضار بحسبه، وحينئذ فحصولُ موجب الفطرة، سواء توقَّف على سبب، وذلك السبب موجود من خارج، أو لم يتوقَّف، على التقديرين يحصل المقصود. ولكن قد يتفق لبعضها فوات الشرط أو وجود مانع، فلا يحصل مقصود الفطرة»[1].

وخلاصةُ كلام شيخ الإسلام (رحمه الله) أنَّ في الفطرة قوّتين يجدهما الإنسان في نفسه بالضرورة، وهمَا: القوَّة العلمية والقوّة الإرادية. والقوّة العلمية مستلزمة للقوّة الإرادية عندَ انتفاء الموانع، والقوَّة الإرادية تتضمَّن العلم بالمراد، إذ يستحيل أن تكون الإرادة لغير مراد معلوم[2].

وحيث إنَّ هذا البحث متعلِّق بإثبات وجود الله، فإنَّ الكلام سوف يكون عن القوّة العلمية فقط؛ «فأمّا اقتضاء القوَّة العلمية لفطرية معرفة الله وتوحيده، فلمّا تختصُّ به معرفةُ الله من عدم إمكان الفصل بين تصوُّر وجوده وتحقُّق وجوده. وذلك

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٤٦٠ - ٤٦١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢).

أن معرفة الله ليست متعلِّقة بوجود مجرَّد من الصفات، بل هي متعلِّقة بموجود له الكمال المطلق، وهذه المعرفة ليست استدلالية نظرية، وإنَّما هي فطرية ضرورية، بحيث يكون الدليل على ثبوتِه مجرَّد تحقُّقها ووضوحها وكونها من المعارف البديهية. والحقائق الضرورية لا يمكن الاستدلال على كونها ضرورية بمقدِّمات ضرورية، وإلا لم تكن تلك الحقائق ضرورية، وإنَّما يمكن الاستدلال على نفي أن تكون نظرية، وإذا عُلم أنَّ المعارف إنما تكون ضروريةً أو نظرية، فإنه إذا انتفى أن تكونَ نظرية لزم أن تكون ضرورية. ومما يبيّن أن معرفةَ الله تعالى من المعارف الضرورية أنَّه لا يمكن الاستدلال على وجود الله تعالى بمقدِّمات نظرية، وإنما يستندُ إثبات وجود الله تعالى على مقدِّمات ضرورية، وهي مُقتضى الإدراك الحسِّي المباشر لوجود المخلوقات بعد العدم، وما يتضمّنه خلقها من الإحكام والإتقان، وما يقتضيه ذلك مِن ضرورة أن يكون له موجد، بناء على مبدأ السببية الضرورية.

وإذا كانت المعرفة الفطرية بالله إنما تتحقَّق على أساس إثبات الكمال المطلق لله فإنَّ الوجود صفةُ كمال لا بدَّ أن يتحقّق مقتضاها، وهو ألا تكون معرفتنا بالله من حيث هو المتَّصف بالكمال المطلق مجرَّد معرفة عقلية لا يقابلها وجود حقيقي متعيّن لله في الخارج، بل لا بدَّ من إثبات وجود الله وتعيُّنه، وإلّا لم تكن الفطرة قد دلّت على الله من حيث هو المتَّصف بالكمال المطلق، وإلّا لزم التناقض بين دلالة الفطرة على أن معرفة الكامل الكمال المطلق ضرورية وبين عدم اقتضائها لوجوده بالفعل»[1].

وبناءً على هذا الكلام يمكن تلخيصُ حجَّة الفطرة بطريقة عقلية منطقية بالصياغة التالية:

المقدِّمة الأولى: الاعترافُ بوجود إلهٍ ذي كمال مطلق علم ضروري لكلِّ إنسان.

المقدِّمة الثانية: كلُّ علمٍ ضروري للإنسان لا بدَّ أن يكون له وجود واقعي خارج ذهنه.

---

(١) المعرفة في الإسلام (٢١٠ - ٢١١)، للدكتور عبد الله بن محمد القرني، (مركز التأصيل للدراسات والبحوث، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤ هـ).

النتيجة: إذًا، المعرفةُ الفطرية الضرورية بالله ذي الكمال المطلق دالّة على وجوده الواقعي خارج إطار الذهن[1].

الفطرةُ عند اللاهوتيين المتقدّمين:

الفطرةُ من أقوى الأدلة على وجودِ الله، ورغم ذلك نجد أنَّ هذا الدليل قد غاب عن كلامِ كثيرٍ من اللاهوتيين النصارى المتقدِّمين. فعلى سبيل المثال: لم يذكر توما الأكويني حجةَ الفطرة في أدلته الخمسة المشهورة على وجود الله، وكان النصارى في السابق يعتمدون على هذه الأدلة إلى حدٍّ كبير - كما سبق في التمهيد -.

والسببُ لذلك - والله أعلم - أنَّ توما الأكويني كان يرى أنه لا يمكن الوصول إلى معرفةِ الخالق عن طريق العقل أو الحسِّ مباشرة، ولكن العقل يمهِّد الطريق للإيمان

---

(١) استفدتُ هذا الاستدلالَ المنطقي من كتاب: أفي الله شكّ (٥٨)، حيث قال المؤلّف: «وإذا لم تكنِ القضية القائلة «كلُّ ما هو فطري بالنسبة للإنسان لا بدَّ أنْ يكون له وجود واقعي خارجَ إطار الذهن»، - وهي الركنُ الأساسي للقياس - قابلة للإثبات، فإنَّ الاستدلال بالفطرة سيكون ناقصًا؛ لأنَّنا لا نستفيد من الآيات القرآنية أكثر من أن النزوع نحو الله والبحث عنه فطري.

والقياسُ الذي نتحدَّث عنه يمكن صياغتُه على النحو التالي:

النزوعُ والميل نحوَ الله فطري بالنسبة للإنسان.

كلُّ ما هو فطري بالنِّسبة للإنسان لا بدَّ أن يكون له وجود واقعي خارج إطار الذهن.

إذًا، الميلُ والنزوع الفطري إلى الله دالٌّ على وجوده الواقعي خارج إطار الذهن.

الإشكالُ ينصبُّ على إثبات المقدِّمة الثانية، حتَّى لو سلّمنا بصحة المقدّمة الأولى استنادًا إلى القرآن الكريم. نعم، إذا تأمَّل الإنسان في داخله، وشاهد حالاته المختلفة أثناء الحوادث السَّارة والمؤلمة لآمنَ بالله. ولكن إثبات هذا المعنى للآخرين بواسطة الفكر يبقى أمرًا صعبًا. ولذا، لا يطرح دليلُ الفطرة في العلوم العقلية على النحو موازٍ لسائر الأدلة، من قبيل الحدوث والحركة والإمكان».

فالمؤلّف شعرَ بأنَّ دليله بهذه الصيغة ناقص، وهو كذلك. وأمّا بالصياغة الثانية التي أوردها الباحث فهي أقوى بكثير، كما سيتبيَّن خلال هذا المبحث.

بوجود الإله، ثمَّ يأتي دورُ الوحي لتكميل هذا الإيمان[١]. وإلى نحوِ هذا الرأي ذهب وليم الأوكامي، وهو مِن أشهر اللاهوتيين النصارى في العصور الوسطى[٢]. ولهذا أهمل هؤلاء اللاهوتيون المتقدِّمون - فيما وقفتُ عليه - الحديثَ عن الفطرة تمامًا، وأوردوا الأدلة العقلية على وجود الله، مع اعتقادهم أن هذه الأدلة ليست يقينية.

ظهورُ الكلام عن الفطرة في عصر النهضة:

ولكنْ في عصر النهضة تغيَّر الأمرُ إلى حدٍّ كبير، حين حصلت معارضة قوية للكنيسة الكاثوليكية، وبالتالي: علمُ اللاهوت المقرَّر لديهم. وكان أشهر من تكلّم عن الفطرة في عصر النهضة: اللاهوتي جون كلفن[٣] والفيلسوف رينيه ديكارت. وبيان ذلك كما يلي:

اللاهوتي جون كلفن:

كان كلفن يتكلَّم عن الشعور بالوجود الإلهي (Sensus divinitatis) في داخل كلِّ إنسان، وأنه لا يمكن أنْ يكون هناك ملاحدة بالفعل؛ فقال: «المعرفة بوجود الله تظهر للجميع حتَّى لا يبقى للشرِّير عذر... كونه يوجد في العقل الإنساني وكذلك بالغريزة الطبيعية شعورٌ بالوجود الإلهي مما لا شكَّ فيه، حيث إنَّ الله نفسه قد وهب لكلِّ إنسان فكرةً بوجوده لا يمكن للإنسان تجاهلها. هذه الفكرة يجدّدها دائمًا وأحيانًا يعظِّمها لكي يعرف كلُّ إنسان أنه يوجد إله، وأنه صانعهم. ويمكن أن ينكر شخصٌ هذه المعرفة عندما لا يعبدونه ولا يركِّزون حياتهم على خدمته»[٤].

---

(١) انظر: Med tanke på Gud (58)

(٢) انظر: المصدر السابق (٦٣).

(٣) جون كلفن (John Calvin): لاهوتي فرنسي، وأحد روّاد حركة البروتستانت. وقد أسّس الفرقة الكالفينية (Calvinism)، وهي إحدى فرق البروتستانت. توفي عام: ١٥٦٤م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/John - Calvin

(4) Institute of the Christian Religion (1/177)

الفيلسوف رينيه ديكارت:

أمّا ديكارت فقد قرَّر هذا الدليلَ بطريقة فلسفية دقيقة في كتابه: التأملات، حيث يرى أنَّ معرفةَ الله ضرورية وليست نظريةً استدلالية؛ فقال: «إن اعتيادي في سائر الأشياء الأخرى أن أميِّز بين الوجود والماهية قد يسَّر لي الميل إلى الاعتقاد بأن الوجود يمكن أن ينفصل عن ماهية الله، وأنَّنا لذلك نستطيع أن نتصوَّر الله غير موجود في الواقع، ولكنَّني حين أفكِّر في الأمر بمزيدٍ من العناية أرى بجلاءٍ أن الوجود لا يمكن أن ينفصلَ عن ماهية الله، كما لا يمكن أن ينفصلَ عن ماهية مثلّث مستقيم الأضلاع أن زواياه الثلاث متساوية الزاويتين قائمتين، وكما لا يمكن أن تنفصل فكرة الوادي عن فكرة الجبل، ولهذا لا يكون تصوّرنا إلهًا - أي: موجودًا مطلق الكمال - ينقصه الوجود - أي: ينقصه كمال ما - أقلّ تناقضًا من تصوّرنا جبلًا غير ذي وادٍ...

إنَّ كوني لا أستطيع أن أتصوَّر جبلًا بغير وادٍ لا يقتضي وجود أيِّ جبل ولا أي وادٍ في الخارج، وإنما يقتضي أنَّ الجبل والوادي - سواء كانا موجودين أو غير موجودين - لا ينفصلُ الواحد منهما عن الآخر. أمّا كوْني لا أستطيع أن أتصوّر الله إلا موجودًا فيقتضي أنَّ الوجود غير منفصل عنه، ومن ثمّ أنه موجود حقًّا.

وليس فكري هو الذي يحصِّل هذا الوجود، ولا هو الذي يفرض سلطانه على الأشياء؛ بل على العكس، إنَّ الضرورة التي تقع في الشيء نفسه - أي: ضرورة وجود الله - هي التي تجعلني أنحو هذا النَّحو من التفكير؛ لأنه ليس في وسعي أن أتصوَّر إلهًا لا وجود له - أي: أن أتصوَّر موجودًا ذا كمال مطلق بغير كمال مطلق - كما في وسعي أن أتخيَّل فرسًا ذا جناحين أو غير ذي جناحين...

إنِّي أتبيَّن من وجوه كثيرة **أنَّ هذا المعنى [أي: الإيمان بالله] ليس شيئًا مصطنعًا ولا مخترعًا، ولا معتمدًا على فكري فحسب، بل إنَّه صورة لطبيعة حقيقية ثابتة**. أوّلًا لأنِّي لا أستطيع أن أتصوَّر غير الله شيئًا يخصُّ الوجود ماهيته على جهة الضرورة، ثمّ لأنه لا يمكنني أن أتصوَّر إلهين أو أكثر على شاكلته...

وأخيرًا لأني أتصوّر في الله صفات أخرى كثيرة لا أستطيع أن أنقص، أو أن أغيِّر منها شيئًا»[1].

وبيَّن في موضعٍ آخر أنَّ هذا العلم الضروري بوجود الله موجود مع الإنسان منذ ولادتِه، إذ قال: «لا يبقى ما يُقال بعد ذلك إلّا أنَّ هذه الفكرة وُلدت ووُجدت معي منذُ خُلقت، كما وُلدت الفكرة التي لديَّ عن نفسي، والحقّ أنه لا ينبغي أن نعجب من أنَّ الله حين خلقني غرسَ فيَّ هذه الفكرة لكي تكون علامة للصناع مطبوعة على صنعته»[2].

ورغمَ استعمال ديكارت لبعض الألفاظ الفلسفية المعقّدة في هذا الكلام إلا أنَّ معنى كلامِه صحيح، وهو أن «معرفة الله تعالى ليست من جنس التصوّرات الممكنة، بل هي تصوُّر ضروري مفْروض على الذهن، ولهذا لم يمكن الفصلُ بين تصوّر وجوده وتحقّق وجودِه كبقية الأشياء؛ لأنَّ تصوّرها ليس ضروريًّا بل ممكنًا، ولم يمكن تصوّر أكثر من إله؛ لأنَّ معرفة الله إنما تتعلّق بمعيّن متّصف بجميع صفات الكمال، والضرورة الفطرية لا تحتمل اتِّصافَ غير الله بها، كما لا يمكن النقص من صفات الكمال الثابتة لله تعالى بالفطرة لأنَّها ضرورية، ولو كانت قائمة على تصوّر نظري لأمكن النقص منها... والحاصلُ أنَّ مَن سلَّم بالمعارف الفطرية فلا بدَّ أن يسلِّم بهذا الاستدلال على وجود الله تعالى؛ لأنه مجرَّد كشف عن حقيقة المعرفة الفطرية لله تعالى، وهي معرفة لا تقوم على الاستدلال والنظر، وإنما على المعرفة المباشرة، من حيث هي مقتضى الخلقة والفطرة التي فطرَ اللهُ الناس عليها. وأمّا مَن نفى المعارف الفطرية، وادّعى أنه لا يمكن إثبات وجود الله تعالى إلّا عن طريق الاستدلال النظري فإنه لا يمكن أن يثبت وجود الله تعالى من مجرَّد تصوُّر الكمال المطلق؛ لأنه عنده تصوّر ممكن وليس بضروري»[3].

---

(١) التأملات في الفلسفة الأولى (١٩٩ - ٢٠٢)، لرينيه ديكارت، (مكتبة الأنجلو، ١٩٥١م. ترجمة: الدكتور عثمان أمين).

(٢) المرجع السابق (١٥٥).

(٣) المعرفة في الإسلام (٢١٣ - ٢١٥).

إذًا، فمحلُّ البحث هنا مرتبطٌ بثبوت المعارف الفطرية في الإنسان. وهذا ما لا يمكن جحدُه إلّا على سبيل المكابرة. وعليه؛ فمن سلّم بوجود المعارف الفطرية، وأنَّ الإيمان بالله معرفة ضرورية فطرية، فإنه لا بدَّ أن يسلّم بوجود الله خارج الذهن.

انتقادُ دليل الفطرةِ في عصر التنوير:

قد تعرَّض دليل الفطرة لهجوم في عصر التنوير من جانبين: من جانب من أنكر وجودَ المعارف الفطرية، ومِن جانب مَن انتقد استدلال ديكارت بالفطرة على وجود الله. وبيانُ ذلك كما يلي:

الجانبُ الأوَّل: كان ديكارت يرى أنَّ الإنسان يولد ومعه بعض المعارف الفطرية، ومِن ضمن هذه المعارف: المعرفة بوجود الله. وكان يرى أنَّ هذه المبادئ الفطرية هي الأساس للتفكير العقلاني. ويطلق على فلسفته: «الفلسفة الديكارتية» (Cartesian Philosophy): مذهب فلسفي من ضمن المذاهب العقلانية.

وفي عام ١٦٩٠م، أصدرَ الفيلسوف البريطاني جون لوك كتابه: «رسالة عن الفهم الإنساني» (An Essay Concerning Human Understanding)، وقرر أن الإنسان يولد صفحةً بيضاء (Tabula Rasa)، وأنكر المبادئ الفطرية. وكان يرى أنَّ العلم لا ينال إلا عن طريق الحسِّ. ويطلق على هذا المذهب: المذهب التجريبي - كما سبقت الإشارةُ إليه -.

وكان الفلاسفة في أوروبا القارية (Continental Europe) ينتحلون المذهب العقلاني متأثِّرين بفلسفة ديكارت، بينما كان الفلاسفة البريطانيون يتبنَّون المذهب الحسّي على طريقة جون لوك[1].

فجون لوك، وإن كان لا ينكرُ وجود الله، إلا أنَّه أنكر المبادئ الفطرية فكان ذلك تحدِّيًا للقول بحجّية الفطرة. وكان كلٌّ من ديكارت ولوك يبنون تصوّرهم عن وجود المبادئ الفطرية، أو عدم وجودها على فلسفة، وليس على الأبحاث العلمية. وسيأتي

---

(١) انظر: Västerlandets Filosofi (348 - 351)

- إن شاء الله - ما يبيِّن أنَّ الأبحاث العلمية الحديثة تثبت وجود هذه المبادئ الفطرية لدى الإنسان.

الجانبُ الثّاني: كان إيمانويل كانت من أشهر الفلاسفة في القرن الثامن عشر، وقد اشتهرَ بنقده لبعض أدلة وجود الله، ومن ضمن هذه الأدلة: دليل الفطرة، الذي ذكره رينيه ديكارت. وكان يبني هذا النقدَ على أساس أنه لا يمكن أن يكون الوجود الخارجي ثابتًا لله بناءً على مجرَّد تصوّر الكمال المطلق، وأنه لا تلازم بين التصوّر العقلي والوجود الخارجي، فتصوُّر الكمال المطلق لا يستلزم أنَّه موجود في الحقيقة، لإمكان تصوّر الكمال المطلق بدون أن يكون منسوبًا إلى موجود متعيّن[1].

ولكنَّ انتقادَ كانت لم يكن في محلِّه، بل هو لعدم تصوّره لحقيقة قول ديكارت. «والحقيقة أنَّ هذا النقد قد بُني على مغالطة، وهي عدم التفريق بين ما يمكن تصوّره وما يكون تصوّره فطريًّا ضروريًّا، وإذا صحَّ أنَّ ما أمكن تصوّره ليس ضروري الوجود، فإنه لا يصحُّ أن ما تحتَّم تصوُّره وكان ضروريًّا يمكن ألا يوجد، بل إن شهادة الفطرة الضرورية كافيةٌ في الدلالة على ووجوده، ومَن نازع في وجوده فإنما ينازع في كونه فطريًّا، وأمّا مَن يثبت فطريته فإنَّه لا يمكنه أن ينازع في وجوده، وإذا تقرَّر أنَّ معرفة الله تعالى فطرية من جهةِ عدم إمكان الاستدلال النظري على وجوده، وأنَّ ما ليس بنظري فلا بدَّ أن يكون ضروريًّا، فإنَّ وجود الله وتعيّنه لا بدَّ أن يكون ثابتًا من مجرّد كون معرفته فطرية ضرورية»[2].

فمحلُّ البحث إذًا في الاستدلال هو أنَّ معرفة الله فطرية، وليست نظرية. وقد بيَّن علماءُ الغرب المتأخّرون هذا الأمر بجلاء.

---

(١) نقد العقل المجرَّد (٦٥٢ - ٦٦٦)، إيمانويل كانت، (دار اليقظة العربية، ١٩٦٥م. ترجمة: أحمد الشيباني). وانظر: المعرفة في الإسلام (٢١٤).

(٢) المعرفة في الإسلام (٢١٤ - ٢١٥).

دليلُ الفطرة عندَ علماء الغرب المعاصرين:

قد ظهرَ دليلُ الفطرة على ساحةِ الجدل الديني في الدول الغربية من جديد في هذا العصر. وذلك من جانبين: الجانب العلمي، والجانب الديني الفلسفي، وبيانُ ذلك كما يلي:

الجانبُ الأوَّل: قدْ سعى علماءُ الغرب إلى إجراءِ أبحاث علمية متعلّقة بفطرة الإنسان. وهذه الأبحاثُ العلمية أجْريت في نوعين من أنواع العلوم: علم الوراثة (Genetics)، وعلم النفس (Psychology).

العلمُ الأوَّل: علمُ الوراثة:

أشهرُ عالم اهتمَّ بقضية الفطرة هو الدكتور دين هامير[1]. وقد اهتمَّ اهتمامًا كبيرًا بفطرية الإيمان بالله، وتوصَّل إلى نتيجة هي: أنَّ الإيمان بالله مربوط بقوّة في جينات الإنسان. وقد ألَّف كتابه المشهور: «الجين الإلهي: كيف أنَّ الإيمان مربوط بقوّة في جينياتنا» (The God Gene – How Faith is Hardwired into our Genes).

ويزعم أنه قد وجد الجين المسئول عن هذا الإيمان الفطري، وهو جين (VMAT٢). وهذا الكتاب ليس مبنيًّا على أسسٍ دينية، بل المؤلّف نفسه يصنِّف بأنه لاأدري[2].

وكوْن المؤلِّف حاول تفسيرَ الإيمان بالله بطريقة علمية مبنية على الاختزالية[3]، أثار غضبَ بعض اللاهوتيّين المشهورين مثل: البروفسور ألفن بلانتنغا؛ فقال معلّقًا على نتائج الكتاب: «فكرةُ الجين الإلهي تخالف جميعَ اعتقاداتي اللاهوتية. لا يمكنك أن تقطعَ الإيمان إلى المقام المشترك الأدنى من بقاء الجينيات. هو يدلُّ على إفلاس التفكير الاختزالي»[4].

---

(١) دين هامير (Dean Hamer): عالم الوراثة الأمريكي وحامل شهادة الدكتوراه في علم الوراثة من جامعة هارفارد. انظر: /https: / /sites.wustl.edu /inclusion /people /dean – hamer

(٢) انظر: The Newest Testament: A Secular Bible (655)

(٣) الاختزالية (Reductionaism): شرح العمليات والظواهر المعقدة في علوم الحياة من حيث قوانين الفيزياء والكيمياء. انظر: / https: / /www.merriam – webster.com dictionary /reductionism

(4) https://www.telegraph.co.uk/news/uknews/1476575/God-gene-discovered-by-scientist-behind-gay-DNA-theory.html

ولكنَّ الدكتور دين هامير ذكر أن نتائجه العلمية قد تكون دليلًا علميًّا على وجود الله فقال: «يمكن للمؤمنين المتديِّنين أن يشيروا إلى أنَّ وجود الجينيات الإلهية دليل على إبداع الخالق بطريقةٍ ذكية لمساعدة الإنسان للاعتراف بالوجود الإلهي وقبوله»(١).

الخلاصةُ هي أنَّ دين هامير عالم مادي، ويدرس الظواهر الطبيعية وفق المذهب المادي الطبيعي، ولهذا فسَّر فطرة الإنسان بوجود جين إلهي في داخل بدن الإنسان، دون أن يتعرَّض للروح. وذلك يؤكِّد ما سبق مِن أن المذهب المادي الطبيعي لا يسمح بالحديث عمّا هو غير مادي، مثل الروح. بينما دلَّت الأدلة الشرعية على أن الفطرة لها علاقةٌ بروح الإنسان، وليس بالبدن فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٧٢]. واختلف المفسّرون في تفسير هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنَّ الله مسحَ على ظهر آدم ﷺ فاستخرج منه ذريته فأشهدهم على أنفسهم، فأقرُّوا له بلسان المقال.

الثاني: أنَّ المرادَ بالأخذ والإشهاد خلقهم على الفطرة، المتضمنة الإقرار بالخالق والشَّهادة له بالربوبية؛ فالإشهادُ بلسان الحال، وليس بلسان المقال(٢).

وعلى أيِّ حال، فالظاهرُ من القولين أنَّ الآية تتعلَّق بروح الإنسان وليس بجسده(٣)، فيبدو أنَّ الفطرة لها علاقة بالروح. ولا ينافي ذلك أنه يمكن أن الله قد جعل الفطرة في داخل الجينات كذلك؛ إن ثبت ذلك.

والذي يهمُّنا من بحث الدكتور دين هامير هو وجود الفطرة في داخل الإنسان، وأنَّ الاعترافَ بوجود الخالق علمٌ ضروري فطري. وهذا ما دلَّت عليه أبحاثه العلمية الكثيرة،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٠٢ - ٣١٤).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٠٥).

وأمّا وجود هذا العلم الضروري في داخل جين معيَّن اسمه: (VMAT٢)، فهذا تفسير علميٌّ مبني على المذهب المادي، وقد اعترض غيره من العلماء على هذا التفسير[١].
فالخلاصة أنَّ بعض الأبحاث العلمية الوراثية قد أثبتت وجود الفطرة في داخل الإنسان، وأمّا تفسير هذه الأبحاث العلمية بالمذهب المادي، فلا يخْلو من اعتراض.

العلمُ الثّاني: علمُ النّفس:

قدِ اهتمَّ البروفسور جاستين باريت[٢] بإجراء أبحاث علمية نفسية في البحث عن الفطرة الإنسانية اهتمامًا بالغًا. فقادَ البروفسور باريت مع زميله البروفسور روجير تريغ[٣] مشروعًا علميًّا ضخمًا مع ٥٧ باحثًا من ٢٠ دولة عن فطرية الإيمان، وكتب البروفسور تريغ كخلاصةٍ عن بحثهما بقوله: «لقدْ جمعنا أدلة كثيرة تثبتُ أنَّ التديُّن حقيقة مشتركة في طبيعة الإنسان في المجتمعات المختلفة»[٤].

وألَّف البروفسور باريت كتابه المشهور: «مؤمنون بولادة: علم الإيمان الديني لدى الأطفال» (Born Believers: The Science of Children’s Religious Belief)[٥].

---

(١) انظر:
http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A46793-2004Nov12.html

(٢) جاستين باريت (Justin Barrett): بروفسور علم النفس الأمريكي. كان يعمل في جامعة أكسفورد في بريطانيا لفترة. وهو متخصِّص في علم نفس الأطفال، ولا سيَّما فيما يتعلّق بالإيمان الفطري. انظر: https: / /biologos.org /people /justin – barrett

(٣) روجير تريغ (Roger Trigg): بروفسور الفلسفة في جامعة أكسفورد ببريطانيا، ومؤسس الجمعية البريطانية لفلسفة الدين. وقد ألَّف عددًا من المؤلفات في فلسفة الدين. انظر:
https://www.ox.ac.uk/news-and-events/find-an-expert/professor-roger-trigg

(٤) انظر:
https://www.telegraph.co.uk/news/politics/8510711/Belief-in-God-is-part-of-human-nature-Oxford-study.html

(٥) وقد ترجم مركزُ دلائل هذا الكتابَ وطبعَه بعنوان: فطرية الإيمان - كيف أثبتت التجارب أنَّ الأطفال يولدون مؤمنين بالله -.

وهذا الكتاب مبنيٌّ على تجاربِه العلمية خلالَ عشرين سنة، وقد دلَّل بأدلة كثيرة جدًّا مبنيَّة على أبحاث علميَّة أنَّ الأولاد يولدون مفْطورين على الإيمان بالخالق، وأنَّ المبادئ الفطرية - التي أنكرَها جون لوك - موجودةٌ لدى الإنسان منذ ولادته. وخلاصةُ كتابه أنَّه قال: «وبغضِّ النَّظر عن الثقافة، ودونَ الحاجة إلى تلقين بالإكراه؛ ينمو الأطفال بنزعة للبحث عن معنى محيطهم وفهمِه، وعند منْح المجال لتطوُّر عقولهم ونموّها طبيعيًّا يؤدّي بهم هذا البحثُ إلى اعتقاد بعالَم مصمَّم له غاية، وأنَّ صانعًا حكيمًا قد صمّمه، ويفترضون أن هذا الصانعَ المقصود كلّيٌّ القدرة، وكلّيُّ العلم، وكلّيُّ الإدراك، وأبدي. ولا يحتاج هذا الصانعُ أن يكون مرئيًّا أو متجسِّدًا مثلَ البشر. ويربط الأطفال بسهولة هذا الصانع بالخير الأخلاقي، وبأنَّه مصدرُ الإلزام بالقيم الأخلاقية. وتعلِّل هذه الملاحظات والاستنتاجات جزئيًّا سببَ الانتشار الواسع للإيمان بالآلهة بهذه الصفات العامة عبر الثقافات وعلى مدى التاريخ»[1].

ومِن فوائد هذا الكتاب أنه ردَّ على شبهةٍ مَفادها: أنَّ فطرية الإيمان نتيجة لتلقين الوالدين فقط، وليس أنَّ الأطفال يولَدون مع هذه الفطرة. وقد ردَّ على هذا الزعم بكلامٍ مهمّ - ويُستحسن إيرادُه كلّه رغمَ طوله - إذْ قال: «وعندَ قراءتك لهذه المقولة عن وصفِ طبيعية الاعتقاد الديني ربَّما تفكِّر الآن في طرح تعليل بديل لتديّن الأطفال... والنُّسخة الأكثر ضبطًا لهذا التَّعليل الشائع لظاهرة ميل الأطفال للإيمان بالآلهة يمكن تسميتُه فرضيَّة التلقين (Indoctrination Hypothesis)، وتتلخَّص أن الأطفال يؤمنون بالله لأنَّ والديهم وغيرهم من البالغين ذوي الأهمية في محيطهم يعلِّمونهم الإيمان: أي أنهم يلقِّنونهم الإيمان. وبما أنَّ الأطفال لا يملكون الإمكانات الذهنية ليفكّروا لأنفسهم، فسيتبعونَ بشكل أعمى ما يُمليه الكبار عليهم.. يظنُّ بعض الأشخاص الأذكياء خطأ أنَّ التعليل بالتلقين يفسّر كل شيء...

إنَّ الأفكارَ الدينية مختلفة جدًّا عن الأفكار المدَّعاة أو الخيال، فمنذ أن بدأت بإلقاءِ محاضرات عامَّة عن المعارف التي بُني هذا الكتاب عليها وأنا أتلقّى الكثير من التقارير مِن أناسٍ يخبرون فيها عن مدى سهولة اعتناق أطفالهم للدين، ومدى صعوبة صدِّهم عن

---

(١) فطرية الإيمان - كيف أثبتتِ التجارب أنَّ الأطفال يولدون مؤمنين بالله - (٢٠ - ٢١)، للدكتور جستون باريت، (مركز دلائل، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ، ترجمة: مركز دلائل).

الإيمان بالله. فقدْ أخبرتني زميلةُ عمل سابقة عن بناتها الثلاث، وتبلغ أكبرهم الثامنة من عمرها تقول: (أنا مسيحيَّة لكنَّ زوجي ملحد، وقد قررنا ألا ندفع أولادنا في أيِّ اتِّجاه، لكنْ هذا لا يبدو أنه مهمٌّ؛ فالبنات الثلاث جميعهنّ يؤمنّ بالله وبدرجة عميقة، بل إنَّ «صوفي» أكبرهنَّ تشاجرت مع أبيها وأخبرته أنه مخطئ باعتقاده أن الله غيرُ موجود).
كما أبدتْ أمٌّ ملحدة من أكسفورد في إنكلترا ذهولها عندما اكتشفت أنَّ طفلها ذا السنوات الخمس لديه إيمان راسخ بالله رغم كلّ جهودها للعكس...

يعلم آباء الأطفال الصغار، والمراهقين منهم على وجه الخصوص! أنهم لا يستطيعون ببساطةٍ برمجةَ معتقدات أطفالهم. نستطيع أحيانًا (تلقينهم)، لكنّنا غالبًا نفشل في ذلك»[1].

هذا الكلام - رغم طوله - في غاية الأهمِّية، ولا سيَّما والبروفسور باريت يعتبر أحدَ أشهر العلماء المعْتنين بهذه القضية في العالم. وكلامُه مبنيٌّ على تجارب علمية قام بها في بلدانٍ مختلفة خلالَ عشرين سنة، فلا شكَّ أنَّ لكلامه وزنًا كبيرًا، وهو يؤكّد أن الأطفال يولَدون على الاعتراف بالخالق.

وقد يعترضُ على كلامه أنَّه يذكر كلمة: (الآلهة)، رغم أن الأدلة الشرعية تؤكّد أن الأطفالَ يولَدون على التوحيد الخالص، وليس على الشرك. وقد ذكر البروفسور باريت في موطنٍ آخر الكلامَ الآتي: «الأطفال عرضةٌ للاعتقاد بالكائنات فوق الطبيعية مثل: الأرواح، والأشباح، والملائكة، والشياطين والآلهة، وذلك في السنوات الأربع الأولى من حياتِهم نتيجة النمو الطبيعي للإدراك ضمنَ بيئات بشرية طبيعية. وفي الواقع يوجد أدلة على أنَّ الأطفال قد يقْبلون ببساطة فكرةَ وجود خالق غير بشري للعالم الطبيعي كلّي القدرة، وكلّي المعرفة، وكلّي إدراك، أزلي، وبيده الخير كلّه.

واختصارًا سنسمِّي هذا النوع من الإله الخلّاق (الله) أو God بحرف كبير في الإنكليزية، وهذا صحيح، **إذ تبيَّن أنَّ عقول الأطفال مضبوطة فطريًّا لتعتقد بالآلهة عمومًا، وربَّما لتعتقد بالله على وجه الخصوص**»[2].

فهنا، اقتربَ البروفسور باريت من الصَّواب، وإن كنّا على يقين تامٍّ من أن كلام الله

---

(١) المصدر السابق (١٥ - ١٧).

(٢) المصدر السابق (١٤).

ورسوله ﷺ مقدَّم على كلام كلِّ أحد، ولا شكَّ أنَّ الإيمان الفطري هو الإيمان بوجود إله واحد، وهو الخالقُ سبحانه وتعالى. ولكن لا يقلِّل هذا الأمر من قيمة الأبحاث العلمية التي أجراها البروفسور باريت، وهي مهمَّة جدًّا في إثبات وجود الفطرة في الإنسان.

الجانبُ الثّاني: وهو الاستدلالُ الفلسفي الديني بوجود الفطرة لدى الإنسان على أنَّ الخالق - سبحانه وتعالى - موجود. ومِن أبرز مَن اهتمَّ بهذه القضية في هذا الزمان: البروفسور بول هيلم[١]، البروفسور ألفن بلانتغا.

وقد قرَّر البروفسور بول هيلم أنَّ الشعورَ بالوجود الإلهي ليس حسًّا من الحواس الخمس المعروفة، ولكنَّه يُشبه هذا الحسَّ؛ حيث إنه أصيلٌ في الإنسان، وعالمي يشترك فيه جميعُ البشر[٢]. وذكر أنَّ هذا الشعور جزءٌ من كون الإنسان إنسانًا على وجه الحقيقة؛ قال: «البشريةُ ليست مخلوقة بإمكانية معرفة الله فحسب، بل بمعرفته حقيقة... الإيمانُ بالله طبيعي، وهو جزءٌ من أصل الإنسان، حيث إنَّه جزء من معنى كون الإنسان إنسانًا»[٣].

بينما فسَّر البروفسور ألفن بلانتغا أنَّ المراد بهذا الشعور: أنَّ كلَّ إنسان عنده ميل شديدٌ إلى الإيمان بوجود الخالق[٤]، وليس المقصودُ أنَّ الإيمان نفسه موجود في داخل الإنسان، وإنَّما المراد أنْ توجد فيه نزعةٌ تميل إلى هذا الإيمان. وعندما يدرك الإنسان وجودَ الطبيعة حوله فإنه يتكوَّن لديه الاعتقادُ بوجود الخالق بناءً على هذه

---

(١) بول هيلم (Paul Helm): بروفسور تاريخ الأديان وفلسفتها في الكلية الملكية ببريطانيا سابقًا، وقد تخصَّص في لاهوت كلفن الذي كان يقرِّر الإيمان الفطري. انظر:
https://www.htc.uhi.ac.uk/about-us/faculty/prof-paul-helm/

(2) “John Calvin, the sensus divinitatis, and the noetic effects of sin,” International Journal for Philosophy of Religion 43 (1998): 94.

(3) John Calvin’s Ideas (222) (Oxford: Oxford University Press, 2004)

(٤) انظر: Reason and Belief in God (66)
by: Alvin Plantinga, University of Notre Dame Press (1983)

النزعة الفطرية[1]. ولا بدَّ أن يكون هذا الميلُ الفطري مطبوعًا في داخل الإنسان من خارجه[2]. وهذا هو الدليلُ على أنَّ الله هو الذي خلق هذا الشعور فيه.

وهذه التقريراتُ جيّدة لدليل الفطرة، وتؤيِّد ما دلَّت عليه النصوص الشرعية من أن كلَّ إنسان مفطورٌ على الاعتراف بوجود الخالق، وأنَّ الاعتراف علم ضروري في كلِّ إنسان.

وخلاصةُ هذا المبحث أنَّ دليلَ الفطرة من أقوى الأدلة على وجود الله، وقد قرَّر علماءُ الغرب هذا الدليل بكلام جيِّد من حيث العموم، وإنْ كان لا يخلو من بعض النَّقص.

---

(١) المصدر السابق (٦٧).

(2) Warranted Christian Belief (174)
by: Alvin Plantinga, Oxford University Press (2000)

المبحثُ الثّاني

الحجَّةُ الكونية

الحجَّة الكونية (Cosmological Argument): إحدى أشهر الحجج التي يستخدمها علماءُ الغرب في الاستدلال على وجود الله في هذا العصر. وقد عرَّفها قاموس أكسفورد بأنَّها: «حجَّةٌ على وجود الله تذكر أن كلَّ شيء في الطبيعة يعتمدُ على شيء آخر لإيجاده، وأنه لا بدَّ أنْ يكون الكونُ بأكمله يعتمد على كائن موجود استقلاليًّا أو ضروريًّا»(1).

وهذه الحجَّة لها صلةٌ بحجج متشابهة؛ مثل: دليل الخلق - كما هو مذكور في القرآن -، والمحرِّك الأوَّل - الذي ذكره أرسطو -. والفرقُ بين هذه الأدلة ما يأتي:

الفرقُ بينَ دليل الخلق والحجة الكونية:

دليلُ الخلق في القرآن الكريم مبنيٌّ على الاستدلال بما يُعلم حدوثه بالضرورة كالحسِّ والمشاهدة، مثل: خلق الإنسان؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «الطريقةُ المذكورة في القرآن هي الاستدلالُ بحدوث الإنسان وغيره من المحدثات، المعلوم حدوثُها بالمشاهدة، ونحوها على وجودِ الخالق سبحانه وتعالى، فحدوث الإنسانِ يستدلُّ به على المحدث، لا يحتاج أن يستدلَّ على حدوثه بمقارنة التغير أو الحوادث له، ووجوب تناهي الحوادث. والفرقُ بين الاستدلال بحدوثه، والاستدلال على حدوثه بيِّن. والذي في القرآن هو الأوَّل لا الثاني، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [سورة الطور:٣٥]، فنفسُ حدوث الحيوان والنبات والمعدن والمطر والسحاب ونحو ذلك معلومٌ بالضرورة، بل مشهودٌ لا يحتاج إلى دليل، وإنما

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/us/cosmological_argument

يعلم بالدليل ما لم يعلم بالحسِّ وبالضَّرورة. والعلمُ بحدوث هذه المحدثات علمٌ ضروري لا يحتاج إلى دليل، وذلك معلوم بالحسِّ أو بالضرورة: إمّا بإخبارٍ يفيد العلم الضروري، أو غير ذلك من العلوم الضرورية»[1].

وأمّا الحجةُ الكونية فهي حجَّة استدلاليةٌ وليست ضرورية؛ لأنَّ العلم بحدوث الكون ليس مدركًا بالحسِّ، أو علمًا ضروريًّا فطريًّا عند كلِّ إنسان، وإنما هو معلومٌ بالنقل أو الاستدلال العقلي والعلمي - كما سيأتي بيانُه -.

الفرقُ بين المحرِّك الأوَّل والحجَّة الكونية:

قدْ سبق الحديثُ في التمهيد عن دليل المحرِّك الأوَّل، وأنَّ أفلاطون هو أوّلُ مَن ذكره في كتابه: «القوانين». ثمّ استطردَ تلميذه أرسطو في الحديث عن هذ الدليل في كتابه: «السماع الطبيعي». ولكنَّ أرسطو كان يعتقد أنَّ الإله هو علّةٌ تامة أزلية، ومعلولُها معها قديم. وأنَّ هذه العلة الأزلية ثابتة لا تتحرّك، وإنما يحرّك معلولها. فالكونُ عند أرسطو أزليٌّ مثل العلة الأولى، ولكنَّ الكون متحرّك، تحرّكه هذه العلة. وأما الحجةُ الكونية فتقول إنَّ الكون حادث، وإنَّ كلَّ حادث لا بدَّ له من محدث.

تأثُّرُ اللاهوتيّين النصارى بفلسفة أرسطو:

قد تأثّرَ اللاهوتيون النصارى في العصور الوسطى بفلسفة أرسطو - كما سبق بيانه -، ولهذا نرى تشابهًا واضحًا بين كلام أرسطو عن المحرّك الأوّل، وبين الدليل الأوّل والثاني من أدلةِ توما الأكويني الخمسة. وبيانُ ذلك كما يلي:

الدليلُ الأوَّل: المحرّكُ غير المتحرّك، خلاصتُه: أننا نشاهد في العالم أن الأشياء متحرِّكة. وكلّ شيء متحرِّك فلا بدَّ له من مُحرّك. وهكذا ننتهي إلى محرّك غير متحرّك؛ وهو الله.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٧ / ٢١٩

والدليلُ الثّاني: السببُ الأوّل، وخلاصةُ هذا الدليل: أنَّ الطبيعة تؤكّد على وجود علةٍ سببية للمعلولات. ويستحيل الرجوعُ إلى ما لا نهاية له من الأسباب؛ فلا بدَّ من التوقُّف عند العلة الأولى؛ وهو الله[1].

وكان توما الأكويني يرى أنَّ الكون حادثٌ بناءً على دلالة كتاب النصارى المقدّس على حدوثه، ولكنَّه رأى أنه لا يمكن إقامةُ الأدلة العقلية على حدوثه[2]. فتوما الأكويني لم يذكرْ خلالَ هذين الدليلين أنَّ الكون حادث، ولا بدَّ له من مُحدث، بخلاف مَن جاء بعدَه من اللاهوتيين، كما سيأتي بيانُه - إن شاء الله -.

صياغةُ ليبنز وكلارك:

في عصرِ النهضة أحيَا اثنان من فلاسفة الغرب الحجةَ الكونية من جديد، ولكن بصياغاتٍ مختلفة، وهما: الفيلسوف غوتفريد ليبنز، والفيلسوف صامويل كلارك[3]. وقد صاغَا هذا الدليل بصياغاتٍ مختلفة قليلًا عمَّن سبقهما، وكانت صياغتهما أقوى في حجيَّتها.

فقد صاغها ليبنز بثلاثِ مقدِّمات ونتيجتين:

المقدِّمةُ الأولى: لكلِّ ما في الوجود تفسيرٌ لوجوده.

المقدِّمةُ الثّانية: إن كان للكون تفسيرٌ لوجوده فاللهُ هو ذلك التفسير.

المقدِّمةُ الثّالثة: الكونُ موجود.

---

(1) Summa Teologica, Question 2. The Existence of God. Article 3. Whatever God exists?
http://www.newadvent.org/summa/1002.htm#article2

(٢) انظر المقال: Aquinas on the eternity of the world
http://www.siue.edu/~evailat/aquinas-eter.html

(٣) صامويل كلارك (Samuel Clarke): لاهوتي وفيلسوف بريطاني في عصر التنوير. وقد أثّر كثيرًا في الفلاسفة واللاهوتيين البريطانيين في القرن الثامن عشر. توفي عام: ١٧٢٩م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Samuel-Clarke

النَّتيجة الأولى: للكون تفسيرٌ لوجوده.

النَّتيجة الثّانية: بالتالي، اللهُ هو تفسير وجود الكون[1].

وصاغَها كلارك بمقدِّمتين ونتيجة كالآتي:

المقدِّمة الأولى: كلُّ كائن (موجود أو كان موجودًا) إمّا أن يكون كائنًا معتمدًا على غيره، أو كائنًا موجودًا بذاته.

المقدِّمة الثانية: لا يمكن أن يكون كلُّ كائن معتمدًا على غيره.

النَّتيجة: بالتالي، فإنه يوجد كائنٌ موجود بذاته[2].

فنجدُ أن كلًّا من ليبنز وكلارك قد صاغَا الحجة الكونية بالطريقة المنطقية المعروفة لدى الفلاسفة، ولكنَّ الحجة بهذه الصياغة لم تخلُ من نقد.

نقدُ الحجَّة الكونية في عصر التنوير:

قدِ انتقد ديفيد هيوم وإيمانويل كانت كثيرًا من الأدلة على وجود الله في عصر التَّنوير، ومِن ضمن هذه الأدلة: الحجَّة الكونية. وكان هيوم ينتقد المقدِّمة الأولى من صياغةِ ليبنز للحجَّة الكونية، بينما انتقدَ كانت النتيجة الثانية. وبيانُ ذلك كما يلي:

انتقادُ هيوم:

كان هيوم أشهرَ مَن نقدَ مبدأ السببية حيث أنه كان يرى أن معرفتنا بالأسباب لم تحصّل ألبتَّة من خلال البداهة العقلية، وهي تأتي دائمًا من تجربتنا في اكتشاف أن أشياء مخصوصةً ترتبط دائمًا بأخرى[3]. ومادام أنَّنا لا نعرف شيئًا عمّا فوق الطبيعة، فلا يمكن تطبيقُ هذا المبدأ على وجود الخالق.

---

(١) انظر المقال: Leibniz Cosmological Argument – The Principle of Sufficient Reason
http://users.adam.com.au/bstett/ReligLeibnizCosmological147.html

(٢) انظر: The Cosmological Argument (xii)

(٣) انظر: An Enquiry Concerning Human Understanding, Chapter IV, by: David Hume
http://www.earlymoderntexts.com/assets/pdfs/hume1748.pdf

وهيوم بنى نقدَه لمبدأ السببية على أربع نقاط:

١) كلُّ الأفكار المتمايزة مُنفصلة عن بعضها.

٢) فكرتا السبب والأثر متمايزتان.

٣) مِن السَّهل التفكير في خروج الشيء إلى الوجود دون التفكير في سببه.

٤) التمييزُ بين السبب والأثر مُمكن، ولا يلزم منه تناقضٌ ولا محال(١).

انتقادُ إيمانويل كانت:

كان إيمانويل كانت يرى أنَّ الحجة الكونية تبيِّن أنَّه يوجد كائن ضروري (واجب الوجود)، ولكنَّ هذه الحجة تعتمدُ على الحجة الوجودية لتعيين هذا الكائن بأنه الله. وكان كانت مِن أبرز المنتقدين للحجَّة الوجودية، فرأى أنه مادام أنَّ الحجَّة الكونية تعتمدُ على الحجة الوجودية فإنَّ ذلك دليل على إبطالها.

وقد أثَّر انتقادُ هيوم وكانت في إضعافِ الحجة الكونية في الدوائر الفلسفية الغربية بعد ذلك إلى أن طوّر علماء الغرب هذه الحجة في عصرنا الحاضر، ودعموها بأدلة فلسفيةٍ وعلمية قويَّة.

الحجَّة الكونيةُ في العصر الحاضر:

قدْ أعاد علماءُ الغرب الحديثَ عن الحجة الكونية في هذا العصر بقوّة، وكان البروفسور وليام لاين كرايغ أبرزَ مَن اهتمَّ بهذه الحجة على الإطلاق. وكان من أهمِّ إسهاماتِه لهذه الحجَّة أنه أعادَ صياغتها بطريقة سهلة ميسَّرة، مستعينًا بذلك بعلماء أهل الكلام من المسلمين؛ ففي عام ١٩٧٩م، أصدرَ كتابه الأوَّل: «الحجة الكونية الكلامية» (The Kalam Cosmological Argument) في أكثر من ٢٠٠ صفحة. وذكر في هذا الكتاب أنَّ المتكلّمين والمتفلسفة المنتسبين إلى الإسلام قد أوردوا

---

(١) انظر: فمن خلق الله؟ (٣٢ - ٣٣)، للدكتور سامي عامري، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الثالثة، ١٤٤١ هـ).

هذه الحجة بطريقةٍ أفضلَ من اللاهوتيّين النصارى. وبعدَ صدور هذا الكتاب وإلى يومنا هذا، فإن وليام لاين كرايغ يهتمُّ بإيراد هذه الحجَّة - مدعَّمة بالأدلة العلمية والفلسفية - اهتمامًا بالغًا، ويردُّ على جميع الشبهات الموجَّهة إليها. ولهذا سوف يكون جلُّ النقول في هذا المبحث مِن كلام البروفسور كرايغ.

صياغةُ الحجَّة الكونية الكلامية:

قدْ صاغ البروفسور وليام لاين كرايغ الحجةَ الكونية الكلامية بالطريقة الآتية:

١) «لكلِّ شيء يبدأ في الوجود سببٌ لوجوده.

٢) بدأ الكون بالوجود.

٣) وبالتالي، فإنَّ للكون سببًا لوجوده»[1].

ولا شكَّ أنَّ الحجة بهذه الصياغة أقوى من صياغة كلارك وليبنز، فضلًا عن كلام توما الأكويني عن المحرِّك غير المتحرِّك والسبب الأوّل.

الحديثُ عن المقدّمة الأولى:

المقدِّمةُ الأولى في الحجَّة الكونية الكلامية كالآتي: لكلِّ شيء يبدأ في الوجود سببٌ لوجوده. وقد قال البروفسور كرايغ عن هذه المقدِّمة:

«مِن الواضح أنَّ المقدمة الأولى صحيحة- على الأقلِّ تبدو صحيحةً أكثر من صحّة عكسها -.

أوَّلًا: وقبل كلِّ شيء، إنَّ من لبِّ الواقع الحتمي أنه لا يمكن لشيء أن يوجد من لا شيء. إنَّ اقتراح ظهور الأشياء إلى الوجود ببساطة، وبدون أيِّ سبب هو إلغاء للتَّباحث الفلسفي الجدّي والتجاء للسحر.

ثانيًا: إذا كانت الأشياءُ تستطيع فعلًا أن تأتي إلى الوجود بلا سبب، ومِن لا شيء، فيصبح من المتعذَّر تفسير كيف يمكن حقًّا لأيِّ شيء وكلِّ شيء، ألا يأتي إلى الوجود بلا سبب ومِن لا شيء.

---

(1) The Kalam Cosmological Argument (63)

أخيرًا: إنَّ المقدمة الأولى مُصدَّق بشكل مستمرٍّ في خبراتنا. وبالتالي، فلدينا أقوى الدوافع لقبولها»[1].

فبنى هذه المقدِّمةَ على ثلاثة أدلة:

١) عدمُ قبول مبدأ السببية يؤدِّي إلى إلغاء التباحث الفلسفي الجدّي والتجاء للسِّحر.

٢) عدمُ قبوله يجعله مستحيلًا أن نفسّر كون الأشياء لا تأتي إلى الوجود بلا سبب. والواقع أنَّ الأشياء لا تأتي للوجود بلا سبب.

٣) مبدأ السببية مصدَّق بشكلٍ مستمر في خبراتنا.

الردُّ على انتقادِ هيوم للمقدّمة الأولى:

وقال البروفسور كرايغ عن انتقادِ هيوم لمبدأ السببية: «المقدّمة الأولى واضحة جدًّا بداهة، لا سيَّما إنِ انطبق على الكون، فلا يمكن لشخصٍ عاقل أن يرى أنها في الحقيقة باطلة. حتَّى هيوم اعترف أنَّ نفيه الأكاديمي لهذا المبدأ لم يخرجه من كونه يعتقد أنه حقيقي[2]. لا شكَّ أنَّ فكرة: أن أي شيء - ولا سيَّما الكون - يستطيعُ أن يظهر للوجود بلا سبب، هو كريهٌ إلى درجة أنَّ أكثر المفكِّرين يقبلون بأنَّ القول بظهور الكون بلا سببٍ لا يمكن قبولُه بطريقة جديَّة؛ لأنَّ الأمر كما ذكره أنطوني كيني[3]: «وفقًا لنظريةِ الانفجار العظيم، فإنَّ جميع مادة الكون ظهرت في الوجود في زمن معيِّن في الماضي البعيد. فمؤيّد مثل هذه النظرية، ولا سيَّما إن كان ملحدًا، لا بدَّ أن يعتقد أن الكونَ ظهر من لا شيء عنْ طريق لا شيء». وهذا الأمر يصعب جدًّا قبوله»[4].

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (14)

(٢) انظر:
The Letters of David Hume, (1: 187), e.d. J.Y.T. Greig (Clarendon Press, 1932)

(٣) تقدَّم التعريف به، وهو بروفسور الفلسفة في جامعة أكسفورد سابقًا.

(4) The Kalam Cosmological Argument (63)

وأمّا حجَّة هيوم في إنكار مبدأ السببية بأنه من السَّهل التفكير في خروج الشيء إلى الوجود دونَ التفكير في سببه؛ فقد ردَّت البروفسورة إليزابيث أنسكومب [١] عليها بقولها: «المشكلةُ في حجَّته أنها غيرُ مقنعة للغاية؛ لأنَّنا لو قلنا إنه يمكن تصوُّر ظهور أرنبٍ للوجود بدون وَالِدَين، فهذا ممكن. يمكننا تصوُّر ظهور أرنب إلى الوجود، ويمكن أن نلاحظَ أنه ليس عنده والدان. ولكن، هل يمكنني أن أتصوَّر ظهور أرنب إلى الوجود بلا سبب؟... هذا مجرَّد توهُّم ظهور الأرنب إلى الوجود، مع إعطاء هذا التوهُّم اسمًا. ولكنْ كلُّ ما يأتي بعد هذا التصوُّر والتسمية هو مجرَّد تناقض وخيال في الواقع»[٢].

ولهذا لم يتلقَّ إنكارُ هيوم لمبدأ السببية قبولًا واسعًا بين الملاحدة المعاصرين، لما في قبوله من تكلفةٍ فلسفية باهظة؛ فدعوَى هيوم «لا تجد قبولًا في الساحة الإلحادية المعاصرة إلّا قليلًا، والسببُ الرئيس لذلك أن لقبولها تكلفة فلسفية باهظة جدًّا، وهي أنَّه لا يمكن الكشف عن قانون من «التجربة» و«الملاحظة»، وأن حال الاقتران بين «السبب» و«الأثر» لا يدلُّ على شيء غير العادة، ولا يمكن أن يبنى عليه شيء علميًّا، في حين أنَّ العلم الحديث قائم على مبدأ السببية في الكشف عن القوانين المضطرَّة من خلالِ التجربة والمشاهدة، فما يُحكم عليه اليوم بأنه «قانون» هو ما أكّدته التجارب المتكرِّرة»[٣].

وبهذا ثبتَ أنَّ المقدّمة الأولى ضرورية، ولا يمكن إنكارها.

الحديثُ عن المقدمة الثانية:

المقدّمةُ الأولى مبنيَّة على مبدأ السببية، وهو علم ضروري يجب قبوله. وأما المقدِّمة الثانية فتقول إنَّ للكون بداية. وقد دلَّل البروفسور كرايغ على هذه المقدّمة بنوعين من الأدلة: الحجج الفلسفية والأدلة العلمية. وبيانُ ذلك كما يلي:

---

(١) إليزابيث أنسكومب (Elisabeth Anscomb): بروفسورة الفلسفة البرطيانية، وقد عملت في جامعة كامبردج المشهورة. وتعتبر إحدى أكثر النساء الفيلوسوفات تأثيرًا في القرن العشرين. توفي عام: ٢٠٠١م. انظر: https: / /iep.utm.edu /anscombe/

(2) Whatever Has a Beginning of Existence Must Have a Cause", Hume's Argument Exposed, Analysis (34), (1974): 150, by: G.E.M. Anscombe.

(٣) فمن خلق الله؟ (٣٢).

النوعُ الأوَّل: الحججُ الفلسفية على المقدّمة الأولى:

استطردَ البروفسور كرايغ في كتابه: الحجَّة الكونية الكلامية بالحديث عن الحجج الفلسفية على حدوث الكون[1]. ورغمَ هذا الاستطراد في الكلام، فإنه لم يقدِّم سوى حجَّتين فلسفيتين على المقدِّمة الثانية، وهما:

الحجَّة الأولى: استحالةُ وجود اللامتناهي؛ قال البروفسور كرايغ: «حجَّتُنا الأولى لدعْم هذه المقدِّمة: أنَّ للكون بدايةً مبنيَّة على استحالة وجود اللامتناهي. ونحن نقدِّم الحجة بهذه الطريقة:

١. لا يمكن أن يوجد اللامتناهي.

٢. سلسلة من الأحداث بلا نهاية تعتبر لامتناهيًا.

٣. وبالتالي، فلا يمكن أن يوجد سلسلة من الأحداث بلا نهاية»[2].

الحجَّة الثانية: استحالةُ تكوين اللامتناهي الحقيقي بإضافات متتالية (Successive Addition)؛ قال البروفسور كرايغ: «نلفت أنظارنا إلى الحجة الفلسفية الثانية للمقدِّمة القائلة بأنَّ للكون بداية، وهي حجَّة: استحالة تكوين اللامتناهي الحقيقي بإضافةٍ متتالية. وتظهرُ هذه الحجة بالطريقة الآتية:

١. سلسلةُ الأحداث المؤقَّتة هي مجموعة متكوِّنة من الإضافة المتتالية.

٢. لا يمكن أن تكون مجموعة مكوَّنة من الإضافة المتتالية لامتناهيًا حقيقيًّا.

٣. بالتالي، لا يمكن أن تكون سلسلة من الأحداث لامتناهيًا حقيقيًّا»[3].

ومِن الملاحظ أنَّ دعاة الإلحاد الجديد - مثل: ريتشارد دوكينز - لم يحاول إنكارَ الحجج الفلسفية على حدوثِ الكون؛ قال البروفسور كرايغ في معرض ردِّه على دوكينز:

---

(١) استغرقَ حديثه عن الأدلة الفلسفية على حدوث الكون حوالي ٥٠ صفحة، وهي من صفحة: ٦٥ إلى صفحة: ١١٠.

(2) The Kalam Cosmological Argument (69)

(٣) المصدر السابق (١٠٢ - ١٠٣).

«المقدِّمة الثانية يمكن دعمُها بالحجج الفلسفية والأدلة العلمية. وتهدف الحججُ الفلسفية إلى إظهار أنَّه من غير الممكن وجود استمرار لامتناهٍ لأحداث الماضي - وبكلمات أخرى -، لا بدَّ لسلسلة أحداث الماضي أن تكون قد امتلكت بدايةً. إن الحججَ الفلسفية ضدَّ التسلسل اللانهائي للأحداث حجج رائعة، وتفتح آفاقَ الذهن، لكنْ لحُسن الحظِّ لا نحتاج للنَّظر بها هنا؛ لأنَّ دوكينز لا يعترض على أيٍّ من مقدّمات هذه الحجج»[1].

وقد يكون مِن أسباب إعراض دوكينز عن هذه الحجج الفلسفية أنه لا يتقنُ الفلسفة أصلًا، بل يخبِّط فيها خبطَ عشواء.

النوعُ الثّاني: الأدلةُ العلمية على المقدّمة الثانية:

النوعُ الثاني من الأدلة على المقدِّمة الثانية هي الأدلة العلمية. والأدلة العلمية كلّها تشيرُ إلى أنَّ للكون بداية، ولا مجالَ للشكِّ في هذه القضية. وقد عرض الدكتور هيو روس ثلاثين دليلًا علميًّا على أنَّ للكون بداية في كتابه: «الخالق والكون» (The Creator and Cosmos)[2]؛ وأهمُّها:

الدليلُ الأوَّل: وجودُ إشعاع الخلفية الكونية. وهذه الإشعاعاتُ الكهرومغناطيسية موجودةٌ في كلِّ مكان من الفضاء. وقد فسَّرها علماءُ الكون بأنها من بقايا حدوث الكون.

الدَّليلُ الثّاني: توسُّعُ الكون: فقدْ أثبت العلماء أنَّ الكون يتوسَّع بمعدَّل معيَّن، وبقياس هذا المعدَّل إلى الخلف، يظهر أنه كان للكون بداية.

الدَّليلُ الثّالث: نسبةُ الفوتونات مقارنةً بالبريونات في الكون: نسبة الفوتونات مقارنةً بنسبة البريونات - البروتونات والنوترونات - في الكون تتجاوز ١٠٠ مليون للواحد، وهذا يثبت أنَّ الكون في حال أنتروبية عالية جدًّا. ولا تفسير لذلك إلّا أن الكونَ كلَّه قد تفجَّر بسرعة من حال حار وكثيف جدًّا.

الدَّليلُ الرّابع: حججُ النِّسبية العامَّة: أثبتتْ نظرية النسبية العامة صحّتها مرارًا وتكرارًا، ولا تصحُّ معادلاتها إلّا في كون له بداية، وله طبيعته التمدّدية.

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (14-15)

(٢) انظر تلخيص الدكتور سامي عامري لهذه النقاط بطريقة جيّدة في كتابه: فمن خلق الله؟ (٨٩ - ٩٤).

وقدْ وقع شبهُ إجماع بينَ العلماء في هذا العصر على أن للكون بداية، ولا يبقى مجالٌ للشكِّ في هذه القضية؛ قال البروفسور كرايغ: «في الحقيقة، استطاع كل من أرفيند بورد[١]، وآلان غوث[٢]، وألكسندر فيلنكين[٣] في عام ٢٠٠٣م؛ إثباتَ أنَّه لا يمكن لأيِّ كونٍ في حالة توسُّع كوني أن يكون أزليًّا في الماضي، إنما لا بدَّ أن يكون قد امتلك بدايةً حتمية. لم يدَّخر فيلنكين جهدًا حينَ قال: «يُقال إنَّ الحجة هي ما يقنع الأشخاص المنطقيّين، وأنَّ الدليل هو ما تحتاجه لتقنع حتى الشخص غير المنطقي. والآن، ومعَ وجود الدليل، فلم يعدْ ممكنًا لعلماء الكونيات أن يختبئوا وراء إمكانية وجود كوْن أزلي الوجود. لا مناص من مواجهة مشكلة البداية الكونية»[٤][٥].

ومرادُ علماء الكون أنَّ للكون بداية: هو بروز جميع الأشياء المادية من لا شيء؛ قال البروفسور بول دافيس: «إنَّ ظهور الكون إلى الوجود، كما نوقش في العلم الحديث... ليس مجرَّد مسألة فرض نوعٍ من التنظيم... لحالة سابقة مفكّكة، إنما يعني حرفيًّا: بروز جميع الأشياء الماديَّة إلى الوجود من لا شيء»[٦]. وهذا هو المذكور بعينه في المقدّمة الثانية.

---

(١) أرفيند بورد (Arvind Borde):بروفسور الرياضيات والفيزياء الأمريكي. وقد ألّف أبحاثًا كثيرة في الفيزياء وعلم الكون. انظر: http: //arvind - borde.org

(٢) آلان غوث (Alan Guth): بروفسور الفيزياء النظرية وعلم الكون الأمريكي. وهو أحدُ أشهر علماء الكون المعاصرين، وقد قدّم بعض نظريات مشهورة في هذا العلم. انظر: https: // www.britannica.com /facts /Alan - Guth

(٣) ألكسندر فيلنكين (Alexander Vilenkin):بروفسور الفيزياء النظرية وعلم الكون الأمريكي، كما أنه مديرُ إدارة علم الكون في جامعة توفت في الولايات المتَّحدة. انظر: http://cosmos2.phy.tufts.edu/vilenkin.html

(4) Many Worlds in One: The Search for Other Universes (176), by: Alex Vilenkin, (Hill and Wang, 2006)

(5) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (15-16)

(6) Interview of Paul Davies by Philip Adams, "The Big Questions: In the Beginning"

الاعتراضاتُ على المقدِّمة الثانية:

كان الملاحدةُ يعترضون في السابق على المقدِّمة الثانية بقولهم: إن الكون أزلي، ولكنْ حين ظهرت الأدلةُ العلمية الكثيرة الدالَّة على أن للكون بداية في القرن العشرين تراجع أكثر الملاحدةِ عن القول بأزلية الكون إلى القول بأن للكون بداية، وذلك لقبولهم لنظرية الانفجار العظيم.

ولكنْ حاول بعضُ الملاحدة أن يقدِّموا نظريات علمية بديلة للانفجار العظيم التي تؤيِّد أزلية الكون. ومن أشهرِ هذه النظريات: نظرية الحال الثابتة. وقد «أدّى الكشفُ عنْ أدلة علمية لحدوثِ الكون، خاصَّة من خلال تمدّده، إلى ظهور محاولات في العقد الثّالث من القرن العشرين لتجاوز مشكلة البداية، غير أنه من بين كل النظريات المطروحة، لم تنلْ غير (نظرية الحال الثابتة) (Steady State Theory) لـ(فريد هويل) تقدير العلماء، وهي تقرِّر أنَّه مع تمدُّد الكون تنشأ مادة جديدة بين الكواكب المتباعدة. وتمثِّل هذه النظرية امتدادًا لفكر القرن التاسع عشر القاضي بأزلية الكون.

ومعَ نهاية النصف الأوَّل من القرن العشرين، لم يبقَ من النظريات الجادة المتنافسة غيرُ نظرية (هويل) و(نظرية الانفجار العظيم) التي تقرِّر أنه يلزم من اعتقاد تمدّد الكون في المستقبلِ أنَّ أجزاء الكون كانت أقرب إلى بعضها كلَّما رجعنا إلى الخلف في الزمن، حتى يعود كلُّ شيء إلى (مفردة) (singularity) منها تفجّر المكان.

استمرَّ الخلافُ بين النظريَّتين فترة من الزمن، غير أنَّ الاكتشافات الكونية أثبتت صحَّة نبوءات (نظرية الانفجار العظيم)[1]، وكان كشف وجود (إشعاع الخلفية الكونية الميكروي) سنة ١٩٦٤م أقوى دعم لـ(نظرية الانفجار).

لم تستطعْ (نظرية الحال الثابتة) أن تثبت بعد تقدُّم (نظرية الانفجار العظيم) أيضًا بسببِ مشاكلها الداخلية، فبالإضافة إلى فقدانها الأدلة الإيجابية لصحّتها، تقف الأدلة العلمية ضدَّها...

---

(١) سيأتي في الباب الثالث الكلام المفصَّل عن نظرية الانفجار العظيم إن شاء الله.

لقد أدَّى ظهورُ فساد (نظرية الحال الثابتة)، وعجز مخزونها النبوئي، إلى أن ينصرف عامَّة أنصارها عنها إلى (نظرية الانفجار العظيم) التي نجحت في ما فشلت فيه النظرية الأخرى...»[1].

فلم تبقَ معارضةٌ علمية قويَّة ضدَّ القول بأنَّ للكون بداية؛ فكانت هذه المقدِّمة مقدِّمة علمية يقينية شبه متَّفق عليها بين الملاحدة والألوهيين.

الحديثُ عن النتيجة:

قدْ سبق الحديثُ عن المقدِّمتين للحجة الكونية، وتبيّن أنهما مقدّمتان علميتان قويَّتان؛ يجبُ قبولهما. وهذا يؤدِّي بنا إلى قبول النتيجة، وهي أن للكون سببًا في وجودها. ولكن، ما هو هذا السبب؟ وما صفاته؟

حاولَ البروفسور كرايغ أن يجيبَ عن هذه الأسئلة قائلًا: «ما هي الخصائص التي يجب أن يمتلكها مثلُ هذا مسبِّب الكون؟ بطبيعة الحال يجب على مسبب المكان والزمان أنْ يتعالى على المكان والزمان، وبالتالي أن يوجد لا زمانيًّا ولا مكانيًّا (خارج الكون على الأقل). وبذلك يجب أن يكون هذا المسبب المتفوِّق ثابتًا وغير ماديّ، حيث أنَّ أيَّ شيء لا يتبع لحدود الزمان يجب أن يكون ثابتًا أيضًا، وأيّ شيء غير متبدِّل يجب ألا يكون فيزيائيًّا، وبالتالي أن يكون غير مادي (حيث أن الأشياء المادية تتغيَّر باستمرار على المستوى الجزيئي والذري). مثل هذا الكيان يجب أن يكون بلا بدايةٍ وبلا سبب لوجوده، على الأقلّ بمعنى الافتقار إلى أيِّ شروط سببية سابقة لوجوده، حيث لا يمكن أن يوجد ارتدادٌ لا نهائي للمسبّبات. إنَّ مبدأ نصل أوكام (Ockham's Razor) - المبدأ الذي ينصُّ على أننا يجب ألا نضاعف الأسباب أكثر مما يلزم - سوف تكشط أيَّ مسببات أخرى، ذلك أن سببًا واحدًا فقط يكفي لشرح التأثير. يجب أن يكون هذا الكيانُ قويًّا بشكل لا يمكن تصورُه - إن لم يكن مطلق القدرة - على اعتبار أنَّه يُنشأ الكون دون أيِّ مسبب مادي.

---

(١) فمن خلق الله؟ (٨٧ - ٨٨).

أخيرًا، ما يلفت النظرَ تمامًا أنَّ مثل هذا المسبب الأوّل المتفوّق: ذاتي إلى حدٍّ معقول. هنالك سببان قدْ يفسران هذا الاستنتاج:

أوَّلًا: ذاتيةُ السَّبب الأوّل للكون متضمّنة في اللازمن واللامادة. إن الكيانات الوحيدة التي يمكنها أن تمتلكَ مثل هذه الخصائص هي إمّا العقول أو الأشياء المجرّدة، كالأعداد مثلًا. لكنَّ الأشياء المجرَّدة لا تصمد في العلاقات السببية. على سبيل المثال: لا يمكن أن يسبِّب العدد (٧) أيَّ شيء بحدِّ ذاته. ولهذا، فإن مسبِّبَ أصل الكون المتفوُّق يجب أن يكون عقلًا غير مجسّدٍ.

وثانيًا: هذه الخلاصةُ تنطبق على منشأ أثرٍ له بدايةٌ من سبب ليست له بداية. استنتجنا أنَّ منشأ الكون أثرٌ لسبب أوَّل. وبطبيعة الحال، فلا يمكن أن تكون لهذا السبب بدايةٌ لوجوده أو سببٌ مُسبق. وإنَّما يوجد بطريقة غير متغيّرة بلا بداية، وقد أنشأ الكون إلى الوجود قبلَ زمن محدَّد»[1].

كلامُ البروفسور كرايغ من حيث العموم جيِّد ومنطقي وسليم، إلّا أنه استعمل كثيرًا مِن الألفاظ الفلسفية المجملة، مثل: «غير مادي»، و«غير مجسّد»، و»غير متبدّل». وهذه مِن الألفاظ المجملة التي يلزم منها مفاسدُ عقدية كبيرة مثل: إنكار الصفات الذاتية والفعليَّة. ووليام لاين كرايغ قد ذكرَ في مواضع أخرى ما يدلُّ على أنه ينحى مذهبَ التَّعطيل في الصفات؛ فقد قال: «إنَّ الله كائنٌ بسيط للغاية، فإنه ذكاء غير متجسّد، كائن غير مادي، ذكاء غير مركَّب من أجزاء وخصائصها البارزة»[2].

وينبغي للمسلمين أن يكونوا على حذرٍ شديد من الاستفادة من كلام أمثال البروفسور كرايغ في حديثهم عن النتيجة من الحجة الكلامية.

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (16-17)

(٢) انظر المقال: Dawkin’s Delusion

https://www.reasonablefaith.org/writings/popular-writings/existence-nature-of-god/dawkins-delusion/

وقد وقعَ الجهميةُ الأوائل ومَن تبعَهم في هذه الأخطاء أيضًا عند تقريرهم لدليل الأعراض وحدوث الأجسام. وقد ناقشهم شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في هذه القضية مناقشةً قويَّة، وبيَّن أنَّ إنكارهم للصفات نتيجة لتقريراتهم الخاطئة في دليل الحدوث. ومما قاله في هذا المقام: «والتزم طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم لأجلها نفيَ صفات الرب مطلقًا، أو نفيَ بعضها؛ لأنَّ الدال عندهم على حدوث هذه الأشياء هو قيامُ الصفات بها، والدليلُ يجب طرده، فالتزموا حدوثَ كلِّ موصوف بصفة قائمةٍ به. وهو أيضًا في غاية الفساد والضَّلال، ولهذه التزموا القولَ بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله في الآخرة، وعلوّه على عرشه، إلى أمثالِ ذلك من اللوازم التي التزمها من طردِ مقدِّمات هذه الحجة التي جعلها المعتزلة ومَن اتَّبعهم أصل دينهم»[1].

ولكن، هناك فرقٌ بين دليلِ الأعراض وحدوث الأجسام، وبين الحجة الكونية الكلامية، وهو أنَّ إنكار المعتزلة للصفات نتيجة مباشرة للدليل نفسه، لما فيه من الحديثِ عن الأعراض وحدوث الأجسام. وأمَّا الحجةُ الكونية الكلامية فليس فيها أيُّ كلامٍ عن الأعراض وحدوث الأجسام، ولذلك لا يكون إنكارُ الصفات من لوازمها الفاسدة مباشرة، وإنما يذكر البروفسور كرايغ هذه الألفاظَ المجملة في نتيجة الحجة بناءً على عقيدته الفاسدة.

فالحجةُ الكلامية الكونية قد يستخدمُها السنّي كحجةٍ عقلية على وجود الله، وأمّا دليلُ الأعراض وحدوث الأجسام، فلا يستخدمُه السنّي لما في الدليل نفسه من الألفاظ المجْملة واللوازم الفاسدة، وأنه كانت سببًا في تسلُّط الأعداء على عقيدة المسلمين؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «وإنما أوقعَ هذه الطوائف في هذه الأقوال: ذلك الأصل الذي تلقَّوه عن الجهمية؛ وهو: أنَّ ما لم يخلُ من الحوادث فهو حادث، وهو باطلٌ عقلًا وشرعًا. وهذا الأصلُ فاسد مخالفٌ للعقل والشرع، وبه استطالت عليهم الفلاسفةُ الدهرية، فلا للإسلام نصَروا ولا لعدوِّه كسروا؛ بلْ قد خالفوا السلف والأئمة، وخالفوا العقلَ والشَّرع، وسلَّطوا عليهم - وعلى المسلمين

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١ / ٤١).

- عدوَّهم من الفلاسفة والدَّهرية والملاحدة، بسبب غلطهم في هذا الأصل الذي جعلوه أصل دينهم. ولو اعتصموا بما جاءَ به الرسول ﷺ لوافقوا المنقولَ والمعقول، وثبتَ لهم الأصل؛ ولكن ضيعوا الأصولَ فحرموا الوصول؛ والأصول اتِّباع ما جاء به الرسول ﷺ. وأحدثوا أصولًا ظنوا أنها أصول ثابتة»[1].

اعتراضُ الملاحدة على النتيجة:

قدْ سبق أنَّ إيمانويل كانت انتقدَ الحجَّة الكونية لكونها تعتمد على الحجّة الوجودية. وقدْ يكون هذا الاعتراضُ في محلِّه في انتقاد بعض الصياغات القديمة للحجة الكونية مثل: صياغة كلارك، فإنَّه لا يصدق على الحجة الكونية الكلامية بصياغتها المعاصرة. ولهذا لا فائدةَ من الالتفات إلى كلامه. ولكنَّ بعض الملاحدة المعاصرين قد اعترضوا على نتيجة الحجَّة الكلامية. وأشهر اعتراضاتهم:

الاعتراضُ الأوَّل: قولُ الملاحدة: إذا كان لكلِّ مخلوق خالق، فمن خلق الله؟

وهذه الشبهةُ مِن أبرز شبهات الملاحدة المعاصرين، بل ذكر ريتشارد دوكينز أنها حجَّته الرئيسة في كتابه: وهْم الإله[2]. وحيث أنَّ هذه الشبهة من الأهمية بمكان، أفردتها بمبحث مستقلٍّ في الباب الثالث، وسيأتي الحديث عنها هناك - إن شاء الله -.

الاعتراضُ الثّاني: أنَّ الحجةَ الكلامية لا تعين الخالق، وغاية ما في هذه الحجة إثباتُ وجود سببٍ لحدوث الكون، وليس فيها أنَّ الله المتّصف بصفات العظمة والجلال هوَ هذا السبب. وقد ذكر ريتشارد دوكينز هذا الاعتراضَ بقوله: «حتى إذا سمحنا للترف المريب لتصوُّر اعتباطي عن نهايةِ التسلسل اللانهائي، ومن ثَمَّ إعطائه اسمًا، فليس هنالك على الإطلاق أيُّ سببٍ لإعطاء تلك النهاية، أي من الخصائص التي يوصَف بها الإله في الحالةِ الطبيعية: القدرة المطلقة، العلم المطلق، الخير، والإبداع في التصميم، ناهيك عمّا يرتبط

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣ / ١٥٧).

(٢) انظر: The God Delusion (157 - 158)

بالصفاتِ الإنسانية، مثل: الاستماع للصلوات، وغفران الذنوب، والعلم بما تخفي الصدور»[1].

هذا الاعتراضُ يدلُّ على جهله المركَّب؛ لأنَّه لم يفهم الحجة الكلامية، وما ترمي لإثباته. وقد ردَّ عليه البروفسور كرايغ بقوله: «بعيدًا عن الشتيمة في بداية كلامه، فهذا تصريحٌ تميَّز به دوكينز بشكلٍ مُذهل. لا يعارض دوكينز بأنَّ الحجة تثبت وجود خالق ذاتي للكون، قوي بشكلٍ لا يوصَف، ليس له بداية، لا يوجد مسبّب لوجوده، غير متغيِّر، غير مادي، ولا يحدُّه الزمان ولا المكان. غاية ما يشتكي من دوكينز أنَّ هذا المسبِّب لا يتبيَّن أنَّه مطلق القدرة، مطلق العلم، ودود، بديع التصميم، يسمع الصلوات، يغفرُ الخطايا ويعلمُ ما في الصدور. فماذا هنالك إذًا؟ إنَّ الحجة لا تتطرّق إلى إثباتِ مثل تلك الأشياء. قد يكون ذلك شكلًا غريبًا من الإلحاد - في الحقيقة شكلًا لا يستحقُّ أن يُسمّى إلحادًا - ذلك الذي يقرُّ بوجود خالق ذاتي للكون ذي قوة فوق التصوُّر، ولا يوجد سببٌ لوجوده، ليس له بداية، غير متغيِّر، غير مادي، ولا يحدُّه الزمان ولا المكان، والذي قد يمتلك أيضًا - كما نعرف جميعنا - الخواص الأخرى التي أدرجَها دوكينز. لا نحتاج لأنْ نسمِّي الخالق الذاتي للكون «إلهًا» إن كان دوكينز يجد أنَّ هذا غيرُ مفيد أو مضلل؛ تبقى المسألة أنَّ كائنًا مثل الذي وصفناه قبل قليل لا بدَّ أن يكون موجودًا»[2].

تقييمُ الحجة الكونية:

خلاصةُ الكلام عن الحجَّة الكلامية الكونية بصياغتها الحديثة أنها حجّة عقلية قوية ومُقنعة للدلالة على وجود الله، وهي مبنيَّة على مقدّمتين واضحتين، تتبعهما نتيجة واضحة. ومعَ ذلك، فإنَّ طريقة القرآن في الاستدلال بدليل الخلق أقوى وأوقع في النَّفس؛ فيمكن أن نجعل: «دلالة الحوادث عليه - تعالى - على مستويين، باعتبار طبيعة الحوادث قربًا وبُعدًا من الحسِّ والمشاهدة، ومدى وقوع لحظة الحدوث تحت الحسِّ والمشاهدة:

- حدوثُ آحاد المخلوقات المشاهدة.
- حدوثُ العالم (جنس الحوادث).

---

(1) The God Delusion (77)

(2) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (17)

وإذا تأمَّلنا في طبيعة تناول الوحي لهذا النمط الاستدلالي؛ فسنجد أن المستوى الأوَّل هو أكثرُ حضورًا، وذلك أنَّه مدرك بضرورة الحسِّ، وهو الطريقُ الأقصر المفضي إلى تحصيلِ المطلوب، دون تطويلٍ في المقدِّمات، أو الدخول في جدليات فلسفية واسعة، أو محاولةُ البرهنة والتدليل على ما ليس حاضرًا ومشاهدًا»[1].

ولا شكَّ أنَّ طريقة القرآن أقوى وأجْود، وأنَّ الحجة الكونية في السابق كانت تعتمد على مقدِّمات فلسفية يصعب فهمُها على عامَّة الناس في التدليل على أن للكون بداية.

ولكنَّ هذه الحجة تعتمدُ في هذا العصر على الأدلة العلمية المتكاثرة على أن للكون بدايةً أيضًا، وهي أدلةٌ يسلِّم لها أغلبُ الملاحدة. وهذا مطلوبٌ في الجدل، بأن يسلِّم الخصمُ للمقدِّمات. ولذلك، أرى أنَّ الحجَّة الكونية الكلامية بصياغتها وأدلتها المعاصرة ينبغي استخدامُها لمناقشة الملاحدة، كما أنه تنبغي الاستفادةُ من كلام علماء الغرب في تقريرِ الدليل واستدلالاتهم، مع التنبُّه لما في كلامهم من المخاطر العقدية، ولا سيَّما عند الحديث عن النتيجة.

---

(١) شموع النهار (٩٦ – ٩٧)، لعبد الله بن صالح العجيري، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ).

المبحثُ الثّالث

الحجَّةُ الغائية

مقدّمة عن الحجّة الغائية:

قد تقدَّم في المبحث السابق أنَّ الحجة الكونية من الحجج القوية على وجود الله التي يذكرُها علماء الغرب. والحجةُ الكونية تقرِّر أنه من المستحيل أنَّ الكون جاء من العدم، وأنَّه لا بدَّ أن يكون خالقٌ خلقه. وهذه الحجةُ مشهورة بأسماء متعدّدة في الفضاء الدِّيني، منها: المحرِّك الأوَّل، ودليلُ الخلق والإيجاد، ودليل الحدوث، ودليل الاختراع، وغير ذلك من الأسماء.

والحجَّة التي يوردُها العلماءُ في الغالب بعدها هي حجَّة الإتقان والإحكام. وتسمّى أيضًا بدليلِ الرعاية، ودليل العناية، ودليل التصميم، والحجة الغائية، وغير ذلك من الأسماء. وهذه الحجَّة تتعلَّق بالمخلوقاتِ الموجودة نفسها، وأنَّ الإتقان والإحكام فيها يدلُّ على وجود مُتْقن ومُحكم، وأنَّه يستحيل أنه قد أتى هذا الإتقان والإحكام عن صدفة.

هذه الحجَّةُ تتعلَّق بمخلوقات كثيرة جدًّا، منها: الكون بأكمله، والمخلوقات الحيّة. ودراسة هذه المخلوقات تندرج تحتَ أنواع مختلفة من العلوم كعلم الكون، والفيزياء، وعلم الأحياء. وبسببه أورد علماءُ الغرب هذه الحجَّة بطرقٍ مختلقة مدعَّمة بأدلة علمية من علومٍ متفاوتة. وأشهرُ الحجج التي يوردُها علماء الغرب اليوم هي: حجّة التصميم في المخلوقات، وتندرج تحتها: حجة التعقيد غير القابل للتبسيط، وحجّة التعقيدات المتخصّصة، وحجة التوافق الدقيق للكون.

وجميعُ هذه الحجج ترجع في الأصل إلى الحجة الغائية (Teleological Argument) فيستحسن إيرادُ الكلام عن تاريخ هذه الحجّة، ثمَّ يتبع هذا الكلام عن حجة التصميم وما

يندرجُ تحتها كحجَّة التعقيد المخصّص وحجّة التعقيد غير القابل للتبسيط. وفي المبحثِ القادم أتكلَّم عن حجة التوافق الدقيق للكون.

تاريخُ الحجَّة الغائية:

قد سبقَ أنَّ هذه الحجة تعتمد على أنَّ النظام في الطبيعة يدلّ على التصميم، والتصميم يدلُّ على وجود مصمِّم. وهي مِن أوّل الحجج التي أوردها الفلاسفة اليونانيون. وقد تقدَّم في التمهيد أن أوّل مَن اشتهر بإيراد هذه الحجّة هو الفيلسوف سقراط، وكان يأخذُ تلاميذه إلى السوق ويسألهم ما هي الأشياءُ التي تبدو أنها مصمّمة وماذا تبدو أنها عشوائية، ثمَّ يقيس الطبيعةَ على هذا، وأنه لا يمكن أن تكون نتيجة لمجرَّد عشوائية عمياء.

وكان أرسطو مِن أشهر فلاسفةِ اليونان الذين استخدموا هذه الحجَّة في الردِّ على الماديين، كما أنَّه ربط هذه الحجّة بأبحاثه العلمية في علم الأحياء، في كتابه: «تاريخ الحيوانات» (Τῶν περὶ τὰ ζῷα ἱστοριῶν) - كما سبق بيانه في التمهيد -.

وانتقلتْ هذه الحجَّة من الفلاسفة اليونانيين إلى الفلاسفة الرومانيين، فاستخدمها الفيلسوفُ سيسيرو في الردِّ على الماديين بقوله: «عندما ترى ساعة شمسية أو ساعة مائيَّة فإنَّك ترى أنها تخبرُك عن الوقت بناءً على التصميم وليس بالصدفة. فكيف تتخيَّل أنَّ الكون بأكمله خالٍ عن الغاية والذكاء، حيث أن الكون يحيط بكلِّ شيء، بما في ذلك هذه الصناعات وصانعيها»[١]. وكانت هذه الحجَّةُ متداولة بين الفلاسفة الرُّواقيين في العصر الروماني[٢].

وقد تأثَّر بولس اليهودي المتنصِّر بهذه الحجَّة، وذكرها في رسالته إلى أهل روما إذ قال: (لأَنَّ غَضَبَ اللهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمِ الَّذِينَ يَحْجِزُونَ

---

(١) انظر: De Natura Deorum ii, 34, M.T. CiceroDe natura Deorum (the nature of the gods), book II, XXIV

(٢) انظر: Creationism and Its Critics in Antiquity (xvii), by: David Sedley, (University of California Press, 2007)

الْحَقَّ بِالإِثْمِ. إِذْ مَعْرِفَةُ اللهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ، لأَنَّ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ تُرَى أُمُورُهُ غَيْرُ الْمَنْظُورَةِ وَقُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةُ وَلاَهُوتُهُ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ حَتَّى إِنَّهُمْ بِلا عُذْرٍ[1]. وكانت الحجةُ بعدَ هذه الرسالة من الحجج الأساسية في الديانة النصرانية؛ فقد أوردَها اللاهوتيون المتقدِّمون مثل: أغسطين في القرن الخامس الميلادي[2].

وهي الحجةُ الخامسة من الحجج التي أوردها توما الأكويني من حججِه الخمس المشهورة، وكان يسمِّيها: قابلية الطبيعة للتوجيه[3].

وفي عصرِ التنوير وما بعدَه تطوَّر العلم الطبيعي تطوّرًا هائلًا، وكان العلماء التجريبيون يربطونَ هذه الحجّة بأبحاثهم العلمية، ويروْن أنَّ ما تكشفه الطبيعة من العجائب من أدلِّ الأدلة على وجود خالقٍ لهذا الكون. وكان بعضهم يستدلُّ بانتظام الكون على وجود الخالق مثل إسحاق نيوتن إذْ هو القائل: «لا يمكن أن هذا النظام الرائع للشمس، والكواكب، والنيازك قد ظهرَ بدون تصميم وتدبير من كائن ذكي وقوي[4]»[5].

واستدلَّ غيرُه بالتصميم في الطبيعة والمخلوقات الحيَّة على وجود مصمِّم لها. وأشهر مَن قام بذلك هو اللاهوتي وليام بايلي في كتابه: «اللاهوت الطبيعي» (Natural Theology)، إذْ ضرب مثاله المشهور المعروف بمماثلة صانع الساعات (Watchmaker Analogy) التي قال عنها: «لنفترض أنني أثناءَ عبور مرج حطَّت قدمي على قطعة "حجر"، وسُئلت كيف وصلَ الحجر إلى هنا، لعلّي سأجيب بأنه

---

(١) رسالة إلى أهل روما (١: ١٨ - ٢٠).

(٢) انظر: City of God, Book XI, Chapter 4

(٣) هذه الطرق كلها مذكورة بالتفصيل في:

Summa Teologica, Question 2. The Existence of God. Article 3. Whatever God exists?

http://www.newadvent.org/summa/1002.htm#article2

(٤) إطلاق وصف (كائن) و(ذكي) على الله شيء لم ترد به الأدلة في ديننا، وإنما أحكي ما قاله.

(5) Encyclopedia of Science and Religion (621), by: a number of authors, (MacMillan, 2003)

لو لم أعلم بعكس ذلك فإنَّه يقبع هناك منذُ الأبد. ولعلَّه قد لا يكون من السهل جدًّا إظهار سخف هذه الإجابة. ولكنْ لنفرض أني وجدتُ "ساعة" على الأرض، وأنه ينبغي البحث عن كيفية وصولِ هذه الساعة لهذا المكان، فلا أظنُّ أني سأفكِّر بنفس الإجابة التي أدليت بها مسبقًا...

لا بدَّ أنه كان هناك في زمن ما، وفي مكانٍ ما صانع أو عدَّة صانعين صنعوا هذه السَّاعة للغاية التي نبحث عنها، وقد أدركوا صناعته وصمَّموها لهذا الاستعمال. كلُّ دلالة على الاختراع، وكلُّ مظهر للتصميم موجود في الطبيعة، ولا فرق، إلّا أنه أظهر في الطبيعة، يفوق جميع الحسابات»[1].

إذًا، كانت الحجَّة الغائية من أقوى الأدلَّة على وجود الله إلى عصر التنوير، ولم يكد ينازع أحدٌ في قوّة دلالتها، إلى أنْ طلع قرنُ الإلحاد والنقد الديني في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وبيانُ ذلك كما يلي:

نقدُ الملاحدة للحجة الغائية:

تلقَّت الحجّةُ الغائية انتقاداتٍ كثيرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وأشهر مَن انتقد هذه الحجَّة ثلاثةُ أشخاص: ديفيد هيوم، وإيماونويل كانت، وتشارلز داروين. وبيانُ ذلك بما يلي:

- **أوَّلًا: ديفيد هيوم:**

أبدى هيوم تأييدًا لحجَّة التصميم في كتابه: «رسالة عن طبيعة الإنسان» (Treatise of Human Nature)[2] الذي صدر عام ١٧٤٠م، ولكنّه بدأ ينتقدها في كتابه: «رسالة عن الفهم الإنساني» (An Enquiry Concerning Human Understanding) الذي صدر عام ١٧٤٨م، وكان سببُ انتقاده في هذا الكتاب يشبه انتقاده للحجة الكونية، وهو

---

(1) Natural Theology (2)

(٢) انظر: The Blackwell Guide to Hume's Treatise (12), by: JP Wright, (John Wiley & Sons, 2008)

موقفه السَّلبي لمبدأ السببية، وقوله إنَّ هذا المبدأ مبنيٌّ على التجربة والملاحظة فقط، فلا يمكن استعمالُه لما هو فوق الطبيعة، كالاستدلال على وجود خالق مصّمم[1].

ثمَّ زاد انتقاداته لهذه الحجّة في كتابه الأخير: «حوارات عن الدين الطبيعي» (Dialogues Concerning Natural Religion)، الذي أنهاه في سنة وفاته عام ١٧٧٦م، وذكرَ في هذا الكتاب أنَّ علمنا بالتصميم في الكون قليل جدًّا؛ فقد نرى الانتظام في بعضِ الأجزاء منه، بينما قد توجَد فوضى في أجزاء أخرى. وكان يورد انتقاداته على لسانِ أحد المتحاورين اسمه فيلو، وهو يقول: «جزءٌ بسيط من هذا النظام العظيم، يُكشف لنا خلالَ فترة قصيرة جدًّا، بطريقة ناقصة، ومعَ ذلك نميل إلى القول بيقين تام إنَّنا نعرف مصدرَه ككلّ؟»[2]. وكان ذلك بدايةَ انتقاد هذه الحجَّة بجدِّية في الأزمان المتأخّرة.

- **ثانيًا: إيمانويل كانت:**

كان إيمانويل كانت يناقشُ الحجةَ الغائية في كتابه: «نقد العقل المجرّد» (Critique of Pure Reason)، فذكر أنَّها أقدمُ وأوضح حجَّة على وجود الله، ولكنَّ هذا الثناء لم يمنعه مِن انتقادها. وانتقاداتُه لهذه الحجَّة تشبه انتقاداته للحجة الكونية بأنها تعتمد في الأصل على الحجَّة الوجودية لإثباتِ وجود كائن فائق. وحيث إنه يرى أن الحجّة الوجودية باطلة، فإنَّ كلَّ ما يعتمد عليها باطل أيضًا. فهو يسلِّم بوجود أدلة على غائية وتصميم في الكون، ولكنَّه أنكرَ دلالتها على وجود كائن عظيم قد صمّم الكون لغاية[3].

فتتلخَّص هذه الردود بأنَّ ديفيد هيوم انتقد مقدِّمات الحجَّة مِن وجود الإتقان في الكونِ ومبدأ السببية، بينما انتقدَ إيمانويل كانت النتيجة بأن الحجَّة تدلُّ على وجود الإله.

---

(١) انظر: A Companion to Hume (118), by: LE Loeb, (John Wiley & Sons, 2010)

(2) Dialogues Concerning Natural Religion, number 2

(٣) انظر:

Kant's 'Critique of Pure Reason': An Introduction (279), by: JV Buroker, (Cambridge University Press, 2006)

وقد سبق الردُّ على موقف هيوم من السببية، وقياس ادِّعاء كانت أنَّ الحجَّة الكونية تعتمد على الحجّة الكونية.

وأمَّا ادِّعاء هيوم أنَّه لا يمكن التحقُّق من الإتقان والإحكام في الكون بأكمله ففيه سخافةٌ وسَفَه، لأنَّه ولو كان علمُ الناس بالكون في ذلك الوقت محدودًا، فإن الذي عرفوه عن الكون أنَّه منتظم للغاية. وكان العلماء التجريبيون مثل: إسحاق نيوتن يؤكِّدون ذلكَ خلال أبحاثهم العلمية. ولكن، على فرض صحَّة ادِّعائه أنَّ علمهم في ذلك الوقت بالكون كان محدودًا، فإنَّ علمهم بالمخلوقات الحيّة الموجودة كان أوسع بكثير، حيث يمكن دراستُها، والاطِّلاع على الإتقان والإحكام فيها. فلم يستطع هيوم أنْ ينكر هذا النوعَ من التصميم والإتقان. ولكن تشارلز داروين تحدَّى القول بوجود التَّصميم في المخلوقات الحيّة بنظريته. وبيانُ ذلك كما يلي:

- **ثالثًا: تشارلز داروين:**

قد سبقَ أنَّ داروين كان معجبًا بوليام بايلي وكتابه: اللاهوت الطبيعي في مقتبل عُمره، بل هو القائل: «ما أظنُّ أنني كنت أحترمُ كتابًا كما كنت أحترم كتاب اللاهوت الطبيعي لبايلي»[١].

ولكنَّه رأى بعدَ تنظيره لنظرية التطوّر أنه يمكن تفسيرُ وجود التصميم في المخلوقات الحيَّة عن طريق الانتخاب الطبيعي، ولا حاجَّة إلى القول بوجود خالق مصمّم؛ فقال: «الحجَّة القديمة عن التصميم في الطبيعة كما ذكرَها بايلي، التي كانت تبدو حاسمة لي، تفشلُ عندما اكتشفَ قانونُ الانتخاب الطبيعي. لا يمكن أن نجادلَ على سبيل المثال أنَّ المِفصَل الجميل في ذوات الصدفتين (bivalve shell) قد اخترعها كائن ذكي، مثل المِفصل لباب الإنسان... كلُّ شيء في الطبيعة نتيجة لقوانين ثابتة»[٢].

---

(1) Life and Letters of Charles Darwin, C. Darwin to John Lubbock, 15 November, 1859, D. Appleton and Co., New York, Vol. 2, p. 15, 1911.

(2) Life and Letters of Charles Darwin (1:133) The

وكانت نظريتُه أقوى ضربةً لهذه الحجَّة في القرن التاسع عشر، ومازال الملاحدة يتمسَّكون بنظريته أيَّما تمسَّك لإبعاد أيِّ تفسير ديني لوجود هذا التصميم، ويدّعون أنه يمكنُ تفسيرُ الإتقان والإحكام في المخلوقات الحيَّة بالطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي.

وإضافةً إلى ما سبق، فبقي أمران مهمَّان متعلِّقان برفض الحجة الغائية استنادًا إلى نظرية التطوّر:

الأمرُ الأوَّل: نظرية التطوُّر - على فرض صحَّتها - تفسِّر التصميم في المخلوقات الحيَّة، وليست لها علاقة بوجود التصميم في هذا الكون الفسيح. وكان داروين يعترف أنَّ دليلَ التصميم في الكون من أقوى الأدلة على وجود الله إذ يقول: «يمكنني أن أقول إنَّ استحالة إدراكنا الواعي لتكوُّن هذا الكون الفسيح والبديع تبدو أنَّها الحجة الرئيسة على وجود الله؛ ولكنْ لم أقرِّر موقفي من ذلك. أنا أعرف أنه إذا اعترفنا أنه يوجد سببٌ أوَّل، فإنَّ الذهن مازال يفكِّر متى ظهرَ هذا السبب وكيف؟ ولا يمكننا تخطِّي فكرةَ الآلام الكثيرة الموجودة في العالم أيضًا. فأنا أقتنع أيضًا إلى حدٍّ ما بالقرار أن كثيرًا مِن الرجال البارعين كانوا يؤمنون بالله، ولكنّي أرى مدَى ضعف الحجّة بأن أقتنع بالإيمان بمجرَّد إيمانهم هُم. الاستنتاجُ الأكثر أمنًا لهذه القضية كلِّها أنها خارجة عن حدود عقل الإنسان تمامًا...»[1].

فيظهرُ من هذا الكلام أنَّ داروين كان لاأدريًّا، ويرى أن الحجة الرئيسة لوجود الله هي استحالةُ تكوُّن هذا الكون عن طريق الصدفة. ولكنَّ معضلة الشرّ كانت تعرقله، ودفعتْه نحو الموقف اللاأدري.

الأمرُ الثّاني: أنَّ نظرية التطوُّر - على فرض صحّة تفسيرها لبعض التصميم في المخلوقات الحيَّة - لا يمكنها تفسيرُ كلِّ شيء. وعليه، فإنَّ كلَّ مظهر من مظاهر التَّصميم والإتقان الذي لا تفسِّره نظرية التطوّر يتحدَّاها ويدلُّ على بطلانها. وقد اعترفَ داروين بذلك إذ يقول: «إنْ كان يمكن أن يبرهنَ على أنه كان يوجد عضو معقَّد لم يتطوَّر عن طريق تغييرات عديدة طفيفة متتالية؛ فإنَّ نظريتي سوف تفشل تمامًا. ولكنِّي لا أرى أنه كذلك»[2].

---

(1) Darwin's Letter to N.D. Doedes, 2 April, 1873

(2) The Origin of Species (189)

فإذا كان بإمكان بيانِ ذلك الأمر فإنَّ داروين يعترف بأن نظريته فاشلة، وبالتالي يجب القولُ بالحجّة الغائية على وجود الخالق.

وقد بنى علماءُ الغرب على هذين الأمرين صياغاتٍ جديدة للحجة الغائية، وهما:

١) حجَّة التعقيد المخصّص.

٢) حجَّة التوافق الدقيق للكون.

وسأتناول الحجَّة الأولى في هذا المبحث، والحجَّةَ الثانية في المبحث القادم إن شاء الله.

حجَّةُ التعقيد المخصّص:

قد سبقَ الحديث عن تاريخ الحجَّة الغائية، وأنَّ جذورها ترجع إلى العصر اليوناني، وأنَّها كانت الحجّة الرئيسة على وجود الله عند الفلاسفة واللاهوتيين والعلماء التجريبيين إلى عصر التنوير حيث ظهرت انتقاداتُ ديفيد هيوم وإيمانويل كانت. وتلقّت هذه الحجّةُ ضربةَ قويَّة معَ قبول كثير من العلماء لنظرية التطوّر، وشكّلت هذه النظرية تحدِّيًا خطيرًا لهذه الحجّة.

وقد عبَّر ريتشارد دوكينز عن أهمية هذه النظرية في نقد الحجَّة بقوله: «الفهم العميق للدّاروينية يعلّمنا الحذرَ عندما نفترض بأنَّ التصميم هو البديل للصدفة، ويعلّمنا أنْ نبحثَ عن سلسلة تدرُّجات بطيئة جدًّا باتِّجاه التعقيد. وقبل داروين، كان الفلاسفة مثل: هيوم يفهمونَ أنَّ عدمَ احتمال الحياة لا يعني بالضرورة أن تكون مصمّمة ولكنّهم لم يستطيعوا تخيُّل البديل. وبعدَ داروين، علينا جميعًا أن نشعر، مِن كلّ أعماقنا، بالشكِّ في نظرية التصميم ذاتها. وَهمُ التصميم هو الفخُّ الذي وقعنا فيه من قبل، ويفترض أن داروين أعطانا المناعة ضدَّه برفع مستوى وعينا»[1].

وذكرَ الدكتور ستيفن ماير ما حصلَ في الفترة التي أعقبت صدور كتاب: أصل الأنواع: «وكنتيجةٍ لذلك، انحسرت فكرةُ التصميم وتقلّصت حتى أصبحت مجرّد

---

(1) The God Delusion (114)

اعتقاد شخصيٍّ في الميادين الفكرية، فيمكن المرء أن يؤمنَ بوجود عقل يراقب ويشرف على الطبيعة المنتظمة التي تتشابَه مع القوانين، ولكن عليه أن يؤكِّد على أنَّ الطبيعة وقوانينها قائمةٌ بذاتها. ولذلك لم يعدْ لاهوتيو الطبيعة في نهاية القرن التاسع عشر يشيرون إلى أيِّ خاصَّة تتطلّب ذكاءً كشرطٍ ضروري لتفسير نشوئها، وبهذا أصبحَ التصميم الذكيُّ غير مقبول سوى في عيون الإيمان»[1].

ولكنْ بدأ هذا الموقف يتغيَّر بعد النصف الثاني من القرن المنصرم، فقد اعترف عددٌ كبير مِن علماء التطوُّر بمشاكل أساسية في نظريتهم، ولا سيَّما فيما يتعلَّق بكون الآلية الداروينية تفسيرًا كافيًا للإتقانِ في المخلوقات الحيّة[2]. ومع صعود نجم نظرية الخلق ونظرية التصميم الذَّكي على الساحة العلمية باتتْ نظرية التطوّر في مأزق كبير. وحيث أنَّه لا توجد نظرية علمية جادَّة في تفسير التصميم والإتقان في المخلوقات عند الملاحدة إلّا نظرية التطوّر، أدركوا أنَّ سقوط هذه النظرية يلزم منه حتمًا الإيمان بوجود الخالق. ولهذا دافعَ الملاحدة عن هذه النظرية دفاعًا مستميتًا، بل استعملوا الإرهاب الفكري ضدَّ كلِّ مَن خالفها في الأوساط العلمية، لكيلا يتنفَّس العلماء المعارضون للنظرية ولا يكون لهم صوتٌ في المجتمع - كما سبق بيانُه -.

ولكنَّ أصوات المعارضين لنظرية التطوّر تتعالى يومًا بعد يوم، ويزداد عدد المنتقدين لها في بلدانٍ شتّى. وقد أدرك علماءُ التصميم الذَّكي أنه لا يكفي مجرّد نقد بعض الأطروحات التطوّرية، بل يلزم إيجادُ حجَّة عقلية علمية تنقد نظرية التطوّر، وفي الوقت نفسِه تثبت وجود الخالق المصمِّم لهذا التصميم. والحجَّة التي صاغها علماء الغرب في علمِ الأحياء على وجود الله تسمّى: حجّة التعقيد المخصّص.

---

(١) التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٢١ - ٢٢)، للدكتور ستيفن ماير، (مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، الطبعة الأولى، ٢٠١٦ م. ترجمة: محمد طه وعبد الله أبو لوز).

(٢) انظر: العلم ودليل التصميم في الكون (١٧ - ١٨)، لمجموعة من المؤلفين، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ، ترجمة: رضا زيدان).

والذي أبرزَ هذا الدليل هو الدكتور وليام ديمبسكي في كتابه: «استنتاج التصميم» (The Design Inference)، الذي طبعته مطبعة جامعة كامبردج عام ١٩٩٨ م[1]. وقد بيَّن سببُ تسميته الحجَّة بالتعقيد المخصّص بقوله: «فعندما يتصرّف العاقلون يتركون وراءهم علامة متميِّزة أو توقيعًا؛ وهو الذي سمَّيته (تعقيدًا مخصّصًا). ويكشف معيار خصائص التعقيد عن التصميم، وذلك عنْ طريق تحديد الدليل أو التوقيع في الأشياء المصمّمة»[2].

وقال الدكتور ستيفن ماير مبيّنًا استدلالَ الدكتور ديمبكسي في كتابه: «استنتاج التصميم»: «حاجج ديمبسكي بأنَّ الكائنات العاقلة يكشفون ويستنبطون نشاط عقول مصمَّمة أخرى من خلال تتبُّع خصائص الآثار التي يتركونها. فعلماءُ الآثار - على سبيل المثال - يفترضون أنَّ كائنات عاقلة أوجدت النقوش الموجودة على حجر رشيد. ومحقّقو الاحتيالات في مؤسَّسات التأمين يكتشفون أنماطَ احتيال محدَّدة، تدلُّهم على تلاعب مقصودٍ بالظروف، وعلى استبعاد دور الكوارث الطبيعية. وعلماء التشفير يميّزون بين الإشارات العشوائية وتلك التي تحملُ رسالات مشفَّرة. لقد بيَّن ديمبسكي في دراسته أن تحديدَ وتعيين نشاطِ وأفعال الكائنات الذَّكية يشكّل نوعًا منتشرًا ومنطقيًّا من الاستنباط. والأهمُّ من ذلك، هو صياغة ديمبسكي في مؤلّفه منهجية ومعايير محدّدة تتعرَّف من خلالها الكائناتُ العاقلة آثارَ كائنات عاقلة أخرى، ويميّزوها عن الآثار الناجمة عن الأسباب الطبيعية»[3].

وذكر الدكتور ديمبسكي أنَّه يجب ملاحظة ثلاثة أشياء عند الاستدلال على التَّصميم: «الاحتمالية (احتمال حدوث شيء مصادفة)، والتعقيد، والتخصيص. وتعني الاحتمالية: أنَّ حدثًا ما هو واحدٌ من عدَّة احتمالات؛ وذلك يؤكّد أن شيئًا ما نتيجة عملية تلقائية، ومن ثمَّ غير ذكية. أمّا التعقيد فيتضمَّن: أنَّ شيئًا ليس بسيطًا، ولا

---

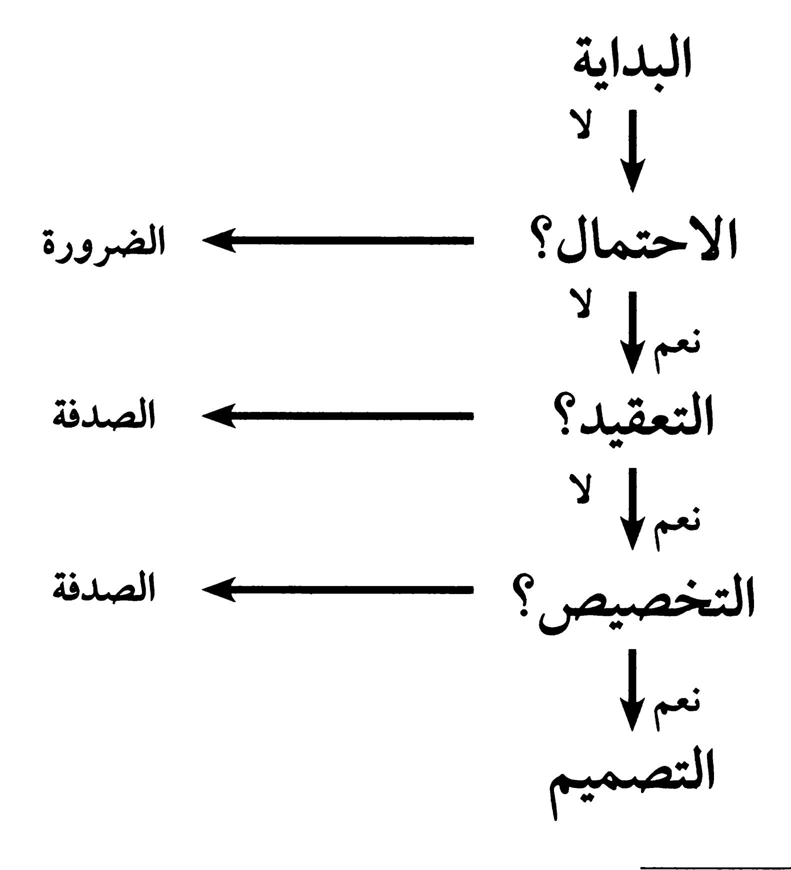
(١) انظر: التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٨٦ - ٨٧).

(2) Science and Evidence for Design in the Universe (23)

(٣) التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٨٧).

يفسّر حصولُه عن طريق الصدفة. أمَّا التخصيص فيتضمّن: أنَّ الكائن يدلُّ على نوع من أنماط الذكاء»[1].

ثمَّ شرح هذا الأمرَ بقوله: «فعندما نأتي ونفسِّر حدثًا أو شيئًا أو تركيبًا فلدينا القرار لعزْو ذلك إمّا إلى الضرورة، أو الصدفة، أو التصميم. وطبقًا لمعيار التعقيد المخصّص فلكي نعرفَ الجوابَ يجب أن نجيبَ عنْ ثلاثة أسئلة بسيطة: هل الحدث محتمل؟ هل هو معقَّد؟ هل هو مخصَّص؟ وبناءً على ذلك يمكن لمعيار التعقيد المخصّص أن يمثّل ما أطلقت عليه: الفلتر التفسيري»[2]. وقد رسمه ديمبسكي بالشكل الآتي[3]:



---

(1) Science and Evidence for Design in the Universe (25-26)

(٢) المصدر السابق (٣١).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٥).

فلا يستنبط التصميم إلّا بهذه الأمور الثلاثة، وبالمثال يتَّضح المقال؛ فقد لخّص الدكتور ستيفن ماير الفلترَ التفسيري للدكتور ديمبسكي بطريقة جيّدة، وإن كان فيها نوعٌ من الطول، ولكن يستحسنُ إيرادُه لإيضاح هذه القضية أكثر؛ فقد قال الدكتور ماير: «ولتوضيح هذه المفاهيم (التعقيد والتخصّص)، انظر إلى المتسلسلات الرمزية التالية:

- «ثثخقركهخحهخكقتهعثتؤـهقهثعاقخمنعؤهخقتثقو».
- «لا ينتظر الوقت والفرصة أيّ رجل».
- «أ ب أ ب أ أ ب أ ب أ ب أ أ ب أ ب أ ب أ ب أأ ب أ ب أ ب».

كلتا الجملتان: الأولى والثانية تتَّصفان بالتعقيد لأنَّ كلتيهما تستعصيان على التوصيف بقاعدةٍ أو علاقة بسيطة؛ فكلتاهما تمثِّل تسلسلات غير نمطية وغير متكرّرة كما تعبِّر عن تسلسل تحقُّقُه قليلُ الاحتمال. أمّا الجملة الثالثة فليست بمعقَّدة، ولكنّها بالمقابل متكرّرة ونمطية.

وبينَ الجملتين اللَّتين تتَّصفان بالتعقيد، واحدة فقط هي التي تعبِّر عن مجموعة من الشُّروط الوظيفية المستقلَّة، أي: متخصِّصة؛ فاللغة الإنجليزية تحتوي على العديد من تلك المتطلّبات الوظيفية.

فعلى سبيل المثال، لكي نوصل معنى ما فلا بدَّ من استخدام مصطلحات موجودة مِن الكلمات (مجموعة من المتسلسلات الرمزية التي ترتبط وتعبِّر عن أشياء: مفاهيم وأفكار)، وكذلك لا بدَّ من التقيُّد بمجموعة من الاصطلاحات أو التوافقات الحالية على نمطِ تركيب الجملة، بالإضافةِ لقواعد الصفِّ والنحو (كالقاعدة التي تقول: كلُّ جملةٍ تتطلّب فاعلًا وفعلًا).

فلا يحصلُ التواصلُ إلّا بترتيب مجموعة من التراكيب الرمزية وفقًا للاصطلاحات الحالية على شكل الكلمة وقواعد النحو والصرف في لغةٍ ما (بمعنى أنّها تتّفق مع الشُّروط الوظيفية)؛ فهذه التراكيب تُظهر تخصّصًا.

والجملةُ الثّانية تظهر بشكل جليٍّ هذا التوافقَ بين تسلسل رموزها وبين الشروط الوظيفية المتمثِّلة بالاتِّفاق مع الاصطلاحات الحالية لشكل الكلمات والقواعد النحوية والصرفية، فقط وظَّفت هذه المتسلسلة الشروطَ الاصطلاحية للتعبير عن فكرة ذات معنى.

فمِن المتسلسلاتِ الثلاث، الثانية فقط هي التي تحتوي المؤشّرات الضرورية الدالة على نظامٍ مصمَّم؛ فالمتسلسلةُ الثالثة تفتقرُ إلى التعقيد، بالرغم من أنها تظهر نمطًا مكرَّرًا، والَّذي يعتبر نوعًا من التخصّص.

والمتسلسلةُ الأولى معقَّدة، ولكنَّها لا تتَّصف بالتخصَّص كما بيَّنّا. المتسلسلة الثانية فقط هي التي تتَّصف بكلٍّ من التعقيد والتخصّص؛ فإذًا، وفقًا لنظرية ديمبسكي، فإن المتسلسلةَ الثانية وحدها هي التي تدلُّ على مسبب ذكي، بخلاف الأولى والثالثة، كما يخبرنا حدسُنا تمامًا»[1].

وهذا الكلام واضحٌ جدًّا من حيث الـتأصيل؛ فالشيء الذي يجمع بين التعقيد والتَّخصّص لا بدَّ أن يكون مصمَّمًا، وهذا أمر يدركه الإنسان بالبديهة العقلية.

وصياغة حجَّة التعقيد المخصّص بهذه الطريقة تشبه صياغة البروفسور وليام لاين كرايغ لحجَّة التوافق الدقيق للكون نوعًا ما. وهي طريقةٌ عقلية علمية جيّدة ومقنعة، إلا أنَّ كلَّ مقدِّمة بحاجةٍ إلى استدلال عقلي وعلمي، بخلاف صياغة الحجج الإسلامية المبنيَّة على مقدِّمتين ضروريَّتين ونتيجة حتمية لازمة لهاتين المقدِّمتين. ولكن في زمن العلم التجريبي الذي نعيشه الآن فإنَّ هذه الطريقة مقنعة للمتخصّصين في العلوم التجريبية.

التعقيدُ والتخصُّص في العالم الجزيئي:

هذا التعقيدُ والتخصُّص ملاحَظ في علم الأحياء بكثرة، ولكن أكثر ما يشاهد هذا التعقيد والتخصّص في العالم الجزيئي - الذي كان شبهَ مجهول في زمن داروين -. وقد بيَّن الدكتور مايكل دينتون هذا الأمرَ بكلام مطوَّل، ولكنَّه مفيد للغاية، فيحسن إيرادُه بطوله حيث قال: «ربَّما لا يشكّل التعقيدُ الشديد وبراعة التكيّفات البيولوجية تحديًا

(١) التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٨٨ - ٩٠).

في مجالٍ آخر من البيولوجيا الحديثة أكثرَ وضوحًا من عالم الخلية الجزيئي الجديد الفاتن؛ لأنَّه إذا عُرضت الخلية الحيَّة تحتَ مجهر ضوئي بتكبير إلى نحو عدّة مئات المرّات - كما كانت الإمكانياتُ في زمن داروين - فستظهر بمشهدٍ محبط نسبيًّا، فلا يبدو سوى قالبٍ دائم التغير مضطرب ظاهريًّا من النقاط والجسيمات التي ترميها قوى عنيفة غير مرئيَّة جزافًا في جميع الجهات، لكنْ لندرك حقيقة الحياة كما أظهرتها البيولوجيا الجزيئية يجبُ علينا أن نكبِّر الخلية ألفَ مليون ضعف، حتى يصل قطرها إلى عشرين كيلومترًا، وتشابه منْطادًا ضخمًا لدرجةٍ تكفي أن يغطّي مدينة ضخمة، مثل لندن ونيويورك، وما ستراه عندئذٍ سيكون شيئًا فريدًا من التعقيد والتصميم التكيّفي، سنرَى على سطح الخلية ملايين الفجوات التي تشبهُ كوّات سفينة فضائية ضخمة، تفتح وتغلق لتسمح لتيارٍ مستمرٍّ من المواد أن يتدفَّق داخلًا وخارجًا. لو أردنا أن ندخل إحدى هذه الفجوات، فسنجدُ أنفسنا في عالم من التكنولوجيا العالية والتعقيد المذهل؛ حيث سنرى أورقةً لا تحصى عددًا، وقد نظمت إلى حدٍّ كبير، ونجد أقنية متشعّبة في كلِّ جهة، متَّجهة إلى خارج حدود الخلية، بعضها يصل إلى بنك الذاكرة المركزي في النواة، وبعضها الآخر إلى مصانع التجميع ووحداتِ المعالجة، وستكون النواة بمفردها على شكلٍ حجرة كرويَّة واسعة، بقُطر طوله أكثرُ من كيلومتر مثل قبّة جيوديسية[1]، نرى في داخلِها أميالًا من السلاسل الملفتة من جزيئات الحمض النووي تتكدَّس جميعُها معًا في مصفوفاتٍ مرتّبة، ويستمرُّ نطاقٌ ضخم من المنتجات والمواد الخام عبر الأقنية المتشعّبة بشكل منظَّم تنظيمًا عاليًا، مِن وإلى جميع مصانع التجميع المختلفة في المناطق الخارجية من الخلية.

وستعجبُ مِن مستوى التحكُّم الكامن في حركة كثير من الأشياء على طول ما يبْدو أنَّه أقنية لا نهاية لها، تتحرَّك جميعها بانسجام تام، وسنرى حولنا وكيفما قلّبنا النظر جميع أنواع الآلات التي تشبه الروبوتات الآلية. سنلحظُ وندهل من أنَّ

---

(١) القبَّة الجيوديسية (Geodesic dome): هي هيكل قشري خفيف ذات شكل كروي أو شبه كروي مبنيَّة على أساس شبكة من الدوائر العظمى على سطح كرة.
انظر: https: / /www.britannica.com /technology /geodesic – dome

أبسط المكوِّنات الوظيفية للخلية: الجزيئات البروتينية، هي آلياتٌ جزيئية معقَّدة، كلٌّ منها يتكوّن من ثلاثةِ آلاف ذرَّة مرتَّبة بهيئة ثلاثية الأبعاد منظَّمة تنظيمًا دقيقًا. وستعجب أكثر عندما نشاهدُ نشاطات هذه الآلات الجزيئية العجيبة، التي نستغرب أنها نشاطات هادفة، لا سيَّما عندما ندرك أنَّه رغم كلِّ معرفتنا التراكمية في الفيزياء والكيمياء تبقى مهمّة تصميم آلة جزيئية واحدة كهذه - أي جزيء بروتيني وظيفي واحد فقط - خارجَ نطاق قدراتنا تمامًا في الحاضر، ومِن المحتمل أنَّه لن يتمَّ ذلك حتى في بداية القرن القادم على الأقل[١]، فكيف إذن تعتمدُ حياة الخلية على النشاطات المتكاملة لآلاف الجزيئات البروتينية - بالتأكيد عشرات الآلاف - وربّما مئات الآلاف»[٢].

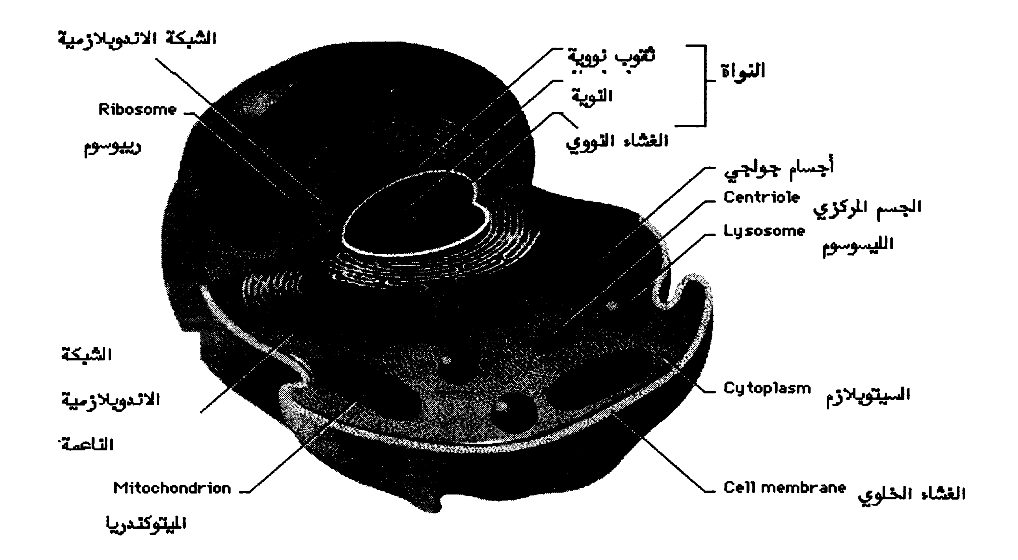
ثمَّ ذكر الدكتور دينتون أن مكوِّنات الخلية تشبه آلات الإنسان الحديثة إلى حدٍّ كبير؛ فقال: «سنرى أنَّ كلَّ ميزة تقريبًا من ميزات آلاتنا المتقدّمة لها نظير في الخلية؛ كاللغات الاصطناعية وأنظمة تشْفيرها، وبنوك الذاكرة المخصَّصة لتخزين المعلومات واستردادها، وأنظمة التحكُّم الراقية التي تنظِّم التجميع الذاتي للقطع والمكوّنات، وأجهزة الوقاية من الأعطال (error fail - safe)، وأجهزة التدقيق اللغوي المستخدمة في التحكّم بالجودة، وعملياتُ التجميع التي تتضمَّن مبدأ التصنيع المسبق والبناء الجزيئي. في الحقيقة سنعيش شعورَ (لقد رأينا هذا من قبل) - الديجافو (deja - vu) - بشكل عميق جدًّا، وسيكون التشابهُ مقنعًا جدًّا لدرجةِ أنَّنا سنقتبس الكثير من مصطلحات عالم التكنولوجيا في أواخر القرن العشرين لوصف هذا الواقع الجزيئي الساحر»[٣].

---

(١) ألّف الدكتور دينتون هذا الكتاب عام ١٩٨٥م.

(٢) التطوّر نظرية في أزمة (٤٠٠ - ٤٠١).

(٣) المصدر السابق (٤٠٢).



صورةٌ توضيحية لمكوِّنات الخلية

فهذا كلامٌ لأحدِ كبار علماء الأحياء الجزيئي يصف التعقيدَ المخصَّص في مكوِّنات الخلية، وأنَّ كثيرًا من هذه المكوِّنات تشبه آلات الإنسان. فلا شكَّ أنَّ هذه المكوّنات مِن أدلِّ الأدلَّة على هذا النوع من التعقيد الذي يدلُّ على التصميم من خالق عليم قدير.

وتقتضي نظريةُ التطوُّر أنَّ جميع هذه المكوّنات قد ظهرت عن طريق: الطفرات والانتخاب الطبيعي. وقد سبقَ من كلام ريتشارد دوكينز أنه قال: «الفهمُ العميق للداروينية يعلِّمنا الحذرَ عندما نفترض بأنَّ التصميم هو البديل للصدفة، ويعلّمنا أنْ نبحثَ عن سلسلة تدرُّجات بطيئة جدًّا باتّجاه التعقيد».

وللردِّ على هذه الشبهة أنه يمكن أن يتطوَّر كلُّ مكوِّن من مكوّنات العالم الجزيئي تدريجيًّا أتَى علماءُ الغرب بحجَّةٍ أخرى تسمَّى حجَّة التعقيد غير القابل للتَّبسيط. والحديثُ عنها كما يلي:

حجَّةُ التعقيد غير القابل للتبسيط:

رائدُ هذه الحجَّة هو البروفسور مايكل بيهي، وقد نشأ البروفسور بيهي كاثوليكيًّا، والكنيسةُ الكاثوليكية تتقبَّل نظرية التطوُّر، فلم يعارض النظرية في مُقتبل عمره. ولكنّه قرأ كتابَ الدكتور مايكل دينتون - الذي سبقتِ الإشارة إليه -، فبدأ يشكُّ في هذه النَّظرية من الناحية العلمية، «فبدأ بيهي تباعًا بدراسةِ الأدلة في مجال اختصاصه وموقفها من معقوليَّة الآيات الداروينية على إنتاج التعقيد المترابط وظيفيًّا الذي تتميَّز بها الأعمال الداخليةُ في الخلية، فخلُصَ إلى أنَّ التصميم الذَّكي لا بدَّ أن يكون له يد في هذه العملية، وبينما كان اهتمامُه بالإشكالية ينمو؛ بدأ بيهي بتدريس مساقٍ جامعي حول إشكالية التطوّر»[1].

وفي عام ١٩٩٦م، نشرَ كتابًا بعنوان: «صندوق داروين الأسود» (Darwin’s Black Box)، وقدّم فيها حجّةَ التعقيد غير القابل للتبسيط. ويعتبر النظام معقّدًا بشكل غير قابلٍ للتبسيط إنِ احتوى على أنظمةٍ فرعية متعدِّدة الأجزاء - يعني: مجموعة من جزئين مُرتبطين أو أكثر - لا يمكن تبسيطُها دونَ تدمير الوظيفة الأساسية لهذا النظام[2].

ومِن الأمثلة على مثلِ هذا النظام التي ذكرها البروفسور بيهي في هذا الكتاب أنَّ الخلايا البكتيرية تحرِّك نفسها بقوَّةِ دفع قد تصلُ إلى سرعة دورات تبلغ مائة ألف دورة في الدقيقة، ناجمة عن محرِّكات دوَّارة تسمَّى المحرّكات السوطية. وهذه المحرّكات تحتوي على العديدِ من الأجزاء الميكانيكية المكوَّنة من البروتينات تتضمّن أجزاء للدوران، وأجزاء ثابتة، والخواتم الربطية، والبطانات، والماصل الميكانيكية، بالإضافة إلى أعمدة دوران ناقلة للعزم. والمحرِّك السوطي يعتمدُ على عمل مترابط ومنسَّق بين ثلاثين مكوّن بروتيني، وإزالة أحدِ بروتيناته الضرورية تؤدِّي إلى فقدانه القدرة على العمل.

---

(١) التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٧٨).

(٢) انظر: تصميم الحياة (٢٥٧)، للدكتور وليام ديمبسكي والدكتور جونثان ويلز، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م. ترجمة: الدكتور موسى إدريس والدكتور مؤمن حسن، والدكتور محمد القاضي).

وهذا يعتبر تحدِّيًا كبيرًا للآلة الداروينية المسمَّاة بالانتخاب الطبيعي، لأنه لا يستطيع إنتاجَ المحرِّك عبرَ مراحل متتابعة، بل لا بدَّ أن يظهر هذا المحرّك بأجزائه الثلاثين دفعة واحدة، وإلّا فإنه لا يعمل أصلًا[١].

وقدْ أزعج البروفسور بيهي الملاحدةَ كثيرًا بكتابه، حتى خصّص ريتشارد دوكينز فصلًا من كتابه: «وهْم الإله» في محاولة الردِّ عليه[٢]. ورغمَ ذلك لم يستطعِ الملاحدة منذ صدورِ كتابه قبلَ أكثر من عشرين سنة أن يفسِّروا ظهور هذه الأنظمة المعقّدة بالانتخاب الطبيعي سوى ببعض الفرضيّات الغامضة غير المقنعة. وهذا مما يدلُّ على قوَّة حجّة البروفسور بيهي[٣].

وحجَّةُ البروفسور بيهي جزءٌ من حجَّة التعقيد المخصّص التي قدّمها الدكتور وليام ديمبسكي[٤]؛ فالدكتور ديمبكسي عالمُ رياضيات واحتمالات، وقد اهتمّ بالجانب النظري العقلي، بينما البروفسور بيهي عالمُ كيمياء حيويَّة فانصبَّ اهتمامه في الجانب العلمي. فيمكن أن يقال إنَّ حجَّة التعقيد غير القابل للتبسيط هي تطبيق علمي عملي للحجة العقلية: التعقيد المخصّص.

وسيأتي المزيدُ من الأمثلةِ العلمية على هذه الحجَّة في الفصل القادم عن الأدلة العلمية على وجود الله - إنْ شاء الله -.

الاعتراضاتُ على الحجَّة الغائية:

أمَّا الاعتراضاتُ على هذه الحجَّة فترجع إلى أمرين:

الأمرُ الأوَّل: الشبهاتُ الفلسفية المتعلِّقة بالحجّة الغائية، وقد سبق الردُّ عليها في المطلب السابق.

---

(١) انظر: Darwin’s Black Box (59 - 73)

(٢) انظر: The God Delusion (119 - 125)

(٣) انظر: التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٨٢ - ٨٣).

(٤) انظر: Science and Evidence for Design in the Universe (68)

الأمرُ الثّاني: الشبهاتُ العلمية. وجميعُ هذه الشبهات ترجع إلى نظرية التطوُّر، وسيأتي نقدُها في مبحثٍ مستقلٍّ في الباب الثالث - إنْ شاء الله -.

تقييمُ حجَّة التعقيد المخصِّص:

الخلاصةُ أنَّ حجَّة التعقيد المخصَّص من الحجج العقلية القوّية على وجود الله، لا سيَّما في سبيل إقناع المتخصِّصين في العلوم التجريبية. ولكن غيرُ المتخصِّص ليس بحاجة إلى الخوضِ في هذه التفاصيل، لأنَّه يدرك بالحسِّ أنَّ المخلوقات الحيّة مصمّمة بإتقان، حتَّى قال أعتى ملحدٍ في هذا الزمان ريتشارد دوكينز: «الكائنات الحية تبدو مصمَّمة، إنَّها تبدو بشكلٍ غامر كما لو أنَّها مصمَّمة»[1]. فمَن لم يتلوَّث بالشبهات الداروينية التي تدور على أنَّ هذا التصميم مجرَّد وهْم، فليس بحاجةٍ إلى معرفة التفاصيل عن حجّة التعقيد المخصَّص، بل يبني حجَّة التصميم على مقدِّمتين ونتيجة. وهاتان المقدِّمتان معلومتان بالضرورة و«تتعلَّق إحداهما بالإدراك الحسِّي الضروري لما يظهر من الإحكام والإتقان في المخلوقات، والثانية أنَّ ذلك لا يمكن أن يكون اتّفاقيًّا من غير خالق ولا لأمرٍ يعود إلى طبيعةِ المخلوقات، بل لا بدَّ أن يكون هو مقتضى خلق الله للمخلوقات وفقَ علمه وحكمته. وإذا كانت المقدِّمات الضرورية هي أساس الاستدلال - ولذا لا يكون الاستدلالُ عليها ممكنًا - فإنَّ الاستدلال بالإحكام والإتقان على وجود الله تعالى إنَّما يكون بالكشفِ عن وجْه الضرورة في هاتين المقدِّمتين، بحيث إذا حصل التصوُّر لوجْه دلالتهما لزمَ التسليم بوجود الله تعالى تسليمًا ضروريًّا»[2].

وهذا هو الصوابُ في هذه المسألة. فمَن لم يقع في فخِّ التطوُّريين وشبهاتهم، فلا حاجةَ له إلى هذا الاستدلال الطويل، وأمَّا مَن حصلت له الشبهة، فإنَّ هذه الحجّة ستكون نافعة جدًّا ويستفيد منها.

---

(1) Royal Institution Christmas Lectures, 1991

(٢) المعرفة في الإسلام (٥٠٨).

المبحثُ الرّابع
حجَّةُ التَّوافق الدقيق للكون

حجَّةُ التوافق الدَّقيق للكون من الحجج العقلية القويَّة على وجود الله، وهي مشتقَّة مِن الحجَّة الغائية. وهي حجَّةٌ عقلية في الأصل، ولكنَّها تعتمد على أدلة علمية دالَّة على أنَّ الكون مضبوطٌ بضبطٍ دقيق للغاية. فقد اكتشفَ العلماء في القرن العشرين أنَّ قيامَ الحياة في الكون لا يتحقَّق إلّا بتوفُّر أرقام معيَّنة من ثوابت فيزيائية دقيقة جدًّا، وأنَّ أقلَّ تغيير لهذه الثوابت سيؤدّي إلى انعدام الحياة أو حتَّى انهيار الكون بأكمله.

ومعَ تكاثر الأدلَّة العلمية صار الكلامُ عنِ الضَّبط الدقيق في الكون من المسلَّمات العلمية لدى أكثرِ العلماء. وقد صرَّح العلماءُ بهذا الضَّبط الدقيق، وذكروا شواهدَ عديدة عليه، ومِن تلك التصريحات:

تصريحاتُ العلماء بالضَّبط الدقيق للكون:

قدْ صرَّح عددٌ كبير من علماءِ الغرب المرموقين في العلوم الطبيعية - سواء أكانوا ملاحدةً أم متديِّنين - أنَّ هذا الكون مضبوطٌ بدقَّة متناهية. والتصريحات في ذلك كثيرة جدًّا، ولكيْلا يطول المقامُ أكتفي بذكر ثلاثة منها:

التَّصريحُ الأوَّل: قال البروفسور جون لينوكس: «أثبتت الأبحاث الحديثة أن كثيرًا من الثوابتِ الأساسية في الطبيعة بدءًا من مستويات الطاقة في ذرة الكربون[1]، وصولًا إلى سرعة توسُّع الكون؛ لها القيمُ الصحيحة تمامًا المطلوبة لوجود الحياة.

---

(١) الكربون (Carbon): عنصر لا فلزِّي أساسيّ في تكوين الفحم بجميع أنواعه، يوجد على صور مختلفة؛ بعضها مُتبلور كالفحم، وبعضها غير مُتبلور كالماس، ويدخل في تركيب جميع الكائنات الحيّة. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ١٩١٧).

وأيُّ تغيير بسيط لهذه الثوابت سيجعل الكونَ مُعاديًا للحياة، وغيرَ قادر على دعم وجودها»[١].

التَّصريحُ الثّاني: قال البروفسور بول دافيس: «الشيء المدهشُ فعلًا أنَّ الحياة على الأرض ليست وحدَها التي تبدو متَّزنة جدًّا وكأنها على حافَّة سكين، بل الكون بأجمعه كذلك، ولو أنَّ الثوابت الطبيعية في هذا الكون تغيَّرت ولو على نحوٍ يسير لغرق العالم في فوضى عارمة»[٢].

التَّصريحُ الثّالث: قال آلين سانديج[٣]: «إنَّ العالم شديد التعقيد في كلّ أجزائه وتشابكاتِه، حتَّى إنَّه يستحيل أنْ يكون وليدَ الصدفة وحدها، إنّي مقتنعٌ أن وجود الحياة بكلِّ ما فيها من تنظيم في كلِّ كائن من كائناتِها الحيَّة مركّب بمنتهى البراعة»[٤].

فهذه بعضُ تصريحات العلماء - المتديّنين وغير المتديّنين - بوجود هذا الضبط الدقيق في الكون، وأمّا الشواهدُ العلمية على هذا الضبط بالتفصيل، فستأتي في الفصل القادم عنِ الأدلة العلمية على وجود الله - إن شاء الله -.

ولكن، قد يصعبُ على غير المتخصِّص فهمُ مدى دقَّة هذا الضبط. ولهذا مثّل البروفسور مايكل تورنر[٥] للضَّبط الدقيق بمثالٍ طريف يفهمُه غيرُ المتخصّصين إذ

---

(1) God's Undertaker: (70)

(2) BBC Documentary, The Anthropic Principle, as cited by: Gerald Schroeder in: http://www.geraldschroeder.com/FineTuning.aspx

(٣) آلين سانديج (Allan Sandage): بروفسور علم الفلك الأمريكي، وأحد أشهر الفلكيين في القرن العشرين، حيث قدَّم أكثر من ٥٠٠ بحث علمي. توفي عام: ٢٠١٠م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Allan-Sandage

(4) A Scientist Reflects on Religious Belief, Truth 1, 1985, p. 54

(٥) مايكل تورنر (Michael Turner): بروفسور علم الفلك والفيزياء الفلكية في جامعة شيكاغو بالولايات المتَّحدة. انظر:
https://web.archive.org/web/20091016203306/http://astro.uchicago.edu/people/michael-s-turner.shtml

قال: «هذا الضبطُ هو مثل أنْ ترمي سهمًا عبرَ الكون كلِّه، وتصيب في الطرف الآخر عينَ ثور قطرُ دائرتها ملليميتر»[1].

ولا يشكُّ عاقل أنَّه يستحيل أن يأتي مثل هذا الضبط عن طريق الصدفة. ولهذا استدلَّ علماءُ الغرب بالضَّبط الدقيق للكون على وجود الخالق الضابط لهذه القوانين والثوابت الفيزيائية.

الضبطُ الدقيق نوعان:

قدْ بيَّن علماءُ الغرب أنَّ الضبط الدقيق للكون ليس نوعًا واحدًا، بل هو نوعان؛ قال البروفسور كرايغ: «الضبط الدقيق» نوعان:

أوَّلًا: عندما تعبِّر عن قوانين الطبيعة بالمعادلات الرياضية، فإنَّك تجد بوضوح أنَّها محدَّدة بثوابتَ معيَّنة، مثل: الثابتة التي تمثِّل قوةَ الجاذبية. هذه الثوابتُ لا تحدّدها قوانين الطبيعة. وقوانينُ الطبيعة متَّسقة معَ مجال واسع من القيم لهذه الثوابت. على سبيل المثال، فإنَّ قانون الجاذبية لنيوتين هو F=Gm١m٢ / d٢ حيث إن F هي قوة الجاذبية بين كتلتين، و m١ وm٢ يفصلُ بينهما d مسافة. وحيث إن G هي ثابتة الجاذبية تبقى هذه المعادلة لحساب F صحيحة حتَّى إذا كانت G ذات قيمة تختلف عما هي عليه. سيبدو العالم أكثرَ اختلافًا إذا كانت G ذات قيمة مختلفة - إذا كانت ثابتة الجاذبية أقوى بكثير سينهارُ كلُّ شيء، وإذا كانت أضعف بكثير فسيندفع كل شيء بعيدًا عن بعضه البعض - لكنْ سيبقى قانونُ حساب F ذاته في مثل هذه العوالم حيث أن قيمة G مستقلَّة عن القانون بحد ذاته.

ثانيًا: بالإضافةِ لهذه الثوابت هنالك كميَّات اعتباطية محدَّدة توضع فقط كشروط أوَّلية لـعملِ قوانين الطبيعة. فعلى سبيل المثال، كمية الإنتروبيا، أو التوازن بين المادة والمادة المضادَّة في الكون. هذه الثوابت والكميَّات تقع في مجال ضيق حرج للقيم التي تجيزُ الحياة. ولو استبدلتْ هذه الثوابت أو الكميات بمقدار أقلَّ من سمك

---

(1) http://www.geraldschroeder.com/FineTuning.aspx

الشعرة، فإنَّ التوازنَ الذي يسمح بوجود الحياة سوف ينهار، ولن يوجَد أيّ نوع من أنواع العضويات الحية»[1].

الاستدلالُ بحجّة التوافق الدقيق للكون على وجود الله:

قدْ تبيَّن أنَّ القول بالضبط الدقيق للكون من المسلّمات العلمية لدى أكثر العلماء اليوم، ولكنْ لا يعني ذلك ضرورةَ الاعتراف بوجود الخالق، لأن بعض العلماء القائلين بالضَّبط الدقيق ملاحدة. ولكنَّ علماء الغرب المؤمنين بالخالق قد استدلّوا بهذا الضبط الدَّقيق على وجود خالق ضبط هذه الثوابت الفيزيائية بهذه الطريقة الدقيقة.

هناك طرقٌ مختلفة للاستدلالِ بالضبط الدقيق للكون على وجود الخالق، والطريقةُ المتبادرة للذهن - التي ذكرها بعضُ الباحثين المسلمين في نقد الإلحاد - كالآتي:

المقدِّمةُ الأولى: الكونُ متقنٌ ومحكم في خلقته.

المقدِّمةُ الثانية: الإتقانُ والإحكام لا بدَّ له من فاعل عليم حكيم.

النَّتيجة: اللهُ تعالى هو الخالقُ العليم الحكيم الذي خلق الكون[2].

وهذه الصياغةُ واضحة وسهلة، ويمكن الاستدلالُ على المقدِّمة الأولى بطريقين. «وقد تنوَّعت الأدلة والشواهدُ على صحَّة هذه المقدِّمة، وهي منقسمة إلى نوعين أساسيين:

أمَّا **النوعُ الأوَّل**: فهو الدليلُ الحسّي المباشر، فكلُّ عاقل يشاهد أصنافًا منوَّعة من الإتقانِ في الوجود، وأشكالًا متعدِّدة من الإتقان في صنعة الأشياء...

وأمّا **النوعُ الثّاني**: فهو الدليلُ العلمي التجريبي، فقد كشف العلماء مع التطوّرات العلمية الحديثة أصنافًا من الإتقان والإحكام في الكون، وألوانًا مبهرة

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (20-21)

(٢) انظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي (٢/ ١٨٤)، للدكتور سلطان بن عبد الرحمن العميري، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الثانية، ١٤٣٩ هـ)، وشموع النهار (١٧٤).

من الدقّة والتقدير، وأشكالًا مُختلفة من التصميم المبهر الذي لا تكاد تستوعبه العقول»[1].

وأمّا المقدِّمة الثانية فهي «مِن أجلى المقدّمات وأظهرِها في العقول، ويدلُّ على صحَّتها وضرورتها أمران:

الأمرُ الأوَّل: الضرورةُ العقلية؛ وذلك أنَّ الإحكام والإتقان في حقيقته فعلٌ من الأفعال، والعقلُ الضروري يدلُّ على أنَّ الفعل لا بدَّ له من فاعل يقوم به؛ إذ يستحيل أنْ يوجد فعل في الوجود من غير فاعل...

وأمّا **الأمرُ الثّاني**: فهو الضرورةُ الرياضية، ففضلًا عن أنَّ الضرورة العقلية تدلُّ على استحالةِ وجود الإتقان بغيرِ فاعل حكيم عليم قادر مريد، فإنَّ الحسابات الرياضية تدلُّ على ذلك أيضًا، وتؤكِّده، وتثبتُ بطلان كلِّ الاحتمالات الأخرى، كالحدوث بالصدفة المفاجئة أو التطوّر طويل الأمد»[2].

فهذه الصياغةُ واضحة ومبنيَّة على مقدّمتين ضروريتين. ولكن علماء الغرب، وعلى رأسهم البروفسور كرايغ، صاغَ هذه الحجَّة بطريقة مُغايرة مشتملة على ثلاث مقدّمات ونتيجة؛ وهي كالآتي:

المقدِّمة الأولى: الضبطُ الدقيق للكون إمّا أن يكون عنْ حتمية فيزيائية، أو صدفة أو تصميم.

المقدِّمة الثانية: الضبطُ الدقيق لم يأتِ عن طريق الحتمية الفيزيائية.

المقدِّمة الثالثة: الضبطُ الدقيق لم يأتِ عن طريق الصدفة.

النَّتيجة: إذًا، الضبطُ الدقيق للكون أتى عن طريق مصمِّم[3].

---

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي (٢ / ١٨٥ - ١٨٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢ / ١٩٢).

(٣) انظر:
https://www.wordonfire.org/resources/blog/how-the-fine-tuning-of-the-universe-points-to-god/5171/

وهذه الصياغة مبنيَّة على السبر والتَّقسيم بذكر كافة الاحتمالات الممكنة، واستبعاد الباطل منها. وباطراح الاحتمالين الأوَّلين لا يبقى إلّا التسليم للاحتمال الثالث؛ قال البروفسور كرايغ: «كيف نفسِّر إذًا هذا الضبطَ الدقيق للكون؟ تعطي المقدِّمة الأولى لحجَّتنا البدائل ببساطة، وهي: الحتمية الفيزيائية أو الصدفة أو التصميم. والسؤالُ هو أيُّ هذه البدائل الأكثر منطقية؟»[1].

واستخدامُ طريقة السبر والتقسيم في الاستدلال طريقة جيِّدة، وقد ذكرها الله تعالى في القرآن إذ قال: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

نقدُ احتمال الحتمية الفيزيائية:

قد ذهبَ بعضُ الملاحدة المعاصرين إلى أنَّ الضبط الدقيق للكون نتيجة للحتمية الفيزيائية، وأنَّه لم يكن بإمكان الكون إلّا أنْ يكون مضبوطًا بهذه الدقّة.

ولكنَّ هذا القولَ رجمٌ بالغيب، وغيرُ مبنيٍّ على أيِّ دليل تجريبي؛ قال البروفسور بول دافيس: «لا يوجد دليلٌ مطلقًا على أنَّه كان من المتحتّم على الكون أن يكون بهذه المجموعة من الثَّوابت الفيزيائية التي فيه»[2].

ولهذا يحاول الملاحدةُ إيجادَ نظرية علمية تفسّر هذا الضبط الدقيق بالحتمية الفيزيائية تسمَّى نظرية الأوتار الفائقة، أو نظرية أم؛ قال البروفسور كرايغ: «إنَّ الاحتمال الأوَّل لتفسيرِ الضبط الدقيق أي: الحتمية الفيزيائية، غير معقول مطلقًا لأنَّ الثوابت والكميات مستقلَّة عن قوانين الطبيعة كما رأينا. ولذلك، فعلَى سبيل المثال،

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (21)

(2) The Mind of God (185) بواسطة كتاب: شموع النهار (185).

فإن المرشّح الواعد حتَّى الآن هو «نظرية كلِّ شيء»، نظرية الأوتار الفائقة[1] أو نظرية إم [2] يسمح بوجود «مشهد كوني» فيه حوالي 10^{500} كوْن محتمل مختلف تحكمها قوانين الطبيعة الحالية»[3].

فهذه النظريةُ مبنيَّة على صحَّة نظرية الأكوان المتعدّدة. سيأتي الحديثُ عن بطلان هذه النظرية لاحقًا - إن شاء الله -.

فنظريةُ إم مبنيَّة على نظرية الأكوان المتعدّدة، وهذه النظرية غيرُ صحيحة في الأصل. ولكنْ على افتراض صحَّة نظرية إم، فهل يؤدّي ذلك إلى صحَّة التفسير الحتمي للكون، والذي يلزم منه التنكُّر لوجود الله تعالى؟ الجواب: لا. و«ذلك لأمرين اثنين:

الأوَّل: لنفترض أنَّ مثل هذه الثوابت الكونية محكومة فعلًا بقانون ما بحيث أنه لا يمكنُ أن تكون قيمها في ظلِّ ذلك القانون إلّا وفقَ المعطيات الموجودة فعلًا، فهل مثل هذا القانون في حدِّ ذاته حتمي لا يتصوَّر إلّا أنْ يكون على هذه الهيئة، أم أنه يمكن أن يتَّخذ صورًا وأشكالًا متعدِّدة تنتج قيمًا مختلفة للثوابت الكونية، إن كان الأمرُ كذلك فسينتقلُ السؤال من (لماذا وُجدت الثوابتُ على هذه الهيئة؟) إلى (لماذا وُجدت هذه النُّسخة من القانون الكلّي على هذه الهيئة دون النسخة الأخرى الممكنة؟) فلا يكون لعمليَّة التفتيش عن قانون كلّي ينتظم

---

(١) نظرية الأوتار الفائقة (Super – string theory): نظرية في فيزياء الجسيمات تحاول دمج ميكانيكا الكمِّ مع نظرية النسبية العامَّة لألبرت أينشتاين. تأتي نظرية الأوتار الاسمية من نمذجة الجسيمات دونَ الذرية ككياناتٍ صغيرة، أحاديةِ البعد «تشبه الأوتار» بدلًا من النهج الأكثر تقليدية حيث يتمُّ نمذجتُها كجسيمات نقطية صفرية الأبعاد. انظر:

https://www.britannica.com/science/string - theory

(٢) نظرية - إم. (M – theory): نظرية في فيزياء الجسيميات تتضمن كونًا مشتملاً على أحد عشر بعدًا تتَّحد فيه القوى الضعيفة والقوية والجاذبية، وتنتمي إليها جميع نظريات الأوتار. انظر: https: / /www.vocabulary.com /dictionary /M – theory

(3) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (21)

جميع النظريات أثرٌ في الجدل حول وجود الله تعالى؛ لأنَّ الله سيكون واضعَ مثل هذا القانون الأوَّلي، والذي يحدِّد تلك القيم والأرقام، والتي تجعل من الكون قابلًا للحياة.

الثّاني: هبْ أنَّ شخصًا ما اتَّخذ موقفًا أكثرَ حدية، وزعمَ أنَّ هذا القانون لا يمكن إلّا أنْ يكون على الصورة التي هوَ عليها، بحيث لا يتصوَّر مطلقًا أن يكون ثمة نسخٌ أخرى مُباينة في أيِّ كون نقوم بافتراضه، ولو قدرنا وجودَ أكوان متعدّدة أخرى فستكون جميعًا نسخًا مكرَّرة من كوْننا لهيمنةِ مثل هذا القانون الكلِّي على الكلّ، وبالتالي فسيكون هذا القانونُ في حدِّ ذاته حتميًّا، وما ينشأ عنه من ثوابت فيزيائية حتمي هو الآخر، لا يبدو مثل هذا الخيار مقبولًا أيضًا، وهو يفرض حزمةً من التساؤلات العميقة، بل هو ينطلقُ من فرضيات مُسبقة لا يمكن البرهنةُ عليها علميًّا، بل هي في الحقيقة مجرّد دعوى ميتافيزيقية مُتناقضة مع المنهج العلموي، أحدُ السؤالات العلمية المشروعة التي ستردُ في هذه الحالة، والتي ستشكِّل لغزًا هائلًا لمن تبنّى مثلَ هذا التصوُّر: ما معنى أن يكون القانونُ الكلّي الوحيد، والذي لا يمكن أن يكون إلّا على هذه الهيئة قانونًا تنشأ منه مظاهر الدقَّة والإحكام الموجودة في كوننا؟ ما تفسيرُ أن يكون قانون حتمي - لا يتصوَّر أن يتغيّر - قانونًا تتشكّل في ضوئه ثوابتُ تجعل من الكون كونًا قابلًا للحياة؟ هذا التصوُّر يجعل من وجودنا أمرًا حتميًّا، وهو أمرٌ ينبغي أن يكون محيّرًا جدًّا لمن تبنّى هذا التصوّر»[1].

فخلاصةُ القول: إنَّ تفسير الضبط الدقيق للكون بالحتمية الفيزيائية ليس عليه دليلٌ علمي، وهي مبنيَّة على صحَّة نظرية الأكوان المتعدّدة - وسيتبيَّن أنها نظرية غير مقبولة، كما أنْ يطرح على القائلين به تساؤلات محيِّرة جدًّا. وعلى فرض التسليم بصحّة التَّفسير الحتمي، فإنّه لا يتناقضُ في حقيقة الأمر مع الإيمان بوجود الله، لأنّه من الممكن أنَّ الله خلقَ القوانين بهذه الطريقة الحتمية؛ لذلك، فإنَّ هذا التفسير ليس مقبولًا للضبط الدَّقيق للكون. ولننتقل إلى التفسير الثاني.

---

(١) شموع النهار (١٨٦ - ١٨٧).

نقدُ احتمال تفسيرِ الضَّبط الدقيق للكون بالصدفة:

التَّفسيرُ الثّاني للضبط الدقيق للكون هوَ الصدفة. وهذا التفسير مشكل جدًّا عند تأمُّل الدقَّة الهائلة للثوابت الفيزيائية؛ قال البروفسور كرايغ: «إذًا، ماذا عن الاحتمال البديل الثاني القائل بأنَّ الضبطَ الدقيق للكون وليدُ الصدفة؟ المشكلة مع هذا البديل أنَّ ترجيحَ كفَّة وجود كون يسمحُ بوجود الحياة وصلَ إلى حدٍّ غير معقول بحيث لا يمكن قبولُه بالمنطق. ولإنقاذِ البديلِ المتمثِّل بالصدفة، فقد أجبر أنصارَه أن يتبنوا فرضية وجود عددٍ لانهائي من الأكوان المرتَّبة بشكل عشوائي لتكوِّن نوعًا ما مجموعة من العوالم أو الأكوان المتعدِّدة بحيث يكون كونُنا جزءًا منها فقط. وفي مكانٍ ما في مجموعة العوالم اللانهائيَّة هذه، ستظهر أخيرًا الأكوانُ مضبوطةَ التوافق عن طريق الصدفة فحسب، وحدث أن كنّا أحدها»[١]. وهذا هو التفسيرُ الذي وجده دوكينز التفسير الأكثر عقلانية[٢].

إذًا، التفسيرُ بالصدفة والتفسيرُ بالحتمية الفيزيائية يعتمدان على نظرية واحدة، وهي نظريةُ الأكوان المتعدِّدة. فما مدى صحّة هذه النظرية؟

نقدُ نظرية الأكوان المتعدّدة:

قد أوجدَ الملاحدةُ الماديون الغلاةُ هذه النظرية لتفسير الضبط الدقيق للكون دون الرجوعِ إلى الخالق؛ قال البروفسور جون بولكنغهورن: «بالنسبة للمؤمن فإنَّ الكون ليس فقط «أي عالم قديم». إنَّه خَلق قد منحنا إيّاه الخالق دون أدنى شكٍّ وهو ذو ظروف وقوانين مضبوطة الدقَّة تمامًا بحيث سمحت له بأن يمتلك تاريخًا مثمرًا هو التعبير عن الغرضِ الإلهي.

ولبغْضهم للتَّهديد الذي يجلبه الإيمانُ بخالق للكون، بحثَ بعض العلماء عن تفسير بديلٍ لما يبدو واضحًا بأنَّه ضبط دقيق. ويحصلُ هذا عن طريق تخمين وجود أكوان متعدِّدة، وهو شكلٌ موسَّع من المذهب الطبيعي يفترض أنَّ هذا الكون هو فردٌ

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (21)

(٢) انظر: The God Delusion (145)

واحد فقط مِن مجموعة واسعةٍ من عوالم منفصلة، لكلٍّ منها ظروفه وقوانينه الخاصة التي ينفرد بها. إذا كانتْ هذه المجموعةُ كبيرة كفايةً ومتنوِّعة؛ فيمكن أن يكون أحدُ هذه الأكوان مضبوطًا بدقَّة بحيث يسمح بنشوءِ حياة قائمة على الكربون، والمقصود هو كوننا لأننا حياةٌ قائمة على الكربون. إذًا، فإنَّ كوننا الخصب ببساطة هو بطاقة يانصيب عشوائية رابحة في اليانصيب الضخم للأكوان المتعددة»[١].

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه النَّظرية من أوجه عديدة، أكتفي بذكر أربعة منها:

الوجهُ الأوَّل: الملاحدةُ يدَّعون أنهم يتَّبعون المنهج العلمي، وينكرون وجود الله لأنه لا يمكن إثباتُ وجوده بالمنهج العلمي. ومعَ ذلك فإنَّ نظرية الأكوان المتعدّدة تخالف المنهجَ العلمي حيث لا يمكن إثباتُها بأدلة تجريبية، بل لا يمكن الوصول إلى هذه الأدلة أصلًا؛ قال الدكتور ستيفن ماير: «رغمَ الابتكار الواضح فيها إلّا أن نظرية الأكوان المتعدِّدة تعاني صعوباتٍ جوهرية، فليس لدينا أيُّ دليل على وجود كونٍ آخر غير كوننا، بالإضافة إلى أنَّ الأكوان الممكنة بحكم تعريفها لا يمكن الوصولُ إليها، فلا دليل على وجودها»[٢].

وقد اعترفَ البروفسور مارتن ريس[٣] بأنَّ هذه النظرية - التي يفضّلها هو - مجرّد تخْمين، إذْ قال: «إنْ لم يؤمن أحدُنا بتصميم خاضع للعناية الإلهية، ولكنه لا يزال يرى أنَّ الضبط الدقيق للكون يحتاج للتفسير، فمازالَ لدينا وجهة نظر أخرى وهي تخمينية جدًّا لدرجةِ أنَّني أكرِّر التحذيرَ منها دومًا؛ إنَّها النظرة التي أفضّلها رغم أن مقدار معرفتنا الحالي لا يجعلُ هذا التفضيل بقيمةٍ أكثر من مجرّد تخمين»[٤].

---

(1) God and Physics, in God is Great God is Good (70-71)

(2) Science and the Evidence for Design in the Universe (62)

(٣) مارتن ريس (Martin Rees): بروفسور علم الكون والفيزياء الفلكية البريطاني. ويعتبر أحد أبرز علماء الكون المتخصّصين في بداية الكون اليوم. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Martin-Rees

(4) Our Cosmic Habitat (164)

الوجهُ الثّاني: لا تفترُ ألسنةُ الملاحدة عن التظاهر بالعقلانية، لكن استبدال الإيمان بخالقٍ واحد ضبط هذه الثوابت الفيزيائية بوجود عددٍ لانهائي من الأكوان في غاية اللاعقلانية؛ قال البروفسور ريتشارد سوينبورن: «افتراضُ وجود تريليونات من الأكوان بدلًا عنِ الإله لتفسيرِ النظام في كوننا هو أمر في نهاية اللاعقلانية»[1].

الوجهُ الثّالث: على فرضِ التّسليم بوجود هذه الأكوان المتعدّدة فلا يلزم منه أنَّ أحدَ هذه الأكوان سيكون مضبوطًا بهذا الضبط الدقيق؛ قال البروفسور جون بولكينغهورن: «يوجد أيضًا عددٌ من الصعوبات التِّقنية في تقييم تناسق وفعالية نظرية الأكوان المتعدِّدة فيما يتعلَّق بالضبط الدقيق. على سبيل المثال، فإنَّ الحصول ببساطة على مجموعةٍ لا نهائية من الكيانات لا يشكِّل ضمانًا بأنَّ أحدها سيمتلك صفة معينة. فهنالك عددٌ لانهائي من الأعداد الصحيحة الزوجية، ولكن لن تجد أيًّا منها ممتلكًا لصفةِ الفردية. قد يكون المذهبُ المادي انقادَ إلى فرضية الأكوان المتعددة للتعامل مع الضَّبط الدقيق للكون، لكن يجد المذهبُ الألوهي تفسيرًا واضحًا في نظرته الشاملة للعالم»[2].

الوجهُ الرّابع: يقال أيضًا على فرض صحَّة نظرية الأكوان المتعدّدة: أنها لا تعارض الإيمانَ بالله، بل يمكن أنَّ الله خلق هذه الأكوان كلّها؛ قال البروفسور جون لينوكس: «الافتراض أنَّ الضبطَ الدقيق يعني إمّا أن وجد إله أو أكوان متعدِّدة، فإن هذين الاحتمالين ليسا مُتناقضين، إذْ يمكن أن يوجدَا معًا رغم أنهما يعرضان على أنهما فكرتان مُتعارضتان. فعلى كلِّ حال، إنَّ الأكوان المتعددة يمكن أن تكون من عمل خالق»[3].

وعلى فرضِ التّسليم بوجود الأكوان المتعدّدة، فلا يستطيع الملاحدةُ أن يجيبوا عن السّؤال الأصلي: مِن أين أتت هذه الأكوان؟ لا بدَّ من موجِد لهذا الوجود.

---

(1) Is There a God? (68)

(2) God and Physics, in God is Great God is Good (71-72)

(3) God's Undertaker (75)

وقد اعترفَ ريتشارد دوكينز أنَّ نظرية الأكوان المتعدّدة ليست مقبولة لدى أكثر الفيزيائيِّين، وكشفَ عن سرِّ قبوله لها عندما قال: «هذه الفكرةُ بغيضةٌ عند معظم الفيزيائيّين... أعتقدُ أنَّها جميلة، ربما لأنَّ إدراكي قد ربي على أفكار داروين»[1].

وقد ردَّ البروفسور بنيامين ويكر والبروفسور سكوت هون على هذه الخزعبلات بقولِهما: «بكلماتٍ أخرى، يؤمنُ دوكينز أنَّ نظريةَ الأكوان المتعددة تسمح بالاصطفاء الطَّبيعي بين الأكوان، وبالتالي فهي تؤيد قوةَ الدارونية في علم الكونيات كما تفعل في علمِ الأحياء. وهو لم يذكرِ السببَ الذي جعل معظمَ الفيزيائيين يبغضون نظرية الأكوان المتعدِّدة؛ وهو أنَّه لا يوجد أيُّ دليلٍ يدعمها على الإطلاق. وفي الواقع لا يوجد أي طريقةٍ مطلقًا لجمع الأدلَّة عنها، إذ يستحيلُ التقصِّي عن الأكوان الافتراضية الأخرى أو تحديدها. بالاختصار، فإنَّ نظريةَ الأكوان المتعدّدة مثيرةٌ للاهتمام من منظور واحد فقط: أنَّها دليلٌ جيِّد ليأس كلٍّ من دوكينز وبعضِ الفيزيائيين تحقّق ما يريدون من تجنُّب النَّتيجة الواضحة: أنَّ الضبط الدقيق لكوننا يتطلب تفسيرًا إلهيًّا»[2].

نتيجةُ حجَّة التوافق الدقيق للكون:

اتَّضح خلالَ مقدّمات هذه الحجَّة أنَّ تفسير الضبط الدقيق للكون بالحتمية الفيزيائية والصدفة؛ غيرُ مقبول، ولهذا لا يبقى إلّا خيار واحد، ألا وهو الخلقُ والتصميم؛ قال البروفسور كرايغ: «ولهذا، فإنَّ الضبط الدقيق للكون لا يمكن منطقيًّا أن يكونَ نتيجةً للحتمية الفيزيائية أو الصدفة، مما يعني أنَّ الضبط الدقيق نتيجة للتصميم»[3].

---

(1) The God Delusion (145)

(2) Answering the New Atheism (38-39)

(3) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (21)

اعتراضاتُ المَلاحدة على النتيجة:

حجَّةُ التوافق الدقيق للكون حجَّةٌ قوية ومُقنعة، ويجب على المنْصف قبولها، إلّا أن الملاحدةَ المعاصرين مشاغبون في اعتراضاتهم، ولا يقبلون الحقَّ وإن كان واضحًا وضوحَ الشمس؛ فقد اعترضوا على نتيجةِ هذه الحجَّة بعددٍ من الاعتراضات، ولكن من أهمّها اعتراضان:

الاعتراضُ الأوَّل: هو الاعتراضُ الذي سمّاه ريتشارد دوكينز بالحجَّة الرئيسة في كتابِه: وهْم الإله[١]. وهو أنَّه إذا كان اللهُ عايرَ الكون، فمَن عاير المعايِر؟ وهذا الاعتراضُ يُشبه شبهة: «إذا كان اللهُ خلقَ كلَّ شيء، فمَن خلق الخالق؟» وسيأتي ردٌّ مفصَّل على هذا الاعتراض في الباب الثالث - إنْ شاء الله -. فلا حاجةَ إذًا لإعادة الكلام عنه هنا.

الاعتراضُ الثّاني: الاعتراضُ بما يسمَّى: «المبدأ الإنساني الضعيف». وهو تحريفٌ للمبدأ الإنساني (Anthropic Principle) الذي عرّفه قاموس أكسفورد بأنه: «المبدأ الكوني أنَّ النظريات الكونية مقيَّدة بضرورة السماح بوجود الإنسان»[٢]. «أما (المبدأ الإنساني الضَّعيف) فيقتصر على جزءٍ من المبدأ دون أن يدخلَ في متاهة السؤال المترتّب عليه، فيقول: لوْلا أنَّ الكون معايرٌ بشكل دقيق لما كنَّا موجودين لنتحدّث عن ذلك، أو بعبارةٍ أخرى: لأنَّنا موجودون فلا بدَّ أن يكون الكون مضبوطًا من أجل وجودنا، فاحتمالاتُ وجودنا في كونٍ يسمح لنا بالحياة هي في الحقيقة ١٠٠٪ فلا محلَّ للاستغراب، ولا موضع للتساؤل»[٣].

وهذا الاعتراضُ من أغربِ الاعتراضات الإلحادية، وهو دالٌّ على شذوذ الفكر الإلحادي؛ فهذا المبدأ لا يفسِّر أيَّ شيء، وإنما هو ملجأ لمنْ فشل في

---

(١) انظر: The God Delusion (147)

(2) https://en.oxforddictionaries.com/definition/anthropic_principle

(٣) شموع النهار (٢٢٤).

النقاش ومسلٍّ له؛ قال البروفسور آلان غوث: «إنَّ المبدأ الإنساني الضعيف غامضٌ بشكل كبير، يمكن أن تستخدمَه لو أردتَ في تفسير كلِّ شيء تقريبًا، ولن يقدِّم أيَّ تنبؤات، وإنما يفسّر ما أنْ ما رأيته بعد أنْ وقع الحدثُ هو بطريقة ما مقبول. ووجهة نظري: أنَّ هذا المبدأ سيكون الملجأ الأخيرَ دائمًا؛ فلو أنَّك لم تستطع أن تجد نظرية مقبولة متوافقة مع ما تراه وتتنبأ به يمكنك حينَها أن تلجأ إلى هذا المبدأ، فهو مبدأ مسلٍّ فقط»[١].

فما هذا الاعتراضُ إلّا هروبٌ من تفسير الضبط الدقيق للكون بوجود الخالق، ولا يمكنُ أن يسمَّى اعتراضًا حقيقيًّا. وقد نصَّ على ذلك اثنان من كبار علماء الفيزياء والكون في هذا الزمان:

النصُّ الأوَّل: قال البروفسور أوفين جينجيريش[٢]: «لقد قلّبوا أصلَ المسألة، فبدلًا عنْ قبول أنَّنا هنا لأنَّ هناك مصمّمًا متعاليًا مريدًا، فقد ادَّعوا أن الكون ببساطة يجب أن يكونَ على هذا النحو وإلّا لن نكون هنا، هذا كلُّ ما في الأمر»[٣].

النصُّ الثّاني: قال البروفسور جون بولكينغهورن: «المبدأ الإنساني الضعيف ليس أكثرَ من تكرارٍ في المعنى، فنحنُ هنا وجميعُ الأشياء يجب أن تعمل من أجل هذا الاحتمال. وهذا فشلٌ تامٌّ في معالجة الضبط الدقيق...»[٤].

ولهذا لا ينبغي الانشغالُ بمثل هذه الاعتراض السفسطائي الدّال على اعوجاج تفكيرِ الملاحدة وإفلاس حججهم في الحقيقة.

---

(1) Alan Guth as quoted in Hereen, (311)

(٢) أوفين جينجيريش (Owen Gingerich): بروفسور علم الكون وتاريخ العلوم في جامعة هارفارد، وكان رئيسَ قسم تاريخ العلوم ف يجامعة هارفارد سابقًا. انظر:

https://histsci.fas.harvard.edu/people/owen-gingerich

(3) Dare a Scientist Believe in Design? (26)

(4) Beyond Science (87-88), by: John Polkinghorne, (Cambridge University Press, 1999)

وقد تبيَّن خلالَ هذا المبحث قوَّة حجة التوافق الدقيق للكون، وأنها من أقوى الحججِ على وجود الله. ويمكن عرضُ هذه الحجَّة بطريقتين: الطريقة المنطقية العادية المبنيَّة على مقدِّمتين ونتيجة، وطريقةُ السبر والتقسيم. والطريقتان قويّتان ومقنعتان لكلِّ مُنصف.

المبحثُ الخامس

حجَّةُ الجمال

حجَّةُ الجمال من الحججِ العقلية الدالة على وجود الله. وتستندُ هذه الحجة إلى الجمالِ الموضوعي[1] في المخلوقات ودلالتِه على وجود الخالق تعالى. ولكون هذه الحجة تتحدَّث عن الإتقان والإحكام في هذا الجَمال، فقد جعلَها البروفسور ريتشارد سوينبورن متفرِّعة عن الحجة الغائية[2]. وهذا ما يبدو صوابًا.

وقد نبَّه الدكتور بيتر وليامس[3] - وهو مِن أكثر مَن كتب عن هذه الحجّة - على أنَّ الفلاسفة لا يستخدمونَ هذه الحجَّة إلّا قليلًا، وإذا كتبوا عنها فإنَّ كلامهم لا يتجاوز سطورًا في الغالب[4].

وقد يكونُ من أسباب قلَّة استخدام هذه الحجّة أنّها ضعيفة في بعض صياغاتها، مما جعلَ بعضَ الملاحدة يتجاهلون الردَّ عليها، مثل: الملحد الشرس البروفسور

---

(١) الجمال الموضوعي: أنّ الشيء نفسه جميل، وليس جميلاً في أعين الناظر فقط.
انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /beauty /

(٢) انظر: The Existence of God (Chapter Six)

(٣) بيتر وليامس (Peter Williams): أستاذ مساعد في علم الاتصال ورؤى العالم في جامعة أن أل أي بالنرويج. وهو مهتمٌّ بنقد الإلحاد وإبراز حجة الجمال. انظر:
https://philpeople.org/profiles/peter-stephen-williams

(٤) انظر البحث:
Aesthetic Arguments for the Existence of God, in Quodlibet Journal: Volume 3, Number 3

جي أل ماكي[١] في كتابه: «معجزة اللاهوت»(The Miracle of Theism)، بينما سخر منها بعضُ الملاحدة الآخرين كريتشاد دوكينز في كتابه: «وهم الإله»[٢].

ومعَ ذلك، فقد استخدم بعضُ علماء الغرب المعاصرين مثل: البروفسور ريتشارد سوينبرون والبروفسور كيث وارد هذه الحجَّة - كما سيأتي ذكرُه -.

وبعضُ صياغات هذه الحجَّة فيها قوَّة معتبرة، لا سيَّما في نقد القول بالعشوائية والصُّدفة، كما سيأتي بيانه في هذا المبحث.

تاريخُ هذه الحجَّة:

الجمالُ موجود أينما تتَّجه الأبصارُ في هذا الكون. فالإنسان يرى الجمال في السَّماء والأفق، كما أنَّه يراه في الجبال، والأودية، والشجر، والزهور، والحيوانات والإنسان. فالإحساسُ الجمالي في الإنسان عميق، وهذا ما جعل بعضَ الفلاسفة يسمّي جنسَ الإنسان العاقل بـ(Homo Aestheticus) بمعنى: الإنسان الجمالي[٣].

ومعَ أنَّ الإحساس به موجودٌ لدى الإنسان منذ القدم، فإنَّ مِن أقدم مَن كتب عن الجمال ودلالاتِه هو الفيلسوفُ أفلاطون. فكان يؤسِّس للقول بأنَّه يوجد جمال موضوعي، وأنَّ الإحساسَ بالجمال لا يرجع إلى آراءِ الناس فقط. وذلك في فلسفته المتعلِّقة بالكليات الأفلاطونية المشهورة بالمثُل. وكان يرى أنَّ الجمال الكامل لا يوجد إلّا في عالم المثُل. وهذا العالمُ غير مادي ومُستقلٌّ عن الإحساس الناقص لدى الإنسان[٤]. وهذه الفلسفة لم يُردْ بها إثباتَ وجود الخالق، لأنّه كان مشركًا - كما سبق بيانُه -، ولكنَّه سعَى إلى إثبات عالم غير مادي.

---

(١) جي أل ماكي (J.L. Mackie): واسمه: جون ليزلي ماكي. بروفسور الفلسفة الأسترالي، ويعتبر أحدَ أشهر فلاسفة الإلحاد في القرن العشرين، وكان يهتم بنقد أدلة وجود الله وإبراز شبهة مشكلة الشر. توفي عام: ١٩٨١م. انظر:

http://adb.anu.edu.au/biography/mackie-john-leslie-14214

(٢) انظر: The God Delusion (86 - 87)

(٣) انظر كتابها عن ذلك: Homo Aestheticus: where art comes from and why

(٤) انظر: Learning to Philosophize (119), by: E.R. Emmet

وقد أثَّرت هذه الفلسفةُ في فلاسفةٍ بعدَه مثل: أفلوطين الذي أثبت وجود «الواحد» الذي لا يتجزأ، المتعالي على كلِّ شيء. ومزجَ هذا المفهوم مع مفهوم الخير ومبدأ الجمال. وهي الفلسفةُ المعروفة بالأفلاطونية المحدثة. وهذه الفلسفة أثّرت في بعض اللاهوتيّين النصارى مثل: أغسطين. ومِن مظاهر تأثُّره بهذه الفلسفة أنَّه كان يربط بين وجودِ الجمال في المخلوقات وبينَ جمال الخالق. ومِن الأقوال المأثورة عنه أنه قال: «مَن صنعَ هذه الأشياء الجميلة المتغيِّرة، إنْ لم يكن الجميلُ وغير المتغيِّر؟!»[1]. فجمع بين الإشارةِ إلى حجَّة الجمال، وإلى القول بأنَّ الخالق غير متغيِّر على طريقة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وهي من الألفاظ المجملة - كما سبقت الإشارة إليه في الحجة الكونية -. ولكنَّ الشاهد أنَّ الحديث عن الربط بين جمال الخالق وجمال المخلوقات موجودٌ منذ زمن آباء الكنيسة الأوائل، وبقيَ حاضرًا عند بعض النصارى بعد ذلك أيضًا.

فالحديثُ عن الجمال في الفلسفة وعلمِ اللاهوت قديم، ولكنَّ علم الجمال استقلَّ كفنٍّ فلسفي خاص - لبيان الأحكام التقويمية التي تميِّز الجميل عن القبيح - في القرن الثّامن عشر معَ صدور كتاب: «تأملات فلسفية في موضوعات متعلّقة بالشعر» (Meditationes philosophicae de nonnullis ad poema pertinentibus) لألكسندر باومجارتن[2] ثمَّ ألّف كتابَه الأشهر: «فلسفة الجمال» (Ethica philosophica) عام ١٧٤٠م. وقد أثَّر باومجارتن بصورة بالغة في فلاسفة عصره برؤية الجمال[3].

---

(١) انظر: Sermons of St. Augustine, 241، Easter: c.411 CE

(٢) ألكسندر باومجارتن (Alexander Baumgarten) فيلسوف ألماني من تلاميذ الفليسوف المشهور غوتفريد لايبنز. وقد اشتهر باومجارتن لأنه أظهر الجمال كفنٍّ مستقل في الفلسفة. توفي عام: ١٧٦٢م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Alexander-Gottlieb-Baumgarten

(٣) انظر: براهين وجود الله في العقل والنفس والعلم (٦٨٠)، للدكتور سامي عامري، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ١٤٤٠ هـ).

وقد استخدمَ بعضُ علماء الغرب هذه الحجَّة في كتبهم مثل: ريتشارد سوينبورن في كتابه: «الوجود الإلهي» (The Existence of God)[1]. ولكن من أكثر من تميّز بجمع الصِّياغات المختلفة لهذه الحجَّة هو الدكتور بيتر وليامس حيث ألّف بحثين علميَّين عن هذه الحجَّة، وهما: «من الجمال إلى وجود الله» (From Beauty to the Existence of God)[2]، و«الحجج الجمالية لوجود الله» (Aesthetic Arguments for the Existence of God)[3]، وجمع فيهما صياغات علماء الغرب لهذه الحجة.

استدلالُ علماء الغربِ بحجَّة الجمال:

كلمةُ حجَّة الجمال تجمعُ في الحقيقة عددًا من الحجج المختلفة تحتها، ولكن ذكرَ بيتر وليامس أنه يمكن تقسيمُ هذه الحجج إلى قسمين رئيسين:

القسمُ الأوّل: حجَّةُ الجمال المعرفية.

القسمُ الثّاني: حجَّةُ الجمال الوجودية.

ولذلك سيتمُّ تقسيمُ هذا الجزء من المبحثِ إلى هذين القسمين:

القسمُ الأوَّل: حجَّة الجمال المعرفية:

حجَّةُ الجمال المعرفية تعتمدُ على علم الإنسان بالجمال والشعور بذلك، وأنَّ أفضلَ تفسيرٍ لوجود هذا الشعور هو أنَّ الخالق غرزَه في الإنسان. وعليه، فلا يمكن تفسير هذا الشعورِ عن طريق المذهبِ المادي الميتافيزيقي؛ قال وليام سي ديفيس[4]: «يتمتع البشرُ بعددٍ من

---

(١) انظر: The Existence of God (190 - 191)

(٢) انظر: Falsafeh, Vol. 36, No. 3, Autumn 2008، pp. 43 - 46، وهو موجود على هذا الرابط:
https://literature.ut.ac.ir/documents/10469/36295256/3-From%20Beauty%20to%20the%20Existence%20of%20God.pdf

(٣) انظر: Quodlibet Journal, Volume 3, Number 3, Summer 2001

(٤) وليام سي ديفيس (William C. Davis): بروفسور الفلسفة في المعهد اللاهوتي RTS في الولايات المتّحدة. انظر: https: / /rts.edu /people /dr – william – davis/

الميْزات التي يمكن تفسيرُها بسهولة أكثرَ عن طريق المذهب الألوهي من المذهبِ الطبيعي الميتافيزيقي، حيث إنَّ المذهب الطبيعي الميتافيزيقي إنما يشرح القدرات البشرية كلَّها بالقدرة على البقاء. ومِن هذه الميزات التي يمكن للمذهب الألوهي شرحها بطريقةٍ أفضل: امتلاك القدراتِ الموثوقة التي تهدفُ إلى إدراك الحقيقة، وتقدير الجمال، وروح الدعابة»[1].

فخلاصةُ هذه الحجَّة أنَّ المذهب الطبيعي يستند إلى نظرية التطوّر لشرح الخصائص في الإنسان، ونظرية التطوُّر تفسِّر جميعَ هذه الخصائص من أجل البقاء للأصلح. ولكنْ هناك بعضُ الخصائص في الإنسان لا علاقةَ لها بشأن البقاء. ومن ضمن هذه الخصائص: الشعورُ بالجمال؛ فلا فائدةَ إطلاقًا لبقاء الإنسان على قيد الحياة لكونه يشعرُ بأنَّ شيئًا ما جميل! فهذا الشعورُ متعالٍ على الحاجةِ إلى البقاء؛ فمن أين جاء هذا الشعورُ المتعالي إذًا؟ لا يمكن تفسيرُ هذا بالمذهب الطبيعي المادي ونظرية التطوّر، فلا بدَّ من النَّظر إلى خالقٍ مُتعالٍ على الكون غرزَ هذا الشعور الفطري في الإنسان.

وهذه الحجَّة فيها نوعٌ من القوَّة في نقد نظرية التطوّر والمذهب المادي، ولكنها ليستْ واضحةً وبيِّنة في إثباتِ وجود الخالق. ولكن إنِ انضمَّت هذه الحجة إلى حجَّة الجمال الوجودية فإنّها تكتسبُ شيئًا من القوة. فما هي هذه الحجة إذًا؟

القسمُ الثّاني: حجَّةُ الجمال الوجودية:

لخَّص الدكتور بيتر وليامس هذه الحجّةَ بأنَّ الجمال الموضوعي موجود في الكون، ولا يمكن أن يتوقَّع أنَّ قوانين الطبيعة العشوائية تنتج هذا الجمال الباهر[2].

فـ«إذا كان الكونُ مادة وطاقة في حال عبثٍ دائب وأعمى؛ فالمتوقع أن لا يوجد جمالٌ في الكون؛ إذِ الجمال معطى كوني مرتبطٌ بغائية لإمتاع الذائقة؛ وقد جاء في

---

(1) Theistic Arguments, by: William C. Davis, in Reason for the Hope Within (37), ed. Michael J. Murray (Eedermans, 1999)

(٢) انظر:
Aesthetic Arguments for the Existence of God (3), by: Peter Williams, Quodlibet Journal (Volume 3, number 3)

القرآن قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] تأكيدًا للصلة الجوهرية التي تربط لوائحَ الجمال بجاذبية الإمتاع.. وليس في العشوائية ما يمكن أن يربطها بإسبال ثوبِ الجمال الواسع على المادة العابثة»[١].

فهذه الحجَّة مبنيَّة على أنَّ الجمال الموضوعي موجود، وأنّه لا يمكن شرح هذا الجمال بدون وجودِ الخالق. فهل الجمالُ الموضوعي موجود في الحقيقة؟

الجواب: أنَّ الجمال الموضوعي موجود، وليس الجمالُ كامنًا في عين الناظر فقط، بل الجمالُ حقيقة موضوعية. وهذا أمرٌ مغْروز حتَّى في الأولاد الصغار، فقد بيّنت دراسة في جامعةِ إكستر أنَّ المواليد الجدد الذين لم تتجاوزْ أعمارهم أسبوعًا واحدًا لديهم وعي أصيلٌ بالأشياء الجذابة، ويميلون إلى الأشخاص الجميلين[٢]. والقاعدة العقلية التي هي مبدأ المبادرة إلى التَّصديق تقول: إنَّ علينا أن نصدِّق أنَّ الأشياء على ما تبدو عليه حتَّى توجَد حجَّة عندنا أننا مخطئون، كما ذكر البروفسور ريتشارد سوينبور[٣]. فوعيُنا «بالجمال يخبرُنا دائمًا أنَّ الجمال وجودٌ خارجي مستقلٌّ بنفسه عنّا، والانصراف عن ذلك يحتاج برهانًا»[٤].

فالخلاصةُ أنَّ للجمال وجودًا مستقلًّا عن أذهاننا، وهو أمر مغروز في الفطرة والعقل، ولا يجحدُه إلّا المكابر؛ فالجمالُ الباهر في البحار والجبال والأنهار والأشجار والزهور ظاهرٌ وواضح. وإنْ كان الناسُ يختلفون في حُكمهم على ما هو الأجمل من بينها، ولكنْ كون هذه الأشياء جميلةً لا يمكن جحدُه.

---

(١) براهين وجود الله (٦٧٩).

(٢) انظر:

A Case for the Existence of God (57-58), by: Dean L. Overmanm (Lanhamn: Rowman & Littlefield, 2009)

(٣) انظر: Is There A God? (115)

(٤) براهين وجود الله (٦٩٥).

ولهذا فإنَّنا نجد أنَّ الملاحدة يتحدَّثون عن الجمال بطريقة موضوعية؛ قال البروفسور بول ديفيز: «حتى العلماءُ الملحدون الذين يشكّلون جزءًا ضئيلًا جدًّا وهشًّا من الكون يدبِّجون قصائدَ المديح في ضخامته وعظمته وتناغمه وأناقته وعبقريته»[١].

ومِن ذلك ما قاله زعيمُ الملحدين ريتشارد دوكينز: «العالم والكون مكانان في غاية الجمال، وكلَّما فهمنا الكون، بدَا لنا بصورةٍ أجمل»[٢]. فعندما يقول دوكينز وغيره مثلَ هذه الأقوال فإنَّهم يعبّرون عنْ حقيقة موضوعية، وأنَّ هذا العالم هو بالفعل جميل، وهذا القولُ لا يعبِّر عن رأيه الشخصي فقط. فهذا أمرٌ يعرفه كلُّ أحد في قرارة نفسه، ولا ينكرُه إلّا مكابر.

وإذا كان الجمالُ الموضوعي موجودًا، فكيف يفسِّر المذهب الطبيعي الإلحادي هذا الجمال؟ كيف تأتي الطبيعةُ الصَّماء بجمالٍ باهر؟ هذا ما لا يمكن للمذهب الطبيعي تفسيره!

«وأمّا الملحد - المدرك للوازم الإلحاد - فيرَى أنَّ من كمال العقل واستقامة الفكر وصلاح المعتقد أنْ يخلو الوجودُ من الجمال؛ لأنَّ الجمال فكرة ناشزة عن أصل العبث في كوْن موجود بلا مبدأ، ويسيرُ إلى غير غاية. إنَّ آفاق المادة في عيني الملحد يجب أن تنافرَ حقيقة الجمال؛ لأنَّ الجمال (الموضوعي) موصول ضرورة بالحكمة الأولى والغائية؛ ولذلك فالكونُ الإلحادي قبيحٌ أو ميت بلا دلالةٍ على جمال، وهو لا يغادر أحدَ مظهريْن؛ فوضى عارمة أو تماثل بارد»[٣].

وهذا الجمالُ الموضوعي مُشاهَد في عالم الأحياء بكثرةٍ مثل النباتات، والأشجار، والحيوانات، والأسماك، والطيور، وفي الإنسان. والملحد يضطرُّ إلى تفسير الجمال في

---

(١) الجائزة الكبرى، لماذا الكون مناسب للحياة؟ (٣١).

(٢) قاله دوكينز في مقابلة مع بي بي سي، ونقله دون أن باج في:
The Everett Mulitiverse and God, in: God and the Multiverse: Scientific Philosophical, and Theological Perspectives (53), ed. Klaas Kraay, (Routledge Studies in the Philosophy of Religion, 2014)

(٣) براهين وجود الله (٦٨٧).

عالم الأحياء عنْ طريق نظريةِ التطوّر بآلةِ الانتخاب الطبيعي. وهذه الآلة تعمل فقط لمصلحة الكائن نفسِه من أجل البقاء. وأمّا وجودُ الجمال فهو من أجلِ إمتاع الآخرين بمشاهدة هذا الكائن. وقد قال داروين: (لو كان مِن الممكن إثباتُ أنَّ أي جزءٍ من بنية أي نوع تمَّ تشكيلُه من أجل فائدةِ الأنواع الأخرى فقط، فسيتمُّ إبطالُ نظريتي، لأنه لم يكن بالإمكان إنتاجُه خلالَ الانتقاء الطبيعي)[1]. واعترف أنَّ بعضَ المعاصرين له: «يعتقدون أنَّ كثيرًا من التركيبات خُلقت من أجل الجمال لإمتاعِ الإنسان أو الخالق... أو من أجل التنوُّع أكثر... ولو صحَّت هذه المعتقدات لكانت ضربة قاتلة لنظريتي»[2]. وهذا التحدِّي فيه صعوبةٌ بالغة للتطوُّريين؛ لأنَّ الجمال ليس موجودًا في شيء واحد أو شيئْين؛ بل هو موجودٌ في كلِّ مكان. ومهْما حاول داروين في كتابه أن يفسّر هذا الجمال عنْ طريق الانتخاب الجنسي للحيوانات إلّا أنَّه عرف تحدّي ظاهرة الجمال لنظريتِه؛ فكتبَ لأحدِ أصحابه: «عندما أنظرُ إلى ريشة في ذيل الطاووس أصابُ بالغثيان»[3]. وذلك لأنَّ جمالَ هذه الريشة لا يمكن تفسيرُه عن طريق الانتخاب الطَّبيعي. وهذا الجمالُ المشاهَد في ريشة الطاووس جزءٌ بسيط جدًّا جدًّا من الجمال المشاهَد في عالم الأحياءِ بأكمله؛ فلا شكَّ أنَّ هذا كفيل بإبطال نظريته الفاسدة. وقد سبقَ مرارًا أنَّ نظرية التطوّر هي الركن الركين للإلحاد في هذا العصر.

ويُضاف أيضًا: على فرضية أنَّ الجمال يمكن تفسيرُه في عالم الأحياء، فإنّ الجمال موجودٌ في كلِّ مكان، وليسَ في عالم الأحياء فحسب. وقد ذكر البروفسور جي بي مورلاند أنَّ الجمالَ الموضوعي موجودٌ في غروب الشمس، وأعالي الجبال، والأشجار الملوَّنة في الخريف، وغيرُ ذلك كثير. فهذه الأشياء ليس لها أيُّ فائدة لبقاء الأصلح من الأنواع، ولا يمكن تفسيرُه عن طريق الانتخاب الطبيعي[4].

---

(1) On the Origins of Species (126)

(٢) هذا التصريح موجود في بعض نسخ كتابه دون بعض، انظر:
On the Origins of Species: A Variorum Text (367)

(٣) ذكر ذلك في رسالته لآسا غراي في الثالث من أبريل عام ١٨٦٠، وهو موجود على هذا الرابط:
https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-2743.xml

(٤) انظر:
Scaling the Secular City: A Defense of Christianity (41), by: J.P. Moreland, (Baker Book House Company, 1987).

خلاصةُ كلام علماءِ الغرب عن حجَّة الجمال:

خلاصةُ ما سبق أنَّ حجةَ الجمال تشكّل تحديًا كبيرًا لنظرية التطوّر والإلحاد من وجهيْن: الحسِّ الجمالي في داخل الإنسان، والجمالِ الموضوعي المشاهَد في كلِّ مكان. ورأى البروفسور كلارك بنوك[١] أنَّ هذا التحدّي من أقوى التحدِّيات للإلحاد؛ فقال: «أفضلُ مواجهة لتحدِّي الإلحاد، والعدمية التي تقترن به عادة، هي برؤيةٍ أوضح للجَمال البهي الذي خلقَه الله، لا عن طريق محاججات عقلية»[٢].

ولكنَّ حجَّة الجمال ليست حجَّةً في نقض الإلحاد فحسب، بل تثبت وجودَ خالق لهذا الكون متَّصف بالكمال والجَمال. وقد ذكر جون سي ورايت[٣] ذلك؛ فقال: «إنَّ أقوى حجَّة ضدَّ الإلحاد... ليستْ حجَّة يمكن صياغتها بكلمات، إذ هي حجةُ الجمال... إذا كنت فعلًا ترى جمالًا حقيقيًّا، ونسيت نفسَك بسبب هذا الشعور؛ فاعلمْ عندها أنَّك قد انسلختَ من نفسك في شيء أكبر. في تلك اللحظة اللازمانية مِن الانقطاع المجيد، يدرك القلب أنَّ العالم الممل الذي ألف الخيانة والألم والإحباط والحزم ليسَ هو العالم الوحيد هنا، حتَّى إن كان اللسانُ لا يملك أن يعبّر عن ذلك بكلمات. إنَّ العالم يشير إلى عالمٍ خارج عن هذا العالم، عالم أعلى... إنَّ الجمال يشير إلى ما هو إلهي»[٤].

---

(١) كلارك بنوك (Clark Pinock): بروفسور اللاهوت النظامي في جامعة ماكماستير في كندا. توفي عام ٢٠١٠م. انظر: https: / /www.mcmaster.ca /mjtm /bio١ – htm.٢

(2) Most Moved Mover: A theology of God's openness (2), (Caralisle: Paternoster Press, 2002)

(٣) جون سي ورايت (John C. Wright): الأديب الأمريكي صاحب المؤلفات في الخيال العلمي. وقد تحوَّل من الإلحاد إلى النصرانية في الفرقة الكاثوليكية. انظر: https://www.ncregister.com/blog/an-interview-with-catholic-sci-fi-author-john-c-wright

(٤) المقال: How We've Been Robbed of Beauty by the Left المنشور على الرابط: https://www.everyjoe.com/2014/07/03/politics/robbed-of-beauty-by-the-left/.

فخلاصة كلام علماء الغرب أنّ هذه الحجّة مركّبة من حجّتين: حجة الجمال المعرفية وحجة الجمال الوجودية. ومجموع الحجتين يشكّل تحديًا كبيرًا للإلحاد، كما أنه يدلّ على وجود خالق متّصف بالكمال والعلم والحكمة والجمال.

تقييمُ حجّة الجمال:

لا شكَّ أنَّ حجةَ الجمال تشكّل تحديًا قويًّا لنظرية التطوّر، وهي أهمُّ نظرية في الفكرِ الإلحادي المعاصر. وهذه الحجَّةُ تكتسب قوَّتها إذا انضمت إلى دليل الخلق والإيجادِ ودليلِ الإتقان والإحكام. فإذا تحدَّث المؤمنُ مع الملحد عن ظهور المخلوقات مِن العدم وإتقانها وإحكامها؛ فيُستحسن أن يتكلَّم عن جمالها وحسنها. وأنّ هذا الجمالَ يدلُّ على جمال الخالق، وأنه يحبُّ المخلوقات الجميلة.

وقد أرشدَ اللهُ تعالى إلى النظر إلى جمالِ مخلوقاته في آياتٍ عديدة، منها قوله تعالى ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ ﴾ [النحل: ٥ - ٦] وقولُه عزَّ وجلّ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦ - ٨]. وقوله تعالى: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

وقد أخبرَ النبي (ﷺ) أنَّ من أسماء الله: الجميل، ومِن صفاته الجمال، وهو يحبُّ المخلوقاتِ الجميلة؛ فقال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال»[1].

وذكرَ الإمام ابنُ القيم (رحمه الله) في أبياتٍ جميلة أنَّ الجمال في المخلوقات من آثار جماله تبارك وتعالى؛ فقال:

وَهُوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيْفَ لا	وجمَالُ سَائِرِ هذِهِ الأَكْوَانِ
مِنْ بَعْض آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّهَا	أَوْلَى وَأَجْدرُ عِنْدَ ذِي العِرْفَانِ
فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ والأوصَافِ وَالـ	أفعَالِ وَالأَسْمَاءِ بالبُرهَانِ
لا شَيءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وصِفَاتِهِ	سُبْحَانَهُ عَنْ إفْكِ ذِي بُهْتَانِ[2]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥)، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (٣/ ٧٠٦ - ٧٠٧)، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ، ت. مجموعة من المحققين بإشراف بكر بن عبد الله أبو زيد).

وقال الشيخ محمد خليل الهراس (رحمه الله) معلّقًا على هذه الأبيات: «وأما الجميل؛ فهوَ اسمٌ له سبحانه من الجمال، وهو الحسنُ الكثير، والثابتُ له سبحانه من هذا الوصفِ هو الجمالُ المطلق، الذي هو الجمالُ على الحقيقة؛ فإنَّ جمال هذه الموجودات على كثرةِ ألوانه وتعدُّد فنونه هو مِن بعض آثار جماله، فيكون هو سبحانه أوْلى بذلك الوصف مِن كلِّ جميل؛ فإنَّ واهبَ الجمال للموجودات لا بدَّ أنْ يكون بالغًا مِن هذا الوصف أعلى الغايات، وهو سبحانَه الجميل بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله»[1].

وقد أبدعَ الإمام ابن القيّم (رحمه الله) في كتابه: مفتاح دار السعادة بذكر عددٍ كبير مِن الأمثلة على الجمالِ في الطبيعة، ودلالة هذا الجمال على وجود الخالق، والردّ على الملاحدة. وسأكتفي بذكرِ أربعة أمثلة على ذلك:

المثالُ الأوَّل: تأمُّل خلقِ السماء: قال (رحمه الله): «تأمَّلْ خلقَ السماء وارجعِ البصرَ فيها كرَّة بعد كرَّة، كيف تراها من أعظم الآيات في علوِّها وارتفاعها وسعتها»[2].

المثالُ الثّاني: تزْيينُ النجوم للسَّماء: قال (رحمه الله): «ثمَّ تأمَّلْ حكمته تبارك وتعالى في هذه النُّجوم وكثرتها، وعجيب خلقها، وأنَّها زينة للسماء وأدلة يهتدي بها»[3].

المثالُ الثّالث: ألوانُ الطيور وأصباغها: قال (رحمه الله): «تأمَّلْ هذه الألوان والأصباغَ والوشي التي تراها في كثيرٍ من الطير. فمِن أين في الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتَّخطيط والتلوين؟!»[4].

---

(١) شرح القصيدة النونية (٢ / ٦٩)، لمحمد خليل الهراس، (دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢ / ٥٨٩).

(٣) المصدر السابق (٢ / ٥٩٨).

(٤) المصدر السابق (٢ / ٦٩٨).

المثالُ الرّابع: العروقُ في الأوراق: قال (رحمه الله): «تأمَّلِ الحكمةَ في خلق الورق فإنَّك ترى في الورقة الواحدة من جُملة العروق الممتدَّة فيها المبثوثة فيها ما يبهرُ الناظر»[1].

والأمثلةُ على ذلك لا تعدُّ ولا تُحصى كما قال الإمام ابن القيّم (رحمه الله): «فسبحانَ مَن لا يحصي العادّون آياته، ولا يحيطون بتفصيلِ آيةٍ منها على الانفراد»[2].

فالخلاصةُ أنَّ هذه الحجَّة تستعمَل في نقد الإلحاد ونظرية التطوّر، كما أنه يستحسن إيرادُها بعدَ دليل الخلق والإيجاد، ودليل الإتقان، لتقوية هذه الأدلة كسلسلة مترابطة. وكذلك ينبغي إيرادُ أمثلةٍ على جمال المخلوقات من باب التأمّل والتفكّر.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٦٤٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٧١٦).

المبحثُ السّادس

الحجَّةُ الوجودية

الحجَّةُ الوجودية حجَّةٌ عقلية محْضة على وجود الله. فهذه الحجّةُ تعتمد على التَّفكير المجرّد، ولا تسندُ إلى ربط المخلوقات بخالقها - كما هي حقيقة الحجّة الكونية، والحجّة الغائية -. وهي حجَّةٌ قبلية (A Priori)، أي أنها تنطلق لإثبات وجود الله من حقيقةِ هذا الوجود نفسه، وهي تختلف عن الحجّة الخلفية (A Posteriori)[1] التي تبدأ من النَّتيجة رجوعًا إلى السبب، أو مِن الأثر إلى المؤثِّر. فعمليةُ الاستنتاج في هذه الحجّة تمضي من الوجودِ الإلهي الضَّروري إلى إثبات وجوده بخلاف غيرها من الحجج المبنية على السَّببية التي ترصدُ النتيجة لتستنتج بها وجودَ السبب أو الفاعل[2].

وهذه الحجّةُ محلُّ أخذٍ وردٍّ بين اللاهوتيّين النصارى، ولا تكاد تنتشرُ بين المسلمين إطلاقًا. وذلك أنها أقلُّ قوَّة من الحجج السابقة، وإنِ استطاع بعضُ الفلاسفة إعطاءها شيئًا من القوَّة. وقد مرَّتْ هذه الحجة بثلاثِ مراحل رئيسة: مرحلة القديس أنسلم، ومرحلة رينيه ديكارت معَ تصويبات ليبنز، والمرحلة المعاصرة. وبيانُ ذلك كما يلي:

أوَّلًا: مرحلةُ القديس أنسلم:

سادَ في العصور الوسطى مذهبان رئيسان بينَ رهبان النصرانية: أحدهما يحاول تفسيرَ العقائد النصرانية تفسيرًا عقلانيًّا معتمدًا على أعمال أرسطو، والثاني معادٍ للفلسفة والجدل. وكان الأسقفُ أنسلم كانتربري مِن أكبر المنتصرين للمذهب

---

(١) الحجّة القبلية تؤخذ من مقدّمات عامة مجرّدة.
الحجّة الخلفية تعتمد على معلومات خاصة مستمدّة من الإدراك الحسّي.
انظر: http://www.philosophypages.com/dy/a5.htm#a-pr

(٢) انظر: الإلحاد للمبتدئين (٨٤).

الأوّل، وقد تأثَّر تأثّرًا واضحًا بكتبِ أرسطو. وكان يرى أنَّ العقل هو المصدر الوحيد للبرهان[١].

ولهذا أرادَ أن يقدِّم حجَّة على وجود الله معتمدًا على العقل المجرّد، وهي الحجّة الوجودية. ولكنَّه لم يقدِّم هذه الحجّة بصياغةٍ منطقية معروفة بمقدّمات ونتيجة، وإنما قدَّمها وفقَ مناجاته لله في كتابه: «بروسولوجيون» **(Prosologion)** في الباب الثاني[٢]؛ فقال:

«إنَّنا نؤمن بأنَّك الشيء الذي لا يمكن تصوُّر شيء أعظم منه. أفمثالُ هذه الطبيعة لا وجودَ لها، لمجرَّد أنَّ الأحمق قال في نفسه: الله غيرُ موجود؟ غير أن هذا الأحمق إذْ يسمع ما قلته: (الشيء الذي لا يمكن تصوُّر شيء أعظم منه)، يفهم على أيَّة حال ما يسمعه وما يفهمُه من كلمة (موجود) في عقله، حتَّى ولو كان لا يفهم أنَّ هذا الشيء موجود، وأنْ يكون الشيء موجودًا في العقل شيء، وأنْ يكون موجودًا في الواقع شيء آخر... ومن المؤكَّد أنَّ الموجود الذي لا يمكن تصوّر شيء أعظم منه لا يمكنُ أن يوجَد في العقل وحده، وبالفعل، حتَّى إذا كان موجودًا في العقل وحده، فمن الممكنِ أن نتصوَّر موجودًا مثله له وجودٌ في الواقع أيضًا، وهو بالتالي أعظم منه. وعليه، إذا كان موجودًا في العقل وحده فإنَّ الموجود الذي لا يمكن تصوّر شيء أعظم منه سيكونُ من طبيعةٍ تستلزم أن يكونَ بالإمكان تصورُ شيء أعظم منه في العقل وفي الحقيقة أيضًا»[٣].
ثمَّ استمرَّ في البابِ الثالث بأنه لا يمكن تصوُّر أنَّ الله غير موجود، لأنَّه لا يمكن تصوُّر ما هو أعظمُ من الله، فما لا يمكن تصوّر وجوده فليس هو الله[٤].

---

(١) انظر: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (٩٦ - ٩٨).

(٢) سبق إيرادُ هذه الحجَّة ولكنْ يستحسن إيراده مرّة أخرى في هذا المقام.

(٣) الكلام في الأصل موجود في كتابه: **Prosologian, Chapter two**
وقد تمَّت الاستعانةُ بترجمة كلامه من كتاب: تاريخ الفلسفة (٣/ ٥١ - ٥٢).

(٤) الكتاب موجود بترجمة إنجليزية في:
https://sourcebooks.fordham.edu/basis/anselm-proslogium.asp

وكان الراهبُ جونليون[1] مِن معاصري الأسقف أنسلم، وكان معارضًا للمذهب العقلاني، وبالتالي ردَّ على الحجَّة الوجودية. وقد ألَّف في ذلك كتابًا سمّاه: «للدفاع عن الأحمق» (In behalf of the fool)، لأنَّ الأسقف أنسلم ذكر في بداية مناجاته أنَّ الأحمقَ قال في نفسه إنَّ الله غيرُ موجود، ثمَّ ساق هذه الحجّة غير المقنعة.

وكان أساسُ ردِّ الراهب جونليون على القديس أنسلم أنه لا يفرِّق بين التصوّر الذِّهني والوجود الفعلي. ومِن الأمثلة على ذلك أنَّ اللوحة قد تكون متصوّرة في ذهن الرسَّام قبلَ الرسم، ولكنّها لا توجَد في الواقع قبلَ أن يرسمها. وضرب جونليون مثالًا شهيرًا ينقدُ الحجَّة الوجودية، وهي: تصوُّر جزيرة مفقودة هي أعظمُ وأجمل الجزر. فهذا يمكن تصوُّر وجودُها في الذهن، ولكن لا يستلزم وجودها في الواقع[2].

وردَّ الأسقف أنسلم على هذا الاعتراض بأنَّه رأى أنَّ جونليون لم يفهم حقيقة حجَّته، لأنَّه ذكر في كتابه: بروسولوجيون، أنَّ كلَّ ما سوى الله يمكن تصوّر وجوده وعدم وجوده، ولكنَّ الله لا يمكن تصوُّر عدم وجوده أصلًا[3].

قَبِل بعضُ اللاهوتيين النَّصارى حجَّة أنسلم[4]. ولكن اللاهوتي المشهور توما الأكويني لم يقبلْها، وقدَّم حججَه الخمس المشهورة على وجود الله، وأعرض عن هذه الحجَّة. وذلك لأنَّه رأى أنَّ الإنسان لا يمكنه إدراكُ حقيقة الوجود الإلهي، ولهذا لا يمكن الوصولُ إلى وجودِه بطريقةِ تفكير أنسلم. وحيث إنه لا يعلم أحدٌ عن طبيعة وجودِ الله إلّا اللهُ نفسه، فلا يمكن استخدامُ هذه الحجة إلّا الله وحده. وإعراض

---

(١) جونيلون (Gaunilo): راهب بنيديكتي في الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا. اشتهر بسبب مُعارضته الشديدة للحجة الوجودية على وجود الله. لا تُعرف سنة وفاته، ولكنه في القرن الحادي عشر الميلادي. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Gaunilo

(٢) انظر: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (١٠٨ – ١٠٩).

(٣) انظر: https://plato.stanford.edu/entries/anselm/#ArgPro

(٤) انظر: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (١٠٨).

توما الأكويني عنْ هذه الحجة جعلَ معظمَ اللاهوتيين الكاثوليك يعرضون عنها أيضًا لأنهم اعتمدوا عليه في الاستدلال على وجود الله[1].

ثانيًا: مرحلةُ رينيه ديكارت:

في عصرِ النهضة، سادتْ فلسفةُ الاعتماد على العقل المجّرد مرّة أخرى. وكان رينيه ديكارت مِن أشهر الفلاسفة العقلانيّين. وقد سبق أنَّ ديكارت تبَّنى منهج الشكّ. وكان يقصد بذلك: عدم قبولِ شيء على أنَّه حقيقي ما لم يخضع لامتحان الشكّ، ثمَّ يستطيع بعدَ ذلك الوصولَ إلى شيء يقيني عنْ طريق برهان عقلي. وهذا المبدأ اليقيني هو: «أنا أفكِّر، إذًا أنا موجود». ثمَّ بنى الحجَّة الوجودية على هذا التفكير، وتوصَّل من خلالِها إلى وجودِ الله، ومن ثمَّ وجود العالم. ولهذا اختلفتْ قاعدة انتقال الفكر عند ديكارت عنِ انتقال الفكر عندَ اليونانيين الأقدمين كأرسطو. فقاعدةُ انتقال الفكر عند ديكارت هي: «أنا – الله – العالم»، فاستدلَّ على وجود العالم بوجود الله. وأما الأقدمون فكانوا يستدلُّون على وجود الله بالعالم كالتالي: «أنا – العالم – الله»[2]، وذلك بالحجَّة الغائية وغيرها من الحجج.

وديكارت بنَى الحجَّةَ الوجودية على أنَّ الله هو الذي غرز هذا التفكير في نفس الإنسان؛ فقال: «وليس فكْري هو الذي يحصّل هذا الوجود، ولا هو الذي يفرض سلطانَه على الأشياء، بل على العكس، إنَّ الضرورة التي تقع في الشيء نفسه – أي: ضرورة وجود الله – هي التي تجعلني أنْحو هذا النحوَ من التفكير؛ لأنه ليس في وسعي أن أتصوَّر إلهًا لا وجود له – أي: أن أتصوَّر موجودًا ذا كمال مُطلق بغير كمال مطلق – كما في وسْعي أن أتخيَّل فرسًا ذا جناحين أو غير ذي جناحين... إنّي أتبيّن من وجوه كثيرة أنَّ **هذا المعنى [أي: الإيمان بالله] ليس شيئًا مصطنعًا ولا مخترعًا، ولا معتمدًا على فكْري فحسب، بل إنَّه صورة لطبيعة حقيقية ثابتة**. أوّلًا لأني لا أستطيع أن أتصوَّر غير الله شيئًا يخصُّ الوجود ماهيته على جهةِ الضرورة، ثمَّ لأنه لا يمكنني أن أتصوَّر إلهين أو أكثر على

---

(١) انظر: http: / /www.newadvent.org /summa/1002.htm

(٢) انظر: ديكارت (١١٥).

شاكلته... وأخيرًا لأني أتصوَّر في الله صفات أخرى كثيرة لا أستطيعُ أن أنقص أو أنْ أغيِّر منها شيئًا»[1]. فهنا أبرزُ أنَّ هذا التفكير ناشئ عن الفطرة التي فطرَ اللهُ عليها العباد. ويتبيَّن من ذلك أنَّ الحجّة الوجودية عند ديكارت أقوى منها عندَ القديس أنسلم؛ لأنَّ الحجّة الوجودية عند ديكارت هي في الحقيقة حجَّة الفطرة.

ثالثًا: تصويبات ليبنز:

جاءَ غوتفريد ليبنز بعدَ ديكارت بحوالي قرن، وكتب تعليقًا على كتابه: «المبادئ» (Principles)، واستحسنَ الحجَّة الوجودية، ولكن بشرط أن يصحِّح قليلًا؛ فاستخلص من الحجَّة الوجودية عند أنسلم وديكارت ما يأتي: «الكائن[2] الضروري موجود (وهو كائنٌ ماهيَّته هو الوجود أو كائن موجود بذاته)، كما هو واضحٌ من لفظه. والإله هو هذا الكائن؛ لأنَّه في الحقيقة تعريفٌ للإله، وبالتالي فإن الله موجود»[3].

ثمَّ قال بعدَ ذلك: إنَّ هذه الحجّة «صحيحة إن كانت تتضمَّن أنَّ الكائن الأعظم أو الكائنَ الضروري ممكن، وأنَّه لا يتضمَّن أيَّ تناقض، أو... أنَّ هذه الماهية ممكنةٌ، وبالتالي يكون وجودُه كذلك ممكنًا. ولكنْ مادام أنَّه لا تبرهن لهذه الماهية، فلا يمكن أن يُقال: إنَّ وجودَ الله مُبرهَن بطريقةٍ مثالية في هذه الحجّة»[4].

وذكرَ ليبنز أنَّ هذه الحجَّة لا تكون كاملة إلّا إذا قدَّم دليلًا على إمكانية وجود الإله. وذكرَ أنَّ هذا الدليلَ مطلوب؛ لأنَّه «لا يمكن أن نستنتج من التعريفات إلّا إذا عرفنا أنَّها حقيقية وغيرُ متناقضة. وسببُ ذلك أنَّه يستنج استنتاجات متناقضة من

---

(١) التأملات: (١٩٩ - ٢٠٢).

(٢) كلمة «الكائن» لا يصحُّ إطلاقُها في حقّ الله كاسْمٍ وصفة، ولكنّ الفلاسفة يتجوّزون كثيرًا في الإخبار عن الله تعالى بنحو هذه الألفاظ.

(3) Leibniz: Philosophical Papers and Letters, 2nd ed., ed. and transl. by L. E. Loemker (p. 386)

(٤) المصدر السابق (٣٨٦).

مفاهيمَ متناقضة، وهذا أمرٌ سخيف»[1]. فاحترزَ ليبنز لهذه الحجّة بذكر شرطين، هما: إمكانيةُ وجود الله، وعدمُ تناقض وجوده. وبيَّن أنّه مادام أنَّ وجود الإله ممكن، وأنَّ ذلك غيرُ متناقض؛ فإنه موجودٌ ضرورة.

رابعًا: انتقاداتٌ للحجَّة الوجودية في القرن الثامن عشر:

في القرن الثامن عشر، تلقَّت الحجَّة الوجودية انتقاداتٍ شديدة من قبل الفيلسوفيْن المشهورين: ديفيد هيوم وإيمانويل كانت. وبيانُ ذلك بما يأتي:

انتقادُ ديفيد هيوم:

كان هيوم يتبنَّى المذهبَ التجريبي فرأى أنَّه لا يمكن الاعتمادُ على التفكير القبلي / البدهي (reasoning A priori)، وإنما يعتمدُ على التفكير الخلفي / الاستدلال (A posteriori)، لأنَّه مبنيٌّ على الإدراك الحسي[2]، ويمكن تلخيصُ حجَّته على ذلك كالآتي:

١) الطريقةُ الوحيدة لإثبات شيء بدهي، هو إذا كان مقابله يدلُّ على تناقض.

٢) إذا كان شيء يدلُّ على تناقض فإنه لا يمكن تصوّر وجوده.

٣) ما مِن شيء إلّا ويمكن تصوُّر عدم وجوده.

٤) إذًا، لا يوجد شيء بدهي.

فإذا أمكنَ تصوُّر عدم وجود أيِّ شيء، فإنه غيرُ بدهي، وبالتالي فإنه بحاجة إلى الاستدلال[3].

---

(١) المصدر السابق (٢٩٣).

(٢) انظر: Dialogues concerning natural religion (part 9)

(٣) انظر:
http://www.philosophyofreligion.info/theistic-proofs/the-ontological-argument/st-anselms-ontological-argument/hume-on-a-priori-existential-proofs/

انتقادُ إيمانويل كانت:

هو أشهرُ فيلسوف انتقدَ الحجَّة الوجودية على الإطلاق، وذلك في كتابه: «نقد العقل المجرّد» (Kritik der reinen Vernunft). والغريب أن إيمانويل كانت خصّص نقدَه لديكارت، وتجاهلَ نقدِ القديس أنسلم[1]، ولكنّه ركّز نقده على قضية عدم التلازم بين التصوُّر الذهني والوجود الخارجي. وهذا النقدُ صحيح، ويصدُق على أنسلم، ولكنّه لا يلزم ديكارت - كما سبق بيانُه عند الحديث عن حجَّة الفطرة - لأنَّه لا يبني حجّته على التصوُّر الذهني المجرّد، وإنَّما بناها على أنَّ هذا التفكير مغروزٌ في الإنسان، وأنه لا بدَّ أن يكونَ الله هو الذي غرزه فيه.

«ولا بدَّ من التأكيد ابتداءً أنَّ هذا الدليل الذي قال به أنسلم ليس هو نفسَ الدليل الوجودي الذي استدلَّ به ديكارت على وجود الله تعالى؛ لأن ديكارت يصرّح أنَّه لم يستدلّ بالكمالِ المطلق لله من حيث هوَ قضية استدلالية، وإنما هو من حيث هوَ حقيقة فطرية لا يمكنُ إنكارها، فما قاله ديكارت حقٌّ يجب التسليم به، بخلاف ما ادَّعاه أنسلم في هذا الاستدلال فإنَّه مجرَّد مُصادرة لا دليلَ عليها، والذين نقدوا الدليل الوجودي عند ديكارت[2] لم يتبيَّنوا هذا الفرق الأساسي بين الدليلين، مع أن استدلالَ ديكارت مبنيٌّ على أساسٍ ضروري، بينما استدلال أنسلم مبنيٌّ على مصادرة»[3].

ومعَ أنَّ انتقادَ إيمانويل كانت لديكارت كان خاطئًا، فإنَّ كتابه: نقد العقل المجرّد أثّر كثيرًا في الفلسفة الغربية[4]، وبالتالي أثَّر في عدم قبول الحجّة الوجودية فترة من الزمن.

---

(١) انظر: http: / /www.scandalon.co.uk /philosophy /ontological_kant.htm

(٢) مثل: إيمانويل كانت.

(٣) المعرفة في الإسلام (٥١٨).

(٤) انظر: The Oxford Companion to Philosophy (470), (Oxford University press, second edition)

المرحلةُ المعاصرة:

أعادَ بعضُ الفلاسفة الغربيّين الحجَّة الوجودية إلى ساحة الفلسفة اللاهوتية في الستّينيات من القرن العشرين. وعلى رأس هؤلاء: نورمان مالكوم[1]، وتشارلز هارتشورن[2]. فقد كتبَ كلٌّ من مالكوم وهارتشورن[3] صياغة منطقية للحجّة الوجودية مبنيَّة على مقدِّمات ونتيجة، بينما صاغَ أنسلم وديكارت قبلهما هذه الحجّة عن طريق تأمُّلات. ومِن أكبر الأعلامِ المعاصرين المنتصرين لهذه الحجَّة هو البروفسور ألفن بلانتنغا، حيث ألَّف كتابه: «الحجَّة الوجودية: من القديس أنسلم إلى فلاسفة معاصرين» (The Ontological Argument: From St. Anselm to Contemporary Philosophers)، وجمع الرسائل الفلسفيَّة المؤيّدة وناقدة للحجَّة الوجودية. وانتقدَ الصياغة المنطقية للحجّة عند مالكوم وهارتشورن، وقدَّم صيغة معدّلة لها[4].

ثمَّ من أواخر مَن جاء وعدَّل صياغة الحجَّة هو البروفسور وليام لاين كرايغ. ولكوْنه مِن أواخر مَن عدَّل صياغةَ هذه الحجّة، وأنه أشهرُ فيلسوف لاهوتي يستخدمها في نقد الإلحاد، يناسبُ إيراد صياغته فقط لكيْلا تختلط الصيغ بعضها ببعض.

وقد صاغَ البروفسور كرايغ هذه الحجَّة بالطريقة الآتية:

المقدِّمة الأولى: هناك إمكانيةُ أنْ يوجد كائن في غاية العظمة.

المقدِّمة الثانية: كائنٌ في غاية العظمة يوجَد في بعض العوالم الممكنة.

---

(١) نورمان مالكوم (Norman Malcolm) فيلسوف أمريكي حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد في الفلسف. توفي عام ١٩٩٠م. انظر: https: / /www.iep.utm.edu /malcolm/

(٢) تشارلز هارتشورن (Charles Hartshorne): فيلسوف أمريكي حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد في الفلسفة، وأحدُ أهمِّ فلاسفة الدين في القرن العشرين. توفي عام ٢٠٠٠م. انظر: / https: / /plato.stanford.edu /entries /hartshorne

(٣) انظر: (95) Till den kristna trons försvar

(٤) انظر: / https: / /plato.stanford.edu /entries /ontological – arguments

المقدِّمة الثالثة: إن كان كائنٌ في غاية العظمة يوجَد في بعض العوالم الممكنة فإنَّه يوجد في جميع العوالم الممكنة.

المقدِّمة الرابعة: إنْ كان كائنٌ في غاية العظمة يوجَد في جميع العوالم الممكنة فإنَّه يوجد في العالم الحقيقي.

المقدِّمة الخامسة: كائنٌ في غاية العظمة يوجد في العالم الحقيقي.

النَّتيجة: بالتالي، فإنَّ الكائنَ الذي هو في غاية العظمة موجود[1].

وقد فسَّر هذه الحجَّةَ في مقطع موشن غرافيك بالطريقة الآتية:

الإلهُ يُعرَّف بأنه كائنٌ في غاية العظمة، بمعنى أنه عليم بكلِّ شيء، قادرٌ على كلِّ شيء، ومثالي في الطيب.

والمرادُ بالعوالم الممكنة: الطريقةُ التي يمكن أن يكون عليها العالم، وإذا كان العالم بهذه الطريقة فإنَّ هذا الشيء سيوجَد بهذه الطريقة. وحتى وإن لم يوجدِ الحيوان أحادي القرْن في العالم الحقيقي، فإنَّه غيرُ مُستبعد أنْ يوجد في عالم ممكن. ولكنَّ الأعزبَ المتزوِّج غيرُ موجود في أيِّ عالم ممكن؛ لأنه متناقض منطقيًّا، فلا يمكن وجوده.

وإذا أمكنَ أن يوجَد كائنٌ في غاية العظمة في بعض العوالم الممكنة، فإنه موجود في بعضِ العوالم الممكنة. ولكنَّ الكائن في غاية العظمة لا يكون عظيمًا للغاية إذا كان موجودًا في بعض العوالم الممْكنة، فلا بدَّ أن يكون كذلك في جميع العوالم الممكنة.

فإذا وُجِد في بعض العوالم الممكنة، فلا بدَّ أن يوجد في جميع العوالم الممكنة، وإذا وُجِد في جميع العوالم الممكنة فإنه يوجَد في العالم الحقيقي.

والنتيجة: أنَّ الكائن في غاية العظمة يوجد في الحقيقة.

وذكرَ أنَّ المقدِّمة الثانية إلى السادسة غيرُ مثيرة للانتقاد، بخلاف المقدِّمة الأولى. فإذا أمكنَ الملحد أنْ يبرهن على أنَّ وجود الإله مستحيل منطقيًّا؛ فإنَّ الحجّة تسقط.

---

(1) Richard Dawkins and the Arguments for God (29)

وأما إذا سلَّم بالمقدِّمة الأولى، فإنَّه يجب التسليمُ ببقية المقدِّمات تبعًا. ولكن، هل فكرة وجودِ الإله مستحيلةٌ عقلًا مثل: الأعزب المتزوج أو الدائرة الرباعية؟ الجواب: لا، بل فكرةُ وجوده مسلَّم بها منطقيًّا، وبالتالي، فلا بدَّ أن يوجد في الحقيقة(١).

هذه خلاصةُ شرح البروفسور كرايغ لهذه الحجَّة، ومن الواضح أنّه استفادَ في حجّته مِن الفلاسفة السابقين، ولا سيَّما من تصويبات الفيلسوف ليبنز عندما أضاف شرطيْن للحجَّة، وهمَا: إمكانية وجود الإله وعدم تناقض وجوده.

تقييمُ الحجّة الوجودية:

الحجَّة الوجودية التي قدَّمها ديكارت فيها نوعٌ من القوّة حيث إنها تعتمد على فطرة الإنسان، وأنَّ الله هو الذي غرز العلمَ به في نفس الإنسان - كما سبق بيانُه عند الكلام عن حجَّة الفطرة -. ولكنَّ الحجَّة الوجودية المعتمدة على التفكير المجرّد كما قدّمها القديسُ أنسلم والفلاسفةُ المعاصرون: حجَّة ضعيفة، ويترجَّح لدى الباحث أنه لا يجوز استخدامُها. وذلك لثلاثة أسباب:

السببُ الأوّل: أنَّ هذه الحجَّة ليست واضحةً وقطعية، ولهذا يصعب فهمها. فهذه الحجَّة - في صياغة البروفسور كرايغ - مبنيَّة على خمس مقدّمات ونتيجة، وكلّ مقدّمة بحاجةٍ إلى شرح. وهذا بخلافِ الحجَّة الكونية، والحجَّة الغائية، والحجَّة الأخلاقية؛ فإنّها مبنيَّةٌ على مقدِّمتين واضحتيْن، ثمَّ نتيجة يجب التسليمُ بها عند قبول المقدّمتين. ولا بدَّ أنْ يكون الذي يردُّ على الملاحدة صاحبَ إقناع قوي، وإلّا ما أعطى الموضوع حقّه. وقدْ ذكر شيخ الإسلام هذه النقطة إذ قال: «وكلُّ مَن لم يناظر أهلَ الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرَهم لم يكنْ أعطى الإسلام حقَّه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصلَ بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفادَ كلامه العلم واليقين»(٢).

السببُ الثّاني: أصبحتْ هذه الحجَّة مجالَ ضحكٍ ومزاح لدى الملاحدة لعدم وضوحِها. ومِن الأمثلة على ما قاله الملاحدة:

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=xBmAKCvWl74

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠ / ١٦٤ - ١٦٥).

المثالُ الأوَّل: أرثر شوبينهاور: ذكرَ الفيلسوف الملحد شوبينهاور أنَّ هذه الحجَّة إنَّما هي: «مزحة لطيفة»[1].

المثالُ الثاني: ريتشارد دوكينز: خصَّص دوكينز سبعَ صفحات من كتابه: «وهم الإله» للسُّخرية من هذه الحجّة[2].

المثالُ الثّالث: وكتور ستينجر[3]: قامَ بعضُ الملاحدة بإعداد حجج وجودية ساخرة، منهم الملحدُ وكتور ستينجر الذي قال في مناظرته للبروفسور كرايغ إنَّه يستطيع بهذه الحجَّة أنْ يثبت أنه توجَد بيزا في غايةِ العظمة التي يمكن تصوُّرها في عالم ممكن[4].

السببُ الثّالث: أنَّ هذه الحجَّة تتضمَّن مغالطة المصادرة على المطلوب؛ قال الشيخ مصطفى صبري (رحمه الله): «إنَّ استخراج البرهان على وجود الله من تصوّر القائلين به على أنه جامعٌ لكلِّ كمال - ومنه الوجود طبعًا - توهُّم محض، من نوع المصادرة على المطلوب؛ لأنَّ إثباتَ وجود الله يتوقَّف على كونه جامعًا لكلّ كمال، في حين أنَّ الحكمَ بكوْنه جامعًا كلِّ كمال يتوقَّف على كونه موجودًا، بناء على القاعدة المنطقيَّة بأنَّ صدقَ القضية الموجبة مشروطٌ بوجود موضوعها، فيتوقَّف إثباتُ وجود الله على كوْنه موجودًا، وهو الدورُ والمصادرة على المطلوب»[5]. ولهذا كانت الحجّةُ الوجودية من الحجج الضعيفة التي لا يجوز استخدامُها في مناظرة الملاحدة.

---

(1) The Fourfold Root of the Principle of Sufficient Reason (66)

(٢) انظر: The God Delusion (103 - 109)

(٣) ويكتور ستينغر (Victor Stenger): بروفسور الفلسفة الأمريكي وحامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة. وهو ملحد يدعو إلى الإلحاد، وصنّف في ذلك بعض الكتب. انظر: https: / / www.closertotruth.com /contributor /victor – stenger /profile

(٤) انظر: https://www.reasonablefaith.org/media/reasonable-faith-podcast/the-death-of-victor-stenger/#_ftn1

(٥) موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين وعباده المرسلين (٢ / ٢٢٦)، لمصطفى صبري، (دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ).

المبحثُ السّابع
الحجَّةُ الأخلاقية

الحجَّةُ الأخلاقية من الحجج المشهورة على وجودِ الله تبارك وتعالى. وهي تختلف نوعًا ما عن الحججِ التي سبق ذكرُها، حيث إنّها لا تستندُ إلى دلالة المخلوقات على الخالق، وإنما تستندُ إلى أنَّ الله هو المصدرُ للقيم والأخلاق الموضوعية، وأنه يستحيلُ للملاحدة أنْ يبنوا أساسًا سليمًا لهذه الأخلاق.

وهذه الحجَّة أصبحت محلَّ جدلٍ واسع بين الملاحدة والمتديّنين في الغرب، فألّف كلا الفريقين كتبًا عنها[١]، كما أنّه أقيمت مناظرات بينهم بسببها[٢].

ومعَ ذلك فإنَّ هذا «الدليل معَ صحَّته وأهميته البالغة إلّا أنه يكادُ لا يوجد له ذكر في كلامِ علماء الإسلام، وإن كانت كثيرٌ من تقريراتهم تدلُّ على مقدِّماته»[٣]. ومع ذلك فقدِ اهتمَّ بعضُ الباحثين المسلمين المهتمِّين بقضايا الإلحاد بهذه الحجّة في كتبهم التي صدرت مؤخّرًا[٤].

وقبلَ الخوض في صياغةِ هذه الحجّة ينبغي الوقوفُ على شيء من تاريخها؛ وبيانُ ذلك كما يلي:

---

(١) ومن هذه الكتب: The Science of Good and Evil, Why is Good Good? Can we be good without God, Moral Minds.

(٢) مثل مناظرة البروفسور وليام لاين كرايغ مع الملحد سام هاريس، وقد ترجم مركز دلائل هذه المناظرة، وطبعها ككتابٍ بعنوان: الإلحاد بين قصورين.

(٣) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢/ ٢٢٠).

(٤) انظر على سبيل المثال: شموع النهار (٥٧ - ٧٢)، والحقيقة الإلهية (٢٤٥ - ٢٦٠)، وظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢/ ٢١٩ - ٢٤٨).

تاريخ الحجّة الأخلاقية:

لم يذكرِ الفلاسفة اليونانيون - مثل: أرسطو وأفلاطون - الحجّةَ الأخلاقية ضمن حجَجِهم العقلية على وجودِ الله، كما أنَّ اللاهوتيين النصارى في العصور الوسطى لم يذكروها في كتبهم. ولكنْ رأى بعض المتخصِّصين[1] في الفلسفة أن توما الأكويني قد أشارَ إلى هذا الدليل ضمنًا في الدليل الرابع - وهو دليلُ التفاضل الذي سبقت الإشارةُ إليه - مِن أدلّته الخمسة على وجود الله.

وإنَّما ظهر كلامٌ يشبه هذه الحجَّة في عصر النهضة على يد الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت. وقد تقدَّم أنَّ إيمانويل كانت كان ينتقد الحجج العقلية المشهورة على وجودِ الله، مثل: الحجة الكونية والحجّة الغائية في كتابه: «نقد العقل المجرّد» (Critique of Pure Reason). ولكنه ذهب في كتابه: «نقد العقل العملي» (Critique of Practical Reason) إلى أنَّ الأخلاق تفترض وجود الله من الناحية العملية. وذلك أنه يجبُ على الإنسان تحقيقُ السَّعادة والفضيلة الكاملتين، وهذا لا يمكن إلّا بالإيمان بالله والآخرة، فيجبُ على الإنسان أن يفترض وجودَ الله[2].

فلا يمكن أن يُقال: إنَّ إيمانويل كانت قدَّم الأخلاقَ كحجَّة عقلية على وجود الخالق، وإن نُسبَ إليه ذلك، ولكنَّه رأى أنَّ الأخلاق تفترض وجوده من الناحية العملية[3].

وأوَّل مَن قدَّم الحجَّة الأخلاقية كحجّةٍ عقلية على وجودِ الله هو البروفسور وليام ريتشي سورلي[4]. وقد صاغَها بالصياغة الآتية:

---

(١) انظر:
Stanford Encyclopedia of Philosophy, Moral Arguments for the Existence of God
https://plato.stanford.edu/entries/moral-arguments-god/

(٢) انظر: Critique of Practical Reason (Book ٢, Chap ٢, Sect ٥)

(٣) انظر: The Existence of God (٢١٢)

(٤) وليام ريتشي سورلي (William Ritchie Sorley): فيلسوف إسكتلندي، وعمل كبروفسور الفلسفة الأخلاقية في جامعة كامبردج، وألّف عددًا من الكتب في فلسفة الأخلاق. توفي عام: ١٩٣٥م. انظر:
https: / /www.giffordlectures.org /lecturers /william - ritchie - sorley

المقدِّمة الأولى: إذا كانتِ الأخلاقُ موضوعيَّةً ومُطلقةً فإنَّ الله يجبُ أن يكون موجودًا.

المقدِّمة الثّانية: الأخلاقُ موضوعية ومطلقة.

النتيجة: إذًا، يجب أن يكون اللهُ موجودًا[١].

وقد استحسنَ كثيرٌ من المفكِّرين الغربيين هذه الحجَّة في القرنين التاسع عشر والعشرين، حين ظنُّوا أنَّ الحجّج المبنية على التصميم لم تعدْ قوية بسبب تقدّم العلم التجريبي[٢].

وفي هذا القرن، اهتمَّ بعضُ علماء الغرب[٣] بهذه الحجَّة غاية الاهتمام. وكان البروفسور وليام لاين كرايغ من أكثر مَن أبرزها. وقد أعادَ صياغتها بطريقة مختلفة، وجادلَ في إثبات مقدِّماته وردَّ على شبهات الملاحدة عن هذه الحجّة في مقالات ومناظرات. وصياغةُ البروفسور كرايغ كما يلي:

الصِّياغةُ الجديدة للحجَّة الأخلاقية:

بينما صاغَ البروفسور وليام ريتشي سورلي المقدِّمة الأولى للحجَّة الأخلاقية بطريقة الإثبات: «إذا كانتِ الأخلاقُ موضوعيّةً ومُطلقةً فيجبُ أن يكون اللهُ موجودًا»، فإنَّ البروفسور كرايغ صاغَ هذه المقدِّمة بطريقة النَّفي، فأصبحت صياغته كالتالي:

المقدِّمة الأولى: إذا لم يكنِ اللهُ موجودًا فإنَّ الواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية لن تكون موجودة.

المقدِّمة الثّانية: إنَّ الواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية موجودة بالفعل.

النَّتيجة: إذًا، فاللهُ موجود[٤].

---

(١) انظر: Atheism: A Philosophical Justification (213 - 214)

(٢) انظر: The Existence of God (212)

(٣) منهم: روبيرت آدمس - بروفسور الفلسفة الأمريكي -، وجون هار - بروفسور اللاهوت الفلسفي البريطاني -، وسي ستيفن إيافانز - بروفسور الفلسفة الأمريكي -.

(٤) انظر:
"Richard Dawkins on Arguments for God", in: "God is Great, God is Good" (18)

وهذه الصياغة أدقُّ من الصياغة الأولى؛ لأنَّ أغلب الناس يسلّمون بالمقدّمتين؛ قال البروفسور كرايغ: «ما يجعل هذه الحجَّة الصغيرة فعّالة جدًّا: ليس فقط أنها مسلحة بالمنطق، لكنْ لأنَّ الناس عمومًا يؤمنون بهاتين المقدمتين. ويبدو في الحقيقة أنَّ دوكينز نفسَه ملتزمٌ بكلتا المقدمتين»[1]. فإذا كان الملحد منصفًا بعد تسليمه بالمقدّمتين فإنّه يسلِّم للنتيجة أيضًا، ويعترف بأنَّ الله موجود. وأمَّا في الصياغة الأولى، فإنَّ المقدّمة الأولى تكون محلَّ نزاعٍ مباشرة مع الملحد، وقد لا يواصل قراءةَ بقيّة الحجة.

حقيقةُ هذه الحجَّة:

لكي نفهمَ هذه الحجَّة على حقيقتها ينبغي الوقوف على ثلاث نقاط:

النُّقطةُ الأولى: هذه الحجَّة تتعلّق بعلمِ وجود الأخلاق (Moral Ontology)، وليستْ علم معرفة الأخلاق (Moral Epistemology). العلم الأوّل يتحدّث عن كون الأخلاقِ الموضوعية موجودةً أو غير موجودة، وأمّا العلم الثاني فيتحدَّث عن كيفية معرفة الأخلاق الطيبة والسيِّئة. والملاحدةُ يخلطون بينهما[2]. فثمَّة مستويان في هذه القضية:

«**المستوى الأوَّل**: هل للقيم الأخلاقية المطلقة وجود، أم لا؟

المستوى الثّاني: كيف نتعرَّف على تلك القيم الأخلاقية، إن كان لها وجود؟

وبسببِ شعور الملاحدة الجدد بمأزقِ السؤال الأوَّل في ظلِّ تصوّرهم الإلحادي، تراهم يعمدونَ إلى تجاوزه والقفزِ عليه؛ ليصرفوا الموضوعَ إلى السؤال الثاني: كيف يمكن أنْ نتعرَّف على حَسَن الأخلاق من قبيحِها؟ وهل ثمّة سبيلٌ للتعرُّف عليها خارج عن إطار الدين أم لا؟ وهل بإمكانِ العلوم الطبيعية مساعدتنا في حلِّ هذا الإشكال؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: الحقيقة الإلهية (٢٥٦ – ٢٥٧).

ويظلُّ السؤالُ الأوّل كما هو معلّقًا ينتظر الجواب، ولا جواب. وهو ما يمثِّل مأزقًا حقيقيًّا ضخمًا للفلسفة الإلحادية»[1].

النُّقطةُ الثّانية: هذه الحجَّة تتعلّق بالأخلاق الموضوعية، وليست بجميع أنواع الأخلاق. والأخلاقُ الموضوعية «ليست مُعتمدة أو مبنيَّة على عقل شخص ما أو مشاعر شخصية. وبهذا المعنى فهو خارجُ قدرات الشخص المحدودة. الحقائق الرياضية (مثل: ١+١=٢)... هي حقيقةٌ بغضِّ النظر عن طبيعة شعورك حولها. وهكذا، فإذا كانتْ هذه الأخلاقيات خارجَ أنفسنا، فإنه يجبُ أن يكون لها تأسيس، أو بعبارة أخرى تحتاج أساسًا. إذا كانتِ الأخلاق الموضوعية لا تعتمدُ على قدراتنا المحدودة، فنحتاج الإجابة عن الأسئلة التالية: «مِن أين أتتْ هذه الأخلاق الموضوعية؟» و«ما طبيعتها؟» حتَّى نجيبَ على هذه الأسئلة، نحتاج أساسًا منطقيًّا، وهذا سيفسِّر طبيعتها الموضوعية، ويقدِّم تعليلًا منطقيًا يوضِّح من أين أتت...

وطريقةٌ أخرى لوصف الحقائق الأخلاقية الموضوعية هو كوْنها تتجاوز الذاتية الإنسانية. فعلى سبيل المثال، حقيقة أنَّ قتلَ طفلٍ عمره خمس سنوات أمر خاطئ أخلاقيًّا سيصحُّ في كلِّ الأحوال لو اتَّفق العالم كلُّه على أنَّ قتلَ طفل عمره خمس سنوات صحيح أخلاقيًّا»[2].

النُّقطةُ الثّالثة: هذه القيمُ الأخلاقية الموضوعية يتَّفق عليها العقلاءُ، ويقرُّون بها إقرارًا ضروريًّا؛ لأنَّها مغروسة فيهم. «ولا يمكنُ لتلك القيم أن تكون غيرَ متَّصفة بالضرورة والإطلاق؛ لأنَّه حينئذ ستتغيَّر حياةُ الإنسان وتنقلبُ رأسًا على عقب، فكلُّ تصرُّفات الإنسان التي جعلتْ منه كائنًا متفرِّدًا في بناء حياته، ومتميِّزًا في تأسيس حضارتِه؛ قائمةٌ على تلك القيم، فبيعُ الناس وشراؤهم، وتعليمهم وعلاقاتُهم مع جيرانهم وأصدقائهم وآبائهم وأبنائهم؛ قائمةٌ على تلك القيم، فلا تكاد تجد شعبًا من

---

(١) شموع النهار (٦٢).

(٢) الحقيقة الإلهية (٢٤٦ - ٢٤٧).

الشعوب الإنسانية ينازع في كوْن العدل والصدق والأمانة معانٍ محمودةً، ولا بدّ من الأخذ بها، وأنَّ الظلم والكذب والخيانة معانٍ مذمومة لا بدَّ من الابتعاد عنها»[١].

وبفهْمِ هذه النقاط الثلاث تتبيَّن حقيقةُ هذه الحجّة. والآن، يستحسن الرجوعُ إلى المقدِّمتين والنتيجة:

المقدِّمة الأولى:

المقدِّمة الأولى تنصُّ على أنه: «إذا لم يكنِ الله موجودًا فإنَّ الواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية لن تكونَ موجودة». وهذه النقطةُ واضحة؛ لأنَّ الإلحاد لا يقدِّم أساسًا متينًا للأخلاقِ الموضوعية. وقد لخَّص البروفسور كرايغ حقيقة الرؤية الإلحادية للأخلاق الموضوعية بقوله: «لو لم يكنِ الإله موجودًا فما الأساسُ الذي يبقى لدينا لتفسيرِ وجود القيم الأخلاقية الموضوعية؟ وبالتحديد، لماذا نعتقد أنَّ الكائنات البشرية ستمتلكُ قيمةَ أخلاقية موضوعية؟ فالإنسانُ من وجهة النظر الإلحادية ليس إلّا منتجًا ثانويًّا للمصادفة في الطبيعة، وقد تطوَّر في وقتٍ متأخّر نسبيًّا فوق ذرّة غبار كوني مُتناهية في الصِّغر تدعى الأرض، وقدَّر عليه الفناء الفردي والجماعي في زمن قصير نسبيًّا»[٢].

وهذا ما ذكرَه البروفسور كرايغ عنِ الملاحدة ليس مأخوذًا من الهواء، بل يدلُّ عليه كثيرٌ من تصريحاتهم؛ أكتفي بذكر ثلاثة منها:

التَّصريحُ الأوَّل: وقد صرَّح زعيمُ الإلحاد ريتشارد دوكينز أنه لا يوجد خيرٌ ولا شرٌّ في هذا الكون: «الكونُ الذي نشاهده توجَد فيه الخصائص التي نتوقّعها. هو في الحقيقة بلا تصميم، ولا هدف، **ولا شرٌّ ولا خير**، ولا شيء سوى اللامبالاة القاسية»[٣]. واعترف بصعوبة بناءِ منظومة أخلاقية على أساسٍ غير ديني، إذْ قال:

---

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢/ ٢٢١ - ٢٢٢).

(٢) الإلحاد بين قصورين (٢٢)، (مركز دلائل، الطبعة الثانية، ١٤٣٧ هـ، ترجمة وتعليق: د. مؤمن حسن، ود. عبد الله الشهري).

(3) River out of Eden (133)

«من الصعوبة بمكانٍ الدفاعُ عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين»[١].

التَّصريحُ الثّاني: قد ذهبَ الملحدان البروفسور مايكل روس والبروفسور إدوارد ويلسون[٢] في مقالٍ لهما إلى أنَّ الأخلاق مجرَّد وهْم، وليس بحقيقة، إذْ قالا: «الأخلاق - أو بدقَّة أكبر إيمانُنا بالأخلاق - مجرَّد تكيُّف أخذَ مكانه لتعزيز تكاثرنا في النهاية. وبالتالي فإنَّ الأساس الأخلاقي لا يكمن في مشيئة الإله، ولا في الجذور المجازية للتطوُّر، أو أيِّ جزء آخر من إطارِ عمل الكون. وبالمعنى المهمِّ فإنَّ الأخلاق - كما نفهمُها نحن - وهمٌ خدعتنا به جيناتُنا لإجبارنا على التعاون فيما بيننا. ليس لها أرضية خارجية تستندُ عليها. الأخلاقُ هي نتاج التطوُّر، لكن لا يمكن للتطوّر أن يبررها لأنها مثل خنجر ماكبث[٣]، فهو يخدم هدفًا مهمًّا دونَ وجوده حقًّا... ولكن على خلاف خنجر ماكبث فإنَّ الأخلاق وهمٌ مشترك عند جميع البشر»[٤].

التَّصريحُ الثّالث: تحرَّج الفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر من اختفاء الأخلاقِ الموضوعية بسبب إلحادِه، إذْ قال: «وبالعكس، فإنَّ الوجودي يعتقد أنه محرج نوعًا ما أنَّ الإله غيرُ موجود؛ لأنَّ كلَّ احتمال للعثور على قيم في سماء من الأفكار يختفي باختفاءِ الله. كتبَ دوستويفكسي: «إذا كان اللهُ غير موجود فإنَّ كلَّ شيء سيكون مباحًا»، وهذه نقطةُ انطلاق الوجودي»[٥].

---

(1) The God Delusion (232)

(٢) إدوارد ويلسون (Edward Wilson): بروفسور علم الأحياء في جامعة هارفارد بالولايات المتَّحدة.
انظر: https: / /environment.harvard.edu /about /faculty /edward - o - wilson

(٣) في القصة المأساوية لشكسبير عندما أوشك ماكبث على قتل الملك دنكان، أصيب بهلوسة هيَّأت له وجودَ خنجر يعوم في الهواء.

(4) Michael Ruse and Edward O. Wilson, "The Evolution of Ethics," in Philosophy of Biology, p. 316.

(٥) مقال: Existentialism is a Humanism
https://genius.com/Jean-paul-sartre-existentialism-is-a-humanism-annotated

ففي الرؤيةِ الإلحادية يكون الإنسانُ كما عبَّر عنه الملحد المشهور ستيفن هوكينغ بقوله: «مجرَّد وسخٍ كيميائي، موجود على كوكب متوسِّط الحجم»[1]. وتكون النتيجة كما قال البروفسور كرايغ: «لو لم يكنْ هناك إلهٌ فسيزول أيُّ سببٍ لادِّعاء الصحة الموضوعية لأخلاقيَّة القطيع التي تطوّرت عندَ الإنسان العاقل على هذا الكوكب؛ أخرج الإله من المشهد، ولنْ يبقى سوى كائناتٍ تشبه القرودَ، تعيش على ذرَّة من الغبار الكوني تشغلها أوهام سموّ الأخلاق»[2].

المقدِّمة الثانية:

هذه المقدِّمة تقول: «إنَّ الواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية موجودة بالفعل». وقد سبقَ أنَّ هذه الأخلاق الموضوعية يتَّفق عليها العقلاء، فهي من المعاني الفطرية التي يجدُها الإنسان في نفسه[3]. ومِن هنا، يقع الملاحدةُ في مشكلة كبيرة، حيث إنهم يقدِّمون أنفسَهم بأنهم إنسانيون، ومِن أكثر ما يركّزون عليه في خطابِهم النقدي للدين هو أنَّ بعضَ التعليمات الدينية تتنافى معَ الأخلاق والقيم الإنسانية. فيلزم علماء الغرب الملاحدة في هذه المقدِّمة بإلزاماتٍ قويَّة، ويبيّنون تناقضهم في هذا الباب. ومن ذلك ما قالَه البروفسور وليام لاين كرايغ في معرض ردِّه على ريتشارد دوكينز: «على الرغم من قولِه بعدم وجود شرٍّ أو خير أو أيِّ شيء إلّا لامبالاة عديمة الجدوى فإنَّ دوكينز في الحقيقة شخصٌ أخلاقي متعنِّت. ويعلنُ دوكينز نفسه «مهانًا» لأنَّ جيف سكيلينغ المدير التنفيذي لـ إنرون يعتبر كتابَ دوكينز «الجين الأناني» كتابَه المفضَّل بسبب ما فيه من داروينيَّة اجتماعية ظاهرة[4]. يدْعو دوكينز الحنوَّ والكرم «عواطف نبيلة»[5]. هو يُعلن أن الخطيئةَ الموروثة قبيحةٌ من الناحية

---

(1) (1995) From the TV show Reality on the Rocks: Beyond Our Ken

(٢) الإلحاد بين قصورين (٢٤).

(٣) انظر: شموع النهار (٥٧).

(٤) انظر: The God Delusion (215)

(٥) انظر: المصدر السابق (٢٢١).

الأخلاقية[1]. ويدينُ بشدَّة بعضَ الأفعال مثل سوء معاملةِ المثليّين ومضايقتِهم، والتَّلقين الديني للأطفال، وممارسة شعب الإنكا لتقديم القرابين البَشرية، وتبجيل الناس للتنوُّع الثقافي على حسابِ اهتمامات أطفال أميش. حتَّى أنَّه علاوة على ذلك عرضَ وصاياه العشْر المعدَّلة لإرشاد السلوك الأخلاقي. لقد كان طوالَ الوقت شديدَ التغافل عنِ التناقض مع ذاتيته الوهمية[2].

أثناءَ إلقاء دوكينز نظرةً عامَّة عن حجج وجود الله، استعرض نوعًا من الحجج الأخلاقية سمَّاها «الحجَّة من درجة الكمال»[3]، لكنها تحمل قليلاً من الشبه بالحجة المقدَّمة أعلاه. نحنُ لا نجادل في درجاتِ الخير وصولًا إلى الخير الأعظم، إنما نجادل انطلاقًا من الحقيقةِ الموضوعية للقيم والواجبات الأخلاقية وصولًا إلى أساساتها في الواقع. من الصَّعب التصديقُ بأنَّ جميعَ الإثباتات والاستنكارات الأخلاقية الساخنة لدوكينز ليست معدَّة فعلًا لأنْ تكون أكثرَ من رأيه الشخصي، فهو كمَن يهمس جانبًا: «لا أظنُّ بأنَّ سوء معاملة الأطفال والرهاب من المثلية والتعصب الديني خاطئ حقًّا! افعلْ ما تريد، ليس هنالك تغايرٌ أخلاقي!» فالتأكيدُ على الواجبات والقيم الموضوعية لا يتوافقُ مع إلحاده، وحسبَ المذهب الطبيعي فنحن مجرّد حيوانات، قرود متقدمة نسبيًّا، والحيوانات ليست مسئولة أخلاقيًّا. وبإثباتِ كلا الافتراضين للحجة الأخلاقية يكون دوكينز بذلك قد علق ضمنَ اللامنطقية ملتزمًا بخلاصة الحجة؛ أي أنَّ الله موجود[4]».

الردُّ على محاولةِ الملاحدة لإيجاد أساس للقيم والأخلاق الموضوعية:

حيث إنَّ الملاحدة الجدد لا يكتفونَ بالكفر والإلحاد لأنفسهم، بل يسعون جاهدينَ إلى دعوة غيرهم إلى هذا الضَّلال والانحراف، وهُم يعرفون أنَّ هذه النقطة من نقاطِ الضعف في خطابهم، ولذلك فإنَّهم يحاولون تأسيسَ أسس للأخلاق

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢٥١).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢٣، ٢٦٤، ٣١٣ - ٣١٧، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (٧٨ - ٧٩).

(4) Richard Dawkins on Arguments for God, in: God is Great, God is Good (18-19)

الموضوعية لكيْلا يتحرجوا أمامَ أتباعهم بهذه النقطة. وكان سام هاريس هو مَن تولّى كبرَ هذا الأمر مِن الملاحدة. فقد أَلَّف كتابه: «المشهد الأخلاقي: كيف يحدّد العلمُ القيم الأخلاقية» (The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values)، وردَّ في هذا الكتاب على الملاحدة القائلين بالنسبية الأخلاقية، ودعا إلى إيجاد أخلاق وقيم موضوعيةٍ محدَّدة غيرِ خاضعة لآراء الناس. وذلك أنَّ الخير هو ما يؤدّي إلى رخاء الكائنات الواعية، ويمكنُ للعلم التجريبي تحديدُ ما يؤدِّي إلى هذا الرخاء[1].

وقد وقعتْ مناظرة مهمَّة بين سام هاريس والبروفسور وليام لاين كرياغ عن هذا الموضوع بعنوان: «هل أساسُ القيم طبيعي أو فوق الطبيعة؟» (Is Foundations for Moral Natural or Supernatural). وقد ردَّ البروفسور كرايغ على سام هاريس بردود قويّة أنه لا يمكنُ بتاتًا للإلحاد أن يوفِّر أساسًا متينًا للأخلاق والقيم الموضوعية. ويمكن تلخيصُ ردودِه في وجهين:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ سام هاريس لم يستطع خلال كتابه: المشهد الأخلاقي أن يضعَ تعريفًا صحيحًا للخير والشرِّ بناءً على الرؤية الإلحادية، وإنما أتى بمصطلحات خارجة عنْ علم الأخلاق؛ قال البروفسور كرايغ: «كيف يطرح سام هاري حلًّا لمشكلة القيم؟ لقد طرحَ ببساطة حيلةً أعاد بها تعريفَ ما يقصده من كلمة «الخير» و«الشرّ» وذلك بمصطلحاتٍ ليست هي مِن مصطلحات علم الأخلاق في شيء، فقال: «علينا أن نعرِّف الخيرَ بما يؤدِّي إلى رخاء الكائنات الواعية»، ويتابع قائلًا: «لذلك فإن قضايا القيم... هي بالحقيقةِ قضايا عن رخاءِ الكائنات الواعية»، وبالتالي يستنتج: «لا يوجد أيُّ معنى...؛ لأنْ تسأل إنْ كانت زيادة الرخاء أمرًا خيِّرًا». لم لا؟ فهو يعيد تعريفَ كلمة «خير» لتصبح «رخاء الكائنات الواعية»، ولذلك أن تسأل: «لماذا تعتبر زيادة رخاء الكائنات أمرًا خيِّرًا؟» يعادل وفقَ تعريفه الجديد سؤال: «لماذا تعتبر زيادة رخاء الكائنات زيادة في رخاء الكائنات؟» إنه مجرَّد حشْو، إنه مجرَّد الحديث في دوائر

---

(١) انظر: (25 - 24) The Moral Landscape

مفرغة! وهكذا «حلَّ» الدكتور هاريس مشكلةَ القيم بإعادة تعريف المصطلحات فقط، وهذا مجرَّد تلاعب بالألفاظ... وهكذا فشلَ الدكتور هاريس في حلِّ مسألة القيم، إذ لم يقدِّم أيَّ تبرير أو شرح على أرضية إلحادية لسؤال: لماذا ستوجد القيم الأخلاقية وجودًا موضوعيًّا؟ فما سمَّاه «حلًّا» لم يكن سوى حيلةٍ للتلاعب بدلالات الألفاظ (Semantical Trick) بإعادة تعريف اعتباطية وذاتية التركيب (Idiosyncratic) لمصطلحات الخير والشرِّ بمفردات غير مفردات علم الأخلاق»[1].

الوجهُ الثاني: أنَّ سام هاريس يحاول أن يساوي بين السعادة والخير، وبين البؤس والشرِّ رغمَ أن هذه الألفاظ غيرُ متساوية، فقد يشعر الإنسان بالسعادة وهو شرير، ويشعرُ الإنسان بالبؤس وهو خيِّر. وقد نبَّه البروفسور كرايغ على هذا الأمر بقوله: «ومقارنة هاريس بينَ الحياة الحسنة والحياة السيئة ليست مقارنة أخلاقية بين الحياة الخيِّرة أخلاقيًّا والحياة الآثمة أخلاقيًّا، بل هي مقارنة بين الحياة السعيدة والحياة البائسة، ليس هناك سببٌ للمساواة بين «السرور والبؤس» و«الخير والشرّ»، وخصوصًا ضمن النظرة الإلحادية. وهكذا فلا يوجد مطلقًا أيُّ سبب في الرؤية الإلحادية يدفع للاعتقاد بأنَّ ازدهار الكائنات الواعية هو خيرٌ موضوعي.

لكنْ على الدكتور هاريس أن يدافعَ عن ادِّعاءٍ أكثر غلوًّا من ذلك: حيث ادَّعى تطابقَ سمة أن تكون خيرًا معَ سمة ازدهار الكائن. ولم يقدِّم أيَّ دفاع عن هذا التعريف المفرد في المغالاة. فالواقع أنَّ لدينا حجَّة قاضية ضدَّ ذلك التطابق... ففي الصفحة قبل الأخيرة من كتاب الدكتور هاريس نجده يقدِّم اعترافًا معبّرًا، بأنه إن كان بإمكان مرتكبي الاغتصاب والكذب والسرقة أن يشعروا بالسعادة تمامًا كالناس الخيّرين، عندها لن يبقى أمامَنا «مشهد أخلاقي» كما سمَّى كتابه. لكن سنكون أمام متَّصل[2] من الرخاء يمكن أنْ يبلغ قممَه الأشخاص الخيِّرون الجيّدون والسيِّئون الأشرار على حدٍّ سواء»[3].

---

(١) الإلحاد بين قصورين (٢٥ - ٢٦).

(٢) أضاف المترجم في تعريف كلمة «متّصل»: «سلسلة من الأشياء المرتّبة، كلّ واحدة تشبه تمامًا تقريبًا التي بجوارها، لكن الأولى والأخيرة مختلفتان تمامًا».

(٣) الإلحاد بين قصورين (٥٢ - ٥٣).

وقد اعترفَ سام هاريس في أثناء المناظرة بأن يتفهَّم القلق الذي أصاب الناس في موضوع الأخلاق الإلحادية؛ فقال: «وأنا حقًّا أشاطر الناسَ هذا الخوف. وقد أصبحت أعتقد أنَّ هذا القلق الموجود لدى كثير من الناس المتديِّنين بخصوص تدهور الأخلاق العلمانية، ليس عديم الأساس تمامًا»[1].

ولذلك، فإنَّ هذا الأساس الذي قدَّمه سام هاريس ليس أساسًا متينًا في الحقيقة، وإنَّما هو مجرَّد تلاعب بالألفاظ والخلطِ بين السعادة والخير، وبين الشَّر والبؤس. فالنزعة الفطرية في الملاحدة - ومنهم ريتشارد دوكينز وسام هاريس - تدفعُهم إلى القول بوجود الأخلاق الموضوعية، ولكنَّ هذه الأخلاق تتنافى مع إلحادهم، فلا يمكنهم بناءً على رؤيتِهم الإلحادية أن يؤسِّسوا لها أساسًا صحيحًا. ومن هنا تتكمّن قوّة هذه الحجّة في إلزام الخصم.

النتيجة:

المقدِّمتان في الحجَّة الأخلاقية واضحتان وبيِّنتان، ومَن سلَّم لهما يلزمه - إن كان منصفًا - التسليمُ بالنتيجة، وهي: «إذًا، فاللهُ موجود». فالإلهُ هو الأساس المنطقي الوحيدُ للأخلاق الموضوعية، ولا يمكن للإلحاد تقديمُ أيِّ أساس للشعور الفطري بهذه الأخلاق؛ قال البروفسور إيان ماركهم[2]: «يفسِّر الإله الحتمية الأخلاقية الغامضة التي تفرض نفسَها في حياتنا؛ فالإلهُ يفسِّر الطبيعة العامة للادِّعاء الأخلاقي. وبما أن الإله خارج العالم، فإنَّ الإله الخالق يمكن أن يكون كلا الأمرين: أن يكون خارج، وأن يضع الأوامر العامة»[3].

---

(١) المصدر السابق (٣٢).

(٢) إيان ماركهم (Ian Markham): بروفسور اللاهوت والأخلاق البريطاني، ولديه ردود على الإلحاد الجديد. انظر:

https://vts.edu.faculty/the-very-rev-ian-s-markham

(3) Against Atheism: Why Dawkins, Hitchens, and Harris are Fundamentally Wrong (34), by: I.S. Markham (Wiley-Blackwell: 2010)

وفي هذا الكلام نجد أنَّ الإله لا يفسِّر وجودَ الأخلاق الموضوعية فقط، بل لا يمكن أنَّه يجب الالتزام بهذه الأخلاق إلَّا بوجوده. فلا يمكنُ للملحد يوفِّر أساسًا لوجوب هذه الأخلاق أصلًا، ولا يمكنه تفسيرُ وجوب الالتزام بها أيضًا؛ قال البروفسور كرايغ مفسّرًا هذه النقطة: «تنشأ الواجباتُ والممنوعات استجابةً لأوامر سلطة قادرة. فمثلًا، إن أَمَرَك رجلُ شرطة أن تركنَ سيَّارتك إلى جانب الطريق، فبسبب سلطتِه وصفته، فإنّ عليك إلزامًا تشريعيًّا لركْن سيَّارتك. لكن إن أتى أحدُ الغرباء، وقال لك: أن تركن سيّارتك جانبَ الطريق، فلن يكون عليك أيُّ إلزام تشريعي لفعل ذلك. الآن، ما هي السلطة الموجودةُ التي تطلق الأوامرَ والنواهي بغياب الربِّ؟ لا يوجد أيُّ سلطة من هذا النوع في الإلحاد، وبالتالي ليس هناك أيُّ أوامر أخلاقية يجب علينا طاعتُها. وبتغييب الربّ لن يوجَد أيُّ نوع من الواجبات أو المحرَّمات الأخلاقية التي تميِّز حياتنا. وتحديدًا، لسنا مُلزمين أخلاقيًّا بتعزيز ازدهار الكائنات الواعية»(١).

تقييمُ الحجَّة:

الحجَّة الأخلاقية حجَّةٌ عقلية قويَّة على وجود الله من ثلاثة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ أكثر الناس يقبلون المقدّمتين.

الوجهُ الثّاني: أنَّ هذه الحجَّة قريبةٌ من فطرة الإنسان لقبول أكثر الناس أنَّ الأخلاق الموضوعية موجودة.

الوجهُ الثّالث: أنَّها تبيِّن عوارَ الفكر الإلحادي، وتبيِّن ضعفه في تأسيس أساس متين للأخلاق والقيم الموضوعية.

ولكنَّ الحجَّةَ تكون ضعيفة مِن وجه آخر، وهي أنه يمكن للملحد أن يدحضَ هذه الحجَّة بعدم قبول الأخلاق الموضوعية، وأن يقول إنَّها مجرَّد وهم - كما سبق نقله عن بعضهم -. وبذلك تسقط الحجَّة رأسًا على عقب. ولكن كلُّ ما كان الإنسان قريبًا من فطرتِه وبعيدًا عن السفسطة؛ فإنَّه يجب عليه قبول الحجة، وألّا يغالط بمثل هذه المغالطات.

---

(١) الإلحاد بين قصورين (٥٤ - ٥٥).

المبحثُ الثّامن
حجَّةُ الوعي

حجَّةُ الوعي[1] مِن الحجج العقلية العلمية الدالَّة على وجود الخالق. وهذه الحجّة مبنيَّة على أنه لا يمكن تفسيرُ وجود الوعي في الإنسان عن طريق المذهب المادي، لأن الوعيَ غير مادي. ولذلك، يجبُ أن يوجد خالقٌ خلقَ هذا الوعي. فحجّة الوعي تشبه الحجَّة الغائية نوعًا ما، حيث إنَّها استدلالٌ بخلق الله على وجوده. ولكنَّ طبيعة المستدلّ به تختلفُ في هذه الحجَّة عن الحجَّة الغائية؛ ففي الحجَّة الغائية يستدلّ بالإتقان والإحكام في المخلوقات المشاهدة، وأمّا في حجَّة الوعي، فيستدلُّ بالوعي الذي هو غير مادي، وبالتالي لا يمكن مشاهدته.

وحجَّة الوعي من الحجج الحديثة نسبيًّا على وجود الخالق؛ فلا يوجد لهذه الحجّة ذكرٌ في المؤلَّفات اللاهوتية القديمة، وقد ذكر البروفسور ريتشارد سوينبورن أن أوّل من تعرَّض لهذه الحجَّة عرضًا هوَ الفيلسوف البريطاني جون لوك، ثمّ أفاض العلماء المعاصرون الكلامَ عنها في هذا الزمان[2]. وذكر البروفسور جي بي مورلاند أن سببَ استدلال العلماء بهذه الحجَّة في هذا الزمن المتأخِّر يرجع إلى أمرين:

الأمرُ الأوّل: كثرةُ المؤلَّفات في الفلسفة اللاهوتية في الآونة الأخيرة، وأنَّ علماء الغرب أعادوا النظرَ في طريقة إيراد الحجج على وجود الله.

---

(١) الوعي (Consciousness): الحالة عندمت يكون مدركًا ومستجيبًا لمحيطه. انظر:
https://en.oxforddictionaries.com/definition/consciousness,

(٢) انظر: The Existence of God (192 - 193)

الأمرُ الثّاني: زيادةُ الاهتمام بفلسفة الوعي، وأنَّ كثيرًا من الفلاسفة الماديين أدركوا عجزَ مذهبهم عن تفسير هذه الظاهرة[1].

ويزادُ على ذلك **أمرٌ ثالث**، وهو أنَّ علماء الأعصاب - رغم تقدُّم علمهم في هذا الزَّمان - أدركوا أنَّه مهْما درسوا دماغَ الإنسان، فإنهم غيرُ قادرين على تفسير ظاهرة الوعي - كما سيأتي بيانُه في هذا المبحث -.

وقد أوردَ علماءُ الغرب حجَّة الوعي بطرقٍ مختلفة(٢)، ولكنّ أهمّها وأبرزها طريقتان:

الطريقةُ الأولى: الاستدلالُ المنطقي بظاهرة الوعي على فساد المذهب المادي.

الطريقةُ الثانية: الاستدلالُ بأنَّ وجود الخالق أحسن تفسير لوجود الوعي.

وهاتان الطريقتان مُتكاملتان، حيث أنَّ الأولى تهدم أساسًا من أسس الإلحاد - وهو المذهب المادي -، والثانية تثبتُ أنَّ الخالق أحسنُ تفسير لوجود الوعي بطريقة عقلية علمية. وبيانُ ذلك كما يلي:

الطَّريقةُ الأولى: الاستدلالُ المنطقي بظاهرةِ الوعي على فساد المذهب المادي:

الطريقةُ الأولى تهدفُ إلى بيان عجزِ المذهب المادي في تفسير الوعي. وأغلبُ الملاحدة اليوم يتبنَّون المذهبَ المادي، يروْنه أصلًا من أصولهم. وبسقوط هذا المذهب يضعفُ الإلحادُ كثيرًا أمام التفسيرات الدينية لحقائق الوجود.

وقدْ أورد البروفسور ديفيد شالمرز[3] حجَّة مكوَّنة من مقدِّمتين ونتيجة في نقد تفسيرِ المذهب المادي لظاهرة الوعي:

المقدِّمةُ الأولى: هناك حقائقُ مُتعلقة بالوعي لا يمكن الاستدلال عليها عن طريق الحقائق الفيزيائية.

---

(١) انظر: Consciousness and the Existence of God (x)

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٢).

(٣) ديفيد شالمرز (David Chalmers): بروفسور الفلسفة وعلم الأعصاب الأسترالي، وهو متخصّص في فلسفة الوعي. انظر: http: / /consc.net/

المقدِّمة الثانية: إذا كان هناك حقائقُ عن الوعي لا يمكن الاستدلال عليها عن طريقِ الحقائق الفيزيائية، فإذن يكون المذهب المادي خطأ.

النتيجة: إذًا، المذهبُ المادي خطأ[1].

المقدِّمة الثانية واضحةٌ حيث إنَّ المذهب المادي يحصر الوجود في الحقائق الفيزيائية - كما سبق بيانُه -، فإذا تبيَّن أنه توجد حقائقُ موجودة ليست فيزيائية فيعني ذلك أنَّ المذهبَ المادي غير صحيح. فالمقدِّمة الثانية واضحة وبيِّنة بتعريف المذهب المادي نفسه.

وأمّا المقدَّمةُ الأولى في هذه الحجَّة، فتحتاج إلى شيء من الشرح والتفصيل. وينبغي أوَّلًا بيانُ أنَّ هناك فرقًا بين الدماغ والوعي؛ فـ«خذوا القياسَ التالي في الاعتبار: الدماغ هو السيارة، والوعي هو السائق. لن تتحرَّك السيارة بدون السائق، والسائق لن يستطيع تشغيلَ السيارة - أو يستخدمها بشكلٍ صحيح - إذا كانت تالفة أو معطّلة. ومع ذلك، فكلاهما مختلفٌ عن الآخر ومستقلٌّ عنه بطريقة ما»[2].

فالدماغُ مكوَّن من موادّ فيزيائية، ولكنَّ الوعي نفسه غير مادي. ولهذا يمكن للعلم التَّجريبي أن يفسِّر **ماذا** يحصل في داخلِ الدماغ من التفاعلات الكهروبيولوجية، و**متى** يحصلُ ذلك، ولكن لا يمكن تفسيرُ **كيف** تنتج هذه المادة شيئًا غير مادي كالوعي. فـ«حتى ولو كنت تعرف كلَّ شيء عن دماغي المادي، فلن تكون قادرًا على معرفة كيف يكون حالُ معايشتي لتجربة معيَّنة، سواء كانت تلك التجربة شربَ عصير برتقال، أو مشاهدةَ منظر غروب جميل، أو الوقوع في الحبّ. السببُ الرئيس خلف هذا الشيء هو أنَّ علم الأعصاب هو علمٌ يختصُّ - بالدرجة الأولى - بالعلاقات الترابطية. يقوم علماءُ الأعصاب بملاحظةِ نشاط الدماغ، ويربطون ذلك النشاط بما يخبرهم به المشاركون من حالةِ وعي يعيشونها. ولكن لا يمكن لهذه الارتباطات أن

---

(1) The Character of Consciousness (109), by: David Chalmers, (Oxford University Press, 2010)

(٢) الحقيقة الإلهية (١٨٤).

تخبرنا أبدًا عن كيف يكون الحالُ لهؤلاء المشاركين في حالةٍ أو أخرى من حالات الوعي؛ فكلّ ما تستطيع إخبارنا به هو متى تحدث فقط»[١].

وهذه المشكلة تواجه علماءَ الأعصاب الماديون بقوّة، حتَّى سمّوها: «مشكلة الوعي الصعبة» (The Hard Problem of Consciousness)؛ قال الدكتور دانيال بور[٢] عنها: «هناك الكثيرُ من المشاكل الصعبة في العالم، ولكن هناك مشكلة واحدة فقط تستحقّ أن تسمِّي نفسها بـ«المشكلة الصعبة». تلك المشكلة هي مشكلة الوعي الصعبة: كيف لـ١٣٠٠ جرامًا من الخلايا العصبية أنْ يستحضر ذلك الخليط من الأحاسيس والأفكار والذكريات والمشاعر التي تشغلنا في كلِّ لحظة من لحظات يقظتنا... المشكلة الصعبة لا تزال بدون حلّ»[٣].

بل صرَّح البروفسور كريستوف كوخ[٤] أنَّ مشكلة الوعي الصعبة قدْ حطَّمت المنهجَ العلمي المبنيِّ على المذهب الطبيعي إذ قال: «كيف يحوّل الدماغُ النشاط الكهروبيولوجي إلى حالاتٍ ذاتية، كيف تتحوَّل الفوتونات المنعكسة من الماء بشكل سحريٍّ إلى بحيرة جبليَّة محسوسة طيفية اللون، فهذا لغز. طبيعة العلاقة بين النظام العصبي والوعي تبقى محيِّرة وموضوع مناظرات ساخنة لا تنتهي... تفسير كيف يمكن لجزءٍ من المادة المنظِّمة بشكل عالٍ أن يحتوي على منظور داخلي قد حطَّم المنهج العلمي، والذي أثبت في مناطق أخرى كثيرة أنه مثمر جدًّا»[٥].

---

(١) المصدر السابق (١٨٢).

(٢) دانيال بور (Daniel Bor) عالم الأعصاب البريطاني. حامل شهادة الدكتوراه علم الأعصاب، وأستاذ في جامعة كامبردج. انظر:

https://www.neuroscience.cam.ac.uk/directory/profile.php?DanielBor

(3) New Scientist: The Collection. The Big Questions. Vol I, Issue I, p. 51.

(٤) كريستوف كوخ (Christof Koch): بروفسور علم الأعصاب في معهد كاليفورنيا للتقنية بالولايات المتَّحدة سابقًا. وقد ألّف عددًا من المؤلفات عن الوعي. انظر:

https://alleninstitute.org/what-we-do/brain-science/about/team/staff-profiles/christof-koch/

(5) Consciousness: Confession of a Romantic Reductionist (23-24), (MIT Press, 2012)

وقد ضربَ روي أبراهام فرغيز مثالًا - وقد تقدَّم ذكرُه - لبيان صعوبة هذه المشكلة إذْ قال: «فكِّر لدقيقة في طاولة رخامٍ موضوعة أمامك. هل تظنُّ أن هذه الطاولة ولو بعدَ مرور تريليونات السنين، بل إلى الأبد، ستصبح فجأة أو تدريجيًّا واعية بما يحيط بها وبهويتها؟ مِن البساطة أن يكون مِن غير المتصوَّر أن يحدث هذا. ونفس الأمر يسري على أيِّ نوع آخر من المواد. ما إنْ تفهم طبيعة المادة، والكتلة - طاقة حتَّى يتحقّق لك بالطبيعة الأساسية لهذه الأشياء أنَّها لن تصبح أبدًا واعيةً ولا قادرة على التفكير أو التعبير. لكنَّ الوضع الإلحادي في لحظةٍ ما من تاريخ الكون يقتضي أن يكون المستحيل وغير القابل للتصوُّر واقعًا. فتصبح المادة (بما فيها الطاقة هنا) التي لا يتميَّز بعضها عن بعضٍ في لحظة ما «حية»، ثمَّ واعية، ثمَّ ماهرة من حيث الفهم، ثمَّ معبِّرة عن ذاتها. لكن بالعودةِ إلى طاولتنا، نرى لَمَ الأمرُ مثيرٌ للضحك ببساطة. فليس لها أية خصائص الكائن الواعي، ولو استمرَّت إلى الأبد لن «تكتسب» مثل هذه الخصائص»[١].

فالمشكلة الصَّعبة لغزٌ للملاحدة الماديين، ومن أكبر التحديات لمذهبهم المادي، ومِن الأدلة الواضحة على فساده.

موقفُ الملاحدة الماديّين من مشكلة الوعي الصعبة:

قدْ حاول الملاحدةُ الماديون تجاوزَ هذه المشكلة بإستراتيجيات مختلفة؛ ذكر البروفسور ديفيد شامرز خمسةً منها، ولكنَّها كلَّها لا تجيب عن مشكلة الوعي الصعبة، وإنَّما يتهرَّبون من هذه المشكلة بالكلام عن شيء آخر. وهو دليلٌ واضح على فشل هذا المذهب تجاه هذه المشكلة[٢].

ولعلَّ أشهرَ ملحدٍ حاول الهروبَ من هذه المشكلة الكبرى هو دانيال دينيت - أحد فرسان الإلحاد الجديد الأربعة -. ففلسفةُ الوعي هي تخصُّصه الفلسفي الدقيق، وقد ألَّف فيها مؤلَّفات. ومِن ضمن تلك المؤلَّفات، كتابه المشهور: «الوعي موضّحًا»

---

(1) Roy Varghese, There is a God, appendix I, 163

(٢) انظر: The Character of Consciousness (11 - 13)

(Consciousness Explained)، وقدَّم فيه رؤيته الفلسفية للوعي. وخلاصتها: أنه ليس للإنسان تجاربُ ذاتية حقيقية، وإنما هي أوهام يتوهَّمها. فالإنسان عند دينيت أشبه ما يكون بروبوت ذاتي كالزومبي[١] مع وهم التجربة الذاتية[٢].

وهذا مثالٌ واضح على هروب الملاحدة من إيجاد حلٍّ حقيقي لمشكلة الوعي الصعبة، حيث عرَّف الوعي بشيء آخر تمامًا، وفسَّر التجارب الذاتية بأنها أوهام، رغم أنَّ كلَّ عاقل يدرك أنها حقيقية. ولهذا انتقد علماءُ الغرب تلاعب دينيت انتقادًا لاذعًا وكان البروفسور أنتي ريفونسو[٣] من أشهرِ العلماء المنتقدين له في كتابه: «الوعي: علم الذات» (Consciousness: The Science of Subjectivity)، ومما قاله في هذا الكتاب: «تمَّ نقدُ نظرية دينيت بكثرةٍ لأنها تبدو وكأنها تعيدُ تعريف الوعي بطريقة تجعل المصطلح يعني شيئًا مختلفًا جدًّا عمَّا كنّا نريد أن نفسِّره في الأساس. كتاب دينيت المشهور (١٩٩١) المعنون بـ «الوعي موضحًّا»، ولكنَّ الكثير شعروا أنه كان ينبغي أن يكون عنوانه «الوعي مئوَّلًا» (Consciousness Explained Away). فما كان يريد أكثر الناس تفسيرًا له هو ظاهرة الوعي والكيفيات المحسوسة والذاتية، ولكن دينيت تجاهلها باعتبارها مجرّد أوهام»[٤].

ومِن آخر ما يتمسَّك به الملاحدة الماديون: قولهم إنَّه لا يوجد للعلم التجريبي حلٌّ لمشكلة الوعي الصَّعبة الآن، ولكنَّ الجواب سيأتي مع تطوّرات العلم في المستقبل. وهذا الادِّعاء خاطئ؛ لأنَّ ظاهرة الوعي خارجة عن نطاق العلم التجريبي المبني على المذهب المادي. العلمُ التجريبي المبني على هذا المذهب يتناول ما

---

(١) الزومبي: شخص يظهر أنه بدون حياة، وشعور وغير مستجيب إطلاقًا لمحيطه. والرابط: https://en.oxforddictionaries.com/definition/zombie

(٢) انظر: الحقيقة الإلهية (١٩٦).

(٣) أنتي ريفونسو (Antti Revonsuo): بروفسور الفلسفة وعلم الأعصاب الفنلندي، ويعمل حاليًا في جامعة شوفدي في السويد، وقد جمع في دراساته للوعي بين الفلسفة وعلم الأعصاب وعلم النفس. انظر: https: / /www.his.se /en /about – us /staff /antti.revonsuo /

(4) Consciousness: The Science of Subjectivity (180-181)

يمكن ملاحظتُه فقط، والوعي لا يمكن ملاحظتُه مهما تطوَّر العلم. فيمكن للعلماء الماديين اكتشافُ مزيد عن نشاط الدماغ، ولكنَّ هذا هو حدُّهم الذي لا يمكن تجاوزه. فالمشكلةُ الأساسية تكمن في مذهبِهم الاختزالي الذي يحصر الموجودات في العالم المادي فقط. وأما الوعي فيصدر من روحِ الإنسان، والروح لا يمكن ملاحظتُها في المختبرات أبدًا. وهذا ما بيَّنه العلماء في الطريقة الثانية لحجّة الوعي.

الطريقةُ الثّانية: الاستدلالُ بأنَّ الخالق أحسن تفسير لوجود الوعي:

تقدَّم في الطريقة الأولى أنَّ المذهب المادي عاجز عن تفسير ظاهرة الوعي، وأنه يدلُّ على فساد المذهب. ولكنْ لا يعني ذلك ضرورة أنَّ الله موجود؛ فقد يعترف الملحد بأن المذهبَ المادي فاسد، ويحاول تفسيرَ الوعي بطريقةٍ خارجة عن نطاق العلم التجريبي المبني على المذهبِ المادي مع تمسُّكه بإلحاده. وهذا فعلًا ما ذهب إليه بعض الملاحدة المعاصرين. ومِن الأمثلة على ذلك ما ذهبَ إليه البروفسور توماس ناغل[1] من القول بالروحية الشاملة[2]. وخلاصةُ نظريته: أن كلَّ جزءٍ من المادة يحتوي على وعي، فوعي الدماغ مجرَّد تراكم لهذه الأجزاء من الوعي[3].

والبروفسور ناغل ينتقد المذهبَ المادي، بل صنَّف كتابًا في الردّ على الماديين بعنوان: «الوعي والكون: لماذا كان تصوُّر الماديين التطوّريين الجدد عن الطبيعة باطلًا على الأرجح (Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo – Darwinian Conception of Nature is Almost Certainly False). ومع نقده لهذا المذهب فإنه يصنّف نفسه بأنه ملحد[4].

---

(١) توماس ناغل (Thomas Nagel): فيلسوف أمريكي من أصل صربي يهودي. ويعمل كبروسفور في جامعة نيويورك في الولايات المتّحدة. https: / /as.nyu.edu /faculty /thomas – nagel.html

(٢) الروحية الشاملة (Panpsychism): الرأي القائل بأن جميع الأشياء ذات وعي أو لها خصائص شبيهة بالعقل. انظر: https: / /iep.utm.edu /panpsych /

(٣) وللردِّ على هذه النظرية ينظر: الحقيقة الإلهية (٢٠٧ – ٢٠٨).

(٤) انظر: The Last Word (130 - 131), by: Thomas Nagel (Oxford University Press, 1997).

فالطريقةُ الأولى تردُّ على أغلب الملاحدة المعاصرين الذين يبنون إلحادهم على المذهب المادي، ولكنَّها لا تثبت ضرورةَ وجود الله. ومع ذلك فإنَّ الطريقة الأولى تمهّد الطريقَ للطريقة الثانية، وتهدم حصنَ أغلب الملاحدة الحصين، وهو المذهب المادي. وتأتي الطريقةُ الثانية بعدَ ذلك وتبيِّن أنَّ وجود خالق متعالٍ على العالم المادي خلق الوعي في الإنسان هو أحسنُ تفسير لوجود هذا الوعي؛ قال البروفسور جي بي مورلاند: «الحقيقة أنَّه لا توجد للمذهبِ الطبيعي طريقة معقولة لتفسير ظهور الخصائص والأحداث العقلية الأصيلة المتعذّرة التبسيط في الكون... عندما تتمُّ مقارنتها بالمصادر التفسيرية الثرية الموجودة في علم اللاهوت»[1].

ومِن أشهر العلماء الذين تبنَّوا هذه الطريقة هو البروفسور ريتشارد سوينبورن في كتابه: الوجود الإلهي. وقد بنى طريقتَه على ثلاثة أمور:

الأمرُ الأوَّل: أنه لا يمكن تفسيرُ الوعي إلّا بالقول: إنَّ الإنسان مكوّن من الروح والجسد؛ فقال: «مهْما عرفنا عمّا يحصل في دماغي - قد نعرف ماذا حصل في كلِّ ذرَّة من ذرّاته - وفي كلِّ جزء فيزيائي منّي، فإنَّنا لا نعلم ضرورة ماذا حصل بي. وبالتالي، فإنَّه لا بدَّ أن أشتمل على أكثر من المادة التي تكوّن جسدي ودماغي. ولا بدَّ أن يوجد شيء ضروري غيرُ فيزيائي متعلِّق بالدماغ والجسد. وهذا الشيء هو ما أعطيه الاسم التقليدي: الروح»[2].

الأمرُ الثّاني: أنَّ العلم عاجزٌ عن تفسير علاقة الروح بالجسد، ولا يمكن تفسيرُ هذه العلاقة إلَّا بوجود إلهٍ قادر على الربط بينهما؛ فقال: «علاقة الوعي بالدماغ غريبٌ جدًّا إلى حدٍّ أنَّه لا يمكن للعلم التجريبي أن يفسّره. لا بمكن أن تكون هذه العلاقة نتيجة لنظرية علمية أكثر تأصيلًا كذلك، وإنَّه في الحقيقة يوجد أكثر الترابطات المختلفة لكي تشكِّل قوانين. ولكن، مرَّة أخرى، فإنه يمكن أن يوجد تفسير ذاتي: وهو أنَّ الإله قادرٌ على كلِّ شيء، فهو قادرٌ على ربط الأرواح

(1) Consciousness and the Existence of God (192)

(2) The Existence of God (198)

بالأجساد. وهو يستطيع أنْ يجعل هذه الأحداث المعيّنة للدماغ والوعي بناءً على العلاقات الترابطية»[1].

الأمرُ الثّالث: أنَّ الإله قادر على ربط الأرواح بالأجساد، بل هناك أسباب وحِكم لكوْنه يربط بينهما، ومِن أبرزها: خلق الإنسان بقدرة على الاختيار؛ فقال: «للإله سببٌ جيِّد في إيجاد الأرواح وربْطها بالأجساد. ومن هذه الأسباب... إيجاد كائنات بشريَّة حرَّة تكون بحاجةٍ إلى أبدان تشعر بأحاسيس ممتعة، وتكون لها معتقدات صحيحة عن العالم، وهي تكوِّن أغراضها الذاتية في ضوء هذه المعتقدات، التي تستطيع أن تصنع التغيّرات في العالم»[2].

هذا الكلامُ الأخير من حيث التأصيل جيِّد، فلا شكَّ أنه توجد للخالق حِكم وأسبابٌ في خلق الأرواح والأبدان والربط بينهما، إلّا أنَّ تعبيراته فيها شيء من الخلل. فالمسلمون يعتقدون أنَّ الله خلق البشر - بروحه وجسده - لهدفٍ سام عظيم، وهو عبادتُه سبحانه وتعالى؛ فقال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، كما أن وصفَه البشر بكائنات حرَّة ليس صحيحًا بهذا الإطلاق؛ فمشيئة الإنسان تحت مشيئة الله وليست حرَّة. وسيأتي تفصيلُ ذلك في مبحث: ردودهم على شبهة: سلب الإرادة في الباب الثالث - إن شاء الله -.

حجَّةُ الوعي من المنظور الإسلامي:

حجَّةُ الوعي حجَّة جيِّدة على وجود الله، وإنْ كانت الحجَّة الغائية أوضح منها. ومِن أكثر مَن وجدته متخصّصًا في إبراز هذا الدليل من المسلمين هو صاحب كتاب: «الحقيقة الإلهية» (The Divine Reality)، حيث إنه تكلّم عنها بكلام مطوّل. ولكنّه أضافَ نقطتين مهمّتين لم يسبق التنبيهُ عليهما، وهما:

النُّقطةُ الأولى: بيَّن المؤلف أنَّ هذا التفسير الألوهي لظاهرة الوعي لا يقلّل من التَّفسيرات البيولوجية من علم الأعصاب، ولكنَّ هذه التفسيرات البيولوجية ليست كاملة بحدِّ ذاتها؛ فقال: «للتفسير الألوهي لنشأة الوعي قوّة تفسيرية أكبر من

---

(١) المصدر السابق (٢٠٩)

(٢) المصدر السابق.

التفسيرات المنافسة. ولكن يجب أن أؤكِّد هنا على أنّي لا أنكر فائدة التفسيرات البيولوجية في كشفِ الارتباطات العصبية، ويمكن عملُ البحوث في علم الأعصاب في سياقٍ ألوهي بنفس المستوى من القوّة والإنتاج. ما أحاول المناداة به هو إضافة الألوهية كأساسٍ فلسفي حتَّى نستطيع بشكلٍ كامل تفسيرَ ما لم تستطع تفسيره التفسيراتُ اللاألوهية: مشكلة الوعي الصعبة. وبهذا المعنى، فإنَّ منظوري من النوع الثنائية التي يمكن تسميتُها بـ الثنائية الألوهية. في إطار الثنائية الألوهية، لا يقلِّل من قيمة علم الأعصاب ويمكن لكلِّ المشاريع البحثية فيه أن تقدِّم رؤيتها واستنتاجاتها المدهشة حول هذا الموضوع، ولكنَّ الثنائية الألوهية هي أطروحة ماورائية تقدِّم تفسيرًا متكاملًا»[1].

النُّقطةُ الثّانية: أنَّ هذه الحجَّة متوافقة مع ما جاء به الإسلام من أن الإنسان متكوِّن من الروح والجسد، ولا تتعارض هذه الحجّة بأننا نجهل كيفية الروح؛ فقال: «سيتساءل القرّاءُ المسلمون - ولهم الحقّ - عمّا إذا كانت هذه الحجَّة متوافقة مع الدين الإسلامي الصحيح. عادةً يتضمَّن الاعتراض الشائع حقيقة أن القرآن يصرّح بوضوح بأنَّ الروح هي مِن شأن أو أمر الله، وأنَّ البشر أعطوا قدرًا قليلًا جدًّا من هذا العلم حولها: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وللتوفيق بين هذا التعارضِ الديني الظاهري[2]، يجب أن يُفهم أنَّ الآية تتعلّق بجوهر وأصل الوعي أو الروح، وليس وجوده. تؤكِّد الآية على أنَّ عنصرًا غير مادي هو الذي يحيي الجسد؛ بعبارةٍ أخرى هو الروح أو الوعي. وهذا بالضَّبط هو ما قدَّمته الحجة المذكورة في هذا الفصل؛ وهو أنَّ وجود الوعي لا يمكن أن يفسّر إلّا بمنظور غير مادي»[3].

---

(١) الحقيقة الإلهية (٢١٢).

(٢) مع أنّه لا يسلّم بوجود هذا التعارض الظاهري.

(٣) الحقيقة الإلهية (٢١٣).

وهذه خلاصةٌ جيِّدة عن هذه الحجَّة، ويمكن للمسلمين الاستفادة منها في الاستدلال على وجودِ الله، ولا سيَّما مع المعجب بالعلم التجريبي وفق المذهب المادي، فإنَّ هذه الحجَّة تسقط المذهب المادي أوّلًا، ثمَّ تبيَّن أنَّ الله هو الخالق ثانيًا. ومع ذلك، فإنّي أرى أنه لا ينبغي ذكرُ هذه الحجة بمفردها، وإنما تذكر تبعًا للحجة الغائية لكون تلك الحجة أوضحَ وأقوى من حجة الوعي.

المبحثُ التّاسع

الحجّةُ البراغماتية

قدْ سبق في مباحث هذا الفصل الحجَّج العقلية على وجود الله. ولكنَّ علماءَ الغرب لا يكتفون بإيرادِ الحجج العقلية في نقاشهم مع الملاحدة، وإنما يستخدمون - أحيانًا - بعضَ المرجِّحات ترجِّح كفَّة الإيمان على الإلحاد[1]. وأشهر هذه المرجّحات: ما يسمَّى برهان باسكال. ولكي نفهمَ حقيقة هذا المرجّح ينبغي الوقوفُ على شيء من سيرةِ وفلسفة مبتكر هذا الرهان:

بليزي باسكال (Blaise Pascal):

وُلِد باسكال في فرنسا عام ١٦٢٣م، وتربّى تربيةً غير متديّنة، والتجأ نحو تعلّم العلوم الدنيوية، وصارَ من علماء الرياضيات الفيزياء الكبار في زمنه، وقدّم إسهامات كبيرةً في بيان نظرية الاحتمال، واختراع آلة الحاسب الميكانيكية. انشغل باسكال في أوّل عُمره بهذه العلوم، ولم يستطع أن يتقبَّل العقائد اليسوعية الكاثوليكية السائدة في زمنه. ولكن في عام ١٦٤٦م، انكسر ورك والده في حادث، وجاء الرهبان من فرقة الينسينية[2] الكاثوليكية لمعالجة والده، فتأثّر باسكال بهذه الطائفة تأثّرًا كبيرًا[3].

ومِن عقائد هذه الفرقة: النظرة الدونية لطبيعة الإنسان وقدراته الفكرية، وبالتالي رأوا أنَّه لا فائدة من الاشتغال بالفلسفة ولا سيَّما للوصول إلى العلم بالله.

---

(١) انظر: الإلحاد للمبتدئين (١٢٩).

(٢) الينسينية (Jensenism): فرقة كاثوليكية في القرنين السابع والثامن عشر. واشتهرت باهتمامها بالتوفيق بين العناية الإلهية وإرادة الإنسان. انظر:

https://www.britannica.com/topic/Jansenism

(٣) انظر: https: / /www.biography.com/people/blaise - pascal - 9434176

أَلَّف باسكال كتابه المشهور: «أفكار» (Pensées) للدفاع عن النصرانية، وذكر فيه أنَّه يمكن الإيمانُ ببعض المعتقدات بدون أيِّ دليل. وفي هذا الكتاب قدّم باسكال رهانَه[1]. توفِّي باسكل عام ١٦٦٢م، ولم يطبع كتابه إلّا بعدَ ثمان سنوات من وفاته، عام ١٦٧٠م[2].

رهان باسكال (Pascal's Wager):

هذا الرهانُ يمثِّل أمرين رئيسين من حياة باسكال:

الأول: علمُه العميق بالرياضيات، ولا سيَّما نظرية الاحتمال.

الثاني: تأثُّره بفرقة الينسينية.

وهذه خلاصةُ صياغة الرهان التي ذكرها:

١) الإلهُ موجود، أو الإله غيرُ موجود. العقل لا يستطيع أن يحسم بين الخيارين.

٢) تُلعب لعبة... وقد تظهر الطرّة أو النقش.

٣) لا بدَّ أن تراهن (وليس لك خيار).

٤) لنوازنَ بين الربح والخسران في كوْن الله موجودًا. إنْ ربحت فإنك ربحت كلَّ شيء، وإن خسرت فإنّك لم تخسر شيئًا.

٥) راهن إذًا، بدون شكٍّ أنه موجود. يمكنك ربحُ حياة لانهائية وسعادة أبدية. إمكانية الربح، بمقابل احتمالات محدودة من الخسران، ورهانُك محدود. فمسألتنا هذه في قوَّة لانهائية، حين يكون الرهان محدودًا في لعبة فيها مخاطر متساوية من الربح والخسران، والربح لانهائي.

٦) ولكنَّ بعضَ الناس لا يستطيع الإيمان. هؤلاء ينبغي لهم تعلّم عدم قدرتهم على الإيمان والسعي لإقناع أنفسهم[3].

---

(١) انظر: Västerlandets filosofi (363 - 365)

(٢) انظر: Pensées, Introduction (p. x), by: A.J. Krailsheimer, (Penguin 1995)

(٣) انظر: Pensées, part III, §233.

ثمَّ شرحَ رهانه بعد ذلك، ويمكن تلخيص شرحِه في النقاط الآتية:

النُّقطةُ الأولى: إنْ كان الله موجودًا فلا شكَّ أنه لا يمكن إدراكه، وذلك أنه ليس له أعضاء ولا حدود[1]؛ فلا يوجد تقارب بيننا. لا يمكننا أن نعرف ما هو، أو إن كان موجودًا.

النُّقطةُ الثّانية: الإله موجودٌ أو غير موجود. لا يمكن العقلُ أن يثبت أو ينفي هذه القضية، بل العقل متوقِّف في المسألة.

النُّقطةُ الثّالثة: لا توبِّخ الذي أخطأ في هذه المسألة؛ لأنَّك لا تعلم شيئًا عن هذه القضية. العقلُ متوقِّف في المسألة بين الخيارين، فليس هناك خيار إلّا المراهنة.

النُّقطةُ الرّابعة: الرهان ليس أمرًا خياريًّا في هذه المسألة، وإنما هو حتمي، فانظر إلى أحسنِ الخيارين. إنْ ربحت فإنك ربحتَ كلَّ شيء، وإن خسرت فإنك لم تخسر شيئًا. راهن إذًا، بلا شكّ أنه موجود.

النُّقطةُ الخامسة: هذا الرهانُ يتعلّق بربح حياةٍ سعادة لانهائية، فالأمر جادّ، ولا بدَّ للإنسان أن يتَّخذ القرار الصحيح في هذه المسألة[2].

فخلاصةُ هذه الحجَّة: أنَّ باسكال نفسه لم يجد أدلة مقنعة على وجود الله بناءً على تأثّره بفرقةِ الينسينية؛ فساقَ هذا الاستدلال العملي على وجود الله. ولكن لا يقال إنَّ باسكال كان لاأدريًّا، كما أشار إليه بعض الباحثين[3]، بل كان متديّنًا كاثوليكيًّا ومؤمنًا بوجود الله. وذكر البروفسور بيتر كريفت[4] أنه بينما رأى أكثر الفلاسفة أنَّ هذا

---

(١) الأعضاء والحدود من الألفاظ المجملة في حقّ الله، التي لا يجوز إثباتها ولا نفيها.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: الإلحاد للمبتدئين (١٢٩).

(٤) بيتر كريفت (Peter Kreeft): لاهوتي كاثوليكي وبروفسور الفلسفة في كلية بوستون بالولايات المتَّحدة. وقد ألّف ٩٥ كتابًا. انظر:

https://www.peterkreeft.com/about.htm

الدليل هو أضعفُ دليلٍ على وجود الله، فإنَّ باسكال نفسه رأى أنه أقوى دليل[١]. وقد انقسمَ الناس تجاهَ هذا الدليل بين مُستحسن وناقد. وبيانُ ذلك كما يلي:

استحسانُ رهان باسكال:

بينما لم يستحسنْ أكثرُ فلاسفة النصارى هذا الرهان، فقد بدأ الاهتمام به في هذا الزمان الذي سادتْ فيه الشكوك والإلحاد. وقد ألَّف بعض الفلاسفة النصارى مؤلّفات خاصَّة عن هذا الرهان. ومن الأمثلة على ذلك: البروفسور جيفري جوردان[٢] الذي جمعَ رسائل عن رهان باسكال في كتابه:» قمار عن الإله: رسائل عن رهان باسكال» (Gambling on God: Essays on Pascal's Wager)، وكتاب خاص بتأييد هذا الرهان بعنوان: «رهان باسكال: حجج عملية والإيمان بالله» (Pascal's Wager: Pragmatic Arguments and the Belief in God)[٣]. وكذلك البروفسور مايكل روتا[٤] في كتابه: «الأخذ برهان باسكال: الإيمان، الدليل والحياة الوفيرة» (Taking Pascal's Wager: Faith, Evidence and Abundant Life)[٥].

وهذه الكتبُ تروِّج لرهان باسكال بأنه رهانٌ صالح، ولكن ينبغي أن يستخدم في ظلِّ الأدلة على وجود الله الأخرى؛ فالبروفسور روتا يذكر الأدلة المؤيّدة للإيمان

---

(١) انظر: http: / /www.peterkreeft.com /topics /pascals – wager.htm

(٢) جيفري جوردان (Jeffrey Jordan): بروفسور الفلسفة في جامعة ديلاوير بالولايات المتّحدة، وقد اشتهر باهتمامه برهان باسكال. انظر:
https://scholar.google.com/citations?user=ZZ4OWlsAAAAJ&hl=en

(٣) انظر: https: / /www.philosophy.udel.edu /faculty – staff /faculty /Jeff

(٤) مايكل روتا (Michael Rota): بروفسور الفلسفة في جامعة ساينت توماس بالولايات المتَّحدة. وهو متخصّص في فلسفة الدين. انظر:
https://mikerota.wordpress.com/

(٥) انظر: https: / /mikerota.wordpress.com /

مثل: حجَّة التوافق الدقيق للكون، والحجج ضدَّ الإيمان مثل: معضلة الشرّ، ثمّ يستعمل الرهان لترجيح كفَّة الأدلة المؤيّدة للإيمان[1].

وهذا ما فعله صاحبُ كتاب: الإلحاد للمبتدئين[2]، فقد ذكر الأدلة على وجود الله، ثمَّ صنَّف رهانَ باسكال ضمن مرجّحات الإيمان، وليس من ضمن أدلته.

ومَن نظرَ في حقيقة الرهان الذي وضعه باسكال، فليس هذا قصده؛ إنما كان يرى أنَّه لا يوجد أدلةٌ عقلية على وجود الله، ولهذا لا بدَّ أن نستخدم هذا الدليل العملي. فطريقةُ هؤلاء مغايرة لطريقة واضع الرهان الأصلي.

وقد حاولَ اللاهوتي الكاثوليكي المعاصر جون باسكويني أن يربط بين رهان باسكال وما يعيشُه الملاحدة من التعاسة في هذه الحياة الدنيا بقوله: «عالم الرياضيات الشَّهير في القرن السابع عشر والعبقري المعترف به، بليزي باسكال، استطاع أن يقول: إنَّ الإيمان بالإله أكثرُ حكمةً من عدم الإيمان به. فمَن يؤمن بالإله يعيش حياة سعيدة، وعندما يموت يُكافأ بهديةٍ من النعيم الأبدي في الجنة. وإذا كانت نهاية المؤمن وهو على خطأ، فإنه لا يزال في حالةِ فوز، لعيشه - على الأقل - في هذه الرحلة الدنيوية حياةً سعيدة وذات معنى؛ لأنَّنا خلقنا من أجل الإله، فإنَّ واقع الإنسان الحقيقي الأساسي هو عبارة عنِ استجابته له. الإلهُ في صميم الوجود، فلا يمكن لرغبة الشخص العميقة أو حنينه أن يكون إلّا في سبيل الإله. ولهذا السبب، فإنَّ الذين ينكرون الإله ينكرون واقعَهم العميق جدًّا وينكرون طبيعتهم كبشر...

يجدُ الملحد من جهةٍ أخرى - دائمًا حسبَ باسكال - نفسه في مأزق شنيع. فيعيش حياةً مريعة في هذه الرحلة الدنيوية مطاردًا الأرواح أو آلهة الشهرة والقوة والمخدّرات وكلَّ أشكال الفسوق. لتصبحَ الحياة رحلة بطيئة ضعيفة سائرة نحو التحطّم والموت. وإذا لم يضعِ الملحد رغباتِه تحت السيطرة فإنه يصبح ببساطة متطفلًا على الأعراف الاجتماعية التي مقتَها بتهوُّر لكونها مقيّدة وكابتة لأهوائه.

---

(١) انظر: https: / /www.ivpress.com /taking – pascal – s – wager

(٢) انظر: الإلحاد للمبتدئين (١٢٩).

فهل من العجب أنَّ للملحدين النسبة العليا في معدَّل الانتحار؟ وهل من العجب أنَّ الملحدين هُم الأكثرُ بؤسًا، وقسوةً، وتعصُّبًا، وعنفًا، والأكثر تعرّضًا لإدمان المخدّرات والخمور؟)[1].

الذي ذكَرَه باسكويني ليس له علاقةٌ برهان باسكال أصلًا؛ لأنَّ باسكال بنى رهانه على الشكِّ في أدلة وجود الله، ثمَّ ساق رهانَه وذكَرَ فيه النتائج المترتّبة على الإيمان والكفر في الآخرة فقط، ولم يذكرِ الفوائدَ الدنيوية من الإيمان. وأمّا ما ذكره باسكويني فإنَّه يتعلَّق بفوائد الإيمان في الدنيا فقط دون الآخرة.

ولهذا نجد أنَّ بعضَ مَن استحسن رهانَ باسكال، لم يستحسنه على طريقة باسكال، بل استخدمَه لأغراض أخرى.

الاعتراضُ على رهان باسكال:

لم يقبلْ جمهور الفلاسفة رهانَ باسكال، وصار موضعَ سخرية عند بعضهم. ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الفيلسوف الفرنسي فولتير - الذي عاش قرنًا بعد باسكال - حين سمّاه بذيئًا وطفوليًّا[2]. وقد ردَّ الملاحدة واللادينويون على هذا الرهان بعددٍ من الرُّدود؛ هذه أربعة منها:

الردُّ الأوَّل: الإيمانُ بشيء لا يستلزم حقيقةَ وجوده: وهذا مِن الردود التي ذكرها الفيلسوف فولتير في ردِّه على باسكال، فذكر أنَّ المصلحة في إيماني بشيء معيّن ليست دليلًا على وجودِ هذا الشيء[3]. وهذا الردُّ قد أعاده ريتشارد دوكينز في كتابه:

---

(1) Atheist Personality Disorder (131 - 133)

(٢) انظر: "Remarques (Premiéres) sur les Pensées de Pascal"، وهو موجود باللغة الفرنسية في:

https://web.archive.org/web/20120418162422/http://www.voltaire-integral.com/Html/22/07_Pascal.html

(٣) المصدر السابق.

«وهم الإله»[1]. وهذا الردُّ في محلِّه؛ لأنَّ هذا الرهان في الحقيقة لا يثبت وجود الله، وإنما يحثُّ الإنسانَ على الإيمان، وأنَّ الإيمان هو أحوط من عدم الإيمان.

الردُّ الثّاني: مشكلةُ إيمان المرائي: هذا الرهانُ يذكر أنه لا أدلةَ على وجود الله ولا على عدمِ وجوده. وإنما يذكر فائدةَ الالتزام بالدين في الآخرة. ولكن كيف يلتزم الإنسانُ بدينٍ وهو غيرُ موقن من قلبه بصحَّته؟ هذا يؤدِّي إلى أن يرائي الإنسان بإيمانه. فكيف يعتقد أنَّ الإله العليم بكلِّ شيء لا يعلم من عبده أنه يتراءى بهذا الإيمان من أجل المنفعة؟ وهذا النقدُ ذكره ريتشارد دوكينز في كتابه: وهم الإله[2]. وهذا النقد أيضًا صحيحٌ لأنَّ المؤمن يبني إيمانَه على أدلة وبراهين واعتقاد جازم بأن الله موجود، وأنَّ الإسلام دين الحقِّ، وإلّا مَن تراءى بالإيمان من أجل الاحتياط، فهو شاكٌّ في إيمانه غير موقن.

الردُّ الثّالث: اختلافُ الديانات: كان واضعُ هذا الرهان بليزي باسكال نصرانيًّا، وليس نصرانيًّا فحسب؛ بل كان كاثوليكيًّا، وليس كاثوليكيًّا فقط؛ بل من فرقة معيّنة من فرق الكاثوليكية، وهي فرقة الينسينية. وكان ينشط في نقدِ فرقٍ أخرى من فرق الكاثوليكية مثل: الفرقة اليسوعية[3] في كتابه: «الرسائل الإقليمية» (Lettres provinciales)[4] وقد ردّ الفيلسوف فولتير على هذه النقطة، وذكر أنَّ هذا الرهان إنما يصدُق إذًا على مَن اتَّبع هذه الفرقة الضيِّقة[5]. وقد أضافَ الفيلسوف ديدرو نقطةً في ردِّه على رهان باسكال، وهي أنه يمكن الإمام المسلم أن يستخدمَ هذه الحجَّة نفسها[6]، بل الملحد جي. أل. ماكي سرد

---

(١) انظر: The God Delusion (130)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) اليسوعية (Jesuits): واسمها: جمعية يسوع، وهي رهبانية كاثوليكية من رجال الدين أسسها القديس إغناطيوس دي لويولا في القرن السادس عشر، وتشتهر بأعمالها التربوية والتبشيرية. انظر: https: / /www.britannica.com /topic /Jesuits

(٤) انظر: Västerlandets filosofi (364)

(٥) انظر: Remarques (Premiéres) sur les Pensées de Pascal

(٦) انظر: Pensées philosophiques, LIX, (1 / 167), by: Denis Diderot.

عددًا مِن الديانات والفرق التي تدَّعي كلها أنَّها على الحق، وغيرها على الباطل، ويمكن لكلِّ ديانة وكلِّ فرقة أن تقول إنَّ الإيمان بدينها أحوط من الإيمان بدين غيره(١).

وهذا الردُّ في محلِّه إذا استخدموه في نقد رهان باسكال؛ لأنه يعتقد أنه يمكن الإيمان بدون أدلةٍ وبراهين، وإنما يستخدم هذا الرهان الفاسد. وفي الوقت نفسه، فلا يمكن أن يستخدمَ هذا النقد ضدَّ الديانات عامة كما يفعل بعض الملاحدة(٢) وخصوصًا ضدَّ الإسلام؛ لأنَّ اعتقاد المسلم بصحّة الإسلام ليس مبنيًّا على المراهنة، وإنما هو مبني على حججٍ وبراهين وأدلة واضحة وبيِّنة. فالحقُّ واضح، وإن اختلف الناس فيه. ولكن استخدامَ الملاحدة هذه الحجَّة في نقد رهان باسكال صحيح.

الردُّ الرّابع: رهانُ الملحد: حاول بعضُ الملاحدة أن يقيموا رهانًا إلحاديًّا باسم: «رهان الملحد» (Atheist’s wager)، بتفضيل الإلحاد على الإلحاد على الإيمان بالمراهنة. وهذا الرهانُ سيتمُّ الردُّ عليه بالتفصيل في الباب الثالث - إن شاء الله -.

تقييمُ رهان باسكال:

يتبيَّن بالمقارنة بين مَن استحسن رهانَ باسكال ومَن انتقده أنَّ هذا الرهان ضعيف جدًّا؛ بل استخدامه يورث الشكَّ في الله. والإيمان المقرون بالشكّ ليس إيمانًا نافعًا في الآخرة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، وقال رسولُ الله ﷺ: «أشهد أَن لَا إِلَه إِلّا الله وَأَنِّي رَسُول الله لَا يلقى الله بهما عبدٌ غير شَاك فيهمَا إِلّا دخل الْجنَّة»(٣). وقال ﷺ أيضًا: «فَمن لقِيت وَرَاء هَذَا الْحَائِط يشْهد أَن لَا إِلَه إِلّا الله مُسْتَيْقنًا بهَا قلبه فبشره بِالْجنَّةِ»(٤).

---

(١) انظر: The Miracle of Theism, (203), by: Mackie, J. L. (Oxford, 1982)

(٢) سيأتي مبحثٌ خاصٌّ في نقد هذه الشبهة في الباب الثالث.

(٣) أخرجَه مسلم في صحيحه (٤٤)، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد دخل الجنّة قطعًا، (١ / ٥٥)، من حديث من أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجَه مسلم في صحيحه (٥٢)، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد دخل الجنّة قطعًا (١ / ٥٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولهذا يكون ضررُ هذا الرهان أكبرَ من نفعه - إن كان فيه ثمَّة نفع أصلًا -. ولا ينبغي أن يُذكَر هذا الرهانُ في أدلة وجود الله، ولا حتَّى من ضمن المرجحّات، لأن الرهانَ مبني على أصلٍ فاسد، وهو عدمُ وجود أدلة على وجود الله. وما بُني على فساد فهو فاسد.

المبحثُ العاشر
نقدُ حججِ علماءِ الغربِ العقليَّة
على وجود الله

هذا الفصلُ تناول حججَ علماء الغرب العقلية على وجود الله. وقد ذكرت فيه تسعَ حجج، وهي: حجَّة الفطرة، والحجَّة الكونية، والحجَّة الغائية، وحجَّة التوافق الدقيق للكون، وحجَّة الجمال، والحجَّة الوجودية، والحجَّة الأخلاقية، وحجَّة الوعي، والحجَّة البراغماتية.

وقد قيَّمت هذه الحجج خلالَ هذه المباحث، وذكرتُ مواطنَ القوة والضعف. والمقصودُ من هذا المبحث هو ذكرُ تقييم إجمالي لحجج علماءِ الغرب العقلية.

وهذه الحججُ متفاوتة في القوَّة والضعف. ويمكن تقسيمُ هذه الحجج إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الحججُ القويَّة والمفيدة استقلالًا: وهي: حجَّة الفطرة، والحجَّة الكونية، والحجَّة الغائية، وحجَّة التوافق الدقيق للكون. فهذه الحجج سليمة وجيّدة، وقد ذكرَها علماءُ الإسلام أيضًا، ولكن بتعبيرات أخرى. بل لعلماء الإسلام السبق في ذكر حجَّة الفطرة لكونها وردتْ في القرآن الكريم. كما أنَّ دليلَ الخلق والإيجاد ودليل الإتقان والإحكام مذكوران في القرآن الكريم.

وقد أفاض علماءُ الغرب الكلام عن هذه الحجج وذكروها بصياغات عقلية جيّدة، كما أنهم ردّوا على اعتراضاتِ الملاحدة. ولكنَّ الإشكال في هذا القسم من الحجج أنَّهم يتوسَّعون في العبارات التي يستخدمونها في حقِّ الله سبحانه وتعالى، ويذكرون ألفاظًا مُجملة في بعض الأحيان - كما سبق ذكرُه -. وهذه الألفاظُ تشير إلى أنّهم تبنوا عقيدةَ التعطيل في باب الصفات. فيجب على المسلم أن يكونَ على حذرٍ شديدٍ عندما يستفيدُ

من كلامهم في حقِّ الله تعالى. ولا بدَّ من مراجعة كلام علماء أهل السنة المحقِّقين مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم (رحمهما الله) في هذا الباب؛ حتَّى يتعلَّم المسلم كيفيةَ التعامل معَ هذه الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة. فيكتفي المسلمُ بالاستفادة من كلام علماء الغرب في الصياغات العقلية وردودهم على اعتراضاتِ الملاحدة، ولا يتوسَّع في الاستفادة من كلِّ ما قالوه عن هذه الحجج.

القسمُ الثّاني: الحججُ التي تكتسب قوَّتَها مع الحجج الأخرى: وهي: حجَّة الجمال، وحجَّة الوعي، والحجَّة الأخلاقية. فهذه الحججُ لا ينبغي إيرادها بمفردها بدون ذكرِ حجَّة الفطرة، ودليل الخلق والإيجاد (والحجة الكونية)، ودليل الإتقان والإحكام (والحجَّة الغائية وحجَّة التوافق الدقيق للكون) قبلها. ولكن لو بدأ بذكر الحجج القوية مِن القسم الأوَّل أوّلًا، ثمَّ هذه الحجج من القسم الثاني ثانيًا؛ فيكون في كلامه قوةٌ وإقناع. كما أنه يمكن ذكرُ هذه الحجج من القسم الثاني في نقد المذهب المادي، وبيانُ قصورِه الشديد. فكلٌّ مِن حجَّة الجمال، والحجَّة الأخلاقية، وحجَّة الوعي؛ تبطل المذهبَ المادي من أساسه. وقد تقدَّم مرارًا أنَّ المذهب المادي من أهمّ أسس الملاحدة على الإطلاق. فالخلاصةُ أنَّه يمكن أن يستفيد المسلم من هذه الحجج الثلاث من ناحيتين:

النَّاحيةُ الأولى: إيرادُ هذه الحجج بعدَ ذكر الحجج من القسم الأوّل.

النَّاحيةُ الثانية: في إبطال المذهب المادي.

ولكنْ لا ينبغي استخدامُ هذه الحجج بمفردها في إثباتِ وجود الله؛ لأنها لا ترتقي إلى القوَّة المعتبرة في الحجج من القسم الأوَّل.

القسمُ الثّالث: الحججُ الضَّعيفة: وهي: الحجَّة الوجودية والحجة البراغماتية. وقد سبقَ نقدُ هاتين الحجّتين بتفصيل، وتبيَّن أنّها حججٌ ضعيفة وواهية، وكانتا من أسباب سخريةِ الملاحدة بالنصارى. فلا يجوز للمسلم أن يتابعَ النصارى في إيراد هذه الحجج الباطلة.

وليستِ العبرةُ في الردِّ على الملاحدة: جمع أكبر قدرٍ ممكن من الحجج والبراهين. وإنَّما يجب أن يتحرَّى المسلم أقوى الحجج والبراهين والأدلة وذكرها

بأحسن صياغاتها مُحترزًا من النقد الذي يمكن أن يتوجَّه إليها. وقد أخطأ كثيرٌ من علماء الغرب في هذا الباب، واهتموا بذكرِ هذه الحجج الضعيفة، وصنَّفوا فيها مصنفات، وعقدوا من أجلها المناظرات. وكان ذلك مِن أسباب ظهورهم لعامَّة الناس في موقف الضعف والانهزام. فللمسلم في ذلك عظةٌ، ولا يجوز أن يقع فيما وقعوا فيه.

الفصلُ الثّاني

حججُهم العلميةُ على وجود الله

وفيه سبعةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: الحججُ المتعلقة بعلم الكون.

المبحثُ الثّاني: الحججُ المتعلقة بالفيزياء.

المبحثُ الثّالث: الحججُ المتعلقة بعلم الأحياء.

المبحثُ الرّابع: الحججُ المتعلقة بالكيمياء.

المبحثُ الخامس: الحججُ المتعلقة بعلم النفس.

المبحثُ السّادس: الحججُ المتعلقة بالرياضيات.

المبحثُ السّابع: نقدُ حجج علماء الغرب العلمية على وجود الله

تمهيد

حقيقةُ الحججِ العلمية على وجود الله:

هذا هو الفصلُ الثاني من الفصول الثّلاثة في هذا الباب، وموضوعُه: الحجج العلمية على وجود الله عندَ علماء الغرب. والمرادُ بالحجج العلمية بحاجةٍ إلى تحرير ودقّة. وذلك أنَّ العلم التجريبي في الأوساط الأكاديمية اليوم مبنيٌّ على المذهب الطبيعي المنهجي. والعلمُ التجريبي المبنيُّ على هذا المذهب يتحدَّث عن العالم المادي فقط - كما سبق بيانُه مرارًا -. وأمّا العلمُ بالله فهو علمٌ متعلِّق بما هو فوق الطبيعة، ولذلك لا يدخل ضمنَ العلم التجريبي بمفهومه المعاصر.

ولهذا لا يمكن أن يقال: إنَّ هذه الحجج العلمية حجج مباشرة، بل كلّها حججٌ بواسطة الحجج العقلية التي سبق ذكرها، ولا سيَّما الحجَّة الغائية.

وخلاصةُ الحجَّة الغائية أنها مبنيَّة على مقدّمتين ونتيجة:

المقدِّمة الأولى: وجودُ الإتقان والإحكام في المخلوقات.

المقدِّمة الثانية: الإتقانُ والإحكام يستلزم فاعلًا عليمًا حكيمًا.

النتيجة: المخلوقاتُ تستلزم فاعلًا عليمًا حكيمًا.

وقد سبق أنَّ الأدلة على المقدِّمة الأولى تنقسم إلى قسميْن أساسيين:

الدليلُ لأوَّل: الدليلُ الحسِّي المباشر.

الدليلُ الثّاني: الدليلُ العلمي التجريبي.

والأدلَّة على المقدِّمة الثانية تنقسم إلى قسمين أيضًا:

الدليلُ الأوَّل: الضرورة العقلية.

الدليلُ الثّاني: الضرورة الرياضية.

وهذا الفصلُ كلّه يتعلَّق بالدليلِ الثاني في المقدِّمة الأولى، والدليلِ الثاني في المقدّمة الثانية. وهو أنَّ علماء الغرب بيّنوا الأدلةَ العلمية على وجود الإتقان والإحكام في المخلوقات، كما أَنَّهم بيَّنوا استحالةَ وجود هذا الإتقان والإحكام مصادفة عن طريق الحسابات الرياضية الدقيقة.

وقد سبق أنَّ بعضَ علماء الرياضيات - كعالم الرياضيات الفرنسي كإيميل بوريل - حَسِب أنَّ ما تجاوز ١ إلى $١٠^{٥٠}$ يعتبرُ مستحيلًا، بينما حسبَ غيره - كعالم الرياضيات الأمريكي ستيفن ماير - الرقم بأنَّ أقصاه ١ إلى $١٠^{١٥٠}$.

وسيتبيَّن خلالَ هذا الفصل أنه إذا جُمع الإتقانُ الموجود في المخلوقات كلّها من الإتقان في بداية تكوُّن الكون إلى الإتقان في تركيب أصغر المخلوقات كالذرّة، فإنّه يتجاوزُ هذه الأرقامَ بمراحل. وهذا يدلُّ قطعًا على أنَّ وجود هذه المخلوقات عن طريق الصُّدفة مستحيل استحالةً قطعية، وأنه لا بدَّ من وجود خالق عليم قدير خلق هذه المخلوقات بهذا الإتقان.

وإضافةً إلى ذلك فإنَّ الحجج العلمية على وجود الله قد تدعم حججًا عقلية أخرى مثل: حجَّة الفطرة. فالأبحاثُ العلمية في علم النفس قد دعمت هذه الحجة كثيرًا - وسيأتي بيانُ ذلك في مبحث: الحجج المتعلقة بعلم النفس.

وليسهل فهمُ هذه الأدلَّة تمَّ تقسيمُ هذه الحجّج إلى ستّة أقسام: علمي الكون الفلك، والفيزياء، وعلم الأحياء، والكيمياء، وعلم النفس، والرياضيات.

المبحثُ الأوَّل

الحججُ المتعلِّقة بعلم الكون

هذا المبحثُ يتحدَّث عن علمين من العلوم التجريبية المتعلقة بالكون، وبينهما تشابهٌ إلى حدٍّ كبير، وهما: علم الكون وعلم الفلك. وبيانُ ذلك كما يلي:

علمُ الكون: هو «علم بداية الكون وتطوّره»(١).

علمُ الفلك: هو «علمٌ يشمل دراسةَ جميع الذوات والظواهر خارج الأرض»(٢). فيدخلُ في ذلك دراسةُ الشمس، والقمر، والنجوم، والكواكب، والمذنبات، والغازات، والغبار الكوني، وغيرها من الذوات والظواهر(٣).

فموضوع كلٍّ مِن العلميْن هو هذا الكون الفسيح وما فيه، والفرقُ بينهما: أنَّ علم الكون يتعلَّق بالكون بأكمله؛ كيف بدأ وكيف تطوَّر. وأمّا علم الفلك فيتحدَّث عنْ ذوات وظواهر معيَّنة في داخل هذا الكون. ولهذا كثيرٌ من مباحث علم الكون نظرياتٌ علمية مجرَّدة يستحيل اختبارها، مثل: نظرية الانفجار العظيم، ونظرية الأكوان المتعدّدة، ونظرية الأوتار الفائقة. وأمّا علماءُ الفلك فإنّهم يدرسون كثيرًا - وليس دائمًا - الذوات والظواهر المشاهدة(٤). وقد سبق أنَّ هذه العلوم ذات وجه تاريخي أقلّ رتبة من العلوم الصلبة التي يمكن اختبارها.

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/cosmology

(2) https://www.britannica.com/science/astronomy

(٣) انظر: https: / /www.space.com/16014 - astronomy.html

(٤) انظر: المصدر السابق.

ولهذا ينبغي أخذُ الحيطة في قبول كلِّ ما ذكره علماءُ الكون؛ لأنَّ بعض نظريات هذا العلم عليها مآخذُ كبيرة - كما سيأتي بيانُه في الباب الثالث إن شاء الله -. ولكن، معَ ذلك فإنه يجوزُ الاستدلال بما وردَ في هذا العلم من باب مخاطبة الخصم بما يؤمن به. فهؤلاء الملاحدةُ يتظاهرون بتعظيم العلم التجريبي - بما فيه علمُ الكون -، وبعض ما يذكرونَه في هذا العلم من دقَّة الإتقان والإحكام حجَّة قوّية عليهم، لأنه يستلزم الاعترافَ بوجود خالق عليم حكيم.

وفي ظلِّ هذا البيان سوف يتمُّ تقسيم هذا المبحث إلى قسمين: قسم عن علم الكون، وقسم عن علم الفلك:

القسمُ الأوَّل: الحججُ المتعلّقة بعلم الكون:

مِن أبرز الأدلَّة المؤيِّدة لحجَّة التوافق الدقيق للكون: الأدلة العلمية الكونية. ومن أبرزِ المؤلَّفات في هذه القضية كتاب: «فقط ستة أرقام: القوى العظمى التي تشكّل الكون» (Just Six Numbers: The Deep Forces That Shape the Universe) للبروفسور مارتن ريس[1]. والمؤلِّف يبيِّن أنَّ اتِّساق الكون يعتمد على ستَّة ثوابت فيزيائية أساسية للكون. وهذه الثوابتُ مضبوطةٌ بدقَّة مُتناهية، بحيث لو كان قيمها أقلَّ أو أكثر مما ينبغي لما كنّا هنا لكي نقرأ هذه الرسالة. وهي كالآتي:

الثابتُ الأوَّل: (N). ويقيس هذا الرقم: القوّة الكهرومغناطيسية (Strength of Electromagnetism) التي تربطُ الذرّات ببعضها مقسومة على قوى التجاذب (Strength of Gravity) بينَ الذرات. وهذا الرقم ساوي $١٠^{٣٦}$ ولو نقصت أصفار (N) أصفارًا قليلة، لما أمكن أن يوجد إلَّا كون ضئيل قصير العمر، وما كان لكائن أن ينمو إلى حجم أكبر من الحشرة[2].

---

(١) الكتاب مترجَم إلى اللغة العربية بهذا العنوان من قبل مركز براهين.

(٢) سيأتي المزيدُ من البيان عن القوة الكهرومغناطيسية في المبحث القادم إن شاء الله.

الثابتُ الثاني: (E) (إيبسيلون). وقيمته (٠,٠٠٧) يحدِّد قدرَ متانة (ارتباط الأنوية) ببعضها، وكيف صُنعت جميعُ الذرّات على الأرض. وقيمته تتحكّم[1] في القدرة الخارجة من الشمس، وتتحكَّم في كيفية تحويل النجوم للهيدروجين إلى باقي ذرّات الجدولِ الدوري. إنَّ الكربون والأوكسيجين منتشران، بينما الذهب واليورانيوم شحيحان؛ ذلك بسببِ ما يجري في النجوم. فلو كانت قيمة (E) (٠,٠٠٦) أو (٠,٠٠٨) لما كنّا نوجد اليوم.

الثابتُ الثّالث: (Ω) (أوميغا). ويقيس كمِّية المادة في كوننا، من مجرّات وغازات مُنتشرة ومادَّة مظلمة. يخبرنا (Ω) بالأهمّية النسبية للجاذبية وطاقة التمدّد في الكون، فلو كانتْ هذه النسبة أعلى مقارنةً بقيمتها (الحرجة)، لانهار الكون من زمن بعيد، ولو كانت أقلَّ لما تكوَّنت أيَّة مجرَّات أو نجوم. ولو اختلف (Ω) في الثانية الأولى من الكون في جزءٍ من المليون مليار (١ / من ١٠^١٥) فلن يظلَّ الكون إلى الآن.

الثابتُ الرّابع: (λ) (لمبدا). اكتشفَ العلماءُ عام ١٩٩٨ قوّة جديدة غير متوقّعة تتحكَّم، وهي الجاذبيةُ الكونية المضادَّة في تمدُّد كوننا. ذلك على الرغم من أنها لا تملك تأثيرًا واضحًا على مقياس أقلَّ من مليار سنة ضوئية. ولو لم تكن قيمة (λ) صغيرة جدًّا لأوقفَ تأثيرها تكوُّن المجرّات والنجوم، ولتعطَّل التطوّر الكوني قبل أن يبدأ أصلًا.

الثابتُ الخامس: (Q). يعتمد نسيجُ كوننا على هذا الرقم، الذي يمثّل (النسبة بين طاقتينِ أساسيَّتين)، وقيمته نحو ١٠٠,٠٠٠ / ١. فلو كان (Q) أصغر بقليل لأصبح الكون خاملًا وخاليًا من أيِّ بُنى، ولو كان (Q) أكبر من ذلك بكثير لأصبح الكون مكانًا مهلكًا عاصفًا، لا يمكن فيه لأيِّ نجم أو نظام شمسي أن يبقى على قيد الوجود، وستسودُ الثقوب السوداء[2] الهائلة.

---

(١) يستخدم المؤلّف مارتين ريس لفظَ (القيمة تتحّكم) لأنّه ملحد، وإلا فالمؤمن يعلم أن القيم لا تتحَّكم في شيء، وإنّما يحكم الخالقُ تعالى. ولكنّه يحكم وفق هذه القيم المضبوطة؛ فهي سننه الكونية في هذا العالم.

(٢) الثقب الأسود (Black Hole): مكان في الفضاء تسحب فيه الجاذبية كثيرًا لدرجة أن الضوء لا يستطيعُ الخروج منه. والجاذبية قوية جدًّا لأنَّ المادة قد ضغطت في مساحة صغيرة. يمكن أن يحدث هذا عندما يحتضر النجم. انظر:

https://www.nasa.gov/audience/forstudents/k-4/stories/nasa-knows/what-is-a-black-hole-k4.html

الثابتُ السادس: (D)، هو رقمُ الأبعاد الفراغية، وكان معروفًا منذ قرون، ولكن الآن يُنظَر إليه بمنظور مختلف(D) يساوي[1] ٣، ولم تكن الحياة لتوجد لو كان (D) يساوي ٢ أو ٤. الزمنُ بُعد رابع، لكنَّه مختلف عن بقيّة الأبعاد من ناحية أن فيه سهمًا موجّهًا، فنحن نتحرَّك إلى الأمام فقط، تجاه المستقبل. إنَّ المكان بالقرب من الثقوب السوداء منحنٍ جدًّا، لدرجة أنَّ الضوء يتحرَّك في دوائر، ويمكن أن يتوقّف الزمان تمامًا. بجانبِ ذلك، فقد يكشف المكانُ عن أعمق البُنى الموجودة على الإطلاق، وهي اهتزازاتُ وتناغماتُ أشياء تسمَّى بـالأوتار الفائقة (Superstrings)، في حلبة ذات عشر أبعاد، ويكون ذلك كلّه عندَ الاقتراب من حدوث الكون، وأيضًا على مقاييس ميكروسكوبية[2].

ثمَّ أردف ذلك قائلًا: «لقد سلَّطت الضوء على هذه الأرقام الستة لأنّ كلّ واحدٍ منها يلعب دورًا هامًّا ومميَّزًا في كوننا، وهي كلُّها معًا تحدِّد كيف يتطوّر الكون، وما الإمكاناتُ الداخلية والقوى الكامنة فيه. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ ثلاثة من هذه الأرقام - وهي تتعلَّق بالكون الكبير - تُقاس الآن بدقَّة. إنَّ هذه الأرقام الستّة تشكّل (وصفة) لكوْن ما. بجانب ذلك، فإنَّ الناتج حسَّاسٌ لقيم هذه الأرقام، ولو تعرَّضت إحداها لـ(إعادة ضبط) لما كانت هناك نجومٌ ولا حياة»[3].

ومعَ علمه بهذا الضَّبط الدقيق وقيام الحجَّة البالغة عليه، فإنَّ مارتن ريس ملحد، ويحاول تفسيرَ هذا الضَّبط الدقيق بنظرية الأكوان المتعدّدة. ولكنَّ علماء الغرب استدلّوا بهذه الأرقام الستَّة التي ذكرها مارتين ريس على وجودِ الخالق، أو على استحالة وقوع هذا الضَّبط الدقيق عن طريق المصادفة. فذكر البروفسور وليام لاين كرايغ - على سبيل المثال - هذه الأرقام الستَّة، ثمَّ قال: «لا يوجد أيُّ سبب معقول أن يفترض أن هذه صدفةٌ فقط من باب حُسن حظّ، وأنَّ التغييرات تعوّض بعضها عن

---

(١) الأبعاد الثلاثة هي: الطول، والعرض والارتفاع.

(٢) انظر: فقط ستّة أرقام (١٧ - ١٨).

(٣) المصدر السابق (١٩).

بعض، حتَّى تستطيع الحياة أن تبقَى حتَّى ولوْ حصل التغيير في هذه الأرقام. يبدو أن حجَّة الضبط الدقيق للكون موجودةٌ لكي تبقى»[1].

وإضافةً إلى هذه الثوابت الفيزيائية الكونية الستَّة الدالة على الضبط الدقيق في الكون، فقد ذكرَ علماءُ الغرب أدلة كونية أخرى تدلُّ على الضبط الدقيق، منها: دقّة سرعةِ التمدُّد الكوني، ودقَّة الأحداث في الدقائق الثلاث الأولى، ودقَّة مستوى إنتروبيا الكون. وبيانُ ذلك كما يلي:

- **الحجَّةُ الأولى: دقةُ سرعة التمدّد الكوني:**

أحدُ أهمِّ الأدلة العلمية على أنَّ للكون بداية هو: التمدُّد الكوني. فقد لاحظ الفلكيون أنَّ الكون يتمدَّد بسرعة هائلة، وبناءً على حساباتهم توصّلوا إلى أن الكون له بداية. كما أنَّهم توصَّلوا إلى أنَّ هذا التمدُّد الكوني كان مضبوطًا بدقّة شديدة جدًّا بعد ظهورِ الكون. وقد وصفَ دين أوفرمان هذا الضبطَ الدقيق بأنه لو كانت قوة الانفجار العظيم أكبرَ قليلًا فإنَّ الكون سوف يكون غازات فقط، ولكن لن يكوّن نجومًا ولا مجرَّات ولا كواكب، وبدونِ ذلك لن توجد حياة، وهذه المطابقةُ تقدير دقيق جدًّا يعادل ١ في ١٠^٥٥. فلو أنَّ معدَّل التمدُّد انخفضَ فقط بجزءٍ من ألف مليار ستنهار المادة في الكون إلى نقطةٍ وحيدة بعد بضعة ملايين من السنين[2].

ثمَّ استشهد بقولِ برنارد لوفل[3]: «حاولنا أن نصفَ المراحل المبكّرة لتمدُّد الكون، لكنَّ الوصف بالفيزياء النووية والنسبية ليس تفسيرًا، وظهرت أسئلة

---

(١) مقال: Design from Fine – Tuning
https://www.reasonablefaith.org/writings/question-answer/design-from-fine-tuning

(٢) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (130)

(٣) برنارد لوفل (Bernard Lovell): بروفسور الفيزياء في جامعة بريستول البريطانية، ومؤسس لإحدى المحططات الاختبارية لعلم الفلك في بريطانيا. توفي عام: ٢٠١٢م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Bernard-Lovell

مستعصية لا يظهر الآن كيفية البحث في الإجابة. في الواقع حتَّى الوصف العلمي لهذه التساؤلات ينتج فكرةً هامَّة، وهي أنه لا حلَّ لها بلغة العلم. لماذا تمدَّد الكون؟ والأكثر من ذلك: لماذا كان التمدُّد بالمعدَّل الحرج ليحمي الكونَ من الانهيار؟ هذه الأسئلة هامة، لأنّ أيَّ اختلاف طفيفٍ ستنعدم الحياةُ بسببه. في الثانية الأولى من تمدُّد الكون كانت الحرارة ١٠^١٠ كلفن، وكانتِ الكثافة ١جرام / سنتيمتر مكعب. هذه هي المرحلة التي يفترض أنها بالفعل يمكن حينَها وصفُ الكون بمفاهيم فيزيائية. لو انخفض معدَّل التمدُّد في هذه اللحظة بجزءٍ من ألف مليار سينهار الكونُ بعد بضعة ملايين من السنين، بالقرب من فترةِ الإشعاع أو الكرة النارية قبلَ انفصال المادة والإشعاع! هذه حقيقة مهمّة ظهرت مؤخَّرًا، على يدِ أحد أكثر علماءِ الكون تميّزًا، وهو الذي أشار إلى الأكوان المحتملة، ووجود كون واحدٍ فقط. وهو الوحيدُ الضروري من أجل نشوء حياة عاقلة»[1].

وقد بحثَ البروفسور بول ديفيز عن مسألة مدى دقَّة مطابقة قوى التمدّد بقوى الجاذبية في الثانيةِ الأولى من وجودِ الكون. واستنتج ديفيز أنَّ زمن بلانك كان مطابقًا بدقَّة ١ في ١٠^٦٠. فلو اختلف هذا المعدَّل فقط بجزء واحد من ذلك فلن توجد حياة. وضربَ مثالًا توضيحيًّا لهذه الدقّة بقوله: «ولنكوِّن تصوّرًا لهذه الأرقام، فلنفترض أنّك أردتَ أن تطلق رصاصةً على هدف بحجم بوصةٍ على الجانب الآخر من الكون، يبعد عنك ٢٠ مليار سنة ضوئية، فالدقةُ المطلوبة لهدفك ستكون ١ في ١٠^٦٠»[2].

ولا شكَّ أنَّ إطلاق رصاصة بهذه الدقّة مستحيل، فكذلك يستحيل أن تكون سرعة التمدُّد الكوني بهذه الدقَّة العالية عن طريق المصادفة.

---

(1) In the Center of Immensities (122-123), by: Bernard Lovell, (Harper & Row, 1978)

(2) God and the New Physics (179), by: Paul Davies, (J.M. Dent and Sons, 1983)

- **الحجَّةُ الثانية: دقّةُ أحداث الدقائق الثلاثِ الأولى بعد خلق الكون:**

قد اهتمَّ علماءُ الكون القائلون بالدقائق الأولى بعدَ حدوث الكون، وذكروا أن خلالَ هذه الدقائق المعدودة حصلت أحداثٌ في غاية الإحكام والإتقان. وقد ألَّف البروفسور الملحد ستيفن وينبرغ [1]كتابًا خاصًّا عن هذه الدقائق بعنوان: "الدقائق الثلاث الأولى: رؤية حديثة لأصول الكون" (The First Three Minutes: A Modern View of the Origin of the Universe)[2] في ٢٢٤ صفحة، ووصف ما حدث فيها من الأحداث التي أثّرت في استمرار وجود الكون.

وقد استدلَّ البروفسور جون بولكينغهورن بدقَّة أحداث هذه الدقائق الثلاث الأولى على وجودِ الله في مقاله: الكون القوي، ضمنَ كتاب: «دليل الغائية: علماء يكتشفون الخالق» (Evidence of Purpose: Scientists Discover the Creator). ومما ذكره في هذا المقال: دقَّةُ العلاقة بين القوَّة النووية القوّية[3] والقوّة النووية الضعيفة[4] في تلك الدقائق؛ فقال: «في الدقائقِ الثلاث الأولى من عُمر الكون كان الكون كلُّه منطقة للتفاعلات النووية. وعندما انتهتْ هذه الفترة خلالَ التبريد الناتج بسبب التمدّد لم يبق في العالم - كما هوَ اليوم في النطاق الواسع - إلَّا خليط: ربعُه من الهيليوم،

---

(١) ستيفن وينبرغ (Steven Weinberg): بروفسور الفيزياء النظرية الأمريكي وحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٧٩م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Steven-Weinberg

(٢) انظر: الصنع المتقن (٣٣٨ - ٣٣٩).

(٣) القوّة النووية القوّية (Strong Nuclear Force): هي إحدى القوى الأساسية الأربعة في الطبيعة، وتربط الجسيمات الأساسية للمادة معًا لتكوين جسيمات أكبر. انظر:
https://www.livescience.com/48575-strong-force.html

(٤) القوّة النووية الضعيفة (Weak Nuclear Force): قوة أساسية في الطبيعة تكمن وراء بعض أشكال النشاط الإشعاعي، وتحكم تحلل الجسيمات دون الذرية غير المستقرة مثل الميزونات، وتبدأ تفاعل الاندماج النووي الذي يغذي الشمس. انظر:
https://www.britannica.com/science/weak-force

والباقي من الهيدروجين. وأيُّ تغيُّر بسيط في التوازن بين القوى النووية الضعيفة والقوية يجعل الهيدروجين ينعدم، وبالتالي لن يوجد ماء - الذي يبدو ضروريًّا جدًّا للحياة -. وزيادة قليلة (٢ ٪) في القوى النَّووية الضعيفة سيرتبطُ البروتونات معًا، ولن يوجد أيُّ هيدروجين، وبالتالي لن توجد نجوم، وإنما توجد شعلاتُ الهليوم[١]، هي ضعيفة جدًّا إلى حدٍّ أنها لا تبقى كطاقة ولا تحافظُ على الحياة الكوكبية القادمة. أمّا لو قلَّت القوى النووية القوية بنفس النسبة فلن يترابطَ الديتورون[٢]، وستكون كارثة ذات نتائج نووية»[٣].

ويلزم الملحدُ أنْ يقول: إنَّ هذا التوافق الدقيق بين القوّة النووية القوّية والقوّة النووية الضَّعيفة في هذه اللحظات القليلة حصلتْ مصادفة، بدون أيِّ نوع من أنواع التدبير، وأضفْ إلى ذلك بقيَّة الأحداث الكثيرة المتقنة التي وصفَها البروفسور وينبرغ في كتابه عنِ الدقائق الثلاث الأولى. فكيف يخطر ببالِ عاقلٍ أنَّ هذا كلّه لم يكن بتدبير خالق عليم حكيم؟!

- **الحجَّةُ الثّالثة: دقَّةُ مستوى إنتروبيا الكون:**

ينصُّ قانون الديناميكا الحرارية الثاني على أنَّ الميل الطبيعي لأيّ نظام مغلق هو: الميلُ نحوَ انحطاط في حالة غير مرتَّبة[٤]. فالكون يسير نحوَ ما يسمَّى بالإنتروبيا[٥]؛

---

(١) الهليوم (Helium): عنصر غازيّ نادر، خفيف الوزن، عديم اللَّون والرَّائحة خامل في تفاعله، وغيرُ قابل للاشتعال، يُوجد مع الغاز الطَّبيعيّ ومع الخامات ذات النّشاط الإشعاعي، ويستخدم في ملء المناطيد. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٣٦٢).

(٢) الديتورون (Deuteron): هو جسيم مستقر مكوّن من بروتون ونيوترون. كذرة، يطلق عليه الديوتيريوم. انظر:
http://hyperphysics.phy-astr.gsu.edu/hbase/Particles/deuteron.html

(3) Evidence of Purpose: Scientists Discover the Creator (111), ed. John Marks Templeton, (Templeton Foundation, 1994)

(٤) انظر:
https://www.livescience.com/50941-second-law-thermodynamics.html

(٥) الإنتروبي (Entropy): اختلال في النظام أو القدرة على التنبؤ؛ والانخفاض التدريجي في الفوضى. انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definition /entropy,

فلا بدَّ أن الكون بدأ في حالةٍ من الترتيب العالي والانخفاض في الإنتروبيا لكي يبقى هذا المستوى من التَّرتيب اليوم. وقد قام البروفسور روجير بنروز(١) بحساب انخفاض الإنتروبيا ووجود الطاقة القابلة للاستعمال في لحظةِ نشوء الكون الأولى في مقابل عدم تحقّق هذا الظرف فوجدَ أنَّه واحد من ١٠ أس ١٠ أس ١٢٣، يعني: ١٠ أس ١٠^١٢٣. وهذا الرقمُ ضخم، ليس بإمكان تصوّره؛ قال البروفسور بنروز: «حاول أن تتخيّل فضاء الطور(٢)... للكون بأكمله؛ فكلُّ نقطة من فضاء الطور هذا تمثِّل طريقة مختلفة قد يبدأ منها الكون. علينا أن نتصوَّر أنَّ خالق الكون معه دبوس - وسيضعه في نقطة ما من فضاء الطور... إن كلَّ مكان يحتمل أن يوضَع فيه الدبوس سينتج كونًا مختلفًا؛ إن الدقة المطلوبةَ لتصويب الخالق للدبوس تعتمد على إنتروبيا الكون الذي سيخلق. سيكون من السَّهل نسبيًّا إيجادُ كون عالي الإنتروبيا لأنه ستوجد مساحةٌ كبيرة من فضاء الطور يمكن للدَّبوس أن يصيبها، ولكن لنبدأ بكوْن يتمتَّع بحالة منخفضة من الإنتروبيا - بحيث يكون وجودُ القانون الثاني من الديناميكا الحرارية ممكنًا - فإنَّ على الخالق أن يستهدف وضعَ الدبوس ضمنَ حجمِ أصغرَ من فضاء الطور، كم ستكون ضآلة هذه المنطقة من فضاء الطور لينتج كونًا مشابهًا لكوننا الذي نعيش فيه؟»(٣).

وقد قادته حساباتُه إلى أنَّ إصابة الخالق كانت دقيقة إلى حدّ ١ أس ١٠ أس ١٠^١٢٣.

وقد علَّق دين أوفرمان على هذا الرقم بأنَّ هذا رقمٌ خارق، وأنه لا يمكن لأحدنا حتَّى كتابته كاملًا، فهو واحدٌ متبوع بـ ١٢٣ صفر، فإذا فرضنا أننا كتبنا صفرًا على كلِّ بروتون مُنفصل في الكون: وكذلك على كلِّ نيوترون مُنفصل: وأن نقوم بتوزيع الأصفار على

---

(١) روجير بنروز (Roger Penrose): بروفسور الرياضيات في جامعة أكسفورد سابقًا، والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ٢٠٢٠ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Roger-Penrose

(٢) فضاء الطور (Phase Space): فضاء افتراضي لوصف حالة جسيم ذي ستة أبعاد. انظر:
http://www.uobabylon.edu.iq/eprints/paper_2_28511_1681.pdf

(3) The Emperor's New Mind (344), by: Roger Penrose, (Oxford University Press, 1989)

الجسيْمات الأخرى ذات المقياس الجيّد: فسوف نفشل ونعجزُ تمامًا عن كتابة هذا العدد من الأصفار: لعدم توفُّر العدد اللازم من دقائق الكون كله من البروتونات والنترونات[1].

وهذا يتعلّق بأمرٍ واحد فقط من الأمور الكثيرة المتعلّقة بالضبط الدقيق للكون، وهو: انخفاض الإنتروبيا في الكون. ولكن كيف إذ جُمع كلُّ ما يتعلّق بالضبط الدقيق؟ ما إمكانية أنَّ الكون تركّب صدفة علميًّا؟

هل يمكن أنَّ الكون تركّب صدفة علميًا؟

المسلم يعلم علمَ اليقين أنَّ الله خلق هذا الكون، وأنّه لا يمكن لهذا الكون الفسيح أنْ يظهر بهذا النظام والإتقان صدفة. وذلك بناءً على الأدلة النقلية القطعية، كما أن الفطرةَ السوية والعقلَ السليم تدلّان على ذلك. ولكن الملحد لا يعترف بالأدلة الشرعية، وقد انسلخَ عن الفطرة السوية والعقل السليم، ويزعم أنّه يعتمد على العلم التَّجريبي. فهل يمكن أنَّ الكون ظهر بهذا النظام والإتقان صدفة علميًّا؟ الجواب: لا. لنرجعَ إلى ما تقرَّر في بداية المبحث من حدود المستحيل، وأن بعض العلماء حسبوه بـ ١ إلى ١٠^٥٠، وأقصى ما ذُكر هو ١ إلى ١٠^٥٠. فما إمكانية تركّب الكون بجميع خصائصِه صدفة؟ حسبه البروفسور بنروز عام ١٩٧٩ م. أن إمكانيته ١ إلى ١٠^٣٠٠، وهذا قبلَ اكتشاف رقم (لمبدا) مثلًا – الذي اكتشف عام ١٩٩٨ م. كما سبق ذكرُه –. فكيف اليوم، وقد تطوَّر العلم تطوّرًا هائلًا؟

قد ذكر الدكتور هيو روس أنَّ العلماء اكتشفوا ١٥ من خصائص الضبط الدقيق في الكون لكي يكونَ متهيئًا للحياة في عام ١٩٨٨م. ولكنَّ هذا العدد ازداد إلى ٩٣ في عام ٢٠٠٥م، و١٤٠ في عام ٢٠٠٦م.[2]!

واكتشافاتُ العلماء لخصائص الضبط الدقيق في الكون في تزايدٍ مستمرٍّ مع تطوّر العلم. وكلَّما تطوُّر العلم تتبيَّن استحالة وقوع هذا الضبط الدقيق في الكون صدفة؛

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self - Organization (140)

(٢) انظر: Why the Universe is the Way it is? (122)

فإمكانيةُ حدوث الحياة في الكون صدفة ليس في عداد المستحيل فقط، بل يتجاوز المستحيل بمليارات المليارات المليارات المليارات من المرّات - وهلمَّ جرّا -. لا يمكن علميًّا أنَّ هذا الكون الفسيح، بهذا الضبط الدقيق قد ظهر صدفة. وهذا فيما يتعلّق بالحجج مِن علم الكون فقط، فكيف إذا جُمعت ببقية الحجج العلمية؟

القسمُ الثّاني: الحججُ المتعلّقة بعلم الفلك:

الحججُ المتعلّقة بعلم الفلك لا تعدُّ ولا تحصى، وذلك لكثرة الذوات والظواهر في الكون، وكلُّها خُلقت وفقَ ضبط دقيق للغاية. ولكيْلا يطولُ الكلام يُختصر الحديث في هذا المقام على ما يركِّز عليه علماءُ الغرب في حديثهم عن الحجج العلمية المستنبطة من علمِ الفلك، هو خصائصُ هذا النظام الشمسي، وهذه الأرض لظهور الحياة.

وقد ذكرَ الدكتور هيو روس أنَّ العلماء اكتشفوا ٤١ من هذه الخصائص في عام ١٩٩٥م، وازدادَ العددُ إلى ٦٧٦ عام ٢٠٠٦ م.[١]!

ولكنَّ هذا الأمر يتعلّق بأدنى نوعٍ من أنواع الحياة مثل: البكتيريا، وأمّا خصائص الضبطِ الدقيق المطلوبة لوجود الإنسان فعددُه ٨٢٤ عام ٢٠٠٦م. وذكر الدكتور روس أنَّ إمكانية وجود الإنسان في كوكب ما هو ١٠ - ١,٠٥٠. فإمكانية وجود الحياة مثل البشر يتطلَّب الضبطَ الدقيق أقوى بـ $١٠^{٧٠٠}$ مرّة من وجود الحياة في مثل البكتيريا! وذلك مع أنَّ عددَ البروتونات والنيوترونات لا يتجاوز عددها $١٠^{٧٩}$ في الكون المشاهد كلِّه[٢]! فكيف يظنُّ عاقلٌ أن الحياة ظهرت صدفة؟!

وقد يصعب فهمُ هذه الأرقام، ولكنْ قد ذكر سكون هوس بعضَ هذه الخصائص بطريقةٍ مختصرة سهلة، مع دلالتها على الخالق إذ قال:

«يتطلَّب وجودُ الخلق بالضرورة وجودَ الخالق، ويتطلَّب التصميم المعقّد مصمِّمًا خبيرًا ذكيًّا دقيقًا؛ الساعة تحتاج إلى صانع الساعات، هذا منطق بسيط صرف.

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (١٢٣).

لنفترض أنَّ روّادَ الفضاء عندما هبطوا على القمر وجدوا نظامَ حاسوب متقدّمًا جدًّا واقعًا بين الصخور؛ فهلْ من المعقول والمنطقي أن يخلُصوا إلى أنه قد «تطوّر» بتأثير التصادمات المحظوظة للنيازك مع تشكّلات الصخور الموضعية القمرية أو عبر بعض الحوادث العَرَضية الأخرى؟ أو هل من المنطقي أكثر أن يخلُصوا إلى أنّه صُمِّم وبُني بدقّة من قبَل خالق عليم؟ يشير المنطق الشائع إلى التفسير الأخير بالطبع!...

وبالمثل، فإنَّ دليلَ تصميم النظام الشمسي / الأرضي من قِبَل الإله يفوق بكثير أية احتماليةٍ أخرى تدَّعي بأنه قد تشكّل هكذا أو أنه تجمّع مع بعضه بالصدفة البحتة. وسنعتبر خصائصَ قليلة للنظام الشمسي / الأرضي يبدو أنها صُممت بدقة وعناية شديدتين لهدف فريد يدعم الحياة»[١].

ثمَّ ذكر ١٣ مِن خصائص النظام الشمسي / الأرضي[٢] بطريقة سهلة ميسّرة مع المراجع المعتمدة، يفهمها حتَّى غير المتخصّص؛ وهي كالتالي:

الأولى: تبعدُ الأرضُ بالمسافة الصحيحة تمامًا عن الشمس بحيث تصل الكمّية المناسبة من الحرارة التي تدعم الحياة، بينما الكواكبُ الأخرى في المجموعة الشمسية إما قريبةٌ جدًّا من الشمس (ساخنة جدًّا) أو بعيدة جدًّا (باردة جدًّا) للحفاظ على الحياة[٣].

الثانية: إنَّ أيَّ تغيُّر مُدركٍ لمعدّل دوران الأرض سيجعل الحياة مستحيلة. فمثلًا، إذا دارتِ الأرض بمقدار عُشْر دورانها الحالي ستحترق كافَّة الحياة النباتية أو تتقصف أثناء اليوم أو تتجمّد في الليل[٤].

---

(1) The Collapse of Evolution (98)

(٢) هذه ١٣ من الخصائص، وقد ذكر الدكتور هيو روس أن العلماء اكتشفوا ٨٢٤ عام ٢٠٠٦! فلو أردنا ذكرها كلّها لطال البحث كثيرًا.

(٣) انظر:
Creation or Evolution (18), by: D.D. Riegle, (Zondervan Publishing House, 1971)

(٤) انظر: المصدر السابق.

الثّالثة: تبقى تغيُّرات الحرارة ضمنَ الحدود الطبيعية بسبب المدار الدائري تقريبًا للأرض حول الشمس[1].

الرّابعة: تكون أقصى درجاتِ الحرارة مُعتدلة بسبب بخار الماء وثنائي أكسيد الكربون في الجو، والتي تؤدّي إلى الاحتباس الحراري[2].

الخامسة: يدور القمرُ حولَ الأرض بمسافة تقدَّر بحوالي ٢٤٠,٠٠٠ ميلًا، ما يُعطي مدًّا وجزرًا غيرَ مؤذٍ للأرض، ولو توضع أبعد بخُمس هذه المسافة، فستندمج القارات مع بعضها تمامًا مرتين يوميًّا[3]!

السّادسة: يبدو أنَّ سماكة قشرةِ الأرض وعمق المحيطات مصمّمان بحذر، حيث ستبدّل أيَّة زيادة في السماكة أو العمق ببضعةِ أقدام فقط بشكل مدمّر امتصاص الأوكسجين الحرّ وثنائي أوكسيد الكربون الذي تحتاجه النباتات والحيوانات لتعيش[4].

السّابعة: يميل محورُ الأرض بمقدار ٢٣,٥ درجة من العمودي إلى المستوى المداري. وهذا المَيلُ معَ مسار الأرض حول الشمس يسببان الفصول الضرورية بالتأكيد لنمو الموارد الغذائية[5].

الثّامنة: يشكِّل الغلافُ الجوّي للأرض (طبقة الأوزون) طبقة حامية من الإشعاع الشَّمسي فوقَ البنفسجي المميت، والذي قد يدمّر كافة أشكال الحياة[6].

---

(١) انظر:
Handy Dandy Evolution Refuter (133), by: R.E. Kofhal, (Beta Books 1977)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: (١٩ – ١٨) Creation or Evolution

(٤) انظر: المصدر السابق (١٩).

(٥) انظر: المصدر السابق (١٩ – ٢٠).

(٦) انظر المقال: Ozone layer, a shield against UV rays
https://www.lifegate.com/people/news/ozone-hole

التّاسعة: يحمي الغلافُ الجوي للأرض أيضًا من حوالي عشرين مليون نيزك تقريبًا يدخلونه كلَّ يوم بسرعات تقدّر بثلاثين ميلًا في الثانية! وستغدو الحياة بدون هذه الحماية الضرورية ضربًا من الخيال(١).

العاشرة: إنَّ الأرض بحجمٍ فيزيائي وكتلة تامّين لتدعم الحياة وتوفّر توازنًا دقيقًا بين القوى الجاذبة (الضَّرورية للحفاظ على الماء والغلاف الجوي) وبين الضغط الجوي(٢).

الحادية عشْرة: إن المكوّنَيْن الأساسيَّيْن لجو الأرض هما النتروجين (٧٨٪) والأوكسجين (٢٠٪)، وهذه النسبة الدقيقة والحدّية ضرورية لكافة أشكال الحياة(٣).

الثانية عشْرة: يقدِّم الحقل المغناطيسي الأرضي حمايةً هامَّة من الإشعاع الكوني الضار(٤).

الثالثة عشْرة: الأرضُ مباركة بوافر فيّاض من الماء، وهو المكوِّن الأساسي للحياة بسببِ خصائصه الفيزيائية الضرورية والهامة(٥).

ثمّ استخلص المؤلِّف بعدَ ذكر هذه الخصائص كلّها: «يمكن ذكر عددٍ من الأمثلة الأخرى التي تدعم فكرةَ خلق الأرض وتصميمها بدقة لهدف واضح، حيث تشير - بشكلٍ قاطع - هذه الارتباطات التامَّة المعقّدة من الظروف المتماسكة والعوامل الضرورية لأشكالِ الحياة لتصميم ذكيٍّ ذي مغزًى، وإنَّ الاعتقادَ بأنَّ نظامًا مخطّطًا معقّدًا متوازنًا بدقَّة يدعم الحياة نتيجةَ الصدفة البحتة لا معنًى له طبعًا، فبالتأكيد ليس

---

(١) انظر: Creation or Evolution (20)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: Creation or Evolution (19)

(٤) انظر المقال: Earth’s magnetic field provides vital protection
http://www.esa.int/Our_Activities/Space_Science/Cluster/Earth_s_magnetic_field_provides_vital_protection

(٥) انظر المقال: Why is Water so Essential for Life
https://www.livescience.com/52332-why-is-water-needed-for-life.html

للمتفكِّر الصّادق الموضوعي ملاذٌ إلّا الاستنتاج بأنَّ النظام الشمسي / الأرضي مصمَّم بدقة وذكاء من قِبَل الإله لأجل الإنسان»[1].

وهذا كلامٌ سديد - معَ التحفُّظ على بعض العبارات المستخدمة -، يمثّل الخلاصة التي ينبغي أن يتوصَّل إليها كلُّ عاقل يتدبّر هذه الأدلة الواضحة البيّنة.

تقييمُ الحجج المتعلّقة بعلمي الكون والفلك:

قد سبقَ أنَّ علم الكون يختلف عن علم الفلك من حيث أنَّ بعض مباحث علم الكون تتعلَّق بنظريات ظهور الكون إلى الوجود. وهذه النظريات مبنية على نظريات علمية مجرّدة، وليست على مشاهدات. وفي كثير من هذه المباحث نظرٌ - كما سيأتي بيانُه -. وأمَّا مباحث علم الكون المتعلّقة بتركيب الكون ككلّ، فهي مباحث علمية مُستندة إلى أدلةٍ علمية مشاهدة، وعليه فهو أقوى. وأمَّا علم الفلك فهو دراسة ذوات وظواهر مشاهدة، وبالتالي وعليه فهو علمٌ قويٌّ صلب.

واللهُ تعالى يرشدنا إلى تأمُّل آيات السماء والأرض والنجوم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]، كما أنَّ الله أنكر على الكافرين إعراضهم عن تأمّل آيات السماء والأرض بقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ۝١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥ - ١٠٦].

ومَن تأمَّل هذه الآيات يجد أنَّ الله يرشدُ إلى تأمُّل أشياء مشاهدة، وبهذا التأمّل يقيم الحجَّة على الإنسان، ولا يقيم الحجَّة على الإنسان بتدبّر أشياء لم يشاهدها في الغالب. ومِن الأمثلة على ذلك: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [فصّلت: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤ ﴾ [الملك: ٣ - ٤].

---

(1) The Collapse of Evolution (98-101)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦ – ٨].

وإن ذكر الله تعالى كيفيةَ خلق السماوات والأرض في بعض الآيات مع الإنكار على كفر الكافرين في بعض الأحيان، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصّلت: ٩ – ١١].

فالتزامُ منهج الاستدلال بالمخلوقات المشاهدة على الخالق أقوى من الاستدلال بنظريات علمية - لا سيَّما إذا كان في بعضها نظر -. ولكن، يبقى أن الاستدلال بمباحثِ علم الكون على الملاحدة استدلالٌ جيِّد من حيث الإلزام، لأنّهم يحاولون تفسيرَ ظهور الكون بهذا العلم، وعلماء هذا العلم أنفسهم يبيّنون أن ظهور الكون بهذا الضَّبط الدقيق صدفةً مستحيل. وبذلك تقام الحجَّة عليهم من العلم الذي يستدلّون به.

المبحثُ الثّاني
الحججُ المتعلِّقة بالفيزياء

هذا المبحثُ يبيِّن الحججَ المستنبطة من الفيزياء التي يستخدمها علماء الغرب في الاستدلال على وجود الله.

وقد عرَّف قاموس أكسفورد الفيزياء بأنَّها: «فرعُ العلوم المعني بالطبيعة، وخصائصُ المادة والطاقة. وموضوعُ الفيزياء يتضمَّن الميكانيكيات، والحرارة، والضوء، وغيرَه من أنواع الإشعاع، والصوت، والكهرباء، والمغنطيسية، وبنية الذرّات»[1].

وكما هو واضحٌ من التعريف فإنَّه علمٌ واسع، يصعب حصرُه. ولكن يمكن حصرُ أكثر كلام علماء الغرب في هذا النوع من الحجج في نقطتين:

النُّقطةُ الأولى: دلالةُ القوانين الفيزيائية على الخالق من حيث العموم.

النُّقطةُ الثّانية: دلالةُ الضَّبط الدقيق لتفاعل القوى الأساسية الفيزيائية على الخالق.

وبيانُ هاتين النقطتين كالآتي:

النُّقطةُ الأولى: دلالةُ القوانينِ الفيزيائيةِ على الخالقِ من حيثُ العموم:

قد اكتشفَ العلماء أنَّ الطبيعة متَّسقة وغير عشوائية؛ فهي محكومة بقوانين فزيائية مضْبوطة للغاية. والعلمُ التجريبي مبنيٌّ على فرضية اتّساق الطبيعة، وإلا ما أمكن دراستُها. وإذا كانت الطبيعةُ غير مخلوقة - كما يقوله الملاحدة - وإنَّما هي نتيجة الانفجار العظيم - وهو حدثٌ عرضي - فلماذا تكون الطبيعة محكومةً بهذه القوانين الفيزيائية المضبوطة؟ يمكن للعالم الملحد توصيف القوانين الفيزيائية بدقّة، ولكن لا يمكنه - وفق منظورِه الإلحادي - تفسيرُ وجودها في الأصل بهذه الدقة.

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/physics

وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي هذه النقطةَ فذكر أنَّ قوانين الطبيعة متّسقة، فهي لا تتغيَّر تلقائيًّا، وتعمل في الكون كلِّه. وقوانين الطبيعة تعملُ في المستقبل كما عملت في الماضي، وهذا أكثرُ الافتراضات أساسية في العلم كلِّه، ودون هذا الافتراض تصبح ممارسةُ العلم مستحيلة؛ فلو أنَّ قوانين الطبيعة تغيّرت فجأة واعتباطًا في الغد فلن تفيدنا في المستقبل نتائجُ التجارب التي أجريناها في الأمس. فتساءل الدكتور ليزلي: لماذا يمكننا الاعتمادُ على قوانين الطبيعية لتعمل باتِّساق عبر مرور الزمن؟ لا يمكن العالم العلماني تفسير هذا الفرض المهم[١].

وذكرَ الدكتور ليزلي بعد ذلك أنَّ الكون يطيع قواعد محدَّدة، وهي قوانين تلتزم بها جميعُ الأشياء. وهذه القوانين دقيقةٌ، وطبيعةُ الكثير منها رياضية. وللقوانين الطبيعية هيكلٌ هرمي بطبيعتها؛ فالقوانين الثانوية للطبيعة تُبنى على القوانين الأساسية للطبيعة، ويجبُ أن تكون هذه القوانين بالترتيب المناسب في كوننا ليصبح وجودها ممكنًا. وتسائل الدكتور: مِن أين أتتْ هذه القوانين؟ ولماذا توجد؟ إن كان الكون مجرَّد حادث عرضي للانْفجار العظيم؛ فلماذا يخضع لمبادئ ناظمة، أو لماذا يخضع لأي نوع من المبادئ على الإطلاق؟ فأجابَ بأنّ القوانين الطبيعية توجَد لأنّ الكون له خالق، وهذا الخالقُ يتَّصف بالعلم وقد فرض النظام على كونه[٢].

ولهذا لا يمكن تفسيرُ وجود هذه القوانين أصلًا إلّا بوجود الله المتّصف بصفات العلم والحكمة والإرادة؛ قال الدكتور ليزلي: «فعلمُ الله مؤثِّر في الكون، ولذلك لا نجد في الكون فوضى أو عشوائية؛ فالكونُ يخضع لقوانين الكيمياء التي اشتقت منطقيًّا من قوانينِ الفيزياء، وكثيرٌ من القوانين يمكن اشتقاقها منطقيًّا من قوانين فيزيائية أخرى أو قوانين رياضية؛ فالقوانينُ الأكثر أساسية في الطبيعة توجد لأن الله أرادها، فوجودها منطقيٌّ وأمرٌ يتَّسق مع حفظ الله وإمداده للكون الذي خلقه. ولكنّ

(١) انظر: A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: (77)

(٢) انظر: المصدر السابق (٧٠).

الملحد لا يستطيع تبريرَ حالة الكون المنطقية والمنتظمة، فلماذا يطيع الكون القوانين إن لم يوجد واضع لهذه القوانين؟»[1].

فيمكن بناءُ هذه الحجّة بصياغة منطقية كالآتي:

المقدِّمة الأولى: الطبيعةُ محكومةٌ بقوانين فيزيائية دقيقة للغاية.

المقدِّمة الثانية: كلُّ قانون لا بدَّ له من مقنِّن.

النتيجة: إذًا، القوانين الفيزيائية لها مقنّن، وهو الله تعالى.

وهذه الحجَّة واضحةٌ وبيِّنة، ولكنَّها عامة، وأمّا تفاصيلها فبيانُها في النقطة الثانية والثّالثة.

النُّقطةُ الثّانية:
دلالةُ الضبط الدقيق لتفاعل القوى الأساسية الفيزيائية على الخالق:

قد اكتشف العلماءُ أنَّ الكون تحكمه أربعُ قوى فيزيائية مختلفة، وهي: القوّة الجاذبية (Gravitation Force)، والقوة الكهرومغناطيسية (Electromagnetic Force)، والقوة النووية القويّة (Strong Nuclear Force)، والقوة النووية الضعيفة (Weak Nuclear Force). وهذه القوى الفيزيائية الأربع تتباين فيما بينها بشكلٍ ملحوظ، وهي ذات قيم ومقادير محدّدة بعناية. وبيانُ ذلك كما يأتي:

القوَّةُ الجاذبية: هي أضعفُ القوى الأربعة، ولكنَّها قوَّة ذات مدى طويل، وتعمل على كلِّ شيء في الكون كقوَّة جذب. وهذا يعني أنَّها مؤثّرة في الأجسام الكبيرة، فإنّ القوةَ الجاذبية يمكن أن يضافَ بعضها إلى بعض بحيث تتغلّب على كلّ القوى الأخرى.

القوَّة الكهرومغناطيسية: قوَّة ذات مدًى طويل، وأقوى بكثير من الجاذبية، ولكنّها تعملُ فقط في الجسيْمات المشحونة كهربائيًّا، وتكون متنافرة بين الشحنات المتشابهة، ومُتجاذبة بين الشُّحنات المضادة. وهذا يعني أنَّ القوى الكهربائية بين الأجسام الكبيرة يلغي بعضُها البعض، ولكنَّها سائدة على المستوى الذرّي والجزيئي.

---

(١) المصدر السابق (٧١ ـ ٧٢)

تُبقي القوّة الكهرومغناطيسية على الإلكترونات في مداراتها حولَ نواة الذرّة، ومن ثمّ فهي المسئولة عنْ تماسك كلِّ أشكال المادة المألوفة لدينا. ومن ثَمَّ، فالقوى الكهرومغناطيسية هي المسئولة عن كلِّ الكيمياء والبيولوجيا.

القوَّة النووية القويَّة: تمسك أيضًا البروتونات والنيوترونات نفسها، وهي ضرورية لكوْن تلك الجسيمات مكوَّنة من جسيمات أدقّ، كالكوركات [١]. إن القوَّة القوية هي مصدرُ طاقة الشمس والطاقة النووية.

القوَّة النووية الضعيفة: تسبِّب النشاط الإشعاعي، وتؤثّر تأثيرًا حيويًّا في تكوين العناصرِ في النجوم، وفي الكون المبكّر؛ حيث يعتمد معدَّل الاحتراق على شدّة القوّة الضَّعيفة، التي تحوِّل البروتون إلى نيوترون في تحويل بيتا العكسي [٢]. إنّ القوّة الضعيفة تدينُ بضعفها هذا (على الأقلِّ على مستوى الطاقات المألوفة على الأرض والشمس) إلى الكتلة الكبيرة للبورزون [٣] W وما يرتبط بها من مدى محدود. إذًا، ما يتحكَّم في بدء الاحتراق الشمسي هو «ضعف» القوَّة النووية الضعيفة، والذي بدوره محكوم بالكتلة الضخمة للبوزون [٤] W.

وقد استدلَّ علماءُ الغرب بالضبط الدقيق لهذه القوى الفيزيائية الأربع على وجود خالقٍ عليم حكيم ضبطَها بهذه الطريقة. وبيانُ ذلك كما يأتي:

---

(١) كوارك (Quark): هو أحد المكونين الأساسيين للمادة في نظرية النموذج القياسي لفيزياء الجسيمات. انظر:
https://www.marefa.org/%D9%83%D9%88%D8%A7%D8%B1%D9%83

(٢) تحويل بيتا (Inverse Beta Decay): الاضمحلال الإشعاعي الذي ينبعث منه الإلكترون، انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definition /beta_decay,

(٣) بوزون (Boson): تصنف جميع الجسيمات الأولية باعتبارها بوزونات أو فرميونات... البوزونات القياسيةgauge bosons)) هي جسيمات أولية تعمل كجسيم حامل للقوى الأساسية مثل: بوزون الشعاع W بالنسبة للقوة الضعيفة. انظر:
https://www.marefa.org/%D8%A8%D9%88%D8%B2%D9%88%D9%86

(٤) انظر: الصنع المتقن (٢٧٥ – ٢٨٠).

الضَّبطُ الدقيق لقوّة الجاذبية:

قد أثبتتِ الحسابات التي قامَ بها براندون كارتر - عالم الفيزياء النظرية الأسترالي - أنَّه لو تغيَّر «ثابت نيوتن للجاذبية» (Newton's Gravitational Constant) بمقدار صغير جدًّا لا يتعدَّى 10^{72} لما كانت الشمسُ موجودة، ولما أصبحت الحياة على كوكب الأرض ممكنة[١].

وقد علَّق الدكتور جاسون ليزلي على الضبط الدقيق لهذا القانون بقوله: «اعتبر الآن قانون الجذب $F=GMm/r^2$. هنا؛ قوة التجاذب (F) المطبقة على جسم كتلته(m) من طرف كتلة مجاورة (M) على مسافة (ﷺ) يعبّر عنها بهذه المعادلة البسيطة. المعلم (G) هو ثابت الجاذبية الكوني، ويضبط قوة الجاذبية التي يطبق على كل شيء في الكون. و(G) هو عددٌ ضئيل جدًّا؛ لذلك، فقوَّةُ الجاذبية أضعف من القوى الثلاث الأساسية الأخرى (القوة الكهرومغناطيسية، القوة النووية الضعيفة والقوة النووية القوية). وإذا كان القول بالخلقِ غيرَ صحيح (أي أنَّ الكون ليس له مصمّم)، فلماذا إذن يجب أن تخضع الجاذبيةُ إلى صيغة منطقيَّة بسيطة كهذه؟ ولذاتِ الأمر، لم لا يجب أن تخضع الجاذبية لأيَّة صيغة مطلقًا؟ قانونُ الجاذبية يقتضي إذًا وجودَ معطٍ لهذا القانون، وهذا متماشٍ مع حقيقة الخلق»[٢].

الضَّبطُ الدقيق للقوّة الكهرومغناطيسية:

وقد بيَّن دين أوفرمان عنِ الضَّبط الدقيق للقوّة الكهرومغناطيسية بأنّ القوَّة الكهرومغناطيسية هي التي تربطُ بين البروتونات والإلكترونات في الذرة. ومسارُ الإلكترون حولَ النواة يمكِّن الذرة من الترابط معَ ذرة أخرى لتكوّنا الجزيء. فلو كانتِ القوة الكهرومغناطيسية أقلَّ قليلًا فلن يبقى الإلكترون في مساره حول النواة،

---

(١) انظر:

Superforce: The Search for a Grand Unified Theory of Nature, by: Paul Davies, (Simon and Schutster, 1984)

(2) Taking Back Astronomy (36)

وبالتالي فأيُّ تغيُّر في هذه القوة سيحول دونَ تكوُّن الحياة. فيجب أن توزن هذه القوة بشكلٍ دقيق جدًّا بينَ عدد الإلكترونات والبروتونات؛ فلو اختلف العددُ لن توجد روابطُ كيميائية، وبالتالي لن توجَد حياة. وإنَّ البروتينات أثقل ١,٨٣٦ مرة من الإلكترونات، وهذا رقمٌ أساسي في الطبيعة، وهو مضبوطٌ بشكل بالغ الدقة من أجل تكوّن الجزيئات[١].

ثمَّ ذكر تعليق ستيفن هوكينج - الفيزيائي الملحد المشهور - على هذا الضبط الدقيق بقولِه: «قوانينُ العلوم التي نعرفها الآن تحتوي على الكثير من الثوابت الأساسية، مثل مقدارِ الشحنة الكهربائية للإلكترون، ومعدَّل كتلة البروتون والإلكترون... الحقيقة الواضحة أنَّ هذه القيم مضبوطة بشكل دقيق جدًّا من أجل ظهور الحياة. فمثلًا، لو كانتْ شحنةُ الإلكترون مختلفة قليلًا فلنْ تستطيع النجوم أن تحرق الهيدروجين والهيليوم أو ستنفجر»[٢].

ثمَّ واصل أوفرمان شرحَ هذا الضبط الدقيق بذكره أنه يوجد معدَّل حرج بين كتلة النيترون وكتلة البروتون لظهور الحياة، لو كانت كلتاهما ليست ضعف كتلة الإلكترون تقريبًا لن توجد نواة مستقرَّة، ولا شكَّ أنَّ الأنوية تشكِّل العناصر اللازمة للتفاعلات الكيميائية اللازمة للحياة. ورغمَ ذلك فإنَّ الاختلاف المضبوط بين كتلة البروتونات والنيترونات[٣] يسمحُ للكون بتوازنٍ غايةً في الإحكام بين كلِّ نيوترون وسبعة بروتونات. فالنيترون أضخم ككتلة من البروتون بحوالي جزءٍ من الألف.

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (136 - 137)

(2) A Brief History of Time: From the Big Bang to Black Holes (125)

(٣) نيوتريون (Neutrino) غير نيوترون (Neutron)، يشتركان بأن كلاهما جسيم دون الذرّي بدون شحنة كهربائية، ولكنّ النيوتريون جسيم أوّلي ولا يتكوّن من شيء آخر، أما النيوترون فهو متكوّن من كواركات. النيوتريون أصغر حجمًا من النيوترون. كتلة النيوتريون ١٠ – ٣٧ كجم بينما كتلة النيوترون ١,٧ ×١٠ – ٢٧ كجم.

انظر المقال: Difference between Neutrons and Neutrinos, على الرابط:

http://pediaa.com/difference-between-neutrons-and-neutrinos

ويمتلك البروتون طاقة أقلّ، لو زادت هذه الطاقةُ سينشطرُ النيترون إلى بروتون، وستنفجر القوة الكهرومغناطيسية بعيدًا عن النواة. كلُّ هذا سينتج كونًا لا يحتوي إلّا على بروتونات، ولن يوجد به إلّا عنصرٌ وحيد وهو الهيدروجين.

فالنيتروناتُ ضروريةٌ لأنها مكمنُ القوة النووية القوية التي تمسك بالنواة دون انفجارات التي تحطم كلَّ النظام. لو كانت النيترونات أصغر قليلًا في الكتلة لن تنحل إلى بروتونات، ولن يوجد هيدروجين. فظهورُ الحياة يعتمد على قيمٍ لهذه الكتل الثلاثة؛ كتلة البروتون ٩٣٨,٢٨ إلكترون فولت، والإلكترون ٠,٥١ إلكترون فولت (المجموع: ٩٣٨,٧٩)، وكتلة النيترون: ٩٣٩,٥٧ إلكترون فولت[١].

ولكنَّ القوَّة الكهرومغناطيسية ليست مضبوطة بدقَّة لحالها فقط، بل هي مضبوطة بدقَّة في توافقها مع قوَّة الجاذبية. وقد بيَّن العلماءُ أنّه لو نقص هذا التوافق بـ١ في ١٠^٤٠ فلا يمكن أن يتكوَّن إلّا نجومًا صغيرة، وإذا زاد بهذا العدد فلا يمكن أن يتكوّن إلّا نجومًا كبيرة. ولا بدَّ أن توجد نجوم صغيرة وكبيرة في الكون لوجود الحياة[٢].

وليسَ هذا فحسب، بل لكي يكون هناك حياة يجب أن يكون هناك توازن بشكل دقيق جدًّا يعادل ١ في ١٠^٣٧ بين عددِ الإلكترونات وعدد البروتونات. بدونه ستقهر الكهرومغناطيسيةُ الجاذبية، والأخيرة لازمةٌ لتكوين النجوم والكواكب. وقد أوضح هيو روس أنَّ هذه الدقة لا يمكن تصورُها، فذكر أنه لو تمَّ تغطية قارة أمريكا الشمالية بدايمات (Dimes)[٣] بعضها فوق بعض إلى أن تصل القمر، وهو ارتفاع ٢٣٩٠٠٠ ميل[٤]... ثمَّ كدَّسنا المال من هنا للقمر على مليار قارة أخرى بنفس مساحة أمريكا الشمالية. الآن لوِّن قطعة مالية باللون الأحمر واخلطْها داخل أموال المليار قارة. ثمَّ نطلبُ من صديق معصوب العينين أنْ يلتقط القطعة الحمراء. إن المصاعب التي

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self - Organization (137 - 138)

(٢) انظر: God's Undertaker (70)

(٣) عملة أمريكية بقيمة عشر سنتات.

(٤) ويعادل: ٣٨٠,٠٠٠ كيلو.

سيواجهُها هي معنى ١ من ١٠^٣٧. وهذا جزءٌ واحد من المعايير التي يجب أن يتمَّ ضبطُها ليحدث اتزان من أجل نشوء الحياة[١].

فهل يمكن أن يعتقدَ العاقل أنَّ هذا التوازن الدقيق قد حدث صدفة؟ الأمر واضحٌ وضوحَ الشمس، لو كان الملاحدة يعقلون.

الضَّبطُ الدقيق في القوة النووية القوية:

توجَد في النواة بروتونات ذاتُ شحنة موجبة، والقوّة النووية القويَّة تحملها على الاستقرار داخلَ النواة، وتمنعها من التناثر. هذا الأمرُ شبيهٌ بمحاولة قسر قطعتي مغناطيس للالتقاء من ذاتِ القطب، فهذا الالتقاء سيولِّد حالة من التنافر بينهما، لكن إذا كانتْ هذه القوَّة التي تحملها على الالتقاء أكبرَ؛ فبالإمكان التغلُّب على قوّة التنافر. ولكن، لا بدَّ أن تكون هذه القوّة معايرة بشكل دقيق جدًّا[٢]. وقد بيّن ذلك دين أوفرمان هذا الضبط بأنَّه لو كانت القوة النووية أضعف مما هي عليه فلن تربط بين جسيماتِ الذرة معًا، وسيصبح الكونُ عنصرًا واحدًا وهو الهيدروجين، ولن يتكوَّن الديتيريوم[٣]. وأيُّ انخفاض في القوى النووية سوف يُذيب الترابط بين البروتون والنيترون في الديتيريوم؛ فالديتيريوم مكوِّن حرجٌ في التفاعل النووي، حيث يحافظ على بقاء النجوم كالشمس، وبالتالي هو ضروري من أجل الحياة.

فلوْ زادت القوة النووية بنسبة ٢ ٪ فقط سترتبطُ البروتونات معًا رغم التنافر بينهما بسببِ الشحنة نفسها، ولن يكون الهيدروجين عنصرًا معتادًا في الكون. وسيتكوّن الكونُ بالأساس من الهيليوم وكميَّة ضئيلة جدًّا من الهيدروجين. بالطبع،

---

(١) انظر: The Creator and the Cosmos (115)

(٢) انظر: شموع النهار (١٨٠).

(٣) ديوتيريوم (Deuterium): الذرة التي تحتوي نواتها على بروتونون واحد ونيوترون واحد. انظر:

https://www.marefa.org/%D8%AF%D9%8A%D9%88%D8%AA%D8%B1%D9%8A%D9%88%D9%85

فالهيدروجين ضروريٌّ لتكوين الشمس والماء السائل، وكلاهما ضروريٌّ من أجل الحياة. ارتباط البروتونات سيتسبَّب أيضًا في جعل الهيدروجين متفجِّرًا بشكل كارثي. ليس هذا فقط بل سيتسبَّب في فقدان عناصر ثقيلة ضرورية للحياة، وسيمنع الكواركات من تكوين البروتونات.

أمّا لو قلَّت القوة النووية بنسبة ٢ ٪ فقط فإنّه سيولِّد عناصر معينة أساسية للحياة غير مستقرَّة. تتحكَّم القوى الضعيفة في الإحراق الهيدروجيني للشمس بطريقة بطيئة ومستمرَّة. البروتونات المترابطة تنتج الديتيريوم، وباستطاعته أن يتسبَّب في عملية الإحراق الهيدروجيني بتحكُّم القوى النووية القوية. وهذا التحكّم أسرع بمعدل ١٠^{١٨} من الإحراق بتحكّم القوَّة النووية الضعيفة. ولو كان كذلك لتسبّب في انهيار استهلاك الهيدروجين، وبالتالي لاستهلك جميع الهيدروجين أو أكثره في المرحلة البدائية الحارّة، ويبقى الهيليوم العنصرَ الوحيد في الكون(١).

الضَّبطُ الدقيق للقوة النووية الضعيفة:

القوَّة النووية تسبِّب النشاط الإشعاعي، وتعمل عملًا حيويًّا في تكوين العناصر في النُّجوم، كما أنَّها تؤثّر في اللبتونات (كالفوتونات والإلكترونات والنيترونات). وذكر دين أوفرمان أنه لو كانتْ هذه القوة أكبرَ قليلًا ستتحلَّل النيترونات بسرعة، ولن تستطيع تكوينَ هيليوم. إنَّ الهيليوم ضروريٌّ من أجل تكوين عناصر أثقل لازمة للحياة. لو زادت هذه القوةُ بشكل أكبرَ وملحوظٍ سيحترقُ الهيدروجين بسرعة إلى هيليوم، ولن يبقى سوى الهيليوم الذي سيكوِّن النجوم. بدون الهيدروجين لن يوجد ماء، وهو عنصر هامٌّ للحياة. بالمثل لوْ ضعفت هذه القوى قليلًا فلن يوجَد هيدروجين لأنه سيتحوَّل إلى هيليوم، ولن يوجد حياة ممكنة.

وذكر القوة النووية الضعيفة تؤثّر في تفاعلات التحلّل بيتا (Beta decay reaction) التي بها تصبح النيتروناتُ بروتونات وإلكترونات ونيتريونات. تعتبر النيتريونات أكثر العناصر

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (132 - 133)

انتشارًا في الكون، فهناك ما يقارب ١٠٩ نيوتريون لكل بروتون وإلكترون. وتوجد في ثلاثة أشكال، وتعمل عملًا مهمًّا في القوة النووية الضعيفة. تتفاعل النيتريونات بشكل ضعيف جدًّا مع المكوّنات الأخرى، وليست لها شحنة وتنتقل بسرعة الضوء. أوضحت التجاربُ أنَّ كتلة النيتريون حوالي ٥ × ١٠-١٨ كجم، أو حوالي ٥ × ١٠-٥ من كتلة الإلكترون. ولأنَّ كثافة النيترونات هائلة بحوالي ١٠٩ م-٣ في الكون، فيمكن أن تتجاوز الكثافة المتراكمة للنيترونات كتلةَ جميع النجوم. وبالتالي لو أنَّ هناك زيادة قليلة في كتلتها ولنقلْ مثلًا ٥ × ١٠-٣٤ بدلًا من ٥ × ١٠-٣٥ كجم، فسينكمش الكون بدلًا من أن يتمدَّد. فمِن الواضح جدًّا أنَّ كتلة النيتريونات مضبوطة بشكل دقيق جدًّا[١].

فالقوَّة النووية الضعيفة تؤثِّر في الجسيمات دون الذرِّي بشكل دقيق للغاية. وهذا الضَّبط الدقيق لم يعرفه الناسُ من قبْل، ولكن مع تطوُّر العلوم التجريبية علم الناس بحقائق كانت مجهولة من قبل.

والقوَّة النووية الضعيفة لا تؤثِّر بنفسها في الجسيمات دون الذرّي بشكل مضبوط للغاية فحسب، بل علاقة هذه القوَّة ببقية القوى الفيزيائية الأربع مضبوطة بضبط دقيق للغاية؛ قال دين أوفيرمان: «تربط القوةُ النووية الجسيمات في الذرة، وهي أقوى القوى، تقريبًا أقوى مائة مرَّة من القوة الكهرومغناطيسية، وهي أقوى بعشرة آلاف مرة من القوة النووية الضعيفة. إنَّ القوة النووية الضَّعيفة أقوى بـ ١٠ آلاف مليار مليار مليار مرة من قوةِ الجاذبية. بالنظر لهذا التَّفاوت الشديد، يمكن المرء أن يقيِّم الضبط المطلوب لحصول توازنٍ بين هذه القوى بمستوى دقّة ١ من ١٠٦٠...»[٢].

وقد مضى ذكرُ مثال البروفسور بول ديفيز أنَّ حصول مستوى دقة ١ من ١٠٦٠ بالصُّدفة مثل رمي رصاصةٍ من طرف الكون إلى الطرف الآخر وإصابة الهدف. ولا شكَّ أنَّ هذا الأمر في عداد المستحيل، وأنه يلزم وجودُ خالق عليم حكيم ضبطَ التوازنَ بينَ هذه القوى الفيزيائية الأربع بهذا الضبط الدقيق.

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (132 - 133)

(٢) المصدر السابق (١٣٢).

تقييمُ الحجج المتعلّقة بالفيزياء:

حججُ علماءِ الغرب المتعلّقة بالفيزياء من حيث العموم حججٌ قويَّة وصالحة للاستدلال، وهي تدلُّ دلالةً قطعية على استحالة وجود قوانين الفيزياء والقوى الفيزيائية بهذا الضَّبط الدقيق مصادفة؛ فلا بدَّ من وجود خالق خلق الكون وفْق هذه القوانين، وجعلَ هذه القوى الفيزيائية مضبوطة بدقّة.

وقد ذكر اللهُ تعالى في كتابه العزيز في آياتٍ كثيرة أنه خلقَ هذا الكون وكلَّ ما فيه بنظامٍ مُتقَن، وأنَّه هو الذي يمسك السماواتِ والأرض، وأنه يرفع السماء بغير عَمد. وأنَّه سخَّر الشمسَ والقمر وفقَ أجل محدّد، وأن كلَّ ما في الكون يجري وفق سننِه الإلهية. وقد أرشدَ عبادَه إلى تأمّل هذه الآيات الباهرة. ومن تلك الآيات:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فاطر: ١٣].

وهذه الآيات «تدلُّ على الخالق من جهةِ الخضوع الكوني العام لسيطرة قاهرة تامّة، لا تملك الخروجَ عليها ذرَّة واحدة، وتتمثَّل هذه السيطرة في السنن والنواميس الكونية الدقيقة التي تسير عليها العوالم دونما تخلُّف»[1].

وهذا يتوافقُ مع ما دلَّ عليه العلمُ التجريبي أن هذا الكون محكومٌ بقوانين فيزيائية دقيقة للغاية. وبهذا تكون هذه الحجَّة حجة قويَّة على وجود الله.

---

(١) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد (٢٣٧).

المبحثُ الثّالث

الحججُ المتعلِّقة بعلم الأحياء

هذا المبحث يتناول الحججَ المستنبطة من علم الأحياء التي يستخدمها علماءُ الغربِ في الاستدلال على وجود الله.

وقد عرَّف قاموس مريام ويبستر علمَ الأحياء بأنه: «فرعُ العلوم المعني بالكائنات الحيَّة والعمليات الحيوية»[1]. فموضوعُ علم الأحياء هو الكائنات الحيّة، وهو موضوعٌ واسع وكبير، ويتفرَّع عنه فروعٌ كثيرة جدًّا. ولكنَّ أكثر ما يستدلُّ علماءُ الغرب بعلم الأحياء على وجود الخالق يرجعُ إلى الاستدلال بالإحكام والإتقان في المخلوقات الحيّة.

وعلماءُ الملاحدة يعرفون جيِّدًا مدى الإتقان والإحكام في الكائنات، حتَّى تجرّأ ريتشارد دوكينز بتعريفِ علم الأحياء بقوله: «دراسة الأشياء المعقدة التي تعطي انطباعًا بأنَّها صُمِّمت من أجل هدف»[2]. وقال أيضًا: «الكائناتُ الحية تبدو مصمَّمة، إنها تبْدو بشكلٍ غامر كما لو أنها مصمَّمة»[3]. فالتصميم واضح عندهم، بل أوصى كبيرُهم فرانسيس كريك أتباعَه أن يبقوا هذه القضية في أذهانهم دائمًا؛ إذْ قال: «يجب على علماءِ الأحياء أن يبقوا في أذهانهم دائمًا أنَّ ما يروْنه لم يتمّ تصميمُه، ولكنه تطوَّر»[4].

---

(١) قاموس مريام ويبستر:

https://www.merriam-webster.com/dictionary/biology

(2) The Blind Watchmaker (1)

(3) Royal Institution Christmas Lectures, 1991

(4) Lessons from Biology, Natural History, 1988 (Vol. 97, p. 36)

ولكنَّ الملاحدة يردُّون هذا التصميم والإتقان والإحكام إلى طفرات عشوائية والانتخاب الطبيعي وفقَ نظرية التطوّر، ولا يعترفون بالخالق.

ويردُّ عليهم علماءُ الغرب أنَّ الكائنات الحيّة لا تبدو مخلوقة فحسب، بل هي مخلوقة حقًّا. وذلك بذكْر الأدلةِ والبراهين القاطعة على أنه لا يمكن ردّ هذا الإتقان والإحكام إلى طفراتٍ عشوائية والانتخاب الطبيعي، بل لا بدَّ من وجود خالقٍ عليم حكيم، خلقَ هذه الكائنات وفقَ هذا الإتقان والإحكام.

وحيث أنَّ الكلام عن الإحكام والإتقان في الكائنات الحيّة وأجزائها كثيرٌ جدًّا، لا يمكنُ حصرُه حتَّى في مجلَّدات كثيرة، فسوف يتمُّ التركيز على ثلاث قضايا رئيسة - وهي مِن أكثر ما يتكلّم عنها علماءُ الغرب -، وهي ثلاثة أمثلة:

المثالُ الأوَّل: الإتقانُ والإحكام في الخلية.

المثالُ الثّاني: الإحكامُ والإتقان في المخ.

المثالُ الثّالث: دلالةُ العين على وجود الله.

وبيانَ ذلك كما يلي:

المثالُ الأوَّل: الإتقانُ والإحكام في الخلية:

الإنسان مركَّبٌ من أعضاء، والأعضاءُ مركَّبة من أنسجة، والأنسجةُ من خلايا. يوجَد في الإنسان - كما سبق ذكرُه - حوالي مائة ترليون خلية. والإحكام والإتقان في داخلِ الخلايا أمرٌ عجيب للغاية، ومِن أكبر الأدلة على أنها مخلوقة من قبَل خالق عليم قدير. وقد ذكرَ الدكتور مايكل دينتون تحدِّيات الإحكام في الخلية لنظرية التطوّر إذ قال: «في ندوةٍ داخلَ معهد ويستار عام ١٩٦٦م، التي جمعت مختصّين في الرياضيات والبيولوجيا ذوي مؤهِّلات أكاديمية ممتازة، اعترفَ السير بيتر ميدوار في خطابه الاستهلالي بوجودِ شعورٍ واسعِ الانتشار للتشكيك في دور الصدفة في التطوّر...»[1].

---

(١) التطور: نظرية في أزمة (٤٠٠)، للدكتور مايكل دينتون، (مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، الطبعة الأولى، ٢٠١٧ م. مجموعة من المترجمين).

وهذا الأمرُ لم يكن معروفًا في زمن داروين بسبب ضعف المجاهر؛ قال الدكتور دينتون: «إذا عُرضتِ الخلية الحيَّة تحتَ مجْهر ضوئيٍّ بتكبيرٍ إلى نحو عدَّة مئات المرّات - كما كانت الإمكانات في زمن داروين - فستظهر بمشهد مُحبط نسبيًّا، فلا تبدو سوى قالبٍ دائم التغيُّر مضطربٍ ظاهريًّا من النقاط والجسيمات التي ترميها قوى عنيفة غير مرئية جزافًا في جميع الجهات»[1].

وأمَّا في هذا الزمان، مع تطوُّر المجاهر، فيختلف الأمرُ تمامًا، وتُظهر المجاهر مدى الدقَّة والإتقان في الخلية. وقد تحدَّث الدكتور دينتون عن هذا الأمر بشيء من الطول، ولكنَّ الكلام في غاية النفاسة؛ فقدْ قال: «ولكن لنُدرك حقيقة الحياة كما أظهرتها البيولوجيا الجزيئية يجبُ علينا أن نكبِّر الخليَّةَ ألف مليون ضعف، حتَّى يصل قطرها إلى عشرينَ كيلومترًا، وتشابه منطادًا ضخمًا لدرجةٍ تكفي أن يغطّي مدينة ضخمة، مثل لندن أو نيويورك، وما سنراه عندئذ سيكون شيئًا فريدًا من التعقيد والتصميم التكيّفي، سنرى على سطحِ الخلية ملايين الفجوات التي تشبه كوّات سفينة فضائية ضخمة تفتح وتغلَق لتسمح لتيارٍ مستمرٍّ من المواد أن يتدفَّق داخلًا وخارجًا. لو أردنا أن ندخل إحدى هذه الفجوات، فسنجدُ أنفسنا في عالم من التكنولوجيا العالية والتعقيد المذهل؛ حيث سنرى أروقةً لا تحصى عددًا، وقد نُظِّمت إلى حدٍّ كبير، ونجد أقنية متشعّبة في كلِّ جهة، متَّجهة إلى خارج حدود الخلية، بعضها يصل إلى بنك الذاكرة المركزي في النَّواة، وبعضها الآخر إلى مصانع التجميع ووحدات المعالجة، وستكون النواة بمفردها على شكلِ حجرة كرويَّة واسعة، بقطْر طولُه أكثر من كيلومتر مثل قبة جيوديسية، نرى في داخلها أميالًا من السَّلاسل الملتفَّة من جزيئات الحمض النووي[2] تتكدّس جميعها معًا في مصفوفاتٍ مرتَّبة، وسيمرُّ نطاقٌ ضخم من المنتجات والمواد الخام عبر الأقنية

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الحمض النووي (DNA): مجموعات من مركَّبات معقّدة توجد في الخلايا الحيَّة والفيروسات، تتألّف من البورين والبيرميدين والكربوهيدرات وحمض الفوسفوريك. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٥٦٠).

المتشعِّبة بشكل منظَّم تنظيمًا عاليًا، مِن وإلى جميعِ مصانع التجميع المختلفة في المناطق الخارجية من الخلية.

وستعْجَب من مستوى التحكُّم الكامن في حركة كثير من الأشياء على طول ما يبْدو أنه أقنية لا نهاية لها، تتحرَّك بانسجام تامّ، وسنرى حولنا وكيفما قلبنا النظر جميعَ أنواعِ الآلات التي تشبه الروبوبات الآلية. سنلحظُ ونذهل من أنَّ أبسط المكوّنات الوظيفية لخليةٍ بالجزيئيات البروتينية هي آلياتٌ جزيئية معقَّدة، كلٌّ منها يتكوّن من ثلاثة نشاطاتِ هذه الآلات الجزيئية العجيبة - التي نستغرب أنها نشاطات هادفة، لا سيَّما عندما ندرك أنه رغمَ كلِّ معرفتنا التراكمية في الفيزياء والكيمياء تبقى مهمّة تصميم آلة جزيئية واحدة كهذه - أي جزيء بروتيني وظيفي واحد فقط - خارج نطاق قدراتنا تمامًا في الحاضر، ومن المحتمل أنه لن يتمَّ ذلك حتَّى في بداية القرن القادم على الأقلّ، فكيف إذن تعتمدُ حياة الخلية على النشاطات المتكاملة لآلاف الجزيئات البروتينية - بالتأكيد عشرات الآلاف - وربمّا مئات الآلاف.

سنرى أنَّ كلَّ ميزة تقريبًا من ميْزات آلاتنا المتقدّمة لها نظير في الخلية؛ كاللغات الاصطناعية وأنظمة تشفيرها، وبنوك الذاكرة المخصَّصة لتخزين المعلومات واستردادها، وأنظمة التحكُّم الراقية التي تنظّم التجميع الذاتي للقطع والمكوّنات، وأجهزة الوقاية من الأعطال (error fail – safe)، وأجهزة الدقيق اللغوي المستخدمة في التحكّم بالجودة، وعمليات التجميع التي تتضمَّن مبدأ التصنيع المسبق والبناء الجزيئي. في الحقيقة، سنعيش شعورَ (لقد رأينا هذا من قبْل) - الديجافو deja – vu بشكل عميق جدًّا، وسيكون التشابهُ مقنعًا جدًّا لدرجةِ أننا سنقتبس الكثيرَ من مصطلحات عالم تكنولوجيا في أواخر القرن العشرين لوصف هذا الواقع الجزيئي الساحر»[1].

---

(١) التطور: نظرية في أزمة (٤٠٠ - ٤٠٢)، وينبغي التنبيه على أن هذا الكتاب طُبع عام ١٩٨٥، ولهذا يذكر المؤلّف كلمات مثل: «بداية القرن القادم»، و«في أواخر القرن العشرين». ولكن هذا الكلام يصدق اليوم، بل تطوّر العلم أكثر بكثير في هذا المجال.

وخلاصةُ كلامه عنِ الخلية أنها: «ما يناهض فكرة الصدفة هو محض عموم الكمال؛ فحيثما نظرنا، وإلى أيِّ عمق نظرنا؛ نجد رقيًّا وبراعةً ذات جودة فائقة تمامًا. فهلْ من المعقول أنَّ عمليات عشوائية يمكن أن تكون قد أنشأت واقعًا يكون التعقيد أصغرَ عنصر فيه - أي البوتين الوظيفي أو المورثة الوظيفية - يفوق قدراتنا الإبداعية، واقعًا يناقض الصدفةَ تمامًا، يفوق بكلِّ معنى الكلمة أيَّ شيء أنتجه ذكاء الإنسان؟ حتَّى أكثر منتجاتنا الصنعية تقدُّمًا تبدو أمامَ مستوى البراعة والتعقيد الذي تبديه الآلية الجزيئية في الحياة خرقاء، ونشعرُ بالتواضع كما يشعر إنسانُ العصر الحجري أمام تكنولوجيا القرن العشرين»[١].

فهذه شهادةٌ لأحدِ علماء البيولوجيا الجزيئية الكبار، وهو متخصِّص في دراسة الخلية، ويصفُ هذه الأوصاف، رغمَ أنه ليس بمتدين، بل يصنِّف نفسه لاأدريًّا - كما سبق ذكرُه -.

والمذهلُ في الخلية أنها تشتملُ على هذا التعقيد العجيب رغمَ صغرها الشديد؛ قال البروفسور جون لينوكس: «من الصَّعب علينا أن نحصل على أي نوع من الصور لهذا النَّشاط المعقّد الذي يصيبنا بالاضطراب والتشويش، والذي يحصل داخل الخلايا الحية، والتي تحتوي ضمنَ أغشيتها الدسمة فقط على أكثر من ١٠٠ مليون بروتين من ٢٠ ألفِ نوعٍ مختلف. ومع ذلك فإنَّ كلَّ هذه الخلية صغيرة إلى درجة أن عدة مئات منها يمكن أنْ توضَع فوق النقطة التي تعلو حرف «i»[٢].

فالخليةُ أشبه ما تكون بمصنع متكامل، والبروتينات تعمل بما يشبه الآلات التي يخترعُها البشر؛ قال البروفسور بروس آلبرتس[٣]: «لطالما قللنا من شأن الخلايا،

---

(١) المصدر السابق (٤١٨).

(2) God's Undertaker: (123)

(٣) بروس آلبرتس (Bruce Alberts): بروفسور الكيمياء الحيوية الأمريكي، ورئيس الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة بين ١٩٩٣ - ٢٠٠٥ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Bruce-Alberts

يمكن عرضُ الخلية بمجملها على أنها مصنعٌ يحتوي شبكة دقيقة مكونة من تشابك أجهزة متراكبة، كلُّ واحدٍ منها مكوَّن من مجموعة من الآليات البروتينية الكبيرة... لكن لماذا ندْعو تجمُّعات البروتين الكبيرة الكامنة وراء الوظيفة الخلوية بالآلات البروتينية؟ الجواب الدَّقيق هو لأنها تشابه الآلات التي اخترعها البشرُ للتعامل بكفاءة مع العالم المحيط، هذه التجمعاتُ البروتينية تحتوي على أجزاء متحركة على درجة عالية من التنسيق»[١].

ومِن المعلوم أنَّ المصنع لا بدَّ له من صانع، فكيف بمصنع الخلية الذي يفوق أيَّ مصنع بناه الإنسان؟ وكيف إذا قدَّر العلماء أنَّ عدد الخلايا في جسم إنسان واحد قد يصلُ إلى ١٠٠ ترليون خلية - كما سبق ذكرُه - ؟

ولكن، مِن أعقد الأمور في داخل الخلية هو الحمضُ النووي الذي وصفه بيل غيتس بقوله: «إنَّ الحمض النووي كبرنامج حاسوبي، لكنه أكثر تقدّمًا بالكثير الكثير عن أيِّ برنامج قمْنا بإعداده»[٢]. وحتى أصغر أنواع الخلية يحتوي على معلومات هائلة؛ قال البروفسور جون لينوكس: «يبلغ طولُ الحمض النووي لبكتيريا الإشريكية القولونية[٣] حوالي أربعة ملايين حرف، وسيملأ ١٠٠٠ صفحة في كتاب، بينما الجين البشري يبلغ حوالي ٣,٥ مليار حرف طولًا، وسيملأ مكتبة بأكملها»[٤].

وهذه المعلوماتُ تنشأ من ترتيب دقيقٍ جدًّا للنيوكليوتيد[٥] في سلسلة الحمض النووي، وإذا تغيَّر الترتيبُ الصحيح فإنَّ السلسلة سوف تكون عديمة الفائدة. ويمكن أن

---

(1) The Cell as a Collection of Protein Machines, the Cell, (92, p. 291)

(2) The Road Ahead (228), by: Bill Gates, (Penguin, 1996)

(٣) الإشريكية القولونية (Escherichia coli): أنواع البكتيريا التي تعيش عادة في المعدة والأمعاء. انظر: https: / /www.britannica.com /science /E – coli

(٤) God's Undertaker (١٣٧)

(٥) النيكلوتيد (Nucleotide): جزيء عضوي يمثل لبنة بناء الحمض النووي الصبغي والحمض النووي الريبي. انظر: https: / /biologydictionary.net /nucleotide/

تكونَ هذه السلسلة على أشكال كثيرةٍ جدًّا بشكل لا يوصف؛ فقد ذكر البروفسور فرانك سالزبيري[1] أنَّ البروتين قد يضمُّ متوسّط الحجم نحو ٣٠٠ حمض أميني. وستحتوي سلسلةُ جينات الحمض النووي المتحكّمة في هذه الأحماض نحو ١٠٠٠ نيوكليوتيدة. وحيث إنَّه يوجد أربعةُ أنواع من النيوكليوتيدات في سلسلة الحمض النووي الصبغي فيمكنُ لواحدة منها مكوّنة من ١٠٠٠ حلقة أنْ تتواجد في عدد من الأشكال يساوي $٤^{١٠٠٠}$ شكل. وباستخدام قليلٍ من الجبر ذكر البروفسور سالزبيري أننا نجدُ أن $٤^{١٠٠٠} = ١٠^{٦٠٠}$، وهذا الرقم هو الرقم ١٠ مضروبًا في نفسه ٦٠٠ مرّة، أو هو ما يساوي الرقم ١ متبوعًا بستمائة صفر! وهذا الرقم يقع خارج نطاق إدراكنا تمامًا[2].

رغمَ ذلك فإنَّنا نجد بالفعل أنَّ الترتيب في الحمض النووي على الشكل الصحيح. وحسبَ قول الملاحدة التطوّريين فإنَّ النيوكليوتيد ترتّب بالطريقة الصحيحة بطفرات عشوائيةٍ والانتخاب الطبيعي. وهذا في الحقيقة إساءةٌ للعقل كما قال الدكتور مايكل دينتون: «يرى المتشكّك أنَّه من الإهارنة للعقل افتراض تشكيل العملية العشوائية للبرامج الجينية لدى الكائنات الراقية، تلك التي تتألَّف مما يقارب ألف مليون معلومة - أيْ ما يساوي تسلسل حروف في مكتبة صغيرة ذات ألف مجلّد -، وتحتوي آلافًا لا تحصَى من الخوارزميات المعقَّدة بشكل مرمَّز، والتي تتحكّم بنموٍّ ونماء مليارات ومليارات الخلايا لترتَّب على شكل كائنٍ معقَّد. لكنَّ الداروينيي يرى أن الفكرة مقبولة دون أدنى شكٍّ!»[3].

---

(١) فرانك سالزبيري (Frank Salisbury): بروفسور فيزيلوجيا النبات في جامعة يوتا بالولايات المتَّحدة. وكان يتبنّى القول بنظرية الخلق وصنّف في ذلك بعض الكتب. توفي عام: ٢٠١٥م.
انظر:
https://www.legacy.com/obituaries/hjnews/obituary.aspx?page=lifestory&pid=177071825

(٢) انظر:
"Doubts about the Modern Synthetic Theory of Evolution", American Biology Teacher 1971, (336)

(٣) التطوّر - نظرية في أزمة (٤٣٠).

ولا شكَّ أنَّ هذه المعلومات بحاجةٍ إلى خالق عليم حكيم أودعها في الحمض النَّووي بهذا الترتيب المتْقَن. ولا يمكن ألبتَّة أنْ تكون الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي مسئولتَيْن عن ذلك.

الخلايا ليست آياتٍ دالةً على الخالق بحدِّ ذاتها فحسب، ولكنّ هذه الخلايا تكوّن أنسجة، وهذه الأنسجة تكوِّن أعضاءً في الجسد. وكلُّ عضو من أعضاء الكائنات الحيّة آيةٌ على الخالق أيضًا. والحديثُ عن هذه دلالة الأعضاء في الكائنات الحيّة على الخالق لا يمكن حصرُه إلّا في الموسوعات الكبار. ولهذا يكتفى في هذا المقام بذكر آية المخّ وآية العين.

المثالُ الثّاني: الإحكامُ والإتقان في المخ:

قدْ ذكر البروفسور كريستوفير كوخ أن مخَّ الإنسان أكثر الأشياء تعقيدًا في الكون كلِّه[1]. فهذا التعقيدُ والإتقان والإحكام والتصميم يصعب وصفُها بكلمات قصيرة. ولكنْ قد ذكر دين أوفرمان وجهَ دلالة تعقيد الدماغ على أنه لا يمكن أنه تكوّن مصادفةً، فبيَّن أنَّ التعقيد الموجود في خليةٍ واحدة يتضاءل أمام تعقيد مخّ الإنسان، والذي يتكوَّن من أكثر من عشرة آلاف مليون خلية عصبية تربط بين خلايا المخّ، لذلك فعددُ خلايا المخ إجمالًا هو $١٠^{١٥}$ خلية (ألف مليون مليون خلية). وهذا رقم كبيرٌ للغاية، خاصَّة عندما نضع في اعتبارنا أنَّ كلَّ خلية عصبية لها وظيفة معينة داخل النِّظام المترابط في المخّ. وهذا بلغةِ الاتِّصالات يماثل ١٠٠ ضعف كلِّ شبكات الاتصال على كوكب الأرض! فاحتمالية تجمُّع مثل هذا النظام حتَّى بفعل إنسان ذكي صغير جدًّا، أمّا فكرة ظهورها مصادفة فهي ساذجة[2].

وقد ضربَ الدكتور مايكل دينتون مثالًا لعددِ هذه الاتّصالات في الدماغ إذ قال: «بالتأكيد تفوق الأرقامُ التي من رتبة $١٠^{١٥}$ أيَّ إدراك بكلّ معنى الكلمة؛ تخيّل منطقة بنصفِ

---

(١) انظر المقابلة مع البروفسور كوخ:
Decoding ‘the Most Complex Object in the Universe’

(٢) انظر: A Case against Accident and Self – Organization (66)

حجم الولايات المتَّحدة الأمريكية تقريبًا - مليون ميل مربَّع - مغطّاة بغابة من الأشجار، في كلِّ ميل مربَّع فيها عشرة آلاف شجرة، فإذا كان لكلِّ شجرة مائة ألف ورقة، سيكون إجمالي عددِ الأوراق في الغابة ١٠^١٥، وهو يساوي عدد الاتّصالات في الدماغ»[(١)].

ثمَّ ذكر الدكتور دينتون مدَى التنظيم بين شبكة الاتّصالات في دماغ الإنسان بقوله: «رغمَ ضخامة عدد الاتّصالات، إلّا أنَّ الغابة المتشعّبة من الألياف ليست حبيكة - تشابك عصبي (tangle) - عشوائية فوضوية، بل شبكة منظَّمة إلى حدٍّ بعيد، تشكِّل نسبة عالية من الألياف أقنية اتِّصالات فريدة متكيّفة، تتبع مساراتها المرسومة خصيصًا لها عبرَ الدماغ، حتَّى لو كان جزءٌ واحد من مائة جزء من الاتّصالات في الدِّماغ منظَّمًا بشكلٍ خاص، سيبقى يمثِّل نظامًا يحوي عددًا من الاتّصالات الدقيقة، أكبرُ بكثير من كاملِ شبكة الاتِّصالات على وجه المعمورة. وبسبب العدد الكبير من الاتِّصالات التكيُّفية الفريدة، سيستغرق تجميع شيء يشبهُ الدماغ إلى حدّ بعيد، حتَّى إنْ طبَّقنا أكثر التقنيات الهندسية تطوّرًا، زمنًا يطول إلى الأزل.

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ تعقيد الأجهزة البيولوجية المتعلّق بالعدد للمكوّنات الفريدة؛ أمرٌ مثير للإعجاب جدًّا، ويطرح هذا التعقيدُ السؤال الجلي: هل كان لأيِّ نوع من العمليات العشوائية على الإطلاق أن تركّب أجهزة كتلك في حدود الوقت المتاح؟»[(٢)].

ولا شكَّ أنَّ الجواب عن هذا السؤال: لا! فلا يمكن أن يتطوَّر هذا الدماغ المعقّد للغاية عن طريق طفراتٍ عشوائية والانتخاب الطبيعي؛ بل لا بدَّ أن يكون خالقٌ خلق هذا الدماغ المتقن المحكم.

المثالُ الثّالث: دلالةُ العين على وجود الله:

العينان من أعجبِ خلق الله تعالى على الإطلاق، ولما امتنَّ اللهُ على خلقه ببعض النِّعم في جسده بدأ بذكْر العينين؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨ - ٩]. وقد تحدَّث سكوت هيوس عن وجه دلالة العين

(١) التطوّر - نظرية في أزمة (٤٠٣).

(٢) المصدر السابق (٤٠٣ - ٤٠٤).

على إبطال قول الملاحدة أنها تطوّرت بالصدفة؛ فذكر أنَّ العين تتمتَّع بتعقيد مميّز ومُذْهل، فهي مُجهَّزة بنظام تصويبٍ تلقائي، وتركيز للصورة تلقائيًّا، وضبط الفتحة تلقائيًّا، وهي مجهَّزة لانتقال الرؤية من الظلام الحالك إلى نور الشمس، ورصد جسْمٍ بسُمك الشعرة الرفيعة، والقيام بـ ١٠٠,٠٠٠ حركة منفصلة وسطيًّا في اليوم. وتقدِّمُ لنا العين سلسلةً متّصلة من الصور الملوّنة، وكل ذلك تقدِّمه بغير شكوى، ثمَّ عندما ننام، تقوم بأعمال الصيانة لنفسها.

فالعينُ البشرية معقَّدة جدًّا ومتطوّرة لدرجةِ أنَّ العلماء لم يفهموا كيفية عملها بالكامل إلى الآن؛ فمِن الصعب فهمُ كيف يعتقد التطوّريون بصدقٍ أنَّ العين تكوّنت بخطواتٍ تدريجية، بعملية التجربة والخطأ التطوّرية، عندَ النظر إلى البناء المدهش والوجود المتزامن المعقَّد جدًّا للبنى والآلياتِ المعقّدة التي تعمل معًا لإتمام بصر الإنسان. يُفهم الأمرُ أكثر عندَ معرفتنا أنَّ العين لا فائدة منها إلّا إذا اكتملت جميع مكوّناتها معًا، فإمّا أنْ تعمل وظائفها معًا أو لنْ تحصل على شيء، وعلى هذا، ففرضيةُ تطوّر العين البشرية غريبة وغير منطقية[١].

وعلمَ داروين عنْ تعقيد العين، وأنَّ ذلك يمثِّل تحديًا كبيرًا لنظريته؛ فقد قال: «افتراض تَكَوُّن العين عن طريقِ الانتقاء الطبيعي، بكل ما فيها من أجهزة فذّة من أجل ضبط الطول البؤري للمسافات المختلفة، والسماح بدخول كميّات مختلفة من الضوء، وتعديل الزيغ الكروي واللوني، فإن ذلك يبدو، وأنا أعترف بذلك، أمرًا منافيًا للعقل... الاعتقادُ بتكوُّن عضوٍ كامل مثل كمال العين بالانتقاء الطبيعي أمرٌ كافٍ جدًّا لإرباك أي أحد»[٢].

وذكرَ سكوت هيوس هذا الكلام، ثمَّ علَّق عليه قائلًا: «لكن استمرّ داروين، وبسذاجةٍ مُذهلة، في المجادلةِ في كتاباته بصحة تطوّر العين التدريجي. إلّا أنه ليس هناك مفرٌّ من وجوبِ توفُّر عددٍ من العوامل المواتية، والمتكاملة، في وقت واحد

---

(١) انظر: The Collapse of Evolution (24 - 26)

(2) On the Origins of Species (140)

للطفرات لضبط وإنتاج جهازٍ مثل العين. وقد حسب [راندي] ويسونغ(1) الاحتمالية الرياضية النظرية لتشكيل العين صدفة، فبلغ ١ في ١٠^٢٦٦، رغمَ تساهله المفرط مع التطوّريين. يزدادُ تعقيدُ مشاكل التطوّر في أنه لا يواجه فرصة تكون العين مرةً واحدة ولكنّها تكرّر أكثرَ من مرَّة. ويُعلّق فرانك سالزبيري على هذا الاحتمال المشكوك فيه قائلًا: «يتركّز شكِّي الأخير على ما يُعرَف بالتطوّر المتوازي... والذي يزعم أنَّ شيئًا هائلًا مثلًا في الحبار، والفقاريات، والمفصليات، حيث كان من السيِّئ حسابُ كيفية ظهورها مرة واحدة. أمّا التفكير في إنتاجها عدة مرّات فيصيبني بالدوار».

إذًا، باتَ الاستنتاج الذي لا مفرَّ منه الآن واضحًا تمامًا. فلم يحدث تطوّر للعين؛ وإنَّما خلقها اللهُ منذ البداية في شكل كامل ورائع»(2).

فهذا يدلُّ دلالةً واضحة على عجز الملاحدة في تفسير ظهور العين مصادفة، وأنه لا بدَّ من وجود خالقٍ خلقَ العين بهذا الإتقان والإحكام والدقّة.

تقييمُ الحجج المتعلّقة بعلم الأحياء:

الحججُ المتعلّقة بعلم الأحياء من أقوى الحجج والأدلة والبراهين الدالة على وجود الخالق. وقد أرشدَنا اللهُ تعالى في آيات كثيرة إلى تدبّر خلق الإنسان. ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:٦٧]. بل أوّل الآيات نزلتْ في القرآن ذكرت خلق الإنسان؛ قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:١ – ٢].

---

(1) راندي ويسونغ (Randy Wysong): عالم الكيمياء والأحياء الأمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه. قد ألّف ١٣ كتابًا، منها كتب في نقد نظرية التطوّر. انظر:
www.asifthinkingmatters.com/about.html

(2) The Collapse of Evolution (26-27)

والآياتُ في ذلك كثيرة جدًّا. والاستدلال بخلق الإنسان مِن أفضل الأدلَّة العقلية؛ قال شيخ الإسلام (رحمه الله): «الاستدلالُ على الخالق بخلقِ الإنسان طريق عقلي صحيح؛ فالاستدلالُ على الخالق بخلق الإنسان في غايةِ الحسن والاستقامة، وهي طريقةٌ عقليّة صحيحة. وهي شرعيّة؛ دلّ القرآن عليها، وهدَى النّاس إليها، وبيَّنها وأرشد إليها. وهي عقليَّة؛ فإنَّ نفس كون الإنسان حادثًا بعد أنْ لم يكن، ومولودًا ومخلوقًا من نطفة، ثمَّ من علقة؛ هذا لم يُعلم بمجرّد خبر الرسول، بل هذا يعلمُه النّاس كلُّهم بعقولهم؛ سواء أخبر به الرسول، أو لم يُخبر. لكنّ الرسول أمر أنْ يُستدَلَّ به، ودلَّ به، وبيَّنه، واحتجَّ به؛ فهو دليلٌ شرعيّ؛ لأنّ الشارع استدلّ به، وأمرَ أن يُستدلَّ به؛ وهو عقليّ؛ لأنّه بالعقل تُعلم صحته»[1].

كما أنَّ الله أرشدنا إلى تدبُّر الإتقان والإحكام في خلق الإنسان؛ كما قال تعالى: وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وذكر أنّ فيها آيات للموقنين؛ قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١].

بل أرشدنا اللهُ إلى تدبُّر خلق الحيوانات وعجائب صنعها في آيات عديدة - وهذا يدخُل في الحجج المتعلّقة بعلم الأحياء أيضًا -. ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، وذكر أنه من آياته في خلقه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]. وأرشد إلى تدبّر حيوانات معيّنة مثل الإبل؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، وكذلك الطيور؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، وكذلك النحل؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩].

---

(١) النبوات (١ / ٢٩٢ - ٢٩٣).

والاستدلالُ بخلق الكائنات الحيّة، والإحكام والإتقان فيها؛ لا يعدُّ ولا يحصى، وهو من أفضلِ أنواع الأدلة على وجود الخالق على الإطلاق. وقد اعتنى علماءُ الغرب بهذه الحججِ أكثرَ من غيرها لوضوح دلالتِها على الخالق، وكذلك للردِّ على مزاعم التطوّريين. فكلامُهم جيِّد، وحريٌّ للاستفادة منه في هذا الباب.

المبحثُ الرّابع
الحججُ المتعلِّقة بالكيمياء

هذا المبحثُ يبيِّن الحججَ المتعلِّقة بالكيمياء التي يستخدمها علماء الغرب في الاستدلال على وجود الله.

وقد عرَّف قاموس أكسفورد الكيمياء بأنها: «فرعُ العلوم المعني بالمواد التي تتكوّن منها المادة، والبحثُ عن خصائصها وتفاعلاتها، واستعمالُ هذه التفاعلات لصناعة مواد جديدة»[1].

وكلامُ علماء الغرب في هذه المسألة كثير، ولكي يسهل فهمُه تمَّ تقسيم هذا المبحث إلى خمسةِ أقسام:

القسمُ الأوَّل: دلالةُ الكيمياء على وجود الخالق عمومًا.

القسمُ الثاني: ملاءمةُ العناصر الكيميائية لوجود الحياة.

القسمُ الثّالث: أهميّةُ الكربون لوجود الحياة.

القسمُ الرّابع: وفرةُ الماء السائل.

القسمُ الخامس: التركيبُ الكيميائي للغلاف الجوّي.

القسمُ الأوَّل: دلالةُ قوانين الكيمياء على وجود الخالق:

كما أنَّ الطبيعةَ محكومةٌ بقوانين الفيزياء فإنَّ المواد وتفاعلاتها محكومة بقوانين الكيمياء. وهذه القوانينُ واضحة ودقيقة، وتدلُّ على أنَّ هذه المواد لم توجد صدفة، لأنَّها لو وُجدت صدفةً ما كانت تتبع قوانين، بل كانتْ عشوائية وفوضوية. ولو اختلفت هذه القوانينُ على ما هي عليه اليوم ما كانت الحياة ممكنة.

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/chemistry

وقد استدلَّ الدكتور جاسون ليزلي بوجودِ هذه القوانين على وجود الخالق تعالى إذْ قال: «تحتاج الحياةُ إلى كيمياء محدَّدة، فأجسامُنا تحصل على طاقتها من التفاعلات الكيميائية، وتعتمدُ على قوانين الكيمياء التي تعمل وفقَ نمطٍ موحَّد، حتى إنَّ المعلومات المسئولة عنْ تركيب أيِّ كائن حي تختزن في جزيء ضخمٍ يسمى الحمض النووي، فالحياةُ كما نعرفها لا يمكن أن توجَد في ظلِّ قوانين كيميائية مغايرة، فاللهُ قد خلق قوانين الكيمياء بما يلائم وجودَ الحياة»[1].

كما أنَّ الدكتور ليزلي استدلَّ بتناسب قوانين الفيزياء لقوانين الكيمياء على وجود الخالق إذْ قال: «إنَّ خصائص العناصر والمركّبات ليست اعتباطية، ويمكن في الواقع ترتيبُ العناصر منطقيًّا ضمنَ جدول دوري بناءً على خصائصها الفيزيائية؛ فالعناصر التي توجَد في عمودٍ واحد من الجدول الدوري تميل إلى امتلاك خصائص متشابهة، ويحدثُ هذا لأنَّ العناصر في العمود لها نفسُ بنية الإلكترونات السطحية. وهذه الإلكتروناتُ السطحية تحدِّد الخصائص الفيزيائية للذرة؛ فالجدول الدوري لم يحدث صدفةً، إذْ تملك الذرات والجزيئات خصائصها المتنوّعة بسبب إلكتروناتها المرتبطة بقوانين الفيزياء الكمومية. ولو كانت قوانينُ الفيزياء الكمومية مختلفة قليلًا، فقد يصبح وجود الذَّرات غير ممكن؛ فقد صمَّم اللهُ قوانين الفيزياء مناسبة تمامًا لتكون قوانين الكيمياء بصيغتِها الحالية التي أرادها الله أن تكون»[2].

وهذا الاستدلالُ استدلالٌ واضح وجيِّد، فلا يمكن أنَّ الفوضى والعشوائية والصدفة تحدثُ النظام والإتقان والإحكام، بل لا بدَّ من وجود خالق عليم حكيم وضع كلَّ شيء في موضعه؛ ومِن ذلك: قوانين الكيمياء وتناسبها مع قوانين الفيزياء.

---

(1) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: (72-73)

(٢) المصدر السابق (٧٣).

القسمُ الثّاني: ملاءمةُ العناصر الكيميائية لوجود الحياة:

العناصرُ الكيميائية (Chemical Elements): مجموعة جزئية من المواد في الطبيعة، تتكوَّن من ذرات من مادَّة واحدة[١]. وهذه العناصرُ الكيميائية «تشكِّل بتجمُّعها مع بعضها وفقَ قوانين الكيمياء كلَّ المواد واسعة التنوّعُ التي نألفها، من الغرانيت والخشب والبلاستيك والعقيق والملح والبروتينات والشعر والبنزين والبنسلين.. وهكذا»[٢].

و«أوفرُ الذرَّات في الكون هما الهيدروجين (H) والهليوم (He)، يشكّلان المادة الرئيسة للنجوم، وأقلُّ العناصر وفرةً يوجد بنسبة أقل من ١٠^{١٢} (ترليون) مرّة من الهيدروجين.

نجد أنَّ كلَّ العناصر الأربعة والعشرين الأوفر إمّا أساسية للحياة أو تستعملها بعض الكائنات للقيام ببعض العمليات الحيويَّة... أمّا العناصر الخمسة الأوفر وهي الهيدروجين (H) والهليون (He) والأكسجين (O) والكربون (C) والنيتروجين (N) فجميعها باستثناء الهليوم تشكِّل كتلة الجزيئات الكبيرة المستخدمة في الكائنات الحيَّة...

ومِن الاثنين وتسعين ذرَّة التي تتوفَّر طبيعيًّا، يعتبر وجود خمس وعشرين منها جوهريًّا للحياة. ومن الذرَّات الخمس والعشرين توجد إحدى عشرة في جميع الكائنات الحيّة، وبالنِّسب نفسها تقريبًا... وتشكِّل هذه الذرَّات بمجموعها ٩٩,٩٪ من جسد الإنسان...»[٣].

---

(١) انظر:

https://www.marefa.org/%D8%B9%D9%86%D8%B5%D8%B1_%D9%83%D9%8A%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%A6%D9%8A

(٢) قدر الطبيعة - قوانين الحياة تفصح عن وجود الغاية في الكون - (١٣٣)، للدكتور مايكل دينتون، (مركز براهين لدراسة الإلحاد والنوازل العقدية، الطبعة الأولى، ٢٠١٦ هـ، ت. مجموعة من المترجمين).

(٣) المصدر السابق (١٣٤ - ١٣٧).

وقدِ استخلص الدكتور دينتون الخلاصةَ الآتية من ذلك: «والواقع أن الذرّات في النِّصف الأوَّل من الجدول الدوري هي الأوفر أيضًا، **وهذا يتَّسق مع المفهوم القائل بأنَّ نظامَ بناء الذرَّات مصمّم خصيصًا لينتج عناصرَ الحياة**، ونلاحظ أن الذرّات من الكربون (C) إلى الحديد (Fe)، هي أهمُّ العناصر المستخدمة في الكائنات الحيّة، وجميعُها وافرة نسبيًّا»[١].

وحسبَ القائلين بنظرية الانفجار العظيم، فإنَّ هذا الانفجار أنتج الهيدروجين والهليوم، وآثارًا مِن اثنين من العناصر الأخرى. وأمَّا بقية العناصر فتصنع عن طريق تفاعلاتٍ نووية في داخل النجوم، أو عند انفجارات نجمية مثل: المستعر الأعظم (Supernova)[٢]. والملحدُ يعتقد أنَّ الانفجار العظيم، والتفاعلات النووية في النجوم، والانفجارات النجمية كلّها تحدُث بدون تدبيرِ خالقٍ عليم حكيم، بل هي أحداث عرضيَّة عشوائية. ورغمَ ذلك فقد وفَّرت هذه الأحداث العشوائية هذه العناصر الكيميائية بكميَّات مضبوطة للغاية لكي تظهرَ الحياة على كوكب الأرض. ولا شكّ أنَّ هذا من أغربِ المعتقدات، ودليلٌ على تهافت الفكر الإلحادي المنحرف.

القسمُ الثّالث: أهميَّةُ الكربون لوجود الحياة:

سبق أنَّ جميعَ الأشياء المخلوقة مبنيَّة على هذه العناصر الكيميائية، ولكن أهمَّها على الإطلاق لوجودِ الحياة هو عنصرُ الكربون. فالحياة على كوكب الأرض مبنية على هذا العنصر؛ قال الدكتور دينتون: «يُبنى المنزلُ من مكوِّنات، من الخشب والطوب والحجر والمعدن، ويُبنى الجزءُ الأكبر من محرِّك السيّارة من مكوّنات معدنية، وتصنع العديد من الأدوات المنزلية من موادّ بلاستيكية، وتتكوّن الحواسيب من مكوّنات متنوّعة كالبلاستيك والمعادن ورقائق السيليكون. وفي حالة الكائنات الحيّة، تكون وحدات البناء الكيميائية الأساسية المستخدمة في بنائها هي المركّبات

---

(١) المصدر السابق (١٣٧).

(٢) انظر المقال: How Elements are Formed?

https://www.sciencelearn.org.nz/resources/1727-how-elements-are-formed

العضوية، وهي جزيئيات تتكوَّن من ذرّة الكربون (C) التي تشترك مع عدد قليل من ذرّات أخرى تشمل الهيدروجين (H) والأكسيجين(O) والنيتروجين (N).

عالمُ الحياة هو إلى حدٍّ كبير نتاج لمركَّبات الكربون؛ فكلُّ الآيات في الخليّة، وكلُّ البنى الحيوية عندَ الكائنات الحية من المستوى الجزيئي إلى المستوى المورفولوجي - الشكلي - تتشكَّل من مركَّبات الكربون. والبنى المتنوِّعة كـ(الغشاء الخلوي، وقرني الظبي، وجذع الشجر الأحمر، وعدسات العين، وسمّ العنكبوت، وبتلات الزهرة، ولولب الحمض النووي وصباغ الدم - الهيموغلوبين -) جميعها مكوَّنة بأكملها تقريبًا من توليفاتٍ من ذرَّة الكربون مع الهيدروجين والأكسيجين والنيتروجين»[١].

فعنصرُ الكربون أهمُّ عنصر كيميائي لوجود الحياة، وهناك العديد من الأشياء المتعلِّقة بهذا العنصر تدلُّ على أنَّه مخلوق من قبَل خالقٍ عليم حكيم، أكتفي بذكر ثلاثةٍ منها، وهي: صنعه، وتنوّعُ المركّبات التي يمكن أن يشكّلها، ووفرته. وبيانُ ذلك كالآتي:

أوَّلًا: صنع الكربون:

يعتقد العلماءُ أنَّ الكربون يصنع مثلَ أغلب العناصر الكيميائية بالتفاعلات النووية في داخل النجوم، ولكنَّ صنعَ الكربون بالذات يتطلّب ضبطًا دقيقًا للغاية؛ قال البروفسور جون لينوكس: «مِن لوازم الحياةِ على الأرض وجودُ كمٍّ وافر من الكربون. ويُصنَع الكربون من اندماجِ ثلاثة نوى هيليوم، أو اندماج نواتي الهليوم والبيريليوم. اكتشف عالمُ الرياضيات والفلكي الشهير فريد هويل أنَّ حدوث هذا التصنيع يقتضي ضبطًا دقيقًا لمستوياتِ الطاقة الأساسية لكلِّ نواة مقابل الأخرى، وتعرف هذه الظاهرة بالطَّنين. فلو زاد التفاوتُ عن ١٪ أكثر أو أقلّ عن هذه المستويات فلا يمكن للكون تأمينُ وجود الحياة»[٢].

---

(١) قدر الطبيعة - قوانين الحياة تفصح عن وجود الغاية في الكون - (١٧٣ - ١٧٤).

(2) God's Undertaker (70)

ورغم أنَّ هويل كان ملحدًا متعنتًا فقد أقرَّ فيما بعد بأنَّ هذا الاكتشاف قد هزَّ إلحادَه، بل إنَّ هذه الدرجة من الضَّبط الدقيق كانت كافية لإقناعه، وكأنَّ «عقلًا خارقًا قد صمَّم الفيزياء مع الكيمياء والبيولوجيا»، وأنه «لا توجد قوى عمياء في الطبيعة تستحقُّ الذكر قادرة على عمل ذلك»[١]. فصنعُ الكربون آية في حدِّ ذاته.

ثانيًا: تنوُّع المركَّبات التي يمكن أن يشكّلها الكربون:

العناصرُ الكيميائية تتفاوتُ كثيرًا في تنوُّع المركَّبات التي يمكن أن يشكّلها. فالعلماءُ يعرفون أكثرَ من عشرة ملايين مركّبًا من العناصر الكيميائية في هذا العصر[٢]. ويمكن الكربون وحدَه أن يشكِّل مليونًا من هذه المركّبات[٣]. وبذلك يتفرَّد الكربون عن العناصر الأخرى لكثرةِ المركّبات التي يمكن أن يشكِّلها. وهذا الأمرُ مهمٌّ جدًّا ليكون الكربون العنصرَ المناسب لتشكيل الحياة؛ قال البروفسور نيويل سيدجويك[٤]: «يتفرّد الكربون مِن بين العناصر بعددِ وتنوُّع المركَّبات التي يمكن أن يشكّلها... ولكن ذلك وحده لا يُعطي سوى صورةٍ منقوصة عن إمكانياته، فهو أيضًا أساسُ كلِّ أشكال المادة الحيّة، وفوقَ ذلك هو العنصرُ الوحيد الذي يمكن أن يشغل موقعًا كهذا. والآن صرْنا نعرف ما يكفي لنتيقّنَ استحالة وجودِ عالم يحلُّ فيه السيليكون محلَّ الكربون كأساس للحياة»[٥].

---

(١) انظر: Annual Reviews of Astronomy and Astrophysics (20 / 16) (1982)

(٢) انظر المقال: Carbon – Why Carbon is Special?
http://science.jrank.org/pages/1202/Carbon-Why-carbon-special.html

(٣) انظر: https: / /www.britannica.com /science /carbon – chemical – ele-ment /Compounds

(٤) نيويل سيدجويك (Nevil Sidgwick): بروفسور الكيمياء في جامعة أكسفورد سابقًا، وقد ساهمت أبحاثه كثيرًا في فهم الرابطة الكيميائية. توفي عام: ١٩٥٢م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Nevil-Vincent-Sidgwick

(5) The Chemical Elements and their Compounds (1/490), by: N.V. Sidgwick, (Oxford University Press, 1950)

وأهمُّ العناصر التي تشكِّل المركَّبات الأساسية للحياة مع الكربون هي: النيتروجين والأكسيجين والهيدروجين؛ قال الدكتور مايكل دينتون: «يؤدّي ارتباط الكربون بالنيتروجين والأكسيجين والهيدروجين إلى مزيدٍ من المركَّبات المتعدّدة، التي تشكل - من بينِ ما تشمله - الوحداتِ البنائية للبروتينات، ألا وهي الحموض الأمينية. ومن ضمن هذه المجموعة أيضًا هناك عددٌ من المركَّبات الخلقية تعرف باسم الأسس النيتروجينية، وبعضُها وحدات بنائيَّة مهمَّة للحمض النووي... إنَّ إجمالي عدد البنى الكيميائية المحتملة وتنوُّعها، والتي يمكن تركيبُها من الكربون والأكسجين والهيدروجين والنيتروجين يكاد يكون غيرَ محدود؛ إذ يمكن اشتقاقُ أيِّ شكل كيميائي، وأيِّ خاصية كيميائية يمكن تخيُّلهما تقريبًا»[1].

ثمَّ ذكرُ الدكتور دينتون خلاصة مهمَّة عن تنوّع المركّبات التي يمكن أن يشكّلها الكربون معَ هذه العناصر الثلاثة بقوله: «وتشكِّل هذه العناصر بعضها مع بعض **ما هو في الواقع عُدَّة كيميائية شاملة جُهّزت تجهيزًا مثاليًّا لبناء آلات كيميائية معقّدة** تحوي تشكيلة ضخمة من الأجهزة الكيميائية، وتتطلّب عددًا ضخمًا من المركّبات الكيميائية المختلفة ذات الخصائص الفيزيائية والكيميائية المختلفة»[2].

والسؤالُ للمَلاحدة: أنتم تزعمونَ أنَّ الكربون وبقيّة العناصر تُصنع في داخل النجوم بدون تدبيرٍ وقصد، بل لمجرَّد الصدفة؛ فكيف يمكن لصدفة عمياء أن تجهّز هذا التجهيزَ المثالي لبناء آلات كيميائية معقّدة؟!

ثالثًا: وفرةُ الكربون:

معَ هذه الخصائص المعيَّنة للكربون والهيدروجين، والأكسيجين، والنيتروجين، فإنّها متوفِّرة بكثرةٍ في الكون؛ قال الدكتور دينتون: «لهذه الوفرة الجزيئية العظيمة جانب مذهلٌ تمامًا؛ هو أنَّ الذرّات التي تؤلّفها - أي الكربون والهيدروجين والأكسجين

---

(١) قدر الطبيعة (١٨٠).

(٢) المصدر السابق.

والنيتروجين - هي مِن بين العناصر الأولى القليلة التي تشكَّلت في النجوم، **وهي أيضًا مِن بين العناصر الأكثر وفرةً على امتداد الكون.** ومما يلفتُ النَّظر، أنَّ ذرّتين منها (الهيدروجين والأكسيجين) تشكِّلان الماء، وهو وسط الحياة المعتمدة على الكربون»[1].

وخلصَ الدكتور دينتون من هذا كلِّه إلى الآتي: «ويبدو الأمرُ كما لو أنّه منذ اللحظةِ الأولى للخلق حين كانت الذرَّات تتشكَّل كان القدر قد أودعَ في كيمياء الحياة الحيوية نزعة نحو هذه الغاية»[2].

تعبيرُ الدكتور دينتون بـ«كان القدر قد أودع» مبني على كونه لاأدريًّا، ولكن خلاصته العلمية صحيحة، وهي أنَّ وجودَ هذه العناصر التي تعتمد عليها الحياة بهذه الوفْرة دليلٌ على وجود غايةٍ في الكون. ولكن كيف توجَد غاية من غير إرادة وحكمة وتدبير؟ وكيف توجَد إرادةٌ وحكمة وتدبير مِن غير مُريد وحكيم ومدبِّر؟ لا بدَّ أن يقوم أحدٌ بهذه الغاية، ويريدها وفقَ حكمة وتدبير، وإلا كان كلامه عبثًا فحسب.

فالخلاصةُ الصَّحيحة أنَّ الكربون يصنع في داخل النجوم وفقَ ضبط دقيق للغاية، وبخصائص فريدة، مثل: تنوُّع المركَّبات التي يمكن أن يشكّلها، ومعَ ذلك فالكربون موجودٌ بوفرة في الكون. وكلُّ ذلك دليلٌ على وجود خالق عليم حكيم، خلق كلَّ شيء فأحسنَ خلقَه، وهو الله سبحانه وتعالى.

القسمُ الرّابع: وفرةُ الماء السائل:

قد ألمحَ الدكتور دينتون إلى قضيةٍ مهمَّة في كلامه السابق، وهي: «ومما يلفت النظرَ أنَّ ذرَّتين منها (الهيدروجين والأكسيجين) تشكِّلان الماء، وهو وسط الحياة المعتمدة على الكربون». فالماءُ ضروريٌّ للغاية لوجود الحياة، بل الماء يشكِّل نسبة كبيرة من بدن الإنسان كلِّه. قد كتب عددٌ من العلماء بحثًا علميًّا في: «دورية الكيمياء الحيوية» (Journal of Biological Chemistry) - وهي دوريةٌ علمية أمريكية مرموقة - عن

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (١٨٠ - ١٨١).

المكوّنات الكيميائية في جسدِ الإنسان، وتوصَّلوا إلى النتائج الآتية بخصوص نسبة الماء في الأعضاء:

١) **الجلد:** ٦٤,٦٨٪.
٢) **الهيكل العظمي:** ٣١,٣٨٪.

٣) **العضلاتُ المخطّطة** (مثل: الدماغ، والحبل الشوكي، وجذوع الأعصاب): ٧٩,٥٢٪.

٤) **الكبد:** ٧١,٤٦٪.
٥) **القلب:** ٧٣,٦٩٪.

٦) **الرئة:** ٨٣,٧٤٪.
٧) **الطحال:** ٧٨,٦٩٪.

٨) **الكلاوي:** ٧٩,٤٧٪[١].

أي أنَّ أعضاء جسد الإنسان مكوَّنة إلى حدٍّ كبير جدًّا من الماء. ولا حياة للإنسان إلّا بالماء السائل. والإنسانُ يتكوَّن من الماء بنسبة تصلُ إلى حوالي ٧٠٪، ومعظمُ الكائنات الحيَّة يتكوّن من أكثر من ٥٠٪ من الماء[٢].

وذكرَ الموقعُ الرسمي لوكالة ناسا الأمريكية أن العلماء لا يعرفون عن وجود أيّ كائن حيٍّ (حتى أصغر الكائنات الحيَّة على الإطلاق) يمكن أن تعيشَ بدون ماء سائل. كما أنَّ الموقع ذكر أنَّ العلماء لا يعرفون عن أيِّ كوكب في الكون يوجد فيه ماء سائل إلا كوكب الأرض[٣].

---

(١) انظر:
Journal of Biological Chemistry (158/628), 1 May, 1945, by: H.H. Mitche

(٢) قدر الطبيعة (٦١).

(٣) انظر: /https: / /spaceplace.nasa.gov /i – see – ice /en
ذكر الموقع أن بعض العلماء يظنّون أنه قد يوجد ماء سائل في اثنين من أقمار كوكب المشتري تحتَ قشرة السطح من الجليد، وسواء وُجد الماء في هذه الأقمار أو لم يوجد، فإنَّ كوكب الأرض يتفرَّد عن جميع الكواكب المعروفة بوجود وفرة عظيمة من الماء على سطح الأرض وفي باطنه.

وقد ذكرَ الدكتور جونثان سارفارتي أنَّ درجات الحرارة في الكون تتراوح بين -٢٧٠ مئويَّة إلى ملايين الدرجات المئوية. وأمّا الماء السائل فلا يوجد إلى بين درجة ٠ إلى ١٠٠ مئوية. فما كان أبردَ من ٠ فإنَّه يتجمّد، وما كان أكثر من مائة، فإنه يتبخّر. وهذا يتطلَّب نجمًا بضبطٍ دقيق في الكبر مثل: الشمس، وإلّا ما أمكن وجود الماء السائل(١).

وكوكبُ الأرض مغطًّى بالماء نسبة ٧١ ٪. وهي نسبة عالية جدًّا وهي كذلك ملائمة تمامًا للحياة(٢).

ولا يمكن ردُّ هذا كلّه إلى الصدفة، بل هو أمرٌ مقصود بلا شكّ؛ قال الدكتور مايكل دينتون: «لم يكنْ تأسيس الحياة في الوسط السائل مجرّد صدفة، إذ من الصعب تصوُّر وجودِ أيِّ نوعٍ من النظام الكيميائي المعقّد القادر على تركيب ونسخ ذاتي، والتَّعامل مع الذرَّات والجزيئات المكوّنة له، وتحصيل المغذّيات والمكوّنات الحيوية من بيئته - أي يكون نظامًا يُبدي الخصائص التي نصفُ بها الحياة - إلا في وسط سائل»(٣).

فالخلاصةُ أنَّ وجود الماء السائل ضروري لوجود الحياة، ووجود الماء السائل يتطلّب ضبطًا دقيقًا للغاية، ولا يمكن ردُّه إلى مجرَّد الصدفة. وبذلك يكون دليلًا على وجود الخالق عزَّ وجلّ.

وقد نبَّه اللهُ تعالى على ضرورة الماء السائل للحياة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وقد فسَّر الإمام قتادة (رحمه الله) هذه الآية بقوله: (كلُّ شيء حيٍّ خُلق من الماء)(٤). ففي ذلك تنبيهٌ إعجازي على ما اكتشفَه العلم التجريبي لاحقًا مِن ضرورة الماء السائل لجميع الكائنات الحيّة.

---

(١) انظر المقال: The Wonders of Water

https://creation.com/the-wonders-of-water

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: قدر الطبيعة (٦١).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨ / ٤٣٤).

القسمُ الخامس: التركيبُ الكيميائي للغلاف الجوّي:

مِن أهمِّ المتطلِّبات لوجودِ الحياة على أيِّ كوكب كان، هو وجود غلاف جوّي مناسب. وأنْ يكون التركيبُ الكيميائي للغلاف الجوّي تركيبًا دقيقًا للغاية. وهذا ما نجدُه على كوكب الأرض. فيتكوَّن غلاف الأرض الجوّي (Atmosphere of Earth) من تركيبةٍ دقيقة من الغازات، وهي: ٧٨,٠٨ ٪ نيتروجين، ٢٠,٩٤ ٪ أكسيجين، ٠,٩٣ ٪ أرغون[١]، و٠,٠٣٣ ٪ من ثنائي أكسيد كربون، مع بعض الغازات الأخرى[٢]. ولكلٍّ من هذه الغازات خاصيات مهمَّة. وبذلك يختلف كوكبُ الأرض عن غيره من الكواكب. فإذا نظرْنا إلى أقرب الكواكب إلينا، وهما: المريخ والزهرة نجد الآتي وفقَ موقف كالة ناسا:

غلافُ المريخ الجوّي: ٩٥,٣٢ ٪ من ثنائي أكسيد كربون، و٢,٧ ٪ من نيتروجين، و١,٩ ٪ من أرغون، ٠,١٣ ٪ من أكسيجين فقط![٣].

غلافُ الزهرة الجوّي: ٩٦,٥ ٪ من ثنائي أكسيد كربون، ٣,٥ ٪ من نيتروجين[٤]. فلا يوجد أكسجين على هذا الكوكب أصلًا.

أهمِّية الأكسجين في الغلاف الجوّي:

جميعُ هذه الغازات في الغلاف الجوِّي مهمَّة، ولكن أهمَّها لوجود الحيوانات والإنسان هو الأكسجين. ولا يمكن لأيِّ حيوان فضلًا عن الإنسان أن يعيش بدون

---

(١) أرغون (Argon): عنصر كيميائي ينتمي إلى طائفة العناصر النبيلة رمزه الكيميائي Ar عدده الذري ١٨ وكتلته الذرية ٣٩,٩. وهو ثالث أكثر الغازات انتشارًا في الغلاف الجوي. انظر: https://www.chemistrysources.com/tag/argon/

(٢) انظر المقال: Air – Composition and Molecular Weight
https://www.engineeringtoolbox.com/air-composition-d_212.html

(٣) انظر: https: / /nssdc.gsfc.nasa.gov /planetary /factsheet /marsfact.html

(٤) انظر: https: / /nssdc.gsfc.nasa.gov /planetary /factsheet /venusfact.html

أكسجين[1]. فالأكسجين غازٌ ضروري للحياة. ولكنَّ وجود الأكسجين وحده لا يكفي، بل لا بدَّ أن تكون نسبة الأكسجين معتدلة، كما هي على الأرض. فلو زادت أو نقصتِ النِّسبة الحالية قليلًا لما أمكن وجودُ الحياة على الأرض. وبيانُ ذلك كما يلي:

أوَّلًا: زيادةُ نسبة الأكسجين:

كلَّما زادتِ نسبة الأكسجين في الغلاف الجوّي كلَّما زاد احتمال نشوب حرائق الغابات بسببِ البرق. وتزدادُ الإمكانية بـ٧٠ ٪ لكلّ زيادة بـ١ ٪ من نسبة الأكسجين[2]. فلو زادتْ نسبة الأكسجين إلى ٢٥ ٪، فلن تبقى عامة الحياة النباتية؛ قال الدكتور جيمس لوفلوك[3] عن ذلك: «إنَّ نسبة فوق الـ٢٥ ٪ لن تُبقي إلا القليل مِن الحياة النباتية الموجودة حاليًا على الأرض، وذلك بسبب الحرائق العنيفة التي ستدمّر الغاباتِ الاستوائية المطيرة والتندرا القطبية على حدٍّ سواء... **إنَّ مستوى الأكسجين الحالي يصلُ لنقطة يتوازن فيها الخطر والمنفعة بشكل دقيق**»[4].

ثانيًا: نقصانُ نسبة الأكسجين:

كما أنَّ زيادة النسبة مشكلة، فإنَّ النقصان مشكلة كذلك؛ فلو نقصت النسبة قليلًا فإنَّ وجود كائنات حيَّة معقَّدة غيرُ ممكن. وقد شرح الدكتور دينتون هذا الأمر بشيء من الطول، ولكنْ ينبغي نقلُه لنفاسته؛ وهو قوله: «يحتوي غلاف الأرض الجوّي

---

(١) بل لم يجدِ العلماءُ سوى حيوان بحري واحد يستطيع أن يعيش بدون أكسجين، وهو حيوان مجهري من نوع حاملات الدروع المصفحات (Loricifera) في أعماق البحر الأبيض المتوسّط.
انظر المقال: There is One Animal that Seems to Survive Without Oxygen
http://www.bbc.com/earth/story/20170125-there-is-one-animal-that-seems-to-survive-without-oxygen

(٢) انظر: قدر الطبيعة (٢٠٠).

(٣) جيمس لوفلوك (James Lovlelock): عالم بريطاني متخصّص في البيئة وحامل شهادة الدكتوراه في الطبّ، وقد عمل فترة في وكالة ناسا. انظر:
https://www.britannica.com/biography/James-Lovelock

(4) Gaia (71), by: J.E. Lovelock (Oxford University Press, 1987)

على ٢١ ٪ أكسجين، ونتيجةً لذلك فإنَّ الضغط الجزئي للأكسجين هو ١٥٠ لم زئبقي (٢١ ٪ من الضَّغط الجوّي عند مستوى البحر)، كما أن لكل ١٠٠ مليلتر من الماءِ الملامس للهواء تحوي ٠,٤٥ مليلتر من الأكسجين عند مستوى البحر.

ويظهرُ أنَّ قابلية ذوبان الأكسجين كافية تمامًا للسماح للكائنات - خاصَّة تلك التي عندَها معدَّل استقلاب عالٍ - باستخدام الأكسدة لتوليد الطاقة. لو كانت النسبة أقلَّ من ذلك - ولو بقليل - لما استطاعتِ الكائنات أن تستخلص الأكسجين من المحلول المائي بمعدَّل كافٍ لتلبيةِ حاجاتها الاستقلابية، حتى في حالتها الحالية فإنَّ كلَّ الكائنات النشطة استقلابيًّا تعتمد على تكيّفات فيزيولوجية معقَّدة لاستخلاص ونقل الكمِّيات الكافية من الأكسجين، لتأمين متطلّباتها من الطاقة. إنّ إيصال الأكسجين الكافي لتلبية المتطلّبات الاستقلابية في الجسم البشري، يعتمدُ بشكل حاسم على العمل المتكامل للجهازين الدوراني، والتنفُّسي، وعلى الصباغ الخاص الحامل للأكسجين في الدَّم وهو الهيموغلوبين.

إحدى تقييدات التصميم هي أنَّ من الصعب رؤية كيفية زيادة قدرة الدم على حمل الأكسجين، ولكنْ حتى لو أمكن مضاعفتُها باستخدام هيموغلوبين خارق خيالي مثلًا، فإنَّ ذرَّات الأكسجين ستظلُّ مضطرَّة للانتشار عبر طبقة مائية قبل أن يلتقطها ذلك الحامل في الرئتين. ثمَّ عليها أن تنتشر عبرَ طبقة مائية أخرى عندما تترك الحامل ذاك في الأنسجة، وطالما أنَّ معدَّل انتشار الأكسجين في الماء متعلّق بشكل مباشر بقابليته للذَّوبان، فإنَّ تلك القابلية للذوبان تفرض حدًّا على المعدَّل الذي يستطيع أيّ حامل افتراضي نقل الأكسجين أو تفريغه. وبالتالي حدًّا على معدّل إيصال الأكسجين إلى الأنسجة. نتيجةً لذلك فإنَّ أيَّ مادة مهما بلغت سعتها كحامل في جهاز الدوران، ستظلُّ كمِّية الأكسجين التي يمكن لسوائل الأنسجة أن تحملها محدودة؛ بسبب ثابت انحلال الأكسجين. وإذا كان أحدُ الغازات غيرَ منحلٍّ بالماء، فإنّ لن يستطيع الانتشارَ عبرَ الوسط المائي مهما كانت فعالية الجزيء الذي يحمل هذا الغاز»[1].

---

(١) قدر الطبيعة (٢٠٣ - ٢٠٤).

وخلاصةُ الدكتور دينتون من هذا الكلام التأصيلي كان ما يأتي: «واضح أن قابلية ذوبان الأكسجين أو معدَّل انتشاره في الماء إنْ كانت أقلَّ مما هي عليه بشكل معتبر، فلنْ يوجد أيُّ جهاز دوراني أو تنفُّسي قادر على إيصال الأكسجين الكافي لتلبية النشاطات الاستقلابية للكائنات النشطة ذاتِ الدم الحار، والتي تتنفّس الهواء من غلافٍ جوِّي يكون فيه الضغط الجزئي للأكسجين ١٥٠ ملم زئبقي»[١].

فكوْن الأكسجين موجودًا على كوكب الأرض معجزة بحدِّ ذاته، ولكن وجوده بهذه الكمِّية والضبط الدقيق معجزة علاوة على تلك المعجزة.

الضَّبطُ الدقيق لثنائي أكسيد كربون:

ليس الضبط الدقيق مختصًّا بغاز الأكسجين فحسب، بل حتى الغازات القليلة الانتشار، مثل: ثنائي أكسيد كربون، مضبوط بدقّة. ومما يبيِّن ذلك ما تزايد فيه الجدل عنه الدوائر العلمية والسياسية والإعلامية في الأزمان المتأخّرة، وهو: الاحتباس الحراري في الأرض (Global Warming) أو تأثير البيت الزجاجي (Greenhouse effect). والمراد به ارتفاعُ درجات حرارة الأرض عن معدَّلها الطبيعي نتيجة سيلان الطاقة الحرارية من البيئة وإليها. ومِن أكبر أسبابه ارتفاعُ درجات المعدَّل هي زيادة ثنائي أكسيد كربون في الغلاف الجوِّي نتيجة استخدام السيّارات، وعمل المصانع وغير ذلك[٢].

والكلامُ عن هذه المسألة طويل، وليس هذا محلَّ بسطه، ولكن الملفت للنظر، هو التَّأثيرات السلبية لتغيُّرات طفيفة. فقد ذكر موقع وكالة ناسا أن في العصور الجليدية (Ice ages) كانت نسبة ثنائي أكسيد كربون في الغلاف الجوّي ٢٠٠ جزء من مليون، ثمَّ ارتفعتِ الحرارة وذابَ الجليد في كثيرٍ من المناطق حين ارتفع المعدَّل إلى ٢٨٠ جزء من مليون. وأمَّا عام ٢٠١٣م، فقد قاسَ العلماء أنَّ النسبة ارتفعت إلى أكثر من ٤٠٠ جزءٍ من مليون لأوَّل مرَّة في التاريخ المعروف. وذكر الموقع أنّه لو استمرّ الوضع على ما هوَ عليه اليوم، فإنَّ النسبة سوف تصل إلى ١٥٠٠ جزء من مليون.

---

(١) المصدر السابق (٢٠٤).

(٢) انظر المقال: الاحتباس الحراري - مخطّط يبيّن تأثير الاحتباس الحراري -.
http://www.uobabylon.edu.iq/uobcoleges/lecture.aspx?fid=10&lcid=38189

وبعد ذلك فلا يمكنُ أن يعود الغلافُ الجوّي إلى ما كان عليه قبل زمن المصانع إلا بعد عشرات الآلاف من السنين(١).

ومِن آثار الاحتباس الحراري السيِّئة التي يذكرها العلماء: القحط، والإعصارات الشديدة، وذوبان الجليد في القطبين الجنوبي والشمالي مما يسبِّب في وقوع الطوفان. وغير ذلك من الأسباب(٢).

وإنْ كان علماءُ البيئة بين أخذٍ وردٍّ في مدى تأثير الاحتباس الحراري للجوّ، إلا أنَّ ١٩٧ مؤسَّسة علمية عالمية اتَّفقت على أنَّ الاحتباس الحراري حقيقي، وأنَّه قد حصل بسببِ سوء تعامل الإنسان مع البيئة(٣).

وإنْ كان للإنسان تأثيرٌ سلبي على الغلاف الجوّي، فإنَّه يعني بطبيعة الحال أن الغلافَ الجوّي كان أفضلَ في السابق. وهو وضعُه الطبيعي الذي خلقه الله عليه. فكان ذلك دليلًا على الضَّبط الدقيق للغازات في الغلاف الجوّي.

خلاصةُ المبحث:

ما ذُكر في هذا المبحث غيضٌ من فيض عن الحجج المستنبطة من الكيمياء على وجودِ الخالق. وإلّا، فالحجج كثيرة جدًّا. وكلامُ علماء الغرب في هذه المسألة بمجمله جيِّد وقوي، وينبغي للمسلمين الاستفادةُ من هذا الكلام في الدلالة على وجود الخالق العليم الحكيم الذي خلق كلَّ شيء فأحسنَ خلقه، سبحانَه وتعالى عمّا يقول الملاحدةُ الظالمون علوًّا كبيرًا.

---

(١) انظر المقال: Graphic: The Relentless Rise of Carbon Dioxide
https://climate.nasa.gov/climate_resources/24/graphic-the-relentless-rise-of-carbon-dioxide/

(٢) انظر المقال: Consequences of Greenhouse – effect Temperature Rises
https://www.bgs.ac.uk/discoveringGeology/climateChange/CCS/consequencesOfTemperatureIncrease.html

(٣) انظر المقال: Effects of Global Warming
https://www.livescience.com/37057-global-warming-effects.html

المبحثُ الخامس
الحججُ المتعلِّقة بعلم النفس

هذا المبحثُ يبيِّن الحججَ المستنبطة من علم النفس التي يستخدمها علماءُ الغرب في الاستدلال على وجود الله ونقد الفكر الإلحادي.

وقد عرَّف قاموس أكسفورد علمَ النفس بأنه: «الدراسة العلمية للعقل البشري ووظائفه، لا سيَّما المؤثِّرة في السلوك في سياق معيّن»[1].

فعلمُ النَّفس يتعلَّق بوظائف العقل البشري المؤثّرة في السلوك، وليس بتركيب العقل البشري، فهذا هو ما يسمَّى بعلم الأعصاب (Neurobiology). ولذلك يختلف هذا المبحثُ عن المباحث السابقة، إذِ المباحث السابقة كانت تتعلّق بالإتقان والإحكام في المخلوقات، وأمَّا هذا المبحث فإنَّه يتعلَّق بسلوكيات الإنسان.

وقد سبقَ في بداية الفصل أنَّ الحجج العلمية على وجود الخالق تؤيّد الحججَ العقلية على وجودِه، وبينما كانت المباحثُ السابقة تؤيِّد حجة الإتقان والإحكام، فإنَّ هذا المبحث يؤيِّد حجة الفطرة.

وينقسمُ هذا المبحث إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الأدلةُ من علم النفس على وجود مبادئ فطرية.

القسمُ الثّاني: الأدلةُ من علم النفس على أنَّ الإنسان مفطورٌ على الإيمان بالخالق.

القسمُ الثّالث: الأدلةُ من علم النفس أنَّ الإلحاد في الأصل مشكلة نفسية وانحراف سلوكي عن الفطرة السوية.

وبيانُ ذلك كما يلي:

---

(١) قاموس أكسفورد على الرابط: https: / /www.lexico.com /definition /psychology

القسمُ الأوّل: الأدلةُ من علم النفس على وجود مبادئ فطرية:

قد سبقَ الكلام عن أنَّ المذهب الحسِّي كان من ممهِّدات الإلحاد في أوروبا؛ فقد أنكرَ فلاسفةُ المذهب التجريبي وجودَ المبادئ الفطرية في الإنسان، وقالوا إن الإنسانَ يولَد كصفحة بيضاء (Tabula Rasa) بدون أيّ مبادئ عقلية أو فطرية. وهذا القول خلاف ما يقرِّره الإسلام، كما أنَّه خلاف ما قرّره المذهب العقلاني - وعلى رأسه الفيلسوف ديكارت - من أنَّ الإنسان يولَد بهذه المبادئ الفطرية، وأنّه على الإنسان أنْ يبني تفكيرَه المنطقي عليها.

وقد اهتمَّ علماءُ النفس في هذا الزمان بدارسة هذه المبادئ الفطرية لدى الأطفال، وتوصَّلوا إلى أنَّ هذه المبادئ موجودة لدى الطفل منذ نعومة أظفاره. ومن أهمِّ هذه المبادئ الفطرية لدى الأطفال: مبدأ السببية والشعور بالغائية(١). وبيانُ ذلك كما يلي:

- **المبدأ الأوَّل: مبدأ السببية:**

سبقَ الحديث مرارًا عن أهمِّية مبدأ السببية في أدلَّة وجود الله، وأن المقدّمة الثانية في كلٍّ مِن دليل الخلق والإيجاد، ودليلِ الإتقان والإحكام مبنيٌّ على مبدأ السببية. وقد قام علماءُ النفس بإجراء دراساتٍ عن وجود مبدأ السببية لدى الأطفال، وأدركوا أنَّ هذا المبدأ موجود منذُ الأشهر الأولى بعدَ ولادة الطفل. مِن الأمثلة على هذه الدراسات ما قامَ به بعضُ الباحثين بدراسةِ أطفالٍ أعمارُهم شهران ونصف خلال اطِّلاعهم على مشهدٍ لأسطوانة تتدحرج هبوطًا على منحدر، ومِن ثَمَّ تتوقّف حين تصطدم ببعض الأجسام الصغيرة المثبتة كمعوِّقات للحركة. ولقد لاحظَ المختبرون مدى حدق الأطفال بأبصارهم خلالَ التجربة، وخرجوا بنتيجةٍ أنَّ الأطفال يفكّرون بما يفكّر به البالغون في أنَّ الجسم يمكن له أن يتحرَّك إذا ما اصطدمَ به جسمٌ آخر، أي أنَّ الأطفال في هذا السنِّ يدركون أنَّ التلامس الفيزيائي بين الأجسام يحرّكها كما أنَّ

---

(١) المصدر الرئيس لهذا المبحث هو كتاب: Born Believers: The Science of Children’s Religious Belief للدكتور جستون باريت. وهو مترجم من مركز دلائل إلى اللغة العربية باسْم: فطرية الإيمان: كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله؟

اختبارات أخرى بيّنت أنَّ الأطفال في هذا السنِّ يدركون أنَّ الأشياء العادية (وليس العوامل الفاعلة) لا تتحرّك من تلقاءِ نفسها[1].

كما أنَّ دراسات أخرى أقنعتْ علماءَ نفس النُّمو أنَّ الأطفال في عمر خمسة أشهر (بل ربَّما أصغر) يدركون أنَّ المكعَّبات والكرات والأحذية والألعاب يجب لمسها حتى تتحرَّك، وأنه عندما يمسُّها جسم متحرِّك تنزع إلى أن تتحرّك[2].

فقد دلَّت التجاربُ العلمية على أنَّ الأطفال يدركون مبدأ السببية في حال صغرهم. وهذا الأمرُ كان معلومًا عندَ علماء المسلمين في السابق أيضًا؛ فمِن لطيف ما يُذكر في هذا الباب أنَّ شيخَ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) ذكر هذه القضية عند الأطفال قبل ثمانيةِ قرون تقريبًا، وهو قوله: «ومعلومٌ بالفطرة التي فطر الله عليها عباده بصريح العقل أنَّ الحادث لا يحدث إلّا بمحدث أحدثه. وإنَّ حدوث الحادث بلا محدث أحدثه معلوم البطلان بضرورةِ العقل، وهذا أمرٌ مركوز في بني آدم حتَّى الصبيان، لو ضرب الصبي ضربةً فقال: مَن ضربني؟ فقيل: ما ضربَك أحد، لم يصدق عقله أنَّ الضربة حدثت من غيرِ فاعل»[3]. ثمَّ واصل شيخُ الإسلام بعدَ ذلك، وذكر وجهَ الاستدلال من هذه المعلومات الفطرية بقوله: «ولهذا لو جوَّز مجوّز أن يحدثَ كتابة أو بناء أو غراس ونحو ذلكَ من غير محدث لذلك، لكان عندَ العقلاء إمّا مجنونًا وإمّا مسفسطًا كالمنكر للعلوم البديهية والمعارف الضرورية، وكذلك معلومٌ أنه لم يُحدث نفسه، فإنْ كان معدومًا قبل حدوثِه لم يكن شيئًا، فيمتنع أن يُحدث غيرَه فضلًا عن أن يحدث نفسه»[4].

وهذا هو محلُّ الشاهد من بيان وجودِ المعارف الفطرية مثل: مبدأ السببية في الأطفال. فلا يمكن لعاقلٍ أن ينكرَ هذا المبدأ. ومَن أنكره كان إمّا مجنونًا أو مسفسطًا،

---

(١) انظر: فطرية الإيمان: كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله؟ (٣٥ – ٣٦).

(٢) المصدر السابق (٣٦).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٣/ ٢٠٢).

(٤) المصدر السابق.

وأقلَّ علمًا من الأطفال. فلا ينبغي أن تقعَ مناظرة في المقدّمة الثانية من دليل الخلق والإيجاد ودليل الإتقان والإحكام.

- **المبدأ الثّاني: الشعورُ بالغائية:**

هذا كذلك من المعارفِ الفطرية المغروزة في الإنسان؛ فالإنسانُ يبحث عن الغاية مِن وجود أشياء. وهذا الشعورُ الفطري مهمٌّ في الحجّة الغائية - التي سبق ذكرُها -. فكلُّ شيء في الوجودِ له هدفٌ وغاية، والإنسان بطبيعته يبحث عن هذه الغايات. وأمّا الملحدُ الذي يعتقد أنَّ الكون وكلَّ ما فيه نتيجة الصدفة والعشوائية فإنّه ينكر هذا الشُّعور الفطري - كما سبق ذكره مرارًا -.

وقد أجرى العلماءُ تجاربَ علمية في وجود هذا الشعور الفطري حتى في الأطفال. ومِن أشهر هذه الدراسات:

الدِّراسةُ الأولى: شملتْ هذه الدراسة أطفالًا يتراوح أعمارُهم بين أربع إلى خمس سنوات. وخلاصةُ التجربة أنَّ الباحثين قاموا بتعريض الأطفال إلى مشاهدة خلافٍ بين شخصيَّتين خياليتين، حيث يصرُّ أحدهما على أنَّ وجود أحد الأشياء له سبب، وتخالف الشخصية الثانية ذلك. ثمَّ يطلب من الأطفال أن يقرِّروا مَن هو المصيب ومن المخطئ. وكانتِ الأشياء المعروضة التي تمَّ النقاشُ عنها من أنواع مختلفة: أشياء حيَّة وطبيعية وصناعية، وأجزاء هذه الأنواع.

وكانت نتيجةُ التجربة أنَّ الأطفال اتّفقوا على أنَّ الأشياء الطبيعية والكائنات الحيّة موجودةٌ لهدف مثل الأشياء التي يصنعها الإنسان[1].

الدِّراسةُ الثّانية: شملتِ الدراسةُ أطفالًا يتراوح أعمارهم بين سبع وثماني سنوات. وسئلَ هؤلاء الأطفال عن موقفِهم من التَّفسير الغائي لخصائص حيوانات

---

(١) انظر:

The Scope of Teleological Thinking in Preschool Children, Gram (70), (241-273)

متنوّعة وأشياء طبيعيَّة غير حيّة. ومِن الأمثلة على الأسئلة: عندما شاهدوا صورةً لصخرة مدبَّبة، وسئلوا (لماذا تظنُّون أنَّ الصخور مدبَّبة للغاية؟) قدَّموا تفاسير وظيفية وهدفية مثل: (هي مدبَّبة كي لا تجلس الحيوانات عليها وتحطِّمها) وفضَّلوها على تفاسير فيزيائية مثل (هي مدبَّبة لأنَّ أجزاء من المواد قد تكدَّست فوق بعضها البعض لفترة طويلة من الزمن). فظهرت النتائجُ أنَّ الأطفال في هذا العمر فضَّلوا التفاسير الغائية، رغم أنّهم لم يتعلّموا ذلك في البيت ولا المدرسة(١).

الدِّراسةُ الثّالثة: شملتْ هذه الدراسة أطفالًا يتراوح أعمارهم بين ستّ إلى عشر سنوات من بريطانيا. وكانتِ الأسئلة الموجَّهة إليهم تتعلّق بتفسير الأشياء والظواهر الطبيعيَّة والصناعية. ومن الأمثلة على الأسئلة: (لماذا حدث الفيضان الأوّل؟) و(لماذا وُجدَ الطير الأوَّل؟). وكانت النتيجة أنَّ الأولاد فضّلوا التفاسيرَ الغائية على التفاسير الفيزيائية(٢).

فاتَّفقت هذه الدراسات الثلاث على أنَّ التفسير الغائي مغروز في الأطفال من نعومةِ أظفارهم. واستخلص الباحثون منها أنَّ الأطفال ينحازون لتفضيل التفاسير المبنية على الغاية(٣).

واستخلصَ البروفسور جاستن باريت من هذه الدراسات الآتي: «تقرِّر هذه البديهة الراسخة التي نشأتْ مبكّرًا أنَّ هناك تصميمًا وهدفًا وراء كلِّ شيء نراه

---

(١) انظر:

Why Are Rocks Pointy? Children's Preference for Teleological Explanations of the Natural World. Development Psychological 35 (1999): (1440-1453)

(٢) انظر:

Intuitions about Origins: Purpose and Intelligent Design in Children's Reasoning about Nature; Journal of Cognition and Development 6 (2005): (3-31)

(٣) انظر:

The Human Function Compunction: Teleological Explanation in Adults. Cognition 111 (2009) (138-143)

في الطبيعة، وقد تدفع بقوّة لترك فكرةِ حدوث التطوُّر فقط عبر الانتقاء الطبيعي الأعمى لا غير. وقد نعتقدُ حدسًا أنَّ التطوُّر يحتاج مساعدة متقطّعة من مصمِّم ذكي ليجعل تعليل حدوث التطوُّر مقبولًا[1]؛ لأنَّه على المستوى الأساسي يبدو أنَّ افتراض وجود مصمّم وضعَ التَّصميم أمرٌ صحيح، وهذا ما تشجِّعنا عقولنا منذ الطفولة الباكرة على التفكير به؛ **بل نجدُ أنَّ استعمال لغة التصميم والغاية أمرٌ حتمي حتَّى عند أشدِّ التطوّريين صلابة ممَّن يحاربون ضدَّ التصميم.** تُجبرنا الطريقةُ التي نمت بها عقولنا طبيعيًّا على التساؤل مِن أو ماذا وراء التصميم الواضح، أو الغاية في الطبيعة. من هو المصمِّم الأكبر؟ هل هي الطبيعة ذاتها؟ أم التطوُّر؟ أم الانتقاء الطبيعي؟ أو إله؟»[2].

وهذان المبدآن مغروزان في كلِّ إنسان، وهمَا يساعدانه في قبول أدلّة وجود الله بكلِّ سهولة. فحجَّة الإتقان والإحكام مبنيَّة على مقدِّمتين ونتيجة:

المقدِّمة الأولى: وجودُ الإحكام والإتقان في مخلوقات الله.

المقدِّمة الثانية: كلُّ شيء مُحكم ومُتقن فلا بدَّ له من مُحكِم ومُتقِن خلقه.

النتيجة: وجودُ خالق عليم حكيمٍ خلق المخلوقات بهذا الإحكام والإتقان.

فالشعورُ بالغائية يجعل الإنسانَ يبحث عن الإحكام والإتقان في المخلوقات، ويشعر بأنَّها وُجدت لغاية. وأمَّا مبدأ السببية فهو الأصل للمقدّمة الثانية. وهذا يلزم الإنسانَ بقبول النتيجة الواضحة البيِّنة. وإضافةً إلى ذلك فإنَّ الإنسان مفطور على الإيمان بالخالق نفسه كما سيأتي بيانُه في القسم الثاني.

---

(١) يبدو أنّ هذا الاستنتاج من البروفسور باريت مبنيٌّ على موقفه تجاه مذهب التصميم الذكي والتطوّر الموجَّه، وإلّا فالدراساتُ لا تشير إلى هذا الاستنتاج بوضوح، بل تشير إلى وجود الشعور الفطري بالغائية في الكائنات الحيّة وغير الحيّة.

(٢) انظر: فطرية الإيمان: كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله؟ (٧٧).

القسمُ الثّاني:
الأدلةُ من علم النفس على أنَّ الإنسان مفطور على الإيمان بالخالق:

قد تقدَّم أنَّ الدراساتِ الحديثة في علم النفس تشيرُ إلى أنَّ الإنسان مفطور على مبدأ السَّببية والشعور بالغائية. وهناك دراساتٌ علمية تشير إلى أنَّ الإنسان ليس مفطورًا على هذيْن المبدئين فحسب، بل هو مفطورٌ على الإيمان بالخالق. وقد تقدّم في الحديث عن حجَّة الفطرة بعض الكلام عن هذه الدراسات، وأنَّ أكبر دراسة في هذا المجال هو ما قامَ به البروفسور جاستن باريت مع زميله البروفسور روجير تريغ بتعاون مع ٥٧ باحثًا مِن ٢٠ دولة عن فطريةِ الإيمان. وكانت خلاصةُ البحث ما ذكره البروفسور تريغ: «لقد جمعنا أدلةً كثيرة تثبتُ أنَّ التديُّن حقيقة مشتركة في طبيعة الإنسان في المجتمعات المختلفة»[١].

وذكرَ البروفسور باريت خلاصتَه عن فطرية الإيمان عند الأطفال: «لو ألقينا مجموعة منْهم على جزيرة وتربَّوا فيها بأنفسهم فإنّي أعتقدُ أنهم سوف يؤمنون بالله»[٢].

وقد دوَّن البروفسور باريت خلاصةَ أبحاثه خلال عشرين سنة فيما يعتقد أنّه دين الفِطرة التي فُطِر عليه كلُّ مولود في كتابه: «فطرية الإيمان» (Born Believers)، وبيَّن في هذا الكتاب أنَّ المعتقدات اللاهوتية المعقَّدة - مثل: التثليث - ليست من دين الفطرة؛ فقال - مع أنَّه نصراني - : «فلو أخذْنا عقيدة التثليث كمثال، فسنجد كيف تؤكِّد المسيحية التقليدية على الفكرةِ القائلة بأنَّ هناك إلهًا واحدًا، وهذا الإله مكوّن من ثلاثة (أشخاص): الإله الأب، والإله الابن، والإله الروح القدس. إنَّ الصياغة الدقيقة لهذه

---

(١) مقال Belief in God is part of human nature – Oxford study : https://www.telegraph.co.uk/news/politics/8510711/Belief-in-God-is-part-of-human-nature-Oxford-study.html

(٢) انظر المقال: Children are born believers in God, academic says https://www.telegraph.co.uk/news/religion/3512686/Children-are-born-believers-in-God-academic-claims.html

العقيدة وما تعْنيه وما لا تعْنيه كانت موضوعًا للعديد من المجالس الكنسية والكتابات اللاهوتية التي امتدَّت لما يزيد على ألف عام. وأظنُّ أنَّ هذه العقيدة ستبقى ملغزة وصعبةً على الفهم... وقد خرج الكثيرُ من نقّاد المسيحية لخلاصة (أظنّها متسرّعة قليلًا) أنَّ هذه العقيدة غيرُ قابلة للفهم، وبالتالي فهي هراء. وما أودُّ الإشارة إليه ليس صوابَ أو خطأ المفاهيم اللاهوتية ذات الطبيعة الإدراكية غير الفطرية وغامضة التصوّر للديانة، وإنّما فقط الإشارة إلى حاجتها اكتسابها إلى مزيدٍ من الوقت والجهد، **وبالتالي فهي خارج مجال ميولِ الإدراك الفطري للتديُّن عند الأطفال. ويجب توفُّر عوامل مجتمعيَّة خاصَّة للانتشار الناجح لهذا النوع من الأفكار**»[١].

ومِن هنا، اقتربَ البروفسور باريت كثيرًا من مدلول الحديث: «كلُّ مولودٍ يولَد على الفطرة **فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه** أو يمجِّسانه»[٢].

ولعلَّ ذلك من أسباب مراسلة بعضِ المسلمين للبروفسور باريت كما ذكره في كتابه، وذكروا له حديثَ الفطرة، فأجابَهم بقوله: «إنني أقدِّر هذا التأكيد، لكن ما وصلنا إليه مِن الدليل حتَّى الآن يدعم فطريةَ الإيمان بربٍّ خالق قدير، ولا يؤكّد بأنّ الأطفال يولَدون مؤمنين بدين مسلمين سنّة، أو يهود أو مسيحيين - أو أيِّ دين آخر من هذا القبيل، بل قد ينحازون بالعموم لإحدى الديانات دون غيرها -، ولعلَّ هذا أحدُ أسباب الانتشار الواسع لبعضِ الديانات دون غيرها - لكنَّني لا أعلم أيّ تقاليد معيّنة تنطبق عليها تمامًا الأفكارُ الفطرية التي يميل الأطفال للإيمان بها»[٣].

وهذا دليلٌ على أنَّ البروفسور باريت لم يفهمْ حقيقة مدلول الحديث. فليس المرادُ بالحديث أنَّ الطفل يولَد بمعرفة تامَّة بعقيدة الإسلام أو أحكامه. وهذا ما

---

(١) فطرية الإيمان (١٧٣ - ١٧٤).

(٢) متّفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٩)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١ / ٤٦٥). وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب ما معنى كلّ مولود يولَد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤ / ٢٠٤٧).

(٣) المصدر السابق (١٨٧).

ذكره شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) إذْ قال: «إذا ثبتَ أنَّ نفس الفطرة مقتضية لمعرفته ومحبته، حصلَ المقصود بذلك، **وإن لم تكنْ فطرة كلِّ أحدٍ مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج كثيرٌ منهم في حصول ذلك إلى سببٍ معيَّن للفطرة: كالتعليم والتخصيص.**

فإنَّ الله قد بعثَ الرسل، وأنزل الكتب، ودعوا الناسَ إلى موجب الفطرة: من معرفة الله وتوحيده، فإذا لم يحصلْ مانع يمنع الفطرة، وإلّا استجابت لله ورسله، لما فيها من المقْتضى لذلك. ومعلوم **أنَّ قوله: كلُّ مولودٍ يولَد على الفطرة، ليس المراد به أنه حينَ ولدته أمُّه يكون عارفًا بالله موحدًا له، بحيث يعقل ذلك.** فإنَّ الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل:٧٨]. **ونحن نعلم بالاضطرار أن الطفل ليس عنده معرفةٌ بهذا الأمر، ولكنَّ ولادته على الفطرة تقتضي أن الفطرة تقتضي ذلك، وتستوجبه بحسبها.**

فكلَّما حصل فيه قوة العلم والإرادة، حصلَ من معرفتها بربها، ومحبتها له، ما يناسبُ ذلك كما أنَّه ولد على أنه يحبُّ جلبَ المنافع ودفْع المضار بحسبه، وحينئذ فحصولُ موجب الفطرة، سواء توقَّف على سبب، وذلك السبب موجود من خارج، أو لم يتوقَّف، على التقديرين يحصل المقصود. ولكن قد يتَّفق لبعضها فوات الشرط أو وجود مانع، فلا يحصل مقصود الفطرة»[1].

وهذا الكلامُ الذي ذكره شيخُ الإسلام في الحقيقة قريب مما توصّل إليه البروفسور باريت خلالَ دراساته وأبحاثه، إلا أنَّ استنتاجات البروفسور باريت ليست مأخوذة من مشكاة النبوَّة، وإنما هي استنتاجاتٌ قادَه عقله إليها بناءً على ما قام به من الدراسات، وما لديه من مواقفَ فلسفية مُسبقة قبل الدراسات. ولا بدَّ أن يحصل خلل في شيء من كلامه، وإن كان في جملته كلامًا سليمًا.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٦٠ – ٤٦١).

القسمُ الثّالث:

الأدلةُ من علمِ النَّفس أنَّ الإلحاد في الأصل مشكلة نفسية وانحراف سلوكي عن الفطرة السوية:

قد تقدَّم أنَّ الفيلسوف الألماني لودفيغ فيورباخ كان من أشهر الملاحدة في القرن التاسع عشر. وكان فيورباخ يرى أن الإله إفرازٌ لتخيُّل الإنسان (Imagination)؛ فهو إسقاط (Projection) لما يريده الإنسان لنفسه، ثمّ يجسِّد (Objectification) هذا المراد، فيكون مرادُه هو الإلهَ في تخيُّلاته. ولما كان الإنسان يستطيع أن يفكّر في المجرّدات بخلافِ الكائنات الأخرى نشأتِ الأديانُ نتيجة لذلك. فالدين عند فيورباخ لا يعدو كوْنه إسقاطًا نفسيًّا وأوهامًا[1].

وقد قرأ سيغموند فرويد نظرياتِ فيورباخ عنِ الدين، وتأثَّر بها في أيام شبابه، فكان يعتبر أنَّ الإله وهمٌ مبنيٌّ على حاجةٍ صبيانية لأب قوي، ورأى أنَّ الدين كان ضروريًّا لمساعدتنا لكبْح دوافع عنيفة في وقتٍ سابق مع تطوُّر المجتمعات، ولكنّه لا حاجة إليه في هذا العصر بسببِ انتشار العقلانية والعلم التجريبي[2].

وسيغموند فرويد من أشهر علماءِ النفس على الإطلاق حتى يلقَّب بأبي علم النَّفس المعاصر[3]. وبسبب مكانة فرويد المرموقة بين علماء النفس الماديين انتشرت نظرياتُه المعادية للإيمانِ والدين بينهم، وتدرَّس هذه النظريات في الجامعات الغربية[4].

---

(١) انظر: الإلحاد مشكلة نفسية (٧٠)، للدكتور عمرو شريف، (نيو بوك للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٣٧ هـ).

(٢) انظر تلخيص موقف فرويد من الإيمان والدين في:
A History of God (357), by: Karen Armstrong, (Ballantine Books, 1993)

(٣) انظر المقال: Sigmund Freud: The Father of Modern Psychology
http://www.academia.edu/5517174/Sigmund_Freud_The_Father_of_Modern_Psychology

(٤) انظر: نفسية الإلحاد - إيمان فاقد الأب - (٢٤)، لبول فيتز، (مركز دلائل، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ، ترجمة: مركز دلائل).

وسيأتي الردُّ التفصيلي على هذه الشُّبهات في الفصل الثاني من الباب الثالث - إن شاء الله -. ولكنَّ المقصود هنا أنَّ بعض العلماء قد قلّبوا حجة الملاحدة، واستخدموا هذه النَّظريات في تفسيرِ ظهور الإلحاد، بأنَّه في الحقيقة مشكلة نفسية منحرفة عن الفطرة السويَّة. وهذا ما قامَ به البروفسور بول فيتز[1]. وهو من كبار علماء النفس الأمريكان، وقد نشأ نصرانيًّا، ثمَّ أصبح ملحدًا أثناءَ دراسته لعلم النفس، ثمّ عاد إلى النَّصرانية بعد ذلك[2]. وقد بحثَ قضية علم النفس الإلحادي بعمق، وألّف كتابه المشهور: «إيمان فاقد الأب - نفسية الإلحاد» (Faith of the Fatherless - The Psychology of Atheism). وأصَّل في هذا الكتاب أنَّ الأبوّة الناقصة - سواء كان الأب ميّتًا أو غير حاضرٍ أو غير جدير بالاحترام - هي مِن أسباب النزوع إلى الإلحاد واللادينية[3]. وقد تتبَّع البروفسور فيتز سيرَ حياة أشهر الملحدين واللّادينيّين الغربيين فوجد أنَّ هذه العلاقة واضحةٌ وظاهرة. فأغلبُ الملاحدة واللادينيّين المشهورين كانت لهم علاقات مستشكلة معَ آبائهم، وقد أثَّرت هذه العلاقة في تبنِّيهم الإلحاد أو رفض الدين.

ولكوْن هذه الدراسة مُفيدة يستحسن عرضُ بعض النماذج منها، ولا سيَّما الملاحدة واللادينيّين المذكورون في هذه الرسالة. وهُم ثلاثة أقسام: ملاحدة ولادينيُّو عصر التنوير، والقرن التاسع عشر، والقرن العشرين.

أوَّلًا: عصرُ التنوير:

أشهرُ دعاة الإلحاد واللادينية في هذا العصر هُم: فولتير، وهيوم وبارون دي هولباخ. وبيانُ ذلك كما يلي:

الأوَّل: فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨). اسم فولتير الحقيقي هو فرانسيس ماري آروت، ولكنَّه غيَّره لفولتير بعد أنْ رفض والده، بل ادَّعى أنه ولد غير شرعي. ووقعت

---

(١) بول فيتز (Paul Vitz): بروفسور علم النفس في جامعة نيو يورك سابقًا. وقد تخصّص في مسائل علم النفس المتعلّقة بالدين والإلحاد. انظر: https://divinemercy.edu/psy - d - in - clinical - psychology/faculty - 2/paul - c - vitz/

(٢) انظر: الإلحاد مشكلة نفسية (١٩١ - ١٩٢).

(٣) ويدخل كذلك بعض الربوبيين الذين اشتهروا بنقد لاذع للدين.

مشاجراتٌ كبيرة بينه وبينَ والده فتسبَّب في إرسال فولتير إلى السجن. وعلاوة على ذلك توفِّيت أمُّ فولتير وعُمره ١٠ سنوات، فصارتْ له مشاكل نفسية. وأصبح فولتير ربوبيًّا لادينيًّا شديدَ النقد للدين، ولكنَّه لم يكن ملحدًا. وكان من أسباب تقلّص الدين في فرنسا، وفلسفته أثَّرت في علمنة الدولة بعد الثورة الفرنسية(١).

الثّاني: ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦): وقد توفّي والد هيوم، وعُمره سنتان فقط، ولا تذكر سيرتُه أنَّ أحد الأقرباء أو الأصدقاء قام بمهمَّة الأب في تربيته. وأصبح هيوم متشكِّكًا، ومِن أشهر المنتقدين لأدلةِ وجود الله والمعتقدات الدينية، وقد ساهم مساهمةً واضحة في بروز الإلحاد(٢).

الثّالث: بارون دي هولباخ (١٧٢٣ - ١٧٨٩): وُلد باسم باول هنري ثياري في عائلةٍ من أصحاب الأراضي المتواضعة. ولم يتربَّ مع والده، بل أرسلَه والده ليعيش مع خالِه في صغره، وقد جمع خاله ثروةً حتى اشترى أراضي ولقبًا أرستقراطيًّا، وهو هولباخ. وأخذَ بول هنري هذا اللقب وسمَّى نفسه: بارون دي هولباخ، متنكّرًا لعائلته من الفقراء ورافضًا لوالده. وأصبح دي هولباخ مِن أوائل الدُّعاة إلى الإلحاد في فرنسا، ومن أكثر الفلاسفة تعنّتًا ضدَّ الدين(٣).

ثانيًا: القرن التاسع عشر:

أشهرُ دعاةِ الإلحاد في القرن التاسع عشر هُم الملحدون الفلاسفة الألمانيون، وهُم: آرثر شوبينهاور، ولودفيغ فيورباخ، فريدريك نيتشه. وبيانُ ذلك بما يأتي:

الأوَّل: آرثر شوبينهاور (١٧٨٨ - ١٨٦٠): كانت علاقةُ شوبينهاور بوالده في البداية جيّدة، ولكنَّه توفِّي وشوبينهاور صغيرٌ على ما يبدو نتيجةً للانتحار. وكانت علاقةُ شوبينهاور بوالدته سيئة جدًّا، ولم يتلقَّ منها الحبَّ الأمومي. وحمَّل والدته

(١) انظر: نفسية الإلحاد (٦٥ - ٦٧).

(٢) انظر: المصدر السابق (٥٠ - ٥١).

(٣) انظر: المصدر السابق (٦٩ - ٧٠).

مسئولية وفاةِ والده. وكان يشعر بالوحدةِ والخوف في أيَّام شبابه، ونظرته سوداوية للعالم. وهذا أثَّر - كما ذكرَه بنفسه - في رفضه للوجود الإلهي، ولقِّب بالمتشائم الأكبر، وأصبح فيما بعدُ من كبار دعاة الإلحاد في القرن التاسع عشر[١].

الثّاني: لودفيغ فيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢): وُلِد فيورباخ في عائلة ألمانية متميّزة، وكان والدُه من رجالِ القانون البارزين، ولكنَّه ترك عائلته ليعيش مع عشيقته، وكان هذا الأمرُ يعتبر فضيحةً أخلاقية كبيرة في ذلك الزمان، كما أنَّ والد فيورباخ كان معروفًا بأنه مندفعٌ في أخلاقه. وقد أثَّر هذا الأمرُ في فيورباخ، الذي أصبح فيما بعدُ من كبار دعاة الإلحاد في ألمانيا، وهو الذي صاغَ نظرية الإسقاط، التي تمّت الإشارة إليها[٢].

الثّالث: فريدريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠): وُلِد نيتشه في قرية ألمانية صغيرة، وكان نجلَ قسيس، كما أنَّ كثيرًا من أفراد أسرته كانوا قساوسة. كان نيتشه متعلّقًا بقوّة بوالدِه، ولكنَّه توفِّي وعمرُ نيتشه أربعُ سنوات فقط، فكانت صدمةً قويَّة في حياته. تربّى نيتشه معَ والدته وأختِه، وكان يحتقرهما، بل أدَّى ذلك إلى احتقاره للنساء كلّهن، ويقول: «أنت ذاهب لرؤية امرأة؟ لا تنسَ أنْ تأخذ سوطك!». ولم يستطعْ نيتشه أن يقيمَ علاقات طبيعية معَ أولاد آخرين في أيام دراساته، كما أنَّه عانى من أمراض شديدة في حياته. وهذه الاضطراباتُ أدَّت به إلى الإلحاد، وفلسفة متناقضة غريبة، وأصبح من كبارِ دعاة الإلحاد في زمانه[٣].

ثالثًا: القرن العشرون:

هذا القرنُ اختلف عنِ القرون السابقة، حيث أنَّه وُجد منظِّرون للفكر الإلحادي واللّاديني، إضافةً إلى سياسيّين كبار نشروا الإلحادَ واللادينية بحدِّ السيف. ومن أشهر المنظِّرين: سيغموند فرويد، وبرتراند راسل، وجان بول سارتر. وأمَّا أشهرُ زعماء الإلحاد واللادينية فهُم: جوزيف ستالين، أدولف هتلر، وماو تسي تونغ. وبيانُ ذلك كما يلي:

(١) انظر: المصدر السابق (٥٨ - ٦٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (٧٠ - ٧١).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٥ - ٥٠).

المنظِّرون الملاحدة في القرن العشرين:

الأوَّل: سيغموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩): اتَّفق كتَّاب سيرةِ فرويد الذاتية بشكلٍ عام على أنَّ يعقوب - والد سيغموند - كان خيبةَ أمل بالنسبة لابنه، فكان ضعيفًا وغيرَ قادرٍ على إعالة أسرته، وكانت النفقةُ التي عاش عليها سيغموند وهو صغير مِن عائلة أمِّه وآخرين. وإضافةً إلى ذلك كان والده منحرفًا جنسيًّا، وقد عانى أطفاله بسببِه. كما أنَّ والده كان يهوديًّا، وأهينَ بسبب يهوديتِه بدون أن يدافع عن نفسه، وهذا سبَّب عقدة نفسية لدى فرويد، وأدَّى به نحو الإلحاد، كما أنَّه أثّر في نظرياته النَّفسية في تحليل ظاهرة الإيمان[١].

الثاني: برتراند راسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠): توفِّيت والدة برتراند وعمره سنتان، وتوفِّي والدُه وعمرُه أربع سنوات، فتولّى جدُّه تربيته، ولكنَّه توفِّي وعمره ستُّ سنوات. وهكذا كانت أيام طفولة برتراند متَّسمة بوفيات الأقرباء. تربَّى برتراند في بيت جدّته وكانت امرأةً نصرانية متديِّنة، ولكنَّه وقعت له ردَّة فعلٍ مما رأى من تديّنها فألحد، وبدأ ينعزل مِن الناس، ولم يكن عنده أيُّ صديق مقرَّب. وقد عاش حياة مليئة بالتناقضات، وقد ظهرتْ هذه التناقضات جليًّا في فلسفته. وكان برتراند راسل أشهر فيلسوف ملحد بريطاني في القرن العشرين[٢].

الثالث: جان بول سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠): توفِّي والد سارتر بعد ولادته بخمسة عشَر شهرًا، فتربَّى مع أمه، وكان يحبّها كثيرًا، ولكنّها تزوَّجت مرّة أخرى وعمرُه ١٢ سنة، وانتقلت إلى بيتٍ آخر، وتركت ابنَها يعيش مع جدَّيْه. وأثّر هذا الأمر في سارتر تأثيرًا كبيرًا، ولم يتعافَ منها بعدَ ذلك في حياته. وبعدَ زواج أمِّه بسنة قرّر سارتر أن يكونَ ملحدًا، ويرفض إيمانَه بالإله. وأصبح فيلسوفًا ذا صيتٍ واسع، ومن أشهر ملاحدة أوروبا في القرن العشرين[٣].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٧٥ - ٧٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (٥١ - ٥٤).

(٣) انظر: المصدر السابق (٥٤ - ٥٧).

- **الزُّعماء الملاحدةُ واللادينيون:**

ستالين وهتلر وماو كانوا أكبرَ القتلة في التاريخ، وكانوا معًا مسئولين عن قتل ما يقاربُ مائة مليون شخص. وكانوا إضافةً إلى ذلك ملاحدة ولادينيين شرسين، وحاربوا الأديانَ الموجودة في بلدانهم بشتَّى الوسائل. وكلُّ هؤلاء الثلاثة كانت لديهم علاقات سيِّئة مع والديهم. وبيانُ ذلك كما يلي:

الأوَّل: جوزيف ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣): كان والدُ ستالين عديمَ القلب، وقاسيًا جدًّا في ضربِ زوجته وابنه. وإضافةً إلى ذلك كان يغيب عن البيت طويلًا، ويشربُ الخمر بكثرةٍ حتى يسكر. وقد تأثَّر ستالين بهذا الأمر تأثّرًا كبيرًا حتى كان يشعر بالانتقام ضدَّ كلِّ ذي سلطة. أرسلتْه أمُّه لدراسة الكهنوتية واستمرَّ في دراسة القداسة عدَّة سنوات إلى أنْ رفض الدراسة بقوَّة، وأصبح ملحدًا متعنِّتًا، بل رفض اسمَ عائلته وتسمَّى بستالين بمعنى: الفولاذ. ولما تولَّى الحكمَ اضطهدَ القساوسة وجميع المتديّنين من دياناتٍ مختلفة، ونشرَ الإلحاد بقوّة السيف[١].

الثاني: أدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥): كان هتلر يصف والدَه بأنه مستبدّ أناني، ويظهر القليلَ من الاهتمامِ بمشاعر زوجته الأصغر منه بكثير، وفهمًا قليلًا لأولاده. وكان والدُ هتلر يضربه ضربًا مُبرحًا بدون أيِّ رحمة يوميًّا. وقد أدَّى ذلك إلى أنَّ أخا هتلر غير الشقيق هربَ من البيت وهو صغير، بينما بقيَ هتلر يتلقّى التعذيب القاسي، ولكنّ والدَه توفِّي وعمرُه ١٤ سنة. **دفعته** أمُّه نحو الدراسة في الكنيسة، ولكنّه أصبح ثوريًّا ومُعاديًا للكنيسة بعد ذلك، ومعاديًا - بشكل أكبر - لليهودية. وقد تأثَّر هتلر بكبار فلاسفةِ ألمانيا الملاحدة كشوبينهار ونيتشه، وتبنَّى المذهب النازي العلماني، وأصبح قائد ألمانيا ١٢ سنة، واضطهدَ المتديِّنين من اليهود والنصارى بشكل واسع[٢].

الثّالث: ماو تسي تونغ (١٨٩٣ - ١٩٧٦): يوصَف والدُ ماو بأنه مستبدّ أسري، وكان ماو يكرهُه بشدَّة، ويحاول أن يثورَ عليه، فكسبَ فكره الثوري من طفولته في علاقتِه مع والده[٣].

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٣٩ - ١٤٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٤٠ - ١٤١).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٤١ - ١٤٢).

وأصبح ماو ملحدًا شرسًا، وثوريًّا عنيفًا، فقام بثورة حتى استولى على الحكم، ثمَّ طبَّق حكمَه الإلحادي المستبدّ الشديد على سكان الصين، وتوفّي بسببه عشراتِ الملايين من البشر.

فهذه خلاصةُ سيرِ أعتى الملاحدة منذُ ثلاثمائة سنة، وتبيَّن من دراسة البروفسور فيتز أنَّه كانت لهم علاقاتٌ أسرية سيئة، ولا سيَّما مع والديهم. ومِن هذه الناحية قدّمت دراسات البروفسور فيتز معلومات مهمَّة لفهْم طبيعة الإلحاد. ولكن ما مدى الصواب في استنتاجِه للعلاقة بين هذه العلاقات الأسرية المضطربة بالإلحاد؟

تقييمُ استنتاجات البروفسور فيتز:

قدَّم البروفسور فيتز فرضية: الأب المعيب لتفسير ارتباطِ الإلحاد بالعلاقة السيئة بين الأبِ والابن. وكان يستندُ في ذلك إلى فرضيَّة فرويد نفسها؛ فقد نقل كلام فرويد في كتابِه أنَّه قال: «التحليلُ النفسي الذي تعلَّمنا من خلاله الرابط الوثيق ما بين عقدة الأبِ والإيمان بالله، أظهرَ لنا أنَّ الإله المتمثِّل بشخصية، هو منطقيًّا ليس إلا أبًا ممجدًا، ويتَّضح لنا يوميًّا كيف يفقد الشبابُ إيمانهم الديني بمجرَّد أن تنهار سلطة الأب».

ثمَّ علَّق البروفسور فيتز على كلام فرويد بقوله: «وهذه الملاحظاتُ المثيرة للاهتمام لا تتطلَّب أيَّ افتراضات حول الرغبات الجنسية وغير الواعية تجاه الأم، ولا حتَّى حول الكراهية التَّنافسية العامَّة المفترضة التي تركِّز على الأب[1]. بل قام فرويد بدلًا من ذلك بافتراض الادِّعاء الأبسط والأسهل فهمًا بأنَّه كلّما أصيبَ الطفل أو الشاب بخيبة أمل بوالدِه الدنيوي أو فقدَ احترامه، أصبح مستحيلًا عليه الإيمانُ

---

(١) يشير البروفسور فيتز إلى نظرية فرويد (عقدة أوبيد) من أنّ الطفل يطوّر رغبة جنسية قوّية تجاه أمه، وفي الوقت نفسه يطوّر بغضًا شديدًا وخوفًا من الأب ورغبة في أن يحلّ محله توقٌ إلى السلطة. وأنّ هذا الأمر يدخل في اللاوعي عند الطفل، ولا تشفى هذه العقدة النفسية حتى بعد البلوغ، بل تبقى في داخل الإنسان. ورأى فرويد أنّ هذه العقدة قد تؤثّر في موقف الإنسان من الإله والدين.

انظر: نفسية الإلحاد (٣١ - ٣٧).

ويشير البروفسور فيتز في هذا التعليق إلى أنه لا يضمِّن هذه النظرية في نظريته، وإنما يكتفي بكلام فرويد عن العلاقة بين موقف الإنسان من والده وموقفه من الإله.

بالأب السماوي[1]. وقد افترضَ فرويد فكرةَ التمثيل النفسي عند الطفل تجاهَ والده، وهي الفكرة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفهمِهِ لوجود الله تعالى، ثمَّ قام بذلك عددٌ من علماء النفس لا سيَّما أخصائيُّو التحليل النفسي. ويمكنُنا القول إنَّ خيبة أمل الملحد من والده واستياءه منه تبرِّران رفضه لوجود الله»[2].

وهذه الفرضية فيها عددٌ من الإشكاليات، مِن أبرزها أنها وردت في سياق عقيدة النَّصارى في الإله، حيث إنَّ النصارى يؤمنون بالتثليث، وأنَّ الأب هو الأقنوم الأوّل من الأقانيم الثلاثة. ويرسمون الإلهَ في كنائسهم بأنه أبٌ سماوي ذو لحية بيضاء كبيرة. وهذا التصوُّر مُنحصر في المفهوم النصراني، ولا يصدُق على ديانات أخرى كالإسلام واليهودية. فغايةُ ما يمكن قولُه من فرضيته أنَّ النصرانية حرَّفت التصوّر الصحيح عن الإله، وربطتْ بينَ الأب الدنيوي والإيمان بالأب السماوي، وأنَّ هذا المفهوم المحرّف أثّر في بعض النصارى لترْك دينهم إذا اختلَّت العلاقة بينهم وبين آبائهم.

والأقربُ أنه يمكن تفسيرُ الإلحاد بأنه انحرافٌ نفسي عن الفطرة السوية، وأنه يعود في كثيرٍ من الأحيان إلى مشاكلَ أسرية لدى الملحد في طفولته، وسوء علاقته مع والديه أو أحدهما.

«وعلى ذلك فالنتيجةُ الحاسمة من دراسة بول فيتز هي أنَّ الإلحاد حالة نفسية في الغالب، وهذه الحقيقة لا يدركها الملاحدةُ بسهولة، فهُم لا يستطيعون غالبًا الخروج عن حالتِهم النفسية - التي يسمّيها القرآن «الهوى» - ولا يدركون أنّهم بعيدون عن العقل والمنطق إلّا إذا استطاعوا الخروج من المشاعر والركون إلى العقل»[3].

وقد ألمحَ البروفسور فيتز إلى هذا الأمر ضمنًا في كتابه إذ قال: «أفترض أنَّ العوائق الرئيسة للإيمان بالإله ليستْ عقلانية، ولكنْ يمكن أن يطلق عليها بالمعنى العام أنَّها نفسية، ولديَّ قناعةٌ تامَّة بأنه يوجد مقابل كلِّ شخص يحمله النقاش العقلاني بشكلٍ

---

(١) سيتمّ التعليق على مثل هذا اللفظ النصراني بعد الانتهاء من كلامه.

(٢) نفسية الإلحاد (٣٨ - ٣٩).

(٣) تأملات في البواعث النفسية للإلحاد (٥٥).

قويّ على تغيير رأيه ما لا يعدُّ ولا يحصى من المتأثِّرين بشكل أكبر بعوامل نفسية غير عقلانية»[1].

وقد ذهبَ جون باسكويني إلى أبعدَ من ذلك فألّف كتابه المتميّز: «اضطراب شخصية الملحد» (Atheist Personality Disorder) وذكر كثيرًا من الشواهد على الاضطرابات النَّفسية لدى الملاحدة مثل: فلسفاتهم المتناقضة، والسلوكيات المنحرفة المنتشرة بين الملاحدةِ إلى غير ذلك. وقد سبقتِ الإشارةُ إلى بعض النقاط التي ذكر باسكويني عند الحديث عن الآثار السلبية المترتبة على الإلحاد.

تقييمُ الحجج المتعلّقة بعلم النفس:

الحججُ المتعلِّقة بعلم النفس التي يذكرها علماءُ الغرب حجج جيِّدة ومفيدة، لا سيَّما الحجج التي تؤيِّد كونَ الإنسان مفطورًا على الإيمان بالله. فإذا انضمّت هذه الدراساتُ مع الاستدلال العقلي الذي سبق ذكرُه عند الحديث عن حجة الفطرة فإنها تعدُّ حجَّة قوية وأصيلة للاستدلال على وجود الله.

وأمّا الحديث عن كوْن الإلحاد مشكلةً نفسية، فليس دليلًا مباشرًا على وجود الله؛ لأنَّ مجرّد بيانِ كون الشيء مشكلةً نفسية لا يدلُّ على نقيضه مباشرة، أي: أن الله موجود. ولكنْ يُستحسن ذكرُ هذه الدراسات تبعًا للحديث عن الفطرة. فالدراسات العلمية تبيِّن أنَّ الإنسان مفطور على الإيمان بالخالق - وهذا هو المطلوب -، ودراسات أخرى تبيِّن أنَّ الإلحاد مشكلة نفسية وانحرافٌ عن الفطرية سوية، فتكون حجة اعتضادية وليست أصلية.

وكلامُ علماء الغرب عن هذه المسألة جيِّد من حيث ذكر الأدلة والشواهد والدراسات، وأمّا استنتاجاتهم من هذه الدراسات فإنَّها في الغالب لا تخلو من مواقف فلسفيةٍ أو لاهوتية مُسبقة. وهذه المواقفُ الفلسفية واللاهوتية فيها ما فيها من الأخطاء كما سبقتِ الإشارة إليه. ولكنْ يمكن للمسلم أن يستفيدَ من دراساتهم العلمية ويعرض عنِ استنتاجاتهم. وبهذا القدْر يتحقّق المطلوب.

---

(١) نفسية الإلحاد (٢٥).

المبحثُ السّادس

الحججُ المتعلِّقة بالرياضيات

هذا المبحثُ يبيِّن الحججَ المستنبطة من الرياضيات التي يستخدمها علماءُ الغرب في الاستدلال على وجود الله. وقد عرَّف قاموسُ أكسفورد الرياضيات بأنها: «العلم المجرّد للرقم، والمقدار، والمسافة، إمَّا كمفاهيم مجرَّدة (الرياضيات البحتة)، وإمَّا كما هو مطبَّق على تخصُّصات أخرى كالفيزياء والهندسة (الرياضيات التطبيقية)» [1].

ومِن هذا التعريف يتبيَّن أنَّ الرياضيات علمٌ مجرَّد في الأصل، وأنه قد يطبّق على مفاهيم مجرَّدة، أو على التخصُّصات الأخرى المعْتنية بالأشياء الحقيقية كالفيزياء. ولهذا تختلفُ الرياضيات عنْ علم الكون، والفيزياء، والكيمياء، والأحياء التي سبق الحديث عنها؛ لأنَّها علومٌ تعتني بدراسة المخلوقات مباشرة. وأمّا في الرياضيات فلا تدرس المخلوقات بشكلٍ مباشر، وإنَّما يستعمل هذا العلم كوسيلةٍ في فهْم العلوم الأخرى.

ولهذا تختلف طبيعةُ الحجج المستنبَطة من الرياضيات التي يستخدمها علماءُ الغرب في الاستدلالِ على وجود الله عن الحججِ المستنبطة من تلك العلوم الأخرى. وتتلخّص أهمُّ الحجج المستنبَطة من الرياضيات في الاستدلالٍ على وجود الله في أمرين:

الأمرُ الأوَّل: دلالةُ التناسق بين الرياضيات والعالم الطبيعي على وجود الخالق.

الأمرُ الثّاني: دلالةُ الأنماط الرياضية في الطبيعة على وجود الخالق.

وبيانُ ذلك كما يلي:

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/mathematics

الأمرُ الأوَّل: دلالةُ التناسق بين الرياضيات والعالم الطبيعي على وجود الخالق:

قد تقدَّم في المباحث السابقة أنَّ المخلوقات كلّها تتَّسم بالإحكام والإتقان، وأن ذلك يدلُّ على وجود الخالق. ولكنْ هذا ليس الشيء العجيب الوحيد، بل هناك أمرٌ آخرُ في غاية العجب. وهو أنَّ العقل الإنسان يستطيع أن يدرك ويفهم حقيقة ألغاز الكون. ومِن الأقوال المشهورة للفيزيائي ألبرت أينشتاين أنه قال: «الشيء الأكثر استعصاءً على الفهْم في الكون هو أنه كوْن يمكن فهمُه»[1]. فالكون قابل للفهم عمومًا، ولكنَّه يمكن شرحُ النظريات العلمية في علم الكون، والفيزياء والكيمياء والأحياء عنْ طريق الرياضيات. وذلك مع أنَّ الرياضيات علم مجرّد.

فتطابقُ هذا العلم المجرَّد بالعلوم المفسِّرة للكون أمرٌ عجيب جدًّا؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: «لاحِظ أنَّ قوانين الفيزياء ذات طبيعة رياضية غالبًا، ولن تعمل إن لم توجَد قوانين رياضية، وتتضمَّن قوانين ومبادئ الرياضيات قواعد الجمع وخاصية التعدّي وخصائص الاستبدال للجمع والضرب، ثنائية الحدّ، وكثير غيرها. ومثل قوانين الفيزياء يمكن اشتقاقُ بعض قوانين وخصائص الرياضيات من مبادئ رياضية أخرى، ولكن بخلافِ قوانين الفيزياء، تمتازُ قوانين الرياضيات بأنها مجرَّدة؛ فهي لا ترتبط بأي جزء محدّد مِن الكون، ويمكننا أن نتخيَّل كونًا فيه قوانينُ فيزياء مختلفة، ولكن من الصعب أن نتخيَّل كونًا (متَّسقًا) فيه قوانين رياضيات مختلفة. قوانين الرياضيات مثال عن «حقيقة مطلقة "(Transcendent truth) إذ يجب أن تكون صحيحةً بغضِّ النظر عن نوع الكون الذي خلقه الله»[2].

فالعقلُ الإنساني يستطيع أن يكتشفَ قوانينَ الرياضيات، ولكنه لم يخترعها من نفسِه. فحتَّى لو لم يكتشف الإنسانُ هذه الرياضيات، فإنَّ المخلوقات تتبع سننًا محدّدة وفقَ قوانين الرياضيات. ولهذا سمَّى بعضُ علماء الغرب الرياضيات بـ«لغة الخلق»؛ قال الدكتور ليزلي: «يفترض بعضُ الناس أنَّ الرياضيات اختراع بشري،

---

(1) God's Undertaker (59)

(2) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: (75-76)

ويقال بأنه لو اختلفَ التاريخ البشري فسينشأ علمُ رياضيات مختلف تمامًا، والذي سيكون له بدائل من القوانين والنظريات والمسلَّمات، إلى آخره. ولكن هذا التفكير غير متَّزن؛ فهل نظنُّ بأنَّ الكون سيطيع القوانينَ الرياضية لأن الناس اكتشفوها؟ وهل كانت الكواكبُ تدور في أفلاكِها بطريقة مختلفة قبلَ أن يكتشف كبلر أن (a٣=p٢)؟ لا ريب أن القوانين الرياضية شيء اكتشفَه البشر ولم يخترعوه. والشيء الوحيدُ الذي قد يختلف لو أن التاريخ البشري اتَّخذ مسارًا آخر هو الترميز (notation) أي: طريقة التعبير التي نختارها للحقائق الرياضية عبرَ الرموز (symbols)، لكن هذه الحقائق توجد بغض النظر عن كيفية تعبيرنا عنها، يمكن أن تسمَّى في الرياضيات بحق "لغة الخلق"»[1].

وهذا التطابقُ لا يمكن أن يكون مردُّه إلى الصدفة العمياء، لأن التطابق دقيق للغاية، فيفوقُ ما يمكن تفسيرُه بالصدفة؛ قال دين أوفرمان: «فالرياضيات لغة ممتازة تناسبُ العالم الفيزيائي جدًّا، وقد افترضَ أينشتاين نظريته العامة من مفاهيم رياضية مجرَّدة للغاية لسنواتٍ قبل أن يشرحها فعليًّا كتطبيق في عالمنا. التوافق بين نسبيته العامة والعالم الفيزيائي كان بدقَّةٍ تفوق جزءًا من التريليون في المائة. هذا التوافق الشديد لا يمكن تفسيرُه بالصدفة وحدها»[2].

وأمّا الملحدُ المعاصر فإنَّه يحاول تفسير كلِّ ما يتعلَّق بعقل الإنسان وفق نظرية التطوُّر. وشعارُ هذه النظرية: «الصراعُ من أجل البقاء». ولهذا يحاولون جاهدين تفسيرَ كلِّ ظاهرة في الكائنات الحيَّة بهذا الهدف. وهذا دليلٌ على قصور التفسير الدارويني؛ لأنَّ إمكانيةَ فهم العقل لعلمٍ مجرَّد كالرياضيات لا يخدم هذا الأمر إطلاقًا. وقد ذكر البروفسور بول ديفيز هذا الأمرَ قائلًا: «لو كانت القدرةُ على فهم الرياضيات تطوّرت بالصُّدفة أو بالأحرى تحتَ ضغوط بيئية؛ فمِن المدهش حقًّا أنْ نجدها قابلة للتطبيق في الكون المادي. على الجانبِ الآخر لو كانتِ الرياضيات نشأت بشكل مبهم من أجل البقاء بالانتقاءِ الطبيعي

---

(١) المصدر السابق (٧٦).

(2) A Case Against ACCIDENT and Self-Organization (143)

فسنبقَى على مواجهة مع لغزٍ مطابقة الطبيعة للرياضيات. بعد كلِّ هذا أقول إنَّ الصراع من أجل البقاء «في غابة» لا يتطلَّب معرفة بقوانين الطبيعة من خلال تجليها فقط»[1].

وإنْ كان الملاحدة يحاولون تفسيرَ ذلك في فهم الطبيعة حولنا، فلا يمكن تفسيرُ قدرة فهمِنا للعالم دون الذرِّي[2] وإمكانية تفسيره بلغةِ الرياضيات تفسيرًا دقيقًا. وذلك أنَّ العالم دون الذرِّي لم يكنْ معروفًا لدى أيِّ سلف الإنسان المزعوم لدى التطوّريين، بل لم يكنْ هذا العالم معروفًا إلّا في القرون المتأخّرة. ومع ذلك أمكن عقل الإنسان فهم هذا العالم المليء بالألغاز فهمًا دقيقًا، كما أنَّه أمكن الإنسان وصف العالم دون الذرِّي بلغة الرياضيات المجرّدة.

وقد أشارَ البروفسور جون بولكينغهور إلى هذا الأمر، وأنه في الحقيقة ينقض الأساسَ الذي بُنيت عليه نظريةُ التطوُّر - يعني: الصراع لبقاء الأصلح - بقوله: «قدرتنا على فهْم العالم يتجاوز أيَّ شيء مطلوب من أجل البقاء، فكّر في غرابة معارضة الحدْس الموجودة في النظرية الكمية. فلو عرفت موضعَ إلكترون ما فلن تعرف ماذا يفعل... إنَّ عالم الكم لا يمكن توقُّعه أصلًا، لكنه ليس مستحيلَ الفهم تمامًا. لا أعتقد أنَّ قدرتنا على فهْم خصائصه الغريبة كان نتيجةَ فضول أحد أجدادنا لتفادي أحدِ النمور مثلًا. وهذا يتَّضح أكثرَ لو أدركنا أنَّ الرياضيات تعطينا مفتاح فهم الطبيعة... جمالُ الرياضيات أمر مسلَّم به... فقد وجدنا مرارًا وتكرارًا أن المعادلات التي تصف الطبيعةَ جميلة في الأساس. عليك أن تتأمَّل في الأمر، فهو جديرٌ بالاكتشاف. أقول بعد كلِّ ذلك: إنَّ الرياضيات ظهرتْ بسبب الاستكشافات العقلانية الحرّة للإنسان. ومع ذلك، فمِن الواضح أنَّ عقولنا مضبوطة للغاية لفهم الكون، ولتتمكن من كشف ألغازه»[3].

---

(1) The Unreasonable Effectiveness of Science (554), through: A Case Against Accident and Selforganization (144-145)

(٢) دون الذرّي (Subatomic): ما هو أصغر من الذرّة أو في داخل الذرّة. انظر:
https://en.oxforddictionaries.com/definition/subatomic

(3) Beyond Science: The Wider Human Context (79-80)

يقصدُ البروفسور بولكينغهور من هذا الكلام الردَّ على الملاحدة التطوّريين. إذ أنهم يزعمونَ أنَّ عقل الإنسان تطوَّر من أجل أمرٍ واحد فقط، وهو البقاء من أجل الأصلح، ولا فائدة أخرى للعقل. فكيف يمكن العقل إذًا إدراك الأمور الدقيقة جدًّا وصياغتها بلغةِ الرياضيات المجرّدة؟ هذه القدراتُ تتنافى مع نظرية التطوّر. فكما أنّ الكون مخلوق ومضبوط بدقَّة عالية - كما سبق بيانُه - فإنَّ العقل الإنساني مضبوط بدقة عالية لفهم هذه الألغاز.

وهذا النوعُ من الاستدلال قويٌّ وجيّد، فإنَّه يشير إلى أنَّ العقل الإنساني مخلوق من قبَل خالقٍ عليم قدير مكَّنه من التفكُّر والتدبّر وفهْم العالم وصياغة قوانينه بلغة الرياضيات، كما أنّه يدلُّ على بطلان نظرية التطوُّر. فهذا الاستدلال يضرب عصفورين بحجرٍ واحد.

الأمرُ الثّاني: دلالةُ الأنماط الرياضية في الطبيعة على وجود الخالق:

قدْ تقدّم مرارًا وتكرارًا أنَّ هذا الكون وكلَّ ما فيه مضبوطٌ بدقّة متناهية، وأنَّ المخلوقات باختلافِ صغرها وكبرها - من الذرَّة إلى المجرَّة - تؤيّد دليلَ الإحكام والإتقان. ولكن إضافةً إلى ذلك، فقدِ اكتشف العلماءُ أمرًا زائدًا على الإتقان المجرّد في المخلوقات، وهو وجودُ أنماطٍ رياضية دقيقة تتكرَّر في الكون وفي المخلوقات الحيّة بطريقةٍ مُذهلة. ومِن أشهر هذه الأنماط هي ما يسمَّى بالنسبة الذهبية (Golden ratio).

وهذه النسبةُ الذَّهبية بحاجةٍ إلى شيء من الشَّرح والتفصيل، وبيانُ ذلك في الإجابة عنْ ثلاثة أسئلة: ما هي النِّسبة الذهبية؟ أين تظهر النسبةُ الذهبية في المخلوقات؟ كيف تدلُّ النسبية الذهبية على وجود الخالق؟

السؤالُ الأوَّل: ما هي النِّسبة الذهبية؟

في الرِّياضيات يكون رقمان في النِّسبة الذهبية (ϕ)إذا كانت نسبةُ مجموع الكميتين إلى الكمية الكبرى هي تساوي نسبةَ الكمية الكبرى إلى الكمية الصغرى. ويُعبـَّر عنها جبريًّا كالتالي:

$$\frac{a+b}{a}=\frac{a}{b}\equiv\varphi,$$

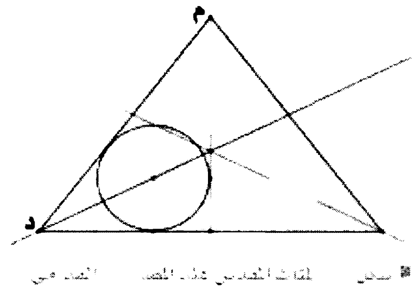
حيث يمثِّل الحرف اليوناني فاي (ϕ) النسبة الذهبية. وقيمتها هي:[١]

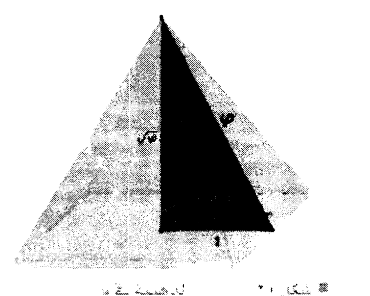
$$\phi = \frac{1+\sqrt{5}}{2} = 1.61803\,39887\,....$$

أو أنَّه يظهر بهذا الشكل[٢]:

$$2x = -1 \pm \sqrt{5}$$
$$x = 0.61803\ldots$$

وهذه النِّسبة الذهبية قد استخدَمها المهندسون والفنَّانون منذ آلاف السنين. وقد اكتشفَ علماءُ الآثار أنَّ الظاهر أنَّ بنّائي الأهرامات كانوا يصمِّمونها وفق هذه النسبة.





ولكنَّ أشهرَ عالم تكلَّم عن هذه النسبة بالتفصيل هو ليوناردو فيبوناشي[٣] حيث كتبَ عنها بالتفصيل، وقد اكتشف ما عُرف بعدَ ذلك بـ«متتالية فيبوناشي» ولها علاقةٌ

---

(١) انظر قاموس المعرفة (النسبة الذهبية):

https://www.marefa.org/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B3%D8%A8%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B0%D9%87%D8%A8%D9%8A%D8%A9

(٢) انظر:

Chemistry by Number Theory (2), by: Jan C.A. Boeyens and Peter Comba

وهو بحث علمي موجود على الرابط:

https://pdfs.semanticscholar.org/ba19/b33b3b9a01dd96ac551c72d2df-3cdc7c2806.pdf

(٣) ليوناردو فيبوناشي (Leonardo Fibonacci): عالم الرياضيات الإيطالي في القرون الوسطى، وكان أحد أشهر علماء الرياضيات في القرون الوسطى. توفي عام: ١٢٥٠ م.

https://www.britannica.com/biography/Fibonacci

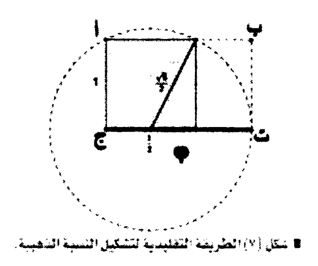
وطيدة بالنِّسبة الذهبية. هذه المتتالية أنْ يكون كلُّ عدد نتاجَ مجموع العددين السابقين له. فتكون المتتالية كالآتي:

F_{20}	F_{19}	F_{18}	F_{17}	F_{16}	F_{15}	F_{14}	F_{13}	F_{12}	F_{11}	F_{10}	F_9	F_8	F_7	F_6	F_5	F_4	F_3	F_2	F_1	F_0
6765	4181	2584	1597	987	610	377	233	144	89	55	34	21	13	8	5	3	2	1	1	0

ووجدَ العلماء أنَّ هذه المتتالية لها علاقة بالرقم الذهبي، لأنّ ٥ ÷٣ = ١,٦٦٦٦، و٨ ÷ ٥ = ١,٦، و١٣ ÷ ٨ = ١,٦٢٥، و٢١ ÷ ١٣ = ١,٦١٥٣٨، وكلّ ما تزداد الأرقام في المتتالية فإنها تقربُ من النسبة الذهبية، ولا سيَّما بعدَ ٤٠ محاولة، فإنه قريب جدًّا من هذه النسبة[١].

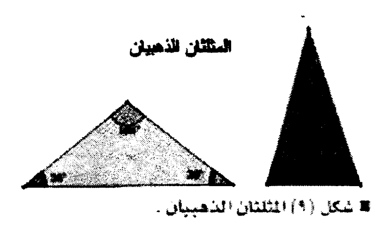
ويمكن ملاحظةُ هذه المتتالية التي تقترب من النسبة الذهبية بأشكال هندسية مُختلفة، ومن الأمثلة على ذلك:

المستطيلُ الذهبي:



شكل (٧) الطريقة التقليدية لتشكيل النسبة الذهبية.

المثلّثُ الذهبي:

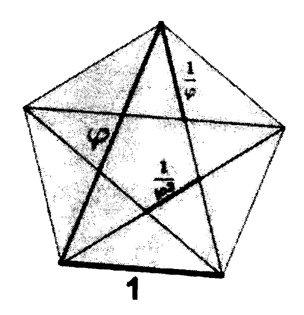


شكل (٩) المثلثان الذهبيان.

---

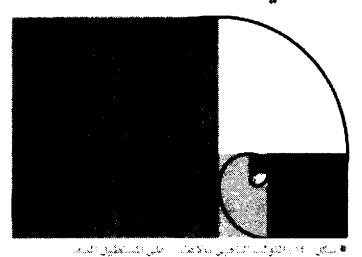
(١) انظر قاموس المعرفة (متتالية فيبوناشي):
https://www.marefa.org/%D9%85%D8%AA%D8%AA%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A9_%D9%81%D9%8A%D8%A8%D9%88%D9%86%D8%A7%D8%AA%D8%B4%D9%8A

الخماسيةُ الذهبية:

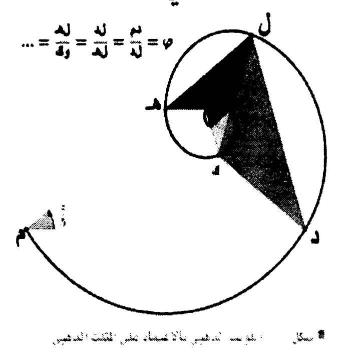


اللوب الذهبي:

يمكن أن يكونَ اللوب الذهبي معتمدًا على المستطيل الذهبي:



أو أنْ يكون معتمدًا على المثلث الذهبي:



ويمكن استخدامُ متتالية فيبوناشي في جميعِ هذه الأشكال كما فعله المهندسون والفنَّانون عبر القرون[1].

---

(١) انظر البحث المشار إليه سابقًا: النسبة الذهبية.. منبع الإلهام ومصدر جمال.

السؤالُ الثّاني: أين تظهر النِّسبة الذهبية في المخلوقات؟

الغريبُ في الأمر ليس أنَّ متتالية فيبوناشي والنسبة الذهبية لا يستخدمها المهندسون والفنَّانون فحسب، بل تظهر في الطبيعة بشكلٍ متكرِّر في أشياء كثيرة جدًّا. والأغرب أنَّها تظهر في بعض أكبرِ المخلوقات في الكون إلى أصغر المخلوقات في عالم الأحياء. وحيث أنَّ هذا الأمر مِن أغرب الأمور في الكون، يستحسن التوسُّع فيه مع إيراد الصور المبيِّنة، والإحالة إلى مصادر علمية موثوقة.

- **أوَّلًا: علمُ الكون:**

قدَّم عددٌ من الباحثين - كلٌّ منهم بروفسور في الفيزياء - بحثًا علميًّا في: «الدورية العالمية للبحث العلمي» (Global Journal of Science Research)[1] بعنوان: «هل الزمكان[2] كسوري ومتماسك في الكوانتم بالمعنى الذهبي» (Is Spacetime Fractal and Quantum Coherent in the Golden Mean?). وبيّنوا في هذا البحث أن الظاهر أن الزمكان كسوريٌّ ومتماسكٌ في الكوانتم بالمعنى الذهبي[3].

---

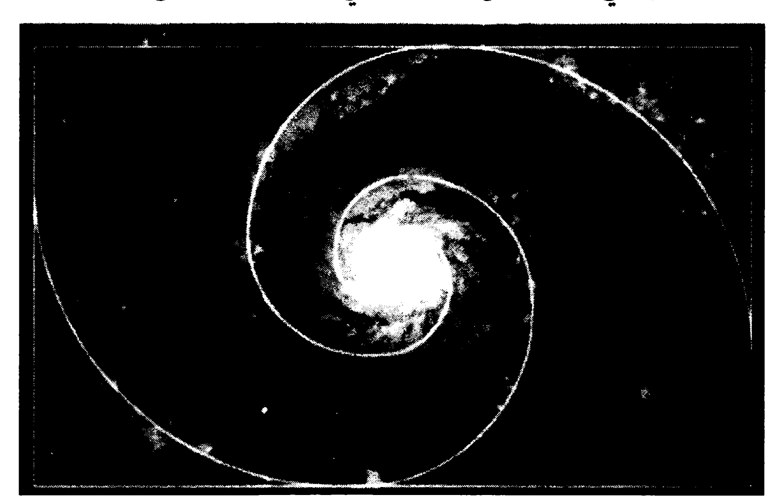
(١) وهي دورية علمية أمريكية محكّمة، نشرت أكثر من عشرة آلاف بحث علمي.
انظر: https: / /journalofscience.org /index.php /GJSFR

(٢) الزمكان: في العلوم الفيزيائية، مفهوم يعترف باتحاد المكان والزمان كمفهوم واحد.
انظر المقال: Space – time في موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https://www.britannica.com/science/space-time

(٣) انظر:
https://www.researchgate.net/profile/Mae-Wan_Ho/publication/272498624_Is_Spacetime_Fractal_and_Quantum_Coherent_in_the_Golden_Mean/links/54e7 23d90cf277664ff79bc0/Is-Spacetime-Fractal-and-Quantum-Coherent-in-the-Golden-Mean.pdf

- ثانيًا: علمُ الفلك:

قدَّم البروفسور جان بوجينس[1] بحثًا بعنوان: «التناسب في النظام الشمسي» (Commensurability in the Solar System) في دورية: «المقالات الفيزيائية» (Physics Essays)[2]، وبيَّن فيه أنَّ النسبة الذهبية تظهر في شكل بعض المجرّات اللولبية مثل: (M٥١)، كما أظهرَه في البحث من الصورة التي التقطها ناسا على هذه المجرَّة:



كما أنّه ذكر أنَّ النسبة الذهبية تظهر في نظامنا الشمسي أيضًا[3].

---

(١) جان بوجينس (Jan Boeyens): بروفسور الكيمياء من جنوب أفريقيا، قدّم وشارك في تقديم أكثر من ٦٠٠ بحث علمي. توفي عام ٢٠١٥م. انظر:
https://www.up.ac.za/media/shared/Legacy/sitefiles/file/publications/2013/cas/cvprof_jan_boeyens.pdf

(٢) وهي دورية علمية عالمية محكّمة تنشر أبحاث علمية في الفيزياء.
انظر: https: / /physicsessays.org /about.html

(٣) انظر:
Commensurability in the Solar System, Physics Essays, 22, 4, (2009), (493-499)
وهو موجود على الرابط:
https://www.researchgate.net/publication/258365619_Commensurability_in_the_solar_system

- **ثالثًا: علمُ الكيمياء:**

كتبَ البروفسور جان بوجينس نفسُه بمشاركةٍ مع عالمٍ آخر كتابًا بعنوان: «نظرية الأرقام ودورية المادة » (Number Theory and Periodicity of Matter) في ٣٧٤ صفحة عن ظهورِ النسبة الذهبية وغيرها من الأنماط الرياضية في عالم الكيمياء.

كما أنَّ البروفسور جان بوجينس كتبَ بحثًا علميًّا مع زميل آخر بعنوان: «الكيمياء عن طريق نظرية الأرقام» (Chemistry by Number Theory) في دورية: «هيكل وعلاقة» (Structure and Bonding)[١]. وقد بيَّن في هذا الكتاب - وهذا البحث - أنَّ النسبة الذهبية واللوب الذَّهبي تظهران في كثير من الظواهر الكيميائية، مثل: بنية الذرّات، والكهرسلبية (Electronegativity)[٢]، ورتبة الروابط (Bond order)[٣]، ونظرية الرابطة التساهمية (Covalent bond)[٤] وغير ذلك من الأمور في الكيمياء. وعلمُ

---

(١) وهي دورية علمية تنشر مراجعات نقدية عن أبحاث علمية متعلّقة بالهيكلة الكيميائية وعلاقاتها.
انظر:
https://www.researchgate.net/journal/0081-5993_Structure_and_Bonding
والبحث منشور في إنترنت على رابط:
https://pdfs.semanticscholar.org/ba19/b33b3b9a01dd96ac551c72d2df-3cdc7c2806.pdf

(٢) الكهرسلبية: هي مقياس لمقدرة الذرة أو الجزيء على جذب الإلكترونات في الروابط الكيميائية.
انظر:
https://www.marefa.org/%D9%83%D9%87%D8%B1%D8%B3%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A9

(٣) رتبة الرابطة هو عدد الروابط بين زوج من الذرات.
انظر:
https://www.marefa.org/%D8%B1%D8%AA%D8%A8%D8%A9_%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D8%B7%D8%A9

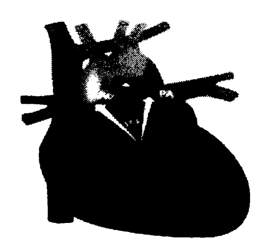
(٤) الرابطة التساهمية: هي أحد أشكال الترابط الكيميائي وتتميز بمساهمة زوج أو أكثر من الإلكترونات بين الذرات.
انظر:
https://www.marefa.org/%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D8%B7%D8%A9_%D8%AA%D8%B3%D8%A7%D9%87%D9%85%D9%8A%D8%A9

الكيمياء يتعلّق بأصغر أنواع المخلوقات كالذرَّات وما تكوِّنه من الجزيئات. ومن العجب أنَّ النسبة الذهبية تظهر حتَّى في هذه المخلوقات المتناهية الصغر.

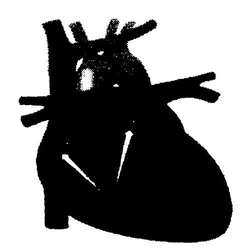
- **رابعًا: قلبُ الإنسان:**

قُدِّمت رسالةٌ علمية لنيْل درجة الماجستير في قسم الأحياء بجامعة ديوك - الجامعة الأمريكية العريقة والمشهورة - بعنوان: «العلاقات الذهبية: «اكتشاف لأرقام فيبوناشي وفي» (The Golden Relationships: An Exploration of Fibonacci Numbers and Phi)، وبيّن الباحث ظهورَ النسبة الذهبية في مخلوقات متنوّعة، وبعضها في جسم الإنسان. ومن أبرز ما ذكرَه ونقله عن علماء آخرين هو وجودُ النسبة الذهبية لبطيني القلب. وقد أجريت دراساتٌ على ٣٠ سويديًّا و٣٠ صينيًّا عن العلاقة الرياضية بين القياس العمودي والقياس المستعرض للبُطين الأيسر. وبيَّنت الدراسة أنَّ النسبة قريبة من: ١,٦١٨. وبيَّنت الدراسة أنَّ الأبعاد المطلقة في القلب السليم أقلُّ أهمية من النسبة بين هذه الأبعاد.

كما أنَّ الباحث ذكر أنَّ الدراسات العلمية قد أثبتت وجودَ الزاوية الذهبية في هيكلِ المضخَّة المثلى بين الأبهر الصاعد (Ascending Aorta) والشريان الرئوي (Pulmonary trunk).



كما أنَّ هذه العلاقة الزاوية نفسها موجودة بين المدخل والتدفّق لمحاور مسالك البطين الأيمن للقلب.

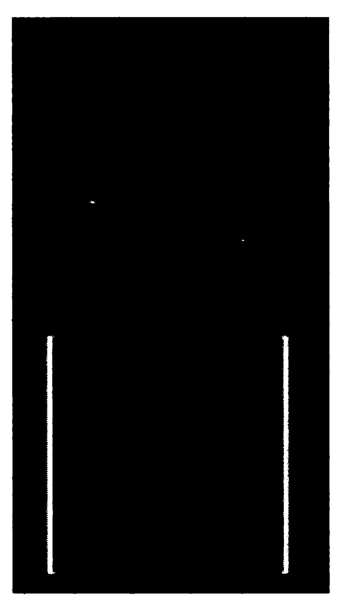


فهذه بعضُ المظاهر للنسبة الذهبية في قلب الإنسان التي ذكرها واتسون في رسالته للماجستير[1].

- **خامسًا: الحمضُ النووي[2]:**

ذكرَ الباحثُ في رسالته ظهور النسبة الذهبية في الحمض النووي أيضًا، وذلك في هيكله اللولب المزدوج (Double helix structure).

فحجمُ جزيء الحمض النووي ٢١ أنغستروم (Ångström)[3] عرضًا و٣٤ أنغستروم طولًا. و٢١ و٣٤ من أرقام متتالية فيبوناشي، ويساوي ٣٤ ÷ ٢١ = ١,٦١٩. وهو موضَّح في هذه الصورة:



(١) انظر:

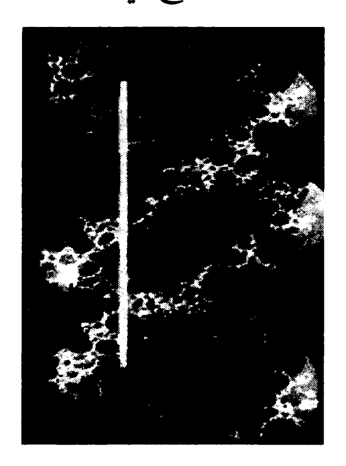
The Golden Relationships: An Exploration of Fibonacci Numbers and Phi, by: Anthony Rayvon Watson, Duke University Biology Department, Master Thesis, 2017, (32-33)

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٥).

(٣) وحدة أنغستروم تساوي ١٠ – ١٠ من متر.

انظر موسوعة بريتانيكا: https: / /www.britannica.com /science /angstrom

كما أنَّ اللولب المزدوّج يكوِّن بطنَ الموجتين (Two wave troughs). وحجم الأولى: ١٣ أنغستروم وحجم الثانية ٢١ أنغستروم. و١٣ و٢١ من أرقام متتالية فيبوناشي، و٢١ ÷ ١٣ = ١,٦١٥. وهو موضَّح في هذه الصورة:



فدلَّ ذلك على ظهور النسبة الذهبية حتى في الحمض النووي المتناهي في الصغر، كما بيَّنه واتسون في بحثه[١].

- **سادسًا: عالمُ النبات:**

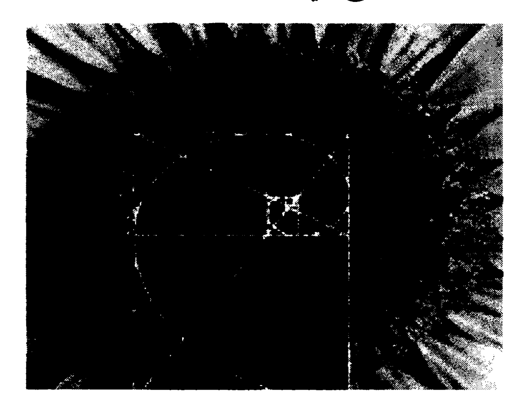
تظهر النسبةُ الذهبية في عالم النبات بكثرة. وقد ألَّف عددٌ من علماء الرياضيات بحثًا علميًّا في الدورية الدولية للاتّجاهات في الرياضيات والتكنولوجيا (International Journal of Mathematics Trends and Technology)[٢]. وبيّنوا في هذا البحث العلمي ظهورَ النسبة الذهبية في أشكال عددٍ من النباتات. ومن هذه النباتات: دوّار الشمس، والألوّة فيرا، والصنبور المخروط. وبيانُ ذلك كما يلي:

---

(١) انظر:
The Golden Relationships: An Exploration of Fibonacci Numbers and Phi, by: Anthony Rayvon Watson, Duke University Biology Department, Master Thesis, 2017, (34-35)

(٢) وهي دورية دولية تنشر أبحاث محكّمة في الرياضيات والتكنولوجيا. انظر:
http://www.ijmttjournal.org/

دوَّار الشمس: البناءُ لأفراد الزهيرات في رأس دوَّار الشمس يكوِّن لوالبَ مبنية على متتالية فيبوناشي، كما هو موضَّح في الصورة[١]:



الألوّة فيرا: بعضُ أنواع الصبّار مثل الألوّة فيرا تكمنُ في لوالب محدّدة بشكل جيِّد. وقد ظهر أنَّ أرقام اللوالب تتبع متتالية فيبوناشي، كما هو موضَّح في الصورة[٢]:



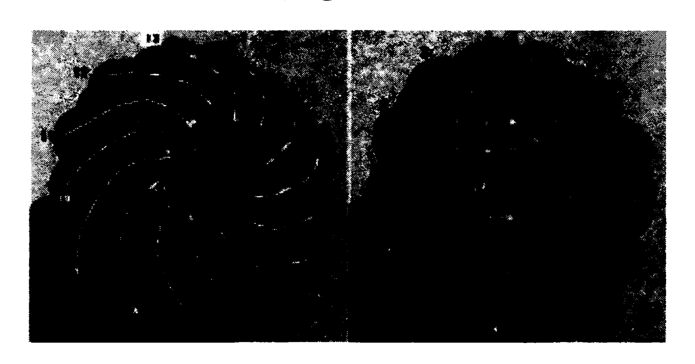
الصُّنبور المخروط: تنمو جميعُ مخاريط الصنبور بشكل حلزوني من الأساس إلى الأعلى، وقد تمَّت ملاحظةُ ذلك باتِّجاه عقارب الساعة، وعكس ذلك في شجرة الصنبور. والصنبورُ المخروط من أوْضح الأمثلة على اللولب الذهبي حيث يمكن

---

(1) Fibonacci Number, Golden Ratio and their Connection to Different Floras, International Journal of Mathematics Trends and Technology (IJMTT) (September 2018)-Volume 61 Number 2-(96-97)

(٢) المصدر السابق (٩٧ – ٩٨).

التوقُّع بسهولةٍ بوجود ثمانية لوالب باتّجاه عقاربِ الساعة، وثلاثة عشر لولب عكس اتّجاهها. وعندَ عدِّ اللوالب إلى الاتّجاهين فإننا نصل إلى اثنين من أرقام فيبوناشي (٠، ١، ١، ٢، ٣، ٥، ٨، ١٣ ...)، كما هو موضَّح في الصورة[١]:



- **سابعًا: عالمُ الكمّ:**

قدِ اكتشف العلماءُ النسبةَ الذهبية في عالم الكمِّ أيضًا؛ فقد اكتشفَ علماءُ ألمانيون بالتعاون معَ جامعات بريطانية مثل جامعة أكسفورد؛ وجودَ تناسق على مستوى النانو في حالةِ المادة الصلبة (Solid state matter) يُظهر النسبةَ الذهبية. ونشروا دراستهم في دوريةِ ساينس (Science) المرموقة عام ٢٠١٠. وقد علَّق البروفسور آلان تينانت[٢] - وكان أحدَ المشاركين في الدراسة - على هذا الاكتشاف بقوله: «مثل هذه الاكتشافات تقودُ الفيزيائيين إلى التوقُّع أنه قد يكون للعالم على مستوى الكم الذرِّي نظامٌ خاص به. وقد تنتظرُ مفاجآت مماثلة للباحثين في دارسة موادّ أخرى في الحالة الحرجة الكمومية»[٣]. فهذه الدراسة لم تثبتْ وجودَ النظام

---

(١) المصدر السابق (٩٨).

(٢) آلان تينانت (Alan Tennant): بروفسور الكهرومغناطيسية التطبيقية في جاعة شيفيلد ببريطانيا. انظر:
https://www.sheffield.ac.uk/eee/people/academic-staff/alan-tennant

(٣) المقال: Golden Ratio Discovered in a Quantum World على الرابط:
https://www.eurekalert.org/pub_releases/2010-01/haog-grd010510.php

في عالم الكمّ فحسب، بل وجود النِّظام وفقَ النسبة الذهبية، وهذا أمرٌ في غاية العجب. وبذلك يتبيَّن أنَّ النسبة الذهبية تظهرُ في مخلوقات مختلفة ومتفاوتة في الحجم، من مستوى المجرَّة إلى مستوى الذرَّة. وهذا أمرٌ اكتشفه العلماء خلالَ دراساتهم العلمية المتكرِّرة. ولكن ما أفضل تفسير لوجود هذا النظام: هل هي العشوائيةُ أو الخلق؟

السُّؤالُ الثَّالث: كيف تدلُّ النِّسبيةُ الذهبيةُ على وجود الخالق؟

قد استدلَّ علماءُ الغرب بوجودِ النِّسبة الذهبية في الطبيعةِ على وجود الخالق. ومن الأمثلةِ على ذلك: مقال كتبه فريد ويلسون[1] بعنوان: «أشكال، أرقام، أنماط والنسبة الإلهية في خلق الله: (Shapes, Numbers, Patterns and the Divine Proportion in God's Creation)، وذكر عددًا من الأنماط الرياضية، ثمَّ ختم المقالَ بقوله: «هذه الأشكال، والأرقام، واللوالب، والنسبةُ الذهبية واسعةُ الانتشار في المخلوقات. فإنه تمّ اكتشافُها في ظواهر حيَّة وغير حيَّة على سواء. تناسقها، وجمالها، ودقّتها الرياضية واضحة في كلِّ جانبٍ من جوانب الطبيعة... الاستنتاج العقلاني الوحيد هو أنَّ خالق الكون كائن شخصاني ذكي، وخلقَ هذه الأشياء على أنَّها بصمةٌ لوجوده غير المرئي، ولكنَّه شخصاني»[2]. وهذا الاستنتاجُ جيِّد وصحيح، إلا أنَّه استخدم ألفاظًا شائعة في اللاهوت النصراني مثل: كائن شخصاني ذكي. ومقصودُهم بذلك هو كائن ذو إرادة وعلمٍ وحكمة.

---

(١) فريد ويلسون (Fred Willson): باحث في معهد الأبحاث المختصة بالخلق حامل شهادة الماجستير في العلوم.

(٢) المقال: Shapes, Numbers, Patterns, And The Divine Proportion In God's Creation, وهو منشور على الرابط:

https://www.icr.org/article/shapes-numbers-patterns-divine-proportion-gods-cre

وكتبَ الدكتور كارل فيلاند[١] وراسل م. غريغ[٢] مقالًا بعنوان: «أرقام ذهبية» (Golden Numbers) وختمَا المقال ببيانِ عدم التفاتِ بعض الناس إلى دلائل النسبة الذهبية على وجود الخالق بقولهما: «إنَّ شبابنا - مع الأسف - قد تمَّ غسلُ أدمغتهم بمغالطات إنسانوية / تطوُّرية التي تنفي الخلاصةَ المنطقية المؤيّدة للتصميم الذكي. ومن الأمثلةِ على ذلك، زعمُهم أنَّ الطبيعة (العشوائية) أنتجت عقلَ الإنسان، وهذا العقلُ هو الذي أنتجَ الرياضيات. ولكن كيف نجدُ الأنماط الرياضية ذاتها التي تجذب أحاسيسنا إلى الشُّعور بالجمال؟ لا شكَّ أنه أكثر منطقيًّا أنَّ هذا الترابط موجود لأنّه يوجد رابط بينَ الطبيعة، والرياضيات، والعقل الإنساني بشعوره الخفي بالجمال. وهذا الرابط هو كوْن هذه الأشياء كلَّها مخلوقة من قبل الإله...»[٣].

وخلاصةُ هذه الحجة أنَّ النسبة الذهبية تظهر في الطبيعة بشكل متكرّر، وهو أمرٌ لا يمكن ردُّه إلى العشوائية والصُّدفة إطلاقًا، بل لا بدَّ أن يكون ذلك نتيجة خلق عن إرادةٍ وعلم وحكمة. وهذه الحجَّة في غاية القوة والوضوح. وينبغي للمسلمين أن يتدرّبوا على استخدامِها في الاستدلال على وجودِ الله في هذا الزمان الذي يعظّم فيه العلم التجريبي وعلمُ الرياضيات، فهي حجَّة قوية ومقنعة للغاية، ولا يمكن الملحد التهرُّب منها بردِّ هذه الأمور كلّها إلى العشوائية.

وأغلبُ كلام علماءِ الغرب في هذه المسألة في مسائلَ علمية بحتة، ويمكن الاستفادة منه؛ لأنَّهم أهلُ الاختصاص. وأمّا استنتاجاتهم العقدية من هذه المسائل العلمية فهي صحيحةٌ في الأصل، إلّا أنهم يخلطونَ كلامهم بألفاظٍ مجملة ومحتملة. فعلى المسلم الذي يستفيدُ من كلامهم أن يتجنَّب استخدامَ هذه الألفاظ، وأنْ يلتزم بالألفاظ الشرعية.

---

(١) كارل فيلاند (Carl Wieland): طبيب أسترالي ومدير جمعية العلوم الخلقية سابقًا. انظر: https://creation.com/dr-carl-wieland-cv

(٢) راسل م. غريغ (Russel M. Grigg): عالم الكيمياء الأسترالي، والباحث المتخصّص في نظرية الخلق. انظر: https: / /creation.com /russell – grigg

(٣) مقال: Golden Numberوهو موجود على الرابط:
https://creation.com/golden-numbers

المبحثُ السّابع
نقدُ حججِ علماءِ الغربِ العلميَّة
على وجود الله

قد تناول هذا الفصلُ حججَ علماء الغرب العلمية على وجود الله. والحجج التي ذكرتُها تتعلَّق بعلوم الكون، والفيزياء، والأحياء، والكيمياء، وعلم النفس والرياضيات. وبالتَّتبع والاستقراء فإنَّ كلامهم في هذا الفصل من الرسالة مِن أكثر ما يستفاد من كلامِ علماء الغرب. والسبب هو أنَّ أغلب كلامهم في هذا الفصل علمي محض، ولا يوجَد فيه كثيرٌ من التداخل مع عقائدهم الفاسدة.

ومعَ ذلك، فيمكن أن يلاحَظ على كلامهم في هذا الفصل الملاحظاتُ الآتية:

الملاحظةُ الأولى: الحججُ في هذا الفصل داعمةٌ لدليل الإتقان والإحكام أو ما يسمَّى بالحجَّة الغائية في الفضاء الديني الغربي. ودليل الإتقان والإحكام في القرآن مبنيٌّ على الأمور المشاهَدة والمدرَكة بالحواس، مثل: النظر والتأمل في السماء، والأرض، والنجوم، والإنسان، والحيوانات. وأمّا طريقة علماء الغرب في هذا الفصل فإنّها في الغالبِ مبنيَّة على أمورٍ غيرِ مدرَكة بالحواس مثل: الضبط الدقيق لقوانين الفيزياء والكيمياء. والطريقةُ المذكورة في القرآن يمكن أن يشاهدَها كلُّ أحد، سواء كان متعلّمًا أو غيرَ متعلّم. وأمّا طريقةُ علماء الغرب فلا يدركُها إلّا المتخصّص في العلوم التجريبية، وعلى غيرِ المتخصّص قبولُ كلامهم في هذا الباب. ولا شكَّ أنَّ ما يدركه الإنسان العادي بنفسِه أقوى مما يسمعُه من المتخصِّص، لا سيَّما وبعض هذه العلوم فيها صعوبة. فقد يقبلُ غيرُ المتخصّص كلامَ المتخصّص بسبب ثقته في كلامه، ولكنْ لا يدرك المرادَ في الحقيقة. وأمّا مشاهدة الإتقان والإحكام في المخلوقات فلا تحتاج إلى دراسةٍ وتعلّم. فمجرَّد النظرِ إلى السماء أو الأرض أو أعضاء الجسم يدرك

الإنسان أنَّها مخلوقة بإتقانٍ وإحكام وعناية. فدليلُ القرآن أقربُ إلى عامَّة الناس من الحجج التي أوردَها علماءُ الغرب. ومعَ ذلك، فإنَّ الحجج التي أوردها علماءُ الغرب في هذا الباب مُفيدة في إقناع المتخصِّص في هذه العلوم. فقد تبيَّن في هذا الفصل أنَّ قولَ الملاحدة بأنَّ هذا الكون، وكلَّ ما فيه وُجد صدفةً مستحيل استحالةً قطعية من الناحية العلمية. وحيث إنَّهم يتظاهرون بتعْظيم العلم التجريبي، فإنَّ استخدامَ هذه الحجج في مناقشتهم يكون قويًّا.

المَلاحظةُ الثّانية: أنَّ بعضَ علماء الغرب أحسنوا في ذكْر الأمثلة على الضبط الدَّقيق للكون وقوانين الفيزياء والكيمياء، ولكنهم لم يربطوا بينها وبين الإيمان بالله. ومن الأمثلةِ على ذلك أنَّ البروفسور مارتن ريس كتبَ عن الأرقام الستة في الكون ومدى دقَّة ضبطها، ثمَّ فسَّر هذا الضبط بنظرية الأكوان المتعددة. وكذلك الدكتور مايكل دينتون له كلام قوي جدًّا عن الضبط الدقيق للكيمياء على كوكب الأرض، ولكنّه سمَّى كتابه: قدر الطبيعة، وذكر أنَّ القدر قد أودع هذا الضبط. فلم يوفّقوا في الربط بين هذه الحجج العلمية ودلالتها على وجودِ الخالق. فلا بدَّ من ذكر الحجج العقلية أوّلًا، مثل: الحجَّة الغائية أو حجج التوافق الدقيق للكون، ثمَّ تذكر هذه الحجج العلمية بعد ذلك.

الملاحظةُ الثّالثة: عندما حاول بعضُ علماء الغرب الربطَ بين هذه الحجج العلمية وبينَ الإيمان بالخالق استخدموا بعضَ الألفاظ المجملة مثل: المصمّم الذكي. والله - تبارك وتعالى - لا يوصَف بأنّه مصمِّم ذكي، وإنما يقال إنه خالق عليم حكيمٌ ذو إرادة وقدْرة. وقد سبق التنبيهُ على هذا الأمر. فلا بدَّ أن يكون المسلم على حذر عندما يستفاد من كلام علماء الغرب في هذا الباب حتَّى لا يتابعهم في استخدام هذه الألفاظ التي لم تردْ في الكتاب والسنة، بل ولم تردْ في كتابهم المقدّس كذلك.

الملاحظةُ الرّابعة: قد أجادَ البروفسور بول فيتز في بيانه أنَّ الإلحاد انحرافٌ نفسي، وشذوذٌ عن الفطرة السوية. وقد قام بعمل مشكورٍ حين استخرج الأمثلة على ذلكَ من سِيَر أعلام الإلحاد، ولكنَّه أخطأ حين تكلَّم عن الأبوة الناقصة،

وحاول الربطَ بينَها وبين الإيمان بالأبِ السماوي. فاستنتاجُه هذا مبنيٌّ على عقيدة النصارى الفاسدة في الإيمان بالله كأَنَّه أبٌ في السماء، والبشَرَ أبناؤه. ولهذا لا تجوزُ متابعته في هذا الاستنتاج، وإنَّما يكتفي المسلم بالاستفادة مما استخرجَه من سِيَر الملاحدة، ويستنبط من ذلك أنَّ المشاكل في التربية مؤثّرة في اعتناق بعض الناس للإلحاد.

الفصلُ الثّالث

حججُهم الحسيَّة على وجود الله

وفيه تمهيدٌ، وأربعةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: حجَّةُ إجابة الدعاء.

المبحثُ الثّاني: حجَّةُ المعجزات والكرامات.

المبحثُ الثّالث: حجَّةُ ثبوت الحقائق الدينية.

المبحثُ الرّابع: نقدُ حججِ علماء الغرب الحسية على وجود الله.

تمهيد

هذا هو الفصلُ الثّالث من البابِ الثاني في بيانِ علماء الغرب لأدلة وجود الله. وهذا الفصل يتعلَّق بالحجج الحسِّية على وجود الله. والعنوانُ قد يبدو غريبًا بما أنه من المعلومِ أنَّه لا يمكن للإنسان العادي إدراكُ الإله بالحواس الخمس في هذه الحياة الدنيا. قدْ سمع بعضُ الأنبياء كموسى عليه السلام ومحمد ﷺ كلامَ الله مباشرة في هذه الحياة، وإن كان ذلكَ من خصائصهما. كما أنَّ المؤمنين يروْن ربَّهم في الآخرة، ولكنَّ رؤية الله غير واقعية في هذه الحياة الدنيا. فليس المرادُ بالحجج الحسِّية في هذا الفصل إدراكَ الإله إدراكًا مباشرًا بالحواسِّ الخمس، وإنَّما المرادُ إدراك آثاره الحسِّية في خلقه، أو ما يسمَّى بالعناية الإلهية (Divine providence). فالمؤلهة (اليهود والنصارى والمسلمون) يؤمنون أنَّ الله لم يخلقِ الخلقَ ثمَّ تركه - كما يقوله الربوبيون - ؛ بل يعتقدون أنَّ الله يدبّر خلقه ويجيب الدَّعوات، ويجري المعجزات على أيدي أنبيائه، والكرامات على أيدي أوليائه. كما أنّه تحصل حقائقُ وتجارب دينية واقعية للناس يمكن الإحساسُ بها. والاستدلال بذلك هو المرادُ بالحجج الحسّية في هذا الفصل.

وقد يشبه هذا الفصلُ ما تقدَّم في الفصل الثاني من الحجج العلمية على وجود الخالق؛ لأنَّه استدلال بالمخلوقات على الخالق. ولكن هناك فرقان رئيسان بين الفصلين:

الفرقُ الأوَّل: الفصلُ الماضي تحدَّث عن الحجج المستنبطة من العلم التجريبي. ومن سماتِ العلم التجريبي أنَّه موضوعي (Objective)[1]، وإذا كان في مبحث يقيني الثبوت فإنَّ زيدًا يتوصَّل إلى نتيجة عمْرو نفسها والعكس. ولهذا نجد أنَّ العلماء يتّفقون على كثيرٍ من قضايا العلم رغمَ تنوُّع ثقافاتهم وخلفيّاتهم. كما أنَّ العلم التجريبي المعاصر يخضعُ لمعايير معيَّنة مثل: اتِّباعه للمنهج الطبيعي - كما

(١) سبق الحديث عن أنه لا يمكن أن يكون العلم التجريبي موضوعيًّا بالكلّية.

سبقَ الحديث عنه -. وهذا المنهج يستبعدُ الحديثَ عن الوجود الإلهي. ولهذا لا يمكن الاستدلالُ بالحجج العلمية استدلالًا مُباشرًا على الخالق، وإنَّما يكون بواسطةِ الحجج العقلية بالدليل الكوني أو دليل الإتقان.

وأمَّا الحججُ الحسِّية مثل: إجابةُ الدعاء والمعجزات، فإنّ هذه الحجج ذاتية (Subjective) وليستْ موضوعية، فلا يمكن إخضاعُ هذه الحجج للعلم التجريبي المبني على المنهج الطبيعي.

الفرقُ الثّاني: الحججُ الحسيَّة أقوى دلالةً على المذهب الألوهي من بعض الحجج العلمية التي يمكن أن يستدلَّ بها أتباعُ المذهب الألوهي والمذهب الربوبي على حدٍّ سواء. فهذه الحججُ الحسِّية مثل: إجابةُ الدعاء والمعجزات تدلُّ على أن الإله الخالق يدبّر شئونَ الناس بطريقة مباشرة. وهذا ما دلَّ عليه القرآن والكتاب والمقدّس لدى اليهود والنَّصارى. وأمَّا بعضُ الحجج العلمية مثل: الحجة الكونية، فغاية ما يدلُّ عليه هو وجود سببٍ أوَّل للكون. وهذا ما يؤمن به كلّ من الألوهيين والربوبيين.

وبذلك يتبيَّن أنَّ الاستدلال بالحجج العلمية أقوى من جهة اتِّفاق كلٍّ من الملحد والمؤمن بحجِّية هذا العلم، ولكنَّ دلالة الحجج الحسّية على المذهب الألوهي أقوى من بعض الحجج العلمية.

والحججُ الحسِّية التي سيتمُّ تناولها في هذا الفصل هي: إجابة الدعاء، والمعجزات، وثبوت الحقائق الدينية.

المبحثُ الأوَّل

حجَّةُ إجابة الدعاء

حجَّة إجابة الدعاء من الحججِ الحسية على وجودِ الخالق ووحدانيته وربوبيته. وقد لخَّص العلامةُ عبد الرحمن بن ناصر السعدي هذه الحجةَ أو البرهان بقوله: «ومن براهين ربوبيته ووحدانيته: إجابتُه للدَّعوات في كلِّ الأوقات، فلا يحصي الخلق ما يعطيه السائلين، وما يجيبُ به أدعية الداعين، من بَرٍّ وفاجر، ومسلمٍ وكافر. **تحصل للعباد المطالب الكثيرة، ولا يعرفون لها شيئًا من الأسباب سوى الدعاء والطمع في فضلِ الله** والرجاء لرحمته. هذا **برهانٌ مشاهَد** في كلِّ الأوقات، لا ينكره إلا مباهتٌ جاحد»[١].

هذه الحجَّة تخاطب الوجدانَ كما أَنَّها تخاطب العقل. فكم من إنسان عبر التاريخ رفعَ يديْه إلى السماء، ودعَا الله فأجابَ اللهُ دعاءه؟ هذا يشمل المسلمَ وغير المسلم، بل الملاحدة؛ فمِن المقولات المشهورة في الغرب: «لا يوجد ملاحدةٌ في الخنادق»[٢]. وهذه المقولةُ لا تقتضي الإيمانَ بالله في وقتِ الشدائد فقط، بل أَنَّهم يلجئون إلى الله في وقت الحربِ والشدَّة، ويدعونه ويستغيثون به.

ورغمَ وضوح هذه الحجَّة وكثرةِ الأمثلة على حصول إجابة دعاء الداعين، فإنّنا لا نجدُ أَنَّها حجَّة مُنتشرة عند علماء الغرب، بل يبدو أنَّ اعتناءهم بنقد شبهة: عدم استجابة الدعاء أكثرُ من احتجاجهم بحجة إجابة الدعاء.

---

(١) البراهين العقلية على وحدانية الربّ ووجوه كماله (٢٥).

(٢) لا يُعرف أوّل من قال هذه المقولة، ولكنّها تنسب إلى عدد من الأشخاص وقد أصبحت متداولة إلى اليوم في الدول الغربية.

انظر المقال: There Are No Atheists in Foxholes:

https://quoteinvestigator.com/2016/11/02/foxhole/

قد نجدُ بعضَ الإشارات إلى هذه الحجَّة في كتابات بعضهم مثل: ستانلي شوبيرغ[1]. فقد ذكرَ فوائدَ الدعاء، وأمثلةً على استجابة الإله لدعاء الداعين، ثمّ حثَّ الملاحدة على أن يجرِّبوا القيامَ بالدعاء لشهرٍ كامل لكي يروا النتيجة بأنفسهم[2]. وبذلك رأى أنَّه يمكن دعوةُ الملحد إلى الإيمان عن طريق تجربة الدعاء، وأنّ الإله يفتح عليه بعدَ ذلك بالإيمان به. وهذه ليست طريقةً علمية في استخدام حجة إجابة الدعاء، بل هي أقربُ ما يكون إلى طريقة عاطفية.

وقد ذكرَ البروفسور جون بولكنغهورن بعضَ المسائل المهمَّة المتعلِّقة بهذه الحجّة. وذلك عندما أفردَ بابًا عن الدعاء في كتابه: «العلم التجريبي والعناية الإلهية - تفاعل الإله بالعالم -» (Science and Providence – God's Interaction with the World). ويمكن تلخيصُ أهمَّ كلامه في ثلاث نقاط:

النُّقطةُ الأولى: أنَّه لا يتصوَّر أنَّ أحدًا يدعو إله الربوبيين، ويطلب منه شيئًا. الربوبيون قد يعظِّمون الخالقَ لعجائب مخلوقاته، ولكن لا يمكن أنهم يلجئون إليه بالدعاء[3]. وبهذا الأمر تتميَّز حجَّة الدعاء عن بعض الحجج العقلية والعلمية التي قد يستدلُّ بها الربوبيون والمؤلّهة على حدٍّ سواء. وكلامُه صحيح؛ لأنَّه لا يتصوّر أنّ أحدًا يدْعو مَن لا يعتقد أنّه يتصرَّف في الكون ويجيب الدعاء. ومع ذلك، فإنّ اللجوء إلى الخالق أمرٌ فطري كما سبق، فدلَّ ذلك ضمنيًّا على مخالفة المذهب الربوبي للفطرة.

النُّقطةُ الثّانية: أنَّه لا يتصوَّر أنَّ الإله يجيب الدعاءَ إلّا إذا كان الداعي في كون له

---

(١) ستانلي شوبيرغ (Stanley Sjöberg): القسيس والمنصّر السويدي المشهور. انظر:
https://www.imdb.com/title/tt11041086/

(٢) انظر:
Tro och Vetskap (14), av: Stanley Sjöberg, (Gospel Media, 2010)

(٣) انظر:
Science and Providence-God's Interaction with the World (80), by: John Polkinghorne, (Templeton Foundation Press, 2005)

خصائص معيَّنة؛ فلا يتصوَّر أنَّ الدعاء نافع في العالم الميكانيكي الذي يعمل كلّ شيء في ظلِّ ظروف محتَّمة[1]. وكانت هذه هي العقيدة العلمية السائدة في عصر التنوير حين انتشرَ فيه المذهب الربوبي. ولكن نبَّه المؤلّف أنَّ العلم التجريبي الحديث قد دلَّ على عكسِ ذلك، ولهذا كان هذا العالم ملائمًا لإجابة الدعاء.

النُّقطةُ الثّالثة: حذَّر البروفسور بولكنغهورن من إجراء تجارب علمية على منفعة الدعاء. وذلك أنَّ الدعاء ليس عمليةً ميكانيكية معلومةَ العاقبة، بل هو علاقة خاصَّة بينَ الداعي والإله، فلا يعلم حقيقة كيف أجيبَ الدعاء إلّا الداعي. وكذلك أنَّ الدعاء خبرةٌ شخصية تخضع لتفسيرٍ شخصي، فلهذا يصعب إجراءُ دراسات علمية عامة عن الدعاء[2].

وكلامُ البروفسور بولكنهورن جيِّد في الجملة. فحجَّة الدعاء لا تدلُّ على وجود خالقٍ فقط، بل تدلُّ على وجود خالق متَّصف بصفات العظمة خلق كونًا معيّنًا، وهو الخالقُ الذي يؤمن به المؤلّهة الذي خلقَ الكون الذي يتصّف بهذه الصفات. وأمّا النقطة الثّالثة فسيأتي الكلامُ عنها في نقدِ شبهة عدم استجابة الدعاء لاحقًا في هذا المبحث.

صياغةُ حجَّة إجابة الدعاء عقليًا:

يمكن إيرادُ حجَّة إجابة الدعاء على الصياغة العقلية الآتية:

المقدِّمة الأولى: أنَّ العبدَ يدعو ربّه فيستجيب دعوته.

المقدِّمة الثانية: إجابةُ الدعاء تقتضي وجودَ مجيب.

النتيجة: إنَّ الله تعالى موجودٌ ويجيبُ دعوة عباده المؤمنين.

ودليلُ المقدِّمة الأولى: الحسُّ والأخبار المتواتر. وبيانُ ذلك كما يأتي:

الحسُّ: فقد يحسُّ الإنسان بأنَّ دعاءه قد استجيب، كما أنه قد يشاهد استجابة دعاءِ غيره. وهذا الأمرُ يقع كثيرًا حتَّى قال العلامة عبد الرحمن السعدي - كما سبق

---

(١) انظر: المصدر السابق (٨٤).

(٢) انظر: المصدر السابق (٨٥)، و(٨٧).

ذكرُه - : «هذا برهانٌ مشاهَد في كلِّ الأوقات، لا ينكره إلا مباهتٌ جاحد»[1]. فهو أمرٌ مشاهَد في كلِّ الأوقات. وقد شاهد عددٌ لا يحصى من الخلائق لأنفسهم ولغيرهم.

الأخبارُ المتواترة: لو قُدِّر أنَّ شخصًا ما لم يدعُ، أو دعَا ولكنْ لم يستجَب دعاؤه، ولم يشاهدْ أحدًا قطّ استجيب دعاؤه، يبقى أمرُ الأخبار المتواترة المفيدة لليقين بحصولِ إجابة الدعاء. ومِن الأمثلة على ذلك مِن زمن الرسول ﷺ حديثُ أنس بن مالك t أنَّه قال: «أصابتِ الناسَ سنةٌ على عهد النبي ﷺ، فبيْنَا النبي ﷺ يخطب في يوم جمعةٍ قامَ أعرابي، فقال يا رسولَ الله: هلك المالُ وجاع العيال، فادعُ الله لنا، فرفع يديه وما نرَى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيدِه، ما وضعها حتَّى ثار السحاب أمثال الجبال، ثمَّ لم ينزل عن منبرِه حتَّى رأيت المطرَ يتحادر على لحيته ﷺ، فمطرنا يومنا ذلك، ومِن الغد وبعدَ الغد، والذي يليه، حتَّى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي - أو قال: غيره - فقال: يا رسولَ الله، تهدَّم البناء وغرق المال، فادعُ الله لنا، فرفع يديه فقال: «**اللهمَّ حوالينا ولا علينا**» فما يشير بيدِه إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارتِ المدينة مثل الجوبة، وسالَ الوادي قناة شهرًا، ولم يجئ أحدٌ من ناحية إلا حدَّث بالجود)[2].

ويمكن تلخيصُ وقائع هذا الحديث في النقاط الآتية:

١) كان الناس في قحطٍ وشدَّة والسماءُ لا تمطر.

٢) طلبَ الأعرابي الدعاءَ فدعا الرسول ﷺ ونزل المطر مباشرة.

٣) استمرَّ المطر أسبوعًا كاملًا بعد ذلك، وهو أمرٌ قليل الحدوث في المدينة.

٤) جاءَ ذاك الأعرابي أو غيره الأسبوعَ الذي بعد، وطلب الدعاء لكثرة المطر، فدعا الرسول ﷺ، فتوقَّف نزول المطر على المدينة.

٥) وقعتِ الحادثتان في خطبة الجمعة أمامَ مئات أو آلاف المشاهدين.

---

(١) البراهين العقلية على وحدانية الربّ ووجوه كماله (٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩٣٣)، كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة، (٢ / ١٢). وأخرجه مسلم في صحيحه (٨٩٧)، كتاب صلاة الاستسقاء، الدعاء في الاستسقاء، (٢ / ٦١٢).

فهاتان الحادثتان لا يمكن ردُّهما إلى الصدفة، ولا إلى أمورٍ طبيعية، لأنّها أمور خارقة للعادة. ولكن قد يعترضُ المعترض بأنَّ هذه واقعة آحاد في حياة الرسول ﷺ، فيبقى احتمال، ولو ضعيف، أنَّه وقعَ عن طريق المصادفة. فالجواب أنّ هذه ليست الواقعة الوحيدة في حياةِ الرسول ﷺ، بل هي وقائع كثيرة جدًّا. فقد أورد أحدُ الباحثين في دلائل النُّبوة ١٢٧ مثالًا لدعاءِ الرسول ﷺ المستجاب[1]؛ فلا شكَّ أنَّ الأحاديث التي فيها إجابةُ دعاء الرسول ﷺ بلغت حدَّ التواتر المفيد للعلم الضروري بوقوعها.

وقد قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) عن آيات الرسول ﷺ - التي تشمل الدُّعاء المستجاب وغيرها - : «وهذه الأخبارُ منها ما هو في القرآن، ومنها ما هو متواتر يعلمُه العامَّة والخاصة، كنبعِ الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام، وحنين الجذع، ونحو ذلك، فإنَّ كلًّا من ذلك تواترتْ به الأخبار واستفاضت، ونقلتْه الأمةُ جيلًا بعد جيل، وخلفًا عن سلف، فما من طبقةٍ من طبقات الأمَّة إلّا وهذه الآياتُ منقولة مشهورة مُستفيضة فيها، ينقلها أكثرُ ممَّن ينقل كثيرًا من القرآن، وقد نقلها وسمعها من الأمة أكثرُ ممَّن سمع ونقل كثيرًا من آيات القرآن، وأكثر ممَّن سمع ونقل أنَّه كان يسجد في الصلاة سجدتي السهو، وممَّن سمع ونقل نصبَ الزكاة وفرائضها، بل مواقيت الصلاة وأعدادها، إنَّما شاع نقلها للعملِ الدائم بها. وأمّا هذه الآيات فنقلها أكثرُ ممَّن نقل مواقيت الصلاة مِن جهة الأخبار المعينة... وهو مشهورٌ ينقله بعضُ مَن شاهده إلى من غاب عنه، فكان استفاضة آياته وشهرتها وتواترها في الأمَّة أعظم من تواتر سجود السهو في الصَّلاة، فإنَّ هذا إنما كان مراتٍ قليلة، ولم يحضرْه إلّا المصلون خلفه لتلك الصلاة، وكذلك نقلهم لنصبِ الزكاة وفرائضها، فإنَّ هذا إنما سمعه منه طائفة قليلة، ونقلوه»[2]. ومَن أنكر ما تواترَ به العلمُ من الحوادث التاريخية لزمه تكذيبُ جلِّ ما وقع في تاريخ البشرية؛ لأنَّ أكثرَ الأخبار لا تبلغ حدَّ التواتر. وبذلك تنقطع صلة الحاضر بالماضي.

---

(١) دلائل النبوّة (١ / ٣٥٥ - ٤٨٠)، لسعيد بن عبد القادر باشنفر، (دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٦ / ٣٢٤ - ٣٢٦).

وهذا فيما يتعلَّق بدعاء الرسول ﷺ فقط، فكيف إذا انضمَّ إليه دعاء غيره منذ آدم عليه السلام إلى هذا الزمان. ولهذا علَّق الشيخُ ابن عثيمين (رحمه الله) على حديث الاستسقاء في الجمعة قائلًا: «ومازالت إجابةُ الداعين أمرًا مشهودًا إلى يومنا هذا لمن صدَقَ اللجوء إلى الله، وأتى بشرائط الإجابة»[1].

والأمرُ لا يقتصر على المسلمين فحسب، بل يشمل الكفَّار كذلك كما سبق من كلام السعدي: «ومِن براهين ربوبيته ووحدانيته: إجابتُه للدعوات في كلّ الأوقات، فلا يحصي الخلقُ ما يعطيه السائلين، **وما يجيب به أدعيةَ الداعين، من بَرٍّ وفاجر، ومسلم وكافر**»[2].

وذكرَ صاحبُ مقال: «هل هناك دليلٌ على إجابة الدعاء؟ هل يجيب الإلهُ الدعاء؟» (Is there evidence for answered prayer? Does God answer prayer?) أنّه توجد شهاداتٌ تعدُّ بالملايين من نصارى أجيبت دعواتهم عبر التاريخ[3].

فالإنسانُ لا يستطيع أن يُنكرَ المقدِّمة الأولى إلّا إذا أنكر دلالةَ الحسِّ أو الأخبار المتواترة.

ودليلُ المقدِّمة الثّانية: الضرورةُ العقلية. فلا يمكن أن تحصل إجابةُ الدعاء بدون مُجيب. ولذلك تكون النتيجةُ الحتمية كما قال اللهُ تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]. قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «فكوْن هذه المطالبُ العظيمة لا يستجيب فيها إلّا هو سبحانه؛ دلَّ على توحيده، وقطع شبهة مَن أشرك به، وعُلم بذلك أنَّ ما دون هذا أيضًا من الإجابات إنما فعلها هو سبحانه وحدَه لا شريك له»[4].

---

(١) شرح أصول الإيمان (١٨)، لمحمد بن صالح العثيمين، (دار الوطن للنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ).

(٢) البراهين العقلية على وحدانية الربّ ووجوه كماله (٢٥).

(٣) انظر: https://www.compellingtruth.org/evidence-answered-prayer.html

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢ / ٢٢٥)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (دار عالم الكتاب، الطبعة السابعة، ١٤١٩ هـ، ت. الدكتور ناصر العقل).

شبهةُ عدم إجابة الدعاء:

كلامُ علماء الغرب في حجَّة إجابة الدعاء قليل جدًّا، ولكن لديهم كلام جيّد في نقدِ شبهة: عدم إجابة الدعاء. وهذه شبهةٌ قديمة حتَّى ذكرها الفيلسوف دياغروس من ميلوس قبل ٢٥٠٠ سنة. فذكرَ أنه دعا الآلهة المزعومة في اليونان حين فقد مخطوطة له، فلم يستجبْ دعاؤه فوقعَ في الشكِّ في وجودهم بسبب ذلك[١]. ولا غرابةَ في عدم إجابةِ هذه الآلهة المزعومة للدعاء، فالأمرُ كما قال تعالى: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ ﴾ [فاطر: ١٤].

ولكنَّ المشكلة تكمُن في تشكيكِ الملاحدة في عدم إجابة الربِّ للدعاء. وقد فعله ريتشارد دوكينز في كتابه: وهْم الإله، حيث خصَّص فصلًا بعنوان: «تجربة الصلاة العظمى» (The Great Prayer Experiment)، وكتب ستَّ صفحات عن تجربة منفعة الصَّلاة التي قام بها مجموعةٌ من الباحثين بدعم من مؤسسة تيمبلتون (Tempelton foundation) يقدَّر بـ٢,٤ مليون دولار. أجرى الباحثون هذه التجربة بقيام مجموعة من المصلِّين مِن كنائس مختلفةٍ بدعاء لشفاء المرضى، ثمَّ اختبر الباحثون مدى منفعة الدعاء، وذكرَ دوكينز - بطريقته الاستهزائية - أنَّ هذه الدراسة بيَّنت أنَّه لا منفعة للدعاء، وأنَّ هذه الأموالَ ذهبت هدرًا فيما لا خير فيه[٢].

الردُّ على شبهةِ دوكينز: تجربةُ الصلاة العظمى:

بهذه الطريقة أرادَ دوكينز أنْ يبرهن أنَّه قد ثبت علميًّا أنَّه لا فائدة من الدعاء، لأنَّه لا إلهَ يجيب الداعين. وقد أجاب علماءُ الغرب على شبهةِ عدم إجابة الدعاء من وجوه:

الوجهُ الأوَّل: وهو الجوابُ بالمنع، وأنَّه لا ينبغي القيامُ بهذه الدراسات العلمية في اختبارِ منفعة الدعاء. فقد نبَّه البروفسور بولكنغهورن في النقطة الثالثة - من

---

(١) انظر: Western Atheism: A Short Story (32)
James Thrower, (Amherst, NY: Prometheus, 2000)

(٢) انظر: The God Delusion (85 - 90)

كلامه المشار إليه سابقًا - أنَّه لا ينبغي أن يخضعَ الدعاء لهذه التجارب والدراسات العلمية. وذلك أنَّ الدعاء ليس عمليةً ميكانيكية معلومةَ العاقبة، بل هو علاقة خاصة بين الدّاعي والإله، فلا يعلم حقيقة كيف أجيبَ الدعاءُ إلّا الداعي. وكذلك أنّ الدعاء خبرةٌ شخصية تخضع لتفسيرٍ شخصي، فلهذا يصعب إجراءُ دراسات علمية عامة عن الدعاء.

وذكرَ صاحبُ مقال: «هل هناك دليلٌ على إجابة الدعاء؟ هل يجيب الإلهُ الدُّعاء؟» أنَّه لا يمكن التحقُّق من كوْن الناس الخاضعين لهذه الدراسات قد دعوا الله فعلًا، ولا عنْ كيفية دعائهم. ولهذا لا يكون عدمُ إجابة الدعاء في بعض الحالات دليلًا على أنَّ الدعاء غير مستجاب[1].

الوجهُ الثّاني: وهو الجوابُ بجواز استخدام هذه الدراسات، وأنَّها بيَّنت منفعة الدُّعاء. فدوكينز اقتصرَ على ذكر دراسة علمية واحدة، بينما الدراسات العلمية أكثر مِن ذلك بكثير، ومجموعُ هذه الدراسات بيَّن منفعة الدعاء؛ قال ريشارد ديم[2] عن هذه الدراسات بقوله: «أحدثُ دراسة عن الدعاءِ هي تحليل يأخذ في الاعتبار المجموعة كلّها من البحوث التجريبية عن الدعاء للآخرين (Intercessory prayer) (المجموع: ١٧ دراسة). والدراسةُ الجديدة تبيِّن وفقَ وحدة معيار ١٢ بجمعية علم النفس الأمريكية أنَّ الشفاعةَ بالدعاء عن آخرين تصنَّف على أنها تدخل تجريبي، وبشكل عام يُظهر تأثيرًا إيجابيًّا صغيرًا وإن كان هامًّا»[3].

---

(١) انظر المقال

Is there evidence for answered prayer? Does God answer prayer?: https://www.compellingtruth.org/evidence-answered-prayer.html

(٢) ريشارد ديم (Richard Deem) عالم علم الأحياء الدقيقة الطبّي الأمريكي، والمنصّر المهتم بنقد الإلحاد. انظر:

http://www.godandscience.org/apologetics/work.html

(٣) Scientific Evidence for Answered Prayer and the Existence of God والرابط:

http://www.godandscience.org/apologetics/prayer.html

الوجهُ الثّالث: أنَّ دوكينز توصَّل إلى نتيجة من الدراسة: هي أنَّ الله غيرُ موجود بناءً على عدم فهمِه للفرق بين العلاقة السببية اللازمة (Necessary casual link) والعلاقة السببية الشخصية (Personal causal link)؛ قال البروفسور سكوت هان والبروفسور بنيامين ويكر في ردِّهما على دوكينز: «يوجد نوعان مُرتبطان من الأخطاء في هذا النمط مِن المنطق، يعود السببُ وراءَ النظر فيهما ببعضِ التفصيل إلى ما هو أبعدُ من تجربة الصلاة. أوَّلًا أنَّه يخلط بينَ العلاقة السببية اللازمة والعلاقة السببية الشخصية. إذا كانت العلاقةُ بينَ ضغط الغاز ودرجةِ حرارته متناسبة، بالتَّالي عندما نزيد الضغط، ستزداد الحرارةُ كذلك. وهذه هي العلاقةُ السَّببية اللازمة. أمَّا العلاقة السببية الشخصية فهي تختلفُ قليلًا، ولكنَّها ليست أقلَّ رتبة من كونها حقيقية. إنَّ وجود متبرع والحصول على منحةٍ من مُتبرع لكتابة كتابٍ هما أمران مرتبطان سببيًّا، ولكنّنا لا نقيس وجودَ أو عدم وجودِ المتبرِّعين أنفسهم على أنَّ أكثر أو أقل من ٥٠٪ من المتطلّبات المالية قد مُنحت. وفهمُ الاختلاف بينهما سهل. فالغاز ليس حُرًّا في رفض التغيُّر في الحرارة أو قبوله، أمّا بالنسبة للمتبرِّع يمكنه أن يقبلَ أو يرفض طلبَ المستفيد لعددٍ لا يحصى من الأسباب.

يكمُن الخطأ في تجربة الصلاة مزدوجة التعمية أنَّها تعامل الله باعتباره نوعًا من السَّبب الطبيعي، عوضًا عن كونه كائنًا ذا ذكاء[1]. وبفعل ذلك يعامَل اللهُ بطريقة ظالمة[2] بمحاولة حقيرة عن طريق التجربة. بالاختصار، فإنَّ هذه التجربة هي إهانة، وسيتعامَل أيُّ كائن ذي ذكاء معها على هذا الأساس، سواءًا أكان فائقًا للإنسان أم لا. وهذا لا يعني بالطبع اعتبارَ الصلاة من أجل الشفاء بحد ذاتها إهانة؛ نحن نتكلَّم فقط عن تأطيرِ مثلِ هذه الصلاة في إطار تجربة للتلاعب»[3].

---

(١) بمعنى أن الله متّصف بالعلم والحكمة والإرادة.

(٢) يصحّ وصف الطريقة بظالمة، أمّا الله تبارك وتعالى فلا يناله ظلم من عباده - تعالى الله عن ذلك -، فهو القائل: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(3) Answering the New Atheism (57)

وهذا الكلامُ جيِّد في الجملة، ويدلُّ على أنَّه لا تلازم بين عدم إجابة الدعاء في هذه التجارب، وبينَ نفي وجود الإله. بل الأمرُ بالعكس، فإجابةُ الدعاء دليل على وجودِ الربِّ المجيب، وأمَّا عدمُ إجابة الدعاء فقد يرجع إلى عدد من الأسباب.

موانعُ إجابة الدعاء:

وقد حاولَ علماءُ الغرب ذكر بعضِ أسباب عدم إجابة الدعاء، ومن هذه المحاولات ما ذكرَه البروفسور وليام لاين كرايغ في كتابه: «أسئلة صعبة وأجوبة حقيقية» (Hard Questions, Real Answers). فذكر خمسة أسباب لعدم إجابة الإله للدعاء، وهي:

١) أنَّ الداعي غارق في الذنوب؛ لأنَّه من موانع إجابة الدعاء.

٢) أنَّ النوايا في الدعاء غير صالحة؛ بتحقيق رغبات دنيئة في الدعاء.

٣) أنَّ إيمانَ الداعي ضعيف. فالإيمان بالله والتوكّل عليه ورجاء إجابة دعائه كلها من العوامل المهمَّة.

٤) أنَّ صدق الداعي ضعيف. وذلك أنَّ بعضَ مَن يدعو الله لا يبالي في الحقيقة إن أجيبت أم لا، وإنَّما يدعو بقلب غافل.

٥) أنَّ صبرَ الداعي ضعيف، فينقطعُ عن الاستمرار بالدعاء إذا لم يرَ الإجابة مباشرة[١].

والكلامُ عن هذه الشروط صحيح، وقد دلَّت نصوصُ الكتاب والسنة على هذه الأسباب أيضًا، إضافةً إلى أسباب أخرى. ولكنَّ كلام البروفسور كرايغ عن إجابة الدعاء فاسدٌ في أساسه، وهو أنَّه ذكر في أوَّل كلامه[٢] أنَّ المسيح عليه السلام قال - حسب نصوصهم المحرَّفة في كتابهم المقدَّس - : (وَمَهْمَا سَأَلْتُمْ بِاسْمِي فَذَلِكَ أَفْعَلُهُ

---

(١) انظر: Hard Questions Real Answers (47 - 50)

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٣).

لِيَتَمَجَّدَ الأَبُ بِالِابْنِ)[1]، وأنه قال: (لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي)[2]، وأنه قال: (اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ مِنَ الآبِ بِاسْمِي يُعْطِيكُمْ)[3]. فالشرط الأساس لإجابة الدعاء عندَ النصارى: الشركُ بالله تعالى. وقد أخبر اللهُ تعالى أنَّ الشركَ من موانع إجابة الدعاء إذ قال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف:٥].

فلا غرابةَ من عدم إجابة الدعاء عندَ النصارى إذ هُم من أعظم الناس شركًا به. وهذا موجودُ عندَ عامَّة النصارى، وأمّا النصارى الكاثوليك فحدِّث ولا حرج. بل استهزأ ريتشارد دوكينز من تسميةِ الكاثوليك أنفسهم بموحِّدين رغم اعتقادهم بالتثليث، وزعمهم أنَّ مريم والدة الإله، وتقديسهم لـ٥١٢٠ قديسًا يدْعونهم لقضاء جميع أنواع الحاجات[4].

وذلك لا يمنع أنَّ الله يجيب دعوة النصراني المضطرِّ كما قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢]، كما أنّ الله قد يجيب دعاءَ العاصي استدراجًا له، كما قال رسولُ الله ﷺ: «إذا رأيت الله تعالى يُعطي العباد ما يسألون على مَعاصيهم إياه، فإنما ذلك استدراجهم»[5].

خلاصةُ حجَّة إجابة الدعاء أنّها حجَّة حسِّية قوية على وجودِ الله غفل عنها أغلبُ علماء الغرب، وإنْ كان عندهم بعضُ الكلام الجيّد في نقدِ شبهة: عدم إجابة الدعاء. ولكنْ حتَّى هذا الكلام مختلطٌ بعقائدهم الوثنية الشركية مما يقلّل من قيمته.

---

(١) إنجيل يوحنا (١٤: ١٣).

(٢) المصدر السابق (١٥: ١٦).

(٣) المصدر السابق (١٦: ٢٣).

(٤) انظر: The God Delusion (55 - 56)

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣١١)، (٢٨ / ٥٤٧)، من حديث عقبة بن عامر t. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤١٣).

المبحثُ الثّاني

حجّةُ المعجزات

المعجزات (Miracles)[1] لها مكانةٌ أساسية في الديانة النصرانية، ولهذا اعتنى علماءُ الغرب بها أكثرَ من اعتنائهم بحجَّة إجابة الدعاء. ولعظم مكانة المعجزات عندهم يتطلَّب البحثُ مزيدًا من التفصيل في بيانها. وقد مرَّ علماءُ النصرانية بمراحل عديدة في موقفِهم من المعجزات، ولديهم اتِّجاهات مختلفة في تعريفها وبيانِ دلالتها على وجود الخالق. ولهذا سوف يتمُّ سردُ تاريخ موقف النصرانية من المعجزات ودمج التعريفات المختلفة حسبَ المراحل التاريخية والاتّجاهات.

---

(١) تستخدم كلمة المعجزات في هذا المبحث حسب العرف النصراني. وهذا العرف يشمل معجزاتِ الأنبياء، وكرامات الأولياء. فليس لديهم تفريقٌ بين المعجزات والكرامات كما هو موجودٌ في الإسلام. وهذا الاصطلاح استعمله بعض السلف أيضًا؛ قال شيخ الإسلام: ((... ولهذا كان كثيرٌ من أهل الكلام لا يسمّي معجزًا إلا ما كان للأنبياء فقط، وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سمّاها كرامة. والسلف - كأحمد وغيره - كانوا يسمّون هذا وهذا مُعجزًا، ويقولون لخوارق الأولياء: إنها معجزات، إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك، بخلاف ما كان آية وبرهانًا على نبوة النبي، فإنّ هذا يجب اختصاصه)). (الجواب الصحيح (٥ / ٤١٩).
وإنَّ الأولى أن يعبّر عن المعجزات بالألفاظ القرآنية، وهي الآيات، والبيّنات، والبراهين. (انظر: الجواب الصحيح (٥ / ٤١٢). ولكن، هذه الرسالة تبرز ردود علماء الغرب، وهم يستخدمون لفظ المعجزات، وبالتالي نستخدم هذا الاصطلاح لديهم في هذا المبحث.

تاريخُ المعجزات

المعجزاتُ في كتاب النصارى المقدَّس:

النَّصارى يقسِّمون كتابهم المقدَّس إلى قسمين: العهد القديم والعهد الجديد، وفي كلا العهدين ذُكرت معجزات. ومِن الأمثلة على المعجزات في العهد القديم: الآيات العشر التي جاءَ بها موسى إلى فرعون[1]، وانفلاق البحر أمام بني إسرائيل حين تبعهم فرعون وجنوده[2]، ومعجزات موسى في التِّيه[3]، وانهيار الأسوار في غزوة بني إسرائيل للكنعانيين[4]، وغيرها من المعجزات الكثيرة[5].

وأمّا في العهد الجديد ففيه تركيزٌ كبير جدًّا على المعجزات حيث ظهر عددٌ منها على يدِ المسيح، مثل: إحياء بعض الأموات[6]، وشفاء المرضى[7]، والمشي على الماء[8]، وغير ذلك من المعجزات[9]. ثمَّ المعجزات على أيدي الرسل بعده المذكورة في سفر أعمال الرسل[10].

---

(١) انظر: سفر الخروج: (الفصل السابع إلى الفصل الثاني عشر).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٤: ٦).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٥: ٢٣ - ٢٥)، و(١٦: ١٤ - ٣٥).

(٤) انظر: سفر يشوع (٦: ٦ - ٢٥).

(٥) انظر: https: / /www.bible – history.com /old – testament /miracles.html

(٦) انظر: إنجيل يوحنا (١١: ٣٨ - ٤٤)، وإنجيل لوقا (٧: ١١ - ١٨).

(٧) انظر: إنجيل لوقا (١٧: ١١ - ١٩)، وإنجيل متى (٩: ٢٧ - ٣١).

(٨) انظر: إنجيل متى(١٤: ٢٤ - ٢٧)، وإنجيل مرقس(٦: ٤٧ - ٥٠)، وإنجيل يوحنا(٦: ١٨ - ٢١).

(٩) انظر المقال: New Testament Miracles

الرابط:

http://www.biblestudy.org/bible-study-by-topic/new-testament-miracles.html

(١٠) انظر: سفر أعمال الرسل (٣: ٢ - ١١)، (٥: ١ - ١٠)، (٩: ٣٤)، (٩: ٣٦ - ٤٢).

الكلامُ عن المعجزاتِ في النصرانية المبكِّرة والقرون الوسطى:

وكانت المعجزاتُ مهمَّة جدًّا في نشر النصرانية في تاريخها المبكّر، واستدلَّ دعاة النَّصارى بها على صحّة ديانتهم - بزعمهم - [١].

وقرَّر آباءُ الكنيسة الأوائل مثل: أوريجين[٢] في القرن الثالث أنَّ هذه المعجزات مستمرَّة حتَّى بعد زمن المسيح ورسله[٣]. وهذا هو الرأي الذي تبنَّته الكنيسة الكاثوليكية بعدَ ذلك، حيث نسبت معجزات كثيرة إلى القديسيين (Saints)[٤].

وكان أغسطين مِن أكثر مَن تكلَّم في تقرير العقائد اللاهوتية النصرانية في القرون المبكِّرة، واهتمَّ اهتمامًا كبيرًا بالمعجزات. وقد عرَّفها بالتعريف الآتي: «كلُّ ما يبدو أنه صعبٌ وغير عادي فوقَ أمل وقدرة من تأمَّلها». كما أنَّه قعَّد لقضية المعجزات، وأصَّل لها ببيانِ عدم معارضة المعجزات لانتظام الطبيعة. فأغسطين كان يرى أنَّ الإنسان أطلق اسمَ الطبيعة على ما نشاهدُ أنه مُعتاد فيها، وما يفعله اللهُ مخالفًا للمعتاد نطلق عليه كلمةَ المعجزات. ولكن هذا لا يعني أنَّ الله يعمل مخالفًا للقانون الأعظم للطبيعة الذي هوَ فوق ما يتخيَّله الإنسان بعقله الضعيف. وبالتالي تكون المعجزات

---

(١) انظر:

Miracles and the Critical Mind (4), by: Colin Brown, (Fully Seminary Press, 2006)

هذا الكتاب من أفضل الكتب في بيان مواقف المؤيّدين والمخالفين للمعجزات. والمؤلّف كولن بروان بروفسور في علم اللاهوت النظامي، ومتخصّص في المعجزات. ولذلك سيكون كثير من الإحالات إلى هذا الكتاب في هذا المبحث.

(٢) أوريجين (Origen): لاهوتي نصراني من مصر، ويعتبر من أهمِّ اللاهوتيين في النصرانية المبكّرة. توفي عام: ٢٥٤ م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Origen

(٣) انظر

Origen: Contra Celsum (63), by: H. Chadwick, (Cambridge University Press, 1953)

(٤) انظر المقال: Do Miracles Still Occur? على الرابط:

https: / /www.catholic.com /tract /do – miracles – still – occur

جزءًا من خلق الله. والفرقُ بين المعتاد في الطبيعة والمعجزات: أنَّ المعجزات أقلُّ وقوعًا فقط. وإن كان كلُّ شيء من عند الله[1].

وكان توما الأكويني ثاني أكبرِ علماء اللاهوت النصراني بعد أغسطين، وقد تحدّث كثيرًا عنِ المعجزات أيضًا. ووافقَ على تعريف أوغسطين لها، إلّا أنَّه خالفه في قضايا جزئيَّة. ولكن سادَ هذا الرأي عندَ النصارى في القرون الوسطى، وتبوأت المعجزات منزلةً عليًا في ديانتهم[2].

الكلامُ عن المعجزات في زمن الإصلاح البروتستانتي:

في زمنِ الإصلاح البروتستانتي عارضَ مارتن لوثر وجون كالفن كثيرًا من معتقدات وطقوسِ الكنيسة الكاثوليكية. ومِن ضمن ما عارضاه: غلوُّهم في تقديس القديسيين. وعليه، فإنَّهما قلَّلا من شأن المعجزات، وزعمَا أنَّها انقطعت بعدَ زمن رسل المسيح، وأنَّ المعجزات لم تؤثِّر في إيمان أحد. فلم ينكرَا حدوث معجزات الأنبياء، ولكنّهما قلَّلا من قيمتها[3].

اعتراضُ سبينوزا على المعجزات:

وفي عصر النهضة، بدأت المعارضاتُ الحقيقية ضدَّ المعجزات، وكان أوَّل مَن اشتهر بمعارضتها: الفيلسوف اليهودي باروخ سبينوزا عندما أصدر كتابه: «في اللاهوت والسياسة» (Tractatus Theologico – Politicus) عام ١٦٧٠ م. وانتقدَ حدوث المعجزات ودلالتها على الخالقِ بقوَّة. وكان وجهُ معارضته الأبرز أنَّ قوانين الطبيعة الثابتة من أقوى الأدلة على وجودِ الله. فلو حدثتْ معجزة خارقةٌ لهذه القوانين، لانتقدت دلالتها على الخالق؛ لأنَّ خرقَها دليلٌ على عدم ثبوتها. ولهذا رأى أنَّه ينبغي أن يفسّر ما ورد في كتاب النصارى المقدَّس من نسبةِ هذه الأمور الخارقة

---

(١) انظر: Miracles and the Critical Mind (7 - 9)

(٢) انظر: المصدر السابق (١٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٣ – ١٧).

إلى الخالق بأنَّها ليست حقيقية، وأن هذه الأخبار مبنيَّة على سذاجةِ الفكر اليهودي القديم، وأنَّه يمكن تأويلُ هذه الخوارق إلى أمور طبيعية. فالآياتُ العشر التي جاءَ بها موسى إلى فرعون كانت كوارث طبيعية، وليست مُعجزات. وقد ذُكر عندَ حادثة انفلاق البحر أنَّه قد هبَّت ريح شديدة الليلة كلّها. واستخلص مِن ذلك أنَّ المعجزات لم تحصل، وبالتالي لم تكنْ دليلًا على وجود الله[1].

وقد أعادَ كريستوفير هيتشن نشرَ شبهات سبينوزا في كتابه: «المتنقّل الإلحادي» (The Portable Atheist)، مما يدلُّ على تأثير كلام سبينوزا إلى هذا العصر[2].

وعندما أصدرَ إسحاق نيوتن كتابه: «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية» (Philosophiæ Naturalis Principia Mathematica) عام ١٦٨٧م، أكَّد مفهوم ثبات قوانين الطبيعة، وقدَّم نظرية أنَّنا نعيش في كون ميكانيكي له قوانين ثابتة لا تتغيّر. وأصبحت هذه النظريةُ سائدةً بعد ذلك، وأثَّرت في انتشار المذهب الربوبي في القرن الثامن عشر.

وكان الربوبيون ينكرونَ وجودَ المعجزات، حيث رأوا أنَّ الله خلق الكون، ثمّ تركه يسيرُ بنفسه كساعة دونَ أن يتدخَّل فيه. فلقي الإيمانُ بالمعجزات ضربة قويَّة جديدة[3].

اعتراضُ ديفيد هيوم على المعجزات:

ورغمَ الضربات المتتالية ضدَّ الإيمان بالمعجزات في العالم الغربي، فإنَّه لم تتلقَّ ضربة أقوى من ضربةِ الفيلسوف الشكوكي ديفيد هيوم. ففي عام ١٧٤٨م، أصدر كتابه: «بحث في الفهم الإنساني» (An Enquiry Concerning Human Understanding) عن نظرية المعرفة. وجعلَ الفصلَ العاشر من الكتاب عن المعجزات، وطُبع استقلالًا

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣٣).

(٢) انظر:
Theological-Political Treatise by Spinoza in the portable atheist (21-25)

(٣) انظر: Miracles and the Critical Mind (47 - 55)

بعد ذلك بعنوان: «في المعجزات» (Of Mircales). ورغم أنّه لم يكتب سوى عشرات الصفحات عنِ الموضوع أصبح كلامُه أشهرَ نقد للمعجزات على الإطلاق[١].

ويمكن تلخيصُ كلام ديفيد هيوم عن المعجزات في النقاط الآتية:

- رأى أنَّ المعجزات خرق لقوانين الطبيعة.
- بيَّن أنَّ القوانين مطَّردة، وقد شهدَ بثباتها عددٌ لا يحصي من الخلق. وأمّا المعجزات فهي شذوذٌ عن الأصل، ولم يشهدْ بها إلّا أفراد قلائل، فينبغي أن نصدِّق المطرّد، ونترك الشذوذ.
- رأى أنَّ الأحداث فوقَ الطبيعية تحتاج إلى برهانٍ فوق طبيعي لإثباتها؛ ونظرًا لغياب مثل هذا البرهان؛ لزم البقاءُ على الأصل: وهو القول بأنَّ قوانين الطبيعة ثابتة لا تتغيّر. ثمَّ أضافَ إلى ذلك سببيْن رئيسين في عدم تصديق المعجزات، وهما:

السببُ الأوَّل: أنَّ أمرَ قصص المعجزات مستشرٍ في الأمم المتخلِّفة، وأقلّ في الأمم المتحضِّرة، فدلَّ على ارتباط الشهادات بوقوع هذه المعجزات بسذاجة العقول.

السَّببُ الثّاني: أنَّه إذا كانت المعجزاتُ دليلًا على صحّة دين معيّن؛ فلا يمكن وقوعُها في أكثر مِن دين. وحيث أنَّ الشهادات بوجود المعجزات موجودة في أكثر من ديانةٍ، فإنَّ الشهادات كلّها تسقط[٢].

وقدِ اعتنى البروفسور أنطوني فلو بكلامِ هيوم عن المعجزات، وقدّم لرسالته بمقدِّمة[٣]، كما أنَّ كريستوفر هيتشن رسالة هيوم في كتابه: «المحمول الإلحادي»[٤]،

---

(١) انظر: المصدر السابق (٧٩ – ٨٠).

(٢) انظر: Of Miracles وهو موجود على الرابط: https: / /davidhume.org /texts /e/10

(٣) انظر: Of Miracles, Introduction by Antony Flew, (Open Court Classic (1985)

(٤) انظر: Of Miracles by Hume in the portable atheist (32 - 45)

واستشهدَ به دوكينز في كتابه: «وهم الإله»[١]. مما يدلُّ على ثقل كلامه عند الملاحدة إلى هذا العصر.

تقريراتُ علماء الغرب المُعاصرين للمعجزات:

قامَ عددٌ من الفلاسفة النصارى بدفاعٍ قويٍّ عن المعجزات في القرن العشرين وأصَّلوا وقعَّدوا لها تأصيلاتٍ وقواعد مهمَّة في فهمهما بطريقة صحيحة، ولكي لا يوجّه إليها انتقاد المنكرين[٢].

ويمكن تلخيصُ أهمِّ ما ذكروه في كتبهم وأبحاثهم في خمس نقاط:

النُّقطةُ الأولى: أنَّ مفهوم المعجزات أوسع من خوارق الطبيعة كما ادّعى ديفيد هيوم. فقد قسَّم البروفسور روي هولاند[٣] المعجزات إلى قسمين: حوادث غير متوقَّعة وحوادثُ خارقة للقانون الطبيعي. فالحوادثُ غير المتوقَّعة مثل: سلامة الإنسان مما يظنُّ أنه موتٌ أكيد لا يخرق قوانين الطبيعة؛ لأنَّه يمكن تفسيرها طبيعيًّا، ولكن المتديّن ينظر إلى هذه الحادثة أنَّها معجزة. وذكر هولاند أنَّ بعضَ ما ورد من المعجزات في كتابهم المقدَّس من هذا القبيل[٤].

وهذا الكلامُ صحيح، ويصدُق على ما اعتبره العلماءُ من آيات النبي ﷺ أيضًا. فمفهومُ آيات الأنبياء أوسعُ من خرق قوانين الطبيعة؛ قال شيخ الإسلام: «وسيرة الرسول ﷺ وأخلاقُه وأقواله وأفعاله وشيعته من آياته، وأمَّته من آياته، وعلم أمته ودينهم مِن آياته، وكرامات صالح أمته من آياته»[٥]. وهذه الأمورُ التي ذكرها ابن تيمية ليست خارقةً لقوانين

---

(١) انظر: God Delusion (116 - 117)

(٢) انظر: Miracles and the Critical Mind (174)

(٣) روي هولاند (Roy Holland): بروفسور الفلسفة في جامعة ليدز ببريطانيا. وقد تخصّص في فلسفة الدين، ولا سيَّما المعجزات. توفي عام ٢٠١٣ م. انظر:
https://www.leeds.ac.uk/secretariat/obituaries/2013/holland_roy.html

(٤) انظر: Miracles and the Critical Mind (174 - 175)

(٥) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٧).

الطبيعة، ومعَ ذلك فإنَّها من آيات الأنبياء. فمفهومُ ديفيد هيوم - ومَن كان على شاكلته - أنَّ المعجزات خرقٌ لقوانين الطبيعة ليس مفهومًا شاملًا لجميع المعجزات.

النُّقطةُ الثّانية: قرَّر البروفسور هولاند أنه يشترط شرطيْن للمعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة:

الشَّرطُ الأوَّل: أنَّها مستحيلة الوقوع في العادة.

والشَّرطُ الثّاني: أنّها قد وقعتْ فعلًا. فالمعجزات ليست مستحيلة عقليًّا كاجتماع المتناقضين، ولكنَّها مستحيلةٌ في العادة، ولا يمكن تفسيرها تفسيرًا طبيعيًّا. ومعَ ذلك فإنَّها قد وقعت، فدلَّ على أنَّ كائنًا فوق الطبيعة قد أحدثها في الطبيعة[١].

وهذا التقريرُ موافقٌ لما جاء به الإسلام أيضًا، فالمعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة ليستْ مستحيلة عقليًّا، وإنَّما هي مستحيلة عادة. فالرسلُ يأتون بمحارات العقول، ولا يأتونَ بمحالات العقول[٢].

النُّقطةُ الثّالثة: بيَّن البروفسور نينيان سمارت[٣] أنَّ الأصل في قوانين الطبيعة أنّها ثابتةٌ ولا تتغيَّر، والمعجزات حوادثُ آحاد وغير متكرِّرة؛ فليس هناك تضاد بين الإقرار بوجودِ وثبات قوانين الطبيعة والإيمان بحدوث المعجزات في بعض الأحيان[٤]. فما يذكره الملاحدةُ من أنَّ الإيمان بالمعجزات يبطل العلم الطبيعي؛ لأنَّ هذا العلم مبني على الإقرار بوجود وثبات قوانين الطبيعة غير صحيح.

---

(١) انظر: Miracles and the Critical Mind (175)

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١ / ٨٣).

(٣) نينيان سمارت (Ninian Smart): بروفسور علم اللاهوت ومقارنة الأديان الإسكتلندي. عمل في عدة جامعات مرموقة، ويعتبر أحد أهمّ علماء الأديان في القرن العشرين. توفي عام: ٢٠٠١ م. انظر:
https://senate.universityofcalifornia.edu/_files/inmemoriam/html/roder-ickniniansmart.htm

(٤) انظر: Miracles and the Critical Mind (176 - 177)

وهذا صحيحٌ وموافق للإسلام أيضًا. فالمسلمُ يعتقد أنَّ الله قد أجرى سننًا في خلقه[1] كما قال تعالى عنِ الشمس والقمر مثلاً: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾[الأنبياء:٣٣]. ولا تناقض بين أنَّ مَن خلق الطبيعة بهذه السنن والقوانين، وبيَّن أنه قادرٌ على أنْ يجري معجزات وكرامات على أيدي رسله وأوليائه إذا أراد. فالأمرُ لله من قبْل ومِن بعْد.

وعندما يدَّعي الملاحدة أنَّ الإنسان مخيّر بين تصديق وجود قوانين ثابتة في الطبيعة وبينَ الإيمان بالمعجزات؛ فإنَّهم يرتكبون مغالطة القسمة الثنائية الزائفة كما نبَّه عليه الدكتور جاسون ليزلي؛ لأنَّه يوجد إمكانية ثالثة وهي: أنَّ الطبيعة محكومة بقوانين، وأنَّ الله يجري معجزاتٍ خارقةً لهذه القوانين في بعض الأحيان[2].

فالادِّعاء أنَّ المعجزات مستحيلة لأنَّها تخالف قوانينَ الطبيعة ليس ادِّعاءً علميًّا، وإنّما هو ادِّعاء فلسفي مبنيٌّ على الاعتماد على المذهب الطبيعي المادي. فالمادي يعتقد أنَّ العالَمَ المادي نظامٌ مغلق محكوم بقوانين ثابتة لا تتغيَّر. وأمَّا إن كان الإنسان يؤمن بوجود الخالق، فما المانعُ من إحداث هذا الخالق بعض المعجزات الخارقة للقوانين؟ قال البروفسور جون لينوكس: «إنِ اعترف المرءُ بوجود الخالق يفتح الباب تلقائيًّا لإمكانية حدوثِ المعجزة التي يتدخَّل بها نفس الخالق في مسار الطبيعة. ولا يوجد شيء اسمه: الخالق المجبر، الذي لا يمكنه أو يجبُ عليه ألا يجرأ على التدخُّل في كون قد خلقه هو من قبْل؛ وبالتالي، فإنَّ المعجزات ممكنة الوقوع... فأستنتج بناءً على ذلك، أنه لا يوجد اعتراضٌ علمي مبدئي على إمكانية حدوث المعجزات. لا شكَّ أنَّ الموقف المنفتح الذي يتطلَّبه العقل أن نبحثَ عن الأدلة، ونقيم الحقائق، ونتَّبعها حيثما تقودنا، وإن كانت تقودُنا إلى تغيير مواقفنا المبدئية»[3].

---

(١) انظر: النبوّات: (٢ / ٩٥٨ – ٩٧٨)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ت. عبد العزيز بن صالح الطويان).

(٢) انظر: A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 35

(3) God’s Undertaker (206)

فوجودُ قوانين الطبيعة الدقيقة الثابتة دليلٌ على وجود خالق عليم حكيمٍ قنَّن هذه القوانين. فالإتقانُ والإحكام دليلٌ على وجود الخالق. ومَن آمن بوجود الخالق، فإنّه لا إشكالَ لديه بوجودِ معجزات. وإنما الأمرُ في اتِّباع الدليل، فإن دلَّ الدليلُ على وجود المعجزات فإنَّها قد وقعت، وإن لم يدلّ الدليلُ على وقوعها فالأصلُ أنها لم يقع. ولكن ما طبيعة الأدلةِ الدالَّة على حدوث معجزات معيَّنة، هل هي أدلةٌ من العلم التجريبي أو أدلةٌ من علم التاريخ؟ الجوابُ عن ذلك في النقطة الرابعة.

النُّقطةُ الرّابعة: قرَّر البروفسور إيان رامسي[١] أنه لا يمكن خضوعُ المعجزات للعلم التجريبي؛ لأنَّ العلم التجريبي يتحدَّث عن مفاهيم مجرّدة وعمومية تعمل الطبيعة وفقها. فشأنُ قوانين الطبيعة أنها عامَّة. وأمَّا المعجزات فهي من باب التاريخ، والتاريخ يتحدَّث عنْ قضايا معيَّنة، ومحدَّدة وشخصية[٢]. فمَن أراد أن يتحدَّث عن المعجزات، فإنّه يستخدم المنهجَ التاريخي، وليس المنهج العلمي. وبين المنهجين فروق عديدة.

وهذا الكلام دقيقٌ وجيِّد؛ لأنَّ الملاحدة لتعظيمهم غير المتّزن للعلم التجريبي حاولوا إخضاعَ جميع الحوادث لهذا العلم، مع أنه لا يمكن استخدامُ منهج العلم التجريبي في جميعِ القضايا، ومِن ذلك علم التاريخ. والمعجزات المنسوبة إلى الأنبياء والرسل أمورٌ تاريخية وليست أمورًا علمية. فمَن اعتقد إمكانية حدوث المعجزات عقليًّا وعلميًّا - كما سبقَ في النقطة الرابعة -، فمجالُ تصديقه يرجع إلى المنهج التاريخي، وليس إلى المنهج العلمي.

ولكنْ ما أنواعُ الأدلة التاريخية؟ الجوابُ عن ذلك في النقطة الخامسة:

النُّقطةُ الخامسة: قسَّم البروفسور ريتشارد سوينبورن أنواعَ الأدلة التاريخية إلى أربعة أقسام:

---

(١) إيان رامسي (Ian Ramsey): أسقف أنجليكاني بريطاني وبروفسور فلسفة الدين في جامعة أكسفورد. توفي عام:١٩٧٢م. انظر:

https://www.darlingtonandstocktontimes.co.uk/weekend/features/8849280.print/

(٢) انظر: Miracles and the Critical Mind (186 - 187)

القسمُ الأوّل: ذكرياتُنا الخاصة.

القسمُ الثّاني: شهاداتُ غيرنا.

القسمُ الثّالث: الآثارُ الحسّية.

القسمُ الرّابع: مفهومُنا لما يعتبر ممكنًا.

وبيَّن أنَّ كلام ديفيد هيوم إنّما تناول القسمَ الثاني والرابع. وذلك أنَّ مفهومه لما هو ممكنٌ هو موافقةُ الحادث لقوانين الطبيعة. وإذا تعارضتِ الشهاداتُ التاريخية لهذا المفهوم فإنَّنا نكذِّب الشهادات التاريخية. ولكن البروفسور سوينبورن ذكر أنّه لو شاهدنا نحن - وهو القسم الأوّل - أمورًا خارقة للطبيعة، فإنّه سوف يؤثّر في مفهومنا لما هو ممكن - وهو القسم الرابع -، وبالتالي يؤثِّر في موقفنا من الشهادات التاريخية. وأضفْ إلى ذلك أنه قد تبقى بعضُ الآثار الحسّية من بعض المعجزات - وهو القسمُ الثالث - التي تؤيِّد وقوعَ المعجزات[1].

فكوْن هيوم لم يشاهد أمرًا خارقًا للطبيعة، وبالتالي اتّخذ موقفًا من كلّ خارق للطبيعة؛ لا يقتضي ذلك أنَّه الموقفُ الصحيح. وسيأتي المزيدُ من البيان عن هذه الأدلة عندَ الحديث عن الاستدلال بالمعجزات على وجود الله.

وهذه النقاطُ الخمس جيِّدة ومهمَّة في فهم حقيقة المعجزات، وأنّ اعتراضات الملاحدةِ في الغالب من باب مغالطة رجل القشّ[2]. فهُم ينسبون إلى المتديّنين ما لم يقولوه أو يعتقدوه. وهذا يساعدُ في الاستدلال بالمعجزات على وجود الله.

استدلالُ سي أس لويس بحدوث المعجزات:

وكان البروفسور سي أس لويس مِن أكثر مَن استطاع أن يعيد الحديث عن المعجزاتِ إلى الساحة الشعبية. فكان لويس مِن أشهر أدباء بريطانيا عبر التاريخ حيث

---

(١) انظر: Miracles and the Critical Mind (181 - 182)

(٢) انظر تعريف هذه المغالطة في المبحث المخصّص بنقد مغالطات الملاحدة المنطقية.

بيعَ من كتبه الأدبية أكثر من ١٠٠ مليون نسخة[١]. ولكنّه كان إضافة إلى ذلك مدافعًا شرسًا عنِ النصرانية عمومًا، وعن المعجزات خصوصًا، وذلك في كتابه: «معجزات» (Miracles) الذي طبعه عام ١٩٤٧م، فاستطاع أن يصل به إلى عامّة الناس بخطابه السَّهل بعيدًا عن العبارات الفلسفية واللاهوتية المتعمّقة. كما أنّه أصّل لإمكانية حدوث المعجزات بطريقة ذكيَّة؛ ولذلك ينبغي الوقوف على كلامه أكثر.

استفتح لويس كتابَه ببيان أنَّه لا فائدة من الحديث عن وقوع معجزات معيّنة إلا بعدَ أن يقرِّر إمكانيةَ حدوث المعجزات أصلًا، لأنَّ مَن اعتقد أنَّ حدوث المعجزات مستحيلٌ كمبدأ، فلن يصدِّق أنَّ أمرًا خارقًا للعادة وقعَ أمام عينيه معجزة، بل سيحاول جاهدًا إيجادَ تفسير طبيعي للحادث. وإذا كان هذا موقفه مما يحصل أمام عينيه، فكيف يقتنعُ بحدوث معجزاتٍ في الماضي بناءً على أدلة تاريخية؟ فمن أراد أن يقنع غيره بحدوثِ معجزة معيّنة، فلا بدَّ أن يقنعه أوّلًا بإمكانية حدوثها عمومًا، ثمَّ ينتقل إلى الأدلة على حدوث معجزة معيّنة[٢].

وهذا الكلام صحيحٌ ووجيه، ويشبه ما ذكر اللهُ تعالى عن المكذّبين للرسل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٠ - ١٥]، وكذلك موقف المشركين من حادثةِ انشقاق القمر؛ قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر: ١ - ٢].

ثمَّ بيَّن لويس أنَّ شبهة منكري المعجزات أنّها تخالف قوانين الطبيعة الثابتة، فيحتاج المتديِّن أن يبيِّن ما هي حقيقةُ المعجزات، وما هي الطبيعةُ وقوانينها، فبيّن

---

(١) انظر المقال: About C.S. Lewis, على الرابط:

http://www.cslewis.com/us/about-cs-lewis/

(٢) انظر: Miracles (1 - 4)

ذلك في كتابِه، ثمَّ ذكر أنَّ الناس من حيث العموم ينقسمون إلى قسمين: القسم الأوّل يتبنّى المذهبَ الطبيعي (Naturalism)، وهو الاعتقاد بأنّه لا يوجد شيء سوى الطبيعة، وأنَّ الطبيعة نظامٌ مغلق. والقسمُ الثاني يتبنَّى المذهب فوق الطبيعي (Supernaturalism)، وهو الاعتقاد أنَّ الطبيعة ليست نظامًا مغلقًا، وأنَّ الوجود منحصر فيها، بل يوجد موجودات ليست من هذه الطبيعة أيضًا[١].

ثمَّ أوجد لويس طريقة جيِّدة في التعامل مع هذه القضية، وهو بتشكيك مَن يتبنّى المذهبَ الطبيعي في مذهبه ببيانِ أنَّه يجب عليه أن يقرَّ بأنّ هذا المذهب قاصر ولا يفسِّر كلَّ شيء. وضربَ مثالين على ذلك، وهما:

المثالُ الأوّل: أنَّه لا يمكن تفسير الوعي وفق المذهب الطبيعي.

المثالُ الثّاني: أنَّ تفسير وجود أخلاق موضوعية تتعالى على العالم المادي[٢].

وبذلك اجتنبَ الحديثَ عن الخالق في بداية الأمر، وأرادَ أن يلزم الملحد بوجود أشياء غيرِ مادية. ولو التزمَ الملحد بذلك فإنه يفتحُ عليه الباب في الحديث عن المعجزات، لأنَّ مصدر المعجزات ليس من العالم المادي. ثمّ ذكر الأدلة على وجود المعجزات، وأنَّها تدلُّ على وجود الخالق، إلخ.

وهذه الطريقةُ تنفع الملحدَ المنفتح، لأنَّه قد يقتنع بوجودِ أشياء غير مادية، ثمَّ ينتقل إلى التَّصديق بالمعجزات. وذلك أنَّ كثيرًا من الملاحدة يعترفون أنّ الوعي والأخلاق الموضوعية غيرُ مادية. وأمَّا الملحد المتعنِّت، فإنه لن يقتنعَ بهذين المثالين، لأنه يفسّر الوعي تفسيرًا ماديًّا، وأنَّه نتاج عمليات كيميائية في الدماغ فقط، ولديهم تفسيرات مختلفة للأخلاق الموضوعية كما سبق ذكره[٣].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥ – ٩).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٧ – ٦٠).

(٣) راجع المباحث السابقة عن: المذهب المادي، وحجّة الوعي، وحجّة الأخلاق، لبيان اضطراب الملاحدة في مواقفهم من أشياء غير مادية، وظاهرة الوعي، والأخلاق الموضوعية.

دلالةُ المعجزات على وجود الله:

ذكر البروفسور وليام لاين كرايغ أنَّ أغلب علماء اللاهوت المسيحي لا يستدلّون بالمعجزات على وجود الله، بل يستدلّون بأدلةٍ عقلية على وجوده، ثمَّ يستدلّون بالمعجزاتِ على صحَّة اللاهوت النصراني[١]. فالمعجزات كانت حجّة في العهد القديم على صدقِ الأنبياء والرسل، ثمَّ يروْن أنَّ معجزات المسيح كانت حجّة على ألوهيته. ويروْن أنَّ قيامة المسيح بعد الموتِ أهمُّ معجزة على الإطلاق، وأنّ ديانتهم مبنية على حدوثِ هذه المعجزة، بل كتب بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: (**وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ فَبَاطِلَةٌ كِرَازَتُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضاً إِيمَانُكُمْ**)[٢]. فالمعجزات لها مكانة مهمّة عند أغلبِ النصارى، لا لأنَّها حجةٌ على وجود الله، وإنَّما لكونها تدلُّ على صدق الرسل في السابق، وعلى ألوهية المسيح بعد ذلك.

ولكن، معَ ذلك فقد استدلَّ عددٌ من علماء الغرب بالمعجزات على وجود الله، ومنهم: البروفسور دانيال بونيواك[٣]، والبروفسور بيتر كريفت.

فقد ألَّف البروفسور بونيواك مقالًا علميًّا بعنوان: «الحجة من المعجزات» (The Argument from Miracles) واستدلَّ في هذا المقال على وجود الله بالمعجزات حسب الصياغة المنطقية الآتية:

---

(١) انظر محاضرة:

Doctrine of Creation Part 16: Rebutting Spinoza's Objections to Miracles

على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=Zn3Uv8hOkns

(٢) الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥ / ١٤).

(٣) دانيال بونيواك (Daniel Bonevac): بروفسور الفلسفة في جامعة تكساس بالولايات المتّحدة. وهو متخصّص في الميتافيزيقيا، والمنطق والأدب. انظر:

http://philosophical.space/Daniel_Bonevac/Welcome.html

المقدِّمة الأولى: المعجزات، بحكم تعريفها، هي الأحداثُ التي يكون أحسن تفسيرها وجود قوّة خارقة للطبيعة.

المقدِّمة الثانية: بعضُ أنواع الأحداث الممكنة هي معجزات.

المقدِّمة الثالثة: الأحداثُ من هذا النوع قد وقعت بالفعل.

النتيبجة: إذن، توجد قوَّة خارقة للطبيعة[١].

وقد ذكرَ البروفسور كريفت حجّة المعجزات ضمن حججه العشرين على وجود الله بصياغةٍ مشابهة مع فروق بسيطة، وهي:

المقدِّمة الأولى: المعجزةُ هي حدثٌ يكون تفسيرُها الكافي الوحيد تدخّل الإله الاستثنائي والمباشر.

المقدِّمة الثّانية: هناك عددٌ من المعجزات المشهود لها.

المقدِّمة الثالثة: لذلك، فهناك عددٌ من الأحداث يكون التفسير الوحيد الكافي هو تدخُّل الإله الاستشنائي المباشر.

النتيجة: إذًا، الإلهُ موجود[٢].

ولا شكَّ أنَّ هذا الاستدلال أجود من الأوّل، وذلك لسببين:

السببُ الأوَّل: أنَّه ذكر كلمة: الإله، بخلاف البروفسور بونيواك الذي ذكر كلمة: «قوَّة خارقة للطبيعة». ولا شكَّ أنَّ ذكْر كلمة الإله أدلُّ على المقصود من كلمة: «قوة خارقة للطبيعة»؛ لأنَّ «قوة خارقة للطبيعة» تشمل الإله وغيره.

---

(١) انظر: The Argument from Miracles (5), by: Daniel Bonevac,

وهو موجود على الرابط:

https://www.researchgate.net/publication/242293594_The_Argument_from_Miracles

(٢) انظر المقال: Arguments for God's Existence ٢٠ على الرابط:

https://strangenotions.com/god-exists/#9

السَّببُ الثّاني: أنَّه قال: التفسيرُ الوحيد الكافي، بخلاف البروفسور بونيواك الذي ذكر: أحْسَن تفسير. فذكر التفسير الوحيد الكافي يوحي باليقين أكثر من تعبير البروفسور بونيواك الذي يفتح البابَ أمام تفسيرات أخرى.

فصياغةُ البروفسور كريك أحسنُ من صياغة البروفسور بونيواك، ولكن الإشكال في كلٍّ مِن صياغة البروفسور كريك والبروفسور بونيواك أَنَّهما جعلاها مكوّنة من ثلاث مقدِّمات ونتيجة، وكذلك التَّطويل بشرْح المعجزات في داخل الحجَّة. وهذا التطويلُ غير جيِّد في صياغة الحجّج.

الصياغةُ الإسلامية لحجّة المعجزات:

المعجزاتُ أو دلائلُ النبوَّة وآيات الأنبياء تدلُّ في الأصل على نبوّة الأنبياء، ولكنّها تدلُّ أيضًا على وجود الخالق وبعض صفاته، بل هي مِن أقوى الأدلة على ذلك؛ قال الإمامُ ابن القيّم (رحمه الله) عنْ هذا النوع من الاستدلال: «وهذه الطريقُ من أقوى الطرق، وأصحِّها، وأدلها على الصانع وصفاته، وأفعاله. وارتباطُ أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباطِ الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحسِّ والعقل ودلالتها ضرورية بنفسها؛ ولهذا يسمِّيها الله سبحانه آيات بينات»[1].

وكما سبقَ ذكره فإنَّ آياتِ الأنبياء أوسعُ من خوارق العادات، بل تشمل كلَّ ما دلَّ على نبوَّة نبيٍّ من الأنبياء. ولذلك يمكن أن نقسّمها إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: خوارقُ العادات وقوانين الطبيعة.

القسمُ الثّاني: ما سوَى الخوارق من الآيات والدلائل.

«ومع أنَّ دلائل النبوَّة موجَّهة أصلًا لإثبات دعوى النبوّة والرسالة، إلا أن لها دلالة - دون شكٍّ - على وجود مُحدثِها وموجِدِها، وذلك من جهتين:

أولاهما: أنَّ منها ما هو خارق للعادة، لا يقدر عليه إلّا خالقُ السماوات والأرض، ومسيِّرُ نظام العالم على تلك العادة المخروقة، فدلَّ اقتران خرق تلك العادة - معَ

---

(١) الصواعق المرسلة (٣ / ١١٩٧)، لمحمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيّم الجوزية، (دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ. ت. علي بن محمد الدخيل الله).

دعوى الرسالة - على وجود ربٍّ قادر على كلِّ شيء، هو الذي أرسل هذا الرسول، وصدَّقه بهذه الآيات، هذا فضلًا عن دلالتها على صدق الرسول نفسه...

ثانيهما: أنَّ ما سوى الخوارق من دلائل النبوّة، قد ثبت به صدق الرسول، الذي قدْ أخبر عن الربِّ الخالق العظيم، وعنْ صفات جلاله وكماله، بما لا يدع مجالًا للشكِّ في كمال ربوبيته وعظمته، فضلًا عن وجوده أصلًا»[1].

ولا ينبغي الخلطُ بينهما في إقامةِ الحجّة على وجود الله، لأنَّ بينهما بعض الفروق في الدلالة.

صياغةُ القسم الأوَّل:

يمكن أن نصيغَ القسمَ الأوَّل من دلالة المعجزات على وجود الله بالصياغة الآتية[2]:

المقدِّمة الأولى: المعجزاتُ قد وقعت حقًّا.

المقدِّمة الثانية: إن وقعتِ المعجزات، فإنَّها دليل على وجود خالق أحدثها.

النتيجة: إذًا، الخالقُ موجود.

وبذلك تكون الحجَّةُ مختصرة وسهلةً بدون تعقيدات وعبارات مبهمة. والأدلّة على المقدّمتين كالآتي:

الأدلةُ على المقدِّمة الأولى: الحسُّ والأخبار المتواترة؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «فإنَّ هذه العجائب والآيات التي للأنبياء، **تارة تعلم بمجرد الأخبار المتواترة، وإن لم نشاهد شيئًا من آثارها، وتارة نشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدَث.** كما قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ ﴾ [العنكبوت:٣٨]، وقال تعالى: ﴿ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٢]»[3].

---

(١) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد: (٢٨١ - ٢٨٢).

(٢) هذه الصياغة مفيدة، ولكنها ليست على طريقة المناطقة.

(٣) النبوّات (١ / ٥١٤).

ونستنبطُ من هذا الكلام أنَّ دلالةَ الحسِّ تنقسم إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: مشاهدةُ هذه الخوارق نفسها. وهذا يحصل لمن حضرها في زمن الرسل، أو مَن شاهد وقوعَ كرامات الأولياء. فكرامات أيضًا من آيات الأنبياء؛ قال شيخُ الإسلام (رحمه الله): «وأمّا كرامات الأولياء: فهي أيضًا من آيات الأنبياء؛ فإنها إنَّما تكون لمن يشهد لهم بالرسالة، فهي دليلٌ على صدق الشاهد لهم بالنبوة»[1].

القسمُ الثّاني: مشاهدةُ آثار هذه المعجزات. وهذا ما تقدَّم من كلام البروفسور ريتشارد سوينبورن من تقريرِه للأدلة التاريخية الأربعة. واستدلَّ شيخُ الإسلام في كلامه على ذلك مِن مشاهدة آثارِ عاد وثمود. وسيأتي في المبحث القادم المزيدُ من الكلام عن الأدلة التاريخية - إن شاء الله -.

ومَن لم تتأتّ له مشاهدةُ خوارق العادات، ولا مشاهدة آثارها، فلا يمكنه إنكارُ دليل التواتر؛ لأنَّه علمٌ ضروري يجب قبوله. وكان كثيرٌ من أخبار معجزات الرسول ﷺ مِن قبيل المتواتر؛ قال شيخُ الإسلام (رحمه الله) عن كثرة من شاهد معجزات النبي ﷺ: «وظهورُ هذه الآيات التي هي دلائلُ النبوة وأعلامها مشهورة بين الأمة عامتها وخاصَّتها في كلِّ زمان؛ أعظمُ من ظهور هذه الأخبار المتواترة، فهي أحقُّ أن تجعل متواترة من هذه، ونقلة هذه الآيات من الخاصة: أهل العلم، وكتب الحديث والتفسير والمغازي والسيَر وكتب الأصول والفقه التي توجَد فيها هذه الأخبارُ؛ أصحَّ نقلًا باتفاق أهل العقل والعلم»[2].

قال عنْ كثرة مَن شاهد معجزات النبي ﷺ: «هذه الآيات التي ذكرنا بعضها كانت تكون بمحضرٍ من الخلق الكثير، كتكثيرِ الطعام يومَ الخندق فإنَّه كان أهل الخندق رجالهم ونساؤهم ألوفًا»[3].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٨٠١ - ٨٠٢).

(٢) الجواب الصحيح (٦/ ٣٣٤).

(٣) المصدر السابق (٦/ ٣٥٥).

وهذا الأمرُ لا يقتصر على الأمَّة الإسلامية فحسب، بل الأخبار متواترة بحصول خوارقِ العادات في الأمم الأخرى أيضًا. وذكر البروفسور وليام لاين كرايغ أنَّ من أفضل الكتب في بيانِ ذلك هو كتاب: «معجزات: مصداقية روايات العهد الجديد» (Miracles: The Credibility of the New Testament Accounts). وهذا الكتاب مكوّن من مجلّدين، وركَّز على بيانِ الأخبار المشاهَدة والمتواترة على حدوث معجزات وخوارق العادات في أنحاء العالم[1].

ومِن الغريب في الأمر أنَّ ديفيد هيوم نفسَه اعترف بذلك، من أنَّ الشهادات بوقوع المعجزات موجودةٌ في جميع الديانات والأمم. ومِن هنا نشأ أحد اعتراضاته، لأنَّ هذه الديانات تتناقضُ بينها، فلا يمكن تصديقُ جميع الشهادات، وبالتالي تسقط الشهادات كلُّها. ولكنَّ هذا الاعتراض غيرُ صحيح؛ لأنَّ أخبار هذه المعجزات بين أمرين:

الأمرُ الأوَّل: الأخبارُ المنسوبة إلى أنبياء ورسل في الكتب السابقة؛ فلا إشكال بإثباتها، فالقرآنُ الكريم قد حكى عن كثيرٍ من معجزات الأنبياء السابقين.

الأمرُ الثّاني: الأخبارُ المنسوبة إلى مَن بعد الأنبياء والرسل كخوارق العادات التي قدْ ظهرت على يدِ بعض القديسيين. فإذا كانت مشاهدة أو قد تواترَ النقل بها، فيمكن تفسيرُها بأنَّها من الأحوال الشيطانية. فالمسلمون لا ينكرون وقوعَ أحداث مخالفة لقوانين الطبيعة على يدِ غير المسلمين، ولكنَّ هذه الخوارق لا تخرج عن كونها من مقدور الجنِّ أو الإنس؛ قال شيخُ الإسلام (رحمه الله): «وما تأتي به السحرة والكهّان والمشركون وأهلُ البدع من أهل الملل لا يخرج عن كونه مقدورًا للإنس والجنّ، وآيات الأنبياء لا يقدرُ على مثلها لا الإنسُ ولا الجنّ»[2]. فقد يطير أحدُ رجال الدين

---

(١) انظر: محاضرة:

Doctrine of Creation Part 16: Rebutting Spinoza's Objections to Miracles

على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=Zn3Uv8hOkns

(٢) النبوّات (٢ / ١٠٨١).

من ديانة أخرى في الهواء باستعانةٍ من الجنِّ على سبيل المثال، وهذا أمرٌ مخالف لقانون الجاذبية، ولكنَّه فعله استعانة بالجنّ.

فوجودُ أخبارٍ بهذه الخوارق في دياناتٍ مختلفة ليس دليلًا على سقوط هذه الأخبار كلِّها، بل هو دليلٌ على فسادِ المذهب الطبيعي. فالمذهبُ الطبيعي لا يسمح بوجود أيِّ شيء خارقٍ للعادة، ويدَّعي ديفيد هيوم - ومَن على شاكلته - أنّ الخبرة الإنسانية المتَّسقة تدلُّ على عدم خرق قوانين الطبيعة. ثمَّ هو نفسه يقرُّ بشهادات في ديانات وأممٍ مختلفة بخرقها. فأيُّ تناقض بعد هذا التناقض!؟

الأدلةُ على المقدِّمة الثّانية: هي الضرورةُ العقلية من دلالة الخلق على الخالق، بل دلالةُ المعجزات على الخالق أقوَى من دلالة المخلوقات على خالقها؛ قال شيخ الإسلام (رحمه الله): «**المعجزة - التي هي فعلٌ خارق للعادة - تدلُّ بنفسها على ثبوت الصَّانع كسائرِ الحوادث، بل هي أخصُّ من ذلك**؛ لأنَّ الحوادث المعتادة ليست في الدلالةِ كالحوادث الغريبة؛ ولهذا يسبّح الربّ عندها ويمجّد ويعظَّم ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل في النفوس ذلة مِن ذكر عظمته ما لا يحصلُ للمعتاد، إذ هي آيات جديدةٌ فتعطى حقّها، وتدلُّ بظهورها على الرسول، وإذا تبيَّن أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسولُ الله، فتتقرَّر بها الربوبيةُ والرسالة»[1]. وقال أيضًا: «الآياتُ التي يستدلُّ بها على ثبوتِ الصانع تدلُّ المعجزة كدلالتها وأعظم. وإذا كانتْ دلالتها على صدق الرسول معلومةً بالاضطرار... فكذلك مَن نازع في إثباتِ صانع يقلب العادات، ويغيِّر العالم عنْ نظامه، فأظهرَ المدعي للرسالة المعجز الدَّال على ذلك؛ علم بالضرورة ثبوت الصَّانع الذي يخرق العادات، ويغيِّر العالم عنْ نظامه المعتاد. وبالجملة فانقلابُ العصا حيَّة أمرٌ يدلُّ على ثبوت صانعٍ قدير عليم حكيم، أعظمُ من دلالة ما أعيد من خلق الإنسان مِن نطفة، فإذا كان ذاك يدلُّ بنفسه على إثبات الصانع، فهذا أولى»[2].

فتكونُ النتيجة الناتجة عن المقدِّمتين: وجود الخالق جلَّ وعلا.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١ / ٣٧٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٩ / ٤٣ - ٤٤).

صياغةُ القسم الثاني:

صياغة هذا القسم بالطريقة كالآتي:

المقدِّمة الأولى: وجودُ دليل على صدق الرسول ﷺ.

المقدِّمة الثانية: الصادقُ المصدوق؛ يقول إنّ الذي أرسله هو الله.

النَّتيجة: قولُه بأنّه رسولُ الله صدقٌ وحقّ، فهذا دليلٌ على وجود الله[1].

وهذه أيضًا طريقةٌ جيِّدة ومفيدة، ويمكن استخدامُها في كثير من آيات الأنبياء غير الخارقة لقوانين الطبيعة. وهذه المقدّمات ليست بحاجةٍ إلى استدلال، وإنّما هي بحاجة إلى إيرادِ أمثلة على أدلَّة صدق الرسول ﷺ، ثمَّ على أنَّه قد ادَّعى النبوّة. وكتبُ دلائل النبوَّة التي صنَّفها علماءُ الإسلام مليئةٌ بهذه الأمثلة. و«النبوّة إنما يدَّعيها أصدق الصادقين، أو أكذبُ الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلّا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تُعرب عنهما، وتعرف بهما... وما من أحدٍ ادَّعى النبوّة من الكاذبين إلا وقد ظهرَ عليه من الجهل والفجور واستحواذِ الشياطين عليه ما ظهرَ لمن له أدنى تمييز، فإنّ الرسولَ لا بدَّ أن يخبر الناسَ بأمور ويأمرهم بأمور، ولا بدَّ أن يفعل أمورًا يبيّن صدقه. والكاذبُ يظهر في نفس ما يأمر به ويخبرُ عنه وما يفعله ما يبيِّن به كذبه من وجوه كثيرة»[2]. ومَن قرأ عن سيرة الرسول ﷺ ودلائلِ صدقه بقلبٍ منفتح للحقّ، فإنّه يلزمه الإقرارُ بصدقه. ومَن أقرَّ بصدقه يجب تصديقُه فيما أخبر به مِن أنه مرسَل من عند الله. وبالتالي يقوم الدليلُ على وجودِ الربّ الخالق؛ قال شيخُ الإسلام: «وهذه طريقةُ السلف مِن أئمَّة المسلمين في الاستدلالِ على معرفة الصانع، وحدوث العالم، لأنه إذا ثبتتْ نبوَّته بقيام المعجز وجبَ تصديقُه على ما أنبأهم عنه من الغيوب، ودعاهم إليه من أمرِ وحدانيةِ الله تعالى وصفاته وكلامه»[3].

---

(١) دلائل الربوبية (٦٥).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١٤٠ - ١٤١)، لابن أبي العزّ الحنفي.

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٥٢).

خلاصةُ حجَّة المعجزات:

حجَّةُ المعجزات مِن أقوى الحجج على وجود الله كما ذكره علماءُ الإسلام. ولعلماءِ الغرب كلامٌ كثير عن المعجزات. وقد اختلطَ هذا الكلام بين تقعيدات وتأصيلاتٍ وقويَّة وردود نافعة على المنْكرين معَ انحرافاتهم العقدية. فالخير في كلامهم ناتجٌ في الغالب عنْ صراعهم الطويل مع مُنكري المعجزات، فاكتسبوا خبرة في بعض التأصيلات، وفي نقدِ اعتراضاتهم. ولكنَّ كلامَهم الباطل في هذا الباب كثير جدًّا، لا سيَّما وأنَّ كثيرًا من النصارى يروْن أنَّ معجزات المسيح u – وهي أكثرُ المعجزات التي يعْتنون بها – لا تدلُّ على وجودِ خالق لهذا الكون، وإنّما تدلُّ على ألوهية المسيح. والذين يعتمدونَ على المعجزات في الاستدلال على وجود الله يستخدمون حججًا مبنية على مقدِّمات كثيرة، وعبارات غامضة. فالمسلمُ يستطيع أن يستفيدَ من خبرتهم، ولكن ينبغي أن يكون على حذرٍ شديد في الاستفادة من كلامهم في هذا الباب.

المبحثُ الثّالث
حجَّةُ ثبوت الحقائق الدينية

حجَّةُ ثبوت الحقائق الدينية أو حجَّة الخبرة الدينية (Argument from Religious Experience) من الحجج على وجودِ الله. وهي ليست حجةً عقلية ولا علمية، وأقرب ما يمكن وصفُها أنَّها حجَّة حسيَّة. وهذا سببٌ جعلها ضمنَ الحجج الحسية في هذا الباب.

وبالتتبُّع والاستقراء، فإنَّ هذه الحجة لم تحظَ باهتمامٍ كبير في الجدل الديني - الإلحادي في الغرب. فقلَّ ما يذكرها علماءُ الغرب في مناظراتهم مع الملاحدة أو في الكتب المتخصِّصة في نقد الإلحاد الجديد. ومعَ ذلك فثمَّة قلَّةٌ من الفلاسفة واللاهوتيين الغربيين يدافعون عنْ هذه الحجة، ويذكرونَها في كتب فلسفية ولاهوتية.

وسيتمُّ تقسيمُ هذا المبحث إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: التعريفُ بحجَّة ثبوت الحقائق الدينية.

الفقرةُ الثانية: الاعتراضاتُ على حجَّة ثبوت الحقائق الدينية والجواب عنها.

الفقرةُ الثالثة: تقييمُ حجَّة ثبوت الحقائق الدينية.

الفقرةُ الأولى: التعريفُ بحجَّة ثبوت الحقائق الدينية:

ذكرَ البروفسور كاي مان كوان[1] أنَّ المراد بالحقيقة أو الخبرة الدينية: أن تكون لدى الإنسان خبرةٌ شعورية بوجودِ الإله أو كائن متعالٍ على الطبيعة[2].

---

(١) كاي مان كوان (Kai – man Kwan): بروفسور فلسفة الدين في جامعة هونغ كونغ التعميدي. انظر:

https://artsbu.hkbu.edu.hk/about-us/our-community-of-teachers-and-researchers/prof-kai-man-kwan

(٢) انظر:

The Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (449)

وليس المرادُ بذلك مجرَّد شعورٍ ديني في داخل الإنسان، ولكنهم يقصدون وقائع وخبراتٍ وحقائق وقعت للبشرِ تُثبت أنَّ الإله موجود. ويدخلون في ذلك ما وقع للأنبياء والرُّسل، مثل: سماع الوحي من الله، والمكاشفة التي تحصل لبعض الناس، واليقين الذي يتبعُه أنَّ الإله موجود[1].

والخبراتُ الدينية وُجِدت في البشرية منذُ القدم، ولكنْ بدأ الجدلُ الديني في هذه الخبرات عندما أصدرَ وليام جيمس[2] كتابه: «أنواع الخبرات الدينية» (The Varieties of Religious Experience) عام ١٩٠٢م، ولكنَّه لم يذكر أنَّ هذه الخبرات حجة على وجود الله. ورأى بعضُ اللاهوتيين والفلاسفة أنَّ هذه الخبرات والحقائق حجة على وجود الله. وذلك أنَّ هذه الخبرات مصدَّقة ذاتيًّا (Self – authenticating)، لأنّ الذي حصلت له هذه الخبرات قد أدرك وجودَ الإله حسّيًّا، فتكون حجَّة على وجود الله[3].

تبنَّى كثيرٌ من الفلاسفة في بداية القرن العشرين مبدأ البرهنة (Verificationism)، وهذا المبدأ ينصُّ على أن أيَّ فكرةٍ لا يمكن البرهنةُ عليها بالأدلة الحسية تعتبر فكرة بلا معنى. وبسببِ انتشار هذا المبدأ قلَّ استعمالُ حجَّة ثبوت الحقائق الدينية في تلك الفترة؛ حيث إنَّه لا يمكن البرهنةُ على هذه الخبرات بأدلةٍ حسيَّة خارجة عن الشعور الذاتي للإنسان[4].

---

(١) انظر: Religious Experience, in Stanford Encyclopedia of Philosophy
وهوموجود على الرابط:
https://plato.stanford.edu/entries/religious-experience

(٢) وليام جيمس (William James): بروفسور علم النفس الأمريكي، وكان له تأثير بالغ علماء النفس بعده. توفي عام: ١٩١٠م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/William-James

(٣) انظر:
Can Religious Experience Provide Justification for the Belief in God? The Debate in Contemporary Analytic Philosophy, in Philosophy Compass 1/6 (2006) (640-641), by: Kai Man Kwan.

(٤) انظر:
The Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (501-502)

ولكنْ في السبعينيّات من القرن المنصرم، أعاد البروفسور ريتشارد سوينبورن هذه الحجةَ إلى الجدل الديني الإلحادي، ودافعَ عنها في كتابه: «الوجود الإلهي» (The Existence of God)[1]. وبنَى ذلك على إعادةِ النَّظر في مبادئ نظرية المعرفة بعيدًا عن مبدأ البرهنة. قرّر البروفسور سوينبورن أنَّه إذا وقعتْ للإنسان خبرات دينية تثبت أن الإلهَ موجود، فالأصلُ أنَّ هذه الخبرات صحيحة، إلّا إذا ثبت العكس؛ فالدليل على مَن أنكرَ هذه الخبرات، وليس على مَن أثبتها. وتابعَه على هذا الرأي عددٌ من علماء الغرب، منهم البروفسور وليام ألستون، وألَّف كتابه: «إدراك الإله: إيبستمولوجية[2] الخبرات الدينية» (Perceiving God: The Epistemology of Religious Experience).

صاغَ علماءُ الغرب حجَّة ثبوت الحقائق الدينية بما يأتي:

المقدِّمة الأولى: يظهر إيبستموليجيًّا أنَّ الإله موجود.

المقدِّمة الثانية: لا يوجد سببٌ جيد للاعتقاد أنَّ الإله غير موجود، كما أنه لا يوجَد سببٌ جيِّد للاعتقاد أن هذه الخبرة غير صحيحة.

النتيجة: إذن، يبدو أنَّ الإله موجود[3].

وعزّزوا هذه الحجةَ بثلاثة مبادئ في نظرية المعرفة:

المبدأ الأوَّل: مبدأ السذاجة (The Principle of Credulity)، وخلاصته: أنه يجب علينا التعاملُ مع خبراتنا ببراءةٍ إلّا إذا ثبتَ أنَّ العكس صحيح[4]. يعني، إذا رأينا أو سمعنا شيئًا، فالأصل أنَّ الأمرَ كما رأيناه أو سمعناه، إلّا إذا جاء دليلٌ يدلُّ على أنه وهم مثلًا.

---

(١) انظر: The Existence of God (293 - 327)

(٢) إيبستمولوجية: الدراسة الفلسفية لطبيعة المعرفة البشرية وأصولها وحدودها.
انظر: https: / /www.britannica.com /topic /epistemology

(٣) لخّص البروفسور كواي من كان كلام البروفسور سوينبورن في هاتين المقدّمتين والنتيجة في: The Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (٥٠٨)، وإن لم يصرّح البروفسور سوينبورن بهذه الصياغة في كتابه: The Existence of God (295).

(٤) انظر: المصدر السابق (٥٠٢)

المبدأ الثاني: مبدأ الشهادة (The Principle of Testimony)، وخلاصته: أنه ينبغي للإنسان تصديقُ الآخرين فيما يذكرون أنه حصلَ لهم من الوقائع[1].

المبدأ الثالث: مبدأ البساطة (The Principle of Simplicity)، وخلاصته: أنه ينبغي قبولُ أبسط نظرية بين النظريات المختلفة[2].

وتلخّص هذه الحجَّة معَ هذه المبادئ بأنَّ البشر لديهم عددٌ من الخبرات الدينية. وهذه الخبراتُ تثبت أنَّ الإله موجود. والأصل أنَّ مَن حصلت له خبرة معينة أنّها صحيحة، إلّا إذا ثبتَ العكس، ولا دليلَ على أنَّ هذه الخبرات غير صحيحة. كما أنه ينبغي لمن لم تحصلْ له هذه الخبرات أن يصدِّق شهادة مَن وقعت له. وأيسر نظرية في شرحِ هذه الخبرات أنها قد وقعتْ بالفعل، وأنَّها حقيقية. وأما محاولة شرح هذه الخبرات بنظرياتٍ أخرى مثل: أنَّها أوهامٌ أو تخيلات، فهي لجوءٌ إلى نظريات أكثر تعقيدًا. وهذا مما لا ينبغي في نظرية المعرفة.

هذا هو الأساسُ في صياغة الحجة، والمبادئ المعزّزة لها في نظرية المعرفة. وينطلق علماءُ الغرب في ذكرِ شهادات عديدة لمن حصلت له هذه الخبرات[3].

والخبراتُ الروحية مازالت منتشرةً حتى في الدول الغربية العلمانية، بل هي في ازدياد في بعض هذه الدول؛ فحسبَ إحصاء عام ١٩٨٧ م. أجاب ٤٨ ٪ من البريطانيين بأنَّهم قد حصلتْ لهم هذه الخبرات، بينما كانت النسبة ٧٦ ٪ في عام ٢٠٠٠ م[4].

---

(١) انظر:

The Evolution of the Soul (13), by: Richard Swinburne, (Clarendon Press, 1997)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر:

Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (499-501)

(٤) انظر المقال: Spiritual Experiences: Eight Major Types, وهو موجود على الرابط:
https://www.psychologytoday.com/ie/blog/spiritual-wisdom-secular-times/201401/spiritual-experiences-eight-major-types

وحاول علماءُ الغرب تقسيمَ الخبرات الدينية التي وقعت للناس؛ فقد ذكر البروفسور سوينبورن خمسةَ أقسام[1]، وذكر البروفسور كاي مان كوان أنها أحد عشر قسمًا[2]. وبعضُ هذه الأقسام هي خبرات الألوهيين (المسلمين واليهود والنصارى) مع الخالق، بينما بعضُ الخبرات الأخرى هي خبراتُ المشركين مع آلهتهم، أو خبرات بعض الناس معَ الجنّ.

ثمَّ خصَّص البروفسور كاي مان كوان الخبراتِ الدينيةً لدى الألوهيين بالحديث، وذكر أنَّ هذه الخبرات تتوافَق مع معتقدهم في الخالق. فالمتوقّع أنه لو وُجد خالق خلق البشرَ أنَّه سوف تقع هذه الخبرات الدينية مع هذا الخالق[3]. وعلى العكس، ففي عالم الإلحاد المادي، فإنَّ المتوقع أنَّ الإنسان لن تحصل له هذه الخبرات في حياته؛ لأنَّ الحياة مجرَّد مادة.

يرى علماءُ الغرب الذين يستخدمون هذه الحجّة أنّها قوية من هذه الناحية، حيث إنها تردُّ على الملاحدة. ولكن من الواضح أنَّ كلَّ مَن يؤمن بوجود إله واحد أو آلهة متعدِّدة، أو يؤمن بوجودِ الروح أو الجن، يمكن أن يستخدم هذه الحجة. وسيأتي التفصيلُ في تقييم هذه الحجة في آخر المبحث.

الفقرةُ الثّانية: الاعتراضاتُ على حجّة ثبوت الحقائق الدينية، والجواب عنها:

انتقدَ المشكِّكون حجةَ ثبوت الحقائق الدينية من ثلاثة أوجه رئيسة، وهي:

الوجهُ الأوَّل: اعتراضُ الفجوة المنطقية (The logical gap objection).

هذا الاعتراض يتلخَّص في أنه توجَد فجوةٌ منطقية بينَ الشعور الذاتي للإنسان وبين الواقع الموضوعي؛ فقد يحلم الإنسانُ بشيء ويشعرُ في داخله بأنه حقيقي، ولكنه لم يقع في الحقيقة. كما أنَّ الإنسان قد يخيَّل إليه أن يفعل شيئًا، ولم يفعله[4].

---

(١) انظر: The Existence of God (298 - 303).

(٢) انظر:

Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (513)

(٣) انظر: المصدر السابق (٥١٨).

(٤) انظر:

God and Philosophy (129), by: Anthony Flew, (Hutchinson and Co, 1966)

وأجابَ اللاهوتيون عنْ هذا الاعتراض بأنّه مبنيٌّ على مذهب الشكّ، وأنه سوف يؤدِّي إلى التشكيك في الحواس. وذلك لأنَّ الإنسان يحسّ بوجود محسوسات - وهذا الحسُّ شعور ذاتي - ولكن التحقُّق الموضوعي من هذا الشعور غير ممكن. وإذا كان المشكِّكون يعترضون بهذا الاعتراض على الخبرات والوقائع الدينية دون غيرها من الخبرات والوقائع؛ فيكون هذا الاعتراض انتقائيًّا ومتناقضًا[١].

فالخلاصةُ أنّ مَن يعترض بهذا الاعتراض بينَ أمرين: إمّا أنه يطرد هذا الاعتراض في التَّشكيك في الحواس كلها، ولا شكَّ أنَّ ذلك سفسطة، وغيرُ مقبول لدى عامة العقلاء. وإمّا أنه يعترضُ بهذا الاعتراض على الخبرات والوقائع الدينية دون بقية الخبرات والوقائع، فيقعُ في تناقض وانتقاء غير موضوعي.

الوجهُ الثّاني: اعتراضُ النظرية المثقلة (The theory – ladenness objection). والمراد بهذا الاعتراض: أنَّ الخبراتِ الدينيةَ تحصل داخل الإطار المعرفي لمن وقعت له. فالنصراني لديه خبراتٌ مع المسيح، والمشركون معَ آلهتهم، إلخ. وعليه فلا يمكنُ أن تكون هذه الخبرات أدلةً على وقائع حقيقية[٢].

ردَّ علماءُ الغرب على هذا الاعتراض بأنَّ هذه مشكلة عامَّة في نظرية المعرفة؛ فالإدراكُ العادي لدى الإنسان كذلك أسيرٌ لإطاره المعرفي. ويدخل في ذلك أيضًا العلمُ التجريبي؛ فالعالِم يفسِّر العلومَ التجريبية وفقَ المذهب الفلسفي الذي يتبنّاه.

---

(١) انظر:

Religious Belief and Religious Skepticism (147), by: Gary Gutting, (University of Notre Dame Press, 1982),

وكذلك:

Perceiving God: The Epistemology of Religious Experience (249-250, 255), by: William P. Alston, (Cornell University Press, 1991)

(٢) انظر:

Interpreting Religious Experience (Chap. 5), by: Peter Donovan (Sheldon Press, 1979)

وفلاسفةُ العلوم الكبار يعترفون أنَّ جميع الملاحظات تدخل في النظرية المثقلة (Theory – ladenness). ومع أنَّ الحواس والملاحظات التجريبية مشوَّشة إلى حدٍّ ما بالإطار المعرفي لدى الإنسان؛ فإنَّ ذلك لا يمنعه من تصديق حواسِّه أو نتائج العلم التجريبي، وإلّا فما أمكنَ الإنسان أن يحصِّل أيَّ علم. ولكي يتجنَّب المنتقد أنْ يكيل بمكيالين، فلا بدَّ أن يعترفَ بذلك[١].

فالخلاصةُ أنَّ الذي يوجِّه هذا الانتقاد بين ثلاثِ حالات:

الحالةُ الأولى: أنه يطردُ هذه القاعدة بأنَّه لا يمكن أن نحصل على أي علم؛ لأن الإنسانَ أسيرُ إطاره المعرفي. ويدخُل في ذلك الحواس والعلمُ التجريبي. وهذا لا يقوله إلا المسفسط.

الحالةُ الثّانية: أن يقول إنَّ اعتراض النظرية المثقلة خاصٌّ بالتجارب الدينية دون الحواس والعلمِ التجريبي، فإنه يخالفُ الواقع. وبذلك يكون انتقائيًّا في ردّه.

الحالةُ الثّالثة: أنه يعترف أنَّ اعتراض النظرية المثقلة عامٌّ في التجارب الدينية والحواس والعلم التجريبي، ولكنَّه معَ ذلك لا يمنع مِن تصديقها مع أخذ الاحترازات. وهذا هو المطلوب.

فلا شكَّ أنَّ الإنسان يفسِّر الوقائع في إطاره المعرفي، ويجب أن يحترز في هذا الأمر ويكون متنبِّهًا، ولكنْ لا يعني ذلك عدمَ الاعتماد على الحواس أو العلم التجريبي أو الخبرات الدينية بكلية.

الوجهُ الثّالث: اعتراضُ الخصوصية (The privacy objection). يقصد المنتقدون بهذا الاعتراض أنَّ هذه الخبرات خاصَّة بمَن وقعت له؛ فلا يمكن أن يطّلع عليها غيرهم فسيقيِّم مدى صحَّتها، وبذلك تشبه هذه التجارب التخيّلات والمنامات

---

(١) انظر:
Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (504-506)

التي لا يمكن التحقُّق منها[1]. ردَّ علماءُ الغرب على هذا الاعتراض بأنَّ الحواس نفسها فيها خصوصية كذلك؛ فخبرةُ الإنسان معَ كرسي من الكراسي - برؤيته أو لمسه مثلًا - هي خبرة خاصَّة في ذهنه. وهذه الخبرات تختلفُ من شخص إلى شخص. والذي يجعل الحواس عامَّة هي أنَّه يمكن أن يتحدَّث الناس عن خبراتهم معَ غيرهم ويقارنون بينها. ولكنّ هذا الأمرَ يصدق على الخبراتِ الدينية أيضًا. ومِن الأمثلة على ذلك أنّ الخبرة بوجود الله يكادُ يكون موجودًا بينَ جميع الناس في جميع الأمكنة وجميع الثقافات. وهذه الخبرات متوافقةٌ إلى حدٍّ كبير. وبالتالي، فإنَّ التجارب الدينية عامة كذلك[2].

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ حجَّة ثبوت الحقائق الدينية:

هذه الحجَّة يستعملها بعضُ علماء الغرب، وإن لم تكنْ مشهورة بينهم. وأما بين المسلمين، فلا نكاد نرى أحدًا يستعملها. ولعلَّ من أسباب ذلك ما في هذه الحجة من الضَّعف والوهن. وقد سبقَ ذكرُ بعض الاعتراضات الموجهة إلى هذه الحجة، كما سبق إيرادُ إجابة علماءِ الغرب عن هذه الاعتراضات. ولكنّ الاعتراضات فيها قوّة، والإجاباتُ عنها ليست مُقنعة تمامًا؛ لأنَّ هذه الخبرات قد تكون أوهامًا وتخيّلات ووساوس؛ فقد يظنُّ الإنسان أنه يحسُّ بشيء من الأمور الدينية، ولكن الواقع أنّه مريض نفسيًّا، أو مصابٌ بوساوس مِن الشيطان وغير ذلك. ونتيجة لذلك، نرى أنّ أتباع الأديانِ لديهم خبراتٌ دينية مختلفة؛ فالبوذي قد يظنُّ أنَّه يرى بوذا، والهندوسي يظنّ أنه قابل أحدَ الآلهة، إلخ. ولا شكَّ أنَّ هذه الخبرات باطلة وغير صحيحة، ولا يُبنى عليها شيء.

---

(١) انظر:

Reason and Religion: An Introduction to the Philosophy of Religion (318), by: Rem Edwards, (Harcourt Brace Jovanovich, (1072), (Wipf and Stock, 2016).

(٢) انظر:

Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (506-507)

ومَن احتجَّ بهذه الحجة بهذا العموم هو بين ثلاث حالات:

الحالةُ الأولى: أن يستعملَ هذه الحجَّة في جميع الخبرات الدينية. فتكون هذه الحجةُ دليلًا على وجودِ الإله الخالق، كما أنها دليلٌ على وجود الآلهة المزعومة. وهذا باطل.

الحالةُ الثّانية: أن يستعملَ هذه الحجَّة في الخبرات الدينية الخاصَّة بإثبات وجود الخالق، دونَ سائر الآلهة. وبذلك يقعُ في التناقض؛ لأنَّ هذه الخبرات متعدّدة، ولا يمكن استعمالُ هذه الحجة في خبرة دون خبرة.

الحالةُ الثّالثة: أن يترك استعمال هذه الحجَّة بالكلية للمخاطر الموجودة في استعمالها. وهذا هو الصواب.

ولكنْ يبقى استعمالُ هذه الحجة في أمريْن خاصَّين، وهما:

الأمرُ الأوَّل: استعمالُ هذه الحجة مع خبرات الأنبياء. فالأنبياء سمعوا الوحي المنزَّل مِن الله بواسطة جبريل، والنَّبي موسى ونبينا محمدr سمعا كلام الله مباشرة. وهذا يعتبر خبرةً دينية - حسبَ اصطلاح علماء الغرب المعاصر -. وتصديقُ هؤلاء الأنبياء في أخبارهم الصادقة دليلٌ على وجود الله. فكلُّ مَن آمن بأنَّ نبيًّا من الأنبياء نزل عليه الوحي؛ فقد اعترفَ ضمنيًّا بأنَّ الخالق الذي أوحى إليه هذا الوحي موجود. وبذلك يكون الوحي - خبرة أو حقيقة دينية - دليلًا على وجود الخالق[1].

ولكنَّ المسلم يصدِّق الأنبياء بذلك بناءً على ما نصب الله لهم من الدلائل والبراهين الدالَّة على صدْقهم فيما يقولون. ولا يجوز أن يصدّق كلّ مَن يدَّعي أنه كانت له خبرةٌ دينية معينة، وإلّا لوقع في تصديق الدجالين ومدَّعي النبوة فيما يتخيّلونه أو يخيَّل إليهم. فلا ينبغي فتحُ هذا الباب على مصراعيه كما فعل مَن استعمل هذه الحجة.

الأمرُ الثّاني: قد يُقال مِن باب المجادلة للملاحدة الماديين: إنَّ هذه الحجة دليلٌ على

(١) ويتفرّع عن هذا ما يجده المؤمن من حلاوة إيمانه وزيادة يقينه وشوقه إلى ربّه، فيزيده يقينًا بوجوده سبحانه.

بطلان مذهبهم، وإنْ لم تكنْ حجة على وجود الخالق. فهذه الحجَّة - المدعومة بالقواعد في نظرية المعرفة التي ذكرها علماءُ الغرب - دليلٌ على أنَّ الوجود ليس منحصرًا في المادة فقط. وإذا كان الوجودُ غيرَ منحصر في المادة، فإنه دليلٌ على أن المذهب المادي باطل. وقد سبقَ الحديث عن ذلك في الباب الأوَّل عند نقد المذهب المادي.

ومعَ ذلك، فلا تكون هذه الحجَّة دليلًا واضحًا على وجود الخالق، وغاية ما تثبته أنَّ المذهب المادي - الذي هو أساسٌ من أسس الإلحاد المعاصر - مذهبٌ باطل.

فالخلاصةُ أنَّه لا ينبغي استعمالُ هذه الحجَّة بإطلاقه، وإذا رأى أحدٌ أن يستعملها فيكونُ ذلك في هذين الأمرين، دون توسُّع.

المبحثُ الرّابع
نقدُ حججِ علماءِ الغرب الحسيَّة على وجود الله

قدْ تناول هذا الفصلُ حججَ علماء الغرب الحسية على وجود الله، وقد ذكرت فيه ثلاثَ حجج، وهي: حجَّة إجابة الدعاء، وحجَّة المعجزات والكرامات، وحجَّة ثبوت الحقائق.

وقد تبيَّن خلالَ هذه المباحث أنَّهم لا يحتجون بحجَّة إجابة الدعاء إلا في النادر، وأغلبُ كلامهم عنْ هذه الحجة في دفع الاعتراضات المتعلقة بعدم إجابة الدعاء. ولكنَّهم تكلّموا عنِ المعجزات بكلامٍ وافر. وأمّا كلامُهم عن حجة ثبوت الحقائق والخبراتِ الدينية، فهي أكثرُ من كلامهم عن حجَّة الدعاء، ولكنْ أقل من كلامهم عن حجة المعجزات.

وإنْ كان بعضُ كلامهم في هذا الباب جيِّدًا، ويُستفاد منه، إلّا أنه يوجد فيه خللٌ واضح، وذلك من ثلاثة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ أغلبَ علماء الغرب أعرضوا عن الاحتجاج بحجة إجابة الدعاء معَ أنّها حجةٌ قوية على وجودِ الخالق السميع المجيب. وأغلبُ كلامهم منصبٌّ على دفع الاعتراضات عنْ شُبهة الملاحدة المتعلقة بعدمِ إجابة الدعاء. وإعراضهم عن الاحتجاج بهذه الحجَّة القوية معَ احتجاجهم بحججٍ ضعيفة مثل الحجة الوجودية والحجة البراغماتية هو أمرٌ غريب. فإجابةُ الله لدعاءِ الدّاعين في كلِّ وقت وحين تدلُّ دلالة قطعية على وجودِ الخالق، بينما كانت تلك الحججُ الضعيفة الأخرى لا تدلُّ على ذلك. وهذا نقصٌ في خطاب علماء الغرب في هذا الباب.

الوجهُ الثّاني: قد ذكرَ علماءُ الغرب بعضَ التقريرات الجيّدة في حجة المعجزات، وردُّوا على شبهاتِ الملاحدة في ذلك. ولكنَّهم لا يوردون حجةَ المعجزات في

الغالب كحجَّة على وجود الله، بل يستخدمونَها كحجةٍ على ألوهية المسيح - كما سبق -. والإيمانُ بألوهية المسيح مِن العقائد الكفرية الفاسدة لدى النصارى. فقيامُ نبيٍّ من الأنبياء بمعجزة ليس دليلًا على ألوهيته؛ بل هو دليلٌ على أنَّ الله أيّده بهذه المعجزة. ونبيُّنا محمد (ﷺ) أكثرُ الأنبياء معجزة، ومع ذلك لا يقول المسلمون إنّها تدل على ألوهيته، بل هي آياتٌ بيِّنات أنه مرسَل من عند الله ومؤيّد بهذه المعجزات. فهذه المعجزاتُ دليلٌ على نبوَّة الأنبياء، كما أنّها دليلٌ على وجود الخالق الذي أوحى إليهم وأيَّدهم بهذه الآيات والدلائل. فقلَبَ النصارى المسألةَ، وأعرضَ أغلبُهم عن الاحتجاج بهذه المعجزات على وجودِ الخالق، ولم يستدلّوا بها على نبوة المسيح، بل قالوا بأنّها دالة على ألوهيته. ولهذا يجبُ على المسلم أن يكون متنبِّهًا عندما يستفيد بكلام علماء الغرب في هذا الباب، ويكتفي بالاستفادة بتقريراتهم في اعتراضات الملاحدة على وقوع المعجزات. وأمَّا كلامُهم عن ألوهية المسيح فهو كفرٌ محْض، ويبرأ المسلمُ إلى الله منه.

الوجهُ الثّالث: قد ذكر علماءُ الغرب بعض الكلام الجيّد في دلالة الحقائق والخبرات الدينية على بطلانِ المذهب المادي. ولكنَّ احتجاجهم بهذه الحجة على وجود الخالق فيه إشكالاتٌ كبيرة. ومن ذلك أنَّ الاحتجاج بهذه الخبرات قد يفتح الباب أمام المشركين للاحتجاج بوجودِ آلهتهم الباطلة؛ فهُم يدَّعون أيضًا أنَّ لديهم خبرات معهم. ولا شكَّ أنَّ هذه الخبرات مِن تلاعب الشياطين بهم. ولهذا لا يمكن الاحتجاج بكلّ ما يظنُّه الإنسان أنها خبرةٌ دينية. وقد بيَّنت ذلك بالتفصيل في المبحث المخصّص لتلك الحجة.

البابُ الثّالث

ردودُ علماءِ الغربِ على شُبهات الملاحدة

وفيه ثلاثةُ فصول:

الفصلُ الأوَّل: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العقلية.

الفصلُ الثّاني: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العلمية.

الفصلُ الثّالث: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العاطفية.

تمهيد

يتناول هذا البابُ ردودَ علماء الغرب على شبهات الملاحدة. وحيث إن الهدف الأكبرَ للملاحدة الجدد هوَ القضاءُ على الأديان، ويسعونَ بجميع الوسائل لتشكيك المتديِّنين في دياناتهم وعقائدهم؛ فإنَّ شُبهاتهم كثيرة جدًّا، لا يكاد يمكن حصرُها؛ فإنهم لا يكادون يتركون قضيةً متعلِّقة بالدين إلّا ويشكّكون فيها. وعليه؛ فلا يمكن إيراد جميع شبهاتِ الملاحدة في هذا الباب، وإنما يقتصر على أبرز الشُّبهات وأشهرها، مع ردود علماء الغرب عليها.

وقد تمَّ تقسيمُ هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

الفصلُ الأوَّل: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العقلية.

الفصلُ الثّاني: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العلمية.

الفصلُ الثّالث: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العاطفية.

وهذا التقسيمُ تقريبي، وإلّا فبعضُ الشبهات العقلية تتناول جانبًا علميًّا أيضًا، وبعضُ الشبهات العقلية تتناول جانبًا عاطفيًّا أيضًا.

الفصلُ الأوَّل

ردودُ علماءِ الغرب
على شُبهات الملاحدة العقلية

وفيه تمهيدٌ، وأحدَ عشَرَ مبحثًا:

المبحثُ الأوَّل: ردودُهم على شبهة الخصائص غير المتوافقة.

المبحثُ الثّاني: ردودُهم على شبهة: من خلق الله؟

المبحثُ الثّالث: ردودُهم على شبهة عدم إمكان رؤية الله.

المبحثُ الرّابع: ردودُهم على شبهة تناقض القدرة المطلقة.

المبحثُ الخامس: ردودُهم على شبهة الوحي غير المتناسق.

المبحثُ السّادس: ردودُهم على شبهة عدم إدراك المراد بالإله.

المبحثُ السّابع: ردودُهم على شبهة إبريق راسل.

المبحثُ الثّامن: ردودُهم على شبهة عدم الإيمان.

المبحثُ التّاسع: ردودُهم على شبهة رهان الملحد.

المبحثُ العاشر: ردودُهم على شبهة ضعف التصميم.

المبحثُ الحادي عشر: نقدُ ردود علماء الغرب على شبهات الملاحدة العقلية.

تمهيد

هذا الفصلُ يتناول شبهاتِ الملاحدة العقلية. وهي شبهاتٌ واعتراضات كثيرة. وقد ردَّ علماءُ الغرب على كثيرٍ من هذه الشبهات بردودٍ طيبّة وقويَّة. وإن كانت بعضُ هذه الردود اختلطتْ مع مواقفهم اللاهوتية والفلسفية. ولذلك، فإنَّ هذه الردود بحاجةٍ إلى تقييم وتصحيح. وهذا ما سيتمُّ تناوله في هذا الفصل - إن شاء الله.

المبحثُ الأوَّل
ردودُهم على شبهةِ الخصائص غير المتوافقة

قدْ تقدَّم في بداية الرسالة: اختلاف الباحثين في تعريف كلمة الإلحاد (Atheism) باللغة الإنجليزية؛ فمنهم مَن عرَّفها بأنّها: «عدم الإيمان بوجود الخالق» مطلقًا، ومنهم من عرَّفها بأنّها: «عدم الإيمان بالإله الذي يؤمن به المؤلهة». والمؤلهة هم الذين يتبنّون المذهب الألوهي (Theism). وهو يقوم «على الإيمان بذات كاملة الصفات، يمتنع عقلًا ألا توجد لأنَّ عدمها يلزم منه محالاتٌ عقلية؛ ولأنَّ المحالات العقلية ممتنعة واقعًا... وإذا أطلق المذهب الألوهي في الأدبيات المعاصرة عندَ الجدل العقدي؛ قُصِد به ضرورةً اليهودية والنصرانية والإسلام، وإن كان هو أوسعَ من ذلك إذ يشمل الأديان الصريحة في مذهبها التعدُّدي»[1]. فالمؤلهة يعتقدون أنَّ الخالق متَّصف بصفات الكمال - وإن كانوا يختلفون فيما بينهم في الصفات التي يثبتونها كما سيأتي ذكرُه -. والملاحدة يثيرون شبهات عديدة عنِ الصفات الإلهية، ويسمُّون هذه الشبهات بـ: «حجة الخصائص غير المتوافقة» (Incompatible - properties argument) أو بـ«حجج الاستحالة» (Impossibility arguments)[2]. ويهدفون لإثارةِ هذه الشبهات أنَّ اتِّصاف الخالق بصفة معينة أو صفات عديدة مستحيل عقلًا. وشبهاتُهم في هذا الباب متعدِّدة، وسيأتي خلالَ هذا الفصل - والفصل القادم - أمثلةٌ على هذه الشبهات التفصيلية. أمّا هذا المبحث فإنه يتناول أصلَ شبهة: الخصائص غير المتوافقة. وسأقسّمه إلى أربع فقرات:

---

(١) براهين وجود الله (٥٩).

(٢) انظر:

Impossibility Arguments, by Patrick Grim, in The Cambridge Companion to Atheism (199)

الفقرةُ الأولى: موقفُ اليهود والنصارى من الصفات الإلهية.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ شبهة: الخصائص غير المتوافقة.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: الخصائص غير المتوافقة.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: الخصائص غير المتوافقة.

الفقرةُ الأولى: موقفُ اليهود والنصارى من الصفات الإلهية:

مواقفُ اليهود والنصارى في بابِ الصفات مضطربة. فبينما دلَّت كتبهم المقدّسة على اتِّصاف الخالق بصفات النَّقص، فإنَّ أغلب فرقِهم المتأخّرة وأعلامِهم الكبار معطّلة في باب الصفات. وبيانُ ذلك بما يلي:

اليهودُ والنصارى يقدِّسون الأسفارَ المنسوبة إلى موسى (ﷺ)، و«وتتحدّث الأسفار التوراتيةُ في أماكن متفرِّقة عن الله العظيم بما يليقُ لجلاله وعظمته، ومن ذلك قولها: (اسمعْ يا إسرائيل: الربُّ إلهنا واحد، تحبُّ الربَّ إلهك من كل قلبك) (التثنية ٦ / ٤ - ٥)... واللهُ - عزَّ وجلَّ - ليس كمثله شيء، وفي ذلك يقول موسى [كما نسبوه إليه]: (ليس مثل الله) (التثنية (٣٤ / ٣٦)... لكن التوراة[1] في مواضع لا تعدُّ - لكثرتها - تتحدّث عنِ الله، فتجعله كائنًا بشريًّا، وتصفُه بصفات البشر، وتصفه بنقصهم، بل وأخطائهم وضلالهم، تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا... وفي أكبر كنائس الكاثوليك في روما كنيسة (سانت بيتر)، رسمَ الرسام مايكل أنجلو صورةً لله تشبه البشر.

وتتحدَّث النصوص عنْ صور التشابه كما رسمها كتبةُ العهد القديم، ومن ذلك ما جاءَ في رؤية دانيال أنَّ له رأسًا، وشعره أبيض (وجلس القديم الأيام، لباسه أبيض كالثلج، شعرُ رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار) (دانيال ٧ / ٩)...»[2].

---

(١) يعني الأسفار التوراتية المنسوبة إلى موسى التي يتداولها اليهود، لا التوراة التي أنزلها الله.

(٢) هل العهد القديم كلمة الله؟ (٨٩ - ٩١)، للدكتور منقذ محمود السقار، (دار الإسلام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ).

فالخلاصة أنَّ الكتاب المقدَّس لدى اليهود والنصارى يصف الخالق بصفات النقص، وكأنَّه إنسان فائق القدرة.

وهذا هو حالُ الحاخامات الذين كتبوا التلمود أيضًا؛ ففي «صفات الله - عزَّ وجلَّ - والإخبار عنه يثبتُ الحاخامات في حقِّه كثيرًا من الصفات المتناقضة، فيها تشبيهُه بالمخلوقات، فيصفونه بما لا يليقُ بمقام الربوبية والألوهية، فهو عندهم إله يأكل، ويشرب، ويستريح، ويبكي، ويحسُّ بالندم على ما فعل، وينسى، ويتذكّر، ويتدارس التلمودَ مع الحاخامات، ويدلي برأيه في مناقشة قضايا شرعية معهم، ويفرح إذا غلبوا عليه، وهو أبٌ للشعب الإسرائيلي يغضبُ لغضبهم، وعقدَ معهم العهد على أنهم شعبه المختار، يسيرُ أمامهم كما يسير الأبُ مع أولاده، ويزور مرضاهم، ويحزن على ما قضاه مِن نوائب الدَّهر والشدائد على هذا الشعب، وغير ذلك مما يتعالى اللهُ عنه سبحانه ويتقدَّس»[(١)].

وإنْ كان هذا الكلام الذي يتقزَّز منه الإنسان موجودًا في كتب اليهود المقدّسة، إلا أنَّ كثيرًا من اليهود تأثَّروا بالفلسفة اليونانية، وتبنوا مذهب التعطيل في الصفات. وكان الفيلسوف اليهودي فيلو في القرن الأوَّل الميلادي أوّلَ يهودي حاول صياغة العقائد اليهودية بطريقةٍ منظَّمة، وكان يئوِّل نصوص التوراة[(٢)].

والفيلسوفُ فيلو عاشَ قبل تدوين التلمود، والحاخامات الذين دوّنوه لم يأخذوا بآرائه في التعطيل والتأويل، بل كتبوا هذه القبائح التي سبق ذكرها.

ولكنْ عندما عاشَ اليهود بين المسلمين تأثّر عددٌ منهم بآراء المتكلّمين والفلاسفة المنْتسبين إلى الإسلام. وأبرزُ هؤلاء: موسى بن ميمون[(٣)]. حيث نفى كثيرًا من الصفات الإلهية في كتابه: دلالة الحائرين[(٤)] الذي صنّفه باللغة العربية.

---

(١) التلمود وموقفه من الإلهيات - عرض ونقد - (٢ / ٨٦٢ - ٨٦٣)، لأبي بكر محمد ثاني، (الجامعة الإسلامية، ١٤٣٣ هـ).

(٢) انظر المصدر السابق (٢ / ٨٤٦ - ٨٤٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢ / ٨٥١ - ٨٥٤).

(٤) والمواضع في كتابه الذي عطّل فيها الصفات كثيرة جدًّا، انظر على سبيل المثال: دلالة الحائرين (١١٦ - ١٢٥)، و(١٣٦ - ١٤٤)، لموسى بن ميمون، (مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الثانية، ١٤٢٩ هـ).

وقد وضعَ الأصول الثلاثة عشَر عندَ اليهود وجعلها أركان الإيمان عندهم. والأصل الثالث من هذه الأصول قوله: «أنا أؤمن إيمانًا كاملًا بأنَّ الخالق تبارك اسمه، ليس جسمًا، ولا تحدُّه حدودُ الجسم، ولا شبيه له على الإطلاق»[1]. ولا يخفى مما في هذه الجملةِ من التأثُّر بتقريرات المتكلّمين المعطّلة. وقد أصبحت هذه الأصول الثلاثة عشر عمدةً عند اليهود الأرثوذكس بعدَ موسى بن ميمون إلى هذا العصر[2]. مما يدلُّ على أنَّ عقيدةَ التعطيل أصبحت سائدة عندهم.

وأمَّا النصارى، فإنَّ الأسفار التوراتية من ضمن ما يسمّونه بالعهد القديم في كتابهم المقدَّس. فالنصوصُ التي سبق ذكرها في أوَّل الفقرة مقدَّسة لديهم أيضًا، وتقدّم أنّ منهم مَن يرسم الإله بصورٍ تشبه الإنسان في كنائسهم. ولكن في الوقت نفسه قد تبنّى اللاهوتيون الكبارُ عندهم عقيدة التعطيل.

قد تأثَّر آباءُ الكنيسة في القرون الأولى بعد ظهور النصرانية بالفلسفات اليونانية بواسطة الفيلسوف فيلو اليهودي. وبرزَ عندهم اللاهوت السلبي (Apophatic theology)[3]، أي: أن الأصلَ أنهم يصفون الإلهَ بصفات سلبية. ومِن ضمن هؤلاء اللاهوتيين المعطّلة: القديس أغسطين وتوما الأكويني، حيث كانَا يئوِّلان النصوصَ الواردة في كتابهم المقدّس التي سبق ذكرها[4].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢ / ٨٥٢).

(٢) انظر:

The Limits of Orthodox Theology: Maimonides' Thirteen Principles Reappraised (1-14), by: Marc B. Shapiro, (Littman Library of Jewish Civilization (2011)

(٣) انظر:

Hidden God and Hidden Self, by: Bernard McGinn, in Histories of the Hidden God: Concealment and Revelation in Western Gnostic, Esoteric, and Mystical Traditions (87-88), ed. April DeConick and Grant Adamson, (Routledge, 2014)

(٤) ()انظر: المصدر السابق (٩١)، (٩٣ – ٩٤).

واعتبرتِ الكنيسةُ الكاثوليكية أنَّ توما الأكويني أهمُّ لاهوتي على الإطلاق، ويأتي أغسطين في المرتبة الثانية[١].

وكان توما الأكويني من أشدِّ غلاة اللاهوت السلبي حيث تبنى عقيدةً تسمى بالتَّبسيط الإلهي (Divine Simplicity)، ووفقًا لهذه العقيدة فالإله كائن بسيط لا يتّصف بأيِّ صفاتٍ ثبوتية، وإنما يتَّصف بصفات سلبية. ولا يمكن أن نتحدّث عن الإله بصفاتٍ ثبوتية إلّا عن طريق القياس[٢].

وأنكرَ بعضُ اللاهوتيين النصارى المعاصرين عقيدةَ التبسيط الإلهي، وذكروا أنّ الإله يوصَف بأنه كائنٌ شخصي ومتَّصف بصفات ثبوتية. وإن كان بعضُ هذه الصفات يوصَف بها الإنسان، فإنّها أكمل وأعظم في الإله[٣].

ويرى البروفسور وليام لاين كرايغ والبروفسور جي بي مورلاند - وهمَا من أشهر الفلاسفة واللاهوتيين النصارى المعاصرين كما سبَق - أنَّه ينبغي الرجوع إلى كتابهم المقدَّس في تفسير الصفات الإلهية الواردة فيه وفق لاهوت الكائن الأكمل (Perfect being theology)، بمعنى أنَّ الإله أعظم وأكمل كائن يمكن تصوّره. فيثبتون بعض الصفاتِ الإلهية في ظلِّ هذا اللاهوت[٤].

وذكرَ البروفسور كرايغ والبروفسور مورلاند جملة من الصفات التي يثبتها النصارى - ويثير الملاحدةُ عنها شبهات -، ومِن ضمنها: الأزلية (Eternity)، والعلم المحيط (Omniscience)، والقدرة المطلقة (Omnipotence)، والخيرية (Goodness)[٥]. ولكنهما يقولان في الوقت ذاته: إنَّ الربَّ روحاني (Spirit)، وهو

---

(١) انظر: Atheism: A Short Introduction (48)

(٢) انظر: Philosophical Foundations for a Christian Worldview (524 - 526), by: William Lane Craig and J. P. Moreland, (IVP Academic, 2003)

(٣) انظر: Atheism: A Short Introduction (57)

(٤) انظر: المصدر السابق (٥٠١).

(٥) انظر: المصدر السابق (٥١١ - ٥٣٢).

غير جسدي (Incorporeality) وغير مادي (Immaterial)[1]، ويقصدان بذلك إنكارَ الصفات الذاتية الخبرية مثل: الوجه، واليدين وغيرها من الصفات المذكورة في كتابهم المقدّس.

ولهذا كان النصارى معطلة في باب الصفات، ولكنهم متفاوتون في مدى تعطيلهم. فكيف الجمعُ بين عقيدة التعطيل وبين رسوماتهم للإله؟

بدأتْ رسوماتُ إلههم تظهر في القرن الرابع بعد الميلاد، وأنكر كثير من اللاهوتيين النَّصارى هذه الرسومات لكونهم تبنَّوا عقيدةَ التعطيل. ولكن تسامح الآخرون في وجودِها محتجِّين بأنَّ الإله أظهر نفسَه بهذه الصور في الرؤى المنامية[2]. ومن الأمثلة على ذلك ما سبقَ في رؤيا دانيال في العهد القديم.

والخلاصةُ أنَّ اليهود والنصارى متناقضون في باب الصفات. فبينما دلَّت كتبهم المقدَّسة على اتِّصاف الإله بصفات النقص، ورسم النصارى إلههم في كنائسهم، إلا أنَّ كبارَ اللاهوتيين والفرقَ المتأخِّرة لديهم ينحون منحَى التعطيل والتأويل. ومع ذلك فإنَّ جملةً من النَّصارى يثبتون بعضَ الصفات الإلهية، وهذه الصفات أثار الملاحدة عنها شبهات. وبيانُها في الفقرة الآتية.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ شبهة: الخصائص غير المتوافقة:

قد ألَّف البروفسور جافين هايمان كتابَه: «التاريخ المختصر للإلحاد» (A Short History of Atheism)، وخصّص فيه بابًا بعنوان: «الإله الذي يرفضه الإلحاد المعاصر» (The God that Modern Atheism Rejects). وتحدّث فيه عن سيادة اللاهوت السلبي لدى النَّصارى في العصور الوسطى، وأنَّ الفلسفة الحديثة على يدِ ديكارت غيَّرت

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥٠٧).

(٢) انظر:
The invisible Christian God in Christian art, by: Robin M. Jensen, in Histories of the Hidden God (218-231)

مفاهيمَ الغربيِّين في نظرية المعرفة. ثمَّ أصبحت فلسفة إيمانويل كانت وديفيد هيوم من أسباب رفضِ إثبات الصفات الإلهية عنْ طريق القياس. فانتقاداتُ فلاسفة القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر كانت مِن أسباب ضعف اللاهوت السلبي إلى حدٍّ كبير.

وذكرَ البروفسور هايمان أنه عندما غيَّر اللاهوتيون المعاصرون موقفهم من الصفات الإلهية، ووصفوا الإله بأنه كائنٌ شخصي ومتَّصف ببعض الصفات الثبوتية؛ كان ذلك مِن أسباب انتقادِ الملاحدة المعاصرين[١]. فبينما ركَّز فلاسفة عصر التنوير على انتقاد اللاهوتِ السلبي، ركَّز الملاحدةُ المعاصرون على انتقاد اللاهوت الثاني لدى النصارى.

وقد اهتمَّ فلاسفةُ النصف الثاني من القرن العشرين بصورةٍ بالغة بدراسةِ الصفات الإلهية[٢]. وبعضُ هؤلاء الفلاسفة متديّنون، وكتبوا عن الصفاتِ من باب التقرير والدفاع عنِ الإيمان بها. ومنهم ملاحدةٌ كتبوا عن الصفات على طريقة الانتقاد والردّ.

ونتجتْ من دراسات الملاحدة للصفات الإلهية شبهةٌ: الخصائص غير المتوافقة. وقرَّر بعضُ الملاحدة هذه الشبهة في مؤلَّفاتهم كحجّة للإلحاد الإيجابي.

ومِن الأمثلة على ذلك أنه عندما ألَّف البروفسور مايكل مارتن كتابه المشهور: «الإلحاد: تبرير فلسفي» (Atheism: A Philosophical Justification) خصّص بابًا بعنوان: «الصفات الإلهية وعدم التماسك» (Divine Attributes and Incoherence)[٣].

وألَّف البروفسور كيري والتيرس[٤] كتابه: «الإلحاد: دليل للمتحيّرين» (Atheism: A Guide for the Perplexed)، وخصّص بابًا بعنوان: «لماذا لا يمكن أن يوجد الإله»

---

(١) انظر:

A Short History of Atheism (47-55), by: Gavin Hyman, (I. B. Tauris, 2010)

(٢) انظر:

“The Possibility of God”, by: Charles Taliaferro, in: “Rationality of Theism” (248)

(٣) انظر: Atheism: A Philosophical Justification (287 - 316)

(٤) كيري والتيرس (Kerry Walters): بروفسور الفلسفة في كلية غيتيسبروغ بالولايات المتّحدة. انظر: https: / /www.bloomsbury.com /author /kerry – walters

(Why God can't Exist)، وقسّم هذا البابَ إلى عناوين فرعية، من ضمنها: عنوان: «الاستحالة الإلهية» (Divine Impossibility)[1].

وأصدرتْ جامعة كامبردج المشهورة كتابًا عام: ٢٠٠٧م بعنوان: «دليل كامبردج للإلحاد» (The Cambridge Companion to Atheism)، وهو مشتملٌ على أبحاث مؤيدة للإلحاد، ورافضةٍ له. ومِن ضمن الأبحاث المؤيّدة للإلحاد بحث بعنوان: «حجج الاستحالة» (Arguments from Impossibility)، والبحث مخصّص لهذه الشبهة[2].

وخلاصةُ شُبهات الملاحدة في هذا الباب تنقسمُ إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: الشبهةُ العامَّة: أنَّ المذهب الألوهي غير متماسك (Incoherent) عقليًا. وذلك أنّهم يزعمون أنه لا يمكنُ أن يوجَد كائن متّصف بالصفات التي يؤمن بها المؤلهة. وذكرَ البروفسور كيري والتيرس أنَّ كثيرًا من الملاحدة يثيرون هذه الشبهات بناءً على ثلاث خطوات:

الخطوةُ الأولى: البحثُ عن اثنتين من الصِّفات الإلهية التي يقال إن الإيمان بهما ضروري.

الخطوةُ الثّانية: بيانُ أنَّه لو اتَّصف الإله بإحدى الصفتين فإنَّه يتناقض مع اتّصافه بالصفة الأخرى.

الخطوةُ الثّالثة: بيانُ أن اتِّصاف الإله بهذه الصِّفات إذن يعدُّ مستحيلًا[3].

ومعَ ذلك، فإنَّ بعضَ الملاحدة يثيرون هذه الشبهة عن صفة معيّنة فقط، بدون مقارنةِ تلك الصفة بصفة أخرى.

---

(١) انظر: Atheism: A Guide for the Perplexed (79 - 81)

(٢) انظر: Impossibility Arguments, by Patrick Grim, in The Cambridge Companion to Atheism (199 - 214)

(٣) انظر: Atheism: A Guide for the Perplexed (79)

القسمُ الثّاني: الشبهاتُ التّفصيلية: يذكر الملاحدةُ أمثلة على الصفات التي يؤمن بها المؤلهة، وينشرونَ عنها شبهاتٍ فلسفية. والأمثلةُ على ذلك كثيرة، ولكن أشهر هذه الشبهات ثلاث:

الشبهةُ الأولى: الإيمانُ بأزليّة الإله مع أنّه خالق كلِّ شيء: وينتج من هذه الشُّبهة سؤال: «إذا كان اللهُ خلق كلَّ شيء، فمَن خلق الله؟». وخصّصت المبحثَ الثاني من هذا الفصل للرَّد على هذه الشبهة.

الشُّبهةُ الثّانية: تناقضُ القدرة المطلقة: وخلاصةُ الشبهة أنّه لا يمكن أن يكون الإلهُ قادرًا على كلِّ شيء؛ لأنَّ الإيمان بذلك يؤدّي إلى تناقضات. ومن ذلك سؤالهم المشْهور: هل يستطيع الإلهُ خلقَ حجر وهو غيرُ قادرٍ على حمله؟». وخصَّصت المبحث الثّالث من هذا الفصل للردِّ على هذه الشبهة.

الشُّبهةُ الثّالثة: مشكلةُ الشَّر: ومَفادُ هذه الشبهة أنَّ الإيمان بإله ذي علم مطلق، وقدرة مطلقة، وكامل الخيرية يتناقضُ معَ وجود الشَّر في هذا العالم. وخصّصت الفصلَ الثّالث للردِّ على هذه الشبهة، وما تتفرَّع عنها من شبهات أخرى.

وحيث إنَّني خصَّصت مباحثَ للشبهات التفصيلية، فسوف أقتصرُ في هذا المبحث على الردِّ على الشبهة العامة المتعلّقة بالصفات الإلهية.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماءِ الغرب على شبهة: الخصائص غير المتوافقة:

ذكرَ البروفسور وليام لاين كرايغ أنّه تخصَّص في موضوع تماسك المذهب الألوهي، والردِّ على شبهات الملاحدة فيه منذُ حوالي أربعين سنة. وخلال تخصُّصه في هذا المجال شهدَ تغيّرًا كبيرًا في الساحة الدينية والفلسفية؛ ففي السبعينيات من القرن الماضي ركّز الملاحدةُ كثيرًا على قضية عدم تماسك المذهب الألوهي، ولكنّ هذه الإستراتيجية انقلبتْ عليهم بعدَ ذلك، حيث ألَّف اللاهوتيون والفلاسفة النصارى مؤلَّفاتٍ وأبحاثًا كثيرة في الردِّ على هذه الشبهات، ورجحت الكفَّة إلى صالح النصارى[1].

---

(١) انظر المقال: The Coherence of Theism على الرابط:

https://www.biola.edu/blogs/good-book-blog/2014/the-coherence-of-theism

ومِن أبرز المؤلَّفات التي غيَّرت الساحة الدينية والفلسفية في هذا المجال كتاب: «تماسك المذهب الألوهي» (The Coherence of Theism) للبروفسور ريتشارد سوينبورن، الذي صدرَ أوَّل مرّة عام ١٩٧٧م، وحيث إنَّ هذا الكتاب عمدة في هذا الباب، سأذكرُ الوجهين الأوّلين في الردِّ على هذه الشبهة من هذا الكتاب، ثمّ أتبعهما بذكر ثلاثةِ أوجه أخرى. وبيانُه كالآتي:

الوجهُ الأوَّل: بيانُ حقيقة الإمكانيَّة المنطقية: الملاحدةُ يزعمون أنَّ المذهب الألوهي متناقضٌ وغيرُ متماسك منطقيًّا. وفي الحقيقة فإنهم لم يضبطوا المرادَ بالتناقض المنطقي. وقد خصَّص البروفسور سوينبورن بابًا كاملًا من كتابه لبيان الفرق بين الإمكان المنطقي والاستحالة المنطقية، مع الردِّ على تخبُّطات الملاحدة في هذا الباب.

بدأ البروفسور سوينبورن هذا البابَ ببيان الفروق بين ثلاثة أنواع من الجمل:

الجُملةُ المستحيلة منطقيًّا (A logically impossible sentence): هي جملة خاطئة بسببِ اعتبارات مُسْبقة بحتة. فالجُملة تتضمَّن تناقضًا بمجرّد النظر فيها. مثلًا: «زيد موجود وغيرُ موجود في آنٍ واحد» تعتبر جُملة مستحيلة منطقيًّا، فلا يمكن أن يكون الشخصُ موجودًا وغيرَ موجود في آنٍ واحد. وبمجرَّد النظر إلى الجملة يستطيع الإنسانُ اكتشافَ هذا التناقض المنطقي.

الجُملةُ الممكنة منطقيًّا (A logically possible sentence): وهي جملة غير مستحيلةٍ وليس فيها أيُّ تناقض. مثلًا: «زيد كبير السنِّ وكريم» جملة ممكنة منطقيًّا. فلا تناقض بينَ كونه كبيرَ السنِّ وبينَ كونه كريمًا.

الجُملة الضرورية منطقيًّا (A logically necessary sentence): وهي الجملة التي لا بدَّ أنْ تكون صحيحة بسبب اعتبارات مُسْبقة بحتة. مثلًا: «جميع العزَّاب غير متزوّجين» جملةٌ ضرورية منطقيًّا. فتعريفُ الأعزب هو أنه غيرُ المتزوّج، فلا يمكن أن تكون هذه الجملة إلّا صحيحة[1].

---

(١) انظر: The Coherence of Theism (11), (24), by: Richard Swinburne, (Oxford University Press, Second Edition, 2016)، مع ملاحظة أن التعريفات من البروفسور سوينبورن، وأمّا الأمثلة الموضّحة فمن الباحث.

ثمَّ ذكرَ البروفسور سوينبورن أنَّ الفلسفة المعاصرة أدخلت نوعين من الأخطاء في هذه المسألة:

الخطأ الأوَّل: أنَّ الفيلسوف ديفيد هيوم تبنى المذهب التجريبي، وزعم أنّ جميع أفكارنا العامة مبنية على أفكار بسيطة، وهذه الأفكار البسيطة مشتقة من الانطباعات الحسية. ومن الأمثلة على ذلك أنك لو قلت: «يوجد جبل من ذهب». فلديك فكرة بسيطة مبنية على انطباعات حسية عن ماهية الجبل، ولديك فكرة بسيطة أخرى مبنية على انطباعات حسيَّة عن ماهيةِ الذهب. فتتكوَّن عندك فكرة عامَّة عن وجود الجبل من الذَّهب. وزعم هيوم أنَّ الجملةَ تكون ممكنة منطقيًّا إذا كانت مشتملة على هذه الأفكار البسيطة المبنيَّة على الانطباعات الحسية. وإذا لم تكنْ مبنيَّة على ذلك فإنَّ الجملة تكون غيرَ ممكنة منطقيًّا[1].

وقد ردَّ البروفسور سوينبورن على هذا المذهب بأنَّ الانطباعات الحسية عند ديفيد هيوم كانت مُقتصرة على ما أدركَه الإنسان الأوروبي في القرن الثامن عشر. ومن لوازم مذهبِه أنَّ كلَّ شيء لم يدركه الإنسانُ الأوروبي في ذلك القرن لا يعدُّ من الممكنات المنطقية. ولا شكَّ أنَّ هذا الادّعاء غير صحيح[2].

ومِن الأمثلة على ذلك أنَّ جميع الاختراعات الموجودة في القرن العشرين والواحد والعشرين مثل: السيارات، والطائرات، والصواريخ، والإنترنت، إلخ؛ ليست من الممكنات المنطقية عندَ هيوم. ولكنَّ الحقيقة أنَّ جميعَ هذه الأمور ممكنة، بل واقعية. فهذا الادِّعاء في غاية البطلان.

الخطأ الثاني: «مبدأ التحقّق» (Verification principle). انتشر هذا المبدأ في وسط القرنِ العشرين الميلادي، ومَفاده: أنَّ الجملة تكون ذات مغزى واقعية أو ممكنة منطقيًّا إذا أمكنَ التحقّق منها.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣٧ – ٣٨).

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٩).

وردَّ البروفسور سوينبورن أنَّ هذا المبدأ غيرُ صحيح؛ لأنّه توجد جُمل لا تعدُّ ولا تحصى تكون ممكنة منطقيًّا، مع أنه لا يمكن التحقُّق منها. ومن الأمثلة على ذلك: جملة «جميعُ الغربان سوداء». فهذه الجملة ممكنة منطقيًّا، ولكن لا يمكن التحقّق منها لأنّه مهْما شاهدت من الغربان السود، فإنَّ وجودَ غراب غير أسود ممكن منطقيًّا[1]. وسيأتي الردُّ التفصيلي لهذا المبدأ في مبحث: عدم إدراك المراد بالإله في هذا الفصل إن شاء الله.

وخلاصةُ هذا الوجه أنَّ الملاحدة تلاعبوا بألفاظ مثل: الممكن أو المستحيل منطقيًّا. وهذا ظاهرٌ في حديثهم عن شبهة: الخصائص غير المتوافقة. ومن الأمثلة على ذلك شبهة: مشكلة الشَّر بصياغتها المنطقية؛ حيث ادَّعوا أنه يوجد تناقضٌ منطقي بين العبارتين:

العبارة الأولى: الإلهُ عليم، وقدير ورحيم.

العبارة الثانية: يوجد شرٌّ في العالم.

والحقيقة أنه لا يوجَد أدنى تناقض بين الجملتين. فقد يكون الخالقُ يخلق العالم الذي فيه شرورٌ لحِكم كثيرة. وسيأتي الردُّ بالتفصيل على هذه الشبهة في مبحث: مشكلة الشَّر في الفصل القادم - إن شاء الله -. ولكنَّ المقصود أنَّ الملاحدة قد يدّعون أنّه يستحيلُ أن يتَّصف الله بصفات، ولكنّهم تلاعبوا في المصطلحات.

الوجهُ الثّاني: بيانُ حقيقة الإمكانية الميتافيزيقية: ذكر البروفسور سوينبورن أنَّ الجملة قد تكون ممكنةً منطقيًّا حيث لا يوجد فيها أي تناقض، ولكنّها صحيحة ضرورة أو باطلة ضرورة من النّاحية الميتافيزيقية. وبينما يمكن اكتشافُ الاستحالة المنطقية أو الضَّرورة المنطقية من الجملة نفسها، فإنَّ الحكم بأنَّ هذه الجمل صحيحة ضرورة أو باطلة ضرورة من الناحية الميتافيزيقية ترجعُ إلى عوامل خارجة عن الجملة. وهذه العوامل يمكن التوصُّلُ إليها عن طريق اكتشاف العالم بأدوات علمية أو تاريخية[2].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٧).

وضربَ مثالًا على ذلك بأنّ الماء مكوّن من التركيبة الكيميائية H٢٠، وهذه ضرورة ميتافيزيقية، ولو خرج السائلُ عن هذه التركيبة الكيميائية فإنه لا يسمّى ماءً. ولكن البَشر قبلَ القرن التاسع عشر لم يستطيعوا التحقّق من هذه التركيبة الكيميائية. فشرطُ الحكم على الإمكانية أو الاستحالة الميتافيزيقية هو أن يكون لدى الإنسان أدوات للتحقُّق منها[١].

وخلاصةُ هذين الوجهين أنَّ الملحد الذي يدَّعي أنّ الإيمان بالصفات الإلهية مستحيلٌ بين أمرين:

إمَّا أنه يدَّعي أنَّ الإيمان بهذه الصفة أو هذه الصفات مستحيل منطقيًّا، فعليه أن يبيِّن التناقض المنطقي في هذا الإيمان.

وإمّا أنّه يدَّعي أنَّ الإيمان بهذه الصفة أو هذه الصفات مستحيل ميتافيزيقيًّا، فعليه أن يبيِّن أدوات التحقّق من ذلك. ولكن لا يمكن التحقّق عن ذلك بالأدوات العلمية المعروفة في اكتشاف العالم المادي. وهذا يقودُ إلى الوجه الثالث.

الوجهُ الثّالث: ذكرَ البروفسور تشارلز تليافيرو[٢] أنَّ التصوّرات المسبقة مؤثِّرة إلى حدٍّ كبير في الجدل عنْ تماسك المذهب الألوهي. وإن كان لا يشترط أن يكون الإنسانُ يتبنَّى المذهبَ الألوهي لكي يفهم أنّه متماسك، إلا أنَّ الذي يتبنّى المذهبَ المادي ويعتقدُ أنَّه لا توجَد حقيقة سوى الكون الفيزيائي؛ فإنَّ هذا المذهب سيؤثّر في موقفه مِن قضية الصفات الإلهية[٣].

وهذا الوجهُ صحيح، ويلمس أصلَ مشكلة الملاحدة في تعاملهم مع الصفات الإلهية. وهو أنَّهم يتكلَّمون عن هذه الصفات كأنهم يتكلّمون عن صفات أحد

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٩).

(٢) تشارلز تليافيرو (Charles Taliaferro): بروفسور الفلسفة في كلية ساينت أولاف بالولايات المتّحدة. انظر: The Rationality of God (xi)

(٣) انظر:
“The Possibility of God”, by: Charles Taliaferro, in: “Rationality of Theism” (252)

المخلوقين. وبناءً على هذا المبدأ يقولون: إنَّ اتِّصاف الخالق بهذه الصفة المعيّنة أو هذه الصِّفات في آنٍ واحد مستحيل. فأدواتُ التحقّق من إمكانية اتّصاف الخالق بالصفات أو استحالته؛ هي أدواتٌ مادية بحتة. وهذا المبدأ باطل بسبب أمرين رئيسين:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ الله تعالى ليس مثلَ البشر؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، «أي: ليس يشبهُه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأنَّ أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجَد بها المخلوقات العظيمة مِن غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحُّده بالكمال من كلِّ وجه»[١].

الأمرُ الثّاني: أنَّ الصفات الإلهية توقيفية، والعلم بحقيقة الصفات يرجع إلى الكتاب والسُّنة، ولا يرجع إلى تخيُّلات الملاحدة فيما يمكن أو يستحيل أن يتّصف الله به؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «صفات الله - عزَّ وجلَّ - توقيفية؛ فلا يُثبت إلا ما أثبتَه اللهُ لنفسه، أو أثبته له رسولُهﷺ ولا يُنفَى عن الله - عزَّ وجلَّ - إلّا ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ»[٢].

فكلُّ إنسان يستعمل عقلَه بالطريقة الصحيحة فسوف يرى أنَّ الصفات الإلهية الثابتة في الكتاب والسنة، لا تتعارضُ مع صريح العقل. ولكن الإشكال يظهر من إحدى جهتين:

الجهةُ الأولى: أنْ تكون الصفةُ نفسها غيرَ ثابتة لله. وقد تقدّم أنّ الكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى نسبَ إلى الله صفاتِ عيبٍ ونقص، وإثباتُ هذه الصفات يتنافى مع العقل قطعًا.

الجهةُ الثّانية: أنْ تكون الصفةُ ثابتة لله، ولكنَّ الملحد يدَّعي أنَّ إثباتها يتعارض مع العقل. فالمشكلةُ في عقل الملحد وفي منهجيَّته في التعامل مع الصفات الإلهية، وليست في كوْن الخالق متَّصفًا بهذه الصفة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٥ / ٢٦).

الوجهُ الرّابع: الخالقُ متَّصف بالكمال المطلق: ذكر البروفسور تشارلز تليافيرو هذا الوجهَ أيضًا في ردِّه على شبهة: الخصائص غير المتوافقة. ومقصدُه أنَّ الألوهي يعتقد أنَّ الخالق يتَّصف بالكمال المطلق في صفاته. وأمّا المعترض فيقيس الصفات الإلهية بصفاتِ البشر المتَّصف بالنقص. وضربَ مثالًا على ذلك بصفة العلم المحيط. فالألوهي يعتقد أنَّ علمَ الله كامل، ولا يمكن قياسُه بعلم المخلوق. بينما المعترض يذكر أنواعًا من العلوم لدى الإنسان، ثمَّ يقول: إن اتِّصاف الخالق بهذا النوع من العلم سوف يؤدّي إلى التَّناقض. ولا شكَّ أنَّ أساس هذا الاعتراض خطأ[١].

فالملحدُ يحاول إلزامَ الألوهي بما لا يلزمه أصلًا. فلو كان الخالق متّصفًا بصفات المخلوقين - وتعالى اللهُ عن ذلك - لأمكنَ الملحد أن يُلزمه بلوازم كلامه، ولكنّ الألوهي يقول: إنَّ المخلوق متَّصف بالنقص بينما الخالق متّصف بالكمال. فالملحد يرتكب مغالطةَ رجلِ القش في إلزاماته في باب الصفات.

والحقُّ في هذه المسألة أنه لا يجوز استخدامُ قياس التمثيل ولا قياس الشمول في حقِّ الله، وإنما يستخدَم قياس الأولى؛ قال شيخ الإسلام (رحمه الله): «والله سبحانه لا تضربُ له الأمثال التي فيها مماثلةٌ لخلقه، فإنَّ الله لا مثيل له، بل له المثل الأعلى، فلا يجوزُ أن يُشرَكَ هو والمخلوقاتُ في قياسِ تمثيل، ولا في قياسِ شمول تستوي أفراده؛ ولكن يستعمل في حقِّه المثلُ الأعلى، وهو أنَّ كلَّ ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أوْلى به، وكلّ ما ينزّه عنه المخلوق من نقص فالخالقُ أولى بالتنزيه عنه، فإذا كان المخلوق منزَّهًا عن مماثلة المخلوق معَ الموافقة في الاسم؛ فالخالقُ أولى أن ينزه عن مماثلة المخلوق»[٢].

---

(١) انظر:

“The Possibility of God”, by: Charles Taliaferro, in: “Rationality of Theism” (248-249)

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠).

فاللهُ متَّصف بصفات الكمال، ويمكن أن يستخدم في حقِّه قياس الأولى بناءً على المفاهيم المنضبطة الصحيحة. وأمّا الملحد، فإنَّه يخوض في هذا الباب بالأقيسة من قبيل قياسِ الشمول وقياس التمثيل فظنُّوا أنَّ اتِّصاف الخالق ببعض الصفات فيه تناقض.

الوجهُ الخامس: قلبُ المسألة على الملاحدة: الملاحدةُ يزعمون أنّ المذهب الألوهي غيرُ متماسك، واتِّصاف الخالق ببعض الصفات متناقض. وقد تبيّن أنّ هذا القولَ باطل، ولكنَّ بعضَ علماء الغرب قلبوا المسألةَ على الملاحدة، وبيّنوا أنّ المذهب المادي الإلحادي نفسه متناقض[١].

ومِن ذلك أنَّ مارك شيا[٢] كتب مقالاً بعنوان: «عدم تماسك الإلحاد» (The In-coherence of Atheism)، وذكر عددًا من الأمثلة على تناقضات الملاحدة، مثل:

المثالُ الأوَّل: إصرارُهم على أنَّ الدين ظاهرة طبيعية محضة ونتيجة لأخطاء في الجينيات، معَ بُغضهم الكبير للدين. فلماذا هذا البُغض لظاهرة طبيعية محضة؟[٣]

المثالُ الثّاني: أنهم يزعمون أنَّ أفكارنا ليست حرّة، وإنما هي نتائج تحرّكات جزيئاتٍ في الدماغ، ثمَّ يقولون إنَّ التفكير الديني أكبرُ شرٍّ في الوجود. فإذا كان الإنسان مجبَرًا على أفكاره، ولا يستطيع تغييرها؛ فلماذا اتّهامهم بهذه التهم؟[٤]

---

(١) خصّصت مبحثًا في الباب الأوّل بعنوان: تناقضات الملاحدة، وفيه بيان لكثير من تناقضاتهم. وذكرت هذا الوجه هنا بدون استطراد، ويمكن مراجعة المبحث المذكور لمزيد من الفائدة.

(٢) مارك شيا (Mark Shea): الكاتب الكاثوليكي الأمريكي وقد ألّف عددًا من الكتب والمقالات، وهو مهتم بنقد الإلحاد. انظر:
https://catholicexchange.com/author/mark-shea

(٣) وفي الفصل القادم مبحث خاص عن شبهات الملاحدة من علم النفس، وفيه بيان لهذه المسألة بتفصيل.

(٤) خصّصت مبحثًا في الفصل الثالث من هذا الباب لشبهة: سلب الإرادة. وفيه تفصيل لهذه المسألة.

المثالُ الثّالث: أنَّهم ينكرون وجودَ الإله ويكرهونه في الوقت نفسه[1].

وكتبَ جوردان كوبر[2] مقالاً أيضًا بعنوان: «عدم تماسك الإلحاد» (The In-coherence of Atheism)، وقال فيه: «الشيء الوحيد الذي طالما وجدته غريبًا بشكل خاص هو إصرارُ ما يسمَّى بـ «الملحدين الجدد» على أنهم بحاجة إلى تحويل أي شخص آخر إلى أيديولوجيتهم... هذا يقودني إلى سؤالٍ معين: «لماذا يهتمُّ الملحدون بالحقيقة؟» يبدو أن الافتراضَ بالنسبة للملحدين هو أنَّ الحقيقة أفضل بالضرورة من الباطل. ومع ذلك، في نظامٍ غير مؤمن، لا توجَد قيمة متأصلة في أي شيء، وإنما توجد قيم منسوبة. وعليه، فلا توجَد قيمة متأصِّلة في الحقيقة. فلماذا هو مُهمّ؟ لماذا يهمُّ إذا كان ريتشارد دوكينز محقًّا في آرائه عن الكون؟ لماذا يكون هذا بالضرورة أفضلَ من الاعتقاد بأن الأرض مسطَّحة، وتستلقي على ظهرِ سلحفاة عملاقة، وأنه عندما نموتُ نصبح جميعًا السلاحفَ معَ عوالمنا الخاصة على ظهورنا؟ في النظرة الإلحادية المتسقة للعالم، فهي ليستْ - ولا يمكن أن تكون - أفضل»[3].

وهذا التلازمُ بين الإلحاد والعدمية الذي ذكره صحيح. فقد سئلت البروفسورة الملحِدة المشهورة سوزان بلاكمور[4]: «ما هو أهمُّ شيء تعلمتِه في الحياة؟» فأجابت: «أنَّه في النهاية لا شيء مُهم، وكلّ شيء زائل... إذا كنت تفكِّر حقًّا في

---

(١) انظر المقال: The Incoherence of Atheism, Part ١، على الرابط:
https://catholicexchange.com/the-incoherence-of-atheism-part-1

(٢) جوردان كوبر (Jordan Cooper): قسيس أمريكي لوثري، قد ألّف بعض الكتب، وهو مهتمّ بنقد الإلحاد. انظر:
https://www.patheos.com/blogs/justandsinner/author/jcooper/

(٣) المقال: The Incoherence of Atheism, على الرابط:
https://www.patheos.com/blogs/justandsinner/the-incoherence-of-atheism/

(٤) سوزان بلاكمور (Susan Blackmore): بروفسورة علم النفس الموازي في جامعة بليموث ببريطانيا، ومستشارة في عدد كبير من الدوريات والمجلات والجمعيات. انظر:
https://www.susanblackmore.uk/cv/

التطور، ولماذا نحنُ بشر هنا؛ فعليك أن تصلَ إلى استنتاجٍ مَفاده أننا هنا بدون أيِّ سبب على الإطلاق»[1].

وإذا كان هذا مِن لوازم الإلحاد عمومًا، فمِن الغريب أيضًا أن بعض الملاحدة يفنون أعمارَهم في دراسة الصفاتِ الإلهية، ويحاولون إثارةَ الشبهات عنها، مع أنهم ينكرون الخالقَ أصلًا.

الفقرةُ الرّابعة:
تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة: الخصائص غير المتوافقة:

قد ردَّ علماءُ الغرب على شبهة: الخصائص غير المتوافقة ببعض الردود الجيّدة، والإلزاماتِ العقلية القوية. وتبيَّن خلالَ هذه الردود أنَّ الأصول الذي بنى عليه الملاحدةُ هذه الشبهةَ متهافتة. وسيأتي ردودٌ تفصيلية على شبهاتهم المتعلّقة بصفات معيّنة.

ولكنْ كما أنَّ ردودَ علماء الغرب في هذا الباب جيِّدة، فإنَّ موقفهم في الوقت نفسِه ضعيف. وذلك لعدَّة أسباب، ولكنْ أهمُّها سببان:

السببُ الأوَّل: اليهود والنصارى انحرفوا في باب الصفات انحرافًا كبيرًا. فبينما دلَّ كتابُهم المقدَّس على وصف الخالق بالعيبِ والنقص، وصفاتٍ تشبه المخلوقين، فإنَّ أحبارَ اليهود المتأخّرين واللاهوتيين النصارى من غلاة المعطلة، حيث إنهم اعتمدوا على اللاهوت السلبي بناءً على تأثّرهم بالفلسفة.

ولكن، لا يمكن الاعتمادُ في هذا الباب على كتابهم المقدَّس المحرَّف، ولا على فلسفةِ التعطيل اليونانية؛ بل الاعتمادُ في هذا الباب يكون على الوحي المنزّل من الله في الكتابِ والسنة. «فإنَّ الرسل جاءوا بالإثبات المفصل في صفات الله

---

(١) المقال: The world according to .... Dr Susan Blackmore وهو منشور على الرابط: https://www.susanblackmore.uk/journalism/the-world-according-to-dr-susan-blackmore/

وبالنفي المجمل»[١]. «وينبغي أن يُعلَم أنَّ النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمال إلاّ إذا تضمَّن إثباتًا، وإلا فمجرَّد النَّفي ليس فيه مدحٌ ولا كمال؛ لأنَّ النفي المحض عدمُ محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء هو كما قيلَ ليس بشيء، فضلًا عن أن يكون مدحًا أو كمالًا. ولأنَّ النفي المحض يوصَف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال»[٢].

وأهلُ السنة يؤمنون «بما وصف اللهُ به نفسه، وبما وصفه به رسوله (ﷺ) من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ولا تكييفٍ ولا تمثيل»[٣]. والواقع أنَّ اليهود والنصارى وقعوا في هذه المحاذيرِ الأربعة. فهُم يعتمدون على كتابٍ قد حرَّف الوحي المنزّل، وحرَّف كلام الأنبياء السّابقين. وهذا الكتاب يدلُّ على تمثيل الخالق بالمخلوق. ففرَّ متأخروهم من ذلك إلى القولِ بالتعطيل، وعندَ كلامهم الفلسفي المتعنِّت في باب الصفات وقعوا في تكييف الصفات.

السببُ الثّاني: أنَّ التثليث أصلُ الأصول في باب الإيمان بالله عند النصارى. وهذه العقيدةُ في غاية التناقض. ففي قانونِ الإيمان المعروف بالعقيدة النيقية يقولون: «نؤمن بإلهٍ واحد... ضابط الكلِّ، وخالق السماء والأرض، وكلّ ما يُرَى وما لا يرى... وبرب واحدٍ يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبلَ كلِّ الدهور، **إله من إله... ونؤمن بروح القُدس، الرَّب المحيي**، المنبثق من الأب، ومع الأب والابن، يُعبد ويمجَّد»[٤].

فقانونُ الإيمان ينصُّ في البداية على وجود إلهٍ واحد، ثمَّ ينصُّ على وجود «إله من إله»، إذًا، عندهم إلهان، ثمّ أضافوا ربًّا ثالثًا. فكيف يقولون: إنَّ الإله واحد؟ هذا هو التناقضُ بعينه. ومهما حاولَ البروفسور سوينبورن أن يؤصِّل في باب الصفات في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢ / ٤٣٢).

(٢) المصدر السابق (٣ / ٣٥).

(٣) المصدر السابق (٣ / ١٦٢).

(4) Creeds of Christendom (1/27-28), by: Philip Schaff, (Harper & Brothers, 1877)

مسألة: الإمكانية المنطقية والإمكانية الميتافيزيقية؛ فإنَّ النصارى واقعون في التناقض المنطقي والميتافيزيقي معًا. وحيث إنَّ التثليث من أهمِّ معتقدات النصارى، وهو ذو علاقةٍ بالإيمان بالصفات الإلهية، فقد فتحوا البابَ أمام الملاحدة لتقرير شبهة: الخصائص غير المتوافقة. ولكنَّ هذه الشبهة لا يمكن توجهيها إلى العقيدة الإسلامية الصافية.

المبحثُ الثّاني

ردودُهم على شُبهة: مَن خلق الله؟

تقدَّم في المبحث الأوَّل الحديثُ عن شبهة: الخصائص غير المتوافقة، وأنَّ الملاحدةَ يثيرون شبهاتٍ عن الصفات الإلهية. ومِن ضمن هذه الشبهات ما تتعلَّق بأزلية الخالق، وتُصاغ كالسؤال الآتي: «إذا كان اللهُ خلقَ كلَّ شيء، فمَن خلق الله؟»

وهذه الشبهةُ مِن أقدم الشبهات وجودًا، ومِن أكثرها ورودًا، وتتَّخذ هذه الشبهة صورًا مختلفة، وتجدَّد بطرق متنوّعة، وإن كان أصلُها واحدًا في نهاية الأمر. وقد ردّ علماءُ الغرب على هذه الشُّبهة بردود قويَّة من جوانب عديدة، وإن كانت بعض هذه الردود اختلطتْ معَ مفاهيمهم الفلسفية واللاهوتية الباطلة، ولهذا يتحتَّم تصحيح هذه الردود وتقييمُها وفقَ الكتاب والسنة. ولذلك سيتمُّ تقسيم هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ هذه الشبهة.

الفقرةُ الثّانية: حقيقةُ هذه الشبهة.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على هذه الشبهة.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ هذه الشبهة:

قد أخبرَ النبي ﷺ عن هذه الشبهة إذْ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ مَن خلق كذا؟ حتى يقول: مَن خلق ربَّك؟...»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٠٢)، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣/ ١١٩٤).
وأخرجه مسلم في صحيحه (٢١٤)، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (١/ ١٢٠)، من حديث أبي هريرة t.

فهذا يدلُّ على أنَّ هذه الشبهة كانت موجودة في زمنه، وحيث إنّها من وساوس الشيطان. ولم أقفْ على أنَّ الفلاسفة القدامى نصُّوا على هذه الشبهة، كما نصَّ بعضُهم على مشكلة الشَّر، وإنما وقفتُ على وجودها في الخطاب الفلسفي المعادي للدين في عصر التنوير. ففي آخر كُتب ديفيد هيوم: «محاورات في الدين الطبيعي» (Dialogues Concerning Natural Religion) عرض هذه الشبهة ضمنًا في الحوار بين شخصياتٍ رمزية يتحدَّثون عن أدلة وجود الله. فأحدُ هؤلاء الفلاسفة الرمزيين هو فيلو (Philo)، ويظهرُ في صورة فيلسوف متشكِّك يُشكّك في هذه الأدلة. وفي الفصل الرابع مِن الحوار قال فيلو: «... وعلى ذلك فكيف نقنع أنفسَنا بصدد علّة ذلك الموجود الذي نظنُّه صانعَ الطبيعة، أو بمقتضى مذهبك في المشبهة العالم المثالي الذي نحكي عليه العالم المادي؟ أليس لنا أن نقيسَ ذلك العالم المثالي على عالم مثالي آخر أو مبدأ عقلٍ جديد؟ ولكن إذا توقَّفنا ولم نعدْ فلِمَ نذهب بعيدًا؟ لم لا نقف عند العالم المادي؟ كيفَ يسعنا أن نقنعَ أنفسنا دون أن نذهبَ قُدُمًا إلى ما لا نهاية؟ وبعد كلّ هذا أيّ اقتناع هنالك في ذلك التقدُّم اللانهائي؟»[1].

وقد رجَّح بعضُ الباحثين في فلسفة هيوم أنَّ شخصية فيلو رمز عن ديفيد هيوم نفسه[2]. فعرضَ هيوم هذه الشبهة ضمنًا بطريقةٍ فلسفية معقَّدة في هذا الكتاب، ولم يصرِّح بأنّه صاحب الشبهة.

---

(١) محاورات في الدين الطبيعي (٦١)، لديفيد هيوم، (مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولى، ١٩٥٦م، ترجمة: الدكتور محمد فتحي الشنيطي).

(٢) انظر المقال: Which Character is Hume in the “Dialogues Concerning Natural Religion, by Will Crouch, وهو موجود على الرابط:
https://web.archive.org/web/20071205192218/http://www.onphilosophy.co.uk/natural_religion.html

وممَّن ذكر هذه الشبهة أيضًا: الفيلسوف جون ستيوارت ميل[1] في سيرته الذاتية، وأنَّه تعلَّم ذلك من والده. وقد نقلَ ذلك عنه الفيلسوف الملحد برتراند راسل، وأنّه نفسُه تأثَّر بهذه الشبهة؛ فقال: «كنت أعتقدُ صحَّة حجة المسبّب الأوّل، إلى أن قرأت في عُمر الثامنة عشرة سيرةَ جون استوارت ميل حيث وردتِ الجملة التالية: علّمني والدي أنه توجَد إجابة عن سؤال: مَن خلقني؟ لأنَّ السؤال التالي سيكون: من خلق الرَّب؟! هذه الجملةُ القصيرة هي التي أوضحت لي مغالطة هذه الحجّة، إذا كان لكلِّ شيء سببٌ يجب أن يكون للرَّب سببٌ أيضًا. وإن أمكن وجود شيء بدون سبب، فيُمكن أن يكون العالم كما أنه يمكن أنْ يكون الله، وبالتالي فلا يمكن أن تكون هناك أيُّ قيمة لهذه الحجة»[2]. فبهذه الطريقة السطحيةِ طرحَ هذا الفيلسوف العملاق - كما يراه الملاحدة - هذه الشبهة، وأخبر أنَّه يرى أن حجَّة الخلق والإيجاد ليست لها قيمة بسببها.

وقدْ أورد عالمُ الكون الملحد كارل ساغان هذه الشبهةَ أيضًا عند حديثه عن نظرية الانفجار العظيم؛ فقال: «إن كانتِ الصورةُ العامة عن الانفجار العظيم المتبوع بكون متوسِّع صحيحة، فماذا حصلَ قبل ذلك؟ هل كان الكون فارغًا عن جميع المادة، ثمَّ ظهرتِ المادةُ فجأة؛ كيف حصلَ ذلك؟ في كثير من الثقافات، فإنَّ الجواب المعتاد: أن إلهًا أو آلهة خلقوا الكونَ من العدم. ولكن، إن كنَّا نريد الاستمرارَ في هذا السؤال بشجاعة، فلا بدَّ أن نسأل السؤالَ التالي: مِن أين جاء الله؟»[3].

ولكن، أشهرُ مَن كتبَ عن هذه الشبهة في هذا الزمان هو ريتشارد دوكينز في كتابِه: وهم الإله، بل جعلَ هذه الشبهة ضمن حجّته الرئيسة في كتابه. وقد خصّص الفصلَ الرابع لهذه الحجَّة الرئيسة. ولخَّص كلامه في آخر الفصل بقوله: «**هذا الفصل يحتوي على المبادئ الأساسية في الكتاب**، وبهذا وعذرًا للتكرار، سألخِّصها في ستِّ نقاط:

---

(١) جون ستوارت ميل (John Stuart Mill): فيلسوف واقتصادي بريطاني، وأحد روّاد الليبرالية الكلاسيكية. وكانت فلسفته مؤثّرة إلى حدّ كبير في الفكر الغربي. توفي عام: ١٨٧٣ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/John-Stuart-Mill

(٢) المقال: Why I Am Not a Christian, وهو موجود على الرابط:
https://users.drew.edu/jlenz/whynot.html

(3) Cosmos (212), by: Carl Sagan, Random House (1980)

١. أعظمُ التَّحديات لذكاء الإنسان، وعبر القرون، كان شرح التعقيد الكبير واللااحتمالية العظيمة التي تظهر في الكون.

٢. الإغراءُ الطبيعي هو أنْ نعزو كلَّ ما يبدو مصمّمًا إلى أن يكون مصمّمًا بالفعل. وفي حالة المصنوعات الإنسانية الدقيقة كالساعة مثلًا، فإنَّ المصمّم كان بدون شكٍّ مهندسًا ذكيًّا. ومِن المغري تطبيق نفس المنطق على العين والجناح والعنكبوت والإنسان.

٣. فرضيةُ المصمّم تثير فورًا السؤالَ الأكبر عن مصدر المصمم نفسه. كلّ المسألة بدأت مِن محاولة شرحٍ لااحتمالية منطقية. وهذا بوضوح ليس حلًّا لأنَّه يطرح شيئًا لااحتماليته أكبر. ونحنُ هنا بحاجةٍ لـ«رافعة» وليس لـ«خطاف سماوي»، لأن الرافعةَ لوحدها تستطيعُ العملَ بتدرُّج معقول التصديق من بداية بسيطة لنهاية معقّدة عظيمة اللااحتمالية.

٤. الرافعةُ الأبدع والأقوى حتى الآن هي التطوُّر الدارويني بالانتخاب الطبيعي. داروين ومَن خلفَه شرحوا لنا كيف أنَّ الأحياء بالرغم من لااحتماليتهم الكبيرة والانطباع الذي يُعطونَه عن التصميم إلّا أنهم تطوّروا ببطء وبشكلٍ تدريجي من بدايات بسيطة. وبإمكاننا القولُ بدون مخاطرة بأنَّ التصميم في الكائنات الحيّة هو مجرّد وهْم.

٥. حتَّى الآن ليس لدينا رافعةٌ مماثلة للفيزياء. وشيء ما كنظريةِ الأكوان المتعدّدة يمكنها مِن حيث المبدأ أن تعملَ ما عملته الداروينية في علم الأحياء. شرحٌ من هذا النوع بشكلٍ سطحي أقلُّ إرضاءً مِن قرينه الدارويني الطبيعي، لأنه يتطلّب كميةً أكبر من الحظّ. ولكنَّ المبدأ الأنثروبي يؤهّلنا لحظٍّ أكبر بكثير مما يمكن لحدسنا الإنساني أن يتقبَّله بارتياح.

٦. لا يجبُ أن نفقدَ الأمل في إيجاد رافعةٍ أفضل في الفيزياء، شيء ما بقوّة الداروينية الطبيعية. ولكن حتَّى في غياب الرافعة فإنَّ وجودَ الروافع الضعيفة الحالية، بدعمها مِن النظرية الأنثروبية، فإنَّها بوضوحٍ أفضلُ

بكثير من التفسير السماوي الذي يناقض نفسَه حول موضوع التصميم الذكي»[1].

ثمَّ ختمَ ذلك كلَّه بقوله: «ولو تقبَّل الفردُ الحجج المطروحة في هذا الفصل، فإنّ المسلَّمة الواقعية للدين وفرضيةَ الإله لن تصمد. والاحتمالُ الأكبر هو أنَّ الله غير موجود»[2].

فخلاصةُ الأمر أنَّ الاعتراض بسؤال: مَن صمَّم المصمِّم؟ موجود ضمن الحجّة الرئيسة في كتاب ريتشارد دوكينز: وهْم الإله. وهو أشهرُ كتابٍ إلحادي معاصر على الإطلاق. وقد ضمَّن هذه الشبهة معَ شبهة: تفسير نظرية التطوّر لوجود الإتقان في عالم الأحياء، وتفسيرُ نظرية الأكوان المتعدّدة والمبدأ الأنثروبي لوجود الإتقان والإحكام في عالم الفيزياء. فالتَّفسير اللاهوتي لوجود الإتقان والإحكام ضعيف عنده، لأنّه يؤدّي إلى هذا الاعتراض الذي نحن بصددِ الإجابة عنه في هذا المبحث.

الفقرةُ الثّانية: حقيقةُ هذه الشبهة:

يمكن تقسيمُ هذه الشبهة إلى ثلاثة أنواع:

النوعُ الأوَّل: وسواسُ الشيطان: وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ في الحديث المذكور سابقًا. وهذا النوعُ ليس اعتراضًا فلسفيًّا على حجّةٍ من حجج وجود الله، وإنّما هي وسواسٌ من الشيطان، ويندفع هذا الوسواس بما بيَّنَته السنة، وسيأتي ذكره لاحقًا.

النوعُ الثّاني: اعتراضٌ على حجَّة الخلق والإيجاد: فحجَّةُ الخلق والإيجاد مبنية على مقدِّمتين ونتيجة:

المقدِّمةُ الأولى: كلُّ ما له بداية فلا بدَّ له من سبب.

المقدِّمةُ الثانية: الكونُ له بداية.

النتيجة: اللهُ هو مَن أحدث الكون من العدم.

---

(١) وهم الإله (٢٦٧ - ٢٦٨).

(٢) المصدر السابق (٢٦٩).

فيأتي الاعتراضُ على هذه الحجَّة بقولهم: إذا كان كلُّ موجود بحاجة إلى سبب وخالق، فمَن خلق الله؟ أو ما هي علّةُ وجوده؟ وهذا هو ما ذكره برتراند راسل وكارل ساغان.

النوعُ الثّالث: اعتراضٌ على حجَّة الإتقان والإحكام: فهذه الحجَّةُ أيضًا مبنية على مقدِّمتين ونتيجة أيضًا:

المقدِّمة الأولى: نشاهد الإتقانَ والإحكام والتعقيد في الكون والطبيعة.

المقدِّمة الثانية: الإتقانُ والإحكام والتعقيد يستدعي وجودَ فاعلٍ عليم حكيم.

النتيجة: اللهُ العليم الحكيم هو مَن أوجد العالم على هذا النحو المحكم المتقَن المعقَّد.

فيأتي الاعتراضُ على هذه الحجَّة: إذا كان كلُّ شيء معقَّد بحاجة إلى مصمّم، فلا شكَّ أنَّ الإله أشدُّ تعقيدًا من مخلوقاته، فهذا يستدعي أن يكون الخالق بحاجة إلى مصمِّم أيضًا. وهذا هو ما ذكره ريتشارد دوكينز.

والاعتراضُ في النوعين الأخيرين يئوَّل إلى شيء واحدٍ في نهاية الأمر، وهو استخدام مبدأ السببيةِ في الخالق أيضًا، والادِّعاء أنَّ الخالق بحاجةٍ إلى سبب وعلَّة في وجوده كما أنَّ المخلوقات بحاجة إلى سبب وعلة في وجودها.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة:

حيث إنَّ هذه الشبهة حاضرةٌ في الخطاب الإلحادي المعاصر، وذكرها كبارُ الملاحدة في كتبِهم، بل جعلها كبيرُ الملاحدة ريتشارد دوكينز ضمنَ حجَّته الرئيسة في كتابه، فقد اهتمَّ علماءُ الغرب كثيرًا بنقدها، وذكروا عدَّة ردودٍ جيِّدة عليها. وستقسَّم هذه الردودُ إلى تسعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: سؤال: مَن خلق الله؟ سؤال خاطئ مبنيٌّ على سوء فهم لإيمان المؤلّهة بوجودِ الله. فالمؤلّهة من المسلمين واليهود والنصارى قاطبة يؤمنون بإله أزلي غير مخلوق، فكيف يوجَّه إليهم السؤال: مَن خلق الله؟ بل، هذا دليل على أنّ الملحد يتخيّل إلهًا مخلوقًا في ذهنه أوّلًا، ثمَّ يسأل السؤال ثانيًا. وقد شرح البروفسور

جون لينوكس هذه النقطة بقوله: «... فما بالُك بسؤال: مَن خلق الله؟ إن مجرَّد طرح السؤال يبيّن أنَّ السائل يتصوّر إلهًا مخلوقًا. ومن ثمّ، ليس غريبًا أنَّ مَن يطرح السؤال يؤلّف كتابًا بعنوان: «وهْم الإله». لأنَّ هذه هي تحديدًا ماهية الإله المخلوق، وهم بطبيعة الحال...كان يمكن استخدام عنوان أدقّ مثل: «وهْم الإله المخلوق»، وكان يمكن عندئذٍ اختصار الكتاب في نشرةٍ صغيرة، ولكن المبيعات كانت ستتأثّر!

والآن «دوكينز» يخبرنا صراحةً أنَّه لا يحبُّ أن يخبره الناس بأنّهم بدورهم لا يؤمنون بالله الذي لا يؤمن هوَ به... والحقيقة أنَّ بضعة مليارات منَّا يشاركونه في عدم إيمانه بهذا الإله. فما كان عليه أن يقلقَ بهذا الشأن. فمعظمنا مقتنعٌ منذ زمن بعيد بما يحاول أنْ يخبرنا به. فمن المؤكَّد أنه ما مِن نصراني يعتقد أنَّ الإله مخلوق، ولا حتى في أحلامه. وهوَ ما ينطبق طبعًا على اليهود والمسلمين أيضًا. فحجَّته، باعترافه هو شخصيًّا، لا تقول أيَّ شيء عن الإله الأزلي، ولا تمتُّ لهذه الفكرة بصلة»[1].

الوجهُ الثّاني: وبناءً على النقطة الأولى، فإنَّ هذا السؤال يفترض وجود هذا التناقض بطريقة خفيَّة؛ قال المحامي دين أوفرمان: «التناقضات المفترضة كثيرًا ما تكون خفيَّة في المقدّمات، مثل سؤال: «لو صمَّم مصمِّمٌ الكون، فمَن صمَّم المصمّم نفسه؟»». هذا السؤال يفترض وجودَ تناقض، ويظهر في الإصرار على أن المصمم صُمّم. هذا الإصرارُ يعتمد على تناقض خفيٍّ في سؤاله، وهذا مشابهٌ لسؤال: ماذا أو من جعل المثلّثات دائرية؟»[2]. فكما أنَّ المثلّثات لا يمكن أن تكون دائرية، لأنه لو كانت دائرية، فهي تخرج من كوْنها مثلّثة، فكذلك الخالقُ الأزلي، لو افترض أنَّ له خالقًا، فإنّه ليس بخالقٍ أزلي غير مخلوق. ومِن الأمثلة الأخرى على ذلك التي ذكرها الدكتور جونثان سارفاتي هو سؤال: «مَن هي زوجة الأعزب؟»[3]، لأنّه لو كان

---

(1) God's Undertaker (183)

(2) A Case Against Accident and Self organization (18)

(٣) المقال:

If God created the universe, then who created God? By Jonathan Sarfarti

https://creation.com/images/pdfs/tj/j12_1/j12_1_20-22.pdf

للأعزب زوجة، فإنه يخرجُ من كونه أعزبَ إلى كونِه متزوِّجًا. فالسؤال بطبيعة الحال خطأ ومتناقض.

الوجهُ الثّالث: وهو في بيانِ قاعدة مشهورة في فلسفة العلم تقول: «من أجل تحقيق التفسير الأفضل لا يجبُ أن يكون هناك تفسيرٌ للتفسير». وهذا هو الجواب الذي يردّده البروفسور وليام لاين كرايغ عندما يسأل هذا السؤال؛ فيذكر أنَّ هذه القاعدة بديهية في قضية أفضل تفسير كما هو معمولٌ بها في فلسفة العلم. وضرب مثالًا بأنه لو نقّب علماءُ الآثار في الأرض واكتشفوا ما يشبهُ النِّصال، ورؤوس الفؤوس، شظايا الفخّار، فيكون لهم مبرِّر أن يستنتجوا أنَّ هذه القطع الأثرية ليست نتيجة صدفية للترسيب والاستحالة، بل هي منتجاتٌ لأشخاص غيرِ معروفين. وذلك على الرغم أنّه لم يكن لديْهم أيُّ تفسير عن هويَّة هؤلاء الأشخاص أو من أين أتوا. وكذلك إذا كان رواد الفضاء يصادفون كومةً من الآلات على الجانب الخلفي من القمر، فسيكون لهم ما يبرِّرهم في استنتاج أنه نتاجُ كائنات ذكية خارجَ الأرض، حتى ولو لم تكن لديهم أدنى فكرةٍ عمَّن هُم هؤلاء الكائنات، ولا مِن أين أتوا. فمِن أجل تحقيق أفضل تفسير، فإنّنا لسْنا بحاجةٍ إلى تفسير آخر. وفي الواقع، سيؤدِّي ذلك إلى تراجع لا حصر له من التَّفسيرات، بحيث لا يمكن تفسيرُ أيِّ شيء على الإطلاق، وسيدمّر العلم التجريبي. وذكرَ البروفسور كرايغ أنَّنا لو فهمنا ذلك، فإنّنا نفهم أن التصميمَ الذكي هو أفضلُ تفسير لظهور التَّصميم في الكون، فإنّنا لسنا بحاجة إلى تفسير المصمّم[1].

الوجهُ الرّابع: مَن اعترض بهذه الشبهة على حجّة الخلق والإيجاد، فإنّه لم يفهم الحجَّة على وجهها الصحيح. فبدلًا من صياغة المقدّمة الأولى بصياغة: «كلُّ شيء له بداية فلا بدَّ له من سبب»، يصيغونها بصياغة: «كلُّ شيء لا بدَّ له من سبب»[2]. وهذه الصياغةُ غير صحيحة، ولا يقولها المؤلّهة. وقد ذكر المحامي دين أوفرمان أنه لو تمَّ تعديلُ الصياغة

---

(١) انظر المقال: Dawkin’s Delusion, على الرابط:
https://www.reasonablefaith.org/writings/popular-writings/existence-nature-of-god/dawkins-delusion

(٢) انظر: الفيزياء ووجود الخالق (١١٩ - ١٢٠).

إلى «كلُّ شيء له بداية فلا بدَّ له من سبب»، فإنّ السؤال لا ينطبق على المصمِّم الذي ليس له بداية. ولو أنه تمَّ تعديلُه إلى استخدامه على الكون لكان بهذه الصياغة:

١ - كلُّ شيء له بداية فلا بدَّ له من سبب.

٢ - الكونُ له بداية.

٣ - إذًا: الكونُ له سبب[1].

وهذه هي الصياغةُ الصحيحة لحجّة الخلق والإيجاد.

الوجهُ الخامس: وهي ردُّهم على قول دوكينز: إنَّ الخالق للتعقيد لا بدَّ أن يكون أكثرَ تعقيدًا من خلقه. فيأتي النصارى المعطِّلة ويعترضونَ على قوله بأن الإله غير معقّد، بلْ هو بسيط؛ لأنَّه ليس بجسم وليس له أعضاء. وهذا الردُّ يستعمله البروفسور وليام لاين كرايغ في ردِّه على هذه الشبهة، كما أنَّ البروفسور ألفن بلانتنغا استخدمه في مقاله: «العلم التجريبي أو المذهب الطبيعي؟ تناقضات دوكيز» (Science or Naturalism? The Contradictions of Richard Dawkins)؛ فقال: ابتداءً، هل الإله معقّد؟ وفقًا لعلم اللاهوت الكلاسيكي (مثل: توما الأكويني) فإنّ الإله بسيط، بل بسيط للغاية... والأمرُ الأكثر وضوحًا هو أنَّه وفقًا لتعريف دوكينز الخاص للتعقيد، فإنَّ الله ليس معقدًا. وفقًا لتعريفه (الوارد في كتابه: صانع الساعات الأعمى)، هناك شيء معقد إذا كان يحتوي على أجزاء «مرتَّبة بطريقة من غير المرجح أن تنشأ بالصدفة وحدها».

لكنْ بالطبع الإله ليس كائنًا ماديًّا، وبالتالي ليس لديه أجزاء. الإله روح، كائن روحيٌّ غير مادي، وبالتالي ليس له أيُّ أجزاء على الإطلاق. من باب أولى (كما يحب الفلاسفةُ قوله) إنَّ الإله ليس لديه أجزاء مرتَّبة بطرق من غير المرجح أن تنشأ بالصُّدفة. لذلك، فنظرًا لتعريفِ التعقيد الذي يقترحه دوكينز نفسه، فإنَّ الإله ليس معقدًا»[2].

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self organization (18)

(٢) مقال: Science or Naturalism? The Contradictions of Richard Dawkins, على الرابط:
https://www.abc.net.au/religion/science-or-naturalism-the-contradictions-of-richard-dawkins/10100636

هذا الردُّ مُشكل، ومنبعُه عقيدةُ تعطيل الصفات التي يعتقدها بعض النصارى، مثل: البروفسور بلانتنغا والبروفسور كرايغ. فالكلامُ على ذات الله أنَّها بسيطة أو معقّدة مِن القول على الله بلا علم. ونفي الأجزاء عنِ الله من الألفاظ المجملة التي يستخدمها المعطّلةُ لإنكار الصفات الذاتية كالوجه، واليدين. أمّا إلزامُه الأخير بتعريف ريتشارد دوكينز، فقد يكونُ فيه شيء من الوَجاهة، لأنَّه من باب إلزامِ الخصم بتعريفه. وهذا الأسلوب مستخدم في المناظرة.

والأولى أنْ يُقال لدوكينز ومَن تبعه: «إنَّ السببَ يجب أن يكون أقلّ تعقيدًا من الأثرِ لا برهان عليه عقلًا؛ فقد ينشأ الأثرُ عن أمر أشدِّ تعقيدًا منه؛ بل لعلّ ذلك هو الأصلُ في الأشياء لا العكس في عالم الأفكار والصنائع. ألا ترى أنَّ المكتوب والمصنوع أبسطُ دائمًا من الدماغ الذي أنشأه؟»[١].

الوجهُ السّادس: وهذه النقطة مبنيَّة على ردٍّ للفليسوف الملحد توماس نيجل الذي اشتهرَ بانتقاداته لمذهب الإلحاد الجديد. فقد ألزم دوكينز في كتابه: «الفلسفة العلمانية والمزاج المتديّن» (Secular Philosophy and Religious Temper-ament) بإلزام قويٍّ، خلاصتُه: أنَّ دوكينز يردُّ كلَّ أوجه الحياة على الأرض إلى آلية الانتخاب الطبيعي، لكنّ الكائنات الحيَّة لا يمكن أن تتطوَّر دون وجودِ الحياة الأولى في شكلها البدائي؛ فالتطوّر لا يمكن أن يقعَ إلا بوجود رصيد جيني تحدث فيه الطفرات، لكنَّ المادة الجينية الأولى شديدة التعقيد بصورة أعظم من التطوّر اللاحق لظهورها، بما يقتضي أنَّ تفسير أصل التطوّر أعقدُ من التطوّر نفسه[٢].

وقد فشلَ العلماءُ الماديون في إيجاد تفسيرٍ لأصل الحياة على هذا الكوكب. ولهذا استحسنَ دوكينز الفكرةَ القائلة بأنَّ كائنات فضائية زرعت الحياة على هذا

---

(١) براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم (٤١٨).

(٢) انظر:

Secular Philosophy and Religious Temperament (24-25), by: Thomas Nagel, (Oxford University Press, 2009)

الكوكب - كما سلف ذكره -. وهذا في الحقيقة يؤدِّي إلى الاعتراض الذي يوجّهه دوكينز نفسه، وهو: مَن خلق الكائنات الفضائية التي زرعت الحياة على الكوكب؟! إن قال: إنَّها تطوَّرت بنفسها، لم يخرجْ من إشكالية وجود الحياة الأولى التي تطوّرت منها هذه الكائنات.

الوجهُ السّابع: أنَّ هذه الشبهة مبنيَّة على أنَّ الملاحدة لا يستطيعون أن يسلّموا بوجودِ شيء أزلي. ولكنَّ الملاحدة بين أمرين في هذه القضية:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ كثيرًا منهم يؤمنون بشيء أزلي، فكانوا في السابق يعتقدون أنَّ الكون أزلي؛ قال الفيلسوف أبراهام فارجيس: «الآن، من الواضح أنّ الألوهيين والملحدين يمكن أن يتَّفقوا على شيء واحد: إذا كان هناك شيء موجود فعلًا، فلا بدَّ وأنَّ هناك شيئًا موجودًا على الدوام قد سبقَه. كيف أتى هذا الواقع الموجود منذ الأزل؟ الجوابُ هو أنَّه لم يأتِ من الأساس؛ لأنَّه كان دائمًا موجودًا. اختر ما تشاء: الإله أو الكون. شيء كان موجودًا على الدوام»(١).

وعلى الأقلِّ يعتقد كثيرٌ منهم أنَّ المادة والطاقة أزلية وإن لم يكن الكون بأكمله كذلك. فإذًا، ليس لدى أغلبِ الملاحدة إشكالٌ في مفهوم الأزلية، كما أشار إليه البروفسور جون لينوكس في ردِّه عليهم(٢).

الأمرُ الثّاني: وإنْ قال الملحد: إنَّه لا يوجد أيّ شيء أزلي، وإنَّ الكون ظهر من لاشيء بالمفهوم التقليدي للاشيء(٣)؛ فإنَّهم يخالفون القاعدة العقلية المشهورة: من لاشيء يظهر لا شيء (Ex Nihilo Nihil Fit). فكيف أخرج لاشيء هذا الكون من لاشيء. هذا تناقضٌ واضح ومخالف لبديهيات العقل.

---

(1) Appendix of: There is a God: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind (165)

(٢) انظر المقطع: Who Created God?، وهو على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=LxL8AwT7ObY

(٣) سيأتي الردّ التفصيلي على تلبيسات الملاحدة في إعادة تعريف اللاشيء بأنّه الفراغ الكمّي.

الوجهُ الثّامن: بناءً على الوجه الأخير، فلا بدَّ أن ينتهي التسلسل إلى شيء، إما القولُ بأزلية الكون، وإمّا القولُ بوجود خالق خلق الكون. ولكن على فرض القول بأزليَّة الكون، فلا بدَّ أن ينتهي التسلسل إلى واجب الوجود، وإلا لحصل التسلسلُ الرَّجعي إلى ما لا نهاية، وهذا لا يمكن؛ قال جون باسكويني: «إمّا أنَّ العالم أزلي وإمّا أنْ يكون للعالم مصدرٌ لوجوده. ها هو ريتشارد دوكينز يصيح متهكمًا: «من خلق الإله؟» لو كان الإله «أ» و«ب» خلق «أ»، فالإله إذن يكون «ب» لا «أ»! ولو كان «ج» الخالق لـ«ب» فالذي يكون إلهًا هو «ج». هذا ما يسمى التسلسل الرجعي (إلى ما لا نهاية في الماضي [في المؤثرين]). والإشكال في هذا التسلسل يأتي مرتين:

١ - فهو مُناقض لتجربتنا للواقع، فجميع الأشياء الموجودة في فلك الفهم لدينا موجودةٌ لأنَّ لها موجدًا أحدثها.

٢ - لا يمكن أن ينتهي التسلسلُ الرجعي إلّا عند واجب الوجود: وهو الإله.

(وريتشارد دوكينز عاجزٌ عن فهم مسألة التسلسل هذه[1].

وقد ذكر شيخُ الإسلام (رحمه الله) أنَّ هذا النوع من التسلسل ممنوع بإجماع العُقلاء؛ وقال (رحمه الله): «يمتنع تسلسلُ المحدثات بأنْ يكون للمحدث محدث، وللمحدث محدث إلى غير غاية، وهذا يسمَّى تسلسل المؤثرات والعلل والفاعلية، وهو ممتنعٌ باتفاق العقلاء»[2].

الوجهُ التّاسع: أنَّ هذا الاعتراض كان أحد أسباب إلحاد أكبر ملاحدة القرن العشرين - وهو برتراند راسل -، وضمنَ الحجَّة المركزية لأكبر ملاحدة القرن الواحد والعشرين، وهو ريتشارد دويكنز. وذلك رغمَ هشاشة هذه الحجة كما تقدّم. وهذا في الحقيقة دليلٌ على إفلاس دعوة الملاحدة. وقد عبّر عنه البروفسور جون لينوكس بقوله: «هل هذا أفضلُ ما يمكن للجهابذة أن يقوموا به؟ يمكن أن

---

(1) Atheist Personality Disorder (171-172)

(٢) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٤٤٤ - ٤٤٥).

أسمع [من] يقول: «حسنًا، إنَّه يثبت شيئًا واحدًا؛ إذا كان لديهم حجة أفضل، سيستعملونها»»[1].

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة: من خلق الله؟

ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة في الغالب جيِّدة، ويُستفاد منها، فهي انتقاداتٌ وإلزامات عقلية وعلمية قوّية. إلّا أنَّه زلَّت أقدامُهم حين تكلموا عما يسمّى بالتعقيدِ الإلهي، واستعملوا ألفاظًا مجملة لا تليق بجلال الله عزَّ وجلّ. وليحذر المسلمُ مِن استعمال هذه الألفاظ التي استعملوها.

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية موقف أهل السنة من الألفاظ التي يستخدم في حقِّ الله إذ قال: «ومن الأصول الكلية أن يُعلم أن الألفاظ « نوعان»: نوع جاء به الكتاب والسُّنة فيجبُ على كلِّ مؤمن أن يقرَّ بموجب ذلك، فيثبت ما أثبته اللهُ ورسوله، وينفي ما نفاه اللهُ ورسوله. فاللفظُ الذي أثبته الله أو نفاه حق؛ فإن الله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل. والألفاظُ الشرعية لها حرمة. ومِن تمام العلم أن يبحث عن مرادِ رسوله r بها ليثبتَ ما أثبته، وينفي ما نفاه من المعاني؛ فإنه يجب علينا أن نصدقه في كلِّ ما أخبر، ونطيعه في كلِّ ما أوْجَب وأمر. ثمَّ إذا عرفنا تفصيلَ ذلك كان ذلك مِن زيادة العلم والإيمان وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وأمّا الألفاظُ التي ليست في الكتاب والسنة، ولا اتَّفق السلفُ على نفيها أو إثباتها؛ فهذه ليس على أحدٍ أن يوافق مَن نفاها أو أثبتها حتَّى يستفسر عن مراده؛ فإن أرادَ بها معنًى يوافق خبر الرسول ﷺ أقرّ به، وإنْ أراد بها معنى يخالف خبرَ الرسول ﷺ أنكره. ثمَّ التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباهٌ أو إجمال عبَّر بغيره، أو بيَّن مرادَه بها، بحيث يحصل تعريفُ الحقِّ بالوجه الشرعي؛ فإن كثيرًا مِن نزاع الناس سببه ألفاظٌ مجملة مُبتدعة ومعانٍ مشتبهة، حتى تجدَ الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاقِ ألفاظ ونفيها، ولو

---

(1) God's Undertaker (183)

سُئل كلٌّ منهما عن معنى ما قاله لم يتصوّره، فضلًا عن أن يعرفَ دليله، ولو عرف دليلَه لم يلزم أنَّ مَن خالفه يكون مخطئًا، بل يكون في قوله نوع مِن الصواب، وقدْ يكون هذا مصيبًا من وجه، وهذا مصيبًا من وجه، وقد يكون الصوابُ في قول ثالث»[1].

ولفظ: «التعقيد الإلهي» لم تردْ به النصوص، وقد يُراد به: اتّصاف الله بصفات كثيرة، وهذا يثبته أهلُ السنة خلافًا للمعطلة. وقد يراد به: مشابهة الله للمخلوقات المعقّدة، وهذا باطل لأنَّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

والنصارى القائلون بهذا القول يتبَّنون مذهبَ التعطيل، ويستخدمون هذه الألفاظَ للتوصُّل إلى إنكار الصفات.

الإرشاداتُ النبوية في التَّعامل مع هذه الشبهة:

سبقَ في بداية المبحث أنَّ هذه الشبهة قد تكون مبنيَّة على وساوس وخواطر في قلبِ الإنسان، بدون أن يكونَ لها عمقٌ فلسفي أو علمي. وقد أرشد النبي ﷺ إلى جملة مِن الإرشادات في التعامل معَ هذه الوساوس. وذلك في أحاديث كثيرة ومتنوّعة؛ منها:

الحديثُ الأوَّل: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَن خلق كذا؟ مَن خلق كذا؟ حتى يقول: مَن خلق ربَّك؟ فإذا بلغه **فليستعذ بالله ولينته**»[2].

الحديثُ الثّاني: (لن يدعَ الشيطانُ أن يأتي أحدَكم فيقول: مَن خلق السماوات والأرض؟ فيقول: الله، فيقول: فمَن خلقك؟ فيقول: الله، فيقول: مَن خلق الله؟ فإذا أحسَّ أحدكم بذلك **فليقل: آمنت بالله وبرسله**)[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٣ - ١١٤)

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥٠)، كتب التكليف، باب ذكر الأمر للمرء بالإقرار لله - جل وعلا - بالوحدانية ولصفيه (١/ ٣٦٢)، من حديث عائشة ل، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١١٦)، (١/ ٢٣٣ - ٢٣٤).

الحديثُ الثّالث: «يوشك الناسُ أن يتساءلوا بينهم حتى يقول قائلهم: هذا الله خلقَ الخلق، فمَن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك **فقولوا: اللهُ أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولَد، ولم يكنْ له كفوًا أحد، ثمّ ليتفُل عن يساره ثلاثًا**»[1].

وتضمَّنت هذه الأحاديث النبوية خمسةَ إرشادات مهمَّة في التعامل مع هذه الشبهة، وهي:

١) الاستعاذة بالله.

٢) قول: آمنت بالله ورسله.

٣) قول: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

٤) التَّفل عن اليسار.

٥) الانتهاء من الاسترسال مع هذه الوساوس.

وقال الشيخُ الألباني (رحمه الله) جامعًا لهذه الألفاظ: «دلَّت هذه الأحاديث الصَّحيحة على أنه يجب على مَن وسوس إليه الشيطانُ بقوله: مَن خلق الله؟ أن ينصرفَ عن مجادلته إلى إجابته بما جاءَ في الأحاديث المذكورة، وخلاصتها أن يقول: «آمنتُ بالله ورسله، اللهُ أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكنْ له كفوًا أحد. ثمَّ يتفُل عن يساره ثلاثًا، ويستعيذ بالله من الشيطان، ثمَّ ينتهي عن الانسياق مع الوسوسة»[2].

وقد علَّق شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) على هذه الأحاديث بكلام مطوّل في كتابِه: درء تعارض العقل والنقل. وحيث إنَّ طبيعة البحث العلمي تقتضي الاختصارَ وعدمَ نقل النقول المطوّلة، فيستحسن إيرادُ كلامه مختصرًا في ستّ نقاط:

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٤٢٢)، كتاب عمل اليوم والليلة، باب الوسوسة وذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أبي هريرة لذلك، (٩/ ٢٤٥)، من حديث أبي هريرةt, وصحّحه الألباني في الصحيحة (١١٨)، (١/ ٢٣٥ - ٢٣٦).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٣٦).

النُّقطةُ الأولى: أنَّ شيخ الإسلام نقل الجدلَ الحاصل بين بعض المتكلّمين في موقفِهم مِن معالجة النبي ﷺ لهذه الشبهة؛ فقال: «وقد سئل بعض السالكين طريقة هؤلاء - كالرازي[1] وغيره - فقيل له: لمَ لمْ يأمر النبي ﷺ عند هذا الوسواس بالبرهان لفسادِ التسلسل والدور، بل أمرَ بالاستعاذة؟ فأجاب: بأنَّ هذا مثل مَن عرض له كلب ينبحُ عليه ليؤذيه ويقطعَ طريقه، فتارة يضربُ بعصا، وتارة يطلب مِن صاحب الكلب أنْ يزجره. قال: فالبرهانُ هو الطريق الأوّل، وفيه صعوبة، والاستعاذةُ بالله هو الثاني، وهو أسهل.

واعترضَ بعضهم على هذا الجواب بأنّ هذا يقتضي أن طريقةَ البرهان أقوى وأكْمل، وليس الأمرُ كذلك، بل طريقةُ الاستعاذة أكمل وأقوى، فإنَّ دفع الله للوسواس عنِ القلب أكملُ مِن دفع الإنسان ذلك عن نفسه»[2].

النُّقطةُ الثّانية: بيَّن شيخُ الإسلام (رحمه الله) أنَّ هؤلاء أخطأوا في فهم الإرشادات النَّبوية في هذه الأحاديث، وأنّ النبي ﷺ لم يأمر بالاستعاذة فحسب، بل أرشد إلى أصولِ البرهان في هذه القضية؛ فقال: «السؤال باطل، وكلٌّ من جوابيه مبنيٌّ على الباطل؛ فهو باطل، وذلك أنَّ هذا الكلام مبناه على أن هذه الأسئلة الواردة على النَّفس تندفع بطريقين: أحدهما: البرهان، والآخر: الاستعاذة، وأنَّ النبي ﷺ أمرَ بالاستعاذة، وأنَّ المبيّن لفسادِ الدور والتسلسل قطعه بطريق البرهان، وأنّ طريقة البرهان تقطعُ الأسئلةَ الواردة على النَّفس بدون ما ذكره النبي ﷺ وأنّ النبي ﷺ لم يأمر بطريقةِ البرهان. وهذا خطأ مِن وجوه، بلِ النَّبي r أمر بطريقة البرهان حيث يؤمر بها، ودلَّ على مجاميعِ البراهين التي يرجع إليها غاية نظرِ النظّار، ودلَّ من البراهين

---

(١) الرازي: هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن القرشي البكري الرازي. إمام المتكلمين، ذو الفنون. من مؤلفاته: التفسير الكبير، أساس التقديس. قال الذهبي: ((وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر)). توفي عام: ٦٠٦ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٢١ / ٥٠٠ - ٥٠١)، وطبقات الشافعية (٨ / ٨١ - ٨٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣ / ٣١٩).

على ما هو فوقَ استنباط النظار، والذي أمرَ به في دفْع هذا الوسواس هو الاستعاذة فقط، بل أمرَ بالإيمان، وأمرَ بالاستعاذة، وأمرَ بالانتهاء، ولا طريق إلى نيْل المطلوب من النجاة والسَّعادة إلّا بما أمر به لا طريق غير ذلك»[1].

النُّقطةُ الثّالثة: بيَّن شيخُ الإسلام أنَّ هذه الشُّبهة مبنيَّة على جحد المقدّمات الضَّرورية، ومَن جحدَ هذه المقدّماتِ فإنَّه لا يناظر بالبرهان؛ لأنَّ غاية البرهان أن ينتهي إلى هذه المقدِّمات الضرورية، فلا توجَد قاعدة مشتركة بين المتناظرين في المناظرة؛ فقال: «البرهانُ الذي ينال بالنَّظر فيه العلم لا بدَّ أن ينتهي إلى مقدمات ضرورية فطرية فإنَّ كلَّ علمٍ ليس بضروري لا بدَّ أن ينتهي إلى علم ضروري، إذِ المقدِّمات النظرية لو أثبتت بمقدِّماتٍ نظرية دائمًا لزمَ الدور القبلي، أو التَّسلسل في المؤثرات في محل له ابتداء. وكلاهما باطلٌ بالضَّرورة واتِّفاق العقلاء من وجوه... ثمَّ تلك العلوم الضرورية قد يعرض فيها شبهات ووساوس كالشُّبهات السوفسطائية مثلَ الشبهات التي يوردونها على العلوم الحسيَّة ولا بديهية... والشبهاتُ القادحة في تلك العلوم لا يمكن الجوابُ عنها بالبرهان لأنَّ غايةَ البرهان أنْ ينتهي إليها، فإذا وقعَ الشَّك فيها انقطع طريقُ النظر والبحث. ولهذا كان مَن أنكر العلوم الحسية والضرورية لم يناظر، بل إذا كان جاحدًا معاندًا عوقِبَ حتَّى يعترف بالحق، وإن كان غالطًا إمّا لفساد عرض لحسه أو عقله لعجزه عن فهْم تلك العلوم، وإمّا لنحو ذلك، فإنه يعالج بما يوجِب حصولَ شروط العلم له وانتفاء موانعه... وإذا تبيَّن هذا فالوسوسةُ والشُّبهة القادحة في العلوم الضرورية لا تزال بالبرهان، بل متى فكَّر العبدُ ونظرَ ازدادَ ورودُها على قلبه وقدْ يغلبه الوسواسُ حتَّى يعجز عنْ دفعه عنْ نفسه كما يعجز عن حلِّ الشُّبهة السوفسطائية. وهذا يزول بالاستعاذة بالله. فإنَّ الله هو الذي يعيذُ العبدَ، ويجيره من الشُّبهات المضلة والشهوات والمغوية»[2].

النُّقطةُ الرّابعة: بيَّن شيخُ الإسلام (رحمه الله) أنّ النبي ﷺ لم يكتفِ بالإرشاد إلى الاسْتعاذة فحسب، بل أرشدَ - إضافةً إلى الاستعاذة - إلى الانتهاءِ من التفكير في

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣١٩ - ٣٢٠).

هذه الشُّبهات؛ فقال: «النبي ﷺ لم يأمرْ بالاستعاذة وحدها، بل أمر العبدَ أن ينتهي عن ذلكَ معَ الاستعاذة، إعلامًا منه بأنَّ هذا السؤال هو نهاية الوسواس فيجب الانتهاءُ عنه. ليسَ هو مِن البدايات التي يزيلُها ما بعده، فإنَّ النفسَ تطلب سببَ كلِّ حادث وأوَّل كلِّ شيء حتَّى تنتهي إلى الغاية والمنتهى... فإذا وصل العبدُ إلى غاية الغايات، ونهاية النهايات، وجبَ وقوفه، فإذا طلبَ بعد ذلك شيئًا آخرَ وجبَ أن ينتهي، فأمر النبي ﷺ العبدَ أنْ ينتهي معَ استجارته بالله من وسواس التسلسل، كما يؤمر كلّ مَن حصلَ نهاية المطلوب، وغاية المارد، أنْ ينتهي إذْ كلُّ طالبٍ ومريد فلا بدَّ له من مطلوب ومُرادٍ ينتهي إليه، وإنما وجبَ انتهاؤه لأنَّه من المعلوم بالعلم الضروري الفطري لكل من سلَّمت فطرته مِن بني آدم أنَّه سؤالٌ فاسد، وأنه يمتنع أنْ يكون لخالق كلِّ مخلوق خالق، فإنَّه لو كان له خالقٌ لكان مخلوقًا. ولم يكن خالقًا لكلِّ مخلوق، بل كان يكون من جملة المخلوقات، والمخلوقات، كلُّها لا بدَّ لها من خالق، وهذا معلومٌ بالضرورة والفطرة، وإن لم يخطرْ ببال العبد قطع الدور والتسلسل، فإنَّ وجود المخلوقات كلها بدون خالق معلوم الامتناع بالضرورة»[1].

النُّقطةُ الخامسة: ذكرَ شيخُ الإسلام (رحمه الله) أنَّ من الإرشادات النبوية في هذا المقام هو الأمرُ بقول: آمنتُ بالله وبرسوله، وأنَّ هذا نوعٌ من أنواع المعالجة بدفع هذه الشُّبهة الشيطانية بالإيمانِ بالله؛ فقال: «إنَّ النبي ﷺ أمرَ العبدَ أن يقول آمنتُ بالله، وفي رواية: ورسوله. فهذا مِن باب دفع الضدِّ الضّار بالضدِّ النافع، فإن قوله: آمنت بالله، يدفعُ عن قلبِه الوسواس الفاسد... فأمر النبي ﷺ العبد أنْ يقول: آمنتُ بالله، أو آمنتُ بالله ورسوله، فإنَّ هذا القول إيمانٌ وذكر الله يدفَع به ما يضادُّه من الوسوسة القادحة في العلوم الضرورية الفطرية...»[2].

النُّقطةُ السّادسة: وفي نهايةِ كلامه بيَّن شيخُ الإسلام إشكالية الاستدلال على المقدِّمات الضَّرورية الفطرية؛ فقال: «وممّا ينبغي أن يُعرَف في هذا المقام - وإن كنَّا

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٢٠ - ٣٢١).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٢١).

نبهنا عليه في مواضع - أنَّ كثيرًا من العلوم تكون ضروريةً فطرية، فإذا طلب المستدلُّ أن يستدلَّ عليها خفيتْ ووقعَ فيها شكٌّ، إمّا لما في ذلك من تطويل المقدِّمات، وإمّا لما في ذلكَ من خفائها، وإمّا لما في ذلك من كلا الأمرين.

والمستدلُّ قد يعجز عنْ نظم دليلٍ على ذلك، إمّا لعجزه عن تصوّره، وإمّا لعجزه عنِ التَّعبير عنه، فإنَّه ليس كلُّ ما تصوَّره الإنسانُ أمكن كلُّ أحدٍ أن يعبّر عنه باللسان، وقدْ يعجز المستمعُ عنْ فهمه ذلك الدليل، وإنْ أمكن نظمُ الدليل وفهمه، فقد يحصل العجزُ عن إزالة الشبهات المعارضة إمّا عن هذا، وإمّا عن هذا، إمّا منهما»[1].

وبهذه النِّقاط الستِّ تتبيَّن عظمةُ هذه الإرشادات النبوية في التعامل مع هذه الشبهة كوسْوَسة.

ولكن، يبقى سؤالٌ مُهمّ، وهو: هل يدلُّ كلامُ شيخ الإسلام (رحمه الله) على أنّه لا ينبغي لنا الاستفادةُ من ردودِ علماء الغرب على هذه الشبهة؟ الجواب: نعم، قد يُفهم من كلامه أنَّ الطريقة التي سلكوها في التعامل مع الشبهة مبنيَّة على المناظرة في المقدِّمات الضرورية[2]. فكيف ينبغي أن يكون موقفنا من ذلك؟

لا شكَّ أنَّ أفضلَ طريقة في التعامل مع هذه الشبهة إذا خطرت في قلب الإنسان كوسْوَسة أنْ يتعامل معها وفقَ الإرشادات النبوية، ففيها شفاءٌ لما في الصدور بإذن الله. وأمَّا في مقام المناظرة لأهلِ الإلحاد فيختلفُ الوضع؛ لأنَّه لا يمكن إرشادهم للاستعاذة مِن الشيطان، لأنَّهم لا يؤمنون بوجوده أصلًا. كما أنه لا يمكن إرشادُهم إلى قول: آمنتُ بالله وبرسوله.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٢٢).

(٢) وصرّح الشيخ الألباني ﷺ بذلك إذ قال:«وهذا التعليم النبوي الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية في هذه القضية، فإن المجادلة قلما تنفع في مثلها. ومن المؤسف أن أكثر الناس في غفلة عن هذا التعليم النبوي الكريم، فتنبهوا أيها المسلمون، وتعرفوا إلى سنة نبيكم، واعملوا بها، فإن فيها شفاءكم وعزكم». [سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٣٦)].

وما ذكره شيخُ الإسلام أنَّ مَن جحد المقدّمات الضرورية لا يناظر، فهي قاعدة جيِّدة من حيث الأصل، ولكنَّ المشكلة أنَّ الإلحاد المعاصر مبني على جحد الضَّروريات. ولا يجحدونَ هذه الضروريات بناءً على السفسطة المجرّدة فقط، بل ينظّرون لهذا الجحدِ بشُبهات فلسفيَّة وعلمية. ومع الأسف الشديد يتأثّر بعض الناس بهذه الشُّبهات. فلمّا وصلَ الحالُ إلى ما هو عليه الآن، فلا بدَّ من مقاومة هذه الدعوة، والردّ عليها ومناظرتهم إذا أمكن. وهذا يتطلَّب استخدامَ الحجج والبراهين، ومن هنا تأتي الاستفادةُ مِن ردود علماء الغرب. وكما سبق فإنَّ كثيرًا من كلامهم جيِّد وسليم في هذا الباب.

المبحثُ الثّالث

ردودُهم على شبهةِ عدم إمكان رؤية الله

لقد مدح اللهُ تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٢ - ٣]. ووصفَ سبحانه المؤمنينَ يخشون ربَّهم بالغيب؛ فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ [الأنبياء:٢١]؛ فمن سماتِ المؤمن أنّه يؤمنُ بالله معَ أنه غيبٌ بالنسبة لنا. وذلك الإيمان مبنيٌّ على ما فطر اللهُ عليه عبادَه من الفطرة السويَّة، وكذلك الآيات البيِّنات التي أقامها الله في خلقه ووحيِه.

ولكنْ من الناس مَن يسأل معترضًا: «كيف نؤمنُ بوجود الله مع أننا لا نراه؟». وبالتَّتبع والاستقراء فإنَّ هذا الاعتراض ليس منتشرًا بين دعاة الإلحاد المشاهير، ولكنه سؤالٌ يطرحه عوامُّ الملاحدة، وكذلك يسأله بعضُ أتباع الديانات ممن وقع في قلبه الشك.

ولكنْ حيث إنَّ شبهة: عدم إمكان رؤية الله موجودة عندَ عوام الملاحدة، فسيتمُّ الردُّ عليها باختصار في هذا المبحث. وسأقسِّمه إلى ثلاثِ فقرات:

الفقرةُ الأولى: أسسُ شبهة: عدم إمكان رؤية الله.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: عدم إمكان رؤية الله.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: عدم إمكان رؤية الله.

الفقرةُ الأولى: أسسُ شبهة: عدم إمكان رؤية الله:

الخطابُ الإلحادي المعاصر مبنيٌّ على عددٍ من الأسس والركائز. وقد تمّ الردُّ على أبرزِها في الباب الأوَّل. وثلاثة منها مؤثِّرة في شبهة: عدم إمكان رؤية الله، وهي:

الأساسُ الأوَّل: المذهبُ المادي: الملاحدةُ يتبَّنون المذهب المادي، فيحصرون الوجودَ في المادة، وينكرون كلَّ ما سواها.

الأساسُ الثّاني: العلموية: فالملاحدةُ يروْن أنَّ المعرفة منحصرة في العلم التجريبي؛ فما لم يتوصَّل إليه العلم التجريبي فلا يعدُّ علمًا عندهم.

الأساسُ الثّالث: الشُّكوكية الدينية: الملاحدةُ يشكِّكون في كلِّ ما يقوله أتباع الدِّيانات؛ لأنَّهم يرون أنَّ معتقداتهم ليست مبنيَّة على الأدلة من العلم التجريبي.

وقدْ أفردت كلَّ واحدٍ من هذه الأسس الثلاثة بمبحثٍ مُستقلّ، وردّدت على شُبهاتهم. ولكنَّ المقصود في هذا المبحث أنَّ شبهة: عدم إمكان رؤية الله مبنية على هذه الأسس. فالملاحدةُ يحصرون الوجودَ في المادة، ويحصرون المعرفة في العلم التجريبي، وعليه فإنَّهم يشكِّكون في معتقداتِ أتباع الديانات. ومِن ضمن هذه المعتقدات: الإيمانُ بوجود الله. فينشأ السؤال: «كيف نؤمنُ بوجود الله مع أننا لا نراه؟» عند عوامِّ الملاحدة، بينما يقول دعاةُ الإلحاد: «كيف نؤمن بوجود الله مع أنَّه لا يمكن إثباتُ وجودِه عن طريق العلم التجريبي؟» - كما سبقَ الردُّ عليه في مبحث: تعظيم العلم التجريبي - أو بذكر شبهة: عدم الإيمان - كما سيأتي ذكرُه في المبحث السابع من هذا الفصل -.

وممّا يبيَّن أنَّ السؤال عن عدم إمكان رؤية الله ليس مُنتشرًا في الساحة الجدلية بين الملاحدةِ والمؤمنين بوجودِ الله أنَّ الكتبَ المتعمِّقة في نقد الإلحاد التي أنقل منها في هذه الرِّسالة لا تذكر هذا الاعتراض أصلًا. ولكنْ قد أجاب عددٌ من علماء الغرب عن هذا السُّؤال في مقالاتٍ في الشبكة وفيديوهات في يوتيوب. فالظاهرُ أنَّ عوام الملاحدة يكثرونَ من السؤال بسبب الأسس التي وضعَها لهم رؤوسهم، ويتأثَّر حتى بعض النَّصارى بهذا الاعتراض، بل نجد أيضًا أنَّ بعضَ المسلمين يسألون هذا السؤال. وعليه، فإنَّه لا بدَّ من الإجابة عنه.

وقد أجاب علماءُ الغرب على هذا السؤال ببعضِ الأجوبة الجيِّدة، كما سيأتي بيانُه في الفقرة الثانية.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماءِ الغرب على شبهة: عدم إمكان رؤية الله:

قد ردَّ علماءُ الغرب على هذا السؤال من أوْجه عديدة، أذكر خمسة منها:

الوجهُ الأوَّل: لا نؤمنُ فقط بما نراه: عندما أجابَ البروفسور جان ماكدويل[١] عنْ سؤال: «إنْ كنت لا أرى الإله، فكيف أعلمُ أنه حقيقة»، بدأ بهذا الجواب قائلًا: «هناك أشياء كثيرةٌ نؤمن بها ولا نراها. هناك جسيماتٌ دونَ الذرّة التي لا يمكن رؤيتها، ولكنْ نؤمنُ بوجودها. هناك حقائقُ أخرى في الطبيعة لا يمكن رؤيتها: مثل الجاذبية، ولكنَّا نرى آثارها... فيمكن أن نعلم أنَّ بعض الأشياء موجودة وإن لم نرها»[٢].

وهذا الجوابُ جيِّد كمقدِّمة في الردِّ على هذا السؤال. وقد أجاب بنظير ذلك علماءُ الإسلام. ومِن ذلك سماحة الشيخ ابن باز (رحمه الله) حيث قال: «فالمقصود أنَّ العلمَ يكون بالرؤية، ويكون بالخبرِ اليقين، ويكون بالملامسة، ويكون بالشم، ويكون بالنَّظر، ويكون بالسماع، **طرقُ العلم كثيرة**، ما هو فقط بمجرد اللمس، اللمس واحدٌ مِن الطرق، ومِن أعظمها، بل أعظمها وأوسعها العلمُ بالخبر، أنت تعلم أن في الدنيا بلادًا يُقال لها: أمريكا، وأنتَ ما زرتها، تعلمُها يقينًا بالأخبار والإذاعات وغير ذلك، تعلمُ أنَّ في الدنيا خلفاءَ مضوا، والنبي محمد ﷺ مضى، وأنتَ لم تحضر ذلك بالأدلة، بالأخبار، تعلم أنَّ في الدنيا أنهارًا مُعينة، وحيوانات معينة، وبحارًا معينة، بالخبر، لا بالرؤية، لم ترها، وتعلم أنَّ في الدنيا

---

(١) جان ماكدويل (Sean McDowel): أستاذ مساعد في الدفاع عن النصرانية في جامعة بيولا بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في نقد الشبهات الإلحادية. انظر:

https://www.biola.edu/directory/people/sean-mcdowell

(٢) المقطع: If I Can't See God, How Do I Know He Is Real?

على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=u7ohWCL2QkI

مدنًا كثيرةً لم ترها، لكن بالخبر، وهذا شيءٌ لا ينتهي، لا حصرَ له»[1]. فطرقُ العلم كثيرةٌ ومتنوِّعة، وإدراك العلم بالشيء عن طريق الحواسِّ الخمس مثلَ الرؤية إحدى هذه الطرق فقط، وليست الطريقة الوحيدة.

الوجهُ الثّاني: لا نؤمنُ بكلِّ ما نراه: حتَّى لو كان الناسُ يرون الله في الدنيا، فلا يضمنُ ذلك أنَّ الكفار سيؤمنون به؛ لأنَّ الرؤية لا تستلزم الإيمان. وقد أجاب اللاهوتي توم حبيب[2] عنْ هذا السؤال بهذا الوجه إذْ قال: «أولاً، نحن بحاجةٍ إلى تبديد الأسطورة القائلةِ بأنَّ الرؤية إيمان. إنه ليس كذلك، بل لم يكنْ كذلك قط. الدليل على ذلك موجودٌ في الأشخاص الذين رأوا يسوع... شهدَ الآلاف من الناس أن يسوع يصنعُ معجزات مُستحيلة على الإنسان... الرؤية غير الإيمان: انظر فقط إلى أولئك الذين رأوا يسوع، ولم يؤمنوا»[3].

وهذا الوجهُ في أصلِه صحيح، وإنْ كان صاحبُ المقال يضرب مثالًا بعدم إيمان جميعِ الناس بمعجزات المسيح، معَ أنَّهم رأوه لأنَّه نصراني. ولكن هذا الأمر وقعَ لنبيِّنا محمد(ﷺ) أيضًا. ومِن الأمثلة على ذلك: قصةُ انشقاق القمر؛ قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ [القمر: ١ - ٣]. فالمشركون

---

(١) إجابة الشيخ عن سؤال: «ما الرد على قول: كيف نؤمن بالله ولا نراه؟»، وهي منشورة على الرابط:
https://binbaz.org.sa/fatwas/20983/%D9%85%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AF-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D9%82%D9%88%D9%84-%D9%83%D9%8A%D9%81-%D9%86%D9%88%D9%85%D9%86-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-%D9%88%D9%84%D8%A7-%D9%86%D8%B1%D8%A7%D9%87

(٢) توم حبيب (Tom Habib): الكاهن الأنجليكاني والباحث في مرحلة الدكتوراه في جامعة كامبردج في اللاهوت النصراني. انظر:
https://au.thegospelcoalition.org/profile/tom-habib/

(٣) المقال: How Can I Believe in God if I Can’t See Him?، وهو منشور على الرابط:
https://au.thegospelcoalition.org/article/can-believe-god-cant-see/

يرون بأعينهم أنّ القمر ينشقُّ نصْفين، ومعَ ذلك أعرضوا وقالوا: إنه سحرٌ مُستمرّ، وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءهم. فالرؤية غيرُ الإيمان. فالمؤمن يؤمنُ بالله معَ أنه لا يراه في الدنيا. والمشركون كذّبوا بالمعجزات مع أنَّها وقعت أمام أعينهم.

الوجهُ الثّالث: الناسُ لا يؤمنون لأنَّهم لا يريدون الإيمان. قد تبيّن في الوجه السّابق أنَّ رؤيةَ الإنسان لشيء لا تضمنُ أنَّه يؤمن به. فلماذا لا يؤمن الكفّارُ بوجود الله إذًا؟ واصل توم حبيب ردَّه السابق بقوله: «لكنَّ هذا يثير سؤالًا. إذا كانت الرؤيةُ تقتضي عدمَ الإيمان - فما هو السببُ الحقيقي لعدم إيمان الناس بالله؟... الناس لا يؤمنونَ لأنَّهم ببساطة لا يريدون أنْ يؤمنوا... على الرَّغم من جميع الأدلة، فهُم يرفضون الإيمانَ لمجرَّد أنهم لا يريدون التصديق. عدمُ إيمانهم لا يقوم على العقل؛ بل على التمرد، يريدونَ أن يعيشوا الحياةَ بطريقتهم الخاصة»[1].

وهذا الوجهُ صحيح مِن ناحية، فعدمُ إيمان الكفار يبدأ بإعراضهم عن الحق؛ فالآياتُ البيِّنات تأتيهم، ولكنَّهم يعرضون، ويكذِّبون، ويتَّبعون أهواءهم. **فيعاقبهم اللهُ بالحيلولة بينهم وبينَ التوفيق إلى الحقّ**؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٩ - ١١١].

وقال العلامةُ السَّعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «أي: ونعاقبهم، إذا لم يؤمنوا أوَّلَ مرَّة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجَّة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبينَ الإيمان، وعدم التوفيق لسلوكِ الصراط المستقيم. وهذا من عدل الله، وحكمتِه بعباده، فإنَّهم الذين جنَوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبيَّن لهم الطريقَ فلم يسلكوا، فبعدَ ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسبًا لأحوالهم. وكذلك تعليقُهم الإيمان بإرادتهم، ومشيئتهم وحدَهم، وعدم الاعتماد على الله من أكبر

---

(١) المصدر السابق.

الغلط، فإنَّهم لو جاءتهم الآياتُ العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم، يشهدونَ للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى، وبعثهم بعدَ موتهم، وحشر كلِّ شيء إليهم حتى يكلمهم ﴿قُبُلًا﴾ ومشاهدة، ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ الله إيمانَهم، ولكنَّ أكثرهم يجهلون. فلذلك رتَّبوا إيمانهم على مجرَّد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلمُ أن يكون العبدُ مقصوده اتِّباع الحق، ويطلبه بالطرقِ التي بيَّنها الله، ويعمل بذلك، ويستعينُ ربه في اتِّباعه، ولا يتَّكل على نفسه وحولِه وقوَّته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدةَ فيه»[1].

فما هي الآياتُ البيِّنات إذًا؟ بيانُ ذلك في الوجه الرابع:

الوجهُ الرّابع: الأدلةُ على وجود الله كثيرة: الذين يسألون: «كيف نعلم أنّ الله موجودٌ معَ أننا لا نراه؟». يعرضونَ عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، كما أنهم يعرضون عنْ جميعِ آياتِ الله الكونية. ولما ردَّ اللاهوتي آرون منيكوف[2] على هذه الشبهة أشارَ إلى أنَّ الطبيعة كلها دليلٌ على وجود الله. ثمَّ استطرد في ذكر الأمثلة على ذلك مما نشاهده، وكذلك من الضبط الدقيق للكون[3].

وهذا الكلامُ صحيح، وطلبُ الملاحدة أن يروا اللهَ مباشرة تحكّم؛ فهُم لا يلتزمون بأنَّ الرؤية هي الطريقةُ الوحيدة للمعرفة، بل كثيرُ العلوم التجريبية قائمة على الاستدلال بالآثار والقرائن؛ فـ«البرهانُ المطلوب تحكُّمي في حصريته؛ إذ لا يقوم عليه شاهدٌ عقلي يقرِّر أنَّ العلم بوجود خالق للكون... لا يكونُ إلّا بمعاينته بالحواس

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٧).

(٢) آرون منيكوف (Aaron Menikoff): القسيس الأمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في اللاهوت النصراني. انظر:

https://mvbchurch.org/about/leadership/staff/aaron-menikoff/

(٣) انظر: المقال: How Do We Know There’s a God When We Can’t See Him? على الرابط:

https://www.christianity.com/bible/apologetics/how-do-we-know-there-s-a-god-when-we-can-t-see-him.html

بطريق مباشر أو أيِّ سبيلٍ آخر يمتنع على المرء أن يشاكسَ في صوابه. وهذا التكلّف مخالفٌ لما يلتزم به الملحدُ في تطلُّب المعرفة في الأوْجه الأخرى جميعها؛ إذ إنَّ العلم الطبيعي - مثلًا - قائم في كثيرٍ من مباحثِه على الآثار والقرائن لا النظر المباشر، خاصة في مباحث الفيزياء والكوسمولوجيا[١]...»[٢].

وقد ذكرَ العلامةُ ابن باز (رحمه الله) وجهًا قريبًا من هذا الكلام في جوابه عن هذا السُّؤال أيضًا: «هذا مِن الإيمان بالغيب: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة:٣]، **فتؤمن بالله، وقد رأيت آياته، أنتَ من آياته،** أنتَ مخلوقٌ من آياته، الذي أعطاك السمع والبصر، والعقلَ والجوارح، وخلق الماء، وخلقَ لك هذه النعم، هذه آياته الدالة عليه، «في كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنه واحد»، وأنتَ لم تُخلق عبثًا، وآياتُ الله لا تُحصى: من أنهارٍ، وبحارٍ، وجبالٍ، وسماء، وأرض، وغير ذلك، وأنت من آياته، كما قال ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١]»[٣].

ونبَّه العلامةُ ابن باز (رحمه الله) على أمرٍ مهمٍّ للغاية في جوابه هذا، وهو أنَّ الإنسانَ نفسَه آيةٌ من آيات الله. فالإنسانُ لا يحتاج أن ينظر بعيدًا بحثًا عن آيات الله، فالإنسانُ نفسه آية من آياته. وهذا يقود إلى الوجه الخامس:

الوجهُ الخامس: العينُ نفسُها دليلٌ على وجود الله: الملحدُ الذي يسأل السؤالَ عنْ رؤية الله ينسى أنَّ العين التي ينظر بها مِن أعظم الآيات على وجود الله. وقد ذكر الدكتور جوزيف نالي[٤] الوجهَ في ردِّه على هذا السؤال؛ فقال: «العينُ مدهشة للغاية! يجبُ أن تكون جميعُ الأنظمة الفرعية المنفصلة موجودة، وتعمل بشكلٍ

---

(١) بمعنى علم الكون.

(٢) براهين وجود الله (٧٦).

(٣) إجابة الشيخ عن سؤال: «ما الرد على قول: كيف نؤمن بالله ولا نراه؟»، المشار إليها سابقًا.

(٤) جوزيف نالي (Joseph Nally): عالم اللاهوت الأمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في اللاهوت النصراني. انظر:

http://reformedanswers.org/search.asp/au/jos_nally

مثالي في نفس اللَّحظة، وإلّا فلن تعمل العين... لذلك، يمكننا أنْ نرى تصميم العين، إنَّه عجيب، ووجودُها ليس مجرَّد صدفة، بل لها مصمِّم واسمه الإله. لذلك، في كلِّ مرَّة ترى فيها غروبَ الشمس وشروقَ الشمس والقمر والنجوم والمحيطات وكلَّ عجائب الخلق العديدة الأخرى؛ فإنَّ الله هو الذي أعطاك عينًا لرؤيتها»[1].

وإرشادُ السائل عنْ رؤية الله إلى تأمُّل عينيه أوّلًا، ثمَّ إلى استخدام العينين في النظر إلى آياتِ الله تعالى طريقة ذكيَّة في الردِّ على هذه الشبهة، وينبغي الاستفادة منها.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة: عدم إمكان رؤية الله:

قد سبقَ أنَّ شبهة: عدم إمكان رؤية الله ليست منتشرةً بين الملاحدة اليوم، ولهذا كانت ردودُ علماء الغرب عليها قليلة. ومعَ ذلك، فقد نبَّهوا على بعض النقاط المهمَّة في الردِّ على هذه الشُّبهة. فردودُهم جيِّدة من حيث العموم، إلّا أنهم يستخدمون وجهيْن باطلين في ردِّهم على هذه الشبهة، وهما:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ الإله أظهرَ نفسَه عن طريق المسيح. ذكر بعض من ردَّ على هذه الشُّبهة هذا الوجْه[2]. وهو وجهٌ في غاية الضعف بسببين:

السببُ الأوَّل: أنَّه مبنيٌّ على عقيدةٍ فاسدة، وهي الإيمان بألوهية المسيح وحلول اللّاهوت في الناسوت. وقد ردَّ اللهُ - تبارك وتعالى - على هذا الاعتقاد في الآيات

---

(١) المقال: If I Cannot See God, I Cannot Believe in God, وهو منشور على الرابط:
http://reformedanswers.org/answer.asp/file/40705

(٢) انظر المقال: How do I know God exists, when I cannot see Him? How do I know the Bible is truly God's Word?
وهو منشور على الرابط:
https://bible.org/seriespage/q-how-do-i-know-god-exists-when-i-cannot-see-him-how-do-i-know-bible-truly-god-s-word

التالية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. ثمَّ قال اللهُ تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

فبيَّن اللهُ تعالى حجَّتين أساسيتين في نقضِ دعوى ألوهية المسيح:

الحجَّةُ الأولى: أنَّ المسيح نفسه دعا الناس إلى عبادة الله.

الحجَّةُ الثّانية: أنَّ المسيح وأمَّه كانا يأكلان الطعام. قال العلامة السعدي (رحمَه الله) معلّقًا على هذه الحجَّة أنَّ هذه الآية: «دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، مُحتاجان كما يحتاجُ بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانَا إلهيْن لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجَا إلى شيء، فإنَّ الإله هو الغني الحميد»[1].

ويمكن إلزامُ النَّصارى بأنَّ هاتين الحجَّتين موجودتان في كتابهم المقدَّس. فيقول كتابُهم المقدَّس إنَّ الشيطان جاء إلى المسيح، وطلبَ منه أن يسجدَ له، فأجابه بقوله: «اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! إِنَّهُ مَكْتُوبٌ: **لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ**»[2].

كما أنَّه مكتوبٌ في أعمال الرسل: (الإِلَهُ الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمَ وَكُلَّ مَا فِيهِ هَذَا إِذْ هُوَ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْكُنُ فِي هَيَاكِلَ مَصْنُوعَةٍ بِالأَيَادِي **وَلاَ يُخْدَمُ بِأَيَادِي النَّاسِ كَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى شَيْءٍ** إِذْ هُوَ يُعْطِي الْجَمِيعَ حَيَاةً وَنَفْسًا وَكُلَّ شَيْءٍ)[3]. فكيف يكون المسيحُ إلهًا وكان بحاجةٍ إلى أكل الطعام؟ هذا دليلٌ واضح في الردِّ على دعوى ألوهيته.

السببُ الثّاني: الذي يسأل هذا السؤالَ لا يسأل عن المسيح الذي مشى على وجْه الأرض، ويعتقد النصارى أنَّه إلهٌ ويسمُّونه الابن. بل الذي يسأل هذا السؤال يسألُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢١٩).

(٢) لوقا (٤/ ٨).

(٣) أعمال الرسل (١٧/ ٢٤ - ٢٥).

عن خالق السماوات والأرض، الذي يسمِّيه النصارى بالأب. فكلامهم عن المسيحِ وألوهيته في ردِّهم على هذا السؤال في الحقيقة؛ حيدةٌ عن الجواب.

الوجهُ الثّاني: أنَّ البروفسور جان ماكدويل ذكرَ مِن أوجه الردِّ على هذه الشبهة أنّه لا يمكن رؤيةُ الإله لأنَّ الإله روحاني[١].

وهذا كلامٌ باطل. فلا يجوز إطلاقُ وصف (روحاني) على الله تعالى، فهذا من مُبتدعات النصارى، بل لله تعالى ذاتٌ مقدَّسة بالصفات العلية، وليس كمثله شيء في ذاتِه ولا صفاته جلَّ في علاه. وكذلك فإنَّ رؤيةَ الله تبارك وتعالى ممكنة في الدنيا؛ قال العلّامة ابنُ أبي العز الحنفي (رحمه الله): «... فإنَّ الرؤية في الدنيا ممكنة، إذ لو لم تكنْ ممكنة لما سألها موسى ﵇»[٢]. وقد ذكرَ اللهُ في القرآن أنَّ موسى طلب أن يرى الله، كما أنَّ هذا الطلب مذكورٌ في كتابهم المقدَّس. ولكن مِن تناقضات كتابهم المقدّس أن الإله أجابَ في ذلك الموضع: (لا تَقْدِرُ انْ تَرَى وَجْهِي لانَّ الْانْسَانَ لا يَرَانِي وَيَعِيشُ)[٣]، مع أنَّه مكتوب قبل ذلك في السفر نفسه: (وَيُكَلِّمُ الرَّبُّ مُوسَى وَجْها لِوَجْهٍ كَمَا يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ)[٤].

فالنصارى يتخبَّطون في هذه المسألة بناءً على التناقضات في هذا الكتاب. والصوابُ عند أهل السُّنة أنَّ رؤية الله ممكنة في الدنيا، ولكنْ لا نراه لعجز أبصارنا عن ذلك؛ قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله): «وإنما لم نَرَهُ في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤيا... فإذا كان في الدار الآخرة أكملَ الله قوى الآدميين حتى أطاقهم رؤيته»[٥]. فرؤيةُ الله في الدنيا ممكنة، ولكنَّ أبصارنا لا تطيق ذلك، وأما في الآخرة فإنَّ رؤيةَ الله أعظمُ النعيم؛ قال النبي (ﷺ): «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، قالَ:

---

(١) المقطع: If I Can’t See God, How Do I Know He Is Real? المشار إليه سابقًا.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١ / ٤٣٤).

(٣) سفر الخروج (٣٣ / ٢٠).

(٤) المصدر السابق (٣٣ / ١١).

(٥) منهاج السنة (٢ / ٣٣٢ - ٣٣٣).

يقولُ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أزِيدكُم؟ فيَقولون: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنا الجَنَّةَ؛ قالَ: فيَكشِفُ الحِجابَ، فَما أُعْطُوا شيئًا أحَبَّ إليهِم من النَّظَرِ إلى رَبِّهِم عزَّ وجلَّ»[1].

والخلاصةُ أنَّ شبهة: عدم إمكان رؤية الله شبهة ضعيفة جدًّا، وقد أحسن علماءُ الغرب في الردِّ على هذه الشُّبهة من بعض الأوجه، وكانت ردودُهم باطلة من أوجه أخرى. والحقُّ الخالص لا يكون إلا في الإسلام.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨١)، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، من حديث صهيب الرومي (رضي الله عنه).

المبحثُ الرّابع
ردودُهم على شبهةِ تناقض القدرة المطلقة

قد تقدَّم الحديثُ في المبحث الأوَّل من هذا الفصل عن شبهة: الخصائص غير المتوافقة. وذكرت أنَّها شبهةٌ عامَّة تتضمَّن شبهات متعدّدة. ومن أشهر هذه الشبهات: شبهة تناقض القدرة المطلقة (Omnipotence Paradox)[1]. ملخّص هذه الشبهة أنّ المؤلهة يعتقدونَ أنَّ الله متَّصف بالقدرة المطلقة؛ فهو قادرٌ على كلِّ شيء. ولكنهم يقولون: إنّ القدرةَ المطلقة مستحيلة، ولو قيل: «الإله قادرٌ على كلِّ شيء»، فلا بدَّ من وجود بعض الاستثناءات من كلمة «كلّ شيء»، وإن لم يكن كذلك، فإنّه يعدّ تناقضًا.

وسأقسِّم هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: تناقض القدرة المطلقة.

الفقرةُ الثّانية: صياغةُ شبهة: تناقض القدرة المطلقة.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: تناقض القدرة المطلقة.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: تناقض القدرة المطلقة.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: تناقض القدرة المطلقة:

أوَّل مَن أورد هذه الشبهة هُم اللاهوتيون النصارى عندما تحدَّثوا عن القدرة المطلقة؛ فأوردوا اعتراضاتٍ عليها. وهؤلاء لم يكونوا ملاحدة، وما قصدوا

---

(١) ذكر باتريك غريم - بروفسور الفلسفة الأمريكي - أنّها أكثر انتشارًا من الشبهات المتعلّقة بعلم الله المحيط في:

Impossibility Arguments, in The Cambridge Companion to Atheism (204)

إيرادَ الاعتراضات من أجلِ التَّشكيك، وإنَّما أوردوها على طريقة المتكلّمين واللاهوتيين باعتبار أنها شبهات قد تُثارُ عن القدرة المطلقة مع ذكر كيفية الإجابة عنها[١].

ومِن الأمثلة على ذلك ما ذكره اللاهوتي الشهير توما الأكويني في كتابه الأشهر: «الخلاصة اللاهوتية» (Summa Theologica) في الجزء الأوّل، السؤال الخامس والعشرون، المقالة الثالثة، إذْ عنْون بقوله: «هل الإلهُ قادرٌ على كلِّ شيء؟»[٢]، ثمّ كتب: «يظهر أنَّ الإله ليس قادرًا على كلِّ شيء.

الاعتراضُ الأوَّل: أنْ يحرِّكه أحدٌ أو يتصرَّف فيه يدخل في جملة «كلّ شيء»، ولكنَّ الإله لا يمكن تحريكه ولا التصرُّف فيه؛ لأنَّه... غيرُ قابل للتغيير. وعليه، فإنه ليس قادرًا على كلّ شيء.

الاعتراضُ الثّاني: الوقوعُ في الذَّنب هو فعلُ شيء. والإله لا يمكنه الوقوع في الذَّنب، ولا إنكار نفسه كما يعبَّر به في ٢ تيموثاوس[٣] ٢:١٣. وعليه، فالإله غير قادرٍ على كلِّ شيء...»[٤]، وأوردَ اعتراضين آخرين متشابهين بعد ذلك، ثمَّ قال:

«وبالمقابل لهذا، فإنَّ لوقا ١: ٣٧ يقول: «لأنه لا يوجد شيء غير ممكن عند الله». وأنا أجيب: كلُّ أحد يعترف بأنَّ الإله قادر على كلِّ شيء، ولكن يبدو من الصعب أن يصاغَ تقريرٌ عن القدرة المطلقة، لأنَّه يمكن أن تورَد شبهات على مضامين

---

(١) انظر:

The Philosophy of Religion (83), by: Edward R. Wierenga (Wiley Blackwell, 2016)

(2) Summa Theologica, Book 1, Question 25, Article 3,

وهو موجود على الرابط:

https://www3.nd.edu/~afreddos/summa-translation/Part%201/st1-ques25.pdf

(٣) يشير إلى رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس.

(٤) المصدر السابق.

كلمة: «كلّ شيء» عندما يقول أحد: «الإلهُ قادرٌ على كلِّ شيء»[١]. ثمّ بدأ بالردّ على هذه الشُّبهة بعد ذلك. وأسَّس ردَّه على أنَّ الإله قادرٌ على جميع الممكنات، وأمّا المستحيلاتُ فلا تدخل تحتَ لفظ: «قادر على كلِّ شيء»، قد تبع أكثر اللاهوتيين هذا الرَّأي بعده[٢]. وسوف نعودُ إلى هذه الردود لاحقًا - إن شاء الله -.

ثمَّ جاء رينيه ديكارت في القرن السادس عشر، وذكرَ هذه الشبهة، ولكنّه ردَّ عليها مِن منظور آخر، وهو أنَّ الإله قادرٌ على كلِّ شيء، سواء كان من الممكنات أو المستحيلات؛ فديكارت يرى أنَّ الإله قادرٌ على جعل المثلَّث مربّعًا مثلًا[٣]. ولكن حسبَ التتبُّع والاستقراء فلم يتلقَّ هذا القول قبولًا واسعًا بين اللاهوتيين والفلاسفة النصارى.

وفي القرن العشرين، استجدَّ النقاشُ عن القدرة المطلقة بين الفلاسفة في الغرب. وفي عام ١٩٦٣م، نشرَ جورج مافروديس[٤] مقالاً فلسفيًّا بعنوان: «بعض الألغاز المتعلّقة بالقدرة المطلقة» (Some Puzzles Concerning Omnipotence) في دورية المراجعة الفلسفية[٥]، وضربَ مثالاً لهذا التناقض المزعوم، وهو السؤال: «هل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر:

Analytic Philosophy of Religion (78), by: James Franklin Harris, (Kluwer Academic Publisher, 2002).

(٣) انظر:

The philosophical writings of Descartes (2:294), by: Rene Descartes, (Cambridge University Press, 1984-1991)

(٤) جورج مافروديس (George Mavrodes): بروفسور فلسفة الدين في جامعة ميشيغان بالولايات المتَّحدة. توفي عام ٢٠١٩م. انظر:

https://lsa.umich.edu/philosophy/news-events/all-news/search-news/in-memoriam-george-mavrodes.html

(5) Some Puzzles Concerning Omnipotence, The Philosophical Review 72, 1963

يستطيع الإلهُ أن يخلق حجرًا، ثمَّ لا يقدر أن يحمله»؟ ثمَّ ردَّ البروفسور مافروديس على هذا التناقض المزعوم.

وفي عام ١٩٦٥م، نشرَ سي واد سافيج[١] ردًّا على ذلك المقال بعنوان: «مفارقة الحجر» (The Paradox of the Stone) في تلك الدورية نفسها[٢]. واشتهرت هذه الشبهة بعدَ ذلك بهذا الاسم. وهو مِن الأمثلة الشعبية بينَ الملاحدة إلى اليوم التي يذكرونها في مناقشاتهم مع المؤلهة.

وقد ذكر عددٌ من الملاحدة هذه الشبهةَ في مؤلفاتهم[٣].

الفقرةُ الثّانية: صياغةُ شبهة: تناقض القدرة المطلقة:

هذه الشبهةُ تُصاغ على طريقة السؤال: «هل الله قادرٌ على أن يخلق حجرًا لا يستطيع أن يحمله؟» كما أنَّها تصاغ أيضًا بطريقةٍ منطقية، كما فعل البروفسور سي واد سافيج في مقاله: «مفارقة الحجة». وهذه الصياغة كالآتي:

١) إمَّا أنَّ الإله يستطيع أن يخلق حجرًا ولا يقدرُ حمله، وإمّا أنه لا يستطيع أن يخلقَ حجرًا لا يقدر حمله.

٢) إنْ كان الإلهُ يستطيع أن يخلقَ حجرًا ولا يقدر حمله، فإنّه ليس بقادر على كلِّ شيء (حيث إنه لا يستطيع أن يحملَ الحجر المذكور).

---

(١) سي واد سافيج (C. Vade Savage): بروفسور الفلسفة في جامعة ميشيغان بالولايات المتَّحدة. انظر:

https://www.upress.umn.edu/people/c-wade-savage

(2) The Paradox of the Stone, The Philosophical Review 76, 1967

(٣) ذُكرت هذه الشبهة في المراجع الآتية:

Atheism Explained from Folly to Philosophy (225-228), by David Ramsay Steele.

Atheism-A Guide for the Perplexed (79-81)

Impossibility Arguments, by Patrick Grim, in The Cambridge Companion to Atheism (199)

٣) إنْ كان الإله لا يستطيعُ أن يخلق حجرًا لا يقدر على حمله فهو ليس قادرًا على كلِّ شيء (حيث إنه لا يستطيع أن يخلق الحجر المذكور).

٤) إذًا، الإلهُ ليس بقادر على كلِّ شيء[١].

هذه هي الصياغةُ المعروفة لمفارقة الحجر.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: تناقض القدرة المطلقة:

قد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهات من أوْجه كثيرة، وأبرزها أربعة:

الوجهُ الأوَّل: أساسُ الردود لهذه الشُّبهة هو بفهْم المقصود بالقدرة المطلقة، وأنّه قادرٌ على كلِّ شيء. فـ«كلُّ شيء» هنا يشمل الممكناتِ دونَ المستحيلات. وقد أشار توما الأكويني إلى ذلك بعدَ أن ذكر الاعتراضات على القدرة المطلقة فقال: «إذا نظر المرءُ إلى الأمر بشكل صحيح، فحيث إنَّ القدرة تُذكر في سياق الأمور الممكنة، فيتبع ذلكَ أنَّه إذا قيل: «إنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء»، فالمقصود: أنّه قادر على الأشياء الممْكنة، ولهذا يوصَف اللهُ بأنَّ لديه قدرة مطلقة»[٢]. ثمَّ بيَّن أنَّ المتناقضات لا تدخل في جُملة: «كلُّ شيء»؛ فقال: «وعليه، فكلُّ أمرٍ لا يشمل التناقض يدخل في الأشياء الممْكنة بخصوص ما تسمَّى بقدرة الله المطلقة»[٣].

فقبْل أن يسأل الملحدُ هذا السؤال، فلا بدَّ أن يفهم طبيعة إيمان المؤمن بهذه الصِّفة، وإلّا كان الانتقادُ من قبيل مغالطة رجل القش.

الوجهُ الثّاني: وهو بيانُ أنَّ هذا السؤال متناقض في ذاته. وقد بيّن البروفسور جيورج مافريدوس ذلك بأنَّ هذا السؤال يمكن أن يتوجَّه إلى الإنسان ذي القدرة المحدود؛ فيقال: «هل يستطيع الإنسانُ المحدود في قدرته أن يصنع شيئًا، ثمّ لا يستطيع أنْ يحمله؟» ولكن لا يتوجَّه هذا السؤال إلى الإله القادرِ على كلِّ شيء، لأن

---

(١) انظر: The Paradox of the Stone, The Philosophical Review 76, 1967, (p. 74)

(2) Summa Theologica, Book 1, Question 25, Article 3

(٣) المصدر السابق.

السؤال يكون: «هل يستطيع الإلهُ القادرُ على حمل كلِّ شيء ألا يحمل حجرًا؟ وهنا يبرز التناقضُ في السؤال»[1].

الوجهُ الثّالث: وأضافَ البروفسور وليام لاين كرايغ أنّ المذكور في هذا السؤال لا يعدُّ شيئًا، وغايةُ المذكور هو جملةٌ من الكلمات المتناقضة. وعليه، فلا يمكن أن نتحدَّث عنْ شيء لا يقدر الإله على فعله[2].

الوجهُ الرّابع: ذكر صاحبُ المقال: «الإله، القدرة المطلقة ومفارقة الحجر» (God, Omnipotence and the Stone Paradox)، بعض الأوجه السابقة، ثمّ أضاف وجهًا آخرَ بقولِه: «لتعزيز النُّقطة السابقة: تفترض هذه الحجةُ أنَّ الوزن هو خاصية جوهرية للحجر، في حين أننا نعلم أنَّ الوزن مجرَّد قوة ثقالية يمكن إلغاؤها بحيث تساوي الصفر. الخاصيةُ الجوهرية هي كتلةُ القصور الذاتي للحجر. وعليه، فإنَّ السؤال الوحيد المشروع: ما إذا كان الإلهُ يستطيع تسريعَ الحجر خلال تطبيق قوة كبيرة بما فيه كفاية. وحجر الكتلة اللانهائية يتطلَّب قوةً لانهائية لتسريعها. إذا كان الإلهُ يستطيع أن يخلق حجرًا من الكتلةِ اللانهائية، فيمكنُه أيضًا إنشاءُ قوة ذات حجم غير محدود، ومن ثمَّ نقل الحجر. يجبُ أن ينطبق الأمرُ نفسه على أيِّ كتلة غيرِ محدودة وقوَّة. لكن بحكم التعريف، لا يمكنُ أن يكون للكتلة كتلةٌ أكبر من اللانهاية، لذلك لا يوجد حجرٌ ممكن لا يستطيع اللهُ تحريكه»[3].

---

(١) انظر:
Some Puzzles Concerning Omnipotence, The Philosophical Review 72, (p. 221-223)

(٢) ذكر ذلك في كلمة على البودكاست: Defenders, بعنوان: (Doctrine of God (Part ١٧، وهي مفرّغة على الرابط:
https://www.reasonablefaith.org/podcasts/defenders-podcast-series-2/s2-doctrine-of-god-attributes-of-god/doctrine-of-god-part-17/

(٣) المقال: God, Omnipotence and the Stone Paradox, وهو موجود على الرابط:
https://philosophicaugustine.wordpress.com/2013/05/21/god-omnipotence-and-the-stone-paradox/

وهذا الردُّ فيه ذكاء، حيث يخاطب المتشكِّك بكلام مبنيٍّ على العلم التجريبي، وبيان ماهية الثقل في الحجر، وعليه، فيبيِّن أنَّ هذا السؤال سؤال فاسد.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة: تناقض القدرة المطلقة:

ردودُ علماء الغرب على شبهة: تناقض القدرة المطلقة تنقسم إلى قسمين:

القسمُ الأوّل: ردودٌ عقلية جيّدة.

القسمُ الثّاني: كلامٌ فلسفي معقّد لا طائل من ورائها.

وقد تعمَّدت الإعراضَ عن القسم الثاني من هذه الردود، لأنّها ردود في المجلّات الفلسفية المتخصّصة، ولا فائدة كبيرة من ترجمتِها إلى اللغة العربية، ثمَّ الردّ عليها. وأمّا الردودُ التي سبق ذكرُها في المبحث، فهي ردودٌ عقلية جيّدة. وأصلُ هذه الردود يرجع إلى المفهومِ الصحيح للقدرة المطلقة، وأنَّ المستحيلات لا تدخل في هذه القدرة. وهذا ما نصَّ عليه شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) أيضًا إذ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٠]: «يتناول ما كان شيئًا في الخارج والعلم، أو ما كان شيئًا في العلم فقط، بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة وهو الحقُّ تعالى وصفاته، **أو الممتنع لنفسه فإنَّه غير داخل في العموم**، ولهذا اتفق الناس على أنَّ الممتنع لنفسه ليس بشيء»[(١)].

وهذا الردُّ قريب مما ذكره توما الأكويني، وردُّه هو أساس ردود النصارى على هذه الشبهة.

«وأساسُ الغلط في تلك الأسئلة راجعٌ إلى الخلط بين ما يمكن أن يقوم في الذهن وبينَ ما يمكن أن يتحقَّق في الخارج، فما يقوم في الذهن أوسع بكثير مما يمكن أن يقع في الوجود، فالذهنُ الإنساني قد يتصوَّر أمورًا كثيرة تكون مستحيلة التحقّق في الخارج، فمجرَّد التصوّر الذهني لا يستلزم إمكانَ التحقُّق في الخارج؛ وذلك أن الوجود الخارجي له طبيعةٌ مختلفة عن طبيعة الوجود الذهني، والظروف المشترطة في تحقّقه مختلفة عن الظُّروف المشترطة في الوجود الذهني.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٨٣).

ولكنَّ المعترضين بتلك الأسئلة يغفلون عنْ هذه الفروق الجوهرية المؤثّرة بين الوجودين، بلْ يجهلونها، ويطالبونَ الآخرين بالاستجابة لنتائج غفلتهم وجهلهم، وإن لم يفعلوا حكموا عليهم بالجهْل وعدم العلم!

الطريقةُ الصَّحيحة في التعامل مع الأسئلة التي يتحقَّق فيها الخلط بين طبيعة الوجود الذهني والوجود الخارجي تنحصرُ في بيانِ وجه الخطأ في ذلك الخلط، ولا يصحُّ أن يسترسلَ المسئول في الجواب عنْ مضمونها بالنفي أو الإثبات»[1].

وهذا يلخِّص نقدَ هذه الشبهة بطريقة جيِّدة، ويبيّن مدى سخافتها، وأنَّها مبنية على مُغالطات وسوءِ فهْم للمراد بالقدرة المطلقة.

---

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢ / ١١٧ - ١١٨).

المبحثُ الخامس

ردودُهم على شبهةِ الوحي غير المتناسق

الشُّبهاتُ الإلحادية تتَّخذ صورًا وأشكالًا مختلفة، فبعضُها موجَّهة إلى أصل الإيمان بوجودِ خالق، ويشترك المؤلهة والربوبيون في هذا الإيمان معًا.

وبعضُ الشُّبهات الإلحادية موجَّهة ضدَّ إيمان المؤلهة خاصَّة - كما سبق -، ولا تتوجّه إلى الربوبيين. و«يختلف الربوبيون عنِ المؤلهة أساسًا في علاقة الإله بالخلق؛ فالربوبيون ينكرونَ الوحي، ويعارضون الأديان، ويروْن أنَّ الإله الخالق لم يتواصل مع أحد من البَشر»(١). وقد وقفَ الربوبيون والملاحدة في خندقٍ واحد في إثارة الشبهات المتعلقة بالوحي الإلهي. ومِن ذلك الشبهةُ التي يسمُّونها بـ: «حجة الوحي غير المتناسق» (The Argument from Inconsistent Revelations).

خلاصةُ هذه الشُّبهة أنَّه يستبعد أنَّ الإله الذي يؤمن به المؤلهة موجود؛ لأنَّ المؤلهة يؤمنونَ بأديان مختلفة، ويدَّعون أنَّ أديانهم تستند إلى الوحي الإلهي. وهذا الوحي مُتعارض وغيرُ متناسق. وحيث إنَّ هذا التعارض موجود فإنه يدلُّ على عدم وجود الوحي أساسًا. وعليه، فإنَّ الخالقَ الذي يؤمن به المؤلهة غير موجود(٢).

وسأقسِّم هذا المبحثَ إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تقريرُ الربوبيين والملاحدة لشبهة: الوحي غير المتناسق.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: الوحي غير المتناسق.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: الوحي غير المتناسق.

---

(١) انظر: براهين وجود الله (٥٩).

(٢) انظر المقال: Argument from Inconsistent Religion :

http://self.gutenberg.org/articles/Argument_from_inconsistent_revelations

الفقرةُ الأولى:
تقريرُ الربوبيين والملاحدة لشبهة: الوحي غير المتناسق:

قدْ ظهرت هذه الشُّبهة في عصر التنوير حينَ علا صوتُ الربوبيين. وكان الفيلسوف الرُّبوبي فولتير يستخدمُ هذه الشبهة[1]، ثمَّ تلقَّفها الفيلسوف دنيس ديدرو[2]، الذي كان ربوبيًّا في أوَّل أمره، ثمّ تحوَّل إلى الإلحاد. وكان ديدرو يستخدم هذه الشبهة لمعارضة رهانِ باسكال - كما تقدَّم في المبحث المخصّص لتلك الحجَّة -.

وفي هذا الزمان، يستخدم سام هاريس هذه الشبهةَ في عددٍ من المواطن كحجةٍ إلحادية. وقد قرَّر هذه الشبهة في مقدِّمة كتابه: «رسالة إلى أمة مسيحية» (Letter to a Christian Nation)، فيقول: «أنت تؤمن أنَّ الكتاب المقدّس هو كلمة الله، وأنَّ يسوع هو ابنُ الله، وأنَّ الذين يؤمنون بيسوع هُم وحدهم الذين سيجدون الخلاص بعد الموت. ليسَ لأنَّها تجعلك تشعرُ بالرضا، ولكنْ لأنَّك تعتقد أنها صحيحة... إذا كانت المسيحية صحيحة، وأصرَّت على عدم الإيمان، يجب أن أتوقَّع الذهاب إلى الجحيم. والأسوأ من ذلك هو أنَّني أقنعت الآخرين بذلك - وكثيرٌ منهم قريبون منِّي - برفض فكرة الإيمان بالله... إنْ كانت العقيدةُ الأساسية للمسيحية صحيحة، فقد أسأت استخدامَ حياتي بأسوأ طريقة يمكن تصوُّرها. أعترفُ بذلك مباشرة. والحقيقة أنَّ رفضي المستمرّ والعلني للمسيحية لا يُقلقني على الأقلّ؛ يوحي لك أنَّني أعتقد أن أسباب كونك مسيحيًّا غير كافية...»[3].

ثمَّ واصل بعدَ ذلك شبهتَه بعدَ صفحتين بقوله: «تأمَّل: كلُّ مسلم متديِّن لديه الأسبابُ نفسها لكونه مسلمًا التي لديك لكونك مسيحيًّا. ومع ذلك، فإنّك لا ترى هذه الأسبابَ مقنعة. القرآنُ يُعلن مرارًا وتكرارًا أنَّه الكلمة المثالية لخالق الكون. ويؤمن المسلمون بذلك تمامًا كما تؤمنُ أنت بذلك عن الكتاب المقدَّس... لماذا

---

(١) انظر: Voltaire in Candide and Philosophical Dictionary
بواسطة: المصدر السابق.

(٢) انظر: Pensées philosophiques, LIX, Volume 1 (in French). (p. 167).

(3) Letter to a Christian Nation (3-4)

لا يصعب عليك النومُ في الليل بسبب التفكير في اعتناق الإسلام؟ هل تستطيع أن تثبت أنَّ الله ليسَ هو الإله الحقيقي؟ هل تستطيع أن تثبتَ أنَّ رئيس الملائكة جبريل لم يزر محمدًا في كهفِه؟ بالطبع لا. ولكنَّك لا تحتاج إلى إثباتِ أيٍّ من هذه الأشياء لرفض معتقدات المسلمين باعتبارها سَخيفة. العبء عليهم لإثبات أنَّ معتقداتهم عن الله ومحمد صحيحة، ولم يفعلوا ذلك، ولا يمكنُهم القيام بذلك. المسلمون ببساطة يدعون دعاوى عنِ الحقيقة يحتاج إلى إثبات. هذا الأمرُ واضح تمامًا لمن لم يخدِّر نفسَه بعقيدة الإسلام.

والحقيقةُ هي كالتالي: أنتَ تعرف بالضبط أنَّ الأمر يشبه أن تكون ملحدًا فيما يتعلَّق بمعتقدات المسلمين. أوَليسَ من الواضح أنَّ المسلمين يخدعون أنفسهم؟... نعم، هذه الأمورُ واضحة. افهم أنَّ الطريقة التي تنظر بها إلى الإسلام هي بالضبط الطريقة التي ينظرُ بها المسلمون المتديّنون إلى المسيحية. وهذه هي الطريقة التي أنظر إلى جميع الأديان»[1].

وأوردَ البروفسور فيليب بيكوريني[2] هذه الشبهةَ عندما انتقد حجَّة الوحي على وجودِ الله (Argument from revelation). وخلاصة شبهته أنه لا يمكن الاستدلالُ بالوحي على وجود الله، لأنَّ ديانات متعارضة تدّعي أنها مبنية على الوحي[3].

---

(١) المصدر السابق (٦).

(٢) فيليب بيكوريني (Philip Pecorini): بروفسور الفلسفة في كلية كوينسبوروغ بالولايات المتحدة، ومتخصِّص في فلسفة الأديان. انظر:

www.qcc.cuny.edu/faculty-staff/bio/pecorino.html

(3) Chapter 3: Philosophy of Religion, Proofs for the Existence of God, Argument from Revelation

وهو موجود على هذا الرابط:

http://www.qcc.cuny.edu/SocialSciences/ppecorino/INTRO_TEXT/Chapter%203%20Religion/Arg_Revelation.htm

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة:

هذه الشُّبهة، وإن كان يستدلُّ بها بعض الملاحدة، إلّا أنَّها غير منتشرة في خطابهم. وقد أجرى بعضُ الباحثين دراسةً عن آراء أكثر من ٨٠٠ فيلسوف في أقوى الحجج ضدَّ الإيمان، وكانت حجَّة الوحي غير المتناسق في الترتيب السادس من ثماني حجج[١]. فدلَّ ذلك على أنَّ الملاحدة الفلاسفة أنفسهم لا يرون أنَّ هذه الحجة قويّة. ولعل ذلك مِن أسباب قلَّة ردود علماء الغرب عليها.

والإشكالُ في ردودِ علماء الغرب على هذه الشبهة بالذات، أنهم خلطوا ردودهم معَ سرْد الأدلة المؤيِّدة للنصرانية - في زعمهم -. ولهذا كان الاستشهاد بكلامهم من الخطورةِ بمكان. ولهذا سوفَ أكتفي بذكر أربعة أوجه في الردِّ على هذه الشبهة:

الوجهُ الأوَّل: هذه الشبهةُ مبنيَّة على أنَّ الاختلاف بين الوحي يكون دليلًا على بطلانِ الأديان كلّها، وبناءً على ذلك ينكر الملاحدةُ وجود الخالق. ولكن الاستدلال بوجودِ الخلاف لا يلزم إبطالَ أصل الفكرة. وقد ألزم البروفسور ألفن بلانتغا الملاحدة بذلك في قضيَّة السياسة والفلسفة. فذكر أنَّ السياسيين يختلفون في سياساتهم والفلاسفة يختلفون في فلسفتهم، ولا يدلُّ ذلك على بطلان علوم السياسة أو الفلسفة[٢].

وهذا الإلزامُ صحيحٌ في أصله، حيث إنَّ كثيرًا من الملاحدة يعظّمون علمَ السياسة والفلسفة. ولكن يمكن ذكرُ هذا الإلزام في جميع العلوم والمعارف التي يعظّمها

---

(١) انظر:

How Do Philosophers Evaluate Natural Theological Arguments?, by: Helen de Cruz and Johan De Smed

والبحث منشور على الرابط:

https://www.academia.edu/12244038/How_do_philosophers_evaluate_natural_theological_arguments_An_experimental_philosophical_investigation

(٢) انظر المقطع: Can All Religions Be True?، وهو موجود في الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=3CyMlqiMqvU

الملاحدة. فالعلماءُ التجريبيون يختلفونَ في كثير من النظريات العلمية، وعلماء الأخلاق يختلفون في تحديدِ الأخلاق الفاضلة إلى غير ذلك. ولا يدلُّ ذلك على أنّ العلم التجريبي أو علم الأخلاق خطأ. فهذا يدلُّ على أنّ الاعتراض خطأ في أصله.

الوجهُ الثّاني: ردَّ البروفسور ريتشارد سوينبورن على هذه الشبهة بطريقة بديعة؛ ملخَّصها أنَّه قد تتعدَّد الرسائل المنسوبة إلى شخصٍ واحد، وبعض الرسائل تصحُّ نسبتُها، وبعضها لا تصحّ. ومِن أجل التمييز بين هذه الرسائل، فلا بدّ من النظر إلى الدَّلائل التي يمكن التمييزُ بها بين النسبة الصحيحة والنسبة الباطلة، مثل: النظر إلى التَّوقيع في الرسالة، وبهذه الطريقة يمكن التمييزُ بينها. والوحي رسالة من الخالق، ويمكن النظرُ في الرَّسائل المتعدِّدة المنسوبة إلى الخالق للتمييز بين الصحيح وغير الصحيح[1].

وهذا الردُّ في أصله صحيح. فوجودُ رسائل متعدّدة ومتناقضة تنسب إلى إنسان معيَّن هو أمرٌ طبيعي. وقد حصلَ ذلك عبر التاريخ، ولا يزال هذا الأمرُ موجودًا في هذا العَصر. ولا يمنع ذلك من أنَّ رسالة معيَّنة تصحُّ نسبتها، ورسائل أخرى تكون مزوّرة. ولا يمكن استخدامُ هذا التعدُّد والتناقض ذريعة إلى إنكار أنَّ هذا الشخص قد ألّف رسالة، أو أنّه غير موجود أصلًا. وإذا كان هذا الأمرُ يمكن حصوله بين البشر، فما المانعُ أنّه قد تنسب رسائلُ متعدّدة ومتناقضة إلى الخالق، ولا تصحّ منها إلا رسالة واحدة؟ بل كيف يتَّخذ ذلك ذريعة إلى إنكار وجوده؟

فعلى الإنسانِ أن ينظر إلى الدلائلِ على صحَّة مضمون الوحي وإلى الرسل، وهم حاملو الوحي، ومن ثَمَّ يميّز بين الوحي الذي تصحُّ نسبتُه إلى الخالق، وبين الوحي الذي لا تصحُّ نسبته إلى الخالق. وهذا الردُّ صحيحٌ في أصله صحيح، وإن كان البروفسور سوينبورن يواصلُ بعد ذلك في محاولةِ الاستدلال على صحّة النصرانية. ولكن يمكن للمسلم أن يستفيدَ من أصل هذا الردّ، ثمَّ يذكر البراهين على صحّة الوحي الإسلامي، وكذلك دلائل النبوة الدالة على أنَّ محمدًا رسول الله (ﷺ).

---

(١) انظر المقطع: Can Many Religions All be True?، على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=t1fwwCEZrtk

الوجهُ الثّالث: قد ذكرَ سام هاريس أنَّ الأدلة لدى المسلم على صحّة عقيدته هي عينُ الأدلة الدالَّة على صحَّة النصرانية، ولا فرق بينهما. وبناء على ذلك أورد هذه الشُّبهة. وقد ردَّ صاحبُ المقال: «حدسي الأخلاقي أفضل من حدسك الأخلاقي» (My Moral Intuitions are Better than yours) على هذا الادّعاء بطريقة جيّدة. فذكر أن ما ذكره هاريس قد يفهم بطريقة إبيستمولوجية أو بطريقة ميتافيزيقية.

والمرادُ بالطريقة الإبيستمولوجية أنَّ فردًا من أفراد المسلمين لا يعرف من الأدلة على صحَّة معتقدِه إلّا ما يعرفه فردٌ من أفراد النصارى.

والمرادُ بالطريقة الميتافيزيقية أنَّ الأدلة على العقيدة الإسلامية هي متساوية مع الأدلة على العقيدة النصرانية.

وأمَّا الأوَّل فليس بمُهمٍّ لأنَّه يعود إلى العلم أو الجهل لدى أتباع ديانة معيّنة. وأما الثّاني فهو المهمُّ في هذه القضية، وهو مجرَّد ادِّعاء من قبَل هاريس ومَن معه من الملاحدة، وليس عليه أيُّ دليل، بل هو قولٌ متناقض[1].

وهذا الردُّ مع هذا التقسيم صحيحٌ في أصله، إلّا أنَّ المؤلف لكونه نصرانيًّا يحاول أن يدَّعي أنَّ الأدلة على المعتقدِ النصراني هي الأدلةُ الصَّحيحة، وليست الأدلة على المعتقد الإسلامي. وهذا باطل، ولا شكّ. ولكن ادِّعاء سام هاريس أيضًا باطل، لأنه لا يمكن أنْ يطلق الدعوى: أنَّ الأدلة على معتقدٍ معيَّن هي عينُ الأدلة على معتقدٍ آخر إلّا بحجَّة أو برهان. ولم يقدِّم شيئًا من ذلك، وإنَّما غاية ما يستدلُّ به هاريس هو عدمُ فهمه لأدلَّة المسلمين والنصارى لمعتقداتِهم، وأنَّ هذه الأدلة في نظره هو متساوية. ولا تعْدو هذه الشُّبهة عنده إلّا كونها دليلًا على جهله.

الوجهُ الرّابع: ذكر صاحبُ المقال: حجَّة الوحي غير المتناسق (Argument from Inconsistent Revelations) أنّه مهما ما شعرَ إنسان بقوَّة هذه الحجة، فلا

---

(١) انظر المقال: My Moral Intuitions are Better than yours على الرابط:
https://mountcarmelapologetics.com/2018/12/10/my-moral-intuitions-are-better-than-yours/

يمكن أنْ يستخدمَها في إنكارِ وجود الله. وغايةُ ما يمكن أن يستنبطَ من هذه الشبهة أنّها تدلُّ على صعوبةِ الوصول إلى مُراد الإله والوحيِ الصحيح. ولكنَّ هذه الصعوبة ليس لها علاقة بوجودِ الإله أو عدمِ وجوده[1]. فاستخدامُ الملاحدة لهذه الحجَّة لإنكار وجود الله، يدلُّ على جهلهم بحقيقةِ الشبهة.

ولهشاشةِ هذه الشُّبهة تكون هذه الأوجه الأربعة كافية في دحْضها، وليس هناك كبيرُ حاجة إلى الاستزادة في نقضها.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على هذه الشبهة:

هذه الشبهةُ لم يكنْ لها ذاك الانتشارُ في الأوساط الإلحادية، ولهذا لا نكاد نجدُ من يتحمَّس لها إلّا سام هاريس. ولهذا نجد أنَّ التفات علماء الغرب إلى نقضها قليل جدًّا مقارنةً مع شبهاتٍ أخرى. ومعَ ذلك فقد ذكروا بعضَ الأوجه القيّمة في الردِّ على هذه الشبهة، ويمكن الاستفادةُ منها.

ولكنَّ الإشكال في ردودِهم أنَّهم يذكرون معها أدلةً مزعومة على صحّة النصرانية. ففي ردودِهم مِن هذا الوجْه خطورةٌ على عقيدة المسلم. فينبغي للمسلمين أن يساهموا في الردِّ على هذه الشُّبهة معَ ذكر الأدلة والبراهين والحجج على صحة المعتقد الإسلامي حتَّى تدحض الشبهة ويبان الحقّ. وهذا ليس مقامَ تفصيل ذلك.

---

(١) انظر المقال: Argument from Inconsistent Revelations, وهو على الرابط: http://philosophiesofmen.blogspot.com/2011/05/argument-from-inconsistent-revelations.html

المبحثُ السّادس

ردودُهم على شبهةِ عدم إدراك المراد بالإله

مِن الشُّبهات المنتشرةِ لدى الملاحدة هي شبهة: عدم إدراك المراد بالإله (Theological Noncognitivism). وتنصُّ هذه الشبهة على أنَّ اللغة المستخدمة في علم اللاهوت تتضمن كلماتٍ ليست ذات قيمةٍ أو معنى، مثل: الإله والخالق، لأنَّه لا يمكن التأكّد من صحّة مضمونِ دلالتها. ولهذا لا يمكن الحديثُ عن وجود خالقٍ أو عدم وجوده. وهذه شبهة مِن شبهاتِ الإلحاد الضعيف، وليست من شُبهات الإلحاد القوي؛ لأنَّه إذا حاول الملحدُ الإلحاد القوي أنْ يستدلَّ على عدم وجود الخالق، فإنّه يعترف أنَّ هذه الكلمة لها معنى. بينما الملحدُ الإلحاد الضعيف أو اللاأدري يستخدم هذه الشبهةَ قائلًا: إنَّ الكلام عنْ وجود الخالق أو عدمِ وجوده لا فائدةَ منه لأنَّه لا يمكن أن يتحقَّق من صحّة الكلام[1]. وسأقسِّم هذا المبحث إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: عدم إدراك المراد بالإله.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: عدم إدراك المراد بالإله.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: عدم إدراك المراد بالإله.

---

(١) انظر المقال:

Theological Noncognitivism Examined, by: Steven J. Conifer

على الرابط:

https://web.archive.org/web/20090326144947/http://www.sewanee.edu/philosophy/Journal/Archives/2002/Conifer.htm

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: عدم إدراك المراد بالإله:

هذه الشبهةُ لها علاقةٌ بفلسفة اللغة[1]، وإبيستيمولوجيا؛ حيث إنَّ هذه الشبهة تنصُّ على أمرين:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ اللغة المستخدمة في علم اللاهوت لا تحمل أي معنى حقيقي.

الأمرُ الثّاني: أنَّه لا يمكن التأكُّد من صحَّة مضمون هذه الكلمات.

وهذان الأمران من المسائل التي ناقشها فلاسفةٌ من مدرسة الفلسفة التحليلية[2]. وهذه الفلسفة امتدادٌ للمذهب الحسِّي السائد في بريطانيا في عصر التنوير. وهي الفلسفةُ المقرَّرة في جامعات بريطانيا، والولايات المتَّحدة، والدول الإسكندنافية[3].

وكان مِن أبرز رموزِ هذه الفلسفة الفيلسوف لودفيغ ويتغنستين[4]، وهو تلميذٌ لبرتراند راسل. وقد ألَّف رسالة بعنوان: «رسالة في المنطق والفلسفة» (Tractatus Logico – Philosophicus)، في العلاقة بين اللغة والحقيقة، ولتحديد حدود العلم التجريبي.

---

(١) فلسفة اللغة (Philosophy of Language): البحث المنطقي في طبيعة اللغة وأصولها وطرق استخدامها. انظر:
https://www.newworldencyclopedia.org/entry/philosophy_of_language

(٢) الفلسفة التحليلية (Analytical Philosophy): مجموعة من المناهج ذات الصلة بالمشكلات الفلسفية، وهي سائدةٌ في الفلسفة الأنجلو أمريكية من أوائل القرن العشرين، والتي تؤكد على دراسة اللغة والتحليل المنطقي للمفاهيم. وتسمّى أيضًا: الفلسفة اللغوية. انظر:
https://www.britannica.com/topic/analytic-philosophy

(٣) انظر:
The Blackwell Companion to Philosophy (1), 2nd ed. (Blackwell, 2003)

(٤) لودفيغ ويتغنستين (Ludwig Wittgenstein): فيلسوف بريطاني نمساوي المولد، يعتبره كثيرٌ من فلاسفة الغرب أنَّه أعظم فيلسوف في القرن العشرين؛ فكانت فلسفته مؤثرة في الفكر الغربي إلى حدٍّ كبير. توفي عام: ١٩٥١م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Ludwig-Wittgenstein

وأثّرت هذه الرسالةُ كثيرًا في المجتمعيْن فيما يُعرف بـ«حلقة فيينا» (Vienna Circle) هم جماعة من الفلاسفةِ والعلماء كانوا يجتمعون في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين في جامعة فيينا، وتبنَّوا الوضعية المنطقية(١). وفي أثناءِ الحرب العالمية الثانية وبعدها انتشر فلاسفةُ حلقة فيينا في الدول الغربية، وأثَّر طرحهم في فلسفة العلم في تلك الدول(٢).

وكان مِن أكثر ما يركِّز عليه أصحابُ حلقة فيينا ما يسمَّى بمبدأ التحقّق: (Verifiability Principle). وخلاصة هذا المبدأ - كما سبق - : أنَّ ما لا يمكن التحقّق منه حسّيًّا، فليس للكلام عنه أيُّ معنى. فلا يقال: إنه حقٌّ أو باطل، بل إنَّ الكلام لا معنى له إطلاقًا فلا ينظر إليه(٣).

وكان مِن ضمن فلاسفة حلقة فيينا: الفيلسوف ألفرد آير(٤) وقد ألَّف كتابه: اللغة والحقيقة والمنطق (Language, Truth and Logic) عام ١٩٣٦م، وقدَّم فيه مبدأ التحقّق أساسًا وحيدًا للفلسفة؛ وعليه فيكون كلُّ شيء من وراء الطبيعة (Metaphysics) لا معنى له؛ لأنَّه لا يمكن التحقّق منه(٥).

وكان لهذا الكتاب صدًى كبيرٌ في وقته، وانتشرت بسببه هذه الشبهة. وكان ممن طارَ بها في القرن المنصرم: البروفسور أنطوني فلو، وألَّف رسالة: «اللاهوت والتزييف»

---

(١) الوضعية المنطقية (Logical Positivism): حركة فلسفية نشأت في فيينا في عشرينيات القرن الماضي، وتميزت بالرأي القائل بأن المعرفة العلمية التجريبية هي النوع الوحيد من المعرفة الواقعية، وأنَّ جميع المذاهب الميتافيزيقية التقليدية يجب رفضها باعتبارها لا معنى لها. انظر: https: / /www.britannica.com /topic /logical – positivism

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر مادة: (Verifiability Principle) في موسوعة بريتانيكا:
https://www.britannica.com/topic/verifiability-principle

(٤) ألفرد آير (Alfred J. Ayer): بروفسور الفلسفة في جامعة أكسفورد المروقة في بريطانيا. وكان أحدَ من وضع الأسس للوضعية المنطقية. انظر:
https://plato.stanford.edu/entries/ayer/

(٥) انظر:
Language, Truth and Logic (13-29), by: A.J. Ayer, Penguin Books, 1936)

(Theology and Falsification) في عام ١٩٥٠م، في دورة الجامعة التابعة لجامعة أكسفورد، ثمَّ أعيد نشرُها عام ١٩٥٥م، ثمّ عام ٢٠٠٠م. وذكر فلو عندما نشرَها آخر مرّة أنَّ هذه الرسالةَ أكثر الرسائلِ الفلسفية انتشارًا في النصف الثاني من القرن العشرين. وطوّر أنطوني فلو مبدأ التحقُّق إلى القول بمبدأ التزييف (Falsification)، بمعنى أن الجملة لا تكونُ مفيدة إلّا إذا خضعت لإمكانية التزييف والإبطال[١].

وذكرَ الفيلسوف الملحد جون سمارت[٢] في مقال بعنوان: «الوجود الإلهي» (The Existence of God)، عام ١٩٥٥م، أنَّ هذه الشبهة أكبر تهديد للمذهب اللاهوتي في هذا العصر[٣].

ولكنْ ضعفَ مذهب الوضعية المنطقية في الستينيات من القرن الميلادي المنصرم. وفي مقابلةٍ مع البروفسور ألفرد آير في عام ١٩٧٠م، اعترف بأنَّ أهمَّ نقطة ضعف لمذهبهم أن جلَّه باطل[٤].

وتركَ أنطوني فلو الإلحادَ واعتنقَ المذهب الربوبي في عام ٢٠٠٤، وألَّف كتابه: هناك إله (There is a God) عام ٢٠٠٧م، ولكن رسائله القديمة أثَّرت في فرسان الإلحاد الجديد كريتشارد دوكينز وسام هاريس[٥]. ولكنْ يستخدم الملاحدةُ الجدد هذه الشبهة بعينها كثيرًا في خطابهم اليوم.

---

(١) انظر: Philosophy Now October/November (2000), 28 - 29

(٢) جون سمارت (John Smart): بروفسور الفلسفة البريطاني والأسترالي. وقد تخصّص في الميتافيزقية وفلسفة الدين. توفي عام ٢٠١٢م. انظر:
https://www.theguardian.com/books/2012/oct/30/jjc-smart

(٣) انظر:
The Existence of God, by: J. J. C Smart, in New Essays in Philosophical Theology, (1955)

(٤) انظر:
Logical Positivism (193), by: Oswald Hanfling, (Routledge History of Philosophy, 2003).

(٥) انظر سيرة أنطورني فول في موسوعة بريتانيكا:
https://www.britannica.com/biography/Antony-Flew

وقدْ حاول البروفسور الملحد مايكل مارتن أن يمسكَ العصا من المنتصف في كتابه: «الإلحاد: تبرير فلسفي» (Atheism: A Philosophical Justification)، فاستدلَّ في الجزء الأوَّل مِن كتابه بهذه الحجَّة، وجادل بأنَّ الكلام عن الإله لا يحمل أي معنى. ثمَّ جادل في النِّصف الثاني من كتابه عنْ عدم وجود الإله. وذكر في مقال أنَّ كثيرًا من الملاحدة واللاهوتيين اتَّهموه بالتناقض بسبب هذا التصرّف[١].

والخلاصة: أنَّ هذه الشبهة ظهرت في النصف الأوّل من القرن العشرين، ثمّ قويت في النِّصف الثاني، ثمَّ قلَّ استعمالها في القرن الواحد والعشرين. ولكن حيث أنّها كانت شبهة منتشرة في القرن المنصرم فلا بدَّ من الردِّ عليها.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: عدم إدراك المراد بالإله:

انتشرتْ هذه الشبهة بقوَّة في النصف الثاني من القرن العشرين. وكان كثيرٌ من الفلاسفة في ذلك الزمن مِن الملاحدة. وذكر البروفسور وليام لاين كرايغ أن هذه الشبهة كانت قويَّة جدًّا في أيام دراسته للفلسفة، ولا يكاد يعرف طالبُ اللاهوت كيف يردُّ عليها، ثمَّ ضعفت شيئًا فشيئًا، حتى لا تكاد تُذكر بين الفلاسفة[٢]. ولكنه ذكر في موطنٍ آخر أنَّ هذه الشبهة مازالت منتشرة بين علماء الطبيعة الذين درسوا الفلسفة في تلك الفترة، وكأنَّهم لم يتنبهوا إلى أنَّ الفلاسفة تركوها[٣].

وفي عصر قوَّة هذه الشبهة ظهرَ الفيلسوف النصراني ألفن بلانتغا، وأضحى يؤلِّف كتبًا في تبرير العقائد اللاهوتيَّة من الناحية الفلسفية، وردَّ على أشهر الشبهات

---

(١) انظر المقال: Positive Atheism and the Meaninglessness of Theism على الرابط:
https://infidels.org/library/modern/michael_martin/meaningless.html

(٢) انظر المقطع: William Lane Craig on Logical Positivism على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=URknwFd2n7g

(٣) انظر المقطع: Why Did Verificationism Last so Long على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=JYEVLDpmqPM

المثارة عليها في ذلك الوقت. وقد كانتْ هذه الشبهة من ضمن الشُّبهات التي تصدّى لها في ذلك الوقت. وفي كتابه: «الإله وأذهان أخرى» (God and other minds) عام ١٩٦٨م، خصَّص فصلًا كاملًا للحديث عنْ مبدأ التحقّق وعلم اللاهوت. كما أنّه تحدّث عن مذهبِ الوضعية المنطقية في كتابه: «الإله، الحرية، والشرّ» (God, Freedom and Evil) في عام ١٩٧٧م.

وفي هذا العصر، تحدَّث البروفسور وليام لاين كرايغ عن هذه الشبهة في أكثر من موطن، ولديه بعضُ الردود المسجَّلة القويَّة عليها.

وحيث إنّهما أشهرُ مَن تصدَّى لهذه الشبهة وهذا المذهب، فسأركِّز على ردودهما في هذا المبحث، بالإضافةِ إلى بعض الردود الأخرى.

الوجهُ الأوَّل: ذكرَ البروفسور بلانتنغا أنَّ مبدأ التحقّق كان منتشرًا في السابق، وأما اليوم، فلا يكاد أحدٌ من الفلاسفة المشهورين يتبنَّى هذا المبدأ. ومن أسباب ذلك أنّه لو افترضْنا أنَّه يجب تطبيقُه على علم اللاهوت، فلا بدَّ من تطبيقه على البديهيات والعلم التَّجريبي. ولا شكَّ أنَّ كثيرًا من البديهيات ونظريات العلم التجريبي غير قابلة للتحقُّق حسيًّا ولا تجريبيًّا[1].

ووضَّح البروفسور وليام لاين كرايغ هذه المسألةَ أكثر، فذكر أنَّ قبولَ مبدأ التحقّق لا يقف عندَ تفريغ علمِ اللاهوت عن معانيه، بل ينسجمُ على علوم أخرى كعلم الأخلاق، وعلمِ الجمال. وإضافةً إلى ذلك فلا يمكن التحقُّقُ الحسي من كثير من النَّظريات العلمية، مثل: وجود الكواركات أو الأوتار الفائقة[2].

---

(١) انظر:

God, Freedom and Evil (66), by: Alvin Plantinga, (William B. Eerdmans Publishing Company, 1974)

(٢) انظر المقطع: Verification Theory of Meaning على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=eNh75REMxMI

الوجهُ الثّاني: ذكرَ البروفسور بلانتنغا أنَّ هذه الشبهة مبنيَّة على افتراض وجوب قبولِ مبدأ التحقّق، ولكنَّه لا يوجد دليلٌ على أنّه يجب قبولُ هذا المبدأ. فلماذا يجب أن يخضعَ علمُ اللاهوت لهذا المبدأ بلا دليل[1]؟ وذكرَ في كتابه: «الإله والأذهان الأخرى» أنَّه يوجد اضطرابٌ شديد بين فلاسفة الوضعية المنطقية في وضع ضابط واضح لمبدأ التحقُّق، ولم يستطعْ أحدٌ منهم أن يأتي بضابطٍ واضح فيما يمكن التحقّق منه وما لا يمكن التحقّق منه[2].

الوجهُ الثّالث: نبَّه البروفسور وليام لاين كرايغ على أنَّ مبدأ التحقّق نفسه متناقض ذاتيًّا؛ لأنَّه لا يمكن التحقُّق من تلك الجملة حسيًّا. وبذلك يُبطل المبدأ نفسه بنفسه[3]. ولا شكَّ أنَّ التناقض الذاتي للمذاهب يدلُّ على فسادها؛ لأنَّه يكشف عن أنَّ المذهب نفسَه يقف على أساس هشّ.

الوجهُ الرّابع: طوَّر أنطوني فلو مبدأ التحقُّق إلى القول بمبدأ التزييف في مقاله: «علمُ اللاهوت ومبدأ التزييف». وبدأ المقالَ بضرب مثال توضيحي كالآتي:

ذهبَ اثنان من المكتشفين إلى الغابة، فوجدوا أرضًا مقطوعة الشجر، وفي هذه البُقعة وُجِد عددٌ من الزهور وأنواع النباتات. فقال أحد المكتشفين: «لا بدَّ أن يكون هناك بستاني زرعَ هذه الزهور والنباتات». وأنكر المكتشفُ الثاني ذلك. فنصبَا خيمة لمراقبةِ الأرض، ولكنَّهما لم يريَا أيَّ بستاني. فقال الذي يعتقد أنه يوجَد بستاني: «لعلَّه بستانيٌّ غير مرئي». فوضعَا حاجزَ الأسلاك الشائكة مع الكهرباء، وصارَا يراقبان القطعة الأرضيَّة بكلابٍ بوليسية. ولكنَّ الأسلاك الكهربائية لا تتأثّر، ولم تنبح الكلاب، ولم يرَ أدْنى أثرٍ من البستاني. فقال الذي يعتقد أنَّ البستاني موجود: «ولكنه بستاني غير مرئي وغيرُ ملموس، ولا يتأثَّر بصعقة كهربائية، ولا يشمُّ منه رائحة، ولا يسمع منه صوت، ولكنَّه يأتي من أجل بستانه المحبَّب ويُراعيه». فيقول المتشكِّك: «ولكن، ما الذي يبقى

---

(١) انظر: God, Freedom and Evil (66)

(2) God and other minds (164 - 167)

(٣) انظر المقطع: Verification Theory of Meaning

من ادِّعائك الأوَّل؟ كيف يختلف ما تسمِّيه بستانيًّا غير مرئي أو غير ملموس أو بعيد المنال أبدًا عن بستاني وهمي، أو حتى من غير البستاني على الإطلاق؟».

ثمَّ بنى أنطوني فلو حجَّته في التَّشكيك بوجود الله على هذا المثال، وخلاصتها: أنّه لا يمكن للمتشكِّك أنْ ينفي وجودَ مثل هذا الكائن، لأنّه المؤمن يؤمن به بدون أدنى أدلَّة، ويتمسَّك بمعتقده مهْما حصل. ورأى أنَّ الكلام إذا كان بهذا الأسلوب، فهو عديمُ الفائدة[١].

وقد ردَّ البروفسور وليام لاين كرايغ على هذا المثال بأنه مخصَّص لما يريده، ولا يدلُّ على ما يريده أنطوني فلو. وبيانُ ذلك أنَّ فلو ضرب هذا المثال الخيالي ليتوصّل إلى أنَّ الكلامَ عن البستاني بلا جدوى، فكذلك الحديثُ عن وجود الله. ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأنَّ كوْن المكتشفين تحدَّثَا عن وجود البستاني وعدم وجوده، واختلفا بينهما وحاولَا الاستدلالَ على وجوده أو عدمه يدلُّ على أنَّ الكلام له جدوى. وغاية ما تدلُّ عليه القصة أنَّ القول بعدمِ وجوده كان أقوى، والمثبت كان معاندًا. وكذلك الحديث عن وجودِ الله، أو عدم وجودِه؛ له جدوى، لأنَّ الناس يفهمون المقصود من الكلام ويتباحثونَ في الأدلة على وجوده أو عدم وجوده. ولكن الأدلة على وجوده أقوى. فأنطوني فلو ضربَ هذا المثال المخصَّص من أجل تأييد الإلحاد، ولكنه لا يدلُّ على أنَّ الكلام عن وجود الله بلا جدوى[٢].

ويحسنُ التَّنبيه على قضية أخرى هنا لم يتنبَّه البروفسور كرايغ لها، وهي أنَّ الإيمان بوجودِ الله علمٌ ضروري فطري، ثمَّ يضاف إليه الاستدلال بالأدلة الكثيرة جدًّا. وأما وجودُ بستاني أو عدمُ وجوده فهو علم نظري، يقبل النقاش.

---

(١) انظر المقال: Theology and Falsification (1)، على الرابط:

http://www.politik-salon.de/files/theory_of_falsification.pdf

(٢) انظر المقطع:

Epistemological Objection to God: Verificationism and Logical Positivism and Falsificationism

على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=T8XkrlKs37o

ويمكنُ أن يعكس المثال على الملحد، فالأدلةُ واضحة كالشمس، ولكنه يعاندُ ويكابر. وعليه، فلا يعْدو المثالُ المذكور كونه نوعًا من المغالطات.

الوجهُ الخامس: هناك نقطةٌ مهمَّة نبَّه عليها البروفسور بلانتنغا، وهي أنّ هذه الشُّبهة تتوجَّه إلى بعض المبادئ الأساسية في اللاهوت المسيحي الموجود في الكتاب المقدَّس؛ حيث إنَّ هذه المبادئ يصعب فهمها[1]. وهذا الاعتراف مهمٌّ لأنَّ العقائد النصرانية المنافية للعقل ساهمتْ في بروز نحْو هذه الشبهة، حيث رأى الفلاسفة الملاحدة أنَّ العقائد اللاهوتية غيرُ مطابقة للواقع، وبالتالي لا تعني شيئًا. فعقيدة مثل التثليث تقول إنَّ الإلهَ واحد، وهو في الوقت نفسِه ثلاثة أشخاص تتعارض مع بديهيات العقل. ورغمَ ذلك يؤمنُ بها النصارى، ويدعون غيرهم إلى هذه العقيدة اللامنطقية. وأمّا الإسلامُ فلا يوجد فيه أيُّ شيء من قبيل ألبتَّة.

الفقرةُ الثّالثة:

تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: عدم إدراك المراد بالإله:

هذه الشبهةُ كانت منتشرةً في الغرب قبلَ حوالي نصف قرن، ثمَّ ضعفت تدريجيًّا. وهي شبهةٌ فلسفية محْضة، لا يفهمها إلّا المتخصّصُ في الفلسفة. وقد ردَّ عليها علماءُ الغرب ببعضِ الردود العقلية الجيِّدة، ومِن أقواها أنَّ الوضعية المنطقية نفسها متناقضة ذاتيًّا.

وهناك نقطةٌ قد تكون مؤثِّرة في بروز هذه الشبهة، وهي أنَّ الطابعَ العام بين النَّصارى المتأخّرين أنهم يصفونَ الإله بالصفات السلبية كما تقدّم تقريره في المبحث الأوّل من هذا الفصل.

ووصفُ الإله بالصفات السلبية يؤدِّي إلى شبهة: عدم إدراك المراد بالإله؛ لأنَّه لا يكادُ يفهم ما يقصدُه الواصف. ومَن تأمَّل مثال أنطوني فلو لهذه الشبهة وجد شبهًا وصف الإمام حماد بن زيد (رحمه الله) للجهمية إذ قال: (مثل الجهمية كقوم قالوا:

---

(١) انظر: God and Other Minds (157)

في دارنا نخلة. قيل: لها سعف؟ قالوا: لا. قيل: فلَها كرب؟ قالوا: لا. قيل: لها رطب وقنو؟ قالوا: لا. قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا. قيل: فما في داركم نخلة)[1].

وقد تقدَّم في المبحث الأوَّل من هذا الفصل أنَّ طريقة القرآن في الصفات هي الإثباتُ المفصَّل والنفي المجمل غالبًا. والصفاتُ السلبية يجب معَ نفيها إثباتُ كمال ضدِّها على الوجه الأكمل. وأمّا النفي المحض فليس بمدح.

فطريقةُ أهل السنَّة في الصفات هي الطريقة الواضحة الصحيحة، وبسلوك هذه الطَّريقة يسلم الإنسانُ مِن نحو هذه الشبهات التي انتشرت في الغرب.

---

(١) العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار من سقيمها (٢٥٠)، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (مكتبة أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ، اعتنى به: أشرف بن عبد المقصود).

الفهرس

المبحثُ الثّالث: البرامجُ والمقاطع المرئية ٤٠٥

المبحثُ الرّابع: النَّشرُ في وسائل الإعلام ٤١٧

المبحثُ الخامس: النَّشرُ في وسائل التواصل ٤٢١

المبحثُ السادس: إصلاحُ العلوم التجريبية لتتوافقَ مع الحقائق الدينية ٤٢٥

المبحثُ السّابع: نقدُ وسائل علماء الغربِ في الردود على الإلحاد ٤٣٦

البابُ الثّاني

حججُ علماء الغرب على إثباتِ وجود الله ٤٣٩

الفصلُ الأوّل: حججُ علماء الغرب العقليَّة على إثبات وجود الله ٤٤١

المبحثُ الأوّل: حجَّةُ الفطرة ٤٤٣

المبحثُ الثّاني: الحجَّةُ الكونية ٤٥٩

المبحثُ الثّالث: الحجَّةُ الغائية ٤٧٧

المبحثُ الرّابع: حجَّةُ التَّوافق الدقيق للكون ٤٩٦

المبحثُ الخامس: حجَّةُ الجمال ٥١١

المبحثُ السّادس: الحجَّةُ الوجودية ٥٢٣

المبحثُ السّابع: الحجَّةُ الأخلاقية ٥٣٤

المبحثُ الثّامن: حجَّةُ الوعي ٥٤٧

المبحثُ التّاسع: الحجَّةُ البراغماتية ٥٥٨

المبحثُ العاشر: نقدُ حججِ علماء الغربِ العقليَّة على وجود الله ٥٦٧

الفصلُ الثّاني: حججُهم العلميةُ على وجود الله ٥٧١

تمهيد ٥٧٣

المبحثُ الأوّل: الحججُ المتعلِّقة بعلم الكون ٥٧٥

المبحثُ الثّاني: الحججُ المتعلِّقة بالفيزياء ٥٩١
المبحثُ الثّالث: الحججُ المتعلِّقة بعلم الأحياء ٦٠٣
المبحثُ الرّابع: الحججُ المتعلِّقة بالكيمياء ٦١٦
المبحثُ الخامس: الحججُ المتعلِّقة بعلم النفس ٦٣١
المبحثُ السّادس: الحججُ المتعلِّقة بالرياضيات ٦٤٩
المبحثُ السّابع: نقدُ حجج علماءِ الغرب العلميَّة على وجود الله ٦٦٧
الفصلُ الثّالث: حججُهم الحسيَّة على وجود الله ٦٧١
تمهيد ٦٧٣
المبحثُ الأوّل: حجَّةُ إجابة الدعاء ٦٧٥
المبحثُ الثّاني: حجَّةُ المعجزات ٦٨٦
المبحثُ الثّالث: حجَّةُ ثبوت الحقائق الدينية ٧٠٨
المبحثُ الرّابع: نقدُ حججِ علماءِ الغرب الحسيَّة على وجود الله ٧١٨

البابُ الثّالث

ردودُ علماء الغربِ على شُبهات الملاحدة ٧٢١
تمهيد ٧٢٣
الفصلُ الأوّل: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العقلية ٧٢٥
تمهيد ٧٢٧
المبحثُ الأوّل: ردودُهم على شبهةِ الخصائص غير المتوافقة ٧٢٩
المبحثُ الثّاني: ردودُهم على شُبهة: مَن خلق الله؟ ٧٤٩
المبحثُ الثّالث: ردودُهم على شبهةِ عدم إمكان رؤية الله ٧٦٩
المبحثُ الرّابع : ردودُهم على شبهةِ تناقض القدرة المطلقة ٧٨٠
المبحثُ الخامس: ردودُهم على شبهةِ الوحي غير المتناسق ٧٨٨
المبحثُ السّادس: ردودُهم على شبهةِ عدم إدراك المراد بالإله ٧٩٥


مركز دلائل
Dala'il Centre
DALAIL
ردود علماء الغرب
على الإلحاد المُعاصر
(عرض ونقد)
(الجزء الثالث)
د. جوهانس كلومنك
(د. عبدالله السويدي)

ردودُ علماءِ الغرب على الإلحادِ المُعاصر

(عرضٌ ونقد)

- الجزء الثالث -

رسالةٌ علميَّة

لنيْل درجةِ العالمية العالية؛ الدكتوراه

إعدادُ

د. جوهانس كلومنك

(د. عبدالله السويدي)

إشرافُ فضيلة الأستاذ الدّكتور

صالح بن عبد العزيز سندي

ح دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

ردود علماء الغرب على الإلحاد المعاصر - عرض ونقد
د. جوهانس كلومنك (د. عبدالله السويدي)
١١٨٠ صفحة، ١٧ × ٢٤ سم - (٣ أجزاء)
ترقيم دولي: ٠ - ٣ - ٨٦٢٠٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨

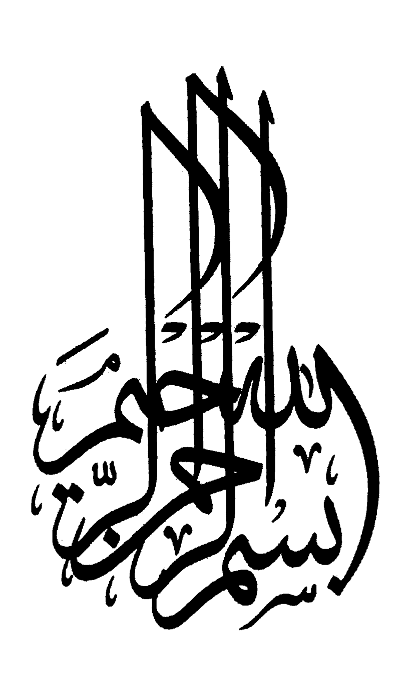
الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

مركز دلائل
Dala'il Centre
Dalailcentre@gmail.com
الرياض - المملكة العربية السعودية




Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠


بسم الله الرحمن الرحيم

المبحثُ السّابع

ردودُهم على شبهةِ إبريق راسل

مِن الأسئلة المشهورةِ في المناقشات: على مَن يقع عبء الإثبات؟ هل هو على أحدِ طرفي النقاش أو على كليْهما؟ وهذا السؤالُ حيويٌّ في النقاش بين المؤمنين بوجود الله والملاحدة. فكثيرٌ من الملاحدة يقولون إنَّ الإلحاد هو عدم الإيمان بوجود الإله، والأصلُ أنَّ الشيء غيرُ موجود حتى يوجَد دليلٌ يثبت وجوده. فيروْن أنَّ الأصل هو أنَّ الإله غيرُ موجود حتَّى يثبت المؤمنُ العكس. ويروْن أنَّ في المناظرة بين المؤمن والملحد يجبُ على المؤمن أنْ يأتي بالأدلَّة والحجج، وأمّا الملحد فلا يحتاج أن يأتي بأيّ دليلٍ ثبوتي، وإنَّما غاية ما يجبُ عليه أن يشكِّك في هذه الأدلة والحجج. وإن استطاع الملحدُ أنْ يقدح في الأدلة، فإنَّه باقٍ على الأصل من أنَّ الإله غير موجود[1].

وقد ذكرَ الملاحدةُ عددًا من الأقيسة لبيان هذه القضية، ومن أشهرها: قياس إبريق راسل (Russel's Teapot). وسيتناول هذا المبحثُ هذه الشبهة في ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تقريرُ الملاحدة لشبهة: إبريق راسل.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: إبريق راسل.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: إبريق راسل.

الفقرةُ الأولى: تقريرُ الملاحدة لشبهة: إبريق راسل:

شبهةُ إبريق راسل قياسٌ صاغَه الفيلسوف الملحد المشهور برتراند راسل في رسالته: «هل هناك إله؟» (Is there a God?) المنشورة عام ١٩٥٢م، في مجلة «المصوّر» (Illustrated). وملخَّص القياس كالآتي:

---

(١) انظر: براهين وجود الله (١٤٩).

«يتحدَّث كثيرٌ من الأصوليّين كما لو كان على المتشكِّكين أن يقوموا بدحض العقائد التي تلقَّوها بدلًا مِن العقائديين لإثباتها. ولا شكَّ أنَّ هذا خطأ. إذا أمكنني أن أشيرَ أنه يوجَد بين الأرض والمريخ إبريقٌ مصنوع من الخزف الصيني يدور حول الشمس في مدارٍ بيضاوي، لا يمكن لأحدٍ أن يدحض افتراضي، إذا كنت حريصًا على ذكر أن الإبريقَ أصغرُ من أنْ تراه أقوى التلسكوبات الموجودة عندنا. ولكني إذا انتقلت إلى الادِّعاء بأنَّ افتراضي يتمتَّع بخاصية أنه لا يمكن إثبات عدم صحته، وبذلك فإنه من غيرِ المقبول لأيِّ عقلٍ بشري متَّزن أن يشكِّك في صحته، فبالتأكيد يجب أن يعتبرني الناس أتحدَّث بجنونٍ خالص. ورغمَ ذلك فإنه إذا وجِد في نصوص قديمة ما يؤكّد وجودَ مثل ذلك الإبريق، واعتبرَ كشيء مقدَّس كلَّ يوم أحد، وزُرع في عقول الأولاد الصغار في المدرسة؛ فإنْ شككتَ في وجوده فسيكون ذلك علامة على عدم الاتّزان ويجذب ذلك المشكِّك انتباهات طبيب نفساني في عصرٍ مُستنير كعصرنا، أو أي فضولي في العصور السحيقة»[١].

ويتناقل الملاحدةُ هذا القياس بينهم، وقد ذكره زعيمُ الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز في كتابه: «وهم الإله»، وأشاد به[٢].

وكان هذا القياسُ هو الأصلَ لما عُرف في القرن الواحد والعشرين بـ: «وحش السباغيتي الطائر» (Flying Spaghetti Monster). وهو إلهٌ تهكّمي لديانة وهمية يذكره الملاحدة احتجاجًا على تدريس التَّصميم الذكي في المدارس. وخلاصته: أنّه لو افترض أحدٌ أنه يوجد وحش سباغيتي طائر، ويزعمونَ أنَّه كائن غير مرئي، وقد خلق الكون، فلن يصدّق أحد هذا الادِّعاء، فضلًا عن أنْ يسمح بتدريس هذه النظرية في المدارس. فكذلك لا ينبغي تدريسُ نظرية التصميم الذكي التي تفترض وجودَ كائنٍ ذكي خلق الكون والكائنات الأخرى[٣].

---

(1) "Is There a God?" in The Collected Papers of Bertrand Russell, (Vol 11, pp. 547-548), (Last Philosophical Testament, 1943-68, ed. John G. Slater and Peter Köllner (London: Routledge, 1997).

(٢) انظر: The God Delusion (74 - 75)

(٣) انظر على سبيل المثال مقال صحيفة ديلي تلغراف عن وحش السباغيتي الطائر أوّل ما ظهر الحديث عنه:
http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/northamerica/usa/1498162/In-the-beginning-there-was-the-Flying-Spaghetti-Monster.html

ويستخدم الملاحدةُ هذا المثالَ كثيرًا في مناقشة المؤمنين بوجود الخالق، بل قالوا متهكِّمين: إنَّه توجد ديانة باسم: «كنيسة وحش السباغيتي الطائر» (Church of the Flying Spaghetti Monster) أو «بستافاريانية» (Pastafarianism) مع «إنجيل وحش السباغيتي الطائر» (Gospel of the Flying Spaghetti Monster)، ورسموا صورًا تهكمية عن هذا الوحش، استهزاءً بالمؤمنين بوجود الله(١).

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: إبريق راسل:

حيث إنَّ هذه الشبهة منتشرةٌ فإنَّ علماء الغرب قد ردّوا عليها من أوجه متعدّدة؛ أهمُّها خمسة:

الوجهُ الأوَّل: هذه الشبهةُ تفترض أنَّ الإلحاد هو الأصل. والذين يحتجون بهذه الشُّبهة هُم ملاحدة الإلحادِ الإيجابي. والإلحاد الإيجابي هو إنكارُ وجود الخالق. وذكر البروفسور وليام لاين كرايغ قاعدةً مهمَّة في الردِّ على هذه الشبهة، وهي: «عدم وجود الدليلِ ليس دليلًا على العدم»(٢)، وهذه قاعدةٌ عقلية مهمَّة خالفها الملاحدةُ في هذا الباب.

وقد ذكرَ علماءُ الإسلام هذه القاعدة كذلك؛ فقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) على سبيل المثال: «النَّفي بلا دليل قولٌ بلا علم، وعدمُ العلم ليس علمًا بالعَدم، وعدمُ الدليل عندنا لا يوجِب انتفاءَ المطلوب الذي يطلب العلم به، والدليل عليه، وهذا مِن أظهر البديهات»(٣).

ولهذا كان على النّافي أن يقيم دليلًا مثلَ ما يجب على المثبت، إلا إذا كانت المسألة بديهيَّة؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «لا ريبَ أنَّ النافي عليه الدليل إذا لم

---

(١) انظر على سبيل المثال مقال:
https://usatoday30.usatoday.com/tech/science/2006-03-26-spaghetti-monster_x.htm

(2) "Theistic Critiques of Atheism", a part of The Cambridge Companion to Atheism (70)

(٣) الفتاوى الكبرى (٦ / ٥٣٣)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ. ت. محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا).

يكنْ نفيه بديهيًّا، كما أنَّ على المثبت الدليل، فالقضية سواء كانت سلبية أو إيجابية إذا لم تكنْ بديهية فلا بدَّ لها من دليل، وأمّا السلبُ بلا علم فهو قولٌ بلا علم»[١].

وقدْ ناقش البروفسور بيتر فان إنفاغين[٢] برتراند راسل في هذه القضيةِ من الناحية المنطقية والفلسفية في نقاشٍ مطوَّل، وبيَّن أنَّه لا علاقة منطقية بين حجّة راسل المزعومة وتبنِّي الإلحاد. فراسل، مع أنَّه متخصِّص في المنطق، قدَّم هذه الحجّة الضعيفة التي لا تدلُّ على النتيجة التي أراد أن يتوصَّل إليها، وإنما غايةُ ما تدلُّ عليه هذه الحجّة هو القولُ باللاأدرية[٣].

وعلى اللاأدري أنْ يعترف بجهله ويتعلَّم، فيستمع للحجج التي يقدّمها المؤمن على وجودِ الله. وهذه الحججُ ظاهرة وبيِّنة. وأمّا كونه لا يقتنع، فذلك لا يقدح في الحجج نفسِها. و«نعلم أنَّ قيام الحجة الصحيحة غير الاقتناع بها، فقد لا يقتنع المرء بالحجّة الصَّحيحة لسوء فهمِه لها، أو لسوء عرضِ أنصارها لها»[٤]. فالمؤمن هو الذي يقدِّم الحججَ والبراهين، وغايةُ ما يقدِّمه الملحدُ مع هذه الشبهة هو القول بأنّه لم يقتنع بتلك الحجج والبراهين، ويبقى محتارًا.

الوجهُ الثّاني: ذكرَ برتراند راسل هذا القياس لكي يتوصَّل إلى أنَّ الإله غير موجود. فكما أنَّه لا يوجد دليلٌ على وجود الإبريق، فكذلك لا يوجَد دليلٌ على وجود الإله. إذًا، القياسُ يتعلّق بالدليل.

---

(١) الردّ على المنطقيين (٧).

(٢) بيتر فان إنفاغين (Peter Van Inwagen): بروفسور الفلسفة في جامعة ديوك بالولايات المتَّحدة. وكان رئيسَ جمعية الفلاسفة النصارى سابقًا. انظر:

https://www.closertotruth.com/contributor/peter-van-inwagen/profile

(٣) انظر هذا النقاش في: Russel's China Teapot ضمن كتاب:

The Right to Believe: Perspectives in Religious Epistemology (11-26), Edited by: Dariusz Likasiewicz and Roger Pouviet (Ontos Verlag, 2012)

(٤) براهين وجود الله (١٥٠).

وقد ناقش الفيلسوف براين غارفي[1] هذه القضية في بحث بعنوان: «عدم الأدلة، والأدلَّة على العدم، وإبريق راسل» (Absence of Evidence, Evidence of Absence and Russel's Teapot). وملخَّص ردِّه أنه تساءل قائلًا: ما هو الدليلُ المقنع لإثبات وجود الله؟ هل لا بدَّ من إدراكه بالحواس الخمس؟ فإنَّ هذا ما لا يقوله حتى الملاحدة حيث إنَّهم يثبتون عددًا من الأشياءِ غير المدركة بالحسّ. فهل تكفي دلالةُ التصميم على وجود مصمِّم؟ الظاهرُ أنَّ دوكينز يقتنع بذلك؛ لأنَّه نفسه ذكر أنَّ مَن آمن بوجود الله بدليل التَّصميم قبلَ وجود نظرية داروين كان له دليلٌ قوي على هذا الاعتقاد. ولكنه ذكر أنَّ نظريةَ التطوّر قدَّمت تفسيرًا أفضلَ لوجود الإحكام والإتقان في المخلوقات الحيّة. فالشاهدُ أنَّ دليل التصميم يكفي كدليلٍ على وجود الخالق - لولا المانع في نظرة دوكينز -. وبذلك يتبيَّن أنَّ إبريق راسل قياسٌ مع الفارق. فالإبريق الصيني ليس له أدنى أثرٍ في بقيَّة المخلوقات، بينما يعتقد المؤمنُ أنَّ الله خلق هذا الكون، وجميع المخلوقات دالَّة على خالقها. وعليه، فلا يمكن استخدامُ هذا القياس على إنكار وجود الخالق[2].

الوجهُ الثّالث: الشيء الذي ظهرَ بطريقةٍ عشوائية يختلف عن الشيء المصنوع لخالقٍ عليم حكيمٍ قدير. وهذا الأمرُ يتَّفق فيه الملحدُ والمؤمن. فقد اعترف بذلك زعيمُ حركة الإلحاد دوكينز بذلك في كتابه: وهم الإله[3].

---

(١) براين غارفي (Brian Garvey): فيلسوف إيرلندي، حامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة دوبلن، وأستاذ في جامعة لانشستر. قد تخصّص في الفلسفة الداروينية. انظر:
https://www.lancaster.ac.uk/arts-and-social-sciences/about-us/people/brian-garvey

(٢) انظر البحث: Absence of Evidence, Evidence of Absence, and the Atheist's Teapot, وهو موجود على هذا الرابط:
https://www.tandfonline.com/doi/pdf/10.1080/15665399.2010.10820011?needAccess=true

(٣) انظر: The God Delusion (٧٨)

وقد ردَّ البروفسور سكوت هون والبروفسور بنيامين هذه النقطة في ردّهما على دوكينز، ثمَّ تساءلا: ما هي خصائصُ الكون المخلوق؟ أليس هو التصميم؟ لأنَّ دوكينز نفسَه عرَّف علمَ الأحياء - كما سبق مرارًا - بأنَّه: «دراسة الأشياء المعقدة التي تعطي انطباعًا بأنها صمِّمت من أجل هدف». فدوكينز يذكر أنَّ الكون المخلوق لخالق سوف يختلفُ عن الكون الموجود بلا خالق، ثمَّ يعترف بأنَّ علم الأحياء يدرس الأشياء التي تبْدو مصمَّمة لهدف. أليس هذا الهدفُ ألصق بالكون المصمّم المخلوق؟[1].

وهذا الوجهُ قويٌّ جدًّا في الحقيقة. فالملحد يعتقد أنَّ الكون وكلَّ ما فيه نتيجة انفجارٍ عشوائي بدون أيِّ خالق ولا هدف. وأمَّا المؤمن فإنّه يعتقد أنّ الكون نتيجة خلقٍ لخالق عليمٍ حكيم لحكمةٍ بالغة. فهل خصائصُ الكون تشهد بالعشوائية أو الإتقان؟ قد سبق الفصلُ الثّاني من الباب السابق في بيان الأدلة الواضحة البيِّنة على الدقَّة والإتقان والإحكام في الكون وكلّ ما فيه، غنية عن إعادته. والخلاصة أنَّ الملحد دوكينز قد شهدَ على مذهبه بالبطلان.

الوجهُ الرّابع: يزعمُ برتراند راسل أنَّه كما لا يوجد دليلٌ على وجود الإبريق الصيني فلا يوجَد دليلٌ على عدم وجوده، ولهذا يجب أن نفترضَ أنَّه غيرُ موجود. ثمَّ قاس الوجود الإلهي على هذا المثال. ولكن الادِّعاء أنه لا يوجد دليلٌ على عدم وجود الإبريق الصيني غير صحيح. وقد ناقشَ البروفسور ألفن بلانتنغا هذا الأمر؛ فقال: «من الواضح أنَّه يوجَد أدلة كثيرة ضدَّ الإبريقية (Teapotism)[2]، فعلى سبيل المثال: نحن نعلم أنَّ الطريقةَ الوحيدة لوصول إبريق لمسار فلكي حولَ الشمس هو أن دولة ما لديها قدرةٌ على إرسالِ إبريق إلى الفضاءِ للدوران في فلكه. ولا توجد دولةٌ لديها قدرة على فعل مثلِ هذا الأمر التافه. وإضافةً إلى ذلك، فلو فعلت دولةٌ

---

(١) انظر: Answering The New Atheism (54 - 55)

(٢) هذه ليست كلمة إنجليزية، ولكن البروفسور بلانتجا استخدمها من باب السخرية كأنّ الإيمان بالإبريق ديانة من الديانات.

هذا الأمر لوردَ الأمر في الأخبار، ولكنّا لم نسمع بذلك. وبالتالي فلدينا أدلةٌ كثيرة ضدَّ الإبريقية»[١].

وقصد البروفسور بلانتنغا بكلامه هذا أنَّ قياس راسل تافه في أصله. فيمكن تقديمُ أدلَّة سهلة على عدم وجود الإبريق، بينما لا يوجد أدنى دليلٍ على وجوده. فكيف يقاسُ الإله الخالق على هذا الإبريق، والمخلوقات كلّها دالة على وجوده؟

الوجهُ الخامس: عارضَ البروفسور غاري غوتينغ[٢] هذه الشبهة من وجهٍ آخر في مقالِه: «ردّ على إلحاد دوكينز» (On Dawkin's Atheism: A Response). فذكر أنّه لو أضيفَ إلى قياس راسل أنّه وُجد عددٌ من روّاد الفضاء شاهدوا ما يشبه هذا الإبريق، ثمَّ قدَّم عددٌ من العلماء الفلكيّين المعتبرين معلومات من الأقمار الصناعية على وجود شيءٍ مثل هذا الإبريق، فإنَّه يعتبر من الخطأ أن يردَّ افتراض وجود الإبريق، بل على الإنسان أن يحقِّق في الأدلة لكي يتوصَّل إلى علم بوجود الإبريق أم لا. والمؤمنُ بوجود الله يقدِّم عددًا من الأدلَّة على وجود الإله الخالق، فعلى المشكّك أن يراجع هذه الأدلة، ولا يردُّها مباشرة[٣].

هذا الوجهُ جيِّد من وجه، ولكنَّه في الوقت نفسه يجعل الإيمانَ بوجود الله استدلاليًّا محضًا، بينما الإيمانُ بوجود الله ضروري، ثمَّ تأتي الأدلة بعد ذلك لتؤكّد هذا الإيمان.

---

(١) المقال: Is Atheism Irrational? على الرابط:
https://opinionator.blogs.nytimes.com/2014/02/09/is-atheism-irrational/

(٢) غاري غوتينغ (Garry Gutting): بروفسور الفلسفة في جامعة نوتري دام بالولايات المتَّحدة. وقد تخصَّص في فلسفة الدين وفلسفة العلوم. توفي عام ٢٠١٩م. انظر:
https://news.nd.edu/news/in-memoriam-gary-gutting-john-a-obrien-professor-of-philosophy/

(٣) انظر المقال: On Dawkin's Atheism: A Response, وهو موجود على الرابط:
https://opinionator.blogs.nytimes.com/2010/08/11/on-dawkinss-atheism-a-response/

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: إبريق راسل:

الأوْجه التي سبق ذكرُها في الردِّ على هذه الشبهة الضعيفة جيّدة من حيث العموم، وقد تبيَّن أنَّ هذه الشبهة مبنيَّة على قياسٍ فاسد بينَ وجود إبريق في الفضاء وبين وجود خالقِ خلق الكون. ولكنْ بقيت بعضُ الأوجه التي لم أقفْ عليها من عند علماء الغرب، ولكنّي وجدتُها عند باحثين مسلمين، ويحسنُ إيرادها لتعمّ الفائدة:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ «هذا الاعتراض قائمٌ على التسوية بين المختلفات؛ حيث إنَّ المعترضَ به يساوي بينَ الفرض العقلي وبين الوجود الحقيقي الثابت بالأدلة، فإنّ الملاحدةَ ينطلقون في اعتراضهم من أنَّه لا فرق بين إيمان المؤمن بوجود الله وبين قول من يدَّعي أنَّ هناك إبريقًا يدور في الفضاء، وهذا عين المغالطة والتنكّر في الحقيقة.

فإنَّ الإيمان بوجود الله ليس مجرَّد فرضٍ عقلي خالٍ من الأدلة والبراهين، وإنما هو إدراكٌ عميق متجذِّر في النفوس الإنسانية، ومعمَّق في وجدانهم وأرواحهم، وهناك دلائلُ وبراهينُ عظيمة تدلُّ على ذلك، فآثارُ وجود الله ظاهرة في الكون ومتجلية في الآفاق، تدفعُ سليمَ العقل والفطرة إلى الإقرار بوجودِه، والإيمان بكماله؛ لهذا كان الأصلُ فيهم الإيمان بوجود الله، وهو الغالبُ على حالهم في كلِّ المراحل التاريخية.

وأمّا الإبريقُ الدائر في الفضاء فهو مجرَّد فرضٍ عقلي لا يوجد أيُّ دليل يدلُّ عليه، وليسَ لذلك الإبريق أيُّ أثرٍ في الواقع يدعو الناسَ إلى الإيمان به، ولأجلها كان الأصلُ في جنس الإنسان عدمَ الإيمان بذلك الإبريق وعدمَ الالتفات إليه من حيث الأصل»[1].

وهذا الكلامُ يشبه بعضَ الكلام الذي تقدَّم لبعض علماء الغرب، ولكنه زاد الأمرَ إيضاحًا بربطِه الإيمان بالله بالفطرةِ البشرية، ثمَّ يذكر الأدلة والبراهين بعد ذلك. وأمّا علماءُ الغرب فيكتفون بذكرِ الأدلة والبراهين دون الإشارة إلى الفطرة - حسب ما وقفتُ عليه من كلامهم -.

---

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢ / ٥٤).

الوجهُ الثّاني: أنَّ «ذلك الاعتراض يمكن أن يقلبَ على الملاحدة، وتبطل به كثيرٌ مِن أقاويلهم، فإنَّه يمكن أن يقول مُعترض: إنَّ قضية التطوّر مجرّد فرض عقلي يقابله فرضٌ عقلي آخرُ ويناقضه، وهو أنَّ الحياة نشأت في الكون عن طريق الخلق الخاص لكلِّ نوعٍ حيواني، فعندنا إذًا فرضان متساويان عقلًا، فلا يمكن أن نؤمن بفرضية التطوّر، ولا أنْ نرتِّب عليها أي نتيجة في الواقع. فإنْ لم يقبلوا بذلك، وادَّعوا أن قولهم بالتطوّر مبنيٌّ على أدلةٍ علمية ثابتة، فقد ناقضوا أنفسهم؛ لأنَّ المؤمنين يدّعون بأنَّ إيمانهم بوجودِ الله مبنيٌّ على أدلة عقلية وعملية ثابتة وقطعية.

فرجع الأمرُ إلى البحث في صحَّة الأدلة وعدم صحّتها، وهذا الرجوع إبطالٌ لذلك الاعتراض مِن أساسه؛ لكوْنه قائمًا على أنَّ وجود الله مجرّد فرض لا دليل عليه»[1].

الوجهُ الثّالث: تقدَّم في بداية المبحث أنَّ هذا القياس يتعلّق بقضية عبء الإثبات. ويحاول الملحدُ أن يجعلَ عبء الإثبات على المؤمن وحدَه؛ لأنَّ الإلحاد - حسبَ زعمه - مجرَّد عدم الاعتقاد. ولكنَّ الأمر ليس كذلك لأنَّ المخلوقات وُجِدت بعدَ أنْ لم تكنْ موجودة، وهذا يتطلّب وجود موجِد يوجدها من العدم. ونشاهد الإتقان والإحكام، وهذا يتطلّبُ وجودَ مُتقِن ومُحكِم. ويزيد الأمر وضوحًا أنَّ هذا الاعتقاد ضروريٌّ وفطري، ويهجم على النَّفس البشرية، بينما الملحدُ ينكر هذا الأصلَ العظيم. فالملحدُ في الحقيقة مطالَب بأدلَّةٍ نفي العلم الضروري، وتفسير وجود المخلوقات بلا خالق.

و«الجدلُ في وجودِ الله، ليس مجرَّد بحثٍ في وجود ذات ما، في مكانٍ ما، أو لا مكان، أو كلِّ مكان، كما يحبُّ الملحد أنْ يوحي للناس، إنَّما هو أعمق من ذلك؛ فهو متعلِّق بجوابٍ لسؤال جوهريٍّ يقال: ما هو تفسيرُ هذا الكون بصفاته القائمة؟ فإنَّ وجودَ الله أو عدمَه له لوازمُ موصولة بفهْم هذا الوجود الحقيقي القائم. فالملحد مطالَب بتفسيرِ الوجود كما المؤلِّه؛ ففي حين المؤلِّه أنَّ وجودَ الله يفسِّر عامَّة خصائص الواقع، بطريقٍ مباشر أو غير مباشر، يرى الملحدُ أنَّ هذا الوجود مفصح عن عشوائية

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٥ - ٥٦).

غير حكيمة. إنَّ الملحد - مثلًا - لا يملك أن يفرَّ من جواب الأسئلة التالية إن أراد أن يُقرَّ على تصوّره الكوني:

- كيف يكون الكونُ أزليًّا معَ امتناع تسلسل الأحداث إلى ما لا نهاية في الماضي؟ وكيف يثبت ذلك علميًّا مع إجماع الفيزيائيين الملاحدة أن لكوننا بداية؟
- ما هو تفسيرُ الانفجار العظيم الذي ظهر به كوننا؟
- كيف يفسّر انفجارٌ ظهورَ الكون المنظّم والحياة المعقّدة؟
- ما هو تفسيرُ الانفجار الكمبري الذي ظهرت معه عامَّة جماعات الأحياء المعقَّدة؟
- ما هو تفسيرُ انفجار الوعي من المادة؟
- ما هو تفسيرُ النزوع الأخلاقي عند الإنسان؟
- ما هو تفسيرُ مظاهر الجمال في الكون؟
- بل ما هو تفسيرُ وجود المعنى في كون عبثي أزلي؟

إنَّ المذهبَ الإلحادي يجب أن يكون جوابًا لأسئلةٍ وجودية كثيرة، ليس هو محضَ الوجوم أمام ظواهر الكون»[1].

بهذه الأوْجه الثلاثة يكتمل الردُّ على هذه الشبهة، ويتبيَّن مدى ضعفها وهزالتها.

---

(١) براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم (١٥٠ - ١٥١).

المبحثُ الثّامن
ردودُهم على شبهة: عدم الإيمان

قد سبقَ في المبحثِ الثالث من هذا الفصل أنَّ عوام الملاحدة يوردون شبهةً خلال السؤال: «كيف نؤمن بوجودِ الله معَ أننا لا نراه؟».

ولكنَّ دعاة الإلحاد وفلاسفتَهم يوردون الشبهةَ بطريقة أخرى. وهي أنهم لا يشترطونَ رؤية الله جهرةً للإيمان، ولكنَّهم يقولون: إنَّ الأدلة على وجود الله ليست كافيةً للإيمان به، وهذا سببُ وجود عددٍ كبير من الملاحدة. ويسمّون هذه الشبهة بـ: حجّة عدم الإيمان (Argument from nonbelief).

وبتعبيرٍ آخر يقولون إنَّ الإله - إن كان موجودًا - فقدِ اختبأ مِن خلقه بطريقة لا يمكنُ أن نعلم إن كان موجودًا. ويسمّون تلك الشبهة بـ: حجّة الاختباء الإلهي (Argument from divine hiddenness).

والشُّبهتان متقاربتان، ولهذا أوردتهما في مبحثٍ واحد كشبهة واحدة.

وسأقسِّم هذا المبحث إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: حقيقةُ هذه الشبهة، وأبرز مَن ذكرها.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب لهذه الشبهة.

الفقرةُ الأولى: حقيقةُ هذه الشبهة، وأبرزُ مَن ذكرها:

الشَّكوى بأنَّ الإله لا يُظهر نفسَه قديمة جدًّا في التراث اليهودي والنصراني، بل ذُكر عدَّة أمثلة على ذلك في كتابهم المقدَّس، ومِن ذلك ما نسبوه إلى أحد أنبيائهم أنّه قال - وحاشاه - : (حَقًّا أَنْتَ إِلَهٌ مُحْتَجِبٌ يَا إِلَهَ إِسْرَائِيلَ الْمُخَلِّصَ)[1].

---

(١) أشعياء (٤٥: ١٥).

وقد تقدَّم عند الحديث عن تاريخ الإلحاد أنَّ الشكَّ موجودٌ بكثرة لدى علماء النَّصارى، ومن ضمن هذه الشكوك: الاختباءُ الإلهي. ولهذا نجد عند كبار علمائهم مثل: القديس أنسلم - الذي أوجدَ الحجَّة الوجودية - أنّه يتحدّث في كتابه: «بروسولوجيون» (Prosologion) بهذه الطريقة المتشكِّكة الموحية بهذه الشبهة إذ قال: «أنا لم أرَكَ يا رب إلهي. أنا لا أعرف شكلَك. ماذا يا ربي العليّ، سيفعل هذا الرجل، المنفى بعيدًا عنك؟ ماذا يفعل عبدك، حريص في حبِّه لك، ويطرد من وجهك؟ إنه يرغب أن يراك، ووجهك بعيدٌ جدًّا عنه. إنه يتوقّ إلى المجيء إليك، ولا يمكن الوصول إلى مقرّك. هو حريصٌ على العثور عليك، ولا يعرف مكانك. إنه يرغب في البحث عنك، ولا يعرف وجهك. يا رب، أنت إلهي، وأنت أنتَ ربي، ومع ذلك لم أرَكَ قطّ... وأنت أيها الرب! إلى متى يا رب أنت تنسانا. إلى متى أنت تتحوّل وجهك منا؟ متى تنظر إلينا وتسمعنا؟».

فالقديس أنسلم لا يشكُّ في وجود الله، ولكنّه يشكو من غياب الإله - كما يزعم -، ولهذا نقل بعضُ الباحثين أنَّ كلام القديس يوحي بشكوى بأنّه يريد أن يرى الإله ويحبَّه، ولكن لا يتلقّى جوابًا[١].

فالإلحادُ نشأ في بيئةٍ نصرانية حاضنة لهذه الشكوك. فجاء أمثال نيتشي في القرن التّاسع عشر، وبدأ يبثُّ شبهةَ الاختباء الإلهي؛ فقال: «إلهٌ عليم قدير، ولا يتأكّد أنَّ مخلوقاته تفهم نواياه، هل يمكن أن يكون هذا إلهًا خيِّرًا؟ الذي يسمح باستمرار عدد لا يُحصى مِن الشكوك والنداءات لآلافِ السنين، كما لو أنَّ خلاص البشرية لم يتأثر بها، ومِن ناحية أخرى يحمِّل عواقب وخيمة إذا ارتكبَ أيَّ خطأ فيما يتعلّق بطبيعة الحقيقة؟ ألَا يكون إلهًا شريرًا إذا امتلك الحقيقةَ ويستطيع أن يمنع الإنسانية من أن تعذّب نفسها عليها؟»[٢].

---

(١) انظر:

Divine Hiddenness: New Essays (2-3), by: Daniel Howard-Snyder and Paul Moser, (Cambridge University Press, 2001)

(2) Daybreak (89-90) by: Friedrich Nietschze, trans. R.J. Hollingdale Cambridge University Press, 1982))

عقَّب بعضُ الباحثين على قول نيتشي أنّه يريد أنْ يستنتج من الاختباء الإلهي أنه لا يمكن الإيمانُ بالإله الذي يؤمن به اليهود والنصارى(١).

ولكنَّ الذي أصَّل لهذه الشبهة بطريقة منطقية هو: البروفسور جي. أل. شيلينبيرغ(٢) في كتابه: «الاختباء الإلهي والعقل الإنساني» (Divine Hiddenness and Human Reason)، الذي صدر عام ١٩٩٣م، وذكرَ هذه الشبهة بالصياغة المنطقية الآتية:

١. إنْ كان الإله موجودًا، فهو كاملُ المحبّة.

٢. إنْ كان الإله كاملُ المحبّة موجودًا، فلا يمكن أن يوجَد كفر بطريقة عقلانية.

٣. الكفرُ موجود بطريقة عقلانية.

٤. بالتالي، لا يوجد إلهٌ كاملُ المحبة.

٥. إذًا، لا يوجد إله(٣).

ولكنَّ هذه الشبهة لا تُصاغ في الغالب بهذه الطريقة المنطقية إلّا في الدوائر الأكاديمية الفلسفية، وإنما يذكر الملاحدةُ جزئياتٍ من هذه الشبهة في كتبهم ومناظراتهم، ومؤدَّاها أنَّ الأدلة على وجود الإله ليستْ كافية، وأنَّه كان ينبغي أن تكون الأدلة أقوى لكي يقتنع جميعُ الناس بوجوده. ومِن الأمثلة على ذكر هذه الشبهات المتفرّعة:

---

(١) انظر: Divine Hiddenness: New Essays (3)

(٢) جي. أل. شيلينبيرغ (J.L. Schellenberg) بروفسور الفلسفة في جامعة جبل سانت فنسنت الكندية. وهو ملحد شرس، فقد ألّف عشراتِ الأبحاث الفلسفية في الإلحاد ونقد الدين. انظر: http://www.jlschellenberg.com/uploads/8/5/6/1/8561683/cv_2019.pdf

(٣) انظر:
Divine Hiddenness and Human Reason (83), by: J.L. Schellenberg, (Cornell University Press, 1993)

المثالُ الأوَّل: اشتهرتْ مقولةٌ للفيلسوف الملحد برتراند راسل أنه سئل: إن كان الإلهُ ظهر لك بعدَ الموت وسألك: لماذا لم تؤمن، فأجاب: «الأدلةُ لم تكن كافية يا إله! الأدلة ليست كافية»[١].

المثالُ الثّاني: أنَّ الملحد الفلكي كارل ساغان تساءل بطريقة صبيانية: «لماذا لم ينقشِ الإلهُ الوصايا العشر على القمر؟ أو جعل صليبًا طوله ١٠٠ كيلو يدور حول الأرض؟ لماذا يكون الإلهُ ظاهرًا في الكتاب المقدَّس مع أنّه غامض في العالم؟»[٢].

المثالُ الثّالث: قال لوارنس كراوس في مناظرته مع البروفسور وليام لاين كرايغ بعنوان: هل هناك دليلٌ على وجود الله؟ (Is there Evidence for God?): «... الآن، سيكون مِن السَّهل أن يكون هناك دليلٌ على وجود الله. إذا كانت النجوم تعيد ترتيبَ نفسِها الليلة، ونظرت لأعلى الليلة - يعني هذا المكان ليس مناسبًا، ولكن في مكان يمكنك أن ترى فيه النجوم... ونظرت للأعلى الليلة ورأيت النجوم تعيد ترتيبَ نفسها وتقول: «أنا هنا.» هذا هو الدليلُ المثير للاهتمام! وفي الحقيقة، عندما نتحدّث عن الأدلة، فإنَّ الدليل الوحيدَ الذي يمكن أن تقدِّمه على وجود الله هو الدليل المعجز؛ لأنَّ وجودَ الله يعني شيئًا خارقًا للطبيعة، شيء يتجاوز ذلك الذي يمكن تفسيره بالنظرية الفيزيائية. ولذا، إن كان لديك أدلةٌ على وجود الله، فلا بدَّ أن يكون من قبل المعجزات»[٣].

---

(١) انظر:
"Religion and Science: A New Look at Hume's Dialogues," Philosophical Studies 33 (1978), p. 176

(٢) المقال: Atheism and Carl Sagan's God على الرابط:
http://www.truefreethinker.com/articles/atheism-and-carl-sagans-god-part-1-2

(٣) انظر تفريغ مناظرة: Is there Evidence for God?، على الرابط:
https://www.reasonablefaith.org/media/debates/the-craig-krauss-debate-at-north-carolina-state-university/

والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ في خطاب الإلحاد المعاصر. وأصبحت هذه الشبهة مع شبهة: مشكلة الشَّر إحدى أكثر الشبهات انتشارًا في الزمن الحاضر[1].

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة:

حيث إنَّ لهذه الشبهة حضورَها الواسع في خطاب الإلحاد المعاصر، فقد ردَّ عليها علماءُ الغرب بردودٍ من أوْجه متعدِّدة. ويمكن تلخيصُ الردود في الأوجه الآتية:

الوجهُ الأوَّل: ذكر اللاهوتي ستيفن غوستافسون[2] أنه كي نجيب عن هذه الشبهة فلا بدَّ أن نفهم حقيقةَ إيمان المؤلّهة. وهذه الشبهةُ ظهرت بسبب سوء فهم الملاحدة للإيمان. وذلك يتبيَّن في النقاط الثلاث الأولى من ردوده:

النُّقطةُ الأولى: مفهومُ الذات الإلهية: فالمؤلهة يعتقدون أنَّ الإله متعالٍ على الزمان والمكان[3]، ولا يمكن إدراكُه بالحواس إدراكًا مباشرًا في الدنيا[4] ولا عن طريق العلم التَّجريبي. فإيمانهم مبنيٌّ على أنَّ الله غيب عنا، وبالتالي يكون طلبُ أدلة مادية حسية مباشرةً على وجوده يتناقضُ مع حقيقة الإيمان. فكلُّ مَن طلب دليلًا حسّيًّا مباشرًا على الإله، فإنَّه لم يفهم حقيقة الإيمان.

---

(١) انظر البحث:

C.S. Lewis on the Problem of Divine Hiddenness (1), by: Travis Dumsday

وهو موجود على الرابط:

http://www.anglicantheologicalreview.org/static/pdf/articles/dumsday.pdf

(٢) ستيفن غوستافسون (Stefav Gustavsson): عالم اللاهوت السويدي، وأحدُ أبرز المهتمين بنقد الإلحاد في السويد، وقد ترأس عددًا من المؤسسات الدينية النصرانية في السويد. انظر: http://www.stefangustavsson.se/?page_id=2

(٣) هذه الجملة فيها إجمال، والأولى أن يقال: إنَّ الله فوق عرشه، والعرش هو سقفُ المخلوقات.

(٤) هذا الكلام ليس بصحيحٍ على إطلاقه؛ فقد سمع كليمُ الله موسى u في الأرض، كما أنَّ نبينا محمد ﷺ سمع كلامَه فوق سبع سماوات. فالكلام فيه شيء من الإجمال. وأما للإنسان العادي فيصحُّ القول بأنهم لا يدركون الله بالحواسِّ في الدنيا. وأمّا في الآخرة، فيختلف الأمر، كما سيأتي ذكره إن شاء الله.

النُّقطةُ الثّانية: مفهومُ الصفات الإلهية: فالمؤلهةُ يعتقدون أنَّ الإله عظيم ومقدّس، ونحنُ ضعفاء وفقراءُ إليه، فينبغي لنا نحن أنْ نتقرَّب إليه ولا العكس. فطلب الإنسان مِن الله أنْ يريه المزيدَ من الآيات دليلٌ على أنَّ هذا الإنسان ابتعد من الله، ولا العكس.

النُّقطةُ الثّالثة: مفهومُ طبيعة الأدلة على وجوده: فالمؤلهة يعتقدون أنّ الأمر لله من قبْل ومِن بعد. فالإلهُ هو الذي يختار الأدلةَ والبراهين على وجوده لا الإنسان. فالموقف الصحيحُ أن يسأل صاحبُ الشبهة: هل هناك أدلة على وجود الله؟ وإن كان الجواب نعم، فما هي هذه الأدلة؟ وليس على الإنسان أن يفترض مِن عنده أدلةً مناسبة حسبَ أهوائه، ثمَّ يقول: إنْ لم تكن هذه الأدلة موجودة، فلا أؤمن بوجوده. فهذا يدلُّ على تفكيره المعوجِّ في طبيعة أدلة وجود الله[1].

وهذه النقاطُ الثلاث تبيِّن الخطأ في التفكير عند صاحب الشبهة، ولا بدَّ أن يصحِّح هذا التفكير قبلَ الإجابة عن الشبهة. وبيانه لهذه النقاط صحيح وجيّد كمقدّمة لنقد الشبهة.

الوجهُ الثّاني: ذكر البروفسور وليام لاين كرايغ أنَّ هذه الشبهة مبنيةٌ على موقف الإنسان من براهينِ وجود الله. فإنْ كانت البراهين والحجج قويّة ومقنعة، فإنَّ هذه الشُّبهة تسقط. ولذلك يجب على مَن يردُّ على هذه الشبهة أنْ يذكر البراهين والحجج بطريقةٍ مُقنعة، فإنِ اقتنع سقطت الشبهة من أصلها[2].

وهذا ردٌّ قويّ وجيِّد؛ لأنَّ الحجج والبراهين واضحةٌ وبيّنة لكلِّ مَن أراد الحقّ. فعلى مَن يردّ على هذه الشبهة أن يتعلَّم أدلة وجود الله بطريقة مقنعة ومبنية على شواهد جيِّدة، فإنّه يقدر على ردِّ هذه الشبهة بإذن الله.

---

(1) The Hiddenness of God: Why Isn't God More Obvious?

وهو موجود على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=WFvi6qG_dBY

(٢) محاضرة: The Hiddenness of God :٢٩ Excursus on Natural Theology, Part.

وهي موجودة على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=W8KJ1sBWy1g

الوجهُ الثّالث: ذكر البروفسور وليام لاين كرايغ أنّ العبرة ليست بأن يعلم أن الله موجودٌ فحسب، وإنَّما العبرة أنَّ الإنسان - مع إيمانِه بوجوده - يستسلم لله، ويحبّه، ويؤمنُ به. ولا علاقةَ بين المزيد من الأدلة وزيادة الاستسلام لله. فقد أرى الله بني إسرائيل الآياتِ البيِّنات في مصر قبلَ خروجهم من فرعون، وأثناء الخروج بانفلاق البحر، وبعدَ خروجهم في التيه؛ ومعَ ذلك وقعوا في الكفر بالله، وذلك لقساوة قلوبهم(١).

وكلامُه هذا صحيح، وهو مصداقٌ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر: ١٠ - ١٥].

فالمعرِضُ عن الحقِّ لا ينتفع بكثرة الحجج؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس:١٠١].

وهذا في نهاية الأمر متعلِّق بمشيئة الله، وهو الذي يهدي مَن يشاء بفضله، ويضلُّ مَن يشاء بعدله؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام:١١١].

والإنسانُ لا يلوم إلّا نفسه، فاللهُ أقام الحجَّة البالغة على الخلق، والكافر أعرض وتولَّى عن الحقّ. وهنا تكمُن المشكلة الأساسية عندَ كثير من الملاحدة أنهم لا يريدون الاستسلامَ لله، وبالتالي لا يروْن الأدلة الواضحة البيّنة على وجوده.

فكيف يتوقَّع مثلُ هذا الشخص أن يرى الآياتِ والأدلةَ والبراهين على وجود الله، وهوَ مُعرض عن ذلك كلّه، ويريد أن يستسلم لله؟!

---

(١) المحاضرة: The Evidence for Christianity

وهي مفرّغة على الرابط:

https://www.bethinking.org/is-christianity-true/the-evidence-for-christianity

الوجهُ الرّابع: مطالبةُ الملحد بتقديم دليلٍ على دعواه: بيَّن والبروفسور جي. بي. مورلاند البروفسور وليام لاين كرياغ أنَّ الملحدَ يزعم أنّ المؤمن مطالَبٌ بالإتيان بأدلة معيَّنة على وجود الله، ولكنَّ هذه المطالبة مبينة على دعاوى مبطنة في الحقيقة. فالملحدُ يزعم في الحقيقة أمرين:

الأمرُ الأوّل: أنَّه لا بدَّ أن يقدِّم الإله أدلةً أكثر على وجوده من الأدلة الموجودة.

الأمرُ الثّاني: أنَّه قد تمَّ البحثُ عن هذه الأدلة، وهي ليست موجودة.

وهذان الأمران بحاجةٍ إلى أدلة بحدِّ ذاتهما. وإذا لم يقم الأدلة على ذلك فإنّها دعوى مجرَّدة عن الدليل[1].

ومِن المعلوم أنَّه لا يمكن أن يقيمَ دليلًا على الأمر الأوَّل، وإنَّما هي دعوى مستندة إلى هواه، بدليل أنَّ كثيرًا من الناس قديمًا وحديثًا رأوا أنَّ الأدلة كافية تحقيق الإيمان بوجوده، بل بربوبيته وألوهيته.

ومِن اللطائف أنَّ كارل ساغان – وهو من أكثر مَن كان يردّد هذه الشبهة – اعترف بذلك إذْ قال: «أتمنى أن يكون واضحًا أنَّه لا يعني أنَّ كوني لا أرى أنه أدلة معيّنة على وجودِ الله أنه يُستنتج من ذلك أنّي أعرفُ أنَّ الإله غير موجود؛ هذا أمرٌ آخر. عدم الدليل ليس دليلًا على العدم»[2].

---

(١) انظر:

Philosophical Foundations for a Christian Worldview (157), by: J.P. Moreland & William lane Craig.

(٢) وهي إجابة له لأحد السائلين، ذكره الدكتور بيتر وليامس في مقاله:

Carl Sagan: The Sceptic's Sceptic

وهو موجود على الرابط:

https://www.bethinking.org/atheism/carl-sagan-the-skeptics-sceptic/3-3-natural-theology

فغايةُ ما يفعله الملحد أنَّه يزعم مِن عنده أنَّه كان ينبغي للخالق أن يقدّم أدلة أكثر على وجوده، ثمَّ يزعم أنَّه لم يجدْ هذه الأدلة، وبناءً على ذلك يستنج أنّ الله غير موجود. وهذا تفكيرٌ ساذج مخالف للمنطق السليم.

الوجهُ الخامس: ردَّ البروفسور مايكل ريا[١] على هذه الشبهة بأنّ الإلحاد نوع من أنواعِ خداع الذات، مثل: مدمن الخمر، الذي يأبى أن يعترف أنَّه مدمن، وبالتالي يخدع نفسَه أنه غيرُ مدمن. فكذلك الملحد، فإنَّه لا يريد أن يستسلم لله، وبالتالي يخدع نفسه أنَّه لا توجد أدلةٌ وبراهين على وجوده[٢]. ثمَّ استشهد البروفسور ريا على ذلك بكلام الفيلسوف الملحد تومس نيجل إذْ قال: «أنا أريد أن يكون الإلحادُ صحيحًا، وأشعر بعدمِ ارتياح أن يكون أكثرُ الأشخاص ذكاء وعلمًا الذين أعرفهم من المؤمنين المتديّنين. الحقيقة هي ليست أني لا أؤمنُ بالله فحسب، بل الحقيقة أنَّني أتمنى أن يكون اعتقادي هذا صحيحًا. أتمنَّى أنَّ الإله غير موجود! أنا لا أريد أن يكون هناك إله، ولا أريد أن يكون الكونُ بهذه الطريقة»[٣].

ورغم أنَّ هذا الوجه قوي وجيِّد، فإنَّ الدكتور ريا استشكله، وذكر أنه قد يفسِّر وجودَ الكفر عند بعض الأشخاص - مثل توماس نيجل -، ولكنّ البروفسور ريا يقول إنه قدْ يعترض على هذا الردَّ بأنَّه يوجد مؤمنون بالإله يستشكلون الاختباءَ الإلهي، كما أنّه يوجد عددٌ من الملاحدة يبحثونَ عن الإيمان، ولكنهم لا يجدون أدلة كافية رغم بحثهم. فهنا يردُ السؤال: لماذا الإلهُ يسمح بخداع الذات لأمثال هؤلاء؟ فلا بدَّ أن يكون للإله حِكَمٌ لسماحه بوجود الكفر[٤]. وهذا السؤال يؤدِّي إلى الوجه السادس.

---

(١) مايكل ريا (Michael Rea): بروفسور الفلسفة في جامعة نوتري دام بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في فلسفة الدين. انظر: https: / /www.michaelrea.org/

(٢) انظر: محاضرة: Divine Hiddenness, Divine Silence, وهي موجودة على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=dCka_Zg7ELQ

(3) The Last Word, (130-131)

(٤) محاضرة: Divine Hiddenness, Divine Silence

الوجهُ السّادس: شبهةُ الاختباء الإلهي مبنيَّة على أنّه لا يمكن أن يكون للربِّ حِكمٌ للسماح بوجود الكفر في العالم. فالمقدّمة الثانية في حجَّة جي. أل. شيلينبيرغ هي: «إنْ كان الإله كاملُ المحبّة موجودًا، فلا يمكن أن يوجَد كفر بطريقة عقلانية». وهذه المقدِّمة غيرُ صحيحة، لأنَّه قد يكون هناك حِكم كثيرة للإله بعدم إظهار نفسه لكلِّ أحد. ذكر الدكتور مايكل ريا بعضَ الحِكم التي استنبطها:

السببُ الأوَّل: أنَّ هذا يؤدّي بالإنسان أن يبحث عن خالقه خلال آياته ويرجوه.

السببُ الثّاني: لكي يظهر الربُّ للبشر أنّه الذي يحكم ويؤثّر في العباد، وهم لا يؤثِّرون فيه.

السببُ الثّالث: أنَّ بعضَ الناس يعبّر عن الاختباء الإلهي بالصمت الإلهي، ويقولون إنَّهم لا يسمعون شيئًا من الإله. ثمّ ذكر الدكتور ريا أنّه قد يصعب تفسير صمتِ شخصٍ من الأشخاص؛ لأنَّ صمتَه يرجع إلى شخصيته، وإذا ما عرفنا شخصيته وطبيعتَه فيصعب علينا تحليلُ صمته. وإذا كان هذا موجودًا في تحليل الصمت بين البَشر، فكيف بتفسيرِه للإله. وليس لدينا علمٌ بالذات الإلهية[١]، وبالتالي لا نفهم لماذا لا يُظهر نفسَه لبعض الأشخاص[٢].

وهذا الوجهُ في أصله جيِّد، وهو ذكر بعض الحِكم لكوْن الربّ لا يُظهر نفسه لبعضِ الأشخاص. ولكنَّ الحِكمَ التي ذكرها الدكتور ريا فيها شيء من التخمين. والأوضحُ من ذلك أنَّ الله أضلَّ الكافرين المعرضين عن الحقِّ. فاللهُ - تبارك وتعالى - ذكر في آياتٍ كثيرة أنَّه يهدي مَن يشاء ويُضل مَن يشاء، وأنه يزيغ قلوب الكافرين، وأنّه يطبعُ عليها. وهذا الإضلال مبنيٌّ على علمه - سبحانه وتعالى - لمن يصلح للهداية، ومَن لا يصلح، معَ العلم الراسخ أنّ الله لا يظلم أحدًا مثقال ذرّة.

---

(١) لا يمكن للإنسان الوصولُ إلى العلم بكيفية الذات الإلهية، ولكنَّه يمكنه أن يكون لديه علمٌ بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وإن كنا لا ندرك كيفيتها.

(٢) المصدر السابق.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة عدم الإيمان والاختباء الإلهي:

شبهةُ الاختباء الإلهي في الحقيقة شبهةٌ موجَّهة ضدَّ النصارى أكثر من كونها موجّهة ضدَّ المسلمين. وذلك أنَّ النصارى يعتقدون أنَّ الربَّ أبٌ في السماء يراعي أولاده في الأرض كما يراعي الأبُ في الدنيا أولاده[1]. كما أنَّ النصارى يركّزون كثيرًا على صفة المحبَّة لله، مُتغافلين الصفات الأخرى كالحكمةِ والغضب والعقاب. ولهذا نجد في المقدّمة الأولى لحجَّة جي. أل. شيلينبيرغ أنّه قال: «إن كان الإله موجودًا، فهو كامل المحبّة». فلم يذكرْ في هذه المقدِّمة سوى صفةٍ واحدة، ثمَّ بنى المقدّمة الثانية على هذه المقدّمة بقوله: «إن كان الإلهُ كاملُ المحبّة موجودًا، فلا يمكن أن يوجد كفر بطريقة عقلانية».

أمَّا لو قيلَ في المقدِّمة الأولى: «إن كان الإله موجودًا فهو العليم الحكيم الملك الجبَّار، الودود الرحيم، وشديدُ العقاب، الذي يهدي مَن يشاء بفضله، ويضلُّ مَن يشاء بعدله»، فإنَّ المقدّمة الثانية تسقط، بل يقال: بلى، يمكن للربّ أن يكون عنده حِكم كثيرةٌ لإضلال الكفَّار المعرضين عن الحقّ؛ فقد أقام اللهُ تعالى الحجّة على الإنسان بطرقٍ متنوّعة، ومن ذلك:

١) أنَّ الله خلق الإنسانَ على الفطرة السوية؛ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

٢) أنَّ الله أخذ العهد من بني آدم؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

٣) أنَّ الله أقام الحجّةَ على وجوده وربوبيته بآياته ومخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

[آل عمران: ١٩٠].

---

(١) وهذا الكلام يردّده الدكتور مايكل ريا في محاضرته عن الاختباء الإلهي مرّات عديدة.

٤) أنَّ الله أرسل الرسلَ وأنزل الكتب هداية للناس؛ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

فمَن أعرض بعد ذلك كلِّه فيلومنَّ إلا نفسه. ومِن عقوبة إعراضه عن الحقّ أنَّ الله يطبعُ على قلبه ويضلّه؛ قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وحريٌّ لمن استمرَّ في الجدال بعد هذه الآيات البيّنات أنّ الله يطبع على قلبه؛ قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

ومِن حكمة الله أنَّ العباد لا يروْنه في الدنيا لتحقيق الابتلاء والامتحان؛ فاللهُ خلق الموتَ والحياة ليبتلي العباد كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

والعبادُ لا يمكنهم رؤيةُ الله في الدينا، فأجسامهم أضعفُ من أن تطيق ذلك، فعدمُ تجلّي الخالق لعباده فيه رحمةٌ لهم. وقد أخبر اللهُ عن طلب موسى u أن يراه وماذا حدث إذ قال: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وعودًا إلى ردودِ علماء الغرب، فإنَّ فيها ضعفًا واضحًا، وعددًا من الأخطاء؛ فبعضهم يذكر أنَّ الإله قد أظهر نفسَه عن طريق المسيح، فهو الإله الذي مشى على الأرض. وهذا مبنيٌّ على عقيدةِ النصارى بألوهية المسيح، وهي معتقدٌ فاسد ردّ اللهُ عليه في القرآن الكريم في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١١٦ – ١١٧].

ومعَ ذلك فيمكن الاستفادةُ من بعضِ ردود علماء الغرب على شبهة عدم الإيمان وشبهة: الاختباء الإلهي، فالأوجهُ المذكورة في هذا المبحث أوجهٌ جيِّدة، ويستفاد منها، وإنْ كان ردُّ المسلمين لهذه الشبهة أسهلَ بكثير من ردّ النصارى لها.

المبحثُ التّاسع
ردودُهم على شبهةِ رهان الملحد

قد تقدَّم الحديث عن الحجَّة البرجماتية على وجود الله في الباب الثاني. وهذه الحجة اشتهرتْ باسم: رهان باسكال - نسبةً إلى الفيلسوف الفرنسي بليزيه باسكال -. وقد أقامَ رهانَه على أنَّ وجودَ الإله أو عدم وجوده مُحتمل. وإن كان موجودًا فإنَّ مَن آمن به يربح كلَّ شيء في الآخرة بدخوله الجنّة، وأمَا مَن ينكر وجوده فإنه يخسر كلّ شيء في الآخرة بدخولِ النار. بينما لو لم يكنِ الإلهُ موجودًا فإنَّ الذي آمن أو لم يؤمن به لا يربحُ ولا يخسر أيَّ شيء في الآخرة. وبناءً على هذا الرهان رجّح باسكال أنَّ الإيمان بوجود الإله أضمنُ من عدم الإيمان به.

وقد سبق أنَّه قد استحسن بعضُ المتديّنين هذا الرهان، بينما انتقده بعض المتديّنين والملاحدة معًا. ولكنْ لشُهرة هذا الرهان في الجدلِ الديني الغربي استغلّه بعضُ الملاحدة وقلبَ الحجَّة في صالحِ الملاحدة بما يُعرَف بـ «رهان الملحد». وهذا ما سيتناوله هذا المبحثُ - بإذن الله - في ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تقريرُ الملاحدة لرهان الملحد.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على رهان الملحد.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على رهان الملحد.

الفقرةُ الأولى: تقريرُ الملاحدة لرهان الملحد:

قد تقدَّم أنَّ عددًا من الملاحدة واللادينيين انتقدوا رهانَ باسكال من أوجه مختلفة. ومنهم: البروفسور مايكل مارتين، وهو مِن أشهر الملاحدة الذين اهتمّوا بنقد هذا الرهان بالتفصيل. وذلك في كتابه: «الإلحاد: تبرير فلسفي» (Atheism: A Philosophical Justification).

حيث خصَّص عشرَ صفحات في نقده. ولكنَّه لم ينتقد الرهان فحسب، بل قلبَ الحجَّة في صالح الملاحدة بطريقةٍ فلسفية معقَّدة. وخلاصةُ كلامه: أنَّ باسكال افترض أنَّه يوجد الإلهُ الذي يجازي المؤمنين به، ويعاقب المنكرينَ له، وبنى رهانه على ذلك. ومادام أنَّ رهانه مبنيٌّ على افتراض وجودِ الإله، فيمكن افتراضُ وجود كائن آخر خارق للعادة، ويعاقب مَن يؤمن بوجود الإله، ويجازي مَن ينكره. كما أنه يمكن افتراض وجود كائنٍ آخر خارق للعادة، يجازي مَن آمن به وبالكائن الأوّل الخارق للعادة، ولا يجازي مَن آمن بشيء آخر. وإذا كان الأمرُ كذلك فيوجد عددٌ من الخيارات الممكنة، وأسلم طريقةٍ هي عدمُ الإيمان بوجود أي إله أو كائنات خارقة للعادة[1].

فالبروفسور مارتن أراد أن يبيِّن أنَّه مادام أنَّ رهان باسكال مبنيٌّ على مجرّد افتراضات وليس مبنيًّا على يقين، فيمكن للملحدِ أن يفترض وجودَ آلهة أو كائنات أخرى خارق للعادة؛ لأنَّ الأمر يقتصر على افتراضات وإمكانات ذهنية.

وهذا الكلامُ وإن كان ساقطًا إلّا أنه فتح البابَ لغيره من الملاحدة في إقامة نحو هذه الرهانات.

ومِن ذلك أنَّ الإيمان بوجود الخالق، وتبنِّي دياناتٍ معيّنةً ليس مبنيًّا على أدلة وبراهينَ موضوعية، وإنما هو مبنيٌّ على افتراضات. ومادام الأمر كذلك، فمن افترض وجودَ إله فالأوْلى أن يفترض أنَّ هذا الإله خيِّر، وأنَّه يجازي جميعَ الناس الذين يعملون أعمالًا طيّبة، سواء كان موحِّدًا، أو مشركًا أو ملحدًا أو ربوبيًّا. ولكنَّ المتديّن أكثرُ عرضةً للوقوع في أعمالٍ غير أخلاقية لأنَّ الأديان تدعو إلى أعمال طيبة وسيئة معًا، بينما الملحدُ ينظر إلى القضايا الأخلاقية بنظرةٍ ريبة، ولا يقبل خُلُقًا من الأخلاق، لأنَّه ضمنَ منظومته الدينية. ولكن لو لم يوجَد إلهٌ فإنَّ المتديّن قد ضيّق وقته بالطقوس الدينية بدون فائدة[2].

---

(١) انظر: Atheism: A Philosophical Justification (232 - 238)

(٢) انظر المقطع: The Atheist's Wager على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=0iqWi3B7aM8

ونتجتْ من هذا الرهان الشبهةُ الإلحادية: أنَّ أهمَّ شيء أن يكون الإنسان طيّبًا في تعامله مع الآخرين، ولو وُجد إلهٌ بالفعل ويحاسب الناس في الآخرة، فإنّ الملاحدة والمتديّنين المتحلّين بأخلاقٍ وآداب طيّبة سيدخلون الجنة معًا. فلا حاجة للإيمان أصلًا.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على رهان الملحد:

قد تقدَّم أنَّ علماء الغرب لا يستخدمون رهانَ باسكال إلا في النادر. وكذلك الملاحدةُ فإنَّهم لا يستخدمون رهانَ الملحد إلّا في النادر. بل لم أقف على مَن أعاد نشرَ شبهة البروفسور مايكل مارتن لهذا الرهان. ولكنّ هذا الرهان فتح الباب للشبهة الإلحادية: أنَّه على فرض وجودِ الخالق، فإنَّه سيجازي حتَّى الملحد المتحلّي بالأخلاق الطيب؛ بدخول الجنة. والظاهرُ أنَّ هذه الشبهة أصحبت منتشرة نظرًا لكثرة ردود علماءِ الغرب عنها. وحيث أنَّ هذه هي الشبهة الأبرز، فسأركِّز على أجوبتها في هذه الفقرة. وسألخِّص أجوبتهم في خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: هذه الشبهة مبنيةٌ على أنَّ الملحد يحدِّد ما هو خير وما هو شرّ، وما هو ذنبٌ وما ليس بذنب. وذكر البروفسور جاسون هيلس[١] في ردّه على هذه الشبهة أنَّ الناس يختلفون في تحديدِهم لهذه الأمور، ولكنَّ الحكم في ذلك لا يرجع إلى الإنسان، بل يرجع إلى الله[٢].

وهذا الوجهُ صحيح؛ فلا يمكن للإنسانِ أن يستقلَّ بالحكم فيما هو خير أو شر أو ذنبٌ أو طاعة. بل هذا الأمرُ يرجع إلى الله. وأعظمُ أنواع الخير: الإيمان بالله. وقد سئل النبي (ﷺ): «أيُّ العمل أفضل؟ فأجاب: «إيمانٌ بالله ورسوله...»[٣]. فالإيمان أعظمُ أنواعِ الخير، والملحدُ ليس لديه أدنى إيمان.

---

(١) جاسون هيلس (Jason Hiles): بروفسور علم اللاهوت النصراني وعميد كلية اللاهوت في جامعة غراند كانيون بالولايات المتَّحدة. انظر:
https://www.gcu.edu/blog/author/jason-hiles-phd

(٢) انظر: المقطع: Trending Faith: Can “Good” People Go to Hell?، على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=QI7DrDivaFg

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦)، كتاب الإيمان، باب من قال: إن الإيمان هو العمل. وأخرجه مسلم في صحيحه (٨٣)، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، من حديث أبي هريرة (ﷺ).

وأعظمُ أنواع الشرور: الشرك؛ قال النبي (ﷺ): «أكبر الكبائر: الإشراك باللَّه...»[1]. وأقبحُ أنواع الشرك: شركُ التعطيل بتعطيل المخلوق عن الخالق، كما هو شركُ فرعون، وشركُ الملاحدة المعاصرين[2].

فالملحدُ فاقدٌ أعظمَ أنواع الخير، وواقعٌ في أعظم أنواع الشَّر، ومع ذلك يتمنّى أنه سيدخل الجنة وينجو من النار.

الوجهُ الثاني: صاحبُ هذه الشبهة يفترض أنَّ الإنسان يستطيع دخول الجنة بأعماله. قد ردَّ البروفسور جاسون هيلس على هذا الافتراض بأنّه غير صحيح، لأنّه يتضمن القولَ بأنَّ الأصل في الإنسان الخير، وأنَّ هذا الخير يكفي في دخول الجنة. ولكنَّ الحقيقة أنَّ الأصل في الإنسان ليس الخير، والجنة ثواب لانهائي، وليس للإنسان أعمالٌ كافية لكي يستحقّ هذا الثواب[3].

وهذا الجوابُ خاطئ من جهة، وصحيح من جهة أخرى:

الجهةُ الخاطئة: أنَّ النصراني - ومنهم البروفسور هيلس - يبني هذا القول بناءً على الخطيئة الموروثة، وأنَّ الأصلَ في الإنسان الشَّر، ولا يمكن أن يتخلّص من هذا الشرِّ ويدخل الجنة إلّا إذا آمن بأنَّ المسيح افتدى نفسه من أجل البشرية على الصليب - هذه العقيدةُ الخرافية سيتمُّ الردُّ عليها في مبحث: مصير الجاهل في الفصل الثالث إن شاء الله -.

ولكنَّ المقصود في هذا المقام أنَّ النصراني ينظر إلى الإنسان من حيث هو الإنسان - ويدخل في ذلك المولود الجديد - بنظرةٍ متشائمة بأنه غارقٌ في الشَّر والخطايا. بينما المسلمُ ينظر إلى الإنسان بأنّه يولَد على الفطرة وعلى الحنفية، ثمّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٨٧١)، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة:٣٢]. وأخرجه مسلم في صحيحه (٨٨)، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه).

(٢) انظر: الداء والدواء (٢٩٩)، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية، (دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ).

(٣) انظر: المقطع: Trending Faith: Can “Good” People Go to Hell?، المشار إليه سابقًا.

قد يستقيم على هذه الفطرة، أو ينحرف عنها لأسباب، مثل: تربية الوالدين، وتأثير الشياطين إلخ. - كما سبقَ في مبحث: حجة الفطرة -.

الجهةُ الصَّحيحة: مع أنَّ الإنسان يولَد على الفطرة والحنفية، فإنَّ السمة الغالبة للبشر - من حيث الواقع - : الظلم والجهل؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «الإنسانُ خُلقَ ظلومًا جهولًا، فالأصل فيه: عدم العلم، وميلُه إلى ما يهواه من الشَّرِّ، فيحتَاج دائمًا إلى علمٍ مفصَّلٍ يزولُ به جهله، وعدلٍ في محبَّته وبغضه، ورضاه وغضبه، وفعله وتركه، وإعطائه ومنعه، وكلُّ ما يقوله ويعمله يحتاجُ فيه إلى عدلٍ ينافي ظلمه، فإن لم يمنَّ الله عليه بِالعلم المفصَّل والعدل المفصَّل، وإلّا كان فِيه من الجهلِ والظُّلم ما يخرج به عن الصِّراط المستقيم»[1].

وكذلك أنَّ الإنسان لن يدخل الجنةَ بعمله مهما فعل من الخير؛ قال النبي (ﷺ): «لن يُدخِل أحدًا منكم عمله الجنة» قالوا: «ولا أنت يا رسول الله؟» قال: «ولا أنا إلا أنْ يتغمدني اللهُ منه بفضل ورحمة»[2]. فإذا كان نبيُّ الله ورسوله (ﷺ) لا يدخل الجنة بأعماله، وإنما يدخُل بفضل الله ورحمته؛ فكيف يتوقَّع الملحدُ أنه سيدخل الجنة بما يظنّه أنَّه أعمال طيّبة، وهو الذي جحد ربّه بالكلية؟!

الوجهُ الثّالث: وبناءً على الوجه السابق فقد ذكر البروفسور توني كوستا[3] أنَّ الإنسانَ الصادق إذا فتَّش نفسه فسيعرف أنّه قد قامَ بالعديد من الذنوب

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، كتاب المرضى، باب تمنّي المريض الموت.

وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٨١٦)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

(٣) توني كوستا (Tony Costa): لاهوتي كندي، بروفسور الدراسات الدينية ومهتمٌّ بنقد الإلحاد. انظر:
http://www.churchatfriendship.org/pti-meet-dr-tony-costa.html

والخطايا. ثمَّ يخدع نفسَه بأنه في الحقيقة طيب، ولذلك لا يستحق الذهاب إلى الجحيم[1].

وهذا الوجهُ أيضًا جيِّد في نقد هذه الشبهة، فالملحد يخدع نفسَه بأنّه طيّب وخيّر ويستحقُّ الجزاء - إنْ قدَّر بوجوده في زعمه - بسبب هذا. ولكنّ الواقع غير ذلك. بل اعتقادُهم هذا دليلٌ على غرورهم النفسي عندَ الملاحدة وتكبُّرهم. وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النحل:٢٢ - ٢٣]. فالذين لا يؤمنون بالآخرة - والملاحدة منهم - مستكبرون، وقد أخبر اللهُ أنه لا يحبُّ المستكبرين. بل الكبرُ من أخصِّ صفات أهل النار؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٩]. ومجادلةُ الملاحدة بهذه الشبهة مبنيَّة على كبرهم، وقد أخبر اللهُ تعالى أنه طبعَ على قلوب المتكبّرين الجبابرة إذ قال: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

فتلخَّص من هذه الأوجه الثلاثة أنَّ قول صاحب الشبهة إنَّ الملحد «الطيب» سيدخُل الجنة افتراض باطل. وهذا يقود إلى الوجه الرابع.

الوجهُ الرّابع: ذكر البروفسور جي وارنير واليس[2] أنّه ينبغي لنا عند الإجابة عن هذا السؤال أن نتيقَّن أنَّ الإله لن يرسلَ الطيِّبين إلى النار، ولكن مفهوم الملاحدة للطيِّبين خطأ[3]. وبناءً على هذا الجواب يمكن التسليمُ بأنَّ الطيِّب الحقيقي لن يدخل النار، ولكنَّ الملحد ليس من الطيّبين.

---

(١) انظر المقطع: How Can God Send Good People to Hell?، على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=udSsvWnrHYI

(٢) جي وارنير واليس (J. Warner Wallace): بروفسور الدفاع عن النصرانية في جامعة بيولا بالولايات المتحدة. انظر: https: / /coldcasechristianity.com /author /admin/

(٣) المقال: Why Would God Send Good People to Hell?، وهو على الرابط:
https://coldcasechristianity.com/writings/why-would-god-send-good-people-to-hell/

والحقُّ أنَّ الملحد لن يدخلَ الجنة، كما قال النبي (ﷺ): «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»[(١)].

فالملحدُ المخلَّد في النار لا خيرَ فيه أصلًا. وكلُّ ما عمله مما ظاهره الخير في هذه الدنيا يكون هباءً منثورًا يوم القيامة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال الإمام ابن كثير (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «وهذا يوم القيامة، حين يحاسب اللهُ العباد على ما عملوه من خيرٍ وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين[(٢)] من الأعمال - التي ظنوا أنها منجاة لهم - شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرطَ الشرعي؛ إمّا الإخلاص فيها، وإمّا المتابعة لشرع الله. فكلُّ عمل لا يكون خالصًا وعلى الشريعة المرْضِية، فهو باطل. فأعمالُ الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معًا، فتكون أبعدَ من القبول حينئذ»[(٣)].

الوجهُ الخامس: وإضافةً إلى كلِّ ما سبق؛ فقد ذكر البروفسور توني كوستا في ردِّه على هذه الشبهة أنَّ الذين يدخلون الجحيم - وعلى رأسهم الملاحدة - قد رفضوا الإله، بل كثيرٌ منهم يبغضونه. فكيف يتوقَّع أنه سيُدخلهم الجنة[(٤)].

وقد صدقَ في ذلك، فالبروفسور مايكل مارتن الذي أثار هذه الشبهة على سبيل المثال ألَّف كتابه: «الإلحاد - تبرير فلسفي -» في أكثر من ٤٠٠ صفحة، وذكر أنواعًا متعدِّدة من الشبهات الإلحادية، ثمَّ قدَّم في وسط هذا الكتاب: رهان الملحد. فكيف يتوقّع عاقلٌ أنَّ شخصًا يحارب الله بهذه الطريقة سيدخله الجنة؟!

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١١١)، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأنَّ مَن قتل بشيء عذّب به في النار، وأنه لا يدخل الحنة إلا نفس مسلمة، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

(٢) والملاحدة من باب أولى.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٠٣).

(٤) انظر المقطع: How Can God Send Good People to Hell?، المشار إليه سابقًا.

الفقرةُ الثالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على رهان الملحد:

شبهة: رهان الملحد ليست مُنتشرة، ولكنَّها موجودة. وقد ردَّ علماءُ الغرب عليها، وذكروا بعضَ الأجوبة المفيدة. ولكنَّ المشكلة لدى النصارى أنهم بنوا ردودَهم على صحَّة دينهم، واعتقادهم أنَّهم سيدخلون الجنة. وهذه مجرّد أمنية؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١]. قال العلامة السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا مَن كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا مَن كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنَّة وحدهم، وهذه مجرَّد أماني غير مقبولة، إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كلُّ مَن ادَّعى دعوى، لا بدَّ أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا، فلو قلبتْ عليه دعواه، وادَّعى مدعٍ عكسَ ما ادَّعى بلا برهان لكانَ لا فرق بينهما، فالبرهانُ هو الذي يصدق الدَّعاوى أو يكذبها، ولما لم يكنْ بأيديهم برهان، علم كذبهم بتلك الدعوى»[1]. فكلامُ النصارى في هذا الباب أنهم سيدخلون الجنة دون غيرهم مبنيٌّ على مجرّد أماني كاذبة، وأنَّ إيمانهم بأن المسيح (عليه السلام) افتدى نفسه على الصليب تكفيرًا لذنوبهم سبب لدخولهم الجنة ودعوى باطلة.

والمسيح (عليه السلام) لم يمتْ على الصليب؛ قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء: ١٥٧]. فإيمانهم بأنّه قُتل على الصليب مجرّد ظنّ، وما قتلوه يقينًا ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٨]. فلنْ يدخل أحد الجنة بسبب ظنّه أنَّ أحدًا آخر مات على الصليب.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير المنان (٤٨).

فالذي يدخل الجنة هو مَن قال اللهُ عنه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢]. وذلك كلّه بفضلٍ مِن الله رحمة، كما سبق تقريرُه.

فعلماءُ الغرب أصابوا في بعضِ الردود على الملاحدة، ولكنّهم بنوا ردودهم على أسسٍ باطلة وأصول واهية.

نقدُ رهان الملحد للبروفسور مارتن:

وأمَّا رهانُ الملحد الذي نصَّ عليه البروفسور مايكل مارتن فلم أقف على أنّ أحدًا مِن علماء الغرب ردَّ عليه. ولكن حيث إنَّه ذُكر في بداية المبحث، فلا بدَّ من نقضه؛ فيقال: البروفسور مارتن بنى رهانَ الملحد على رهان باسكال. وهذا الرهان نفسه فيه إشكالياتٌ كبيرة، وقد سبق ذكرُها في المبحث المخصَّص لهذا الرهان. ومن الإشكاليات في رهانِه أنَّه بناه على أنَّ وجود الله ممكن، ثمَّ رجَّح هذا الإمكان بأنَّ الأسلم أن يؤمنَ الإنسانُ لكيلا يتعرَّض لعقوبة في الآخرة.

وعندما ذكر أنَّ وجودَ الله من الممكنات، فإنّه فتح البابَ لأمثال البروفسور مارتن أنْ يقول: «والإيمانُ بكائنات أخرى خارقة للعادة ممكن. والردُّ على ذلك من وجهيْن:

الوجهُ الأوَّل: الإيمانُ بوجود الله ليس مِن قبيل الممكنات، بل الإيمان بوجوده ضروري - كما سبقَ ذكره مرارًا -. وهذا الإيمانُ فطريٌّ ومبني على حجج وأدلة وبراهين يقينية. وأمَّا ما ذكره البروفسور مارتن من أنَّ وجودَ كائنات خارقة للعادة أخرى فليس عليه أدْنى دليل أو برهان.

الوجهُ الثّاني: وجودُ آلهةٍ أخرى مع الله تعالى ليس مِن قبيل الممكنات، بل من قبيل المستحيلات. ولو وُجِد آلهة أخرى لاختلَّ الكون وفسد؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٢١ - ٢٢]. قال العلامة السعدي (رحمه الله) في تفسيرِ هذه الآية: «وبيانُ ذلك: أنَّ العالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما

يكون من الصَّلاحِ والانتظام، الذي ما فيه خللٌ ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدلَّ ذلك على أنَّ مدبرَه واحد، وربَّه واحد، وإلهَه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك؛ لاختلَّ نظامه، وتقوَّضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدُهما تدبيرَ شيء، وأراد الآخرُ عدمَه؛ فإنه محالٌ وجود مرادهما معًا، ووجودُ مراد أحدِهما دون الآخر يدلُّ على عجز الآخر، وعدمِ اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميعِ الأمور غيرُ ممكن، فإذًا يتعيَّن أنَّ القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع؛ هوَ اللهُ الواحد القهار»[1].

فالخلاصةُ أنَّ البروفسور مارتن جعل الإيمانَ بالله وآلهة أخرى كلّه من الممكنات، ولكنَّ الصواب أنَّ الإيمان بالله ضروري، ووجود الآلهة الأخرى مستحيل. وعليه، فإنَّ رهانَه باطل من أساسه.

---

(١) المصدر السابق (٤٩٣).

المبحثُ العاشر
ردودُهم على شبهةِ ضعف التصميم

تقدّم في الباب الثاني تقسيمُ الحجج على وجودِ الله إلى ثلاثة أقسام: الحجج العقلية والحجج العلمية والحجج الحسية. وذُكرت الحجة الغائية من ضمن الحجج العقلية، ثمَّ فُصِّلت الأدلة والشواهد للحجة الغائية ضمنَ الحجج العلمية. فالحجّة الغائية في الأصل حجة عقلية، ولكنه يستدلُّ لها بشواهد كثيرة من العلم التجريبي.

وقد عارَضَ الملاحدةُ الحجة الغائية أو دليلَ التصميم بشبهةٍ تسمَّى: حجة ضعف التصميم (The Argument from Poor Design)، وهي شبهة عقلية في صياغتها، ولكن شواهدُها المزعومة من العلم التجريبي، ولا سيَّما بعض الشبهات المتعلّقة بنظرية التطوّر. ولهذا سوف أتناولُ هذه الشبهة كشبهةٍ عقلية معَ بعض شواهدها في هذا المبحث، ثمَّ أفصِّل الردَّ على نظرية التطوّر في الفصل القادم - إن شاء الله -.

وسأقسِّم هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: ضعف التصميم.

الفقرةُ الثّانية: صياغةُ الملاحدة لشبهة: ضعف التصميم.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: ضعف التصميم.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: ضعف التصميم.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: ضعف التصميم:

أصدرَ تشارلز داروين كتابه: أصل الأنواع عام ١٨٥٩م، وبصدوره نشأت نظريةُ التطوّر. وحاول داروين أن يستدلَّ في كتابه على حصول التطوّر من سلف مشترك عن طريقِ الانتخاب الطبيعي بأدلةٍ متعدِّدة. ومِن ضمن هذه الأدلة: ما يسمّى بالأعضاء الأثرية (Vestigial organs). وهي - حسبَ مزاعم داروين والتطوّريّين - أعضاء

كانت تقوم بوظائفها في الماضي، وعندما قلَّت الحاجةُ إليها ضَمُرت أو اختفت[١]. وخصّص داروين الحديثَ عنْ هذه الأعضاء المزعومة في الباب الرابع عشر من كتابه، وزعم أنّها كثيرة جدًّا في الطبيعة: «الأعضاءُ أو الأجزاء الجسدية الموجودة في هذه الحالة الغريبة، التي تحمل الطابعَ الواضح الخاصَّ بعدم الجدوى، شائعة إلى حدٍّ بعيد، أو حتى إنها عامَّة في جميع أرجاء الطبيعة»[٢].

وانقسم المجتمعُ العلمي بين موافقٍ ومعارض لنظرية داروين. وسعى الموافقون للنظرية لحشدِ أكبر عددٍ من الأدلة المزعومة لنظريتهم.

وكان مِن ضمن مَن جمع الأدلة لذلك: إرنست هيكل[٣]، وركّز على جمع أمثلة على هذه الأعضاء، واخترع مصطلحًا جديدًا، وهو: بلاغائية (Dysteleology)[٤]. وبينما كان موقفُ داروين من هذه الأعضاء علميًّا - وإن كان خاطئًا -، فإنَّ موقف هيكل كان فلسفيًّا؛ وهو محاولةُ نفي الغائية عن الأعضاء. وقد لخَّص مرجع أكسفورد (Ox-ford reference) هذا الموقفَ الفلسفي وأثره على الإيمان بقوله: «إن كانت الغائية دليلًا على وجود الله، فإنَّه يبدو لأوَّل وهلةٍ أنَّ «بلاغائية» دليل ضدَّ الإيمان به»[٥].

ويستخدم الملاحدةُ عدمَ وجود الغائية لإثبات صحّة منظورهم الإلحادي للكون؛ فيقول زعيمُ الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز على سبيل المثال: «الكون الذي

---

(١) انظر:
Encyclopedia of Evolution (1131-1133), by: G. B. Muller, (Oxford University Press, 2002)

(2) On the Origins of Species (370)

(٣) إرنست هيكل (Ernst Heakel) بروفسور الحيوان الألماني، ومتخصّص في علم الأجنة. كان يدعم الدارونيية بقوَّة، وحاول دعمها بدراسات علمية. توفي عام: ١٩١٩م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Ernst-Haeckel

(٤) انظر: The History of Creation (331)، by: Ernst Haeckel, (Appleton, 1892)

(٥) مصطلح: Dystheology على الرابط:
https://www.oxfordreference.com/view/10.1093/oi/authority.20110803095738944

نشاهده توجَد فيه الخصائص التي نتوقَّعها. هو في الحقيقة **بلا تصميم**، ولا هدف، ولا شرّ ولا خير، ولا شيء سوى اللامبالاة القاسية»[(١)].

وخصَّص كريستوفير هيتشن بابًا كاملًا في كتابه: الإله ليس عظيمًا، لدليل التَّصميم، وأورد كثيرًا من الأمثلة على ضعف التصميم حسب زعمه[(٢)].

ويكثُرُ ريتشارد دوكينز من ذكر الأمثلة على ضعف التصميم حسب زعمه في مقاطعَ مرئية[(٣)].

وشبهةُ ضعف التصميم من أقوى شبهات الملاحدة المستمدّة من نظرية التطوّر. فنظريةُ التطوّر نفسها ليستْ دليلًا مباشرًا على الإلحاد، ولكنَّ شبهة ضعف التصميم تقود إلى الإلحاد.

وذلك أنَّ «نظرية التطوّر قد تؤدِّي إلى اللادينية من جهتين، وإلى الإلحاد من جهة. أما اللادينية[(٤)]:

فالجهةُ الأولى: أنَّ الاعتقاد بالتطوّر يعني أنَّ عملية خلق الإنسان وسائر الأنواع تمَّت بعمليةٍ عشوائية دافعُها الانتخاب الطبيعي على امتداد الزمن، فإن أضيف إليها افتراضاتُ ونظريات علوم الجيولوجيا والكونيات، تحصَّل أنَّ خلق السماوات والأرض والأحياء تمَّ بعملية عشوائية ثابتة على مدار الزمان، ولذلك يولّد هذا شعورًا بأن الإله خلقَ الكون ووضعَ قوانينه ثمّ تركه... وهذا القول وإن كان لا يلزم منه اللادينية إلا أنَّه واقع...

والجهةُ الثّانية: إنَّ القول بالتطوّر ينافي النصوص الصحيحة الواردة في الأديان، وهي نصوصٌ صحيحةُ الثبوت صريحةُ المعنى، ولا يمكن الجمع بينهما إلّا باعتساف وتأويل يبطل المعنى ويذهب بحقيقة النصّ فيكون النصّ وعدمه سواء...

---

(1) River out of Eden (133)

(٢) انظر: God is not Great (73 - 96)

(٣) انظر على سبيل المثال مقطع: Evidence for Evolution: Bad Design, وهو موجود على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=AN74qV7SsjY

(٤) الظاهر أنَّ المؤلف يقصد باللادينية في هذا المقام: المذهب الربوبي.

وأمّا جهةُ الإلحاد، فهي مِن جهة أنها تقول بوجود العيب وانعدام التصميم في مخلوقات الله، وتدَّعي عدمَ موافقة التركيب للوظيفة المثلى، وهنا يجعلون من عدم العلم بالحكمة دليلًا على انعدامها، وبالتالي ينفونَ الحكمة في الخلق، فينفون أن يكون الإله مطلقُ القدرة والعلم خلقَ هذه الخلائق، وهي طريقةٌ تشبه استدلالهم بوجود الشرِّ في العالم على نفي وجود الله...»[1].

فشبهةُ ضعف التصميم مما يتمسَّك بها الملحد في الاستدلال بنظرية التطوّر على إلحاده. وهذا هو واقعُ الملاحدة المعاصرين.

الفقرةُ الثّانية: صياغةُ الملاحدة لشبهة: ضعف التصميم:

تلخَّص مما سبق أنَّ شبهة ضعف التصميم مما يتمسّك بها التطوّريون على الإلحاد. وفي الغالب يذكرون هذه الشبهةَ مصحوبة بذكر أمثلة معيَّنة على سوء تصميم مزعوم، وأنَّه دليلٌ على الإلحاد. ولكنَّ هذه الشبهة تتضمَّن مقدِّمات عقلية مبطنة. وقد أوردها بعضُهم بالصياغة الآتية:

١) الإلهُ الخالق ذو العلم والقدرة والخير سيخلق الكائناتِ الحيةَ ذات تصميم مثالي.

٢) لدى الأحياء خصائصُ ليست مثالية.

٣) لذا، فإنَّ الإله لم يخلق هذه الأحياء، أو أنه ليس ذا علم وقدرة وخير[2].

٤) فهذه خلاصةُ هذه الشبهة بصياغتها المنطقية.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: ضعف التصميم:

هذه الشبهةُ مبنيَّة على مقدِّمتين ونتيجة. والمقدِّمة الأولى تفترض أنّه لو كان الخالقُ متَّصفًا بالعلم والقدرة والخير فلا بدَّ أن تكون المخلوقات على تصميم مثالي. فهذه المقدِّمة مبنيَّة على افتراض لاهوتي. والمقدِّمة الثانية تفترض أنَّ المخلوقات ليست مثالية،

---

(١) الإلحاد وثوقية التوهّم وخواء العدم (١٦٣ - ١٦٤).

(٢) انظر: The Gay Epiphany: How Dare You Speak for God?، Chapter 7, by: Robert K. Pavlick, (iUniverse, 2010)

ويستشهدون على ذلك بأمثلةٍ من علم الأحياء. ثمّ يستنتجون من المقدّمتين: النتيجة، وهي أنَّ الإله لم يخلقِ المخلوقات، أو أنه لا يتَّصف بالصفات التي يثبتها المؤلهة.

وقد ردَّ علماءُ الغرب على المقدِّمتين والنتيجة، وعليه فستقسَّم الردودُ إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الردُّ على المقدّمة الأولى:

ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة من وجهين:

الوجهُ الأوَّل: هذه الشبهةُ تشبه شبهةَ مشكلة الشَّر في صياغتها من بعض الأوجه، ولهذا كان ردُّ اللاهوتيّين النصارى على هذه الشبهة ينطلق من المنطلق نفسه الذي ردُّوا فيه على مشكلة الشَّر. وذلك أنَّ المخلوقات بعد معصية آدم ليست مثالية، بل يوجَد العديدُ من المصائب في هذه الدنيا بالزلازل والقحط والأمراض وتأثير الشياطين، إلخ. فلا ينتظر أن تكون المخلوقات كلّها مثالية[1].

الوجهُ الثّاني: القائلونَ بالتصميم الذكي - مثل الدكتور وليام دمبسكي - ردَّ على هذه المقدِّمة بالتفريق بين التصميم الذكي (Intelligent Design) والتصميم المثالي (Optimal Design)، وبيَّن الدكتور دمبسكي أنَّه لا يلزم أن تكون جميع المخلوقات مثالية لكي تكونَ دالةً على وجود مصمِّم ذكي[2]. وقسَّم التصميم إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: ما يبدو مصمّمًا وهو ليسَ كذلك، وهو ما يقوله التطوّريون عن المخلوقات الحيّة.

القسمُ الثّاني: التصميمُ الذكي، وهو ما دلَّ على وجود مصمِّم ذكي صمَّم المخلوقات الحيّة، ولا يلزم أن تكون المخلوقاتُ مثالية. وهو ما يتبنّاه القائلون بنظرية التصميم الذكي.

---

(١) انظر:
God at War: The Bible and Spiritual Conflict (206), by: Gregory A. Boyd, (IVP Academic, 1997)

(٢) وقد سبق التنبيهُ على ما في هذا اللفظ من الإجمال.

القسمُ الثّالث: التصميمُ المثالي. والأمثلةُ التي يذكرها التطوّريون من هذا القبيل، ولكنَّ القائلين بالتصميم الذكي لا يدَّعون أنَّه موجود[1].

وضربَ مثالًا في التفريق بين الأقسام الثلاثة بقوله: «تمَّ تصميمُ السيارات التي تدور في مصانع التجميع في ديترويت بذكاء، بمعنى أنَّ الذكاء البشري مسئول عنها. مع ذلك، حتى لو اعتقدنا أنَّ أصحابَ الصناعة في ديترويت يصنعون أفضل السيارات في العالم، فمن الخطأ أن نقول إنَّها مصمَّمة على النحو الأمثل. كما أنه ليس صحيحًا أن نقول إنَّها تبدو مصمّمة فقط»[2].

وعليه فتكون المقدِّمة الأولى في هذه الشُّبهة من قبيل مغالطة الرجل القشّ[3]، لأنَّ اللاهوتيّين النصارى والقائلين بالتَّصميم الذكي لا يتبنَّون القول بالتصميم المثالي، فحتى لو وُجِد عيبٌ في المخلوقات، فلا يعني ذلك أنَّ الخالق غير موجود. وسيأتي ذكرُ الموقف الإسلامي من الخلق المثالي في نهاية المبحث - بإذن الله -.

القسمُ الثّاني: الردُّ على المقدِّمة الثانية:

قد ردَّ علماءُ الغرب على هذه المقدِّمة من وجهين: الوجه العام، والوجه الخاص، وبيانُ ذلك كالآتي:

الوجهُ العام: وهو أنَّ شبهة الأعضاء الضامرة مبنية على جهل التطوّريين بوظيفة بعضِ الأعضاء، ومن ثَمَّ يفترضون أنَّ هذه الأعضاء ليست مخلوقة بعناية، وإنما هي من بقايا التطوّر. وكان التطوّريون يفترضون أنَّ أعضاء كثيرة جدًّا بدون أي فائدة وتدخل في هذا الصنف، ثمَّ مع تقدُّم العلم تراجعوا عن هذا القول شيئًا فشيئًا؛ قال سكوت هيوس - المتخصِّص في نقد نظرية التطوّر - : «الأعضاءُ الضامرة هي البُنى

---

(١) انظر المقال: Intelligent Design is not Optimal Design, وهو موجود على الرابط: https://www.discovery.org/a/86/

(٢) المصدر السابق.

(٣) سبق التعريف بهذه المغالطة في المبحث المخصّص بالمغالطات المنطقية عند الملاحدة.

التي يفترض التطوّريون أنَّها بقايا لا فائدة منها لعضوٍ كان كاملًا ووظيفيًّا في الأنواع السلفية، وقد استخدمتْ هذا البنى طويلًا كدليلِ إثبات التطوّر لأنها يفترض أن تمثّل تغيّرات تطوّرية سابقة.

ولكنِ اتَّضح أنَّ قضية الأعضاء الضامرة هي **مثال للتسرّع في الحكم عند التطوّريين**، فالتطوُّرات في الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) **بيَّنت أنَّ الأعضاء الضَّامرة المفترضة هي أعضاء نافعة تمامًا في الواقع بل وأساسية**. على سبيل المثال نجد أنَّ الكتب المدرسية حتى الستينيات من القرن الماضي وضعت قائمةً بأكثر من ٢٠٠ بنية حيويَّة ضامرة في جسم الإنسان، بما في ذلك الغدة الدرقية والغدة النخامية! **وقد بدأت قائمةُ البنى والأعضاء «غير المفيدة» تتقلّص مع زيادة معرفتنا وفهمنا لها**.

ونعلم اليوم أنَّ ما كان يصنّف في الماضي عضوًا ضامرًا، له وظيفة ما خلال حياة الكائن الحي»[١].

بمعنى، أنَّ التطوُّريين يستدلُّون ببرهان الجهل، وخلاصته: «إذا لم أكن أعلمُ أنَّ كذا متقن الصنع، فهو معيب!» أو: «أنا لا أعلمُ الحكمة من خلق كذا، فوجود كذا دالٌّ أنه لا وجود لخالق!»[٢].

وكأنَّ التطوّري جعل نفسَه الحَكَمَ فيما يعتبر متقنًا أو غير متقن، وإذا ظنّ أنه غير مُتقن فإنّه يقول إنَّ هذا العضو من بقايا التطوّر، وعليه فلا يوجد خالق. وقد تبيّن أن التطوُّريين أخطأوا ٢٠٠ مرَّة تقريبًا في تصنيف أعضاء على أنها من الأعضاء الضامرة، ثمّ ظهرَ خطؤهم. فكان الأوْلى بالتطوّريين أن يتَّعظوا بهذه الأخطاء ويتواضعوا. ولو وقفوا على عضوٍ في الإنسان أو في حيوانٍ من الحيوانات من هذه الشاكلة؛ لكان ينبغي لهم أنْ يقولوا: «لسْنا ندري ما وظيفةُ هذا العضو، ولكن لعلَّنا نعلم ذلك في المستقبل». وأما أنْ يكرِّروا هذا الخطأ مرَّة تلوَ الأخرى، فهوَ من غرائبهم وعجائبهم.

---

(1) The Collapse of Evolution (146)

(٢) انظر: براهين وجود الله (٦٦٦ – ٦٦٧).

الوجهُ الخاص: وهو بنقدِ الأمثلة التفصيلية على هذه الشبهة. وحيث إنّ الملاحدة يكثرونَ من التَّمثيل على هذه الشبهة، ثمَّ يتراجعون عما مثّلوا به بعد ذلك فلا يتّسع المقامُ للوقوف على جميع أمثلتهم. وإنما أقفُ معَ مثالين من أشهر الأمثلة التي يذكرها الملاحدةُ التطوّريون، ويستدلّون بها على سوء التصميم، ثمَّ تبيَّن لهم أنّها ليست من باب سوءِ التصميم في شيء، بل هي مخلوقةٌ في غاية الدقّة والإحكام.

- **المثالُ الأوَّل: الحمض النووي الصبغي الخردة (Junk DNA):**

الحمضُ النووي الصبغي الخردة هو أجزاء من الحمض النووي التي لا تقوم بإنتاج متسلسلات البروتين. ولهذا كان التطوّريون يستدلّون بوجودِ هذا النوع من الحمض النَّووي على أنه مجرَّد خردة، ولا وظيفة له. ورأوا أنَّ هذا من أقوى الأدلة على وجود التطوُّر. وذكر ريتشارد دوكينز في كتابه: «أعظم استعراض في الأرض: الأدلة على التطوّر» (The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution) عام ٢٠٠٩ م، أنَّ ٩٥ ٪ من الحمْض النووي في الإنسان من هذا النوع، ويتساءل بعد ذلك عن سبب خلق مصمِّم ذكي مثل هذه الجينات الزائفة التي ليست لها أيُّ فائدة إلّا إذا كان يتعمّد خداعَنا[١].

ولكنَّ تقدُّمَ العلم بجينيات الإنسان شيئًا فشيئًا، معَ مشروع موسوعة عناصر الحمض النووي (ENCODE project) - وهو أعظم مشروع علمي في دراسة الحمض النووي - الذي اشترك فيه ٤٤٠ عالمًا من ٣٢ مختبرًا[٢]. وتبيَّن خلال هذا المشروع أنّ ما كان

---

(١) انظر:

The Greatest Show on Earth (146), by: Richard Dawkins, (Free Press, 2009)

(٢) انظر المقال:

Bits of Mystery DNA, Far from 'Junk', Play Crucial Role

وهو موجود على الرابط:

https://www.nytimes.com/2012/09/06/science/far-from-junk-dna-dark-matter-proves-crucial-to-health.html

التطوّريون يسمُّونه بالحمض النووي الخردة، ليس خردة إطلاقًا، بل له وظائف مهمَّة جدًّا. وفي عام ٢٠١٢م، نشرت مجلة سينس (Science) التابعة للجمعية الأمريكية لتقدّم العلوم (American Association for the Advancement of Science) – وهي أكبر منظمَّة علمية في العالم وهي من أنصار نظرية التطوّر – بحثًا علميًّا بعنوان: «مشروع أنكود يكتب تأبينًا للحمض النووي الصبغي الخردة» (ENCODE Project Writes Eulogy for Junk DNA). وملخّص البحث كالآتي: «في هذا الأسبوع [فقط]، هناك ثلاثون بحثًا علميًّا، منها ستة في مجلة ناتشر – مِن أشهر الدوريات العلمية في العالم – وأبحاث إضافية نشرتْ على الإنترنت من قبَل مجلة سينس، تدقُّ صوتَ الموت لفكرة: أنّ أغلب الحمض النووي الخاصّ بنا عديم الفائدة. مشروع أنكود الذي استمرَّ لعقد من الزمن اكتشف أنَّ ٨٠ ٪ من جينوم الإنسان له وظيفة من ناحية الكيمياء الحيوية. إلى جانبِ تعريف البروتينات، تحدِّد قواعدُ الحمض النووي التي أبرزتها مشروع أنكود نقاطَ هبوطٍ للبروتينات التي تؤثّر في نشاط الجينات، أو سلاسل من الحمض النووي الريبي مع أدوار لا تعدُّ ولا تحصى، أو ببساطة الأماكن التي تعمل فيها التعديلات الكيميائية على إسكات امتدادات الكروموسومات لدينا»[١].

ففي عام ٢٠٠٩ م، كتب ريتشارد دوكينز أنّ ٩٥ ٪ من الحمض النووي خردة. ثمَّ في عام ٢٠١٢ م، ذكر هذا البحث العلمي أنّ ٨٠ ٪ من الحمض النووي نافع، وعقَّب أحدُ المسئولين على مشروع أنكود أنَّ من المرجَّح أنَّ هذا الرقم سوف يزداد إلى ١٠٠ ٪ مع تقدّم البحث العلمي[٢].

---

(١) ملخص بحث: ENCODE Project Writes Eulogy for Junk DNA

وهو موجود على الرابط:

https://science.sciencemag.org/content/337/6099/1159.

(٢) انظر المقال: ENCODE: The Rough Guide to the Human Genome

وهو موجود على الرابط:

https://www.discovermagazine.com/the-sciences/encode-the-rough-guide-to-the-human-genome

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة بقوّة، ومن ذلك أنّ الدكتور جونثان ويلز ألّف كتابًا في الردِّ على هذه الشبهة بعنوان: «أسطورة الحمض النووي الصبغي الخردة» (The Myth of Junk DNA) في ١٥٠ صفحة في الردّ على هذه الشبهة، وفنّدها بالنقل عنْ مئات الأبحاث المحكّمة التي تبيّن فوائدَ هذا النوع من الحمض النووي.

- **المثالُ الثّاني: الزائدة الدودية (Appendix):**

الزائدة الدودية قطعةُ صغيرة في نهاية المصران الأعور، تقع في نهاية الأمعاء الغليظة. وكان التطوّريون يعتقدون أنّها ليست لها أيُّ فائدة أو وظيفة. وكانوا ينصّون على ذلك في الموسوعات الكبرى كموسوعة بريتانيكا حتى عام ١٩٩٧م[1]. ولكن تغيّر هذا الاعتقادُ عندما اكتشف العلماءُ أنَّ للزائدة الدودية وظيفة مهمّة في الدور المناعي مع الجهاز الليمفاوي للحماية من الهجمات البكتيرية الضارة. حتى نشر موقع مجلة سينتيفيك أميريكان (Scientific American) - وهي من أشهر المجلات العلمية الأمريكية المؤيّدة لنظرية التطوّر - مقالًا علميًّا بعنوان: «الزائدة الدودية قد تنقذ حياتك» (Your Appendix Could Save Your Life)[2].

وقد ردَّ الدكتور كارل ويلاند وكين هام[3] على تناقضات التطوّريين في موقفهم من الزائدة الدودية، معَ بيانِ فوائدها في مقال بعنوان: «الزائدة الدودية لك... هي موجودة لهدف» (Your appendix ... it's there for a reason)[4].

---

(1) New Encyclopedia Britannica (1:491), (1997)

(٢) وهو موجود على الرابط:
https://blogs.scientificamerican.com/guest-blog/your-appendix-could-save-your-life/

(٣) كين هام (Ken Ham): عالم علوم البيئة الأسترالي، وأحد رموز مذهب الخلق. وقد ألّف مؤلفات ومقالات عديدة في الانتصار لهذا المذهب. انظر:
https://answersingenesis.org/bios/ken-ham/

(٤) وهو موجود على الرابط:
https://creation.com/your-appendix-its-there-for-a-reason

هذان مثالان مِن الأمثلة الكثيرة على موقف الملاحدة التطوّريين من سوء التصميم. فيُعلنون في البداية أنَّ بعضَ الأعضاء ليست لها أي فائدة، ثمّ يتراجعون بعد ذلك مع تقدُّم العلم، ويتبيَّن للجميع أنَّ المخلوقات في خُلقت بإتقان وإحكام وعناية، ولكنهم لا يتراجعونَ عن عقيدتهم الباطلة التي كانوا عليها يستدلون.

القسمُ الثّالث: نتيجةُ شبهة سوء التصميم:

قد تبيَّن مما سبق أنَّ المقدِّمتين اللتين بنى عليهما الملاحدةُ هذه الشبهة باطلتان، وبالتالي لا يعوَّل على نتيجتهم: «لذا، فإنَّ الإله لم يخلق هذه الأحياء أو أنه ليس ذا علمٍ وقدرة وخير». بل تبيَّن أنَّ العكس هو الصحيح، وأنَّ الإتقان والإحكام والدقّة في هذه المخلوقات دالَّة على وجود خالق عليم حكيم خلق هذه المخلوقات بهذه العناية.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة سوء التصميم:

ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة على قسمين:

القسمُ الأوَّل: ردودُهم على المقدّمة الأولى. وهذه الردودُ تتداخل مع تصوّراتهم اللَّاهوتية والفلسفية. فما هو الموقفُ الإسلامي من الخلق المثالي؟ الجواب أنَّ أهل السنة يعتقدون أنَّ ما خلقه الله موافق لحكمته؛ فهذا أحسنُ ما يمكن بالنسبة للحال المعينة والوقت المعين؛ مِن جهة موافقتِه للحكمة التي يعلمها الله؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) حاكيًا قولَ الجمهور: «... قولُ جمهور المسلمين الذين يقولون: إنه كريم جَواد عَدْل يخلق ما يشاءُ ويختار، وهو على كلِّ شيء قدير، وأنه يفعلُ ما يفعل لحكمة، وهو أرحمُ بعباده من الوالدةِ بولدها، وما يخلقه من الآلام والعقوبات يخلقه لحكمةٍ له في ذلك، لا تحصلُ تلك الحكمة بدون ذلك المخلوق، فهوَ على غاية الجود والكرم في إرادتِه، وغاية القوة والمكْنَة في قدرته، لكنَّ فعلَ الشيء يقتضي فعلَ لوازمه، وترك ما يُنافيه، فوجودُ أحد الضِّدين يستلزم تركَ الآخر، ووجودُ الملزوم يقتضي وجود اللازم»[1].

---

(١) الردُّ على الشاذلي في حزبيه وما صنَّفه في آداب الطريق (٩١)، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، (دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ ت. علي بن محمد العمران).

وقد ذهب بعضُ المتكلّمين إلى أنَّه ليس في الإمكان وجود أحسن من هذا العالم[1]. وقد ردَّ شيخُ الإسلام (رحمه الله) على هذا القول إذْ قال: «وقد أنكر طائفة هذا الكلام، وتفصيله: أنَّ الممكن يُراد به المقدور. ولا ريبَ أنَّ الله - سبحانه - يقدر على غيرِ هذا العالم، وعلى إبداعِ غيره إلى ما لا يتناهى كثرة، ويقدرُ على غير ما فعله»[2].

فاللهُ - تبارك وتعالى - يخلق ما يخلقه موافقًا للحكمة، ومِن ذلك ما يخلقه من الآلام والعقوبات. وما يذكره الملاحدةُ من الأمثلة على «التصميم المعيب» - حسب تعبيراتهم - فهوَ من هذا القبيل. ولا يلزم من ذلك أنَّ هذه المخلوقات ليست مخلوقة بحكمة وعلم، كما أنَّه لا يلزم منه أنَّ الله ليس بقادر على أن يخلق أحسنَ منه.

فـ«يعتقد المخالفُ أنَّ الخلق الإلهي لا بدَّ أن يبلغ الكمال في الصَنعة مطلقًا. وهذا إلزامٌ فاسد، وسببُ ذلك أنَّ الله يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، وفعله مرتبط بعلته[3]، لا بطبيعةِ المخلوق، بمعنى: أنَّ الله - سبحانه - قد خلقَ الخلق لتعمير الأرض، وخلق البشرَ للاختبار في هذه الحياة، ومِن لوازم هذه الغاية ألّا تخلَّد الكائنات، وأن يعرض لها المرض والعطب، ليكون الأذى سببًا في الاختبار أو الموت... ولذلك فتفسيرُ قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]؛ أنه سبحانه أحسنَ هذا الخلق بما يفي بالغاية من الخلق، لا بما يحقِّق للمخلوقات الخلود، أو يمنع عنهم الأذى. ولذلك قال القرطبي المفسِّر: ﴿أَحْسَنَ﴾ ؛ أي: أتقنَ وأحكم، فهو أحسنُ من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها»[4].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤ / ٢٧٥)، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، (دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ).

(٢) جامع الرسائل (١ / ١٤٢)، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (دار المدني للنشر والتوزيع، ١٤٠٥ هـ ت. محمد رشاد سالم).

(٣) لو عبّر بكلمة: «حكمته» لكان أفضل.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٩٠).

وبعبارةٍ أوضح، نحن لا نؤمن «بالنظم الأقصى» «Optimal Design»؛ فإنّه - سبحانه - لم يخلقْ أشياء العالم على صورة ليس بعدَها زيادة، إنما خلقها على أحسن صورةٍ تؤدِّي الحكمة من خلقها؛ فالخلقُ المثالي يقتضي - مثلًا - ألّا تفجع المخلوق حاجة، ولا يقربه موت، وذاك يعارض الحكمةَ من خلق هذه الأشياء في هذا الكون الزائل؛ حيث قصورُ المخلوقات عن مرتبةِ الكمال أثرٌ لحكمة تريد أن تمتحن الإنسان بالمرض، وتقوِّي عزيمته بمواجهة الآفات، وتذكِّره بالنعمة عند الغفلات...»[1].

والخلاصةُ أنّه لا يلزم من الاعتقاد أنَّ الله خلق كلَّ شيء بعناية أنّ هذه المخلوقات مثالية. بل لا يتأتَّى الامتحان والابتلاء إلّا بوجودِ الأمراض والمصائب. ولكن مع ذلك فإنَّ الإتقان والإحكام في هذه المخلوقات يدلّان على وجود خالق عليم قدير.

القسمُ الثّاني: ردودُهم العلمية على هذه الشبهات: وهي ردودٌ قوية، ويستفاد منها لأنَّ الذين ردُّوا على هذه الشبهات هم أهلُ التخصُّص، ويعرفون مداخل التطوّريين ومخارجَهم. وعليه، فينبغي للمسلمين الاستفادةُ من هذه الردود على هذه الشبهة.

---

(١) براهين وجود الله (٦٦٥).

المبحثُ الحادي عشَر
نقدُ ردودِ علماء الغرب
على شبهاتِ الملاحدة العقلية

هذا الفصلُ تناول ردودَ علماء الغرب على شبهات الملاحدة العقلية. والشبهات المذكورة في هذا الفصل هي: شبهة الخصائص غير المتوافقة، وشبهة: من خلق الله؟، وشبهة عدم إمكان رؤية الله، وشبهة تناقض القدرة المطلقة، وشبهة الوحي غير المتناسق، وشبهة عدم إدراك رؤية الله، وشبهة عدم إدراك المراد بالإله، وشبهة إبريق راسل، وشبهة عدم الإيمان، وشبهة رهان الملحد، وشبهة ضعف التصميم.

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهاتِ ببعض الردود القوية والمقنعة، ولكن كان في بعضِ كلامهم خللٌ واضح أيضًا. وحيث إنَّني قيَّمت كلامهم في كلِّ مبحث فلا حاجةَ إلى إعادة الكلام كلّه. ولكن يمكن تلخيصُ أهمِّ مشكلات الملاحدة في ردودهم على شبهات الملاحدة العقلية في خمس نقاط:

النُّقطةُ الأولى: أنَّ كثيرًا من شبهات الملاحدة العقلية متعلقة بالصفات الإلهية، واليهود والنصارى لديهم مواقفُ مضطربة في هذا الباب. فبينما دلَّت كتبهم المقدّسة على وصْف الله بالنقائص والعيوب، فإنَّ متأخِّريهم معطلة. وهذا الاضطراب فتح البابَ أمامَ الملاحدة في ذكْر هذه الشبهات. وإن كان علماءُ الغرب أصابوا في بعض ردودهم على هذه الشبهات إلّا أنّهم أخطأوا في مسائلَ كثيرة. وحيث إنَّ باب الصفات توقيفي فلا يمكن أن يصلَ الإنسان إلى الحقِّ الخالص إلّا عن طريق الوحي المعصوم. فلا بدّ لمن ردَّ على شبهاتِ الملاحدة المتعلقة بالصفات الإلهية أن ينطلقَ من نصوص الكتاب والسنَّة، وما قرَّره أئمة السنة. وبذلك يستطيع أن يفحمَ الخصمَ بأدلة قاطعة.

النُّقطةُ الثّانية: مع أنَّ أغلب اليهود والنصارى معطلة في الصفات فلديهم توسُّع كبيرٌ في إطلاق العبارات في حقِّ الله تعالى. وهذا واضحٌ في ردودهم على شبهات الملاحدةِ المتعلقة بالصفات الإلهية. وهذا التجوُّز في العبارات والجرأة في إطلاق الألفاظ مما يُضعف قيمةَ ردودهم. ولا بدَّ أن يحتاطَ المسلم كثيرًا عندما ينقل عنهم كلامًا في هذا الباب. ولكن يمكن أن يستفيدَ المسلمُ من الردود بشكل عام حيث إن لديهم خبرة طويلة في نقدِ شبهات الملاحدة، ثمَّ يصيغ هذه الردود بما يتوافق مع نصوص الكتاب والسنة.

النُّقطةُ الثّالثة: أنَّ ردودَ علماء الغرب على بعض الشبهات مثل: عدم الإيمان والاحتجاب الإلهي لم تكنْ وافيةً بالمقصود. ولهذا أوردتُ عددًا من الأوجه الأخرى في الردِّ على تلك الشبهة. فمع أنَّ هذه الشبهة منتشرة في الغرب لم يوفّقوا في الردّ عليها كما استطاعوا القيامَ بردود قوية ومقنعة على شبهات أخرى.

النُّقطةُ الرّابعة: أنَّ علماء الغرب لا يكتفون بنقدِ شبهات الملاحدة في هذا الباب فحسب، بل ينتهزون الفرصةَ للدعوة إلى النصرانية. وهذا الأمرُ واضحٌ في ردودهم على شبهة: الوحي غير المتناسق؛ حيث سعوا إلى إبطالِ هذه الشبهة أوّلًا ثمَّ حاولوا الاستدلالَ على صحة الوحي المزعوم في كتابهم المقدَّس. وهذا الاستدلال البائس يُضعف ردودَهم على هذه الشبهات؛ لأنَّ الديانة النصرانية ديانة وثنية بعيدة عن رسالة المسيح السامية، كما أنَّ ما يسمُّونه «الكتاب المقدَّس»، وإن كان يشتمل على بعض بقايا وحيِ الأنبياء، إلّا أنَّه كتاب محرَّف، ويوجد فيه كثيرٌ من الكلام لم ينقل عن الأنبياء قطعًا. فلا يمكن أن يردَّ على هذه الشبهات بحقٍّ وصدق إلّا أهلُ الإسلام المتمسكّين بالوحي المنزَّل من الله تبارك وتعالى.

النُّقطةُ الخامسة: أنَّ بعضَ الشبهات التي أوردها الملاحدة في هذا الباب نتيجة لحججٍ ضعيفة عندَ علماء الغرب. ومن الأمثلة على ذلك أنّ الملاحدة قلبوا رهانَ باسكالٍ إلى رهانِ الملحد. فبسببِ إيراد بليزيه باسكال لهذا الرهان، واستحسان عددٍ من النصارى له، وتناقلهم له في كتبهم؛ ذكر مايكل مارتن هذه الشبهة. وهذا يدلُّ على أهميةِ الاحتجاج بحججٍ قوية ومقنعة، والابتعاد عن هذه الحجج الضعيفة والواهية، لأنَّ مَن احتجَّ بها يفتح البابَ أمام الخصوم لإيراد مثل هذه الاعتراضات.

الفصلُ الثّاني

ردودُهـــم

على شبهاتِ الملاحدة العلمية

وفيه ثمانيةُ مباحث:

المبحثُ الأوّل: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بنظرية الانفجار.

المبحثُ الثّاني: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة.

المبحثُ الثّالث: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بنظرية التطور.

المبحثُ الرّابع: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بميكانيكية الكم.

المبحثُ الخامس: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بالكيمياء.

المبحثُ السّادس: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بعلم النفس.

المبحثُ السّابع: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بالتاريخ.

المبحثُ الثّامن: نقدُ ردودِ علماء الغرب على شبهاتِ الملاحدة العلمية.

المبحثُ الأوَّل
ردودُهم على الشُّبهات
المتعلقةِ بنظرية الانفجار العظيم

دليلُ الخلق والإيجاد من الأدلةِ القوية على وجود الله كما سبقَ بيانُه في الفصل الثاني. وهذا الدليلُ مبنيٌّ على أنَّ للكون بداية. وكان الملاحدة في السابق يردّون هذا الدليلَ بناءً على اعتقادهم أنَّ الكون أزلي. ولكن مع تقدُّم الأدلة العلمية على أنَّ للكون بدايةً ظهر ما باتَ يُعرف بنظرية الانفجار العظيم. وقد عرّفها قاموس كامبردج بأنَّها «النظرية القائلة بأنَّ الكون بدأ بانفجار عظيم جدًّا من كتلة مادية واحدة»[١].

وهذه النظرية استخدمَها المؤلهة في تأييدِ دليل الخلق والإيجاد، وحاول الملاحدةُ إحداثَ فرضيات مُصاحبة لها تفسِّر حدوث الكون بدون وجود خالق. ولأهمية هذه النَّظرية في الجدل الإيماني - الإلحادي سوف يتمُّ تقسيمُ هذا المبحث إلى الأقسام الآتية:

القسمُ الأوَّل: تاريخُ نظرية الانفجار العظيم.

القسمُ الثّاني: شرحُ نظرية الانفجار العظيم باختصار.

القسمُ الثّالث شبهاتُ الملاحدة المتعلّقة بنظرية الانفجار العظيم.

القسمُ الرّابع: مواقفُ علماء الغرب من نظرية الانفجار العظيم.

القسمُ الخامس: ردودُ أتباع نظرية خلق الأرض الفتية على نظرية الانفجار العظيم.

القسمُ السّادس: تقييمُ ردود علماء الغرب على نظرية الانفجار العظيم.

---

(١) تعريف: The Big Bang Theory في Cambridge Dictionaryوهو موجود على الرابط:
https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/big-bang-theory

القسمُ الأوَّل: تاريخُ نظرية الانفجار العظيم:

قد تقدَّم في مبحث: الحجة الكونية شيءٌ من تاريخ الجدل عن أزلية الكون، وأنَّ أرسطو ومَن تبعه مِن الفلاسفة واللاهوتيين كانوا يقرّرون أزليةَ الكون، بينما كان علماءُ الإسلام وكثيرٌ من اللاهوتيين النصارى يقرّرون أنَّ للكون بداية. وعندما ظهر المذهبُ الإلحادي واللاديني في القرن الثامن عشر ثمَّ التاسع عشر أيَّد الملاحدةُ القول بأزلية الكون. فكان فلاسفةُ الإلحاد واللادينية كإيمانويل كانت، وكارل ماركس وفريدريش إنجلس يثبتونَ أزلية الكون[١].

ولكن تغيَّر ذلك في بداية القرن العشرين معَ تقدُّم العلم التجريبي. وبدأ العلماء في عام ١٩١٠م يرصدون أنَّ المجرّات الحلزونية تبتعد عن الأرض. وبعد سنوات قليلة من هذا الرَّصد وضعَ أينشتاين نظريةَ النسبية العامة، ووفقًا لهذه النظرية فلا تقبل أي حلولٍ كونية ثابتة، فإمَّا أن الكون يتمدَّد، أو أنَّه ينكمش. وكان هذا الأمر يقلق أينشتاين حيثُ كان يعتقد أنَّ الكون أزلي، فحاول أن يصحِّح النظرية بوضع الثابت الكوني. وكانتْ وظيفةُ هذا الثابت أنه جعل المعادلاتِ تشير إلى أنَّ الكون ثابت بإيجاد توازن بينَ قوى الجذب وقوى أخرى تقاومها، ولكنَّه تراجع عن هذا القول بعد ذلك.

وفي عام ١٩٢٢م، اعتمدَ ألكسندر فريدمان[٢] على نظرية النسبية العامة، ولكن توصَّل إلى أنَّها تشير إلى أنَّ للكون بداية. وأيَّد جورج لومتر[٣] نظرية فريدمان وبيّن أنَّ

---

(١) انظر:

The Creation of Universe from Nothingness (16-17), by: Harun Yahya, (al-Attique Publishers, 2000)

(٢) ألكسندر فريدمان: عالم الفلك، وفيزيائي، ورياضياتي سوفيتي وروسي. وقد اشتهر لكونه اكتشفَ حلَّ الكون المتمدِّد لمعادلات النسبية العامة المجالية في عام ١٩٢٢م، التي أصبحت القاعدةَ الأساسية لنظرية الانفجار العظيم. توفي عام: ١٩٢٥م. انظر:

http://www-history.mcs.st-andrews.ac.uk/Biographies/Friedmann.html

(٣) جورج لومتر (Georges Lemaître): بروفسور الفيزياء وعلم الكون البلجيكي، كما أنه كان قسيسًا كاثوليكيًّا. وكان أحدَ مَن وضع الأسس لنظرية الانفجار العظيم. توفي عام: ١٩٦٦م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Georges – Lemaitre

للكون بداية، ولا بدَّ أنَّ هناك شيئًا جعله يتمدَّد بهذه القوّة. ولكن لم تزل هذه النظرية بدون ملاحظاتٍ رصدية واضحة حتى عام ١٩٢٩م، حين اكتشف أنّ ضوء المجرّات البعيدة ينزاح نحوَ الأحمر، وهذا يؤيّد القولَ بأنَّ المجرّات تبتعد عن بعضها البعض. فكان ذلك دليلًا قويًّا على تمدُّد الكون، وعليه للكون بداية[1].

انقسمَ المجتمعُ العلمي بينَ القول بأزلية الكون والقول بأنَّ له بداية. فكان العلماء المثبِتون لأزليَّة الكون يتبنَّون نظرية الحالة الثابتة التي وضعها فريد هويل، بينما أيّد علماءُ آخرون القولَ بأنَّ للكون بداية. وفي مقابلةٍ مع قناة بي بي سي استهزأ فريد هويل مع القائلين بأنَّ للكون بداية، وسمَّى نظريتهم بـ«الانفجار العظيم» (Big Bang)، وكان هذا هو الاسمَ الذي اشتهرت به النظرية بعد ذلك[2].

وكان مِن أقوى أسباب رفضِ الملاحدة لنظرية الانفجار العظيم أنّها تشير إلى وجود خالقٍ للكون؛ فكان البروفسور الفيزيائي أرثر أدينغتون[3] يعتبر أنّ هذه النظرية أمرٌ بغيض فلسفيًّا، ويقول إنه: «يبدو أنَّ البداية تقدِّم صعوباتٍ لا تقهر إلا إذا اتفقنا أن ننظرَ إليها بصراحة تامَّة كأمر فوقَ طبيعي»[4]. وذكر البروفسور الفيزيائي ستيفن واينبرج أنَّ نظرية الحالة الثابتة أكثرُ جاذبية فلسفيًّا لأنّها الأقلُّ شبهًا بما جاء في سفر التكوين[5].

ولكنْ خُيبت آمالُ الملاحدة في عام ١٩٦٥م، عندما اكتشف العلماءُ إشعاع الخلفية الكونية - وهو أشعة كهرومغناطيسية توجد في جميع أنحاء الكون بنفس التوزيع والشدَّة -

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٧ - ١٩).

(٢) انظر: شموع النهار (١٢٧).

(٣) أرثر أدينغتون (Arthur Eddington): بروفسور الفيزياء الفلكية البريطاني، وأحد من نقل نظرية النسبية العامة إلى اللغة الإنجليزية. توفي عام ١٩٤٤م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Arthur-Eddington

(4) The Expanding Universe (178), by: Arthur Eddington (Macmillian, 1933) بواسطة كتاب: «فمن خلق الله؟ (٩٦).

(٥) انظر: The World within the World (226)، بواسطة: شموع النهار (١٢٨).

وكانت نظريةُ الانفجار العظيم هي النظرية الوحيدة التي استطاعت تفسير ذلك. بل سمَّاها ستيفن هوكينغ بالمسمارِ الأخير في نعش نظرية الحالة الثابتة[١].

ومعَ مرور السنوات اكتشف العلماءُ مزيدًا من الأدلة على بداية الكون حتى كادَ المجتمعُ العلمي أن يجتمعَ على هذا القول في التسعينيات فصاعدًا[٢]. وكلما تقدَّم الوقت ازدادَ يقينهم بأنَّ للكون بداية؛ قال البروفسور مارتن ريس: «كنت سابقًا، منذ سنوات قليلة، أثقُ بدرجة ٩٠٪ في حدوث الانفجار العظيم... أمّا الآن فالنسبة أعظم بكثير، التقدُّم العظيم في المشاهدات والتجارب جعلَ الصورةَ الكونية الكبرى أدّق أثناء التسعينيات من القرن العشرين، وأرغبُ الآن في رفع درجة يقيني إلى ٩٩٪»[٣].

القسمُ الثّاني: شرحُ نظرية الانفجار العظيم باختصار:

ما الذي توصَّل إليه العلماء في الأخير؟ فكرة هذه النظرية باختصار: أنَّ هذا الكون الذي نحن فيه ابتدأ مِن مفردة[٤] شديدة الحرارة، وذاتِ كثافة لانهائية، وتمدّد الكونُ وتوسَّع بعدَ ذلك عبر ١٣,٨ مليار سنة تقريبًا. وهذا التمدُّد ليس ناشئًا عن تباعد مجرَّات هذا الكون بعضها عن بعض، بل الذي يتمدَّد هو المكان ذاته التي تحلُّ فيه تلك الأجرام[٥].

---

(١) انظر المقال: The Beginning of Time, by: Stephen Hawking, وهو موجود على الرابط: http://www.hawking.org.uk/the-beginning-of-time.html

(٢) انظر: The Creation of Universe from Nothingness (22)

(3) Just Six Numbers: The deep forces that shape the universe (10), by: Martin Rees, (Basic Books, 2000)

(٤) المفردة (Singularity): نقطة ذات كثافة لا نهائية ودرجة حرارة يصعب على عقولنا استيعاب طبيعتها، وهي التي انفجرت مع بداية الانفجار العظيم حسب النظرية.
انظر المقال: The Big Bang: What Really Happened at Our Universe's Birth? على الرابط:
https://www.space.com/13347-big-bang-origins-universe-birth.html

(٥) انظر المقال: ما هي نظرية الانفجار العظيم؟ على موقع وكالة ناسا بالعربية، على الرابط:
https: / /nasainarabic.net /education /articles /view /big – bang – theory

وأنصارُ النظرية يتحدَّثون عن كيفية تشكّل الكون بتفاصيل عديدة - وإن لم تكن من صُلب النظرية نفسها -، ومن الأمثلة على ذلك:

١) تكوَّنت الذرّات الأولى ٣٠٠,٠٠٠ سنة بعد الانفجار.

٢) تشكَّلت المجرّات والنجوم مئات الملايين من السنين بعد الانفجار.

٣) ظهرَ النظام الشمسي بما فيه كوكب الأرض بعد تسعة مليار سنة من الانفجار.

٤) وُجدت الحياةُ الأولى على كوكب الأرض بعد عشرة مليار سنة من الانفجار[١].

القسمُ الثالث: شبهاتُ الملاحدة المتعلّقة بنظرية الانفجار العظيم:

تبيَّن أنَّ الملاحدة كانوا يكرهون فكرة بداية الكون لأنّها تؤدّي إلى السؤال الآتي تلقائيًّا: مِن أين أتى الكون؟ وقد حاول كثيرٌ من المؤلهة استخدام هذه النظرية لصالح الإيمان بالله، وأنَّها تؤيِّد حجةَ الخلق والإيجاد. ولهذا حاول الملاحدةُ إيجادَ عدد من النَّماذج البديلة للبداية المطلقة للكون[٢]؛ قال البروفسور كريستوفر إيسهام [٣]: «ربّما أفضلُ حجَّة لصالح الطرح القائل: إنَّ (الانفجار العظيم) يؤيد الإيمان بالله هو التململ الواضح الذي قوبِلَ به من طرفٍ بعض الفيزيائيين الملاحدة. وقد أدّى ذلك إلى ظهور أفكارٍ علمية، مثل: (الخلق الدائم) (Continuous creation)[٤] أو

---

(١) انظر الرسم الموضّح لتاريخ الكون كما يصوّره أتباع النظرية على موقع: The Open University على الرابط:

https://www.open.edu/openlearn/ocw/pluginfile.php/550718/mod_resource/content/1/History%20of%20Universe%20Timeline.pdf

(٢) المقصود بالبداية المطلقة للكون أنّ المادة والطاقة والزمان والمكان تشكّل مع لحظة الانفجار العظيم.

(٣) كريستوفر إيسهام (Christoffer Isham): بروفسور الفيزياء النظرية في كلية لندن الإمبراطورية. وهو متخصّص في ميكانيكا الكم. انظر:

https://www.imperial.ac.uk/people/c.isham

(٤) يقصد بذلك: نظرية الحالة الثابتة التي سبقت الإشارة إليها.

الكون المتذبذب (Oscillating universe)[١]، وقد تمّ تقديمها بحماسة تفوق بكثير قيمتها الحقيقية مما يلزم المرءُ بأنْ يرى دوافعَ نفسية أعمق بكثير من الرغبة المألوفة للنظر لدعم النظرية»[٢].

فما هي هذه النماذجُ العلمية التي قدَّمها علماء الكون الملاحدة للتهرّب من البداية المطلقة للكون؟ حيث أنَّها كثيرة ومتعدّدة، أقتصرُ على ذكر ثلاثةٍ من أشهرها فحسب[٣]:

- **أوَّلًا: النموذجُ المتذبذب (Cyclic model):**

هذا النموذج يقترح أنَّ الكون في حال توسُّعٍ وانكماش دائبين منذُ الأزل بدون بداية. وقد اقترح أصحابُ هذه النظرية تلك الفكرةَ تهرّبًا من القول ببداية مطلقة للكون. وقد نصَّ على ذلك الدكتور جون غريبين[٤] إذْ قال: «أكبرُ مشكلة مع نظرية الانفجارِ العظيم المتعلقة بنشأةِ الكون هو فلسفي - وربما حتى لاهوتي -، وهو: ماذا كان قبلَ الانفجار؟ كان هذا الإشكالُ وحده كافيًا لمنح دفعة أولى لـ(نظرية الحال الثابتة)، ولكنْ بعد أن تبيَّن - للأسف - أنَّ تلك النظرية معارضة للأمور المشاهدة، كان الطريق الأفضل للالتفاف حولَ هذا الإشكال الأولي هو في تقديم نموذجٍ يتوسَّع فيه الكون من مُفردة، وهو يعود فينهارُ بعد ذلك، ثمَّ يعيد دورته هذه دون نهايةٍ»[٥].

---

(١) سيأتي التعريف بهذه النظرية في هذا المبحث لاحقًا إن شاء الله.

(2) “Creation of the Universe as a Quantum Process”, in Physics, Philosophy and Theology, (378), (Vatican Observatory, 1988)

(٣) مِن أكثر مَن دافع عن الحجَّة الكونية، وردَّ على هذه النماذج الإلحادية هو البروفسور وليام لاين كرايغ. وقد توسَّع في الردِّ عليها في كتابه: الإيمان العقلاني (Reasonable Faith)، كما أنّ الدكتور سامي عامري قد أفادَ وأجاد في هذه المسألة في كتابه: فمن خلق الله؟ ولهذا ستتمُّ الاستفادة منهما بقدر كبير.

(٤) جون غريبين (John Gribbin): عالم الفيزياء والفلك البريطاني، وحامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء الفلكية من جامعة كامبرج. وقد ألّف عشرات الكتب في تبسيط العلوم لعامة الناس. انظر: https://web.archive.org/web/20160303205538/http://www.popularscience.co.uk/biographies/gribbin.htm

(5) “Oscillating Universe Bounces Back”, Nature 259, (1976), 15

وذكرَ البروفسور وليام لاين كرايغ ردودًا عديدة على هذا النموذج، وأهمّها ثلاثة:

١) أنَّ هذا النموذج يستند إلى تخمينات لا يمكن التحقّق منها. وحوافز النموذج ميتافيزيقية وليست علمية.

٢) أنَّ الأدلة تشير إلى وجود بداية مطلقة لا أكثر.

٣) لا يوجد شيء في الفيزياء يُمكِّن من إثبات وجود انهيار للكون، ثمّ تضخّمه من جديد[١].

- **ثانيًا: التضخّمُ الأزلي (Eternal inflation):**

هذا النموذج يعترفُ بأنَّ الكون - الذي نحن فيه - له بداية، لكن لا يعني ذلك أنها البدايةُ المطلقة للمادة والطاقة؛ فهمَا أزليتان. ويقول أتباعُ هذا النموذج إن أجزاءً مختلفة مِن الكون تتمدَّد وتنكمش بمعدلاتٍ مختلفة، ويمكن اعتبارُ هذه الأجزاء أنها أكوان متعدِّدة. وهذه الأكوانُ الأخرى ليست لها بداية، بخلاف هذا الكون[٢].

ولكنْ واجه هذا النموذج إشكالان رئيسان:

الإشكالُ الأوَّل: أنَّ هذا النموذج غيرُ قابل للاختبار، لأنّه لا يستندُ إلى دليل مادي[٣].

الإشكالُ الثّاني: ما أثبتَه البروفسور أرفن بورد، والبروفسور ألكسندر فيلنكن في بحثٍ عام ١٩٩٤م، أنَّ جميع نظريات التمدّد - ومنها: هذا النموذج - لا يمكن أن تتلافى المفردة التي نشأ منها الكون. وأقرَّ البروفسور أندري لندي[٤]، وهو من روّاد هذه النظرية، بذلك في الأخير[٥].

---

(١) انظر: Reasonable Faith (129 - 130)

(٢) انظر: شموع النهار (١٣٣).

(٣) انظر: The Book of Nothing: Vacuums, voids, and the latest ideas about the origins of the universe (256), by: John Barrow, (Panethon Books, 2000)

(٤) أندري لندي (Andrei Linde): بروفسور الفيزياء في جامعة ستانفورد المشهورة بالولايات المتَّحدة، وهو متخصِّص في نظريات بداية الكون. انظر:
http://web.stanford.edu/~alinde/

(٥) انظر: From the Big Bang Theory to the Theory of Stationary Universe, in Physical Review D, 49, 1994, 1783 - 1826

ولهذه الأسباب وأسبابٍ أخرى، ذكرَ ستيفن هوكينغ أنّ هذا النموذج ميّت كنظرية علمية[1].

- **ثالثًا: نموذجُ هوكينغ (Hawking's model):**

ستيفن هوكينغ مِن أشهر علماء الكون في هذا العصر، وكان ملحدًا يجهر بإلحاده في آخرِ حياته - كما سبق ذكرُه -. وتبنّى نظريات متضاربة في نشأة الكون أثناء حياته، وكان لديه مواقفُ مضطربة من وجودِ الخالق قبلَ إعلان إلحاده في الأخير[2].

وقد قدَّم نموذجًا مع البروفسور جيمس هارتل[3] سمّي بـ(حالة هوكينغ - هارتل) (Hartle - Hawking state)، وهي فرضيةٌ عن حالة الكون قبلَ حقبة بلانك[4]. وكان هوكينغ يتحدَّث عن الزمن قبلَ حدوث الانفجار. ولكنه كان يسمّي هذا الزمن بـ(الزمن التخيُّلي) (Imaginary time)، وإنما افترضه من أجل أن تصحَّ معادلاته. ومع ذلك اعترفَ بأنّه لا بدَّ من وجود مفردة للكون[5].

وهذا التخيُّل هو ما سمَّاه البروفسور ألكسندر فلينكن بمجرّد ملاءمة حاسوبية (Computational convenience)[6]. وذكر ديفيد بارك[7] أنّه لا يمكن ألبتَّة أنْ يكون لهذه التصوُّرات معنى في الفيزياء[8].

---

(١) انظر: A Brief History of Time (132)

(٢) انظر: God and Stephen Hawking (15 - 17)

(٣) جيمس هارتل (James Hartle): بروفسور الفيزياء في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتَّحدة، ومتخصِّص في النسبية العامة لأينشتاين. انظر: http: / /web.physics.ucsb.edu /~hartle/

(٤) حقبة بلانك (Planck Epoch): هي أقدم حقبة في تاريخ الكون من ٠ إلى ١٠ - ٤٣ ثانية بعد حدوث الانفجار العظيم. انظر: https: / /www.definitions.net /definition /PLANCK+EPOCH

(٥) انظر: A Brief History of Time (139)

(٦) انظر: Many Worlds in One: The Search for Other Universes (182)

(٧) ديفيد بارك (David Park): بروفسور الفيزياء الأمريكي، وقد ألّف عددًا من الكتب في العلوم. توفي عام ٢٠١٢م. انظر: https: / /physics.williams.edu /profile /dpark/

(٨) انظر:
"The Beginning and End of Time in Physical Cosmology", in The Study of Time IV, (112-113), Ed. J.T. Fraser, N. Lawrence and D. Park.

وخلاصةُ الأمر أنَّ هذه النماذج البديلة كثيرة ومتعدّدة، ودوافعها نفسية أكثر من كوْنها علمية كما سبق. ولكن، هل يمكن الفرارُ من القبول بأنّ الكون له بداية؟ الجواب: لا. وقد ذكرَ ذلك البروفسور ألكسندر فيلنكن عندما قال: «يقال: إن الحجةَ تُلزِم العقلاء، وإنَّ البرهان يُقنع حتى غيرَ العقلاء. والآن بعد استقرار أمرِ البرهان، لم يعدْ في مقدور علماءِ الكونيات الاختباءَ وراء احتمال وجود كون أزلي. لا مهرب لهم، ويجبُ عليهم مواجهةُ مشكلة وجود بداية كونية»[1]. ولكن بسبب التزام البروفسور فلنكن بالمذهبِ المادي، وأنَّه لاأدري؛ فإنّه حاول الهروبَ من اللوازم اللاهوتية بعد هذا الاعتراف الواضح بأسطر.

بينما اعترف الملحدُ ستيفن هوكينغ بأنَّ البداية المطلقة للكون يستلزم بوجود خالق بقوله: «إذا كانتْ للكون بداية، فعلينا أن نفترض أنَّ للكون خالقًا»[2].

فالملاحدةُ يتخبَّطون بينَ محاولة الهروب من إثبات بداية مطلقة للكون وبين عدم الالتزام بلوازمِ هذا الإثبات. وأمَّا المؤمن، فيعتقد أنَّ الكون له بداية، ويلتزم باللوازم الضَّرورية لهذا الاعتقاد، وهو أنّه لا بدَّ من وجود خالق أخرج هذا الكون من العدم إلى الوجود. وقد سبق التفصيلُ عن ذلك في الحديث عن الحجّة الكونية.

القسمُ الرّابع: موقفُ علماء الغرب من نظرية الانفجار العظيم:

تبيَّن فيما سبق أنَّ نظرية الانفجار العظيم مُحرجةٌ للملاحدة لأنّها تثبت وجودَ بداية مُطلقة للكون، وهذا يستلزم وجودَ الخالق. لكن ما موقفُ علماء الغرب النصارى من هذه النظرية؟ اللاهوتيون النصارى اختلفوا في تفسيرِ الأيام المذكورة في السفر الأوّل من كتابِهم المقدَّس على مذهبيْن رئيسين، وبناءً على ذلك وقع اختلافُهم في قبول هذه النظرية[3]:

---

(1) Many Worlds in One (176)

(2) A Briefer History of Time (146)

(٣) سبق الحديثُ عن هذه المسألة في المبحث السادس، من الفصل الثالث، في الباب الأوّل.
ولكنْ لأهمية المسألة يعاد الكلام هنا، مع المزيد من فوائد.
والكلام في التقسيم ومراجعه مأخوذ من كتاب
Seven Days That Divide the World (39-44), by: John Lennox

المذهبُ الأوَّل: الذين رأوا أنَّ الأيام المذكورة في السفر الأوّل من كتابهم المقدّس ليستْ كأيّامنا، ولهذا لا يمكن تحديدُ عُمر الكون والأرض. وهذا القول موجود قديمًا عندَ اللاهوتيين النصارى. وهذا القولُ هو ما ذهب إليه القائلون بنظرية الخلق القديمة (Old Earth Creationism).

وأتباعُ هذا المذهب لم يروا أيَّ تعارض بين الإيمان بكتابهم المقدّس وقبول هذه النظرية. وقد تكلَّموا عن هذه النظرية من وجهين:

الوجهُ الأوَّل: استخدامُ هذه النظرية في إثبات الحجّة الكونية، مع الردِّ على النَّماذج البديلة للبداية المطلقةِ للكون. ومِن أبرز علماء الغرب الذين قاموا بذلك: البروفسور وليام لاين كرايغ؛ فقد ألَّف كتابه: «الحجة الكونية الكلامية» (The Kalam Cosmological Argument) عام ١٩٧٩م، واستدلَّ بهذه النظرية، ودافعَ عنها في ذلك الكتاب وغيره مِن كتبه كما سبق له البيانُ عند الحديث عن الحجّة الكونية.

الوجهُ الثّاني: بيانُ عدم معارضة هذه النظرية مع فهْم كتابهم المقدَّس. ومِن أبرز مَن فعلَ ذلك هو البروفسور جون لينوكس في كتابه: الأيام السبعة التي فرّقت العالم (Seven Days that Divided the World).

المذهبُ الثّاني: الذين فسَّروا أيامَ الخلق تفسيرًا ظاهريًّا، وأنَّ الكون خُلق قبل حوالي ٦٠٠٠ سنة، وأنَّ كلَّ يوم مذكور في هذا السفر يعادل ٢٤ ساعة من الساعات المعروفة اليوم. وهذا ما ذهبَ إليه روّاد المذهب البروتستانتي مثل: مارتن لوثر وجون كالفن. وهذا المذهبُ يتبّناه القائلون بنظرية الخلق الفتية (Young Earth Creationism).

وهؤلاء يرون أنَّ نظرية الانفجار العظيم من النظريات العلمانية لا تمتُّ للخلق المذكور في كتابهم المقدَّس بصلة؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: «إن الانفجار العظيمَ والأفكارَ العلمانية عن تكوين المجرات، والنظام الشمسي، إلخ. هي تفسيراتٌ لأصول الخلق وفقَ المذهب الطبيعي. وهي في طبيعتها إلحادية. وليس القصد من هذا أن نقول: إنَّ كلَّ مَن يتبنى هذه الآراء ملحدٌ بضرورة، ولكن هذه السناريوهات الموافقة لهذا الرأي عنِ النشأة تحاول تفسيرَ خلق الكون وما فيه (المجرّات، النجوم،

الكواكب...) دون اعترافٍ بوجود الإله. لا يوجد نصٌّ من نصوص كتب علم الفضاء التي استعملتُها في دراستي ما قبلَ حصولي على الشهادة، أو في برنامج الدكتوراه، تعْزو للإله خلق الكون أو أيِّ شيء فيه. وجميعُ الأحداث موصوفة بمصطلحات لما يمكن تفسيرُه خلال قوانين الطَّبيعة؛ فلا شيء وراءَ الطبيعة مسموحٌ به عندهم. هذا هو المذهب الطبيعي. ولكن الكتاب المقدَّس فوق الطبيعي[1]. والكتاب المقدّس يوضِّح أنّ الإله (بطريقة مباشرة أو غير مباشرة) خلقَ كلَّ شيء... الإله خارج الكون الفيزيائي، وليس في داخله. الرؤية الكونية المسيحية فوق الطبيعي في طبيعته...»[2].

فهذا يلخِّص مذهبَ القائلين بالأرض الفتية بطريقة جيّدة، وأنهم يرون أنَّ قبول نظريةِ الانفجار العظيم مبنيٌّ على المذهب الطبيعي، وهذا المذهب علماني ولا يمكن أنْ يتوافق مع العقيدة النصرانية.

القسمُ الخامس:
ردودُ أتباع نظريةِ خلق الأرض الفتية على نظرية الانفجار العظيم:

قد ألَّف أنصارُ نظرية الخلق الأرض الفتية مؤلفاتٍ عديدة؛ فقد ذكر موقعهم الأشهر: «المعهد لدراسات الخلق» (The Institute for Creation Research) قائمة بـ ١٣٠ كتابًا من كُتبهم[3] على سبيل المثال. ولكن رغمَ أنَّ عُمر الكون مهمٌّ في نظريتهم إلا أنَّ المؤلفات في نقدِ نظرية الانفجار العظيم قليلة جدًّا، وإنما ينصبُّ اهتمامهم العلمي بنقد نظرية التطوّر.

وأكثرُ مَن اهتمَّ بنقد نظرية الانفجار العظيم منهم هو الدكتور جاسون ليزلي؛ فهو يحملُ شهادة الدكتوراه في الفيزياء الفلكية، وألَّف كتابًا مستقلًّا عن علم الكون وفقَ منظورِ أتباع مذهبه، بعنوان: «استعادة علم الفضاء» (Taking Back Astronomy)،

---

(١) هو يعبّر عن معتقده النصراني، وإلا فإنّ الكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى كتاب محرّف.

(2) Taking Back Astronomy (74-75)

(٣) انظر المقال: The Young – Earth Creationist Bibliography, وهو موجود على الرابط:
https: / /www.icr.org /article /young – earth – creationist – bibliography

وذكر في بداية كتابه أنَّ المؤلَّفات التي ذكرت الأدلة العلمية المؤيّدة لتعاليم كتابهم المقدَّس، ونقد ما يخالفه؛ كثيرة. ولكنَّ هذه الكتب تتعلّق بعلم الأحياء، وعلم الأرض، وعلم الإحاثة، وعلم الإنسان. بينما المؤلفاتُ في بيان علم الفلك من منظور كتابهم المقدّس قليلةٌ جدًّا. وأنَّ ذلك من أسباب تأليفه لهذا الكتاب(١). ولذلك سيتمُّ التعويلُ على ردودِه من هذا الكتاب في هذا القسم. وقد ذكر عددًا كبيرًا من الإشكاليات في نظرية الانفجار العظيم - وأغلبها تتعلَّق بالعمر المديد الذي يفترضه أتباع هذه النظرية للكون -، وحيث إنّه لا يمكن ذكرُها كلّها، فسأقتصرُ على ثلاثة منها:

- **الإشكالُ الأوَّل: إشكاليةُ الأفق على نظرية الانفجار العظيم:**

بيَّن الدكتور جاسون ليزلي أنَّ حسب نظرية الانفجار العظيم، فإنَّ الكون ينشأ في حالةٍ متناهية من الصغر تسمَّى مفردة، والتي تتضخَّم في بداية الأمر بسرعة هائلة. واستنادًا إلى هذه النظرية، فعندما كان الكون صغيرًا جدًّا فقد تطوَّرت درجات حرارة مختلفة في عدَّة مواقع. لنفترض أنَّ النقطة (أ) ساخنة والنقطة (ب) باردة. واليوم قد توسَّع الكون والآن النقطتان (أ) و(ب) بعيدتان عن بعضهما للغاية.

ورغمَ ذلك، فللكون درجةُ حرارة في غاية الانتظام في المسافات البعيدة: أي ما وراء المجرّات المعروفة والأكثر بعدًا. وبتعبير آخر، للنقطتين (أ) و(ب) تقريبًا نفس درجة الحرارة اليوم. ونحن نعلم هذا لأنَّنا نرى الإشعاع الكهرومغنطيسي قادمًا من كلِّ الاتجاهات في الفضاء في شكلِ أمواج دقيقة. يُطلق على هذا اسم «الخلفية الفلكية للأمواج الدقيقة» [CMB]. ولترددات الإشعاع درجة حرارة مميزة هي ٧ , K٢، وهذه التردداتُ منتظمة للغاية في جميع الاتجاهات؛ حيث إنَّ درجة الحرارة تنحرف فقط بمقدار واحدٍ من عشرة آلاف جزء.

وهذا هو الإشكال: كيف للنقطتين (أ) و(ب) أن تكون لهما نفس درجة الحرارة؟ ولا يمكنُهما فعلُ هذا إلّا بتبادل الطاقة. هناك العديدُ من الأنظمة يحصل فيها هذا التبادل، خذْ مثلًا مكعب ثلج موضوعًا في كأس قهوةٍ ساخن، الثلج يسخن والقهوة تبْرد عن طريقِ تبادل الطاقة بينهما بالمثل. النقطة (أ) يمكنها مدُّ النقطة (ب) بالطاقة في شكلِ

---

(١) انظر: Taking Back Astronomy (10)

إشعاع كهرومغنطيسي [الضوء]. هذه الطريقة الأسرع لانتقال الطاقة لأنه لا شيء يمكنُه الانتقالُ أسرع من الضوء. ومع ذلك، فباستعمالِ افتراضات مناصري نظرية الانفجار العظيم المبنيَّة على المذهب الطبيعي ومذهب الوتيرة الواحدة فلم يكن هناك زمنٌ كافٍ في ١٤ مليار سنة ليصل الضوء من (أ) إلى (ب)، فإنهما بعيدتان جدًّا عن بعضِهما البعض. هذا هو مشكلُ زمن انتقال الضوء - وهو مشكل في غاية الجدية.

وفي نهاية المطاف، (أ) و(ب) لهما تقريبًا نفس درجة الحرارة اليوم، وعليه يجب أنْ يكونا تبادلا الضوء مرات كثيرة[١].

- **الإشكالُ الثّاني: إشكاليةُ المجرات اللولبية على نظرية الانفجار العظيم:**

ذكرَ الدكتور ليزلي أنَّ المجرَّة في الحقيقة: تجمُّعٌ هائل من النجوم مع الغاز والغبار الكونيّين. تأتي المجراتُ في نطاق متنوِّع من الأحجام، ويمكنها أن تضمَّ من مليون إلى تريليون نجم. وتضمُّ مجرتنا (درب التبانة) أكثر من ١٠٠ مليار نجم. وتأتي المجرّات أيضًا في نطاقٍ متنوّع من الأشكال؛ فعددٌ منها دائري أو إهليجي، وأخرى ليس لها شكل مُنتظم مثلَ سحب ماجلان (مجرتان تدوران حولَ درب التبانة). وبعض أجمل المجرات تتَّخذ بطبيعتها شكلًا لولبيًّا. المجرَّة اللولبية لها شكل قرصٍ مسطَّح مع انتفاخ في الوسط. يحتوي الجزءُ الذي في شكل القرص أذرعًا لولبية: وهي جهاتٌ ذات عددٍ أكبر من النُّجوم ممتدَّة من طرف المجرة إلى نواتها. وتدور المجراتُ اللولبية حول نفسها ببطء، لكن الجهات الداخلية من الذِّراع اللولبي تدور أسرعَ من الجهات الخارجية، وهذا ما يسمى «الدوران التفاضلي». ويعني هذا أن تصبحَ المجرة الحلزونية ملتوية بشكل ثابت أكثر فأكثرَ، كما أنَّ اللولب يصبح أشدَّ إحكامًا. وبعد بضع مئات من ملايين السنين، تصبح المجرةُ مُحكمة الإغلاق بحيث لا تحافظُ على الشكل اللولبي لمدة أطول. واستنادًا إلى سيناريو الانفجار العظيم، يفترض أن يكون عُمر المجرات عدَّة مليارات من السنين، لكنَّنا نرى فعلًا المجرّات اللولبية، بل وعددًا منها. هذا المعطى يقترح أنَّها ليست بالعمر الذي يحتاجه مدَّعو الانفجار العظيم[٢].

---

(١) انظر المصدر السابق (٤٨ - ٤٩).

(٢) انظر: المصدر السابق (٦٥ - ٦٦).

- **الإشكالُ الثّالث: إشكالية بقاء المذنَّبات:**

بيَّن الدكتور ليزلي أنَّ المذنَّبات هي كراتٌ من الثلج والغبار تدور حول الشمس، وغالبًا في مداراتٍ غير مركزية. ويسمَّى الجزءُ الصُّلب المركزي من المذنب: النواة. وللمجرّات محيطٌ من المواد المتبخِّرة تبدو في شكْل «ضباب باهت (»وهو ما يسمَّى «الهالة»). وتُمضي المذنَّبات أكثرَ وقتها في التحرُّك ببطء قريبًا من النقطة الأبعد من مدارِها حول الشمس (الأوج). وعندما تقتربُ منها، تسرع وتستخدم جاذبية الشمس لإضافةِ الزَّخم إليها في دورانها حول الشمس، حيث تتحرَّك بأقصى سرعة في أقرب نقطةٍ منها (الحضيض). وخلالَ هاتين المرحلتين من الاقتراب تكون العديد من المذنبات «ذنبًا»، وهو تدفُّق من المواد المتبخرة تمتدُّ بعيدًا عن المذنب. يتّجه الذنب بعيدًا عن الشمس لأنَّ المادة يتمُّ جرفُها من قبَل الرياح الشمسية والإشعاعات. وفي العادة يتكوّن ذنبان: ذنب شارد إيوني مكوَّن من جسيمات مشحونة بالضوء، وذنب من الغبار يحْوي موادَّ أثقل. يميل لونُ الذَّنَب الأيوني إلى الزرقة، وهو مستقيم، ويتّجه مباشرة في جهة المذنَّب الأبعد عن الشمس. في حين أنَّ ذنَبَ الغبار أبيض، ومنحنٍ على العموم، وفي بعض الأحيان لا يمكن رؤية إلّا واحد من الذنبين. ذَنَبُ المذنب (أو أذنابه) هو مؤشّر على عجزِ المذنَّب عن البقاء إلى الأبد، فوجودُ الذنَبِ يعني أن المذنب يخسر المادة المكوِّنة له، وفي كلِّ مرَّة يدور فيها المذنَّبُ حول الشمس فإنه يتقلّص. وقد تمَّ تقديرُ أن مذنَّبًا كنموذج نمطي لا يمكنه الدورانُ حول الشمس لأكثر من ١٠٠ ألف سنة كأقصى حدٍّ قبل أن يفقد مادته كليًّا. هذا مثال متوسِّط، وإلّا بالطبع فإن مدى الحياة الحقيقي يتعلَّق بالحجم البدئي للمذنَّب، وبالوسائط المتغيرة المرتبطة بمداره. وبما أننا مازلنا نرى الكثيرَ من المذنبات، فهذا يقترِح أنَّ عُمر النظام الشمسي أصغر بكثير من ١٠٠ ألف سنة[1].

فهذه الأوْجه تبيِّن فعلًا أنَّ هناك بعض الإشكاليات الكبيرة في القول بأنّ عُمر الكون ١٣,٧ مليار سنة، والأقرب أنه أقلُّ عمرًا من ذلك بكثير.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٦٧ - ٦٨).

القسمُ السّادس: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على نظرية الانفجار العظيم:

سيتمُّ تقييم ردودِ علماء الغرب على نظرية الانفجار العظيم على وجهين، وهما:

الوجهُ الأوَّل: ما اتَّفقوا عليه، وهو أنَّ الكون له بداية. وقد أبدع علماءُ الغرب في بيانِ هذا الأمر من الناحية العلمية، كما أَنَّهم أبدعوا في ردودِ ترَّهات الملاحدة في محاولة الهروبِ من هذه الحقيقة. وهذا ما يمكن الاستفادةُ منه في كلامهم، واستخدام هذه الأدلَّة في الاستدلال بالحجّة الكونية كما سبق الحديثُ عنه.

الوجهُ الثّاني: ما اختلفوا فيه، وهو عُمْر الكون. والذي يبدو أنَّ كلا المذهبين فيهما إشكال. وبيانُ ذلك كما يأتي:

المذهبُ الأوَّل: أنصارُ نظرية خلق الأرض الفتية ينطلقون في تحديد عُمر الكون مِن ظاهر نصوصِ كتابهم المقدَّس الدالَّة على أنَّ الكون خُلق قبل حوالي ٦٠٠٠ سنة. وهذا الكتاب محرَّف، ولا يمكن الاعتمادُ عليه.

المذهبُ الثّاني: أنصارُ نظرية خلق الأرض القديمة يسلِّمون بتحديد العمر الذي توصَّل إليه علماءُ الكون الماديون. وهذا التحديد مبنيٌّ على تبنّيهم للمذهب الطبيعي الذي يقتصرُ فيه على تفسير الطبيعة بالطبيعة. ومِن مستلزمات المذهب الطبيعي: مذهب الوتيرة الواحدة، بمعنى أنَّ قوانين الطبيعة ثابتة ولا تتغيّر. وتوصّلهم إلى تحديد عُمر الكون مبنيٌّ على ذلك؛ فقد بيَّن موقع وكالة ناسا بالعربية أنّ علماء الفلك أنهم يعتمدونَ في تحديد عُمر الكون على طريقين:

الطريقُ الأوَّل: بدراسةِ العناقيد الكروية: «يستطيع علماءُ الفلك تحديد أعمار بعضِ أقدم النجوم في الكون عبرَ دراسة العناقيد الكروية. العنقود الكروي (globular clusters) هو تجمُّع كثيف، ومكوَّن من حوالي مليون نجم، وتشكّلت كل هذه النجوم في نفسِ الوقت تقريبًا. تكون كثافةُ النجوم بالقربِ من مركز العنقود هائلة، وإذا ما عشنا بالقربِ من مركز عنقودٍ نجمي سيكون هناك بضعُ مئات آلاف النجوم التي تبعد عنا نفسَ بُعد آلفا قنطورس؛ أقرب جيراننا النجميين الحاليين. تعتمد دورة حياة النجم

على كتلتِه، والنجوم ذاتُ الكتلة الأكبر هي الأكثرُ لمعانًا من النجوم منخفضة الكتلة، وبالتالي فهي تحرقُ وقودَها الهيدروجيني بسرعة. يمتلك النجمُ المشابه للشمس وقودًا كافيًا في مركزه لكي يستمرَّ بالاحتراق بشكلٍ لامع على مدار ٩ مليار عام تقريبًا. في حين سيحرقُ النجم، الذي يمتلك كتلةً تصل إلى ضعفي كتلة الشمس وقودَه خلال ٨٠٠ مليون سنة تقريبًا. أمّا النجوم التي تبلغ كتلتها ١٠ أضعاف كتلة الشمس فستحرقُ وقودَها بزمن يصل إلى ٢٠ مليون سنة فقط، وستكون أكثر لمعانًا بألف مرة مِن الشمس. وعلى النَّقيض من ذلك، فإنَّ النجم الذي يتمتع بنصف كتلة الشمس سيقومُ بحرق وقتِه ببطء بحيث تمتدُّ حياته على مدار ٢٠ مليار سنة تقريبًا»[١].

فهذا التحديد مبنيٌّ على أنَّ النجوم تحرق وقودها الهيدروجيني بسرعة معيّنة، وأنّها كانت كذلك، وسوف تستمرُّ بهذا المعدَّل. وهذا مبنيٌّ على مذهب الوتيرة الواحدة.

الطريقُ الثّاني: الاستقراءُ العكسي لمعدَّل توسُّع الكون: «تعتمد طريقة أخرى لتقديرِ عُمر الكون على قياس «ثابت هابل H٠". يُمثل ثابت هابل قياسًا لمعدل توسع الكون حاليًا. ويستخدم علماءُ الكون هذا القياسَ بغرض الاستقراء العكسي وصولًا إلى الانفجار العظيم، ويعتمدُ الأمرُ على الكثافة الحالية للكون وعلى تركيبه»[٢].

وهذا أيضًا مبنيٌّ على مذهبِ الوتيرة الواحدة. فلو افترضنا أنّ الله أراد أن يوسِّع الكونَ بسرعةٍ أسرع مما هو عليه الآن، فإنَّه ممكن. وكلُّ شيء تحت قدرةِ الله تبارك وتعالى.

---

(١) انظر المقال: كيف نقيس حجم وعمر الكون؟ وهو على الرابط:
https://nasainarabic.net/education/articles/view/measure-the-size-and-the-age-of-the-universe

(٢) انظر: المصدر السابق.

عُمَر الكون في الكتاب والسنة:

إذا كان لا يمكن الاعتمادُ على الكتاب المقدَّس لدى اليهود والنصارى ولا استنتاجات الماديين لعُمر الكون للوصول إلى يقين تامٍّ في عمر الكون؛ فكمْ عمرُه وفق الكتاب والسنة إذًا؟

ليسَ في صريح القرآن والسنة - حسب علمي - ما يحدّد عمرَ الكون. توجد آيات عديدةٌ تنصُّ على أنَّ الله خلق السماوات والأرض في ستّة أيام، ولكنّها لا تحدّد متى وقعَ هذا الخلق. وأمّا في كون هذه الأيام الستة كأيامنا هذه فقد اختلفَ فيه العلماء[1]. وقد ذكرَ الراغب الأصفهاني (رحمه الله) أنَّ «اليوم يعبّر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها. وقد يعبَّر به عن مدَّة من الزمان أي مدّة كانت»[2].

وأصرحُ ما وردَ في السنة مِن تحديد هذه الأيام هو حديثُ أبي هريرة ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: «خلق اللهُ التربة يوم السبت، وخلق اللهُ فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النورَ يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدمَ بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعاتِ الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»[3]. فهذا الحديث صريحُ الدلالة في أنَّ المراد باليوم هو اليوم العادي. ولكنَّ هذا الحديث ضعَّفه جمعٌ من أهل العلم؛ قال الحافظ ابن كثير (رحمه الله):

«اختلف فيه على ابن جريج، وقد تكلَّم في هذا الحديث علي بن المديني، والبخاري، والبيهقي وغيرهم من الحفاظ. قال البخاري في التاريخ: وقال بعضهم عن كعب وهو أصحّ؛ يعني: أنَّ هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة، وتلقّاه من كعب الأحبار، فإنّهما يصْطحبان ويتجالسان للحديث، فهذا يحدِّثه عن صحفه، وهذا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٦).

(٢) المفردات في غريب القرآن (٨٩٤)، لحسين بن محمد بن المفضّل، المعروف بالراغب الأصفهاني، (دار القلم، ١٤١٢ هـ).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٨٩)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق، وخلق آدم ﷺ، من حديث أبي هريرة ﷺ.

يحدِّثه بما يصدقه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديثُ مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه، فوهم بعضُ الرواة فجعله مرفوعًا إلى النبي ﷺ»[1].

فالظاهرُ أنه لم يردْ في الكتاب والسنة تحديدُ عُمر الكون، ولهذا كان من الغيبيات التي لا يعلمها إلّا الله؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: ٥١].

فالذي يهمُّنا من «هذه النظرية هو تسليمها بأن لكوننا بداية، وأنه ليس كونًا أزليًّا»[2]، «ولكننا إذ نماشي الفيزيائيين الفلكيين في هذا كله، إنَّما نريد أن نلزمهم به الحجَّة، وإلّا فإننا نعتقد أنَّ الكون أكبرُ بكثير من هذا الكون المشاهَد... فالكون المخلوقُ أعظمُ بكثير من الكون المشهود، وزمانه سابق لزمان هذا الكون»[3].

وهذا هو ما يبدو صوابًا في هذه المسألة، والعلمُ عند الله.

كيفيةُ الخلق بينَ القرآن الكريم ونظريةِ الانفجار العظيم:

وتبقى مسألةٌ أخرى متعلّقة بموقفِ الإسلام من نظرية الانفجار العظيم، وهي أنَّ أنصارَ نظرية الانفجار العظيم يتحدَّثون بالتفصيل عن كيفية خلق الكون. وبينما كانت أدلتُهم على أنَّ الكون له بدايةٌ مبنيَّة على أدلة حسِّية مثل: توسُّع الكون، فإنَّ كلامهم عنْ كيفية الخلق ليس مبنيًّا على العلم، وإنَّما على ظنون كاذبة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: ٢٨].

بأيِّ مصدر من مصادر المعرفة يمكننا معرفةُ كيفية الخلق؟ لا شكَّ أنه لا يمكن عن طريق الحسِّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: ٥١].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١ / ٣٣)، لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، (دار هجر، ١٤٢٤ هـ، ت. عبد الله التركي).

(٢) الفيزياء ووجود الخالق (٨٢).

(٣) المصدر السابق (٨٨).

ولا يمكن التوصُّل إلى ذلك عن طريق العقل المجرّد، لأنَّه لو تُرك الأمرُ إلى العقل لتوصَّل الناس إلى آراء متباينة وأقوال متضاربة.

والاعتمادُ على العلم التجريبي - المبني على الحسّ والاستنباطات العقلية - في كيفية الخلق غيرُ مُجدٍ أيضًا. وقد سبقَ في المبحث عن حدود العلم التجريبي أنّ هذا النوع من العلم جيِّد في وصفِ الظواهر الموجودة والمشاهَدة، ولكنه ضعيفٌ في وصف أحداث الماضي. ومِن ذلك: كيفية خلق الكون.

إذن، يبقى مصدرٌ واحد مِن مصادر المعرفة، وهو الخبرُ الصادق. وأيُّ خبر أصدق مِن الوحي المنزَّل من الله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]. فاللهُ - تبارك وتعالى - هو الذي خلقَ الكون وكلَّ ما فيه، وهو الذي يعلم التفاصيلَ الدقيقة. وأخبرنا اللهُ - تعالى - عن شيء مِن ذلك في القرآن الكريم. وبعض ما أخبر اللهُ به يخالف ما قرّره أصحابُ نظرية الانفجار العظيم.

ومِن ذلك أنَّ أصحابَ نظرية الانفجار العظيم قرّروا أنّه قبلَ الانفجار وُجدت مُفردة صغيرة للغاية، ثمَّ انفجرت وتكوَّنت النجوم بعد مئات الملايين من السنين، ثمَّ تكوَّن النظامُ الشمسي الخاص بما فيه كوكبُ الأرض بعد تسعة مليار سنة. فهذا ما قرّره أصحابُ النظرية، وهو مخالفٌ لما ورد في القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وهذه الآية يستدلُّ بها بعضُ المؤيّدين لنظرية الانفجار العظيم من المسلمين على أنَّ القرآن أشار إلى النظرية[1]. ولكن مع التمعُّن في النظر إلى الآية في ظلِّ تفسير السلف نجد فرقًا واسعًا بين الآية الكريم وما قرّره أصحاب النظرية؛ فقد فسَّر علماءُ السلف كابن جرير الطبري (رحمه الله) هذه الآية الكريمة بقوله: «يقول تعالى ذكرُه: أوَلم ينظر هؤلاء الذي كفروا بالله بأبصارِ قلوبهم، فيروا بها، ويعلموا أنَّ السماوات والأرض كانتا رتقًا؟ يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين... وهو من صفةِ

---

(١) انظر على سبيل المثال: القرآن والعلم (٦١)، لأحمد محمد سليمان، (دار العودة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٢م).

السماء والأرض... وقوله ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] يقول: فصدعناهما، وفرجناهما»[١]. فمعنى ذلك أنَّ السماوات والأرض كانتا موجودتين ملتصقتين ثمَّ فرج اللهُ بينهما أو كما قالَ ابن عباس (رضي الله عنهما): (كانتا ملتصقتين، فرفع السماء ووضع الأرض)[٢]. فكيف تكون هذه الآيةُ وصفًا لحادثةِ الانفجار العظيم، والأرض لم تكوّن إلّا تسعة مليار سنة بعد هذا الانفجار؟ فمَن عرف حقيقةَ دلالة هذه الآية وحقيقةَ هذه النظرية؛ علمَ مدى البُعد بينهما.

وإضافةً إلى ذلك فقد أخبر اللهُ تعالى أنَّه خلقَ السماوات والأرض في ستة أيام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقد اختلف أهلُ العلم في تحديدِ هذه الأيام كما سبق، ولكنَّ الآيةَ في الوقت نفسه صريحة أنَّ الله خلق السماوات والأرض بترتيبٍ معيَّن. وهذا الترتيب يخالف ما قرَّره أصحابُ نظرية الانفجار العظيم؛ فهُم قرَّروا أنَّ كوكب الأرض تكوَّن مليارات السنين بعد المجرّات والنجوم. وأما ظاهرُ القرآن فيدلُّ على أنَّ الله خلق الأرض قبلَ السماء كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩ - ١٢] قال ابن كثير (رحمه الله): «ففصَّل ها هنا ما يختصُّ بالأرض مما اختصَّ بالسَّماء، **فذكر أنه خلقَ الأرضَ أوَّلًا لأنَّها** كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، **ثمَّ بعدَه** بالسقف»[٣]. وقد بيَّن ابنُ عباس (رضي اللهُ عنهما) ذلك إذ قال: (... **وخلق الأرضَ في يومين، ثمَّ خلقَ السماء**، ثمَّ استوى إلى السماء، فسواهنَّ في يومين آخرين، ثمَّ دحى الأرض،

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦ / ٢٥٤ - ٢٥٥).

(٢) المصدر السابق (١٦ / ٢٥٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ١٦٥).

ودحيُها: أنْ أخرجَ منها الماءَ والمرعى، وخلق الجبالَ والجماد والآكام وما بينَهما في يومينِ آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وقوله ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩] فخلقتِ الأرضُ وما فيها من شيء في أربعةِ أيام، وخلقتِ السماوات في يومين)[1]. فذكرَ ابنُ عباس (رضي اللهُ عنهما) في هذا الأثر المفسِّر لهذه الآيات أنَّ الله خلق الأرضَ قبلَ السماء. وبذلك تخالف نظرية الانفجار العظيم ظاهرَ القرآن الكريم.

والخلاصةُ أنَّ هذه النظرية تفيد أمرًا واحدًا، وهو أنَّ الكون له بداية. وأما ما يتعلَّق بعُمر الكون فهوَ من الغيبيّات التي لا يعلمها إلّا الله. وأمّا ما يتعلَّق بكيفية خلق الكوْن، فإنَّ ما يقرِّره أصحابُ النظرية يخالف ما وردَ في القرآن الكريم. فلا ينبغي للمسلم أن يقبلَ هذه النظريةَ على إطلاقها، بل يقبلُ ما فيها من الحقّ، ويردُّ ما فيها من الباطل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة حم السجدة، (٣/ ٢٨٦ - ٢٨٧).

المبحثُ الثّاني
ردودُهم على الشبهاتِ المتعلِّقة بقوانين الطبيعة

كان الإنسانُ منذ القدم ينسب الظواهرَ الطبيعية المختلفة إلى خالقٍ واحد إذا كان موحِّدًا، أو آلهةٍ مختلفة إذا كان مشركًا؛ فإذا نزلَ المطر، أو حدث زلزال، أو سُمع صوت الرَّعد نُسبَ ذلك إلى ما فوق الطبيعة. ومع تقدُّم الكشوفات العلمية وجد علماءُ الطبيعة أسبابًا طبيعية لكثيرٍ مِن هذه الظواهر، كما أنَّهم اكتشفوا أنَّ الطبيعة محكومة بقوانين يمكن صياغتُها رياضيًّا بشكلٍ دقيق. ومِن هنا نشأت الشبهةُ الإلحادية باستغناء الطبيعة بقوانينها، وأنَّها ليست بحاجةٍ إلى خالق متصرِّف في الكون، وكلِّ ما فيه[1].

ولبيانِ هذه الشُّبهة يحسنُ تقسيمُ هذا المبحث إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ الشبهات المتعلّقة بقوانين الطبيعة.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ الشبهات المتعلّقة بقوانين الطبيعة:

لا نستطيع فهمَ حقيقة شبهاتِ الملاحدة المتعلقة بقوانين الطبيعة إلّا إذا فهمنا تاريخَ هذه الشُّبهات. وذلك أنَّ شبهاتِ الملاحدة المعاصرة نشأت كردَّة فعلٍ للتصوّرات اللاهوتية الشركية القديمة، وبيانُ ذلك كما يلي:

سادتِ المعتقداتُ الشركية في كثيرٍ من الأمم عبر التاريخ. وذكر البروفسور جون لينوكس أنَّ الطابعَ العام على هذه المعتقدات أنهم كانوا يؤمنون بآلهةٍ مختلفة

---

(١) انظر: براهين وجود الله (١٥٢).

تحكم أجزاء مِن العالم بقوانينها الخاصة[1]. وعليه، فلا يوجد نظامٌ عامٌّ للعالم، ولا قوانين متّسقة تخضعُ لها الطبيعة؛ بل كان يحكم إلهٌ معيَّن حسب أهوائه، ويحكم إلهٌ آخر حسب أهوائه. فيوجَد إله للشمس، وإله للريح، وإله للمطر، وإله للبحر، وهكذا. ويكشف الناسُ عن مُراد الآلهة وفقَ خرافات كالتطيّر والعرافة[2]؛ فلا حاجة لدراسة قوانين الطبيعة دراسةً علمية منظّمة. ويسعى أتباعُ هذه الديانات إلى إرضاء الآلهة بأنواع من العبادات والقرابين، ويعتقدون أنَّ ذلك يؤثّر في تصرّفات الآلهة[3].

ولهذا رجَّح بعضُ علماء تاريخ العلوم أنَّ مُعتقد التوحيد وضع الأسس لدراسة العلوم الحديثة، لأنَّ الموحِّد يعتقد أنَّ الكون بأسْره يخضع لخالق واحد يحكمه وفقَ سننه ونظامه، وليس لآلهة متعدّدة[4].

وهذا الاستنباطُ صحيح، وقد أشيرَ إليه في القرآن الكريم إذ قال اللهُ تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فدراسة العلوم الطبيعية تستلزم وجودَ نظام، والإيمانُ بخالق واحد يحكم الكون بمشيئته المنتظمة أصلٌ في ذلك.

ومعَ ذلك، فكانت أوروبا في القرون الوسطى - التي سيطرت فيها الكنيسة على العلوم - متخلِّفة للغاية. وذلك يرجع لأسبابٍ عديدة، ولكنْ أكتفي بذكر اثنين منها هنا، وهما:

السببُ الأوَّل: النظرةُ المُعادية للعلوم الدنيوية: لا يخفى أنَّ بولس هو المؤسّس الحقيقي للنصرانية المحرَّفة، وكان ينظرُ إلى العلوم والحِكم بازدراء؛ فهو القائل: (لاَ يَخْدَعَنَّ أَحَدٌ نَفْسَهُ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّهُ حَكِيمٌ بَيْنَكُمْ فِي هَذَا الدَّهْرِ فَلْيَصِرْ جَاهِلًا

---

(١) انظر: God's Undertaker (30)

(٢) انظر: Antikens religioner (170 - 173), by: Ingvild S Gilhus and Einar Einar Thomassen, (Nordstedts, 2011)

(٣) انظر: المصدر السابق (١٩١ - ١٩٣).

(٤) انظر: God's Undertaker (٣٠)

لِكَيْ يَصِيرَ حَكِيمًا! لأَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الْعَالَمِ هِيَ جَهَالَةٌ عِنْدَ اللهِ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «الآخِذُ الْحُكَمَاءَ بِمَكْرِهِمْ». وَأَيْضاً: «الرَّبُّ يَعْلَمُ أَفْكَارَ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ»)[1].

و«سيطر المنهجُ التأمّلي على الثقافة النصرانية السابقة للبعثة النبوية. كما باعدت الكنيسةُ عن العالم باعتباره «وادي الظلمات» - تأثّرًا بالمذاهب الغنوصية التي اخترقت الكنيسة الأرثوذكسية -، وهو ما باعدَ بدوره بين العلم والتجربة في الغرب، وبقي التفكير العقلي التجريدي المصدرَ الأساسي للمعرفة البشرية، بما في ذلك معرفة العالم الطبيعي»[2].

السببُ الثّاني: تفسيرُ الظّواهر الطبيعية في ظلِّ الكتاب المقدَّس المحرَّف: كان النصارى يعتقدون أنَّ الإله خلقَ هذا العالم وفقَ خطَّة محكمة، ولكن لا يمكن للعقل البشري الكشفُ عن هذه الحِكم والغايات إلّا في ظلِّ تأمُّل نصوص كتابهم المقدَّس المحرَّف[3].

فكان النصارى يعترفون أنَّ الكون يسير وفقَ سننٍ وقوانين - لإيمانهم بخالق واحد[4] -، ولكنَّهم حجروا على عقولهم لاكتشافها بالانكباب على دراسة الكتاب المقدَّس المحرَّف.

وقد بعث اللهُ نبيه محمدًا (ﷺ) بالتوحيد الخالص على حين فترةٍ من الرسل حين عاشتْ أوروبا في تلك الظلمات. وإن كانت رسالتُه قد اهتمّت بإصلاح العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق في المقام الأوَّل؛ إلّا أنَّ مضامين رسالته مهّدت الطريقَ لدراسة العلوم التجريبية أيضًا؛ فقد «نبع الاهتمامُ الإسلامي بالنظر التجريبي من صريحِ آيات القرآن الدّاعية إلى النظر في الكون، واعتباره قبلةَ الجهد البشري لمعرفة بديع صنعةِ الله، وتحقيق التمكين في الأرض والرفاه المادي، ومن ذلك

---

(١) ١ كورنثوس (٣/ ١٨ - ٢٠).

(٢) براهين النبوة (١٩١).

(٣) خرافة الإلحاد (٢٠).

(٤) النصارى يعتقدون أنه يوجد خالق واحد له ثلاثة أقانيم: الأب، والابن والروح القدس. فهذا الاعتقادُ ممزوج بين التوحيد وبين المعتقدات الشركية.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فالنظرُ في الكون، وبديعِ صنعه، ودقيقِ ملمح جماله؛ وسيلةٌ لإدراك حقيقته، وداعٍ لمعرفةِ أصله، وبرهانٌ يهدي إلى أنّ للوجود غاية...

وفي الآياتِ الكونية في القرآن بيانٌ لـ«وحدة الوجود الطبيعي»؛ فالعالم المادي ليس مجموعَ نثائر مشتَّتة، وإنما هو بنيانٌ مرتَّب، ومتَّصل الأفراد، منتظم الأجزاء، وتلك هي المقدِّمة الأولى لكلِّ بحثٍ علمي؛ إذِ العلم الطبيعي يحتاج لازدهاره مفهومَي «النظام» و«الحكمة» مقدّمة أولى قبل النظر والكشف والاختراع»[١].

«وقد كان مفهومُ «وحدة الوجود الطبيعي» في الثقافة اليهودية - النصرانية قائمًا، ولكنْ على شكل باهت؛ لأنَّ المعنى الأبرزَ للطبيعة في الكتاب المقدَّس هو أنها مظهرُ فعْل الإله الغاضب الثّائر على أعداء «بني إسرائيل»؛ فالجبالُ والبحار والمطر والريح أدواتُ انتقام أكثرَ منها مظاهر عظمة صنع»[٢].

ولهذا ظهر كثيرٌ من العلوم التجريبية في العالم الإسلامي كما ذكرت الباحثة سيغريد هونكه[٣] بقولها: «العرب[٤] هُم مؤسِّسو الكيمياء التجريبية، وكذلك الطبيعة

---

(١) براهين وجود الله (١٩٣ - ١٩٤).

(٢) المصدر السابق (١٩٤).

(٣) سيغريد هونكه (Sigrid Hunke): عالمة الأديان الألمانية، حصلت على شهادة الدكتوراه في علم الأديان من جامعة برلين، واستقرّت فترة في المغرب، وكتبت كتابها المشهور: شمس الله تطلع على الغرب. توفيت عام ١٩٩٩م. انظر:
https://www.goodreads.com/author/show/398101.Sigrid_Hunke

(٤) من العيوب في كتاب سيغريد هونكه أنّها تنسب هذه العلوم إلى العرب وإلى الحضارة العربية، وكان المفترض أنها تنسبُ ذلك إلى المسلمين والحضارة الإسلامية. فالعامل المشترك في أغلب هؤلاء العلماء في العالم الإسلامي أنّهم كانوا مسلمين - وإن كان فيهم قلة من اليهود والنصارى -، وإن كانوا من قوميات مختلفة. والدافع لبحوثهم هو دينهم، وليس عرقهم.

العملية والجبر، والحساب بمعناه الحديث، وحساب المثلثات الكروي، وعلم طبقات الأرض، والاجتماع، وغيرُ ذلك من الاختراعات الكثيرة الأخرى في مختلف العلوم والمعرفة، وغالبًا ما سطَا عليهم اللصوصُ ونسبوها إلى أنفسهم. فالعربُ هُم الذين قدّموا للعالم أغلى وأثمنَ هدية، فهُم أصحابُ البحوث المنتظمة في الطبيعيات، هذه البحوث التي كانت العاملَ القويَّ في بعث العلوم التجريبية في أوروبا»[1].

كما أنها ذكرتْ أنَّه كان ينبغي للأوروبيين الاعترافُ بذلك إذ قالت: «إنّ أوروبا مَدِينةٌ للعرب وللحضارة العربية، وإنَّ الدَّيْن الذي في عنق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب كبيرٌ جدًّا، وكان يجب على أوروبا أن تعترفَ بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، لكنَّ التعصّبَ الديني واختلاف العقائد أعمى عيوننا... ظلَّ العرب ثمانية قرون طوالًا يشعّون على العالم علمًا وفنًّا وأدبًا وحضارة، كما أخذوا بيدِ أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النُّور، ونشروا لواءَ المدنيّة أَنَّى ذهبوا إلى أقاصي البلاد ودانيها، سواء في آسيا وإفريقيا أو أوروبا، ثمَّ أنكرت أوروبا الاعترافَ بهذا الفضل للعرب»[2].

فتدفَّقت العلومُ التجريبية من العالم الإسلامي إلى أوروبا تدريجيًّا خلالَ عدّة قرون، وأثَّرت هذه العلوم إلى حدٍّ ما على المعتقدات الدينية لدى العلماء في أوروبا. ومن أبرز الأمثلة على ذلك: إسحاق نيوتن، فكان مِن أبرز العلماء التجريبيين المكتشفين لقوانين الطبيعة، وإن كان ينتسبُ إلى النصرانية إلّا أنَّه رافض أبرز معتقداتهم التي هي عقيدة التثليث. وكان يعتقد أنَّ الإله أرسل محمدًا (ﷺ) ليكشف الإله الحقّ للعرب[3].

---

(١) شمس الله تستطع على الغرب (٣٠٤)، لسيغريد هونكه، (دار العالم العربي، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ هـ، تعريب: فؤاد حسنين علي).

(٢) انظر: المصدر السابق (٩ - ١٠).

(٣) انظر:

“Isaac Newton, heretic: the strategies of a Nicodemite”, by: Stephen D. Snobelen, in “British Journal for the History of Science, (Dec. 1999, 32) (pp. 388)

وكانت اكتشافاتُ نيوتن نقلةً نوعية في النظر إلى العالم الطبيعي المقنّن بقوانين دقيقة، وكذلك في علاقةِ العالم الطبيعي بالخالق. فماذا توصَّل إليه نيوتن؟ «لقد توصّل نيوتن إلى قوانينِ الحركة الثلاثة الشهيرة[١]، وكذلك قانون الجاذبية. كما وصف بدقة - في ضوءِ هذه القوانين - بنْيَة المجموعة الشمسية... وهي نفسُ القوانين التي تصف سقوطَ التفاحة من الشجرة... لذلك شبَّه الفيزيائيون النظام الشمسي (كما وصفه نيوتن) بالسَّاعة الزنبركية، التي تُملأ ثمَّ تُترك لتعمل تلقائيًّا. إنَّ قوة الجاذبية وقوة الطرد المركزية وقوانين الحركة كفيلةٌ بالمحافظة على عمل النظام الشمس دون التدخُّل من قوى خارجية.

انتشرت فكرةُ آلية العالم انتشارَ النار في الهشيم، فقامَ العلماء والفلاسفة في أوروبا بتفسير كلِّ شيء من خلال منظور الآلية...

وقد لاحظَ نيوتن اختلافًا طفيفًا بينَ ما ينبغي أن تكون عليه مدارات الكواكب كما تحدِّدها حساباته، وبينَ المدارات الفعلية التي يرصدها التلسكوب. وإذا تراكمت هذه الفوارقُ مع مرور الزمن، فسينقلب النظامُ الكوني رأسًا على عقب؛ فقد تغوص الكواكبُ في الشمس، أو تفلت من سيطرتها وتندفع في الفضاء الكوني السحيق.

تجاوزَ نيوتن هذا الإشكال بأنِ اعتبر أنَّ الإله يتدخَّل من وقت لآخر ليعدّل مسارات الكواكب...»[٢].

---

(١) وهذه القوانين الثلاثة هي:

القانون الأوّل: الجسم الساكن يبقى ساكنًا، والجسم المتحرّك يبقى متحركًا، مالم تؤثر عليه قوى ما.

القانون الثاني: إذا أثرت قوة على جسم ما فإنها تكسبه تسارعًا، يتناسب طرديًّا مع قوته، وعكسيًّا مع كتلته.

القانون الثالث: لكلِّ قوة فعل قوة ردِّ فعل، مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه.

انظر المقال: Newton's Laws of Motion في موسوعة بريتانيكا على الرابط:

https://www.britannica.com/science/Newtons-laws-of-motion

(٢) خرافة الإلحاد (٢٢ - ٢٣).

وساهمتْ هذه النظرة إلى بروز المذهب الربوبي في الساحة الدينية الأوروبية، حيث بنوا معتقدَهم على العالم الفيزيائي المقنَّن بقوانين نيوتن[١]. والظاهر أنهم رأوا أنّ تصرُّف الإله في الكون محدود، وأنه يتناسبُ مع معتقدهم.

«ثمّ أثبتَ الفلكي الفرنسي ماكيز لاباس[٢] (١٧٤٩ - ١٨٢٧) أنّ الانحرافات التي عجزَ نيوتن عن تفسيرها بالقوانين الطبيعية ليست تراكمية، وأنّها تلغي بعضها بعضًا بعد فترةٍ من الزمان، وبالتالي لا تحتاج إلى تدخُّل إلهي لتصحيحها. لذلك أجاب لابلاس نابليون عندما سأله عنْ دور الإله في النظام الكوني بأنه لا يرى حاجةً للقول بهذا الافتراض[٣]! ولذلك أيضًا صرنا نتحدَّث عن «حتمية لابلاس» التي تعني أن الكون يخضعُ بشكل تامٍّ لقوانين الطبيعة... **الثورةُ العلمية كان لها بالفعل أثرٌ مدمِّر على المسيحية في أوروبا؛ إذ أعقبَها مباشرة نزعة شكّية إلحادية كبرى**»[٤].

والخلاصةُ أنّه عندما حصل تقدُّم في اكتشاف قوانين الطبيعة اعتقد بعض الأوروبيين أنَّه لا حاجةَ إلى وجود الخالق. وذلك مبنيٌّ على التصوّر الخاطئ في اللاهوت النصراني عنِ الغائية. فالنصارى اعتقدوا أنَّ كلَّ شيء في الكون يوجد وفقَ تقدير إلهي، وأنّه لا يمكنُ للعقل أن يكشفَ عن التقدير، وأنَّ المرجع في تفسير ذلك هو كتابهم المقدّس المحرَّف. وكتابُهم المقدّس يخبر عنْ علاقة الإله بالعالم بطريقة مزيَّفة. فعندما اكتشف علماءُ الطبيعة هذه القوانين تسبَّب ذلك في موجةٍ تشكيكية في مبادئ العقيدة النصرانية.

---

(١) انظر المقال: Deism في موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https://www.britannica.com/topic/Deism

(٢) ماكيز لابلاس (Marquis Laplace): واسمه: بيير سيمون ماكيز دي لابلاس. عالم الرياضيات والفلك والفيزياء الفرنسي. اشتهر بسبب اكتشافاته المتعلقة بالنظام الشمسي. توفي عام: ١٨٢٧م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Pierre-Simon-marquis-de-Laplace

(٣) قصة لابلاس مع نابليون مذكورة في العديد من كتب التاريخ، منها:
Mémoires du docteur F. Antommarchi, ou les derniers momens de Napoléon, (vol. 1, p. 282), by: Tome Premier, (Barrois L'Ainé, 1825)

(٤) خرافة الإلحاد (٢٣).

والملاحدةُ المعاصرون يستدلُّون بكلام لابلاس في خطابهم الإلحادي(١) ويعمّمون كلامَه عن قوانين الحركة على سائر القوانين. والملاحدة يزعمون أنّ اكتشاف قوانين الطبيعة يلغي الإيمانَ بالغائية؛ قال البروفسور الملحد بيتر أتكنز: «على البشر أن يقبلوا بحقيقةِ أنَّ العلم قد ألغى كلَّ مُبرر للإيمان بوجود الغاية في الكون، وبقاء أي علةٍ غائية للكون شيء ناتج عن الشعور فقط»(٢).

فالنصارى تبنَّوا القولَ بالغائية، ولكن وفقَ تفسير كتابهم المقدّس، والملاحدة أنكروا الغائية بالكلية بناءً على أنَّ قوانين الطبيعة كافيةٌ في تفسير كلِّ شيء في الكون. ولكن تبقَى مسألة مهمَّة، وهي: كيف يفسِّر الملاحدة وجودَ الكون من العدم بقوانين الطبيعة؟ لأنَّ قوانين الطبيعة تصفُ الانتظام في الكون الموجود، ولكنّ الملاحدة المعاصرين يعتقدون أنَّ الكون حادث. فلا بدَّ لحدوث الكون نفسه من تفسير.

وقد تصدَّى الفيزيائي الملحد ستيفن هوكينغ للإجابة عن هذا السؤال في كتابه: التصميم العظيم، وحاول تفسيرَ وجود الكون من العدم بقوانين الطبيعة. وقد قعّد لهذه المسألة في هذا الكتاب، وبيتُ القصيد منه قوله: «وحيث إنه وُجد قانونٌ مثل الجاذبية، فإنَّ الكون يستطيع، وسوف يخلقُ نفسه من العدم»(٣)، واستنتجَ بعد ذلك: «والخلق التلقائي هو السببُ في أنَّ هناك شيئًا بدلًا من اللاشيء، لماذا يوجد الكون، ولماذا نوجَد فيه، ليس من الضروري أن نستحضرَ إلهًا لإشعال فتيل الخلق ولضبط استمرار الكون»(٤).

واستقبل ريتشارد دوكينز هذا الكتابَ ونتائجه بصدرٍ رحْب، فكتب عنه: «الداروينية استبعدت وجودَ الإله من علم الأحياء، ولكن كان الأمر في الفيزياء أقلَّ يقينًا، ولكن الظاهر أنَّ هوكينغ الآن قد أطلق رصاصة الرحمة»(٥).

---

(١) انظر: God's Undertaker (45)

(2) Will Science Ever Fail?, New Scientist, 8 Aug 1992, pp. 32-35

(3) Grand Design (180)

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر المقال: Another ungodly squabble, على الرابط:

https://www.economist.com/babbage/2010/09/05/another-ungodly-squabble

فالملاحدةُ المعاصرون يعتقدون أنَّ الكون محكوم بقوانين دقيقة، وهي لا تتبدّل ولا تتغيّر، وأنَّ ذلك يلغي القولَ بالغائية. ويعتقدون أنَّ هذه القوانين - ولا سيَّما قانون الجاذبية - يفسِّر ظهور الكون من العدم إلى الوجود.

الفقرةُ الثّانية:
ردودُ علماء الغرب على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة:

قد ردَّ علماءُ الغرب[1] على شبهات الملاحدة المتعلّقة بقوانين الطبيعة من أوجه متعدِّدة، أذكر خمسة منها:

- **الوجهُ الأوَّل: قوانينُ الطبيعة وصف وليس بمسبب:**

قبلَ الخوض في الردِّ على شبهات الملاحدة المتعلقة بقوانين الطبيعة نحتاج أن نفهم هذه القوانين؛ فما هو القانونُ الطبيعي؟ قد عرّفتْه موسوعة بريتانيكا بأنّه: «انتظام معلن في العلاقات، أو ترتيب الظواهر في العالم، الذي يحمل بموجبِ مجموعة من الشروط المنصوص عليها، سواء عالميًّا أو في نسبة مذكورة من الحالات»[2]. ثمّ واصلت الموسوعة شرحَ القانون الطبيعي بقولها: «علاوة على ذلك، ليس لقانون الطبيعة ضرورة منطقية؛ بدلًا من ذلك، فإنه يعتمدُ بشكل مباشر أو غير مباشر على أدلة الخبرة»[3].

وذكرَ البروفسور جون لينوكس أنَّ القانون لم يخلق شيئًا، وإنما هو وصف لما يحصل في الغالب، أو تحتَ شروط معيَّنة. وضرب مثالًا على ذلك بقانون نيوتن للجاذبية. عندما اكتشفه نيوتن، فإنَّه لم يكتشف ما يخلق الجاذبيةَ أو يخلق المادة التي

---

(١) أكثر مَن وجدته يتكلَّم عن هذه القضية من علماء الغرب هو جون لينوكس - بروفسور الرياضيات في جامعة أكسفورد -، فهو متخصِّص في الصياغات الرياضية، وقد أبدع بكلامه في هذه القضية، ولهذا يكون أغلب النقول عنه.

(٢) موسوعة بريتانيكا، مادة: (Law of Nature)، على الرابط:
https://www.britannica.com/topic/law-of-nature

(٣) المصدر السابق.

تعمل فيها الجاذبية، بل نيوتن نفسُه اعترف بأنّه لم يفسِّرْ وجود الجاذبية أصلًا. فغاية قانون الجاذبية أنه وصف للطبيعة[١].

ونستنتجُ من ذلك أنَّ القوانين لم تخلق شيئًا، بل لم تتسبّب في وجود أيٍّ شيء إطلاقًا، وإنما هي وصف خبراتنا للطبيعة.

- **الوجهُ الثّاني: قوانينُ الطبيعة نفسها بحاجة إلى مقنِّن:**

إذا كانت قوانينُ الطبيعة مجرَّدَ وصف للطبيعة، فكيف نفسِّر وجودَ هذه القوانين؟ قد أجابَ البروفسور كيث وارد عنْ ذلك بقوله: «وجودُ قوانين الفيزياء لا يستبعد وجودَ الله، بل بالعكس، فإنَّ وجودَها يوحي تمامًا بوجود الإله الذي صاغ هذه القوانين وجعل الواقعَ الفيزيائي متّسقًا معها»[٢].

فنستنتجُ من كلام البروفسور وارد أنَّ القوانين بحاجة إلى مقنّن أوّلًا، ثمّ إلى مَن يخلق الطبيعة وفقَ هذه القوانين. وهذا كلُّه يشير إلى وجود خالقٍ متعالٍ على الطبيعة، لأنَّ الطبيعة نفسَها بلا علم ولا حكمة ولا إرادة؛ فلا يمكنها القيام بذلك. ويضاف إلى ذلك ثلاثُ نقاط:

النُّقطةُ الأولى: أنَّ هذه القوانين ليست مستقلة، بل هي متّسقة، ويعتمد بعضها على بعض. وهذا الأمرُ بحدِّ ذاته يوحي بوجودِ خالق عليم حكيم؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: «تعتمد كثيرٌ من قوانين الطبيعة على قوانين أخرى، والتي تعتمد بدورها على قوانينَ أخرى، وهكذا. وفي النهاية، يجب أن يكون هناك وضعٌ أساسي للمبادئ الذي لا يوجَد لسبب غير أنَّ الله قدَّره أن يكون كذلك. إنَّ القوانين الأساسية للطبيعة تتطلَّب إذًا وجودَ مانح لتلك القوانين»[٣].

النُّقطةُ الثّانية: هذه القوانينُ مضبوطة بدقَّة متناهية كما سبق الحديث عنه، وبيَّن البروفسور جون بولكينغهورن أنَّ هذا يزيد الأمرَ وضوحًا أنّه لا بدَّ من وجود غاية

---

(١) انظر: God and Stephen Hawking (40 - 41)

(2) God, Chance and Necessity: 55-56

(3) Taking Back Astronomy (36)

وراء ذلك[1]. ووجودُ غاية في الكون ينكره الملاحدة، ويثبته المؤمنون بوجود الخالق.

وكان هذا هو السببَ الرئيس للاكتشاف العلمي عند المتقدّمين كما ذُكر، قال البروفسور سي. أس. لويس: «أصبح الناسُ علماء لأنهم توقّعوا وجودَ قانون في الطبيعة، وسببُ توقّعهم وجودُ القانون: إيمانهم بوجود واضع للقانون»[2].

النُّقطةُ الثّالثة: وجودُ قوانين للطبيعة لا يتَّسق مع عالم الملحد بحدّ ذاته، ولكن لا يقفُ الأمر على ذلك، بل قدرةُ الإنسان على اكتشاف هذه القوانين لا تتَّسق مع عالم الملحد أيضًا. وقد سبق الحديثُ عن ذلك في مبحث: حجج علماء الغرب على وجود الله من علم الرياضيات. وذلك أنَّ الملاحدة المعاصرين يتبنّون نظرية التطوّر، ويفسّرون حصولَ التطوّر بالصراع من أجل البقاء. وفهمُ قوانين الطبيعة بصياغات رياضية دقيقة لا يمكنُ تفسيرُه وفقَ هذه النظرية. وقد أشرتُ في ذلك المبحث إلى قول البروفسور بول ديفيز: «لو كانت القدرةُ على فهْم الرياضيات تطوَّرت بالصدفة أو بالأحرى تحت ضغوطٍ بيئية، فمِن المدهش حقًّا أنْ نجدها قابلة للتطبيق في الكون المادي. على الجانب الآخر لو كانتِ الرياضيات نشأتْ بشكل مُبهم من أجل البقاء بالانتقاء الطبيعي فسنبقَى على مواجهة معَ لغز مطابقة الطبيعة للرياضيات. بعد كلِّ هذا أقول إنَّ الصراع مِن أجل البقاء «في غابة» لا يتطلّب معرفةً بقوانين الطبيعة من خلال تجليها فقط»[3].

فالمفترضُ أن يكون الملحدُ آخرَ مَن يحتج بقوانين الطبيعة على إلحاده، لأنّه لا يتوافقُ وجودُ هذه القوانين وإمكانية اكتشافها معَ رؤية العالم التي يتبنّاها.

---

(١) انظر المقال: Science Finds God, على الرابط:

http://www.washingtonpost.com/wp-srv/newsweek/science_of_god/scienceofgod.htm

(2) Miracles: a preliminary study (110)

(3) The Unreasonable Effectiveness of Science (554)، through: A Case Against Accident and Selforganization (144 - 145).

- **الوجهُ الثّالث: قوانينُ الطبيعة لا تمنع تدخّل الخالق:**

الإقرارُ بوجود الانتظام في الكون، وأنَّ الطبيعة تسير وفقَ قوانين محدّدة لا يمنع الاعتقادَ أنَّ الخالق يتصرّف في خلقه كما يشاء. وقد أبدع البروفسور جون لينوكس في بيانِ هذه القضية إذ قال: «المجادلة بأنَّ قوانين الطبيعة تجعل من المستحيل علينا التصديق بوجود الله، أو احتمالية تدخله في الكون مغالطة كبيرة، فهي تشبه الادعاءَ بأنَّ فهمَ قوانين آلية عمل محرّك احتراق داخلي تجعل من المستحيل أن نصدّق بأن المهندس مصمِّم المحرّك أو الميكانيكيين معه يمكنهم، أو سيقومون، بالتدخل وإزالة غطاء أسطوانة احتراق. لا شكَّ أنهم سيتدخلون»(١).

وقال أيضًا: «قانونُ نيوتن في الجاذبية يخبرني أنّني عندما أترك تفاحة فستسقط نحو مركزِ الأرض، ولكنَّ هذا القانون لا يمنع أحدًا من التدخّل والإمساك بالتفاحة أثناء هبوطِها. بكلمةٍ أخرى: القانون يتوقَّع ما سيحدث بشرطِ ألّا يحدث تغيّر في شروط إجراءِ التجربة. وبالتالي، فمِن وجهة نظر المؤمنين بالله تتوقَّع قوانين الطبيعة ما سيحدث إنْ لم يتدخَّل الله، وأنه لا يوجد أيُّ مخالفة بالطبع إن تدخل الخالق بخلقه»(٢).

فالخلاصةُ أنَّ وجود القوانين يدلُّ على وجود الخالق، والإيمان بالخالق الذي خلق هذا الكونَ بهذه القوانين لا يمنع أنَّ الخالق يفعل ما يريد في خلقه. فلو شاء الخالق الذي خلقَ الكون بقوانينه الكثيرة أن يتصرَّف بشيء يخالف هذه القوانين، فإنّه يفعل ذلك؛ إذْ لا يُعجزه - سبحانه - شيء. وهذا ما سبق الحديثُ عنه في الكلام عن المعجزات.

- **الوجهُ الرّابع: تصحيحُ المفاهيم عن موقف لابلاس ونيوتن من القوانين:**

كان نيوتن أحدَ روّاد العلم الحديث، ومكتشفَ بعضِ أهمِّ القوانين الفيزيائية. ولكن ماذا كان موقفُه عندما اكتشفَ هذه القوانين؟ هل أدَّى به ذلك إلى إنكار وجود الخالق كما فعلَ ستيفن هوكينغ؟ الجواب: لا، بل الأمرُ كان بالعكس. وقد بيَّن

---

(1) God's Undertaker (201)

(٢) المصدر السابق (٢٠٠ - ٢٠١).

البروفسور جون لينوكس ذلك بقوله: «سير إسحاق نيوتن... لم يرتكب خطأ الفئة (Category mistake) الذي ارتكبه هوكينغ عندما اكتشفَ قانون الجاذبية. نيوتن لم يقل: «الآن عندما اكتشفتُ قانون الجاذبية، فلست بحاجةٍ إلى الإله»، بل صنَّف كتابه: مبادئ الرياضيات (Principia mathematica)، وهو أشهر كتاب في تاريخ العلم التجريبي، وبيّن أملَه أن «يقنع الإنسان المتفكّر» أن يؤمن بالله»[١].

إذا كان هذا موقفَ نيوتن، فماذا عن موقفِ لابلاس وقصّته مع نابليون، التي يحبّ الملاحدةُ أن يذكرها؟ قد أجاب البروفسور جون لينوكس عمّا ذكروه بكلام رائع إذ قال: «بالطبع أنَّ الله لا يوجَد في الوصف الرياضي للابلاس لكيفيةِ عمل الأشياء، تمامًا كما أنَّه لا يوجد السيد فورد في الوصف العلمي لقانون الاحتراق الداخلي للمحرّك، ولكن ما الذي يثبتُه هذا؟ هل هو أنَّ السيد فورد غير موجود؟ بالطبع لا، وكذلك فإن هذه الحجَّة لا تثبت أنَّ الله غير موجود»[٢].

فجوابُ لابلاس لنابليون لا قيمةَ له إطلاقًا، وتمسّك الملاحدة بكلامه يدلُّ على إفلاس مذهبهم، وأنه مبنيٌّ على مغالطات. والغريب أنَّ هوكينغ نفسه اعترف بذلك في محاضرةٍ عن قوانين الطبيعة؛ فقال: «لا أعتقد أنَّ لابلاس كان يدَّعي أن الإله غير موجود. إنَّه فقط لا يتدخَّل لكسر قوانين العلم. ويجب أن يكون هذا هو موقف كلِّ عالم. القانون العلمي، ليس قانونًا علميًّا، إذا كان ينطبق فقط عندما يقرِّر كائنٌ خارق للطبيعة أن يترك الأشياءَ تسير، ولا يتدخل»[٣]. إذًا، هوكينغ يعترف في هذه المحاضرة أنَّ المقولة المحبَّبة للملاحدة المنسوبة إلى لابلاس لا تدلُّ على عدم وجود الخالق. وغاية ما تدلُّ عليه أنه ينبغي للعالم عندما يدرس العلومَ التجريبية أن يفترض أنّ الإله

---

(1) God and Stephen Hawking (37)

(2) God’s Undertaker (46)

(٣) محاضرة بعنوان: Does God Play Dice, وهي مفرّغة على الرابط:
https://web.archive.org/web/20000711060247/http://www.hawking.org.uk/lectures/dice.html

لا يتصرّف في هذه القوانين. ولكنْ كما سبق فإنَّ هذه القوانين نفسها بحاجة إلى خالق قنّنها، ولا يلزمُ من انتظامِها في معظم الأوقات أنَّ هذا الخالق لا يقدر أن يخرقها إذا شاء.

- **الوجهُ الخامس: الردُّ على زعْم هوكينغ أنّ قانون الجاذبية خلق الكون:**

إذا كان كلامُ لابلاس - ومَن تبعه في هذا الباب - غريبًا، فإنَّ كلام ستيفن هوكينغ عنْ إمكانية خلق قانون الجاذبية للكون أغرب. وذلك لأنَّ لابلاس تحدّث عن قوانين تصفُ الطبيعة، وأنّه لم يجدْ حاجة إلى وجودِ الخالق في كتابة معادلاته. ولكن ستيفن هوكينغ يفترض أنَّ الكون ظهرَ من العدم بسبب قانون الجاذبية. وإن كان قانون الجاذبية وصفًا للطبيعة، فكيف يخرج الكونُ من العدم إلى الوجود قبل وجود الطبيعة؟!

وقد سبق كلامُ البروفسور لينوكس في الردِّ على كلام هوكينغ في مبحث: بيان تناقضات الملاحدة. ولكنْ لأهمية الكلام أعيده هنا:

قال البروفسور جون لينوكس رادًّا على هوكينغ: «لاحظ الادِّعاء الأوّل من قوله: «وحيث إنه وُجِد قانون مثل الجاذبية...» يزعم هوكينغ أنَّ قانون الجاذبية موجود. ولهذا يفترض أنَّ الجاذبية نفسَها موجودة، لسبب بسيط أنَّ قانونًا رياضيًّا مجرّدًا يكون فارغًا بنفسه إذا لا يستطيع أن يصف شيئًا... على كلِّ حال، القضية الرئيسة الآن هي أن قانونَ الجاذبية والجاذبية ليست لاشيء، إنْ كان يستعمل الكلمة بطريقته الفلسفية الصحيحة بمعنى عدم الوجود. وإن لم يكنِ الأمرُ كذلك فينبغي له أن يبيِّن مرادَه لنا. وعلاوةً على ذلك، فإنه يبدو أنَّ هوكينغ يزعم أنَّ الكون خُلق مِن العدم، ومِن شيء في الوقت نفسه، وهذه بداية غير موفَّقة...

والأمرُ لا يزداد حسنًا عندما نطلقُ إلى منطق هوكينغ في الجزء الثاني من قوله: «فإن الكونَ يستطيع وسوف يخلق نفسَه من العدم». هذا الادّعاء متناقض ذاتيًّا. لو قلنا: «إن X خلق Y » فإننا نفترض وجود X في البداية قبل إيجاده Y. هذا ما يُفهم بسهولة من جملة «X خلق Y». وإن كنّا نقول: «X خلق "X فإننا نزعم وجود X لكي يكون سببًا في وجود X. لا شكَّ أن هذا متناقض بالتالي غير مقبول منطقيًّا، حتى ولو كان X هو الكون!»[1].

---

(1) God and Stephen Hawking (29-31).

فهوكينغ وقعَ في تناقضات عجيبة في استنتاجه أنّه يمكن للكون أن يخلق نفسه بنفسه. وقد مهَّد هوكينغ في كتابه: التصميم العظيم إلى الوقوع في نحو هذه التناقضات عندما ذكر أنَّ الفلسفة ماتت ولم تحافظْ على صمودها أمام تطوّرات العلم الحديث، وأضحى العلماءُ يحملون مصابيحَ الاكتشاف[1]. فكأن المراد بموت الفلسفة هنا في كلامه: عدمُ استخدام قوانين المنطق المعروفة، منها: قانون عدم التناقض. ومراده أنَّ العلماء يحملون مصابيحَ الاكتشاف، أنَّه ينبغي للعامة أن يسلّموا لما يقوله علماء الفيزياء - وهو على رأسهم - وإن كان ذلك يخالف بديهيات العقل. فكلامه أنّ الكون خلقَ نفسَه بنفسه ليس كلامًا علميًّا أصلًا، لأنَّه غيرُ مبنيٍّ على المشاهدات والتجارب، وإنَّما هو ضرب من السفسطة المخالفة للمنطق السوي.

الفقرةُ الثّالثة:
تقييمُ ردود علماء الغرب على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة:

وجودُ قوانين للطبيعة وإمكانية اكتشافها أمر مدهش للغاية. وقد تبنّى الغربيون أربعة معتقدات مختلفة، وكانت هذه القضية تشكِّل معضلةً في جميع هذه المعتقدات، وبيانُ ذلك كما يأتي:

المعتقدُ الأوَّل: الدياناتُ الشركية: وقد تبيَّن أنَّ الإيمان بآلهة متعدّدة تحكم أجزاء مختلفة من الطبيعة يتنافَى مع ما يشاهَد من الانتظام في الكون. كما أن المشركين ظنّوا أنّه بإمكانهم الكشفُ عن مُراد الآلهة عن طريق الخرافات، وليس عن طريق العلم التجريبي الممنْهج. وسعوا إلى التأثيرِ على مُراد الآلهة وتصرُّفاتهم في الكون بأنواع من العبادات والقرابين والشعوذات.

المعتقدُ الثّاني: الديانة النصرانية: وإنْ كانت هذه الديانة تدَّعي أنها توحيدية، وأنَّ ذلك يوفِّر أرضية لانتظام الطبيعة، وأنَّ كلَّ شيء في العالم يسير وفق إرادة إلهية، إلا أنَّ اللاهوتيين النصارى ادَّعوا أنه لا يمكن الكشفُ عن هذه الإرادة إلّا وفقَ كتابهم المقدَّس المحرَّف المليء بالخرافات. وقد وقفوا وقفةً معادية للعلوم التجريبية، وكان ذلك مِن أسباب تخلّف أوروبا في القرون الوسطى.

---

(١) سبقت الإحالة إليه.

المعتقدُ الثّالث: المذهب الربوبي: يعتقد الربوبيون أنَّ الإله خلق الكون وفق قوانينَ منتظمة، ولكنَّ الكون مستغنٍ عن العناية الإلهية للبقاء والسيرورة، وأنّ المعجزات لا تحدُث لأنَّ الإله غيرُ قادر على إحداثها؛ إذْ قوانين الطبيعة لا تتغيّر، أو أنه لا يريد ذلك[1].

وإنْ كان هذا المعتقد يستطيع أن يفسِّر وجودَ الكون بقوانينه لأوّل الأمر، إلا أنه لا يفسِّر استمراريته وفقَ هذا النظام العجيب. فهذا الكون لا يشهد بوجود خالق فقط، بل يشهد بوجودِ خالقٍ قيّوم يدبّر الأمر في كلِّ لحظة وحين؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١]. كما أنَّ الحسَّ والأخبار المتواتر تشهد بحصول المعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة، وقد سبق بيانُ ذلك بتفصيل في المبحث المخصّص بالحديث عن المعجزات.

المعتقدُ الرّابع: الإلحاد: واعتقادُ الملاحدة أنَّ الكون نتيجة العشوائية يتنافى مع وجودِ هذا الانتظام في الكون. والضرورةُ العقلية تقتضي أنَّ وجودَ الانتظام يستلزم وجود منظِّم، ووجود قوانين يستلزم وجودَ منظِّم. كما أنّ تمسُّك الملاحدة بنظرية التطوّر تحت شعار: «الصراع من أجل بقاءِ الأصلح» لا يتوافق معَ إمكانية كشف الإنسان لقوانين الطبيعة.

ويمكن أن نستخلص مِن ذلك أنّه لا يستقيم الإيمانُ بأنّ الطبيعة منتظمة بقوانين وإمكانية كشفها إلّا في ظلّ الإيمان بأربعة أمور - وهي موجودة في الإسلام - :

الأمرُ الأوَّل: الإيمانُ بخالق واحد خلق كلّ شيء، فأحسن خلقه؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [السجدة: ٧].

الأمرُ الثّاني: الإيمان بأنّ هذا الخالق خلق المخلوقات وفقَ سنن جارية؛ قال الله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ ﴾ [فاطر: ١٣].

---

(١) انظر:
Perspectives: Understanding and Evaluating Today's World Views (177-179), by: Norman L. Geisler and William D. Watkins (Wipf and Stock Publishers, 2003)

الأمرُ الثّالث: أنَّ الخالق يجري آياتٍ ومعجزات على أيدي أنبيائه ورسله، وينصر المؤمنينَ ويعاقب الكافرين بما يخالف الانتظام المعهود في الطبيعة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [غافر: ٧٨].

الأمرُ الرّابع: أنَّ الإنسان لديه عقلٌ يمكن الوثوق به، ويحثُّ على التأمّل والتفكّر في كلٍّ من السنن الجارية في الكون، وكذلك الآيات البيِّنات الخارقة لما هو معهود في الطبيعة، ؛ قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

ولا يوجَد هذا الاتِّساق إلّا في ظلِّ العقيدة الإسلامية؛ فلا نستغرب وجود هذا التخبُّط الكبير في الجدال بينَ أتباع المعتقدات المختلفة في قضية قوانين الطبيعة وإمكانية اكتشافها. ولو أنَّ الغربيين راجعوا أنفسهم بعيدًا عن التعصّب والتكبّر، لوجدوا أنَّ الحلَّ الوحيد لهذا اللغز في العقيدة الإسلامية.

ومعَ ذلك، فإنَّ ردودَ علماء الغرب المعاصرين على شبهات الملاحدة المتعلِّقة بقوانين الطبيعة ردودٌ قويَّة وجيِّدة، ويُستفاد منها، ولا سيَّما وهُم أهلُ التخصّص في فلسفة العلم والعلوم التجريبية.

المبحثُ الثّالث

ردودُهم على الشُّبهات المتعلِّقة بنظرية التطور

لا توجد نظريةٌ علميَّة على الإطلاق - فيما أعلم - وقعَ فيها جدلٌ مثل: نظرية التطوُّر. فمنذ أنْ ظهرت هذه النظرية والجدلُ قائمٌ بين المؤيدين لها والرافضين. والملاحدة يروْن أنَّ هذه النظرية أهمُّ النظريات التي يستندون إليها. ولهذا كانت شبهاتُ الملاحدة المتعلقة بهذه النظرية أكثرَ من الشبهات المتعلقة بنظريات أخرى، كما أن ردودَ علماء الغرب على هذه النظرية أكثرُ من ردودهم على نظريات أخرى. وقد ألّفت في هذه المسألة مئاتُ الكتب من الطرفين - وسيأتي تنبيهٌ على بعضها في هذا المبحث -، فلا يمكن استيفاءُ هذا الموضوع في مبحثٍ من مباحث رسالة علمية، وإنما يتطلّب رسائل علميَّة متعدِّدة. ولهذا سيتمُّ الاقتصارُ على أهمِّ الموضوعات المتعلّقة بهذه المسألة بدون تطويل. وهذا المبحثُ مقسَّم إلى خمس فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ نظرية التطوّر.

الفقرةُ الثّانية: أهميةُ نظرية التطوّر في الخطاب الإلحادي.

الفقرةُ الثّالثة: المرادُ بالتطوّر.

الفقرةُ الرّابعة: ردودُ علماء الغرب على أسس نظرية التطوّر.

الفقرةُ الخامسة: تقييمُ ردود علماء الغرب على نظرية التطوّر.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ نظرية التطوّر:

لا يمكن فهمُ نظرية التطوِّر وأسباب تمسُّك الملاحدة بها بصورة جيّدة إلّا إذا فهمنا جذورَها التاريخية. وهي ثلاثُ مراحل:

- **المرحلةُ الأولى: التطوُّرُ قبل داروين:**

بدأ الفكرُ التطوُّري في وقتٍ مبكِّر من العصر اليوناني، وكان طاليس[١] أوّلَ فيلسوفٍ يوناني، ولديه اهتمامٌ بدراسة علم الطبيعة. وكان لديه تلميذ اسمه: أناكسيماندر[٢]. وقد اقترحَ أناكسيماندر أنَّ الحيوانات الأولى عاشت في الماء، ثمَّ صعدت إلى اليابسة، واعتقد أنَّ جذور الإنسان الأوّل ترجع إلى الأسماك. ومن هذه الفلسفة وُلِد الفكرُ التطوّري. ولكنَّ أشهر فلاسفة اليونان مثل: أفلاطون وأرسطو وفلاسفة الفلسفة الرواقية في الإمبراطورية الرومانية كانوا يرون أنَّ الكائنات وُجدت نتيجةً لتصميم إلهي. وبقيَ هذا هو الرأي السائد[٣].

وقد نصَّ السفرُ الأوَّل من العهد القديم بكلِّ وضوحٍ على أنَّ الإله خلق الكائنات خلقًا مستقلًّا. وعندما انتشرتِ النَّصرانية في أرجاء البلاد اختلف علماءُ النصارى في تفسيرِ قصة الخلق، فبينما فهمَها بعضُ علماء اللاهوت فهمًا حرفيًّا، فهمها آخرون بأنَّها مجاز، ولا يمكن تفسيرُها حرفيًّا. وكان مِن أنصار الرأي الثاني - الذي استند إليه النصارى الذين قبلوا نظرية في هذا العصر - لاهوتيون مشاهير، مثل: القديس أغسطين في القرن الخامس. ورأى أنَّ أنواع الكائنات تتحوَّل ببطء عبر الزمن. ولكنّ هذا الرأي لم يكنْ سائدًا في الكنيسة بعد ذلك[٤].

---

(١) طاليس: هو طاليس من مليتوس، أحدُ فلاسفة الإغريق قبل سقراط، وواحدٌ من حكماء الإغريق السبعة. ويعتبره العديدُ الفيلسوف الأول في الثقافة اليونانية وأبو العلوم. توفي عام: ٥٤٧ ق.م. انظر: http: / /www – history.mcs.st – and.ac.uk /Biographies /Thales.html

(٢) أناكسيماندر (Anaximander): فيلسوف يوناني، وأوَّلُ فلاسفة اليونان الذين دوّنوا نظرة فلسفية شاملة للكون. توفي عام ٥٤٦ ق.م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Anaximander

(٣) انظر المقال: History of Evolutionary Thought في: BioScience Encyclopedia

وهو موجود على الرابط:

http://www.bioscience.ws/encyclopedia/index.php?title=History_of_evolu-tionary_thought

(٤) انظر: المصدر السابق.

انتشرتِ الفلسفاتُ المادية في عصري النهضة والتنوير. وارتبطت هذه الفلسفاتُ بالأفكار المتعلِّقة بالتطوّر من وقتٍ مبكِّر. ومن ذلك ما كتبه الفيلسوف الفرنسي جورج دي بوفون[١] في كتابه: «التاريخ الطبيعي» (Histoire naturelle) الذي صدر بين عامي ١٧٤٩ إلى ١٧٨٨م، في ٣٦ مجلَّدًا. ذكرَ في هذا الكتاب الضخم أنّه يوجد حوالي ٢٠٠ نوعٍ من الثدييات، وترجع إلى ٣٨ نوعًا. وهذه الأنواع الأصلية ظهرتْ بالتولّد الذّاتي (Spontaneous generation)[٢]، وهذه الأفكار تشير إلى بوادر الفكر التطوّري قبل ظهورِ النظرية على يد داروين.

وبينَ عامي ١٧٩٤ - ١٧٩٦ نشرَ إيراسموس داروين - جدُّ تشارلز داروين - كتابه: «قوانين الحياة العضوية» (Zoonomia: The Laws of Organic Life)، وكان في هذا الكتاب عددٌ من الأفكار التي استندَ إليها حفيدُه بعد ذلك. فرأى أنَّ الحياة ظهرت بشكل تلقائيٍّ من مستودع لقاحٍ حي، والذي كان العلةَ الأولى لجميع الكائنات الحية. وتلا هذا الكتابَ كتابٌ آخر للمؤلف نفسه، وهو: «معبد الطبيعة» (The Temple of Nature) الذين صدرَ في عام ١٨٠٣م، وأكَّد فيه ظهور الحياة مصادفة. ومن هنا تبلورت الأفكارُ التطوُّرية بقوّة[٣]. وكان إيراسموس داروين ذا وجاهةٍ في المجتمع البريطاني في ذلك الوقت حيث كان طبيبًا مشهورًا، وطلبَ منه ملك بريطانيا أن يكون طبيبه الشخصي لشهرته[٤]؛ فلا يستغرب أنَّ هذه الأفكار بدأت تنتشر في المجتمع نظرًا لشهرة المؤلّف.

---

(١) جورج دي بوفون (George de Buffon): واسمه الكامل: جورج لويس لاكراك دي بوفون. عالم العلوم الطبيعية الفرنسي، اشتهر بتأليفه الكتاب الضخم: تاريخ الطبيعة. توفي عام: ١٧٨٨م. انظر: https://www.britannica.com/biography/Georges-Louis-Leclerc-comte-de-Buffon

(٢) انظر المقال: History of Evolutionary Thought في: BioScience Encyclopedia, وهو سيأتي التعريفُ بهذه النظرية، والردُّ عليها في مبحث: ردود علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلقة بالكيمياء.

(٣) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٣٣ - ٣٤)، لمحمد صالح الهبيلي، (مركز دلائل، ١٤٣٧ هـ).

(٤) انظر الموقع المخصّص لحياته:
https://www.erasmusdarwin.org/learning/erasmus-darwin/

طوَّر جان بابتيست لامارك[١] أفكارَ إيرازموس داروين في كتابه: «فلسفة علم الحيوان» (Philosophie zoologique) في عام ١٨٠٩، حيث افترض أن عملية التولُّد الذاتي للأجيال تنتج أنواعًا بسيطة من الحياة، ثمَّ تطوَّرت تدريجيًّا إلى أن صارت أكثرَ تعقيدًا. وكانت الفلسفةُ الأساسية افتراضه توريث الصفات المكتسبة في الطبيعة. ومن الأمثلةِ المشهورة على ذلك: زعمه أنَّ الزرافة حظيت بعنق طويل لأنها كانت تتطاول للأشجار العالية للأكل منها، ثمَّ توارثت السلالةُ هذه الصفة المكتسبة إلى أن أصبحت أعناقُ الزرافات بهذا الطول[٢].

وظهرتْ في القرن التاسع عشر بعضُ النظريات المؤثرة في ظهور نظرية التطوّر بعد ذلك، منها نظرية توماس روبرت مالتوس[٣] عنِ التكاثر السكاني في كتابه: «أصول الاقتصاد السياسي» (Principles of political economy) الذي صدر في عام ١٨٢٠م، وكان مِن أبرز أفكاره أنَّ العوامل التي تبقي السكان تحت السيطرة وتحافظ على المال وموارد الغذاء، هي الحروبُ والأمراض والمجاعات. وقد عمَّم تشارلز داروين هذه الأفكار بعدَ ذلك على الطبيعة في نظرته للصراع لبقاء الأصلح - وهي من ركائز النظرية -.

ومِن النظريات المصاحبة أيضًا ما نشرَه تشارلز لايل[٤] في كتابه: «أسس الجيولوجيا» (Principles of Geology). وقد ذكر فيها أنَّ عُمر الأرض أقدمُ بكثير

---

(١) جان بابتيست لامارك (Jean Baptise Lamarck): عالم الإحياء الفرنسي في عصر التنوير، اشتهر بنظريتِه المتعلقة بتوريث الصفات المكتسبة. توفي عام: ١٨٢٩م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Jean-Baptiste-Lamarck

(٢) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٣٩).

(٣) توماس روبرت مالتوس (Thomas Robert Malthus): عالم الاقتصاد والديموغرافية البريطاني، واشتهرَ كثيرًا بسبب نظرياته في التكاثر السكاني. توفي عام: ١٨٣٤م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Thomas-Malthus

(٤) تشارلز لايل (Charles Lyell): عالم الجيولوجيا الاسكتلندي، اشتهر بنظرياته عن قدم الأرض. توفي عام: ١٨٧٥م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Charles-Lyell

مما زعمه الأصوليون اللاهوتيون. والقولُ بقدم الأرض من أهمِّ الأسس لنظرية داروين حيث افترض أنَّ التطوُّر يحصل بشكل بطيء جدًّا. ولا يمكن ظهورُ الكائنات المتنوّعة الموجودة اليوم إلا بافتراض قدم الأرض[1].

• **المرحلةُ الثّانية: نشرُ داروين لنظريته:**

يتلخَّص مما سبق أنَّ الظروف كانت مهيأة لظهور النظرية. وذلك من سبعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: الفكرُ التطوّري موجودٌ منذُ زمن طويل في التراث الغربي، وقد تبنّاه بعضُ الفلاسفة اليونانيين.

الوجهُ الثّاني: أنه لا يلزمُ مِن نشر النظرية المصادمة مع الكنيسة، حيث وُجدت فكرةُ التطوّر عند اللاهوتيين القدامى.

الوجهُ الثّالث: انتشارُ الفلسفة المادية مع صعود المذهب الربوبي والإلحادي في الغرب.

الوجهُ الرّابع: تبنّي بعضُ علماء الطبيعة مثل: بوفون ولامارك لبعض النظريات المبنية على التطوّر.

الوجهُ الخامس: انتشارُ فكر الصراع لبقاء الأصلح على يد مالتوس.

الوجهُ السّادس: ظهورُ نظريات جيولوجية تؤيّد قدم الأرض.

الوجهُ السّابع: أنَّ تشارلز داروين كان مِن أسرة مشهورة بسبب شهرة جدّه.

وُلِد داروين عام ١٨٠٩م، في إنجلترا. كان جدُّه - كما سبق - طبيبًا مشهورًا، كما أنَّ والده روبرت داروين كان طبيبًا. وكان كلٌّ من الأب والجدّ متأثّرين بالأفكار العلمانية التي بدأت تنتشرُ في ذلك الزمن. فنشأ تشارلز داروين في عائلة علمية وعلمانية في الوقتِ نفسه. أرسلَه والده لدراسة الطبِّ في جامعة إيدينبورغ وعمره ١٦ سنة فقط، وكانت تلك الجامعة معروفةً بكثرة الطلاب العلمانيين والماديين؛

---

(١) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٤٠ - ٤١).

فتعرّف على أفكار لامارك في التطوُّر. كان داروين فاشلًا في دراسته، فأرسله والدُه إلى جامعة كامبردج لدراسةِ علم اللاهوت كي يكون قسيسًا في المستقبل - رغم أن الوالد كان علمانيًّا -، واستطاعَ داروين الحصولَ على الباكالوريوس. وعندما كان في جامعة كامبردج قرأ كتاب: «اللاهوت الطبيعي أو الأدلة على وجود الإله وصفاته» (Natural theology or Evidences of the Existence and Attributes of a Deity) لوليام بالي - الذي سبق الكلامُ عنه في الحديث عن الحجَّة الغائية -، فتردّد داروين بين الأفكار العلمانية والعقيدة النصرانية في حياته المبكّرة[1].

وفي عام ١٨٣١م، خرجَ داروين مع سفينة بيغل في رحلة استغرقت خمس سنوات، ومرَّت السفينة حول قارة جنوب أمريكا، ثمَّ عبرَ المحيط الهادئ إلى أستراليا، ثمّ عن طريق السّاحل في جنوب وغرب أفريقيا، ثمَّ إلى بريطانيا. وفي هذه الرحلة دوَّن كلَّ ما لاحظه من العرقيات المختلقة بين البشر، والحيوانات والنباتات. وعندما رجع إلى بريطانيا بدأ يؤلِّف بعض الرسائل عن ملاحظاته. ولمرضه لفترة طويلة تأخَّر في نشر كتابه الأشهر: «أصل الأنواع» (On the Origins of Spieces)، وصدر في عام ١٨٥٩م. وحاول داروين تفسيرَ ظهور وتنوُّع الحيوانات والنباتات عن طريق الانتخاب الطبيعي بدون حاجة إلى تدخُّل الخالق. ولم يتحدّث في هذا الكتاب عن أصل الإنسان.

وفي عام ١٨٧١م، نشر كتابًا آخر بعنوان: «نشوء الإنسان والانتقاء الجنسي» (Descent of Man, and Selection in Relation to Sex)، وتحدّث فيه عن تطوّر الإنسان من سلف مشترك مع القرد[2].

أدركَ داروين أنَّ نظريته تعاني من مشكلات عديدة، وخصّص فصلًا من كتابه: «أصل الأنواع» عنوانه: «صعوبات النظرية» (Difficulties on theory). وذكر فيه

---

(١) انظر سيرته في: Peoplepill الرابط:
https://peoplepill.com/people/charles-darwin

(٢) انظر: المصدر السابق.

عددًا من الصعوبات، مثل: فقر سجلّ الحفريات في الأنواع الانتقالية، وكيفية ظهور أعضاء معقّدة كالعين عنْ طريق الانتخاب الطبيعي، ووجود الغرائز في الحيوانات. وحاول داروين أن يجيبَ عن هذه الإشكالات، وأمّل أنَّ الاكتشافات الجديدة سوف تجيب عن هذه الصعوبات[١].

حصلتِ انتقاداتٌ شديدة لنظريته من أوّل وهلة؛ فقد أرسل داروين نسخة من كتابه قبلَ طباعته لصديقِه المقرَّب البروفسور آدم سدجويك، فأجابه سيدجويك بقوله: «قرأتُ كتابك بتألم أكثرَ من الرضا. أحترم جدًّا أجزاء منه، وأضحك من أجزاء حتى تقارب خاصرتي على التقرُّح من الضحك، وأجزاء أخرى أقرؤها بأسى شديد، لأني أعتقدُ أنها زائفة تمامًا، وللأسف عابثة جدًّا... إنَّ الكثير من استنتاجاتك الواسعة مبنية على افتراضات لا يمكن إثباتُها ولا دحضها»[٢].

وكان الأسقفُ صامؤيل ويلبيرفورس[٣] من أكبر المعارضين للنظرية، وألّف مراجعة للكتاب في ٥٠ صفحة. وكان توماس هوكسلي[٤] - صديق داروين المقرّب - أقوى المدافعين عن النظرية. ووقعتْ مناظرة مشهورة بينهما في جامعة أكسفورد ١٨٦٠م، ورغمَ أنَّ تفاصيل المناظرة غير معروفة إلا أنَّ التطوّريين وصفوا أنفسهم بالانتصار،

---

(١) انظر: خديعة التطوّر (١٧)، لهارون يحيى، (الأجيال للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م. ترجمة: سليمان بايبارا).

(٢) From Adam Sedgwick ٢٤ November ١٨٥٩، والرسالة منشورة في الموقع المخصِّص لرسائل داروين على الرابط:
https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-2548.xml

(٣) صامؤيل ويلبيرفورس (Samuel Wilberforce): رجل دين بريطاني وأسقف أكسفورد، اشتهر بمعارضته لنظرية التطور. توفي عام: ١٨٧٣م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Samuel-Wilberforce

(٤) توماس هوكسلي (Thomas Huxley): الفيلسوف وعالم الأحياء البريطاني. اشتهر بإظهار مذهب اللاأدرية ودفاعه المستميت عن داروين. توفي عام: ١٨٩٥م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Thomas-Henry-Huxley

حتى كأنَّ العلم التجريبي انتصرَ على الدين، مما أثار ضجَّة كبيرة في الأوساط العلمية والدينية[1].

أسَّس هوكسلي «نادي أكي» (X – Club) عام ١٨٦٤م، الذي ضمَّ كبارَ العلماء التَّجريبيين الماديين في زمنه. وسعى أعضاءُ النادي – وفي مقدّمتهم هوكسلي – إلى تقديم نظريةِ داروين واعتمادِها عند الحكومة البريطانية، وعلمنةِ العلوم التجريبية، ونجحوا في ذلك إلى حدٍّ كبير.

كما أنَّ أعضاء النادي أسّسوا مجلة «ناتشر» (Nature)، وهي من أشهر الدوريات العلميَّة في العالم إلى هذا الوقت، والمؤيّدة لنظرية التطوّر خصوصًا. وساهموا في الكتابة في مجلة «المعاملات الفلسفية للجمعية الملكية» (Philosophical Transactions of the Royal Society)، وهي أقدم مجلة علمية في بريطانيا[2].

وكان هوكسلي رئيسَ بعض أشهر الجمعيات العلمية في بريطانيا في فترات من حياته مثل: «الجمعية البريطانية لتقدّم العلوم» (British Association for the Advancement of Science) والجمعية الملكية (Royal Society)، وكان من أكثر من نشر نظرية التطوّر على الإطلاق مستفيدًا من مناصبه وعلاقاته[3].

وفي عام ١٨٦٣م، أُنشئت في الولايات المتَّحدة «الأكاديمية الوطنية للعلوم» (National Academy of Science) بقرارٍ من الرئيس الأمريكي، وكانت هذه الأكاديمية تقدِّم الماديين على المتديِّنين من بداية نشأتها، وكانت تؤيّد نظرية التطوّر[4].

---

(١) انظر: (٢٨ – ٢٦) God's Undertaker، وبيَّن البروفسور جون لينوكس في هذا الموضع من كتابه أنَّ ما يذكره التطوّريون عن المناظرة تحريف للحقائق، حيث أنّ ويلبرفورس ناقش هوكسلي من منطلق علمي محْض، وداروين نفسه رأى أنَّ انتقاداته كانت قويّة عندما قرأ مراجعته.

(٢) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٤٨).

(٣) ولهذا يلقّب ببلدغ داريون (Darwin's bulldog) – بلدغ هو الكلب المعروف بشراسته الشديدة –. انظر المقال: Thomas Henry Huxley في موسوعة بريتانيكا على الرابط: https://www.britannica.com/biography/Thomas-Henry-Huxley

(٤) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٤٨).

كما أنَّ الجمعية الأمريكية لتقدّم العلوم أنشأت مجلة «العلوم» (Science) في عام ١٨٨٠م، وأصبحت مِن أشهر المجلات العلمية في الولايات المتَّحدة - نظيرة مجلة «ناتشر» في بريطانيا - وأيَّدت نظرية التطوّر من بدايتها[١].

فكأنَّ الماديين وجدوا ضالتَهم في هذه النظرية، وتعصّبوا لها ما لم يتعصّبوا لأيِّ نظرية أخرى، وحيث أنَّهم تبوؤوا مناصبَ كبرى في دول عظمى فقد ساهم ذلك كثيرًا في قبول النظرية.

توفّي تشارلز داروين عام ١٨٨٢م. وقد انتشرت نظريتُه إلى حدٍّ كبير في حياته[٢].

- **المرحلةُ الثّالثة: نظريةُ التطوّر بعد داروين:**

استمرَّ الماديون في نشْر نظريتهم والدفاع عنها، وصارَ لها قبولٌ واسع في الدوائر العلمية في الدول الغربية. وكان داروين وأنصارُه يعتمدون على فرضية لامارك في توريث الصِّفات المكتسبة. ولكنْ عندما اكتشف العلماءُ قوانين الوراثة دخلت النظرية في أزمة عميقة؛ لأنَّ هذه القوانين تبيِّن أنَّ الصفات المكتسبة لا تورث.

وقام اثنان من العلماء التطوُّريين بتعديل النظرية باعتبار أنَّها تعتمد على الانتخاب الطبيعي فقط في ضوء «قوانين ميندل للوراثة» (Mendelian inheritance)، وسميت الصياغة الجديدة لنظرية التطوّر بـ«الداروينية الجديدة» (Neo – Darwinism)، فكانت بمثابة عملية الإنقاذ الأولى للنظرية بعد وفاة داروين[٣].

ولكنْ بقيت مشكلةٌ كبيرة في النظرية، وهي أنَّ الانتخاب الطبيعي نفسه لا يتسبَّب في ظهور صفاتٍ جديدة، وإنما يختار الكائنات الأكثر ملائمة للبقاء. والتقى العلماءُ التطوّريون في اجتماع نظَّمته الجمعية الجيولوجية الأمريكية عام ١٩٤١م؛ للمشاورة في حلِّ هذه الإشكالية،

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥٣ – ٥٤).

(٢) انظر المقال: Charles Darwinفي موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https://www.britannica.com/biography/Charles-Darwin

(٣) التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٦٨).

وقدَّموا فرضية عن ظهور طفرات عشوائية في الكائنات الحية، وهي تسبِّب تطوُّر الكائنات الحيّة، ثمّ يُبقي الانتخاب الطبيعي الأنواع الملائمة، ويميتُ الأنواع غير الملائمة. وأطلقوا على نظريتهم الجديدة اسم: «النظرية الحديثة للتطوّر التركيبي» (Modern Synthesis Theory)، وأضافوا الطفرات العشوائية إلى النظرية، وأنها هي التي تسبِّب في ظهور صفات جديدة، ويتراكم النافعُ منها عبر الزمن عن طريقِ الانتخاب الطبيعي[1].

وقد كان مِن ضمن مَن أشهَرَ هذه النظرية الحديثة: جوليان هوكسلي، وهو حفيدُ توماس هوكسلي - بلدغ داروين -. وكان جوليان مِن ضمن مؤسِّسي منظمة اليونسكو (منظَّمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة) وأوَّلَ رئيس لها[2]. ولا شكَّ أنَّ تولّي داروينيٍ متعصِّبٍ رئاسةَ أهمِّ منظمة علمية في العالم ساهمت في قبول النظرية عالميًّا.

ولم تقبلِ الدول الغربية الرأسمالية هذه النظريةَ فحسب، بل قبلتها الدولُ الشيوعية الشرقية أيضًا. فعندما ظهرَ كتاب: «أصل الأنواع» تلقّاه كارل ماركس بقبول، وكتب لرفيق دربه إنجيلز أنَّ هذا هو الكتاب الذي يحتوي على أسسِ التاريخ الطبيعي لآرائهما. ولما استولى الشيوعيون اعتمدوا تدريسَ هذه النظرية، كما أنَّ ماو تسي دونغ بجّل هذه النظريةَ واعتُمِدتْ في التعليم الصيني[3].

وعندما نجحَ الاتحاد السوفيتي الشيوعي في إطلاق أوّلِ قمرٍ صناعي عام ١٩٥٧م إلى الفضاء، استغلَّ الماديون الأمريكان هذا الأمرَ في ترويج أنَّ سببَ تقدّم الشيوعيين هو اعتمادُهم على المادية، وتعليم نظرية التطوّر. ولذلك قام الرئيس الأمريكي بتغيير المناهج الدراسية الأمريكية، ودعَّم أكاديمية العلوم المناصرة لنظرية التطوّر، وفرضوا تدريسَها في المدارس، وصار لها قبولٌ واسع في الولايات المتّحدة بعد ذلك[4].

---

(١) انظر: خديعة التطوّر (١٧ - ٢٠).

(٢) التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٦٨).

(٣) انظر المقال: The Darwinian Foundation of Communism, وهو موجود على الرابط: https://answersingenesis.org/charles-darwin/racism/the-darwinian-foundation-of-communism

(٤) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٩٥ - ٩٦).

وبعدما تبنَّت أقوى الدول في العالم هذه النظرية انتشرت بشكلٍ كبير في أرجاء المعمورة. ونستنتجُ من هذا التاريخ الموجَز لنظرية التطوّر كيف أنَّ الماديين استطاعوا نشرَها بطرق مختلفة، منها:

١) نشر النظرية عن طريق المجلات العلمية مثل: مجلة ناتشر ومجلة العلوم.

٢) اعتماد النظرية عن طريق السلطة السياسية في أقوى الدول في العالم مثل: بريطانيا أوّلًا، ثمّ الاتحاد السوفيتي، ثمّ الصين، ثمّ الولايات المتّحدة.

٣) تولّي التطوّريين المتعصّبين لمناصب حساسة كرئاسة اليونسكو.

وهذا يلخِّص تاريخَ نظرية التطوّر، ويبيِّن أنَّها نظرية مادية قديمة، أحياها الماديون في عصرِ التَّنوير، وأشهرها داروين، ثمَّ استمرَّ الماديون في الدفاع عنها إلى هذا العصر.

الفقرةُ الثّانية: أهميةُ نظرية التطوُّر في خطاب الملاحدة:

نظريةُ التطوُّر أشهرُ نظرية علمية يستدلُّ بها الملاحدة على إلحادهم ويلجؤون إليها في الحديثِ عن الخلق، ويتخنْدَقون بها في مناقشاتِهم للمؤمنين. فنظرية التطوّر أسُّ الإلحاد العلمي ولبُّه في هذا العصر، ويدافع عنها الملاحدةُ بشراسة وفظاظة. وقد بالغ الملاحدةُ في الدفاع عنها إلى أنِ اتخذوها دينًا يدينون به، كما اعترفَ بهذا البروفسور الملحدُ مايكل روس حينَ قال: «التطوّر يقدّم عندَ معتنقيه كشيء أكثر من مجرّد علم. التطوُّر أيديولوجية، وديانة علمانية، وبديلٌ متكامل للمسيحية، بمعنى وأخلاق... التطوّر دين. هذا يصدقُ على التطوُّر في البداية، ويصدقُ على التطوّر حتى اليوم»[١].

وسببُ ذلك ما ذكره زعيمُ الملاحدة في هذا الزمان ريتشارد داوكينز: «وإن أمكنَ الدفاع عن الإلحاد منطقيًّا قبل داروين، فإنَّ داروين جعله ممكنًا أن يكون الإنسان ملحدًا مقتنعًا عقليًّا»[٢].

---

(1) How evolution became a religion: creationists correct? National Post, pp. B1,B3,B7 May 13, 2000.

(2) p.6 The Blind Watchmaker

ويعترف بعضُ التطوُّريين أنفسهم بسرِّ قبولهم لهذه النظرية، وهو الفرارُ من الإيمان بوجودِ الخالق الذي خلقَ الكائنات الحية. وذكر ذلك البروفسور التطوّري ديفيد واطسون في وقتٍ مبكِّر من ظهور النظرية - عام ١٩٢٩ م - في المجلة التطورية ناتشر إذْ قال: «نظريةُ التطوّر نفسها ليست مقبولةً عند علماء الحيوان لأنه يمكن ملاحظتها... أو يمكن إثباتُ صحَّتها بالأدلة المحكمة منطقيًّا؛ بل لأنَّها البديل الوحيد؛ فمن الواضح أنَّ الخلق الخاص لا يمكن تصديقه»[1].

بل الملاحدةُ مستعدُّون أن يؤمنوا بما يعرفون أنَّه مستحيل؛ فرارًا من الإيمان بوجود الخالق، كما كتبَ جورج والد[2]: «عندما يتعلّق الأمرُ بنشأة الحياة على الأرض، فليس هناك غيرُ احتمالين: الخلق أو النشوء التلقائي، وليس هناك احتمال ثالث، وقد دُحض النشوءُ التلقائي منذ ١٠٠ سنة، ولكنَّ ذلك سيقودنا إلى الاستنتاج الآخر وهو: الخلق الخارقُ للطبيعة. لا يمكننا قبولُ ذلك على أسسٍ فلسفية، ولذلك فقد اخترنا الإيمانَ بالمستحيل: نشوء الحياة تلقائيًّا بالصدفة»[3].

ولذلك، فإنَّهم يئوِّلون الأدلة والحقائق بناءً على ذلك، كما قال فيليب جونسون - مؤسِّس حركة التصميم الذكي - : «**التطور ليس حقيقة، بل فلسفة. فالمذهبُ المادي يأتي أوَّلًا (كمسلَّمة) ومن ثمَّ يتمُّ تأويلُ الدليل في ضوء هذا الالتزام الفلسفي الثابت**»[4].

فالفلسفةُ المادية قادتْهم إلى نظرية التطوّر، لا العكس، أي أنَّهم لمّا اختاروا الإيمان بالمادية، بما في ذلك الإيمان بالمستحيل فلا بدَّ من الإيمان بنظرية التطوّر. وذلك أنَّ

---

(1) D.M.S. Watson, "Adaptation," Nature, Vol. 123 [sic Vol. 124] (1929), p. 233

(٢) جورج والد (George Wald): بروفسور الكيمياء الحيوية في جامعة هارفارد بالولايات المتَّحدة والحائز على جائزة نوبل في الطبّ عام: ١٩٦٧م. توفي عام: ١٩٩٧م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/George-Wald

(٣) انظر: The Origin of Life, Scientific American, 191:48, May, 1954

(4) Defeating Darwinism by Opening Minds (81), by: Philip Johnson, (InterVarsity Press, 1997)

العلم التَّجريبي تقدَّم بشكلٍ هائل منذُ زمن داروين، واكتشف العلماء مزيدًا من الإتقان والإحكام في المخلوقات الحيَّة، وكلُّها شاهدةٌ بوجود الخالق. فلو تخلّى الماديون عن نظريةِ التطوّر الآن، لزمَهم السؤال: كيف وُجِد هذا الإتقان والإحكام؟ وهذا يقودهم حتمًا إلى الإيمانِ بوجود الخالق. فلا بدَّ من التمسُّك بهذه النظرية، مهما كان الثمن.

الفقرةُ الثّالثة: المرادُ بالتطوُّر:

تستخدم كلمةُ التطوُّر في معانٍ متعدّدة، ولكي نقوم بالردِّ على هذه النظرية نحتاج أن نحدِّد المرادَ بهذا اللفظ. ذكر البروفسور جون لينوكس أنَّ كلمة التطوّر تستخدم في خمسة معانٍ:

المعنى الأوَّل: التغيّر، والتنمية، والاختلاف.

المعنى الثّاني: التطوّر الصغروي (Microevolution). تحصل التباينات ضمنَ حدود موصوفةٍ من التعقيد، تباينات كمية لأعضاء موجودة مسبقة.

المعنى الثالث: التطوّر الكبروي (Macroevolution). يشير المصطلح إلى الأمورِ الجديدة التي تظهرُ على المستوى الكبير كظهور أعضاء جديدة، وبنى جديدة، وأقسام جسديَّة جديدة أو مادة وراثية جديدة بنوعها، على سبيل المثال: تطور كائنات متعددة الخلايا من بنى أحاديةِ الخلايا، وبالتالي يتضمن التطور الكبير زيادةً معتبرة في التعقيد. والتمييزُ بينَ التطور الكبير والصغير مادةٌ لكثيرٍ من الخلاف نظرًا لأن فرضية التدرج تقتضي أنَّ التطورَ الكبير يأتي ببساطةٍ من تراكم العمليات التي تقود التطور الصغير عبرَ الزمن.

المعنى الرّابع: الانتخابُ الاصطناعي في تكاثرِ النبات والحيوان. فقد أنتج مربّو الحيوانات والمزارعون كثيرًا من الأنواعِ المختلفة من الأغنام الورود ممّا امتلكوه من مخزون رئيسي من الورد والغنم بداية عبرَ اختيار دقيق لطرق التكاثر.

المعنى الخامس: التطوُّر الجزيئي. ويستخدم مصطلح «تطور جزيئي» بشكل شائع اليومَ لوصف ظهور الخلية الحية من موادّ غير حية[1].

---

(١) انظر: God's Undertaker (100 - 102)

وبسببِ هذا الاشتراك اللفظي يقع لبسٌ كبير عندَ الحديث عن التطوّر. وذلك أنَّ المعنى الأوَّل ليس فيه إشكالٌ عقدي؛ فالتغيّرات في الكائنات الحيَّة أمرٌ ملاحظ ومشاهَد؛ فالولد يختلفُ عن والديه مثلًا. وعامَّة ما يستدلُّ به التطوّريون هو أمثلة على هذا المعنى في الحقيقة، ولكنَّ اكتساب الكائن خصيصة ما دون تغيّر رصيده الجيني ليس من التطوّر الذي ينشئ التعقيدَ الأحيائي من أصل مشترك[1].

وأمّا المعنى الثاني والمعنى الثالث فهمَا محلُّ النقاش في هذا المبحث. والمعنى الرابع يحصلُ عن طريق تدخُّل إنسان ذي علمٍ وإرادة في التكاثر؛ فلا يمكن الاستدلالُ به على حصولِ تطوُّر عشوائي غير موجَّه. ويختلف التطوّريون في قضايا كثيرة متعلِّقة بالتطوّر، ولكنَّ الملاحدة التطوُّريين متَّفقون على أنَّ التطوّر عملية عشوائية غير موجَّهة[2].

وأمّا المعنى الخامس، فسيأتي الحديثُ عنه في المبحث الخامس من هذا الفصل.

الفقرةُ الرّابعة: ردودُ علماء الغرب على أسس نظرية التطوّر:

نظريةُ التطوُّر نظريةٌ كبيرة ومتشعِّبة، وقد ألَّف علماءُ الغرب مئاتِ الكتب والمقالات في الردِّ عليها. ويستحيل ذكرُ جميع هذه الردود في مبحثٍ من مباحث هذه الرسالة. ولهذا سوف أكتفي بالردِّ على أسس هذه النظرية. فلو سقطت الأسسُ انهارت النظريةُ بأكملها. فما هي أسسُ النظرية؟ قد لخّصها البروفسور مايكل بيهي في ثلاث نقاط:

النُّقطةُ الأوّلى: أنَّ الكائنات الحية ترجع إلى سلف مشترك.

النقطةُ الثانية: الطفرات العشوائية.

النقطةُ الثالثة: الانتخاب الطبيعي[3].

---

(١) انظر: براهين وجود الله (٤٩٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (٥٢٣ - ٥٢٤).

(٣) انظر: God and Evolution, in God is Great God is Good (84)

- **النُّقطةُ الأولى: أنَّ الكائنات الحية ترجع إلى سلف مشترك:**

يرى التطوُّريون أنَّ جميع الكائنات الحية تنتظم في علاقةٍ شجرية كثيرة الفروع، جذعُها الأول: بكتيريا أولى. ومِن هذه البكتيريا بدأتِ الحياة. ثمَّ تطوّرت الكائنات الحيّة مِن هذا الكائن البسيط إلى ملايين الأنواع المختلفة من الكائنات الحيّة. ومنها الإنسان. ويسمُّون هذا الكائن الأوَّل بالمشترك العالمي الأخير (Last universal common ancestor). وحيث إنه لا توجَد أحفورة لهذا الكائن الأوَّل فإنَّ التطوّريين يختلفون اختلافًا كبيرًا في زمنِ ظهوره ما بين ٣,٧ إلى ٤,٢ مليار سنة قبلنا[١].

وقد ذكر داروين هذا السلفَ المشترك في كتابه: «أصل الأنواع» إذ قال: «لذلك يجبُ أن أستنتجَ من القياس أنَّ كلَّ الكائنات العضوية التي عاشت على هذه الأرض قد انحدرتْ من شكل بدائي واحدٍ نُفخت فيه الحياة أولًا»[٢].

ويؤكِّد التطوُّريون المعاصرون على أهمِّية هذه النقطة في نظريتهم؛ فقال البروفسور ريان غريغوري[٣]: «لم يُعثَر على أيِّ ملاحظة موثوقة تتناقضُ مع الفكرة العامة للسلف المشترك. لا ينبغي أن يكون مفاجئًا إذًا أنَّ المجتمع العلمي عمومًا قد قبل النزولَ التطوري كواقعٍ تاريخي منذُ زمن داروين، **ويعتبره من بين الحقائق الأكثر وثوقيَّة والأهمية الأساسية في كلِّ العلوم**»[٤].

---

(١) انظر بحث:

Evidence for early life in Earth's oldest hydrothermal vent precipitates, Nature (543), 2017, pp. 60-64

(2) On the Origins of Species (484)

(٣) ريان غريغوري (Ryan Gregory): بروفسور علم الأحياء التطوّري في جامعة غوليب بكندا. انظر: https: / /www.uoguelph.ca /ib /gregory

(4) Evolution as Fact, Theory and Path, by: T. Ryan Gregory, in Evolution: Education and Outreach (1), 46-52, (2008)

فلا توجَد أحفورة لهذا الكائن الأوَّل المزعوم، ولكنَّ داروين افترض وجوده هذا السلف المشترك بالقياس العكسي للتطوّر - كما في كلامه المذكور سابقًا - والتشابه بين الكائنات. وأمَّا دوكينز فيستدلُّ على وجود هذا السلف المشترك بأنَّ شفرة الحمض النَّووي واحدة في جميع الكائنات الحية، وتطابق شفرة الحمض النووي حجة على أنها تعودُ إلى أصل واحد[1].

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة من أوجهٍ كثيرة، ولكن أكتفي بذكر أربعة منها:

الوجهُ الأوَّل: عدمُ التسليم بأنَّ التفسير الوحيد لوجود التشابه بين الكائنات هو السلفُ المشترك. فقد يفسَّر هذا التشابه بوجود خالقٍ واحد خلقَ الكائنات بهذا التَّشابه. ولكن التطوُّريين الملاحدة لا يقرُّون بهذا التفسير لأنهم التزموا المذهب المادي الصِّرْف. وهذا هو ما قادَهم إلى القول بالسلف المشترك. وقد ذكر ذلك الدكتور وليام دمبسكي والدكتور جوناثان ويلز بقولهما: «تشترك الكائناتُ الحية في العديد من السِّمات. إنَّ العديد من هذه السمات متشابهة لدرجة أنها لا يمكن أن تنشأ إلا مِن سببٍ مشترك. السؤالُ الأهمُّ هنا يتعلَّق بحقيقة هذا السبب المشترك. هل هذا السبب هو السلفُ المشترك أو التصميم المشترك، أو ربَّما كلاهما؟ بغياب التصميم سيغدو السلفُ المشترك هو التفسيرَ الافتراضي لكلِّ هذه التشابهات التي تملأ العالم الحيوي. ستلجأ كلُّ نظرية مادية في التطوُّر لإنكار التصميم واعتناق التفسير الناتج عن السلف المشترك؛ لكنْ عندما يعود التَّصميم إلى الصورة فستلغى أهمية الأسلاف المشتركة»[2].

الوجهُ الثّاني: عدمُ التسليم بأنَّ جميع الكائنات تعود إلى سلف مشترك. قد اكتشفَ العلماءُ أنَّ القول بالسلف المشترك خطأ. وقد قدّم الدكتور شي ليو[3] بحثًا

---

(١) انظر: The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution (315), by: Richard Dawkins, (Transworld Publishers, 2009)

(٢) تصميم الحياة (٢٤٢).

(٣) شي ليو (Shi Liu): عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي من أصول صينية. حامل شهادة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من جامعة أوكلاهوما بالولايات المتّحدة. انظر:
https://19january2017snapshot.epa.gov/sites/production/files/2016-05/documents/liu_shi_ced.pdf

بعنوان: «وجهة نظر مختلفة تمامًا عن أصل الحياة وتطوّرها» (A Fundamentally New Perspective on the Origin and Evolution of Life)، وكتب في مقدّمة البحث: «تزعم فرضيةُ داروين أنَّ جميع أشكال الحياة الموجودة سليلة آخر مشترك خلوي، وأنّ تنوّع أشكالِ الحياة نتيجةَ التدرُّج في الطفرات مع الانتخاب الطبيعي، وهي وجهة النظر السّائدة التي أثَّرت على البيولوجيا، وحتَّى المجتمع، لأكثر من قرن من الزمان. ومع ذلك، فإنَّ هذا الرأي الدارويني عنِ الحياة يتعارض معَ العديد من الملاحظات، ويفتقر إلى تفسيرٍ فيزيائي - وكيميائي معقول. وتشير الدلائلُ القوية إلى أن فرضية السلف المشترك هي الخللُ الأساسي في الداروينية»[1]. بل حتَّى المجلة التطوّرية «نيو سينتيست» (New Scientist) نشرت مقالًا بعنوان: «ربما لم تبدأ الحياة مرَّة واحدة، وإنما نشأت مرّات عديدة على الأرض (Life may have emerged not once, but many times on earth)، وكتبت صاحبةُ المقال بدايته: «بعيدًا عنْ كونها معجزةً وقعت مرَّة واحدة منذ أربعة مليارات من السنين، من الممكن أن تكونَ بدايات الحياة شائعة جدًّا، حتَّى أنها تكرّرت مراتٍ كثيرة»[2].

وهذا الأمرُ يمثِّل مشكلة كبيرة للملاحدة؛ فالشهادة «للحياة أنها نشأت مرّات عديدة، معَ قيام الحياة على الحمض النووي الصبغي يجعل الصدفة التطوّرية مشكلة أشدَّ إرهاقًا للتطوُّريين مما هي عليه الآن؛ لأنَّ قبول نشوء الحياة مرة واحدة بصورة عشوائية؛ أمرٌ مُشكل؛ فكيف بتكرُّرِ مظاهر هذه القدرة العشوائية مرات كثيرة»[3].

---

(1) A Fundamentally New Perspective on the Origin and Evolution of Life (1), by: Shi V. Liu

وهو موجود على الرابط:

https://arxiv.org/ftp/arxiv/papers/0811/0811.3653.pdf

(٢) انظر المقال على الرابط:

https://www.newscientist.com/article/mg23130870-200-life-evolves-so-easily-that-it-started-not-once-but-many-times/#ixzz6EEEJ8yPr.

(٣) براهين وجود الله (٥٠٤).

الوجهُ الثّالث: أنَّ العلماء اكتشفوا أنَّ الكائنات تظهر بشكل مفاجئ بدون وجود سلفٍ مشترك بينها. وقد وقع ذلك مرَّات عديدة في تاريخ علم الحياة، ولكن أشهر مثالٍ على ذلك هو المعروفُ بالانفجار الكامبري[١]. فحسبَ تحديد البيولوجيين الماديين فقدْ ظهرت كائناتٌ كثيرة ومعقَّدة قبل ٥٣٠ مليون سنة - كما يزعمون -. وكان داروين على علمٍ بذلك، وكتب في كتابه: «أصل الأنواع»: «تبقى هذه القضية غيرَ قابلة للتَّفسير في الوقت الراهن، وقد يُستخدَم كحجَّة صالحة ضدَّ هذه الآراء المقدَّمة»[٢].

وقد ألَّف الدكتور ستيفن ماير كتابَه المتميِّز في هذه القضية، وهو: «شكُّ داروين: الأصلُ الانفجاري لأصل الحياة الحيوانية والدفاع عن التصميم الذكي» (Darwin's Doubt: The Explosive Origin of Animal Life and the Case for Intelligent Design)، وتحدّث عن الكائناتِ الكثيرة التي ظهرت بشكلٍ معقَّد جدًّا فجأة في هذه الحقبة الزمنية. وتتمثّل خطورةُ هذا الانفجار على التطوّريين أنه يمثِّل البدايةَ الحقيقية لأغلب الكائنات متعدّدة الخلايا؛ إذْ من سبع وعشرين شعبة[٣] حيوانية محفوظة في سجلّ الأحافير، قد ظهرت ثلاثٌ وعشرون منْها في هذا الانفجار، منها عشرون بدون سلف مشترك[٤].

---

(١) الانفجار الكامبري (Cambrian explosion): يقدّر التطوّريون أنّ هذا التوسع الكبير في الأنواع الحيوانية حصل في فترة زمنية تقدّر قبل ٥٣٠ إلى ٥٤١مليون سنة.
انظر: https: / /www.britannica.com /science /Cambrian – explosion

(2) On the Origins of Species (269)

(٣) شعبة (Phylum): التقسيم الفرعي الأساسي لمملكة التصنيف، وتجميع جميع فئات الكائنات الحية التي لها نفس مخطط الجسم. انظر:
https://www.dictionary.com/browse/phylum

(٤) انظر:
Darwin's Doubt: The Explosive Origin of Animal Life and the Case for Intelligent Design (417-418), by: Stephen Meyer, (WA: HarperCollins, 2014)

الوجهُ الرّابع: على فرض التسليم بوجودِ هذا التشابه بين الكائنات، فلا يلزم منه الاشتراكُ في الأصل. فالتشابهُ لا يلزم منه الاشتراك في الأصل. وهذا ما نعرفه من خبراتنا في الحياة؛ قال الدكتور وليام دمبسكي والدكتور جوناثان ويلز: «إن العديدَ من الأشياء التي نعرفُها في خبرتنا الحياتية - رغمَ التَّشابهات المشتركة - لا تشتقُّ من عملية تطوّرية يمكن تتبُّعُها إلى سلفٍ مشترك. خذْ مثلًا مصنوعات الإنسان كالسيارات أو الرسومات أو الأثاث الخشبي... هي متشابهةٌ فيما بينها بسبب أنَّها من تصميم مشترك، أو فلنقل إنَّها ذاتُ نمط واحد في ذهن المصمم الذكي»[1].

وهذه الأوجهُ الأربعة كافيةٌ في نقد الأساس الأوَّل من أسس نظرية التطوّر، وهو: السَّلف المشترك.

- **النُّقطةُ الثّانية: الطَّفراتُ العشوائية:**

الطفراتُ هي خطأ في نسخِ المادة الوراثية أثناءَ عملية التضاعف، وأشهرُ صورها يقع نتيجةَ وضع نيوكيلوتيدة - وهي وحدةُ بناء المادة الوراثية التي تحمل قاعدة نيتروجينية - أو أكثر في مكانٍ خاطئ. وترى الداروينيةُ الحديثة أنَّ هذه الطفرات عشوائية (Random mutations) وهي عصبُ تنوُّع الصفات، ثمَّ يختار الانتخاب الطبيعي الملائم من هذه الصفات[2] - كما سيأتي بيانُه -.

والملاحدةُ يزعمون أنَّ هذه الطفراتِ العشوائية لها قدرةٌ خلقية عجيبة، حيث إنّها مسئولةٌ عنِ الانتقال من البكتيريا الأولى إلى الإنسانِ على مدى التاريخ. وقدّ ردَّ علماءُ الغرب على هذا القول من ثلاثة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: ذكرَ فيليب جونسون - رائدُ حركة التصميم الذكي - أنَّ القائلين بالتطوُّر يتبنَّون أحدَ القولين، وكلاهما مشكل:

---

(١) انظر: تصميم الحياة (٢٤٢).

(٢) انظر: التطوّر: نظرة تاريخية وعلمية (١٥٦)، وانظر كذلك: The Collapse of Evolution (٤٥)

القولُ الأوَّل: القولُ بالتطوّر القافز (Saltation)، وهو أنَّ الطفراتِ تحصل بقفزات كبيرة. وهذا القولُ تبنّاه بعضُ القائلين بالتطوُّر قبل داروين، ولكن داروين ردَّ هذا القول باعتبار أنَّ القفزاتِ الكبيرة تكون بمثابةِ معجزات. ولا يمكن القولُ بوجود المعجزات وفق المذهبِ المادي. وهذا اللازمُ صحيح، فلو قلنا بالتطوّر القافز لزِمَ إبطالُ المذهب المادي.

القولُ الثّاني: القولُ بالتطوّر التدريبي، وهو ما أيَّده داروين، ومَن تبعه. وهُم يرون أنَّ التطوُّر يحصل بشكلٍ بطيء جدًّا، حتَّى لا يمكن ملاحظته إلّا بعد مرور زمن طويل.

وذكرَ جونسون أنَّ هذا القول ليس أقلَّ مشكلة على الداروينيين من الأوّل؛ لأنَّه يتطلَّب وجودَ طفرات نافعة كثيرة لكي تنتج الأعضاء المعقَّدة، فضلًا عن كائنات جديدة. فقد ذكر بعضُ التطوّريين أنَّ العين - على سبيل المثال - قد تطوَّرت أربعين مرّة على شكلٍ مستقلٍّ لكي تصل إلى التعقيد الموجود اليوم[1].

وهذا إشكالٌ كبير جدًّا للداروينيين، كما يتبيَّن من الوجه الثاني:

الوجهُ الثّاني: ذكرَ الدكتور هنري موريس أنَّ الطفرات أهمُّ مكوِّن للنموذج التطوُّري؛ لأنَّها مسئولة عن تقدُّم التطوّر إلى الأمام. ولهذا كان ينبغي أن يتوقّع أنّ أغلبَ الطفرات تكون مفيدة، وأنَّها تغيِّر الكائنات إلى كونها أكثر تعقيدًا. ولكن الأمر ليس كذلك، وذكر موريس أنَّ الطفرات تتَّصف بخمس صفات تناقض هذا المفهوم:

الصفةُ الأولى: الطفراتُ عشوائية وليست موجّهة.

الصفةُ الثّانية: الطفراتُ نادرة.

الصفةُ الثّالثة: الطفراتُ المفيدة نادرة جدًّا جدًّا.

الصفةُ الرّابعة: التأثيرُ الكلّي بالنظر إلى مجموع الطفرات أنّها ضارة.

---

(١) انظر: Darwin on Trial (53 - 60), by: Philip E. Johnson, (IVP Books, 2010)

الصفةُ الخامسة: الطفراتُ تؤثِّر وتتأثّر بالعديد من الطفرات الأخرى. ولهذا لا يكفي حصولُ طفرة واحدة لظهور صفةٍ جديدة. وهذا يقلِّل احتمالَ وجود طفرات مُفيدة في جميع هذه الجينات في وقتٍ واحد إلى الصفر[1].

الوجهُ الثّالث: الطفراتُ النافعة تقع، ولكنها تؤدِّي إلى فقدان المعلومات من الحمْض النووي، ولا تؤدِّي إلى زيادةِ المعلومات. وذكر الدكتور جوناثان سارفاتي أنَّ جميعَ الأمثلة المذكورة على الطفرات النافعة إنما تدلُّ على فقدان المعلومات، لا إلى زيادتها[2]. والتطوُّرُ الكبروي يستلزم إضافةَ معلومات جديدة إلى الجينات.

«وبالنظر في أدبيّات الدراونة، لا نجد مثالًا واحدًا لإضافةِ معلومة واحدة جديدة إلى عالم الأحياء عنْ طريق طفراتٍ عشوائية. وعندها تكون كلُّ المعلومات المضافة إلى جينوم الكائن الحيِّ نتاجَ استيراد لها من كائنٍ آخر حي قائم؛ وهو ما لا ينصر قضية الدراونة في شيء، إنَّنا نبحث عن إضافة لمعلومات جديدة لا تبادل معلومات قائمة داخلَ المنظومة الأحيائية. ومِن عجائب الدراونة إقرارُهم بالعجز عن البرهنة على هذا الأصلِ المركزي لدعوتهم معَ إيمانهم الدوغمائي[3] بمذهبهم؛ ومِن ذلك إقرارُ بحث علمي حديث أنَّ ظهورَ جينٍ كامل وظيفي جديد مما يسمَّى بالحمض النووي الصبغي الخردة أمرٌ مستبعَد جدًّا، وهو أشبهُ بحلم الخيميائيين - الخرافيين - تحويل الرصاص إلى ذهب في العصور الوسطى»[4].

---

(١) انظر:
Scientific Creationism (54-57), by: Henry Morris, (Creation Life Publishers, 1981)

(٢) انظر: The Greatest Hoax on Earth? Refuting Dawkins on Evolution (45), by: Jonathan Sarfati, (Creation Ministries International, 2010)

(٣) الدوغمائي (Dogmatic): يتميز بالتعبير عن آراء بقوة أو إيجابية شديدة كما لو أنها كانت حقائق. انظر: https: / /www.merriam – webster.com /dictionary /dogmatic

(٤) براهين وجود الله (٥٣٠). والبحث الذي أشار إليه هو:
Darwinian Alchemy: Human Genes from Noncoding RNA, Genome Research, 19 (10): 1693-5 October, 2009

الوجهُ الرّابع: قد بحثَ البروفسور دوغلاس أكس[1] والدكتورة آن غوغر[2] عن إمكانيةِ تطوُّر إنزيم[3] واحدٍ إلى نوع آخر، فتوصَّلا إلى أنَّ هذا التغيير يتطلَّب على الأصل سبعَ طفرات. والزمنُ المطلوب لظهور هذه الطفرات في تجمُّع بكتيري يبلغ ١٠١٥ سنة، وهو ١٠٠ ألف مرَّة أطول من عُمر الأرض - حسبَ اعتقاد القائلين بالانفجار العظيم -[4].

فإذا كان هذا هو الحالَ في تطوُّر إنزيم إلى نوع آخر؛ فكيف بتطوّر جميع الكائنات الحية - بما في ذلك الإنسان - مِن البكتيريا الأولى عن طريق هذه الطفرات العشوائية؟!

فهذه أربعةُ أوجهٍ في الردِّ على القدرة الخالقة للطفرات العشوائية. وإضافة إلى ذلك فإنَّ «الطفرات العشوائية وعبقرية الطبيعة: كيف لنا أن نفسِّر مظاهر الإتقان التي

---

(١) دوغلاس أكس (Douglas Axe): بروفسور علم الأحياء الجزيئي في جامعة بيولا، وعمل فترة في جامعة كامبردج. وقد ألَّف عددًا من الكتب في نقد نظرية التطوّر. انظر: https: / /www.discovery.org /p /axe

(٢) آن غوغر (Ann Gauger): حاملة شهادة الدكتوراه في علم الحيوان من جامعة واشنطن بالولايات المتَّحدة. وعملت في جامعة هارفارد فترة. وتهتم بنقد نظرية التطوّر. انظر: /https: / /www.discovery.org /p /gauger

(٣) إنزيم (Enzyme): إفراز يخرج من الخلايا الحيّة؛ يساعد على حصول التفاعلات الكيميائيّة داخل جسم الكائن الحيّ بدون أن يتغيَّر. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ١٢٨).

(٤) انظر المقال: Biological Institute’s Groundbreaking Peer – Reviewed Science Has Now Demonstrated the Implausibility of Evolving New Proteins

على الرابط:

https://evolutionnews.org/2015/01/biologic_instit_1/

The Evolutionary Accessibility of New Enzyme Functions:

A Case Study from the Biotin Pathway

The Evolutionary Accessibility of New Enzyme Functions:

A Case Study from the Biotin Pathway

وفيه إحالات للأبحاث المحكّمة التي قدَّمها هذان العالمان عن هذا الأمر.

عجز الإنسانُ عن مجاراتها في الطبيعة إذا كانت الطفراتُ العشوائية فعلًا بلا حكمة ولا خطة. وكانت الطبيعةُ تسيرُ في عَماء؟ كيف يتفوَّق العمل العشوائي - وإن سانده الانتخابُ الطبيعي الذي يعمل كمصْفاة على الاجتهاد والجدِّ البشريَّين؟

ومِن الأمثلة على هذا الباب: ما نلاحظُه من ألياف بصرية في الطبيعة، وما اخترعه الإنسانُ من ألياف بصرية. تعمل هذه الأليافُ على إرسال الضوء على مدى طولها، ويستعملُها الإنسان في تواصلِ الإنترنت، ورغم أنَّ المصنوع منها نتاج عبقرية بشرية عالية، وجهدٌ معملي شاقٌّ، إلّا أن الإنسان قد اكتشف أن الألياف البصرية في الإسفنجة البحرية (Venus’ flower basket) أعظم صنعًا؛ فأليافها أدقُّ من الألياف المصنَّعة، وليونتها أشدّ، وتفاعلها مع البيئة أعظم، حتى قال أحدُ العلماء في جامعة (أرجن) بأمريكا: «إنها مثالٌ رائع لبيان كيف أنَّ الطبيعة الرائعة مصمّمة وبانية لأنظمة معقَّدة»، وقال عالمٌ آخر في الشأنِ نفسه: «إنَّنا في العصر الحجري مقارنة بالطبيعة»»[1].

- **النُّقطةُ الثّالثة: الانتخابُ الطبيعي:**

المرادُ بالانتخاب الطبيعي هو بقاءُ الكائن الأمثل في بيئته التي يعيش فيها على الحياة. وهو أهمُّ آلية تطوُّرية في نظرية داروين. والاسمُ الطويل الأصلي بكتاب داروين: أصلُ الأنواع هو: « أصلُ الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي - أو بقاء الأعراق المفضَّلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة»: (On the Origin of Species by Means of Natural Selection, or the Preservation of Favored Races in the Struggle for Life). ويكثر ريتشارد دوكينز مِن الحديث عنْ هذه الآلة. وقد قام الباحث بسرْد كتابه: «أعظمُ استعراض في التاريخ: الدليل للتطوّر» (The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution) عن طريق محرِّك، فوجد أنَّه ذكر كلمة: الانتخاب الطبيعي حوالي ١٥٠ مرة! فلا شكَّ أنَّ هذه الآلة مهمَّة جدًّا عند التطوُّريين. وهذا الكتاب من أهمِّ كتب التطوّرين المعاصرين لبيان الأدلَّة المزعومة على نظرية التطوُّر. وقد ردَّ عليه الدكتور جونثان سارفاتي في كتاب سماه: «أعظمُ خدعة في

---

(١) براهين وجود الله (٥٣٢).

التاريخ؟ تفنيد دوكينز عن التطوّر» (The Greatest Hoax on Earth? Refuting Dawkins on Evolution) في ٣٣٨ صفحة. وحيث إنّ دوكينز أكثر من الاستدلالِ بالانتخاب الطبيعي، والدكتور سارفاتي خصَّص كتابه للردِّ عليه، فسأكثر من الاستشهادِ بهذا الكتاب، معَ إضافات أخرى. وأكتفي بذكر خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: قبلَ الخوض في الردِّ لا بدَّ من تحديد موطن الخلاف بين التطوّريين والقائلين بالخلق. وقد بيَّن الدكتور جونثان سارفاتي ذلك في ردِّه على دوكينز إذ قال: «حاولَ دوكينز خلالَ جزءٍ كبير من كتابه أن يستدلّ على أنَّ الانتخاب الطبيعي حقيقة بذكرِ تجارب عديدة. ولكنَّ أنصارَ مذهب الخلق عرفوا ذلك حتى قبل داروين، وكذلك يعرفه أنصارُه المتعلِّمون اليوم. فدوكينز يضرب الرجل القش»[1].

فلا إشكالَ في بقاء الكائن الأمثل في بيئته على الحياة؛ فالكائن الأسرع مؤهَّل لأن يبقى نسلُه على خلافِ الكائن الذي يسهل على الضواري اقتناصُه، وهكذا. فهذا ليس موطنَ الخلاف أصلًا، وإنَّما يرتكب دوكينز - ومَن معه - مغالطة الرجل القش. ولكنَّ محلَّ الخلاف في كون الانتخاب الطبيعي آليةً عمياء قادرة على إخراج حي إلى الوجود، أو أن تزيدَ في رصيده على المستوى الجيني[٢].

الوجهُ الثّاني: في تحديدِ وظيفة الانتخاب الطبيعي الحقيقية. ذكر الدكتور جونثان سارفاتي أنَّ الانتخاب الطبيعي لا يخلق شيئًا جديدًا، وإنما يختار من الموجود. وبالتالي فلا يقدِّم دليلًا عن حصول التطوُّر، وإنَّما يعمل في إبعاد الجينات غير المناسبة. وأمّا داروين فزعم أنَّ الانتخاب الطبيعي هو آلة خالقة، وهي ليست كذلك[٣].

وقد اجتمع ستَّة عشر عالمًا من كبارِ البيولوجيين التطوُّريين عام ٢٠٠٨م لمناقشة قضايا التطوُّر، واعترفوا في هذا الاجتماع أنَّ آلية الانتخاب الطبيعي جيدة بصورة

---

(1) The Greatest Hoax on Earth? Refuting Dawkins on Evolution (41)

(٢) انظر: براهين وجود الله (٥٣٥).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٢).

واضحةٍ في صياغة بقاءِ الأصلح، ولكنها ليست كذلك في صياغة ظهور الأصلح[1]. فالتطوُّريون المعاصرون الكبار يعترفونَ بهذه الحقيقة. ولهذا كانت غاية الانتخاب الطبيعي في تفسير بقاء الأمثل لا ظهوره[2].

الوجهُ الثّالث: سبق ذكرُ أنَّ نظرية داروين تستلزم أنَّ التطوّر يقع تدريجيًّا بشكل بطيء جدًّا. وذكرَ الدكتور جونثان سارفاتي أنه كلَّما كان التطوّر أصغر كانت فائدته أقل. وآليةُ الانتخاب الطبيعي هي: البقاءُ للأصلح. وهذه التغييرات الطفيفة قد لا تكون سببًا لبقاءِ الحيوان. فقد تعْدو الغزالة بسرعة حتَّى لا تتنبه أنها تأتي أمام أسد، بينما تستطيع الغزالة أقلُّ سرعةً الفرار لأسباب أخرى، وهكذا[3].

الوجهُ الرّابع: التطوُّر الكبروي يستلزم وقوعَ عددٍ كبير من الطفرات - كما سبق ذكرُه -. وأنَّ تطوّرَ إنزيم إلى نوع آخر يستلزم وجودَ سبع طفرات. وذكر الدكتور جونثان سارفاتي أنه قد دلَّ البحثُ العلمي أنَّ الانتخاب الطبيعي يمكن أن يعمل بطريقة جيِّدة معَ طفرةٍ واحدة، ولكنه دلَّ أيضًا أنه إذا تطلَّب التغييرُ طفرتين فإنه صعب جدًّا. وأما أكثرُ من طفرتين فإنّه مستحيل[4].

الوجهُ الخامس: أنَّ الملاحدة يرتكبون مغالطةً منطقية عند حديثهم عن الانتخاب الطبيعي. وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي هذه القضيةَ إذ قال: «"ابتكر التطوّر سبيلًا لتجنُّب هذه المشاكل"». لقد سمعتُ عددًا من التطوّريين يقولون عبارات مشابهة لهذه الجُملة في محاولةٍ لتفسير وجودِ بعض النظم البيولوجية فائقة التصميم. ولكن من المؤكد أنَّ التطوُّر مفهومٌ ليس له عقل، ولا يمكنه أن يحلَّ أيَّ مشكلة. وهذا المثال أيضًا يخفي صعوبةَ تفسير وجودِ التصميم في الكون دونَ اعتماد على العقل كوسيلة.

---

(١) انظر:

Biological theory: Postmodern evolution? Nature, 455:284, (September 17, 2008)

(٢) انظر: براهين وجود الله (٥٣٣).

(٣) انظر: The Greatest Hoax on Earth? Refuting Dawkins on Evolution (50)

(٤) انظر: المصدر السابق (٥٩).

فهذا استعمال مُغالطة التجسيد لمفهوم مجرَّد؛ بل عبارة الانتخاب الطبيعي نموذج عن تجسيد المجرّدات، ويمكن اعتبارُها مغالطةً إنِ استعملت في حوار، إذْ ليس بمقدور الطبيعة أن تنتخب بالمعنى الحرفي. وينتشر استعمالُ هذا التعبير لدرجةِ أن لا نسمِّيها مغالطة بشرط أن يفهم المعنى من قِبَل الجميع. نحن نؤمنُ بالمفهوم الذي اسمه «الانتخاب الطبيعي». هذا المفهومُ صحيح؛ فالكائناتُ جيِّدة التلاؤم معَ بيئة ما لها احتمال أكبر للبقاء من تلك غيرِ المتلائمة جيّدًا. (هذا صحيحٌ تمامًا، وهو ما يعتقده كلٌّ من أنصار التطوّر وأنصارِ الخلق) لكن، لنفترضَ أنَّنا طرحْنا سؤالًا: «لماذا تتلاءم الحيواناتُ تمامًا مع بيئتها؟». فإنْ أجاب التطوُّري بقوله: «الانتخاب الطبيعي»، فهذه مغالطةُ تجسيد المجرّدات. فإنه بطريقةٍ شعرية يحجب السببَ الحقيقي لكوْن الحيوانات مصمَّمة للبقاء - وهو الله. إنْ تأمّلَ المرء مليًّا في هذا الأمر سيجد أنَّ الاصطفاءَ الطبيعي لا يفسِّر حقيقة سبب وجود كائنات مُتلائمة معَ بيئتها. فهو يفسِّر فقط: لماذا لا نجدُ كائنات غير متلائمة مع بيئتها (السبب أنَّها ستموت). فالله - وليست «الطبيعة» - هو الذي أعطى الكائنات الحيةَ القدراتِ التي تحتاجها للبقاء[1].

وبهذه الأوْجه الخمسة يتبيَّن أنَّه يوجد شيء اسمه: الانتخاب الطبيعي، ولكنه ليس آلةً خالقة، ولا تقدِّم التطوُّر المزعوم إلى الأمام. وهذا الانتخاب إنما يحصل بإرادة الخالق - تبارك وتعالى - وليس كما يزعم الملاحدة التطوّريون - تعالى اللهُ عمّا يقولون علوًّا كبيرًا -.

ويدرك بعضُ الملاحدة ضعفَ آلية الانتخاب الطبيعي، ولكن لكون ذلك يهدِّد أهمَّ نظرية لديهم فإنهم يخفونَ ذلك عن عامَّة الناس. ومما يدلُّ على ذلك ما ذكره الملحدان البروفسور جري فودور[2] والبروفسور ماسيمو بياتلّي[3] في كتابيهما: «ما

---

(1) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 12

(٢) جري فودور (Jerry Fodor): بروفسور الفلسفة الأمريكي، ويعتبر أحد أهمِّ فلاسفة الوعي في القرنين العشرين والواحد والعشرين. توفي عام: ٢٠١٧م. انظر:
https://iep.utm.edu/fodor/

(٣) ماسيمو بياتلّي (Massimo Piatelli): بروفسور اللسانيات والعلوم المعرفية في جامعة أريزونا بالولايات المتَّحدة. انظر: https: / /massimo.sbs.arizona.edu/

الذي أخطأ فيه داروين؟» (What Darwin Got Wrong?) إذ قالا: «لقد قيل لنا من طرف أكثر مِن واحد مِن زملائنا: إنَّه حتى ولو كان داروين مخطئًا إلى حدٍّ كبير في زعمه: أن الانتخاب الطبيعي آلة التطوّر، فإنَّه ينبغي مع ذلك ألا نصرِّح بذلك، ولا بأي صورة أمام الجمهور. إنَّنا إنْ فعلنا ذلك، فسنصطف - وإن كان بغير قصد - مع قوى الظلام [يقصدان بهم: أنصار مذهب الخلق والتصميم الذكي] التي تهدف إلى القضاء على العلم»[1].

وقد تبيَّن مِن هذه النقاط الثلاث أنَّ أسسَ نظرية التطوّر أسس هشَّةٌ وضعيفة وهَزيلة. ورغمَ ذلك يتمسَّك الملاحدة بها تمسكًا يفوق تمسُّكهم بأي نظرية أخرى. وهم يعرفونَ حقَّ المعرفة أنه لو سقطتْ هذه النظرية، فيلزمهم الإقرارُ بوجود الخالق. وهذا ما لا يريدونه، وبالتالي فإنهم يعاندون ويكابرون.

- **الفقرةُ الخامسة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على نظرية التطوّر:**

ردودُ علماء الغرب على نظرية التطوّر كثيرة جدًّا، ويمكن أن يستفاد منها استفادةً كبيرة. ولكنَّ علماءَ الغرب الرادِّين على الملاحدة أصنافٌ شتى. منهم مَن يسلِّم بنظرية التطوّر بأكملها معَ الإقرار بوجود الخالق مثل القائلين بالتطوّر الإلهي (Theistic evolution)[2].

ومنهم مَن يرفض أنَّ آليات التطوّر عشوائية، وأنَّ التصميم في الكائنات الحيّة يدلُّ على وجود مصمِّم. وهُم القائلون بمذهب التصميم الذكي. وهؤلاء لا يحدّدون مَن هو هذا المصمِّم الذكي، ولا يلتزمون بنصوص كتاب النصارى المقدّس في الخلق - كما سبق مرارًا -. ولهذا كان منهم مَن يقبلُ بكثير من مبادئ نظرية التطوّر، ولكنهم يرون أنَّ هذه النَّظرية قاصرة في تفسير جميع مظاهر الإتقان والإحكام[3].

---

(1) What Darwin Got Wrong (XX), by: Jerry Fodor and Massimo Piattelli-Palmarini, (Farrar, Straus and Giroux, 2010)

(٢) وعلى رأس القائلين بذلك: فرانسيس كولنز - مدير المعاهد الصحية الأمريكية وأحد أشهر علماء الأحياء -. وقد قدَّم رؤيته هذه في كتابه: لغة الإله (Language of God).

(٣) وعلى رأس هؤلاء: البروفسور ميكل بيهي.

ومنهم مَن يتقيَّد بنصوص كتاب النصارى المقدَّس، ويرون أنَّ النصوص تدلُّ على أنَّ الأرض ٦٠٠٠ سنة، وأنَّ الله خلق جميع الكائنات بخلق خاص. ومع ذلك يثبتون إمكانيةَ حصول طفراتٍ نافعة، وأنَّ الانتخاب الطبيعي له أثرٌ في بقاء الأصلح من الكائنات الحيّة.

فأيُّ مذهب من هذه المذاهب أقرب إلى الصواب؟

لا شكَّ في بطلان المذهب الأوّل، وأنَّ التسليم بنظرية التطوّر يتناقض مع نصوص الكتاب والسنَّة الدالَّة على أنَّ الله وحده الخالقُ والقادر على كلِّ شيء، إضافة إلى مخالفتِها للنصوص الدالة أنَّ الله خلق آدم ﷺ خلقًا خاصًّا - أيْ أنه خلقه بيده -، وأنه ليسَ بمتطوّر من سلفٍ مشترك مع القرد.

وأنصارُ المذهب الثاني قد قدَّموا ردودًا جيّدة في نقد نظرية التطوّر. ولكن كونهم لا يحدِّدون المصمِّم الذكي قد يفتح البابَ أمام المذهب الربوبي وغيره من المذاهب الباطلة. فنحنُ المسلمين نعلم مَن هو خالقنا بأسمائه وصفاته، كما أننا لا نسمِّيه بالمصمم الذكي.

وأنصارُ المذهب الثالث أقوى تمسُّكًا بالاعتقاد بوجود خالق عليم حكيم خلقَ هذه المخلوقات بعلمٍ وحكمة. ولكنْ يعيبهم أنهم التزموا نصوصَ كتابهم المقدّس، وهو كتاب محرَّف، فلا يبعد أنَّ النصوص التي تتحدّث عن عُمر الأرض من ضمن هذه التحريفات - كما سيأتي بيانُه في مبحث خاص عن تاريخ الأرض -.

فالظاهر أنَّ الإسلام أقربُ إلى المذهب الثالث، معَ الالتزام بنصوص الوحيين دون التقيُّد بنصوص كتابهم المقدَّس.

وأمَّا بخصوص الأسس الثلاثة لنظرية التطوُّر، فلا شكَّ أنَّ الطفرات في الجينات لا تقعُ بشكل عشوائي، كما أنَّ الطبيعة لا تنتخب شيئًا بنفسها؛ فكلّ ذلك يقع بعلم الله، وقدرته، وحكمتِه، ومشيئته. وأمّا ما يتعلَّق بالسلف المشترك العالمي، فلا شكَّ في بطلان تطوُّر الإنسان من البكتيريا الأولى، بل الله خلقَ آدم u وزوجته خلقًا خاصًّا، وجميع الناس مِن ذريتهما. فهذا ما يدلُّ عليه الوحي القطعي.

وأمَّا بقية الكائنات، فهل من الممكن أنَّ كائنًا حيًّا يتطوّر بقدرة الله ومشيئته من كائنٍ آخر؟ الظاهر أنَّ هذا مِن المسكوت عنه في الوحي، ولا توجد نصوص قطعية تدلُّ على وجود التطوّر أو عدم وجوده.

وبهذا القدْر ينتهي هذا المبحث، وسيأتي المزيدُ من الكلام عن قضايا متعلّقة بنظرية التطوُّر في المبحث الخامس عن التطوّر الكيميائي للحياة، وفي المبحث السابع عن الشُّبهات المتعلِّقة بتاريخ الأرض والإنسان.

المبحثُ الرّابع
ردودُهم على الشُّبهات المتعلقةِ بميكانيكا الكم

تقدَّم الحديثُ في المبحث السابق عن نظرية التطوُّر، وهي نظريةٌ في علم الأحياء. وأمّا في هذا المبحث فسيكون الحديثُ عن ميكانيكا الكم. وقد عرّفت موسوعةُ بريتانيكا هذا العلمَ بأنه: «العلمُ الذي يتعامل مع سلوك المادة والضوء على نطاق الذرِّي، وما دون الذرّي»[١].

وميكانيكا الكم جزءٌ من علم الفيزياء، لكنَّها في الغالب تستنتج نتائجَ غريبةً مخالفة للفيزياء الكلاسيكية. وذلك أنَّ كثيرًا من معادلات الفيزياء الكلاسيكية لا تفيد على مستوى الذرّات والإليكترونات[٢].

ولصعوبةِ هذا العلم وغرابةِ نتائجه في بعض الأحيان استغلّه الملاحدةُ لترويج بعض أفكارهم وطروحاتهم، لا سيَّما فيما يتعلَّق بمبدأ السببية وإمكانية ظهور الجسيمات من لاشيء. ويبْنون على ذلك: إمكانية ظهورِ الكون من العدم. ولكن كان علماءُ الغرب لهم بمرصاد، فكشفوا هذه الشبهاتِ وردُّوا عليها بردودٍ جيِّدة ومفيدة. وهذا العلم فيه شيءٌ من الصعوبة، ولتسهيل فهمِه على القارئ سيتمُّ تقسيمُ هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ ميكانيكا الكم.

الفقرةُ الثّانية: شبهاتُ الملاحدة المتعلّقة بميكانيكا الكم.

---

(١) Encyclopedia Britannica, Quantum Mechanics، وهو موجود على الرابط:
https: / /www.britannica.com /science /quantum – mechanics – physics

(٢) انظر المقال: What is Quantum Mechanics?، وهو موجود على الرابط:
https://www.livescience.com/33816 - quantum - mechanics - explanation.html

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على الشبهات المتعلّقة بميكانيكا الكم.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلّقة بميكانيكا الكم.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ ميكانيكا الكم[1]:

وسيتمُّ تقسيمُ هذا القسم إلى قسمين:

- **القسمُ الأوَّل: علمُ الفيزياء قبل ميكانيكا الكم:**

يؤرّخ كثيرٌ من العلماء لبدايةِ عصر العلم الحديث بدءًا من القرن السادس عشر؛ بنظريةِ مركزية الشمس التي قدَّمها نيوكلاس كوبرنيكس. ثمَّ طوّر جوهانس كيبلر وغاليليو هذه الأفكار، إلى أنْ جاء إسحاق نيوتن في أواخر القرن السابع عشر وفسَّر الكواكبَ بنوعين من القوانين[2]:

النوعُ الأوَّل: قوانينُ الحركة الثلاثة.

النوعُ الثّاني: قانونُ الجاذبية.

---

(١) أغلب هذا القسم ملخّص من كتاب: **Quantum Physics – Illusion or Reality**, لأليتسر راي – بروفسور الفيزياء من جامعة برمنغهام –. وهذا الكتاب يعتبر أحدَ أشهر الكتب في ميكانيكا الكم منذ ٢٥ سنة، ويصدر من فترة إلى أخرى بطبعات معدّلة.

انظر:

https://www.amazon.com/Quantum-Mechanics-Fifth-Alastair-Rae/dp/1584889705

وقد قام مركز براهين بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية، وستتمُّ الإحالةُ إلى تلك النسخة المترجمة.

(٢) قد سبق الحديثُ عن قوانين الفيزياء في المبحث الثاني من هذا الفصل. ولكن لكي تتسلسل الأفكار إلى ظهور نظريات ميكانيكا الكم في هذا المبحث تتمّ إعادة ذكر بعض ما يتعلّق بذلك هنا.

وأوضحتْ نظرياتُ نيوتن أهميةَ الرياضيات في فهم الفيزياء، حيث يمكن صياغةُ قوانين الطبيعة في صورةِ كميَّات رياضية لاستنتاج تفاصيل الحركة في الأنظمة الفيزيائية. واستطاع نيوتن أنْ يفسِّر حركاتِ القمر والكواكب بما يتَّسق مع قوانينه.

وامتدَّ هذا المنهجُ الرياضي الموضوعي في دراسة ظواهر الطبيعة إلى مجالات علمية متعدِّدة. وقد أظهرَ جيمس ماكويل في القرن التاسع عشر أنّ كل ما كان معلومًا في المجالات الكهربائية والمغناطيسية في ذلك الوقت يمكن استنتاجُه باستخدام عددٍ قليل من المعادلات. وقد عُرفتْ هذه المعادلات لاحقًا باسْم: معادلات ماكسويل (Maxwell's Equations). وقد توصّل إلى أنَّ الموجات الكهرومغناطيسية تتكوّن من مجالَيْن: مجال كهربائي وآخر مغناطيسي؛ ينتشران بسرعة الضوء. واستنتج من ذلك أنَّ موجاتِ الضوء نفسَها ما هي إلّا إحدى تلك الموجات الكهرومغناطيسية ولا تختلف عنْ بقيتها مثل: موجات الراديو، والأشعة تحت الحمراء، إلا في طولها الموجي وتردّدها.

وبدَا للعلماء في ذلك الوقت أنَّ جميعَ الظواهر الفيزيائية محكومة بميكانيكا نيوتن وكهرومغناطيسية ماكسويل. ورأى العلماءُ في ذلك الوقت أنَّ الكون محكوم بهذه القوانين الصارمة، وأنَّه يمكن التنبؤ بالمستقبل بمعرفة حالة النظام الحالي. وهذا هو المعروفُ بمبدأ الحتمية (Determinism)، الذي ينصّ على أنّ مستقبل الكون محكومٌ بصرامة القوانين الفيزيائية.

وعلى الرغم مِن أنّ كثيرًا من الظواهر الفيزيائية كانت غير مفهومة على وجه التَّفصيل في نهاية القرن التاسع عشر إلا أنّ معظم الفيزيائيين كانوا يعتقدون أنّه لا مزيدَ على القوانين الأساسية للطبيعة، واعتقدوا أنَّ الكون محكوم بقوانين حتمية. وذلك إلى أنْ ظهرت نظرياتُ ميكانيكا الكم في بداية القرن العشرين[١].

---

(١) ما سبق ذكره ملخّص من كتاب: فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال؟ (٢٤ - ٢٧)، لألستر راي، (مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، ٢٠١٦ م. ترجمة: أسامة عباس).

- **القسمُ الثّاني: ظهورُ نظريات ميكانيكا الكم:**

أطاحتِ الثورةُ العلمية في بداية القرن العشرين بفكرتين أساسيتين في القرن التاسع عشر، وهما: أنه لا مزيدَ على القوانين الطبيعية الأساسية، ومبدأ الحتمية. وذلك خلال نظرياتِ ميكانيكا الكم بعد دراسةِ ظواهر الإشعاع الكهرومغناطيسي.

وكان البروفسور ماكس بلانك(١) أوّلَ مَن قدّم نظرية في ميكانيكا الكم في عام ١٩٠٠م، ثمَّ توالت النظريات بعد ذلك(٢).

وبينما كانت النظرةُ الكلاسيكية تعتمدُ على مفاهيم الجسيمات(٣) (Particles) والقوى(٤) (Forces) والمجالات(٥) (Fields) التي تتفاعل معًا طبقًا لقوانين معلومة، فإنَّ ميكانيكا الكم؛ وفقًا للتفسيرات السائدة، لا تتبنَّى مثل هذه التفسيرات الأنطولوجية. تخبرُنا ميكانيكا الكمِّ على سبيل المثال أنَّ فعل القياس والرصد يؤدّي غالبًا إلى تغيير عميقٍ في حالة الشيء المرصود، وأنَّ الصفات التي يُحتمل أن يتّصف بها ذلك الشيء ربَّما تعتمد على ما يجري قياسُه بالفعل. ونتيجةً لذلك أصبحت صفاتُ النظام الفيزيائي المعيَّن وخصائصه المحدّدة (كموضع جسيم متحرّك أو سرعته) تسمى: قابلة للرصد (Observable)، في إشارةٍ إلى أنَّ هذه الصفات المعينة تستمدّ واقعيتها من عملية الرصد أو القياس. وهذا ما جعل بعضَ مَن اشتغل

---

(١) ماكس بلانك (Max Planck): بروفسور الفيزياء الألماني، وقد اخترع نظرية الكم وحصل بسببه على جائزة نوبل عام: ١٩١٨م. توفي عام: ١٩٤٧م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Max-Planck

(٢) انظر المقال الذي سبقت الإشارةُ إليه: ?What is Quantum Mechanics

(٣) جسيم (Particle): أحد مكونات المادة الصغيرة للغاية، مثل الذرة أو النواة. انظر:
https://www.dictionary.com/browse/particle

(٤) قوة (Force): أي عمل من شأنه أن يحافظ على حركة الجسم أو يغيرها أو يشوهِّها. انظر:
https://www.britannica.com/science/force-physics

(٥) مجال (Field): منطقة تتأثر فيها كلُّ نقطة بسبب قوة. انظر:
https://www.britannica.com/science/field-physics

بهذا العلم يعتقد أن الحقيقة الوحيدة هي العقل البشري؛ وأنَّ بقية الأشياء - بما في ذلك الكون بأكمله - مجرّد وهم[١].

هناك مفهومٌ آخر مهمٌّ في هذا المقام لا بدَّ من التنبيه عليه، وهو الثنائية الموجية الجسيمة (Wave - Particle Duality). وهي تعتبر إحدى الخصائص العامة في ميكانيكا الكم، ويمكن تلخيصها بأنَّ النموذج الذي سيستخدم لوصف النظام الفيزيائي يعتمد على الأجهزة التي سترصدُ ذلك النظام. ومن الأمثلة على ذلك أنّ شعاع الضوء يتصرَّف كموجةٍ عند مروره من الشقِّ المزدوج، لكنه سيتصرّف كتيار من الفوتونات[٢] عندما يصطدم بالكاشف أو الفيلم الفوتوغرافي.

ومِن التبعات التي ترتَّبت على الثنائية الموجية الجسمية أنها وضعت حدودًا لقدر المعلومات التي يمكن معرفتُها عن النظام الكمّي في وقت واحد. فإما أن نختار رصدَ الخصائص الموجية للضوء عن طريق تمريرِه عبرَ الشاشة ذات الشقين بدون أي رصد لمرور الفوتونات من أحدهما، أو أن نختار رصدَ تلك الفوتونات وهي تمرُّ من أحد الشقين. ومن غيرِ الممكن أن نقوم بالشيئين معًا في الوقت نفسه. وكان فيرنر هايزنبيرغ[٣] ممن لاحظ هذا الأمرَ، وصاغ مبدأً عُرف بعد ذلك بمبدأ اللاحتمية (The Uncertainty Principle)[٤].

---

(١) انظر: فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال؟ (٢٧).

(٢) الفتون (Photon): جسيم يمثل كميةً من الضوء أو إشعاع كهرومغناطيسي آخر.
انظر: https: / /www.lexico.com /definition /photon

(٣) فيرنر هايزنبيرغ (Werner Heisenberg): عالم الفيزياء والفيلسوف الألماني، وقد حصل على جائزة نوبل عام ١٩٣٢م. لمساهماته في ميكانيكا الكم. توفي عام: ١٩٧٦م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Werner-Heisenberg

(٤) انظر: فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال؟ (٣٦ - ٣٧).
وعلّق مترجم كتاب: (فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال) على ترجمة هذا المبدأ إلى اللغة العربية بقوله: «هناك عدةُ ترجمات لمصطلح «The Uncertainty Principle»، منها: «مبدأ عدم اليقين»، أو «اللايقين»، و«مبدأ اللاتعيين»، و«مبدأ الريبة» أو «مبدأ الشكّ»؛ لكنني اخترت أقربها للمعنى الذي ترجَّح عندي - بعد تأمُّل طويل - أنَّ «هايزنبيرغ» أراده. وكثير من الخلاف الدائر في الأدبيات العربية حولَ هذا المبدأ الثابت إنما يرجع إلى الخلل في فهمه بسبب سوء تلقِّيهم للترجمة». حاشية فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال؟ (٣٧).

وأدَّى مبدأ اللاحتمية إلى تأثيرٍ عميق في نظرة علماء الفيزياء إلى القياسات والتجارب العلمية. وقد لوحظ منذ فترة طويلة أنَّ هناك تقييدات عملية تحدّد دقة أي عملية قياس؛ ولكن لم يكنْ هناك من الناحية النظرية - قبل ميكانيكا الكم - ما يمنع من الوصول إلى الدقَّة المطلوبة معَ تحسين تقنيات القياس. وعلى الرغم من أن مبدأ اللاحتميَّة يتعلَّق بقدرتنا على التنبؤ بنتائج التجارب والقياسات المتتالية؛ إلا أنه يضع أيضًا من الناحية العملية قيودًا أساسية على دقَّة قياس كميتين فيزيائيتين معًا في الوقت نفسه؛ مثل موضع الفوتون وكمية حركته[١].

ومِن الظواهر في العالم الكمّي: ظهورُ جسيمات افتراضية كتذبذبات عفوية للطاقة الموجودة في الفراغ تحتَ الذرّي. وقد اختلف علماءُ الفيزياء في هذه الظاهرة إلى عشرات التفسيرات، منها: «تفسير كوبنهاغن» (Copenhagen interpretation) الذي يميل إلى القول باللاحتمية. وظهرَ هذا التفسير في العشرينيات من القرن الماضي على يد عددٍ من العلماء، ومِن أشهرهم: نيلز بور[٢]. وقد عارضه ألبرت أينشتاين بشدّة، ويقول مقولتَه المشهورة: «إنَّ الخالق لا يلعب بالنرد»، فيعارضه نيلز بور بقوله: «لا تخبر الخالق بما يجب عليه أن يفعل»[٣]، - ونعوذ بالله ونبرأ إلى الله مِن سوء أدبهم معَ الله جلَّ في عُلاه -.

كما ظهرتْ تفسيراتٌ أخرى في الخمسينيات من القرن المنصرم مثل: تفسير دافيد بوم[٤] - عالم الفيزياء الأمريكي -. ويرى هذا التفسير أنَّ لنشأة هذه الجزيئات الافتراضية أسبابًا ضمنَ آليات قانونية مستقرَّة تعود إلى أسباب أوّلية، ولهذا فإنّه يعارض القول باللاحتمية[٥].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣٩ - ٤٠).

(٢) نيلز بور (Niels Bohr): عالم الفيزياء الدنماركي، ويعتبر من أعظم علماء ميكانيكا الكم. توفي عام: ١٩٦٢م. انظر: www.britannica.com /biography /Niels - Bohr

(٣) انظر: فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال؟ (١٠٦ - ١٠٧).

(٤) ديفيد بوم (David Bohm): بروفسور الفيزياء النظرية الأمريكي البريطاني، ويعتبر أحد أشهر علماء ميكانيكا الكم في العصر الحديث. توفي عام: ١٩٩٢م. انظر: www.britannica.com/biography/David-Bohm

(٥) انظر: فمن خلق الله؟ (٤٧ - ٤٩).

والجدلُ بين أنصار تفسير كوبنهاغن اللاحتمي وتفسير بوم مازال مستمرًّا إلى هذا العصر، والمسألة عندهم بينَ أخذ وردّ[1]. وسيأتي مزيدٌ من التفصيل في ذلك في ردودِ العلماء على تفسير كوبنهاغن - بإذن الله -.

الفقرةُ الثّانية: استدلالُ الملاحدة بميكانيكا الكم:

استغلَّ الملاحدة بعضَ الظواهر المرصودة في عالم الكمّ لصالحهم. وهذه الشبهاتُ متعدّدة، إلا أنَّ أخطرها ما تتعلّق بالإيمان بالله مباشرة؛ هما شبهتان[2]:

الشُّبهةُ الأولى: أنَّ ميكانيكا الكمّ قد هدمتْ مبدأ السببية، فيرى الملاحدة أنّه ليسَ في عالم الكمّ سببية، وإنَّما هناك عشوائية تامة. وقد تقدّم أنّ مبدأ السببية موجود في بعض مقدِّمات الأدلة العقلية على وجود الله، مثل: البرهان الكوني.

الشُّبهةُ الثّانية: أنَّ جُسيمات افتراضية يمكن أن تخرج من العدم، وتقترض طاقة من المستقبل بانتهاكها لقانونِ حفظ الطاقة لفترة قصيرة، فتكتسب طاقةً من لاشيء، وقد نشأ الكون من هذا الفراغ بهذه الطريقة - كما سيأتي تفصيلُه -.

وإنْ كان عددٌ من الملاحدة يستدلّون بهذه الشبهات منذُ فترة على إلحادهم، إلا أنَّ أشهرَ مُلحد من حركة الإلحاد الجديد استدلَّ بهذه الشبهات هو: لورانس كراوس في كتابه: «كون من لاشيء» (A Universe from nothing). وقد صدر هذا الكتاب في عام ٢٠١٢م، وكتبَ ريتشارد دوكينز خاتمة للكتاب، وساوى بين أهميته للمذهب الإلحادي وبينَ كتاب: أصل الإنسان لداروين[3]. فهذا الكتاب له أهميتُه الخاصَّة لدى ملاحدة الإلحاد الجديد.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥٠ - ٥١).

(٢) وقد سردَ الدكتور أحمد إبراهيم ١٨ شبهة في كتابه: اختراق عقل (٦٧ - ٦٩)، ولكن بين بعض هذه الشُّبهات تداخل، وبعضها ليس لها علاقة مباشرة بالإيمان بالله. وكذلك لا يمكن استيعابُ كلِّ ما ورد في هذا الباب في مبحث واحد. ولهذا تمَّ التركيزُ على هذه الشبهات المذكورة في هذا المبحث فقط.

(٣) انظر: A Universe from Nothing (186), by: Laurence Krauss, (Free Press, 2012)

إضافةً إلى أنَّ لوارنس كراوس أقام مناظرات عما تتعلّق بهذه الشبهات مع البروفسور وليام لاين كرايغ أكثرَ من مرَّة[١]، وكذلك أقام مناظرةً مع الداعية الإسلامي حمزة تسورتز[٢].

الفقرةُ الثّالثة:
ردودُ علماء الغرب على الشبهات المتعلّقة بميكانيكا الكم:

قد ردَّ علماءُ الغرب على الشُّبهات المتعلّقة بميكانيكا الكمّ بعدد من الردود الجيّدة. وسيتمُّ تقسيمُ ردودهم حسب الشبهتين:

- **أوَّلًا: ردودُهم على الشبهةِ الأولى: أنَّ ميكانيكا الكمّ قد هدمت مبدأ السببية:**

لا شكَّ أنَّ مبدأ السببية مِن المبادئ العقلية الفطرية التي لا يمكن أن ينكرها إلّا جاحد. ومَن أنكر السببية فإنّه يطعنُ في العقل نفسِه. وقد قرّر ابنُ رشد هذه المسألة إذ قال: «والعقلُ ليس هو شيء أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابه، وبه يفترق من سائر القوى المدركة، فمَن رفع الأسباب فقد رفعَ العقل... والمعرفةُ بتلك المسببات لا تكون على التمام إلّا بمعرفة أسبابها، فرفعُ هذه الأشياء هو مبطلٌ للعلم، ورفع له، فإنه يلزم ألا يكون ها هنا شيء معلومٌ أصلًا عمليًّا حقيقيًّا، بل إنْ كان فمظنون، ولا يكون ها هنا برهان، ولا حدٌّ أصلًا... ومَن يضع أنه ولا علم واحد ضروري، يلزمه أن لا يكون قوله هذا ضروريًّا»[٣].

والملاحدةُ يدركون هذا الأمر جيّدًا، ولهذا يحثُّون الناسَ على عدم قبول مبادئ العقل المعروفة، والرجوعُ إلى العلم التجريبي في كشف الحقائق. ومن الشواهد على

---

(١) انظر مناظرة: Life, The Universe and Nothing, وهو موجود على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=mj4nbL53I-E
ومناظر: Is it Reasonable to Believe in God, وهو موجود على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=7xcgjtps5ks

(٢) انظر: Islam Vs Atheism Debate, وهو موجود على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=uSwJuOPG4FI

(٣) تهافت التهافت (٧٨٥).

ذلك أنّه لما وقعتِ المناظرة بينَ لوارنس كراوس ووليام لاين كرايغ، فتح كراوس البدلة التي لبسها وأظهرَ للجمهور الفانيلا الذي تحته، ومكتوب عليه: ٢ + ٢ = ٥. وذكر أنّ هذا الأمرَ غيرُ ممكن في مبادئ العقل ويخالفُ المنطق التقليدي، ولكنه ممكن في العلم التجريبي إذا كان لرقم ٢ قيمة عالية جدًّا[١].

وهذا الكلامُ في الحقيقة ليس سوى سفسطة، وقد ردَّت قناة البروفسور وليام لاين كرايغ على هذا الكلام بأنَّ ٢ + ٢ تساوي ٤ دائمًا وأبدًا، ولكنه يرتقي إلى ٥ إذا كانت ٢,٥ + ٢,٥. بمعنى قيمة عالية من ٢. ولكنَّ هذا ليس محلّ النقاش أصلًا، ولا يخالفُ مبادئ العقل، ولا المنطق التقليدي. فكراوس يراوغ بكلامه هذا فقط[٢].

ويدرك الملاحدةُ أهمية السببية في الاستدلال على وجود الله، ولهذا يسعون بشتى طرقٍ إلى الطعن فيها. وبينما كان ديفيد هيوم في عصر التنوير يطعن فيها من الناحية الفلسفية - كما سبقتِ الإشارة إليه -، فإنَّ الملاحدة المعاصرين يحاولون الطعن فيها من الناحية العلمية. وأدركوا أنَّ ميكانيكا الكمِّ علم عسير لا يكاد يفهمُه إلا المتخصّص، فحاولوا الطعنَ في مبدأ السببية خلال هذا العلم.

فـ«هل هدمتْ ميكانيكا الكم السببية؟ هذه هي الشبهةُ الأشهر والأعمُّ على الإطلاق، والتي يندرج تحتَها معظمُ الشبهات الأخرى التي يشغبُ بها هؤلاء على دليل السببية، وذلك لأنَّ فيزياء الكمِّ من أعقد وأقوى العلوم البشرية فلها سلطانٌ علمي كبير، فلو كان ممكنًا لها أن تعارض السببية فعلًا لكانَ لهذه المعارضة أثرٌ كبير في النفوس. ثمَّ هي مجال مليء بالعجائب التي حارت فيها أنبغ العقول. فلا عجب أن يتمَّ استخدامُها في هذا الغرض المضلل»[٣].

---

(١) انظر المقطع: Laurence Krauss Vs William Lane Craig) 5 = 2 + 2)، وهو موجود على الرابط: https: / /www.youtube.com /watch?v=NOrlIOm٦eGM

(٢) انظر المقطع: Lawrence Krauss Contradicts Himself by Denying Logic, وهو منشور على الرابط: https: / /www.youtube.com/watch?v=so0TOp1GMQE

(٣) اختراق عقل (٧١).

ولكن ما يستدلُّ به الملاحدة من تفسير كوبهاغن لهذه الظواهر غير صحيح؛ فلا يصحُّ الاستدلال به، حيث إنه لا يدلُّ على انتفاء السببية. ونجد في كلام علماء الغرب ردودًا جيّدة على ذلك. وسأكتفي بذكر خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: عالم الكمِّ يحيطه الكثيرُ من الغموض وعدم اليقين. ولهذا نرى أنَّ علماء الفيزياء لديهم اضطرابٌ شديد في قبول تفسيراته أو رفضها، ومن ذلك تفسير اللاحتمية. ومِن عجائب ذلك أنَّ الدكتور جون غريبين قرّر أنّه بإمكان الإنسان أن يفضِّل تفسيرًا في عالم الكمِّ في أوَّل الأسبوع، ثمَّ يرفضه في آخر الأسبوع، ولكنه لا يمكنُ أن يقول الإنسان إنَّ أحدًا من هذه التفسيرات الكمومية يمثّل الحقيقة(١).

الوجهُ الثّاني: قد كان تفسيرُ كوبنهاغن هو التفسيرَ المهيمن لفترة طويلة، ولكن هذا التفسيرُ في تراجع مستمرٍّ عند علماء الفيزياء. وفي عام ٢٠١٣م، قام بعضُ الباحثين بإجراء مسحٍ على ٣٣ عالمًا في فيزياء الكوانتم عن التفسير المفضّل لديهم، وبيَّن المسح أنَّ ٦٣ ٪ فضّلوا تفسير بوم - وهو القول بالحتمية -، بينما لم يفضِّل سوى ٤ ٪ - وهو شخص واحد - تفسير كوبنهاغن(٢).

لا شكَّ أنَّ الحقائق في العلم التجريبي لا يتوصَّل إليها عن طريق التصويت. ولكن أغلب الناس لا يفهمون ميكانيكا الكمّ - بما في ذلك كبير الملاحدة ريتشارد دوكينز كما اعترفَ به في خاتمة كتاب: «كون من لا شيء» - (٣). وإنما يأخذون بهذه التفسيرات بناءً على ما يقوله علماءُ الفنّ. والقائلون بأنَّ ميكانيكا الكمّ هدمت السببية يخالفون مبدأ السَّببية، وهو مبدأ فطري وعلمٌ ضروري. فإذا كان كثيرٌ من علماء الفنّ لا يقبلون هذا التفسيرَ اللاحتمي، فكيف يقبل قولهم في هدمِ هذا الأصل الفطري؟ ومن هنا تبرز فائدةُ إيراد مثل هذا المسح.

---

(١) انظر: Q is for Quantum: An Encyclopedia of Particle Physics (320), by: John Gribbin, (Free Press, 1998)

(٢) انظر: Yet Another Snapshot of Foundational Attitudes Toward Quantum Mechanics, وهو موجود على الرابط: https: / /arxiv.org /abs/1306.4646

(٣) انظر: Universe from Nothing (185)

الوجهُ الثّالث: إضافةً إلى ما سبقَ من الوجهين السابقين، فإنَّ أسسَ تفسير كوبنهاغن نفسها أسسٌ ضعيفة، واستدلالاتهم هشَّة. وقد ذكرت البروفسورة مارا بلر[1] ذلك في ردِّها على هذا التفسير إذ قالت: «ربّما توقَّع الواحدُ منّا أنَّ أنصار تفسير كوبنهاغن يملكون عددًا من الحججِ القوية جدًّا، وإن لم تكن قاطعة للنزاع فهي على الأقلِّ وجيهة جدًّا، ولكنَّ القراءة النَقدية كاشفة أنّ كلّ دعاوى الجزم الواسعة - أو لنقل بعيدة الاحتمال - قائمةٌ على حجج دائرية مضطربة، وتقريرات حدسية جذابة ولكنها خاطئة...»[2].

الوجهُ الرّابع: ما هو السرُّ للقبول الواسع لتفسير كوبنهاغن إذًا؟ هذا يرجع لعدد من الأسباب[3]. ومن ذلك أنَّ نيلز بور - وهو من روّاد التفسير - كان لديه حماس كبير في نشر هذا التفسير في البداية، وكان مِن أشهر العلماء في ذلك الوقت[4]، وقد اتّهمه موراي جيلمان[5] بغسْل دماغ جيلٍ كامل من الفيزيائيين للإيمان بأنّ مشاكل ميكانيكا الكمّ قد تمَّت حلها[6]. فبور كانتْ لديه هيبةٌ كبيرة في نشر هذا العلم العسير

(١) مارا بلّر (Mara Beller): بروفسورة تاريخ العلوم وفلسفتها في الجامعة العبرية، ومتخصّصة في ميكانيكا الكم. توفيت عام: ٢٠٠٤م. انظر:
http://www.complete-review.com/reviews/bellerm/qdialogue.htm

(2) Bohm and the “Inevitability” of acausality, by: Mara Beller, in the book: “Bohmian Mechanics and Quantum Theory: An Appraisal (215), ed. J.T. Cushing, Arthur Fine and S. Goldstein, (Kluwer Academic Publishers, 1996)

(٣) ذكر الدكتور سامي عامري ستة من هذه العوامل في كتابه: فمن خلق الله؟ (٥٣ - ٥٤).

(٤) انظر: Q is for Quantum: An Encyclopedia of Particle Physics (٩٠)

(٥) موراي جيلمان (Murray Gell - Mann): بروفسور الفيزياء في جامعة نيو ميكسيكو بالولايات المتَّحدة، والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام: ١٩٦٩م. توفي عام: ٢٠١٩م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Murray – Gell – Mann

(٦) وذلك في محاضرته لحفلة نبول عام ١٩٧٦. انظر:
The Nature of Physical Universe: The 1976 Nobel Conference, by: Douglas Huff and Omer Prewett (Wiley, 1979)

بين الناس، ولهذا نبَّهت الدكتورة مارا بلر على أنَّ قبول تفسير كوبنهان يرجع إلى ضغوطات اجتماعية أكثرَ من كونه يرجع إلى أسباب علمية[١]. وفي إحصائية عام ٢٠١٣م، اعترفَ ٥٨ ٪ من علماء ميكانيكا الكم المشاركين فيها أنَّ اختيارهم العلمي نابع عن موقفهم الفلسفي الشخصي[٢].

الوجهُ الخامس: تبيَّن مِن الأوجه السابقة أنَّه لا يصحُّ الاعتماد على تفسير كوبنهاغن. ولكنْ على وجه التسليم بهذا التفسير، فإنه يتحدَّث عن اللاحتمية، ولا يلزمُ من القول باللاحتمية: إنكار السببية؛ فبيْن الأمريْن فرْق. وقد بيَّن ماكس بورن[٣] ذلك بقوله: «الحتميةُ تفترض أنَّ الأحداث التي وقعت في أزمنة مختلفة، مرتبطة بواسطة القوانين، وبالتالي فيمكن عملُ تنبؤات في الماضي والمستقبل بمعرفة الحاضر... السببية تفترض أنَّه وفقًا للقوانين يكون حدوث الكيان «ب» الذي ينتمي إلى فئة معينة، مُعتمدًا على حدوث الكيان «أ» الذي ينتمي إلى فئةٍ أخرى. بحيث يكون المقصود بكلمةِ «كيان» هو أيّ شيء فيزيائي أو ظاهرة أو وضع أو حدث. ويسمّى حينها «أ» بالسبب و«ب» بالنتيجة»[٤].

واستخلص أنَّ الفيزياء الحديثة لم تتخلّ عن السببية، وإنّما تخلَّت عن بعض المفاهيم التَّقليدية، وعدَّلت فيها؛ فقال: «القول بأنَّ الفيزياء قد تخلَّت عن السببية هو

---

(١) انظر:

Bohm and the "Inevitability" of acausality, by: Mara Beller, in the book: "Bohmian Mechanics and Quantum Theory: An Appraisal (227)

(٢) انظر:

"A Snapshot of Foundational Attitudes Toward Quantum Mechanics", in Studies in History and Philosophy of Science Part B (222-230), Modern Physics 44 (3)

(٣) ماكس بورن (Max Born): عالم الفيزياء الألماني الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٥٤م. لمساهماته في ميكانيكا الكم. توفي عام: ١٩٧٠م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Max-Born

(4) Natural Philosophy of Cause and Chance (9), by: Max Born, (The Waynflete Lectures, 1948

قول لا أساسَ له من الصحة، صحيح أنَّ الفيزياء الحديثة قد تخلّت عن بعض الأفكار التقليدية وعدَّلت فيها، لكن لو توقَّفت الفيزياء عن البحث عن أسباب الظواهر فلن تصبح حينها علمًا»[١].

فهذه خمسةُ أوجه في الردِّ على استدلال الملاحدة بميكانيكا الكمّ في نفي وجود السببية. وهذا يدلُّ على أنَّ الأصل الذي بنى عليه الملاحدة مذهبهم: قول ضعيف.

- **ثانيًا: ردودُهم على الشُّبهة الثانية: ظهور الكون من لاشيء:**

هذه الشبهةُ فيها شيء من العُسر، فقبْل ذكر الردود فلا بدَّ من فهمها جيّدًا. وحيث إنَّ مصطلحات المتخصِّصين باللغة الإنجليزية فيها دقَّة، وتحتاج إلى تحرير؛ فسوف أوردُ خلاصةَ تقرير الفيزيائي مصطفى نصر قديح[٢] لهذه الشبهة حيث أحسنَ في تلخيصِها باللغة العربية.

الخلاصةُ التي ذكرها كالآتي: يعتقد الخلقيّون أنَّ الله خلق هذا الكون من العدم. وبينما كان الملاحدةُ في السابق يعتقدون أنَّ الكون أزلي تغيَّر موقفهم مع ظهور نظرية الانفجار العظيم، ولكنَّهم حاولوا تفسيرَ ظهور الكون بتفسيرات مادية بحتة. وأوَّلُ خطوةٍ في ذلك هي إعادةُ تعريف كلمة: العدم أو اللاشيء؛ فالعدم واللاشيء في المصطلح الفلسفي المتعارَف عليه بمعنى: عدم الوجود. وأما التعريف المختار عندهم في الفيزياء هو أنَّ العدم هو «الفراغ الكمومي» (Quantum vacuum). وهذا الفراغ الكمومي حالةٌ فيزيائية ذات أقلِّ طاقة ممكنة، وغيرُ محتوية على جسيمات مادية. فهو ليس عدمًا كما تشيرُ إليه الكلمة، وإنما يحتوي بفعل ظاهرة التقلّب الفراغي الكمومي على جُسيمات تأتي إلى الوجودِ لتلبثَ فترة متناهية في الصغر، ثمَّ تذهب. وهذه الجسميات تسمَّى «جسيمات افتراضية» (Virtual particles). وهذه الجسيمات تختلف عن الجسيمات الحقيقية حيث لا يمكن ملاحظتُها بمكتشف الجسيمات، إلا أنه يمكن قياسُ تأثيرها غيرِ المباشر،

---

(١) المصدر السابق (٤).

(٢) مصطفى نصر قديح: عالم الفيزياء المصري، والمتخصِّص في نقد شبهات الملاحدة المتعلّقة بالإلحاد. من مؤلفاته: الصنع المتقن - دلالات فيزيائية على وجود الخالق -.

مثل: تغييرات طفيفة في طاقة مدارات الإليكترون. والجسيمات الافتراضية ذات طاقةٍ سلبية والجسيمات الحقيقية ذات طاقة موجبة.

وبالتالي، فإنَّ الجسيم الذي يزعم الملاحدةُ أنه نشأ من لاشيء لا يمثّل «خلقًا من عدم»، وإنَّما هو انتقالٌ من حال فيزيائي إلى حال فيزيائي آخر، فهو تحوّل للشيء من حال الطاقة إلى حال المادة.

فيروْن أنَّه في عالم الكوانتم يحدث في حالة الفراغ تغيّر مؤقّت في كمية الطاقة عند نقطةٍ ما في الفضاء بفعلِ مبدأ اللاحتمية، وذلك في فترات زمنية متناهية في الصغر، وبسببِ هذا التغيُّر اللحظي تنشأ أزواجٌ من الجسيمات والجسيمات المضادة. وتعرَف هذه الظاهرةُ بـ«التموجات الكمومية» (Quantum Fluctuations). ويقولون إن الفراغَ الكمومي يحتوي على كمٍّ هائل من الجسيمات الازدواجية (حقيقية - افتراضية) تظهر للوجودِ وتختفي بشكلٍ متواصل وبسرعة هائلة.

ويروْن أنَّ الكون نشأ بفعلِ ظاهرة تموجات الفراغ الكمومي؛ إذ إنَّ هذه الجسيمات التي تظهر بشكلٍ مُستمر تحدِث تغييرًا في الطاقة الموجودة في نقطة ما في هذا الفراغ[١].

وقد استطردَ لوارنس كرواس في شرح هذه المسألة في مواطن عديدة من كتابه: «كون مِن لاشيء»[٢]، ولكنْ خلاصةُ كلامه يرجع إلى ما سبق.

فهذا ملخَّص شبهة الملاحدة في ظهور الكون من اللاشيء. وقد ردَّ عليه علماءُ الغرب من أوْجه كثيرة، ألخّصها في أربعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: هذا القولُ يزعم وجودَ جسيمات افتراضية. ولكن هذا لا يسلّم به، بل اعتبره بعضُ العلماء خرافة. وقد ألَّف هيفروجي نوكوليج[٣] مقالاً علميًّا بعنوان:

---

(١) انظر: الصنع المتقن - دلالات فيزيائية على وجود الخالق - (٩٩ - ١١٥).

(٢) انظر على سبيل المثال: A Universe from Nothing (١٠٨ - ١٠٩)

(٣) هيفروجي نوكوليج (Hrvoje Nicolic): حامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء من جامعة زاغريب بكرواتيا، والمتخصِّص في ميكانيكا الكم. انظر:
https://www.fetzer-franklin-fund.org/media/hrvoje-nikolic/

«ميكانيكا الكم: الخرافات والحقائق» (Quantum Mechanics: Myths and Facts) في مجلّة «أسس الفيزياء» (Foundations of Physics). وذكر في مقاله أنّ القول بوجود جسيمات افتراضية مجرَّد خرافة، ولا يمكن قبولُ قول الفيزيائيين عن ذلك حرفيًّا، بل نقل الإجماع على ذلك؛ فقال بعدَ الحديث عن التفاعل بين الجسيمات الحقيقية والجسيمات الافتراضية: «عددٌ من الفيزيائيين، وخاصَّة غير الخبراء منهم، يأخذون هذه الصورة حرفيًّا كأنَّها شيء حقيقي يحصلُ في الطبيعة. في الحقيقة أنا لم أرَ كتابًا من الكتب المختصة بتقديم علم فيزياء الجسيمات للجمهور من غير المتخصّصين، إلا وقدَّم هذه الصورة على أنها شيء حقيقيٌّ يحصل في الواقع. لذلك فإنّ صورة التفاعلات الكمومية التي تبْدو فيها على أنها عملية يحصل فيها تبادلٌ للجسميات الافتراضية هي واحدة من أسوأ الخرافات، ليس فقط في فيزياء الكم؛ وإنَّما في الفيزياء كلها. في الواقع هناك إجماع بين الخبراء... على أنَّ هذه الصورة لا ينبغي أن تؤخَذ حرفيًّا. المبادئ الأساسية للفيزياء الكمومية لا تحتوي حتَّى على مفهوم الحالة «الافتراضية»...»[1].

وهذا الكلامُ مهمٌّ للغاية في هذا المقام؛ لأنَّ صاحبَ الكلام عالم متخصّص في ميكانيكا الكم، وهو ينقل إجماعَ الفيزيائيين على عدم قبول هذا القول حرفيًّا، وأنَّ الصورة المقدَّمة للجمهور صورة مُضللة. وفي مثل هذا الموطن تبرز أهميةُ الاستفادة من علماءِ الغرب المتخصّصين في هذه العلوم. فكتاب مثل كتاب لوارنس كراوس مترجَم إلى اللغة العربية للجمهور، ولمكانتِه العلمية يأخذ غيرُ المتخصّص والمتأثّر بالخطاب الإلحادي كلامَه بالتسليم، ولكنَّه يمارس تضليلًا للقراء بزعم وجودِ هذه الجسيمات الافتراضية؛ لأنَّها غير حقيقية.

الوجهُ الثّاني: على فرضِ التَّسليم بوجود هذه الجسيمات الافتراضية، فالقول بأنها تخرجُ من العدم يخالف القانونَ الفيزيائي المعروف بقانون: «حفظ الطاقة»

---

(1) Quantum Mechanics: Myths and Facts Foundations of Physics, 31 (11), 1563-1611, by: Hrvoje Nicolic

(Law of Conservation of Enery). وهذا القانونُ ينصُّ على أنَّ الطاقة لا تفنى ولا تستحدَث من العدم؛ وإنما يمكن تحويلها من صورة لأخرى[1].

فـ «طاقةُ الفراغ مثلها مثل أيِّ مجال كمومي سوف تهتز وتضطرب، فهذا الاهتزاز مِن ضمن خصائص المجالات الكمومية، وهذه الاهتزازات (Quantum fluctua-tions) سوف تولِّد جسيمات افتراضية (Virtual Particles) يفترض أنها تخرج إلى العالم ثمَّ يفني بعضُها بعضًا في وقتٍ قصير جدًّا يحدِّده قانون عدم الدقة[2]. وهناك مَن يجادل بأنَّ هذه الجسيمات تنتهكُ قانونَ حفظ الطاقة؛ لأنَّ طاقتها تكون أكبر بكثير من الجسيمات الحقيقية التي انحلَّت أو انبثقت منها. أو أنَّها تقترض الطاقة من المستقبل ثمّ تعيدها سريعًا لأنها يُفني بعضُها بعضًا. وقد تمَّ استخدامُ هذه المفاهيم في وضع افتراضات لنشأة الكون بالفعل...»[3].

ولكنَّ الحقيقة أنَّ قانون حفظ الطاقة من أشهر القوانين الفيزيائية في الفيزياء الكلاسيكيَّة، وأنَّ ميكانيكا الكمّ تؤكّد هذا القانون، ولا تخترقه. وقد بيّن لوبس موتل[4] ذلك إذْ قال: «ميكانيكا الكم تعمل بامتياز. إنما تعمل بدقَّة على جميع الأنظمة في الكون، وقد أدَّت إلى العديد من الظواهر التي لم تكن ممكنة في أي نظرية كلاسيكية.

---

(١) انظر موسوعة بريتانيكا مقال: (Conservation Law)، وهو موجود على الرابط:
https://www.britannica.com/science/conservation-law
هذا قانونٌ علمي عام، ولا يتنافى مع اعتقادنا أنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يفني الطاقة ويحدثها إذا شاء. كما أنه لا يتنافى هذا التقريرُ الذي سيأتي مما سبقَ في نقد هذا القانون بأنه ليس على إطلاقِه مع وجودِ بداية للكون؛ لأنَّ الحديث هنا يتعلّق بكون هذا القانون محفوظًا حتى في ميكانيكا الكم. وقد سبق الحديثُ عن هذا القانون في مبحث: بيان مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي.

(٢) الذي أترجمه بـ(مبدأ اللاحتمية) كما سبق.

(٣) اختراق عقل (١٠٧).

(٤) لوبس موتل (Luboš Motl): عالم الفيزياء الشيكي، وحامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء النظرية، وعمل أستاذًا في جامعة هارفاد المرموقة. انظر:
https://physicsworld.com/a/blog-life-the-reference-frame/

ومعَ ذلك فإنها أكّدت ١٠٠ ٪ بعض القوانين التي كانت موجودة بالفعل في الفيزياء الكلاسيكية. وقوانين الحفظ في الزخم والطاقة تنتمي إلى هذه الفئة الأخيرة»[١].

والملاحدةُ يزعمون أنَّ خرقَ هذا القانون يمكن تفسيره بمبدأ اللاحتمية الذي تمَّ نقدُه في الحديثِ عن الشبهة السابقة. ولكنْ مع التسليم بهذا المبدأ، فلا يصحُّ القولُ بخرق قانون حفظ الطاقة. وقد بيَّن ستيف لوتريل[٢] ذلك بقوله: «مازلت أرى قانونَ اللاحتمية لهيزينبرج يوصَف في المجالات الجماهيرية التي تخاطب غير المتخصّصين على أنه يسمحُ بانتهاكٍ مؤقت لقانون حفظ الطاقة (أو قانون حفظ الحركة). الحجة التي سبّبت هذا الضجيجَ هي القول بأنَّه يسمح لك بأن تقرض الطاقة أو تقترضها طالما ستسدّد هذا قريبًا جدًّا. وهذا الترتيبُ يمثّل انتهاكًا مؤقتًا لقانون حفظ الطاقة. الحقيقة أنه لا يوجَد أيُّ انتهاك لقانون حفظ الطاقة. إقراض الطاقة والحركة أو اقتراضهما يحدث دائمًا بطريقة تحترم حفظ الطاقة والحركة»[٣].

الوجهُ الثّالث: على فرضِ التسليم بكلِّ ما سَبق، فإنَّ ظهور الكون بالطريقة التي يذكرُها الملاحدةُ يستلزم وجودَ تعقيد وإتقان وضبط دقيقٍ للغاية. وقد اعترض عليهم البروفسور كيث وارد بهذا إذْ قال: «في فرضية التذبذب الكمومي، لا يمكن للكون أنْ يظهرَ للوجود إلّا بوجود مجموعة متوازنة تمامًا من القوى الأساسية، واحتمال محدّد دقيق لتذبذبات معينة تقع ضمنَ هذه المجموعة، ووجود الزمكان الذي قد تقع فيه هذه التذبذبات. إنَّه (لاشيء) بالغ التعقيد والضبط»[٤]. ولا شكَّ أنَّ هذا التعقيد لا يأتي بنفسه، وإنَّما يستلزم وجودَ خالق خلق هذه الشروط الأساسية.

---

(١) مقال: Is the Vacuum Empty and Boring, وهو موجود على الرابط:
https://motls.blogspot.com/2015/05/is-vacuum-empty-and-boring.html

(٢) ستيف لوتريل (Steve Luttrell): عالم الفيزياء البريطاني، وحامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء النظرية، ومتخصِّص في ميكانيكا الكم. انظر:
http://luttrellica.blogspot.com/

(٣) مقال: Heinsberg’s Uncertainty Principle, وهو موجود على الرابط:
http://luttrellica.blogspot.com/2005/10/heisenbergs-uncertainty-principle.html

(4) God, Chance and Necessity (40)

والمذكورُ هنا هي الشروطُ الأساسية لظهور الكون في التذبذب الكمومي، ولكن علماء الكون يقولون إنَّ التعقيد كان موجودًا منذ اللحظة الأولى بعد ظهور الكون أيضًا. وهذا تعقيدٌ فوق التعقيد. وقد سبق أنَّ البروفسور بول ديفيز بحث عن مسألة مدى دقَّة مطابقة قوى التمدُّد بقوى الجاذبية في الثانية الأولى من وجود الكون. واستنتج ديفيز أنَّ زمن بلانك كان مطابقًا بدقة ١ في ١٠^٦٠. فلو اختلف هذا المعدّل بجزء واحد مِن ذلك فقط؛ فلن توجَد حياة[١].

ومِن هنا يبرز سؤالٌ للملاحدة: لماذا كانت هذه الظروفُ الأساسية موجودة؟ ولماذا هذا التعقيدُ من أوَّل ظهور الكون؟ الملاحدة يكرهون هذا السؤال لأنهم يعرفون لوازمه. وقد ذكر لوارنس كراوس ذلك بقوله: «في الوقت نفسه، فإنه يجب علينا في العلم أنْ نكون حذرينَ بشكل خاص عن أسئلة «لماذا». فعندما نسأل «لماذا؟» عادة ما نعني «كيف؟» إذا تمكنّا من الإجابة على هذا الأخير، فهذا يكفي بشكلٍ عام المقاصد»[٢].

فالإجابةُ عن سؤال: «لماذا؟» تقودُ إلى سؤال أخطر: «مَن خلق الكون وفق هذه الخصائص المضبوطة؟». ويعلم الملاحدةُ مثل: كراوس هذه اللوازم، ولهذا يحاولون جاهدينَ في صرف أتباعِه عن سؤال: «لماذا؟» قبل أن يصلوا إلى هذا السؤال الخطير المميت للخطاب الإلحادي.

الوجهُ الرّابع: فرِحَ الملاحدة - كريتشارد دوكينز - كثيرًا بكتاب لوارنس كراوس حتى إنَّه كتب له خاتمةً كما سبق. ومعَ أهمية الشبهات المتعلّقة بميكانيكا الكم للخطاب الإلحادي، وأنَّ دوكينز من رموز هذا الخطاب؛ إلّا أنه اعترف أنه لا يفهم هذا العلم[٣]. وذلك لم يمنعه من أنْ يثني على الكتاب بثناءٍ عطر في خاتمته، وكأنَّه يجيب عن ألغاز الكون والحياة.

---

(1) God and the New Physics (179), by: Paul Davies,

(2) A Universe from Nothing (146)

(٣) انظر: A Universe from Nothing (186)

ولكنَّ هذا الأمرَ كان لحاجةٍ في نفسه حيث انتصر هذا الكتابُ للإلحاد. إلا أنَّ المتخصِّصين في ميكانيكا الكم قد انتقدوا الكتابَ بشدَّة. ومِن ذلك ما قاله البروفسور جورج إيليس[1] في مقابلته معَ المجلة العلمية المشهورة «ساينتيفيك أميركان» (Scientific American) حيث بيَّن أنَّ لوارنس كراوس لم يجب عن بعض أهمِّ الأسئلة في هذا المجال، ومِن ذلك:

السؤالُ الأوَّل: كيف وُجدت الأشياءُ التي تكوّن منها الكون؟

السؤالُ الثّاني: لماذا وُجدت هذه الأشياءُ ابتداء؟

السؤالُ الثّالث: لماذا يحمل الكونُ الشكل الحالي؟

السؤالُ الرّابع: ما هو البرهانُ التجريبي أو ما يمكن ملاحظته لاختبار دعاويه عن آلية نشأة الكون؟

السؤالُ الخامس: كيف يمكن اختبارُ ما وُجد قبل وجود الكون؟

وإضافةً إلى ذلك بيَّن البروفسور إيليس أنَّ ما قدَّمه كراوس ليس من العلم التجريبي في شيء، وإنَّما هي دعوى فلسفية يتبنّاها بحماسةٍ إلى درجة أنه لا يقدر أن يثبتها بأدلة تجريبية. وانتهى البروفسور إيليس في نقده لكرواس أنّ ما زعمه من إمكان فهم الواقع بصورةٍ كاملة خلال الفيزياء ومعادلاتها؛ ليس إلّا وهمًا[2].

---

(١) جورج إليس (George Ellis): بروفسور الرياضيات التطبيقية من جنوب أفريقيا، وأحدُ أبرز علماء الكون في العالم، وقد نشر أكثر من ٥٠٠ بحث علمي. انظر:
https://royalsociety.org/people/george-ellis-11396/

(٢) انظر المقابلة بعنوان:
Physicist George Ellis Knocks Physicists for Knocking Philosophy, Falsification, Free Will
وهي موجودة على الرابط:
https://blogs.scientificamerican.com/cross-check/physicist-george-ellis-knocks-physicists-for-knocking-philosophy-falsification-free-will/

فالملاحدةُ السذَّج يعتقدون أنَّ هذا الكتاب أجاب عن ألغاز وجود الكون عن طريقِ علم ميكانيكا الكم، وأنَّ هذا العلم يؤيِّد الإلحاد. ولكن الواقع أنَّ هذا الكتاب كتابٌ فلسفي في صورةِ كتاب علمي. فشبهاتُ الملاحدة في هذا المجال تساقطت كأوراق الشجر واحدة تلو الأخرى.

الفقرةُ الرّابعة:

تقييمُ ردود علماء الغربِ على الشُّبهات المتعلقة بميكانيكا الكم:

ردودُ علماء الغرب على شبهاتِ الملاحدة المتعلِّقة بميكانيكا الكم ردودٌ علمية في المقام الأوَّل، ومدعومةٌ ببعض الردود العقلية الصحيحة. ولا يكاد يظهر أيُّ أثر من آثار العقيدةِ النصرانية في هذا الباب، ولهذا يمكن الاستفادةُ منها كثيرًا. وهو في مثل هذه المجالات العلمية الدقيقة التي تظهر أهميةَ الاستفادة من كلام علماء الغرب. فعلى سبيل المثال ما يتعلَّق بكتاب لوارنس كراوس، فإنَّه قد تُرجم إلى اللغة العربية ويباع في الأسواق في دولٍ إسلامية. ويفتتن بعضُ المسلمين إذا رأوا أنَّ أحد علماء الكون يقدّم دعاوى أنّه يمكنُ عن طريق علم ميكانيكا الكم أن يفسِّر وجودَ الكون من العدم بدون خالق. وقد لا يستمع بعضُ المسلمين المفتونين بهذه العلوم التجريبية إلى ردود العلماء المسلمين غير المتخصِّصين في هذه العلوم. ولكن معَ إبراز ردود علماء الغرب المتخصّصين في هذا المجال يمكن نقدُ هذه الشبهات، وبيانُ أنها ضعيفة للغاية، ثمّ تأتي المسئولية على العالم المسلم أو الداعية الإسلامي أن يبيِّن الحقَّ والهدى في هذه القضية المتوافق مع الوحي المنزَّل والعقل الرصين والعلم التجريبي الصحيح البعيد عن خرافات الملاحدة.

المبحثُ الخامس
ردودُهم على الشُّبهات المتعلقة بالكيمياء

هذا المبحث يتناول شبهاتِ الملاحدة المتعلّقةَ بالكيمياء. وشبهاتهم فيها أقلُّ من الشبهات المتعلِّقة بعلم الكون، وعلم الأحياء والفيزياء. وأكثر هذه الشبهات تتعلّق بأصلِ الحياة على الأرض، وهو معروفٌ بالتطوّر الكيميائي؛ فجلُّ الملاحدة المعاصرين يؤمنون بالتطوّر البيولوجي الداروينى - كما سبق -، ولكنهم يعترفون أنّه لا بدَّ من وجود كائنٍ حيٍّ أوَّلي قبلَ حصول التطوّر البيولوجي؛ لأنَّه لا يمكن أن تعمل الطفرات العشوائية والانتخابُ الطبيعي إلّا في كائن حيّ. وظهورُ الحياة من اللاحياة حيَّر الملاحدةَ كثيرًا، ولكنه لم يمنعهم من إيرادِ بعض الشبهات المتعلقة بهذه المسألة. وهذا ما سأذكرُه في هذا المبحث. ولتسهيل فهْمِ المبحث فسوف أقسِّمه إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهات الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شُبهات الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء:

اعتقد بعضُ الفلاسفة اليونانيين أنه يمكن أنْ تظهر نباتات وحيوانات بنفسها من الجمادات، وظلَّ هذا الاعتقاد موجودًا لدى بعض المتفلسفة. وفي عصر النهضة حاول بعضُ العلماء إحياءَ هذه الأفكار بإجراء تجارب علمية تثبت أنه يمكن للفأرة أن تتولّد تلقائيًّا من القماش المتَّسخ، أو تتولَّد العقرب من الريحان. وعُرفت هذه الأفكار بالتولّد الذاتي (Spontaneous generation).

وكانت هذه التجاربُ محلَّ أخذ وردٍّ بين العلماء إلى أنْ جاء العالم الفرنسي لويس باستوير في عام ١٨٥٩م، وأبطلَ هذه الفكرة بتجارب علمية[1]. وقال باستور عقب هذه التجارب: «لا يمكن أن تتعافى عقيدةُ التولّد الذاتي بعد الضربة القاتلة لهذه التجربة البسيطة أبدًا»[2].

وتزامنَتْ تلك التجربة معَ نشر داروين لنظريته، وكانت مسألة: ظهور الحياة الأولى تشكِّل مشكلةً أساسية لنظريته، فحتى لو سُلِّم بصحَّة نظريته فإنه يفسّر تطوّر الكائنات الحيَّة الموجودة فقط، ولا تفسِّر ظهورَ الكائنات الحيّة من المادة غير الحيّة. وكانت نظرية التولُّد الذاتي حديثةَ عهدٍ بضربة باستور، فكان داروين يستصعبُ هذا الأمر. وكتب رسالةً إلى أحد أصدقائه وذكرَ فيها تجارب باستور، ثمّ قال: «إن كنَّا – نعم، ما أعظم كلمة «إن» هنا – نستطيع أن نتصوَّر نوعًا من البِركة الصغيرة الدافئة فيها جميع أنواع الأمونيا وأملاح الفوسفور، وضوء، وحرارة، وكهرباء، والكربون، وأن

---

(١) انظر المقال:

Louis Pasteur and the History of Spontaneous Generation, http://www.pasteurbrewing.com/louis-pasteur-and-the-history-of-spontaneous-generation/

خلاصةُ تجربة باستور: أن باستور أظهرَ أنَّ سبب عملية التخمر يرجع إلى نمو الكائنات الحية الدقيقة، وأنَّ النمو الناشئ للبكتيريا في سوائل المغذيات لا يعود إلى التولد الذاتي، وإنما يعود إلى النُّشوء الحيوي خارجَ الجسم، حيث قام بتعريض السائل المغلي في الهواء في أوعية تحتوي على فلترٍ لمنع جميع الجزيئات من الوصول إلى مرحلة النمو المتوسط مع إدخال الهواء عبر أنبوبٍ متعرِّج طويل لا يسمح لجزيئات الغبار بالمرور. لاحظ باستور عدم نمو أي شيء في السائل إلّا إذا تمَّ كسرُ وفتح القوارير، لذا توصل إلى أن الكائنات الحية كجراثيم الغبار التي نمتْ في السائل جاءت من الخارج بدلًا من تولدها تلقائيًا داخل السائل.انظر:

https://www.wikiwand.com/ar/%D9%84%D9%88%D9%8A%D8%B3_%D8%A8%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D9%88%D8%B1

(٢) كما نقله عنه ألكسندر أوبارين في:

The Origin of Life (196), by: Alexander Oparin (Dover Publications (1953)

مركّب البروتين تمَّ تكوينُه كيميائيًّا، وعلى استعداد للخضوع لتغيّرات أكثر تعقيدًا. في هذا الزمان فإنَّ مثل هذه المادة سوف تلتهمُ أو تمتصُّ على الفور، ولكنَّ هذا ليس هو الحال في الزمن قبل تكوُّن الكائنات الحيّة»[1].

ولكنْ لم يخرج هذا التفكيرُ عندَ داروين عن تخيُّلاته المعتادة لوجود مثل هذه البركة. وبقيَ موضوع تشكُّل الحياة الأولى معلّقًا، وشكَّل معضلةً في حياة داروين وبعد وفاته.

في عام ١٩٢٤م، ألّف ألكسندر أوبارين[2] كتابًا بعنوان: «أصل الحياة» (The Origin of Life)، وقدَّم فرضيةً مَفادها أنَّ تكوُّن الخلايا الحيّة من المادة غير الحيّة ممكنٌ عنْ طريق التفاعلات الكيميائية مع الصواعق ومصادر طاقة أخرى. ولكنها كانت فرضيةً مجرَّدة بدون استناد إلى تجارب علمية. وفي عام ١٩٥٢م، استنتج هارولد أوري[3] أنَّ الجوَّ الأوَّلي للأرض تكوَّن بصفة أساسية من الهيدروجين والميثان والأمونيا وبخار الماء. ويوافق ذلك فرضيةَ أوبارين عند ظهور أصل الحياة.

ثمَّ أجرى ستانلي ميلير[4] اختبارًا عمليًّا بإشراف أوروبي لصحة فرضية أوربارن؛ فأعدَّ جهازًا زجاجيًّا مغلقًا في مختبرِ أستاذه، وفرَّغه من الهواء ووضع فيه بدلًا من الهواء مزيجًا من الميثان والأمونيا والهيدروجين والماء، ثمَّ سخَّن ميلر هذا الماء، وجعل خليطَ الغازات يمرُّ على شرارة كهربائية قوّية تحاكي البرق.

---

(1) https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-7471.xml

(٢) ألكسندر أوبارين (Alexandr Oparin): بروفسور الكيمياء الحيوية السوفيتي. توفي عام: ١٩٨٠م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Aleksandr-Oparin

(٣) هارولد أوري (Harold Urey): بروفسور الكيمياء الأمريكي، والحائز على جائزة نوبل في الكيمياء. توفي عام: ١٩٨١م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography / Harold – Urey

(٤) ستانلي ميلير (Stanley Miller): بروفسور الكيمياء الحيوية في جامعة سان ديغو بالولايات المتَّحدة. توفي عام: ٢٠٠٧م. انظر:

https://www.nature.com/articles/nchembio0807-437

وفي عام ١٩٥٣م، نشرَ ميلر نتائجَ تجاربه المبدئية، وبإعادة التجربة من قِبله ومن قِبل غيره من العلماء أمكنهم الحصولُ على مردودٍ ضئيل من أغلب الأحماض الأمينية الهامَّة حيويًّا، بالإضافة إلى بعض المركبات العضوية التي توجد في الكائنات الحية. وبهذه الطريقة صارتْ هذه التجارب تأكيدًا - في نظرهم - لفرضية أوبارين.

وبعدَ ذلك، اكتشف العلماءُ أنَّ تجاربهما لم تكن مبنيَّة على التصوّر الصحيح للجوِّ البدائي للأرض، فظلَّ لغزُ أصل الحياة قائمًا(١).

ومع ذلك فلا تزال تجاربُ ميلير وأوري تتصدَّر المراجع العلمية والمجلات والأفلام الوثائقية العلمية كإحدى أيقونات التطوّر(٢).

الفقرةُ الثّانية:

ردودُ علماءِ الغرب على شبهات الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء(٣):

قد ردَّ علماءُ الغرب على شبهاتِ الملاحدة المتعلِّقة بالتطوّر الكيميائي للحياة بردودٍ عديدة. وسوف ألخِّص أهمَّ الردود في أمرين:

الأمرُ الأوَّل: بيانُ استحالة ظهور الحياة الأولى عشوائيًّا من حيث العموم.

الأمرُ الثّاني: بيانُ بطلان فرضية ظهور أصل الحياة على وجْه التفصيل.

---

(١) انظر المقال: Abiogenesis
على الرابط:
https://www.allaboutscience.org/abiogenesis.htm

(٢) انظر: أيقونات التطوّر (٣٣).

(٣) من أفضل مَن رأيت أنه يلخِّص الردودَ المختلفة على شبهات الملاحدة المتعلقة بالتطوّر الكيميائي لأصل الحياة هو دين أوفيرمان في كتابه: قضية ضدَّ العشوائية والتنظيم الذاتي (A Case Against Accident and Self - Organization)، ولهذا سوف أكثِرُ من النقل عن هذا الكتاب في هذا المبحث.

الأمرُ الأوَّل: بيانُ استحالة ظهورِ الحياة الأولى عشوائيًّا من حيث العموم:

محلُّ البحث عن أصل الحياة ليس نوعيَّة الحدث؛ فالمؤمن والملحد يتَّفقان على أنّه لا بدَّ من ظهور الكائنات الحيَّة الأولى على كيفية معيّنة. المؤمن بوجود الخالق يعتقد أنَّ الخالقَ خلق هذه الكائنات، بينما يعتقد الملحدُ أنَّ هذه الكائنات ظهرت عن طريق الصُّدفة؛ قال البرفوسور الفرنسي جاك موند: «الصدفة وحدها هي مصدرُ كلِّ هذا الابتكار في جميع المخلوقات، الصدفةُ المحضة الحرَّة تمامًا - لكنَّها عمياء - هي الجذرُ العميق للتطوُّر، المفهوم المركزي للبيولوجي... في يومنا هذا هي التصوّرُ المقنع الوحيد، والممكنُ مقارنته مع الملاحظات والاختبارات العلمية. إنَّ جميعَ أشكال الحياة نتيجة للصدفة...»[١].

وإذا كانت جميعُ أشكال الحياة نتيجةً للصدفة فإنَّ هذا يعني أن الكائنات الحيّة ظهرتْ من المادة غير الحيِّة مصادفة. ومِن باب مناقشة الملحد يقال: إن للصدفة حدودًا؛ فهل ظهورُ الكائنات الحيَّة من المادة غير الحيِّة في داخل إطار الصدفة أو في إطار المستحيل؟

قد بحثَ العلماءُ المتخصِّصون مدى إمكانيةِ ظهور الحياة من المادة غير الحيّة، وتبيَّن لهم أنَّه خارج إطار الصدفة بمراحل عديدة. وقد اهتمَّ عددٌ من العلماء بهذه القضية، وذكروا حساباتٍ مختلفة في إمكانية ظهور الحياة. ومن ضمن هذه الحسابات:

- **أوَّلًا: حساباتُ هويل وويكراماسنجي**[٢]:

هذان العالمان مِن أكبر علماءِ الفلك في هذا الزمان؛ ففريد هويل بروفسور في علم الفلك ومدير المعهد الفلكي في جامعة كامبردج، وشاندرا ويكراماسنجي

---

(1) Chance and Necessity (110, 137, 167)

(٢) تشاندرا ويكراماسنجي (Chandra Wickramasinghe): بروفسور علم الأحياء الفلكي في جامعة بوكنيغهام ببريطانيا، ومدير قسم هذا العلم في تلك الجامعة. انظر:
https://www.buckingham.ac.uk/directory/professor-chandra-wickramasinghe/

بروفسور في الرياضيات التطبيقية وعلم الفلك ومؤلِّف أكثر من ٣٠ كتابًا في الفيزياء الفلكية. وأدرك هذان العالمان أنَّ أبسط خليةٍ حية كالبكتيريا هي في الواقع معقّدة جدًّا، وتحتوي على كثيرٍ من الأحماض الأمينية، والإنزيمات، والجزيئات. وهذه الأشياء كلّها مكوَّنة من آلافِ الذرَّات، وهي مرتبطةٌ معًا في تتابع دقيق. ورغم أنَّ هويل كان تطوّريًّا وملحدًا[١] فإنَّه أدرك الصعوبةَ الإحصائية الرياضية لظهور الحياة من اللاحياة مصادفة؛ ففي حساباتِه عن احتمالية ظهور الحياة من التفاعلات الكيميائية بالصدفة افترض أن أوّلَ خليةٍ حية كانت أبسطَ بكثير مما نعرفه اليوم من البكتيريات. ورغم ذلك تشير حساباته إلى أنَّ إنزيمًا بسيطًا جدًّا يمكن أن يظهر في وقت ومكان مناسبين باحتمال واحد في ٢٠١٠ = ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠.

ولأنَّ ظهورَ أبسط خلية يتطلَّب آلافًا من الإنزيمات المختلفة ذات الوظائف المتنوعة؛ قامَ هويل بحساب ٢٠٠٠ إنزيم، كل واحد منه لديه وظيفة معينة ليكوّن خلية بكتيرية وحيدة كالإشريكية القولونية (Escherichia coli). وبحساب احتمالات ظهور هذه الإنزيمات في مكانٍ وزمن واحد، وتنتج بكتيريا واحدة، وجد هويل وزميله ويكراماسنجي أنَّ النتيجة: ١ في ١٠٠٠٠,٤٠. وهذا الرقم عظيم جدًّا، وأيُّ عالم الرياضيات سيتعبره مستحيلًا استحالةً تامَّة. فواحد في المليون هو ١٠٦ وواحد في مليار ١٠٩، فكيف بـ١٠ وخلفه ٤٠ ألف من الأصفار!

استنتج هويل وزميله أنَّ الحياةَ لا يمكن أن تظهر بعمليات عشوائية، حتى ولو كان الكونُ كلُّه قد تكوَّن من هذا الحساء البدائي؛ فمحتوى المعلومات الهائلة لأبسط نظام حيوي يستحيل إنتاجه عشوائيًّا[٢].

وبناءً على ذلك أكَّد هويل وزميله ويكراماسنجي بأنَّ الحياة لا يمكن أن تظهر على الأرضِ بعمليات عشوائية؛ فقالا: «مهْما كانت مواصفات البيئة التي ظهرت فيها الحياةُ

---

(١) انظر المقال: Fred Hoyle – An Atheist for ID, وهو منشور على الرابط:
https://uncommondescent.com/intelligent-design/fred-hoyle-an-atheist-for-id/

(٢) انظر: A Case Against Accident and Self – organization (58 - 59)

فلا يمكن أن تبدأ الحياةُ بشكل عشوائي... هناك حوالي ٢٠٠٠ إنزيم، وفرصةُ وجودهم عشوائيًّا ١ في $١٠^{٤٠,٠٠٠}$، وهي فرصةٌ صغيرة للغاية لدرجة أنها لن تأتي حتى لو كان الكونُ بكامله حساءً عضويًّا؛ فلو أنَّ هناك رجلًا غير متأثّر بالمعتقدات المجتمعية أو التَّحريض العلمي فسيجد بحسابٍ بسيط أنَّ فكرة ظهور الحياة على الأرض مصادفة فكرةٌ مستبعَدة تمامًا... إنَّ المحتوى العظيم لمعلوماتٍ أبسط الخلايا الحية لا يمكن - في نظرنا - أن يتولَّد مما يسمَّى بـ«عمليات طبيعية»... لكي تظهر الحياة على الأرض فلا بدَّ بشكلٍ واضح من وجود توجيهٍ لهذا التجمُّع... فلا سبيل لتجنّب الحاجة لوجود معلومات، ولا سبيلَ للحصول ببساطة على أكبر وأفضل حساء عضوي[١]...»[٢].

البروفسور هيول والبروفسور ويكراماسنجي مِن أكبر علماء الفلك في هذا الزمان، وليسا متديِّنين، بل هويل كان ملحدًا كما سبق. ورغمَ ذلك بيَّنَا أنَّ ظهور الكائنات الحيَّة من المادة غير الحيَّة مستحيلٌ قطعًا.

وإذا كان ١ في $١٠^{١٥٠}$ يعدُّ مستحيلًا - حسب تقدير وليام ديمبسكي كما سبق وخارجَ حدود الصدفة؛ فكيف بـ١ في $١٠^{٤٠,٠٠٠}$؟! هذا الرقم يتجاوز المستحيل بـ٢٦٦ مرَّة! وإذا كان تقديرُ المستحيل ١ من $١٠^{٥٠}$ [٣] - حسبَ تقدير إيميل بوريل - فإنّه يتجاوز المستحيل بـ٨٠٠ مرّة!

وإذا كان يصعبُ إدراكُ هذه الأرقام الكبيرة، فقد مثّل لها البروفسور ويكراماسنجي في جملةٍ موجَزة للغاية فقال: «فرصةُ ظهور الحياة عشوائيًّا كفرصة بناءِ طائرة من طراز بوينج من مخلَّفات شاردة جلبها إعصار»[٤].

---

(١) حساء عضوي (Primordial soup): مزيج من الجزيئات العضوية في النظرية التطورية التي تفترض أنَّه نشأت منها الحياة على الأرض. انظر: https: / /www.merriam – webster. com/dictionary/primordial%20soup

(٢) انظر: Evolution from Space (148, 24, 150, 30, 31)، Quoted from A Case against Accident and Self - Organization (59)

(٣) راجع مبحث: تعظيم الصدفة، في الفصل الأول من الباب الأوّل.

(4) Threats on Life of Controversial Astronomer, New Scientist, January 21, 1982, (p. 140)

ولا يشكُّ عاقلٌ أنَّ بناء طائرة من مخلّفات شاردة جلبها إعصار مستحيل، فكذلك ظهورُ الكائنات الحيَّة من المادة غير الحيَّة على كوكب الأرض. بل لا بدّ من وجود خالقٍ عليم حكيم خلق هذه المخلوقات الحية.

- **ثانيًا: حسابات هوبرت يوكي:**

الأمرُ لا يتوقَّف على ما سبق، بل من العلماء مَن توصَّل إلى أرقام أكبر بكثير من الأرقام التي توصَّل إليها البروفسور هويل والبروفسور ويكراماسنجي. ومن هؤلاء العلماء: البروفسور هوبرت يوكي(١)؛ قال دين أوفرمان: «ربما أكثرُ الحسابات دقةً وإجادةً هي التي قدَّمها هوبرت يوكي... قدَّم احتمالية رياضية لظهور الحياة بالصدفة من الحساء البدائي، وكانت النتيجةُ أنَّ هويل كان متفائلًا جدًّا! لأنَّ احتمالية الأحماض الأمينية ليست متساوية، والحساب الصحيح لا يمكن ببساطة أن يُضرَب في عدد الأحماض الأمينية في كلِّ موقع لنصل إلى عدد التتابع»(٢).

وقال البروفسور يوكي عن حساباته: «حتى لو كنّا نعتقد أنَّ «كتل البناء» متوفّرة، فهذا لا يسمحُ لها بتكوين البروتين من تلقاءِ نفسها، على الأقلِّ ليس بالصدفة؛ فتولّد الحياة من الحساء البدائي مستحيلٌ بنفس احتمالية وجودِ آلة متحرِّكة منذ الأزل. إنَّ هذه الاحتمالاتِ المستبعدةَ للغاية التي شرحناها في هذا الفصل ليست تثبيطًا للمعتقدين بالصدفة... أو للمعتقدين بأنَّ الكون أزلي لا بداية له ولا نهاية، فمثلُ هذا الكون لا يوجَد فيه شيء يستحيل حدوثه. في الواقع نحن نعيش في كونٍ صغير ذي عُمر قصير... **إذًا، أيُّ إنسانٍ عملي سيستنتج أنَّ الحياة لا يمكن أن تظهر بالصُّدفة**»(٣).

---

(١) هوبرت يوكي (Hubert Yockey): بروفسور النظريات المعلوماتية الأمريكي، والمتخصِّص في أصل الحياة. توفي عام: ٢٠١٦م. انظر:

http://www.hubertpyockey.com/hpyblog/about/

(2) A Case Against Accident and Self-Organization (60-61)

(3) Information Theory and Molecular Biology, by: Hubert P. Yockey, BioEssays 17, 85 (1995)

- **ثالثًا: حساباتُ هارولد موروفيتز:**

وتوصَّل هارولد موروفيتز[١] إلى أرقامٍ أكبرَ من ذلك بكثير؛ فقد حسب هارولد الصعوباتِ المواجهة لتجميع خلية فوجَد احتمال تجميعها هو ١ في $١٠^{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$، وهذا الرقمُ يعني ١ مع ١٠٠ مليار صفر! وهو أكبر من الأرقام التي توصَّل إليها البروفسور هويل والبروفسور ويكراماسنجي بـ٢,٥ مليون مرّة!

وقد علَّق البروفسور موروفيتز على حساباتِه بقوله: «ليس هناك حيلةٌ عادية أو برهانٌ عن عُمر الكون، أو حجم النظام الممكن أن يكون كافيًا للقيام بمثل هذا التقلّب الحادث في النظام المتَّزن عقلًا، الذي مِن الممكن دائمًا أن نناقش أن حدثًا فريدًا حدَث. **وهذا خارجُ الاحتمالات المُعتبرة، وخارج العلم**. يمكن أن نستخلص أنَّ باعتبارات الطاقة وحدها واحتمالية تجميع خلية حية في اتزان ما؛ هوَ صغير للغاية. من المهمِّ أن نكرِّر هذه النقطة، فقد غابَ عن عددٍ من منظِّري أصل الحياة دلالة الاحتمالات الصغيرة للغاية؛ فقدِ افترضوا أنَّ الاحتمالات النهائية ستكون كبيرة بشكل منْطقي بحكم حجمٍ وعُمر النظام. أمّا الفقرة السابقة فتبيّن أن الأمر ليس كذلك: **فالقيمُ المحسوبة لاحتمالِ ظهور للحياة تلقائيًّا ضعيفة جدًّا بالنسبة للاحتمال النهائي الصَّغير بشكل ساحق**»[٢].

فقبلَ النظر في الفرضيات التي قدَّمها العلماء عن أصل الحياة، يتبيَّن أنّها كلها مُستحيلة، وأنه لا يمكن أن تكونَ الحياة قد تطوَّرت تطوّرًا كيميائيًّا عن طريق الصدفة مطلقًا.

وإضافةً إلى ما سبق، فإنَّنا نجد أنَّ الملاحدة لبّسوا على الناس عند تقديمهم الفرضيات التفصيلية لنشأة الحياة أيضًا، وهو ما سيأتي ذكرُه الآن.

---

(١) هارولد موروفيتز (Harold Morowitz):بروفسور الفيزياء الحيوية في جامعة جورج ماسون بالولايات المتَّحدة، وهو متخصِّص في أصل الحياة. توفي عام ٢٠١٦م. انظر:
https://scrc.gmu.edu/finding_aids/morowitz.html

(2) Energy Flow in Biology (12), by: Harold J. Morowitz, (Ox Bow Press, 1979)

الأمرُ الثّاني: بيانُ بطلان فرضيَّة ظهور أصل الحياة على وجه التفصيل:

معَ أنَّ العلماء يشكِّكون في فرضية أوبارن مع تجارب ميلير وأوري منذ الستينيات مِن القرن الماضي، إلّا أنَّ هذه الفرضية تقدّم للجمهور باعتبارها نظرية صحيحة ومقْبولة. فما هي أبلغُ الردود على هذه الفرضية مع التجارب المؤكدة لها؟ يمكن تلخيصُ ردودِ علماء الغرب عليها في سبعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: الملاحدةُ يزعمون أنَّ الحياة ظهرت عشوائيًّا، وليس عن طريق الخلق الإلهي - وهو ما يسمَّى في النقاش المعاصر بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله: بالتصميم -. وأمّا تجربة ميلر فلم تكنْ عشوائية، بل حصلت عن طريق تصميم كائن ذي علمٍ وإرادة صمَّم هذه الظروف المزعومة، ثمَّ زعموا أنَّ الكائنات الحية الأولى ظهرت خلالها. فهذه التجربةُ خارج عن محلِّ النزاع أصلًا؛ فقال مؤلفو كتاب: «المنشأة وظهور الأنظمة الحية» (Origins and the Development of Living Systems): «هذه التجارب... التي تدَّعي التصنيعَ اللاأحيائي هي في الواقع صمّمت وأنتجت بفعل كائن ذكي جدًّا وحيوي للغاية»[1].

الوجهُ الثّاني: على فرْض التسليم بصحَّة هذه التجارب فإنهم لم ينتجوا كائنات حيَّة في مختبراتهم، وغايةُ ما أنتجه هؤلاء العلماء هو أحماضٌ أمينية. والأحماض الأمينية هي أسسُ البروتينات، والبروتينات هي أسسُ الخلايا، والخلايا هي أصل الكائنات الحيَّة. فلا يقال إنَّ هذه التجارب أنتجت حياة من المادة، ولا قريبًا من ذلك؛ قال سكوت هيوس: «وإنْ كانت هذه التجربة تبيِّن بوضوح إمكانية إنتاج مواد عضوية صناعيًّا؛ إلا أنَّ هذه المواد العضوية لا تقارب - ولوْ من بعيد - تركيب الحياة»[2].

ولوْ جمعنا بينَ الوجه الأوَّل والوجه الثاني، فإنه يظهر أنَّ هذه التجارب دليل على الملاحدة، لا لهم؛ قال دين أوفرمان: «وإنْ كان الباحثون يستخدمون جميع مهاراتهم

---

(1) Origins and Development of Living Systems (212), by: Jim Brooks and Gordon Shaw, (Academic Press, 1973)

(2) The Collapse of Evolution (153)

التِّقنية والعلمية للحصول على الحياة من أحماض أمينية ولم يستطيعوا ذلك. يجب أن نتساءل: كيف تكوَّنت الحياة قبل ظهور كائن عاقل أثَّر في البيئة؟»[1]. أي: كيف يمكن للطبيعة الصمّاء أن تنتج الحياةَ من اللاحياة، إذا عجز عن ذلك جميع الباحثين معَ توفُّر الإمكانيات الهائلة؟! كان ينبغي للملاحدة أن يراجعوا أنفسهم عند ذلك، وألا يتمادوا بالباطل بالاستدلال بهذه التجارب على ما لا تدلُّ عليه.

الوجهُ الثّالث: فرضيةُ أوبارن مع تجربة ميلر / أورو تفترض وجود حساء قبل أحيائي (Prebiotic soup) ظهرتْ فيه الحياة. ويفترضون أنَّ هذا الحساء وُجد قبل حوالي ٣٩٠٠ مليون سنة. ولكن هذا مجرَّد افتراضٍ افترضوه بدون أيِّ دليل. وقد بيَّن الدكتور مايكل دينتون ذلكَ بقوله: «وجودُ الحساء قبلَ الأحيائي ضروري للنموذج بأكمله، وبدون تجمُّعات غير أحيائية للمواد المكوِّنة للخلية فلا يمكن للحياة أن تطوّر. ولو كانت القصة التقليدية حقيقيةً فيجب أن يوجَد خليط غني من مركبات عضوية عبر ملايين السنين في المحيطاتِ القديمة. ومن المرجَّح جدًّا أن تبقى في الصخور المترسّبة الموجودة في البحار خلالَ هذه المدة الطويلة. ولكن تمَّ فحصُ الصخور القديمة جدًّا خلال العقود الأخيرة ولم نجدْ أيَّ مركبات عضوية تمَّ إنتاجها بشكل غير حيوي... فبالنظر إلى طريقة تكوّن الحساء قبلَ الأحيائي المفضَّل في كثير من المناقشات المتعلقة بأصل الحياة كحقيقة مؤكّدة؛ نجدُ أنَّ هناك صدمة لهذه الطريقة؛ فلا وجود لدليل إيجابي لوجوده»[2].

الوجهُ الرّابع: إشكاليةُ الغلاف الجوي المبكّر. افترضت تجربة ميلر وأوري وغيرها مِن سلسلة التجارب المشابهة اختزاليةَ الغلاف الجوي المبكّر الخالي من الأكسجين. ولكنَّ العلماء المتخصِّصين في هذا المجال يروْن اليوم أنَّ الغلاف المبكّر لم يكن شديدَ الاختزال، ومِن المحتمل أن يحتوي على كمياتٍ ظاهرة من الأكسجين. ووجودُ كمية ولو صغيرة من الأكسجين - في التجارب يتمُّ تجنُّب هذه الكمية في المعمل - ستمنع

---

(1) A Case Against Accident and Self-Organization (48)

(2) Evolution: A Theory in Crisis (260-261)

من تكوينِ أحماض أمينية ونوكليوتيدات؛ لأنَّ الذرات والجزيئات سترتبط مع أنوية الأكسجين بدلًا من الهيدروجين. وحتَّى لو تكونت أحماض أمينية فستتسبب في تحللها سريعًا، وينهي أيّ عملية عشوائية أخرى يمكن أن تنتج الحياة. لو أن غلافَ الأرض المبكر به شروطٌ مؤكسدة، فمِن المستحيل أن يحدُث تولد عشوائي[١].

وقد حسبَ البروفسور جون كارفير[٢] كميةَ الأكسجين التي أنتجها التحلل الضوئي في الغلافِ المبكر للأرض، وتوصَّل إلى أنَّ تركيز الأكسجين الحرِّ وصلَ إلى ١٠ ٪ من المستوى الحالي. وأنَّ ذلك كافٍ في منع تكوين الأحماض الأمينية[٣]. ولكن، حتى على فرضِ خلوِّ الجوِّ المبكّر من الأكسجين، فإنَّه مشكل أيضًا. وقد بيّن دين أوفرمان ذلك بقوله: «حتى لو لم يوجَد الأكسجين في غلاف الأرض المبكر فغيابُ الأكسجين سيتسبَّب في عوائقَ تمنع تكوُّن الحياة؛ فهو مطلوب لطبقة الأوزون التي تحمي سطح الأرض من الأشعة فوقَ البنفسجية المميتة، وبدون الأكسجين ستتسبب هذه الأشعة في انهيارِ المركبات بمجرد تكوُّنها، وتدفُّق هذه الأشعة المميتة هي جزء من المشاكل المستعصية ضدَّ التولد العشوائي»[٤].

فهذا يدلُّ على أنَّ القائلين بالتطوّر الكيميائي للحياة بين أمرين في تكوُّن الغلاف الجوّي المبكر: أحلاهما مُرّ!

الوجهُ الخامس: استعملَ ميلر وأوري شرارات كهربائية في تجربتهما لمحاكاة البرق. ولكنْ ذكرَ سكوت هيوس أنَّ هذه الشرارات الكهربائية خفيفة

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (41)

(٢) جون كارفير (John Carver): بروفسور الفيزياء ومدير مدرسة الأبحاث في العلوم الفيزيائية في الجامعة الوطنية الأسترالية. توفي عام ٢٠٠٤م. انظر:
https://www.eoas.info/biogs/P000298b.htm

(٣) انظر:
"Prebiotic Atmospheric Oxygen Levels", by: J.H. Carver, Nature (292), 136, (1981)

(4) A Case Against Accident and Self-Organization (42)

جدًّا مقارنة مع البرق، وأنَّ الأرجح أنَّ البرق سوف يدمِّر أيَّ مكوِّنات عضوية لو كانت موجودة[1].

فلا دليلَ على وجود الحساء قبل الأحيائي أصلًا، ولو كان موجودًا فالغلاف الجوّي سوف يدمِّر المكوّنات العضوية، ولو لم يدمِّره الغلاف الجوّي لدمَّره البرق. وكلّ ذلك يدلُّ على الإشكاليات الكبرى في هذه الفرضية مع تجربتها. وهذا ما جعل كثيرًا من العلماء المتخصِّصين في أصل الحياة يعترفون بأنَّهم لا يعرفون كيف حصل التطوّر الكيميائي للحياة الأولى. وهو ما سيأتي في الوجه السادس.

الوجهُ السّادس: اعترفَ العلماءُ المتخصِّصون أنَّ أصل الحياة مازال لغزًا إلى يومنا هذا. استمرَّ العلماءُ في إجراء أبحاث علمية عن أصل الحياة بعد تجربة ميلر / أورو بدون نتيجةٍ مقنعة، حتَّى كتب العالم التطوّري كلاوس دوز[2] بعد ثلاثين سنة من أبحاث العلماء في هذا المجال مقالًا علميًّا بعنوان: «أصل الحياة: الأسئلة أكثر من الأجوبة» (The Origin of Life: More Questions Than Answers)، وقال فيه: «لقد أدّت أكثرُ من ثلاثين سنة من إجراء التجارب عنْ أصل الحياة في مجالات التطوّر الكيميائي والجزيئي إلى الوصول إلى إدراكٍ أفضل لضخامة مشكلة أصل الحياة على الأرض بدلًا من حلّها. وفي الوقت الحالي، فإنَّ المناقشات الدائرة عن نظريات وتجارب أساسية في هذا المجال إمّا أن تنتهي إلى طريق مسدود، أو إلى اعتراف بالجهل»[3].

وقد اعترف زعيمُ الملاحدة ريتشارد دوكينز في مقابلته مع الصحفي بين ستين عام ٢٠٠٧م، أنَّه لا يوجد أحدٌ يعرف كيف بدأت الحياة، وإنّما تُعرف نوعية الحدث وهي ظهور أوّل جزيء متكرّر ذاتيًّا[4].

---

(١) انظر: The Collapse of Evolution (153)

(٢) كلاوس دوز (Klaus Dose): بروفسور الكيمياء الحيوية، ورئيس معهد الكيمياء الحيوية في جامعة ماينز بألمانيا، ومتخصِّص في أصل الحياة. انظر:
https://prabook.com/web/klaus.dose/252009

(3) The Origin of Life: More Questions Than Answers, Interdisciplinary Science Reviews, (Vol 13, No 4, 1988, p. 348)

(٤) انظر المقابلة: https: / /www.youtube.com /watch?v=GlZtEjtlirc

فالملاحدةُ لديهم إيمانٌ أعمى بظهور الحياة بطريقة عشوائية بدون أي أدلة مقنعة عنْ كيفيتها. وهُم يعلمون جيّدًا أنَّ هذا أمر مستحيل وغير ممكن. وهذا ما جعل بعضَهم يتبَّنون فرضيةً علمية في غاية السخافة، كما سيأتي بيانه في الوجه السابع.

الوجهُ السّابع: حين اعترفَ بعضُ الملاحدة بأنَّ التطوّر الكيميائي العشوائي للحياة على الأرض مستحيلٌ لجأوا إلى القول بـ«نظرية التبذّر الشامل» (Panspermia Theory). قد عرَّفها قاموس أكسفورد بأنّها: «النظرية بالقائلة بأن أصل الحياة على الأرض من كائناتٍ دقيقة أو سلائف كيميائية من الحياة الموجودة في الفضاء الخارجي، ولديها قدرةٌ على بدء الحياة إذا وصلت إلى بيئة مناسبة»[١].

كان الفيلسوف اليوناني أناكساغوراس أوَّلَ مَن دعا إلى ما يشبه هذه النظرية في القرن الخامس قبل الميلاد، ثمَّ رجع هذا القول إلى المشهد العلمي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولكنَّها صيغَت بصياغةٍ علمية في بداية القرن العشرين[٢]. وقد تلقّى بعضُ العلماء الملاحدة هذه النظرية بقبول، ولكنّهم اختلفوا فيما بينهم على نظريات فرعية[٣].

وهذه النظرياتُ الفرعية كلّها - باستثناء واحدة منها - لا تجيبُ عن أصل السؤال: كيف تكوَّنت الكائنات الحيَّة من المادة غير الحيَّة مصادفة؟ والنظرية الوحيدة التي تجيب عنْ هذا السؤال هي: «التبذّر الشامل الموجّه» (Directed Panspermia). وملخّص هذه النظرية أنَّ كائنات فضائية من كواكب أخرى زرعوا الحياة على كوكب

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/panspermia

(٢) انظر لمقال: Over Our Heads: History of Panspermia
https://cosmosmagazine.com/biology/over-our-heads-a-brief-history-of-panspermia

(٣) انظر المقال:
What is the Origin of Life on Earth-Panspermia: Life from Outer Space.
https://science.howstuffworks.com/life/evolution/origin-of-life-on-earth4.htm

الأرض. ورغم غرابةِ هذا القول فقد ذهب إليه عددٌ من مشاهير علماء الملاحدة مثل: البروغسور فرانسيس كريك بعدَ اكتشافه تعقيد الحمض النووي، وأنه لا يمكن أنه قد ظهر مصادفة(١). وقد مالَ ريتشارد دوكنيز إلى هذا القول في مقابلته مع بين ستين - المشار إليها آنفًا -.

وهذه النظريةُ تافهة إلى حدٍّ أَنَّها لا تستحقُّ النقد؛ لأَنَّه لا دليل على وجود هذه الكائنات الفضائية ألبتة، فضلًا عن كونهم بذروا الحياة الأولى على الأرض. ثمّ إنه سيردُ سؤالٌ آخر: مِن أين جاءت هذه الكائنات الفضائية؟ وغاية ما في هذه النظرية محاولة الهروب من الإيمان بالله، ولهذا قد علَّق بين ستين على مقابلته مع دوكينز بقوله: «إذًا، البروفسور دوكينز ليس ضدَّ التصميم الذكي، وإنما هو ضدَّ مصمّمين معيّنين، مثل: الإله»(٢).

ويستغربُ البروفسور نيجل بروش من تبنّي هؤلاء العلماء هذه النظرية، وذكر أنَّ هذه النظرية من الأمثلة الجيدة التي تُبيِّن إلى أيٍّ مدى قد يذهب العلماء لتجنّب معرفة الإله. وأنَّ رسالة الإله عن التصميم الهادف مكتوبة بالفعل على واجهة الخلق بأحرف واضحة جليَّة، وأنَّ من العيب المأساوي أن عددًا من العلماء قد فشلوا في رؤية أو سماع هذه الرسالة(٣).

فهذه النظريةُ تدلُّ دلالةً قاطعة على أنّ الملاحدة يعترفون باستحالة ظهور الحياة عشوائيًّا، وأنه لا بدَّ من وجود الخالق، ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على الشُّبهات المتعلقة بالكيمياء:

قدْ أورد الملاحدةُ بعضَ الشبهات المتعلِّقة بالتطوّر الكيميائي للحياة، ولكنَّ هذه الشُّبهات ضعيفة وهزيلة، وقد ردَّ عليها علماءُ الغرب بردودٍ قيّمة ومفيدة وبيّنوا

---

(١) انظر المقال: History of Directed Panspermia
http://www.panspermia-theory.com/panspermia-theories/directed-panspermia

(٢) https: / /www.youtube.com /watch?v=GlZtEjtlirc

(٣) انظر: Limitations of Scientific Truth (234)

هشاشة تلك الشُّبهات. ونظرية التطوُّر نفسها تستندُ إلى حصول تطوّر كيميائي للحياة الأولى، وإلّا فإنه لا يمكن حصولُ تطوُّر بيولوجي أصلًا. ولقوَّة الردود على هذه الشبهات لجأ الملاحدةُ إلى نظرياتٍ أضحكت العقلاء على عقولهم مثل: نظرية التبذّر الشامل الموجّه، آنفةِ الذكر.

وردودُ علماء الغرب في هذا الباب علميَّة محْضة، ولا يُلمس منها روائح العقائد النصرانية الباطلة. ففي مثل هذا الباب يُستفاد من ردودهم، ويمكن استخدامها في الردِّ على شبهات الملاحدة التافهة.

وينبغي التوقُّف في هذه القضية على بيان أنَّ تكوُّنَ الحياة من اللاحياة مصادفة مستحيل. أمّا الخوض في بيانِ كيفية خلق الكائنات الأولى فهوَ من الغيب الذي لا يعلمُه إلّا الله. وعليه، فليس للحسِّ، ولا العقل، ولا العلم التجريبي؛ فيه مجال.

المبحثُ السّادس
ردودُهم على الشُّبهات المتعلقة بعلم النفس

هذا المبحث يتناول شبهاتِ الملاحدة المتعلِّقة بعلم النفس. وتمَّ تقسيمُه إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: بيانُ حقيقة شبهاتِ الملاحدة المتعلقة بعلم النفس.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلقة بعلم النفس.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلقة بعلم النفس.

الفقرةُ الأولى: بيانُ حقيقة شبهاتِ الملاحدة المتعلقة بعلم النفس:

قد تقدَّم أنَّ قاموس أكسفورد عرَّف علمَ النفس بأنه: «الدراسة العلمية للعقل البشري ووظائفه، لا سيَّما المؤثّرة في السلوك في سياق معيّن»[1]. وهذا العلم يتفرّع إلى علومٍ متعدّدة، مثل: علم النفس المعرفي، وعلم النفس التربوي، وعلم النفس السلوكي، إلخ[2]. ومِن ضمن أنواع علم النفس: ما يسمى بعلم نفس الأديان (Psy-chology of Religion). ويتناول هذا العلم ثلاثةَ محاور رئيسة:

المحورُ الأوّل: التوصيفُ الممنهج للظواهر والتجارب الدينية.

المحورُ الثّاني: شرحُ أصل نشأة الدين والتديُّن، سواء في تاريخ الجنس البشري أو في حياة الأفراد.

---

(١) قاموس أكسفورد على الرابط: https: / /www.lexico.com /definition /psychology

(٢) انظر المقال: The Major Branches of Psychology في موقع جامعة الملك (King University) على الرابط: https://online.king.edu/about/our-history/

المحورُ الثّالث: تحديدُ عواقب المواقف والسلوكيات الدينية، سواء أكان للفرد أو للمجتمع ككل[1].

وشبهاتُ الملاحدة المتعلقة بعلم النفس تأتي في الغالب من المحور الثاني، حيث يسعونَ إلى تفسير نشأة أصلِ الدين بفرضيّات مادية، وأنَّ المعتقدات الدينية مبنيَّة على تخيُّلات الإنسان وليس أنها حقيقة.

الفيلسوفُ اليوناني إكزينوفانيس مِن أوائل مَن تكلّم عن أصل المعتقدات الدينية. وذلكَ في مقولته المشهورة: «يعتبر البشرُ أنَّ الآلهة قد ولدت مثلهم، ولديهم ملابس مثلَ ملابسهم، وصوتًا وشكلًا. ولكن إذا كانت الماشية والخيول والأسود لديها أيدٍ أو يمكن أن ترسم بأيديها، وتبتكر أعمالًا مثل الرجال، فإنَّ الخيول مثل الخيول والماشية مثل الماشية ستصوّر أيضًا أشكال الآلهة، وتجعل أجسادهم من هذا النوع... يقول الإثيوبيُّون إنَّ آلهتهم فُطس الأنف وسوداء. التراقيون[2] يقولون إنَّ آلهتهم شاحبون وذَوُو شعور حمراء... يوجد إلهٌ واحد أعظمُ من الآلهة والبشر، لا يشبه البشرَ، لا في الشكل ولا في الفكر»[3].

وهذه المقولةُ اشتهرتْ بينَ علماء النصارى الأوائل وكانوا يتناقلونها في كتبهم[4]. ومقولةُ الفيلسوف إكزينوفانيس تفرِّق بين الديانات الشركية وبين الإيمان

---

(١) انظر:

Psychology of Religion, by: D.M. Wulff, in Encyclopedia of Psychology and Religion (732-735), ed. D.A. Leeming, K. Madden and S. Marian (Springer, 2010)

(٢) التراقيون: شعوب هندو – أوروبية سكنوا في منطقة تراقيا، وهي حاليًا في جنوب شرق أوروبا. انظر:

https://www.historyhit.com/the-strongest-nation-on-earth-who-were-the-thracians/

(3) Xenophanes of Colophon: Fragments (124) trans. J. H. Lesher (University of Toronto Press, 2001)

(4) Miscellanies Book VII, Chapter IV, by: Clement of Alexandria, Trans. Fenton John Anthony and Joseph B. Mayor, (Macmillian and Co, 1902)

بالإله الحقّ. فالظاهر أنَّه كان يرى أنَّ المعتقدات الوثنية مبنية على تخيّلات الإنسان. فالمعتقد الوثني إسقاطٌ نفسي، وتجسيدٌ لهذا الإسقاط وتلك التخيُّلات، بينما رأى الفيلسوف إكزينوفانيس ومَن تبعَه مِن علماء النصارى أنَّ الإيمان بالإله الحقِّ حقيقة موضوعية ثابتة.

ولكن تغيَّر هذا النوع مِن النقد في القرن التاسع عشر في ألمانيا. والذي تولّى كبرَه أوَّلًا: الفيلسوف الألماني جورج هيغل حينَ انتقد مَن اعتقد أنَّ الإله خارج عن الطبيعة، وبعيدٌ عن الإنسان. وذكر أنَّ هذا النوع من الإيمان في الحقيقة هو إسقاطٌ نفسي من طبيعة النفس غير السعيدة.

ذكرَ الفيلسوف بيتر سنغر في وصفِه لفلسفة هيغل أنه قد يظنُّ أنَّه يوجّه هذا النقد إلى مُعتقدات اليهود والنصارى، وأنه لا يسلم مِن هذا النقد إلّا أتباع المذهب الإنساني - الذي يؤلِّه الذات الإنسانية - والقائلون بوحدة الوجود؛ ولكنَّ هيغل نفسه كان نصرانيًّا لوثريًّا كما بيَّنه في بعض المواضع الأخرى من كتبه. فانقسم أتباع هيغل إلى تياراتٍ مختلفة في فهمهم لنقد هيغل. وكان مِن ضمن هذه التيارات ما عُرف بالتيار المتطرِّف من أتباع هيغل، واستنتج أتباعُ هذا التيار أنه كان ينتقد المعتقداتِ الدينية عمومًا[1].

وعُرِف التيارُ المتطرِّف بالهيغيليين الشباب (Young Hegelians) وكانوا يتبنَّون المذهب المادي المعادي للدين. وكان لودفيغ فيورباخ مِن أبرز تلاميذ هيغل وأتباع هذا التيار. وألَّف كتابه المشهور: «جوهر المسيحية» (Das Wesen des Christentums)، وقدّم فيه فرضية الإسقاط المشهورة.

ذكرَ فيورباخ في هذا الكتاب أنَّ البشرية اخترعت فكرةَ الإله كتعزية وإلهاءٍ عن الأحزانِ في العالم. الفكرةُ الأساسية التي طوَّرها فيورباخ هي فكرة: «إسقاط» أو

---

(١) انظر:

Hegel: A Very Short Introduction (84-85), by: Peter Singer, (Oxford University Press, 2001)

«تجسيد» العواطف والمشاعر والأماني الإنسانية؛ فالعقل البشري، دون أن يكون مدركًا لما يفعله، يسقط رغبتَه في الخلود، ووجود المعنى للحياة؛ إلى أفكار خيالية، ويزعم أن الإله موجود(١).

وكان كارل ماركس مِن أتباع التيار المتطرِّف لهيغل، ومتأثّرًا بفلسفة فيورباخ. وفي عام ١٨٤٣م، ألَّف ماركس رسالة: «مساهمة في نقد فلسفة الحقّ عند هيغل» (A Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Religion)، ومما قاله فيها: «أساس النقد اللاديني هو: أنَّ الإنسان يصنع الدين، والدين لا يصنع الإنسان. الدين... المعاناة الدينية هي التعبير عنْ معاناة حقيقية، واحتجاج ضدَّها. الدينُ هو ألم الإنسان المظلوم، وكيان الظروف العَدَمي الروح، إنَّه أفيون الشعب. إلغاءُ الدين كسعادة وهمية للناس هو مطلب سعادتهم الحقيقية. إنَّ دعوتهم للتخلي عن أوهامهم حول حالتهم هي دعوة لهم للتخلي عن حالة تتطلب الأوهام»(٢).

وحيث إنَّ المذهب الشيوعي هو في الأصل مذهبٌ اقتصادي، ومبنيٌّ على الصراع بينَ الطبقات، فسَّر أتباع هذا المذهب نشأة الأديان في هذا الإطار، ورأوا أنّ الدينَ أحدثته الطبقةُ المالكة لاستغلال الطبقات الكادحة الضعيفة(٣).

---

(١) انظر:

The Twilight of Atheism: The Rise and Fall of Disbelief in the Modern World (56-57), by: Alister McGrath (Doubleday, 2004).

هذا الكتاب من أدقِّ وأفضل الكتب، وقفتُ عليها في سرْد تاريخ الشبهات الإلحادية من علم النفس، ولهذا أعتمدُ عليه هنا. والكتابُ لألستر ماكغراث، البروفسور في جامعة أكسفورد، والمتخصِّص في نقد خطاب الإلحاد المعاصر.

(٢) رسالة: A Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Religion, وهي منشورة على الرابط:

https://www.marxists.org/archive/marx/works/1843/critique-hpr/intro.htm#05

(٣) انظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢ / ٤٢٨).

وكانت هذه التفسيراتُ لأصل الدين في زمن هيغل، وفيورباخ وماركس ضمن المباحث الفلسفية. ولكن تغيّر ذلك مع سيغموند فرويد - مؤسسة التحليل النفسي -؛ فكان فرويد متأثّرًا إلى حدٍّ كبير بفلسفة فيورباخ، بل صرّح أنه من أكثر الفلاسفة الذين يحترمهم ويبجِّلهم، ولكنَّه أعاد فلسفته في نشأة الأديان بفرضية الإسقاط إلى نظرية علمية في علم النفس. وكان فرويد يرى أنَّ الطبيعة في الإنسان أنه لا يؤمن بوجود أي إله، وأنَّ الدين أمرٌ طارئ على الإنسان. وعليه، فكان يرى أنَّ الدين بحاجة إلى التفسير لأنَّه انحراف عن الحالة الطبيعية للبشرية[1].

في مقالته: «ليوناردو دافنشي وذاكرة طفولته» (Leonardo da Vinci and a Memory of His Childhood) عام ١٩١٠م، حدَّد فرويد شرحه للتديّن الفردي. ومما قاله في هذا الكتاب: «لقد جعلنا التحليلُ النفسي على دراية بالعلاقة الحميمة بين العقدة الأبوية والإيمان بالإله؛ فقد أظهر لنا أنَّ الإله الشخصي - من الناحية النفسية - ليس سوى أب جليل، وهو يقدِّم لنا دليلًا كلَّ يوم على كيف أن الشباب يفقدون معتقداتهم الدينية بمجرَّد أنْ تنهار السلطة الأبوية. وعليه، فإننا ندرك أنَّ جذور الحاجة إلى الدين تكمن في العقدة الأبوية»[2].

ويمكن العثورُ على أوَّل بيان رئيسي لوجهات نظر فرويد عن أصل الأديان، أو «التكوين النفسي»، في كتابه: «الطوطم والتابو» (Totem and Taboo) عام ١٩١٣م. طوَّر فرويد ملاحظتَه السابقة بأنَّ الطقوس الدينية تشبه التصرفات الوسواسية للمرضى العصابيين؛ فأعلن أنَّ الدين كان في الأساس سببه العصاب الوسواسي. وجادل أن العناصرَ الأساسية في جميع الأديان هي تبجيلُ شخصية الأب (مثل: الإله أو يسوع المسيح)، والإيمانُ بقوة الأرواح، والاهتمام بالطقوس المناسبة. وذكر أنه يمكن تفسيرُ ذلك على المستويين التاريخي والنفسي[3].

---

(١) انظر: The Twilight of Atheism (68 - 69)

(2) 'Leonardo da Vinci and a Memory of his Childhood', in Complete Psychological Works Vol.11, p.123

(٣) انظر: The Twilight of Atheism: (70 - 71)

ويمكن تلخيصُ نظرية فرويد الغريبة هذه بأنْ يقال: «أوّل أشكال المجتمعات البدائية كان قبليًا، وكان الأبُ (رئيس القبيلة) عنيفًا شرسًا وغيورًا، لذلك كان يستحوذ على نساءِ القبيلة، ويمنعهنَّ أبناءَ الذكور عندما يكبرون، كما كان يستأثر بكل السلطات. لذلك تحالف أبناؤه على قتلِه ثمَّ التهموه. وبالتهام الأب تمثّل به الأبناء، وأخذ كلٌّ منهم قدرًا من قوّته؛ لذلك وضع الإنسانُ في الديانات التي ابتكرها طقسَ تقديم الأضحيات والأكلِ منها، وجعلوا الأب طوطمًا[1] يتوجَّهون إليه بالتقديس.

لقد أشبعَ الأبناء البدائيون كرهَهم لأبيهم بقتله، واحتلال مكانته والتمثّل به بالتهامه. أمَّا الإحساسُ بالندم فقد عالجوه بأن ربطوا بين أبيهم وبين القوة السماوية الغيبية (الإله) التي افترضوا وجودَها لتدعهم ضدَّ الطبيعة.

هكذا استطاع الأبناءُ مجتمعين أن يفعلوا ما كانوا عاجزين عنه فرادى، وأدركوا أهمية الاجتماع حولَ شيء معيّن، ومن هنا كان اجتماعهم حول الدين.

ويتتبَّع فرويد نشأة الديانات، ويتبنَّى أنها كانت بدائية تعددية، ثمّ تدرجت وتعقدت حتَّى وصلت إلى الديانات التوحيدية، التي يتّصف فيها الإله بصفات أبوية. ولا شكّ أنَّ التعامل مع الإله الواحد يكفل تحقيقَ الحميمية والقرب المتمثلين في العلاقة بين الابن وأبيه.

وهكذا تقوم نشأةُ الأديان عند فرويد على أساسين نفسيين رئيسيين: الخوف من الطبيعة (كعنصر خارجي) والشعور بالذنب (كعنصر داخلي)...»[2].

وألَّف فرويد كتبًا أخرى عن التحليلات النفسية لنشأة الدين. «مستقبل الوهم» (Die Zukunft einer Illusion) الذي صدر عام ١٩٢٧م، وخصّص هذا الكتابَ لادِّعاء أنَّ أصل الدين مجرَّدُ أوهام وأماني ورغبات لدى الإنسان، وتطوّرت حتى أصبحت معتقدات دينية[3].

---

(١) الطوطم: هو كيان يحترمه مجموعة من الناس، خاصة لأسباب دينية.
انظر: https: / /dictionary.cambridge.org /dictionary /english /totem

(٢) انظر: الإلحاد مشكلة نفسية (٦٦ - ٦٧).

(٣) انظر: The Twilight of Atheism: (74)

كما ظهرتْ تفسيراتٌ وتحليلات نفسية أخرى لنشأة الأديان، ولكنَّها في نهاية الأمر ترجعُ إلى ما سبق. ولهذا نجد أنَّ الملاحدة يردّدون هذه العبارات والتحليلات في كتبهم؛ فكبيرُ الملاحدة في القرن العشرين: برتراند راسل يفسِّر الدين بأنه ظاهرة مرضية سببها الخوفُ من الطبيعة(١). وكبيرُ الملاحدة في القرن الواحد والعشرين: ريتشارد دوكينز يسمّي كتابَه الأشهر: «وهم الإله»، وهو اسمٌ قريب من اسم كتاب فرويد: مستقبل الوهم الذي زعم فيه أنَّ الإيمان بالإله مجرّد وهم. وكريستوفير هيتشن يذكر فرويد في ثمانية مواضع في كتابه الأشهر: «الإله ليس عظيمًا»(٢). وهيتشن نفسه نشأ متأثّرًا بماركس - كما سبق بيانُه -، ونقل مقولته القبيحة: «الدين أفيون الشعوب» في ذلك الكتاب أيضًا(٣).

وهذا يدلُّ على أنَّ الفرضيات التي قدّمها فرويد ومن سبقه ما تزال مؤثرة في أطروحاتِ الملاحدة المعاصرين، وأنَّ نظرتهم لنشأة الدين ترجع إلى من سبقهم من الملاحدة.

الفقرةُ الثانية:

ردودُ علماء الغرب على شُبهاتِ الملاحدة المتعلقة بعلم النفس:

قد وصفَ محرّرو موسوعة بريتانيكا - وهي من أشهر الموسوعات العلمية في الغرب على الإطلاق - سيمغموند فرويد بقولهم: «قد يُطلق بحقٍّ على فرويد أنَّه أكثرُ مشرّع فكري تأثيرًا في عصره»(٤). وكان فرويد مؤسِّس التحليل النفسي وأثّر في

---

(١) انظر:

Why I Am Not a Christian: And Other Essays on Religion and Related Subjects (22), by: Bertrand Russel (Simon and Schutser, 1957)

(٢) انظر:

God is Not Great (4), (10), (103), (155), (247), (256), (259), (273)

(٣) انظر: المصدر السابق (٩ - ١٠).

(٤) انظر سيرته في موقعهم على الرابط:

https://www.britannica.com/biography/Sigmund-Freud

الملاحدة بعده، ولا سيَّما فيما يتعلَّق بتحليلاته النفسية لنشأة الدين. ولذلك سيتمّ التركيزُ على نقد أطروحاته في هذا المقام دون التفسيرات الأخرى لنشأة الدين.

وقد ردَّ علماءُ الغرب على فرضياته في نشأة الدين من أوجه كثيرة جدًّا. أختار منها الأوجهَ الستّة الأهمّ:

الوجهُ الأوَّل: شبهاتُ الملاحدة في هذا الباب مبنية على افتراضه أنّ الإلحاد صحيح. وفرويد قد تأثَّر بفلسفة فيورباخ الإلحادية إلى حدٍّ كبير كما سبق. وقد قال البروفسور ألستر ماكغراث في ردِّه على فيورباخ: «كانت هناك مشاكل في نهج فيورباخ، حيث لم يكنْ منتقدوه بطيئين في الإشارةِ إلى ذلك. وكانت دائرية الحجة مصدر قلق خاصّ: يفترض فيورباخ أنه لا يوجَد إله، ثمَّ يتحوَّل إلى السؤال عن سبب رغبة أيِّ شخص في الإيمان بالإله. بعد أن تمَّ الافتراضُ المسبق للإلحاد، فإنه من السهل أن يجعله نتيجةَ الحجة»[1]. فالمنهجية عندَ فيورباخ - الذي يعدُّ من أعظم القدوات لفرويد - كانت خاطئةً من أصلها؛ لأنَّه افترض أنَّ الإلحاد صحيح قبل إقامة حجّته أصلًا. وهذا يجعل حجتَه دائرية، والحجج الدائرية غير مقبولة.

وفرويد نفسُه اتَّبع هذه المنهجية في دراساته؛ قال البروفسور ماكغراث: «قبل الانتقال لاستكشاف مزيج الأفكار المعقّد والمتغيّر الذي يشكّل النقد الهائل للدين لدى فرويد؛ فمِن المهمِّ أن نلاحظ أنَّ إلحاد فرويد كان الافتراض، وليست النتيجة لنظرياته. تسبق نظرية فرويد للتكوين النفسي للدين دراسته للأديان. في الواقع، كان قد قرَّر بالفعل نظريتَه قبل البدء في التعامل مع الأدبيات المتعلقة بهذا المجال»[2].

ففرويد تأثَّر بالخطاب الإلحادي أوّلًا، وقرَّر أنَّ الإلحاد هو الأصل، وأنّ الدين بحاجة إلى تفسير، ثمَّ ذهب يبحث عن المبررات لهذا الافتراض من علم النفس. ولكن الواقع أنَّ العكس صحيحٌ تمامًا؛ لأنَّ الإنسان مفطورٌ على الإيمان بالله وليس مفطورًا على الإلحاد. وقد سبقَ بيانُ ذلك بالتفصيل في المبحث المخصص للحديث

---

(1) The Twilight of Atheism: (58)

(٢) المصدر السابق (٧٠).

عن الفطرة. فقد بنى فرويد نظرياتِه على أصل فاسد. وعليه، فلا يمكن الوثوقُ بها ولا الاعتماد عليها.

الوجهُ الثّاني: لا شكَّ أنَّ فرويد أثّر كثيرًا في المجتمعات الغربية بنظرياته في مجال التَّحليل النفسي، ولكن هل يعني ذلك أنَّ دراساته - ولا سيَّما دراساته عن نشأة الأديان - كانت صحيحة؟ الواقع أنَّ الأمر ليس كذلك. وقد تعالت الأصوات بين العلماء في الغرب بنقدِ نظريات فرويد في علم النفس. ومن ذلك أن الدكتور ماكس شارينبيرغ[1] ذكر مدى انتشار النقد الموجَّه لفرويد في بحث بعنوان: «انتقاد فرويد والتحليل النفسي» (Criticism of Freud and Psychoanalysis)، وقال في ملخّص البحث: «يُعتقد عمومًا أنَّ النقد الحديث لفرويد والتحليل النفسي قد بدأ في التسعينيات. صحيح أنَّه في هذا العقد **انفجر النقدُ بزيادة مفاجئة وملحوظة** في الكمية. ولكن تمَّ نشرُ عددٍ قليل من الكتابات النقدية عالية الجودة من عام ١٩٦٠ فصاعدًا»[2].

وقد ألَّف ريتشارد ويبستير[3] كتابه: «لماذا كان فرويد مخطئًا» (Why Freud was Wrong) وذكر فيه أنَّ نظريته في التحليل النفسي أعقد نوع من العلم الزائف وأكثره انتشارًا في التاريخ[4].

---

(١) ماكس شارينبيرغ (Max Scharnberg): أستاذ مساعد في قسم التربية والتعليم في جامعة أوبسالا في السويد. وهو متخصِّص في نقد نظريات فرويد. انظر:
http://www.psychiatrie-und-ethik.de/infc/1_gesamt_en.html

(٢) بحث: Criticism of Freud and Psychoanalysis, وهو منشور على الرابط:
http://www.diva-portal.org/smash/get/diva2:231452/FULLTEXT01.pdf

(٣) ريتشارد ويبستير (Richard Webster): الروائي النيوزيلندي المشهور، فقد بيع ملايين من النسخ من كُتبه. وهو مهتمٌّ بقضايا نفسية. انظر:
https://www.encyclopedia.com/arts/educational-magazines/webster-richard-1946

(٤) انظر:
Why Freud was Wrong: Sin, Science and Psychoanalysis (12), by: Richard Webster, (The Orwell Press, 2005).

وإذا كان هذا النقد ينطبقُ على فرضيات فرويد عمومًا، فإنّ فرضياته المتعلقة بنشأة الدين أبعدُ عن الصواب. وقد ذكر البروفسور ألستر ماكغراث أنّ فرضية فرويد للأصول التاريخية للدين تُعتبر الآن بشكل عامٍّ غيرَ موثوق بها تمامًا[١]. ومن أسباب ذلك كما ذكرَه البروفسور ماكغراث أنَّ فرويد كان يستخدم النصوص المؤيدة لأفكاره بطريقة عشوائية وانتقائية للغاية[٢].

ولكنْ ما السببُ في منهجه الانتقائي؟ قد نجد الجوابَ في سيرة حياة فرويد، حيث تذمَّر فرويد من الاضطرار إلى قراءته في العديد من المجلدات المملة المتعلقة بالدين. وهو يعلِّق على ذلك بأنه لا طائلَ من ورائها لأنه يعرف بالفعل إجابة سؤاله عن أصل الدين؛ فقال: «أنا أقرأ الكتبَ دون أن أهتمَّ بها حقًّا، لأنني أعرف النتائج بالفعل؛ غريزتي تقول لي ذلك»[٣].

وبذلك نفهم أنَّه لا يوثق بدراساتِ فرويد عمومًا، وبفرضياته المتعلقة بأصل الدين خصوصًا. فهو ملحدٌ يريد أن يبرِّر لإلحاده فقط. والغريب في الأمر أنّ كريستوفر هيتشن - الذي أكثرَ من الاستشهاد بكلام فرويد وماركس - يقول في كتابه: «الإله ليس عظيمًا» عنهما: «يجب الاعترافُ بأنَّ ماركس وفرويد لم يكونا طبيبين ولا عالمين بالمعنى الدقيق. مِن الأفضل التفكير فيهما على أنهما من كتَّاب مقالات، وأنهما من الخياليين العظماء وغير المعصومين»[٤]. وقد صدقَ وهو كذوب؛ ففرويد ليس بعالم بمعنى الكلمة، وليس بمعصوم، ويكتبُ الخيالات. ولكن السؤال يطرح نفسه: لماذا يتمسّك الملاحدةُ بخيالاته إذًا؟!

---

(١) انظر: The Twilight of Atheism: (71)

(٢) انظر: المصدر السابق (٧٠).

(3) Sigmund Freud: Life and Work. Vol 2: (123), by: Ernst Jones, (London: Hogarth Press, 1953-7)

(4) God is not Great (10)

الوجهُ الثّالث: ادَّعى فرويد أنَّ الإيمان مجرّدُ وهْم، واستند في ذلك إلى نظريته في العقدة الأبوية. وقد ذكرَ البروفسور بول فيتز أنَّ فرويد محقّ في أن الإيمان قد يكون وهمًا - مثل المعتقدات الفاسدة الوهمية -، ولكنَّه ذكر أيضًا أن النظرية التي استند إليها فرويد قد توفِّر من غير قصد وسيلةً جديدة لإدراك أن الوهم هو الأساس النفسي للإلحاد[1]. وبرهنَ البروفسور فيتز على ذلك في كتابه: «إيمان فاقد الأب: نفسية الإلحاد» (Faith of the Fatherless: The Psychology of Atheism)، وذكر عشرات الأمثلة على أنَّ كبارَ الملاحدة نشأوا بدون آباء، أو كانت لديهم مشاكل كبيرة مع آبائهم، وأنّ ذلك كانَ من أسباب إلحادهم. وقد سبقتِ الإشارةُ إلى هذه الدراسة عند الحديث عن الحجج على وجود الله من علم النفس.

وبذلك يمكن أن نقلبَ الدليلَ على فرويد، ونستخدم نظريته - على فرض صحّتها - في بيانه أنَّ الإلحاد مجرَّدُ وهم.

الوجهُ الرّابع: حاول فرويد أنْ يبرهن على فرضيته في أصل الدين تاريخيًّا بالديانات البدائية، كما سبق. ولكنَّ الاستشهاد بكيفية نشأة الديانات البدائية فيه إشكال كبير؛ لأنَّ نشأةَ هذه الديانات محاطةٌ بكثير من الغموض. وقد ذكر البروفسور مايكل ج. موراي[2] أنَّ كثيرًا من العلماء ينتقدون التفسيرات التطوّرية لنشأة الأديان لكونها مبنية على تخمينات، وأنه لا يمكن اختبارُ صحتها بشكل واضح[3].

---

(١) انظر: نفسية الإلحاد - إيمان فاقد الأب - (٣١).

(٢) مايكل ج. موراي (Michael J. Murray): بروفسور الإنسانيات والفلسفة في كلية مارشال بالولايات المتّحدة. انظر:

God is Great, God is Good (261)

(٣) انظر:

Evolutionary Explanations of Religion, by: Michael J. Murray, in: God is Great, God is Good (94)

وعليه «فقدِ اعتمدَ المعترضون على الأديان في دراستهم للمجتمعات الإنسانية القديمة على بياناتٍ ناقصة ومعلومات فقيرة جدًّا، فمن المعلوم أن المراحل الأولية من حياةِ الشعوب الإنسانية لا نكاد نملك عنها إلّا النزر اليسير من المعلومات، والباحثون في أحوالها يعتمدون كثيرًا على الظنِّ والتخمين؛ ونتيجة لذلك اختلفت النتائج التي توصَّل إليها الدارسون حول تلك المجتمعات، وتضاربت أقوالهم في توصيفها وتحديد معالمها»[1].

ولا شكَّ أنَّ المجتمعات البدائية الأولى لم تكن تدوّن معتقداتها، فضلًا عن بيان سببِ نشأتها. ومع ذلك فقد يُقال إنه يمكن دراسة معتقدات الأمم المنعزلة اليوم، وإنّها تمثِّل الديانات البدائية الأولى. ولكنَّ هذا المنهج مُشْكل أيضًا، وقد بيّن الدكتور محمد عبد الله دراز[2] (رحمه الله) وجهَ الإشكال في ذلك إذ قال: «... وأمّا من حيث المنهج وهو الاستدلالُ على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية، فلأنَّه مبني على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التي وصل إليها بحثنا، وأنها لم تمرّ بها أدوارٌ متقلّبة. وهو افتراض لم يقم عليه دليل، بل الذي أثبته التاريخ، واتَّفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية؛ هو أنَّ فترات الركود والتقهقر التي سبقتْ مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقةً بمدنيات مزدهرة، وأن هذه المدنيات قامت بدوْرها على أنقاض مدنيّات بائدة، قريبة أو بعيدة، في أدوار تتعاقب على البشرية، كما تتعاقبُ الفصول السنية على الطبيعة بحيث يصبح من العسير أن نحكم بصفة قاطعة بأيِّهما بدأت دورةُ الزمان. وليس تعيينُ أحد الأمرين للابتداء الحقيقي بأثبتَ تاريخيًّا من مُقابله. فكذلك نقول في شأنِ العقائد الدينية: إنه من الممكن أن تكون الخرافات القديمة بدايةَ ديانات، كما يمكن أن تكون نتيجة تحلّل وتحريف لديانة صحيحة سابقة مزَّقت أهلها الحروب، أو أفسدتهم الآفاتُ الاجتماعية، فقلّت عنايتهم بأصول دينهم،

---

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢/ ٤١٣).

(٢) محمد عبد الله دراز: فقيه مصري أزهري. كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر. من مؤلفاته: الدين - بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، وموارد الدولة. توفي عام: ١٣٧٧هـ. انظر: الأعلام (٦/ ٢٤٦ - ٢٤٧) للزركلي.

وتلقّوا بالتسليم والقبول كلَّ ما سمعوه من أفواه الأدْعياء والدجالين، وشاعت بينهم هذه الرواياتُ حتى أصبحت سننًا مقدّسة»[1].

وتقلُّبات الأمم في عقائدها هي ما تدلُّ عليه نصوص الكتاب والسنة. ومن الأمثلة على ذلك: ظهورُ الشِّرك في قوم نوح بعد أن كانوا على التوحيد، ووقوع بني إسرائيل في الشِّرك في زمن موسى، وتبديل دين إبراهيم وإسماعيل في جزيرة العرب. وعليه، فإنّنا نفهم أنَّ دراسة تاريخ نشأة الأديان محاطة بكثير من الغموض من حيث العموم. وعليه؛ فهل يصحُّ ادِّعاء فرويد أنَّ الديانات تتطوّر من الديانات الوثنية إلى التوحيد؟

الوجهُ الخامس: بنى فرويد فرضيتَه في نشأة الأديان على أن الأصل في الإنسان: الإلحاد، ثمَّ ظهرت المعتقدات الدينية الأولى ممثلة في الديانات الوثنية، وتطوّر الأمرُ بعد ذلكَ إلى أنْ ظهرت الديانات التوحيدية. ورغمَ ما في دراسة الديانات الأولى من الغموض من النّاحية التاريخية المحضة[2] إلا أنَّ كثيرًا من علماء الغرب بيّنوا أن الديانات الأولى كانت قائمةً على التوحيد. ومن هؤلاء العلماء:

العالم الأوَّل: توصّل ويلهلم شميدت[3] في كتابه: أصل الأديان وتطوّراتها (The Origin and Growth of Religion) بعد دراسة موسَّعة إلى أنّ جميع الديانات ترجع في الأصل إلى عبادات توحيدية[4].

---

(١) الدين - بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان (١٠٨ - ١٠٩)، للدكتور محمد عبد الله دراز (دار القلم، ١٩٩٠م).

(٢) وسيأتي أنَّ الوحي يدلُّ دلالة قاطعة على أن الأصل في البشرية: التوحيد، إلا أن الملحد لا يسلِّم بربانية النصوص، فلذا أذكرُ هذه الدراسات التاريخية. وسيأتي الحديث عن دلالة الوحي بعدَ ذلك إن شاء الله.

(٣) ويلهلم شميدت (Wilhelm Schimdt): قسيس كاثوليكي وعالم الأنثروبولوجيا والأجناس، ومؤرخ الأديان الألماني. توفي عام: ١٩٥٤م. انظر: https: / /www.anthropos.eu / anthropos /heritage /schmidt.php

(٤) انظر ملخّصًا عن كتابه على هذا الرابط:

https://www.amazon.com/Origin-Growth-Religion-Wilhelm-Schmidt/dp/0990738604

العالِمُ الثّاني: أَلَّف أندرو لانج[١] كتابه: «صنع الدين» (The Making of Religion)، وبيَّن فيه أن الإنسان البدائي كان يؤمن بإله أعلى، وهو إله السماء. واستند في ذلك إلى دراساتٍ في الأنثروبولوجيا عن القبائل في وسط أفريقيا، وبعض قبائل الأمريكتين وأستراليا الجنوبية الشرقية[٢].

العالِمُ الثّالث: وافقَ البروفسور إدوين جيمس[٣] ما توصّل إليه ويلهلم شميدت وأندرو لانج في كتابه: الدين قبل التاريخ: دراسة في علم الآثار قبل التاريخ (Prehistoric Religion: A Study in Prehistoric Archeology)، وذكر فيه أن الإله الواحد الأعلى هو الأصل عند الإنسان البدائي إذا لم يتأثّر بأفكار أخرى[٤].

وذكرَ البروفسور فيتز أنَّ في ذلك ردًّا على فرويد في تحليلاته لديانة الإنسان البدائي في كتابه: الطوطم والتابو[٥].

وقد أخبرَ الوحي القطعي بأنَّ الإنسان الأوّل كان موحّدًا، بل كان نبيًّا من أنبياء الله؛ وهو آدم. وكان الناسُ أمة واحدة، ثمَّ اختلفوا إلى ديانات مختلفة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣]. وأولى تفسير بالصواب لهذه الآية، هو ما قاله حبرُ هذه الأمَّة ابن عباس (رضي الله عنهما): (كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعةٍ من الحقّ، فاختلفوا، فبعثَ اللهُ النبيين مبشرين ومنذرين)[٦].

---

(١) أندرو لانج (Andrew Lang): عالم الأنثروبولوجيا الأسكتلندي، درس في جامعة أكسفورد العريقة، وتخصَّص في أساطير القوميات القديمة. توفي عام: ١٩١٢م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Andrew-Lang

(٢) انظر: الإلحاد مشكلة نفسية (٧٨ – ٧٩).

(٣) إدوين جيمس (Edwin James): بروفسور تاريخ الأديان وفلسفتها في جامعة ليدز ببريطانيا. وقد تخصّص في دراسة الأديان البدائية. توفي عام ١٩٧٢م. انظر:
https://www.encyclopedia.com/environment/encyclopedias-almanacs-transcripts-and-maps/james-e-o

(٤) انظر: الإلحاد مشكلة نفسية (٧٩).

(٥) انظر: نفسية الإلحاد (٣٤).

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣/ ٦٢١).

ومما يجدرُ التنبيه عليه في هذا المقام، أنَّه لا ينبغي إطلاق كلمة: الإنسان البدائي على أتباعِ هذا الدين الأوَّل؛ لأنَّ في مقدِّمة البشر الأوائل: الأنبياء وأتباعهم من الصالحين.

الوجهُ السّادس: ادَّعى فرويد - ومَن تبعه من الملاحدة - أنَّ الدين مبني على أمنياتٍ كاذبة في الأمان، وغير ذلك. وقد تطوَّرت بعد ذلك في صورة معتقدات دينية تتعلَّق بالإله. وقد ردَّ البروفسور ماكغراث على هذا الادّعاء بأنه يمكن قلب هذا الادّعاء على عقيدةِ الملحد؛ فقال: «وأشيرُ أيضًا إلى أنه إذا كان الإيمان بالله استجابة لتوْقِ الإنسان إلى الأمان، فهل لا يمكن أيضًا القولُ بأن الإلحاد كان استجابة لرغبة الإنسان في الاستقلال»[١]. يشيرُ بذلك إلى رغبةِ الملاحدة إلى الاستقلال عن الأوامر الإلهية والانْسلاخ عنها، وأنَّ ذلك من أسباب وقوع الناس في الإلحاد. وهذا كلام صحيح.

ومِن أجمل ما قيل في الردِّ على ادِّعاء ماركس أنّ الدين أفيون الشعوب: ما قاله الشاعر البولندي شيسواو ميووش[٢]: «... الأفيون الحقيقي للناس هو الإيمان بالعدم بعدَ الموت: العزاء الكبير، والراحة الهائلة في التفكير بأن لن نحاسب على خياناتنا، وجشعنا، وجبننا، وقتلنا»[٣].

وهذا كلامٌ صحيح، ويبيّن أنَّ الإلحاد معتقد زائف مبني على أمنيات كاذبة في عدم المحاسبة على فعْل الشر. وعليه؛ فالملحد أمام أمرين:

إمّا أن يقول: مجرَّد تمنّي الشيء دليلٌ على أنه وهم. ولو قال ذلك قلَبنا الحجة عليه.

وإمّا أن يقول: مجرَّد تمنّي الشيء ليس دليلًا على وجوده أو على عدم وجوده. إذًا، سقطت حجته.

---

(1) The Twilight of Atheism (58-59)

(٢) شيسواو ميووش (Czesław Miłosz):الشاعر البولندي الحاصل على جائزة نوبل في الأدب. توفي عام: ٢٠٠٤م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Czeslaw-Milosz

(٣) مقال: Discreet Charm of Nihilism, by: Czeslaw Milosz وهو موجود على الرابط:
https://www.nybooks.com/articles/1998/11/19/discreet-charm-of-nihilism/

الفقرةُ الثّالثة:

تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلقة بعلم النفس:

قد تبيَّن في هذا المبحث أبرزُ شبهات الملاحدة المتعلقة بعلم النفس، وردود علماء الغرب على هذه الشبهات. والردودُ الموجودة في هذا الباب جيّدة ومفيدة ويستفاد منها من حيث العموم. وكلامُ علماء الغرب في هذا الباب لم يختلط مع عقائدهم الفاسدة. اللهمَّ إلّا ما جاء في هذا الباب من دراسات البروفسور فيتز فيما يتعلّق بالعلاقة بين الإله وفقدانِ الأب، وأنه ربطَ ذلك بمعتقد النصارى في الإيمان بالأب السماوي. وقد تمَّ التنبيهُ على ذلك في المبحث المتعلق بحجج علماء الغرب على وجود الله من علم النفس.

ولكنْ يبقى سؤال: هل كلُّ ما قاله الملاحدة في هذا الباب باطل؟ الجواب أن الأمرَ فيه تفصيل؛ لأنَّ الديانات على قسمين:

القسمُ الأوَّل: دينُ الله الحق. وهذا الدين مبنيٌّ على الوحي الإلهي، وهو موافق للفطرة.

القسمُ الثّاني: الأديانُ الباطلة. وأسبابُ ظهور هذه الديانات كثيرة، مثل: وسوسة الشيطان، واتِّباع الهوى، وغير ذلك. ويمكن لعلماء النفس أن يستنبطوا بعضَ الأسباب النفسية لنشأةِ هذه الأديان الباطلة. وقد يكون سببُ الاعتقاد في الآلهة: الخوف من الطبيعة؛ فنسبَ هؤلاء المشركون صفاتٍ إلهية للطبيعة وادّعوا أنها إله من الآلهة. واللهُ تعالى يحذّر من عبادة الشمس والقمر في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[فصلت:٣٧].

كما أنه يوجد كثيرٌ من الدجالين الذين استغلوا الديانات الباطلة لأكل أموال الناس بالباطل؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤].

فلا يقال: إنَّ هذه الفرضيات كلّها باطلة ولا أساس لها من الصحة، بل يمكن أنْ تكون صحيحة في حدودٍ ضيّقة، ويمكن تطبيقُها على الأديان الباطلة، إلا أن فرضياتِ

فرويد نفسها مُنتقدة من ناحية علم النفس - كما سبق بيانُه -،كما أنّها باطلة من الناحية التاريخية.

ولكنَّ الخطأ الكبيرَ عند الملاحدة أنّهم يستدلّون بهذه الفرضيات على أنّ الأديان كلَّها باطلة، وأنَّ الإيمان بالله وهم. بل قد لا يوجد وهمٌ أكبر من الوهم الإلحادي، ولا توجَد حقيقة راسخة أكبر من الإيمان بالله الأحد الصمد.

المبحثُ السّابع
ردودُهم على الشُّبهات المتعلقةِ بالتاريخ

هذا المبحثُ يتناول شبهاتِ الملاحدة التاريخية المتعلقة بوجود الله. والمقصود بالشبهاتِ التاريخية هو تحديدُ عُمر الكون والأرض والأحفورات بأعمار مديدة. وحيث إنَّ الملاحدة التطوُّريين يدَّعون أنَّ تطوُّر الكائنات يتطلّب وقتًا طويلًا جدًّا، فإنهم يدْعمون نظريتهم هذه بنظرياتٍ من الجيولوجيا وعلم الآثار. وليس المقصود أنّ الملاحدة يستدلّون بوقائع تاريخية على إلحادهم.

وقسَّمت هذا المبحثَ إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: بيانُ حقيقة شبهاتِ الملاحدة التاريخية.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغربِ على شبهات الملاحدة التاريخية.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماءِ الغرب على شبهات الملاحدة التاريخية.

الفقرةُ الأولى: بيانُ حقيقة شبهات الملاحدة التاريخية:

الإلحادُ المعاصر نشأ في بيئةٍ نصرانية؛ فمَن أراد أن يفهم الإلحادَ فإنه يحتاج أن يفهم الديانةَ النصرانية وكتابها المقدَّس. هذا الكتاب يشتمل على عددٍ من الموضوعات المختلفة كالشَّرائع والعقائد والآداب، ولكنَّ الجزءَ الأكبر من الكتاب يتعلّق بالتاريخ. أوَّلُ آية من السفْر الأوَّل في العهد القديم هي: (في البدء خلق الله السماوات والأرض)[1]. ثمَّ يذكر تفصيل الخلق في ستة أيام، وتتبع ذلك قصة خلق آدم عليه السلام وزوجه، ثمَّ سردَ أسماء ذريتهما. وينصُّ الكتاب على ذرية آدم بدقّة مع ذكر

(١) سفر التكوين (١:١).

أعمارهم. تأتي بعدَ ذلك قصة نوح ﷺ والطوفان، ثمّ يذكر الكتاب ذريته بالتفصيل إلى زمن إبراهيم ﷺ، ويفصِّل في ذكر حياته وحياة أبنائه وأحفاده إلى زمن موسى. ومعظمُ الأسفار الأربعة الباقية من العهد القديم يتحدَّث عن حياة نبي الله موسى ﷺ. وبقية كتبِ العهد القديم تتحدَّث عن تاريخ بني إسرائيل إلى قرب حياة عيسى ﷺ. وبناء على هذا السَّرد التاريخي المفصَّل استنبط بعضُ أحبار اليهود من كتّاب التلمود(١) أنَّ الله خلقَ آدم في تشرين الأوّل عام ٣٧٦٠ قبل الميلاد(٢).

وتبعَ بعضُ آباء الكنيسة الأوائل هذا النهجَ في استنباط تاريخ الخلق؛ فذكروا أن الله خلقَ السماوات والأرض عام ٥٥٢٩ قبل الميلاد(٣). وهذا الاختلاف الكبير مبنيٌّ على أنَّ اليهود يعتمدون على النسخة العبرية للعهد القديم، بينما النصارى الكاثوليك يعتمدونَ على النسخة اليونانية. وبين النسختين فروقات عديدة، منها فروق في تحديد السنوات والأعمار(٤).

فاللاهوتيون مِن اليهود والنصارى حاولوا استنباط تاريخ بداية الخلق منذ حوالي أَلْفَي سنة، واستمرَّ الأصوليون من اليهود والنصارى على هذا النهج إلى هذا العصر

---

(١) التلمود: هو تعليمُ ديانة وآداب اليهود. وهو يتكوَّن من جزئين:
١) متن: ويسمى (المشناة) بمعنى المعرفة أو الشريعة المكررة.
٢) شرح: ويسمى (جمارا) ومعناه الإكمال. انظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (١٢٢).

(٢) انظر:
The Jewish Time Line Encyclopedia, a year-by-year-from Creation to Present (107), by: Mattis Kantor, (Jason Aronson Inc, 1992)

(٣) انظر على سبيل المثال:
Theophilius of Antioch to Autolycus, Book III, Chapter XXVIII
وهذا الباب من الكتاب مترجم إلى اللغة الإنجليزية على هذا الرابط:
https://www.ccel.org/ccel/schaff/anf02.iv.ii.iii.xxviii.html

(٤) انظر:
Some Remarks Preliminary to Biblical Chronology, in Journal of Creation 12, 1, (98-106)

أيضًا. ففي الموقع الرسمي لحركةٍ يهودية أصولية كُتب أنَّ عام ٢٠٢١م هو عام ٥٧٨١ في تاريخهم[١]؛ لأنَّ خلقَ السماوات والأرض حصل في عام ٣٧٦٠ ق.م. والنصارى الأصوليون يؤلِّفون كتبًا[٢] خاصَّة في الانتصار للأرض الفتية، ويبيّنون ذلك في مواقعهم في إنترنت[٣].

ولكنْ لم يكن هذا موقفَ اللاهوتيين من اليهود والنصارى فحسب، بل كان علماءُ الطبيعة في عصر النهضة يتبنون هذا الرأيَ كذلك. ومن الأمثلة على ذلك أن كبارَ علماء الفلك مثل: جوهنس كيبلر وإسحاق نيوتن كانا يريان هذا الرأي[٤].كما أنَّ وليام ويستون[٥] أصدرَ كتابه: «نظرية جديدة للأرض» (A New Theory of the Earth) عام ١٦٩٦م. وجادل بطريقةٍ علمية عن صحّة ما ذهب إليه كتاب النصارى المقدّس من عُمر الأرض، وتلقَّى علماءُ عصره كتابه بقبول[٦]. وإذا كان علماء الفلك والأرض يرون أنَّ عُمر الكون والأرض ليس إلّا بضعة آلاف سنة؛ فمِن الطبيعي أنَّ العلماء في ذلك الوقت رأوا أنَّ تاريخ البشر لا يتجاوز تلك الفترة.

---

(١) انظر: https: / /www.chabad.org /calendar /view /month.htm

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب: آلاف وليس ملايين (Thousands, not millions) لدون دي يونغ - بروفسور الفيزياء الأمريكي -.

(٣) انظر على سبيل المثال في اثنين من أكبر مواقع النصارى الأصوليين في الإنترنت:
https://creation.com/6000-years
https://answersingenesis.org/age-of-the-earth/how-old-is-the-earth/

(٤) انظر المقال: How does the Bible teach 6000 years? الذي جمع آراء العلماء في هذه المسألة على الرابط: https: / /creation.com/ ٦٠٠٠ - years

(٥) وليام ويستون (William Whiston): القسيس الأنجليكاني وعالم التاريخ والرياضيات البريطاني الذي اشتهر بمحاولته الجمع بين النصرانية والعلم التجريبي. توفي عام: ١٧٥٢م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /William - Whiston

(٦) انظر المقال: Whiston’s Flood في موقع جامعة ستانفورد، وهو موجود على الرابط:
http://web.stanford.edu/~meehan/donnelly/whiston.html

ولكنْ بدأ ذلك يتغيَّر في عصر التنوير؛ فقد أصدر عالمُ الطبيعة الفرنسي جورج دي بوفون كتابه: «التاريخ الطبيعي» (Histoire Naturelle) عام ١٧٤٩م في ٣٦ مجلّدًا، وكان تاريخُ الأرض مِن ضمن ما ناقشه في هذا الكتاب. وهاجم ما ذهب إليه كتّابُ النصارى المقدَّس من أنَّ عُمر الأرض حوالي ٥٠٠٠ سنة، وقرّر أنّ عمر الأرض حوالي ٧٥ ألف سنة بناءً على بعض الأدلة الجيولوجية. وصار لهذا الكتاب صدى في الأوساط العلمية[١].

حاول العلماءُ المتديّنون تداركَ الأمر في القرن العشرين، وقدَّموا نظرية جديدة تسمى بنظرية الكارثة (Catastrophism)، وهي نظرية تنصّ على أنّ الأرض تشكَّلت خلال أحداثٍ عنيفة ومفاجئة وقصيرةِ الأمد. وذكر هؤلاء العلماء أنّ العصور الجيولوجية انتهتْ بكوارث طبيعية عنيفة، وانقرضتِ النباتات والحيوانات بسبب هذه الحوادث. وأشهرُ حادث تسبَّب في انقراض هذه الحيوانات والنباتات هو طوفان نوح حسب هذه النظرية[٢].

وفي تلك الحقبة الزمنية، بدأ علماءُ الطبيعة يستخدمون المبدأ العلمي المسمى بالوتيرة الواحدة (Uniformitarianism)، وهو الافتراض أنّ قوانين الطبيعة تعمل الآن كما كانت تعملُ في السابق. وهو مبدأ علميٌّ عام في أنواع العلوم المختلفة من أجل استنباط المجهول من المعلوم[٣].

وتنبثقُ من هذا المبدأ فرضيةٌ جيولوجية تسمى: «التدريجية» (Gradualism). وخلاصة هذه الفرضية هي أنَّ التغيير يحدث في الطبيعة تدريجيًّا خلال فترة زمنية

---

(١) انظر:

A History of Geology (92), by: Gabriel Gohau, translated by: Albert V. Carozzi and Marguerite Carozzi, (Rutgers University Press, 1990)

(٢) انظر المقال: Catastrophism على صفحة Encyclopedia.com على هذا الرابط: https://www.encyclopedia.com/earth-and-environment/geology-and-oceanography/geology-and-oceanography/catastrophism

(٣) انظر:

Is Uniformitarianism Necessary? By: Stephen J. Gould, in American Journal of Science 263 (3), (223-228)

طويلة جدًّا. وهذه الفرضيةُ الجيولوجية أثَّرت في تفكير علماء الأحياء من التطوّر التدريجي للكائنات الحية[1].

وقد تبنَّى العلماءُ العلمانيون مبدأ «الوتيرة الواحدة» ونظرية «التدريجية» لأنهما يتَماشيان مع المذهب الطبيعي المادي، بينما تبنى العلماءُ المتديّنون في تلك الفترة «نظرية الكارثة» إذْ هي أقربُ إلى الإيمان من حيث التدخُّل المباشر للخالق في الكون.

وفي هذه الأجواء العلمية، قدَّم تشارلز داروين نظرية التطوّر. وكانت نظرية التدريجية تعدُّ ركنًا أساسيًّا في نظريته، حيث يستحيلُ أن يحصل هذا التنوّع الكبير بين الكائنات الحيَّة عن طريق الانتخاب الطبيعي الأعمى إلّا في فترة زمنية طويلة جدًّا[2]. فلو صحَّ قولُ العلماء المتديِّنين من أنَّ عُمر الأرض ليس سوى ٦٠٠٠ سنة؛ فإنَّ نظرية داروين تسقط تلقائيًّا.

وقد سبقتْ نبذةٌ عن تاريخ نظرية داروين وقبولها في الأوساط العلمية. وتزامن مع ذلك قبولُ مبدأ الوتيرة الواحدة ونظرية التدريجية.

في عام ١٨٦٢م - يعني ثلاث سنوات من صدور كتاب: أصل الأنواع - قدَّم بارون كلفن نظريةً تفيد أنَّ عُمر الأرض ما بين ٢٠ إلى ٤٠٠ مليون سنة. ومع اكتشاف «التحلل الإشعاعي» (Radioactive decay) في نهاية القرن التاسع عشر قدّم العلماءُ نظرياتٍ مختلفةً في عمر الأرض، إلى أنِ استقرَّت آراء العلماء المتبنّين لمبدأ الوتيرة الواحدة في أوساط القرن العشرين بأنّ عمر الأرض حوالي ٤,٥ مليار[3].

---

(١) انظر المقال: Gradualism في موقع: Futura - Science, على الرابط:
http://www.futura-sciences.us/dico/d/geology-gradualism-50005396/

(٢) انظر: The Collapse of Evolution (53)

(٣) انظر المقال: How Science Figured Out the Age of Earth, في مجلة سينتفيك أمريكان. وهو موجود على الرابط:
https://www.scientificamerican.com/article/how-science-figured-out-the-age-of-the-earth/

وخلالَ القرن العشرين اكتشف العلماءُ مستحاثات بشرية عديدة، وبناء على التَّحلل الإشعاعي قدَّروا أنَّ عُمر أقدم مستحاثات بشرية حوالي ٣٠٠ ألف سنة، بينما مُستحاثات أسلاف البشر تقدَّر بملايين السنين[١].

وقد سبقَ في مبحث: نظرية الانفجار العظيم أنّ العلماء الذين يتبنّون هذه النظرية يعتقدونَ أنَّ عمر الكون ١٣,٧ مليار سنة.

وهذا ما استقرَّ عليه المجتمع العلمي الذي يتبنّى المذهب الطبيعي. ولا شكّ أنَّ هذا يُخالف تمامًا القراءةَ الحرفية لكتاب النصارى المقدّس. فحسب القراءة الحرفية لهذا الكتاب خلقَ اللهُ السماوات والأرض في ستة أيام حقيقية، وخلق آدم في اليوم السادس، ثمَّ يسرد تاريخَ ذريته، ويقدَّر بحوالي ٥٧٠٠ - ٧٥٠٠ سنة؛ بناءً على النسخ المختلفة للعهد القديم.

وبذلك أصبحت هذه شبهةً تاريخية لوجود الله، حيث إنَّ كتاب النصارى المقدس ربطَ بينَ خلق الخالق للكون، والأرض، والبشر؛ وبينَ هذا التاريخ. وذكر البروفسور جون لينوكس أنَّ الملاحدة يشكّكون في الوجود الإلهي، وكتاب النصارى المقدّس بناءً على هذه الشُّبهة[٢]. ودعاةُ الإلحاد الجديد أمثال ريتشارد دوكينز يكثرون من الاستهزاء بالنَّصارى الأصوليِّين الذين يعتقدون ما دلَّ عليه ظاهرُ كتاب النصارى المقدَّس في قصة الخلق[٣].

---

(١) انظر المقال: Human Evolution في موسوعة بريتانيكا، على الرابط:
https://www.britannica.com/science/human-evolution

(٢) انظر: Seven Days That Divided the World (11 - 12)

(٣) وقام ريتشارد دوكينز بهذا مرارًا وتكرارًا. ومن الأمثلة على ذلك استهزاؤه بالأصوليين النصارى في حواره مع البروفسور لورينس كراوس. والحوار موجود على هذا الرابط:
https://www.scientificamerican.com/article/should-science-speak-to-faith-extended/

الفقرةُ الثّانية:
ردودُ علماءِ الغرب على شبهات الملاحدة التاريخية:

هذه الشبهةُ ليست موجَّهة ضدَّ الإيمان بوجود الخالق عمومًا، ولكنّها موجّهة ضدَّ اليهودِ والنصارى في المقام الأوَّل. وذلك بسبب ما سبقَ ذكرُه من التنصيص في كتابهم المقدَّس على عمر الخلق.

وخلاصةُ هذه الشُّبهة: أنَّ ظاهرَ نصوص الكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى تخالفُ ما استقرَّ عليه المجتمعُ العلمي العلماني المعاصر في تاريخ الكون، والأرض، والبشرية. فإمَّا أنَّ ظاهرَ نصوص كتابهم المقدّس غير صحيحة، وإما أنَّ ما استقرَّ عليه المجتمعُ العلمي العلماني غيرُ صحيح. وقد اتَّخذ اليهود والنصارى مسلكين رئيسين في التعاملِ مع هذا التعارض الظاهر، وهما:

المسلكُ الأوَّل: تأويلُ ظاهر نصوص كتابهم المقدَّس.

المسلكُ الثّاني: نقدُ موقف المجتمع العلمي من تاريخ الأرض.

وتفصيلُ ذلك كما يلي:

- **المسلكُ الأوَّل: تأويلُ ظاهر نصوص كتابهم المقدَّس:**

وأمَّا المسلكُ الأوَّل فليس بوليدِ الساعة، بل ثمَّة خلاف قديم في أوساط اليهود والنَّصارى في قراءة قصةِ الخلق في العهدِ القديم؛ وقد خصَّص البروفسور جون لينوكس فصلًا من كتابه: «الأيام السبعة التي فرّقت العالم» (Seven Days that Divided the World) في مناقشةِ هذا الخلاف، وبيَّن أنه خلافٌ قديم لدى اليهود والنصارى. وأنّ عددًا من اللاهوتيّين اليهود والنصارى منذُ حوالي ألفين سنة كانوا يئوِّلون قصة الخلق في العهد القديم. وذلك بناءً على نصٍّ في كتابهم المقدَّس: (ولكن لا يخفى عليكم هذا الشيء الواحد أيُّها الأحبة أنَّ يومًا واحدًا عند الربِّ كألفِ سنة، وألف سنة كيوم واحد)[1]. وهذا الرأيُ، ومثلُه مِن الآراء المقاربة

---

(١) بطرس (٣:٨).

تبنّاه عددٌ من اللاهوتيين المشهورين، بينما ذهبَ غيرُهم إلى القراءةِ الحرفية لهذه النصوص، وأنَّ الأيام الستة هي أيام مثل أيامنا العادية. وهذا ما ذهبَ إليه لوثر وكلفن من البروتستانت[1].

والنقاشُ بينَ الطوائف النصرانية في تفسير هذه النصوص مازال حادًّا إلى هذا العصر حتَّى تُقام مناظرات خاصَّة في هذه القضية بين أنصار الأرض القديمة وأنصار الأرض الفتية[2].

ومَن سلك هذا المسلكَ في تأويل ظاهر النصوص في كتابهم المقدّس، فلا يرى أنَّ اعتراضَ الملاحدة هذا يعدُّ شبهة أصلًا؛ لأنَّ الشبهة موجَّهة تجاه التاريخ المذكور في كتابِهم المقدَّس، وليست موجَّهة تجاه وجود خالق خلق الكون؛ فلا يوجد مانعٌ عقلي يمنعُ أنَّ الخالق خلقَ الكون قبل ١٣,٧ مليار سنة، وخلق الأرض قبل ٤,٥ مليار سنة.

- **المسلكُ الثّاني: نقدُ موقفِ المجتمع العلمي العلماني من تاريخ الأرض:**

بينما يقبل أنصارُ الأرض القديمة موقفَ المجتمع العلمي العلماني من قدم الأرض؛ فيرفضُ أنصارُ الأرض الفتيَّة هذا الموقف رفضًا تامًّا، لتعارضه مع ظواهر النصوص في كتابهم المقدَّس. ولكنهم لم يكتفوا بالقول بأنَّ هذا الموقف يعارض كتابهم المقدّس، بل نقدوا موقفَ المجتمع العلمي العلماني من الناحية العلمية البحتة أيضًا. وقد ألّفوا عددًا مِن المقالات، وأجزاء من كتبٍ في ذلك، ولكن تميّز البروفسور دونالد دي جونغ[3] بتأليف كتابٍ علمي كامل في ذلك بعنوان: آلاف

---

(١) انظر هذا الفصل: Seven Days that Divided the World (39 - 66)

(٢) ومن هذه المناظرات: مناظرة الدكتور جاسون ليزلي والدكتور هيو روس على هذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=L1VU7kw04Os
ومناظرة كين هام وجيف سويرينك على هذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=aNmuB9EF_vk

(٣) دونالد دي جونغ (Donald De Young): البروفسور ومدير قسم دراسات الفيزياء في كلية غرايس بالولايات المتحدة. وهو من أنصار نظرية الأرض الفتية. انظر:
https://creation.com/dr-donald-deyoung

وليس مليارات (Thousands not Billions). والبروفسور دي جونغ متخصِّص في الفيزياء، والرياضيات وعلم الفلك، وكان يعمل ضمنَ فريق RATE - وهذا الفريق مجموعة من علماء الفيزياء والأرض من أنصار الأرض الفتية -. وأبوابُ هذا الكتاب مبنيَّة على دراسات علماء فريق RATE, وكلهم من حملةِ شهادة الدكتوراه في تخصُّصهم[١]. وعليه، فيعتبر هذا الكتابُ من أهمِّ الكتب في الانتصارِ لنظرية الأرض الفتية، فسيتمُّ التعويلُ عليه إلى حدٍّ كبير في هذه الردود. وقد سبقَ في المبحث المخصَّص بنقد نظرية الانفجار العظيم ذكر الردود على موقف المجتمع العلمي من عُمر الكون، وفي هذا المبحث سيتمُّ التركيزُ على عمر الأرض.

وهذه المسألةُ في غاية الأهمية؛ لأنَّه يكثر الحديث أثناءَ النقاش في مسائل متعلّقة بنظرية التطوُّر عن عُمر الأرض والمستحاثات. كما أنَّه يكثر في وسائل الإعلام ذكرُ أخبارٍ عن اكتشاف علماءِ الآثار لأحفورات جديدة للبشر أو الحيوانات. ويأخذ عددٌ مِن المسلمين هذه الأخبارَ معَ تحديد هذه الأعمار كمسلّمات التي لا تقبل الجدل. ولكنْ كما سيتبيَّن من كلام البروفسور دي جونغ في هذه المسألة أنها بعيدةٌ عن كونها مسلَّمات علمية.

وفهمُ هذه المسائل يحتاج إلى عددٍ من المقدِّمات، وقد يستثقل القارئ قراءتها، ولكنَّها ضرورية لفهم الردود.

وقد بدأ البروفسور دي جونغ كتابَه بنبذةٍ عن كيفية حساب عمر الأرض، وملخَّص ما ذكره في ثلاث نقاط:

- **النُّقطةُ الأولى: نبذةٌ مختصرة عن دراسة الإشعاع:**

مَن أراد أن يفهمَ كيفية حسابِ عُمر الأرض أو المستحاثات، فلا بدَّ أن يفهم حقيقةَ جسيمات الإشعاع من الذرات التي يتمُّ قياسها في الحسابات. وللمساعدة في فهْم جسيمات الإشعاع، فمِن المفيد إجراءُ مراجعة موجزة للكيمياء: يوجد حاليًا ١١٨ عنصرًا معروفًا في

---

(١) انظر:
Thousands not billions (17-19), by: Dr. Don DeYoung, (Master Books, Fifth Edition, 2010)

الجدول الدوري. ومِن إجمالي العناصر المعروفة، يوجد ٩٨ عنصرًا بشكلٍ طبيعي، وأحدُ أثقل العناصر يسمى باليورانيوم.

يوجَد معظمُ العناصر نفسها أيضًا في أنواعٍ مختلفة تسمى النظائر، وجميعُ نظائر عنصرٍ معيَّن متشابهة كيميائيًّا، وتحتلُّ المساحة نفسها في الجدول الدوري. على سبيل المثال: هناك ثلاثةُ نظائر موجودة بشكل طبيعي لعنصر الكربون – الكربون ١٢ و١٣ و١٤. وهذه الأرقامُ هي الأوزانُ الذرية، أو كتلُ النظائر مقارنة بالهيدروجين، وهو أخفُّ العناصر. يعتبر الكربون ١٣ أثقل قليلًا من الكربون ١٢ لأنَّ صنف الكربون ١٣ يحتوي على نيوترون إضافي واحد في نواته: سبعة بدلًا من ستة نيوترونات عادية من الكربون ١٢. غالبًا ما تكون النظائرُ التي تمتلك نيوترونات إضافية مثل: الكربون ١٤ غير مستقرَّة، وتتعرَّض في النهاية للاضمحلال الإشعاعي. وفي هذه العملية، يشعُّ النظيرُ الطاقةَ والجسيمات بعيدًا.

هناك أكثرُ من ٢٠٠٠ نظيرٍ معروف بين جميع العناصر. يحتوي اليورانيوم وحده على ٢٨ نوعًا مختلفًا من النَّظائر المشعة. غالبيةُ النظائر مشعَّة، لها نطاقٌ كبير من الأعمار المتفاوتة، مِن ميكروثانية إلى مليارات السنين. ومع ذلك، فإن أكثرَ النظائر شيوعًا في الطبيعة مستقرِّة.

كشفتِ الدراسات عنْ خاصية أساسية للاضمحلال الإشعاعي، وتسمى: نصف العُمر النووي. هذا هو طولُ الفترة الزمنية اللازمة لكي تتحلل ٥٠ ٪ من كمية المواد المشعَّة. لنفترض أننا تركنا سهمًا يمثل نصفَ عُمر لمادة مشعَّة، ونبدأ بإجمالي عدد ذرات N. ثمَّ ستنخفض الكمية المتبقية أو المتبقية من المادة مع مرور الوقت بزيادات نصف العمر.

$$N \rightarrow N/2 \rightarrow N/4 \rightarrow N/8 \rightarrow N/16 \rightarrow N/32 \rightarrow \ldots$$

لاحظ أنَّه في الرياضيات غير المعتادة للتحّلل النووي، فإن نصف عمر مرّتين لا يساوي حياةً كاملة. وبدلًا من ذلك، فإنَّ مرورَ نصفِ عُمر من الوقت مرَّتين يترك ربع العدد الأصلي للذرات المتبقية، وهكذا.

في هذه المرحلة، قد يسألُ المرء: ما الذي يحدِّد عُمر ذرَّة مشعَّة معينة بالنسبة للراديوم[١] - ٢٢٦، على سبيل المثال؟ ولماذا تتحلَّل ذرةٌ معينة خلال الثانية التالية بينما قدْ تستمرُّ ذرةُ الراديوم المتطابقة لآلاف السنين؟ الجوابُ البسيط: لا نعرف السبب! التحللُ النووي وخصائصُ نصف العُمر المرتبطة به هي مفاهيمُ إحصائية وتجريبية بحْتة. يعدُّ الهيكل الداخلي وسلوكُ نواةِ الذرة أحدَ حدود فهْم الفيزياء الحديثة[٢].

- **النُّقطةُ الثّانية: نبذةٌ مختصرة عن تحديد العمر بالنظائر المشعَّة:**

ذكرَ البروفسور دي جونغ أنَّ «ساعة الطبيعة» تبدأ في الظهور عندما تكون النظائرُ المشعَّة مغلقة داخلَ صخور نارية متبلورة حديثًا، كما تشير إليه كلمة إشعال (Ignite) الصخور النارية التي تتشكَّل عندما تبرد المادةُ المنصهرة الساخنة، وتسمى الصخور المنْصهرة بالصُّهارة، وهي تحتَ الأرض، وتصبح حممًا إذا وصلت إلى سطح الأرض. يعتبرُ النوعان الأساسيان الآخران من الصخور - وهما الصخور الرسوبية (Sedimentary) والمتحولة (Metamorphic) - أقلَّ فائدة في تحديد العُمر لأنَّ أصلهما صخور موجودة مُسبقًا، ومُعادٌ تشكيلها. يتطلب تحديدُ العمر بالنظائر المشعة قياسَ كمية الذرات البنت التي تنتج عن تحلُّل الذرّات الأمِّ المشعة داخل عينة الصخور النارية.

على سبيل المثال، يتحلَّل نظيرُ الأم المشع البوتاسيوم[٣] 40 - K ،40 -، إلى الابنة الأرجون 40 - Ar ،40 -، مع عمر نصف يبلغ ٢٥ , ١ مليار سنة.

---

(١) الراديوم (Radium): عنصر معدني مُشِع أبيض لامع، يستخدم في الصناعات النوويّة، وتعالج به الأمراض، وهو ذو نشاطٍ إشعاعي، وزنه الذَّرِّي ٢٦، وعدده الذَّرِّي ٨٨، وهو عنصر نادرُ الوجود، اكتُشف سنة ١٨٩٨م. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٢ / ٨٤١).

(٢) انظر: (22 - 30) Thousands not billions

(٣) البوتاسيوم (Potassium): عنصر فلزّي ليّن من مجموعة القلويّات لامِع كالفضّة، يتأكسد ويمتزج بالكلور والكبريت وغيرهما، فينتج تراكيب مختلفة، تُستعمل لتغذية النَّبات بعنصر البوتاس. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ٢٦٠).

افترضْ أنَّ صخرة تتشكَّل بمحتوى أولي من K – ٤٠، ولكن لا يوجد Ar – ٤٠. ثمَّ تمَّ العثورُ عليه لاحقًا لاحتواءِ ذرّات كبيرة من الأرجون – ٤٠. نتيجة لذلك، قد يُفترض أنَّ العيِّنة قديمة. وفي المقابل، إذا تراكمَ القليل من Ar – ٤٠، فسيتمُّ تحديدُ عمر العينة على أنها صغيرةٌ أو حديثة. يعتمد عمرُ العينةِ الفعلي على كمية K – ٤٠ الأولية، ونصف عمرها، وعوامل المعايرة الأخرى. يُطلق على العُمر المحسوب لعينةٍ واحدة عمر النموذج (Model age). وهذا ليس بالضرورة العمرَ المطلق والصحيح للصخرة.

هناك مفهومٌ إضافي مهمٌّ للغاية للتأريخ بالنَّظائر المشعَّة يسمى بخطِّ تساوي الزمن (Isochron)، وهو رسمٌ بياني للبيانات يحاول معالجةَ ثلاث قضايا متعلّقة بتحديد العمر:

القضيةُ الأولى: تتعلَّق بما إذا كانت أيُّ ذرّات ابنة موجودة في الصخر عندما تتبلور لأوَّل مرةٍ من الصُّهارة، قبلَ أن تتحلل أيُّ ذرات أصلية بعد. إذا كانت ذراتُ الابنة موجودةً ولم يتمُّ حسابها، فسيكون للصخرة مظهرٌ مُضلل للعمر.

القضيةُ الثّانية: تتعلَّق بما إذا كانتِ العينة قد ظلَّت نظامًا مغلقًا أم لا خلالَ تاريخها. إذا لم يتمّ إغلاقُها، يمكن للذرات المختلفة أن تهاجرَ إلى العينة أو تخرج منها بمرورِ الوقت، وتبطل حساب العمر.

القضيةُ الثّالثة: التي تناولها خطُّ تساوي الزمن تتعلَّق بالعمر المحسوب على الأرجح لجسمٍ صخري، استنادًا إلى المتوسط الإحصائي لعدد من قياسات النظائر المشعة. يُستخدم خطُّ تساوي الزمن اليوم في كلِّ تجربة تحديد العمر بالنظائر المشعة تقريبًا[١].

وبناءً على خلاصةِ هاتين النُّقطتين ننتقل إلى النقطة الثالثة التي تبيّن أنَّ تحديد العمر بالنَّظائر المشعَّة مبنيٌّ على ثلاثة افتراضات مشكوك فيها.

---

(١) انظر: Thousands not billions (34 - 42)

- **النقطة الثالثة: الافتراضات في تحديد العمر عن طريق النظائر المشعة**

هناك ثلاثةُ افتراضاتٍ أساسية في طريقة التأريخ بالنظائر المشعة:

الافتراضُ الأوّل: أنَّ الشروطَ الأولية للعينة معروفة بدقّة. وهذا يشمل أيَّ ذرّات نظائرية بنت (Daughter isotope atoms) موجودة في الصخور وقت تكوينها. وقد تساعد مخطَّطات خطِّ تساوي الزمن في الإشارة إلى وجود هذه النظائر الابنة.

الافتراضُ الثّاني: أنَّه يمكننا معرفة ما إذا كانت الصخرة قد تبادلت الذرات مع المناطقِ المحيطة خلالَ تاريخها أم لا. وقد تساعد مخططاتُ خطِّ تساوي الزمن في تحديد الطبيعة المغلقة أو المفتوحة للصخور.

الافتراضُ الثّالث: أنَّ معدَّل التحلُّل النووي أو نصف العمر للنظير الأصلي ظلَّ ثابتًا منذُ تشكُّل الصخر. ومع ذلك، إذا تغيَّر معدَّل التحلُّل خلال تحديد عمر عينة الصُّخور، على غِرار الساعة التي تعمل إمّا بسرعة أو ببطء، فمن الواضح أن عمر النظائر المشعَّة المحسوب سيكون غيرَ صحيح. **وطرقُ خطِّ تساوي الزمن ليست حسّاسة لاختبار صحة هذا الافتراض.**

وذكرَ البروفسور دي جونغ أنّ فريق RATE وجد عددًا من الأمثلة التي فشل أوّل افتراضيْن في تطبيقها. ومعَ ذلك، ربما تكون أهم نتائج مشروع RATE تتعلّق بالافتراض الثّالث، يعني: ثبات التحلُّل النووي خلال ماضي الأرض. وقد اكتشف هذا الفريقُ عددًا من الأدلَّة المادية الموضوعية على أن معدَّلات التحلل النووي كانت أعلى بكثير في الماضي مما نقيسُه اليوم. ويمكن أن تفسِّر هذه الأدلةُ سببَ تحديد طرق النظائر المشعة القياسية في الغالب بأعمارٍ تتراوح بين ملايين أو بلايين السنين[١].

ويمكن أن نستخلصَ مِن هذه المقدِّمات المهمَّة أنَّ تحديد عمر الأرض أو المستحاثات مبنيٌّ على قياسات علمية دقيقة، ولكن هذه القياسات نفسها مبنية

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٢).

على افتراضات. وبينما يوجَد بعض الأدلة العلمية تؤيّد مصداقية الافتراضين الأوّل والثاني ويوجَد أدلة أخرى تشكّك فيهما، فإنَّ الافتراض الثالث ليس مبنيًّا على أدلة علمية، بل توجَد أدلةٌ علمية كثيرة تشكّك في مصداقية هذا الافتراض. ولو تبيّن فعلًا أنّ هذا الافتراضَ الثالث غيرُ صحيح، فليست هناك قيمةٌ علمية قوية للأدلة العلمية في تحديد عُمر الأرض والمستحاثات بالعمر الطويل المزعوم.

الأدلةُ العلمية على الأرض الفتية:

كما أنَّ الافتراضات في تحديد العمر عن طريق النظائر المشعة مشكوك فيها؛ فإنّه يوجَد عددٌ من الأدلة يشيرُ إلى أنَّ عُمر الأرض ليس مليارات السنوات، بل أصغر من ذلك بكثير. وقد سردَ سكوت هيوس - المتخصّص في نقد نظرية التطوّر - عددًا كبيرًا مِن الأدلة التي تشيرُ إلى أنَّ الأرض فتية، أي أنَّ عمرها أقصر مما يزعمون. وهذه الأدلة مهمَّة في نقد نظرية التطوّر المبنية على الأرض القديمة؛ قال سكوت هيوس: «هناك أبحاثٌ متراكمة كثيرة تقترح أنَّ الأرض والنظام الشمسي حديثان نسبيًّا، وليسا قديمين كما افترضَه التطوّريون، الذين غربلوا العملياتِ التالية انتقائيًّا لأنها تشير إلى عمرٍ صغير نسبيًّا للأرض والنظام الشمسي. وهذه الأدلةُ تحرمهم من إطارهم الزمني التطوّري»[1].

ومِن أهمِّ الأدلة التي ذكرها العلماءُ لإثبات أنَّ عمر الكوت والأرض والبشرية صغيرٌ، أربعة أدلة:

- **الدَّليلُ الأوَّل: الحقلُ المغناطيسي للأرض:**

تمَّ قياسُ قوة الحقل المغناطيسي للأرض لأكثر من قرن، ما وفّر للعلماء سجلًّا جيّدًا استثنائيًّا. وقد تخصَّص البروفسور توماس ج. بارنيس[2] في هذا المجال لعقود

---

(1) The Collapse of Evolution (66)

(٢) توماس ج. بارنيس (Thomas G. Barnes): بروفسور الفيزياء في جامعة تكساس بالولايات المتَّحدة، ومن علماء مذهب الخلق. توفي عام: ٢٠٠١ م. انظر:
https://christiananswers.net/creation/people/barnes-tg.html

من الزمن، وأوضَح في دراسة علمية مهمة أنَّ قوة الحقل المغناطيسي للأرض تضمحل أضعافًا مضاعفةً بمعدَّلٍ يتوافق معَ نصف العمر كلَّ ١٤٠٠ سنة. يعني: أنّ قوته قبل ١٤٠٠ سنة كانت ضعفَ قوته اليوم. فإذا قمْنا بالتقدير استقرائيًّا عودةً إلى ١٠,٠٠٠ سنة سابقًا؛ فسنجد أنَّ حقلَ الأرض المغناطيسي كان يعادل الحقل المغناطيسي للنجوم! وبالاعتماد على معدَّل التلاشي الحالي للحقل المغناطيسي للأرض، تبيّن للبروفسور بارنيس أنَّ الأرض لا يمكن أن تكون أكبر من ١٠,٠٠٠ سنة[١].

- **الدَّليلُ الثّاني: تكوُّن النفط والغاز الطبيعي:**

ذكرَ الدكتور روبيرت كوفال[٢] أنه يتكبّت النفط والغاز الطبيعي تحت ضغوطات عالية في مستودعات تحتَ سطح الأرض في طبقات صخرية مُحكمَة نسبيًّا، وتكون الضغوطاتُ عالية جدًّا في عددٍ من الحالات، وتكشف الحسابات المستندة إلى النفوذية المحسوبة للطبقات الصخرية أنَّه لا يمكن المحافظة على الضغوط للغاز والنفط لأكثر من ١٠,٠٠٠ سنة في عددٍ من الاقتراحات. وعليه، فافتراض احتجاز مثل هذه المستحاثات المزوَّدة بالوقود المتراكمة لملايين السنين، دون أي تتسرب عبر طبقاتها الصَّخرية، هو افتراض مناف للعقل[٣].

وذكرَ سكوت هيوس أنَّ التجارب الحديثة أثبتت قطعيًّا - إضافة لما ذكره الدكتور كوفال - أنّه يمكن تحويلُ المواد النباتية والمائية إلى النفط والغاز في وقت قصير بشكل مفاجئ؛ فعلى سبيل المثال، فقد تحوَّلت الموادُّ المشتقة من النباتات إلى درجات جيّدة

---

(١) انظر:

“Depletion of the Earth’s Magnetic Field”, Impact No. 100, Institute of Creation Research, California, October 1981, p. 4.

(٢) روبيرت كوفال (Robert Kofahl): عالم الفيزياء الأمريكي المهتمُّ بنقد نظرية التطوُّر. وقد أخذ شهادة الدكتوراه من معهد كالفورنيا التقنية. توفي عام: ٢٠٠٩م. انظر:

http://c-src.org/about/

(٣) انظر: Handy Dandy Evolution Refuter (122 - 123).

مِن النفط في حوالي ٢٠ دقيقة تحتَ الظروف المناسبة من حرارة وضغط، كما تحوّلت الموادُّ الخشبية والسلليوزية[١] إلى الفحم أو مواد شبيهة بالفحم في غضون بضعة ساعات. وتثبتُ هذه التجارب أنَّ تشكيل الفحم والنفط والغاز لم يتطلّب بالضرورة ملايينَ السنين كما يفترض الجيولوجيون الذين يتبنون نظرية الوتيرة الواحدة.

وذكرَ سكوت هيوس أنَّ أنصار الأرض الفتية يعتقدون أنّ التراكمات الهائلة من الفحم في العالم؛ هي البقايا النباتية الممتدة المنقولة والمتحولة لعالم ما قبل طوفان نوح.

أضافَ هيوس أنَّ التطوّريين يزعمون أنّ الفحم الحجري قد تشكّل قبل تطوّر الإنسانِ بملايين السنين، لكن وجدت هياكلُ بشرية ومصنوعات بشرية، كسلاسل الذَّهب معقَّدة البناء، في تراكمات الفحم. وهذا دليل على أنّ البشر عاشوا في تلك الفترة[٢].

- **الدَّليلُ الثّالث: الهليوم الجوّي:**

هناك دليلٌ آخر للأرض الفتيةِ ذكرَه الدكتور راندي ويسونغ. وهذا الدليل يتعلَّق بالكميةِ الصغيرة للهيليوم في الجوِّ اليوم؛ فقد حافظَ التطوّريون على أنّ عمليات التلاشي الإشعاعي لليورانيوم والتوريوم التي تنتج الهيليوم قد ظهرتْ في قشرة الأرض لمليارات السنين، لكن إذا كانَ هذا التلاشي يعودُ إلى مليارات السنين الماضية، فيجب أن يحتوي جوُّ الأرض على أكثرَ بكثيرٍ من الهيليوم اليوم (جزء من ٢٠٠٠٠٠ جزء). والتفسير الشّائع المقدَّم لغياب الهيليوم المطلوب هو أنّه قد تسرَّب عبرَ طبقة الإكسوسفير (Exosphere) – وهي أعلى طبقةٍ في الغلاف الجوي –. لكنْ ذكرَ الدكتور ويسونغ أنه لا دليلَ يدعم هذا الافتراض. وتشير البياناتُ الحديثة إلى أن الهيليوم لا يستطيع أن يتسرّب إلى الفضاء كما هي حالُ الهيدروجين، ولجعل

---

(١) سليلوز (Cellulose):مادة موجودة في جدران خلايا النباتات، وتستخدم في صناعة الورق والبلاستيك والأقمشة والألياف المختلفة. انظر:

https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/cellulose

(٢) انظر:

The Collapse of Evolution (69)

الأمر أسوأ للتطوّريين، فمن المحتمل أيضًا أنَّ الهيليوم يدخل إلى جوِّ الأرض من الفضاء الخارجي عبر إكليل الشمس، حيث كشفتِ الحساباتُ الواقعية المعتمدة على المخططات المتوفرة أنّ مقدار الزمن المطلوب لعمليات التلاشي الطبيعية ألفا التي أنتجت الهيليوم الملاحظة حاليًا؛ هو تقريبًا ١٠,٠٠٠ سنة(١).

- **الدَّليلُ الرّابع: النموُّ السكاني:**

يقدِّم النموُّ السكاني دليلًا آخرَ عن الأرض الفتية نسبيًّا، حيث يعتقد التطوّريون أنَّ الإنسان قد عاش على الأرض منذ ملايين السنين على الأقلّ، بينما يعتقد أنصارُ الأرض الفتية أنَّ الإنسان عاش بضعة آلاف سنين فحسب. والسؤال هو: «أي احتماليةٍ هي المدعومة أكثرَ ببيانات إحصائيات النمو السكاني؟».

لقد حسبَ البروفسور هنري موريس أنَّ متوسِّط النمو السكاني هو نصف بالمائة كلَّ سنة فقط، وهو ربع المعدَّل الحالي. وسينتج تعددًا سكانيًّا حاليًا قدره ٤٠٠٠ في السَّنة فحسب، مما يسمح بفراغٍ واسع لفترات من الزمن، بسبب الحرب والمرض، كان معدَّل النمو السكاني فيها أقلّ من المتوسّطات الطبيعية. ويشير البروفسور موريس إلى أنَّه من غير المقنع إحصائيًّا أنْ يكون ٥,٤ مليار شخص(٢) فقط قد نتج من مليون سنة في التاريخ التطوُّري، فحتى لو تزايدَ التعداد السكاني بمقدار نصف بالمائة كلَّ سنة فقط لمليون سنة، فسيتجاوز عددُ السكان في العالم في الجيل الحالي $١٠^{٢١٠٠}$ نسمة! ولكي نقدِّر تمامًا الطبيعةَ الهزلية للنموذج التطوّري في هذه النظرة، يجب أن نأخذ بعين الاعتبارِ حقيقةَ وجود $١٠^{١٣٠}$ إليكترونًا فقط في الكون كله! استنتج البروفسور موريس أن تاريخ الإنسان يعودُ إلى آلاف السنوات فحسب لا ملايين(٣).

---

(١) انظر: The Creation – Evolution Controversy (161 - 163)

(٢) هذا عدد السكان في الأرض حين ألّف هذا الكتاب عام ١٩٧٤م.

(٣) انظر: Scientific Creationism (167 - 169)

فهذه أربعةُ أدلة ضمنَ أدلة كثيرة ذكرها علماء الغرب من أنصار الأرض الفتية على أنَّ تاريخ الأرض والبشرية يقدَّر بآلاف السنين فقط، وليس ملايين. والخلاصة أنّ الأدلة العلمية المتعلّقة بفتية الأرض أو قدمها؛ مُتضاربة.

فيوجَد بعضُ الأدلة تشير إلى أنَّ الأرض قديمة، ولكن هذه الأدلة مبنية على افتراضاتٍ مشْكوك فيها. وفي المقابل فهناك أدلَّة تشير إلى أنَّ الأرض فتية، وليست قديمة. ويكفي في سقوطِ شُبهات الملاحدة المتعلّقة بالتاريخ تعارض الأدلة المتعلقة بهذا الموضوع.

الفقرةُ الثّالثة:
تقييمُ ردودِ علماء الغرب على الشُّبهات المتعلقة بالتاريخ:

قضيةُ عُمر الأرض وعُمر البشرية من أهمِّ الشبهات العلمية التاريخية التي يثيرها الملاحدةُ ضدَّ كتاب النصارى المقدَّس. وقد تبيَّن أنَّ النصارى أنفسهم مختلفون في هذه المسألة؛ فمنهم مَن يوافق على أنَّ عمر الأرض ٤,٥ مليار سنة، وتاريخ أسلاف البشر يعودُ لملايين السنوات، وتاريخ الإنسان الحالي يعود لمئات الآلاف من السنين. ومن النَّصارى مَن يرى أنَّ عُمر الأرض - وكذلك البشرية - يقدَّر بآلاف السنين فقط. وعليه، فلا يمكن أنْ يقال: إنَّ هذه الشبهة موجَّهة ضدَّ الإيمان بالله، حيث يوجد كثيرٌ من المؤمنين بالله يوافقونَ في الوقت نفسه بأقدمية الأرض. ولكنّ هذه الشبهة موجّهة إلى ظاهرِ النصوص الدينية لدى اليهود والنصارى.

والسؤالُ الذي يطرح نفسَه هو: هل يمكن توجيهُ هذه الشبهة ضدَّ نصوص القرآن الكريم أيضًا؟ لا شكَّ أنّه يوجد توافقٌ كبير بين القصص المذكورة في القرآن والسنة وبعض القصص المذكورة في الكتاب المقدّس. ولكنّ الله تعالى أخبرنا أنّ أهل الكتاب قدْ حرَّفوا كتابهم إذْ قال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦]. وقد رسم النبي ﷺ منهجًا في التعامل معَ أخبار أهل الكتاب إذ قال: «ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم، ولا تكذّبوهم، وقولوا: آمنّا بالله ورسله، فإن كان باطلًا لم تصدّقوه، وإن كان حقًّا لم تكذبوه»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٦٤٤)، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، من حديثِ أبي نملة الأنصاري (رضي الله عنه)، وصحّحه الألباني شيخ الإسلام ابن تيمية، كما في مجموع الفتاوى (١٢ / ٥٨).

فهل هذه الأخبارُ التي تذكر عُمرَ الأرض والبشرية بتواريخ محدّدة من قبيل هذا التحريف؟ هذا ما جزمَ به الحافظ ابن حزم (رحمه الله) إذ قال: «وأما اختلاف النّاس في التّاريخ، فإنَّ اليهود يقولون: للدنيا أربعة آلاف سنة. والنّصارى يقولون: للدنيا خمسة آلاف سنة، **وأمّا نحنُ فلا نقطع على علم عددٍ معروف عندنا**. ومَن ادَّعى في ذلك سبعة آلاف سنة، أو أكثر أو أقل، **فقد كذَب**، وقال ما لم يأتِ قطُّ عن رسول الله ﷺ فيه لفظة تصح، **بل صحَّ عنه ﷺ خلافه، بل نقطع على أنّ للدنيا أمدًا لا يعلمه إلّا اللهُ عزَّ وجلّ**، قال اللهُ تَعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الكهف:٥١] وقول رسول الله ﷺ: «مَا أَنْتُم في الْأمم قبلكم إِلّا كالشعرة البيضاء فِي الثور الأسود، أَو كالشعرة السَّوْدَاء فِي الثور الْأَبْيَض»[1] هذا عنه ﷺ ثابت، وهو ﷺ لا يقول إلاّ عين الحق، ولا يسامح بشيء من الباطل لا بإعياءٍ ولا بغيره، فهذه نسبةٌ مَن تدبرها وعرفَ مقدار أعداد أهل الإسلام، ونسبة ما بأيديهم من معمور الأرض وأنه الأكثر؛ علم أنَّ للدنيا عددًا لا يُحصيه إلّا اللهُ تعالى... إلّا أنَّ لكل ذلك أولًا ومبدأ، ولا بُدَّ من نهاية، لم يكن شيء من العالم موجودًا قبلها، ولله الأمرُ من قبل ومن بعد»[2].

ويُضاف إلى ذلك أنَّ قصص الأمم السابقة عمومًا وقصص الأنبياء خصوصًا من أنباء الغيب؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٨ - ٤٩] وحقيقة الغيب لا يعلمها إلّا الله؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥].

وأخبرنا اللهُ عن شيء من قصصهم، ولكنه لم يخبرنا عن هذه التواريخ، بل أخبرنا بوجود حقبٍ تاريخية مجهولة لدينا؛ مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ ﴾[الإسراء:١٧].وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣١]. وقال الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٢٨)، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل (٢ / ٢٥٧ - ٢٥٨).

تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

وهذا فيما يتعلَّق بتاريخ البشرية. ومن الممكن أنّ الأرض كانت موجودة قبل ذلك بفترةٍ طويلة؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]. وقد حاول بعضُ المفسّرين تحديدَ هذا الحين بمدَّة زمنية معيّنة، ولكن الإمام القرطبي رحمه الله ذكر من ضمنِ الأقوال: «وقيل: الحينُ المذكور ها هنا لا يُعرف مقداره»[1]. ولعل ذلك أرجحُ الأقوال حيث لم يردْ في ذلك نصٌّ عن الرسول ﷺ، والأقوال عن السلف متعارضة[2]. ولا يكون قولُ أحد من السلف حجة على الآخر إذا اختلفوا.

وقد سبقَ ذكرُ اختلاف العلماء في تحديد المراد بالأيام في أيام الخلق، وأنّه لا يلزم أنّها أيام كأيامنا نحن. وبذلك يمكن أن يقال إنَّ الأرض قديمة، وإنَّ البشرية عاشت أطولَ من بضعة آلاف من السنين. ولكن لا يعلم هذا العددَ إلا الله. وأما الرجوع إلى الاكتشافات العلمية، فقد سبق أنَّ الأبحاث والدراسات في ذلك متضاربة. وأنّ كلَّ مَن يذكُر سنوات معينة يتبنّون رؤية العالم المشتقة، إمّا من المذهب المادي وإمّا من التفسير الحرفي لكتاب النصارى المقدَّس. والمسلم لا يلتزم بالمذهب المادي، ولا بما يسمّى بالكتاب المقدَّس المحرَّف. وعليه، فإنّه يتوقَّف في تحديد عُمر الأرض وعمر البشرية، وَيَكِل علمَ ذلك إلى الله. ومهْما كان الصوابُ في المسألة، فإنَّ شبهات الملاحدة المتعلقة بالتاريخ متهافتة.

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢١ / ٤٤٤).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣ / ٥٣٠).

المبحثُ الثّامن
نقدُ ردودِ علماءِ الغربِ
على شُبهات الملاحدة العلمية

قد ذكرتُ في هذا الفصل ردودَ علماء الغرب على شبهات الملاحدة العلمية. والشبهاتُ العلمية المذكورة تتعلَّق بالموضوعات الآتية: نظرية الانفجار العظيم، وقوانين الطبيعة، ونظرية التطوّر، ميكانيكا الكم، والكيمياء، وعلم النفس والتاريخ.

وعلماءُ الغرب متخصِّصون في هذه العلوم والنظريات، ولهذا كان لديهم ردودٌ قوية ومُقنعة في عددٍ كبير من المسائل، ويمكن الاستفادةُ منها إلى حدٍّ كبير. وردودهم على بعضِ الشبهات المتعلقة بميكانيكا الكم والتطوّر الكيميائي للحياة؛ كلامٌ علمي محض، ولم يختلطْ معَ عقائدهم الباطلة في الجملة. كما أنَّ ردودهم على شبهات الملاحدة المتعلقة بعلم النفس ردودٌ قوية ومقنعة بدون إقحام اللاهوت النصراني إلا في مسألة إيمان فاقدِ الأب التي تمَّت الإشارة إليها. ولكنْ لا يخلو بعض ردودهم في هذا الفصل من إشكاليات، وأهمّها أربعة:

الإشكاليةُ الأولى: أنَّ علماءَ الغرب انقسموا إلى قسمين رئيسين في موقفهم من خلق الكون؛ فمنهم مَن قبِلَ القصة الواردة في كتابهم المقدّس، ومنهم مَن قبِلَ تقريرات علماءِ الكون المبنيَّة على المذهب الطبيعي. وفي الحقيقة فإنّ الموقفين يتضمنان قولًا على الله وخلقِه للكون بلا علم. فالكتاب المقدَّس لدى اليهود والنصارى كتاب محرّف، ولا يمكن الاعتمادُ عليه في هذا الباب. وما ذكرَه القائلون بنظرية الانفجار العظيم عندما يصفونَ طريقة خلق الكون يتعارض مع ظواهر نصوص الكتاب والسنة؛ فلا يمكنُ الاعتمادُ على كلامهم أيضًا. ولذلك لا يمكن معرفة كيفية خلق السماوات والأرض إلا بما دلَّ عليه الوحي. وما لم يأتِ به الوحي أو الحقائق

العلمية الثابتة فلا يمكن الجزمُ به، وعليه فلا ينبغي الخوضُ فيه. وأمّا علماءُ الغرب من الفريقين فقد خاضوا في هذا الباب، وضلّوا السبيل.

الإشكاليةُ الثّانية: كما أنَّ علماءَ الغرب انقسموا قسمين في موقفهم من كيفية خلق الكون، فإنَّهم انقسموا إلى هذين القسميْن أيضًا في موقفهم من عمر الكون الأرض. وبينما اعتمدَ الفريقُ الأوَّل على ظواهر نصوص كتابهم المقدّس من أنّ عمرَ الكونِ والأرض لا يتعدَّى بضعة آلاف سنة، فإنّ الفريق الثاني اعتقدوا أنّ عمر الكون ١٣,٧ مليار سنة، وعُمر الأرض ٤,٥ مليار سنة. وكما سبقَ بيانه، فلا يمكن الاعتمادُ على كتابهم المقدَّس في هذا الباب، كما أنه لا يمكن الاعتماد على الاستنتاجات المبنية على المذهب الطبيعي المادي. ولهذا، فإنَّه لا يعوَّل على كلام علماء الغرب من الفريقين في هذه المسألة، بل يتوقَّف المسلم في قضية عمر الأرض لأنه مما استأثر اللهُ بالعلم به.

الإشكاليةُ الثّالثة: قد تقدَّم أنَّ شبهات الملاحدة المتعلقة بقوانين الطبيعة ظهرت كردَّة فعلٍ لتقريراتِ اللاهوتيين النصارى. ولهذا يمكن أن يقال إنَّ النصارى تسبّبوا بطريقةٍ غير مباشرة لظهورِ هذه الشبهات من أصلها. ولكن يوجد لدى بعض المتأخّرين منهم ردودٌ جيِّدة في نقدِ هذه الشبهات. وقد بيَّنتُ في المبحث أنَّ العقيدة الإسلامية هي القادرةُ فقط عن تقديم صورة صحيحة عن الكون وقوانين الطبيعة.

الإشكاليةُ الرّابعة: نظريةُ التطوّر أهمُّ نظرية علمية عند الملاحدة، وقد اختلف النصارى فيما بينَهم في مدى صحَّة هذه النظرية؛ فمنهم مَن سلّم ببعض مبادئها، ومنهم مَن رفضها رفضًا قاطعًا. والذين رفضوها رفضًا تامًّا استندوا في الغالب إلى كتابهم المقدَّس. وهذا الكتاب محرَّف، وفيه كثيرٌ من المخالفات للحقائق العلمية. والذين سلّموا ببعضِ مبادئها اعتمدوا على نظرية التصميم الذكي. والاعتماد على الكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى، أو نظرية التصميم الذكي، فيه إشكالياتٌ كما بيَّنته في ذلك المبحث. ولهذا ينبغي للمسلمين أن يستفيدوا من ردودهم على نظرية التطوّر، وأنْ يكوِّنوا لديهم نظريةً علمية خاصَّة متوافقة مع نصوص الكتاب والسنة والحقائق العلمية الثابتة. وأمّا التسليم بكلِّ ما قاله النصارى في ردودهم على نظرية التطوّر؛ ففيه إشكال.

تمهيد

هذا هو الفصلُ الثّالث والأخيرُ من الباب الثالث، والأخير في هذه الرسالة. وموضوعُ هذا الفصل: ردودُ علماء الغرب على شبهات الملاحدة العاطفية. وسأذكر خمسَ شُبهات رئيسة في هذا الفصل: مُشكلة الشَّر، ومُشكلة جهنم، وشُبهة سلب الإرادة، وشُبهة الشُّرور المترتِّبة على الأديان، وشُبهة مصير الجاهل. وهذه الشبهات في الأصل شبهاتٌ عاطفية أكثرَ من كوْنها شبهاتٍ عقلية أو علمية. وهذا لا يمنع أنَّ الملاحدة يوردون بعضَ هذه الشبهات بصياغات منطقية في بعض صورها كما أنَّ لها طابعًا فلسفيًّا. ولكنَّ الباعث الأساس لدى أغلب الملاحدة للتأثّر بهذه الشبهات هو العاطفة، وليس العقل أو العلم. وسأبيِّن ذلك بتفصيلٍ في كلِّ مبحث - إن شاء الله -. وهذا سببُ إيراد هذه الشُّبهات تحت مسمّى: الشبهات العاطفية.

المبحثُ الأوَّل
ردودُهم على شبهة مشكلة الشَّر

أوَّلُ شبهةٍ وأخطرُها في هذا الفصل: مُشكلة الشَّر، وهي من أكثر الشبهات انتشارًا، ومتشعِّبة، وتتَّخذ صورًا متنوِّعة وكثيرة. ولخطورتها وتشعّبها سيتمُّ تقسيم هذا المبحث إلى سبع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تعريفُ مشكلة الشَّر.

الفقرةُ الثّانية: تاريخُ مشكلة الشَّر.

الفقرةُ الثّالثة: مكانةُ مشكلة الشَّر في الخطاب الإلحادي المعاصر.

الفقرةُ الرّابعة: أنواعُ مشكلة الشَّر.

الفقرةُ الخامسة: موقفُ علماء الغرب من مشكلة الشرِّ عمومًا.

الفقرةُ السّادسة: ردودُ علماء الغرب على مشكلة الشرِّ تفصيلًا.

الفقرةُ السّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على مشكلة الشَّر.

الفقرةُ الأولى: تعريفُ مشكلة الشَّر:

«مشكلةُ الشَّر» مكوَّنة من كلمتين: «مشكلة» و«الشر». وقد ذكر الدكتور مايكل هيكسون[1] في مقاله: «تاريخ موجز لمشاكل الشرّ» (A Brief History to the Problems of Evil) أنَّ المقصود بالشرِّ عندَ الفلاسفة المعاصرين: «جميع الأشياء

---

(١) مايكل هيكسون (Michael Hickson): أستاذ مساعد في الفلسفة جامعة سانتا فيه بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في مذهب الشَّك ومشكلة الشَّر. انظر:

https://www.trentu.ca/philosophy/faculty-research/michael-hickson

السيئة». ومن الأمثلة على ذلك: المعاناة الجسدية والعقلية، والاعتداءات المتعمّدة، والفقر[١].

وذكر البروفسور بيتر وان إينفاغنفي كتابه: «مشكلة الشرّ» (The Problem of Evil) أنَّ كلمة «مشكلة» في مصطلح مشكلة الشرّ مفردة، ولكنها في الحقيقة تشير إلى جملة مِن التَّحديات للإيمان بإلهٍ رحيم وقدير[٢]. فالمصطلحُ المتعارف به مفرد، ولهذا سأستمرُّ في ذكْره، ولكنَّهم يقصدون: مشاكل الشَّر. وينبغي التنبيه أيضًا على أنّ «مشكلة» الشَّر ليست مشكلةً حقيقية - كما سيأتي بيانُه بالتفصيل في هذا المبحث -، ولكنَّ بعض الناس استشكل وجودَ الشَّر في العالم مع وجود الخالق، فأُطلق هذا الاسم.

والخلاصة أنَّ مشكلة الشَّر هي الاحتجاج بجميع أنواع السيئات في العالم على أنَّ الخالقَ العليم القدير الودود غير موجود. وتتّخذ هذه الشبهة صورًا مختلفة. ولكي نفهم هذه الصورَ المختلفة نحتاج أن نقفَ على تاريخ هذه المشكلة في الفكر الغربي أوّلًا.

الفقرةُ الثّانية: تاريخُ مشكلة الشَّر:

ذكرَ الدكتور مايكل هيكسون أنَّه إذا فهمنا الشَّر بعمومه فإنّ جميع الفلاسفة الغربيين قد استشكلوه، وحاولوا شرحَ أصوله وكيفية التغلّب عليه. وذلك موجود في التاريخ الفلسفي الأوروبي منذ ٢٥٠٠ سنة[٣]. ولتسهيل استعراض تاريخ مشكلة سأقسِّمه إلى أربع مراحل:

---

(١) انظر:

“A Brief History to the Problems of Evil”, by: Michael W. Hickson, in ”The Blackwell Companion to the Problem of Evil” (3), ed. Justin P. McBrayer and Daniel Howard-Snyder (Wiley Blackwell, 2013)

(٢) انظر:

The Problem of Evil (4-10), by: Peter Van Inwagen, (Clarendon Press, 2006)

(٣) انظر:

“A Brief History to the Problems of Evil”, in ”The Blackwell Companion to the Problem of Evil” (3)

- **المرحلةُ الأولى: مشكلةُ الشَّر في العصرين اليوناني والروماني:**

كان أفلاطون أوَّلَ فيلسوف اشتهر بأنه كتب عن العلاقة بين الخير والشرِّ وبين الإله[١]، وذلك في كتابه: «الجمهورية» (Πολιτεία) حين قال: «بما أن الإله خيّر، فهو ليس - كما يزعم معظمُ الناس - سببًا لكلِّ ما يحدُث للبشر، ولكنّه السبب لأشياء قليلة فقط؛ لأنَّ الأشياء الجيدة أقلُّ من الأشياء السيئة في حياتنا. إنَّه وحده المسئول عن الأشياء الجيدة، لكن يجب أن نجدَ سببًا آخر للأشياء السيئة، وهذا السببُ الآخر ليس إلهًا»[٢].

وكان أفلاطون يتبنَّى مذهبًا فلسفيًّا ثنائيًّا في موقفه من أصل المخلوقات، بمعنى أنه رأى أنه يوجَد سببان رئيسان لأصل الكون، هما: العقل (Mind) والضرورة (Necessity). والعقلُ يعمل على الضرورة[٣]، ويسعى لتوجيهها إلى ما هو أحسن. ويؤمن أفلاطون أنَّ الديميروغوس[٤] ركَّب المادة في هذا الكون الموجود. وهو الإله

---

(١) انظر:

Moira: Fate, Good and Evil in Greek Thought (298), by: Greene W. Chase, (Harper Torchbooks, 1998)

(2) Plato: Complete Works (1018), (379c), Edited with an Introduction and Notes by John M. Cooper. (Hacking Publishing Company, 1997)

(٣) مفهومُ الضرورة عند أفلاطون حيَّر الفلاسفة، ورجَّح بعضُ الباحثين أنَّ أفلاطون يرى أنّ لدى الأشياء المادية قوّى بنفسها كيف تتصرَّف. وتنسب إليها الفوضى والصدفة.
انظر البحث:

"Plato on Necessity and Chaos", by: Andrew S. Mason, in Philosophical Studies (2006), 127:283-298

(٤) الديميروغوس (Demiurge): يعتبر الديميورغوس في الأفلاطونية، والبيثاقورية المحدثة، والأفلاطونية الوسطى ومدارس الشك الفلسفية، كأحد الحرفيين المسئول عن تشكيل والحفاظ على الكون المادي. انظر:

https://www.kachaf.com/wiki.php?n=5ed62ba0aac03f44cf42a4e2

الخيّر، ولكن ليس عنده قدرة محيطة بكلّ شيء. ولهذا نسبَ أفلاطون الشرورَ إلى الضرورة، وليس إليه[1].

هذه خلاصةُ عقيدة أفلاطون في أصل الكون ونظرته إلى مشكلة الشرّ. وذلك بالاعتقاد أنَّ الإله خيِّر، ولكنه ليس قديرًا. وقد أثَّرت هذه الفلسفة كثيرًا في أتباع بعض الفلسفات والعقائد بعده - كما سيأتي ذكرُه -.

وأوّل مَن تُنسَب إليه مشكلة الشَّر كاعتراض على وجود الخالق هو الفيلسوف اليوناني إيبيقور[2] في القرن الثالث قبل الميلاد. والذي نسب هذا الاعتراض إليه هو ديفيد هيوم الذي عاش في القرن الثامن عشر - أي: بعد إيبيقور بألفي سنة -. والاعتراضُ الذي نسبه إليه هو قولُه عن الإله: «هل يريد منعَ الشَّر ولا يقدر؟ إذًا هو عاجز. هل هو قادرٌ ولكنه لا يريد؟ إذًا هو شرير. هل عنده قدرة وإرادة؟ إذًا، فمن أين الشَّر؟»[3]. ولكن هذه النسبة غير دقيقة؛ فرغم أنّ إيبيقور من أكثر فلاسفة اليونان تأليفًا - فقد ألَّف أكثر من ثلاثمائة كتاب - إلّا أنَّه لم يبق من هذه الكتب سوى شذراتٍ قليلة. ولا يوجَد هذا الاعتراض مما بقي من تراثه. وإضافة إلى ذلك فالمحفوظ عنْ إيبيقور أنه كان يؤمنُ بوجود آلهة، ولم يكن ملحدًا[4].

---

(١) انظر:

“A Brief History to the Problems of Evil”, in ”The Blackwell Companion to the Problem of Evil” (4-5)

(٢) إيبيقور (Epicurus): فيلسوف يوناني، وتبنى فلسفة مادية ونظرية المعرفة الحسية. توفي عام: ٢٧١ ق.م. انظر:

https://iep.utm.edu/epicur/

(3) Dialogues concerning Natural Religion and Natural History of Religion (100), by: David Hume, (Oxford University Press, 1993)

(٤) انظر:

“A Brief History to the Problems of Evil”, in ”The Blackwell Companion to the Problem of Evil” (5-6)

طرح الفيلسوف المتشكِّك سيكستوس إمبيريكوس[1] مشكلة الشَّر كاعتراض على وجودِ الآلهة؛ فقال: «إذا وفَّرت الآلهة جميع الأشياء، فلن يكون هناك شيء سيِّئ، وشرٌّ في الكون؛ ولكن الناس يقولون: إنَّ كلَّ شيء مليء بالشر. لذلك لا يقال: إن الآلهة توفِّر كلَّ شيء... وعليه، فإنَّ الآلهة لا توفِّر الأشياء الموجودة في الكون. لكن إذا لم تكنْ لديها عنايةٌ إلهية، وليست لديها وظيفة أو تأثير، فلن نتمكَّن من إدراك أنها آلهة، لأنَّ الإيمان بها ليس ظاهرًا بحدِّ ذاته، ولا يظهر عن طريق الآثار. ولهذا السبب فلا يمكن أنْ نعرف إذا كانت آلهة موجودة»[2].

وبناءً على هذا الكلام، فقد يقال إنَّ إمبيريكوس أوّل من استخدم مشكلة الشرِّ كاعتراضٍ على وجود آلهة. ولكنْ ذكر الدكتور مايكل هيكسون أن إمبيريكوس لم يكن ملحدًا، وإنما كان لاأدريًّا متشكّكًا، ويمكن أن يوصف ما طرحه بأنه مشكلة الشرِّ اللاأدرية، وليس مشكلة الشَّر الإلحادية. وذلك لأنَّ خلاصة كلام إمبيريكوس أنه لا يمكنُ أن نعرف ما إذا كانت الآلهة موجودة، ولم يجزم بإنكار وجودها[3]. وإضافة إلى ذلك فإنَّ إمبيريكوس اعترض بمشكلة الشرّ على وجود آلهة وثنية باطلة، ولم يعترض بهذه المشكلة على وجود الخالق الإله الحقّ. ومعَ ذلك، فقد جاء بعدَه مَن استخدم الاعتراضَ نفسه على وجود الخالق الواحد.

- **المرحلةُ الثَّانية: مشكلةُ الشَّر في عصر النصارى الأوائل:**

ذكر بعضُ الباحثين أنَّ الكتاب المقدَّس لدى النصارى يشتمل على بعض الإشارات إلى مشكلة الشَّر ووجود الله، ولكنّه لا يقدّم حلولًا لهذه المشكلة. وأوّل

---

(١) سيكستوس إمبيريكوس (Sextus Empicurus): فيلسوف يوناني، وقد تبنى فلسفة الشكّ ونشرها. توفي في القرن الثالث بعد الميلاد. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Sextus-Empiricus

(2) Outlines of Scepticism (145-146), by: Sextus Empiricus, ed. By: Barnes J. and Annas J. (Cambridge University Press, 2000)

(٣) انظر:

"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (8)

مَن تكلَّم عن هذه المشكلة من اللاهوتيين النصارى هو الأسقف إيرينيئوس[١] في القرن الثاني. وكانت طريقةُ حلِّه لهذه المشكلة: أنّ الإله خلق الإنسان على صورته، ولكن الإنسان في الوقت ذاته غيرُ كامل، بل يحتاج إلى السعي من أجل الترقّي في الخير والفضل. وذكر أنَّ الإله خلق الشرور في الطبيعة مثل: الزلازل، لكي يترقّى الإنسان في أخلاقه. كما أنَّ الإله يسمح بقيام الإنسان بالشرور لأن لديه إرادة حرّة[٢].

وعندما انتشرتِ النصرانية في القرن الرابع وقعَ نقاشٌ عن مشكلة الشرِّ بين اللاهوتيين النصارى وبينَ أتباع الديانة المانية[٣] الذين يتبنّون عقيدة ثنائية؛ فكان المانويون يؤمنونَ بوجود إله خيِّر وذي قدرة، ويؤمنون أيضًا بوجود «أمة الظلام» منذ الأزل. واعتقدوا أنَّ أمة الظلام تمرّدت على الإله الخيّر، وأنّ هذا التمرّد يفسّر وجود الخير والشَّر في العالم. وكان القديس أغسطين مانويًّا في أوَّل حياته، ثمَّ تنصَّر وردَّ على أتباع هذه الديانة. وكان مِن ضمن المسائل التي ناقشهم فيها: مشكلة الشَّر[٤].

---

(١) إيرينيئوس (Irenaeus): الأسقف في مدينة ليون بفرنسا، وأحد اللاهوتيين الكبار في القرن الثاني. وقد ألَّف كتابَه المشهور: ضد الهرطقة في الردّ الغنوصية. توفي عام: ٢٠٠ أو ٢٠٣ م. انظر: www.britannica.com /biography /Saint – Irenaeus

(٢) انظر:
"A Brief History of Theodicy" by: René von Wounderberg, in: "Blackwell Companion to the Problem of Evil" (178)

(٣) المانوية (Manichaeism): حركة دينية فارسية في القرن الثالث بعد الميلاد من أتباع رجلٍ اسمه ماني، وادَّعى خاتم الأنبياء بعد آدم، وبوذا، وزردشت وعيسى. وانتهت الحركة من الوجود في القرن الخامس أو السادس بسبب كثرة الهجوم عليها من الكنيسة ودولة الروم. انظر: https: / /www.britannica.com /topic /Manichaeism

(٤) انظر:
"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (8-9)

وكان أبرز ردِّ القديس أغسطين على مشكلة الشرِّ أنَّ الإنسان ممكن الوجود وليس واجبَ الوجود. وإذا كان ممكنَ الوجود فيمكنه التغيّر والفساد، وهو الانحراف عما كان ينبغي أن يكون عليه. وبعدَ ذلك ذكر أنَّ ماهية الشرِّ هي: «فقدان الخير» (Privatio Boni). فالشرُّ ليس له وجودٌ ذاتي، وإنما هو فقدان الخير. فالمرض على سبيل المثال: فقدانُ الصحة. وعليه، فإنَّ الإله خلق جميع الأمور الوجودية، ولكنه ليس مسئولًا عن وجودِ الشرور لأنَّها عدمية. ثمَّ ذكر أنَّ الإنسان مسئول عن وجود الشرور؛ فالشرُّ نتيجة لاختيارات سيئة لكائنات حرّة[١].

فطُرحتْ مشكلة الشرِّ في هذه الفترة، ولكن ليست كاعتراض إلحادي على وجود الله؛ وإنَّما كنقاش بين مَن يؤمن بإله واحد[٢] ومن يؤمن بإلهين.

ذكرَ الدكتور مايكل هيكسون أنَّ أوّلَ مَن طرح مشكلة الشرِّ - حسب علمه - كاعتراضٍ على وجود الإله الخالق هو اللاهوتي النصراني توما الأكويني في كتابه المشهور: «الخلاصة اللاهوتية» (Summa Theologica). وهذا في حدود عام ١٢٦٦م. وقال توما الأكويني عن هذه المشكلة: «يبدو أنَّ الإله غير موجود، لأنه إذا كان أحد النقيضين لانهائيًّا، فسيتمُّ تدميرُ الآخر تمامًا. لكن كلمة «الإله» تعني أنه خيّر بلا حدود. وإذا كان الإله موجودًا فلن يكون هناك شرٌّ يمكن اكتشافه؛ ولكن يوجد شرٌّ في العالم. إذًا، الإله غيرُ موجود»[٣].

ولكنَّ توما الأكويني لم يكنْ ملحدًا؛ بل كان أحدَ أشهر اللاهوتيين في التاريخ النَّصراني. فلماذا طرحَ هذه المشكلة بهذا الشَّكل؟ الظاهر أنه مشى على طريقة

---

(١) انظر:

"A Brief History of Theodicy", in: The Blackwell Companion to the Problem of Evil (178-179)

(٢) النصارى يزعمون أنَّهم يؤمنون بإله واحد ولكن هذا الإله له ثلاثة أقانيم: الأب، والابن وروح القدس. ورغم أنَّنا معشر المسلمين نصف هذه العقيدة بأنَّها عقيدة شركية إلا أنّ علماء الأديان - النصارى منهم وغير النصارى - في الغرب يصنّفون الديانة النصرانية بأنّها ديانة توحيدية.

(3) Summa Theologica (13; ST I, q. 2, a. 3, obj. 1)

المدرسية اللّاهوتية المعروفة بين النصارى في العصور الوسطى. والمدرسية اللاهوتية شبيهةٌ بعلم الكلام لدى بعضِ المسلمين، حيث يطرح اللاهوتي الاعتراضاتِ على وجود الله، ثمَّ يجيبُ عنها بعد ذلك. وهذا ما يظهر أنَّ توما الأكويني فعلَه عندَ إيراده لهذه المشكلة. ولكنْ يبدو أيضًا أنَّه لم يكن يستشكلُ هذه الشبهةَ إلى حدٍّ كبير؛ لأنَّه أوردها عرضًا، ولم يفردْها بمصنَّف، مع أنه كان كثيرُ التأليف[1]. ورغم ذلك، فهذه أوّلُ مرّة طرحت هذه الشبهةُ اعتراضًا على وجود الإله الخالق.

وقد ألَّف توما الأكويني تفسيرًا لسفْر أيوب في العهد القديم. وتحدّث في هذا التَّفسير عنْ معاناة النبي أيوب ﷺ وتطرَّق إلى مشكلة الشَّر. وذكر أنه لا يمكن حلُّ هذه المشكلة إلّا في ظلِّ الإيمان بالحياة الأخروية؛ فالإله يسمح بوجود هذه الشرور في الدنيا كامتحانٍ واختبار، ثمَّ يحاسبهم على ما فعلوا في الحياة الدنيا، ويكون مسيرهم إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار[2].

- **المرحلةُ الثّالثة: مشكلةُ الشَّر في عصري النهضة والتنوير:**

ضعفتْ سيطرةُ الكنيسة الكاثوليكية في عصر النهضة والإصلاح - كما سبق ذكره -، وفي تلكَ الحقبة الزمنية ألَّف الفيلسوف المتشكّك الفرنسي بيير بايل[3] كتابه: «القاموس التاريخي النقدي» (Dictionnaire Historique et Critique)، وذلك في عام ١٦٩٧م،

---

(١) انظر:

"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (9-11)

(٢) انظر:

"Aquinas on the Suffering of Job", by: Eleonore Stump, in "The Evidential Argument from Evil" (49-51), edited by: Daniel Howard-Snyder, (Indiana University Press, 1996)

(٣) بيير بايل (Pierre Bayle): فيلسوف فرنسي ومؤلف القاموس التاريخي النقدي، وانتقدته الكنيسةُ الكاثوليكية بسبب كثيرًا، وادَّعت أنه يحاول هدم العقائد النصرانية. توفي عام: ١٧٠٦م. انظر: https://www.britannica.com/biography/Pierre-Bayle

وعُرف هذا القاموس بـ«ترسانة عصر التنوير» لتأثيره الكبير في الفلاسفة الماديين في هذا العصر[1]. ورغم أنَّ بايل نشأ في بيئة نصرانيةٍ فإنه قد تأثَّر بمشكلة الشرِّ، وذكرَها في قاموسه؛ فقال: «الطريقة التي تمَّ بها إدخالُ الشَّر في ظلِّ حكم كائن سام - خيِّر بلا حدود، مقدَّس بلا حدود، وقوي بلا حدود - ليس فقط غير قابل للتفسير، ولكنَّه أيضًا غير مفهوم»[2].

طرحَ بايل هذه الشبهة، وذكر أنَّ وجودَ الشَّر في العالم، ووجود الخالق المتّصف بهذه الصِّفات في الوقت نفسه؛ غيرُ قابل للتفسير وغير مفهوم. ومع ذلك فإنه لم يصرّح بإنكارِ وجود الخالق بناءً على هذه الشبهة، ولكنَّ الطرح الموجود في القاموس أثّر فيمَن جاءَ بعده لإظهار الشبهة.

أدركَ غوتفريد ليبنز خطورة الشبهة في القاموس وألّف كتابه: «مقالات عن ثيوديسيا: خيرية الإله، وحرية الإنسان وأصل الشرّ» (Essais de Théodicée sur la bonté de Dieu, la liberté de l'homme et l'origine du mal)، وردَّ فيه على الشبهة المثارة في قاموس بايل بطريقةٍ معقَّدة لم تشفِ العليلَ، ولم ترو الغليل، بل أدَّى ردُّه إلى إظهار المشكلة أكثر فيما بعد.

أوَّلُ مَن أظهر مشكلة الشرِّ بصياغتها المنطقية بناء على قاموس بايل شخصان:

الشخصُ الأوَّل: مؤلِّف مجهول لكتاب فرنسي بعنوان: «نظام المذهب المادي» (Jordanus Brunus Redivivus) بين عامي: ١٧٦٠ - ١٧٧٠م. وقد خصَّص الباب الخامس من كتابِه لمشكلة الشَّر، وهو أوَّلُ كتاب قدَّم مشكلة الشَّر بصياغة منطقية للتشكيك في وجود الخالق[3].

---

(١) انظر: Reading Bayle (٧), by: Thomas Lennon, (University of Toronto Press, 1999)

(2) Historical and Critical Dictionary: Selections (168-169), by: Pierre Bayle. Translated, edited, and introduced by Richard H. Popkin with assistance from Craig Brush, (Hacket Publishing, 1991)

(٣) انظر:
"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (14-15)

الشخصُ الثّاني: ديفيد هيوم في كتابه: «محاورات في الدين الطبيعي» (Dialogues concerning Natural Religion) في عام ١٧٧٩ م[١]. وديفيد هيوم هو الذي نسبَ مشكلةَ الشَّر إلى إيبيقور كما سبق ذكره.

- **المرحلةُ الرّابعة: مشكلةُ الشَّر في العصر الحديث:**

وبعدَ هذين الكتابين تمسَّك الملاحدةُ بشبهة مشكلة الشَّر، حتَّى أضحت شبهتهم المفضَّلة في إنكار وجود الخالق. وكان الفيلسوف الملحد جون ماكي أكبر منظِّر لهذه الشُّبهة في القرن العشرين، لا سيَّما في مقاله: «الشرّ والقدرة المحيطة» (Evil and Omnipotence) الذي صدر في عام ١٩٥٥م. وذكر بعض الباحثين المتخصّصين أنَّ حجَّة ماكي تعتبر أشهرَ صياغة منطقية لمشكلة الشرّ حتى اليوم[٢].

وبعدَ ماكي كان الفيلسوف وليام روو[٣] مِن أشهر مَن تولّى كبرَ نشْر شبهة مشكلة الشَّر؛ حيث كتب عدَّة مقالات ابتداءًا من عام ١٩٧٩م، واستقرَّ على هذا خمسًا وثلاثين سنة[٤]. وقدَّم ما عُرفت بمشكلة الشَّر البرهانية - وسيأتي الحديثُ التفصيلي عن مشكلتي الشَّر المنطقية والبرهانية لاحقًا بإذن الله -.

---

(١) توفي ديفيد هيوم عام ١٧٧٦م. فنشرَ هذا الكتاب لأوّل مرةٍ بعد وفاته بثلاث سنوات.

(٢) انظر:

"The Logical Problem of Evil: Mackie and Plantinga", by: David Howard-Snyder, in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (19)

(٣) وليام روو (William Rowe): بروفسور الفلسفة في جامعة بوردو بالولايات المتَّحدة. وكان نصرانيًّا، ثمَّ ألحد وكان مِن أبرز مَن نظَّر لمشكلة الشَّر كاعتراض على وجود الله. توفي عام ٢٠١٥م. انظر:

https://philosophynow.org/issues/47/William_Rowe

(٤) انظر:

"Rowe's Evidential Arguments from Evil", by: Graham Oppy, in: "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (49)

ومِن أشهر مَن ردَّ على مشكلة الشَّر في هذه الحقبة الزمنية: البروفسور ألفن بلانتغا؛ فقدْ ألَّف كتبًا ومقالات عن ذلك منذ عام ١٩٧٤ إلى عام ٢٠٠٤م، وهو يعتبر رمزًا عندَ المهتمين بنقد هذه المشكلة[١].

ولكنْ لم يتوقَّفِ الملاحدةُ عنِ استخدام هذه المشكلة؛ ففي عام ١٩٩٠م، ألّف البروفسور مايكل مارتن كتابه: «الإلحاد: تبرير فلسفي» (Atheism: A Philosophical Justification) - وهو مِن أشهر كتبِ الإلحاد في نهاية القرن العشرين -، وخصّص أكثرَ من مائة صفحة لتقريرِ مشكلة الشَّرِّ، والرَّد على اعتراضات علماء الغرب على هذه المشكلة[٢].

ومشكلةُ الشَّر حاضرةٌ في خطاب الملاحدة الجدد؛ فقد ذكرها ريتشارد دوكينز في كتابه: وهْم الإله[٣]، وطرحَ سام هاريس هذه الشبهة في مناظرته مع البروفسور وليام لاين كرايغ[٤]، كما أنَّ مايكل شيرمر عقد مناظرة عنها[٥].

وبهذا العرض الموجَز يتبيَّن تاريخُ مشكلة الشَّر في الخطاب الإلحادي، وأنَّ جذورَ هذه المشكلة قديمة، ولكنَّها لم تظهرْ كاعتراض على وجود الخالق إلا قبل نحو ٢٥٠ سنة، أيْ مع بروز الإلحاد في الغرب.

---

(١) انظر:

"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (187-188)

(٢) انظر: Atheism: A Philosophical Justification (334 - 352)

(٣) انظر: The God Delusion (107 - 108)

(٤) انظر الجزء من المناظرة في مقطع بعنوان:

Sam Harris-God is either impotent or evil

على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=QuPsxFklxaw

(٥) انظر المناظرة بعنوان: If God, Why Evil على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=qH4jIHlMunw

الفقرةُ الثّالثة: مكانةُ مشكلةِ الشَّر في الخطاب الإلحادي المعاصر:

مشكلةُ الشَّر من أهمِّ الشبهات الإلحادية على الإطلاق. ويتبيّن ذلك مما سبقَ من العُمق التاريخي لهذه الشُّبهة في الخطاب الإلحادي. ومما يدلُّ على ذلك أيضًا أن بعضَ أئمَّة الإلحاد صرَّحوا أنَّ مشكلة الشرِّ هي السبب الرئيس لإلحادهم. ومن هؤلاء الملاحدة: أنطوني فلو - الأب الروحي للإلحاد في القرن العشرين قبل تراجعه -[1]، وكذلك البرفسور الملحد مايكل روس[2].

وذكرَ البروفسور الملحد مايكل تولي[3] أنَّ مشكلة الشرِّ تعتبر الحجةَ المركزية للإلحاد[4]، كما أنَّ الشاعر الألماني الملحد جورج بوخنر[5] وصفها بأنّها: صخرة الإلحاد[6].

---

(١) انظر: There is a God (١٣)

(٢) وذلك في مناظرته مع الدكتور فزالا رانا بعنوان:

The Origin of Life: Evolution Vs. Design

وهي موجودة على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=2CnZ3n8I5b8

(٣) مايكل تولي (Michael Tooley): بروفسور الفلسفة في جامعة كولورادو بالولايات المتحدة. وهو متخصِّص في نظرية المعرفة وفلسفة الدين. انظر:

https://www.colorado.edu/philosophy/people/michael-tooley

(٤) انظر مناظرة: Debate: Is God Real? على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=OBEKUBOMA_0

(٥) جورج بوخنر (Georg Büchner): الشاعر وكاتب المسرحيات الألماني في القرن التاسع عشر. توفي: ١٨٣٧م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Georg-Buchner

(٦) انظر نقلاً عن كتاب:

God and Evil: The Case for God in a World Filled with Pain (298), by: Chad Meister and James K. Dew, (IVP Books, 2013)

وقد لخَّص البروفسور رونالد ناش[١] هذا الأمرَ بقوله: «الاعتراضات على المذهب الألوهي تظهرُ وتختفي؛ الحجج التي اعتقد كثيرٌ من الفلاسفة أنها مُقنعة قبل خمسٍ وعشرين سنة قد اختفتْ من الظهور. وبعضُ المشاكل لا تزال تتلقَّى آذانًا صاغية في دائرةٍ دون أخرى. ولكنَّ جميعَ الفلاسفة الذين أعرفهم يؤمنون أنَّ أهمَّ تحدٍّ جاد للإيمان بالإله كان في الماضي والحاضر، وكذلك في المستقبل؛ هو مشكلة الشَّر»[٢].

ولا يعني ذلك أنَّ علماءَ الغرب وقفوا مكتوفي الأيدي أمامَ هذه الهجمات، بل النقاش الفلسفي اللاهوتي بينَ الملاحدة والنصارى حادّ جدًّا في الغرب، ويدلّ على ذلك كثرةُ التأليفات عنها؛ فحسب كتاب: «ثيوديسيا[٣]: ببليوجرافيا[٤] مشروحة عن مشكلة الشرّ بين عامي ١٩٦٠ - ١٩٩٠ م» (THEODICY: An ANNOTATED BIBLIOGRAPHY on the PROBLEM OF EVIL, ١٩٦٠ - ١٩٩١). فيوجد عناوين ٤٣٠٠ لمواد علمية عن مشكلة الشرِّ في هذه الفترة الزمنية الوجيزة[٥].

---

(١) رونالد ناش (Ronald Nash): بروفسور الفلسفة واللاهوت الأمريكي، وقد ألّف عددًا من الكتب في مجال تخصُّصه. توفي عام: ٢٠٠٦م. انظر:
https://www.biblicaltraining.org/speaker/ron-nash

(2) Faith and Reason (177), by: Ronald H. Nash, (Zondervan, 1988)

(٣) سيأتي بيانُ المراد بهذه الكلمة لاحقًا في المبحث - إن شاء الله -.

(٤) ببليوجرافيا: يُطلق على معنيين:
أ) علم التَّسجيل المنظّم للمعلومات عن الكتب.
ب) فهرس بالمراجع والمصادر حولَ موضوع معيَّن.
انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ١٥٦).

(٥) ذكر ٤٢٠٠ مادة علمية في الطبعة الأولى، ثمَّ زاد إلى ٤٣٠٠ في الطبعات المتأخّرة. انظر صفحة البروفسور باري ويتني في جامعة ويندسور عن كتابه:
http://web2.uwindsor.ca/courses/cmllc/whitney/theodicy.htm

وهذا كلُّه يدلُّ على مكانة مشكلة الشَّر في الخطاب الإلحادي المعاصر، وأنّها من أهمِّ شبهاتهم على الإطلاق. ووجودُ هذه المؤلفات والأبحاث الإلحادية استدعى ردودًا كثيرة لنقدِ شبهاتهم المتعدّدة المتعلقة بمشكلة الشَّر.

الفقرةُ الرّابعة: أنواعُ مشكلة الشَّر:

مشكلةُ الشَّر لا تتضمَّن شبهة واحدة، بل شبهات. ولا تقدّم مشكلة الشرِّ بصياغة واحدة؛ بل صياغات. ولا تتعلَّق هذه المشكلة بنوع واحد من الشرّ، بل بأنواع من الشُّرور. وقبلَ الخوض في الردِّ نحتاج أنْ نفهم حقيقة الأسئلة والاعتراضات التي يقدّمها الملاحدة؛ فإنَّ «أعسر ما في الجواب عن مشكلة الشَّر هو معرفةُ السؤال لا الجواب! وأقصدُ بذلك أنَّ شبهةَ الشرِّ لا تطرحُ سؤالًا واحدًا بسيطًا، وإنما هي تطرح أسئلة كبرى تعبِّر عن أوْجه المشكلة، ثمَّ إنَّ هذه الأسئلة تتشظّى بعد ذلك إلى إشكالات أصغر وأغْزر؛ إذ إنَّ أنصارَ الإلحاد كثيرًا ما يفرِّعون أسئلة جديدة كلما جاءهم الجوابُ عن أسئلتِهم الكبرى، ولذلك كانت أبرزُ اعتراضاتهم هي أنَّ مخالفهم لم يستوعب في جوابه جميعَ مظاهر المشكلة»[(١)].

ومعَ ذلك، فلا يمكن أن يستوعبَ هذا المبحثُ جميعَ شبهات الملاحدة المتعلقة بالشَّر، وكذلك لا يمكن إيرادُ جميع ردودِ علماء الغرب على هذه الشبهات؛ فقد سبق أنَّ عددَ الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع خلال ثلاثين عامًا تزيد عن ٤٣٠٠ دراسة. ولكنْ سيتناول هذا المبحثُ أهمَّ الشبهات في نظري، ثمَّ أقوى الردود عليها.

ومشكلةُ الشَّر تنقسم إلى قسمين رئيسين:

- **القسمُ الأوّل: مشكلة الشَّر المنطقية (Logical problem of evil):**

هي المشكلة التي قدَّمها البروفسور جون ماكي، وزعمَ أنَّ وجود إله كامل القدرة والخيرية يتناقض معَ وجود الشَّر[(٢)]. ويمكن تلخيصُ المشكلة في مقدّمتين ونتيجة على الشكل الآتي:

---

(١) مشكلة الشَّر ووجود الله (٣٢).

(٢) انظر:
“Evil and Omnipotence. Mind”, by: John Mackie, in “A Quarterly Review of Psychology and Philosophy” 64: (200-201), (1955)

١. لا يستقيم منطقيًّا أنْ يسمح الإله الكامل في علمه وقدرته وخيريته للشرِّ بالوجود.

٢. الشرُّ موجود.

٣. إذًا، الإلهُ غيرُ موجود[١].

- **القسمُ الثّاني: مشكلةُ الشَّر البرهانية (Evidential problem of evil):**

هي المشكلةُ التي قدَّمها البروفسور وليام روو في سلسلة من المقالات. وكان يزعم فيها أنَّ وجودَ الشَّر برهانٌ على عدم وجود خالق عليم قدير رحيم. ولا يقصد بذلك أنَّه يستحيل وجودُ هذا الخالق منطقيًّا، ولكنْ بالنظر إلى كثرة الشَّر في العالم يرجِّح عدم وجود هذا الخالق.

ويتلخَّص هذا القسمُ بالصياغة المنطقية الآتية:

١. توجد في العالم معاناةٌ شديدة، كان يمكن لأيِّ كائنٍ عليم قدير أن يوقفها بدون أنْ يُقرن ذلك بحرمان البشر من أيِّ خيرٍ أكبر، أو السماح بوجود شرٍّ أسوأ.

٢. إنْ وُجد كائن عليمٌ، وذو خيرٍ مطلق، فإنه سيمنع ما يمكنه حدوثَ أي معاناة شديدة، ما لم يفقد بذلك خيرًا أكبر، أو يسمح لشرٍّ مماثل أو أسوأ.

٣. إذًا، لا يوجد كائنٌ قدير، عليم، ذو خير مطلق.

وكان يسترسل مِن إيراد أمثلة عاطفية على هذه المعاناة ليدعم حجته المزعومة[٢]. وكثيرٌ من الأمثلة التي ذكرها هي من باب: المعاناة الشديدة (Gratuitous suffering) أو الشرّ المجاني (Surplus suffering). والمقصود بذلك: أنواع الشرور والمعاناة التي لا هدف من ورائها - في نظرهم -[٣].

---

(١) انظر: مشكلة الشَّر ووجود الله (١٠٩).

(٢) انظر:

"Rowe's Evidential Arguments from Evil", by: Graham Oppy, in: "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (49-51)

(٣) انظر: مشكلة الشرِّ ووجود الله (١٤٤ - ١٤٦).

كيف يمكن التفريقُ بين هذين القسمين؟ ذكر بعضُ الباحثين أنَّ مشكلة الشرِّ المنطقية استنتاجية (Deductive) وبديهية (A priori)؛ فلا تحتاج إلى إيراد أمثلة واقعية عليها؛ فمجرَّد وجود الشَّر - حسبَ هذه الصياغة - يتناقض منطقيًّا مع وجود خالق عليمٍ رحيم، بينما مشكلةُ الشَّر البرهانية استقرائية (Inductive) واستدلالية (A posteriori)؛ فتعتمد على الاستدلال بوقائع وأحداث حصلت فيها معاناة وشرورٌ، على أنَّ الأرجح أنه لا يوجد خالق متَّصف بهذه الصفات المذكورة[١].

ولهذا كان هذا القسم من مشكلة الشَّر أقربَ إلى كونه شبهة عاطفية من كونه شبهةً عقلانية - وإن صيغت بصياغة منطقية - ؛ لأنَّ أصحاب هذه الشبهة يكثرون من إيرادِ قصص عاطفية عن المعاناة في العالم تخاطب عواطف الناس.

والأمثلةُ على الشُّرور التي يذكرونها ترجع إلى نوعين رئيسين:

النوعُ الأوَّل: الشرُّ الأخلاقي: ويشمل أنواعَ المعاناة التي تحصل نتيجة لتصرّفات البشر[٢]. ومِن الأمثلة على ذلك: الحروب، والقتل، والاغتصاب، إلخ.

النوعُ الثّاني: الشرُّ الطبيعي المادي: ويشمل المعاناة التي لا تحصل نتيجة لتصرُّفات البشر. وهي أنواعٌ كثيرة، منها الكوارث في الطبيعة مثل: الزلازل، والقحط، والفيضانات. وكما يدخل فيها أيضًا: التشوهات الخلقية، والأمراض الجسدية والعقلية. والقائمةُ تطول من الأمثلة التي يذكرها الملاحدة من هذا النوع[٣].

---

(١) انظر:
"The Argument from Evil", by: Andrea M. Weisberger, in: The Cambridge Companion to Atheism (167)

(٢) انظر: المصدر السابق (١٧٤).

(٣) انظر:
The Many Faces of Evil: Theological Systems and the Problems of Evil (191-192), by: John S. Feinberg, (Crossway Books, 2004)

ويبدو أنَّ مِن أسباب هذا التقسيم هو أنَّ مِن أشهر أجوبة النصارى عن وجود الشَّر هي أنَّ الله منحهم إرادةً وقدرة على هذه الأفعال - كما سيأتي ذكرُه -. وعليه، فالذي يُلام على هذه الشرور هو الإنسانُ بسبب تصرّفاته الخاطئة. ولعل ذلك مِن أسباب أنَّ أغلب الأمثلة التي يذكرها الملاحدة من القسم الثاني، لا الأوَّل(١).

الفقرةُ الخامسة: مواقفُ علماء الغرب من مشكلة الشَّر عمومًا:

تقدَّم ذكرُ نبذة تاريخية موجزة عن مشكلة الشَّر، وأشرت إلى بعض ردود النصارى على هذه المشكلة. وفي هذه الفقرة، سيتمُّ بيانُ أبرز مواقف علماء الغرب من هذه المشكلة عمومًا. ومشكلةُ الشَّر تكمُن في محاولة الجمع بين الإيمان بإله عليم قدير رحيم وبينَ وجود الشَّر. وبتتبُّع ما كتبه علماءُ الغرب وجدتُ أنَّ ثمة ثلاثةَ مواقف فلسفية ولاهوتية رئيسة في حلِّ هذه المشكلة:

- **الموقفُ الأوَّل: الادِّعاء أنَّ الشرَّ وهم:**

وهذا الموقفُ ذهبت إليه اللاهوتية ماري باكر إيدي(٢)، ومن تبعها حيث ادّعوا أنَّ الشرّ وهْم، بمعنى خطأ في الفكر، وهو خطأ شخصي. ويتبع ذلك أنه يمكن القضاءُ على الشَّر من أيِّ نوع من خلال الانخراط في «التفكير الصحيح»، والاعتراف بالطبيعة الوهمية للشَّر(٣).

وهذا القول - معَ غرابته وبطلانه - فلا يوجد تعارض بين الإيمان بوجود الخالق العليم القدير الخيِّر وبينَ وجود الشَّر؛ لأنَّ الشرّ غير موجود.

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٩١)، وكذلك: مشكلة الشَّر ووجود الله (١٢١ - ١٢٢).

(٢) ماري باكر إيدي (Mary Baker Eddy): الكاتبة الأمريكية وزعيمة حركة العلم المسيحي، وهي فرقةٌ نصرانية لها عشرات الآلاف من الأتباع. توفيت عام: ١٩١٠م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Mary-Baker-Eddy

(٣) انظر المقال:
Evil as an Illusion: The American Mind-Cure Movement, by: W. Kaufman
وهو موجود على الرابط:
http://faculty.uml.edu/whitley_kaufman/problem%20of%20evil/evil_as_illusion.htm

- **الموقفُ الثّاني: إنكارُ اتِّصاف الخالق بقدرة مطلقة:**

وهذا ما ذهبَ إليه أتباعُ مذهب العملية اللاهوتية[1]. ويرى أتباع هذا المذهب أنَّ قدرةَ الخالق محدودة، وعليه، فإنّهم رأوا أنَّه لا تعارض بين وجود الخالق ووجود الشَّر؛ لأنَّ الخالق - وتعالى اللهُ عن ذلك - غيرُ قادر على منع الشرور الحاصلة في العالم[2].

- **الموقفُ الثّالث: المذهبُ الألوهي التقليدي:**

ويتخلَّص هذا الموقفُ بالإقرار بأنَّ الله متّصف بالقدرة المطلقة، والعلم المحيط، والخيريَّة الكاملة مع الاعتراف بوجود الشرِّ في العالم وبيان الحِكم في وجوده. وهذا الموقفُ يُعرف في علم اللاهوت النصراني بثيوديسيا (Theodicy). وأصل هذه الكلمة من اللغة اليونانية. وهي مكوَّنة من جزئين: Theos بمعنى: الإله، و Dike بمعنى: العدالة. فالمقصود بثيوديسيا: العدالة الإلهية. وذكر البروفسور ريني وان واندينبيرغ أنّ القولين الأوَّلين لا يُعدَّان من الثيوديسيا[3]، كما أنَّهما يخالفان اللاهوت التقليدي عند اليهود والنصارى، كما همَا بعيدان كلَّ البعد عن العقيدة الإسلامية. ولهذا سيكون الاعتمادُ على الموقف الثالث في الردود.

---

(١) العملية اللاهوتية (Process theism): يشير هذا المذهب عادةً إلى مجموعة من الأفكار اللاهوتية التي نشأت في التوجه الميتافيزيقي للفيلسوفين ألفريد نورث وايتهيد (١٨٦١ - ١٩٤٧) وتشارلز هارتشورن (١٨٩٧ - ٢٠٠٠) أو مستوحى منه أو يتفق معه. ومن السمات الأساسية في هذا المذهب أنَّ الإله يشارك بشكل كامل في العمليات الزمنية ويتأثر بها. انظر:
https://plato.stanford.edu/entries/process-theism/

(٢) انظر تلخيص هذا المذهب في مقال: Process Theodicy and the Concept of Power للبروفسور Nelson Pike وهو موجود على الرابط:
https://www.religion-online.org/article/process-theodicy-and-the-concept-of-power/

(٣) انظر:
"A Brief History of Theodicy", in: The Blackwell Companion to the Problem of Evil (178)

الفقرةُ السّادسة: ردودُ علماء الغرب على مشكلة الشرِّ تفصيلاً:

حيث إنَّ مشكلة الشرِّ من أهمِّ شبهات الملاحدة على الإطلاق فقد اهتمّ علماءُ الغرب بالردِّ عليها أكثرَ من الشبهات الأخرى. ولا يمكن استيعاب جميع ردودهم في هذا المبحث، ولكن سأركِّز على ذكر أهمها. وذلك من ثمانية أوجه:

- **الوجهُ الأوَّل: الردُّ على عقيدة الملاحدة الفاسدة في الخالق:**

مشكلةُ الشَّر مبنيَّة على التعارض المزعوم بين أمرين:

الأمرُ الأوَّل: الإيمانُ بالخالق العليم القدير الرحيم.

الأمرُ الثّاني: وجودُ الشَّر.

ومِن أسباب توهُّم الملاحدة أنَّه يوجد تعارض بين هذين الأمرين: العقيدة الفاسدة في الخالق. وقد ذكرتِ البروفسورة إليونور ستومب[١] خلال تناولها للأخطاء في الموقف الإلحادي من مشكلة الشرِّ أنَّ إنكار تناسق منظومة ما، قد يرجع إلى عجز المخالف عن فهْمِها؛ لأنه لم يقرأ جميعَ مقولاتها ضمنَ نسق مترابط يصل أولها بآخرها[٢]. «وهذا هوَ في الحقيقة الواقع من الملاحدة عندما يردُّون على المؤمنين بإله في مسألة وجود الشر؛ فإنَّهم كثيرًا ما يجمعون هؤلاء «المؤمنين» في ضغث واحد، على أنهم جماعة واحدة، لها لونٌ واحد، وعمق واحد، وامتدادٌ واحد، دون مراعاة للمقولات الكبرى والتفصيلية لكلِّ منظومة دينية على حدة»[٣].

---

(١) إليونور ستومب (Eleonere Stump): بروفسورة الفلسفة في جامعة ساينت لويس بالولايات المتَّحدة. انظر:

https://www.slu.edu/arts-and-sciences/philosophy/faculty/stump-eleonore.php

(٢) انظر:

“The Problem of Evil” by: Eleonere Stump, in: Philosophy of Religion: A Reader Guide (400), edited by: William Lane Craig (Rutgers University Press, 2002)

(٣) مشكلة الشَّر ووجود الله (٧٦).

وِمن هنا تنشأ شبهةُ مشكلة الشرِّ البرهانية، حيث زعم وليام روو - كما سبق ذكره - في المقدِّمة الثانية: «إنْ وُجد كائنٌ عليم وذو خيْر مطلق؛ فإنه سيمنع حدوثَ أيٍّ معاناة شديدة، يمكنه...». فهو يتحكَّم فيما سيفعله الخالق أو لا يفعله، ولا يدرك أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يدرك حِكمَ أفعال الخالق، بل الاعتراض على حِكم الخالق بهذه الطريقة ليس له أيُّ معنى. ذكر البروفسور وليام هاسكر[1] بعض المفاهيم الخاطئة لدى الملاحدة عنِ الخالق، ثمَّ قال: «المفهوم [الصحيح] هو أن الإله عظيم جدًّا، وأكثر حكمةٍ وأفضل منّا بكثير، وأنَّ الفكرة أننا مؤهلون لإصدار الحكم عليه لا معنى لها»[2]. وهذا التقريرُ صحيح، ويتضمَّن أمرين مهمّين:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ الإله متَّصف بالعظمة والحكمة: فالملحدُ يحصر الصفات الإلهية في مشكلةِ الشَّر في ثلاث: القدرة، والعلم، والرحمة. ولكن الحقيقة أنه سبحانه متّصفٌ بأكثر من هذه الصفات. ومِن هذه الصفات: صفة العظمة؛ فلا يمكن قياس الخالق بقياس تمثيل أو بقياس شمول. ولهذا كانت طريقةُ الملاحدة في تقديم مشكلة الشرِّ خاطئة. فهُم يتكلَّمون عن الإله كما يتكلّمون عن الإنسان. وعليه، فإنهم يذكرون هذه المقدِّمات المنطقية عمّا كان ينبغي أن يفعله الخالق أو لا يفعله.

وإضافةً إلى ذلك، فإنَّ الخالق متَّصف بصفة الحكمة؛ فلا يخلقُ إلّا لحكمة. وعليه، فيتيقَّن المؤمن أنّه ما من شرٍّ من الشُّرور في العالم إلّا وفي خلقه حكمة بالغة.

الأمرُ الثّاني: أنَّ الإنسانَ قاصرٌ عن إدراك حكمة الخالق فيما يفعله ويخلقه: العقلُ يوصل الإنسانَ إلى أنَّ الخالق متَّصف بالحكمة من حيث العموم، ولكن العقل قاصرٌ عن إدراك جميع الحِكم التفصيلية.

---

(١) وليام هاسكر (William Hasker): بروفسور الفلسفة في جامعة هونتينغتون بالولايات المتَّحدة، وهو متخصِّص في فلسفة الدين، ولا سيَّما مشكلة الشَّر. انظر:

https://www.huntington.edu/meet-the-faculty/william-hasker

(2) "D.Z. Phillips' Problems with Evil and with God", by: William Hasker, in Philosophy of Religion, Vol 61, No. 3, p. 156.

وقد قرَّر شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) هذين الأمرين بطريقة بديعة إذ قال: «... فكلُّ ما فعله [الله] عَلِمْنا أنَّ له فيه حكمة، وهذا يكفينا من حيث الجملة، وإنْ لم نعرفِ التفصيل، وعدم عِلْمنا بتفصيل حكمته بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته، وكما أنَّ ثبوتَ صفات الكمال له معلوم لنا، وأمّا كُنْهُ [- أي حقيقة -] ذاته فغيرُ معلومة لنا: فلا نكذبُ بما علمناه؛ أي من كماله ما لم نعلمه؛ أي من تفاصيل هذا الكمال، وكذلك نحن نعلم أنَّه حكيم فيما يفعله ويأمر به، وعدم علْمنا بالحكمة في بعض الجزئيات لا يقدحُ فيما علمناه من أصلِ حكمته، فلا نكذب بما علمناه من حكمته ما لم نعلمه من تفصيلها.

ونحنُ نعلم أنَّ مَن علم حذق أهل الحساب والطب والنحو ولم يكن متّصفًا بصفاتهم التي استحقوا بها أن يكونوا من أهل الحساب والطب والنحو؛ لم يمكنه أنْ يقدحَ فيما قالوه لعدم علمِه بتوجيهه، والعبادُ أبعدُ عن معرفة الله وحكمته في خلقه من معرفةِ عوامِّهم بالحساب والطب والنحو، فاعتراضهم على حكمته أعظم جهلًا وتكلّفًا للقول بلا علمٍ من العامي المحض إذا قدحَ في الحساب والطب والنحو بغير علمٍ بشيءٍ من ذلك»[1].

الخلاصةُ أنَّ الله - تعالى - متَّصف بالحكمة والعظمة، ولا يقدر الإنسان أن يحيط بجميعِ الحِكم الإلهية، وذلك لقصورِ عقله. وقد ردَّ البروفسور وليام ألستن على مشكلة الشرِّ البرهانية - التي سبقتِ الإشارة إليها -، وبيَّن أنَّ العقل الإنساني ليس قادرًا على إصدارِ نحْو هذه الأحكام؛ لأنه أسيرُ ستّة معوّقات تمنع من الإحاطة بالحكم الإلهية لوجود الشرور، وهي:

المعوِّقُ الأوَّل: قصورُ المعلومات (Lack of data): فالإنسانُ لا يحيط بكلِّ شيء علمًا، بل لا يعلم كلَّ شيء في الحاضر، فضلًا عن معرفة الماضي المجهول أو المستقبل، كما أنه لا يعلم أسرارَ القلب إلى تفاصيل مكوّنات الكون.

المعوِّقُ الثّاني: تعقيد أكبر من إمكانية الإدراك (Complexity greater than we can handle): المسائلُ المتعلّقة بوجود الشَّر هي قضايا تفصيلية متداخلة العناصر على صورة أعظم من طاقتنا على الاستيعاب.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٢٨).

المعوِّقُ الثّالث: صعوبةُ تحديد ما هو ممكن أو ضروري ميتافيزيقيًّا (Difficulty of determining what is metaphysically possible or necessary): العالم الميتافيزيقي هو عالمُ ما وراء المادة، والإنسانُ لا يملك العلمَ عنه إلا بما دلَّ عليه الوحي المعصوم، أو ما دلَّت عليه الآثار في العالم المادي.

المعوِّقُ الرّابع: جهلُنا بالقائمة التامة للممكنات (Ignorance of the full range of possibilities): هذه المشكلةُ تواجهنا عندما نبحث عن النتائج السلبية للنفي؛ فنحن مُطالَبون باستحضار جميعِ الممكنات لاستنباط نتيجة من نفيها. وهذا الأمرُ في غاية الأهمية عندَ الحديث عن الحِكم الإلهية في أفعال الله وفي مخلوقات الله.

المعوِّقُ الخامس: جهلُنا بالقائمة التامة للقيم (Ignorance of the full range of values): لو أردنا أن نستخلصَ دلالةً إيجابية من الأفعال البشرية أو الأحداث الكونية لنفيِ أنَّه شرٌّ، أو النظر إليه سلبًا بالإثبات أنَّه شرٌّ؛ فإنَّه يقتضي إدراكًا لجميع القيم الإيجابية أو السلبية التي يمكن أن تتصل بهذا الفعل.

المعوِّقُ السّادس: حدودُ ملكاتنا في شأن تقديم أحكام قيمية كاملة (Limits to our capacity to make well considered value statements): والمثالُ الأساس لذلك هو صعوبةُ إصدار أحكام مقارنة بشأن القضايا المعقّدة[1].

وخلاصةُ هذا الوجه أنَّ الملاحدة يتعاملون مع الإيمان بالله بطريقة ساذجة، ويحصرونَ الصفاتِ الإلهيةَ في ثلاث صفات فقط، بينما الصواب أنّ الله متَّصف بصفاتٍ كثيرة، مِن ضمنها: العظمة، والحكمة، والعدل، والعزة وغيرها من الصفات. والإنسانُ عاجزٌ عن إدراك الحِكم الإلهية، وعليه فليس للمقدّمة الثانية في مشكلة الشرِّ البرهانية أي معنى.

واليهود والنصارى يتحمَّلون المسئولية عن هذه المفاهيم الخاطئة إلى حدٍّ كبير، كما سيأتي ذكرُه عندَ تقييم ردودهم على مشكلة الشرّ في آخر المبحث - إن شاء الله -.

---

(١) انظر:
"The Inductive Problem of Evil" by: William Alston, in "Philosophical Perspectives" 5, (59-60), (1991)

- **الوجهُ الثّاني: الردُّ على تصوُّر الملاحدة للوجود:**

الملحدُ ينطلق من منطلقٍ مادي في نظرته للوجود، ثمَّ يحاول أن يفرض هذا المنطلقَ على المؤمن بوجودِ الخالق عندَ حديثه عن مشكلة الشَّر. ومن ذلك أن كثيرًا من الملاحدة يتبنّون مذهب اللذة[1]، ثمَّ ينطلقون من هذا المذهب في نظرتهم إلى مشكلة الشَّر. وقد نبَّه البروفسور جون هيك[2] على ذلك بقوله: «يفترض الكُتّاب المناهضون للمذهب الألوهي دائمًا مفهومًا للهدف الإلهي يتعارض مع التصور المسيحي، حيث يفترضون أنَّ الغرض من الإله المحب يجب أن يكون خلق جنة اللذة (Hedonistic paradise). وبالقدْر الذي يختلف العالم عن هذا التصوّر، فإنه يثبت لهم أن الإله إمّا لا يحبُّ بما يكفي، أو ليس قويًّا بما يكفي لخلقِ مثل هذا العالم. إنهم يفكّرون في علاقة الإله بالأرض على غرار بناءِ الإنسان قفصًا لحيوان أليفٍ يسكن فيه. إذا كان إنسانيًّا، فسوفَ يجعل أماكنَ إقامة حيوانه الأليف بشكل طبيعي ممتعة وصحية بقدر ما يستطيع. أي احترام يقصر فيه القفص عن مستوى الطبيب البيطري، ويحتوي على احتمالات وقوع حادث أو مرض؛ فهو دليلٌ إمّا على الإحسان المحدود أو القدرات المحدودة أو كليهما. أولئك الذين يستخدمونَ مشكلة الشَّر كحجة ضدَّ الإيمان بالله يفكِّرون دائمًا في العالم بهذه الطريقة»[3].

وهذا الإلزامُ للملاحدة صحيح؛ فالملحدُ يريد إلزامَ المؤلهة وفق تصوّره الفلسفي. وأما المسلمُ فيعتقد أنَّ الله خلق السماوات والأرض ليتعرَّف إليه عباده؛

---

(١) مذهب اللذة (Hedonism): العقيدة القائلة بأن المتعة أو السعادة هي الشيء الطيب الوحيد أو الرئيس في الحياة. انظر:

https://www.merriam-webster.com/dictionary/hedonism

(٢) جون هيك (John Hick): بروفسور الفلسفة في جامعة كامبردج ببريطانيا، ويعتبر أحدَ أهمِّ فلاسفة الدين في القرن العشرين. توفي عام: ٢٠١٢م. انظر:

https://iep.utm.edu/hick/

(3) "The Soul-Making Theodicy" by: John Hick, in "Readings in the Philosophy of Religion" (311-312), ed. Kelly James Clark, (Broadview Press, 2008, 2ed)

قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ [الطلاق: ١٢].

وأخبر اللهُ تعالى أنّه خلقَ الجن والإنس من أجل العبادة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

كما أنَّ الله ذكر أنَّه يبتلينا في هذه الدنيا؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾[الملك: ٢].

فالغايةُ من الخلق: معرفةُ الله وعبادته، واللهُ يختبرنا في هذه الحياة إذا قمنا بذلك. ووفقَ هذا التصوُّر الإسلامي يتَّضح سببُ وجود الشَّر.

ولكنَّ التصوُّرَ الإلحادي للوجود يختلف من ناحية أخرى، وهي حصرهم الحياة في هذه الدنيا، وإنكار الوجود الأخروي. وهذا يؤثِّر في نظرتهم إلى مشكلة الشَّر. وأمّا إذا آمنَ الإنسان بالحياة الآخرة، فإنَّ الأمر يختلف تمامًا.

وقد سبق أنَّ توما الأكويني فسّر المعاناة التي وقعت لنبي الله أيوب في ظلّ الإيمان بالحياة الأخروية. فـ«بدون هذا المنظور الأبدي، نفترض أنَّ الأشخاص الذين يموتون صغارًا، أو الذين يعانونَ من إعاقات، أو الذين يعانون من سوء الحالة الصحية، أو الذين لا يتزوجون أو ينجبون أطفالًا، أو الذين لا يفعلون هذا أو ذاك؛ سيفقدون أفضلَ حياة ممكنة. لكنَّ اللاهوت الذي تقوم عليه هذه الافتراضات به عيب فادح. إنه يفترض أنه يوجَد شيء سوى أرضنا الحالية وأجسادنا وثقافتنا وعلاقاتنا وحياتنا...[لكن] الجنة ستأتي بأكثر بكثير من مجرَّد تعويض عن معاناتنا الحالية».

وهذا يتوافقُ مع العقيدة الإسلامية؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال النبي (ﷺ): «يودُّ أهلُ العافية يوم القيامة حين يُعطَى أهلُ البلاء الثواب؛ لو أنَّ جلودَهم كانت قُرضت في الدنيا بالمقاريض»[1].

---

(1) If God Is Good: Faith in the Midst of Suffering and Evil (294), by: Randy Alcorn, (Random House of Canada, 2009)

والملحدُ المنكر للحياةِ الأخروية يغيب عنه هذا الأمر، ويظهر له كثيرٌ من المعاناة والآلام على أنها عبثية، وتتنافى معَ الرحمة الإلهية. ولكنَّ الحقَّ أنَّ إثبات الحياة الأخروية تسقطُ به شبهة مشكلة الشرِّ تمامًا.

- **الوجهُ الثّالث: بيانُ حقيقة الشَّر:**

سبقَ ذكرُ أنَّ مشكلةَ الشَّر مبنيَّة على أمرين: الإيمان بوجود خالق عليم قدير خيِّر، وبينَ وجود الشَّر. وقد تقدَّم الردُّ على الأمر الأوّل. وأمّا الأمر الثاني، فهو الحديثُ عن حقيقة الشَّر. ويختلف الفلاسفة في هذه القضية إلى قولين رئيسين:

القولُ الأوَّل: أنَّ الشَّر حقيقة موضوعية.

القولُ الثّاني: أنَّ الشَّر ليس إلا غيابًا للخير[١].

والقولُ الثاني هو ما ذهب إليه أتباعُ الفلسفة الأفلاطونية المحدثة[٢]، وتبعهم على ذلك بعضُ اللاهوتيين النصارى مثل: أغسطين - كما سبق ذكرُه -.

وبناءً على هذا المفهوم لماهية الشَّر، فإنَّ شرَّ المرض هو في الحقيقة: فقدان الصحّة. ومَن التزم بهذا القول، فإنَّ نظره إلى مشكلة الشَّر سوف تختلف. ذكر محرّرو قاموس ستانفورد للفلسفة هذا القولَ، ثمّ كبتوا أنه: «يوفِّر حلًّا لمشكلة الشَّر؛ لأنَّه إذا كان الشرُّ حرمانًا من الجوهر والشكل والخير، فلا يخلق الله شرًّا. كلُّ خلق الله جيد، والشرُّ نقصٌ في الوجود والصلاح»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٢٤٠٢)، كتاب الشهادات عن رسول الله r, باب (لم يذكر له اسمًا)، من حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما). وحسّنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٢٠٦).

(٢) انظر: مشكلة الشَّر ووجود الله (٩٤).

(٣) انظر المقال:

The Concept of Evil, in: Stanford Encyclopedia of Philosophy Archive

وهو موجود على الرابط:

https://plato.stanford.edu/archives/sum2020/entries/concept-evil

وقد وضَّح البروفسور جون ستاكهوس[1] المقصود بذلك أكثر بقوله: «ما هو الشرّ؟ يجبُ أن نبدأ بتعريف ما ليس بِشَرّ. في كلِّ مرَّة تقريبًا أناقش هذه القضية، سواء في الفصول الجامعية أو المحاضرات العامة أو المحادثات أثناء تناول القهوة، أجد نفسَ الافتراض عنْ طبيعة الشر. تظهر بشكلٍ خاصٍّ في السؤال الشائع: «لماذا خلق الله الشَّر؟» هناك جوانبُ يكون فيها هذا سؤالًا منطقيًّا تمامًا. لكن الكامن بداخله، كما أعتقد، هوَ مغالطة لما يسمِّيه الفلاسفة «تجسيد المجردات»... لأنَّ الشَّر ليس «شيئًا» يمكنُ أن «يخلقه» الله. إنَّه ليس نوعًا من الجزيئات أو الفيروسات أو مجال القوة أو السَّديم الأسود العملاق الذي يمرّ عبر الكون ويصيب أو يؤثّر في كلّ شيء يواجهه. لم يكنْ هناك وقتٌ عندما قال الإله: «ليكن الشر»، وكان هناك شَر. ولم يكن الشَّر موجودًا إلى الأبدِ كنوع من النظير الثنائي للإله. أؤكد أنه لا يوجد شيء [له وجود مستقلٌّ] اسمه الشَّر. الشرُّ هو في المقام الأول صفة، ويصبح اسمًا عند التجريد. يمكن أن يكونَ الفعل شريرًا، أو يمكن أن يكون الحدث شريرًا، أو يمكن أن تكون الخاصية شريرة، أو يمكن أنْ يكون الكائن شريرًا. ويمكننا أن نجمع كلَّ هذه الشرور الخاصة معًا في أذهانِنا، ونخرج بفئةٍ تسمّى بـ«الشَّر». يمكننا حتى أن نواصل مناقشتها كما لو كانت هذه الفئةُ شيئًا معينًا، طالما أنَّنا لا ننسى أننا نتعامل دائمًا مع فئة أو مجموعة من الأشياء الشريرة المعينة، وليس شيئًا بحد ذاته»[2].

هذا هو ما ذكرَه أتباعُ الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، ومَن تبعها مِن اللاهوتيين النصارى. ولكن هل يصحُّ هذا الردُّ وفق العقيدة الإسلامية؟

مِن أحسن مَن تكلَّم عن ماهية الشرِّ من علماء المسلمين هو الإمام ابن القيم (رحمه الله) في كتابه: شفاءُ العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. ولهذا سوف أستطردُ قليلًا في نقل تقريره لهذه القضية المهمَّة.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) جون ستاكهوس (John G. Stackhouse): بروفسور الدراسات الدينية، وعميد الكلية في جامعة كرانديل بكندا. انظر:

https://www.crandallu.ca/staff/samuel-j-mikolaski-professor-religious-studies-dean-faculty-development/

بدأ - رحمه الله - في تقسيم الشرِّ؛ إذْ قال: «وتحقيق الأمر أنَّ الشرَّ نوعان: شرٌّ محْض من كلِّ وجه، وشرٌّ نسبي إضافي من وجه دون وجه. فالأوّل لا يدخل في الوجود، إذْ لو دخلَ في الوجود لم يكن شرًّا محضًا، والثاني هو الذي يدخُل في الوجود. فالأمورُ التي يُقال هي شرور، إمّا أن تكون أمورًا عدمية، أو أمورًا وجودية.

فإنْ كانت عدمية فإنَّها إمّا أن تكون عدمًا لأمورٍ ضرورية للشيء في وجوده، أو ضرورية له في دوامِ وجوده وبقائه، أو ضرورية له في كماله، وإمّا أن تكون غير ضرورية له في دوامِ وجوده ولا بقائه ولا كماله، وإنْ كان وجودها خيرًا من عدمها. فهذه أربعةُ أقسام:

فالأوَّل: كالإحساس والحركة والتنفّس للحيوان.

والثّاني: كثرة الاغتذاء والنمو للحيوان المغتذي النامي.

الثّالث: كصحته وسمعه وبصره وقوّته.

والرّابع: كالعلم بدقائق المعلومات التي العلم بها خير من الجهل، وليست ضرورية له.

وأمّا الأمورُ الوجودية فوجودُ كلِّ ما يضادُّ الحياة والبقاء والكمال كالأمراض وأسبابها، والآلام وأسبابها، والموانع الوجودية التي تمنع حصول الخير؛ ووصوله إلى المحلِّ القابل له؛ المستعدِّ لحصوله كالمواد الرديئة المانعة من وصول الغذاء إلى أعضاء البدن وانتفاعها به، وكالعقائد الباطلة، والإرادات الفاسدة المانعة لحصول أضدادها للقلب»[1].

وبعدَ ذكرِ هذا التَّقسيم بيَّن حقيقةَ الشَّر بالذات والشَّر بالعَرَض؛ إذ قال: «إذا عُرِف هذا فالشرُّ بالذات هو عدمُ ما هو ضروري للشيء في وجوده أو بقائه أو كماله، ولهذا العدم لوازم هي شرٌّ أيضًا، فإنَّ عدم العلم والعدل يلزمهما من الجهل والظلم ما هو شرورٌ وجودية، وعدم الصحة والاعتدال يلزمهما من الألم والتضرّر ما هو شرٌّ وجودي...

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (٢/ ٥١٥)، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية، (مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ ت. عمر بن سليمان الخفيان).

فظهرَ أنَّ الشرَّ لم يترتَّب إلّا على عدم، وإلّا فالموجود من حيث وجوده لا يكون شرًّا ولا سببًا للشَّر، فالأمور الوجودية ليست شرورًا بالذات، بل بالعرض من حيث إنها تتضمَّن أمورًا ضرورية أو نافعة فإنَّك لا تجد شيئًا من الأفعال التي هي شرٌّ إلّا وهي كمالٌ بالنسبة إلى الفاعل، وجهة الشَّر فيه بالنسبة إلى أمور أخرى»[1].

وبناءً على هذا التأصيل المهمِّ لماهية الشرِّ يمكن الجمع بين الإيمان بالخالق القدير العليم الرحيم، وبينَ وجود الشرِّ في العالم. فمع أنَّ الله خالق كلِّ شيء، فلا ينسب الشرُّ إليه؛ قال رسولُ الله (ﷺ): «والشرُّ ليس إليك»[2].

ووضَّح الإمام ابن القيّم (رحمه الله) ذلك بقوله: «فتبارك الله وتعالى عن نسبة الشرِّ إليه، بل كلُّ ما نُسب إليه فهو خير، والشرُّ إنما صار شرًّا لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلوْ أضيف إليه لم يكن شرًّا... وهو سبحانه خالق الخير والشَّر، فالشرُّ في بعض مخلوقاته لا في خلقِه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره كلّه خير.

ولهذا تنزَّه سبحانه عنِ الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه... فلا يضعُ الأشياء إلّا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خيرٌ كلُّه، والشرُّ وضع الشيء في غير محلِّه، فإذا وُضع في محلّه لم يكنْ شرًّا، فعُلم أنَّ الشرَّ ليس إليه»[3].

وخلاصته: أنَّ الشرَّ المحض معدومٌ وغير موجود، والموجود في هذا الكون هو الشرُّ النسبي - أي: الذي يتضمَّن خيرًا بوجهٍ من الوجوه -، وعليه، فالتقرير الفلسفي السابق غيرُ صحيح. وننتقل إلى نقدِ مشكلة الشرِّ عند الملاحدة بصياغتيها: المنطقية والبرهانية.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٥١٥ - ٥١٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٧١)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

(٣) شفاء العليل (٢/ ٥٠٩ - ٥١٠).

- **الوجهُ الرّابع: الردُّ على مشكلة الشَّر المنطقية:**

الملحدُ الذي اشتهر بإيراد مشكلة الشرِّ المنطقية هو البروفسور جون ماكي كما سبقَ ذكره. وكان يدَّعي أنّه يستحيل منطقيًّا الجمعُ بين أمرين:

الأمرُ الأوَّل: الإيمانُ بوجود خالق عليم قدير رحيم.

الأمرُ الثاني: وجودُ الشَّر.

ولكنَّ هذا الادِّعاء غيرُ صحيح؛ لأنَّه لا يوجد أي تناقض منطقي بين الأمرين. وكان البروفسور وليام روو - صاحب صياغة مشكلة الشرّ البرهانية - ممن بيَّن ذلك بطريقةٍ جيِّدة. فذكر أوّلًا طريقةَ بيان التناقض في المنطق بقوله: «كيف يمكننا إثبات أنَّ عبارتين متناقضتان؟ في بعض الأحيان لا يلزم إثبات أيِّ شيء، لأنَّ البيانين متناقضان بشكلٍ صريح. فعلى سبيل المثال، عبارة: «إليزابيث يزيد طولها عن خمسة أقدام» وعبارة: «إليزابيث لا يزيد ارتفاعها عن خمسة أقدام» متناقضتان. ومع ذلك، ففي كثيرٍ من الأحيان، لا يوجد تناقضٌ واضح بين عبارتين متضاربتين. في مثل هذه الحالات، يمكننا إثباتُ أنها غير متَّسقة خلال استنباط عبارتين متناقضتين بشكل واضح»[1].

وضربَ مثالًا على ذلك بهاتين الجمْلتين: «هذا الشيء أحمر» و»هذا الشيء غير ملوَّن»، فلإثباتِ التناقض بينهما فلا بدَّ من عبارة ثالثة، وهي: «كلُّ شيء أحمرِ هو ملوَّن». ثمَّ ذكر شرطًا مهمًّا لهذه العبارة المضافة لبيان التناقض بين العبارتين الأوليتين بقوله: «الآن، النقطةُ التي تحتاج إلى عناية فائقة هي: لكي يعمل هذا الإجراء، فإنه يجبُ ألّا تكون العبارة أو العبارات التي نضيفها صحيحة فحسب (Just true)، بل يجب أنْ تكون صحيحة بالضرورة (Necessarily true)»[2].

---

(1) Philosophy of Religion: An Introduction (114), by: William Rowe, (Wadsworth, Cengage Learning, 2007, 4:th edition)

(٢) المصدر السابق.

ثمَّ طبَّق هذا التقرير على مشكلة الشرِّ المنطقية فذكر أنَّ عبارة: «الإله موجود، وهو قدير، عليم، وذو خيرٍ مطلق» وعبارة: «الشرُّ موجود» ليستا متناقضتين بشكل صريح، فلا بدَّ من إضافة عبارة أخرى لبيان التناقض المزعوم مثل: «الكائن القدير، العليم وذو الخير المطلق سيمنع جميعَ أنواع الشرور». ولو كانت هذه العبارة صحيحة ضرورةً فإنَّ العبارتين الأوليتين متناقضتان. وبعدَ ذلك ذكر أنَّ هذه العبارة ليست صحيحة ضرورة، لأنَّه قد يكون الإله يسمح بوجودِ بعض الشرور لأنَّها تؤدّي إلى خير أعظم مثلًا. وإذا لم تكنْ هذه العبارة صحيحة ضرورة فلا يمكن أن يقال: إنّه يوجد تناقض بين العبارتين الأوليتين[١].

وختمَ ذلك بقوله: «في ضوء ذلك، فمن المعقول أن نستنتج أن الشكل المنطقي لمشكلة الشرِّ لا يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة للإيمان بالله»[٢].

وبناءً على هذا الضَّعف الظاهر اعترف البروفسور جون ماكي أنّ مشكلة الشرِّ المنطقية لا تتعارض معَ المعتقدات الأساسية في المذهب الألوهي. وذلك في كتابه: «معجزة المذهب الألوهي» (The Miracle of Theism) الذي طُبع بعد وفاته بسنة؛ فقال فيه: «بعدَ هذا كلّه، فإنَّ مشكلة الشَّر لا تبيِّن أن العقائد المركزية للمذهب الألوهي متناقضة منطقيًّا»[٣]. وهذا الكلام يحمل شيئًا من التراجع عما قرّره سابقًا.

وبعدَ ذلك اتَّفق المتخصِّصون في مشكلة الشَّر - من الملاحدة والمؤمنين بوجود الله - أنَّ مشكلة الشرِّ المنطقية لا تتعارض مع الإيمان بالله. وقد نقل البروفسور تشاد ميستير هذا الإجماعَ بقوله: «لا يدرك معظم الناس الذين يكتبون على مستوى شعبي أن فلاسفةَ الدين المتخصِّصين - ملحدهم ومؤمنهم على حدٍّ سواء - قد أجمعوا في السنوات الأخيرة بأنَّ هذا الشكل من مشكلة الشر قد دُحض تمامًا. وعليه، فإنّه غير ناجح. ولا يحصلُ هذا النوع من الإجماع في الفلسفة عادةً! فلا يوجد تعارض منطقي

---

(١) انظر: المصدر السابق (١١٥ - ١١٦).

(٢) المصدر السابق (١١٧).

(3) The Miracle of Theism (154)

بين الادِّعائين؛ لأنَّه يمكن أن يكون للإله القدير العليم وذي الخير المطلق أسبابٌ وجيهة للسماح بوجود الشَّر واستمراره لشخص واحد أو أكثر»[1].

وبذلك يتبيَّن أنَّ مشكلة الشرِّ المنطقية لم يعدْ لها وزن في الساحة الأكاديمية الغربية لضعفِها. وبناءً على ذلك، ننتقل إلى الصياغة الثانية لمشكلة الشَّر، وهي: مشكلة الشرِّ البرهانية.

- **الوجهُ الخامس: الردُّ على مشكلة الشرِّ البرهانية:**

قد تبيَّن أنه لا يوجد أيُّ تعارض منطقي بين الإيمان بالخالق العليم القدير الرحيم، وبينَ وجود الشَّر. ولكنْ لا يعني ذلك أنَّ مشكلة الشرِّ ليست مؤثِّرة في شريحة كبيرة من الناس. والسببُ في ذلك أنَّ الإنسانَ كائنٌ حسّاس عاطفي، ووجود الشرور والآلام والمعاناة يلمس أعماقَ الإنسان - لا سيَّما إن شعر في نفسه أو أحد قريب منه -.

ومشكلةُ الشرِّ البرهانية في الحقيقة شبهةٌ عاطفية، حيث يقوم الملاحدة الذين يذكرونَ هذه الصياغة بذكْر وقائع مؤثِّرة مثل: قتل الأطفال، ثمّ يقولون: كيف يسمح إله عليمٌ قدير رحيم بهذا الأمر؟ وهذا ما ركَّز عليه البروفسور وليام روو - الذي اعترف بسقوطِ مشكلة الشَّر المنطقية -، وكانت صياغته البرهانية - كما سبق - كالآتي:

١. توجَد في العالم معاناةٌ شديدة، كان يمكن لأيِّ كائنٍ عليم قدير أن يوقفها بدون أنْ يقرن ذلك بحرمان البَشر من أيّ خيرٍ أكبر أو السماح بوجود شرٍّ أسوأ.

٢. إنْ وُجد كائن عليم وذو خير مطلق فإنه سيمنع حدوثَ أي معاناة شديدة، ما لم يفقدْ بذلك خيرًا أكبر أو يسمح لشرٍّ مماثل أو أسوأ.

٣. إذًا، لا يوجد كائنٌ قدير، عليم، ذو خير مطلق.

فجمعَ بين هذه الصياغة المنطقية والحديث عن الشرِّ المجاني - بمعنى: الشَّر الذي لا يقودُ إلى خير يوازيه أو يربو عليه -.

---

(1) “God, Evil and Morality”, by Chad Meister, in God is Good, God is Great (108)

ومعَ قوَّة تأثير هذه الشبهة عاطفيًّا على بعض الناس إلا أنَّ علماء الغرب قد ردّوا عليها ببعض الرُّدود القيِّمة التي تبيّن أنّها أيضًا شبهةٌ ساقطة وضعيفة. وذكر البروفسور مايكل موراي والبروفسور مايكل ريا أنَّ الألوهيين عندهم ثلاث طرق رئيسة في الإجابة عن مشكلة الشرِّ البرهانية[1]:

الطريقةُ الأولى: تحويلة جي. إي. مور (The G.E. Moore shift):

سمِّيتْ هذه الحجة باسْم البروفسور جي. إي. مور[2] الذي كان ينتقد كثيرًا من الحججِ المشهورة التابعة لمذهب الشَّك. وتقوم تحويلة مور بتحويل النتيجة إلى المقدّمة الثانية، وجعل المقدِّمة الثانية هي النتيجة. وضربَ على ذلك مثالًا بنقد مذهب الشَّك، وهي ما يأتي:

حجَّة المشكّك:

المقدِّمة الأولى: إن كان المشكِّك محقًّا، فلا أدري إنْ كانت هناك يد أمامي.

المقدِّمة الثانية: المشكِّك محقّ.

النتيجة: إذًا، لا أدري إن كانت هناك يد أمامي.

الحجَّة ضدَّ مذهب الشَّك:

المقدِّمة الأولى: إن كان المشكِّك محقًّا، فلا أدري إن كانت هناك يد أمامي.

المقدِّمة الثانية: أعلمُ أنَّ اليد أمامي.

---

(١) انظر:

An Introduction to the Philosophy of Religion (165-178), by: Michael Murray and Michael Rea, (Cambridge University Press, 2008)

(٢) جي. إي. مور (G.E. Moore): بروفسور الفلسفة في جامعة كامبردج، وقد تخصَّص في الميتافيزيقية ونظرية المعرفة. توفي عام: ١٩٥٨. انظر:

https://iep.utm.edu/moore/

النتيجة: إذًا، المشكِّك غيرُ محقّ.

اشتركَ المشكِّك وخصمه في المقدِّمة الأولى، ولكن خصمه قلبَ نتيجة المشكّك إلى مقدِّمة ثانية بطريقة معْكوسة، ثمَّ اختلفت نتيجته مع نتيجة المشكّك. إذا واجهنا حجتيْن مثلهما فلا بدَّ أن ننظر إلى المقدِّمة الثانية في كلٍّ من الحجتين ونرجّح أيتهما أصوب، ثمَّ نستنتج النتيجة.

واستخدمَ علماءُ الغرب هذه التحويلة في نقدِ حجَّة مشكلة الشَّر البرهانية المبنية على وجود الشرِّ المجاني؛ فبينما يقول الملحد:

المقدِّمة الأولى: إن كان هناك إله، فلا يوجد شرٌّ مجاني.

المقدِّمة الثانية: الشرُّ المجاني موجود.

النتيجة: إذًا، لا يوجد إله.

فيحوِّل علماءُ الغرب الحجة لتكون:

المقدِّمة الأولى: إن كان هناك إله، فلا يوجد شرٌّ مجاني.

المقدِّمة الثانية: الإلهُ موجود.

النتيجة: إذًا، لا يوجد شرٌّ مجاني.

وعلماءُ الغرب يبنون المقدِّمة الثانية على حججٍ راسخة مثل: البرهان الكوني، وحجَّة التوافق الدقيق للكون. وهذه الحجج أقوى من الحجج على وجود الشرِّ المجاني[1].

والخلاصة أنَّ الإيمان بوجود الخالق العليم القدير الرحيم مبني على حجج يقينية لا تقبُّل الشَّك، بينما الحديث عن وجود الشرِّ المجاني حسب تعريفهم أمر مشكوك فيه. والقاعدةُ المقرِّرة تقول: اليقينُ لا يزول بالشَّك. وحجةُ تحويلة مور في نقد مشكلة الشرِّ البرهانية جيِّدة وقوية؛ لأنها تقلبُ الحجة على الملحد.

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٦٥ – ١٦٧) بتصرّف يسير.

فالصوابُ أنَّ «الصورة المنطقية للتفكير التصاعدي لا بدَّ أن تبدأ بيقين ثابت؛ حتَّى لا يتيه المفكِّر في فرضيات الممكنات. ولذلك لا يصحُّ أن ننطلق من افتراض وجود شرٍّ مجاني لأنَّ القطع بمجانيته هو مجرّدُ احتمال عقلي لا يمكن القطع به في مبتدأ النظر، أمّا القول بوجود خالق أخرجَ المادة من العدم إلى الوجود وصوّر الكونَ فأحسن تصويره؛ فهوَ حقيقة مادية ثابتة يشهدُ لها الحسُّ والمعادلات العقلية. إنّ مسلكنا في ترتيب الأفكار لا يلغي الحقائق - على خلاف المنطق الأوَّل الذي ينفي ما يقطع به العقل من وجود إله -، وإنما هو يثبتُ المدركات اليقينية الكبرى، ثمّ يقيم على أعمدتها فهمًا مدركًا لغوامض الكون»[1].

الطريقةُ الثّانية: الردُّ على حجج عدم الرؤية (Noseeum arguments):

الملاحدةُ الذين يستخدمون مشكلةَ الشَّر البرهانية يذكرون أمثلة على وجود الشرِّ المجاني، وأنهم لا يروْن أيَّ حكمة من وجود هذا النوع من الشَّر. فالملحدُ يعتمد على جهلِه بمعرفة الحكمة أو عدم رؤيته لها على أنّ الحكمة منعدمة.

وقد ردَّ علماءُ الغرب على حجج عدم الرؤية لدى الملاحدة بطريقة بديعة، وخلاصتُها أنَّ: حجج عدم الرؤية قد تكون جيّدة وسيئة بحسب الحالة:

الحالةُ الأولى: إمكانيةُ استخدام هذه الحجة: ومن الأمثلة على ذلك أنَّ شخصًا ما يطلب منك أن تأخذَ علبة من الحليب من الثلاجة، وعندما تنظر في الثلاثة بعنايةٍ لا ترى أيَّ علبة، فتستنتج من ذلك أنه لا توجد علبة حليب في الثلاجة.

الحالةُ الثّانية: عدمُ إمكانية استخدام هذه الحجة: ومن الأمثلة على ذلك أنَّ طبيبًا يريد أن يحقنكَ بإبرة، ولكنَّ الإبرة تسقط من يده على الأرض، ثمّ يأخذها الطبيبُ للحقنة. فتقول: «دكتور! قد تكون العبرة وسخة وتلوّثت بجراثيم». فيقول الطبيب: «لا بأس باستخدامها، فلا أرى عليها أيَّ جرثومة». فهذا طبعًا غير ممكن، حيث إنَّ الجراثيم أصغرُ من أن تراها العين. وعليه، كان كلام الدكتور في غير محلِّه.

---

(١) مشكلة الشَّر ووجود الله (١٥١ - ١٥٢).

إذًا، ما الفرقُ بين حجج عدم الرؤية الجيّدة والسيئة؟ الجواب أنه لا بدَّ أن يتوفّر لها شرطان لقبولها:

الشَّرطُ الأوَّل: أنْ تبحث في المكان الصحيح. فلو طلب صديقك أن تبحث عن علبةِ الحليب في الثلاجة، وبحثت في الفرن، فلن تجدها.

الشَّرطُ الثّاني: أن تستطيع إدراكَ الشيء المطلوب إن كان موجودًا في ذلك المكان. فلوْ سألك شخص وأنتَ في الشقة: «هل توجد نملة في العشب في خارج الشقة؟» فنظرتَ من النافذة، وقلت: «لا، ما أرى أيَّ نملة». فليس في قدرتك أن تشاهد النمل في العشب، لأنها صغيرة، ونظرت من بعيد.

ولو طبَّقنا هذين الشرطين في نقدِ مشكلة الشَّر البرهانية ووجود الشرّ المجاني، نرى أنَّه ليس بإمكان الملحد أن يقول: «إنَّ هذا الشرَّ مجاني، وليست فيه حِكم ولا أي خير»، وذلك لسببين:

السببُ الأوَّل: بالنظر إلى ضخامة الخير الإلهي ومحدودية ملكاتنا المعرفية والأخلاقية البشرية، فقد يكون هناك بعضُ أنواع الخير، وربما العديد منها، بدون معرفتنا بها. إذا لم نتمكَّن حتى من فهْم النطاق الكامل للخير الذي قد تهدف الشرور إلى تأمينِه، فإنَّ محاولاتنا لإصدار أحكام عما إذا كانت الشرور لا مبرر لها ستكون عقيمة.

السببُ الثّاني: حتى لو كنّا نعتقدُ أننا على درايةٍ بموضوع الخيرات، فهناك سببٌ وجيه للشَّك في أنه سيكون لدينا أي فكرة عما قد تفعله شرور معينة في تحقيق تلك الخيرات. كيف يمكننا أنْ نعرف ما هي أنواعُ الغايات الجيدة النهائية التي يمكن أن تتحقَّق بسبب هذا الشر أو ذاك؟[1].

وهذه الحجَّة قويةٌ وجيِّدة في نقد مشكلة الشَّر البرهانية مع الشرِّ المجاني. ويضاف إلى هذا ما سبقَ من أوجه قصور العقل الإنساني الستة. ويتبيّن من ذلك أنَّ

---

(١) انظر: An Introduction to the Philosophy of Religion (167 - 169)

الإنسان ليسَ قادرًا على أن يحكم على أنَّ واقعة معيّنة تعتبر شرًّا مجانيًّا، أو ينفي أن تكون شرًّا وفيه حِكم، وأنه سوف يؤدّي إلى خير أعظم.

الطريقةُ الثّالثة: الردُّ بثيوديسيا (Theodicy):

هذا النوعُ من الردِّ يرجع إلى بيان الحِكم التفصيلية للخالق حين يسمح بوجود هذه الشُّرور. وذكر البروفسور مايكل موراي والبروفسور مايكل ريا أنّ هذه الطريقة تختلف عنِ الطريقتين السابقتين. وذلك أنَّ الطريقتين السابقتين: دفاع (Defense)، بينما هذه الطريقة تسمَّى ثيوديسيا. والفرق بين الدفاع وثيوديسيا أنّ الدفاع يهدف إلى شرح إمكانية وجود الخالق العليم القدير الرحيم مع وجود الشرور، وأنه لا تناقض بينهما، بينما تهدف طريقة ثيوديسيا إلى تسويغ سماح الخالق بوجود هذه الشرور[1].

وقد أورد علماءُ الغرب أنواعًا مختلفة من ثيوديسيا، وهي تختلف إذا كانت الشرور المذكورةُ من الشرِّ الأخلاقي، أو الشرِّ المادي الطبيعي؛ ولذلك أؤجّل الحديثَ عن هذه الأنواع إلى الوجهين السادس والسابع - إن شاء الله -.

وهذه الطُّرق الثلاث جيِّدة في الردِّ على مشكلة الشَّر البرهانية والشرِّ المجاني، مع ملاحظة أمرين:

أوَّلًا: أنَّنا «لا نرى أنَّ هذه الإجابات تتنافى؛ فإنْ قبلنا واحدةً رفضنا الجوابين الآخرين، وإنما نرى أنها تتكامل، فمثلًا نحن نرى قصورَ العقل في فهمه لدقائق العالم، لكنَّنا نعتقد مع ذلك أننا إنْ قَلَبنا السؤالَ على الملحد، وتحدّيناه أن يجزم أن شرًّا بعينه لا يمكن أن يكون سببَ وجوده حكمة من الحِكم التي أوردناه، فلن يحر جوابًا. وهو ما يعني أننا حتى لو تنزَّلنا في الجواب، وقلنا بقدرة العقل على إصابة الحكمة التي وراء كلِّ شرٍّ فلن يتمكّن الملحدُ من إقامة اعتراضه.

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٧٠).

وثانيًا: نحن نرى أنْ نرتِّب مباحثَ الحديث في موضوع الشرّ المجاني بصورة واضحة؛ لأنَّنا بذلك نحيط بأوجه الخلل في الاعتراض الإلحادي، مع استيعاب - في نفس الآن - الصيغةِ التقليدية للردّ. وهذه الاعتراضات هي:

١ - السؤال الملغوم في داخله بأسئلة محرجة للملحد[١].

٢ - يقوم الاعتراضُ على التسليم بيقينية الشرِّ المجاني، وقد كان عليه أن يجعله موضع استشكال ونظر.

٣ - الإشكال يفترض كمالَ العقل الإنساني وبساطة الكون، وبالتالي قدرة الإنسان على كشف حقائق الكون.

٤ - ينفي الاعتراضُ الإلحادي الحكمة من عجز العقل عن سبْر كلِّ حقيقة.

٥ - يرى الاعتراضُ الإلحادي أنَّ سنن الكون المادية التي ينجم عنها كثير من «الشرّ المجاني» أمرٌ عارضي، وأنَّ من الحكمة الاستغناء عنها.

٦ - يرى الاعتراضُ الإلحادي أنَّ ثبوت مجانية الشرِّ مرهون بحقيقته في الحياة الدنيا دونَ افتراض تتمة لقصة الوجود في الآخرة.

٧ - يتجاهل الاعتراضُ الإلحادي مشكلة الخير المجاني[٢]»[٣].

وبهذه الأوجه كلِّها يتبيّن بجلاءٍ أنَّ مشكلة الشَّر البرهانية ساقطة أيضًا مثل أختها: مشكلة الشرِّ المنطقية. ولكن يبقى النقد لنوعي الشرِّ اللذيْن يعترض بهما الملاحدةُ على وجود الخالق. وبيانُ ذلك في الوجهين السادس والسابع.

---

(١) سيأتي بيانُ ذلك في الوجه الأخير من أوجه الردّ على مشكلة الشَّر - إن شاء الله -.

(٢) سيأتي الحديثُ عن مشكلة الخير المجاني في الوجه الأخير - إن شاء الله -.

(٣) مشكلة الشَّر ووجود الله (١٤٧).

- **الوجهُ السّادس: تفسيرُ وجود الشرِّ الأخلاقي:**

سبقَ أنَّ الملاحدة يقسِّمون أنواعَ الشرور - عند حديثهم عن مشكلة الشرّ - إلى نوعيْن رئيسين: الشَّر الأخلاقي والشَّر المادي الطبيعي. ويندرج تحت الشرِّ الأخلاقي جميع أنواع الشُّرور التي يقوم بها الإنسان كالظلم، والطغيان، والقتل، والحروب، والاغتصاب، إلخ.

وقد بيَّن علماءُ الغرب الحِكم الإلهية من وراء هذه الشرور، ومن أبرز هذه الحِكم:

الحكمةُ الأولى: الإرادةُ الحرَّة:

مِن أشهر أنواع ثيوديسيا لدى علماء الغرب للشرّ الأخلاقي هو أنّ الله منحَ الإنسانَ إرادة حرَّة. فالإنسان الذي يعمل الأعمالَ الشريرة يفعل ذلك بإرادته وقدرته، فهوَ الذي يُلام على أفعاله. وحيث إنَّ الله خلق هذه الحياة امتحانًا واختبارًا، ثمّ يجازي الإنسانَ على عمله، فلا يتأتى ذلك إلّا إذا كان للإنسان إرادة حرّة. وهذا القول انتصر له عددٌ كبير من اللاهوتيين النصارى عبر التاريخ، مثل: أغسطين، وليبنز، والبروفسور ألفن بلانتغا في هذا الزمان[1].

وهذه الحكمة صحيحةٌ من وجه؛ فلا شكَّ أنَّ الله خلق في الإنسان قدرة وإرادة ومشيئة. ولكنْ ينبغي للمسلم السني أن يتوقّى إطلاقَ القول بأنّ هذه الإرادة «حرّة». والسببُ في ذلك أنَّ كثيرًا من النصارى قدرية في باب مشيئة العبد، ولهذا قد يقصدون بلفظ «إرادة حرّة» معنى باطلًا. بينما المسلم يعتقد أنَّ الله خلق في الإنسان مشيئة، ولكنَّ هذه المشيئة ليست مستقلّة، بل هي تحت مشيئة الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وسيأتي تفصيلُ هذه المسألة في المبحث الثالث في هذا الفصل بعنوان: ردودُ علماء الغرب على شبهة: سلب الإرادة.

---

(١) انظر:

Many Faces of Evil (67)

الحكمةُ الثّانية: عقوبةٌ إلهية:

مِن أنواع الحِكم التي ذكرها علماءُ الغرب لوجود الآلام والمعاناة أنّها قد تكون عقوبة إلهيةً للمجرمين والفاسدين. وذكروا أنَّ هذه العقوبات تأتي بأربعة أنواع من الخيرات، وهي: إعادة تأهيل الفاسدين، وردعهم عن الاستمرار، وحماية المجتمع من شرورهم، وعقوبة لإجرامهم[1].

وهذه الحكمةُ من حيث العموم صحيحة، وقد ذكرها اللهُ في القرآن الكريم في غير ما آية، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

الحكمةُ الثّالثة: النتيجةُ الطبيعية للأعمال:

المرادُ بهذه الحكمة أنَّ مَن عاش حياته باتِّباع جميع أنواع الشهوات والإساءة للآخرين؛ فالنتيجةُ الطبيعية لأعماله أنَّ الناس يتركونه، ويُصاب بأمراض، وغير ذلك. وهذه نتيجةٌ طبيعية لتلك التصرّفات. وفرَّقوا بين هذه الحكمة والحكمة السابقة بأنّه لا يلزم أنْ يقال: إنَّ كلَّ مَن يصاب بذلك قد تعرَّض لعقوبة إلهية، وإنما هي نتيجة طبيعية حتميَّة من جنس عمله، بينما العقوبة الإلهية فقد تختلف في النوع والكيف[2].

هذا وإن كان قصدُهم مفهومًا، إلا أنَّه لا تعارض بين كون هذه النتيجة الحتمية للعمل، وبينَ كوْنها عقوبة إلهية؛ فكلُّ شيء يحصل بمشيئة الله. ولا مانع أن تكون العقوبةُ الإلهية من جنْس العمل، بمعنى أنَّ مَن أساء إلى الناس أساء الناس إليه، جزاءً وفاقًا.

فهذه ثلاثةُ أنواع من الحِكم لوجود الشَّر الأخلاقي التي ذكرها علماءُ الغرب.

- **الوجهُ السّابع: تفسيرُ وجودِ الشَّر الطبيعي المادي:**

النوعُ الثّاني من أنواع الشرِّ التي يستدلُّ بها الملاحدة هو الشرُّ الطبيعي المادي. ويدخُل في هذا النوع جميعُ أنواع الشرور التي لم يتسبَّب فيها الإنسانُ بشكل مباشر مثل: الزلازل، والفيضانات، والقحط، والأمراض.

---

(١) انظر: An Introduction to the Philosophy of Religion (170 - 171)

(٢) انظر: المصدر السابق (١٧١ – ١٧٢).

ولا يمكن تفسيرُ وجود هذه الشُّرور بالإرادة «الحرّة»، ولكن يمكن تفسيرها بأنها عقوباتٌ إلهية، ونتيجةٌ طبيعية للعمل. وإضافةً إلى ذلك ذكر علماء الغرب بعض الحِكم الأخرى، أكتفي بذكر اثنتين منها:

الحكمةُ الأولى: لا يحسُّ الإنسانُ بالخير إلّا إذا عرف الشَّر:

هذا الأمر معروفٌ ومسلَّم به. وقد ذكر البروفسور نينيان سمارت هذه الحكمة بقوله: «مفهوم الحسن (Good) في تعلّقه بالإنسان مرتبط بمفاهيم أخرى مثل: الإغراء، والشجاعة، والكرم، إلخ. وليس لهذه المفاهيم مجالٌ للوجود إذا خُلق الإنسان كاملًا بلا نقص»[1].

وهذه الحكمةُ صحيحة، فالشرُّ لا يُعرف إلّا بعامَّة الخير. كما أنّ الإنسان لا يستشعر نعمةَ العافية إلّا إذا عرف المرض. وقد نبّه الإمام ابن القيّم (رحمه الله) على ذلكَ بكلام في غاية الجمال إذ قال: «قد استقرَّت حكمتُه سبحانه أنّ السعادة والنعيم والراحةَ لا يوصل إليها إلّا على جسر المشقة والتعب، ولا يدخل إليها إلا من باب المكارِه والصبر وتحمُّل المشاقّ، ولذلك حفَّ الجنةَ بالمكاره، والنار بالشهوات... وقد سبقتِ الحكمة الإلهية أنَّ المكاره أسباب اللذات والخيرات كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]... العقلاءُ قاطبة متَّفقون على استحسان إتعابِ النفوس في تحصيل كمالاتها، من العلم النَّافع والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، وطلب محمدة من ينفعهم حمده، وكلّ مَن كان أتعبَ في تحصيل ذلك كان أحسنَ حالًا وأرفع قدرًا، وكذلك يستحسنون إتعاب النفوس في تحصيل الغنى والعزِّ والشرف، ويذمُّون القاعدَ عن ذلك، وينسبونه إلى دناءة الهمَّة، وخسة النفس، وضعة القدر»[2].

---

(1) "Omnipotence, evil and supermen", by: Ninian Smart, in "Philosophy (Vol. 36), (No. 137) (188), (Cambridge University Press, on behalf of Royal Institute of Philosophy, 1961)

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٢١ - ٦٢٢).

الحكمةُ الثّانية: صناعةُ النَّفس:

هذه الحكمةُ تلخِّص ما سبقَ من الحِكم في وجود الشرور الأخلاقية والمادية. وهي حكمةٌ ذكرها اللاهوتي إيرينيوس في القرن الثالث الميلادي، وطوّرها البروفسور جون هيك في نهايةِ القرن العشرين. والمقصود بهذه الحكمة: أنَّ هذه الشرور موجودة لتنمية النفوس البشرية والأخلاق البشرية. وذكروا أربعةَ شروط لكي تتحقّق الصناعة النفسية:

الشَّرطُ الأوَّل: لا بدَّ من وجود كائنات قادرة على الاختيار بين الطيّب والخبيث.

الشَّرطُ الثّاني: أنَّ هذه الكائنات تعيش في بيئة تسمح لها بحرية الاختيار.

الشَّرطُ الثّالث: يجب أن تحتوي البيئةُ على تحديات لطابع الفرد من النوع الذي يسمحُ بالردود الفاضلة وغير الفاضلة.

الشَّرطُ الرابع: يجب أن يكونَ لدى الكائنات فرص كافية للاستجابة لجعل بناء الشَّخصية ممكنًا[(١)].

وهذه الشروطُ تجمع بعضَ الأوجه السابقة مثل: الإرادة «الحرة»، وأنه لا يُعرف الخير إلّا بوجود الشَّر. وقد تقدَّم الكلام عن ذلك من المنظور الإسلامي.

فهذه بعضُ أنواع الحِكم التي ذكرها علماء الغرب في بيان سبب سماح - كما يعبّرون عنه - الخالق العليم القدير الرحيم بوجود هذه الشرور. وإضافة إلى ذلك أضيف بعض الحِكم التي وردت بها النصوص الشرعية وذكرها علماء الإسلام:

الحكمةُ الأولى: خلقُ المُتضادات، وظهورُ أثر الصفات الإلهية:

وقد لخَّص الإمام ابن القيِّم (رحمه الله) هذه الحكمة بقوله: «أن الحكمة إنما تتمُّ بخلق المتضادات والمتقابلات كالليل والنهار، والعلو والسفل، والطيب **والخبيث**، والخفيف والثقيل، والحلو والمرّ، والحرِّ والبرد، **والألم** واللذة، والحياة والموت،

---

(١) انظر: An Introduction to the Philosophy of Religion (177 - 178)

والداء والدواء؛ فخلقُ هذه المتقابلات هو محلُّ ظهور الحكمة الباهرة، كما هو محلُّ ظهور القدرة القاهرة، والمشيئة النافذة، والملك التام.

فتوهُّم تعطيل خلقِ هذه المتضادات تعطيل لمقتضيات تلك الصفات وأحكامها وآثارها، وذلك عينُ المحال، فإنَّ لكلٍّ صفة من الصفات العليا حكمًا ومُقتضًى وأثرًا هو مظهرُ كمالها، فلا يجوز تعطيله، فإنَّ صفة القادر تستدعي مقدورًا، وصفة الخالق تستدعي مخلوقًا، وصفةَ الوهّاب، الرزّاق، المعطي، المانع، الضار، والنافع، المقدّم، المؤخّر، المعزّ، المذلّ، العفو، الرؤوف؛ تستدعي آثارها وأحكامها»[1].

فذكر مِن ضمن المتقابلات والمتضادات التي خلقها الله: الخبيث، والألم، والداء. وهذه من الأمور التي توصَف بالشُّرور عندما يتحدّث الملاحدة عن مشكلة الشَّر.

الحكمةُ الثّانية: الرجوعُ إلى الله:

مِن الحِكم مِن وجود الآلام والمعاناة: الرجوع إلى الله، والتوبة والاستغفار. فالإنسان المريضُ والضعيف قد يستشعر حاجتَه إلى خالقه أكثر من صحيح البدن والقويّ. وقد ذكر اللهُ ذلك في القرآن مرّات عديدة، مثل قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وهذا الأمرُ ملاحَظ عند كثيرٍ من المسلمين، بل إنَّ المشركين كانوا يلجئون إلى الله وحدَه وقت الشدَّة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

الحكمةُ الثّالثة: اختبارُ إيمان العباد:

هذه الدنيا اختبارٌ وامتحان، ومن ضمن ذلك أنَّ الله يختبر إيمان العبد بصعوبات. ولا يتأتّى ذلك إلّا بوجود آلام ومعاناة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٠٧ - ٦٠٨).

يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢ - ٣]. وقال اللهُ تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

الحكمةُ الرّابعة: تكفيرُ الخطايا:

المسلمُ لا يعتقد أنَّ الأمراض والآلام والمعاناة عبث، بل يعتقد أنه لو أصابه أذى، فإنَّ الله يكفِّر عنه السيئات والذنوب والخطايا؛ قال رسول الله (ﷺ): «ما يصيب المؤمن مِن نَصَب ولا وَصَب ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أذًى، حتَّى الشوكة يشاكها، إلّا كفّر اللهُ بها خطاياه»[1]. فالنَّصب، والوَصب، والهمّ، والحزن، والأذى كلّها «شرور» في نظر الملحد، ولكنَّها في الحقيقة نعمةٌ إلهية لأنّ تؤدّي إلى مغفرة الله ورحمته.

وبهذه الأوجه كلِّها يتبيَّن أنَّ الآلام والمعاناة والشدّة والضيق والأمراض فيها من الحِكم الإلهية ما يصعبُ الإحاطةُ به. فكيف يدَّعي الملحد أنَّ هذه الشرور لا تقود إلى الخير؟!

- **الوجهُ الثّامن: قلبُ المشكلة على الملحد:**

الوجهُ الأخير المستنبط من كلام علماء الغرب في نقد مشكلة الشَّر هو قلبُ هذه المشكلة عليهم؛ فوجودُ الشُّرور والآلام والمعاناة تحدٍّ كبير للمذهب الإلحادي. وذلك من جهتين:

الجهةُ الأولى: وجودُ الشرِّ دليلٌ على وجود الله:

ويمكن أنْ يستدلّ بنوعين من الأدلة، وهما:

النوعُ الأوَّل: دلالةُ الأخلاق الموضوعية على وجود الخالق: سبق البيان أنَّ الحجةَ الأخلاقية من الحجج التي يستدلُّ بها علماءُ الغرب على وجود الله. وهذه الحجة مبنيَّة على وجود أخلاق موضوعية، وأنّه لا يمكن الإقرارُ بها إلا في ظلِّ الإيمان بوجود الخالق.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٤١)، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض. وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٣)، كتاب البرّ والصلة والآداب، بابُ ثواب المؤمن فيما يصيبه مِن مرض أو حزن، أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة (رضي الله عنهما).

والملحدُ عندما يتحدَّث عن وجود الخير والشَّر، وأنَّ الشَّر يمثّل مشكلة تتحدَّى الإيمانَ بالخالق العليم القدير الرحيم، فإنّه لا يتكلَّم عن الأخلاق الذاتية (Subjective morals)، بمعنى: أنه بنفسه يعتقد أن قتل الأطفال مثلًا شَرّ، بل هو يتكلّم عن الأخلاق الموضوعية (Objective morals)، بمعنى: أن هذا العمل شرٌّ بغضِّ النظر عن آراء الناس. والملحدُ لا يجد أرضيةً صلبة للحديث عن الأخلاق الموضوعية، بل لا بدَّ أن يعترف بوجودِ خالق مشرِّع متعالٍ لهذه الأخلاق؛ قال البروفسور تشاد ميستر: «وأعتقد أنه حانَ الوقت لقلب الطاولةِ عليهم، لأنَّه ليس المؤمن بالله من لديه مشكلة واضحة مع الشرِّ فقط. فيجبُ على الجميع أن يفسِّر وجودَ الشَّر في العالم. وبالنسبة لخيارات الرؤية الكونية المتنوعة، فإنَّه يبدو لي بكلِّ وضوح أنَّ التفسير الإلحادي هو الأقل نجاحًا. وبالنَّظر للأمر بشكلٍ منطقي فعندما يتعلَّق الأمر بوجود الشرّ في عالمنا، فإن الملحدين هُم مَن يجب أن يكونوا في موقفٍ دفاعي! فإن كان الشرُّ موجودًا حقًّا (ما يمكن أن نسمِّيه «الشَّر الموضوعي») فإذن، يوجد قيمٌ أخلاقية موضوعية؛ فالقيم الأخلاقية ملازمة لجميع الناس، سواءً أقرّوا بها على هذا النحو أم لا. فإذا كان الاغتصاب، والعنصرية، والتَّعذيب، والقتل، والإبادة الجماعية... وغيرها من الأمور تعدُّ شرورًا بطريقة موضوعية، فما الذي يجعلُها كذلك؟ ما الذي يجعلها شرًّا حقًّا بدلًا من مجرد أنشطة لا نحبّها؟ ما الذي جعل الفظائعَ التي ارتكبها النازيون شريرة، على الرغم من أن هتلر وأتباعه كانوا يصرُّون على أنَّها ليست كذلك؟ لا يمكن للمرء أن يؤكّد باستمرار أنه لا توجد قيمٌ أخلاقية موضوعية، من ناحية، وأنَّ الاغتصاب والتعذيب وما شابه ذلك هي شرٌّ أخلاقيًّا بشكل موضوعي من ناحيةٍ أخرى. إذا كانت هناك قيمٌ أخلاقية موضوعية، فلا بدَّ من وجود أساس ما – أساس ميتافيزيقي – لوجودها»(١).

النوعُ الثّاني: دلالةُ الجهاز العصبي على وجود الخالق: مِن أعظم الأدلة على وجودِ الله: دليلُ التصميم في المخلوقات الحيّة، وما يدخل فيه من الأدلة الفرعية مثل: التَّعقيد غير القابل للاختزال. والشواهد على وجود هذا التعقيد الذي يتحدَّى

---

(1) "God, Evil and Morality", in "God is Great, God is Good" (108-109)

الإلحاد المبنيَّ على نظرية التطوُّر كثيرة جدًّا. ومِن ضمن هذه الشواهد: الجهاز العصبي في داخل الإنسان. والآلام التي يشعر بها الإنسانُ في الحقيقة نتيجة لوجود هذا الجهاز. وقد ألَّف براد هاروب(١) - حامل شهادة الدكتوراه في علم الأعصاب - مقالًا في جزئين بعنوان: «الجهاز العصبي لدى الإنسان: دليل على التصميم الذكي» (The Human Nervous System: Evidence of Intelligence Design)، وبيَّن مِن أوجه كثيرة شدَّة تعقيد الجهاز العصبي في الإنسان، وأنه يستحيل أن يكون نتيجة لتطوُّر عن طريق طفرات عشوائية والانتخاب الطبيعي(٢).

الجهةُ الثّانية: مشكلةُ الخير المجاني:

الملحدُ يكثر الحديثَ عن الشُّرور في العالم، ولكن ينسى في الوقت نفسه كثرة الخير الموجود، بل إنَّ الخير هو الأصلُ، والشَّر نشوزٌ عن هذا الأصل. فالأصل في الإنسان: الصحة، لا المرض. والأصل في الأرض: الثبات، لا الزلازل. والأمثلة على ذلك لا حصرَ لها. وقد ذكر البروفسور ديفيد بيك(٣) في ردِّه على الملاحدة أنَّ هذا الأمر لا يتوافقُ مع الإلحاد(٤).

---

(١) براد هاروب (Brad Harrub): عالم الأعصاب الأمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في علم الأعصاب والتشريح. وهو نصراني مهتمٌّ بذكر أدلة وجود الله من العلوم التجريبية. انظر:
https://www.focuspress.org/about/writers/brad/

(٢) انظر المقال:
The Human Nervous System: Evidence of Intelligent Design, by: Brad Harrub
والمقال بجزئيه موجود على هذين الرابطين:
http://apologeticspress.org/apPubPage.aspx?pub=1&issue=568&article=573
http://apologeticspress.org/apPubPage.aspx?pub=1&issue=569&article=583

(٣) ديفيد بيك (David Beck): بروفسور الفلسفة في جامعة ليبيرتي بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في الدفاع عن النصرانية. انظر
https://www.ivpress.com/w-david-beck

(٤) انظر:
"Evil and the New Atheism" by: David Beck, in "The Case for God in a World full with Pain" (219), ed. Chad Meister and James K. Dew Jr. (IVP Books, 2013)

لأنَّنا «لن نفهم المعنى الوجودي (الاستثناء) حتى نقرَّ بالمعنى الوجودي للخير (الأصل). فإذا أجيبَ عن سؤال: «لِمَ؟ من أين ومن أين هذا الخير؟» الجواب الموفّق، صارَ سهلًا أن نجيبَ على سؤال: «من أين هذا الشرّ؟» لأننا استطعنا أن نفهم «القاعدة»، فسندرك بسهولة حقيقة «الشذوذ!»»[1].

فعلى الملحد أن يجيبَ أوّلًا عن سببِ وجود الخير المجاني قبل الحديث عن الشرِّ الشاذِّ في الكون. إذا كان الكون وُجِد نتيجة الصدفة، فلماذا هذا الخير العميم؟ لماذا الأصلُ في كلِّ شيء النظام؟ لماذا كانت الأرض ثابتة في أغلب الأوقات والزلازل قليلة جدًّا؟ لماذا الأصلُ في الإنسان الصحة والعافية، والأمراض قليلة نسبيًّا؟ والأسئلة من هذا النَّوع لا تنتهي. وينبغي للمؤمن أن يقلبَ النقاش مع الملحد إلى هذه الأسئلة، ولا يكتفي بالإجابة عن سببِ وجود الشَّر. إنه إذا زعم الملحدُ أن الشرَّ «القليل» دليل على نفي وجود الله - وهذا ما تمّ إبطالُه - ؛ فعليه أن يعترف أنَّ الخير «الكثير» أولى أن يكون دليلًا على وجوده.

الفقرةُ السّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على مشكلة الشَّر:

أطلتُ الحديثَ عن مشكلة الشَّر في هذا المبحث لأنّها صخرةُ الملاحدة المزعومة. ولكنْ تبيَّن من هذه الردود أنَّها ليست صخرة، بل سراب لا قيمة له. وقد أحسن علماءُ الغرب في الردِّ على هذه الشبهة بنقد أصولها وفروعها. والطابع العام لهذه الردود أنها جيِّدة، وتتَّفق في الجملة مع الردود التي ذكرها علماء الإسلام كما نبّهت عليه أثناءَ المبحث. ولطولِ المبحث جعلت تقييم كلام علماء الغرب بعدَ سردِهِ مباشرة.

ولكن تبقى نقطةٌ مهمَّة، وهي أنَّ الديانة النصرانية تتحمَّل مسئوليةً كبيرة عن ظهور هذه المشكلة أساسًا. وذلك أنَّ جمهور اللاهوتيين النصارى التزموا بأنّ الخالق عليم بكلِّ شيء، وقادر على كلِّ شيء، ومطلق الخيرية - كما يقولون -. ولكن بالنظر إلى كتابهم المقدَّس يظهر غير ذلك، وهو من ثلاثة أوجه:

---

(١) مشكلة الشَّر ووجود الله (٥٩).

الوجهُ الأوَّل: بعضُ النصوص في هذا الكتاب توحي أنَّ الإله أشبه ما يكون بإنسانٍ خارق للعادة، ليس عليمًا بكلِّ شيء. على سبيل المثال ما جاء في قصة أكل آدم وحواء: (وَسَمِعَا صَوْتَ **الرَّبِّ الْإِلَهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ** عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الْإِلَهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «**أَيْنَ أَنْتَ؟**» فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لِأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ» فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا؟» فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ» فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ»)[١].

هذه القصةُ المستقبَحة في بداية السِّفر الأوَّل من العهد القديم في كتابهم المقدّس. وهي قصَّة معروفة؛ حيث إنَّها تتحدَّث عن الأبوين للبشرية جمعاء، وبداية العلاقة بين الخالق والإنسان. وهذا الحوار يعطي انطباعًا أنَّ الخالق - جلَّ جلاله وتقدّست أسماؤه وصفاته - أشبهَ ما يكون بإنسان يمشي في الجنة، ويبحث عن آدم وزوجته، ثمّ يستفسر عنْ وجوده وأفعاله. فمثلُ هذه النصوص - وغيرها كثير - لا تعطي انطباعًا عن خالق عالٍ على كلِّ شيء، وعليم بكلِّ شيء، وقادر على كلِّ شيء.

الوجهُ الثّاني: يؤكّد العهدَ الجديد فيما يسمُّونه الكتاب المقدَّس أنَّ الإله ليس متّصفًا بصفة المحبَّة فحسب، بل هو المحبَّة نفسها؛ ففي رسالة يوحنا الأولى: (أَيُّهَا الْأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا، لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ.وَمَنْ لَا يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ، لِأَنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ)[٢]. ولكن مَن قرأ كتابهم المقدَّس لا يشعر بذلك إطلاقًا؛ ففيه كثيرٌ من النصوص الدالة على أنَّ الربَّ نفسه يأمر بالإبادةِ الجماعية بما في ذلك قتل النساء والأطفال والحيوانات. ومن الأمثلة على هذه النُّصوص: (وَقَالَ صَمُوئِيلُ لِشَاوُلَ: إِيَّايَ أَرْسَلَ الرَّبُّ لِمَسْحِكَ مَلِكًا عَلَى شَعْبِهِ إِسْرَائِيلَ. وَالْآنَ فَاسْمَعْ صَوْتَ كَلَامِ الرَّبِّ. هَكَذَا يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ: إِنِّي قَدِ افْتَقَدْتُ

---

(١) سفر التكوين (٣: ٨ - ١٣).

(٢) رسالة يوحنا الأولى (٤: ١٦).

مَا عَمِلَ عَمَالِيقُ بِإِسْرَائِيلَ حِينَ وَقَفَ لَهُ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ صُعُودِهِ مِنْ مِصْرَ. فَالْآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلَا تَعْفُ عَنْهُمْ **بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا.**)[1].

فالربُّ - كما يزعمون - يأمر بني إسرائيل باستئصالِ العماليق كلّهم. وفرق بين ذلك وبينَ الأمر بالجهادِ الشرعي الذي يقصد به إيصال الرسالة إلى الآخرين. فهذه النَّصوص - وغيرها كثير جدًّا في كتابهم المقدَّس - يأمر فيها الربّ - حسب زعمهم - بالإبادةِ الجماعية الشاملة. والجمعُ بين هذه الحقيقة، وبين الإيمان بأنَّ الإله نفسه هو المحبَّة فيه تناقض. ولهذا لا تقتصر مشكلةُ الشَّر عند النصارى على أنَّ الإله يسمح بوجود الشُّرور، بل هو يأمرُ بذلك بنفسه.

الوجهُ الثّالث: كتابُ النصارى المقدَّس يتحدَّث عن أنبياء استشكلوا مشكلة الشرِّ نفسها، وخاطبوا الربَّ تعالى بكلام في غاية الوقاحة، كما ذكروا عن النبي حبقوق[2] أنه قال في دعائه لربِّه: (حَتَّى مَتَى يَا رَبُّ أَدْعُو وَأَنْتَ لَا تَسْمَعُ؟ أَصْرُخُ إِلَيْكَ مِنَ الظُّلْمِ وَأَنْتَ لَا تُخَلِّصُ؟ لِمَ تُرِينِي إِثْمًا، وَتُبْصِرُ جَوْرًا؟ وَقُدَّامِي اغْتِصَابٌ وَظُلْمٌ يَحْدُثُ)[3].

فإذا كان نبيٌّ مِن أنبياء الله يستشكل هذا، فليس بغريب أن يشتكله من هو دون النبي. فهذا النصُّ يوحي بأنَّ الربَّ تعالى يعلم عن هذه الشرور، ولكنه لا يفعل شيئًا في إزالتها. والنبيُّ حبقوق موقنٌ بوجودِ الإله، بل يتلقَّى منه الوحي الإلهي[4]، فكيف بمن دونه؟ فكأنَّ هذا النصَّ يمهِّد لمن يأتي بعدَ الأنبياء، ولديهم شكوك أن يتأثّروا بهذه الشبهة.

---

(١) صامويل ١ (١٥: ١ - ٣).
أمَّا نحن - معشرَ المسلمين - فنعتقد أنَّ الله تعالى متَّصف بالصفات العظيمة - ومنها المحبة -؛ فالصفاتُ قائمة به سبحانه؛ لا أنها هو الصفات أو بعضها.

(٢) هكذا ذُكر في كتابهم، ولا أعلم دليلاً في الكتاب والسنة على نبوَّة رجل يسمَّى حبقوقًا؛ فاللهُ أعلم.

(٣) حبقوق (١: ٢ - ٣).
واللهُ تعالى قدْ يشاء بقاءَ ظلم مرَّة فيقدِّره سبحانه لحكمة يعلمها، وهو تعالى يمهل ولا يهمل.

(٤) انظر: حبقوق (١: ١).

وكما سبقَ بيانُه في بداية المبحث، فإنَّ كتاب النصارى المقدّس لا يقدّم حلًّا لمشكلة الشَّر، وإنما تحدَّث عنها اللاهوتيون بعد تدوينه. وهذا كلُّه يوحي بعجز الديانة النَّصرانية نفسها عن حلِّ هذه المشكلة، وإنْ كان بعضُ علماء الغرب أجادوا وأفادوا في نقدها.

وفرقٌ بينَ ذلك وبينَ الديانة الإسلامية؛ ففي القرآن والسنة كثير من النصوص التي تحلُّ مشكلة الشَّر، وقد سبقَ ذكر عددٍ منها في هذا المبحث. ثمّ جاء علماء الإسلام بزيادةِ التوضيح في نقدِ هذه المشكلة بردود متَّزنة وصحيحة مبرّأة من إشكالات اللاهوت النصراني.

المبحثُ الثّاني
ردودُهم على شُبهة مشكلةِ جهنم

المبحثُ الأوَّل مِن هذا الفصل تناول مشكلةَ الشَّر بالتفصيل. والمقصود بالشرِّ في المصطلح الغربي المعاصر - كما تقدَّم - : الآلامُ والمعاناة في الدنيا. ويستشكل الملاحدةُ الجمعَ بين وجودِ هذه الشرور والآلام والمعاناة وبينَ الإيمان بوجود خالق عليم قدير رحيم. وتقدَّم أنَّ النقاشَ في هذه المشكلة حادٌّ جدًّا بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله. وبيَّنت أنَّ ردود علماء الغرب على هذه الشُّبهة قويَّة من حيث الجملة، إلّا أنَّ الديانة النَّصرانية سببٌ أساسٌ في ظهور هذه المشكلة.

وتتفرَّع عن مشكلة الشَّر مشكلةٌ أخرى، وهي ما تسمَّى في مصطلحهم بـ"مشكلة جهنَّم" (The Problem of Hell). وهي مبنيَّة على استشكال الجمع بين الإيمان بوجود الخالق الرحيم وبينَ أنَّه خلق جهنمَ للعذاب الأليم - عياذًا بالله من عذابه -. وبينما تتعلَّق مشكلة الشَّر بالآلام في الدينا، فتتعلَّق هذه الشبهة بالآلام في الآخرة. وسيتمُّ تقسيمُ هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تقريرُ مُعتقد النصارى في جهنم.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ الملاحدة لمشكلة جهنَّم.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على مشكلة جهنم.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على مشكلة جهنَّم.

الفقرةُ الأولى: تقريرُ مُعتقد النصارى في جهنم:

باعتبار أنَّ جلَّ علماء الغرب الذين تناولوا هذه الشُّبهة بالردِّ كانوا نصارى يحسُن أن أقدِّم ابتداءً تقريرَ مُعتقد النصارى في جهنم قبلَ عرض المشكلة؛ لأنَّ الملاحدة

اسْتشكلوا هذه الشُّبهة بناءً على معتقد النصارى. ويمكن تقسيمُ مُعتقد النصارى في جهنَّم إلى قسيمين رئيسين:

- **القسمُ الأوَّل: المعتقدُ التَّقليدي لدى الطوائف النصرانية الكبرى:**

أصحابُ هذا المعتقد يقولون: إنَّ جهنم حقيقة وليست مجازًا. وهو المعتقد الذي دافعَ عنه كبارُ اللاهوتيّين النصارى مثل: أغسطين وتوما الأكويني، وتبعهم على ذلك أكثرُ النصارى، ولهذا سمِّي بالمعتقد التقليدي(١).

وقد لخَّص البروفسور جون فينبيرغ(٢) هذا المعتقدَ في خمس نقاط:

النُّقطةُ الأولى: جهنم مكانٌ محدَّد، وليست مجرَّد رمز للعقاب. المكان الذي يقع فيه بالضبط ليس واضحًا تمامًا، ولكن هناك مكان حقيقي للعذاب.

النُّقطةُ الثّانية: العذابُ في جهنَّم جسدي وروحي معًا. وأصحابها يعذَّبون، ولكن النار لا تأكل أجسامَهم لكي يستمرَّ العذاب.

النُّقطةُ الثّالثة: أنَّه لا يدخل جهنم إلا الأشرار.

النُّقطةُ الرّابعة: أنَّ العذاب في جهنم أبدي، إلّا أنَّ الطائفة الكاثوليكية تعتقد أنه يوجَد ما يسمَّى بالمطهِّر، وهو المكانُ الذي يدخلُه العصاة، ويتطهَّرون بالعذاب قبل دخول الجنة. وأمّا الطوائف النصرانية الأخرى، فينكرون ذلك.

النُّقطةُ الخامسة: أنَّ دخول الإنسان في النار عملٌ من أعمال الإله الجزائية، ونابعٌ مِن قداسته وعدله(٣).

فهذا يلخِّص المعتقدَ التقليدي في جهنَّم بين طوائف النصارى.

---

(١) انظر:

A Theodicy of Hell (24-25), by: Charles Seymour, (Springer Science Business Media, 2000)

(٢) جون فينبيرغ (John Feinberg): بروفسور علم اللاهوت النظامي والدراسات في الكتاب المقدّس الأمريكي. انظر: https: / /www.tiu.edu /faculty /john – s – feinberg/

(٣) انظر: The Many Faces of Evil (399 - 404)

- **القسمُ الثّاني: المعتقداتُ الشاذَّة لدى النصارى:**

هي معتقداتٌ مختلفة، إمّا بتأويلِ النصوص الدينية المتعلِّقة بجهنم نفسها، وإمّا إنكار أبديَّة النار. أمّا القول بتأويل النُّصوص الدينية المتعلِّقة بجهنم فكان موجودًا بين بعض اللّاهوتيين النصارى القدامى، ورأوا أنَّ عذاب النار المذكور في كتابهم المقدَّس مجاز وليس بحقيقة. والمرادُ بهذا العذاب الانفصالُ عن الإله[1]. وهذا ما ذهبَ إليه بعضُ الفلاسفة النَّصارى في دفاعهم عن معتقدِ جهنَّم أمام شبهات الملاحدة وغيرهم[2].

وذهبَ بعضُ المعاصرين إلى ما هو أبعدُ من ذلك من أنَّ الإله يبعث الصالحين يوم القيامة ليجازيهم فقط، وأمّا الذين يستحقّون العقاب فإنه يبيدهم[3].

القولُ بإنكار أبدية النار يُعرَف بـ"المسيحية العالمية" (Christian Universalism). وخلاصةُ هذا المعتقد اللاهوتي: أنَّه لا يخلَّد أحدٌ في النار، ومَن دخل فيها يعذَّب عذابًا مؤقتًا، ثمَّ يدخل الجنةَ بعد ذلك. فما من إنسانٍ مهما كان معتقده أو أعماله إلا وسيدخُل الجنة في نهاية الأمر. وذكروا أنَّ هذا المعتقد مبنيٌّ على أنه لا يمكن لإله كامل المحبَّة أن يخلِّد أحدًا في النار[4]. وكان بعضُ اللاهوتيين القدامى يميلون إلى هذا الرأي[5].

وشبهةُ مشكلة جهنَّم عند الملاحدة تستهدف المعتقدَ التقليدي لدى النصارى في المقام الأوَّل، ولا تستهدف هذه المعتقدات الشاذة. وحيث إنَّ المعتقد التقليدي لدى النَّصارى في جهنَّم أقربُ إلى العقيدة الإسلامية – معَ وجود فوارق سيتمُّ التَّنبيه عليها إن شاء الله – فسأركِّز في بقية المبحث على مشكلةِ جهنم وفق المعتقد التقليدي.

---

(١) انظر: A Theodicy of Hell 25

(٢) انظر: المصدر السابق (١٦ – ١٧).

(٣) انظر: The Many Faces of Evil (407 - 408)

(٤) انظر المقال: Universalism في موسوعة بريتانيكا على الرابط:

https://www.britannica.com/topic/Universalism

(٥) انظر: A Theodicy of Hell ٢٩

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ الملاحدة لمشكلة جهنَّم:

سبقَ أن بعض النصارى كانوا يؤولون النصوص الدالة على وقوع عذاب جهنم، ويذهبون إلى أنَّ جميع الناس يدخلون الجنة. وإنْ كان هذا القول صادرًا من علماء نَصارى متديِّنين إلّا أنَّه في الحقيقة يعتبر أوّلَ اعتراض على معتقد جهنم. ولكن تغيَّر هذا الأمرُ في عصر التنوير عندَ اشتهار المذهب الربوبي والإلحادي في الساحة الفلسفية والدينية. فانتقلتِ الشُّبهة من كوْنها نقاشًا لاهوتيًّا بين علماء النصارى إلى أن أصبحتْ شُبهة لنقد الديانة النصرانية من قبَل أعدائها.

فقدْ أنكر الفيلسوف الفرنسي فولتير وجودَ جهنَّم، وزعمَ أنه اختراع إنساني، بينما قرَّر الفيلسوف ديدرو أنه ينتظرُ من اللاهوتيّين أن يجدوا حلًّا للجمع بين الإيمان بوجود جهنَّم وبينَ الإيمان بالرَّحمة الإلهية. كما ذهب الفيلسوف بيير بايل إلى أنَّ الجمع بينهما غيرُ ممكن[١]. وهكذا ظهرتْ شُبهة مشكلة الشَّر في عصر التنوير على يد الربوبيين والملاحدة.

وفي هذا العصر، استشكل كبارُ الملاحدة أمثال برتراند راسل الإيمانَ بالجحيم؛ حيثُ ذكره ضمنَ الأسباب التي جعلته يرفضُ الديانة النصرانية؛ فقال: «هناك عيبٌ خطير للغاية في ذهني في شخصية المسيح الأخلاقية، وهو أنَّه كان يؤمن بالجحيم. لا أشعرُ أنَّ أي شخص إنساني بعُمق يمكن أن يؤمنَ بالعقاب الأبدي»[٢].

وذكرَ ريتشارد دوكينز في مقابلته معَ أحد المذيعين أنَّ تعليم الأطفال أنه بالإمكان أنْ يبقى أحدُ أصدقائهم في الجحيم للأبد أخطر على نفسيتهم من التحرُّش الجنسي[٣].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣١).

(2) Bertrand Russell on God and Religion (67), ed. Al Seckel (Buffalo, New York: Prometheus Books, 1986)

(٣) انظر هذه الجزئية من المقابلة بعنوان:

Dawkins on Religion-Extra: Heaven and Hell

وهي موجودة على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=7eiHbXYS9nI

وبينما كان هذا الكلام سطحيًّا، ولا يعدُّ شبهة مؤصّلة، إلّا أنه يدلُّ على البُعد العاطفي لهذه الشُّبهة. فبرتراند راسل يخاطب النَّصارى قائلًا إنَّه ترك ديانتهم بسبب شخصيَّة المسيح - الذي هو أحبُّ الناس إليهم - لأَنَّه قاسٍ ويؤمن بالعذاب الأبدي، بينما يعتقد كثيرٌ من النصارى أنَّ المسيح رمزُ المحبَّة والرحمة. ودوكينز يثير قضية التحرُّش الجنسي بالأطفال، ويقارن بينَ آثاره النفسية وبين الآثار النفسية للإيمان بالجحيم. وهذا الخطابُ العاطفي قد يؤثِّر في بعض ضعاف النفوس.

ولكنَّ بعض فلاسفة الملاحدة أصَّلوا لهذه الشبهة بطريقة فلسفية تشبه صياغتهم لمشكلة الشَّر[١]؛ فمنهم مَن ذكر هذه الشبهة بالصياغة المنطقية، ومنهم مَن ذكرها بالصياغة البرهانية[٢].

ومشكلةُ جهنَّم المنطقية مبنيَّة على استحالة الجمع بين عبارتين - في زعمهم - :

العبارةُ الأولى: الإلهُ موجود، وهو كلِّي القدرة، وكلِّي العلم، وكلِّي الخيرية.

العبارةُ الثّانية: بعضُ المخلوقين سيذهبون إلى الجحيم للأبد.

ولتوضيحِ استحالة الجمع بين العبارتين يذكرون الصياغة المنطقية الآتية:

إنْ كان الإلهُ موجودًا وقديرًا، فإنَّه يقدر على تجنّب مضامين العبارة الثانية.

إنْ كان الإلهُ موجودًا وعليمًا، فإنَّه يعلم كيفية تجنُّب مضامين العبارة الثانية.

إنْ كان الإلهُ كلّي الخيرية فإنَّه يريد تجنُّب مضامين العبارة الثانية.

إنْ كان الإلهُ موجودًا، فلن يذهب أحدٌ إلى عذاب جهنم المؤبّد[٣].

---

(١) انظر:
"Eliminating the Problem of Hell" (1), by: James P. Sterba, in Religious Studies (p. 1-13), (Cambridge University Press, 2018)

(٢) انظر: The Many Faces of Evil (397 - 398)

(٣) انظر:
"Hell and the Problem of Evil", by: Andrei A. Buckareff and Allen Plug in: "Blackwell Companion to the Problem of Evil (129)

فالقائلون بمشكلة جهنَّم المنطقية يزعمون أنَّ الجمعَ بين العبارتين مع هذه المقدِّمات مستحيلٌ منطقيًّا. بينما يدَّعي القائلون بمشكلة جهنم البرهانية أنَّ الجمع بين هاتين العبارتين بهذه المقدِّمات ليس مستحيلًا، ولكنه يستبعد أنَّ الخالق العليم القدير الخيِّر يخلق الجحيمَ ويرسل بعضَ الناس إليه ليعذِّبهم عذابًا أبديًّا(١).

وكما هوَ واضح من مشكلةِ جهنَّم بصياغتيْها أنها تشبه مشكلة الشَّر إلى حدٍّ كبير، وقد تمَّ تقرير تلك المشكلة في المبحث الماضي باستيفاء، فلا يحتاج الأمرُ إلى زيادة توضيح هنا.

وكما أنَّ مشكلة الشَّر أثَّرت في نفوس كثيرٍ من الغربيين، فإنَّ مشكلة جهنَّم تركت أثرًا كبيرًا حتَّى لدى النصارى أنفسهم. فحسب إحصاء عام ١٩٧٧م، ذكر ثلث العوام الكاثوليك أنَّهم لا يؤمنون بجهنَّم. وأنكرت الطائفة السبتية البروتستانتية وجودها كليًّا(٢). وذكرَ البروفسور جون فينبيرغ عندَ حديثه عن مشكلة جهنَّم أنه قلَّما تسمع خطبة في كنيسة إنجيليَّة تتحدَّث عن الجحيم(٣)، إشارةً إلى مدى تأثير هذه الشبهة.

فهذه الشبهة أدَّت ببعض الناس إلى إنكار وجود الخالق العليم القدير الرحيم، وأدَّت بآخرين إلى التمسُّك بإيمانهم بالخالق مع إنكار وجود الجحيم.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماءِ الغرب على مشكلة جهنَّم:

حاولَ بعضُ النصارى الردَّ على هذه المشكلة بتبنِّي المعتقدات الشاذَّة في جهنم، وزعموا أنَّ هذا يُلغي هذه المشكلة بطريقتها المنطقية والبرهانية. ولكنَّ هذه الطرق تتعارض معَ المعتقدات التقليدية لدى النصارى(٤) فضلاً عن معارضها للعقيدة الإسلامية. وعليه، فلن ألتفتَ إلى تلك الردود هنا.

---

(١) انظر: The Many Faces of Evil (397 - 398)

(٢) انظر: A Theodicy of Hell (31)

(٣) انظر: The Many Faces of Evil (396)

(٤) انظر: المصدر السابق (٣٩٨).

وسأقسِّم ردودَ علماء الغرب على مشكلة جهنَّم إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الردُّ على مشكلة جهنَّم بصياغتها المنطقية.

القسمُ الثّاني: الردُّ على مشكلة جهنَّم بصياغتها البرهانية.

القسمُ الثّالث: الأسبابُ والحِكم لوجود عذاب جهنم.

- **القسمُ الأوّل: الردُّ على مشكلة جهنم بصياغتها المنطقية:**

الردُّ على هذه المشكلة يتفرَّع عن الردِّ على مشكلة الشَّر المنطقية. وذلك أنّه لكي يزعم الملحدُ أنه يستحيل منطقيًّا أن يجمع بينَ الإيمان بوجود الخالق العليم القدير الخيِّر وبينَ وجود عذاب جهنَّم فإنَّه يحتاج أن يبرهن على أنَّ هذا الأمر مستحيل ضرورةً.

وقد ردَّ البروفسور جون فينبرغ على هذه الشُّبهة، وذكر أمرين مهمّين:

الأمرُ الأوَّل: إذا ادَّعى الملحدُ أنه يوجد تناقضٌ بين المذهب الألوهي وبين وجود عذاب جهنم، فلا بدَّ أن يحدِّد أيَّ نوع من أنواع المذهب الألوهي الذي يقصده، لأنَّ المعتقدات تختلف[1].

وهذا الردُّ صحيح، وإن كان هذا الفيلسوف النصراني تخبَّط في محاولة بيان المعتقد النصراني الذي يمكن به الخروجُ من هذا التناقض المزعوم. ولكن يمكن للمسلم الاستفادة من أصل الردِّ؛ لأنَّ الملحد يلبِّس عندما يذكر أنَّ الخالق متّصف بهذه الصِّفات الثلاث فقط؛ لأنَّ الله - تبارك وتعالى - متَّصف بصفات أكثر من ذلك. فالملحدُ يقصِّر عندما يذكر هذه الشبهة مبنيَّة على أنَّ الإله متَّصف بثلاث صفات فقط، وأنه لا يمكن الجمعُ بين الإيمان بالخالق المتَّصف بهذه الصفات الثلاث وبين وجود جهنم. وحيث إنَّ الله سبحانه متَّصف بصفات أكثر من ذلك، ويظهر ذلك خلال خمْس نقاط:

النُّقطةُ الأولى: الإيمانُ بربوبية الله الكاملة: «وهو الإقرار بأنَّ الله تعالى ربُّ كلِّ شيء، ومالكه وخالقه ورازقه، وأنَّه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرِّد بإجابة

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٠٥).

الدعاء عندَ الاضطرار، الذي له الأمر كلّه، وبيده الخير كلّه...»[1]. فالله خالق البشر ومالكهم ورازقُهم، وكلُّ شيء بأمره ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١]. فالذي يدخل النار هو في الحقيقة مخلوقٌ من مخلوقات الله، وملكٌ له. ولكن لا يعني ذلك أنَّه لا يعذّب أحدًا بدون عدل، كما هو موضَّح في النقطة الثانية.

النُّقطةُ الثّانية: الإيمانُ بعدل الله: من صفاتِ الله تبارك وتعالى: العدل؛ فقد قال رسولُ الله (ﷺ): «فمَن يعدل إذا لم يعدلِ اللهُ ورسوله»[2]. «وهو سبحانه موصوفٌ بالعدل في فعله، فأفعاله كلُّها جارية على سُنن العدل والاستقامة، ليس فيها شائبة جور أصلًا؛ فهي دائرةٌ كلها بين الفضل والرحمة، وبين العدل والحكمة... وما ينزله سبحانه بالعُصاة والمكذِّبين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا، وما أعدَّه لهم من العذاب المهين في الآخرة، فإنما فعلَ ذلك بهم ما يستحقُّونه، فإنه لا يأخذ إلّا بذنب، ولا يعذِّب إلا بعدَ إقامة الحجة»[3]. واللهُ تعالى يؤكِّد مرَّة تلو الأخرى في كتابه العزيز أنه تنزَّه عن الظلم؛ فقال: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. فاللهُ - تبارك وتعالى - عندما يعذِّب مَن يعذِّب، فإنه لا يظلمه، بل يعامله بعدله.

النُّقطةُ الثّالثة: الإيمانُ بأنَّ الله هو الحكيم: «أي: الموصوف بكمال الحكمة، وبكمال الحكم بين عباده. فالحكمة سعةُ العلم والاطلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، وعلى سعةِ الحمد حيث يضع الأشياءَ مواضعها وينزلها منازلها، **ولا يتوجّه إليه سؤال ولا يقدح في حكمتِه مقال**، فلهُ الحكمة في خلقه وأمره... **وكذلك أحكام الجزاء**

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢٦)، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، (عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ، اعتنى به: محمد أيمن الشبراوي).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٥٠)، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي (ﷺ) يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه.
وأخرجه مسلم في صحيحه (١٠٦٢)، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وتصبّر من قوي إيمانه، من حديث عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه).

(٣) شرح القصيدة النونية (٢/ ١٠٦).

على الأعمال في غاية المناسبة والموافقة للحكمة جملة وتفصيلًا، والله أعلم»[1].

فاللهُ لا يعذِّب أحدًا إلّا وفق حكمته البالغة، وهذا المخلوق المعذّب يستحقُّ ذلك العقاب. وليس للعبدِ الفقير الجاهل أن يعترضَ على الخالق الغني العليم الحكيم في سببِ عذابه أو جزائه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، و﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

النُّقطةُ الرّابعة: الإيمانُ بأنه لا أحدَ يوجب على الله شيء: الملحدُ الذي يعترض بمشكلةِ جهنم المنطقية يتكلَّم كأنه يوجب على الله أنْ يفعل أو لا يفعل. وليس للعباد أنْ يعترضوا بهذه الاعتراضاتِ أصلًا. قد لخَّص الإمام ابن القيم (رحمه الله) هذا الأمرَ بقوله:

ما للعباد عليه حقّ واجب	**هو أوجب الأجر العظيم الشان**
كلا ولا عمل لديه ضائع	**إن كان بالإخلاص والإحسان**
إن عذّبوا فبعدله أو نعموا	**فبفضله والحمد للمنّان**[2]

«قال أهلُ السُّنة والجماعة: إنه لا يجبُ على الله شيء، لأنَّ الوجوب معناه أنَّ أحدًا أوجبَ عليه، ليس فوقه سبحانه مَن يوجب عليه شيء، قال تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فلا يجب عليه سبحانه إثابةُ المطيع ولا عقاب العاصي، بل الثَّواب محْض فضله وإحسانه، والعقاب محْضُ عدله وحكمته، ولكنه هو سبحانه الذي يوجبُ على نفسه ما يشاء، فيصير واجبًا بمقتضى وعده الذي لا يخلف»[3].

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن (٣٧ – ٣٩)، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ).

(٢) متن النونية (٢٠٨).

(٣) شرح القصيدة النونية (٢/ ٩٩).

النُّقطةُ الخامسة: الإيمانُ بالصفات والأفعال الآتية: الغضب، واللعن، والسُّخط، والأسف، والانتقام، والمقت. فكما أنّ الله هو الودود، الرحمن، الرحيم، فإنَّه متَّصف بهذه الصِّفات أيضًا. والأدلة على قوله تعالى: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ ﴾ [الفتح: ٦]، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠]، وقوله جلَّ وعلَا: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصفّ: ٣].

فعذابُ الله للكافرين ليس أثرًا من آثار محبَّته أو رحمته لهم، بل من آثار غضبه وسخطِه عليهم، وأنه لعنَهم ومقتهم، وأنهم آسَفُوه فانتقم منهم. فلو قيل: إنّ الله يحبُّ جميعَ الناس حتى الكافرين - كما سيأتي أنَّه من أقوال النصارى - فإنَّ الإيمان بأنه يعذِّبهم عذابًا أليمًا أبديًّا يعدُّ تناقضًا. ولكنَّ المعتقد الإسلامي بهذه الصفات لا يتناقض أبدًا مع الإيمان بعذابِ جهنم، بل هو في غاية الاتِّساق. فالله يحبُّ المؤمنين ويرضى عنهم، ولذلك رحمهم وأدخلَهم الجنة. وهو يسخطُ على الكافرين ويمقتهم، ولذلك أدخلهم النارَ، وعذّبهم عذابًا أليمًا.

فكما ذكرَ البروفسور فينبرغ، فإنه يمكن حلُّ مشكلة جهنم بمجرّد شرح الإيمان بالصِّفات الإلهية الذي يزعم الملحدُ أنه يتناقض مع العذاب في جهنم. ولكنَّ الإشكالَ عندَه في التمسُّك بالعقيدة النصرانية اللاعقلانية، بينما عقيدة المسلم متوافقة مع هذا العذاب.

الأمرُ الثّاني: الذي ذكره البروفسور فينبرغ: أنَّ غاية ما يحتاج إليه مَن يردُّ على هذه المشكلة هو أنْ يقدِّم أسبابًا ممكنة لوجود هذا العذاب في ظلِّ معتقده الألوهي. فلو أمكنَ تقديمُ بعض الأسباب الممكنة لوجود العذاب فإنّ هذه المشكلة تسقط تلقائيًّا، لأنَّه لا بدَّ أن تكون المقدِّمات في الحجة ضرورية[1].

وقدْ سبق ذكرُ أسباب تعذيب أصحاب النار وفق المعتقد الإسلامي، وسيأتي ذكرُ بعضِ الأسباب الأخرى في القسم الثالث - إن شاء الله -.

---

(١) انظر: The Many Faces of Evil (405)

• **القسمُ الثّاني: الردُّ على مشكلة جهنم البرهانية:**

مشكلةُ جهنم البرهانية مبنيَّة على أنَّ الجمع بين الإيمان بخالق العليم القدير الخيِّر والإيمان بعذابِ جهنم ليس مستحيلًا من الناحية المنطقية، ولكن من المستبعد أن يوجَد خالقٌ متَّصف بهذه الصفات، وأنه يعذِّب الناس في جنهم. وكما سبق عند الحديث عن مشكلة الشَّر البرهانية، فإنَّ هذه المشكلة بهذه الصياغة تميل إلى كونها عاطفية أكثر من كوْنها شبهةً علمية منطقية. وهذا هو حالُ مشكلة جهنم البرهانية أيضًا.

وقد ذكرَ البروفسور جون فينبرغ أنَّه يمكن التعاملُ مع هذه المشكلة بطريقتين:

الطريقةُ الأولى: الطريقةُ الهجومية:

وخلاصتُها أنْ يتكلَّف الألوهي عبءَ الإثبات بذكر الأدلة والبراهين على أن المعتقد الألوهي أفضلُ من غيره.

الطريقةُ الثّانية: الطريقةُ الدفاعية:

وهو أن يحمِّل الألوهي عبءَ الإثبات على الملحدِ بذكر الأدلة والبراهين أنّ المعتقدَ الألوهي مستبعَد، وغير مرجَّح.

وذكر أنه يفضّل الطريقة الثانية؛ لأنَّ الملحدَ هو الذي طرح الشبهة أصلًا، والبيِّنة على المدَّعي[1].

ثمَّ واصل البروفسور فينبرغ بعدَ ذلك، وذكر أنَّ صاحب شبهة مشكلة جهنم البرهانية ليس مطالبًا بإيرادِ دليلٍ واحد، ويرجّح عدم إمكانية الجمع بين الإيمان بالخالق المتَّصف بهذه الصفات وبينَ وجود جهنم، بل هو مطالب أنْ يأتي بجميع الأدلة في صالحِ المذهب الألوهي، ثمَّ يأتي بجميع الأدلة ضدَّ هذا المعتقد، ثمَّ يوازن بين الأدلة ويقول: إنَّ عدمَ إمكانية الجمع أرجح. وأنَّى للملحد أن يفعل ذلك[2].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٤٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٤١).

وهذا الوجهُ جيِّد، ويمكن تلخيصُه بطريقة بالحوار الآتي:

الألوهي: «هل تقول إنَّ الجمعَ بين الإيمان بوجود خالق عليمٍ قدير خيِّر وبينَ وجود عذاب جهنَّم؛ مستحيل منطقيًّا؟»

المُلحد: «لا، هو ممكن منطقيًّا، ولكنه مستبعَد وغيرُ مرجَّح».

الألوهي: «لكي تقومَ بعملية الترجيح تحتاج أن تجمع بين جميع الأدلة المؤيدة لصالح المذهبِ الألوهي وبينَ هذه الشبهة، ثمَّ تقوم بعملية الموازنة الموضوعية، وتقول إنَّ الشبهةَ أقوى من تلك الأدلة».

المُلحد: «وكيف أستطيع ذلك؟ هذا مستحيل!»

الألوهي: «نعم، ولهذا تسقط هذه الشبهة».

وأمّا المسلم، فإنه يبني إيمانَه على ثلاث قضايا يقينية في هذه المسألة:

القضيةُ الأولى: الأدلةُ والبراهين والحجج اليقينية على وجود خالق متَّصفٍ بصفات الجلال والكمال. وقد سبقَ تقريرُ ذلك في الباب الثاني من هذه الرسالة.

القضيةُ الثّانية: الأدلةُ والبراهين والحججُ اليقينية على صحّة الوحي الإسلامي مثل: دلائل النبوة، وإعجاز القرآن الكريم، إلخ.

القضيةُ الثالثة: الأدلةُ اليقينية في الوحي الإسلامي الدالَّة على وجود جهنَّم، وأنَّ الله يعذِّب فيها الكافرين ومَن شاء من العصاة.

وجميعُ هذه القضايا الثلاث يقينيةٌ لا تقبل الشَّك. ثمَّ يأتي الملحد بهذه الشبهة المبنية على العاطفة، ويقول إنَّ الجمعَ بين الإيمان بالخالق المتّصف بهذه الصفات وبين وجود عذابِ جهنم غيرُ مرجَّح. فغايةُ ما يخبر به الملحد: شعورُه تجاه جهنم، وليس بإمكانه أنْ ينصب نفسَه حكمًا موضوعيًّا في هذه القضية. ولهذا لا تعْدو هذه الشبهة من كونها شبهةً عاطفية ذاتية واهية، وليست حجةً علمية موضوعية صحيحة.

- **القسمُ الثّالث: الأسبابُ والحِكم من وجود عذاب جهنم:**

قد تبيَّن في القسميْن السابقين أنَّ مشكلة جهنم المنطقية ومشكلة جهنم البرهانية واهيتان، ولا تقومان على أرضيةٍ صُلبة. وتبيَّن من ذلك أن المشكلة المزعومة ليست مشكلةً أصلًا. ولكنْ إضافةً إلى ذلك فقد بيَّن علماءُ الغرب بعض الحِكم والأسباب لتعذيبِ الإله للناس في جهنم. وأقتصرُ من ذلك على ذكْر ذلك من أربعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: حجةُ سلطان الإله المطلق:

ذكرَ البروفسور فينبرغ أنَّ الإله له الحقُّ في تنفيذ وفرض أي نظام حكم أخلاقي يريدُه في عالمنا. ومن ثمَّ، فإذا أرادَ أن يرسل العصاة إلى الجحيم من أجل التعذيب الأبدي، فهذا حقُّه(١).

وهذا القولُ صحيح، وهو موافقٌ لما سبقَ تقريره من الإيمان بربوبية الله. فالبشرُ من خلقِه وملكه، واللهُ يحكم لا معقِّبَ لحكمه، وله الأمرُ من قبْل ومِن بعد.

الوجهُ الثّاني: حجةُ العدل:

يعترض الملاحدةُ على عذاب جهنم بأنَّ العقوبة أطول من الجريمة، وأنَّ أسوأ المجرمين على وجْه الأرض، مهْما كان ما قاموا به من الجرائم، فإنَّ ذنوبهم مقتصرة على مدَّة محدَّدة، بينما عذابُ جهنم أبَدي. ويزعمون أنَّ هذا منافٍ للعدل(٢).

وقد ناقشَ القديس أغسطين هذه الشبهة، وذكر أنَّ هذه العقوبة عدلٌ في الحقيقة، وذلكَ من ناحيتين:

النَّاحيةُ الأولى: أنَّ العادة أنه لا علاقةَ بين طول الجريمة ومدة العقوبة. وذكر من الأمثلة على ذلك أنَّ الإنسان قد يقومُ بجريمة في لحظة قصيرة، ولكن عقوبته تكون مطوَّلة. وهذا لا يتنافى مع العدل.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٢٧).

(٢) انظر: A Theodicy of Hell (37)

النّاحيةُ الثّانية: أنَّه يحقُّ للدولة أن تعاقِب على بعضِ الجرائم بالإعدام أو إخراج الشَّخص في منفًى للأبد. وهذا هو العدلُ في ذلك المقام. ويمكن أن يُقاس على ذلك العذابُ الأبدي في جهنم[1].

وهذا الردُّ جيِّد ومعقول، فقد يقتل القاتلُ شخصًا في أقلّ من دقيقة، فهل من العدل أن يُسجَن دقيقة واحدة كعقوبة؟ لا يقول بذلك عاقل. فما المقدار المناسبُ عقوبةً لهذا المجرم إذًا؟ لا شكَّ أن مدَّة العقوبة أضعافُ مدة الجريمة، وللقاضي أن يحكم بما هو مُناسب. واللهُ تعالى يحكم بين العباد بما هو يشاء.

والحقُّ أنَّ «العلاقة بين العقوبات والذنب ليستْ علاقة رياضية عددية، وإنما هي علاقةٌ سببيَّة؛ فبعضُ الذنوب والأخطاء القليلة في عددِها قد تترتَّب عليها عقوبة عظيمة جدًّا، نتيجةً لضخامتها من حيث الكيف، أو لسعةِ ما يترتَّب عليها من الآثار والفساد، أو لما قامَ في نفس فاعلها من الاستخفاف والاستطالة وعدم المبالاة. فلو أنَّ رجلًا أتلفَ عامدًا متعمدًا ألفَ كيلو من الفضة، فإنه لا يمكن أن يساوَى برجل أتلفَ عامدًا متعمدًا مائةَ كيلو من الذهب، فمَن أتلف الذهب سيكون جرمه أعظم، وذنبه أشنع، مع أنَّ فعله أقلّ في الكمِّ من الآخر، وكذلك الحال في صور كثيرة لا تخفى.

إنَّ المشكلَ المنهجي عندَ المعترضين على تخليدِ الكفار في النار أنهم يتعاملون مع عقوبةِ الله تعاملًا رياضيًّا عدديًّا، واعتقدوا أنَّ العدل والرحمة لا تتحقّقان إلا بذلك، وهذا التعاملُ مخالفٌ للعقل والواقع، ويوقع في مناقضة ظاهرة للعدل والرحمة»[2].

معَ التَّنبيه على أنَّ العذاب الأبدي يختصُّ بالكفر الأكبر، ولا يخلّد أحد في النار بسببِ ذنوب ومعاصٍ. والكفرُ الأكبر أعظمُ جريمة وأشنعها، لهذا ناسب لهما أشدَّ عذاب وأعظم عقوبة.

---

(١) انظر: City of God (338 - 339), by: Augustine of Hippo, (Dutton, 1972)

(٢) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢ / ٩٤).

و«إذا تبيَّن أنَّ العلاقة بين العقوبة والذنب علاقة سببية وليست علاقة عددية، فإنَّ الذنبَ الذي وقعَ فيه الكافر المستحقّ العقاب بلغ من العظمة والضخامة مبلغًا عظيمًا جدًّا، إلى درجةٍ أنه أضحى مُستحقًّا للعذاب الأبدي، فإنَّ الكافر تنكَّر لأكبر حقيقة في الوجود، وتكبَّر على أعظم شيء في الكون، معَ ظهور الدلالة عليه، وشدّة التحذير من المخالفة له.

فاللهُ تعالى خلقَ الإنسانَ على الفطرة المقتضية للأخذ بالحقّ، ولم يكتف بذلك، وإنَّما أرسل الرسلَ لبيان مُقتضيات تلك الفطرة، وإرشاد مَن انحرف عنها، وتذكيره بها، وأنزلَ كتبه، وأبانَ فيها معالمَ الطريق إلى الحقِّ، وبيَّن عقوبة مَن ينحرف ويضلّ، وأكثر مِن التهديد والوعيد لكلِّ مَن يكفر ويعرض، وصرَّح فيها بالعذاب الأليم والوعيد الفظيع لمن بقيَ على انحرافه.

فمَن بقيَ على كفره بعدَ علمه بكلِّ هذه الأمور، ولم يوجد أيُّ مانع معرفي يمنعه من قبولِ الحقّ، وانتفتْ عنه كلُّ الشبهات؛ فإنَّه لا محالة بلغ من الفساد مبلغًا عظيمًا.

فالعذابُ المؤبَّد في الحقيقة ليس على الفعل المحدود في الزمان والعدد، وإنما هو على حالةِ الكافر التي كشفَ عنها ذلك الفعلُ المحدود، وطبيعته المعرضة عن الحقّ والمتعالية عنْ قبول الأدلة البيِّنة، والمستخفَّة بالحقائق، والمستهترة بما يترتّب عليها من العذاب والعقوبة.

وهذه الحقيقةُ المركّبة لحال الكفّار كشف اللهُ عنها في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فهذا إخبارٌ من الله بأنَّ نفوس الكفار الذين بقوا على كفْرهم بعدَ بلوغ الحجَّة إليهم بلغتْ من الفساد والانحراف درجة لا تقتضي إلّا الكفر، ولا تعزم إلّا على الإنكار والإعراض، ولا يمكن أن تقبل غيره.

فلأجلِ هذا استحقَّ الكفارُ التخليد في النار، والحكم عليهم بأنهم لا يخرجون منها أبدًا، فالتخليدُ في النار إذًا ليسَ على الفعل المحدود المجرّد من غير اعتبار أي بُعد آخر، وإنَّما هو على الفعل مصطحبًا معه حالةَ الكافر في الإعراض، ومنهجه في التعامل مع الحجج والبيّنات»[1].

وهذا ما يبيِّن بجلاءٍ أنَّ العذاب الأبدي لا يتنافى مع العدل الإلهي.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٩٤ - ٩٥).

الوجهُ الثّالث: حجَّةُ إرادة الإنسان:

هذه الحجَّة مبنيَّة على أنَّ الذي يدخل النارَ يفعل ذلك جزاء لما قام به من العمل بناءً على إرادته، ولذلك كانت عقوبة بما كسبتْه يداه. ومادام أنَّه يعاقب على ما قام به هو بناءً على إرادته، فلا يتنافى ذلكَ مع العدل الإلهي. أمّا لو لم يكنْ للإنسان إرادة لعملِه، ولا قدرة على تنفيذه؛ فقد يقال إنه منافٍ للعدل(1).

وهذا الوجهُ صحيح، فاللهُ تعالى يقول لأصحاب النار ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

وقال الإمامُ الطبري (رحمه الله) مفسِّرًا لهذه الآية: «بما أسلفت أيديكم واكتسبتها أيام حياتكم في الدنيا، بأنَّ الله عدلٌ لا يجورُ فيعاقب عبدًا له بغير استحقاق منه العقوبة، ولكنَّه يجازي كلَّ نفس بما كسبت، ويوفِّي كلَّ عامل جزاء ما عمل، فيجازي الذين قال لهم ذلك يوم القيامة»(2).

الوجهُ الرّابع: صناعةُ النَّفس:

المقصودُ بهذا الوجه أنَّ العلم بعذاب جهنَّم ينمِّي الخصال الحسنة في الإنسان. فكلَّما ازداد الإنسان علمًا بذلك ازدادَ تقرّبًا إلى الله. وبذلك توجد حكمة كبيرة من وجودِ هذا العذاب، ولولاه ما حصلتْ هذه التنمية النفسية(3).

وهذا الوجهُ صحيح، فإنَّ مِن ثمرة الإيمان بالآخرة أنّ الإنسان يتقرّب إلى الله بما أحبَّ، ويجتنب ما حرَّمه سبحانه؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١]. فربطَ بين الخوف من القيام بين يدي الله وبينَ نهيِ النَّفس عن اتِّباع الهوى؛ قال العلامة السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «خافَ القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثَّر

---

(١) انظر: A Theodicy of Hell (135)

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦ / ٢٨٣).

(٣) انظر: The Many Faces of Evil (430 - 431)

هذا الخوف في قلبه فنهى نفسه عن هواها الذي يقيِّدها عن طاعةِ الله، وصارَ هواه تبعًا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصَّادين عن الخير»[1].

والخوفُ من أعظم أنواعِ العبادات وأجلِّ القربات وأفضل الطاعات، وله ثمراتٌ جليلة في حياة العبد، منها: «أنه يقمعُ الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبةُ عنده مكروهة، كما يصير العسلُ مكروهًا عندَ مَن يشتهيه إذا علم أن فيه سمًّا، فتحترق الشهواتُ بالخوف، وتتأدَّب الجوارح، ويذلّ القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقدُ والحسد، ويصير مستوعب الهمّ لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرّغ لغيره، ولا يكون له إلّا شغل المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والضِّنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النَّفس في الخطرات والخطوات والكلمات... اعلم أنَّ الخوف سوط الله تعالى يسوقُ به عبادَه إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى»[2].

فهذه بعضُ ثمراتِ الخوف من الله وعذابه، وتبيّن من ذلك أهمية وجود العذاب ليقومَ العباد بتنميةِ نفوسهم وتزكيتها والقيام بما أوجبه الله واجتناب ما نهى عنه.

كما أنه تبيَّن من هذه الأوْجه الأربعة أنَّه يوجَد عددٌ من الأسباب والحِكم لخلق جهنم وعذاب الكافرين والعصاة فيها. وبذلك تسقط مشكلة جهنم المزعومة.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماءِ الغرب على مشكلة جهنّم:

قد ردَّ علماءُ الغرب على مشكلة جهنم بطريقة جيّدة ومفيدة، فنقضوا المشكلة بصياغتيْها المنطقية والبرهانية، كما أنهم ذكروا بعضَ الأسباب والحِكم لوجود جهنم. وقد تبيَّن أنَّ هذه الأوجه التي ذكروها متوافقةٌ إلى حدٍّ كبير مع ما هو مذكور في القرآن وما قرّره علماء الإسلام، وإن كان ما قرّروه أكمل ما قرّره أولئك.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٨٧٠).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (٣٨١ - ٣٨٢)، لأحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي، (دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ).

ولكنْ يبقى أنَّ موقفَ النصارى تجاه هذه المشكلة ضعيف من نواحٍ عديدة، وهي متجذِّرة في معتقدهم نفسه. ولبيانِ ذلك سأستشهدُ بمقال: «كيف يمكن للإله أن يخلق جهنم» (How could God create Hell?) للبروفسور جيري والس[١].

فقد حاول في هذا المقال أن يردَّ على هذه المشكلة، ولكنْ زادَ الطين بلَّة بذكر بعض العقائد النصرانية ذاتِ العلاقة بالمشكلة، وهي المعتقدات الآتية:

المعتقدُ الأوَّل: أنَّ الإله خلق كلَّ شيء، وكلُّ شيء خلقه الله طيب، وخلقه مظهر من مظاهره[٢].

المعتقدُ الثّاني: أنَّ الإله هو المحبّة، وحيث إنَّ المخلوقات مظهر من مظاهر الإله، فهي مظهرٌ من مظاهر محبّته[٣].

المعتقدُ الثّالث: أنَّ الإله يحبّ جميع الناس حتى «أولاده المبعدين»، ولهذا السبب أرسلَ ابنه إليهم ليفدي نفسه من أجل ذنوبهم[٤].

والجمعُ بينَ هذه المعتقدات الثلاثة والإيمان بالعذاب الأبدي في جهنّم؛ متناقضٌ للغاية. وقد تقدَّم أنَّ النصارى يذكرون أنَّ دخول الإنسان في النار عملٌ من أعمال الإله الجزائية، ونابعٌ من قداسته وعدلِه. ولكنَّهم في الوقت ذاته يذكرون أنّ جهنّم مظهر من مظاهرِ محبَّته، وأنَّ الإله يحبُّ جميع الناس، حتى الكفار. فكيف تكون جهنّم مظهرًا من مظاهر محبَّة الإله، وكيف يعذِّب مَن يحبُّه؟ فالعذاب الشديد

---

(١) جيري والس (Jerry Walls): بروفسور الفلسفة الأمريكي والمتخصّص في نقد مشكلة جهنّم. انظر:

God is Great, God is Good (262)

(2) "How Could God Create Hell?" by: Jerry L. Walls, in "God is Great, God is Good" (159), (161)

(٣) انظر: المصدر السابق (١٦١).

(٤) انظر: المصدر السابق (١٦٣).

يتنافى مع المحبة، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]. وقال النبي ﷺ: «... لا والله، لا يلقي اللهُ حبيبَه في النار»[١].

فذكرُ المحبة في سياق العذابِ الشديد الأبدي يعدُّ تناقضًا، ولهذا لا يستغرب أنَّ مشكلة جهنم ظهرتْ في بيئة نصرانية. بينما لا تعدُّ هذه الشبهة مشكلة في ظل المعتقد الإسلامي؛ لأنَّ العذاب أثرٌ من آثار سخط الله وغضبه. بل أخبر اللهُ تعالى أنّ جهنم تتغيَّظ على الكافرين إذ قال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٦ - ٨]. قال ابن قتيبة[٢] (رحمه الله): (تكاد تنشق غيظًا على الكفّار)[٣].

والخلاصةُ أنَّ اللاهوت النصراني أصلُ مشكلة جهنّم، كما أنه أصل مشكلة الشَّر، ولكنَّ بعضَ علماء الغرب أجادوا في الردِّ على هذه المشكلة. ومع ذلك، فلا يمكن الإجابةُ عنها إجابةً شافية وافية إلّا في ظلِّ العقيدة الإسلامية.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٣٤٦٧)، من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٥٣١).

(٢) ابن قتيبة: هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. العلامة الكبير، ذو الفنون. حدث عن: إسحاق بن راهويه، ومحمد بن زياد بن عبيد الله الزيادي. حدث عنه: عبيد الله السكري. من مؤلفاته: مشكل القرآن. توفي عام: ٢٧٦ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٣ / ٢٩٦ - ٣٠٢).

(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن ٨٤ / ١٧٧)، للحسين بن مسعود البغوي، (دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ).

المبحثُ الثّالث

ردودُهم على شبهةِ سلبِ الإرادة

قد تقدَّم في مبحث مشكلة الشَّر أنَّ مِن حِكم وجود الشرور في العالم: أنَّ الله خلقَ هذه الدنيا امتحانًا واختبارًا، وأنَّه لا يتأتَّى هذا إلّا إذا كان للإنسان إرادة للقيام بأعماله وقدرة على فعلها.

ومِن الردود على مشكلةِ جهنم: أنَّ الإنسان قادرٌ على اختيار سبيل الحقّ والرشاد وسبيل الغواية والضلال، وأنه لا يدخل الإنسان جهنم إلّا بسبب اعتقاده أو عمله.

ومِن هنا، يثير الملاحدةُ شبهةَ أخرى تسمى بـ: «سلب الإرادة». وخلاصتها: أنَّ الإنسان ليست لديْه إرادةٌ في الحقيقة، وليس بإمكانه اختيار طريق الحقّ.

وإن كان الملاحدةُ يدَّعون أنهم يستندون في هذه الشبهة إلى فلسفات وبعض العلوم التَّجريبية إلا أنَّ الشبهة في الجدل الإيماني الإلحادي تثار بطريقة عاطفية – كما سيأتي بيانُه –. ولهذا السببِ جعلتُها ضمنَ الشبهات العاطفية. وقسَّمت هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ النقاش عن إرادة الإنسان.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ الملاحدة المعاصرين لشبهة: سلب الإرادة.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: سلب الإرادة.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: سلب الإرادة.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ النقاش عن إرادة الإنسان:

النقاشُ عن إرادة الإنسان استمرَّ منذ أكثر من ألفي سنة بين الفلاسفة واللاهوتيين. ويصعب استيعابُ تعقيد هذه الشبهة إلّا بسرْد تاريخي لهذا النقاش. وحيث إنَّ النقاش قد استمرَّ لهذه الفترة الطويلة، فسأقسِّم هذه الفقرةَ إلى ثلاثة أقسام:

- **القسمُ الأوَّل: الاختلافُ بين الفلاسفة القدماء:**

كان الفلاسفةُ اليونانيون يناقشون قضيةَ إرادة الإنسان في كتبهم ضمن الحديث عن تنميةِ الأخلاق والفضائل؛ فكان أفلاطون يناقش هذه القضية في الجزء الرابع من كتابه: «الجمهورية» (Πολιτεία)، إذْ كان يفترض وجودَ جوانب عقلانية وحيوية وشهية للروح البشرية. ورأى أنَّه مادام الإنسانُ مكوَّنًا من روح وجسد، فإنّه قادر على السيطرة على أعماله وتنمية أخلاقه[1].

وتبعَه على ذلك أرسطو حيث ناقش قضيةَ تنمية الأخلاق في الجزء الثالث من كتابه: «الأخلاق النيقوماخية» (Ἠθικὰ Νικομάχεια)، وبيّن أنَّ الإنسانَ يختلف عن الكائنات غيرِ العقلانية بحيث إنَّه يستطيع أن يفرِّق أن يفعل أو ألا يفعل[2]. والخلاصة أنَّ أفلاطون وأرسطو قد أثبتا إرادة للإنسان.

وأمّا الرواقيون والأبيقوريون فقدِ اعتقدوا أنَّ جميعَ الأشياء العادية، بما فيها الأرواح البشرية: مادية، وتحكمُها قوانينُ أو مبادئ طبيعية. واعتقد الرواقيون أن جميع الخيارات والسلوكياتِ البشريةَ يتمُّ تحديدها سببيًّا، لكنهم رأوا أنَّ هذا يتوافق مع كون مسئولية أفعالنا راجعةً إلينا. فجمَعوا بين القول بالحتمية في العالم الفيزيائي وإثبات إرادة للإنسان غير حتمية.

---

(١) انظر النسخة المترجمة إلى اللغة الإنجليزية: The Republic IV وهي منشورة على هذا الرابط: https://www.sparknotes.com/philosophy/republic/full-text/book-iv/

(٢) انظر النسخة المترجمة إلى اللغة الإنجليزية: Nicomachean Ethics III, وهي منشورة على الرابط: iii.html.٣.http: / /classics.mit.edu /Aristotle /nicomachaen

وكان لدى أبيقور وأتباعِه تصوّرٌ ميكانيكي للفعل الجسدي لدى الإنسان أكثر من الرُّواقيين. فرأوا أنَّ جميع الأشياء - بما في ذلك الروح البشرية - تتكوَّن من الذرات، وأنَّ هذه الذرّات محكومةٌ بقانون محدَّد، ولكنَّهم رفضوا الحتمية بافتراض أن الذرات - على الرّغم من خضوعها للقانون - عرضةٌ لانحرافات طفيفة أو انحرافات عن المسارات المعتادة(١).

ويلاحَظ هنا العلاقة بين كوْن الرّواقيين والإيبيقوريين يتبنّون مذهبًا قريبًا من المذهب المادي، وأنَّ ذلك أثَّر في موقفهم من إرادة الإنسان. وذلك مع أنهم لم ينكروا إرادةَ الإنسان كما فعل الملاحدة الماديون المعاصرون.

- **القسمُ الثّاني: الاختلافُ بين فرق النَّصارى:**

قد وقع اختلافٌ بين النصارى في قضية إرادة الإنسان أيضًا؛ فقد ذكر بعضُ الباحثين أنّهم اختلفوا فيها على أربعة أقوال:

القولُ الأوَّل: الحتمية (Determinism) التقدير بدون حرية: وهُم يرون أنّه ليس للإنسان إرادةٌ أصلًا، وأنَّ كلَّ شيء يرجع إلى مشيئة الإله.

القولُ الثّاني: التوافقية (Compatibilism) الحرية ضمن التقدير: وهُم يرون أنَّ الإنسانَ لديه إرادة، ولكنَّ هذه الحرية مقيّدة بأحداث سابقة، والإله يقدّر له الطرق التي يمكن أن يختارَ بينها، ولهذا كانت اختياراته مقيّدة بفعل بعض الأشياء فقط.

القولُ الثّالث: المنافسة (Concurrence) التقدير ضمن الحرية: وهذا القول قريبٌ من السّابق، إلا أنَّهم يركّزون على مسئولية الإنسان أكثر على أعماله من المذهب الثاني.

القولُ الرّابع: الليبرتارية (Libertarianism) الحرية بدون تقدير: وأتباعُ هذا المذهب يروْن أنَّ الإنسان له إرادةٌ حرَّة بدون أي قيود، وأنَّ إرادة الإنسان ليست خاضعة لمشيئة الله(٢).

---

(١) انظر المقال: Free Will في موسوعة ستانفورد للفلسفة على الرابط:
https://plato.stanford.edu/entries/freewill/

(٢) انظر المقال: ٤ Views of Free Will على الرابط:
https://www.christianpost.com/voices/4-views-of-free-will.html

وينبغي التنبيهُ على أنَّ اللاهوتيين من الفرق النصرانية المختلفة يتبنون هذه الآراءَ في مسألةِ إرادة الإنسان، ولكن حسبَ التتبع والاستقراء فإنَّ أغلبهم يتبنون القولَ الثاني والثالث، وأنَّ القول الأوّل الرابع شاذان.

فخلاصةُ المسألة أنَّ النصارى يختلفون في إرادة الإنسان، وأغلبهم يثبتونها، ويرون أنَّ هذه الإرادة تحتَ تقدير الله، ولكنَّهم يختلفون في مدى حرية إرادة الإنسان، ويستخدمونَ في ذلك أقوالًا مجملة ليست منقولة من الوحي المعصوم.

- **القسمُ الثّالث: الاختلافُ بين الفلاسفة المعاصرين:**

يحدِّد المؤرّخون أنَّ رينيه ديكارت مؤسِّسَ الفلسفة الحديثة - كما سبق ذكره مرارًا -، وكان ديكارت من روَّاد الفلسفة العقلانية المنتشرة في القارة الأوروبية. وكانت فلسفة "ثنائية العقل والجسد" (Mind – Body Dualism) من أشهر الأفكار الفلسفية لديكارت. وخلاصةُ هذه الفلسفة أنَّ الإنسان مكوَّن من الجسد المادي والعقل غير المادي. ورأى أنَّ المادة حتمية، بينما العقل حرٌّ، وغير مقيّد بالحتمية[1].

عارَض الفيلسوف البريطاني توماس هوبز الفلسفة الثنائية لديكارت وتبنّى الفلسفة المادية - القائلة بأنَّ الإنسان مكوّن من الجسد المادي فقط -. وكان يرى أنَّ الحرية في الحقيقة هي عدمُ وجود معوِّقات للعمل. وعليه، فإنَّ للأعمال الاختيارية والإرادة الحرَّة أسبابًا ضرورية تسبقها، فتكون حتمية[2].

وتقوَّى القولُ بالحتمية معَ اكتشافات نيوتن، فرأى أتباع المذهب الحسّي أنه يمكن توقُّعُ حركات جميع الأشياء بناءً على العلم بنقطةِ انطلاقها، وسرعتها والقوى بينها. فاعتقدوا أنَّ القوى التي تتحكَّم في الأجرام السماوية تتحكّم في جميع الأشياء الأخرى،

---

(١) انظر: The History of the Free Will Problem, Chapter 7 (84), by: Bob Dyele والكتاب إليكتروني ومنشور على الرابط:

https://www.informationphilosopher.com/books/scandal/History.pdf

(٢) انظر: المصدر السابق.

بما في ذلك أذهاننا[١]. وهذا ما يُعرَف في الفيزياء بالحتمية السببية، وهي الفكرة القائلة بأنَّ كلَّ حدثٍ تقتضيه أحداثٌ وظروف سابقة جنبًا إلى جنب مع قوانين الطبيعة[٢].

وحيث إنَّ هذه الفكرة تقوَّت مع فيزياء نيوتن، فإنّها أثّرت في نظرة العلماء والفلاسفة إلى إرادة الإنسان. فإذا كان كلُّ حدثٍ مسبوقًا بأحداث أخرى وفق قوانين الطبيعة، ولا يمكن أن يتَّخذ مسارًا آخر؛ فإنَّ إرادة الإنسان من ضمن هذه الأحداث. وعليه، فإنَّ إرادة الإنسان حتميَّة كذلك. وذكر البروفسور مارك بالاغوير[٣] أنّ الحتمية في الفيزياء هي الحجةُ المركزية للقول بالحتمية في إرادة الإنسان[٤].

ولكنْ تغيَّر ذلك مع الفيلسوف المشكِّك ديفيد هيوم، حيث قرّر أنّ العلم بمبدأ السببيَّة ليس بديهيًّا، وإنما يُعرف عن طريق الحسّ - كما سبق ذكرُه -، وحيث إنَّ الحتمية السَّببية مبنيَّة على القول بمبدأ السببية أثّر ذلك في موقفه من الإرادة الحرّة[٥].

فحاولَ هيوم التوفيقَ بين القول بالإرادة الحرّة ووجود الحتمية في الفيزياء، وهو ما عُرِف في الفلسفة بالتوافقية (Compatibilism). فكيف جمع هيوم بينهما؟ ذكر أنه إذا كانت قراراتُك وأفعالك ناتجةً بشكل عام عن رغباتك، فتكون لديك إرادة حرة. بمعنى: أنَّ الرغبة سبب في القرارات والأفعال، ولكن هذه الرغبة نفسها ضمن

---

(١) انظر المصدر السابق (٨٥).

(٢) انظر المقال: Causal Determinism في موسوعة ستانفورد للفلسفة على الرابط:
https://plato.stanford.edu/entries/determinism-causal/

(٣) مارك بالاغوير (Mark Balaguer): بروفسور الفلسفة في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتَّحدة، وهو متخصِّص في فلسفة الإرادة الحرّة. انظر:
https://www.calstatela.edu/faculty/mark-balaguer

(٤) انظر:
Free Will (11), by: Mark Balaguer, (The MIT Press, 2014)

(٥) انظر:
The History of the Free Will Problem, Chapter 7 (86)

الحتمية. والإنسانُ لا يستطيع أن يتحكَّم في هذه الحتمية. فالخلاصة أنَّ الإنسان ليست لديه إرادة حرَّة، وإنما أعادَ هيوم تعريف الإرادة الحرّة بالعمل وفق الرغبات[١].

وجاءَ الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت بعدَ هيوم وانتقد هذا الرأي بقوّة، واعتبره مجرَّد تلاعب بالكلمات[٢]. واقترح رأيًا آخر بأن تمتلك قراراتنا على الأقل تضمينات أخلاقيَّة خارج السببية، وتقع خارجَ القوانين التي تحكم الأشياء المادية[٣].

وهكذا تخبَّط الفلاسفة في هذه المسألة، وانتقد الأوّلُ الآخرَ، ولم يستقرّوا على قولٍ مِن الأقوال، بل تعدَّدت أقوالهم واختلفت مذاهبهم واضطربت مواقفهم. وذكر الدكتور بوب دايل[٤] أنَّ بعدَ عصر إسحاق نيوتن وإيمانويل كانت لم يقدّم أحدُ الفلاسفة أفكارًا جوهريَّة جديدة، ولكنَّه أشارَ إلى تقدُّمات جديدة في العلوم الأخرى بخصوص هذه المسألة[٥].

فما هي العلومُ المؤثّرة في مواقف الفلاسفة والعلماء من الإرادة الحرّة؟

العلومُ المؤثِّرة في مواقف الناس من الإرادة الحرَّة:

أكثرُ العلوم تأثيرًا في مواقف العلماء والفلاسفة من إرادة الإنسان هي: فيزياء الكم، وعلم الوراثة، وعلم الأعصاب، وعلم النفس. وبيانُ ذلك كالآتي:

العلمُ الأوَّل: فيزياءُ الكم: سبقَ في المبحث المخصّص بميكانيكا الكم أنَّ علماءَ هذا العلم اختلفوا اختلافًا كبيرًا في تفسير الظواهر الغريبة في العالم دون الذرّي. ومن

---

(١) انظر: Free Will (46 - 48)

(٢) انظر: المصدر السابق (٥٤).

(٣) انظر: The History of the Free Will Problem, Chapter V (86)

(٤) بوب دايل (Bob Doyle): حامل شهادة الدكتور في الفيزياء الفلكية في جامعة هارفارد ومهتمّ بالفلسفة عمومًا، ولا سيَّما فلسفة الإرادة الحرّة. انظر:
https://www.informationphilosopher.com/about/

(٥) انظر: المصدر السابق (٩٢).

أشهرِ التفسيرات في هذا العلم: تفسير كوبنهاغن، الذي جعل العلماء يشكّكون في الحتميَّة في الفيزياء[1]. وقد سبقَ بيانُ الارتباط بين القول بالحتمية السببية في الفيزياء والحتميَّة في إرادة الإنسان في هذا المبحث. فكانت الاكتشافاتُ في هذا العلم من أسباب قول بعض العلماء بالإرادة الحرّة.

العلمُ الثّاني: علمُ الأحياء الجزيئي: رأى بعضُ القائلين بعدم وجود إرادة حرّة أنَّ الحتميةَ المزعومة في الفيزياء تنطبقُ على علم الأحياء الجزيئي كذلك، وشبّهوا الإنسانَ بآلةٍ بيولوجية[2].

العلمُ الثّالث: علمُ الأعصاب: الماديون ينكرونَ كلَّ شيء غير مادي. وعليه، فإنَّهم يحصرون العقلَ والتفكير في عمليات بيوكيميائية في داخل الدماغ - كما سبق ذكرُه مرارًا -. وقد أجرى علماءُ الأعصاب بعض التجارب المتعلّقة بإرادة الإنسان. ومن أشهرِ هذه التجارب: «تجربة ليبيت» (Libet experiment) نسبة إلى البروفسور بنيامين ليبيت[3].

وخلاصةُ هذه التجربة أنَّه تمَّ ربطُ متطوّعين بأجهزة قياس موجات الدماغ. وطلب البروفسور ليبيت منهم إصدارَ حركة في وقت محدَّد. وتمَّ خلال هذه التجارب رصدُ إشاراتٍ عصبية قبلَ الوعي بالقرار. فاستنتجَ ليبيت أنَّ القرارات التي يتّخذها الإنسان يجري اتِّخاذها في الدماغ قبلَ أن يكون الإنسان على وعي بها[4]. واختلف العلماءُ في

---

(١) انظر:
Free Will: A Very Short Introduction (15), by: Thomas Pink, (Oxford University Press, 2004)

(2) The Grand Design (32)

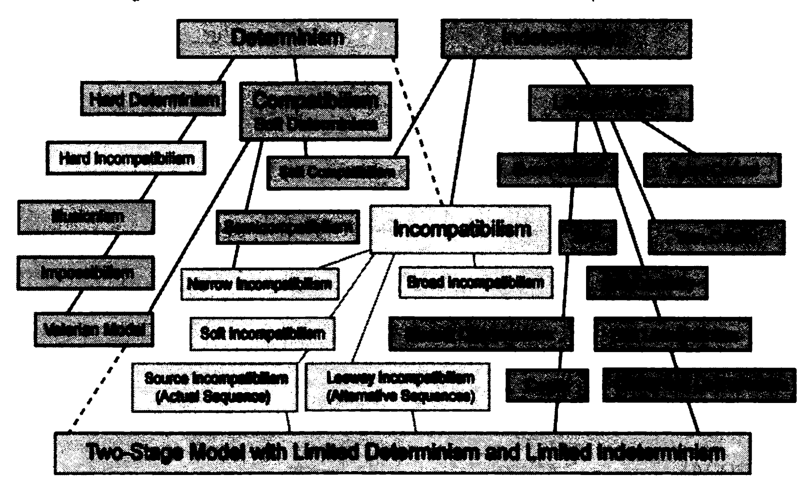
(٣) بنيامين ليبيت (Benjamin Libet): بروفسور علم وظائف الأعضاء في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتَّحدة، ومتخصِّص في مجال الوعي الإنساني. توفي عام ٢٠٠٧م. انظر:
Https://rauterberg.employee.id.tue.nl/lecturenotes/DGB01%20ADD/libet.htm

(٤) بحثه منشور في: Brain, Vol. 106، Issue 3، September 1983، Pages 623 - 642،

تفسيرِ هذه التجارب في إطار الإرادة الحرَّة، ولكن استدلَّ سام هاريس بهذه التجربة على إنكارها - كما سيأتي ذكره بالتفصيل -.

العلمُ الرّابع: علمُ النَّفس: اللاوعي من أشهر المصطلحات في علم النفس وقد عرَّفته موسوعة بريتانيكا بأنَّه: «مجمع الأنشطة العقلية داخل الفرد التي تستمرُّ دونَ وعْيِه»(١). وهذا النوعُ من الوعي يحيط به الكثيرُ من الغموض، ولكن استدلَّ سام هاريس بوجود اللاوعي على إنكار الإرادة الحرّة(٢).

وبسببِ هذه الاختلافات بينَ اللاهوتيين والفلاسفة والتفسيرات المتعارضة للعلوم التَّجريبية اختلفَ المتخصِّصون في إرادة الإنسان على أقوال كثيرة جدًّا. وقد قسَّم الدكتور بوب دويل هذه الأقوالَ إلى قولَيْن رئيسين: القولُ بالحتمية والقول بعدم الحتمية، ثمَّ جعل تحتَ كلِّ قسمٍ أكثر من عشرة أقوال، وبعض الأقوال الحتمية تداخلت مع الأقوال غيرَ الحتمية للقرب بينها. ورسم خريطة للأقوال المتضاربة على النحو الآتي(٣):



(١) انظر المقال: Unconscious في موسوعة بريتانيكا على الرابط:

https://www.britannica.com/science/unconscious

(٢) انظر: (16 - 19) Free Will

(٣) انظر المقال: History of the Free Will Problem, وهو موجود على الرابط:

https://informationphilosopher.com/freedom/history/

فهذا كلُّه يدلُّ على العلماء والفلاسفة لم يتَّفقوا على رأي واحد في هذه المسألة، بل يدلُّ على أنه لا يمكن الإنسانُ أن يهتدي في حقيقة إرادة الإنسان إلا عن طريق الوحي المنزَّل. وأمّا الفلسفاتُ والعلوم التجريبية فلم تحسم القول في هذه القضية المهمّة.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ الملاحدة لشبهة: سلب الإرادة:

اختلفَ اللاهوتيون والفلاسفة والمتخصِّصون في العلوم التجريبية اختلافًا كبيرًا في إرادة الإنسان - كما تقدَّم -. ولكنْ كعادةِ دعاة الإلحاد الجديد، فإنّهم يسطّحون العلومَ للجماهير، ويصوِّرون القضايا العميقة بطريقة ساذجة. وقد تولّى سام هاريس كبْرَ هذه المهمَّة في كتابه: «الإرادة الحرّة» (Free Will). وقد ابتدأ كتابه بقوله: «تمس مسألة الإرادة الحرَّة كلَّ شيء نهتمُّ به تقريبًا: الأخلاق، والقانون، والسياسة، **والدين**، والشئون العامة، والعلاقات الحميمة، ومشاعر الذنب، والإنجاز الشخصي. ويبدو أن معظم ما هو إنساني واضح في حياتنا يعتمدُ على رؤيتنا لبعضنا البعض كأشخاص مُستقلين، وقادرين على الاختيار الحرّ»[١].

فبيَّن أنَّ الموقف الذي يتَّخذه الإنسان في هذه القضية له أبعاد كبيرة، من ذلك ما يتعلَّق بالدين مباشرة. ويدخُل في ذلك أيضًا ما له علاقة بالدين ضمنًا مثل: الأخلاق، والسياسة، وعقوبة المجرمين.

كما أنه ذكرَ في موطنٍ آخر من كتابه أنَّ هذه المسألة تمسّ عقوبة العصاة في جهنم وفقَ المنظور الديني؛ فقال: «في إطار ديني، يدعم الإيمان بالإرادة الحرة فكرة الخطيئة، التي يبدو أنها لا تبرّر العقوبة القاسية في هذه الحياة فحسب، ولكنَّ العقابَ الأبدي في الحياة التالية أيضًا»[٢].

واستمرَّ في بداية كتابه بقوله: «**لو أعلن المجتمعُ العلمي** أنَّ الإرادة الحرة مجرَّد وهْم، فسيؤدي ذلك إلى نشوبِ حربٍ ثقافية أكثر عدوانية بكثير من تلك

---

(1) Free Will (13)

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٩).

التي تمَّ خوضُها في موضوع نظرية التطور. بدون الإرادة الحرة، لن يكون المذنبون والمجرمون أكثر مِن ساعة مُعايرة بشكلٍ سيّئ، وأيُّ تصور للعدالة يؤكد على معاقبتهم بدلًا من ردعهم أو إعادةِ تأهيلهم أو احتوائهم فقط فسيبدو متناقضًا تمامًا»[١].

وتكلَّم عن المجتمع العلمي كأنه كيانٌ واحد، ويتكلّم بصوت واحد، متجاهلًا العلوم والفلسفاتِ المتداخلة في هذه القضية العميقة. ثمَّ أعلن رأيه بوضوح في هذه القضية كأنه حقيقةٌ قطعية؛ فقال: «الإرادةُ الحرَّة مجرَّد وهْم. إرادتنا ببساطةٍ ليست من صنعنا. تنبثق الأفكارُ والنوايا من أسبابٍ مُسبقة لا ندركها، ولا نمارس عليها أي سيطرة واعية. ليس لديْنا الحرية التي نعتقد أنَّنا نمتلكها»[٢]. فتكلَّم عن مسألة عدم حرية الإرادة بصيغة الجزْم. واستدلَّ على ذلك ببعض نتائج العلم التجريبي كما سبق ذكره.

وإذا كان سام هاريس رائدَ الملاحدة في إنكار الإرادة الحرّة وقد أثار هذه الشبهة، فثمَّة ملاحدة غيره على هذه الطريق يسيرون.

ومِن الأمثلة على ذلك أنَّ البروفسور أليكس ريوسينبيرغ قرّر هذا القول بقوّة في كتابِه: «دليل الملحد إلى الواقع: الاستمتاع بالحياة بدون أوهام» (The Atheist's Guide to Reality: Enjoying Life without Illusions)[٣]. وروسينبريغ بروفسور في الفلسفة، وخصَّص هذا الكتابَ لتقرير المذهب الإلحادي ولوازمه. وتوصَّل إلى أنَّ إنكار حرية الإرادة من لوازم الإلحاد المادي.

ولكنْ لم يوافق جميعُ الملاحدة الجدد على القول بإنكار الإرادة الحرّة؛ فقد ذهبَ دانيال دينيت إلى مذهب التوافقية في كتابه: «تطوّر الحرية» (Freedom Evolves). وحاول فيه التوافقَ بين القول بالحتمية المطلقة في الفيزياء، وأنّه قد تطوَّرت إرادة لدى الإنسان يمكن الاختيارُ بها. وهو قولٌ ردَّ عليه سام هاريس بقوة في

(١) انظر: المصدر السابق (١٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٥).

(٣) انظر: The Atheist's Guide to Reality: Enjoying Life without Illusions (2 - 3)

كتابه: حرية الإرادة[1]. ولكن سبقَ بيانُ أنَّ مذهب التوافقية الذي اخترعه الفيلسوف ديفيد هيوم مجرّد تلاعب بالكلمات. فالتوافقي يحاول التوفيقَ بين القول بالإرادة الحرّة والحتمية في الفيزياء، ولكنّه في نهاية الأمر ينكر أنَّ لدى الإنسان إرادة حرّة.

وبقيةُ الملاحدة الجدد تخبَّطوا في هذه المسألة، ولم يتصوّروها جيّدًا. ومن الشواهد على ذلك أنه عُقِدت جلسةٌ مع ريتشارد دوكينز ولوارنس كرواس، سُئل فيها دوكينز: «هلْ للإنسان إرادة حرّة؟» فأجابَ بأنه سؤال يرهبه، لأنّه ليس لديه تصوّر واضح فيه، ولكنَّه يتبنَّى القول بالحتمية في الفيزياء. وهذا يجعله يميلُ إلى القول بأنَّ من اعتقد أن لديْه إرادة حرّة فإنَّه يوهم نفسه بذلك. ثمَّ قال إنَّ القول بالحتمية يناقض **الشعورَ الذاتي القوي جدًّا بوجودِ الإرادة الحرّة**، فأوصى بقراءة كتاب دينيت في المسألة.

فتدخَّل لوارنس كرواس، وقال: إنه يمكن الاطلاعُ على كتاب هاريس لفهم هذه المسألة[2]، وذكر أنَّ العالَم يشير إلى وجودِ حتمية مطلقة، ولكننا نتعامل وكأنه لدينا إرادةٌ حرّة، وفي نهايةِ الأمر ذكر أنّه يرجع إلى الفلاسفة أن يبيِّنوا الموقفَ الصحيح في المسألة[3].

فمِن الواضح أنَّ دوكينز وكراوس - وهمَا من أعلام الإلحاد الجديد - لم يفهما هذه المسألةَ العميقة، والخلاف الواسع بين الفلاسفة والمتخصّصين في تحديد حرية الإرادة.

وخلاصةُ المسألة أنَّ الإلحاد المادي يقتضي القولَ بإنكار الإرادة الحرّة، وقد استغلَّ داعيةُ الإلحاد الجديد سام هاريس هذه المسألة لإثارتها كشبهة متعلّقة ضمنيًّا بمشكلة الشرِّ ومشكلة جهنّم. وذلك بناءً على أنَّ مِن أبرز دفاع علماء الغرب عن وجود الشرِّ في العالم، ومعاقبة الإله للعُصاة في جهنم: أنَّ الإنسان لديه إرادة حرّة.

---

(١) انظر: Free Will (20 - 23)

(٢) فكأنه لم يفهم أنَّ هاريس نفسه لم يوافق دينيت، بل هاجمه في كتابه، وإن كان مؤدّى القولين في نهاية الأمر واحدًا.

(٣) انظر الجلسة: Free Will – Lawrence Krauss and Richard Dawkins على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=anBxaOcZnGk

وعليه، فإنَّ هذه المسألة مُرتبطة بالمبحثين السابقين في هذا الفصل. وهاريس نفسه يثير هذه الشبهةَ بطريقة عاطفية - كما سبقَ بيانُه -، وإنْ كان يستند إلى بعض التجارب العلمية.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماءِ الغربِ على شبهة: سلب الإرادة:

مسألةُ إرادة الإنسان عميقةٌ ومتشعِّبة، وقد سبق أنَّ الخلافَ فيها بين الفلاسفة استمرَّ أكثرَ من ألفي سنة، وأنه يوجَد عشرات الأقوال فيها. وقد اهتمَّ عددٌ من علماء الغرب بنقدِ كلام الملاحدة القائلين بأنَّ الإرادة الحرّة مجرَّد وهْم. وسألخّص كلامهم من سبعةِ أوجه:

- **الوجهُ الأوَّل: تحديدُ المراد بالإرادة الحرّة:**

ابتدأ سام هاريس كتابَه بذكر خطورة مسألة: الإرادة الحرّة وتأثيرها في الدين والسياسة والأخلاق، ثمَّ ذكر أنَّ الإرادة الحرّة وهم، واستشهد بعددٍ من الدراسات العلمية على موقفِه، ولكنَّه لم يعرِّف الإرادة الحرّة بتعريف جامع مانع. وعندما سئل دوكينز وكراوس عن الإرادة الحرَّة تخبَّطَا تخبطًا عجيبًا في هذه القضية، ولكنهما لم يعرّفا مقصودَهما بالإرادة الحرَّة أوّلًا. وسبق أنَّ الفيلسوف ديفيد هيوم عرّف الإرادة الحرّة بأنها: العملُ وفقَ الرغبات، مع أنَّ الرغبات حتمية. وهذا الاضطراب عند منكري الإرادة الحرّة في التعريفات من أكبرِ أسباب الخطأ في هذه المسألة.

وقدِ انتقدهم البروفسور مارك بالاغوير بسبب هذا الصنيع، وخصّص عشراتِ الصَّفحات من كتابِه عن الإرادة الحرّة في ذكر أرجح التعريفات في المسألة.

وخلاصةُ ما ذكره أنه يجب التفريقُ بين تعريف الفيلسوف هيوم للإرادة الحرّة الذي هو العملُ وفقَ الرغبات، وبين "الإرادة الحرّة غير الحتمية" (Not – predetermined free will). وفرَّق بين الإرادتين بذكر أربع نقاط:

النقطةُ الأولى: تعريفُ هيوم للإرادة الحرّة متوافق مع الحتمية؛ فلا شكَّ أنّه يمكن الجمعُ بين القول بأنَّ الإنسان يعمل وفقَ رغباته، وأنَّ الرغبات نفسها حتمية.

النقطةُ الثّانية: الإرادةُ الحرّة غيرُ الحتمية ليست متوافقةً مع الحتمية في الفيزياء كما هو واضحٌ من اسمها. وسيأتي تعريفه لاحقًا.

النقطةُ الثّالثة: لا خلافَ بين الفلاسفة في كوْن الإنسان لديه إرادةٌ حرَّة بمفهوم هيوم. وكلُّ أحدٍ أكل كعكة مثلًا يعلم أنه فعل ذلك بسبب الرغبة.

النقطةُ الرّابعة: يوجد خلافٌ كبير بين الفلاسفة والعلماء في وجود الإرادة الحرَّة غير الحتمية، أو عدم وجودها[1].

ومثالٌ يوضِّح ما تقدّم هو أنَّ الحيوان يعمل وفق رغباته، فالأسد يفترس الغزال إذا جاع. ولكن، هل يُقال: إنَّ الأسد لديه إرادةٌ حرّة في التصرّف مثل الإنسان؟ هذا هو محلُّ الخلاف في هذه المسألة.

واصلَ البروفسور مارك بالاغوير بعدَ ذلك في توضيح النوع الثاني من الإرادة، وهي الاختيارُ عند القرار الممزَّق (Torn decision). وفسَّر القرار الممزَّق بأنه: قرار مدروس حيث يكون لديْك خيارات متعددة وأنتَ ممزَّق بشأن الخيار الأفضل. يعني، لديك خياراتٌ متعددة تبدو لك أكثرَ أو أقل تقييدًا للأفضل، بحيث تشعر أنك غير متأكِّد تمامًا - أو ممزقٌ تمامًا - بشأن ما يجبُ عليك فعله. وأنت تقرّر وأنت تشعر بهذا التمزُّق[2].

وذكرَ أنه لا بدَّ أن يتوفّر في الإرادة الحرّة غيرِ الحتمية شرطان من أجل تمييزها عن الإرادة الحرّة وفقَ تعريف هيوم، وهما:

الشرطُ الأوَّل: أنا الذي أختار هذا الأمر.

الشرطُ الثّاني: أنَّ هذا الخيار لم يحصل بناءً على أسباب حتمية أخرى[3].

---

(١) انظر: Free Will (50 - 52)

(٢) انظر: المصدر السابق (٦٣).

(٣) انظر: المصدر السابق (٧٥ – ٧٦).

هذا الكلامُ الذي ذكره البروفسور مارك بالاغوير جيّدٌ في الردِّ على تخبّطات مُنكري الإرادة الحرّة، وأنَّ هذا التخبّط من أسباب حصول الخلط في هذه المسألة. ولكن يبدو في الوقت نفسه أنّه يُبالغ في تعريفه للإرادة الحرّة. فهناك أنواعٌ من الإرادات بين تعريفه وبينَ تعريف هيوم التي يمكن أن توصف بأنّها إرادات حرّة. فالإنسان قد يتصرّف بطريقة واعيةٍ ومدركة بدون الشعور بالتمزُّق بدون توفّر الشرط الثاني تمامًا.

ويمكن ضربُ مثالين لتوضيح هذا الأمر:

المثالُ الأوَّل: شخصٌ يجلس على كرسي ويقرأ كتابًا، ويشعر بالجوع فيمدُّ يده إلى المكسّرات بجانبه ويأكلها لاشعوريًّا. في هذا المثال: الرجل قد عمل وفق الإرادة الحرّة عندَ هيوم.

المثالُ الثّاني: الشخصُ نفسه يجلس ويقرأ كتابه، ولا يشعر بالجوع، ولكنه بدأ يفكِّر: هل يخرج من البيت إلى المطعم للأكل أو يبقى في البيت للقراءة؟ فبدأ يشعر بحيرةٍ وتمزُّق في الاختيار، وفي نهايةِ الأمر خرجَ من بيته إلى المطعم لكي يأكل، وهو مازال متردِّدًا حتى يصل إلى المطعم نفسه. في هذا المثال قد عمل بالإرادة الحرّة وفقَ تعريف البروفسور بالاغوير.

ولكنْ لا شكَّ أنه يوجَد أنواعٌ كثيرة من الإرادات بين هذين المثالين. فقد يجلس شخصٌ لقراءة كتابه ويشعر بالجوع، فيتَّخذ القرار بالخروج إلى المطعم للأكل بدون شعورٍ بالتمزُّق والحيرة. وكوْنه شعرَ بالجوع يتنافى مع الشرط الثاني من شروط البروفسور بالاغوير؛ لأنَّ الجوع من الأسباب المسبقة لاتِّخاذه هذا القرار. ومع ذلك، فيقال إنّ هذا الإنسانَ اتّخذ قرارًا واعيًا بعيدًا عن كوْنه لاشعوريًّا بالذهاب إلى المطعم للأكل.

ومعَ ذلك، فإننا نستفيدُ من ردِّ البروفسور بالاغوير على منكري الإرادة الحرّة أنهم تلاعبوا في قضية التعريف. ولهذا قد يسردون عددًا من الأمثلة والتجارب العلمية على حصولِ تصرُّفات غيرِ واعية للإنسان. وتكون هذه الأمثلة والتجارب كلّها خارجة عن محلِّ الخلاف أصلًا. فالخلافُ ليس في حصول تصرُّفات غير واعية أو لا، لأنّ كلّنا نعلم ذلك، ولكنَّ الخلاف في كوْن الإنسان يتصرَّف بتصرُّفات واعية،

ويكون لديه خيار أنْ يفعلَ أو ألا يفعل. وهل هذا الأمرُ حاصل؟ لا شكَّ في ذلك، إذن تسقط شبهة سام هاريس من أصلها.

فهاريس أثارَ مسألةَ سلبِ الإرادة كشبهة متعلِّقة بعقوبة الله للعصاة. ولو ضربنا مثالًا على ذلك بالزاني. فالزاني يعمل وفقَ شهوته، وقد يكون هناك أسباب كثيرة في كوْنه يريد أن يزني بامرأةٍ معينة. ولكنَّ هذه الشهوة وهذه الأسباب كلها لا تسقط عنه التَّكليف، بل لديه خيار أنْ يزني وألَّا يزني. وكثيرٌ من الناس لديهم هذه الشهوة وأسبابٌ داعية للزنا، ومعَ ذلك يمتنعون عن الزنا. فبتوضيح هذا اللبس، وبذكر أمثلة على وجود تصرُّفات واعية لدى الإنسان؛ فإنَّ هذه الشبهة تسقط من أصلها.

- **الوجهُ الثّاني: إنكارُ حريةِ الإرادة يستند إلى المذهب المادي الباطل:**

سبقَ ذكرُ تاريخ شبهة سلبِ الإرادة، وأنَّ هذه الشبهة ارتبطت مع المذهب المادي ارتباطًا وثيقًا. وقد ركَّز كيل بوت[1] على هذه المسألة في مقاله بعنوان: «الإلحاد والإرادة الحرَّة» (Atheism and Free Will).

بدأ المقالُ بذكر حقيقةِ المذهب المادي، وأنَّ الملاحدة يختزلون الوجود في المادة والطاقة فقط، وينكرون كلَّ شيء غير مادي. وبناء على ذلك، فإنّهم يعتقدون أنَّ الحالاتِ والعمليات العقلية هي حالاتٌ وعمليات فيزيائية محْضة. ونقل قول البروفسور الملحِد ريتشارد ليفوتين[2] أنَّه قال عن التطوّريين أنّه لديهم «التزام مبدئي للمذهب الطبيعي... وعليه، فإنَّ المذهب المادي عندهم ثابت»[3].

---

(١) كيل بوت (Kyle Butt): عالم دين نصراني ومتخصّص في الدفاع عن النصرانية، وقد ألّف وشارك في تأليف ٣٥ كتابًا. انظر: http://www.apologeticspress.org/kb.aspx

(٢) ريتشارد ليفوتين (Richard Lewontin): بروفسور علم الحيوان في متحف علم الحيوان المقارن بجامعة هارفارد بالولايات المتَّحدة. انظر:
https://mcz.harvard.edu/people/richard-lewontin

(3) "Billions and Billions of Demons", in The New York Review of Books, 44 (1): 31, January 9. By: Richard Lewontin.

ثمَّ واصل كيل بوت ردَّه على الملاحدة في هذه المسألة بقوله: «ما هي المضامينُ المنطقيَّة لفكرة: أنَّ كلَّ شيء في الكون يتكوّن من المادة والطاقة فقط؟ للوهلة الأولى، قدْ لا تبدو الفكرةُ المادية عميقة جدًّا أو محطّمة للأرض، لكن التحقيق الأعمق في المفهوم يكشف أنَّ بعض الجوانب الأساسية للإنسانية معرّضة للخطر. في هذا المقال، نركِّز على سمةٍ واحدة للإنسانية يجب إنكارُها إذا تمَّ قبول المادية: الإرادة البشرية الحرة. كما ترى، إذا كانت المادةُ والطاقة كلَّ ما هو موجود «بالفعل»، فيجب رفض الفكرة القائلة بأنَّ هناك إرادةً بشرية توجِّه عملية صنع القرار. باختصار، إذا كنت أنت كشخصٍ قد اتَّخذت قرارًا حقيقيًّا واحدًا؛ إذا كنت قد اخترتَ بحريةٍ القيامَ بأي شيء أو عدمَ القيام به، فلا يمكن أن يكون الإلحاد حقيقيًّا. هذا هو الحالُ لأن قرارك سيكون نتيجةً لشيء «أكثر من» المادة. لا يمكن تفسيرُه بسلسلة «السبب والنتيجة» الطبيعية للأحداثِ الكيميائية. إذا كان هناك «أنت» داخلَ جسدك تختار هذا بحرية أو ترفض ذلك، فإنَّ الفهم المادي للكون خاطئ»[1].

والشعورُ بالإرادة الحرَّة شعورٌ فطري يجده الإنسان في نفسه ضرورة[2]، واعترف دوكينز بأنَّ التزامه بالمذهب المادي والقول بالحتمية يناقض الشعور الذاتي القوّي جدًّا بأنَّ لدينا إرادة حرَّة. فالملحدُ يعيش في صراع داخلي بين التزامه بالمذهب المادي الباطل، وبينَ هذا الشعور الفطري.

وخلاصةُ هذا الوجه أنَّ تبنِّي الملاحدة القول بالمذهب المادي هو التزام مبدئي أوّلي، والقولُ بوجود الإرادة الحرَّة يُناقض المذهب المادي. فلو أمكن بيانُ أنَّ العقل غير محصور في الدماغ وأنَّه غير مادي؛ فإنَّه يبطل الإلحاد المادي من أساسه؛ فيستنبط إنكارهم بالإرادة الحرَّة. وهذا يقودنا إلى الوجه الثالث.

---

(١) المقال: Atheism and Free Will, وهو منشور على الرابط:
http://apologeticspress.org/apPubPage.aspx?pub=1&issue=1228

(٢) انظر: شموع النهار (٧٩).

- **الوجهُ الثّالث: العقلُ غيرُ محصور في الدماغ:**

التزامُ الملحد بالمذهب المادي هو التزامٌ مبدئي أوّلي، والأدلة عليه متهافتة. وقد خصَّصت مبحثًا كاملًا في إبطال هذا المذهب في الباب الأوّل، فلا حاجة لإعادته. وأكتفي بإيرادِ ردود جيمس روشفورد[1] على هذه المسألة في مقاله: «العقل والدماغ: هل الإرادة الحرَّة وهْم؟» (The Mind and the Brain: Is Free Will an Illusion?).

ذكر في هذا المقالِ أنَّ الماديين ينكرون الإرادة الحرّة لأنهم يحصرون العقل في الدماغ. ويستدلّون على ذلكَ بأنه إذا جرحَ الدماغ فإنَّه يؤثِّر في طريقة تفكيرنا وتصرفنا؛ فعلى سبيل المثال: إذا كان الشخصُ يشرب كثيرًا من الكحول، فمِن الواضح أنَّ هذا سيؤثر في طريقة قيادته للسيارة. وكذلك إذا قام شخصٌ ما بضربك على رأسك فإنَّه يكون لذلك آثار دائمة على قدرتِك على التفكير بوضوح.

وبعدَ ذلك ذكرَ أنَّ هذه الشواهد والأمثلة لا تدلُّ على أنَّ العقل هو عين الدماغ. وذلكَ لثلاثة أسباب:

السببُ الأوَّل: غايةُ ما تدلُّ عليه هذه الأمثلة أنّ العقل يعتمد على الدماغ، وليس أنَّه الدماغ[2]. ومن الأمثلة[3] على ذلك أنّه لو استعمل الخشّابُ المنشارَ الآلي لقطع شجرة، ثمَّ تضرَّرت سلسلةُ القطع في الآلة، فإنّه سيؤثّر في عملية قطع الشجرة؛ لأنَّ الخشّاب يعتمدُ عليه في القطع، ولكنَّ الخشّاب غير المنشار.

---

(١) جيمس روشفورد (James M. Rochford): عالم اللاهوت النصراني والمتخصّص في نقد الإلحاد. انظر:

http://christianapologeticsalliance.com/author/james-rochford/

(٢) نصوص الكتاب والسنة تدلّ على أنّ العقل محلّه القلب، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]. ولكن لا يمنع ذلك أنّ الدماغ له وظيفة في عملية التفكير، حيث إنه توجد صلة بين الدماغ والقلب. انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٩/ ٣٠٣ - ٣٠٤).

(٣) ذكر جيمس روشفورد مثالاً بعلاقة عازف الجيتار بالجيتار في الموسيقى، ولكن رأيت المثال غير مناسب فأبدلته بما ذكرت.

السببُ الثّاني: للعقلِ والدماغ سماتٌ مختلفة، مما يدلُّ على الحقيقة أنهما غير مُتطابقين. إذا أردنا تحديدَ أنَّ شيئين غير متطابقين، فإننا نحتاج فقط إلى إظهار أنَّ أحدَهما له خاصية لا يمتلكها الآخر. يشير الفلاسفةُ إلى هذا على أنه قانون لايبنيز لتطابق الهوية (Leibniz's Law of the Indiscernability of Identicals). ينصّ هذا القانونُ على أنَّه بالنسبة لأي X وأي Y, إذا كانت X تساوي Y, فإن كلّ ما ينطبق على X ينطبق أيضًا على Y (والعكس صحيح أيضًا). هذا مجرد طريقة خيالية للقول إنه إذا وُجد شيئان متطابقان؛ فستكون لهما خصائصُ وسماتٌ متطابقة. ومع ذلك، عندما نفكِّر في هذا، نكتشف بسرعة أنَّ عقولنا لها خصائص مختلفة عن أدمغتنا.

لعقولنا خصائصُ مثل: اللون أو الحجم لا تمتلكها أدمغتنا؛ فعلى سبيل المثال: إذا فكَّرتُ في ناطحة السحاب[1]، فأنا أفكِّر في شيء يبلغ ارتفاعه بضع مئات من الأمتار. ومعَ ذلك، لا يوجد شيء في الدماغ يبلغ ارتفاعه بضع مئات من الأمتار. وبالمثل، عندما أفكِّر في ناطحة السحاب، لديَّ فكرة عن لونه من كونها رمادية مثلًا. ومع ذلك، لا يوجَد شيء رمادي في دماغي. أفكارنا لها خصائص لا تمتلكها أدمغتنا.

السببُ الثّالث: حتى لو كانتِ الإرادةُ الحرة وهمًا، فكيف يمكن لكائن غير واعٍ أن يلاحظَها؟ يمكن أن يحدُث الوهمُ فقط في حالة وجودِ مراقب واع. فإذا كانت الإرادة الحرةُ همًا عميقًا، فمَن الذي يتوهَّم؟ بعيدًا عن العمل كدليلٍ ضدَّ الإرادة الحرة، حتى تصوُّر الوهم سيدعم في الواقع وجود عقل واع[2].

فقدَّم جيمس روشفورد ثلاثةَ أسباب جيِّدة في نقد شبهة الملاحدة الماديين في كوْن العقل – وبما فيه الإرادة – محصورًا في الدماغ. ولكن، إذا لم يكن العقل

---

(١) ذكر جيمس روشفورد مثالاً بتمثال الحرّية، ولكن رأيت المثال غير مناسب.

(٢) انظر المقال:

The Mind and the Brain: Is Free Will an Illusion? By: James M. Rochford: http://www.evidenceunseen.com/theology/anthropology/the-mind-and-the-brain-is-freewill-an-illusion/

محصورًا في الدماغ وليسَ ماديًّا فقط؛ فما هو إذًا؟ الجوابُ عن هذا السؤال يظهر في الوجه الرابع.

- **الوجهُ الرّابع: الإنسانُ مكوَّن من روح وجسد:**

الإنسانُ ليس آلةً بيولوجية مادية كما يزعم الملاحدةُ الماديون، بل الإنسان مكوَّن من روحٍ وجسد. وفي ظلِّ الإيمان بذلك، يمكن تفسير الشعور الذاتي القوّي جدًّا - حسب تعبير دوكينز - بوجود الإرادة الحرّة. فالإرادة الواعية ليست شعورًا فقط، بل هي حقيقة. ولا يمكن أن تكون حقيقة إلّا في ترك المذهب المادي، والإيمان بوجود الروح. وقد ذكرَ تيم ستراتون[1] هذا الوجه بقوله: «نظرًا لكون الأفكار غير مادية، فلدينا سببٌ للاعتقاد بأنَّ العقل / الروح هو شيء يفكِّر بخلاف الطبيعة. وهذا يعني أن الروح هي «شيء مفكِّر غيرُ مادي». ويترتَّب على ذلك أنَّ هذا الشيء المفكّر لن يتمّ تحديدُه بالحتمية السببية خلالَ قوانين الكيمياء أو الفيزياء أو ميكانيكا الكم أو أي شيء أو عملية فيزيائية أو مادية أخرى. ستكون الروح متحرِّرة من حتمية السبب والنتيجة للكون الطبيعي. وعليه، فيمكنُ للنفس (أنت كإنسان عامل) أن تفكِّر بحرية. وهذا يعني أن أفكارك ومُعتقداتك لا تُفرَض عليك خلال عوامل خارجية خارجة عن إرادتك. يمكنك اختيارُ معتقداتك (أو على الأقل بعضها) بصدق وبحرية»[2].

وهذا الكلام ممتازٌ في مناقشةِ الملاحدة الماديين الذين يعتقدون أن الحتمية الفيزيائية مسلَّم بها معَ شعورهم بوجود الإرادة الحرَّة، ولكنَّ المسلم لا يؤمن بوجود الحتمية الفيزيائية المطلقة بقوانين الطبيعة التي لا تنخرم؛ بل المسلمُ يؤمن بأنَّ الله خلق الخلق وفقَ سُنن، وأنَّ المخلوقات مسخَّرة بأمره، ولكنّه قد يُحدث معجزات

---

(١) تيم ستراتون (Tim Stratton): عالم اللاهوت الأمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت والمتخصِّص في نقد الإلحاد. انظر:

https://freethinkingministries.com/tim-stratton/

(٢) المقال: How Does Soul Provide Free Will?، على الرابط:

https://freethinkingministries.com/qa-2-how-does-a-soul-provide-free-will/

لأنبيائه وكرامات لأوليائه إذا شاء. وقد سبق تقريرُ هذا بالتفصيل في المبحث المتعلّق بقوانين الطبيعة والمبحث المتعلّق بالمعجزات، فلا حاجة للإعادة.

كما أنَّ المسلم لا يؤمن بأنَّ الروح حرٌّ تمامًا، وليست للإنسان حرية إرادته بهذا الإطلاق. وسيأتي بيانُ ذلك بالتفصيل في نهاية هذا المبحث - إن شاء الله -. ورغم ذلك، فيمكن الاستفادةُ من كلام الدكتور ستراتون في مناقشة الملاحدة في هذا الباب.

- **الوجهُ الخامس: الإرادةُ الحرَّة دليلٌ على وجود الخالق:**

إذا أقرَّ الملحدُ بوجود روحٍ غير مادي، فإنّه يبطل مذهبه المادي، ويقوده إلى الإيمان بوجودِ الخالق، وقد ذكرَ كيل بوت ذلك بقوله: «... إذا كان لدى البشر إرادة حرة، وكانَ الإلحاد يقتضي أنَّ الأمر ليس كذلك، فإنّه يدلُّ على أنَّ الإلحاد باطل. من ناحية أخرى، فإنَّ فكرة وجود إله خارق للطبيعة يمنح البشر عقلًا ووعيًا وروحًا تتناسب تمامًا معَ حقيقة الإرادة البشرية الحرة. وعليه، فإنَّ الشخص الذي يحاول «اتباع الدليل حيث يقود» يجبُ أن يستنتج أنَّ الإرادة البشرية الحرة تثبت وجود خالق متعالٍ على الطبيعة»[1]. وقد سبقَ تقريرُ هذه المسألة في المبحث المخصَّص لحجة الوعي، ويمكن الرجوع إليه.

- **الوجهُ السّادس: الردُّ على التجارب التي يستندُ إليها منكرو الإرادة الحرّة:**

قد تبيَّن مما سبقَ أنَّ الملاحدة المنكرين للإرادة الحرّة يخلطون بين أنواع مختلفة من الإرادات، ويبْنون إنكارَهم المطلق للإرادة الحرَّة على المذهب المادي الفاسد بما فيه إنكارُ الروح. وإذا فهمَ المرءُ هذه الأوجه السابقة جيّدا فإنَّه يفهم أنّ الأمثلة التي يذكرها الملاحدةُ المنكرون للإرادة الحرَّة لا قيمة لها. حيث إنَّ هذه الأمثلة تدلُّ على جزء من الحقيقة الكاملة. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله سام هاريس: «توقّف لحظة للتفكير في السياقِ الذي سيحدُث فيه قرارك التالي: لم تخترْ والديك أو وقتَ ومكان ولادتك. لم تخترْ جنسَك أو معظمَ خبراتك الحياتية. لم يكن لديك أي

---

(١) المقال: Atheism and Free Will

سيطرة على الإطلاق على جينومك أو تطوُّر عقلك. والآن يتَّخذ دماغك الخيارات على أساس التفضيلات والمعتقدات التي تمَّ التوصلُ إليها على مدى العمر؛ خلال جيناتك، وتطورك البدني منذ لحظةِ الحمل، والتفاعلات التي أجريتها مع الأشخاص الآخرين، والأحداث، والأفكار. أين الحريةُ في هذا؟»[1].

في هذا الكلام، يورد سام هاريس جملةً من الأمثلة بطريقة عاطفية. ولا شكّ أنَّ ما ذكرَه من الأمثلة مؤثِّرٌ في قراراتنا اليومية. فالمكانُ الذي وُلد فيه الإنسان وزمن ولادته، كما جنسه، وتربيةُ والديه له، وجينومه؛ كلُّها من المؤثّرات في اتّخاذ القرارات. ولكن، هل يعني ذلك أنَّ الإنسان غيرُ قادر على أن يختار بين الحقّ والباطل، أو بين الإيمان والكفر، أو بينَ الطاعة والمعصية؟ الجواب: لا. وأيُّ عاقل يستطيع أن يكتشف هذا الأمر!

ولكنْ تكمُن الخطورةُ عندما يحتجّ سام هاريس بالتجارب العلمية على قوله - لما في العلمِ التجريبي من مكانة في نفوس أتباعه ومريديه -. وأشهرُ تجربة علمية أوردها في كتابه: تجربة ليبيت - المشار إليها سابقًا -.

وكما هي عادتُه فإنَّه لبَّس على القراء. فقد عنونَ لبابٍ في كتابه بـ: «الأصول اللاشعورية للإرادة»، ثمَّ أورد مثالًا عن كونه يفضِّل شربَ القهوة في الصباح على شرب الشاي. وذكر أنَّ هذا التفضيل مبنيٌّ على عمليات في دماغه، وهو لا يراقب هذه الأحداثَ، أو لا يستطيع أن يؤثِّر فيها. ولو اختار شربَ الشاي في الصباح بدلًا عن القهوة فإنّه أيضًا مبنيٌّ على أسبابٍ لاشعورية. ثمَّ قال بعد ذلك: «إنَّ الإرادة لفعل شيء دونَ آخر لا تنشأ في الوعي؛ بل تظهرُ في الوعي، كما يفعل أي فكر أو دافع قد يعارضه. اشتهرَ عالم الفسيولوجيا بنيامين ليبيت باستخدام مخطط كهربية الدماغ لإظهار أنَّ النشاط في القشرة الحركية للدماغ يمكن اكتشافه بحوالي ثلاثمائة مللي ثانية قبل أن يشعرَ الشخصُ أنه قرَّر التحرّك...»[2]، ثمَّ أورد بعضَ التجارب المماثلة، ثمَّ استنتج منها النتيجة الآتية قائلًا: «يصعب التوفيقُ بين هذه النتائج وبين الشعور بأننا

---

(1) Free Will (32)

(٢) المصدر السابق (١٦).

المؤلِفون الواعون لأفعالنا. هناك حقيقةٌ واحدة تبدو الآن لا جدالَ فيها: قبل لحظات من إدراكِك لما ستفعله بعد ذلك - الوقت الذي تظهر فيه بشكل شخصي أنك تتمتع بحرية كاملةٍ في التصرف على النحو الذي ترضيه -، لقد حدَّد عقلُك بالفعل ما ستفعله. ثمَّ تصبح مدركًا لهذا «القرار» وتعتقد أنك بصدد اتخاذه»[١].

فاستدلَّ هاريس بتجربة علمية، ثمَّ قرَّر منها نتيجته بإنكار الإرادة الحرّة. والتدليس أنَّه أشارَ إلى مصدرِ التجربة في الحاشية التي وضعها في آخر كتابه - حتى ربّما لا يطَّلع عليها القارئ - وعلَّق على المصدر في الحاشية: «... ومع ذلك، تكهّن ليبت وآخرون بأنَّ مفهومَ الإرادة الحرة قد يتمُّ الحفاظُ عليه: ربما يتمتع العقل الواعي بحرية «النقض» بدلًا من الشروع في عمل معقَّد. لطالما بدَا هذا الاقتراح سخيفًا في ظاهره؛ فمن المؤكّد أنَّ الأحداثَ العصبية التي تمنع الإجراء المخطط له تنشأ بشكل غير واع أيضًا»[٢].

بمعنى أنَّ صاحبَ هذه التجربة وآخرين معه، لم يفهموا من التجربة ما فهمه هاريس. فهوَ يستدلُّ بالتجارب العلمية حسب فهمه هو، ويقدّمها كأن «المجتمع العلمي قد أعلن» - حسبَ تعبيره -، ولكنَّ التجربة في وادٍ، ومفهوم هاريس في وادٍ آخر. ولكن حتَّى استنتاج ليبيت أنَّ العقل الواعي يتمتع بحرية النقض بدلًا من الشروع في عمل معقَّدٍ غيرُ صحيح. فالاستنتاجاتُ من هذه التجربة في مسألة الإرادة الحرّة في غير محلّها.

وقد تعقَّب البروفسور مارك بالاغوير استنتاجَ مُنكري الإرادة الحرّة من هذه التجربة. فبدأ أوّلًا بتلخيص النتيجة قائلًا: «عندما تقوم بعمل ما، إذا لم تتَّخذ قرارًا واعيًا بالتصرُّف إلّا بعد أن تكون الأسبابُ المادية لهذا الفعل قد بدأت بالفعل، فإن الفكرةَ أنَّ لديك إرادة حرَّة تعتبر مجرَّد وهْم. ببساطة، ليس من المنطقي أن تقول: إنك قرّرت تحريكَ معصمك بإرادتك الحرة إذا كانت الأسبابُ المادية لأفعالك تتحركُ بالفعل قبل أنْ تتخذ قرارَكَ الواعي. بعبارة أخرى، الفكرةُ هنا هي أنه لا يمكن أن تكون لدينا إرادة حرَّة - لا يمكن أن تكون قراراتُنا الواعية هي الأسبابَ النهائية

---

(١) المصدر السابق (١٦ - ١٧).

(٢) المصدر السابق (٤٨).

لأفعالنا – لأنَّ هناك أحداثًا دماغية غيرَ واعية بحتة تتسبَّب في إحداث أفعالنا، وهذا يحدث قبل أن نتخذ قراراتنا الواعية»[1].

ثمَّ أجاب عنْ هذا الاستنتاج الخاطئ بقوله: «هذه هي الحجة. والآن أريد أن أخبركم بالخطأ فيها. باختصار، المشكلةُ في هذه الحجة أنها تفترض فقط أن لإمكانية الاستعدادِ تأثيرًا إلى حدٍّ ما في الوظيفة السببية في إنتاج أفعالنا. لكن، **في الواقع فإنَّه ليس لدينا أيُّ فكرة عن الغرض من إمكانية الاستعداد. لا نعرف سببَ حدوثه ولا نعرفُ ماذا يفعل**. هذه نقطة مهمَّة جدًّا. من أجل أن تُحدِث نتائج ليبت مشكلة حقيقيَّة للإرادة الحرة، يجب أن تكون الحالة أن إمكانية الاستعداد تؤثّر تأثيرًا خاصًّا للغاية في إنتاج قراراتنا وإجراءاتنا»[2].

خلاصةُ هذا الردِّ أنَّ علماء الأعصاب يشاهدون أنّه يحصل شيء في داخل الدماغ ثلاثمائة ميللي ثانية قبلَ الشعور باتِّخاذ القرار. ولكن ما هو هذا الشيء؟ وماذا يفعل هذا الشيء؟ وما مدى تأثير هذا الشيء في اتّخاذ قرارتنا؟ التجربة نفسها لا تجيب عن هذه الأسئلة، وإنما استنتج ليبيت وهاريس استنتاجين مختلفين من هذه الظاهرة. والاستنتاجُ ليس مبنيًّا على العلم التجريبي المشاهد نفسه. وعليه، فإنّ العلم التجريبي لم يقلْ شيئًا عن هذه القضية، وغايةُ ما أمكن مشاهدته أنه يحصل شيء في الدماغ قُبيل الشعور باتِّخاذ القرار. والمسلمُ الذي يؤمن بوجود الروح قد يستنتج استنتاجات مختلفة لهذه الظاهرة. ولكن حيث إنَّ هذه الظاهرة لها علاقة بإرادة الإنسان، وإرادة الإنسان لها علاقةٌ بالروح. وكيفية الروح وعمله مما استأثر اللهُ بالعلم به؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. فلعل الإنسانَ لن يحصل على علمٍ يقيني بهذه الظاهرة في الدماغ، ولكن هل هذه الظاهرة دليلٌ علمي على أنّ الإرادةَ الحرَّة مجرَّد وهْم؟ لا، إنما هو استنتاجٌ خاطئ استنتجه سام هاريس في ثوب علمي مزوّر!

---

(1) Free Will (97-98)

(٢) المصدر السابق (٩٨).

- **الوجهُ السّابع: اللوازمُ الفاسدة من إنكار الإرادةِ الحرَّة:**

إضافةً إلى كلٍّ ما سبق مِن الردود على شبهات الملاحدة المنكرين للإرادة الحرّة في هذا الباب، فإنَّ علماءَ الغرب قد بيَّنوا أنَّ هذا الإنكار يؤدّي إلى عدد من اللوازم الفاسدة. ومِن أبرز هذه اللوازم الفاسدة:

أنَّه يؤدِّي إلى القول بأنه لا يمكننا أن نعرفَ شيئًا. ذكر جيمس روشفورد هذا اللازم قائلًا: «العقلُ يقتضي أنه يمكن للعاملِ الشخصي أن يختار بين خيار وآخر، وكذلك تقييم حقيقة كلٍّ منهما. لكن إذا كانتِ الحتمية صحيحة، فلن نستطيع أبدًا أن نعرف أنَّنا وصلنا إلى الحقيقة؛ لأنَّنا كنّا مصممين على القيام بذلك. **كلُّ ما يمكننا قوله: إننا نعتبرُها صحيحة (أي أنَّ هذه هي حالتنا النفسية الحالية)؛ لا نعتقد أنها صحيحة (أي أننا استخدمنا العقلَ للوصول إلى هذا الاستنتاج)**»[(١)].

المقصود أنَّ الإنسانَ يعتقد شيئًا معينًا بناءً على الحجج والبراهين، ولكن اختيار هذه الحجج والبراهين مبنيٌّ على وجود إرادة للإنسان وأنه يختار بها. وإذا لم يكن للإنسانِ إمكانية للاختيار في الحقيقة، فكيف يقيمُ حجَّة على شيء أصلًا؟ وكيف يقتنعُ أحدٌ بحجته؟ بل كيف يقيم حجَّة على أنَّ الإرادة الحرّة وهمٌ، ويقنع الآخرين بها؟ وبذلك يبطل القولُ بإنكار الإرادة الحرّة نفسه بنفسه.

ويبطلُ أيضًا جميعُ العلوم التي يستند إليها الملاحدة المنكرون للإرادة الحرّة؛ قال البروفسور كينيث ميلير[(٢)]: «إنَّ قبول الحتمية السلوكية لا يقوّض نفسه بنفسه فحسب، بل يقوِّض جميعَ العلوم التجريبية، وربما الفنون والعلوم الإنسانية أيضًا»[(٣)].

---

(١) المقال: The Mind and the Brain: Is Free Will an Illusion?

(٢) كينيث ميلير (Kenneth Miller): بروفسور علم الأحياء في جامعة براون بالولايات المتَّحدة، ويعتبر أحد أبرز المدافعين عن نظرية التطوّر مع إيمانه بالله. انظر:
https://vivo.brown.edu/display/kemiller

(3) The Human Instinct (152), by: Kenneth Miller, (Simon & Schutser, 2018)

وإذا لم يمكن للقائل بأنّ الإرادة وهمٌ أنْ يعتقد اعتقاداتٍ مبنيَّة على حجج وبراهين، ولا يمكن الاستنادُ إلى العلوم التجريبية في الحقيقة، فلماذا يحاول أمثالُ هاريس أنْ يقنع الآخرين بالإلحاد؟ بل لماذا يصنِّف كتابًا كاملًا في الاستدلال على إنكار الإرادة الحرَّة؟! وقد ذكرَ كيل بوت ذلك بقوله: «إذا كان البشرُ آلاتٍ نجاة لا يمكنها اتخاذ أيِّ خيارات حقيقية، فإنَّ جميع الحجج «المقنعة» ستكون بلا قيمة. أولئك الذين يؤمنون بالله مُبرمجون ومُجبَرون بواسطة جيناتهم للقيام بذلك [في نظر المنكرين للإرادة الحرّة]. أولئك الذين يؤمنون بعدمِ وجود إله هُم نتاجُ فيزياء أجسادهم بالتساوي. فالبشر لا يغيِّرون آراءهم كما يدَّعي هاريس، ولكن عقولهم تغيِّرُهم. فلماذا إذنْ يحاول تغييرَ عقول المؤمنين؛ لأنَّهم لا يملكون حقًّا «عقولًا"، وأدمغتهم سوف «تؤمن» مهما كانت الجينات تخبرهم على أيِّ حال؟ على الملحدين في الواقع أن يفترضوا حريةَ الإرادة حتى لمناقشة الموضوع»[1].

وفي نهايةِ الأمر، فالظاهر أنَّ الملحدَ المنكر لإرادةِ الإنسان الواعية لا يؤمن بما يقول، وإنَّما يتعصَّب لهذا الرأي لأنَّه من لوازم الإلحاد المادي. وهو يعيش في صراعٍ نفسي بين اعتقادِه الباطل وبين شعوره الفطري.

ويعبِّر البرفسور الملحد دانيال واغنير[2] عنِ انفصام الشخصية لديه في هذه القضية بقوله: «إنَّه وهْم، لكنه وهمٌ دائم للغاية؛ يستمرُّ في العودة... على الرغم من أنك تعلمُ أنَّها خدعة، يتمُّ خداعُك في كلِّ مرَّة. المشاعر لا تختفي»[3].

---

(١) المقال: Atheism & Free will

(٢) دانيال واغنير (Daniel Wegner): بروفسور علم النفس في جامعة هارفارد بالولايات المتَّحدة. وهو من القائلين بأنَّ الإرادة الحرّة وهم. انظر:
https://mitpress.mit.edu/contributors/daniel-m-wegner

(٣) المقال: Free Will: Now You Have it, Now You Don’t على الرابط:
https://www.nytimes.com/2007/01/02/science/02free.html?pagewanted=all&_r=2&

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماءِ الغربِ على شبهة: سلب الإرادة:

هذا المبحثُ يتعلَّق بأحد أكثر الموضوعات حساسيةً في النقاش بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله. وذلك لسببين:

السببُ الأوّل: أنَّ هذا الموضوع يتعلّق بإرادة الإنسان، وإنْ قُدِّر أنَّ قول الملاحدة في هذا الباب صحيحٌ فهو شبهةٌ حقيقية ضدَّ إمكانية الإنسان أن يختار الإيمان. ولكن تبيَّن خلالَ هذا المبحث أنَّ قولهم ضعيف للغاية، بل متناقض إلى أبعد الحدود. وردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة جيّدة، ويُستفاد منها.

السببُ الثّاني: أنَّ موضوعَ إرادة الإنسان من محيِّرات العقول، واختلف الفلاسفة وعلماءُ العلوم التجريبية فيه إلى عشراتِ الأقوال. وهذا دليلٌ على أن الإنسان لا يمكنه الاهتداءُ إلى الحقِّ الخالص في هذه المسألة بالعقل المجرَّد، ولا عن طريق التجارب العلمية. وغايةُ ما يُستفاد من ردودِ علماء الغرب هو أنَّ قول الملاحدة المنكرين للإرادة الحرّة باطل، وأنَّ حججَهم ضعيفة. ولكنَّ علماءَ الغرب أنفسهم لم يهتدوا إلى الحقّ والهدى في هذه المسألة. والسببُ أنَّ موضوعَ إرادة الإنسان فيه تداخل بين ثلاث مسائل:

المسألةُ الأولى: لا يمكن أنْ نفهم قدرةَ الإنسان وإرادته بطريقة صحيحة إلا في ظلِّ الإيمان بالخالق المتَّصف بصفات الجلال والكمال. وأنه خالقُ العبد وأفعاله، وأنَّ له قدرةً تامة، ومشيئةً نافذة. وإذا كانت الأدلةُ والبراهين على وجود الخالق المتّصف بهذه الصِّفات متعدِّدة، إلا أنَّه لا يُعلم حقيقة الصفات إلا عن طريق الوحي المنزّل.

المسألةُ الثّانية: أنَّ الإنسان مكوَّن من روحٍ وجسد. ولا سبيلَ إلى فهم إرادة الإنسان إلّا بناءً على الإيمان بذلك. ولا يمكن للإنسان أن يعلم عن كيفية العلاقة الثنائية بين الروح والجسد عن طريق العقل أو الحسِّ أو العلوم التجريبية. وإنما مَرَدُّ ذلك إلى الوحي المنزّل أيضًا.

وهاتان المسألتان يُنكرهما الملاحدة، وإنكارُهم لهما سببُ ضلالهم في هذا الباب. بينما علماءُ الغرب اعتمدوا على كتابهم المقدَّس - المحرَّف - والكتب اللاهوتية المنحرفة فضلّوا السبيل.

المسألةُ الثّالثة: وجودُ جُملة من المؤثرات المادية تؤثِّر في إرادة الإنسان واختياراته. والملاحدةُ يركّزون على إيرادِ الأمثلة على ذلك في تقريرهم لشبهة سلب الإرادة، وقد ردَّ علماءُ الغرب عليها. وقد تبيَّن أنّه مهْما كان لهذه المؤثّراتُ المادية من تأثير، فلا يصلُ الأمرُ إلى كون الإرادة وهمًا.

فتبيَّن من ذلك أنه لا يمكن أن يصلَ الإنسانُ إلى الحقِّ الخالص المطلق إلا عن طريق التَّسليم للوحي المنزَّل، وأكثرُ ما يُستفاد من كلام علماء الغرب هو في المسألة الثالثة. وإنْ ذكروا كلامًا مُجملًا جيّدًا في المسألتين الأولتين. فما هو تحقيقُ القول في المسألتين الأولتين؟

تحقيقُ القول في خلقِ أفعال العباد وإرادة الإنسان:

قد لخَّص شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) عقيدة أهل السنة في أفعال العباد بقولِه: «والعبادُ فاعلون حقيقة، واللهُ خالق أفعالهم، والعبدُ هو المؤمن والكافر والبرُّ والفاجر، والمصلي والصائم، وللعباد قدرةٌ على أعمالهم ولهم إرادة، واللهُ خالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]»[١].

هذا مِن باب الإجمال، ولكنْ ماذا يقتضي ذلك على وجه التفصيل؟ هل إرادة العبدِ وقدرته مؤثّرتان؟ قد حقَّق شيخُ الإسلام هذه المسألة بكلام مطوّل، ولذا سألخِّصه في أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) محققًا المرادَ بالتأثير في القدرة: «التأثيرُ اسمٌ مشترك قدْ يُراد بالتأثير الانفراد بالابتداع والتوحيد بالاختراع، فإنْ أريدَ بتأثير قدرةِ العبد هذه القدرة، فحاشَا لله لم يقلْه سنِّي، وإنما هو المعزوُّ إلى أهل الضَّلال. وإنْ أريد بالتأثير نوعُ معاونة إمّا في صفة من صفات الفعل، أو في وجه مِن وجوهِه كما قاله كثيرٌ من متكلِّمي أهل الإثبات. فهوَ أيضًا باطل بما به بطل التأثير

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٠).

في ذاتِ الفعل، إذْ لا فرقَ بين إضافةِ الانفراد بالتأثير إلى غير الله سبحانه في ذرة أو فيل. وهل هو إلّا شركٌ دونَ شرك، وإن كان قائلُ هذه المقالة ما نحا إلّا نحوَ الحق.

وإنْ أُريدَ بالتأثير أنَّ خروجَ الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسُّط القدرة المحدثة، بمعنى أنَّ القدرةَ المخلوقة هي سببٌ وواسطة في خلق الله - سبحانه وتعالى - الفعلَ بهذه القدرة، كما خلقَ النبات بالماء، وكما خلقَ الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا حقٌّ، وهذا شأنُ جميع الأسباب والمسبِّبات. وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرةِ العبد شركًا، وإلّا فيكون إثباتُ جميع الأسباب شركًا...

فقدْ بانَ لك أنَّ إطلاق القول، بإثبات التأثير أو نفيه دونَ الاستفصال، وبيان معنى التأثير؛ ركوبُ جَهالات واعتقادُ ضلالات، ولقد صدق القائلُ: أكثر اختلاف العقلاء من جهةِ اشتراك الأسماء. وبانَ لك ارتباطُ الفعل المخلوق بالقدرة المخلوقة، ارتباط الأسباب بمسبِّباتها، ويدخُل في عموم ذلك جميعُ ما خلقه الله تعالى في السماوات والأرضِ والدنيا والآخرة، فإنَّ اعتقادَ تأثير الأسباب على الاستقلال، دخول في الضَّلال، واعتقاد نفي أثرها وإلغاؤه ركوب المحال...»[(١)].

الفقرةُ الثّانية: حقَّق شيخُ الإسلام (رحمه الله) المرادَ بالأسباب في هذه المقام بقوله: «فلعلَّك أن تقول بعدَ هذا البيان: أنا لا أفهمُ الأسباب، ولا أخرج عن دائرة التقسيم والمطالبة بأحدِ القسمين... فيُعاد عليك البيانُ بأنَّ لها تأثيرًا من حيث هي سبب، كتأثيرِ القلم، وليس لها تأثير مِن حيث الابتداع والاختراع. ونضرب لك الأمثال، لعلك تفهمُ صورةَ الحال، ويبيِّن لك أنَّ إثبات الأسباب مبتدعات هو الإشراك، وإثباتها أسبابًا موصولات هو عينُ تحقيق التوحيد»[(٢)]، إلى آخر ما ذكره (رحمه الله).

الفقرةُ الثّالثة: بيَّن (رحمه الله) سببَ نسبةِ الفعل إلى العبد بقوله: «اعلم أنَّ العبدَ فاعلٌ على الحقيقة، وله مشيئةٌ ثابتة، وله إرادةٌ جازمة وقوة صالحة، وقد نطق القرآنُ بإثباتِ مشيئة العباد في غير ما آية كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩] ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩]. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩٢).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٣٩٢).

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٥ - ٥٦]. ونطق بإثبات فعله في عامة آيات القرآن يعملون، يفعلون، يؤمنون، يكفرون، يتفكرون، يحافظون، يتقون»[١].

الفقرةُ الرّابعة: وبيَّن مخالفةَ قول أهل السنة للقدرة والجبرية في هذا الباب بقوله: «وكما أنّا فارقنا مجوسَ الأمة بإثباتِ أنَّه تعالى خالق، فارقنا الجبريةَ بإثباتِ أنَّ العبد كاسبٌ فاعل صانعٌ عامل، والجبرُ المعقول الذي أنكره سلفُ الأمة وعلماءُ السنة هو أنْ يكون الفعلُ صادرًا على الشيء، مِن غير إرادة ولا مشيئة ولا اختيار، مثل حركة الأشجار بهبوب الرياح، وحركة... ومثله في الأناسي حركة المحموم والمفلوج والمرتعش فإنَّ كلَّ عاقل يجد تفرقةً بديهية بينَ قيام الإنسان وقعوده وصلاته وجهاده، وزناه وسرقته وبينَ انتعاش المفلوج وانتفاض المحموم، ونعلم أنَّ الأول قادرٌ على الفعل، مريدٌ له، مُختار. وأنَّ الثاني غيرُ قادر عليه، ولا مريدٌ له، ولا مختار. والمحكي عن جَهْم وشيعتِه الجبرية أنَّهم زعموا أنَّ جميعَ أفاعيل العباد قسم واحد، وهو قول ظاهر الفساد، وبما بينَ القسمين من الفرقَيْن انقسمتِ الأفعال إلى اختياري واضطراري، واختصَّ المختار منها بإثباتِ الأمر والنهي عليه... »[٢].

وبناءً على هذا التقرير نفهمُ أنَّ كلمة «الإرادة الحرّة» التي هي محلُّ الجدل في هذه المسألة كلمةٌ مُجملة. فإنْ أريد أنَّ الإنسان له إرادة حرّة غير مخلوقة وأنها ليست تحتَ مشيئة الله، فهو كلامٌ باطل. فاللهُ تعالى يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فأثبتَ للعبد مشيئة، ولكنَّها تحتَ مشيئة الله، وليست «حرّة».

وإنْ أريدَ بها نفيُ المؤثّرات الطبيعية مطلقًا في اختيار الإنسان ما يختاره، فهو أيضًا باطل. ولكن إنْ أريدَ بالإرادة الحرّة إثباتُ أنَّ الإنسان له قدرة حقيقة، وأنَّ له إرادة حقيقة، وأنَّ له مشيئة في الاختيار بين الحقِّ والباطل، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وأنه يُثاب على ذلك أو يعاقَب؛ فهو حقٌّ. وهذا ما أراد الملاحدةُ نفيه في هذا الباب، وقولهم ظاهرُ البطلان.

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٣٩٣).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٣٩٣ - ٣٩٤).

المبحثُ الرّابع
ردودُهم على شبهةِ الشَّرور
المترتبة على وجود الأديان

هذا المبحثُ يتناول شبهةً إلحادية عاطفية مشهورةً معروفة بـ: شبهة الشرور المترتّبة على وجودِ الأديان. وسمِّيت هذه الشرورُ في الجدل بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله بـ: "الشرور الدينية" (Religious Evils). وهذه الشبهة لم تشتهرْ كثيرًا في الماضي، ولكنّها من أكثرِ الشبهات انتشارًا بعدَ ظهور حركة الإلحاد الجديد.
وسأقسِّم هذا المبحث إلى أربعِ فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ انتقاد الشُّرور المترتبة على وجود الأديان.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ الملاحدة الجددِ لشبهة الشُّرور المترتبة على وجود الأديان.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهةِ الشُّرور المترتبة على وجود الأديان.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شُبهة الشرور المترتبة على وجود الأديان.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ انتقاد الشُّرور المترتِّبة على وجود الأديان:

قد تقدَّم عندَ الحديث عن تاريخ الإلحاد أنَّ الكنيسة كانت مليئةً بالطغيان والفساد والشُّرور في العصورِ الوسطى، وكانتْ في الوقت ذاته مسيطرةً على الشئون الدينية والعلميَّة والسياسية والاجتماعية في أوروبا. ولهذا لم يكدْ يجرؤ أحد على انتقاد الدين في تلك الفترة. ومَن تجرَّأ على نقدِ الديانة النصرانية أو الكنيسة اتّهم بالهرطقة والإلحاد - وإن كان لا ينكر وجودَ الخالق - [1].

---

(١) انظر البحث:

The Medieval Period, in The Oxford Handbook of Atheism (167-169)

ولكنْ تغيَّر هذا الأمرُ تدريجيًّا في عصر النهضة عندما بدأ بعضُ الفلاسفة والمفكِّرين ينتقدونَ الكنيسة. وكان نيكولو ماكيافيلي[1] أحدَ الفلاسفة الذين انتقدوا الكنيسة ورجالَ دينها في تلك الفترة. ومما انتقدَهم به: الفساد المستشري في الكنيسة وبين رجال الدين. وقد ربطَ بينَ هذا الفساد وبينَ قلَّة التديُّن عند الإيطاليين إذ قال: «بما أنَّ البعضَ يروْن أنَّ رفاهية إيطاليا تعتمد على كنيسة روما، فإنني أرغب في طرح بعض الحجج التي تخطرُ ببالي ضدَّ هذا الرأي، وسأقدّم حججًا قوية للغاية، التي لا يمكن الإجابةُ عنها في رأيي. الحجةُ الأولى هي أنَّه خلال المثال السيئ للمحكمة الرومانية، فقدتِ البلادُ كلَّ شعور ديني وتقوى، وهي خسارةٌ ترتَّب عليها مذابح واضطرابات لا حصرَ لها؛ فكما أنَّ وجود الدين يعني كل امتياز، فإن العكس من ذلك في غيابه. لذلك، **نحنُ الإيطاليين مدينونَ للكنيسة ورجال دينها بهذا الدِّين الأول، بأننا خلالَهم أصبحنا أشرارًا وغيرَ متديّنين**. ونحن مدينون لهم بدَيْن أكبر بناءً على السبب المباشر لخرابنا؛ ألا وهوَ أنَّ بلادنا منقسمة بسبب الكنيسة. إذ لم يكن هناك بلد على الإطلاقِ موحدًا أو مزدهرًا لم يتنازلْ عن طاعة أمير أو دولة ما، كما كان الحال مع فرنسا وإسبانيا. **والكنيسةُ هي السببُ الوحيد الذي يجعل إيطاليا تقف على أساس مختلف**، ولا تخضع لملك أو دولة واحدة»[2].

أَلَّف ماكيافيلي هذا الكتابَ في القرن السادس عشر، ولم يصدر إلا بعد وفاته[3]. ويعتبر هذا الكلامُ نقدًا شديدًا للكنيسة ورجال دينها، وأنهم ليسوا سبب فساد الإيطاليين فحسب، بل سبب قلَّة تديُّنهم. واختلفَ المؤرّخون في معتقد ماكيافيلي؛

---

(١) نيكولو ماكيافيلي (Niccolò Machiavelli): فيلسوف ورجل دولة إيطالي في عصر النهضة. واشتهر بسبب كتابه: الأمير. توفي عام: ١٥٢٧ م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Niccolo-Machiavelli

(2) Discourses on Livy (68), by: Niccolo Machiavelli, (Trench & CO, 1883, translated from Italian by: Ninian Hill Thomson)

(٣) انظر: Discourses on the First Ten Books of Livy في موسوعة بريتانيكا على الرابط:

https://www.britannica.com/topic/Discourses-on-the-First-Ten-Books-of-Livy

فمنهم مَن رأى أنه مالَ إلى الإلحاد، ومنهم مَن ذكر أنه مال إلى الديانات الوثنية، ورأى غيرُهم أنَّه كان يفضّل إصلاح الديانة النصرانية من داخلها[١].

ومعَ هذا الاختلاف في تحديد معتقد ماكيافيلي، فإنَّ هذا أوّلُ نصٍّ وقفت عليه في الربط بين رجال الدين وبين قلة التديّن.

ثمَّ ازداد هذا النقدُ بقوَّة في عصر التنوير، وقد أثار الفليسوف الربوبي الفرنسي فولتير هذه الشُّبهة. ألَّف فولتير كتابه: «الموسوعة الفلسفية» (Dictionnaire philosophique) عام ١٧٦٤م، وانتقدَ فيها النصرانية، واليهودية، والإسلام بقوّة. وكانت إحدى الشبهات التي أثارها في هذه الموسوعة: شبهة: الشُّرور المترتّبة على وجود الأديان. وركّز على قضيةِ العنف الذي مارسه أتباع هذه الديانات[٢].

وأصبحَ اتِّهامُ الأديان بأنَّها من أسباب العنف ديدن الملاحدة واللادينيين بعد فولتير. وقد تأثّر الثوارُ في الثورة الفرنسية بفلسفة فيولتير وانتقاداته الشديدة ضدَّ الديانة النصرانية. وكان ذلك مِن أسباب حقدهم الشديد على الكنيسة وقساوستها[٣].

ولكنِ انقلبتِ الموازينُ بعد الثورة الفرنسية، وأصبح الحكم بيد العلمانيين الذين مارسوا أبشعَ أنواع الإرهاب والطغيان ضدَّ المتديّنين - كما سبق ذكرُه -. كما أنَّ أغلبَ الحروب التي وقعت بعد ذلك - ولا سيَّما في القرن العشرين - كانت لأسباب ودوافع غير دينية. إضافةً إلى أنَّ الإبادات الجماعية في القرن العشرين وقعت على أيدي النازيين العلمانيّين والشيوعيين الملاحدة، فلم يبقَ مبرِّر لانتقاد الأديان في كونها من أبرز أسباب الشُّرور كما كان قبل الثورة الفرنسية.

---

(١) انظر سيرة ماكيافيلي في موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https://www.britannica.com/biography/Niccolo-Machiavelli/The-Discourses-on-Livy

(٢) انظر هذه الجزئية المترجمة إلى اللغة الإنجليزية من الموسوعة على الرابط:
https://history.hanover.edu/texts/voltaire/volrelig.html

(٣) انظر المقال: Role of Voltaire in French Revolution على الرابط:
https://www.gktoday.in/gk/role-of-voltaire-in-french-revolution/

ولكن تغيَّر ذلك في القرن الواحد والعشرين، فقد انهارتِ الدولُ الشيوعية الإلحادية، ووقعتْ أحداثُ الحادي عشر من سبتمبر، وظهرت حركة الإلحاد الجديد. وأعاد رموزُ هذه الحركة شبهة: الشرور المترتبة على وجود الأديان من جديد، واستغلوا الموجة المعادية للدين عمومًا، وضدَّ الإسلام خصوصًا. فكيف قرّروا هذه الشبهة؟

الفقرةُ الثّانية:

تقريرُ الملاحدة الجددِ لشُبهة الشُّرور المترتبة على وجود الأديان:

أوَّلُ كتاب صدرَ لدعاة حركة الإلحاد الجديد هو: «نهاية الإيمان: الدين، والإرهاب، ومستقبل العقلانية» (The End of Faith: Religion, Terror and the Future of Reason) لسام هاريس في عام ٢٠٠٤م، وخصَّص الباب الثالث للحديث عن الشرور المترتّبة على الأديان عمومًا - حسبَ زعمه -[١]، وعنْونَ للباب الرابع بـ: «مشكلة الإسلام»، وحاولَ فيه ربط الإرهاب بالإسلام[٢].

وألَّف ريتشارد دوكينز كتابه: «وهْم الإله» في عام ٢٠٠٦م، وتكلّم في الباب السّابع عن حثّ كتاب النصارى المقدَّس على أنواعٍ من الشرور، وعلى رأسها: أمر الإله بقتلِ الأقوام المعادية لبني إسرائيل[٣]. وعنونَ دوكينز للبابِ الثامن من كتابه بـ: «ما هي مشكلةُ الأديان؟ لماذا هي عدوانيةٌ إلى هذه الدرجة؟» وخصَّص ما يقرب من ثلاثين صفحةً لسرْد الشُّرور المترتّبة على الأديان - في نظره -، وكان يركِّز على العنف باسم الإله[٤]. فربطَ دوكينز بين الأوامر الإلهية - كما يدّعي كتاب النصارى المقدّس - بالقتل، وبينَ شبهة: الشرور المترتِّبة على وجود الأديان.

---

(١) انظر:
The End of Faith: Religion, Terror and the Future of Reason (80-107)

(٢) انظر: المصدر السابق (١٠٨ - ١٣٢).

(٣) انظر: The God Delusion (٢٤٥ - ٢٤٨)

(٤) انظر: المصدر السابق (٢٧٩ - ٣٠٨).

وجاءَ كريستوفر هيتشن في عام ٢٠٠٧م، وأصدر كتابه الأشهر: «الإله ليس عظيمًا: كيف أنَّ الدين يسمِّم كلَّ شيء» (God is not Great: Why Religion Poisons Everything). وكما هوَ واضح من عنوان الكتاب، فإنَّه ركَّز في كتابه على الشرور المزْعومة المترتِّبة على الأديان. وبعد أنْ بدأ بالباب الأوَّل كمقدّمة عنون للباب الثاني بـ: «الدين يقتل»، وخصَّصه للحديث عن ممارسة العنف باسم الدين[١].

وكما هي عادةُ دعاة الإلحاد الجديد فإنّهم يوردونَ الشبهاتِ بطريقة عاطفية. وحيث إنَّ العمليات الإرهابية باسْم الإسلام تكرَّرت في تلك الفترة؛ فإنهم وجدوا بيئة حاضنة لقبولِ هذه الشبهات. ومعَ ذلك، فلم أقف على أنَّهم حاولوا صياغة هذه الشبهة بطريقةٍ منطقية، ولم يدَّعوا أنَّ هذه الشبهة دليلٌ على عدم وجود الخالق. وغاية ما سعوا إليه: إثارةُ المشاعر ضدَّ الأديان عمومًا، وضدَّ الإسلام خصوصًا.

ولكنْ في عام ٢٠١٤م، كتب الفيلسوف الملحد دانيال كوداي[٢] بحثًا فلسفيًّا بعنوان: «مشكلة الشرّ الديني» (The Problem of Religious Evil) وحاول فيه أن يصيغ هذه الشبهةَ بصياغة منطقية. وقد افتتح بحثه قائلًا: «أوضح عدد من المآسي في تاريخ العالم الحديث أنَّ الدين أحيانًا متورِّط في الشَّر. إنَّ الإرهاب الأصولي، والعنف الطائفي، والقمع السياسي المبرر دينيًّا؛ تذكيرٌ مؤلم بأن كلمة الإله يمكن إساءة استخدامها بطرقٍ مروِّعة. يبدو من المعقول أن نقترح أنَّ هذه الظاهرة مرتبطة بمشكلة الشَّر»[٣]. فربطَ بين هذه الشبهة وبين مشكلة الشَّر. ثمَّ قال: «مرتكبو الشر الديني، وكذلك قادتُهم الروحيون؛ يستخدمون اللغةَ الدينية لتبرير شرور معنية، ويصورونها على أنَّها فاضلة ومفيدة،

---

(١) انظر: God is not Great (15 - 36)

(٢) دانيال كوداي (Daniel Kodaj): أستاذ الفلسفة في جامعة أوروبا الوسطى بالمجر، وحامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة نفسها، وقد عمل باحثًا في جامعة أكسفورد المرموقة سابقًا. انظر: https: / /dkodaj.net/

(3) “The Problem of Religious Evil” (1), by: Daniel Kodaj, in: “Religious Studies, July 2014” (pp. 1-19)

ومدعومة بالكامل من قبَل قوى خارقة للطبيعة، وربما حتى دعا إليها الوحيُ صراحة»[1].

وبذلك يختلف الشرُّ الديني - حسب تعبيره - عن الشُّرور الأخرى، حيث يرى المرتكبُ أنه يؤجَر على ارتكابها، بل قد يعتقد أنَّ الوحي الإلهي يدعوه إلى ارتكابها. وصاغَ حجته المزعومة بطريقة منطقية على الشكل الآتي:

(١) الإيمانُ بالإله يسبِّب الشَّر.

(٢) الإلهُ يدين الشَّر.

(٣) ما يدينُه الإله فهو خاطئ موضوعيًّا.

(٤) وعليه، فبناءً على ١ - ٣ فإنَّ الإيمان بالإله يسبّب ما هو خاطئ موضوعيًّا.

(٥) ينبغي على الألوهيين أن يتجنَّبوا ما يسبّب ما هو خاطئ موضوعيًّا.

(٦) وعليه، فبناءً على ٤ و٥ فإنّه ينبغي على الألوهيين أن يتجنّبوا الإيمان بالإله[2].

ثمَّ قال عقبَ هذه الصياغة: «هذه الحجة صحيحة. يظهر تبرير المقدّمة (١) للوهلة الأولى بوجود الشَّر الديني. ولا يمكن أنَّ المؤمن العاقل أن ينتقد (٢) يجب أن يوافق على أنَّ الإله يدين جرائمَ الحرب، وتعذيب الأبرياء وإهانتهم، وقتل الأطفال؛ وكلها قد ارتكبتْ بالفعل باسم الإله. المقدمة (٣) بديهيَّة للمؤمنين. وبما أنه يبدو أنه لا يمكن انتقاد المقدِّمة (٥) فإنَّ المقدّمة (٦) تبدو أنها تتبع بسهولة من المعتقدات التوحيدية، بالإضافةِ إلى الحقائق عن الشَّر الديني. تولِّد الحجة هزيمة معيارية للإيمان بالإله، وتصوّر الإيمان الألوهي على أنه متناقض ذاتيًّا. وإذا كانت الحجة صحيحة، فإن الشرَّ الديني يجبرُ المؤمن العقلاني على التخلي عن إيمانه»[3].

فشبهة: الشُّرور المترتِّبة على وجود الأديان تقدّم في الغالب بطريقة عاطفية، ولكنَّها قد تصاغ بهذه الصياغة المنطقية.

---

(١) المصدر السابق (٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤).

(٣) المصدر السابق.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغربِ على شبهة الشُّرور المترتِّبة على وجود الأديان:

قد أوردَ الدكتور كوداي هذه الشبهة بصياغة منطقية، بينما قدّمها زعماءُ الإلحاد الجديد بطريقةٍ عاطفية سطحية. ولذا، فسأقسِّم الردود إلى قسمين: الردود على الصياغة المنطقية، والردود على خطاب الملاحدة الجدد. وأبدأ بنقد الصياغة المنطقية، لأنّها إذا سقطتْ فإنَّ الشبهة العاطفية تسقط تبعًا.

- **القسمُ الأوَّل: الردودُ على الصياغة المنطقية:**

الصياغةُ المنطقية لهذه الشبهة حديثة نسبيًّا، ولهذا لا توجد ردودٌ كثيرة عليها. ولكنّي وقفتُ على بحثٍ فلسفي كتبه البروفسور لويد ستريكلاند[١] يردُّ فيه على صياغة كوداي المنطقيَّة لهذه الشبهة. ورغم أنَّ لويد يعترف بأنه لاأدري[٢]، إلا أنه انتقد شبهة الدكتور كوداي من النّاحية الفلسفية البحتة. وقد ردَّ على شبهة كوداي من ثلاث نواحٍ:

الناحيةُ الأولى: أنَّ **"الإيمان بالإله»** يتسبَّب في وجود الشَّر. ركّز البروفسور ستريكلاند ردَّه من هذه الناحية على ادِّعاء الدكتور كوداي أنَّ الإيمان بالإله نفسه هو ما يسبِّب وجودَ هذه الشرور. بدأ البروفسور ستريكلاند ردَّه بتمييز هذا الادّعاء عن ادِّعاءات أخرى مماثلة. فالدكتور كوداي لم يقل: «إنَّ بعضَ النصوص الدينية تدعو إلى العنف»، ولا إنَّ «بعض الديانات تدعو إلى العنف»؛ بل قال: «إنَّ الإيمان بالإله نفسه يدعو إلى الشَّر"، وذكر البروفسور ستريكلاند أنّه توجَد دراسات كثيرة جدًّا عن أسباب العنفِ باسْم الدين. وقد كتبَ الدكتور ماثيو رولي[٣] بحثًا في هذه القضية بعنوان: «أسباب العنف باسم الدين:

---

(١) لويد ستريكلاند (Lloyd Strickland): بروفسور الفلسفة والتاريخ الفكري في جامعة مانشيسر ببريطانيا. وهو متخصِّص في فلسفة الدين. انظر:

https://www.routledge.com/authors/i19327-lloyd-strickland

(2) "The Problem of Religious Evil: Does belief in god cause evil?" (238), by: Lloyd Strickland, in: International Journal for Philosophy of Religion, (84), 237-250, (2018)

(٣) ماثيو رولي (Matthew Rowley): حامل شهادة الدكتوراه في تاريخ الأديان من جامعة ليستر في بريطانيا، ويعمل كباحث في جامعة كامبردج الممشهورة. انظر:

www.wolf.cam.ac.uk/people/matthew-rowley

ثلاثمائة من الأسباب المساهمة المدّعية» (What Causes Religious Violence:) (Three houndred claimed causes)[١]. وكما هو واضح من العنوان فإنّه جمعَ ثلاثمائة من الأسباب التي ذكرها الباحثون لحصول العنف باسم الدين. ولم يقل أحدٌ من هؤلاء الباحثين إنَّ الإيمان بالإله نفسه سبب من هذه الأسباب. وإذا لم يكن كذلك، فإنَّ ادِّعاء الدكتور كوداي غير مدعوم بدراسات علمية. وحيث إنّه توجد فرقٌ عديدة من أتباع الديانات تُنكر استخدامَ العنف في أي حال من الأحوال، فإنّ القولَ بأنَّ الإيمان بالإله نفسه يتسبَّب في حصول العنف ادّعاء غير صحيح[٢].

هذا النقدُ جيِّد؛ لأنَّ الدكتور كوداي يحاول أنّ يقيم الحجّة ضدَّ الإيمان بالله نفسه، ولم يقمِ الحجَّة في نقد دينٍ من الأديان. وحاول أن يدَّعي أنَّ الإيمان بالإله نفسه متناقض ذاتيًّا، ولكن تبيَّن أنَّ هذا الادّعاء غير مدعوم بدراسات علمية.

الناحيةُ الثّانية: أنَّ الإيمان بالإله **«يتسبّب»** في وجود الشَّر. أبرز البروفسور ستريكلاند في هذا المقام أنَّ ما زعمه الدكتور كوداي من أنّ الإيمان بالإله يعتبر سببًا لوجود هذه الشُّرور. فذكر البروفسور ستريكلاند أنّه توجد دراسات كثيرة عن العلاقة بينَ الدين وبين العنف؛ فمنهم مَن يرى أنَّ الدين سببٌ من أسباب العنف، ومنهم مَن يرى أنّه ليس بسبب، وإنما يحصل العنف باسْم الدين كغطاء لأسباب سياسية، إلخ.

ثمَّ تساءل البروفسور ستريكلاند بعد ذلك: أيُّ نوع من أنواع الأسباب يقصده الدكتور كوداي؟ لأنَّه يوجد ثلاثة أنواع من الأسباب: السبب الضروري (Necessary cause)، والسبب الكافي (Sufficient cause)، والجمع بينهما المسمى بالسبب الوحيد (Sole cause). وبما أنَّ الدكتور كوداي لم يبيّن ذلك، فيحقّ النظر في ذلك كالآتي:

---

(١) هذا المقال منشور في:

Journal of Religion and Violence, 2(3), 361-402

(٢) انظر:

The Problem of Religious Evil: Does belief in god cause evil?" (239)

إذا كان المعتقدُ الديني **سببًا ضروريًا** للشَّر الديني، فلن يحدث الشرُّ الديني بدون المعتقد الديني. لكنْ حقيقة أنَّ الشَّر يُرتكَب ظاهريًّا باسم الإله لا يعني أن المعتقد الديني كان وراءه، حيث يمكن استخدامُ الدين كذريعةٍ للعنف، كما لاحظه كثير من الباحثين. وعليه، فإنَّه لا يمكن أن يكون المعتقد الديني سببًا ضروريًّا في الشَّر الديني.

وإذا كان المعتقدُ الديني **سببًا كافيًا** للشَّر، فإنه يعني أنَّ المعتقد الديني يضمن حدوثَ الشَّر. ولكن ذكر البروفسور ستريكلاند أنه يمكن رفض هذا الادِّعاء على أسس تجريبية، وذلك ببساطة خلالَ الإشارة إلى أنه يوجد الآن - كما أنه وُجد في السابق - عددٌ من الأشخاص الذين لديهم إيمانٌ ولم يشاركوا في هذا النوع من الممارسات التي يصفُها كوداي بأنَّها شريرة. وعليه، فلا يمكن أنْ يكون المعتقد الديني سببًا كافيًا للشَّر.

وإذا كان المعتقدُ الديني هو السببَ الوحيد للشر، فلنْ تكون هناك عوامل أخرى متضمَّنة. لكنَّ البروفسور ستريكلاند بيَّن أنه يمكن رفضُ هذا بأنه يوجد عوامل سياسية أو اقتصادية أو عرقية أو قومية في الشُّرور التي توصف بأنها «دينية»، مثل: الاضطرابات في أيرلندا الشمالية، والصراع الإسرائيلي الفلسطيني، أو حرب البوسنة.

واستنتجَ البروفسور ستريكلاند من ذلك أنّه من غير المعقول الادعاءُ بأن المعتقدات الدينية تسبِّب الشَّر، سواء ادَّعى أنّه السبب الضروري، أو السبب الكافي، أو السبب الوحيد[1].

وهذا الردُّ أيضًا جيّد، ويبيِّن أنَّ أسباب العنف باسم الدين متعدّدة، وأنّ كثيرًا مما يُرتكَب باسْم الدين له أسباب ودوافع أخرى. فعرضُ الشبهة بهذه السطحية مع وجود دراساتٍ علمية مختلفة في هذه القضية؛ يدلُّ على أنَّ الدكتور كوداي لم يفهم العلاقة بين الدين وبين حصول العنف.

الناحيةُ الثّالثة: أنَّ الإيمان بالإله يتسبَّب في وجود «**الشّر**». تحدّث البروفسور ستريكلاند في هذا المقام فيما يصفُه الدكتور كوداي بأنّه شرّ، لأنّه عرّف الشرَّ بناءً على

---

(١) انظر المصدر السابق (٢٤٥ - ٢٤٦).

كتبٍ علمانية ومُعادية للدين، بينما لو أراد أن يلزمَ المتديّن بأنّ فعلًا معينًا يعتبر شرًّا، فلا بدَّ أن يأخذ بتعريفهم للشرّ. فقد يعتقد المتديّن أنّ فعلًا معيّنًا يعتبر شرًّا، ولا يوافقه عليه العلماني. ومن الأمثلة على ذلك: الكفر. وقد يعتقد العلماني بأنّ فعلًا من الأفعال شرٌّ، ولا يوافقه عليه المتديّن - لا سيَّما إن فعل هذا الفعل باسم الدين نفسه -. فلا يمكن للملحدُ أن يلزم المتدِّين في هذه القضية، لأنهم يختلفون في المراد بالخير والشَّر[1].

والردُّ من هذه الناحية جيِّد لأنَّ الدكتور كوداي يدعو المتديّن - ويدخل في ذلك المسلم - أن يكفر بالله، لأنه يرتكبُ أنواعًا من الشرور - حسب تعريفه - باسْم الدين. ولكن ارتكاب الكفر والشرك أعظمُ الشرور على الإطلاق؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان: ١٣].

وإضافةً إلى ذلك، فقد يدَّعي الملحد أنَّ الجهاد في سبيل الله شرٌّ لأنَّه يتضمّن القتل والقتال، ولكنَّ المسلم لا يرى أنَّ الجهاد الشرعي شرٌّ؛ بل هو مِن أعظم أنواع العبادات على الإطلاق. وقد وعد اللهُ المجاهدين بالفضل العظيم في القرآن، والتوراة والإنجيل معًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

القسمُ الثّاني: الردودُ على خطابِ الملاحدة الجدد:

قد تقدّم في الردودِ السابقة تأصيلٌ جيِّد في نقد هذه الشبهة بصياغتها المنطقية. وتبيَّن أنَّ هذه الشبهة لا تهدِّد الإيمانَ بالله من الناحية المنطقية. ولكن الملاحدة الجُدد يخاطبون عواطفَ الناس بعيدًا عن استخدام لغة المنطق والعقلانية. ولذا، فقد اهتمَّ علماءُ الغرب بنقدِ خطاب الملاحدة الجدد. وذلك من أربعة أوجه:

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢٤٧ - ٢٤٨).

- **الوجهُ الأوَّل: تصحيحُ مفهوم الملاحدة الجدد للدين:**

عنْوَن هيتشن لكتابه الأشهر بـ: «الإله ليس عظيمًا: كيف أنَّ الدين يسمِّم كلَّ شيء». فعمَّم كلمة «الدين» بأنّه يسمِّم كلَّ شيء. ومثل هذا النوع من التعميم يتكرَّر في خطاب الملاحدة الجدد[١].

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا التعميم في خطابهم. وأوَّلُ مشكلة في هذا الخطاب أنَّ الملاحدة الجدد لا يحدِّدون المرادَ بالدين. وذكر البروفسور ألستر ماكغراث أنه لا يوجَد تعريف متَّفق عليه، فيما يميِّز الدين عنْ غيره. ومن الأمثلة على ذلك أنَّ الكونفوشيوسية توصَف بأنّها ديانة، مع أنَّها أقرب إلى فلسفة حياة، فقد لا تدخل في مفهوم الدين[٢].

كما أنَّ كلمة «الدين» تستخدم بمعنى أوسع في هذا الزمان من المعنى المتبادر إلى الذِّهن؛ فعلى سبيل المثال فقد كتبت البروفسورة كارولين مارفين[٣] بحثًا بعنوان: «التضحية بالدم والأمة: إعادة النظر في الدين المدني» (Blood Sacrifice and the Nation: Revisiting Civil Religion) في دورية الأكاديمية الأمريكية للدين، وذكرت فيه أنّ الوطنية تعتبر أقوى ديانةٍ في الولايات المتَّحدة، وربما في دول أخرى أيضًا. وذلك لأنّ الوطنية تعكسُ أنظمةَ الإيمان الطائفية الموجودة في ديانات أخرى في رأيها[٤]. والبروفسورة مارفين متخصِّصة في هذا المجال، ونشرتْ هذا البحث العلمي في دورية متخصّصة[٥]، وقد عدَّت الوطنية العلمانية ضمن الأديان.

---

(١) انظر أمثلة على ذلك في كتاب: Gunning for God (60 - 64)

(٢) انظر: "Is Religion Evil?", in God is Good, God is Great (122)

(٣) كارولين مارفين (Carolyn Marvin): بروفسورة متخصِّصة في العلاقات الثقافية في جامعة بنسيلفانيا بالولايات المتَّحدة. وألّفت كتبًا طبعتها مطابع جامعة أكسفورد وجامعة كامبردج. انظر: https://www.asc.upenn.edu/people/faculty/carolyn-marvin-phd

(٤) انظر: "Blood Sacrifice and the Nation: Revisiting Civil Religion", by: Carolyn Marvin, in Journal of American Academy of Religion, Vol. 64, No. 4, pp. 767-780

(٥) وصف موقع Jstor – الذي يجمع أكثر من ١٢ مليون بحث علمي – هذه الدورية بأنّها تعتبر أفضلَ دورية متخصِّصة في الدراسات الدينية.

انظر: الرابط: https: / /www.jstor.org/stable/1465621?seq=1

وقد اعترفَ البروفسور الملحد مايكل روس بأنّ نظرية التطوّر دين بقوله: «التطوّر دين. هذا يصدقُ على التطوُّر في البداية، ويصدق على التطوّر حتى اليوم»[1].

فإذا نظرنا إلى كلمة «الدين» بهذا المفهوم العام، فإنَّه يقال: إنَّ الوطنيين العلمانيين والملاحدةَ التطوّريين؛ أصحابُ ديانات. وهذا المفهوم له حظٌّ من النظر، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٥]. فإله العلمانيين والملاحدة: الأهواء والشهوات، ودينهم: اتِّباع تلك الأهواء والشهوات. ولديهم معتقدات يتعصّبون لها أكثر مما يتعصَّب بعضُ المتديّنين إلى دياناتهم.

فلا بدَّ أن يحدِّد الملاحدة الجدد ماذا يقصدون بالدين، ومن أي ناحية يكون الدين سببًا في هذه الشرور. وقد ذكر البروفسور كيث وارد أنَّ مَن أراد أن يتكلّم عن هذا الأمر فينبغي أنْ يقول إنَّ: «هذا الدين المعيّن، في هذه المرحلة من تكوينه خطير في هذا السياق الاجتماعي»[2].

وذكرَ البروفسور ألستر ماكغراث أنّه لو أردنا أن نحدِّد الخطورة الحقيقية في هذه القضية، فإنَّها تكمُن في التشدُّد والتعصُّب للمعتقد الذي يتبنّاه الإنسان. ثمّ انتقد دعاةَ الإلحاد الجديد بأنهم يتّصفون بهذه الصفة[3].

والخلاصةُ أنّه لا يخلو إنسانٌ من دين؛ فلا يمكن أن يُلام الدين بهذا العموم، بل لا بدَّ من تحديد الصفة الخطيرة فيمَن يتبنَّى ديانة من الديانات، وهي - في نظر البروفسور ماكغراث - صفةُ التعصّب والتشدّد، والملاحدة الجدد يتّصفون بهذه الصفة.

وقد ألزمَ البروفسور جون لينوكس الملاحدةَ الجدد بأنه لو صحَّ هذا التعميم على جميعِ المتديّنين بسبب ما يقوم به بعضُ المتديّنين؛ فإنَّه يصحُّ هذا التعميم

---

(1) How evolution became a religion: creationists correct? National Post, pp. B1,B3,B7 May 13, 2000.وقد سبق إيراد هذا النصّ.

(2) Is Religion Dangerous (55), by: Keith Ward, (Lion Hudson, 2006)

(٣) انظر: "Is Religion Evil?", in God is Good, God is Great (123)

كمقابل في حقِّ جميع الملاحدة، نظرًا لما قام به بعضهم. وحيث إنَّ عددًا كبيرًا من الملاحدة قاموا بمجازر، مثل لينين، وستالين، وماو - كما تقدَّم في مبحث: خطورة الإلحاد - فإنَّه يصحُّ وفقَ هذا المنهج التعميمي أن ينسب ذلك إلى جميع الملاحدة. والملاحدة الجدد لا يرتضونَ ذلك. وبناءً عليه، فلا ينبغي لهم أن يعمّموا ذلك على جميع المتديّنين[١].

- **الوجهُ الثّاني: نقدُ الملاحدة الجدد انتقائي:**

قد تبيَّن أنَّه لا توجد علاقة سببية بين الإيمان بالله وبين وجود الشرور، كما أنَّ ادِّعاء الملاحدة الجدد أنَّ «الدين» منبع الشرور خطأ كبير وتعميم غير منصف. ولكن الملاحدة يذكرون عددًا من النصوص الدينية من القرآن الكريم والكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى، ويذكرون أنَّ هذه النصوص تدعو إلى العنف. والدعوة إلى العنف شرٌّ في نظر الملاحدة. وعليه، فإنَّ الكتب المقدّسة لدى المتديّنين من أسباب وجود الشرور.

وقد انتقدَ علماءُ الغرب منهجَ الملاحدة في الاستدلال بهذه النصوص. فذكر البروفسور ألستر ماكغراث أنَّ هذه النوع من الاستدلال الانتقائي يتوافق مع المخاوف لدى السياسيّين العلمانيين الغربيين، إلا أنّه بعيد عن إدراك الحقائق من جميع جوانبها[٢].

والتَّنبيه على هذا الأمر مهمٌّ لأنَّه لا يمكن أن نفهم النصوص الدينية إلا في سياقها الصَّحيح. والملاحدةُ الجدد مِن أبعد الناس عن فهم النصوص الدينية، ولا سيَّما فهم القرآن الكريم والسنة النبوية. وقد سبق أنَّ دوكينز كتب في تغريدة: «لم أقرأ القرآن فلا أستطيعُ أن أنقل منه بذكر السورة والآية كما أستطيعُه في الكتاب المقدَّس»[٣]. فكيف ينتظَرُ منه أن يفهمَ الآيات القرآنية أصلًا؟ بل كيف ينتظر منه أن يفهم الأحكامَ الإسلامية التي ينتقدها، مثل الجهاد في سبيل الله؟

---

(١) انظر: Gunning for God (61)

(٢) انظر: Why God won't go away (43 - 44)

(3) https://twitter.com/richarddawkins/status/307369895031603200?lang=en

وإذا صحَّ هذا المنهجُ الانتقائي، فيمكن الاستدلالُ بما هو مكتوب في صفحة البرلمان البريطاني - الذي يعيش دوكينز في ظلِّه - : «بموجب الصلاحيات الملكية، يمكن للحكومة إعلانُ الحرب، ونشرُ القوات المسلحة للنزاعات في الخارج دون دعم أو موافقة البرلمان»[1]. ولكن، هل يعني ذلك أنَّ حكومته يمكنها إعلان الحرب أو نشر القوات بدون أيِّ ضوابط أو قواعد أو أحكام؟ الجواب: لا. ولو أكمل القارئ قراءة ما هو مكتوبٌ في صفحة البرلمان سيجد ذلك جليًّا. فكما أن دوكينز لا يرضى أن يقرأ أحدٌ هذه النصوصَ القانونية وينتقدها بسطحية، فلا يجوز له أنْ يقرأ نصوص الكتاب والسنة وينتقدها.

- **الوجهُ الثّالث: كثرةُ الخير باسْم الدين**[2]:

مِن الأساليب التي يستخدمُها الملاحدةُ الجدد: التركيزُ على بعض ما يقوم به أتباعُ الأديان مما يروْن أنه شَرّ، ويغضون الطرفَ عن العمل الخيري الذي يقومون به. وقد انتقدَ علماءُ الغرب هذا الأسلوب عندهم؛ فكتب البروفسور تيري إيجلتون بنبرة ساخرة مُنتقدًا كتاب: «وهم الإله» لدوكينز: «هذا هو الحيادُ العلمي الذي لا يتزعزع لدوكينز لدرجةِ أنَّه في كتاب من أربعمائة صفحة تقريبًا، لا يكاد يستطيع إقناع نفسه بأن منفعة بشريةً واحدة قد انبثقتْ من الإيمان الديني، وهي وجهةُ نظرٍ غير محتملة بداهة بقدر ما هي خاطئة تجريبيًّا»[3].

بل الدراساتُ العلمية التجريبية تبيِّن أنَّ المتديّنين أفضل من غير المتديّنين نفسيًّا

---

(١) صفحة: Waging war: Parliament’s role and responsibility على رابط البرلمان:
https://publications.parliament.uk/pa/ld200506/ldselect/ldconst/236/23603.htm

(٢) المقصود بهذا الوجه هو مناقشة الملاحدة ببيان عدم إنصافهم، وذكر أمثلة على ما يقرُّون بأنه عملٌ خيري. وأمّا المسلم، فيعتقد أنَّ العمل الصالح لا يكون مقبولًا إلا من مسلم مخلصٍ في عمله، ومتَّبعٍ لسنة نبينه r فيه. وقد تقدّم الحديث عن ذلك في الردّ على شبهة: برهان الملحد.

(٣) المقال: Lunging, Flailing, Mispunching, وهو منشور على الرابط:
https://www.lrb.co.uk/the-paper/v28/n20/terry-eagleton/lunging-flailing-mispunching

واجتماعيًّا. كتب البروفسور ديفيد سلوان ويلسون[١] مقالاً في الردّ على انتقادات دوكينز للمتديِّنين. وذكرَ تلخيصًا الدراسات العلمية في المقارنة بين المتديّنين وغير المتديّنين، وهو ما يأتي: «في المتوسط، يكون المؤمنون المتديّنون اجتماعيّين أكثرَ من غير المؤمنين، ويشعرون برضا نفسيٍّ أكثر، ويستخدمون وقتَهم بشكل جدّي أحسن، وينخرطون في التَّخطيط طويلِ الأجل بدلًا من إرضاء رغباتهم المندفعة. على أساس لحظة بلحظة، أفادوا بأنهم أكثرُ سعادة ونشاطًا واجتماعية ومشاركة وحماسة»[٢].

ثمَّ كتب في خاتمةِ مقاله خلاصةً مهمَّة عن دوكينز وأمثاله: «تكمُن مشكلة تحليل دوكينز في أنَّه لا يفهم الحقائق المتعلقة بالدين بشكل صحيح. في الوقت الحالي، هو مجرَّد ملحدٍ غاضب آخر، يتاجرُ بسمعته كمتحدِّث عن التطوّر، ومتحدثٍ باسم العلم للتَّعبير عن آرائه الشخصية عن الدين»[٣].

والدراساتُ العلمية في المقارنة بين الصحة النفسية والجسدية بين المتديّنين وغير المتديّنين؛ كثيرة جدًّا. وقد طبعتْ مطبعة جامعة أكسفورد كتابًا بعنوان: «دليل الدين والصحة» (Handbook of Religion and Health)، واطّلع محرّرو الكتاب على ١٢٠٠ دراسة و٤٠٠ مراجعة علمية في هذه القضية. وقد نقلَ أندرو سيمس - بروفسور الطبّ النفسي البريطاني - خلاصةَ الدراسات قائلًا: «في غالبية الدراسات، يرتبط التديّن بالرفاهية والسعادةِ والرضا عن الحياة. إضافةً إلى الأمل والتفاؤل، والشعور بالغرض والمعنى في الحياة. وكذلك ارتفاع احترام الذات، وتكيُّف أفضل مع المصيبة. وأيضًا، دعم اجتماعي أكبر ووحدة أقل. وانخفاض في معدلات الاكتئاب والتعافي بشكل أسرع من الاكتئاب. وانخفاض معدلات الانتحار، وقلة المواقف الإيجابية تجاه الانتحار.

---

(١) ديفيد سلوان ويلسون (David Sloan Wilson): بروفسور علم الأحياء في جامعة بيميتغتون بالولايات المتَّحدة. انظر: https: / /www.skeptic.com/eskeptic/07 - 07 - 04/

(٢) المقال: Beyond Demonic Memes: Why Richard Dawkins is Wrong About Religion, وهو منشور على الرابط: https: / /www.andyross.net /wilson.htm

(٣) المصدر السابق.

وكذلك، قلق أقلّ، وذُهان[1] أقلّ، وميول ذهانية أقل. إضافة إلى انخفاض معدلات تعاطي الكحول والمخدرات»[2].

فلماذا يتجاهل الملاحدةُ الجدُد هذه الدراسات العلمية كلّها، ثمّ يأتي أمثالُ هيتشن ويقول إنَّ «الدين» يسمِّم كلَّ شيء؟ فهذا دليلٌ على أنّهم لا يبالون بدراسات علمية، وإنَّما يريدون إثارةَ المشاعر والعواطف والتعبير عن أحقادهم الشخصية تجاه الدين والمتديّنين.

- **الوجهُ الرّابع: العنفُ باسْم الإلحاد:**

قد خصَّصت مبحثًا كاملًا في أنَّ مِن أساليب علماء الغرب في الردّ على الملاحدة: بيان الشرور المترتِّبة على الإلحاد، وبيَّنت أنَّ الشيوعيين الملاحدة تسبّبوا في موت ما يقاربُ مائة مليون نسمة. ولكن يحسنُ التَّنبيه أنَّ مِن طرق ردِّ علماء الغرب على شبهة: الشُّرور المترتّبة على وجود الأديان أنهم يقلبون الحجة على الملاحدة، بتذكيرهم بالشرور التي فعلها العلمانيون والملاحدة. وقد تقدَّم مِن كلام البروفسور جون لينوكس أنّه ألزم الملاحدةَ الذين يحكمون بالعموم على جميع المتديّنين بسبب ما يقوم به البعض، أنه يمكن وفقَ هذا المنهج التعميمي أنْ يحكم على جميع الملاحدة بسبب ما يقوم به بعضهم.

وإضافةً إلى ذلك، فإنَّ علماء الغرب قلبوا الحجةَ من جهة أخرى. وذلك أنَّ الملاحدة الجدد يركّزون على إبراز أمثلةٍ من الشرور التي مارسها أتباع الأديان المختلفة عبرَ التاريخ، فقلب علماء الغرب الحجة عليهم.

وذلكَ بالاعتراف أنَّ أتباع الديانات المختلفة قاموا بعدد من الشرور، وأن ذلك حصلَ في الغالب عندما تمكَّنوا من الحكم. فالنصارى على سبيل المثال كانوا مقموعين ومَظلومين في القرون الأولى بعد المسيح (عليه السلام) فيما يسمَّى بفترة

---

(١) ذهان (Psychosis): اختلال شديد في القوى العقليّة، يؤدِّي إلى اختلال جميع وسائل التكيُّف والتوافق العقليّ والاجتماعيّ والمهنيّ والدينيّ، مع فقد القدرة على الاستبصار. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ٨٢٦).

(٢) البحث: Is Faith a Delusion? (8), by: Andrew Sims وهو منشور على الرابط: https://www.rcpsych.ac.uk/docs/default-source/members/sigs/spirituality-spsig/is-faith-delusion-andrew-sims-editedx.pdf?sfvrsn=59a019c0_2

الاضطهاد[1]. ولكن عندما تمكّنوا من الحكمِ انقلبوا إلى ظلمة، ونشَروا دينهم بقوّة السلاح كما حصل في الحروبِ الصليبية وغيرها. ويمكن العلماني أن يوردَ عددًا من الأمثلة على ذلك، كما فعل الفيلسوف فولتير عندما أثار شبهةَ الربط بين الأديان والعنف، وكذلك مَن تبعه على ذلك من الملاحدة الجدد - كما سبق بيانُه -.

ولكن، ماذا فعلَ العلمانيون أنفسهم عندما تمكّنوا من الحكم؟ أوّلُ مرَّة تمكّنوا فيها من الحكم كان في الثورة الفرنسية، والثوّار كانوا متأثّرين بفلسفة فولتير المعادية للأديان. فماذا فعلَ هؤلاء الثوّار؟ وما هي آثارُ ثورتهم على مَن جاء بعدهم من العلمانيين؟

قد تخصَّص البروفسور المؤرّخ مايكل بيرلي[2] في هذه الجزئية من التاريخ، وألّف كتابه: «القوى الأرضية - صدام الدين والسياسة في أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب الكبرى» (Earthly Powers: The Clash of Religion and Politics in Europe from the French Revolution to the Great War). وكتب في هذا الكتاب عن الثورة الفرنسية: «ليس من المستغرب أنَّ مؤرخي الجمهورية [الفرنسية] اعتبروا دائمًا الثورة كأنها شيء «لا يمكن تفسيره»، خاصَّة وأنَّ ربع مليون شخص قد لقوا حتفهم خلال القمع الوحشي بعد الثورة من قبَل «المتعصبين» الذين لجأوا إلى تقنيات الإبادة الجماعية. كانت هذه هي المناسبة الأولى في التاريخ عندما شرعت دولة «غير دينية» معادية للكهنوت في برنامج القتلِ الجماعي الذي استبقَ عددًا من أهوال القرن العشرين. كانت الدولة العلمانية قادرةً على ارتكاب وحشية لا يمكن تصوُّرها مثل أي دولة مستوحاة من الدين»[3].

---

(١) انظر: النصرانية دراسة عقدية تاريخية (٧٩ - ٩٨)، للدكتور عبد الرحمن بن غالب عواجي، (دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٤٠ هـ).

(٢) مايكل بيرلي (Michael Burleigh): بروفسور التاريخ البريطاني، وقد عمل في عددٍ من الجامعات المرموقة، منها: جامعة أكسفورد. وقد ترجمت كتبه إلى عشرين لغة. انظر:
https://www.buckingham.ac.uk/research/hri/fellows/burleigh

(3) Earthly Powers: The Clash of Religion and Politics in Europe from the French Revolution to the Great War (97), by: Michael Burleigh, (Harper Collins E Books, 2004).

وقصدُه من هذا الكلام أنَّ أوّلَ مرَّة تمكَّن العلمانيون من الحكم فقاموا بمجازر راح ضحيتَها ربعُ مليون شخص[1]، ولكنَّ المؤرِّخين العلمانيين في فرنسا تحدّثوا عن هذه الثورة ووحشيتها كأنَّه لا يمكن تفسير هذه الشرور. فالعلمانيون سنّوا سنتين:

- **السُّنةُ الأولى: سنةُ الوحشيَّة في الحكم ضدَّ المتديّنين:**

وقد تأثَّر بهم مَن جاء بعضهم من الملاحدة والعلمانيين المعادين للأديان والمتديّنين. فالإلحادُ يمثّل خطورةً بحدِّ ذاته - كما سبق تفصيلُه في مبحثٍ خاص -، ولكنَّ الملاحدة والعلمانيين أنفسَهم درجات. وأخطرهم الحاقدون على الأديان والمتديّنين، كما كان الواقعُ في الثورة الفرنسية. وقد تكرَّر هذا الأمر في عددٍ من الدول؛ قالت مالرين روبينسون[2]: «حصل عنفٌ مستمرٌّ ضدَّ الدين - في الثورة الفرنسية، وفي الحرب الأهلية الإسبانية، وفي الاتحاد السوفيتي، وفي الصين. في ثلاثة من هذه الحالات، كان استئصالُ الدين جزءًا من برنامجٍ لإعادة تشكيل المجتمع خلال استبعاد أشكال معينة من الفكر عنْ طريق خلق غيابٍ للاعتقاد»[3].

ونقلَ البروفسور جون لينوكس هذا النصّ، وذكر أنَّه يقدِّر أنَّ حوالي ٩٤ مليون نسمة ماتوا بسبب السياسات القمعية في الدول الشيوعية، إضافة إلى أنَّ هتلر نفسه كان يتبنى جملةً من المعتقدات أقرب ما تكون إلى الإلحاد[4].

فعددُ مَن مات بسببِ سياسيات العلمانيين والملاحدة يقدَّر بأكثر من مائة مليون، رغم أنَّهم لم يتمكَّنوا من الحكم إلّا في فترة وجيزة من التاريخ البشري. وهذا لم

---

(١) وحسب تقديرات أخرى فإنَّ العدد أكثر من ذلك بكثير كما سبق.

(٢) مالرين روبينسون (Marilynne Robinson): كاتبة أمريكية مشهورة بكتاباتها عن الأديان، وقد حاز على عدد من الجوائز في الأدب. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Marilynne-Robinson

(٣) انظر المقال: Hysterical Scientism على الرابط:

https://harpers.org/archive/2006/11/hysterical-scientism/

(٤) انظر: Gunning for God (88)

يحرِّك مشاعرَ الملاحدة الجدد، وإنما تحرّكت مشاعرهم بسبب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، التي ماتَ فيها أقل من ٣٠٠٠ شخص، لأنّهم يزعمون أنّ تلك العمليات فُعلت باسْم الدين.

- **السُّنةُ الثّانية: سُنَّة غضِّ الطرف عن الأسباب الحقيقية لجرائمهم:**

فهذه الأسبابُ موجودةٌ في داخل الفكر العلماني والإلحادي نفسه. والملاحدة الجددُ لا يزالون ينكرونَ العلاقةَ بين الإلحاد وبين الجرائم التي قام بها الملاحدة. ومن الأمثلة على ذلك أنَّ ريتشارد دوكينز قال: «حتى لو قبلنا أنَّ هتلر وستالين كانا ملحدين، فإنَّ كلاهما ذو شاربٍ أيضًا... وماذا يعني ذلك؟! السؤال المثير للاهتمام ليس ما إذا كان البشرُ الأفراد الأشرار (أو الطيبون) متدينين أو ملحدين... ما يهمُّ هنا ليس ما إذا كان هتلر وستالين مُلحدين، ولكن ما إذا كان الإلحاد يؤثر بشكلٍ منهجي في الناس لفعل أشياء سيئة. ولا يوجد أدنى دليلٍ على ذلك»[1].

فالملاحدةُ يكثرون مِن إيراد الأمثلة على جرائم وشرور قام بها متديّنون لإثارة المشاعر ضدَّ الأديان. ولكن أوّل ما يوجَّه الاعتراض نفسه إليهم، فإنهم يعرضون عن الأسباب الحقيقية الموجودة في الفكر الإلحادي التي تؤدّي إلى هذه الجرائم. ولهذا يتهرَّب دوكينز ويقول إنَّ كلًّا من هتلر وستالين كان لديهما شوارب، بدون نظر في حقيقة فكرهما العلماني والإلحادي.

وحجَّة دوكينز في ذلك أنّ الإلحاد هو عدم الإيمان، ولا أحد يفعل الخير أو الشَّر، لأنَّه لا يؤمن. وهذه مغالطة، وقد تقدَّمت أدلةٌ وبراهين على أنَّ الفكر الإلحادي نفسه خطير. وإضافةً إلى ذلك، فقد ذكرَ البروفسور ديفيد برلينسكي ردًّا قويًّا على ادّعاء دوكينز أنَّ الإنسان لا يفعل شيئًا بسببِ غياب الإيمان، وهو قوله: «ما لم يؤمن به هتلر، وما لم يؤمن به ستالين، وما لم يؤمن به ماو، وما لم يؤمن به أفراد قوات الأمن الخاصة النازية، وما لم يؤمن به الجستابو [الشرطة السرّية النازية]، وما لم تؤمن به المخابرات

---

(1) The God Delusion (272-272)

السوفيتية، وما لم يؤمن به المفوضون والموظفون والجلادون المتهورون والأطباء النازيون، ولا المنظّرون والمثقفون في الحزب الشيوعي... هؤلاء كلّهم لم يؤمنوا **بأنَّ الله كان يراقبُ أفعالهم**. ويمكن أن نقول: إنَّ قلَّة قليلة من أولئك الذين نفذوا أهوالَ القرن العشرين كانوا قلقين مِن أنَّ الله كان يراقب أفعالهم أيضًا؛ لأنَّ هذا هو المراد الحقيقي بالمجتمع العلماني في نهاية الأمر»[1].

وقد لخَّص الأديب الروسي ألكسندر سولجنيتسين[2] السببَ الرئيس للجرائم التي قامَ بها ملاحدةُ الاتِّحاد السوفيتي، بل المعاناة كلُّها في القرن العشرين بقوله: «إذا طُلب منّي اليوم أن أصيغَ بأكبر قدرٍ مُمكن من الإيجاز السببَ الرئيس للثورة [الروسية] المدمرة التي ابتلعت حوالي ستين مليونًا من شعبنا؛ لم أستطعْ أن أكون أكثر دقة من أن أقول: **لقد نسوا الإله**؛ لهذا السبب حدثَ كلُّ هذا... إذا دُعيت لتحديد السمة الرئيسية للقرن العشرين بأكمله، هنا أيضًا، لن أتمكَّن من العثور على أي شيء أكثر دقة وبليغًا مِن أن أكرِّر مرة أخرى: **لقد نسي البشرُ الإله**»[3].

وهذا هو السببُ الرئيس لكثرة الشرِّ الذي قام به الملاحدة والعلمانيون منذ أوّل يوم استلموا فيه الحكم، وإلى هذا الزمان. وبذلك قلبَ علماءُ الغرب حجة الملاحدة عليهم، وبيَّنوا الشرورَ التي قام بها الملاحدة، وأنَّ هذه الشرور منبعثة من الفكر الإلحادي نفسه، وإنْ كان الملاحدة الجدد يحاولون جاهدين التغطية على هذه الحقيقة القطعية.

---

(1) Devils Delusion (26-27)

(٢) ألكسندر سولجنيتسين (Aleksandr Solzhenitzyn): الأديب والمؤرّخ الروسي، حاز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٧٠ م. وتوفي عام: ٢٠٠٨ م. انظر:
www.britannica.com/biography/Aleksandr-Solzhenitzyn

(3) Aleksandr Solzhenitzyn, Templeton Prize Address, 1983, in: Gunning for God (95)

الفقرةُ الرّابعة:
تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهةِ الشُّرور المترتبة على وجود الأديان:

يكثرُ الملاحدةُ من استعمال شُبهة: الشُّرور المترتبة على الأديان في إثارة المشاعر لدَى أتباعهم، ولتشكيكِ أتباع الأديان في معتقداتهم. وقد استغلَّ الملاحدةُ الجدد العملياتِ الإرهابيةَ التي وقعتْ باسْم الدين في القرن الواحد والعشرين لنشر إلحادهم وكفْرهم. ولكنَّ علماءَ الغرب قد أفادوا في ردودهم على هذه الشبهة. وقد فكَّكوا الشبهةَ من أساسها، وقلبوا الحجة على الملاحدة بطريقة جيّدة.

ولكنَّ هذه الشبهة بالذات تظهر التناقضَ الواضح عند كلٍّ مِن النصارى والملاحدة الجدد. وبيانُ ذلك بما يلي:

التناقضُ عند النصارى:

التناقضُ عندهم يرجعُ إلى ما سبق مِن ضعفهم في التعامل مع مشكلة الشرِّ ومشكلة جهنَّم. وذلك أنَّ النصارى يذكرون أنَّ الإله هو المحبّة، ويركِّزون على أنَّ ديانتهم هي ديانة المحبَّة والودِّ والرحمة. ومع ذلك فإنَّ كتابهم المقدَّس ينصُّ جليًّا على أنَّ الإلهَ أمر بني إسرائيل بالإبادة الجماعية كما تقدّم.

والجمعُ بين الإيمان بأنَّ الربَّ هو المحبّة نفسها، وأنّه يأمر باستئصال أقوام بأكملهم، حتَّى حيواناتهم؛ فيه صعوبةٌ بالغة. ولهذا ركَّز دوكينز على هذه القضية في كتابه: وهم الإله، قبل إثارة شبهة الربط بين الدين والعنف.

وهذه المسألة تنسفُ جميعَ الردود الجيِّدة السابقة للنصارى؛ لأنَّ النصارى يسعون إلى فكِّ الارتباط بينَ الدين والعنف والادِّعاء أنَّ دينهم هو دين المحبة، ولكن هذه النُّصوص في كتابهم المقدَّس تصرِّح أنَّ الربَّ نفسه أمر بهذه الإبادة الجماعية.

التناقضُ عندَ الملاحدة الجدد:

قد تقدَّم مرارًا أنَّ حركة الإلحاد الجديد بدأت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمر، وأنَّها أشبهُ ما تكون بردَّة فعلٍ للعنف الذي مورس باسم الدين. وقد يتوقّع منهم أنهم ضدَّ

كلِّ أنواع والعنف وأشكاله. ولكنَّ الواقع ليس كذلك. بل أيّد ريتشارد دوكينز كريستوفر هينشن وسام هاريس على ما سمِّي بالحرب على الإرهاب بعد ذلك[١].

وقد نشرَ معهد واتسون للشئون العامة والدولية (Watson Institute for International and Public Affairs) التابع لجامعة براون (Brown University) الأمريكية بحثًا بعنوان: "إيجاد اللاجئين: النزوح الناجم عن حروب الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر" (Creating Refugees: Displacement Caused by the United States' Post - ٩ / ١١ Wars) عام ٢٠٢٠م، وذكرَ الباحثون أنَّه قتل وجرح ملايين من البشر في أربع دولة بسبب حرب الولايات المتَّحدة على الإرهاب، وقد تشرَّد بسببها ما بين ٤٨ - ٥٩ مليون شخص[٢]. فدعاةُ الإلحادِ الجديد يتباكون على مَن قُتل في أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي راح ضحيتَها أقلُّ من ثلاثة آلاف شخص، ثمّ أيّدوا هذه الحرب المدمّرة التي مات وجرح فيها الملايين.

فكلٌّ من النصارى والملاحدة الجدد يتظاهرون بأنّهم ضدَّ جميع أشكال العنف، ولكنَّ الكتاب المقدَّس عندَ النصارى يأمر بالإبادة الجماعية، ودعاة الإلحاد الجديد يؤيِّدون الحروب المدمّرة. وهذا هو التناقض بعينه.

وأمّا المسلم، فإنَّه يقرُّ بأنَّ الجهاد شعيرة من شعائر الدين، ولكنه يعتقد أنه ليس المقصودُ منه استئصالَ الكفّار بأكملهم؛ بل المقصود الأعظم هو دعوتهم إلى الإسلام؛ فـ(كان رسولُ الله (ﷺ) إذا أمّر أميرًا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومَن معه من المسلمين خيرًا، ثمَّ قال: اغزوا باسْم الله في سبيل الله، قاتلوا مَن كفر

---

(١) انظر المقال:

Why the arguments of the 'New Atheists' are often just as violent as religion

الذي جمع أقوالهم في هذه المسألة على الرابط:

https://www.kcl.ac.uk/new-atheists

(٢) البحث منشور على الرابط:

https://watson.brown.edu/costsofwar/files/cow/imce/papers/2020/Displacement_Vine%20et%20al_Costs%20of%20War%202020%2009%2008.pdf

بالله، **اغْزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا**، وإذا لقيت عدوَّك مِن المشركين، فادْعُهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيَّتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكفَّ عنهم، **ثمَّ ادْعهم إلى الإسلام، فإنْ أجابوك، فاقبلْ منهم، وكفَّ عنهم**، ثمَّ ادعهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إنْ فعلوا ذلك فلهم ما للمُهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإنْ أبوا أن يتحوَّلوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعرابِ المسلمين، يجري عليهم حكمُ الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإنْ هُم أبوا فسَلْهم الجزية، فإنْ هُم أجابوك فاقبَل منهم، وكفَّ عنهم، فإنْ هُم أبوا فاستعنْ بالله وقاتلهم)[1].

وفي هذا الحديث دليلٌ على أنه ليس المقصود مِن قتال المشركين: قتلهم كلّهم، بل يدْعون إلى الإسلام أوّلًا، ثمَّ إلى الجزية، والخيار الثالث والأخير هو قتالهم. وفي الحديث بيانٌ لجملةٍ من آداب الحرب، مثل النهي عن الغلول، والغدر، والتمثيل، وقتل الأولاد. فلا بدَّ إذًا من إدراك أنَّ الجهاد في الإسلام وسيلةٌ لنشر الخير والهداية والنور في العالم، وإزالة كلِّ ما يمنع من ذلك، وليس هو غاية في نفسه.

وفرقٌ بين مَن يقرُّ بشعيرة الجهاد مع ضوابطه الصارمة، وبين من ينافق ويتظاهر بأنَّ دينَه ضدَّ العنف مع اشتمال كتابه المقدَّس على الإبادة الجماعية، أو من ينكر على الحروبِ الدينية ويحثُّ على الحروب المدمّرة بحجة محاربة الإرهاب. فالإسلام دينُ الوضوح والصراحة، وبعيد مَن نفاق النصارى والملاحدة الجدد.

وبقيَ التَّنبيه على أنَّ مَن قتل وأرهب من المسلمين قد لا يفعل ذلك باسْم الدين، وإنَّما أوتي في الغالب من قبَل فهمِه الخاطئ لأحكام الإسلام؛ فهو مَن يتحمَّل سوء فعله لا الإسلام. ثمَّ ينبغي أيضًا إدراك أنَّ أولى وأعظم من تصدى لهؤلاء الغلاة هم المسلمون، بل علماؤهم؛ فلم لا يذكر دعاةُ الإلحاد الجدد أنَّ الإسلام هو الذي دعا علماء المسلمين إلى التصدّي لتلك الشرور التي يتباكون عليها!

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٣١)، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، من حديث بريدة t.

المبحثُ الخامس

ردودُهم على شبهةِ مصير الجاهل

هذا المبحثُ يتناول سؤالَ الملاحدة: ماذا سيحصل في الآخرة بالذي لم يسمع بالرسالةِ الإلهية؟ وحسبَ المعتقد الألوهي فإنَّ الإله عليم بحالهم وقادر على إيصال الرِّسالة إليهم، وينتج مِن ذلك السؤال: هل من الرحمة أن يعاقبهم رغم جهلهم؟ هذه خلاصةُ الشبهة، وكما هو ظاهرٌ فإنّها تشبه مشكلةَ الشَّر من ناحية، كما أنّها تتعلّق بمشكلةِ جهنم. ولكنْ رأيت مِن المناسب أنْ أوردَ هذا المبحث في آخر هذه الرسالة، لأنَّ الشبهة تتعلَّق بمصير الجاهل، فكأنّها آخرُ ما يمكن أن يتمسّك به الملاحدة بعد أنْ أقيمت الحجةُ عليهم. وكما سيتبيَّن خلال هذا المبحث فإنَّ هذه الشبهة داحضة.

وبحسبِ التتبُّع والاستقراء، فإنَّ الملاحدة لا يستخدمون هذه الشبهة كثيرًا، وإذا أوْردوها فإنهم يذكرونَها بطريقة عاطفية. وهذا هو سببُ إيرادها ضمن الشبهات العاطفية. وقد قسَّمتُ هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: مواقفُ النصارى من مصير الجاهل.

الفقرةُ الثّانية: بيانُ شبهة الملاحدة المتعلقة بمصير الجاهل.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: مصير الجاهل.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: مصير الجاهل.

الفقرةُ الأولى: مواقفُ النَّصارى من مصير الجاهل:

الكتابُ المقدَّس لدى النصارى مُشتمل على كتبٍ ورسائل مختلفة، قد ألّفها مؤلّفون كثيرون عبرَ فترةٍ زمنية طويلة، ثمَّ جُمعت في كتابٍ واحد. ولا يُعرف كثير عن أكثر هؤلاء المؤلفين، ولكن مما لا شكَّ فيه أنَّ آراءهم اللاهوتية لم تكن متّفقة(١).

وهذا مِن أسباب اختلاف الفرق النصرانية فيما بينها في قضايا عقدية عديدة. ومن هذه القضايا العقدية: مصيرُ الجاهل في الآخرة.

وقدِ اختلف اللاهوتيون النصارى الأوائلُ في هذه المسألة إلى أقوال متعددة، ولكن استقرَّ القولُ عند اللاهوتيَين أغسطين وتوما الأكويني إنه يجب معرفة المسيح قبل الموت، وإلّا كان مصير الإنسان إلى النار(٢).

ذكرَ البروفسور وليام لاين كرايغ والبروفسور جي بي مورلاند أنَّ الاعتقاد أنَّ الديانة النَّصرانية هي الطريق الوحيد للخلاص تسمّى بـ»الخصوصية المسيحية“ (Christian Particularism)، واستقرَّ هذا الاعتقاد بين النصارى، وكان سائدًا في القرون الوسطى. ولكنَّهما ذكرا أنَّ هذا الاعتقاد ضعُفَ معَ ما يسمى بتوسُّع أوروبا واكتشافات الرحّالة بينَ ١٤٥٠ حتى ١٧٥٠م. فخلالَ رحلاتهم، وصلوا إلى حضارات جديدة، وتمَّ اكتشافُ عوالم لا تعرف شيئًا عن النصرانية. وكان الإدراك أنَّ جزءًا كبيرًا من العالم يقع خارجَ حدود النصرانية له تأثير مزدوج في تفكير الناس الديني. وبيّن البروفسور وليام لاين كرايغ والبروفسور جي بي مورلاند أنَّ هذا التأثير كان من وجهين:

---

(١) انظر بيان البروفسور بارت إيرمان لهذه المسألة في المقطع:

Bart Ehrman on Bible Authors

وهو منشور على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=pDfYA21lDic

(٢) انظر المقال: The Perennial Debate, وهو منشور على الرابط:

١٢, ٠a.html /aprilweb – only /٢٠٠٠ /https: / /www.christianitytoday.com /ct

الوجهُ الأوَّل: أنَّ الناس مالوا إلى جعل المعتقدات الدينية نسبية. وكان مِن الواضح أنه بعيدًا عن أنْ تكون النصرانية الدينَ العالمي للبشرية، فإنّها كانت محصورةً إلى حدٍّ كبير في أوروبا الغربية، وهي جزءٌ صغير من العالم فقط. وبدا لبعض الناس أنه لا يوجد دينٌ يمكنه الادِّعاء بالصلاحية العالمية. فظهر لهؤلاء المتأثّرين بالاكتشافات أن لكلِّ مجتمع دينَه الخاص الذي يلائم احتياجاته الخاصة.

الوجهُ الثّاني: أنَّهم رأوا أنَّ ادِّعاء النصرانية بأنها الطريق الوحيد للخلاص يبدو ضيقًا وقاسيًا[١].

واستغلَّ فلاسفةُ التنوير مثل: فولتير هذه الأجواء، واستهزأوا بالنصارى بذكر أنه يوجَد ملايين من الصينيين سوفَ يدخلون النار بسبب عدم إيمانهم بالمسيح، مع أنهم لم يسمعوا به أصلًا. وحسبَ ما وقفتُ عليه، فإنَّ سخرية فولتير بداية ظهور شبهة: مصير الجاهل. وكانت شبهةً عاطفية، سُخريةً بالديانة النصرانية أكثرَ من كوْنها اعتراضًا على وجودِ الخالق[٢].

وفي القرن العشرين تغيَّرت التركيبةُ السكانية في الغرب كثيرًا، وازداد عددُ المعتنقين لدياناتٍ مختلفة، وهُم يعيشون جنبًا إلى جنب مع الحديث عن التعدّدية الدينية في المجتمعات الغربية وتقبُّل الآخر. وهذا الأمرُ جعل بعض اللاهوتيين النصارى يعيدون النظرَ في المعتقد التقليدي في الخصوصية المسيحية، ومصير غير النصراني في الآخرة[٣].

وقد ذكر بعضُ الباحثين أنَّ النصارى اختلفوا إلى ثلاثة أقوال رئيسة في هذه المسألة:

---

(١) انظر: Philosophical Foundations of a Christian Worldview (616).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر المقال:

A Three-Pronged Defense of Salvific Exclusivism in a World of Religions

وهو منشور على الرابط:

http://www.leaderu.com/theology/salvific.html

القولُ الأوَّل: التفرُّدية (Exclusivism). وخلاصة هذا القول: إنه لا يمكن الخلاصُ إلّا عن طريق العلم بالمسيح ورسالته. ومن لم يؤمن بالمسيح فإن مصيره إلى النار.

القولُ الثّاني: التعدُّدية (Pluralism). وخلاصته: أنَّ جميع الديانات الكبيرة تقدِّم طرقًا للخلاص والعلم بالحقيقة الإلهية.

القولُ الثّالث: الإجمالية (Inclusivism). وهو قولٌ وسط بين القولين الأوّلين. وخلاصته: أنّه لا بدَّ من الإيمان بالوحي الخاص الذي جاء به المسيح، كما أنه لا بدَّ من الإيمان بألوهيته، وأنَّه مات من أجل ذنوب البشر. ولكنَّ الجاهل الذي لم يسمع بالمسيح مخاطب بالاستجابة للوحي العام. ومقصودُهم بالوحي العام: الإيمان بوجود الله وعبادته[١].

أمّا القولُ الأوَّل فهوَ القول التقليدي لدى النصارى بعد أغسطين حتى عصر التَّنوير، ولا يزال كثيرٌ من اللاهوتيين المدافعين عن النصرانية يتبنون هذا القول، بل هو قولُ معظم الإنجيليين من البروتستانت المحافظين والأصوليين. والقول الثاني يتفرّع إلى أقوالٍ متعدِّدة، ويتبنّاها بعضُ فلاسفة النصارى المعاصرين. وأمّا القولُ الثالث فهو ما ذهبَ إليه الكاثوليك بعد المجمع الفاتيكاني الثاني في الستينيات من القرن الماضي، وهو قولُ كثير من البروتستانت غير الأصوليين[٢].

وشبهةُ مصير الجاهل تتوجَّه في المقام الأوَّل إلى القائلين بالقول الأوّل، لأنَّهم يشترطون الإيمانَ بالمسيح للخلاص من النار ولدخول الجنة. ولا شكَّ أنه يوجد

---

(١) انظر:

The Salvation of the Unevangelized: What the Literature Suggests (2-3), by: Robert A. Alstadt and Enoch Wan

وهو بحث إليكتروني منشور على هذا الرابط:

http://www.enochwan.com/english/articles/pdf/The%20Salvation%20of%20the%20Unevangelized.pdf

(٢) انظر المقال:

A Three-Pronged Defense of Salvific Exclusivism in a World of Religions

عددٌ كبيرٌ من الناس لم يسمعوا بالمسيح، فيتوجَّه السؤالُ إليهم: كيف يعاقب هؤلاء لعدم إيمانهم به، رغم جهلهم؟

والشبهةُ لا تتوجَّه إلى القائلين بالقول الثاني، لأنهم لا يشترطون الإيمانَ بالمسيح إطلاقًا، بل جميعُ الديانات طرق وسبلٌ إلى الجنة وللخلاص من النار.

وأمّا القائلون بالقول الثالث، فيمكن توجيهُ الشُّبهة إليهم من ناحية، وهي أنَّ الإله قد يسَّر السبلَ والطرق للإيمان لمن عاش في الدول النصرانية حيث تقام عليه الحجة التَّفصيلية - في نظرهم -. وأمّا الاستجابة للوحي العام فهي أمرٌ غامض عند النصارى. وقد ذكرَ البروفسور وليام لاين كرايغ أنّه يتمنى أنه يوجَد أناس استجابوا لهذا النوع من الوحي - وأنَّ أرسطو منهم على سبيل المثال -، ولكن مَن تأمَّل دلالات كتابهم المقدّس فإنَّه يُفهم أنّ عددَ هؤلاء قليل جدًّا[1].

الفقرةُ الثّانية: بيانُ شبهة الملاحدة عن مصير الجاهل:

ظهرتْ شبهة: مصير الجاهل تدريجيًّا في عصري النهضة والتنوير. وكان فولتير يوردُ هذه الشبهةَ على سبيل الاستهزاء والسخرية من المعتقد النصراني. ولا شكّ أنَّ هذه الشُّبهة مؤثِّرة في النصارى حتى إنَّها جعلت بعضهم يعيدون النظر في معتقداتهم، بل إنَّ الكنيسة الكاثوليكية غيّرت رأيها في المسألة.

فهذه الشبهةُ أزمةٌ في داخل الصفوف النصرانية، ويتأثّر بها كثير من النصارى. ويعلم دعاةُ الإلحاد أنَّ هذه المسألة نقطة ضعف عند النصارى، فيشكّكونهم في عقائدهم بإثارتها. ومِن الأمثلة على ذلك ما قاله سام هاريس في مناظرته مع البروفسور وليام لاين كرايغ عن الأسس الأخلاقية للإلحاد والنصرانية: «... والأسوأ من ذلك، مِن وجهة نظر الدكتور كرايغ، فإنَّ معظم هؤلاء الناس - وكثير منهم بالتأكيد - سيذهبونَ

---

(١) انظر المقطع:

How Will God Judge Someone Who Has Never Heard the Gospel

وهو منشور على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=cBmLTpem7tw

إلى الجحيم لأنهم توجَّهوا بصلاتهم إلى الإله الخطأ. فكّر في ذلك! حسنًا، بدون أيِّ خطأ من جانبهم، فقد وُلدوا في ثقافةٍ خطأ، تعلّموا منها الدين؛ ففاتَهم الوحي. حسنًا، يوجد ٢,١ مليار شخصٍ في الهند في هذه اللحظة. معظمهم من الهندوس. وعليه، فإنَّ معظمهم مشركون. حسنًا، في عالم الدكتور كرايغ - بغضِّ النظر عنْ مدى خيرية هؤلاء الأشخاص - فإنهم محكومٌ عليهم بالخسارة. إذا كنت كذلك، إذا كنتَ تدعو إله القرد هانومان فأنتَ محكوم عليك. حسنًا، ستتعرَّض للتعذيب في الجحيم إلى الأبد. الآن، هل هناك أدنى دليلٍ على ذلك؟ لا. ما في دليل، ولكن قيل ذلك في مرقس ٩، ومتى ١٣، والرؤيا ١٤ [١]...

حسنًا، لقد خلقَ الإله العزلةَ الثقافية للهندوس. لقد هَندَسَ ظروف موتهم حتى جهلوا الوحي، ثمَّ خلق عقوبةً لهذا الجهل، وهو الخلود في النار بعذاب واعٍ. حسنًا، من ناحيةٍ أخرى، فحسبَ الدكتور كرايغ، فإنَّ القاتل المتسلسل العادي في أمريكا، الذي قضى حياتَه في اغتصاب وتعذيب الأطفال. ما عليه سوى القدوم إلى الإله - تعال إلى يسوع - في محكوميته... وسيقضي له بالخلود في الجنَّة بعد الموت. هناك شيء واحد يجبُ أن يكون واضحًا تمامًا بالنسبة لك: هذه الرؤية للحياة لا علاقة لها مطلقًا بالمساءلة الأخلاقية»[٢].

فالبروفسور كرايغ ناقَش هاريس في مسألة: الأخلاق الموضوعية والمساءلة عن التَّجاوزات الأخلاقية في الآخرة. فأورد هاريس شبهة: مصير الجاهل أثناء النقاش. وحاولَ أن يبرهن بطريقة عاطفية أنَّ محاسبة الجاهل بالوحي في الآخرة بالعذاب الأبدي في النار منافٍ للعدل والرحمة. وهذه المناظرة اشتهرت كثيرًا في الغرب، وعدد مشاهداتها يزيدُ عن ستة ملايين[٣]، إضافة إلى أنَّها مترجمة إلى اللغة الغربية

---

(١) يشير هاريس إلى النصوص التي يستدلّ بها النصارى على هذه المعتقدات من كتابهم المقدّس.

(٢) المناظرة:

Is the Foundation of Morality Natural or Supernatural? The Craig-Harris Debate

وهي مفرّغة على الرابط.

(٣) عنوان المناظرة في يوتيوب: The God Debate II: Harris vs. Craig, وهي منشورة على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=yqaHXKLRKzg

بعنوان: الإلحاد بين قصورين[1]. وعليه، فإنَّ هذه الشبهة انتشرت، ولا بدَّ من الردّ عليها.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: مصير الجاهل:

قد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة من أوجه عديدة، أكتفي بذكر أربعة منها:

الوجهُ الأوَّل: تحويلُ الشبهة العاطفية إلى شبهة منطقية، مع الردِّ عليها:

أظهرَ فولتير هذه الشبهةَ في صورة الاستهزاء والسخرية، ثمّ طرحها سام هاريس بطريقةٍ عاطفية. ولكنَّ السخرية والاستهزاء ودغدغة العواطف والمشاعر لا تعتبر اعتراضًا حقيقيًّا على وجودِ الخالق، أو حتى في الردِّ على معتقد ديني. لا شكَّ أنَّ كثيرًا من الناس عندَهم حساسية، ويتأثَّرون بالشبهات العاطفية، ولكنَّها ليست حججًا. ولهذا، فإنّه قد يكونُ من المفيد أنَّ الذي يردُّ على الشبهات العاطفية أن يصيغها بصياغة منطقية حتى يرى المتأثّر أنَّ ما يظهر في صورة الحجة ليست بحجة في الحقيقة.

وهذا ما فعله البروفسور وليام لاين كرايغ والبروفسور جي بي مورلاند في تعاملهما معَ هذه الشبهة؛ حيث ذكرَا أنَّ صاحب هذه الشبهة يزعم في الحقيقة أنه لا يمكن الجمعُ بين عبارتين:

العبارةُ الأولى: الإله ذو قدرةٍ مطلقة، ويحبُّ الجميع.

العبارةُ الثانية: بعضُ الناس لم يسمعوا بالإنجيل، فيكون خاسرًا في الآخرة بسبب هذا.

---

(١) قام مركز دلائل بترجمة هذه المناظرة ونشْرها بالكامل - بما في ذلك ترجمة شبهة هاريس -. ومع خطورةِ هذه الشبهة لم يتمّ التعليق عليها إلا بتسعة أسطر في الحاشية عن إقامة الحجة. انظر: الإلحاد بين قصورين (٥٩).
وأمّا البروفسور كرايغ فلم يردّ على هذه الشبهة في المناظرة إلا ببيانه أنّها ليست محل النقاش في مناظرته، ثمَّ نصح بالرجوع إلى موقعه التنصيري: The Reasonable Faith. الإلحاد بين قصورين (٦٧ - ٦٨).
ولا شكَّ أنّ ترجمة شبهة عاطفية كهذه مع الردّ المختصر في الحاشية من الخطورة بمكان، ويتوجّب الردُّ التفصيلي عليها.

وحيث إنَّ الجمع بين العبارتين ليس مستحيلًا منطقيًّا، ولا يوجد تعارض مطلق بينهما؛ فلا بدَّ أن يفترض صاحبُ الشبهة أنَّ هناك بعض المقدّمات الضمنية الأخرى، مثل:

المقدِّمة الضِّمنية الأولى: إذا كان الإلهُ ذا قدرة مطلقة، فإنه يمكنه خلقُ عالم يسمع فيه جميعُ الناس بالإنجيل. وعليه، فإنهم يصلون إلى الخلاص(١) بحرّية.

المقدِّمة الضِّمنية الثانية: إذا كان الإلهُ يحبُّ الجميع، فإنه يفضّل وجود عالم يسمعُ فيه جميعُ الناس بالإنجيل ويصلون إلى الخلاص بحرّية.

ثمَّ ردًّا على المقدّمة الضمنية الأولى بأنَّ الإله يقدر على خلق أيّ عالم، ويقدر أنْ يهيئ الظروفَ للجميع بأنْ يسمعوا بالإنجيل. ولكن، مادام أنَّ البشر عندهم إرادة واختيارٌ فلا ضمان أنَّ جميعهم سيصلون إلى الخلاص. بل بالعكس فقد يكون كثيرٌ منهم يرفضونَ الإيمان ويضلُّون الطريق. وعليه، فإنَّ هذه المقدّمة الضمنية ليست صحيحةً بالضرورة.

والردّ على المقدِّمة الثانية هي أنها ليست صحيحةً بضرورة أيضًا؛ فقد يكون للإله وحِكم في عدم حلقه لمثل هذا العالم(٢).

وتعليقًا على ما تقدَّم أقول: طريقةُ التعامل مع الشبهات العاطفية بتحويلها إلى صياغةٍ منطقية طريقةٌ جيِّدة؛ لأنَّها تكشف عن حقيقة الشبهة وجوهرها ومكمن الخلل فيها. والكلامُ العاطفي قد يحجب الإنسانَ عن إدراك حقيقة ما يسمعه ويتأثّر به لا شعوريًّا. ولهذا يمكن الاستفادةُ من طريقة البروفسور كرايغ والبروفسور مورلاند في التعامل معَ هذه الشبهة، وغيرها من الشبهات العاطفية.

وأمّا طريقتهما في الردِّ مع هذه الشبهة بعينها، ففيها مشكلتان أساسيتان:

المشكلةُ الأولى: أنَّ كلامهم منصبٌّ على النصرانية ومعرفة الإنجيل. ومقصودهم بالإنجيل: رسالة المسيح التي حرَّفها بولس، ثمَّ تطوَّر إلى ما يُعرف

---

(١) بمعنى أنهم يدخلون الجنة وينجون من النار في زعمهم.

(٢) انظر: Philosophical Foundations of a Christian Worldview (621 - 623)

اليوم بالديانة النَّصرانية. وهذا دينٌ وثني لا علاقةَ له بالمسيح، ولا علاقة له بالكتاب المنزَّل عليه المسمَّى بالإنجيل. وعليه، فإنَّ هذه الديانة لا توصل أحدًا إلى الجنة.

المشكلةُ الثّانية: أنَّ هذا الكلام مبنيٌّ على العقيدة النصرانية التي تزعم أنَّ الإله يحبُّ جميعَ الناس بأعيانهم. وقد تقدَّم الردُّ على هذه العقيدة الفاسدة في تقييم ردودهم على مشكلة الشَّر. وهذا مِن أسباب استشكال هذه الشبهة أصلًا. وإذا أضيف إلى ذلك الموقفُ التقليدي مِن مصير الجاهل بالإنجيل، فلا يستغرب أنَّ بعضَ النصارى يتأثَّرون بهذه الشبهة.

وأمَّا المسلم، فلا يعتقد أنَّ الله - تبارك وتعالى - يحبُّ جميعَ الناس، بل يحبُّ المؤمنين المطيعين، ويبغضُ الكافرين ويسخط عليهم. ومع ذلك، فإنَّه لا يعذِّب أحدًا إلا بعد قيامِ الحجة عليه. كما سيأتي بيانُه بالتفصيل في نهاية المبحث - إن شاء الله -. وفي ظلِّ المعتقد الإسلامي تزول هذه المشكلة من أساسها.

- **الوجهُ الثّاني: الردُّ على التصوُّر الخاطئ للشبهة:**

تناقش رجلٌ نصراني مع البرفسور جريج كوكل[1] وذكر الرجل أنّ أخاه ارتدَّ عن النصرانية بسببِ شبهة: مصير الجاهل. فسأله كوكل: «ما هي حقيقة المشكلة عنده؟» فقال الرجل: «إنَّ معاقبةَ الإنسان بسبب ولادته في بقعة من الأرض لم تصله الرسالة يُعتبرُ ظلمًا». فبيَّن كوكل أنّه لا يعاقَب إنسانٌ بسبب البقعة التي وُلد فيها، وإنّما يحاسَب بسبب أعماله. ثمَّ سأل كوكلُ الرجلَ: «فهل هؤلاء الذين سيحاسَبون قد قاموا بأي خطايا وذنوب في حياتهم؟» فكان جوابُ الرجَل: «نعم». فذكر كوكل أنّهم لو أذنبوا في اليوم عشر مرّات، وعاشوا خمسينَ سنة،

---

(١) جريج كوكل (Greg Koukl): بروفسور الدفاع عن النصرانية في جامعة بيولا بالولايات المتَّحدة. وقد ألّف عددًا من الكتب وناظر كبار الملاحدة. انظر:

https://www.str.org/greg-koukl

فقد أذنبوا مئات الآلاف من المرّات. وهي هذه الذنوبُ التي سوف يحاسبون عليها[1].

خلاصةُ ردِّه على مَن ينشر هذه الشبهة: أنّ لديهم تصوّرًا خاطئًا عن حقيقة المحاسبة. فلا يحاسب أحدٌ بسبب المكان الذي وُلد أو عاش فيه، وإنما يحاسَب بسبب ما فعله من الذنوب والسيئات والآثام في حياته.

وتبيين هذا الفرق مُهمٌّ لأنَّ الملاحدة مثل: سام هاريس يلبِّس على الناس في هذه القضية؛ فقد قال في مناظرته مع البروفسور كرايغ: «فإنَّ معظم هؤلاء الناس - وكثير منهم بالتأكيد - سيذهبونَ إلى الجحيم لأنهم توجَّهوا بصلاتهم إلى الإله الخطأ. فكّر في ذلك! حسنًا، **بدون أيِّ خطأ من جانبهم، فقد وُلدوا في ثقافة خطأ**، تعلّموا منها الدين ففاتهم الوحي».

فخلطَ في كلامه بينَ ولادتهم في ثقافةٍ خطأ وبينَ توجُّههم بالصلاة إلى آلهة الهندوس. ولا شكَّ أنَّ ولادتهم في الهند لا تعتبر خطأً منهم - كما قال هاريس -، وإنما خطؤهم ما قاموا به من الأعمال، وعلى رأسها: الشركُ بالله تعالى. فعندما يطرح الملحدُ هذه الشبهة فلا بدَّ من تبيين هذا الفرق، وإزالة هذا التلبيس. وقد أصاب جريج كوكل في ذلك بجوابه، إلّا أنَّ الإشكال في جوابه أنّه خصَّص كلامه عن الذنوب والآثام التي قامَ بها هؤلاء. وأمّا حسبَ مُعتقد المسلم، فلا يخلّد أحدٌ في النار بسبب الذنوب والآثام، وإنما يخلَّد في النار بسبب كفره بشرطِ إقامة الحجة الرسالية عليه. ثمّ تكون الذنوبُ من أسباب زيادة العذاب. وأمّا المسلم الذي أصاب ذنوبًا لم يتبْ منها فإنّه تحتَ مشيئة الله؛ إن شاء عذّبه وإنْ شاء عفا عنه.

---

(١) انظر: المقطع:

Greg Koukl Responds to the Problem of the Unevangelized

وهو في موجود على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=8Ehx_CeYAI0

- **الوجهُ الثّالث: فهمُ الجواب عن الشبهة في ظلّ العدل الإلهي:**

ذكرَ دانيال ماريتز [(١)]أنه لا يمكن فهمُ هذا السؤال بدون الاعتقاد أنَّ الإله هو الحكمُ العدل، وأمّا الإنسانُ فلا يمكن أن يصلَ إلى كمال العدل الموضوعي[(٢)]. وذلك أنَّ الإنسانَ يحكم بناءً على منظوره الشخصي، وقد يؤثِّر في حكمه على الآخر ما يراه من الأمورِ الظاهرة. وأمّا الإله فإنَّ عدله موضوعي، ولا يحكم على الإنسان بسبب الظاهر فقط، بل بسبب ما في قلبِه أيضًا. وهذا لا يتأتى للإنسان[(٣)].

وذكرتْ أليسيا وود[(٤)] أنَّ هذه الشبهة مبنية على أنه سيأتي أناس يوم القيامة ويقولون: «ما كنت أعرف أيَّ شيء!» بل بالعكس، لعلهم يقولون: «كان المفترض علينا أن نسمع، وكان المفترضُ علينا تليينَ قلوبنا، وهكذا. فالشبهة مبنيَّة على افتراض، ونحنُ لا نعلم ما سيقوله الناس يوم القيامة[(٥)].

---

(١) دانيال ماريتز (Daniel Maritz): المدافع عن النصرانية الأمريكي والمتخصِّص في نقد الإلحاد. لديه موقع قناة مشهورة في يوتيوب. انظر:
www.dlm-christianlifestyle.com

(٢) لا يخفى توسُّع القوم في التعبير عما يقوم بربّنا سبحانه من الصفات - كما مضى التنبيهُ عليه مرارًا - ومن هذا: وصف عدل الله بأنه «موضوعي». وهذا وصف لا دليل عليه عندنا - معشر المسلمين -، وإنما نصف عدله تعالى بالكمال المنزّه عن أي نقص.

(٣) انظر المقطع:
How will GOD JUDGE THOSE who have NEVER HEARD THE GOSPEL?
وهو منشور على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=yqJdVEE8aII

(٤) أليسيا وود (Alycia Wood): المدافعة عن النصرانية والمتخصّصة في نقد الإلحاد، وهي حاملة شهادة الماجستير في العدالة الاجتماعية. انظر:
https://www.rzim.org/speakers/alycia-wood

(٥) انظر المقطع:
What about People Who Die Not Ever Hearing the Gospel?
وهو منشور على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=60SS0XIFl2g

وهذا الجوابُ جيِّد ومُفيد في فهْم معاقبة الله للكافرين في جهنّم. فاللهُ تعالى يحكم بينَهم بعدله، وهو يعلم منهم كلَّ صغيرة وكبيرة في الظاهر والباطن؛ فهو عالمُ الغيب والشَّهادة، ويعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور. فعندما يسمع الإنسان هذه الشبهة، فعليه أن يطمئنَّ تمامَ الاطمئنان أن الله لن يعاقب أحدًا في النار إلا وهو يستحقّ ذلك؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٦ - ١٧]. قال الإمام الطبري (رحمه الله) عن المراد بـ(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ): «لا بخس على أحدٍ فيما استوجبه من أجر عمله في الدنيا، فينقص منه إن كان محسنًا، ولا حُمِل على مُسيء إثمُ ذنب لم يعمله فيعاقب عليه»[1]. بل سيحمَد الأولون والآخرون ربَّهم على حكمه العادل ذلك اليوم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥]. وقال العلامة السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «لم يذكر القائل مَن هو، ليدلَّ ذلك على أنَّ جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة»[2].

وما قالته أليسيا وود صحيحٌ أيضًا - وإن كان كلامها من وجهة نظر النصراني -. فأصحابُ الجحيم لا يعتذرونَ بعدم وصول الرسالة إليهم، بل يعترفون بأنهم لم يسمعوا ولم يعقلوا؛ قال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٦ - ١١]. فالكفار يعترفون بذنوبهم وأنّهم لم يستجيبوا للرسل. ولم يقل أحدٌ منهم: «لم تصلْنا الرسالة!». وبقيَ تنبيهٌ على أنَّ مما يؤخذ على كلامها عندنا

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠ / ٢٩٩ - ٣٠٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦٩٧).

– معشر المسلمين – : أنّنا نعلمُ كثيرًا مما سيقوله الناس يوم القيامة بما علّمنا الله ورسوله (ﷺ).

الوجهُ الرّابع: فهمُ الجوابِ عن الشبهة في ظلِّ العلم الإلهي المحيط:

تقدَّم في الوجه السابق أنَّ الله عالم الغيب والشهادة، وأنه يحكم على عباده بناءً على ما علمَه منهم. ولكنْ إضافةً إلى ذلك، فإنَّ الله يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون. وقد ذكرَ البروفسور كرايغ والبروفسور مورلاند أنّ الإيمان بهذا النوع من العلم الإلهي في ردِّهما على هذه الشبهة. وذلك أنّه قد يكون أنَّ الإله يعلم من هذا الشخص الذي لم يسمعْ بالإنجيل أنَّه لو سمع به، فإنه سيكفُر[1]. وبذلك، فلا تكون معاقبتُه ظلمًا.

ذكرَ الفيلسوف جريج كوكل في ردِّه على هذه الشبهة أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يحكمَ في هذه القضية؛ لأنَّه لا يمكنه أن يعلمَ عن حقيقة حال هؤلاء، وماذا سيفعلون لو وصلتْ إليهم الرسالة. فالذي يعلم ذلك هو الإله[2].

وذكر هذا النوع من العلم الإلهي في هذا المقام صحيح من ناحية، وغيرُ صحيح من ناحيةٍ أخرى. فلا شكَّ أنَّ الله متَّصف بهذا النوع من الله؛ قال اللهُ تعالى يقول: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]. وقد أجاب النبي (ﷺ) عندما سُئل عن أولاد المشركين؛ فقال (ﷺ): «اللهُ إذ خلقَهم أعلم بما كانوا عاملين»[3].

---

(١) انظر:

Philosophical Foundations of a Christian Worldview (625)

(٢) انظر المقطع المشار إليه سابقًا:

Greg Koukl Responds to the Problem of the Unevangelized

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٨٤)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين. وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٠)، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المشركين، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

فأجابَ النبي (ﷺ) عنْ مصير أولاد المشركين بعلمِ الله بما لم يكن لو كان كيف يكون. ولكنَّ هذا الجواب غيرُ صحيح من حيث إنَّ الله لا يجازي أحدًا بسبب ما علم منهم، وإنَّما يجازيهم بما قاموا به من الأعمال. فقد علَّق الإمام ابن القيم (رحمه الله) على الحديثِ المشار إليه سابقًا بقوله: «فهوَ سبحانه وتعالى يعلم القابلَ منهم للهدى، العاملَ به لو عاش، والقابلَ منهم للكفر، المؤثر له لو عاش، ولكن لا يدلُّ هذا على أنه يجزيهم بمجرَّد علمه فيهم بلا عملٍ يعملونه، وإنما يدلُّ على أنه سبحانه وتعالى يعلمُ منهم ما هُم عاملون بتقدير حياتهم»[1].

وسيأتي التفصيلُ عن قضيةِ إقامة الحجة والامتحان الأخروي في الفقرة الرابعة - إن شاء الله -.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة: مصير الجاهل:

شبهة: مصير الجاهل ليست منتشرةً في الخطاب الإلحادي المعاصر، ولكنّها موجودةٌ ومؤثِّرة إلى حد؛ فقد أدَّت إلى أزمة حقيقية في داخل اللاهوت النصراني بسبب بعض المعتقداتِ المنحرفة لديهم. ولهذا السبب لم يتَّفقوا على رأي واحد في هذه المسألة المهمَّة في بداية ظهور النصرانية. وبعدَ ذلك ظلَّ رأي التفرّدية سائدًا لحوالي ألف سنة، ثمَّ تراجعت فرقٌ كبرى مثل الكاثوليك عن هذا الرأي، وتبنّوا القول بالإجمالية الدينية، بينما ذهبَ بعضُ اللاهوتيين الآخرين إلى القول بالتعدّدية الدينية. وهذا الاضطراب راجع إلى التَّناقضات الكبيرة في كتابهم المقدَّس، كما تقدَّم في بداية المبحث، إضافة إلى تأثّرهم بالبيئة المحيطة بهم.

وردودُ علماءِ الغرب على هذه الشُّبهة عمومًا جيِّدة، ولفتوا الانتباهَ إلى بعض الأجوبةِ الوَجيهة. ولكنَّ المشكلةَ الكبرى أنَّ كلامهم في هذه المسألة متداخلٌ مع العقيدةِ النصرانية في مصير الجاهل. وهذه العقيدةُ تشبه العقيدة الإسلامية من بعض الجوانب، ولكنَّها تختلف عنها في جوانبَ أخرى مهمَّة. وهذه الجوانبُ التي تخالف

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٣٨٧)، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية (دار السلفية، الطبعة الثانية، ١٣٩٤ هـ).

فيها العقيدةُ النصرانية العقيدةَ الإسلامية في هذه المسألة، هي في الحقيقة جوانبُ الضعف عندَ النصارى، وجوانب القوَّة عند المسلمين. وأبرز هذه الجوانب ثلاثة:

- **الجانبُ الأوَّل: تحريفُ الديانة النصرانية:**

شبهةُ مصير الجاهل الموجَّهة ضدَّ النصارى تتعلّق بمصير الجاهل بالديانة النصرانية في الآخرة. وأتباعُ هذه الديانة ينتسبونَ إلى المسيح عيسى ابن مريم، ويعتقدون فيه الألوهية. وعليه، فإنَّ من أهمِّ العقائد النصرانية التي يشترطون الإيمان بها: ألوهية المسيح. ولكنَّ الإشكال الكبير في الديانة النصرانية أنَّ المسيح لم يعتقد ذلك في نفسه ولم يدعُ الآخرينَ إلى هذا المعتقد. وقد أخبر اللهُ تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

والمسلمُ يؤمن بذلك لأنَّه وردَ في القرآن بناءً على إيمانه بأنه وحيٌ من الله. ولكن حتَّى الباحثون المتخصِّصون في تاريخ النصرانية يعلمون أنَّ المسيح لم يعتقد أنه إله، ولم يدعُ الآخرين إلى هذا المعتقد. وقد ألَّف البروفسور بارت إيرمان[(١)] كتابًا بعنوان: «كيف صارَ يسوع الإله» (How Jesus Became God) في أكثر من ٤٠٠ صفحة، ودلَّل فيه ببراهين تاريخيةٍ أنَّ المسيح دعا الآخرين إلى أنه كان نبيًّا، ولم يدعهم إلى ألوهيته، بل لم يعتقد في نفسه أنه إله[(٢)].

---

(١) بارت إيرمان(Bart Ehrman): بروفسور التاريخ النصراني المبكّر الأمريكي، وقد ألَّف عشرات الكتب العلمية في هذه المسألة. انظر:

https://www.bartdehrman.com/barts-biography/

(٢) انظر:

How Jesus Became God (85-128), by: Bart Ehrman, (Harp One, 2014)

ومِن هنا، تبرز مشكلةٌ عظمى في الدِّيانة النصرانية، وهي لوازمُ الحقيقة التاريخية الثّابتة بأنَّ المسيح نفسَه كان «جاهلًا» بألوهيَّته المزعومة. فوفقَ عقيدتهم الفاسدة سوف تنطبقُ عليه شبهةُ مصير الجاهل. وعقيدتُهم في الجاهل بألوهية المسيح - وفقَ مذهب التفرُّدية - أنَّه من أصحاب النار - والعياذ بالله -.

وهذه المشكلةُ ليست موجودةً في الديانة الإسلامية. فلا يمكن إنكار أنَّ نبينا محمدًا (ﷺ) جاءَ بالإسلام، ودعا الناسَ إلى الإيمان، وأقام الحجة على العباد. وأنّ العقيدة التي دعا الناسَ إليها محفوظة بالتواتر إلى يومنا هذا.

- **الجانبُ الثّاني: الاختلافُ بين الوحي العام والوحي الخاص:**

أحدُ الردود التي ذكرها النَّصارى على شبهة: مصير الجاهل هو أنّ الله أقام الحجة على العباد بالوحي العامِّ والوحي الخاصّ. ومَن لم يبلغه الوحي الخاص، فعليه أن يستجيبَ للوحي العام. والاستجابةُ للوحي العام قد تقودُ إلى الوحي الخاص. ويقصدون بالوحي العام: ما يشبه الإيمانَ الفطري بوجود الخالق وعبادته، ويقصدون بالوحي الخاص: ما وردَ في كتابهم المحرَّف. وهذا الجوابُ يمكن أن يستخدمه المسلم - كما سيأتي -، ولكنَّه مُشكل في الديانة النصرانية. وذلك للبُعد الواسع بين الوحي العام والوحي الخاص لديهم. تكلَّم البروفسور جون سانديرس - وهو من أنصار القول بالتعدُّدية في هذه المسألة - عنْ ذلك فقال: «إذا لم نكنْ نفكّر في موضوعات لم يعلن عنها الكتاب المقدَّس مباشرة، فلن يكون لدينا سوى قليل من اللاهوت؛ لن يكون لدينا عقيدةُ الثليث، ولا العقيدة بأنَّ يسوع له طبيعة بشرية وإلهية في الاتحاد الأقنومي»[1]. يقصد بذلك أنَّ أهمَّ المسائل اللاهوتية في الوحي الخاص لديهم: عقيدة التثليث، وطبيعة المسيح الإلهية والبشرية - كما يزعمون -. ومع أنَّ هذه المسائل هي أصلُ الأصول في اللاهوت النصراني، إلّا أنَّ الوحي العام لا يشير إليها أدْنى إشارة؛ بل الفطرة البشرية تتناقض معَ اللاهوت النصراني، وتنفِّر منها.

---

(1) No Other Name: An Investigation into the Destiny of the Unevangelized (17), by: John Sanders, (Wipf and Stock Publishers, 2001)

فلو عاشَ إنسان في مكانٍ منعزل، واهتدى بفطرته إلى أنَّ هذه المخلوقات لا بدَّ لها مِن خالق، وأنَّه مُستحقٌّ للعبادة، فقد استجابَ للوحي العام. ولكن لو سمع بعد ذلك بأنَّه توجد ديانةٌ تدَّعي أنَّ هذا الخالق واحد، ولكنه في الوقت نفسه ثلاثة أقانيم، وأنَّ هذه الديانة تدَّعي أنَّه وُجد إنسانٌ له طبيعة إلهية وطبيعة بشرية في آنٍ واحد، فلن يشعر هذا الإنسانُ بموافقة إيمانه الفطري لهذه العقيدة؛ بل هذا الإنسان سيشعر بأنّ تلك العقيدةَ النصرانية تتنافى مع إيمانه الفطري.

ولكن، لو سمعَ هذا الإنسان نفسُه بالإسلام، وأنَّ هذا الخالق أرسل رسلًا - وآخرهم محمد (ﷺ) - لدعوةِ الناس إلى هذا الإيمان الفطري، فحينئذٍ ستقوده استجابته للوحي العام إلى الاستجابة للوحي الخاص.

ولهذه كانتْ شبهة: مصير الجاهل مشكلةً كبيرة عند النصارى؛ لأنَّ الجاهل بالوحي الخاصِّ لم تقمْ عليه أيُّ حجة، بل الحجةُ القائمة عليه بالوحي العام سوف تُبعده عن النَّصرانية لو سمع بها، ولن تقرِّبه إليها. فلا نستغربُ حين يقول البروفسور وليام لاين كرايغ - كما سبق ذكرُه - أنَّ عددَ مَن يستجيب للوحي الخاص بناءً على الوحي العام قليل جدًّا.

الجانبُ الثَّالث: عقيدتُهم مبنيَّة على الخطيئة الموروثة:

النصارى الذين يتبنَّون مذهبَ التفرُّدية - الموقف التقليدي في مسألة مصير الجاهل - يعتقدون أنَّ الإنسانَ الذي لم يسمع بالمسيح، ولم يؤمن بألوهيته، وأنه افتدى نفسه من أجلِ البشرية[1] سيعذَّب في الآخرة. وهذا الاعتقادُ في مصير الجاهل مبنيٌّ على إيمانهم بالخطيئة الموروثة[2]. وهذه العقيدةُ اللاعقلانية من أغرب العقائد النصرانية. وأمّا في الإسلام، فإنَّ الإنسان لا يولَد مذنبًا، بل اللهُ - تبارك وتعالى - يقول في حديث قدسي: «وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمتُ عليهم ما أحللت لهم، وأمرتُهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»[3].

---

(١) وأما الاستجابة للوحي العام فبيّنت أنهم يقولون: إنه نادر جدًّا.

(٢) انظر المقال المشار إليه سابقًا: The Lostness of Mankind في بيان هذه المسألة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٦٥)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، من حديث عياض بن حمار المجاشعي (رضي الله عنه).

وإضافةَ إلى ذلك، فإنَّ الإنسان لا يعاقب بفعل غيره ولا يعذّب اللهُ أحدًا إلا بعد إرسالِ الرسل؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]. قال العلامةُ السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «واللهُ تعالى أعدلُ العادلين، لا يعذّب أحدًا حتَّى تقوم عليه الحجةُ بالرسالة، ثمَّ يعاند الحجة، وأمّا مَن انقاد للحجة، أو لم تبلغْه حجةُ الله تعالى؛ فإنَّ الله تعالى لا يعذبه، استدلَّ بهذه الآية على أنَّ أهل الفترات، وأطفالَ المشركين؛ لا يعذِّبهم الله، حتَّى يبعث إليهم رسولًا لأنَّه منزَّه عن الظلم»(١).

وأمّا الذين لم تبلغْهم الحجةُ الرسالية في الدنيا إطلاقًا، وكانوا من أهل الفترة أو في حُكمهم، فقد اختلفَ العلماءُ في حكمهم في الآخرة. وقد نقل العلامة محمد الأمين الشنقيطي هذا الخلاف(٢)، ثمَّ قال: «الظاهرُ أنَّ التحقيق في هذه المسألة التي هي: هل يُعذر المشركون بالفترةِ أو لا! هو أنَّهم معذورون بالفترة في الدنيا، وأن الله يوم القيامة يمتحنُهم بنارٍ يأمرهم باقتحامها، فمَن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدّق الرسلَ لو جاءته في الدنيا، ومَن امتنع دخل النار وعذّب فيها، وهو الذي كان يكذِّب الرسلَ لو جاءته في الدنيا؛ لأنَّ الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل»(٣).

والحديثُ المشار إليه هنا هوَ قولُ رسول الله ﷺ: «يكون يوم القيامة رجلٌ أصم لا يسمعُ شيئًا، ورجلٌ أحمق، ورجلٌ هرم، ورجلٌ مات في فترة، فأمّا الأصم فيقول: رب، لقد جاء الإسلامُ وما أسمع شيئًا. وأمَّا الأحمقُ فيقول: رب، لقد جاء الإسلامُ والصبيان يحْذفونني بالبَعر، وأمّا الهرمُ فيقول: رب، لقد جاء الإسلامُ وما أعقل شيئًا، وأما الذي ماتَ في الفترة فيقول: رب، ما أتاني لك رسول، فيأخُذ مواثيقهم ليطيعنه،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٤٢٩).

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٦٥ - ٧٤).

(٣) المصدر السابق (٣ / ٧٣).

فيرسل إليهم: «أنِ ادخلوا النار»، قال: فوالذي نفسُ محمد بيدِه لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا»[1].

وقال العلامةُ الشنقيطي عنْ هذا الحديث: «وهذا ثبتَ عن رسول الله (ﷺ) وثبوته عنه نصٌّ في النزاع؛ فلا وجه للنزاع ألبتَّة مع ذلك»[2].

فهذا يدلُّ على العدلِ الموجود في الإسلام في حكم أهل الفترة في الآخرة. وتبيّن من ذلك أنَّ شبهةَ مصير الجاهل التي تسبَّبت بأزمة في داخل اللاهوت النصراني، لا تعتبر مشكلة في ظل العقيدة الإسلامية.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٣٤٤)، (٤ / ٢٤)، من حديث الأسود بن سريع (رضي الله عنه)، وصحّح الألباني إسناده في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٤٣٤).

(٢) أضواء البيان (٣ / ٥٧٠).

المبحثُ السّادس
نقدُ ردودِهم على شُبهاتِ الملاحدة العاطفية

هذا الفصلُ يتناول ردودَ علماء الغرب على شبهات الملاحدة العاطفية. والشبهات المذكورةُ فيه هي: مشكلةُ الشَّر، ومشكلة جهنم، وشبهةُ سلب الإرادة، وشبهة الشرور المترتِّبة على وجود الأديان، وشبهة مصير الجاهل.

وبعضُ هذه الشبهات مثل: مشكلة الشَّر، وشبهة الشُّرور المترتبة على الأديان مُنتشرة جدًّا في النِّقاش بين الملاحدة وعلماء الغرب، بينما الشبهات الثلاث الأخرى أقلُّ انتشارًا. وحيث إنَّ النقاش عن الشبهتين الأوليين قويّ جدًّا في الساحة الفكرية والدِّينية في الغرب، فقد تكوَّنت لدى علماءِ الغرب خبرة طويلة في التعاطي معها. ولديْهم بعضُ الردود المتميِّزة في نقدِ هذه الشبهات، ويمكن الاستفادةُ منها إلى حدٍّ كبير. ومعَ ذلك، فلا يخلو كلامُ علماء الغرب في هذا الباب من بعض الخلل. ويتبيَّن ذلك خلالَ أربعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: قد ساهمَ اللاهوت النصراني في ظهور مشكلة الشرِّ، ومشكلة جهنَّم. وذلك لأنَّ اللاهوتيين النصارى يقرِّرون أنَّ الإله هو المحبة ويحبّ جميع الناس؛ فينشأ السؤال: لماذا يخلق العالمُ الذي فيه هذه الشُّرور كلّها، ولماذا يعذِّب غير المؤمنين في جهنَّم للأبد؟ ولا يستغرب أن يوجّه نحوَ هذا السؤال إلى اللاهوتيين النصارى بعد هذا التَّقرير. ولكن لا يمكن توجيهُ الشُّبهة بهذا الشكل إلى العقيدة الإسلامية، لأنَّ نصوصَ الكتاب والسنة تدلُّ على أنَّ الله لا يحبّ جميع الناس، بل يحب المؤمنين ويُبغض الكافرين. فعذابُه للكافرين معَ بُغضه إياهم موافقٌ للعقل السليم، بينما قول النصارى: إنَّ الله يعذِّب الكافرين للأبد مع حبِّه إياهم مخالف للعقل. فالمسلم يستطيع أن يقرِّر العقيدةَ الإسلامية السليمة في هذه المسألة، ويذكر

ردود علماء الإسلام المتميزة على هذه الشبهة إضافةً إلى بعض ردود علماء الغرب، وبالتالي تبطل الشبهةُ من أساسِها. وأمّا النصارى فإنَّهم يستطيعون ذلك مع وجود هذا اللاهوت الفاسد.

الوجهُ الثّاني: أنَّ كتابَ النصارى المقدَّس يحثُّ على عددٍ من الشرور كالإبادة الجماعية لأعداء بني إسرائيل. ولا يستغرب أنَّ الملاحدة استشكلوا هذه النصوص عند تقريرهم لمشكلة الشَّر، وشُبهة الشرور المترتِّبة على وجود الأديان. وإن كان هذا الأمرُ مُستشكلًا في كتابهم المقدَّس، فليست هذه مشكلة موجودة في الدين الإسلامي. فاللهُ تعالى يأمرُ بما فيه خير ومصلحة لعباده ولا يأمر بالشَّر.

الوجهُ الثّالث: قد تخبَّط الفلاسفة واللاهوتيون في إرادة الإنسان خبطَ عشواء، وحيث إنَّ هذه المسألة محيطةٌ بكثير من الغموض فلا يمكن الاهتداءُ فيها إلّا عن طريق الوحي المعصوم. وفي ظلِّ تلك الظروف ظهرت شبهة: سلب الإرادة. وإن كان لدى علماءِ الغرب كلامٌ جيِّد ومفيد في الردِّ عليها إلا أنَّ تقريراتهم في هذا الباب تميل إلى قولِ القدرية. ولهذا ينبغي للمسلم الذي يستفيدُ من ردودهم في هذا الباب أن يكون على حذرٍ شديد حتى لا تزلَّ قدمه.

الوجهُ الرّابع: أنَّ اللاهوت التقليدي لدى النصارى في مسألة مصير الجاهل في الآخرة ينصُّ على أنَّه يدخل النار، وإن لم يسمعْ بالوحي الخاص. وهذا اللاهوت كان مِن أسباب ظهورِ شبهة مصير الجاهل عند الربوبيين والملاحدة. وقد أعاد بعضُ النصارى النظرَ في هذا اللاهوت، كما أنَّ لديهم بعض الردود الجيّدة على هذه الشبهة يمكنُ الاستفادةُ منها. ولكنَّ هذه الشبهة لا تتوجَّه إلى العقيدة الإسلامية حيث إنَّها تنصُّ على أنَّ الله لا يعذِّب أحدًا إلّا بعد قيام الحجة الرسالية عليه.

الخاتمة

الحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحات، والصلاةُ والسلام على أشرف الأنبياء والمرْسلين؛ نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبِه، ومَن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقدِ انتهيتُ بحوْل الله وقوَّته مِن إتمام هذه الرسالة بعد أن أمضيت نحوًا من خمس سنواتٍ في البحث والكتابة. وقد استفدتُ من الرسالة فائدة عظيمة. وهذه الخاتمةُ تشتملُ على ثلاثة أمور:

الأمرُ الأوَّل: خلاصةٌ تقييمية.

الأمرُ الثّاني: تلخيصُ أهمِّ مباحث الرسالة.

الأمرُ الثّالث: التوصيات.

الأمرُ الأوَّل: خلاصةٌ تقييمية:

يحسُن أن أختمَ الرسالة ببيانِ خلاصةٍ تقييمية لموضوع الرسالة؛ أعني لردود علماءِ الغرب على الإلحاد، معَ إيضاح بعضِ المقارنات المفيدة، وهي خلاصة لما عايشته أثناءَ سنوات البحث.

- **أوَّلًا: أقسامُ ردود علماء الغرب:**

يمكن تقسيمُ ردودِ علماء الغرب على الإلحاد إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الحججُ العلمية القويَّة: ومِن الأمثلة على ذلك: حججُهم العلمية على وجودِ الله، مثل: الحجج المتعلقة بعلوم الفلك، والأحياء، والفيزياء، والكيمياء. فهذه الحججُ تستند إلى حقائقَ علميةٍ قطعية. وكلامُهم في هذه المسائل لم يختلط مع مُعتقداتهم الباطلة إلّا قليلًا. والحججُ العلمية على وجودِ الله مِن أقوى ما يستدلُّ بها على وجودِه سبحانه في مناقشةِ المتأثّرين بالخطاب الإلحادي، لا سيَّما وهم يعظِّمون

العلمَ التجريبي. عليه، فإنَّه يمكن الاستفادةُ من كلام علماء الغرب في هذا الباب كثيرًا لا سيَّما وأنَّ الغرب - كما لا يخفى - لهم السَّبق واليد الطولى في هذه العلوم في العصر الحديث. ولكن لا بدَّ من انتقاء الكلام الأنسب والأقوى.

القسمُ الثّاني: ردودُهم العلمية والعقلية المختلطة مع تصوّراتهم اللاهوتية والفلسفية: ومِن الأمثلة على ذلك: ردودُهم على النظريات العلمية مثل: نظرية التطوُّر، ونظريةُ الانفجار العظيم. وكذلك ردودُهم على أسس الملاحدة، وبعض شبهاتهم، مثل: المذهب المادي والعلموية، ومشكلة الشَّر.

فيمكنُ الاستفادةُ من المتخصِّصين في العلوم التجريبية مثل: الأحياء، والفيزياء، والكيمياء، وكذلك الاستفادةُ من المتخصِّصين في نظرية المعرفة، والمنطق. ولديهم ردودٌ مُفيدة على أسس الملاحدة ونظرياتهم وشبهاتهم. وإضافةَ إلى ذلك: فإنَّ المتأثّر بالخطاب الإلحادي من أبناء المسلمين قد يقبَلُ ردودَ المتخصِّصين في هذه العلوم أكثر من ردود المتخصِّصين في العلوم الشرعية، وهذا واقع لا يُجحد. ومِن هنا تبرز أهمية الاستفادة منهم. ولكنْ في الوقت نفسه، فقد اختلطتْ هذه الردود بتصوّراتهم اللاهوتية والفلسفية مما يوجبُ الحذرَ في التعاطي معها. ولا بدَّ للمسلم أن يزنَ كلامهم بميزان الشرع المطهّر؛ فما كان مقبولًا قبله، وما كان مرفوضًا رفضه.

القسمُ الثّالث: الحججُ والردودُ الضعيفة: ومِن الأمثلة على ذلك: الحجة الوجودية، والحجة البراغماتية، وردودهم على شبهة: مصير الجاهل. فكلامهم في هذا البابِ مرفوض، ويغني عنها الحجج أو الردود التي ذكرها علماء الإسلام. وقد تُذكر من باب الردِّ على النَّصارى، وإظهار ضعفهم في مقابل الحجج والردود الإسلامية.

وبناءً على هذا التقسيم أرى أنَّ القول بعدم الاستفادة من كلام علماء الغرب مُطلقًا خطأ، كما أنَّ الاستفادة من كلِّ ما قالوه في ردودهم على الملاحدة بدون تمييز وتمحيص خطأ أيضًا؛ وبالتفصيل يوضع الحقُّ في نصابه.

- **ثانيًا: ضوابطُ الاستفادة من علماء الغرب:**

حسبَ دراستي لهذا الموضوع أرى أنَّ ثمة خمسةَ ضوابط رئيسة تجب مراعاتها في الاستفادة من ردود علماء الغرب على الملاحدة:

الضَّابطُ الأوَّل: أنَّ الأصلَ هو عدمُ استفادة المسلم من كلام الكفّار، وفي كلام علماءِ الإسلام غُنية في المسائل الدينية. ومتى وُجدت الحاجةُ ساغ النقل عنهم والاستفادة منهم. وإذا نقل المسلم كلامَهم فلا يجوز الإخلال بعقيدة الولاء والبراء، مثل: الترحُّم عليهم أو إظهار محبتهم.

الضّابطُ الثّاني: أن يكون المستفيدُ متأصّلًا في عقيدة أهل السنة والجماعة تأصيلًا جيِّدًا حتى يميِّز بين صحيح كلامهم وفاسده ومُجمله.

الضّابطُ الثّالث: أن يكون المستفيدُ على علم بالمعتقد الديني والانتماء الفكري الفلسفي للمُستفاد منه. فمَن لم يكن على دراية بذلك فقد ينقل عنه كلامًا دون أن يدركَ أنه يروّج لعقيدة دينية أو فلسفة باطلة.

الضّابطُ الرّابع: أن يكون لدى المستفيدِ إلمام بالعلوم التي ينقلها عنهم حتى يميِّز الحقائقَ العلمية عن النظريات أو الفرضيات؛ فلا يقبل كلّ ما قيل باسم العلم على أنه حقيقةٌ ثابتة.

الضّابطُ الخامس: أنْ يفهم المستفيدُ أنَّ علماء الغرب أنفسهم على مستويات مُتفاوتة في تخصُّصاتهم؛ فليس كلُّ مَن عاش في الغرب وتكلَّم باسْم العلوم يعدُّ من العلماء المتخصِّصين الذي يحتجُّ بأقوالهم. وعليه، فلا بدَّ أن يحسن انتقاء من ينقل عنهم.

- **ثالثًا: واقعُ السّاحة الدعوية المعاصرة:**

بعدَ مُتابعة طويلةٍ للساحة الدعوية الإسلامية في نقد الإلحاد ألاحظ أنَّ الواقعَ بين إفراطٍ وتفريط في الاستفادةِ من كلام علماء الغرب. فمَن عمل في مجال نقد الإلحاد، ولا يرجعُ إلى كلام المتخصِّصين الغربيين فقدْ تفوته فائدةٌ كبيرة، إضافة إلى أنّ المتأثّرين بالخطاب الإلحادي قد لا يقبَل كلامه.

وفي المقابل، فإنَّ مَن يقبل كلامَ الغربيين مطلقًا بدون تمحيص ونقد؛ فقد يتابعهم في أخطائهم العقديةِ والعلمية. وكلا الطريقين مذموم، وإن كان الثاني أخطرَ من الأوّل. فالأوَّل تفوتُه الفائدة، ولكنَّ الثاني يقع في أخطاء عقدية وعلمية. وهذا ملاحَظ عند عددٍ ممّن يتصدَّى لنقد الإلحاد في الساحة الدعوية اليوم مع الأسف الشديد.

ولهذا أرى أنَّ القيامَ بنحو هذه الدراسات العلمية المبنية على العرض والنقد معًا فيه فائدةٍ كبيرة، وكذلك الاستشهاد بكلام علماء الغرب في تخصّصاتهم في الأبحاث والكتب؛ أمرٌ مُستحسن إذا دعتِ الحاجةُ مع مراعاة الضوابط المذكورة. وأمّا ترجمةُ كتب كاملة لعلماءِ الغرب بدون تعليقٍ نقدي أو ترجمة مناظراتهم مع الملاحدة بكلِّ ما فيها فلا أرى أنّها طريقةٌ جيِّدة. وقد نبَّهت على هذا الأمر في الرسالة عند الكلام عن ترجمة مركزٍ من المراكز لمناظرة وليام لاين كرايغ مع لورانس كراوس كما هي.

وأخيرًا يجدر التنبيهُ على أنَّ المسلمَ لن يجد الحقَّ المحضّ إلّا في الكتاب والسنة، وفي تقريراتِ أهل السنة والجماعة. فبابُ تقرير العقيدة لا يكون إلا بـ«قال الله» و«قال الرسول (ﷺ)»، وما نهج عليه سلفُنا الصالح. ومن أصول علماء أهل السنة: التقيّد بالألفاظِ الشرعية وتجنُّب الألفاظ المجملة. وأمَّا في باب الردود فيمكن للمسلم أن يتوسَّع أكثرَ من باب التقرير، ويمكن أن يستشهدَ بكلام المخالفين أمثال علماء الغرب - كما سبقَ تقريره في مقدّمة الرسالة -.

الأمرُ الثّاني: تلخيصُ أهمِّ مباحث الرسالة:

يمكن أن ألخِّص أهمَّ مباحث الرسالة في النقاط الآتية:

الإلحادُ في اللغة: الميل مطلقًا، وفي الشرع: الميل عن الحقّ إلى الباطل، وقد فسّر علماءُ التفسير كلمةَ الإلحاد ومشتقاتها الواردة في بعض الآيات بالكفر والمعاصي، بل وما هو دونَ المعاصي. وقد استخدم أئمةُ السلف هذه الكلمة - غالبًا - في مصنَّفاتهم بمعنى الانحرافات العقدية الكبيرة، بينما ذكر بعضهم أنها تعني إنكارَ وجودِ الخالق. وأمّا المرادُ بالإلحاد في المصطلح المعاصر فهوَ عدمُ الإيمان بوجود الخالق.

قسَّم الباحثون الملاحدةُ إلى أقسام مختلفة. ومِن ذلك تقسيمهم من حيث قناعتهم ونوعيةِ أدلَّتهم؛ والأرجح أنَّهم ثلاثة أقسام: الملاحدة الإلحاد القوي الصلب، والملاحدة الإلحاد الضعيف السلبي، واللاأدريون. كما ينقسم الملاحدة حسب دوافع إلحادهم إلى قسمين: الإلحاد المبنيّ على الشبهات، والإلحاد غير المبنيّ على الشُّبهات. والتقسيمُ الأخير للملاحدة: تقسيمهم من حيث التشدّد؛ فينقسمونَ إلى قسمين: الملاحدة المتشدّدين وغير المتشدّدين.

قد قسَّم الباحثون التاريخَ الفكري الغربي إلى ثمانية عصور: العصر اليوناني، والعصر الروماني، والعصور الوسطى، وعصر النهضة والإصلاح، وعصر التنوير، والقرن التاسع عشر، والقرن العشرين، والقرن الحادي والعشرين. وجميعُ هذه العصور لها آثارُها الخاصَّة في تكوين الفكر الإلحادي، إمّا بشكل مباشر أو غير مباشر.

الحضارةُ الغربية امتدادٌ للحضارة اليونانية القدية، وقد وضع فلاسفةُ العصر اليوناني بعضَ أسس الفكر الإلحادي؛ منها: المذهب المادي، ودراسة العلم التجريبي وفقَ المذهب الطبيعي، والادِّعاء أنَّ الإيمان يتعارض مع العقل، وفلسفة الشكِّ ونسبية الحقائق، ونقد الأديان. وقد اتُّهم عددٌ من الفلاسفة المشاهير بأنهم ملاحدة في ذلك العصر، ولكنَّ الصوابَ أنَّ الإلحاد الذي اتّهموا به ليس هو الإلحادَ بالمفهوم المعاصر، وإنما أنكروا وجودَ الآلهة الوثنية.

العصرُ الروماني من أهمِّ العصور وأطولها في التاريخ الأوربي. وتتمثَّل أهميته في تكوين الفكر الإلحادي بأنَّ فلاسفة الروم طوّروا الفلسفة اليونانية ونقلوها إلى أنحاء أوروبا، كما أنَّ النصرانية المحرَّفة ظهرتْ في هذا العصر. والإلحاد المعاصر أشبه ما يكون بردَّة فعلٍ لهذه الديانة. ولكنْ لم يُعرف ملاحدة بالمفهوم المعاصر في هذا العصر.

كانت العصورُ الوسطى أطولَ حقبة زمنية في التاريخ الأوروبي، حيث استمرَّت حوالي ألف سنة. وفي هذا العصر سيطرتِ الكنيسة الكاثوليكية على الشئون الدينية والفكرية والسياسية في الدول الأوروبية بالظلم والطغيان. وكان هذا الظلم من أسبابِ ظهور الإلحاد في أوروبا بعد ذلك. واهتمَّ اللاهوتيون النصارى في تلك العصور

بالاستدلال العقلي على وجود الله. وكان بعضُ هذه الأدلة في غاية الضَّعف، وقد انتقدَ الملاحدة المعاصرون هذه الأدلة الضعيفة في خطابهم الإلحادي. ولكنْ لم يُعرف ملاحدة بالمفهوم المعاصر في تلك العصور.

انتهتِ العصورُ الوسطى في أوروبا ببداية عصر النهضة والإصلاح. وبدأ التخلُّص التَّدريجي من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية في هذا العصر. وذلك بظهور الكنائس البروتستانتية المنافسة، وكذلك مذهب الشكِّ النهضوي والمذهب العقلاني. وقد اتُّهم عددٌ كبير من الناس في هذا العصر بالإلحاد، ولكن الأرجح أنه لم يُعرف ملاحدة بالمفهوم المعاصر.

في عصرِ التَّنوير ظهر الملاحدة الأوائل في فرنسا، وألَّفوا عددًا من الكتب في الدعوة إلى الإلحاد. كما أنَّ الثورة الفرنسية قامت في ذلك العصر، وأدَّت إلى تمكُّن العلمانيين من الحكم، وإضعاف مكانة الكنيسة. وبعد ذلك انتشر الإلحادُ في أنحاء الدُّول الأوروبية بشكل متسارع.

كان القرن التاسع عشر في غايةِ الأهمية للفكر الإلحادي حيث ظهر عددٌ من الملاحدةِ المشاهير في فرنسا، وألمانيا، وبريطانيا وأصّلوا للفكر الإلحادي. كما أنَّه تكوَّنت بعضُ المذاهب الفكرية الإلحادية مثل: الشيوعية في هذا العصر. ومن الأحداث المهمَّة في هذا القرن أنّ داروين اخترع نظرية التطوّر لتفسير الإتقان والإحكام في المخلوقات الحية عن طريق الانتخاب الطبيعي. وقد اتّكأ الملاحدةُ بعده على هذه النظرية أكثر من النظريات الأخرى.

في القرن العشرين تمكَّن الشيوعيون الملاحدة من الحكم في عددٍ من الدول، ونشروا الإلحادَ بقوَّة الحديد والنار. كما أنَّ الدول الغربية تبّنت مذاهب فكرية علمانية، وساهمت هذه المذاهب في ظهور الإلحاد أيضًا. ووُجد عددٌ من الملاحدة المشاهيرِ في هذا العصر، وقد ألَّفوا كثيرًا من الكتب في الدعوة إلى الإلحاد، إضافةً إلى حضورهم المكثّف في الإعلام الغربي.

ظهرتْ حركةُ الإلحاد الجديد في القرن الحادي والعشرين، وتتَّسم هذه الحركة بالحماسةِ في الدعوة إلى الإلحاد والعداوة الشديدة لجميع أشكال التدين. كما

أنَّ خطابَ دعاة هذه الحركة جماهيري أكثر من ملاحدة القرن العشرين، ولذلك استطاعوا الوصولَ إلى عددٍ كبير من الناس في الغرب والشرق.

لا يوجد شيء أخطرُ من الإلحاد؛ فهو أخطرُ شيء على العقيدة، والفطرة، والعقل، والعلوم، والأخلاق والبشرية جمعاء.

برزَ عددٌ من دعاةِ الإلحاد المشاهير في القرن الحادي والعشرين. وأشهرهم مَن اشتهروا بلقب: فرسان الإلحاد الأربعة، وهم: ريتشارد دوكينز، وسام هاريس، ودانيال دينيت، وكريستوفر هيتشن. وقد صنّفوا عددًا كبيرًا من المؤلفات، إضافةً إلى استخدامهم لوسائلَ أخرى لنشر الإلحاد. وثمة دعاة آخرون إلى الإلحاد ساهموا في نشر هذا الفكر أيضًا.

قدِ استخدم الملاحدةُ المعاصرون وسائلَ كثيرةً ومتعدّدة في دعوة الناس إلى كفرهم وإلحادهم. ومِن أبرز هذه الوسائل: تأسيس المؤسسات الإلحادية، وتأليف الكتب، وعقد المناظرات، وإنتاج الأفلام الوثائقية والسينمائية، وإلقاء المحاضرات، والنشاط في وسائل التواصل، وصنع لوحات دعائية في الشوارع، وإنتاج موسيقى إلحادية.

أوَّلُ مَن تصدَّى للملاحدة هم الأنبياء والمرسلون (عليهم الصلاة والسلام)؛ فقد ناظرَ خليل الله إبراهيم نمرود، وكليم الله موسى ناظر فرعون. وبعدهم اهتمَّ فلاسفةُ العصر اليوناني والروماني بذكر أدلة على وجود الله مثل: المحرّكُ الذي لا يتحرّك والحجة الغائية. وقد اختلطتْ أدلتُهم بفلسفاتهم المنحرفة، وكان لذلك أثرٌ بالغ في اللاهوت النصراني، وأدلة وجود الله التي ذكرها اللاهوتيون. وأبرزُ اللاهوتيين النصارى المهتمّين بأدلة وجود الله في العصور الوسطى: أغسطين، وأنسلم كانتربري، وتوما الأكويني.

قام عددٌ كبير من العلماء في أوروبا بنقدِ الإلحاد في عصري النهضة والتنوير والقرنين التاسع عشر والعشرين، إضافةً إلى هذا القرن الحادي والعشرين. وكان الروّادُ المنتقدون للإلحاد من مجالات مختلفة مثل: الفلسفة، والسياسة، والعلوم التجريبية. وقد تخصَّصوا في نقدِ الإلحاد في جوانب مختلفة مثل: نقد الخطاب الإلحادي، وذكر التوافق بين العلم التجريبي والدين، وذكر الأدلة التجريبية على وجودِ الله، والردّ العقلي الفلسفي على الملاحدة.

أهمُّ أسسِ الملاحدة: المذهب المادي، والعلموية، والعقلانية، ومذهب الشكِّ، وتعظيم الصدفة. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الأسس بردودٍ قوية ومقنعة.

الملاحدةُ يتبَّنون المذهبَ المادي، ويحصرون الوجود فيما يمكن إدراكه بالحسِّ والتجارب العلمية. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا المذهب ببيان أنَّ المخلوقات كلَّها شاهدة على وجود الخالق، وأنَّ العلم التجريبي نفسه قد دلَّ على وجود الغيبيات.

مِن سمات الملاحدة الجدد أنهم يعظِّمون العلم التجريبي، ويرون أنَّ ذلك يؤدِّي إلى الإلحاد. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا المذهب ببيان حدود هذا العلم، وأنَّ كثيرًا من العلماء التجريبيين قديمًا وحديثًا كانوا يؤمنون بوجود الله، بل أنَّ العلم التجريبي نفسَه شاهد على وجوده سبحانه.

يتظاهرُ الملاحدةُ المعاصرون بتعظيم العقل، وأنَّهم عقلانيون، ويدَّعون أنَّ الإيمان يتنافى مع العقل. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة بأنّه لا يمكن تفسيرُ التفكير المنطقي وفقَ الفكر الإلحادي. وإضافةً إلى أنَّ أكبر الفلاسفة والعلماء التَّجريبيين عبر العصور كانوا مؤمنين بوجود الخالق. كما أنهم ردّوا على ادِّعاء أنَّ العقلَ يتنافى مع الإيمان، بأنَّ الإيمان نفسه مبني على حجج عقلية وعلمية.

الملاحدةُ يسعون إلى تشكيك المتديِّنين في معتقداتهم. وقد ذكر علماءُ الغرب بعضَ القواعد الجيّدة في التعامل مع الشكوك والشبهات؛ منها: أنه بتحديد الشبهة يسهلُ ردُّها، وبمعرفة أصل الشبهة يسهل التعامل معها، وأنّ الشكَّ ليس مشكلة عقلانية فحسب؛ بل هناك بعدٌ روحانيٌّ أيضًا، وأن الشبهات الواقعية تدفع بالأدلة والبراهين، وأنَّ الشبهات العاطفية والإرادية لا تعالج بتقديم الحجج فقط، والاعتراف بقصور العقل والمعرفة، وأنه إذا عملَ العقل في إطاره الصحيح فيسهل التعاملُ مع الشَّك.

مِن أسسِ الملاحدة أنهم استبدلوا الحديثَ عن العناية الإلهية بالحديث عن الصدفة، وبالغوا في قدراتها في فعل المستحيل. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا الموقف ببيانِ تلبيساتهم في تعريف المستحيل، وأنَّ ما يدَّعي الملاحدة أنَّ الصدفة قادرةٌ عليه هو أبعدُ المحالات. كما أنّهم ردّوا على نظريةِ القرد اللامحدودة التي يستند إليها الملاحدة في حديثهم عن الصدفة.

مِن أساليب علماءَ الغرب في الردِّ على الملاحدة: بيان مغالطاتهم المنطقية، وشطحاتهم، وتناقضاتهم، وبيان ضعف خطابهم، ومخالفتهم للمنهج العلمي، إضافةً إلى بيانِ الشرور المترتبة على الإلحاد.

قد بيَّن علماءُ الغرب أنَّ الملاحدة وقعوا في عدد كبير من المغالطات المنطقية؛ من أهمُّها: تجسيد المجرّدات، والمراوغة، والمصادرة على المطلوب، والسؤال المشحون المركّب، والقسمة الثنائية الزائفة، والشخصنة، والاحتكام الخاطئ إلى المرجعية، ورجل القش.

مِن أساليب علماء الغرب في الردِّ على الملاحدة: بيان الشطحات التي وقعوا فيها. ومِن هذه الشطحات: نظرتُهم الدونية إلى حقيقة الإنسان وقيمته بحصره في مجموعة من الذرّات التي لا تعْدو كونها وسخًا كونيًّا. وللملاحدة شطحاتٌ كثيرة في إنكار الأخلاق الموضوعية وإنكار الهدف الموضوعي للحياة. كما أنَّ لديهم شطحات في تعريفِ اللاشيء. ومِن شطحاتهم: موقفهم من الصدفة واعتقاد بعضهم أنَّ كائنات فضائية زرعت الحياةَ على هذا الكوكب! فرارًا من الاعتراف بوجود الخالق سبحانه.

قد بيَّن علماءُ الغرب أنَّ الملاحدة وقعوا في عدد من التناقضات، منها: أن الكون خلقَ نفسَه من العدم، وأنَّ الكون ليس بحاجة إلى سبب بينما يقولون إنَّ الخالق لا بدَّ له من سبب، ويروْن أنَّه لا دليلَ إلّا من العلم التجريبي بينما هذا الادّعاء نفسه ليس مبنيًّا على تجارب علمية! وأنه لا يوجد معيار موضوعي للشر بينما يقولون إنَّ الدينَ شرّ، وقولهم إنَّ مشكلة الشَّر دليلٌ على الإلحاد بينما يعتقدون أنه لا يوجد خيرٌ وشرٌّ موضوعيين، ناهيكَ عن كثرة كلامهم عن العنف باسم الدين بينما الملاحدةُ أكثر الناس استعمالًا للعنف، ومثله ادِّعاؤهم أنّ الأديان تحارب النظريات العلمية المخالفة لعقائدها، بينما الملاحدة من أكثر الناس محاربة للنظريات العلمية المخالفة لعقائدهم.

مِن أساليب علماءِ الغرب: بيانُ ضعف الخطاب الإلحادي. وذلك من أوجه عديدة، منها: ضعفُ الحجج العقلية عند الملاحدة، وكثرة مغالطاتهم، وسطحيتهم، واهتمامهم بالزخرفة الكلامية دون المضمون الحقيقي، وكثرة استعمالهم للقدح الشَّخصي والسخرية، وعدم فهمهم لقول المخالف، وكذلك غلوهم وتطرّفهم.

قد بيَّن علماءُ الغرب مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي، وذلك أنّ الملاحدة استندوا إلى عددٍ من المبادئ العلمية، وقد أوضحَ علماءُ الغرب أنها غير صحيحة. ومن هذه المبادئ: أنَّ جميع الكائنات الحية في الأصل آليات، وأن المقدار الكلي للمادة والطاقة لم يتغيَّر، وأنَّ قوانين الطبيعة ثابتة بدون أي تغيّر، وأن وعي الإنسان قد أنتجتْه العملياتُ المادية في الدماغ، وأن الطبيعة ليست ذات هدف، وأنَّ الذاكرة مخزَّنة في الدماغ، وتُمْحى بعد الموت، وأنَّ الظواهر غير المفسّرة علميًّا مجرّد وهم.

قدْ أفاد علماءُ الغرب في بيان الشرور المترّتبة على الإلحاد. وذلك بتقرير علاقة الإلحاد بالشُّرور أوّلًا، ثمَّ ذكرَ أمثلة واقعية على الشرور المترتبة على الإلحاد. وقد ارتبطَ الإلحاد بعدد من الفلسفات المدمّرة التي أثّرت في أخلاقياتهم، وسبَّبت في قيامهم بأنواعٍ كثيرة من الشرور. ومِن ضمن هذه الفلسفات: النفعية التلذذية، والتطورية، والنسبوية الأخلاقية، والنفعية والحلولية. ومن الأمثلة على الشرور التي انتشرتْ في المجتمعات الإلحادية والعلمانية: الحروب والإبادة الجماعية، والعنف والإجرام، والمخدرات، والهوس الجنسي.

قد تنوَّعت وسائلُ علماء الغرب في الردّ على الإلحاد، منها: تأليف الكتب، وعقد المناظرات، وإنتاج البرامج والمقاطع المرئية، والنشر في وسائل الإعلام والتواصل، وإصلاح العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق العلمية.

قد ألَّف علماءُ الغرب مؤلفاتٍ كثيرة جدًّا في الردِّ على الإلحاد في مجالات متعدّدة، مِن أهمها: الأدلة العقلية على وجود الله، والأدلة العلمية على وجود الله، وإثبات المعجزات، ونقد خطاب الإلحاد الجديد، ونقد المذهب المادي، ودرء التعارض بين الإيمان والعلم التجريبي والعقل، ونقد النظريات العلمية التي يتبناها الملاحدة.

قد عقدَ علماءُ الغرب مئاتِ المناظرات مع الملاحدة. وأهمُّ المناظرين من علماء الغرب: البروفسور وليام لاين كرايغ، والبروفسور جون لينوكس، والبروفسور ألستر ماكغراث. وقد يستفيد المتخصِّص في نقد الإلحاد من مشاهدة هذه المناظرات، ولكنْ لا تجوز مشاهدتُها لغير المتخصِّص لما يُعرض فيها من الشبهات والسخرية والاستهزاء.

مِن وسائل علماء الغرب في نقدِ الإلحاد: إنتاج البرامج والمقاطع المرئية. وقد اشتهرتْ هذه المقاطع كثيرًا، وبلغ عددُ مشاهدات بعضها الملايين. وهي مقاطع متنوِّعة، ومن أهمِّ أنواعها: أفلام وثائقية، ومقتطفات من المناظرات والمحاضرات، وموشن غرافيك، مقاطع مرئية قصيرة وهادفة في نقد الإلحاد.

النَّشرُ في وسائل الإعلام والتواصل من وسائل علماء الغرب في نقد الإلحاد. ومن ذلك أَنَّهم يستخدمون الوسائل التقليدية مثل: الإذاعة، وكذلك يستخدمون مواقعَ الإنترنت. ولديهم بعضُ المواقع المفيدة في نقد الإلحاد، ويعمل فيها فريق عملٍ كبير من المتخصِّصين في نقد الشبهات. وإضافة إلى ذلك لديهم حسابات في وسائل التَّواصل الحديثة، وقد تبيَّن خلالَ البحث أنَّ دعوة الملاحدة أكثر انتشارًا في هذه الوسائل من الحسابات المتخصِّصة في الردّ عليهم.

قد تبنَّت المؤسساتُ الحكومية الغربية مناهجَ تعليميةً مبنية على المذهب الطبيعي. وقد اجتهدَ علماءُ الغرب إلى إصلاح العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية على الصعيدَيْن السياسي والعلمي. فقد سعوا سياسيًّا إلى إدخال نظريات علمية منافسة للمذهب الطبيعي مثل: نظرية الخلق ونظرية التصميم الذكي في المؤسسات التَّعليمية. وإضافةً إلى ذلك فتحوا دوريات ومجلات علمية تنشر أبحاثًا علمية مبنية على هذه النظريات.

تنقسم الحججُ على وجود الله إجمالًا إلى ثلاثة أقسام: الحجج العقلية، والحجج العلمية، والحجج الحسية.

الحججُ العقلية التي يذكرها علماءُ الغرب هي: حجة الفطرة، والحجة الكونية، والحجة الغائية، وحجة التوافق الدقيق للكون، وحجة الجمال، والحجة الوجودية، والحجة الأخلاقية، وحجة الوعي، والحجة البراغماتية.

لم يستخدمِ اللاهوتيون النصارى في العصور الوسطى حجةَ الفطرة على وجود الله، ولكنها ظهرتْ في عصر النهضة والإصلاح على يد اللاهوتي جون كلفن والفيلسوف رينيه ديكارت. وقد قام علماءُ النفس في هذا العصر بإجراء عددٍ من

الدراسات العلمية المهمة عن الإيمان الفطري عند الأطفال. وليس يخفى أنّ الفطرة مذكورةٌ في عددٍ من الآيات والأحاديث وقد بيّن علماء الإسلام حقيقة هذه الفطرة ودلالتها على وجود الخالق.

الحجةُ الكونية مبنيَّة على أنَّ الكون حادث، وأنّ حدوثَه دليل على وجود خالقٍ أحدثَه من العدم إلى الوجود. ودليل الخلق والإيجاد في القرآن مبني على الاستدلال بما يُعلم حدوثُه ضرورة على وجود الخالق. وعلماء الغرب يستدلّون بالحجة الكونية، بينما دليلُ الخلق والإيجاد مذكور في القرآن. والصياغات المنطقية القديمة للحجة الكونية فيها ضعف، بينما بعضُ الصياغات الحديثة أقوى بكثير. وقد أيّد علماءُ الغرب هذه الحجة بالاستدلال العقلي والعلمي على حدوث الكون مما جعل هذه الحجَّة قوية. وفي الوقت نفسه تخبَّط علماءُ الغرب في ذكر نتيجة الحجة الكونية حيث تكلَّموا عن الخالق بألفاظ مجملة غير لائقة. ولذلك يمكن الاستفادة من كلام علماء الغرب عن الحجة الكونية مع الحذر من أخطائهم.

يعتمد الاستدلالُ في الحجة الغائية على الإتقان والإحكام في المخلوقات في إثبات وجودِ خالق عليم حكيم. وقد أرشدَ الله تعالى في آيات كثيرة إلى النظر في المخلوقات والتفكّر فيها لدلالتها على وجوده وربوبيته. وقد سمّى علماءُ الإسلام هذه الحجةَ بدليل الإحكام والإتقان، ودليل العناية. وهي من أقوى الحجج على وجودِ الله، ويندرج تحتَها عددٌ من الحجج الفرعية. وفي هذا الزمان أبرز علماءُ الغرب الحجةَ الغائية باسم: حجة التصميم، واندرجت تحتها: حجة التعقيد المخصَّص وحجة التعقيد غير القابل للتبسيط. وقد ردّ علماءُ الغرب على اعتراضات الملاحدة على هذه الحجج بردود مفيدة.

حجةُ التوافق الدقيق للكون مشتقة من الحجة الغائية، وهي من الحجج العقلية العلمية القويَّة على وجود الله. وهذه الحجة تعتمد على أدلة علمية دالة على أنَّ الكون مضبوطٌ بدقة بلغت الغاية. وقد استدلَّ علماءُ الغرب بهذه الحجة بطرق جيِّدة ومفيدة، كما أنهم ردّوا على شبهات الملاحدة المتعلقة بهذه الحجة، مثل شبهة: نظرية الأكوان المتعددة، والمبدأ الإنساني الضعيف.

حجَّة الجمال من الحجج العقلية الدالة على وجود الله، وتستند إلى الجمال الموضوعي في المخلوقات ودلالته على وجود الخالق. وتكتسب هذه الحجة قوتها إذا انضمَّت إلى الحجة الكونية والحجة الغائية. وكان لعلماء الإسلام مثل: الإمام ابن القيم (رحمه الله) السبقُ في الاستدلال على الجمال في المخلوقات على وجود الخالق، وقد ساقَ على ذلك أمثلة متعدّدة.

الحجَّة الوجودية حجة عقلية قبلية محضة على وجود الله. وقد أظهر اللاهوتي أنسلم كانتبري هذه الحجةَ في العصور الوسطى، وتلقّاها بعض اللاهوتيين باستحسان، بينما ردَّها آخرون. وهذه الحجة ضعيفة وأصبحت محلَّ سخرية عند الملاحدة، ولهذا لا ينبغي الاحتجاج بها مطلقًا.

مِن الحجج العقلية التي يستعملها علماءُ الغرب في الاستدلال على وجود الله: الحجَّة الأخلاقية. ومَفادُ هذه الحجة: أن الإحساس بالقيم والأخلاق الموضوعية أمرٌ فطري في الإنسان، ويستحيل تفسير وجود القيم والأخلاق الموضوعية في الفكر الإلحادي. وخلاصةُ تقييم هذه الحجة أنّها قوية في مناقشة الإنسان القريب من فطرتِه المعترف بوجود أخلاق موضوعية، ولكن لا يمكن استعمالها مع مَن ينكر وجودها.

حجةُ الوعي من الحجج العقلية العلمية على وجود الخالق. وتعتمد هذه الحجة على أنَّه لا يمكن تفسيرُ الوعي الإنساني عن طريق المذهب المادي الإلحادي لكون الوعي غيرَ مادي. وقد استدلَّ علماءُ الغرب بهذه الحجة من بعض الأوجه القوية التي يُستفاد منها؛ فهي حجة جيّدة على وجود الله.

الحجةُ البراغماتية من الحجج العقلية على وجود الله، وتسمَّى رهان باسكال نسبة إلى صاحبه: الفيلسوف الفرنسي بليزيه باسكال. وهذا الرهان مبني على أنَّ وجود الله مُحتمل، ولكن حيث إنَّ الإيمان به يقود إلى الجنة فإنّه أسلم وأرجح من الكفر. وهذه الحجةُ استحسنها بعض اللاهوتيين الغربيين وردّها آخرون. والخلاصة أنّها حجةٌ ضعيفة، ولا يجوز الاستدلالُ بها؛ لما فيها من الأسس الفاسدة كالقول بأنَّ الإيمان بوجود الخالق محتمل وليس ضروريًّا.

الحججُ العلمية على وجود الله عندَ علماء الغرب ليست حججًا مباشرة على وجودِه سبحانه، وإنما هي حجج داعمة للحجج العقلية مثل: حجة الفطرة، والحجة الغائية. والحجج العلمية على وجود الله هي الحجج التي تنتمي إلى علوم: الكون والفلك، والفيزياء، والأحياء، والكيمياء، والرياضيات وعلم النفس. وقد أفاد علماءُ الغرب كثيرًا في إبراز هذه الحجج، وعليه فإنّه يمكن الاستفادة منهم.

العلومُ التجريبية المتعلقة بالكون تنقسم إلى علم الكون وعلم الفلك. وقد استدلَّ علماءُ الغرب بحجج كثيرة على وجود الله تتعلّق بهذين العلمين مثل: الدقّة المتناهية في الثوابت الفيزيائية الأساسية الستة في الكون، ودقة التمدّد الكونية، ودقة أحداث الدقائق الثلاث الأولى بعد خلق الكون، ودقة مستوى إنتروبيا الكون، إضافة إلى حجج علمية مشاهدة أيضًا. وخلاصة تقييم هذه الحجج أنّ الاستدلال بالآيات المشاهدة في علم الفلك أقوى من الاستدلال بالنظريات العلمية المتعلقة بالماضي السحيق في علم الكون، ولكن يجوز الاستدلال بكلٍّ منهما.

الحججُ العلمية على وجود الخالق المتعلقة بالفيزياء تنقسم إلى قسمين رئيسين: دلالة القوانين الفيزيائية على الخالق عمومًا، ودلالة الضبط الدقيق للقوى الفيزيائية الأساسية في الطبيعة. ومن الأمثلة على النوع الثاني: الضبط الدقيق للقوة الجاذبية، والقوة الكهرومغناطيسية، والقوة النووية القوية، والقوة النووية الضعيفة. وكلُّ هذه القوى مضبوطةٌ بدقة متناهية، وذلك دليلٌ واضح وقوي على وجود الخالق، حيث يستحيل حصولُ ذلك مصادفة.

موضوعُ علم الأحياء: دراسة الكائنات الحية. وقد استدلَّ علماءُ الغرب بالإتقان والإحكام في هذه الكائنات على وجود خالق عليم قدير. والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، ومِن أبرزها: الخلية، والمخّ، والعين. وكلامُ علماء الغرب في هذا الباب علمي سليمٌ في الجملة، وغيرُ مختلط بعقائدهم الفاسدة. ولهذا يمكن أن يستفيد المسلمون من تقريراتهم في هذا الباب.

الكيمياء علمٌ معني بالمواد التي تتكوّن منها المادة، والبحث عن خصائصها وتفاعلاتها. وقد استدلَّ علماءُ الغرب بحجج علمية كيميائية على وجود الله عمومًا،

كما أنهم استدلّوا بعددٍ من الأمثلة الفرعية من هذا العلم: ملاءمة العناصر الكيميائية لوجود الحياة، ووفرة الكربون والماء الضروريان للحياة، والتركيب الكيميائي للغلاف الجوي. وكلام علماء الغرب في هذا الباب علمي جيّد، ويمكن الاستفادة منه.

علمُ النفس يُعنى بالدراسةِ العلمية للعقل البشري، ووظائفه - لا سيَّما المؤثّرة في السلوك في سياق معيّن -. وقد استخدم علماءُ الغرب هذا العلم لبيان أنَّ الإنسان مفْطور على المبادئ الفطرية الضرورية والإيمان بالخالق. كما أنهم استفادوا منه في بيانِ أنَّ الإلحاد مشكلة نفسية وانحراف سلوكي عن الفطرية السوية. وقد بيّنوا أنَّ أغلبَ الملاحدة المشاهير تعرَّضوا لمشاكل في طفولتهم - ولا سيَّما بفقدان آبائهم - وأنَّ ذلك كان مؤثّرًا في إلحادهم. وكلامهم في هذا الباب في الجملة جيّد ومفيد، ويُستفاد منه إلى حدٍّ كبير.

الرياضياتُ هي العلمُ المجرّد للرقم، والمقدار، والمسافة. وقد استخدم علماءُ الغرب هذا العلم في الردِّ على الملاحدة من وجهين: الأوّل: دلالة التناسق بين الرياضيات والعلم الطبيعي على وجود الخالق. والثاني: دلالة الأنماط الرياضية في الطبيعة على وجود الخالق. وقد أفادوا في ذلك وأبرزوا بعض عجائب مخلوقات الله. ومن ذلك: وجودُ النسبة الذهبية في مخلوقات كثيرة. وكلامهم في ذلك علمي بحت في الغالب، ولذا يمكن الاستفادة منه.

الحججُ الحسية على وجود الله تستندُ إلى الاستدلال بالآثار الحسية على وجوده سبحانه، واتِّصافه بالخلق. وأبرزُ هذه الحجج ثلاث: حجة إجابة الدعاء، وحجة المعجزات، وحجة ثبوت الحقائق الدينية.

حجةُ إجابة الدعاء مبنية على حصول إجابة الدعاء لعددٍ لا يمكن حصرُه من البشر، وأنَّ ذلك دليلٌ قطعي على وجود خالق مجيب للدعوات. وقد أفاد وأجادَ علماءُ الإسلام بذكر هذه الحجة، بينما كان كلام علماء الغرب عنها قليل. ولكن لديهم كلامٌ جيِّد في الردِّ على شبهة: عدم إجابة الدعاء يستفاد منه.

قد اعتنى علماءُ الغرب بالحديث عن المعجزات اعتناءًا كبيرًا، ولكنّ حديثهم عنها في الغالب منصبٌّ على معجزات المسيح (عليه السلام) وأنّها دالة على ألوهيته

المزعومة. ولهذا كان كثيرٌ من كلامهم في هذا الباب باطل. ومعَ ذلك فقد ذكروا بعضَ التقريرات الجيِّدة في بيان إمكانية المعجزات من الناحية العقلية والعلمية التجريبية، إضافةً إلى ردودهم على شبهاتِ الملاحدة في هذا الباب. ولهذا يمكن الاستفادةُ من بعضِ الجوانب من كلامهم معَ الحذر من أباطليهم. وقد استدلَّ علماءُ الإسلام بدلائلِ النبوة على وجود الخالق، وعدُّوها من أقوى الحجج على ربوبيته سبحانه وتعالى، ولا ريب أنَّ كلامهم أجود من كلام الغربيين.

حجةُ ثبوت الحقائق - أو الخبرات - الدينية من الحجج الحسية على وجود الخالق. ويقصد علماءُ الغرب بهذه الحجة أنَّ الوقائع والخبرات والحقائق الدينية التي تحصل للإنسان؛ دليلٌ على وجوده. وقد ذكروا بعض التقريرات الجيّدة في هذا الباب، ولكنَّهم في الوقت نفسه تخبَّطوا كثيرًا. ولهذا ينبغي الحذرُ من الانسياق وراء تقريراتهم دونَ بصيرة.

قد أوردَ الملاحدة شبهات متعدّدة على وجود الخالق أو بعض صفاته. وهذه الشبهاتُ تنقسم إلى ثلاثة أقسام: شبهات عقلية فلسفية، وشبهات علمية تجريبية، وشبهات عاطفية. وطائفة من هذه الشبهات منتشرة، وقد ردَّ علماءُ الغرب عليها بردودٍ كثيرة، بينما لم تنتشر شبهات أخرى فكانت ردودهم عليها أقل.

شبهةُ الخصائص غير المتوافقة تشتمل على عددٍ من الشبهات المتعلّقة بالصفات الإلهية. ويزعم الملاحدةُ أنَّ اتِّصاف الخالق بصفة معيّنة أو أكثر من صفة في آنٍ واحد مستحيل. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهات ببيان تلبيسات الملاحدة في الاستحالة المنطقية والاستحالة الميتافيزيقية، إضافةَ إلى بيان أنَّ الملاحدة ينطلقون في شُبهات من تصوّرات مادية مسبقة، وأنّ هذه التصورات الباطلة أثّرت في موقفِهم من الصفات الإلهية. وبيّنوا أيضًا أنَّ الخالق متّصف بالكمال المطلق، وعليه فلا يمكن قياسُه بالمخلوقات. كما أنّهم ذكروا أنَّ المذهب الإلحادي نفسه متناقض. وردودُهم في هذا الباب جيّدة من نواحٍ عديدة، إلا أنَّ النصارى انحرفوا انحرافًا شديدًا في الإيمان بالله وصفاته. ولهذا اختلط كلامُهم الجيّد بكثير من الكلام الباطل، ولا نجد الحقَّ إلّا عند أهل السنة المتمسِّكين بالوحيين.

مِن الشُّبهات المندرجة تحتَ شبهة الخصائص غير المتوافقة: شبهة تصاغ بصياغة السؤال: «إذا كان الله خلق كلَّ شيء؛ فمَن خلق الله؟». وقد أخبر النبي (ﷺ) أنَّ الشيطانَ يوسوس بهذه الشبهة في قلوب العباد، ولكنَّ الملاحدة يوردونها شبهةً على وجود الخالق. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة ببعض الردود الجيّدة والمفيدة، ولكنَّ المشكلة أنّهم يخلطون كلامَهم الجيد ببعض الألفاظ المجملة الباطلة مما يوجب على المسلم الحذر. وقد أرشدَ النبي (ﷺ) إلى كيفية التعامل مع الشبهة في أحاديث متعدِّدة، كما أنَّ علماءَ الإسلام ردّوا على هذه الشبهة بكلام يشفي الصدور.

الملاحدةُ العوام يكثرونَ السؤال: «كيف نؤمن بوجودِ الله مع أننا لا نراه؟». وهو سؤالٌ غيرُ منتشر بينَ دعاة الإلحاد. وقد ذكر علماءُ الغرب بعض الأجوبة الجيّدة على هذا السؤال. وهذه الأجوبةُ في الغالب متوافقة مع ما ذكره علماءُ الإسلام في هذا الباب أيضًا.

مِن الشُّبهات المندرجة تحت شبهة الخصائص غير المتوافقة: شبهة تناقض القدرة المطلقة. وخلاصتُها: أنَّ إيمان المؤمنين بالقدرة المطلقة يؤدّي إلى تناقضات؛ فلا بدَّ من وجود بعضِ الاستثناءات في جملة «الإله قادرٌ على كلِّ شيء». وبناءً على ذلك يوردونَ السؤال: «هل يستطيع الخالق خلقَ حجرٍ وهو غيرُ قادر على حمله؟». وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة ببعض الردود الجيّدة ببيان حقيقة مفهوم القدرة المطلقة، وأنها متعلِّقة بالممكنات دون المستحيلات. كما أنهم ذكروا ردودًا أخرى جيِّدة. وهذه الردودُ في الجملة متوافقة مع ما ذكرها علماء الإسلام، ولكنَّ علماءَ الغرب يستخدمون بعضَ الألفاظ المجملة والفلسفية، وهي باطلة، ويجب الحذرُ منها.

شبهةُ الوحي غير المتناسق شبهة إلحادية متعلّقة بالوحي الإلهي. وخلاصتها: أنَّه يستبعدُ وجودَ الإله الذي يؤمن به المؤلهة؛ لأنَّهم يعتنقون أديان متعارضة، وكلُّهم يدَّعون أنَّ أديانهم مستندة إلى وحي إلهي. وحيث إنَّ التعارض موجود فإنّه يدلُّ على عدمِ صحّة الوحي، وعليه فإنهم ينكرون وجود الخالق. وقد ردّ عليها علماءُ الغرب على هذه الشبهة ببعض الحجج العقلية الجيّدة، إلا أنَّ كلامهم مصحوبٌ بالدَّعوة إلى ديانتهم الباطلة. ولهذا يمكن الاستفادة من ردودهم مع تجنُّب كلامهم الفاسد.

مِن الشُّبهات الإلحادية الخطيرة: شبهةُ عدم إدراك المراد بالإله. وهي مبنيةٌ على مبدأ التحقُّق في فلسفة الوضعية المنطقية. وخلاصة هذا المبدأ أن ما لا يمكن التحقُّق منه حسيًّا، فليس للكلام عنه معنى. وعليه، فإنَّهم يقولون إنَّ الكلام عن الخالق ليس له معنى. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا المبدأ الفاسد وهذه الشبهة الفلسفية الباطلة ببعض الردودِ العقلية القوية. ومن ذلك أنّ هذا المبدأ نفسه ليس مبنيًّا على دليل حسي، كما أنه توجَد حقائق كثيرة في البديهيات والعلوم التجريبية التي لا يمكن التحقُّق منها حسيًّا. وكلامُ علماء الغرب في هذا الباب جيّد من حيث العموم، إلّا أنَّ اللاهوت النصراني المخالف لبديهيات العقل ساهم في انتشار هذه الشبهة.

شبهةُ إبريق راسل مبنيَّة على افتراض أنَّ الأصل عدم وجود الإله إلا إذا أمكنَ إثباته بأدلَّة يرتضيها الملحد. وضربَ الملاحدة لذلك مثالًا بوجود إبريق صيني لا يمكن رؤيتُه يدور في الفضاء؛ فيلزم مَن آمن بوجوده أن يثبت ذلك، وإلا كان الأصلُ عدمَ وجوده. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة بردود عقلية جيّدة مثل: أنَّ هذه الشبهة تفترض أنّ الإلحاد هو الأصل، بينما الصواب أنّ وجودَ المخلوقات تدلُّ على وجود الخالق؛ فالمؤمن باقٍ على الأصل، بينما الملحد يخالفه. كما أنه يمكن تقديمُ عددٍ من الأدلة القوية على عدم وجود إبريق صيني يدور في الكواكب، بينما لا يستطيع الملحدُ تقديم أدلة حقيقة على عدم وجود الخالق. ولهذا تمسَّكوا بهذه الشبهات الضعيفة. وردود علماء الغرب في هذا الباب جيّدة، وقد أجادَ بعضُ الباحثين المسلمين المعاصرين في نقد هذه الشبهة أيضًا.

شبهةُ عدم الإيمان ارتبطت مع شبهة الاختباء الإلهي. ومؤدّى هاتين الشبهتين واحد، وهو أنَّ الأدلة على وجود الله ليست كافية للإيمان به وهذا سبب وجود عددٍ كبير من الملاحدة. وقد ردَّ علماءُ الغرب ببعض الحجج العقلية إلا أنّ كلامهم اختلطَ كثيرًا بعقائدهم الفاسدة. بينما يستطيع المسلمُ أن يردَّ على هذه الشبهة بأنَّ الله فطرَ العباد على الإيمان، وأخذ العهد من بني آدم، وأقام عليهم الحجة على وجودِه وربوبيته بآياته ومخلوقاته، كما أنه أرسلَ إليهم الرسل. فالأدلة أكثرُ من كافية، ومَن أعرض عنها بعد ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه.

أوردَ بليزيه باسكال رهانه المشهور، وردَّ عليه الملاحدة بردود متعدّدة. ومن ضمن ردودِهم إقامة ما سمّوه برهان الملحد. ونتجت شبهةٌ من هذا الرهان مفادها أنّه لو كانَ الإله موجودًا فإنّه سيجازي الملاحدةَ والمتديّنين المتحلّين بأخلاق طيبة بدخول الجنة. وعليه، فلا حاجةَ للإيمان به. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة ببعض الرُّدود العقلية المفيدة، إلا أنَّ كلامهم اختلط بعقائدهم الفاسدة. بينما يستطيع المسلمُ أن يردَّ على هذه الشبهة بطرق أقوى نظرًا لصحّة عقيدته.

شبهةُ ضعف التصميم: شبهة عقلية علمية، حيث يدّعي الملحد أنه يوجد عيوبٌ في بعض المخلوقات، وأنَّ هذه العيوب تدلّ على أنّ هذه المخلوقات ليست مخلوقة لخالقٍ عليم حكيم. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة بحجج عقلية وعلمية. وأعظمُ ما يستفاد من كلامهم في الجانب العلمي التجريبي المحض حيث بيّنوا أن ما ادَّعى الملاحدة أنّها عيوبٌ في المخلوقات ليست كذلك. وذكروا أنّ كلّ مثال أبرزه أولئك قد تبيَّن بطلانه لاحقًا وفقَ دراسات علمية حديثة. وأما ردودهم العقلية ففيها تداخلٌ مع تصوّراتهم اللاهوتية الباطلة. والحقّ أن الله خلق كلّ شيء بإتقان وإحكام، ولا يتنافى هذا معَ حدوث الأمراض والمصائب، لأنّ الله خلق هذه الحياة امتحانًا واختبارًا، ولا يتأتى ذلك إلا بوجود مصائب.

شبهاتُ الملاحدة العلمية متعدّدة، ولكن أبرزها ما تتعلّق بـ: نظرية الانفجار العظيم، وقوانين الطبيعة، ونظرية التطوّر، وميكانيكا الكم، والتطوّر الكيميائي لأصل الحياة، وعلم نفس الأديان، وتاريخ الكون والأرض.

كان الملاحدةُ يعتقدون في السابق أنَّ الكون أزلي، ولكن عندما تضافرت الأدلة على أنَّ للكون بداية تمسَّكوا بنظرية تسمى بالانفجار العظيم. وإن دلّتْ هذه النظرية على وجودِ بداية مطلقة للكون إلا أنّها نظرية مادية بحتة تحاول تفسير وجود الكون بدون خالق. كما أنَّ التفاصيل المتعلقة بنشوء الكون في هذه النظرية تخالف آياتِ القرآن الكريم كما أنها تخالفُ نصوص كتاب النصارى المقدّس. ولهذا ردَّ علماءُ الغرب المتمسّكين بظواهر نصوص كتابهم على هذه النظرية. وقد ذكروا بعضَ

الأوجه الجيّدة في نقد هذه النظرية إلا أنّ كلامهم عنها أقل جودة من ردودهم على نظريات علمية أخرى.

يدَّعي الملاحدة أنّه يمكن تفسيرُ ظهور الكون من العدم إلى الوجود عن طريق قوانين الطبيعة، كما أنّه يمكن تفسيرُ جميع الظواهر الطبيعية عن طريق هذه القوانين أيضًا. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهات ببيان حقيقة قوانين الطبيعة وأنها وصفٌ للانتظام في الطبيعة وليست فاعلة. كما أنهم بيَّنوا أنَّ كلام الملاحدة – وعلى رأسهم سيتفن هوكينغ – أنَّ قانون الجاذبية خلق الكون من العدم في غاية التناقض. وكلامُ علماء الغرب في هذا الباب جيّد ويستفاد منه.

يتعصَّب الملاحدة لنظرية التطوّر تعصُّبًا شديدًا لأنهم يدَّعون أنّها تفسّر الإتقان والإحكامَ في المخلوقات الحية بدون وجود الخالق. وتبيّن خلال البحث أنّ الفكرَ التطوّري بدأ في عهدِ فلاسفة اليونان، ولكن تشارلز داروين أظهر التطوّر في صورة نظريةٍ علمية. وقد ألّف علماءُ الغرب مؤلفات وأبحاثًا كثيرة جدًّا في نقد هذه النظرية. وقد تبيَّن خلالَ هذه الردود أنّ الأسس التي تقوم عليها هذه النظرية في غايةِ الضعف والوهن. ولهذا يمكن الاستفادة من ردودهم كثيرًا في هذا الباب، ولكنَّ علماءَ الغرب أنفسهم مختلفون فيما بينهم، وقد تبنوا نظريات علمية متعدّدة مثل: نظرية التصميم الذكّي، ونظرية الخلق. ولا تخلو هذه النظريات من إشكال عقدي أو علمي. وعليه، فلا يمكن قبولُ كلِّ ما قالوه في هذا الباب، بل لا بدَّ من قراءة ردودهم بعين ناقدة.

ميكانيكا الكم هوَ العلم الذي يتعامل مع سلوك المادة والضوء على النطاق الذرِّي وما دون الذرِّي. وهذا العلم محاطٌ بكثير من الغموض لوجود عددٍ من الظَّواهر الغريبة على مستوى دون الذرّي. ولهذا وُجدت نظريات علمية متعارضة في تفسيرِ هذه الظواهر. وقد أورد الملاحدةُ بعضَ الشبهات من هذا العلم كالتشكيك في مبدأ السببية، وظهور الكون من العدم بدون وجود الخالق. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشُّبهات بردودٍ علمية متينة. وحيث إنَّ هذا العلم بحاجة إلى كلام المتخصِّصين فإنَّه يمكن الاستفادةُ من كلام متخصِّصيهم في هذا الباب استفادةً كبيرة.

شبهاتُ الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء ترجعُ إلى محاولاتهم لتفسير أصل الحياة على الأرض ماديًّا، وهو معروف بالتطوّر الكيميائي. وقد بيّن علماء الغرب أنّ تطوُّر الحياة بدون وجود خالقٍ مستحيلٌ علميًّا بأدلة علمية كثيرة. كما أنهم ردّوا على التَّجارب العلمية التي تحاول تحاكي بداية وجود الحياة على الأرض بردود علمية متميِّزة. وكلامُهم في هذا الباب علمي في الجملة، وغير مختلط مع عقائدهم الفاسدة، ولهذا يمكن الاستفادةُ منه كثيرًا في هذا الباب.

شبهاتُ الملاحدة المتعلِّقة بعلم النفس ترجع إلى محاولاتهم في تفسير ظهور الأديان عمومًا، والتديّن لدى الأفراد بنظريات نفسية مادية. وكان سيغموند فرويد من أكثرِ مَن تكلَّم في ذلك. وقد ردَّ علماءُ الغرب عليهم بأنّهم افترضوا أنَّ الإلحاد هو الأصل، ثمَّ حاولوا تفسير ظهور الأديان والتديّن بعد ذلك. وهذا افتراض للنتيجة في إحدى المقدِّمات، ويسمى بالاستدلال الدائري، وهو باطل في علم الجدل. كما أنَّ علماءَ الغرب ردّوا على نظريات فرويد في علم النفس عمومًا، وعلى نظرياته في ظهور الأديان خصوصًا، وبيَّنوا ضعفَ منهجه في الاستدلال. وردود علماء الغرب في هذا الباب جيِّدة من حيث الجملة ولم تختلط بعقائدهم الفاسدة.

شبهاتُ الملاحدة التاريخية تتعلَّق بتاريخ الأرض. وهذه الشبهات متوجّهة في المقام الأوَّل للسرد التاريخي المذكور في الكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى. وذلك أنَّ اليهودَ والنصارى الأصوليين يعتقدون أنّ ظواهر نصوص كتابهم المقدّس تدلُّ على أنَّ عمرَ الأرض لا يتعدَّى بضعة آلاف السنين. ويذكر الملاحدة أنَّ الدراساتِ العلمية الحديثة تدلُّ على أنَّ عُمر الأرض أكثر من أربعة مليارات سنة. والعمر الطويلُ للأرض أصلٌ ضروري لنظرية التطوّر. وقد ردَّ بعضُ علماء الغرب على ذلك ببيان أنَّ الأسس العلمية لتحديد عمر الأرض ليست يقينية، بل هي مبنية على كثيرٍ من الافتراضات لا يمكن الجزم بصحتها. وكلامهم في هذا الباب جيّد، فلا ينبغي التسليمُ بادِّعاءات الملاحدة المتعلقة بعمر الأرض التي تفتح الباب لنظرية التطوُّر. ولكنَّ هذه الشبهة تتوجّه إلى اليهود والنصارى الأصوليين في المقام الأوّل، لأنّه لا يوجد في الإسلام نصٌّ صحيح يدلُّ على تحديد عمر الأرض، بل النصوص دالَّة على أنَّ البشرية أقدم مما يدّعون بكثير.

الشبهاتُ العاطفية سمّيت بذلك لأنَّ العاطفة هي الباعث الأساس للتأثّر بها، وإن كانَ الملاحدة يوردونها بقالبٍ منطقي أو علمي. وأبرز شبهاتهم في هذا الباب: مشكلة الشَّر، ومشكلة جهنم، وسلب الإرادة، والشرور المترتّبة على وجود الأديان، ومصير الجاهل.

مشكلةُ الشَّر من أكثر الشبهات الإلحادية انتشارًا، وهي مبنية على التعارض المزْعوم بينَ وجود خالق عليم قدير رحيم وبين وجود الشرور في العالم. وقد استشكلَ الفلاسفة وجودَ الشَّر في العالم منذ آلاف السنين، إلا أنَّ هذه المشكلة لم تظهرْ على أنها اعتراضٌ إلحادي على وجود الخالق إلا في عصر التنوير. والملاحدةُ صاغوا هذه المشكلةَ بصياغة منطقية وصياغة برهانية. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشُّبهة بصياغتيْها بردودٍ قوية ومقنعة، إلا أنَّه لا يخلو كلامهم من استخدام ألفاظٍ مجملة يجب التنبُّه لها. كما أنَّ علماءَ الإسلام المتقدّمين والباحثين المعاصرين قد ردُّوا على هذه الشبهة بردودٍ قوية نافعة. وتبيَّن خلالَ البحث أنَّ وجود الشرِّ دليلٌ على وجود الخالق، وليس حجة للملاحدة.

مشكلةُ جهنَّم مبنيَّة على استشكال الملاحدة وجود خالق عليم قدير رحيم يعذِّب غيرَ المؤمنين والعصاة في جهنم. وهذه الشبهة أقلّ انتشارًا في الخطاب الإلحادي المعاصر من شبهةِ مشكلة الشَّر. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة ببعض الرُّدود الجيّدة والمقنعة. ولكنَّ كلامهم في هذه المسألة اختلط مع عقائدهم الفاسدة، فلا بدَّ من تمييز الكلام السليم من الباطل. وجميعُ الإشكالات الموجود لدى النصارى غيرُ موجودة في الدين الإسلامي، ولهذا يمكن للمسلم أن يردّ على هذه الشُّبهة بردود أقوى من ردود علماء الغرب.

حصلَ اختلافٌ قديم بين الفلاسفة وعلماء الدين في حقيقة إرادة الإنسان ومشيئته. وادَّعى بعضُ الملاحدة أنَّ الإرادة الحرّة لدى الإنسان مجرّد وهم بناءً على مذهبِهم المادي واستدلالهم ببعض النظريات العلمية. وبنوا على هذا الادِّعاء شبهاتٍ إلحادية متعلِّقة بالدين والأخلاق ومعاقبة الله للكفار والعصاة في جهنم.

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا الادّعاء وعلى النظريات العلمية التي يستندون إليها ببعضِ الردود القوية التي يمكن الاستفادة منها. ولكن لا يمكن الاهتداء إلى الحقِّ المحضِ في هذه المسألة إلا في ظلّ نصوص الوحيين. وقد أفاد علماء الإسلام؛ وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) بتقريرات مهمَّة في هذا الباب. والخلاصةُ أنَّ الإنسان لديه إرادة، ولكنّها ليست حرّة، بل هي تحت مشيئة الله تبارك وتعالى.

مِن أكثر الشُّبهات التي يردِّدها الملاحدة الجدد: شبهة الشرور المترتّبة على وجود الأديان. وقد أوردَها بعضهم بصياغةٍ منطقية ضعيفة، إلا أنَّهم يذكرونها في الغالب بطريقةٍ عاطفية بإيراد أمثلة تاريخية وواقعية على شرور وقعت على أيدي بعض أتباع الأديان. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة بصياغتها المنطقية كما أنهم ردّوا على الأمثلة العاطفية التي أوردوها بردودٍ قوية وجيِّدة. وتبيَّن خلال البحث أنّ كلًّا مِن النصارى والملاحدة متناقضون في هذا الباب. فبينما يتظاهرون برفض العنف، إلا أنَّ كتابَ النصارى المقدَّس يذكر أنَّ الربّ أمر بني إسرائيل بإبادات جماعية، كما أنَّ الملاحدة أيَّدوا الحربَ المزعومة على الإرهاب التي راح ضحيتها الملايينُ من الأبرياء. وأمَّا المسلمُ فلا يُخفي أنَّ الإسلام يحثُّ على الجهاد، ولكنّه غيرُ مقصود لذاتِه، كما أنه مقيّد بأحكام شرعية صارمة.

شبهةُ مصير الجاهل تتعلّق بمصير الجاهل بالرسالة الإلهية في الآخرة، وهل يعاقبه الخالقُ رغمَ جهله؟ وقد أوردَها بعض الربوبيين - وعلى رأسهم الفيلسوف فولتير - في عصرِ التنوير، كما أوردَها بعضُ الملاحدة - وعلى رأسهم سام هاريس - في هذا العصر. وهذه الشبهةُ موجَّهة إلى اللاهوت التقليدي لدى النصارى في المقام الأوَّل حيث نصُّوا على أنَّ مصير الجاهل بألوهية المسيح المزعومة في الآخرة إلى جهنّم. وقد حاول علماءُ الغرب الردَّ على هذه الشبهة، وذكروا بعض الأوجه الجيّدة، إلا أنَّ المشكلة الأساسية تكمُن في ديانتهم الفاسدة. ولهذا لا يمكن الردُّ على هذه الشُّبهة بردود قطعية إلا في ظلِّ المعتقد الإسلامي.

هذه أبرزُ النتائج التي توصَّلت إليها في هذه الرسالة، وهي نتائج كثيرة ومتعّددة نظرًا لتطول الرسالة وتشعُّب مسائلها؛ ومعَ هذا فإنه لا يمكن استيفاءُ هذا الموضوع كلّه حقَّه. وذلك أنَّ الإلحاد أصبح ظاهرة في بعض البلدان وشبهات الملاحدة كثيرة. ومؤلَّفات علماء الغرب ومقالاتهم وأبحاثهم في الردِّ تبلغ الآلاف. ولهذا أريد في ختام هذه الرسالة أنْ أوصي بعددٍ من الوصايا:

الأمرُ الثّالث: التَّوصيات:

التَّوصيةُ الأولى: أوصي العلماءَ والدعاة وطلبة العلم بالقيام بدراسات ميدانية عن السَّاحة الفكرية المعاصرة لإدراك حجمِ تأثير شبهات الملاحدة على أبناء المسلمين، ولا سيَّما الشباب. وذلك كي تتكوَّن لديهم صورة صحيحة عن الواقع المعاصر بدون مبالغة أو تهوين، ثمَّ أنْ ينهضوا بواجب الدعوة والبيان.

التَّوصيةُ الثّانية: أوصي الأساتذةَ وطلبة العلم يكتابة رسائل وأبحاث علمية متعلّقة بالإلحاد. ومِن الموضوعات التي أوصي بالكتابة فيها:

الموضوعُ الأوَّل: إفرادُ رسائل وأبحاث خاصَّة بدراسة أقوى أدلة وجود الله كالحججِ العقلية، مثل: حجة الفطرة، والحجة الكونية، والحجة الغائية. والحجج العلمية مثل: الحجج المتعلقة بعلم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، والرياضيات. وكذلك الحجج الحسية مثل: حجة إجابة الدعاء وحجة المعجزات.

الموضوعُ الثّاني: إفرادُ رسائل وأبحاث علمية بنقد أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر مثل: المذهب المادي، والعلموية، ومذهب الشكّ، والتظاهر بالعقلانية، وتعظيم الصدفة.

الموضوعُ الثّالث: إفرادُ رسائل وأبحاث علمية خاصة بنقد الشبهات الإلحادية العقلية، والعلمية، والعاطفية. وأهمُّ هذه الشبهات: شبهة الخصائص غير المتوافقة، ونظرية الانفجار العظيم، ونظرية التطوّر، والشبهات المتعلقة بميكانيكا الكم، والشبهات المتعلّقة بعلم النفس، ومشكلة الشَّر، والشرور المترتّبة على الأديان، والشبهات المتعلّقة بإرادة الإنسان.

التَّوصيةُ الثّالثة: أوصي الباحثينَ بالاستفادة من كلام علماء الغرب المتخصّصين؛ حيث يمكن الاستفادةُ من دراسات غربية لغير المتديّنين في نقد معتقدات اليهود والنصارى وكتابهم المقدَّس. كما أنه يمكنُ الاستفادة من ردودهم على الأديان الوضعية مثل: الهندوسية، والبوذية، والكونفوشيوسية، والطاوية وغيرها من الأديان الباطلة. كما أنَّه يمكن الاستفادةُ من ردود أتباع بعض المذاهب الفكرية على بعض، كالاستفادة من ردودِ الاشتراكيين على الرأسماليين والعكس، وهكذا مع بقية المذاهب الفكرية الهدّامة. وذلكَ لأنّهم درسوا هذه الأديانَ والمذاهب بدراسات علمية عميقة، ويمكن الاستفادةُ مِن الطريقة المسلوكة في هذه الرسالة، ولكن لا بدَّ أن يكون عرض كلامهم مصحوبًا بنقدٍ علمي إسلامي.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

الفهرس

المبحثُ السّابع: ردودُهم على شبهةِ إبريق راسل ٨١١
المبحثُ الثّامن: ردودُهم على شبهة: عدم الإيمان ٨٢١
المبحثُ التّاسع: ردودُهم على شبهةِ رهان الملحد ٨٣٤
المبحثُ العاشر: ردودُهم على شبهةِ ضعف التصميم ٨٤٤
المبحثُ الحادي عشَر: نقدُ ردودِ علماء الغرب على شبهاتِ الملاحدة العقلية ٨٥٧
الفصلُ الثّاني: ردودُهم على شبهاتِ الملاحدة العلمية ٨٥٩
المبحثُ الأوّل: ردودُهم على الشُّبهات المتعلقةِ بنظرية الانفجار العظيم ٨٦١
المبحثُ الثّاني: ردودُهم على الشبهاتِ المتعلِّقة بقوانين الطبيعة ٨٨٢
المبحثُ الثّالث: ردودُهم على الشُّبهات المتعلِّقة بنظرية التطور ٨٩٩
المبحثُ الرّابع: ردودُهم على الشُّبهات المتعلقةِ بميكانيكا الكم ٩٢٨
المبحثُ الخامس: ردودُهم على الشُّبهات المتعلقة بالكيمياء ٩٤٨
المبحثُ السّادس: ردودُهم على الشُّبهات المتعلقة بعلم النفس ٩٦٤
المبحثُ السّابع: ردودُهم على الشُّبهات المتعلقةِ بالتاريخ ٩٨١
المبحثُ الثّامن: نقدُ ردودِ علماء الغربِ على شُبهات الملاحدة العلمية ١٠٠١
الفصلُ الثّالث: ردودُهم على شُبهات الملاحدة العاطفية ١٠٠٣
تمهيد ١٠٠٥
المبحثُ الأوّل: ردودُهم على شبهة مشكلة الشَّر ١٠٠٧
المبحثُ الثّاني: ردودُهم على شُبهة مشكلةِ جهنم ١٠٥٦

المبحثُ الثّالث: ردودُهم على شبهةِ سلبِ الإرادة ١٠٧٥
المبحثُ الرّابع: ردودُهم على شبهةِ الشَّرور المترتبة على وجود الأديان ١١٠٤
المبحثُ الخامس: ردودُهم على شبهةِ مصير الجاهل ١١٢٧
المبحثُ السّادس: نقدُ ردودِهم على شُبهاتِ الملاحدة العاطفية ١١٤٦
الخاتمة ١١٤٨